

يمانيون في موكب الرسول ﷺ

عظماء الصحابة والفاتحين اليمانيين في فجر الإسلام

محمد حسين الفرح

المجلد الثالث

إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء





نبذة عن المؤلف:



محمد حسين الفرح (١٩٥٤-٢٠٠٥م) هو "محمد بن حسين بن محمد بن قائد بن سعد بن محسن بن محمد بن محمد بن محسن بن عبد الله بن حسين بن أحمد بن علي الفرح".

محمد حسين الفرح من آل الفرح بقرية الأجلب منطقة عمار بمحافظة إب. أنهى دراسته الثانوية بصنعاء عام ١٩٧٦م وتخرج من جامعة صنعاء كلية الشريعة والقانون بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف في مايو ١٩٨١م. تولى منصب مدير عام التعاونيات والجمعيات بوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل من عام ١٩٧٧- ١٩٨٦م، ثم مدير عام الوحدات الإدارية والعمل الشعبي برئاسة الوزراء إلى عام ١٩٩٣م ورئاسة الفريق الفني باللجنة العليا للانتخابات عام ٩٢-٩٣م وعام ١٩٩٧م. ثم عين (مستشاراً للجنة العليا للانتخابات بدرجة وزير) بموجب القرار الجمهوري رقم ٢٨٣ في ١٩٩٩/٨/٨م.
حصل على وسام التعاون من رئيس الجمهورية العربية اليمنية في ١٩٧٩/١/٢٥م وحصل على وسام المؤرخ العربي من (اتحاد المؤرخين العرب) في ٢٣/فبراير/١٩٨٧م. قام بنشر الكثير من المقالات والدراسات الأدبية والتاريخية في الصحف والمجلات اليمنية والعربية منذ عام ١٩٨١م.

يمانيون

في موكب الرسول ﷺ

عظماء الصحابة والفاتحين
اليمانيين في فجر الإسلام

محمد حسين الفرج

المجلّد الثالث



إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

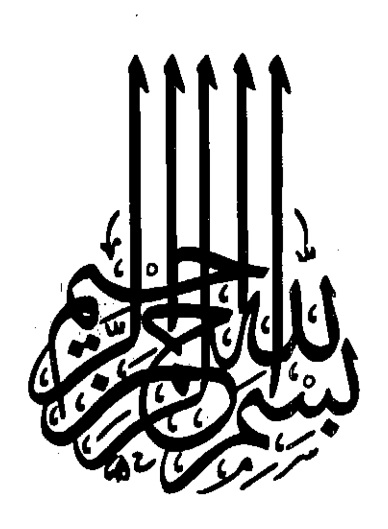
١٤٢٥هـ - 2004 م

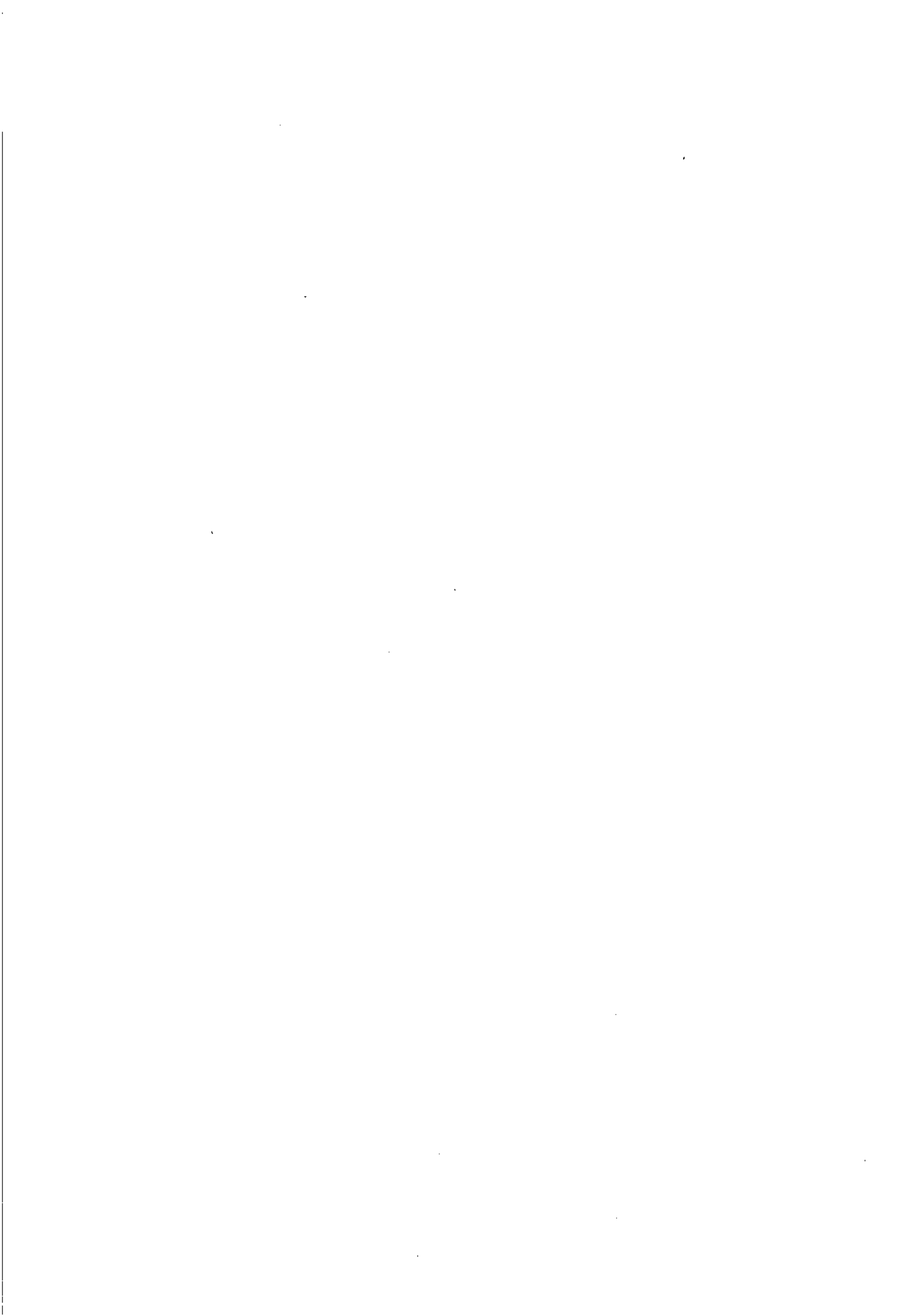
رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء
(٢٠٠١/١٩١)

الناشر
الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة والسياحة
صنعاء - ص.ب. (36)-(237)
هاتف: 235114 - فاكس: 235113
بريد الكتروني: moc@y-net.ye

من بهاء صنعاءَ.. وتجليات عبقها.. في عام تتويجها عاصمةً للثقافة العربية.. يأتي هذا الاحتفاءُ بمجد الكلمة.. وجلال أنوارها.
في بدء الوعي الإنساني كانت الكلمة..
وعلى رأس فعاليات هذا العام الاستثنائي تأتي هذه الإصدارات..
حدثاً يتوج صنعاء فضاءً شاسعاً للثقافة والتاريخ والجمال والخصوصية.

خالد عبد الله الرويشان
وزير الثقافة والسياحة





٦٣

عَرْفَجَةْ بن هَرْثَمةْ البارقي

ـ مؤسس وأمير المَوْصِلْ ـ

من أعلام الفاتحين اليمانيين هو الصحابي عرفجة بن هرثمة البارقي أمير الموصل ومؤسس عصرها العربي الإسلامي. كان من العمال القادة في المهرة باليمن وعُمان في خلافة أبي بكر الصديق. ولما استعمله عمر بن الخطاب أميراً على فرقة من فرسان سراة اليمن «قالوا: أعْفِنا من عرفجة. فقال عمر: لا أعفيكم من أقدمكم هجرة وإسلاماً، وأعظمكم بلاءً وإحساناً»[١].

قال الحافظ ابن حجر في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«عرفجة بن هرثمة بن عبد العزى بن زهير البارقي: أحد الأمراء في الفتوح.. وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة. وأوصى عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان فقال له: وقد أمرتُ العلاء بن الحضرمي أن يمُدّك بعرفجة بن هرثمة فإنه ذو مجاهدة ونكاية بالعدو.. وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص: أن سرح على الخيل عرفجة بن هرثمة في فتح الموصل وتكريت»[٢].

وقال البلاذري في فتوح البلدان: «ثم عزل عمر بن الخطاب عتبة عن الموصل وولاها عرفجة بن هرثمة وكان بها الحصن وبِيعُ النصارى ومنازل لهم قليلة.. فَمَصَّرَها عرفجة فأنزل العرب منازلهم واختط لهم ثم بَنَىٰ المسجد الجامع.. قال العباس بن هشام: أول من اختط الموصل وأسكنها العرب ومَصَّرَهَا عَرْفَجَةْ بن هرثمة البارقي»[٣].

* * *

بارق.. قبيلة عرفجة.. ومنطقتها باليمن

ونستهل هذا المبحث بذكر قبيلة بارق التي منها عرفجة ومنطقتها باليمن. فقبيلة بارق هم بنو سعد بارق بن عَدِي بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ ابن جرير الطبري ـ ص٧٢ جـ٤.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ ص٤٧٤ جـ٢.

(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٢٨.

وهو الملك عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البهلول بن ثعلبة ابن مازن بن الأزد بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[١].

قال المؤرخ العلّامة نشوان بن سعيد الحِمْيَري في شمس العلوم:

«بارق: قبيلة من اليمن، من الأزد، وهم ولد بارق، واسمه: سعد بن عَدِي بن حارثة بن عمرو مَزيقياء بن عامر ماء السماء»[٢].

وقال أبو عبيدة معمر البصري في كتاب النقائض: «بارِق: حَيٌّ من الأَزْد. وبارق هو سعد بن عَدِيّ بن حارثة بن عمرو مُزَيْقِياء بن عامرِ ماءِ السَّماء»[٣].

وغني عن البيان أن المنطقة الأولى للأزد باليمن هي أرض مأرب، فلما وقع سيل العرم هاجرت وانتقلت الأزد من مأرب، ولكن ليس كل الأزد هاجروا إلى خارج اليمن، وإنما هاجرت فرقة منهم إلى عُمان والبحرين وهم أزد عمان، وهاجرت فرقة منهم إلى الحجاز وهُم خزاعة في مكة والأوس والخزرج في يثرب، وأجازت غسان إلى الشام. بينما بقت في اليمن فرقة من الأزد انتقلوا من مأرب إلى منطقة السَّراة في أعالي اليمن ما بين صعدة وبيشة ويمين الطائف، فسكنوا السَّراة، وهم أزد السَّراة. وكانت السَّراة منطقة شاسعة تسكنها قبائل يمانية قحطانية أهمها قبيلتا بَجِيلة وخَثْعم. قال ابن خلدون: «خَثْعم وبَجِيلة: ابنا أنمار بن إراش بن الغوث بن نَبْت بن زيد بن كهلان بن سبأ»[٤]. وهذا النسب فيه اختصار، قال ابن هشام: «بَجِيلة: بنو أنمار بن إراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. . ودار بَجِيلة وخثعم: يمانية»[٥]. يعني في اليمن وهي منطقة السراة بأعالي اليمن فسكنت معهم عدة بطون وعشائر من الأزد الذين انتقلوا من مأرب وهُم (أزد السَّراة) ومنهم: أزد بن سلامان، وألمع، وبارق، ودوس، وغامد، وحُجر بن هنوء. وقد ذكر لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني قصيدة قديمة طويلة للشاعر جُماعة البارقي ذكر فيها المناطق التي هاجرت وانتقلت إليها قبائل الأزد، أولُها:

حَلّتَ الأزدُ بعد مأرِبها الغَوْرَ ... وأرضَ الحجاز، والسَّرواتِ
ومَضَتْ منهمُ كتائبُ صِدقٍ ... مُنْجِداتٍ تخوضُ عَرضَ الفَلَاةِ

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص١٢٣.
(٢) شمس العلوم ـ نشوان الحميري ـ ص١٤٨ جـ١.
(٣) النقائض ـ أبو عبيدة البصري ـ ص٦٥٩.
(٤) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٨.
(٥) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص١٢ جـ١.

.. وأقرّت قرارها بِعُمانٍ، فعمانُ محلّ تلك الحُماةِ

وقال عن الذين سكنوا السروات وهي منطقة السَّراة بأعالي اليمن:

مَلَكوا الطَّودَ من سَرُوم إلى الطا ئِفِ بالبأس منهُم والثَّبَاتِ

قال لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني: «الطود: ما قطع اليمن من جبل السراة الذي بين نَجدها وتهامتها» ـ يعني بين المناطق الجبلية والمناطق التهامية الساحلية في أعالي اليمن بمنطقة عسير حالياً ـ وقال الحسن بن أحمد الهمداني إن: «يماني الطائف وادٍ يُقال له جَفْن لثقيف، وهو بين الطائف ومعدن البرام.. ثم يتلو معدن البرام ومُطار صاعداً إلى اليمن أرض السَّرَاة.. سراة بني علي وفهم، ثم سراة بَجِيلة، والأزد بن سلامان بن مفرج، وألمع، وبارق، ودوس، وغامد، والحِجْر، إلى جُرش.. ومدينة السراة اسمها الجهوة وهي أكبر من جُرَش.. وبلد خثعم: أعراض بيشة، وترج، وتبالة، والمراغة.. وحَلَبا قرية لبني مالك بن شهر، وشرقيها ما جاور بيشة من بلد خَثْعم، وغَوْرِيّها: بلد بارق»[١].

ويتبين من ذلك أن منطقة قبيلة بارق هي من غور وادي بيشة وما جاورها من بلد بجيلة وخثعم في سَرَاة اليمن ـ بمنطقة عسير ـ والتي قال عنها ابن هشام في السيرة النبوية «..دار بَجِيلة وخثعم: يمانية»[٢].

من أنباء بارق.. وعَرْفَجَة.. في الجاهلية

وكان من مشاهير ورؤساء بارق في الجاهلية الشاعر مُعَقِّر بن أوس البارقي، القائل:

لها ناهِضٌ في الوكرِ قد مَهَدَتْ لَهُ كما مَهَدَتْ لِلْبَعْلِ حَسْناءُ عاقِرُ

قال أبو عبيدة: «بهذا البيت سُمّي مُعَقِراً، واسمه سُفين بن أوس البارقي. وإنّما خَصّ العاقِرَ لأنها أَقَلُ دالَّةً على الزوج من الولود فهي تصنعُ له وتُداريه»[٣].

وقصيدة مُعقر بن أوس البارقي هذه قصيدة جاهلية مشهورة أولُها:

أمِنْ آل شَعْثاءَ الحُمولُ البواكِرُ مع اللَّيْلِ أم زالَتْ قُبَيْلُ الأَبَاعِرُ

وحَلَّتْ سُلَيْمَى في هِضابٍ وأيْكَةٍ فلَيْسَ عَلَيْها يَوْمَ ذلِكَ قادِرُ

ومما يتمثل ويستشهد به الناس من هذه القصيدة قول مُعَقِّر البارقي:

وأَلْقَتْ عَصَاها واسْتَقَرَّ بها النَّوَى كما قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المُسافِرُ

---

(١) صفة جزيرة العرب ـ الحسن الهمداني ـ ٢٦٠.

(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص١٢ جـ١.

(٣) النقائض ـ أبو عبيدة البصري ـ ص٦٥٩.

وقد قال مُعقر تلك القصيدة في أعقاب حرب قبلية جاهلية يُقال لها يوم شِعب جَبَلَة. قال أبو عبيدة: «كان يوم شِعب جَبَلَة قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة. قبل مولد النبي ﷺ بسَبْعَ عشرة سَنَة، ووُلِد النبي ﷺ عام الفيل، ثم أوحيَ إليه بعد أربعين سنة»[١].

وكان عَرْفَجَة بن هَرْثَمة البارقي من خيار وجهاء وفرسان بارق وأزد السرّاة في الجاهلية، فوقعت بين قبائل أزد السراة حرب وثارات قبلية، ـ وهي بارق، ودوس، وغامد والحِجْر ـ فحاول عرفجة أن يُصلح بينهم، فلم يتم ذلك، فاعتزلهم عرفجة، ولحق بقبيلة بَجِيلة فسكن عندهم وأصبح كواحد منهم، بل إن ثلاث عشائر من قبيلة بجيلة ولّتهُ رئيساً عليها وهُم بنو عُرَينة، وبنو سُحمة، وبنو قيس كُبّة، فاشتهر عرفجة كواحد من رؤساء بَجِيلة حتى ظهور الإسلام ثم حتى أوائل خلافة عمر بن الخطاب ـ سنة ١٣هـ ـ حيث كان عمر يظن أنه من بَجِيلة، فقال له عرفجة:

«يا أمير المؤمنين، لستُ منهم، أنا امرؤ من الأزد ثم مِنْ بارق في كهفٍ لا يُحصى عدده وحسبٍ غير مؤتشب، وكان من شأني: أن الشرّ تفاقم فينا، فأصبنا الدماءَ ووترَ بعضُنا بعضاً في الجاهلية، فاعتزلتُهم، فلحقنا بِبَجِيلة، فبلغتُ فيهم من السؤدد ما بلغك، فكنتُ في هؤلاء أسودُهُم وأقودُهُم»[٢].

فآنذاك، في الجاهلية، اعتزل عرفجة بني بارق وأزد السّرَاة، وسار مع كوكبة من فرسان بارق إلى ديار قبيلة بَجِيلة المجاورة لهم، وفي ذلك قال: (فلحقنا ببجيلة) وقال: (ودارُنا واحدة) فأصبح كواحد منهم، فبلغ فيهم من السؤدد ما بلغ، إذْ أضحى رئيساً لبني عُرينة وبني سُحمة وبني قيس كُبّة. وإياهم يعني بقوله: (فكنت في هؤلاء أسودُهم وأقودُهم) وتلك العشائر الثلاث من بني أحمس. قال ابن خلدون: «مِنْ بطون بجيلة: قسر، وهو مالك بن عبقر بن أنمار. وأحمس بن الغوث بن أنمار». وكان من بجيلة الكاهن المشهور شِقّ بن صعب الذي بشّر بالنبي محمد ﷺ، وهو «شِق بن صعب بن يشكر بن رُهمْ بن أَفْرَكْ بن زيد بن قسر البَجلي»، وهو الذي قال لملك اليمن ربيعة بن نَصْر: «سيجيءُ رسولٌ مُرسَلٌ، يأتي بالحق والعدل، يسودُ دينه إلى يوم الفصل. فقال الملك: وما يوم الفصل؟ قال شِقّ: يومُ تُجْزَىٰ فيه الوُلاة ويُدعَىٰ فيه من السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجمع فيه بين الناس لميقات يكون فيه لِمَنْ اتقىٰ الفوز والخيرات. فقال الملك: أحقٌ ما تقول؟ قال شِق: إي وَرَبِّ السماء والأرض وما بينهما من رَفْعٍ وخَفْض، إنّ ما أنبأتُك به لحقٌ، ما فيه

(١) النقائض ـ أبو عبيدة البصري ـ ص٦٥٩.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٧٢ جـ٤.

أمْضْ». قال ابن هشام: (أَمْضْ يعني شك. وهذا بلهجة حِمْيَر»[١].

وكان الرؤساء والعارفون من قبيلة بَجِيلة يحفظون ويتناقلون تلك البشرى بالرسول النبيّ الذي سيأتي بالحق والعدل، ولا بد أن عرفجة سمعها منهم لما سكن في ديار بجيلة وأصبح من رؤساء بَجِيلة، واقتدى بهم في عبادة ذي الخَلَصَة، وهو صَنَمٌ كانت بَجِيلة وخثعم تُقَدِسُه وتعبُده في الجاهلية، وكان لذي الخَلَصَة بيت عبادة في تَبَالة بوادي بيشة يُقال له الكعبة اليمانية. وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير: كان ذو الخَلَصَة بيتاً باليمن لخثعم وبَجِيلة فيه نصبٌ يُعبد، يُقال له الكعبة اليمانية»[٢].

وكان يرأس بطون قبيلة بجيلة ـ لما سكن عرفجة عندهم ـ الزعيم القَيْل جرير بن عبد اللّه بن جابر البَجَلي، قال الحافظ ابن عبد البر: «قال ابن إسحاق: كان جرير بن عبد اللّه البجلي سيدَ قبيلته، يعني بَجِيلَةْ»[٣]، وكذلك كان يرأس بعض عشائر بَجِيلة: أسد بن كُرْز القسري البَجَلي، وكان لأبيه كُرْز بن عامر القسري سؤددٌ وشرفٌ في الجاهلية، قال قيس بن الخطيم:

فإن تنزلْ بذي النجداتِ كُرْزٍ   تُلاق لديه شَرْباً غير نَزرِ
ويمنعُ من أراد ولا يعايا   مقاماً في المحلة وسط قَسْرِ

وكذلك كان ابنه أسد بن كُرز، قال الأصفهاني: «وكان أسد بن كرز ممن حرم الخمر في الجاهلية تنزهاً عنها»[٤] وكان جرير بن عبد اللّه البجلي يقول: «ليت لي بكل بلد ابن عم مثل أسد»[٤]، ولما نزل عرفجة بن هرثمة في ديار بجيلة كان محل ترحيب وتكريم جرير وأسد، وما لبث أن أصبح في قبيلة بجيلة ثلاثة رؤساء: جرير، وأسد، وعرفجة، حيث كان عرفجة يسودُ ويقودُ بني عُرينة وبني سُحْمة، وبني قيس كُبّة، البجليين، وكذلك الذين معه من بارق.

ويبدو أن عرفجة كان ذا معرفة بمنطقتي المهرة وعُمان في الجاهلية، فكان يسير إليهما، ربما في نشاط تجاري ولحماية قوافل تجارية، وكانت المهرة مخلافاً كبيراً من اليمن يشمل الشِّحر وساحل حضرموت ومحافظة المهرة ومحافظة ظفار حالياً، قال ابن خلدون: «بلاد الشِّحر هي بلاد مهرة.. وتُسمى بلاد الشِّحر أيضاً بلاد مهرة.. والذي يُسمى الشحر قصبته.. ومن بلاد الشِّحر مدينة ظفار.. وسُميت بلاد مهرة باسم مهرة بن حيدان بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حِمْيَر». قال: «وبلد

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص١٢ جـ١.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٣٧٥ جـ٤.
(٣) الاستيعاب ـ ابن عبد البر القرطبي ـ ص٢٣٣ جـ١.
(٤) الأغاني ـ أبو فرج الأصفهاني ـ ص٥٣ جـ١٩.

مهرة ملاصقة لحضرموت وقد يكونان لملك واحد»[١]، وقد كان ملك حضرموت والمهرة في الجاهلية قيس بن معدي كرب الكندي ثم الأشعث بن قيس الكندي، مع وجود رئيسين محليين للمهرة هما (ذَهبنّ بن قرضم. ومهري بن أبيض)، قال ابن سعد: «ذهبن بن قرضم من الشِّحْر، والشِّحْر من مهرة»، وكان الرئيس الثاني مهري بن أبيض المهري.

وكذلك كان عرفجة يعرف عمان وملوكها، وكان أهل عُمان وملوكها من الأزد اليمنيين، فقد كان ملوك عُمان من بني الجُلَنْدي بن معولة بن شمس بن عمرو بن غالب بن عثمان بن نصر بن زهران بن كعب الأزدي، قال ابن خلدون: «كان منهم قُبيل الإسلام: المستكبر بن مسعود بن الجرار بن عبد اللّه بن معولة. والذي أدرك الإسلام منهم جيفر بن الجُلَنْدى بن كركر بن المستكبر، وأخوهُ عبيد ـ بن الجُنلدي ـ ملكا عُمان».

وكان الجُلندى بن كركر بن المستكبر الأزدي ملك عُمان يُضاهي في الرئاسة قيس بن معدي كرب الكندي ملك حضرموت والمهرة في الجاهلية، وفيهما قال أعشى قيس الشاعر الجاهلي:

وجُلَنْداء في عُمان مقيماً ... ثم قيساً في حضرموت المنيفِ

وقد عرف عرفجة بن هرثمة الجُلَنْدي ثم ابنيه جيفر وعُبيد ملكيّ عُمان اللذين أدركا الإسلام كما عرف زعماء حضرموت والمهرة: الأشعث بن قيس، وذهبن بن قرضم، ومهري بن أبيض، وربما التقى بهم أيضاً في موكب الرسول.

* * *

عَرْفَجَة.. وبارق.. في موكب الرسول

لم تذكر كتب التراجم أي خبر عن وفادة عرفجة إلى رسول اللّه ﷺ وفترة مكوثه في موكب الرسول بالمدينة المنورة وصحبته لرسول اللّه عليه الصلاة والسلام، ويعود ذلك إما إلى أنه ليس من رواة الأحاديث النبوية، وإما إلى وفادته مع رؤساء ورجالات بَجِيلة، وقد استقصينا من دلائل وأنباء عرفجة وبارق في موكب الرسول ما يلي:

أولاً: لقد ذكر الحافظ ابن حجر أن عرفجة بن هرثمة من الصحابة، واستدل على ذلك بأنه كان من الأمراء في خلافة أبي بكر وخلافة عمر بن الخطاب. فقال ابن حجر في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «عرفجة بن هرثمة البارقي: أحد الأمراء في الفتوح.. وقد تقدم أنهم كانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة»[٢].

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٧٢.
(٢) الإصابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ ص٤٧٤ جـ٢.

ثانياً: أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد ذكر أن عرفجة له هجرة، وأنه كان أقدم بَجِيلة هجرة وإسلاماً، فعندما أمَّر عمرُ بن الخطاب عرفجة بن هرثمة على فرسان بني عُرَينة وبني سُحمة وبني قيس كبّة، البجليين في أوائل فتوح العراق سنة ١٣هـ (قالوا: أعْفِنَا من عرفجة. فقال عمر: لا أعفيكم من أقدمكم هجرة وإسلاماً، وأعظمكم بلاءً وإحساناً»[١].

وغنيّ عن البيان أنه لا يقال لأيّ من الصحابة (له هجرة) إلا إذا كان قد وَفَدَ وصحب رسول الله ﷺ قبل فتح مكة لأنه (لا هجرة بعد الفتح) وقد ثَبَت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: «إن جرير بن عبد الله البجلي من أهل الهجرة»[٢] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبجيلة إن عرجة «أقدمكم هجرة وإسلاماً» فذلك يدل على وفادة وهجرة عرفجة إلى رسول الله ﷺ ما بين السنة السابعة والسنة الثامنة للهجرة ـ أي قبل فتح مكة ـ وذلك عند وفادة جرير، وقد كانت وفادته في السنة السابعة، وكان رسول الله ﷺ يخطب في جمع من الصحابة فسكت هنيهة ثم قال: «يطلع عليكم من هذا الفَجّ خير ذي يَمْن، على وجهه مَسْحة مُلْك. فنظروا، فإذا جرير بن عبد الله قد طَلَع من الثنية»[٢]. فيكون قدوم عرفجة وإسلامه آنذاك مع جرير أو بعده بأمد يسير في رجب أو شعبان سنة ٧هـ، وما لبث أن قَدِم مائة وخمسون فارساً من بني أحمس من بَجِيلة فأخذوا أماكنهم ـ مع جرير وعرفجة ـ في موكب الرسول، وذلك قبل فتح مكة.

ثالثاً: أن جرير بن عبد الله ـ وكذلك عرفجة ـ مكث في موكب الرسول بالمدينة ونال شرف صحبته ـ ما بين السنة السابعة والثامنة ـ إلى أن تم فتح مكة وهَدَّم رسول الله ﷺ الأصنام التي كانت في الكعبة، وذلك في رمضان سنة ٨هـ، ثم بعث رسول الله ﷺ جريراً إلى ذي الخَلَصة صنم وبيت بجيلة وخثعم ليهدمه فسار جرير والذين معه من بجيلة وكانوا مائة وخمسين فارساً، وذلك بعد فتح مكة وهدم الأصنام التي بالكعبة. قال الحافظ ابن كثير: «وقد ذكر البخاري بعد فتح مكة نبأ تخريب بيت الصنم الذي كانت تعبده خثعم وبَجِيلة. . قال البخاري: كان ذو الخَلَصَة بيتاً باليمن لخثعم وبَجِيلة فيه نصبٌ يُعبد، يُقال له الكعبة اليمانية. فقال البخاري. . عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال لي رسول الله ﷺ: ألا تُريحني من ذي الخَلَصَة، فقلتُ: بَلَىٰ يا رسول الله، فانطلقتُ في مائة وخمسين فارساً من أحمس. .»[٣] وكذلك جاء في طبقات ابن سمرة « . . قال جرير: قال لي رسول الله ﷺ: هل أنت مُريحي من ذي

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٧٢ جـ٤.

(٢) الإصابة ـ ابن حجر ـ ص٢٣٢ جـ١ ـ والإمام علي ـ لمحمد رضا ـ ص١٥١.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٣٧٥ جـ٤.

الخَلَصة؟ فنفرتُ إليه في خمسين ومائة فارس من أحمس، فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده..»[١]، قال ابن كثير: «وقال البخاري: لما قَدِم جريرُ اليَمَن كان ببيت ذي الخَلَصَة رجُلٌ يستقسم بالأزلام.. فبينما هو يضربُ بالأزلام إذْ وَقَفَ عليه جرير فقال: لِتَكْسِرَنّها وتشهد أن لا إله إلا اللّه أو لأضرِبَنّ عُنقك» فكسرها وشَهِد. ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يُكنّى أبا أرطأة إلى النبي ﷺ يُبشره بذلك». ويُستفاد من ذلك أن جرير والذين معه من بَجيلة ـ ومنهم عرفجة ـ مكثوا فترة في منطقة بيت ذي الخَلَصة ببلاد بجيلة وخثعم في أرض السراة بأعالي اليمن. وجاء في هامش الإكليل أنه « ..لم تطل غيبة جرير حتى رجع إلى النبي ﷺ فقال له: هدمته؟ قال: نعم والذي بعثك بالحق وأحرقتُه بالنار فتركتُه يسوء أهله. فدعا النبي ﷺ لِبَجيلة»[٢] وقال البخاري بعد حديثه سالف الذكر بأنه (بعث جرير رجلاً من أحمس.. إلخ). قال البخاري: «فلما أتى جريرٌ رسولَ اللّه ﷺ قال: يا رسول اللّه والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتُه كأنّه جمل أجرب. فبارك رسول اللّه ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات»، وكانت عودة جرير إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة في سنة ٩هـ، ومما يؤكد ذلك، ما جاء في عيون الأثر أنه «توفي النجاشي سنة تسع بالحبشة. وأخبر رسول اللّه ﷺ بموته يومه»[٣] وقد ذكر الحافظ ابن حجر الحديث الذي أخرجه الطبراني بسند صحيح عن جرير قال: «قال لنا رسول اللّه ﷺ إنّ أخاكم النجاشي قد مات. الحديث»[٤]. ويدل ذلك على أن جريراً كان في موكب الرسول بالمدينة ما بين رجب وذي القعدة سنة ٩هـ، وقد عاد عرفجة أيضاً إلى المدينة آنذاك أو في رمضان سنة ١٠هـ.

رابعاً: ساهم عرفجة في نشر الإسلام بين عشائر وبطون بَجِيلة التي كان يرأسها، وكذلك في قبيلته بارق لأن علاقته بها لم تنقطع. وكان جرير قد عاد أيضاً إلى منطقة السّراة، وساهم في نشر الإسلام بين بقية بطون بجيلة وبقية قبائل السّراة، وفي رمضان سنة ١٠هـ كان الإسلام قد شمل كل قبيلة بجيلة وقبائل بارق وأزد السراة وخثعم. قال الحافظ ابن حجر: «جَزَم الواقدي بأن جرير بن عبد اللّه وفَدَ على النبي ﷺ في رمضان سنة عشر للهجرة» ولكن ذلك ليس زمن وفادته الأولى وإنما هي وفادته الثالثة بعد أن شمل الإسلام كل قبائل السراة، فقال جرير: (يا رسول اللّه، أظهر اللّه الإسلام، وهدمت القبائل الأصنام). وجاء في كتاب الأنباء أنه «وَفَد مع جرير مائة وخمسون رجلاً من بَجِيلة». وكذلك وَفَدَ آنذاك «أسد بن كُرز القسري.

(١) طبقات فقهاء اليمن ـ ابن سمرة ـ ص١٩.
(٢) الإكليل ـ الهمداني ـ تحقيق الأكوع ـ ص١٥٦ جـ٢.
(٣) عيون الاثر ـ ابن سيد الناس ـ ص٣٣٦ جـ٢.
(٤) الإصابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ ص٢٣٢ جـ١.

وَوَفَد قيس بن عزرة البجلي في مائتين وخمسين من بني أحمس من بَجِيلة»، ويبدو أن بعضهم كانوا بقيادة عرفجة بن هرثمة لأنه رئيسهم. وَوَفَد أيضاً جماعة من قبيلة بارق، وعروة بن الجعد البارقي، فأخذوا أماكنهم في موكب الرسول وتشرفوا بصحبته، ومكثوا بالمدينة ما بين رمضان وذي القعدة سنة عشر للهجرة، وقد كتب رسول اللّه ﷺ كتاباً لقبيلة بارق عند قدوم وفدهم، وفيما يلي نص الكتاب النبوي لبارق عن طبقات ابن سعد والوثائق السياسية للعهد النبوي:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول اللّه لبارق: أن لا تُجَذّ ثِمارهُم، وأن لا تُرعى بلادهم في مَرْبَع ولا مَصْيَفٍ إلا بمسألةٍ من بارق. ومَنْ مَرّ بهم من المسلمين في عَرَك أو جَذْب فله ضيافة ثلاثة أيام، فإذا أينعت ثمارهم فلابن السبيل اللُّقاطُ يُوسِعُ بطنه من غير أن يقتثم.

شهد أبو عبيدة بن الجراح، وحذيفة بن اليمان. وكَتَبَ أُبَيٌّ (بن كعب الأنصاري)»[١].

وكان من أبرز شخصيات بارق الذين وَفَدوا وصحبوا رسول اللّه ﷺ عُرْوَة بن الجعد البارقي. قال الحافظ ابن حجر في ترجمته: « . .له أحاديث، وهو الذي أرسله النبي ﷺ ليشتري شاة بدينار فاشترى به شاتين، والحديث مشهور في البخاري وغيره، وكان فيمن حضر فتوح الشام ونزلها ثم سَيّره عثمان إلى الكوفة. قال شبيب بن غرقدة: رأيتُ في دار عُروة بن الجعد ستين فرساً مربوطة»[٢].

خامساً: تواصلت علاقة عَرْفَجَة بن هَرْثَمَة بمنطقة ورؤساء مخلاف المهرة وبلاد عمان، فإما أن عرفجة كان بالمدينة المنورة عند قدوم وفودهم في السنتين التاسعة والعاشرة للهجرة، وإما أن يكون سار إلى المهرة وعمان في تلك الفترة. وقد كان الزعيم الأكبر لحضرموت والمهرة الأشعث بن قيس الكندي فَوَفد في ثمانين فارساً من كندة إلى رسول اللّه ﷺ في أواسط السنة التاسعة فمكث فترة في موكب الرسول وعاد إلى حضرموت ثم وفد مرة ثانية في السنة العاشرة ومكث إلى حجة الوداع. كما وَفَدَ من المهرة:

أ ـ «ذَهبَن بن قرضم، وكتب رسول اللّه ﷺ كتاباً لذهبن بن قرضم وقومه من مهرة. قال ابن سعد في طبقات الصحابة: ذهبن بن قرضم من الشِّحر، والشِّحر من مهرة»[٣].

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد اللّه ـ ص١٢٣.

(٢) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة عروة بن الجعد البارقي ـ ص٤٧٦ جـ٢.

(٣) طبقات الصحابة ـ ابن سعد ـ ص٧٣/ ٢.

ب ـ «مهرى بن أبيض المهري. وَفَدَ إلى رسول اللّه ﷺ وكتب له الكتاب التالي نصه:
(بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول اللّه، لمهري بن أبيض، على مَن آمن مِنْ مهرة: إنّهم لا يُؤكلون، ولا يُغار عليهم، ولا يُعركون، وعليهم إقامة شرائع الإسلام، فَمَنْ بَدَّل فقد حارب اللّه، ومن آمن فله ذمة اللّه ورسوله. اللُّقطة مؤدّاة، والسارحة مُندّاة، والتفثُ السيئة، والرفث الفسوق. كَتَبَ محمد بن مَسْلَمة (الأنصاري))»[١].

وأما بلاد عُمان، فقد كان يسكنها قبائل من الأزد اليمانيين وهم أزد عُمان، وكانت المراكز العواصم هي مدينة صحار في المناطق الجبلية الداخلية ومدينة دَبَا الساحلية، وقد ذكر د. فاروق عمر عن المستشرق الباحث (ولكنسون) أنه: «كان مركز القبائل الأزدية: توأم، ولها منفذ على البحر هو ميناء دبا»[٢]. وجاء في كتاب الوثائق السياسية اليمنية أنه كانت «توأم: قصبة عمان مما يلي الساحل، بينما صحار قصبتها مما يلي الجبل»[٣] وكانت مدينة صحار هي مقر ملك عمان الجُلَنْدى الأزدي، ثم جيفر بن الجُلندى وأخيه عُبيد ملكي عمان، وكان أبو صُفرة العتكي الأزدي رئيساً في منطقة وميناء دبا. ويتلخص نبأ إسلامهم وإسلام سائر أزد عُمان في أنه:

أ ـ قال البلاذري: «لما كانت سنة ثمان، بعث رسول اللّه ﷺ أبا زيد الأنصاري أحد الخزرج وعمرو بن العاص إلى جيفر وعبيد ابني الجُلْندي بكتاب منه يدعوهما إلى الإسلام، فلما قَدِما عُمان وجدا عبيداً وجيفراً بصُحار على ساحل البحر، فأوصلا كتاب النبي ﷺ إليهما، فأسلما، ودعوا العرب هناك إلى الإسلام فأجابوا إليه ورغبوا فيه، فلم يزل عمرو بن العاص وأبو زيد الأنصاري بعمان حتى توفي النبي ﷺ»[٤].

ب ـ وأما أزد دبا ـ وهم العتيك ـ وأزد الأسياف والأجواف ـ وهُم ثُمال وحدّان ـ فقد وَفَد رؤساؤهم إلى رسول اللّه ﷺ وكان على رأس وفد أزد دبا الرئيس أبو صُفرة العتكي والد المهلب بن أبي صُفرة الأزدي، قال الحافظ ابن حجر: «أخرج السكن.. أن أبا صُفرة قَدِم على رسول اللّه ﷺ على أن يُبايعه، وعليه حلّة صفراء نسجها خلفه ذراعان وله طول وجثة وجمال وفصاحة لسان..»[٥]، وكذلك قال الحافظ ابن حجر: «وَفَدَ الأزدُ من دَبَا متزيين بالإسلام على النبي ﷺ»[٥] وجاء في

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوية ـ محمد حميد اللّه ـ ص٢٥٢.
(٢) مصادر التاريخ العُماني ـ فاروق عمر ـ ص٢٩.
(٣) الوثائق السياسية اليمنية ـ محمد علي الأكوع ـ ص١٢١.
(٤) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص.
(٥) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة أبي صُفرة والد المهلب ـ ص.

طبقات ابن سعد وفي نثر الدر المكنون وفي البداية والنهاية لابن كثير أنه «قَدِم عبد اللَّه بن عيسى الثمالي ومَسْلمة بن هاران الحدّاني على رسول اللَّه ﷺ في رهط من قومهم بعد فتح مكة، فأسلموا وبايعوا على قومهم. وكتب لهم رسول اللَّه ﷺ كتاباً بما فُرض عليهم من الصدقة في أموالهم». وكذلك جاء في كتاب الوثائق السياسية عن طبقات ابن سعد وعن معدن الجواهر أنه: «كتب النبي ﷺ كتاباً لأزد دَبَا بما فرض عليهم من الصدقات. وبعث عليهم مُصَدِّقاً منهم يُقال له حذيفة بن اليمان الأزدي.. فكان يأخذ صدقات أموالهم، ويردّ على فقرائهم، فلم يزل حذيفة عاملاً على الصدقة في دبا حتى توفي النبي ﷺ»[١].

وفي تلك الفترة بالسنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة سار عرفجة بن هرثمة إلى عُمان وإلى مخلاف المهرة بحضرموت، وكان عمرو بن العاص عاملاً على الصدقة في مناطق صحار وما إليها من عُمان ـ عند جيفر بن الجُلَنْدي ـ وحذيفة الأزدي عاملاً على الصدقة في مناطق دبا في الساحل الشرقي لعمان على الخليج العربي، ولم تذكر الروايات ما يدل على أن عرفجة كان من العمال في المهرة وعُمان، ولكن أبا بكر الصديق لما تولى الخلافة بعثه أميراً قائداً إلى المهرة وعمان، وذلك يشير إلى أنه كان هناك من قبل، وله معرفة أكيدة بالمهرة وعمان وبرؤسائها في عهد رسول اللَّه ﷺ.

سادساً: وفي ذي الحجة سنة عشر للهجرة شهد حجة الوداع مع جمع كبير من العمال والصحابة والرؤساء اليمانيين وكذلك من رجال سائر قبائل اليمن، وكان منهم رؤساء ورجالات بَجِيلة وبارق وأزد السّرَاة، وقد خصت كتب الأحاديث والتراجم بالذكر جرير بن عبد اللَّه البجلي لأنه كان ذا مكانة متميزة، حيث أولاه رسول اللَّه ﷺ شرف أن يستنصت الناس في حجة الوداع، فكان جرير يعيد على الناس ما يقوله رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع ليسمع ذلك من ليس مكانه قريب مِنْ الحُجاج، وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير: «قال رسول اللَّه ﷺ لجرير في حجة الوداع: استنصت الناس. وإنما أمره بذلك لأنه كان خطيباً». وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة جرير بن عبد اللَّه البجلي: «في الصحيحين أن النبي ﷺ قال له: استنصت الناس في حجة الوداع».

وبعد حجة الوداع انصرف الناسُ إلى مناطقهم، وعاد جرير ـ وكذلك عرفجة ورجالات بارق وبجيلة وأزد السراة ـ إلى منطقة السّرَاة باليمن. وبعد ذلك بأمد يسير

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد اللَّه ـ ص١٦٤ ـ عن طبقات الصحابة ـ ابن سعد ـ ص٧٢/ ٢ ـ ومعدن الجواهر للنعمان بن محمد ـ ص٨٠.

ـ في ربيع الأول سنة ١١هـ ـ توفي رسول اللّه عليه الصلاة والسلام وبويع أبو بكر الصديق بالخلافة.

* * *

تأمير عرفجة على عُمان والمهرة في الرِّدة وخلافة أبي بكر

لما تولى أبو بكر الصديق الخلافة واضطرب الأمر في بعض مناطق الجزيرة العربية انطلق عرفجة بن هرثمة البارقي من اليمن في كوكبة من فرسان بَجِيلة وبارق إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة. ثم كان عرفجة من الأمراء القادة الذين عقد لهم أبو بكر ألوية الإمارة والقيادة على مناطق الجزيرة العربية أيام الردة، ففي جمادى الآخرة سنة ١١هـ اختار وبعث أبو بكر إحدى عشر من الصحابة وعقد لهم ألوية الإمارة والقيادة. قال الحافظ ابن حجر في ترجمة عرفجة: « . .إن أبا بكر الصديق أَمَدَّ به جيفر بن الجُلندي ـ ملك عُمان ـ لما ارتدّ أهلها. وروى وثيمة عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد: أنّ أبا بكر أمَّرَه في حرب أهل الردة»[١].

وقال ابن الأثير ـ في خبر أهل الردة ـ بكتاب الكامل في التاريخ: «قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواء: عقد لواء لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد ومالك بن نويرة. وعَقَد لواء لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة. وعقد لواء للمهاجر بن أبي أُمية. . وَعَقَدَ لخالد بن سعيد وبعثه إلى مشارف الشام، وعَقَد لواءً لعمرو بن العاص وبعثه إلى قضاعة. وعقد لواء لحذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دَبَا، وعقد لواء لعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة، وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما على صاحبه في عمله. وبعث شُرحبيل بن حسنة الكندي في أثر عكرمة وقال له: إذا فرغت من اليمامة فالحق بقضاعة. . وعقد للعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين، ففصلت الأمراء من ذي القُصَة ولحق بكل أمير جنده، وعَهَد أبو بكر إلى كل أمير»[٢].

وبما أن أبا بكر الصديق بعث عرفجة بن هرثمة مدداً لجيفر بن الجُلندي ملك عمان هو وحذيفة بن محصن، وعَقَد لعرفجة لواء الإمارة على المهرة وعقد لحذيفة بن محصن على دَبَا عُمان، وأمرهما أن يجتمعا ويتعاونا، نذكر هنا ما يلي:

أولاً: لقد زعمت بعض الروايات أنه لما توفي رسول اللّه ﷺ ارتد أهل عُمان، بينما الصحيح أنه لما توفي رسول اللّه ﷺ وتولى أبو بكر الخلافة ـ في ربيع الأول سنة ١١هـ ـ كان عمرو بن العاص عاملاً على عُمان وكان حذيفة الأزدي عاملاً على

---

(١) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة عرفجة البارقي ـ ص٤٧٤ جـ٢.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٣٤ جـ٢ ـ وقد ذكر ابن كثير أن أبا بكر نزل ذي القصة في جمادى الآخرة.

دَبَا بعمان، فغادر عمرو بن العاص عُمان ليس لوقوع ردّة وإنما من ذات نفسه، وحاول جيفر بن الجُلَنْدي ورجالات عمان إقناعه بالبقاء وقد ثَبَتَ في ترجمته مجفية بن النعمان العتكي الأزدي بكتاب الإصابة أنه قال لعمرو بن العاص:

«يا عمرو إن كان النبيُّ محمدٌ … أتى به الأمر الذي لا يُدْفَعُ
فقلوبنا قَرْحَىٰ، وماء دموعنا … جارٍ، وأعناقُ البريّةِ خُضَّعُ
يا عمرو إن حياته كوفاته … فينا وننظر ما يقولُ ونَسْمَعُ
فأقِمْ فإنك لا تخافُ رجوعنا … يا عمرو، ذاك هو الأعزُّ الأمنعُ»[١]

ولكن عمرو بن العاص كان قد عَقَدَ العزم على أن يسير إلى أبي بكر بالمدينة المنورة لأن العديد من العمال ساروا إليه ـ ومنهم العلاء بن الحضرمي عامل البحرين ـ ولأنّ مناطق اليمامة ونجد انتشرت فيها الردة، فمسيلمة الكذّاب باليمامة، وطليحة بن خويلد وأتباعه في نجد، وكذلك مالك بن نويرة في نجد، فلما أبَىٰ عمرو بن العاص إلا المسير، سارت معه فرقة من فرسان أزد عمان لحمايته عند مروره باليمامة ونجد، ولنقل تعازي وسلام جيفر بن الجُلَنْدي ورؤساء وقبائل أزد عمان إلى الخليفة أبي بكر وتأكيد ثبات عُمان على الإسلام ومبايعة أبي بكر، ومما يتصل بذلك ما جاء في ترجمة (جيفر بن جشم الأزدي) أنه «وَفَدَ مع عمرو بن العاص من عمان إلى أبي بكر بعد موت النبي ﷺ»[٢] وجاء في ترجمة (عقبة بن النعمان العتكي) وهو من أصحاب أبي صفرة والد المهلب ـ أنه: «شَيّع عمرو بن العاص في جماعة من قومه حتى قَدِمُوا على أبي بكر، فشكر لهم أبو بكر ذلك»[٢].

وأما حذيفة الأزدي عامل مناطق دَبَا، فأقام في دَبَا إلى أن وقعت حركة لقيط بن مالك الأزدي ضد الملك جيفر بن الجُلَنْدَى وهي الحركة التي تسميها الروايات (ردة أهل عمان)، وقد جاء في طبقات الصحابة لابن سعد وفي معدن الجواهر وعنهما في كتاب الوثائق السياسية ما يلي: «بعث رسول اللّه ﷺ على أزد دَبَا مُصَدِّقاً منهم يقال له حذيفة بن اليمان الأزدي، وكتب له فرائض الصدقات، فكان يأخذ صدقات أموالهم ويَرِدُّ على فقرائهم، فلما توفي رسول اللّه ﷺ ارتدوا ومنعوا الصدقة فكتب حذيفة إلى أبي بكر بذلك»[٣]. وقد كتب حذيفة وكذلك جيفر بن

---

(١) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة مجفية العتكي ـ ص٣٦٦ جـ٣.

(٢) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة جيفر الأزدي ـ ص٢٦٤ جـ١ ـ وترجمة عقبة بن النعمان ـ ص١٠٨ جـ٣.

(٣) الوثائق السياسية ـ محمد حميد اللّه ـ ص١٦٤ ـ عن طبقات ابن سعد ـ ص٧٢/ ١ ـ ومعدن الجواهر للنعمان بن محمد ـ ص٨١.

الجُلنْدي إلى أبي بكر الصديق بخبر لقيط بن مالك الأزدي والذين تابعوه ـ وكان ذلك بعد نحو شهرين من خلافة أبي بكر ـ وقد ذكر ابن الأثير نبأ ذلك تحت عنوان (ردة أهل عمان) فقال ما يلي نصه: «وأما عُمان فإنه نَبَغ بها ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكان يُسامي في الجاهلية الجُلَنْدي، وادّعى بمثل ما ادّعى من تنبأ، وغَلَبَ على عُمان مرتداً، والتجأ جيفر وعباد ـ ابنا الجُلَنْدي ـ إلى الجبال، وبعث جيفر إلى أبي بكر يخبره ويستمده عليه. فبعث أبو بكر حذيفة بن محصن الغلفاني من حِمْيَر، وعرفجة البارقي من الأزد؛ حذيفة إلى عُمان وعرفجة إلى مهرة، وكُلٌّ منهما أمير (على صاحبه) في وجهه، فإذا قربا من عُمان يكاتبان جيفراً، فسارا إلى عمان)[١] وكذلك ذكر الطبري وكذلك ذكر أيضاً ابن خلدون، ويتبين من تلك النصوص نفسها عدم ردة أهل عمان، وأن لقيط بن مالك الأزدي كان زعيماً يُضاهي الجُلَنْدي في الجاهلية، وهو الذي قام بالحركة التي تسميها تلك الروايات (رِدّة) فتغلب على منطقة دَبَا في عُمان، فالتجأ حذيفة إلى بعض المناطق والتجأ جيفر وأخوه إلى مناطق الجبال، قال ابن الأثير: «وعَسْكَر جيفر وأخوه بصحار» ـ وهي منطقةُ ملكهما التي كانا فيها ـ بينما «جَمَع لقيط جموعه، وعسكر بَدَبَا». فكتب جيفر بن الجُلندي إلى أبي بكر الصديق بخبر لقيط بن مالك الأزدي واستَمَدّه عليه، وقد وصفت تلك الروايات حركة لقيط بن مالك بأنها (ردّة) بل (ردة أهل عمان) وقال د. فاروق عمر في كتاب مصادر التاريخ العُمَاني: «يحاول بعض المؤرخين أن يُدخلوا عُمان ضمن الأقاليم التي ارتدت ولكن مؤرخي عمان لا يتكلمون عن ردة حدثت في عُمان. ولم تكن حركة لقيط الأزدي إلا بسبب قضية شخصية تمضي وراءها طموحات شخصية وانشقاقات قبلية»[٢].

ثانياً: في مواجهة حركة ذي التاج لقيط بن مالك الأزدي واستجابة لكتاب جيفر بن الجُلندي ملك عمان الذي كان معه غالبية رؤساء وأهل عُمان، بَعَثَ أبو بكر الصديق عرفجة بن هرثمة البارقي وحذيفة بن محصن، وهو كما قال ابن الأثير وابن خلدون «حذيفة بن محصن الغلفاني من حِمْيَر» وقد اعتمد ابن الأثير وابن خلدون في ذلك على رواية الطبري، بينما جاء في مصادر التاريخ العماني أنه «حذيفة بن محصن البارقي» وقال البلاذري في فتوح البلدان: «لمّا ارتدت الأزد وعليها لقيط بن مالك ذو التاج، وانحازوا إلى دَبَا، وَجَّه إليهم أبو بكر حذيفة بن محصن البارقي من الأزد»[٣]. ومؤدى ذلك أن الأميرين حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة مِن بارق،

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٥٢ جـ٢.
(٢) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣١.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٨٨.

من الأزد، وقد يكون حذيفة هو نفسه حذيفة الأزدي عامل رسول الله ﷺ على منطقة دبا وأَزْد دَبَا، وقد سلف النص بأنه «كتب حذيفة إلى أبي بكر» فيمكن أن يكون سار بنفسه إلى أبي بكر عندما أصبحت منطقة دبا جميعها تحت سيطرة ذي التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكتب جيفر بن الجُلندي بالخبر إلى أبي بكر الصديق، فعقد أبو بكر لواء الإمارة لحذيفة بن محصن على عُمان، وعقد لواء الإمارة لعرفجة بن هرثمة البارقي على مخلاف المهرة باليمن، على أن يسير عرفجة أولاً مع حذيفة إلى عمان، وبعد استتباب الأمور في عمان يبقى حذيفة في عمان والياً عليها، ويتوجه عرفجة إلى المهرة أميراً عاملاً عليها، ولعل الأصوب أن أبا بكر بعث حذيفة وعرفجة كليهما أميرين قائدين إلى عمان في البداية، وقد سلف قول ابن الأثير إن أبا بكر بعثهما «وكل منهما أمير على وجهه، فإذا قربا من عمان يكاتبان جيفراً. فسارا إلى عمان» وقال ابن خلدون «بعث أبو بكر حذيفة بن محصن وعرفجة البارقي. . وإن اجتمعا فالأمير صاحب العمل، وأمرهما أن يكاتبا جيفراً ويأخذا برأيه»[1]. فانطلق عرفجة بفرسانه وحذيفة بفرسانه من ذي القصة بالمدينة المنورة في ذات الوقت الذي انطلق فيه بقية الأمراء الإحدى عشر الذين سلف ذكرهم إلى المناطق التي وجههم أبو بكر إليها، ـ ومنهم عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة باليمامة، وخالد بن الوليد إلى طليحة بنجد ـ وذلك في أواخر جمادى الآخرة سنة ١١هـ، فمضى حذيفة وعرفجة بفرسانهما من طريق اليمامة ومنطقة البحرين ـ وهي الخليج والإحساء ـ إلى منطقة دَبَا من عمان، وما تزال دَبَا تحمل اسم دبا حتى اليوم وهي مدينة على ساحل البحر في دولة الإمارات العربية المتحدة حالياً، فوصل عرفجة وحُذيفة إلى منطقة قريبة من دبا يقال لها رجام، وذلك في شهر رجب سنة ١١هـ. قال ابن الأثير: « . . فلما وصلوا رجاماً وهي قريب من عُمان كاتبوا جيفراً وعباداً ـ ابني الجُلَنْدي ـ وجمع لقيط بن مالك جموعه، وعسكر بدَبا. وخرج جيفر وعباد ـ ابنا الجُلَنْدي ـ وعسكرا بصُحار، وأرسلا إلى حذيفة وعكرمة وعرفجة في القدوم عليها، فقدموا عليهما»[2]. وقد أضاف ابن الأثير وابن خلدون هنا اسم عكرمة بن أبي جهل اعتماداً على رواية الطبري من طريق سيف بن عمر التميمي وتقول إنه: «أرسل أبو بكر إلى عكرمة بن أبي جهل وكان بعثه إلى اليمامة فأصيب، فأرسل إليه أن يلحق بحذيفة وعرفجة بمن معه يساعدهما على أهل عمان فلحق بهما عكرمة قبل أن يصلا إلى عمان، فلما وصلوا رجاماً، كاتبوا جيفر بن الجُلندي وأخاه. . فأرسلا إلى حذيفة وعكرمة وعرفجة في القدوم عليهما، فقدموا عليهما». بينما لم تذكر كتب مؤرخي عُمان

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٥٢ جـ٢.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٧٠ ـ ٢٧٢.

مشاركة عكرمة وإنما ذكرت حذيفة بن محصن بأنه الأمير المبعوث من أبي بكر ومعه عرفجة البارقي وهو الأصوب، لأن عكرمة بن أبي جهل كان باليمامة فلما أُصيب لحق بمكة فأقام بها إلى أن بعثه أبو بكر إلى حضرموت مع المهاجر بن أبي أُمية في أواخر سنة ١١هـ، وربما كان من فرسان الأزد مع حذيفة وعرفجة قائد اسمه عكرمة فظن سيف التميمي بأنه عكرمة بن أبي جهل فأشاع ذلك في الروايات. وأياً كان الأمر، فقد سار حذيفة وعرفجة والذين معهما من القادة والفرسان إلى جيفر بن الجلندى في صُحار، بينما عَسْكَرَ لقيط بن مالك والذين معه من رؤساء ورجال الأزد في مدينة دَبَا وما كان إليها من المناطق.

ومن مدينة صُحَار كتب جيفر بن الجُلَنْدِي وأخوه عُبيد ـ أو عباد ـ وحذيفة بن محصن وعرفجة البارقي إلى رؤساء وكبار الأزد بمناطق دَبَا المتعاطفين مع لقيط بن مالك، قال ابن الأثير: «كاتبوا رؤساء مع لقيط وبدأوا بسيد بني جُديد، فكاتبهم وكاتَبُوه حتى ارفضوا عنه» وبنو جُديد من بطون الأزد، منهم راشد بن عمرو الجُديدي الأزدي، فتخلوا عن تأييد لقيط بن مالك وانضموا إلى جيفر وحذيفة وعرفجة والذين معهم بمناطق صُحَار ـ قال ابن خلدون: «وكاتبوا رؤساء الدين، فَقَدِموا بجيوشهم» ـ وكان منهم الصحابي أبو صُفرة والد المهلب وقبيلته العتيك، ورؤساء بني ثمالة وبني حُدّان غالباً ـ وكان ذلك ما بين شهر شعبان وشهر شوال سنة ١١هـ ـ وسار جمع المؤمنين بقيادة حذيفة وعرفجة وجيفر وبقية القادة إلى دَبَا، قال ابن خلدون: «ثم صمدوا إلى لقيط وأصحابه فقاتلوهم..»،

خارطة عن كتاب (أطلس التاريخ العربي) تُبينُ:
أ ـ أرض عُمان ونطاقها الجغرافي عند ظهور الإسلام.
ب ـ مدينة صُحار مقر الملك جيفر بن الجُلندي الذي أمدّه أبو بكر الصديق بعرفجة بن هرثمة البارقي.
جـ ـ مدينة دَبَا التي حارب فيها عرفجة وحُذيفة لقيطاً الأزدي.
د ـ الجزيرة الفارسية التي فتحها عرفجة سنة ١٤ هجرية.

وقال ابن الأثير: «التقوا على دَبَا فاقتتلوا قتالاً شديداً، واستعلى لقيط، ورأى المسلمون الخلل، ورأى المشركون (يعني لقيط وأصحابه) الظفر، فبينما هُم كذلك جاءت المسلمين موادهم العظمى من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد، ومن عبد القيس، غيرهم، فقوى اللَّهُ المسلمين، فولّى المشركون الأدبار»[١]، وقال ابن خلدون: «فانهزم العدو وظفر المسلمون. . وتم فتح دَبَا، وقسموا الأنفال، وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة البارقي، وأقام حذيفة بعمان»[٢] وكذلك قال ابن الأثير: «بعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة. وأقام حذيفة بعُمان حتى يوطئ الأمور ويسكن الناس»[٢]، وقال البلاذري إن حذيفة بن محصن الأزدي «وَاقَع لقيطاً ومن معه، فقتله. .» إلى أن قال: «وولّى أبو بكر حذيفة بن محصن عمان، فمات أبو بكر وهو عليها»[٣] وقال د. فاروق عمر في مصادر التاريخ العُماني: «كان من المحتمل أن تتطور حركة لقيط الأزدي إلى ردة ضد حكومة المدينة لولا مساندة أبي بكر الصديق لآل الجُلَنْدِي وإرساله حملة بقيادة حذيفة بن محصن البارقي الذي قضى على التمرد، وأرسل قسماً من المتمردين إلى المدينة»[٤]، وكان ذلك في نحو شهر شوال سنة ١١ هجرية، وكان عرفجة بن هرثمة هو الذي سار بالأسرى من المتمردين وخمس الغنائم إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة، وكان الأسرى ـ فيما زعم سيف التميمي ـ (ثمانمائة رأس) سماهم (سَبياً) وقال الحافظ ابن حجر عن رواية الواقدي: «قَدِمَ سَبيّ أهل دَبَا. . فأنزلهم أبو بكر في دار رملة بنت الحارث وهو يريد أن يقتل المقاتلة. فقال له عمر: يا خليفة رسول اللَّه، قَوْمٌ مؤمنون إنما شحوا على أموالهم. فقال أبو بكر: انطلقوا إلى أي بلد شئتم فأنتم أحرار».

إن إنزال الأسرى في دار رملة بنت الحارث يدل على أن عددهم كان قليلاً، ربما لا يتجاوز العشرين، فعفا عنهم أبو بكر، أما غالبية الذين كانوا مع لقيط بن مالك فقد انضموا إلى عسكر المسلمين قبل مقتل لقيط، فانتهت بذلك تلك الحركة، واستتب الأمر في أرجاء عمان، وذلك عند عودة عرفجة من عُمان إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة ـ في حدود شهر شوال سنة ١١هـ ـ وعندئذ، وكما ذكر البلاذري: «ولّى أبو بكر حذيفة بن محصن على عُمان» والمقصود توليته عاملاً على الصدقة، إذْ أنه ـ وكما ذكر د. فاروق عمر: «أبقى الخليفة أبو بكر الصديق جيفراً وعبيداً حكاماً على عمان».

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٥٢ جـ٢.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٧٠ ـ ٢٧٢.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٨٨.
(٤) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣٢.

وقد عاد عرفجة من المدينة إلى عُمان ومضى منها إلى عمله الذي ولاه وبعثه أبو بكر إليه كأمير وعامل على مخلاف المهرة والشحر في ولاية اليمن، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ١١ هجرية تقريباً.

ثالثاً: إن تأمير عرفجة على المهرة قد ذكرته كافة المصادر والوثائق التاريخية، فجاء في تاريخ الطبري وفي الكامل لابن الأثير وفي تاريخ ابن خلدون: أن أبا بكر الصديق عقد لواء لعرفجة بن هرثمة البارقي وأمَّرَه على بلاد مهرة. وقد سلف قول ابن خلدون: (إن بلاد مهرة هي بلاد الشِّحْر.. والذي يُسمى الشِّحْر قصبته.. وهو ملاصق لحضرموت، وقد يكونان لملك واحد.. وببلاد الشِّحر وهي بلاد مهرة: مدينة ظفار..»، ويتبين من ذلك أن مصطلح بلاد المهرة يشمل بالتسميات الحالية محافظة ظفار ـ إلى قلهات شرقاً ـ ومحافظة المهرة، والمناطق الساحلية من حضرموت ومركزها مدينة الشحر، وكانت الشحر هي المدينة والميناء الرئيسي في مناطق حضرموت وشبوة الساحلية فكانت هي العاصمة الإدارية لذلك المخلاف الشاسع الذي قال عنه ابن خلدون أيضاً (وهو ملاصق لحضرموت، وقد يكونان لملك واحد)، والمقصود بحضرموت هو مناطق وادي حضرموت الداخلية والتي كانت تمتد إلى أعالي شبوة وتشمل منطقة شبوة، وكانت العاصمة الإدارية لحضرموت مدينة تريم.
وقد كان الأشعث بن قيس الكندي هو الملك الزعيم الشعبي لحضرموت بمدلولها الواسع القديم الذي يشمل حضرموت والمهرة وظفار، وكذلك كان لأبي بكر الصديق عامل واحد لحضرموت جميعها بذلك المدلول الواسع وهو زياد بن لبيد البياضي الأنصاري، إلى أن بعث إليها أبو بكر ثلاثة عُمال المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل وعرفجة بن هرثمة البارقي في نحو ذي القعدة وذي الحجة سنة ١١هـ لمواجهة ما تُسميه بعض الروايات (ردة حضرموت ومهرة).

إن النبأ اليقين عن ما حدث في حضرموت يتمثل في أن زياد بن لبيد عامل حضرموت قام بجمع الصدقة ـ أي الزكاة ـ السنوية في حدود شهر رجب سنة ١١هـ فوقع خلاف بينه وبين بني عمرو بن معاوية الكنديين بسبب ناقة، قال ابن خلدون: (إن زياد بن لبيد وسمها بميسم الصدقة غلطاً)، فأتى بنو عمرو بن معاوية إلى تريم وأخذوا الناقة ـ من بين نوق الصدقة ـ وأعادوها إلى صاحبهم، فغضب زياد بن لبيد وأغار على بني عمرو في قريتهم في وادي حضرموت، قال ابن خلدون: «فقاتلهم زياد بن لبيد وهزمهم، وهرب الباقون، ورجع زياد بالسبيّ والغنائم، ومَرّ بالأشعث بن قيس وبني الحرث بن معاوية ـ وكان مقر الأشعث حصن النجير شرق تريم ـ فاستعاث نساء السبيّ بالأشعث، فأغار الأشعث واستنقذهم»[1] وجاء في

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٨.

الوثائق السياسية عن الإمام الواقدي أنه: «بلغ الأشعث بن قيس ما فعله زياد بن لبيد، فالتقى القوم قريباً من مدينة تريم، فوقعت الهزيمة على زياد وانهزم حتى دخل المدينة، وأقبل الأشعث وأصحابه حتى نزل على مدينة تريم، فحاصر زياد بن لبيد ومن معه»(١) وقبل محاصرة زياد، قال ابن خلدون: «جمع الأشعث بني معاوية والسكاسك وحضرموت وغيرهم»(٢) وقد زعمت الروايات هنا عن رواية سيف التميمي أنهم (ارتدوا) بينما الذي حدث هو كما ذكر الإمام الواقدي أنهم (حاصروا زياد بن لبيد ومن معه بمدينة تريم) وذلك بعد أن أيدت الأشعث سائر حضرموت والمهرة مما يعني خروجها عن سلطة زياد بن لبيد عامل أبي بكر الصديق في فترة تلك الأحداث والتي بلغت ذروتها بمحاصرة زياد بن لبيد في مدينة تريم، في شهر شوال سنة ١١هـ تقريباً.

وهنا نأتي إلى تبيين التالي:

إن أبا بكر الصديق أمّرَ عرفجة البارقي على المهرة وبعثه إليها، فسار عن طريق عُمان ـ في حدود شهر ذي القعدة ـ وبالرغم من أن كافة المصادر ذكرت تأمير عرفجة وأن أبا بكر بعثه إلى المهرة، فقد ذكر ابن الأثير وابن خلدون وابن كثير الرواية التي ذكرها الطبري عن طريق السري وسيف بن عمر التميمي والتي زعمت أن عكرمة بن أبي جهل كان مع عرفجة وهرثمة في القضاء على الردة في عُمان، وأن أبا بكر أمره بالمسير «إلى عمان والمهرة فإذا فرغ من ذلك يتوجه إلى حضرموت» ونقل ابن الأثير عن تلك الرواية قوله: «لما فرغ عكرمة بن أبي جهل من عُمان سار إلى مهرة ومعه من استنصر بهم من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد فاقتحم بلاد مهرة، فوافق بها جَمْعَين من مهرة أحدهما مع سخريت والثاني مع المصبح، ومعظم الناس معه، وكانا مُختلفين» وكذلك نقل ابن خلدون وقال: « . . فوجد أهل مهرة على فرقتين يتنازعان الرئاسة . . ».

بينما الحقيقة أن الأمير الذي جاء من طريق عمان إلى المهرة فوجد أهلها على فرقتين يتنازعان الرئاسة إنما هو عرفجة بن هرثمة البارقي، ولم تكن معه القبائل التميمية النجدية التي وردت في رواية سيف التميمي وإنما كان معه فرسان يمانيون من الأزد وبجيلة. أما عكرمة بن أبي جهل فقد بعثه أبو بكر في ذات الوقت إلى حضرموت ولكن ليس عن طريق البحرين، فقد كان عكرمة بن أبي جهل في مكة منذ أن بعثه أبو بكر الصديق إلى مسيلمة الكذاب فأصيب عكرمة وعاد إلى مكة فأقام بها

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوية والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٣٥٣ ـ ٣٥٥.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٨.

إلى أن حاصر الأشعث بن قيس وفرسان كندة زياد بن لبيد في مدينة تريم. فقد جاء في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ما يلي نصه: « . . أقبل الأشعث بن قيس وأصحابه حتى نزل على مدينة تريم فحاصر زياد بن لبيد ومن معه حصاراً شديداً، وكتب زياد بن لبيد إلى المهاجر بن أبي أُمية يستنجده على الأشعث (وكان المهاجر بصنعاء) وكتب زياد إلى أبي بكر الصديق كتاباً، فلما ورد كتاب زياد إلى أبي بكر بخبر كندة. . كتب أبو بكر إلى عكرمة بن أبي جهل، أما بعد: فقد بلغك ما كان من أمر الأشعث بن قيس وقبائل كندة، وقد أتاني كتاب زياد بن لبيد يذكر أنّ قبائل كندة قد اجتمعوا عليه وعلى أصحابه وقد حصروهم في مدينة تريم بحضرموت، فإذا قرأت كتابي هذا فسر إلى زياد في جميع أصحابك ومن أجابك من أهل مكة. ولا تمرّن بحيّ من أحياء العرب إلا استنهضتهم معك إلى الأشعث بن قيس وأصحابه، والسلام. فسار عِكرمة، حتى صار إلى صنعاء، فاستنهض أهلها، فأجابوه إلى ذلك، فسار إلى مأرب فنزلها»[١]، وقد كان بصنعاء المهاجر بن أبي أمية، قال ابن خلدون: «فأتى المهاجر بن أبي أمية كتاب أبي بكر بأن يسير إلى كندة مع عكرمة بن أبي جهل، ثم سار عكرمة مع المهاجر، وكتب زياد بن لبيد إلى المهاجر يستحثه، فلقيه الكتاب بالمفازة بين مأرب وحضرموت. . »[٢].

إن تلك الحقائق والوثائق تتيح إدراك النبأ اليقين بأن الأمير الذي جاء من طريق عُمان إلى بلاد مهرة هو الأمير الذي بعثه وأمّرَه أبو بكر الصديق على المهرة وهو عرفجة البارقي، فبينما كان عكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن أبي أمية في مفازة مأرب ـ غرب حضرموت ـ كان عرفجة البارقي يدخل مناطق ظفار والمهرة ـ شرق حضرموت ـ فهو الأمير الذي «وَجَدَ أهل مهرة فرقتين يتنازعان الرياسة، فأجابه أحد الفريقين. . » ومن الملفت للانتباه أن ابن خلدون تجاهل الاسمين اللذين ذكرهما الطبري عن رواية سيف التميمي، وقد نقل ابن الأثير ذلك قائلاً: إن الأمير الذي دخل بلاد المهرة «وافق بها جمعين من مهرة، أحدهما مع سخريت، والثاني مع المصبح، ومعظم الناس معه، وكانا مُخْتَلِفين، فكاتب (الأمير) سخريتاً فأجابه، وكاتب المصبح يدعوه فلم يجب؛ فقاتله قتالاً شديداً، فانهزم المرتدون وقُتل رئيسهم المصبح. . »[٣] بينما لم يكن هناك رئيسان اسمهما سخريت والمصبح، فالرئيسان في مخلاف مهرة كان أحدهما (ذَهبنّ بن قرضم) وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً إلى قومه، قال ابن سعد في طبقات الصحابة (ذهبن بن قرضم من الشّحر، والشِّحر من

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوية والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٣٥٣ ـ ٣٥٥.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٨.

(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٥٣ جـ٢.

مهرة). والرئيس الثاني (مهري بن أبيض) كتب له رسول اللّه ﷺ كتاباً سلف ذكره، وأوله «بسم اللّه الرحمٰن الرحيم.. من محمد رسول اللّه، لمهري بن أبيض، على مَنْ آمن مِنْ مهرة». فالرئيسان أحدهما (أبيض بن مهري) كان رئيس قبائل المهرة في ظفار والمهرة، وكان الثاني (ذهبن بن قرضم) رئيس قبائل الشحر وساحل حضرموت. وغالب الظن أن الجميع استجابوا للأمير عرفجة وأن القتال المزعوم في رواية سيف التميمي ليس له أصل، وقد ذكره ابن خلدون ثم قال: «وأجاب أهل تلك النواحي إلى الإسلام وهم أهل نُجد والروضة والساطي والحرائر والمرّ واللسان وأهل جبرة وظهور الشجر والفرتك وذات الخيم، فأجمعوا كلهم على الإسلام. وبعث (الأمير) إلى أبي بكر بذلك مع البشير، وسارعوا للقاء المهاجر بن أبي أمية كما عهد إليه أبو بكر»[(١)].

آنذاك كان المهاجر بن أبي أمية قد سار من صنعاء إلى مأرب وكان عكرمة بن أبي جهل قد نزل بمأرب، فاجتمعا بفرسانهما وعَسْكرا (بالمفازة بين مأرب وحضرموت) للمسير إلى الأشعث بن قيس وقبائل كندة وحضرموت في تريم، وبينما المهاجر وعكرمة في المفازة، أتى كتاب من أبي بكر الصديق انطلق به المهاجر سريعاً إلى تريم، وكان الكتاب موجهاً من «أبي بكر خليفة رسول اللّه ﷺ إلى الأشعث بن قيس ومَنْ معه من كندة» وكان جوهر ذلك الكتاب قول أبي بكر «وإن كان إنما حملكم (على ما فعلتم) ما فعله بكم عاملي زياد بن لبيد، فإني أعزله وأُوَلّي عليكم من تُحبون، وقد أمرتُ صاحب كتابي هذا، إن أنتم قبلتم الحق أن يأمر زياداً بالانصراف عنكم. فراجعوا إلى الحق. وفقنا اللّه وإياكم لما فيه رضى. والسلام»[(٢)].

فاستجاب الأشعث بن قيس والذين معه من الصحابة ورجالات كندة وحضرموت لكتاب أبي بكر لأن ما حدث كان بسبب التصرفات الخاطئة لزياد بن لبيد، فأمر المهاجر زياداً بالانصراف، فانصرف إلى المدينة، وأحبّ الأشعث وأصحابه تولية المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل، وكان عكرمة صهر الأشعث بن قيس، وكان عرفجة البارقي قد وصل من المهرة إلى المهاجر في تريم، فحمد الجميعُ اللّه عز وجل على توفيقه إياهم لما فيه رضاه، وأما مزاعم روايات سيف التميمي وأمثاله فينطبق عليها قول ابن خلدون: «يوجد في كلام بعض المؤرخين أخبار فيها مطاعنُ وشُبَهٌ في كبار الأمة وخيارهم من الصحابة والتابعين، أكثرها من أهل الأهواء»[(٣)].

ولما استتب الأمر تولى حضرموت المهاجر بن أبي أمية وتولى المهرة

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٧٢.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد اللّه ـ ص٣٥٥.

(٣) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٢.

عكرمة بن أبي جهل، وذلك في ذي الحجة سنة ١١هـ وعاد عرفجة البارقي إلى أبي بكر بالمدينة المنورة فبعثه أبو بكر إلى إقليم البحرين وهو إقليم منطقة الخليج العربي.

عرفجة في فتوح البحرين

بعد أن استتب الأمر في عمان ومخلاف المهرة وحضرموت باليمن انطلق عرفجة بن هرثمة البارقي إلى ولاية البحرين مدداً لأميرها العلاء بن الحضرمي، ومما يتصل بوجوده في البحرين، ما جاء في ترجمة عرفجة بكتاب الجامع أنه:

«أول أمير بحر في الإسلام. وقد سيّره العلاء بن الحضرمي من البحرين لغزو بلاد فارس»[١].

وقال الطبري: «كان أبو بكر ولّى عرفجة قتال أهل عُمان في نفر، وأقفله ـ عمر ـ حين غزا في البحر»[٢].

وقال البلاذري: «كان العلاء بن الحضرمي وهو عامل عمر على البحرين وَجَّه عرفجة البارقي لفتح جزيرة في البحر»[٣].

ويتبين من تلك النصوص أن عرفجة بن هرثمة البارقي لما استتب الأمر في عمان ثم في مخلاف المهرة وحضرموت باليمن عاد إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة ـ في أوائل سنة ١٢هـ ـ فبعثه أبو بكر إلى ولاية البحرين مدداً للعلاء بن الحضرمي وكان من نبأ البحرين فيما ذكر البلاذري أنه: «لما مات المنذر بن ساوي ـ ملك البحرين ـ بعد وفاة النبي ﷺ بقليل ارتد من بالبحرين من ولد قيس بن ثعلبة مع الحطم وهو شريح بن ضبيعة، وإنما سُمي الحطم بقوله:

قد لَفَّها الليل بسواق حطم

وارتد سائر من بالبحرين من ربيعه خلا الجارود وهو بشر بن عمرو العبدي ـ من بني عبد القيس مِنْ ربيعة ـ ومَنْ تابعه من قومه، وأمرّوا عليهم ابناً للنعمان بن المنذر يقال له المنذر فصار الحطم حتى لحق بربيعة فانضم إليه بمن معه»، وكان من أسباب ذلك أن العلاء بن الحضرمي كان عامل رسول اللّه ﷺ على البحرين فلما تولى أبو بكر الخلافة عاد العلاء إلى المدينة وانتهت ولايته ثم مات المنذر بن ساوي فاضطرب الأمر في البحرين، وكان فيها أبان بن سعيد بن العاص عاملاً على

---

(١) الجامع ـ بامطرف ـ ص٣٧١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٧٢ جـ٤.

(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٧٨ وص٩٤ ـ ٩٦.

ناحية من البحرين فأتى أبان المدينة. قال البلاذري: «فسأل أهلُ البحرين أبا بكر رضي اللَّه عنه أن يرد العلاء أميراً عليهم ففعل»[١]، فسار العلاء بن الحضرمي فيمن معه من المسلمين ومن انضم إليه من أهل اليمامة وعبد القيس إلى إقليم البحرين فنزل مدينة جواثا وهو حصن البحرين ـ في شعبان أو شوال سنة ١١هـ تقريباً ـ وكان أصحاب المنذر بن النعمان وأصحاب الحطم في جواثا، فحاصرهم العلاء بن الحضرمي حتى فتح جواثا وفَضّ جموعهم وقُتل الحطم وهو شريح بن ضبيعة العبدي، وفي قتله قال مالك بن ثعلبة:

تركنا شريحاً قد علته بصيرة كحاشية البُرد اليماني المُحَبّر

والبصيرة: ما وقع في الأرض من الدم. وكان المنذر بن النعمان بن المنذر يُسمى الغرور، فلما انتصر العلاء في جواثا، لحق المنذر هو وفلّ ربيعة بمدينة الخط فأتاها العلاء ففتحها، فيقال: إن المنذر قُتل فيها. قال البلاذري (ويقال: إن المنذر نجا فدخل إلى حصن المُشَقر، وأرسل الماء حوله فلم يُوصل إليه حتى صالح (العلاء) على أن يخلي المدينة فأخلاها.. واستأمن ثم هرب. وكان العلاء كتب إلى أبي بكر يستمدّه فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره بالنهوض إليه من اليمامة.. ثم أتى كتاب أبي بكر إلى خالد بالمسير إلى العراق، فسار إليها وذلك في سنة اثني عشر»[١]، وعندئذ وَجّه أبو بكر عرفجة البارقي مدداً للعلاء بن الحضرمي، فقَدِم عليه وقد قتل الحطم فشهد معه فتح الخط والمُشقر، وبدأت المواجهة مع عُمال وقوات الفُرس التي كانت تحكم وتحتل مناطق من البحرين منذ ما قبل الإسلام، فسار عرفجة مع العلاء بن الحضرمي لمحاربة الفرس وأميرهم فيروز المكعبر بمناطق الزارة والغابة والسابون. قال البلاذري:

«وتحصن المكعبر الفارسي صاحب كسرى.. واسمه فيروز بن جشيش بالزارة، وانضم إليه مجوس كانوا تجمعوا بالقطيف وامتنعوا من أداء الجزية، فأقام العلاء على الزارة ـ محاصراً إياها ـ فلم يفتحها في خلافة أبي بكر وفتحها في أول خلافة عمر.. وقال معمر بن المثنى: غزا العلاء بن الحضرمي قرى من السابون ففتحها، ثم غزا مدينة الغابة فقتل من بها من العجم. ثم أتى الزارة وبها المكعبر الفارسي فحاصره. ثم إن مُرْزَبان الزارة دعا إلى البراز فبارزه البراء بن عازب الأنصاري فطعنه فوق صلبه وصرعه ثم نزل وأخذ سواريه ويلمقاً كان عليه ومَنْطقةً، فبلغ قيمة ذلك أربعين ألفاً، فَخَمّسَهُ عمر لكثرته، وكان أول سلب خُمس في الإسلام

وكان لما قُتِل مرزبان الزارة، خرج رجل من الزارة مستأمناً على أن يدل العلاء

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٧٨ وص٩٤ ـ ٩٦.

على شرب القوم، فدلّه على العين الخارجة من الزارة، فَسَدّها العلاء، فلما رأوا ذلك صالحوه على أن له ثلث المدينة وثلث ما فيها من ذهب وفضة، وعلى أن يأخذ النصف مما كان لهم خارجها» ـ وكان المكعبر فيروز عامل كسرى قد لحق بجزيرة دارين مع جنوده ـ ففتح العلاء بن الحضرمي الزارة على ذلك الصلح في أول خلافة عمر بن الخطاب، ـ وذلك في أوائل رجب سنة ١٣هـ ـ بينما «قصد فلول الفرس جزيرة دارين وركبوا السفن إليها».

قال ابن خلدون: «ثم ندب العلاء بن الحضرمي الناس إلى دارين، وأن يستعرضوا البحر، فارتحلوا واقتحموا البحر ـ وذلك من مخاضة، مشوا عليها بالخيول والإبل فأجازوا ذلك الخليج يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل ـ فاقتحموا دارين، فلقوا العدو فاقتتلوا. . »، قال البلاذري «اقتحم العلاء في جماعة من المسلمين البحر، فلم يشعر أهل دارين ـ وهُم الفُرس الذين بها ـ إلا بالتكبير، فخرجوا فقاتلوهم من ثلاثة أوجه» وذلك أن المسلمين دخلوا جزيرة دارين وهاجموها من ثلاث جهات، فكان الأمير العلاء بن الحضرمي على رأس فرقة، وربما كان عرفجة البارقي على رأس فرقة، قال البلاذري (فقتلوا مقاتلة العدو، وحووا الذراري والسبي، ولما رأى المكعبر ذلك أسلم). وقال كراز البكري في ذلك الفتح لجزيرة دارين:

هاب العلاء حياض البحر مقتحماً فخُضتُ قُدماً إلى كفار دارينا

وقال عفيف بن المنذر في ذلك:

ألم تر أن اللّـه ذَلَّلَ بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلاجل

دعونا الذي شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل

وكان فتح جزيرة دارين في نحو أواسط شهر رجب سنة ١٣هـ، واكتمل بذلك فتح وتحرير إقليم البحرين بمدلوله الواسع القديم الممتد ما بين تخوم عُمان جنوباً وأعالي كاظمة (الكويت) وتخوم بلاد البصرة شمالاً. قال ابن خلدون: «ورجع العلاء من دارين إلى البحرين وضرب فيها الإسلام بجرانه»[١].

ثم قاد عرفجة البارقي من ساحل البحرين أول غزوة بحرية إسلامية في التاريخ، وقد ذكر البلاذري ذلك قائلاً: «كان العلاء بن الحضرمي وهو عامل عمربن الخطاب على البحرين وَجَّه عَرْفَجَة بن هرثمة البارقي، ففتح جزيرة في البحر مما يلي فارس، ثم كتب عمر إلى العلاء أن يمدّ به عتبة، ففعل»[٢]. وجاء في ترجمة عرفجة البارقي بكتاب الجامع ما يلي:

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٠٩.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٧٨.

«عَرْفَجَة بن هَرْثَمة: أول أمير بحر في الإسلام. وقد سيّره العلاء بن الحضرمي من البحرين لغزو بلاد فارس. وعرفجة من كبار القادة الفاتحين في العراق»(١).

ويستفاد من قول البلاذري «ثم كتب عمر إلى العلاء أن يمدّ به عتبة»، أن الغزوة البحرية التي قادها عرفجة كانت سنة ١٤هـ، لأن عمر بن الخطاب وَجّهَ عتبة بن غزوان إلى البصرة في شهر ربيع سنة ١٤هـ، ومؤدى ذلك أن عرفجة كان قد رجع بعد فتح جزيرة دارين ـ في رجب سنة ١٣هـ ـ إلى عمر بن الخطاب في المدينة المنورة ثم إلى منطقته في سَرَاة اليمن، ثم قَدِم مع جرير بن عبد اللّه البجلي وفرسان بجيلة وبارق إلى عمر ـ في أواسط شعبان ١٣هـ ـ وانطلق إلى العراق فكان من قادة فتوح المذار والنخيلة والحيرة مع جرير في رمضان ١٣هـ ثم عاد إلى ولاية البحرين وقاد منها أول غزوة بحرية إلى بلاد فارس ففتح جزيرة فارسية في البحر مما يلي فارس في أوائل سنة ١٤هـ، وذلك قبل أن يكتب عمر إلى العلاء بأن يمدّ به عتبه، فذلك هو الترتيب الصحيح.

* * *

نبأ عرفجة وبَجيلة عند عمر بن الخطاب (شعبان ١٣هـ)

كان عرفجة قد عاد من البحرين إلى منطقته في سَراة اليمن بعد فتح جزيرة دارين مع العلاء بن الحضرمي أمير البحرين ـ في أواسط رجب ١٣هـ ـ وكان جرير بن عبد اللّه البجلي قد شهد موقعة اليرموك بالشام ـ في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٣هـ ـ ثم قَدِم إلى عمر بن الخطاب بنبأ الانتصار في موقعة اليرموك ـ وذلك في أوائل رجب ١٣هـ ـ ثم عاد جرير إلى منطقته في سراة اليمن، فجمع واستنفر قبائل بَجِيلة للمسير والجهاد في الشام هو وعرفجة بن هرثمة، بينما في ذات الفترة وقعت في الحيرة بالعراق معركة يوم الجسر بين المسلمين والفرس ـ في ٧ شعبان ١٣هـ ـ فَقُتِل فيها أمير جيش المسلمين أبو عبيد الثقفي وأربعة آلاف من المسلمين بين قتيل وغريق، ونجا وانسحب ثلاثة آلاف من المسلمين مع المثنى بن حارثة الشيباني وعروة بن زيد الخيل الطائي ورابطوا في منطقة أُلَيّس وهي أول بادية العراق، وأتى عروة بن زيد الخيل بنبأ موقعة الجسر وسيطرة الفرس على بلاد الحيرة إلى عمر بن الخطاب، فاستنفر عمر الناس إلى العراق، وعندئذ أقبل من اليمن جرير بن عبد اللّه البجلي وعرفجة البارقي في أربعة آلاف من فرسان بَجِيلة وسبعمائة من أزد السراة عامتهم من بارق، وكانوا يريدون المسير إلى الشام، فقال عمر: بل العراق، وما زال يُرغبهم في ذلك، فاستجابوا.

---

(١) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص٣٧١.

قال الطبري: « . . فاستعمل عمر بن الخطاب عرفجة على من كان مقيماً على جديلة من بَجِيلة، واستعمل جريراً على من كان مع بني عامر وغيرهم من بَجِيلة. وقد كان أبو بكر ولّاه (أي عرفجة) قتال أهل عُمان في نفر، وأقفله (عمر) حين غزا في البحر، فولاه عُمر عُظم بجيلة، وقال: اسمعوا لهذا، وقال للآخرين: اسمعوا لجرير. فقال جرير لبَجيلة: تُقِرّون بهذا. وقد كانت بجيلة غضبت على عرفجة في امرأة منهم (أو في إمّرة منه عليهم) وقالوا: قد أدخل علينا ما أدخل، فاجتمعوا، فأتوا عمر بن الخطاب فقالوا: أعْفِنا مِنْ عرفجة.

فقال عمر: لا أعفيكم مِن أقدمكم هجرة وإسلاماً، وأعظمكم بلاءً وإحساناً.

قالوا: استعمل علينا رجلاً منّا، ولا تستعمل علينا نزيعاً فينا.

فظن عمر أنهم ينفونه من نسبه، فقال: انظروا ما تقولون. قالوا: نقول ما تسمع.

فأرسل عمر إلى عرفجة فقال له: إن هؤلاء استعفوني منك وزعموا أنك لست منهم، فما عندك؟

قال عرفجة: صدقوا. . أنا امرؤ من الأزد ثم من بارق في كهف لا يُحْصَى عدده وحَسَبٍ غير مُؤْتَشَب.

فقال عمر: نِعْم الحيُّ الأزد، يأخذون نصيبهم من الخير والشر، (فما كان شأنك).

قال عرفجة: كان من شأني أن الشرّ تفاقم فينا، ودارُنا واحدة، فأصبنا الدماء، ووتر بعضنا بعضاً، فاعتزلتُهم. . فكنتُ في هؤلاء (يعني بَجِيلة) أسودُهم وأقودُهم. فحفِظوا عني لأمر دار بيني وبين دهاقينهم (ربما دهاقين الفرس بالبحرين. . فكرهوني). . فقال عمر: لا يضرك، فاعتزلهم إذْ كرهوك»[(١)].

وذكر الطبري رواية ثانية عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق قال:

«لما انتهت إلى عمر بن الخطاب مصيبة أهل الجسر، قَدِم عليه جرير بن عبد اللّه البجليّ من اليمن في رَكْبٍ من بَجِيلة وعرفجة بن هرثمة. وكان عرفجة يومئذ سيد بَجِيلة وكان حليفاً لهم من الأزد، فكلمهم عمر فقال: إنكم قد علمتم ما كان من المصيبة في إخوانكم بالعراق فسيروا إليهم وأنا أخرج إليكم من كان منكم في قبائل العرب فأجمعهم إليكم. فقالوا: نفعل يا أمير المؤمنين. فأخرج إليهم قَيْسَ كُبَّةَ وسُحْمة وعُرَينة ـ وكانوا في قبائل بني عامر ـ وأمرَّ عليهم عرفجة بن هرثمة. فغضب

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ ابن جرير الطبري ـ ص٧١ ـ ٧٨ جـ٤.

من ذلك جرير بن عبد اللَّه البجلي فقال لبجيلة: كلموا أمير المؤمنين. فقالوا له: استعملت علينا رجلاً ليس منّا.

فأرسل عمر إلى عرفجة فقال: ما يقول هؤلاء؟

قال عرفجة: صدقوا يا أمير المؤمينن، لستُ منهم، ولكني رجلٌ من الأزد، كنا أصبنا في الجاهلية دماً في قومنا، فلحقنا ببجيلة، فبلغنا فيهم من السؤدد ما بلغك.

فقال له عمر: فاثبتْ على منزلتك ودافِعهم كما يدافعونك،

قال عرفجة: لستُ فاعلاً، ولا سائراً معهم»[1] يعني أميراً وهُمْ كارهون، وفي الرواية الأولى قال له عمر: «لا يضرك، فاعتزلهم إذْ كرهوك». وعندئذ «أمّر عمر على بجيلة كلها جرير بن عبد اللَّه البجلي».

وكان ممن قدم من اليمن مع جرير وعرفجة «غُزاة من بني كنانة ـ مِن كلب ـ ومن الأزد في سبعمائة يريدون المسير إلى الشام، فقال عمر: ذلك قد كُفِيتموه، العراق العراق، ذروا بلدة قد قلّل اللَّه شوكتها وعددها، واستقبلوا جهاد قوم قد حَوَوْا فنون العيش، لعل اللَّه أن يورثكم بقِسطكم من ذلك فتعيشون مع من عاش من الناس.

فقال غالب الليثي ـ الكلبي ـ وعرفجة البارقيّ، كل واحد منهما لقومه، وقاما فيهم: يا عشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين إلى ما يرى وامضوا له ما يُسكِنكم. قالوا: قد أطعناك وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد. فدعا لهم عمر بخير، وأمَّرَ على بني كنانة ـ الكلبيين ـ غالب بن عبد اللَّه، وسَرّحه، وأمَّرَ على الأزد عرفجة بن هَرْثمة، وعامتُهم من بارق، وفرحوا برجوع عرفجة إليهم، فخرج هذا في قومه، وهذا في قومه ـ وخرج جرير في قومه ـ وجاء عبد اللَّه بن ذي السَّهْمَيْن في أناس من خثعم فأمَّره عمر عليهم. .»[1]، وانطلقوا جميعاً إلى العراق.

مشاركة عَرْفَجْة في فتح الحيرة بالعراق

لقد كان عرفجة بن هرثمة البارقي، وكما جاء في ترجمته بكتاب الجامع «من كبار القادة الفاتحين في العراق». وكان من أول ذلك:

أن عرفجة البارقي انطلق أميراً قائداً على زهاء سبعمائة من فرسان أزد السراة اليمانيين، عامتهم من بارق، في الجيش العربي الإسلامي الذي انطلق إلى إقليم الحيرة بالعراق ـ في أواسط شعبان ١٣هـ ـ بقيادة جرير بن عبد اللَّه البَجَلي، كان جرير هو قائد فرسان قبيلة بجيلة، وكانوا أربعة آلاف من بجيلة، وكان هو في ذات الوقت الأمير القائد العام للمسلمين، ومعه تسعة أمراء قادة كُلٌّ منهم قائد على فرسان

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ ابن جرير الطبري ـ ص٧١ ـ ٧٨ جـ٤.

قبيلته، منهم عرفجة في فرسان بارق، وغالب بن عبد اللَّه الكلبي في سبعمائة من فرسان كلب القضاعيين الحميريين، وعَدِي بن حاتم الطائي في كتيبة من فرسان طيء، وعُروة بن زيد الخيل في كتيبة ثانية من طيء، وعبد اللَّه بن ذي السهمين الخثعمي في كتيبة من فرسان قبيلة خثعم اليمانية، وشُرحبيل بن السّمط الكندي في كتيبة من كندة، فدخلوا منطقة المذار في العراق فحاربوا وهزموا جيشاً من الفرس بقيادة مُرْزبان المذار في أواخر شعبان ١٣هـ ومضوا إلى الحيرة، فانضم إلى جرير وذلك الجيش المثنى بن حارثة والذين كانوا معه في منطقة أليس بالعراق من قبيلة ربيعة، وكذلك الكثير من عرب إقليم الحيرة بالعراق وكانوا نصارى فقالوا: نُقاتل مع قومنا العرب، بينما حشد الأمير الفارسي مهران بن باذان جموع الفُرس ووصلت إليه الإمدادات فبلغ جيشه زهاء مائة وعشرين ألف من الفُرس.

وفي أواسط رمضان ١٣هـ التقى الجيشان، جيش الفرس بقيادة مهران ومعه ابن الأزاذبة مرزبان الحيرة، ومَرْدانشاه بهمن بن جاذويه. والجيش العربي الإسلامي بقيادة جرير بن عبد الله البجلي ومعه المثنى بن حارثة، وعرفجة البارقي، وعروة بن زيد الخيل، وغالب الكلبي، وعدي بن حاتم الطائي، وابن ذي السهمين الخثعمي، وشُرحبيل بن السِّمط الكندي، وقائد تاسع. وخاض الجيشان معركة ضارية في النخيلة بمشارف الحيرة، فانهزم الفرس هزيمة ساحقة في أواخر رمضان ١٣هـ. قال الطبري وابن الأثير: «أُحصي مائة رجل من المسلمين قَتَل كُل رجل منهم عشرة من الفُرس في المعركة يومئذ، وكان عُرْوة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة، وغالب الكلبي في بني كنانة من أصحاب التسعة، وعرفجة في الأزد من أصحاب التسعة»[1]، ولعل أصل ذلك (من الصحابة التسعة) وأنهم كبار قادة المسلمين في موقعة يوم النخيلة بقيادة الأمير جرير بن عبد اللَّه البجلي، قال الحافظ ابن كثير: «وَاقَعَ جريرُ بن عبد اللَّه الفُرس، وقَتَل قائدهم (مهران) وهزمهم عند النخيلة وَغرق أكثرهم، وتمكن منهم المسلمون.. فيُقال إنه قُتل من الفُرس يومئذ وغَرق قريب من مائة ألف. وكانت هذه الوقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام.. وذلّت لها رقاب فارس.. وبعث جرير بالبشارة والأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه»[2] وكانت موقعة يوم النخيلة يوم السبت آخر رمضان سنة ١٣هـ، فتم يومئذ فتح مدينة الحِيْرة، ومضى المسلمون ففتحوا نواحي ومناطق إقليم الحيرة ورفرفت في ربوعها رايات الإسلام منذ شهر رمضان وفي أواخر سنة ١٣هـ وكان عرفجة من الصحابة القادة الذين حققوا ذلك.

* * *

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٠٥ جـ٢ ـ وتاريخ الطبري ـ ص٧٦ جـ٤.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٢٩ جـ٧.

غزوة عرفجة البحرية إلى فارس من البحرين

قال الطبري: «سار عرفجة إلى البصرة بعد أن نُزلت، وترك بَجيلة». وقد كان ذلك بعد مشاركته في فتح بلاد الحيرة بقيادة جرير بن عبد اللّٰه البجلي، فسار عرفجة ـ أولاً ـ من الحيرة إلى ولاية البحرين وأميرها العلاء بن الحضرمي في أواخر سنة ١٣هـ وكان العلاء يقوم بتجهيز وإنشاء أسطول بحري في ميناء ولاية البحرين لغزو بلاد فارس بحراً، فأسند العلاء بن الحضرمي إلى عرفجة البارقي قيادة سفن ومراكب الأسطول ـ التي تم تجهيزها ـ للقيام بأول غزوة بحرية في تاريخ الإسلام، وتم تحديد الهدف وهو جزيرة فارسية في الساحل الشرقي للخليج مما يلي بلاد فارس.

وفي أوائل سنة ١٤هـ انطلق عرفجة البارقي بالسفن والمراكب من ميناء القطيف بولاية البحرين إلى الجزيرة الفارسية فافتتحها، فكان عرفجة بذلك (أول أمير بحر في الإسلام) وكان هو (قائد أول غزوة بحرية في التاريخ العربي الإسلامي) وهي الغزوة التي ذكرها البلاذري في فتوح البلدان قائلاً: «كان العلاء بن الحضرمي وهو عامل عمر بن الخطاب على البحرين وَجَّه عرفجة البارقي ففتح جزيرة في البحر مما يلي فارس» ـ ولم يذكر البلاذري اسم الجزيرة، ويبدو من سياق رواية البلاذري أنها جزيرة (أبركاوان) ـ ففتح عرفجة تلك الجزيرة، ورابطت فيها قوة من المسلمين (ثم أمر عمر بن الخطاب بعودتهم بعد الغزوة البحرية التي وجّهها العلاء بن الحضرمي إلى إقليم إصطخر بفارس والتي سيأتي ذكرها) وكان فتح عرفجة لتلك الجزيرة في أوائل سنة ١٤هـ، قال البلاذري: «ثم كتب عمر إلى العلاء أن يمدّ به عُتبةَ، ففعل». وكان ذلك عندما بعث عمر بن الخطاب عُتبة بن غزوان إلى البصرة في شهر ربيع سنة ١٤ هجرية.

مسير عرفجة إلى البَصْرة.. وفتوح البصرة

كان عرفجة البارقي مرابطاً في الجزيرة الفارسية التي افتتحها حينما أتى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أمير ولاية البحرين العلاء بن الحضرمي بأن يتوجه عرفجة إلى البصرة مدداً لعتبة بن غزوان المازني لما بعثه عمر أميراً لأول قوة عربية إسلامية إلى منطقة البصرة في شهر ربيع سنة ١٤هـ. وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب آنذاك قولاً يدل على المكانة الجهادية القيادية لعرفجة وتقدير عمر بن الخطاب إياه تقديراً عالياً، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة عرفجة بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أنه:

«أوصى عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان فقال له: وقد أمرتُ العلاء بن الحضرمي يمدّك بعرفجة بن هرثمة فإنه ذو مجاهدة ونكاية بالعدو»[١].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٤٧٤ جـ٢.

وقال الحافظ ابن كثير: «كتب عمر إلى عتبة بن غزوان لما وَجَّهَه إلى البصرة ـ قائلاً ـ: وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرمي يمدّك بعرفجة بن هرثمة فإذا قَدِم عليك فاستشره وقرّبه»[١].

وقال الحافظ ابن الأثير ـ وهو صاحب كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة:

«بعث عمر عتبة بن غزوان إلى البصرة.. وقال له حين وَجَّهه إليها: يا عتبة إني قد استعملتك على حومة من حومة العدو وأرجو أن يكفيك اللّهُ ما حولها ويعينك عليها، وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدك بعرفجة بن هرثمة وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو، فإذا قَدِم عليك فاستشره وقَرّبه»[٢].

فسار عتبة بن غزوان من المدينة المنورة إلى البصرة في زهاء خمسمائة من الفرسان وكوكبة من الصحابة منهم أبو موسى الأشعري قال ابن الأثير: «وكان نزول عتبة البصرة في ربيع الأول أو الآخر سنة أربع عشرة للهجرة»[٢]، وكان العلاء بن الحضرمي قد بعث إلى عرفجة بن هرثمة البارقي وأخبره بكتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فعاد عرفجة من الجزيرة (أبركاوان) إلى البحرين وانطلق منها إلى البصرة في زهاء سبعمائة من فرسان بارق والأزد، فوصل إلى عتبة بن غزوان بمنطقة البصرة، ولم تكن يومئذ مدينة البصرة وإنما كانت هناك مدينة الأبُلَه وكانت مرفأ السفن من الهند والصين، وكان بها جيش من الفرس الأساورة يحمونها، وكان عُتبة أقام نحو شهر بجهة المربد، فَقدِم إليه عرفجة وهو بها غالباً. قال ابن الأثير: « ..وخرج إلى عُتبة أهل الأُبله، وكان بها خمسمائة أسوار يحمونها، فقاتلهم عتبة فهزمهم حتى دخلوا المدينة، ورجع عتبة إلى عسكره، وألقى اللّهُ الرعب في قلوب الفُرس ـ ظنوا أن مدداً للمسلمين قد أقبل ـ، فخرجوا عن المدينة وحملوا ما خَفّ وعبروا الماء وأخلوا المدينة، ودخلها المسلمون فأصابوا متاعاً وسلاحاً وسبياً، وكان فتحها في رجب أو شعبان سنة ١٤هـ، ثم خطّ عُتبة موضع البصرة وبناها بالقصب».

وبذلك شهد عُتبة اختطاط وتأسيس البصرة، وقد اختط عُتبة بن غزوان والذين معه مسجد وبيوت البصرة بالقصب فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحملوه معهم فإذا عادوا من الغزو أعادوا المسجد والبيوت بذلك القصب. وشهد عرفجة مع عتبة فتح دستميسان، قال ياقوت: (دستميسان: كورة جليلة بين واسط والبصرة والأهواز، وهي إلى الأهواز أقرب)، قال ابن الأثير: «جمع أهل دستميسان ـ لقتال المسلمين ـ فلقيهم عُتبة فهزمهم وأخذ مُرْزَبانها أسيراً، وأخذ قتادة مَنْطقته فبعث بها (عتبة) مع

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٤٨ جـ٧.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٣٨ جـ٢.

أنس بن حجنة إلى عمر فقال له عمر: كيف الناس؟ فقال: إنثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة، فرغب الناس في البصرة، فأتوها».

وكان عمر قد استنفر رؤساء وقبائل العرب لجهاد الفُرس بالعراق فأقبلوا إليه من اليمن وغير اليمن فوجههم إلى العراق مع سعد بن أبي وقاص - في حوالي شهر رجب ١٤هـ - وكان جرير بن عبد اللّه البجلي والذين معه في غُضي بحيال البصرة، فسار جرير إلى سعد بمنطقة العذيب وانضم إليه، وكان الفرس قد حشدوا جيشاً كبيراً بقيادة رُستم، فتدفقت الإمدادات إلى سعد بن أبي وقاص من المستنفرين الذين أقبل أكثرهم إلى عمر من اليمن، وكان منهم الأشعث بن قيس الكندي في ألف وسبعمائة من كندة وحضرموت، وأعلام الصحابة والرؤساء والفرسان من مذحج ومراد وهمدان والسكون وغيرهم من قبائل اليمن بينما توجه فريق من المستنفرين إلى البصرة ومنهم حذيفة بن محصن عامل عُمان في رؤساء وفرسان أزد عُمان، ولذلك كثر جيش المسلمين في منطقة البصرة وليس لأن الدنيا انثالت عليهم وأنهم يهيلون الذهب والفضة.

وفي أواخر سنة ١٤هـ كتب عمر إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جند كثيف لنجدة المسلمين الذين أغزاهم العلاء بن الحضرمي إلى إقليم فارس واصطخر بحراً. قال ابن الأثير: «وأرسل عتبة جيشاً كثيفاً في اثني عشر ألف مقاتل فيهم عاصم بن عمرو، وعرفجة بن هرثمة، والأحنف بن قيس وغيرهم.. وعليهم أبو سبرة بن أبي رُهم».

وكان سبب ذلك أن العلاء بن الحضرمي أمير ولاية البحرين لما استكمل تأسيس وتجهيز أسطول بحري لغزو وفتح بلاد فارس بحراً، انتدب العلاء الناس إلى فارس، فأجابوه، ففرّقهم العلاء ثلاث فرق، على إحداها الجارود بن المعلى، وعلى الآخر سوار بن همام، وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوي، وخليد أمير على جميعهم، ووجههم العلاء في البحر إلى فارس بغير إذن عمر، فعبروا بالسفن من البحرين إلى فارس، فنزلوا بإقليم فارس وتوغلوا فاتحين إلى داخل إقليم اصطخر، ثم اجتمع عليهم أهل فارس واصطخر، فحوصر المسلمون، فاقتتلوا قتالاً شديداً بمكان يُدعى طاوس، ثم انسحب المسلمون يريدون العودة بالسفن، فحال الفرس بين المسلمين وبين سفنهم، ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً، إذْ أخذت الفرس منهم طُرقَهُم، فعسكروا وامتنعوا في البر الفارسي، وعادت بعض السفن بالنبأ إلى العلاء، فبعث العلاء إلى عمر بن الخطاب بالخبر طالباً منه توجيه قوة من البصرة لاستنقاذهم، فغضب عمر لأن العلاء أغزاهم في البحر، وكان عمر ينهى عن غزو البحر. قال ابن الأثير: «ولما بلغ عمر صنيع العلاء أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا.. وأرسل عُتبة جيشاً كثيفاً في

اثني عشر ألف مقاتل، فيهم عاصم بن عمرو، وعرفجة بن هرثمة، والأحنف بن قيس وغيرهم.. وعليهم أبو سبرة بن أبي رُهم». وكذلك قال ابن خلدون: «..فأرسل عتبة الجنود اثني عشر ألف مقاتل فيهم عاصم بن عمرو، وعرفجة بن هرثمة، والأحنف بن قيس، وأمثالهم، وعليهم سبرة بن أبي رُهم» وقال الحافظ ابن كثير: «أرسل عتبة الجيش ـ من البصرة ـ عليهم عرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، والأحنف بن قيس، وعلى الجميع سبرة بن أبي رُهم». ويتبين من مجمل ذلك أن عرفجة كان خامس خمسة قادة انطلقوا بذلك الجيش العربي الإسلامي من البصرة إلى منطقة إقليم فارس المطلّة على الخليج العربي، منهم حذيفة بن محصن أمير عُمان، وقد سلف قول ابن الأثير وابن خلدون بأنه (حذيفة بن محصن الغلفاني من حِمْير) بينما قال البلاذري إنه (حذيفة بن محصن البارقي من الأزد) وكان حذيفة بن محصن والياً لعمان منذ خلافة أبي بكر ـ سنة ١١هـ ـ إلى خلافة عمر ـ سنة ١٤هـ ـ وقَدِم مدداً للمسلمين بالبصرة، فكان من القادة الخمسة الذين انطلقوا بالجيش من البصرة إلى فارس، وهم عرفجة البارقي، وحذيفة بن محصن، والأحنف بن قيس، وعاصم، وأبو سبرة بن أبي رُهم، وأميرهم جميعاً أبو سبرة، وأمره عتبة باستشارة عرفجة، وكان عرفجة الوحيد من بينهم الذي سبق له غزو فارس من البحرين بالسفن وافتتح جزيرة مما يلي بلاد فارس، وبمشورة عرفجة: «سار أبو سبرة بالجيش، وسَاحَل بهم لا يعرض له أحد، حتى التقوا بالمسلمين (الذين بعثهم العلاء وحوصروا بفارس وكانوا بقيادة خُليد بن المنذر) وكان قد تداعى عليهم أهل فارس من كل ناحية وحاصروهم، وكان على أهل فارس واصطخر الأمير شهرك، فتوافت إلى المسلمين أمدادهم (مع أبي سبرة وعرفجة وبقية القادة) فاقتتلوا، ففتح اللّه على المسلمين، فانهزم المشركون، وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا، ثم انكفأوا بما أصابوا، وكان عتبة بن غزوان كتب إليهم بالحثّ، فرجعوا إلى البصرة سالمين».

ولما رجع ذلك الجيش إلى البصرة، سار عتبة بن غزوان من البصرة لأداء فريضة الحج، وقد حج بالناس في تلك السنة ـ وهي سنة ١٤هـ ـ بداية خلافة عمر بن الخطاب، وكان عمر قد عزل العلاء بن الحضرمي من ولاية البحرين لأنه أغزا المسلمين في البحر، واستقدمه إلى المدينة، فحج العلاء مع عمر في تلك السنة، ثم رجع عتبة بن غزوان من الحج قاصداً البصرة فمات في الطريق، وكان العلاء بن الحضرمي قد رجع إلى البحرين ناوياً أن يقيم فيها، فأتاه كتاب عمر بن الخطاب بأن يسير إلى البصرة أميراً عليها مكان عتبة بن غزوان، وأن يسير من البصرة مدداً لسعد بن أبي وقاص في القادسية، فسار العلاء بن الحضرمي من البحرين ومعه أبو هريرة الدوسي وفرقة من المسلمين فمات العلاء بن الحضرمي ـ رضي اللّه عنه ـ

في الطريق بين البحرين والبصرة، وكان بالبصرة أبو موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة، فولّى عمر على البصرة أبا موسى الأشعري، وجاء في عدة روايات أنه ولّى المغيرة بن شعبة. والأصوب أبا موسى الأشعري، فقد ذكر البلاذري أنه «لما حضر يوم القادسية كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري يأمره بإمداد سعد بن أبي وقاص، فأمدّه أبو موسى بالمغيرة بن شعبة في ثمانمائة ويقال في أربعمائة، فشهدها. . وأن المغيرة إنما ولّي البصرة بعد قدومه من القادسية»[1].

وكان أبو موسى الأشعري قد بعث من البصرة كبار القادة بالجنود إلى القادسية، وكان منهم عرفجة البارقي، ثم سار أبو موسى بنفسه وشهد القادسية، وكان انتصار القادسية في أواخر شهر محرم سنة ١٥هـ، فمكث المسلمون بنواحي القادسية والحيرة شهرين، ثم أتى كتاب عمر إلى سعد بمسير أبي موسى إلى الجزيرة الفراتية، وولّي عمر المغيرة على البصرة إلى أن عزله وولى أبا موسى في شهر ربيع ١٦هـ، وكان عرفجة بن هرثمة البارقي من كبار القادة في ولاية أبي موسى الأشعري للبصرة وفي فتوحاته لإقليم الأهواز وتُسْتَر ورامهرمز. قال البلاذري: «غزا أبو موسى الأشعري كور الأهواز حين ولاه عمر بن الخطاب البصرة بعد المغيرة، فافتتح سوق الأهواز عنوة وفتح نهر تيري عنوة، وتولى ذلك بنفسه في سنة سبع عشرة. وقال أبو مِخْنَف والواقدي: سار أبو موسى الأشعري إلى الأهواز فلم يزل يفتح رستاقاً رستاقاً ونهراً نهراً، والأعاجم تهرب من بين يديه، فغلب على جميع أرضها إلا السوس، وتُستر، ومناذر، ورامهرمز» (ص٣٧٢).

وجاء في ترجمة عرفجة بكتاب الجامع أنه: «كان عرفجة من كبار القادة الفاتحين في العراق. . وهو الذي فتح (رام هرمز) و (تُسْتر) في خوزستان، بعد أن طهّر من جيش الفرس المنطقة المُسماة كَسْكَر (كشكر) الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة» (ص٣٧١).

ويتبين من ربط الوقائع أن أبا موسى الأشعر لما أراد المسير من البصرة لفتح إقليم الأهواز بعث عرفجة بن هرثمة البارقي لتطهير المنطقة المسماة كَسْكَر والواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وتُسمى سواد دجلة البصرة، فسار إليها عرفجة ـ بفرقة من الفرسان ـ فطهّرها من جيش الفُرس، وذلك في أواسط سنة ١٦ هجرية، فتهيأ بذلك الطريق لفتح الأهواز.

وفي أواخر سنة ١٦هـ انطلق أبو موسى الأشعري من البصرة ومعه كبار الصحابة والقادة بالبصرة ـ وكان منهم أنس بن مالك الأنصاري، والبراء بن مالك

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٥٦.

الأنصاري، والربيع بن زياد الحارثي المذحجي، وعرفجة بن هرثمة البارقي، وسمرة بن جندب الفزاري، والمهاجر بن زياد الحارثي ـ فاجتاح أبو موسى بلاد الأهواز، وافتتحها رستاقاً رستاقاً ونهراً نهراً، والأعاجم تهرب من بين يديه، وافتتح سوق الأهواز ـ وهو عاصمة إقليم الأهواز ـ عنوة في أوائل سنة ١٧هـ وفتح نهر تيري عنوة، وجميع أرض الأهواز إلا أربع مدن: السوس، وتُستر، ومناذر، ورامهرمز. قال البلاذري: «وولّى أبو موسى سوق الأهواز سمرة بن جندب الفزاري حليف الأنصار.. وسار أبو موسى إلى مُناذر فحاصر أهلها واشتد قتالهم. فكان المهاجر بن زياد الحارثي أخو الربيع بن زياد بن الديان الحارثي في الجيش.. فقاتل المهاجر حتى استشهد، وفيه يقول القائل:

وفي مناذر لمّا جاش جمعهمُ راح المهاجرُ في حلّ بأجمالِ
والبيتُ بيت بني الديان نعرفه في آل مذحج مثل الجوهر الغالي

.. فكتب عمر إلى أبي موسى وهو محاصرٌ مناذر أن يستخلف عليها ويسير إلى السوس فاستخلف الربيع بن زياد على حصار مناذر، وسار إلى السوس، ففتح الربيع بن زياد مناذر عنوة».

ولما سار أبو موسى إلى السوس، وذلك في حوالي شهر شوال سنة ١٧هـ، وَجّهَ أبو موسى عَرْفَجَةَ بن هرثمة إلى تُسْتُر. وإلى رامهرمز، وعندئذ ـ وكما جاء في كتاب الجامع ـ (فَتَح عرفجة رام هرمز، وتُسْتر) ولا بد أن ذلك هو الفتح الأول لمدينة تُسْتر، ولم يكن فيه قتال، وإنما أذعن الهُرمزان أمير تُستر وأهل تُستر لأداء الجزية، فكتب عرفجة بذلك إلى أبي موسى، فتم مصالحتهم على أداء الجزية، وكان أبو موسى يحاصر مدينة السوس، فسار عرفجة بفرقة من الفرسان إلى مدينة رامهرمز، فأذعن أهل رامهرمز إلى المصالحة، فرابط فيها عرفجة وبعث بالخبر إلى أبي موسى في السوس، وكانت السوس هي العاصمة التليدة للإمبراطورية الفارسية في بلاد فارس، فافتتحها أبو موسى، وأقبل منها إلى رامهرمز، وكان عرفجة مرابطاً فيها، فقام أبو موسى بمصالحتهم ـ على الصلح الذي أجابوا عرفجة إليه وهو صلح الفتح الأول ـ وفي ذلك قال البلاذري: «حدثني روح بن عبد المؤمن، قال: حدثني يعقوب عن أبي عاصم الرامهرمزي قال: صَالَحَ أبو موسى أهل رامهرمز على ثمانمائة ألف أو تسعمائة ألف (درهم جزية سنوية) ثم إنهم غدروا، فَفُتحت بعدُ عنوة، فتحها أبو موسى في آخر أيامه». (ص٣٧٢/ فتوح البلدان).

وكان صلح الفتح الأول ـ الذي تم بقيادة عرفجة ـ لمدينة تُستر ومدينة رامهرمز في شوال وذي القعدة سنة ١٧هـ، ثم غدروا ونقضوا سنة ١٩هـ وفيها فتح أبو موسى

تُستر عُنوة، ثم أعاد فتح رامهرمز فيما بعد، وكان عرفجة بن هرثمة لما تم فتح الأهواز والسوس وتُستر ورامهرمز وغيرها من بلاد فارس في سنة ١٧هـ عاد مع أبي موسى إلى البصرة، حيث قام أبو موسى بتحويل البصرة إلى مدينة عاصمة، وكان عرفجة قد شهد بناء مساكن ومسجد البصرة بالقصب في ولاية عُتبة بن غزوان ثم شهد التأسيس الحقيقي لمدينة البصرة في ولاية أبي موسى، قال البلاذري: «بَنَىٰ عتبة والمسلمون مساكن بالقصب، وبَنَى عُتبة المسجد ودار الإمارة بالقصب، وذلك في سنة أربع عشرة، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا بناءه فلم تزل الحال كذلك. ثم إن الناس اختطوا وبنوا المنازل، وبَنَى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبنٍ وطين، وزاد في المسجد. . وحفر أبو موسى لأهل البصرة نهر الأُبُله. .»، فازدهرت البصرة وانتشر فيها العمران وأصبحت مدينة عاصمة على يد أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه.

* * *

مشاركة عرفجة القيادية في فتح تكريت وبلاد المَوْصل

وكان عرفجة بن هرثمة البارقي خامس خمسة قادة في فتح تكريت وبلاد الموصل وهُم القادة: عبد اللّه بن المُعْتَمْ، وعرفجة بن هرثمة وربعي بن الأفكل من جهة، وعياض بن غَنْم الأشعري وعتبة بن فرقد السَلَمي وعرفجة بن هرثمة من جهة أخرى.

قال الحافظ ابن حجر في ترجمة عرفجة بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«إن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص: أن سَرِّح على الخيل عرفجة بن هرثمة. . في فتح الموصل وتكريت» (٢/٤٧٤). وكان من نبأ ذلك أن مدينة تكريت ـ وهي بين بغداد والموصل ـ كان قد سبق فتحها على يد جرير بن عبد اللّه البجلي ومعه بعض القادة، وقد ذكر الطبري ذلك قائلاً: «افتتح جرير والمسلمون بغداد، وساباط، وتكريت، وميسان»[١]. إلا أن تكريت وقعت بعد ذلك (في أوائل سنة ١٨هـ) تحت سيطرة الملك أنطاق ملك الموصل وقد زحف إليها من بلاد الموصل بجيش من العجم ونصارى العرب ببلاد الموصل والجزيرة الفراتية، فكتب سعد بن أبي وقاص أمير ولاية الكوفة بخبر ذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر بأن يبعث جيشاً إلى تكريت وبلاد الموصل، وأن يكون قائد الخيل عرفجة بن هرثمة البارقي، وبما أن عرفجة كان في ولاية البصرة فقد أقبل آنذاك بفرسانه من البصرة إلى الكوفة. وقد جاء نبأ ذلك في رواية الطبري ثم في

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٧٨ جـ٧.

الكامل لابن الأثير ـ في أحداث سنة ١٦هـ ـ قال ابن الأثير: «وفي هذه السنة.. سار الأنطاق من الموصل إلى تكريت، وخَنْدَقَ عليه ليحمي أرضه، ومعه الروم، وأياد، وتغلب، والنمر، والشهارجة. فبلغ ذلك سعداً، فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: أنّ سَرّح إليه عبد اللّه بن المُعْتم، واستعملْ على مقدمته ربعي بن الأفكل، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة»[١].

فانطلق ذلك الجيش في شهر ربيع الثاني وكان أمير الجيش عبد اللّه بن المُعتم، وقائد فرسان الجيش عرفجة بن هرثمة، وعلى مقدمة ابن المعتم ربعي بن الأفكل، وبما أن الفرسان هم القوة الأساسية في الجيوش فإن عرفجة هو القائد الذي كان له الإسهام الأوفر في ذلك المسير والفتح لتكريت. فقد نزل ذلك الجيش على تكريت فحاصروا الأنطاق وجيشه أربعين يوماً، فتزاحف الفرسان أربعة وعشرين زحفاً. وهنا قال ابن الأثير: (فتزاحفوا أربعة وعشرين زحفاً، وكانوا أهون شوكة وأسرع أمراً من أهل جلولاء) وهذا يؤكد الزمن الصحيح بأنه بعد موقعة جلولاء، وكانت جلولاء في ذي القعدة سنة ١٦هـ وتلاها فتح سواد أرض جلولاء سنة ١٧هـ ثم هذا الفتح لتكريت، فكان الأنطاق وجيشه أهون من أهل جلولاء، وذلك لأن القبائل العربية النصرانية التي مع الأنطاق كانت إلى العرب المسلمين أميل، قال ابن الأثير: (وأرسل ابن المعتم إلى العرب الذين مع الأنطاق يدعوهم إلى نُصرته، وكانوا لا يخفون عليه شيئاً، ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم نقلوا متاعهم إلى السفن، فأرسلت تغلب وأياد والنمر إلى عبد اللّه بالخبر، وسألوه الأمان، وأعلموه أنهم معه.. وأرسل إليهم عبد اللّه إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنّا أخذنا أبواب الخندق فخذوا الأبواب التي تلي دجلة وكبروا، واقتلوا من قدرتم عليه»، فاستجاب أولئك العرب النصارى لذلك، فقد نَهَدَ عبد اللّه بن المعتم والمسلمون وكبروا، وانطلق عرفجة بالفرسان فأخذوا أبواب الخندق، فكبر العرب النصارى وأخذوا الأبواب التي تلي دجلة ـ قال ابن الأثير: «فظن الروم أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم مما يلي دجلة فقصدوا الأبواب التي عليها المسلمون، وأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف تغلُب وإياد والنمر، فلم يفلت من أهل الخندق إلا من أسلم..» ـ أو من استسلم ـ قال الطبري: وقال في ذلك عبد اللّه بن المعتم:

ونحن قتلنا يوم تكريت جَمْعَها ... فللّه جَمْعٌ يوم ذاك تتابعوا

فتم فتح تكريت في شهر جمادى الآخرة، وقد نقل ابن الأثير والطبري عن رواية سيف أن ذلك في سنة ١٦هـ، والأصوب ـ فيما نرى ـ سنة ١٨هـ، وقد جاء

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٦٤ جـ٢.

في فتوح البلدان للبلاذري أن فتح تكريت وبلاد الموصل كان في سنة عشرين للهجرة، ومؤدى ذلك أن ما حدث في شهر جمادى (سنة ١٨هـ) كان فتح المنطقة التي تحصن فيها الأنطاق من بلاد تكريت ـ وليس حصن ومدينة تكريت نفسها ـ فلما تم هزيمة الأنطاق (الذي انسحب بجيشه إلى نِيْنَوى)، وَجّهَ عبد اللّه بن المعتم الجيش إلى بلاد الموصل، وفي ذلك نقل ابن الأثير والطبري ـ عن مزاعم سيف ـ أنه «أرسل عبد اللّه بن المعتم ربعي بن الأفكل إلى الحصنين وهما نينوى والموصل، فسمى نينوى الحصن الشرقي، وسمى الموصل الحصن الغربي.. فاقتحم ابن الأفكل الحصنين، فنادوا بالإجابة إلى الصلح وصاروا ذمة وقسموا الغنيمة، وبعثوا بالأخماس وبالفتح إلى عمر بن الخطاب، وولّى عمر حرب الموصل ربعي بن الأفكل، والخراج عرفجة بن هرثمة»[(١)]. ثم قال ابن الأثير في خاتمة أنباء تلك السنة «كان على حرب الموصل ربعي بن الأفكل، وعلى خراجها عرفجة بن هرثمة. وقيل: كان على الحرب والخراج بها عتبة بن فرقد، وقيل: كان على ذلك كله عبد اللّه بن المعتم. وكان على الجزيرة عياض بن غَنْم»[(١)]. ثم ذكر مثل ذلك في خاتمة أنباء السنوات التالية وحتى سنة ٢٠هـ، ويجمع ذلك أن القادة الأربعة ـ ابن المعتم، وعرفجة، وعتبة بن فرقد، وربعي بن الأفكل ـ كانوا عمالاً في بعض مناطق تكريت وثغور بلاد الموصل، بينما كان عياض بن غَنْم الأشعري أميراً لإقليم الجزيرة الفراتية، فاشتركوا في الفتح الفعلي لمدينة وحصن تكريت وبلاد الموصل سنة ١٩ ـ ٢٠ هجرية، فقد انطلق عتبة بن فرقد ومعه عرفجة بن هرثمة إلى تكريت وما جاورها، قال البلاذري: «وافتتح عتبة بن فرقد الطيرهان وتكريت، وأمَّنَ أهل حصن تكريت على أنفسهم وأموالهم» قال البلاذري: «وحدثني شيخ من أهل تكريت أنه كان معهم كتاب أمان وشروط لهم». وكان فتح تكريت سنة ١٩ هجرية.

وسار عتبة بن فرقد، ومعه عرفجة بن هرثمة قائداً للخيل (الفرسان)، من تكريت إلى (شهرزور) و (الصامغان) و (درأباذ)، فقاتله الأكراد فقتل منهم خلقاً. قال البلاذري: (حدثني إسحاق بن سليمان الشهرزوري عن أبيه عن محمد بن مروان عن الكلبي: أن عزرة بن قيس البَجلي حاول فتح (شهرزور) وهو والٍ على (حلوان) في خلافة عمر فلم يقدر عليها ـ وكان ذلك سنة ١٨ ـ ١٩هـ ـ فغزاها عتبة بن فرقد ففتحها بعد قتال على مثل صلح حلوان.. وصالح أهل الصامغان ودرأباذ على الجزية

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٦٥ و ٣٦٧ جـ٢ ـ وقد ذكر بامطرف في كتاب الجامع ما يلي: «من القادة اليمنيين الذين شاركوا في فتح العراق: عبد اللّه بن المُعْتَم العَبْسي. وربعي بن الأفكل العَنْسي» ـ ص٣٧١ ـ الجامع.

والخراج، وحدثني أبو رجاء الحلواني عن أبيه عن مشايخ شهرزور، قالوا: شهرزور والصامغان ودرأباذ من فتوح عتبة بن فرقد، فتحها وقاتل الأكراد فقتل منهم خلقاً.. ولـم تزل شهرزور وأعمالها مضمومة إلى الموصل حتى فُرقت في آخر خلافة الرشيد». (ص٣٢٩).

* * *

وأما بلاد الموصل فهو الإقليم الذي كان معقل الدولة والحضارة الآشورية في العصور القديمة وكانت عاصمتها مدينة نَيْنَوىٰ، وكانت نينوى (عند الفتح العربي الإسلامي سنة ١٩ ـ ٢٠هـ) حصناً في الضفة الشرقية لنهر دجلة ويُقابله في الضفة الغربية حصن الموصل، وكانت تتبع إقليم الموصل قرى ومدن ومناطق عديدة. قال الإمام أبو عبد اللّه الواقدي: (قال عبد اللّه بن عقيل الجعدي عن أبي إسحاق الهمداني: ارتحل عياض بن غَنْم الأشعري بعد فتح الجزيرة (الفراتية) ونزل على (مدينة) بلدا، وفيها بديع القبطي، فأجاب صلحاً على ما تقرر عليه. وارتحل عياض ـ من بلدا ـ وبعث عمرو بن جند ليغير على الموصل وأعمالها، فمضى وأغار وأخذ الغنائم ووقع الصايح فخرجوا عليه وقاتلوه، فقاتل حتى قُتل بالجانب الغربي، فلما بلغ عياضاً ذلك ارتحل ونزل الموصل فخرج إليه أهلها بالعدد والسلاح فكرّ عليهم بجيش الزحف فجعلهم حطاماً ولم يكن عليها يومئذ سور يمنع، فأخذها بالسيف. ونظر عياض إلى نينوى فإذا هي مدينة قد أخذت السهل والجبل، فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه نَيْنَوى، فقال: لعلها مدينة يونس بن متّى عليه السلام. قال الإمام الواقدي: وكان ملك نينوى يومئذ الملك أنطاق، وكان من تحت يد كسرى، فكتب عياض إلى أنطاق، فأبَى المصالحة، فأنفذ إليه الجزيري صالح فقال له: لئن لم تجب هؤلاء إلى ما أرادوه وإلا أذقْتُك شراً، فكتب إليه يقول: إني أصالحهم إلى ستة أشهر حتى أرى ما يكون من أمر كسرى فإن فتحوا بلده دخلتُ في طاعتهم، فأجابه المسلمون إلى ذلك وصالحوه على موجها ومرجها»[١].

وقد شهد ذلك الفتح لنينوى والموصل مع عياض بن غَنْم الأشعري عتبة بن فرقد، وكذلك عرفجة البارقي، وكان عرفجة الرجل الثاني في القيادة بعد عتبة بن فرقد، فاكتفت الروايات بذكر عتبة، فقال البلاذري: «ولّى عمر بن الخطاب عتبة بن فرقد السلمي الموصل سنة عشرين فقاتله أهل نينوى فأخذ حصنها وهو الشرقي عنوة، وعبر دجلة، فصالحه أهل الحصن الآخر على الجزية..».

وقال ابن الأثير: «وقيل: إن عمر بن الخطاب استعمل عتبة بن فرقد على قصد

(١) فتوح الشام ـ أبو عبد اللّه الواقدي ـ ١١٣ جـ٢.

الموصل وفَتْحها سنة عشرين، فأتاها، فقاتله أهل نينوى فأخذ حصنها وهو الشرقي عنوة، وعبر دجلة فصالحه أهل الحصن الغربي وهو الموصل على الجزية.. وقيل: إن عياض بن غَنْم لما فتح (مدينة) بلدا، أتى الموصل ففتح أحد الحصنين، وبعث عتبة بن فرقد إلى الحصن الآخر ففتحه على الجزية والخراج»[١]. وهو الفتح بالصلح الذي ذكر الإمام الواقدي النبأ اليقين بأنه مع أنطاق ملك نينوى، وكان ذلك في سنة ٢٠هـ قبل موقعة نهاوند مع جيش كسرى يزدجرد في بلاد فارس، لذلك فإن أنطاق صالح المسلمين إلى ستة أشهر حتى يرى ما يكون من أمر كسرى، فلما تم النصر العربي الإسلامي الكبير في نهاوند ـ في أواسط سنة ٢٠هـ ـ دخل أنطاك وسائر بلاد الموصل في الطاعة والصلح. وكان عرفجة بن هرثمة قد شهد موقعة نهاوند وكذلك عُتْبة، ثم عادا إلى بلاد الموصل واستعمل عمر عليها عتبة بن فرقد، وكان عرفجة نائباً له ومتولياً للخراج، فتولى عتبة بن فرقد مصالحة أهل مدن ومناطق الموصل على الجزية والخراج، فأمضى صلح أهل نينوى وحصن الموصل، قال البلاذري: «ووجد عتبة بالموصل ديارات فصالحه أهلها على الجزية، ثم فتح ـ بالمصالحة ـ المرج وقُراه، وأرض باهذار، باعذرا، وحِبتون، والحيانة، والمعلة، وداسير، وجميع معاقل الأكراد، وبانعاثة، وتل الشهارجة، والسلق الذي يُعرفُ ببني الحرّ بن صالح بن عبادة الهمداني صاحب رابطة الموصل». فاكتمل مصالحة أهل بلاد الموصل على الجزية والخراج في أواخر سنة ٢٠ للهجرة.

ثم في سنة ٢١ ـ ٢٢هـ مكث عرفجحة بالموصل بينما سار عتبة بن فرقد مدداً لجيش المسلمين في أذربيجان فاشترك في فتح بعض مناطق أذربيجان مع حذيفة بن اليمان والأشعث بن قيس الكندي وبكير بن عبد الله الليثي الكلبي.

قال ابن خلدون: «وكتب عتبة إلى عمر: إن فتوحي بلغت أذربيجان فولّاه إيّاها، وولّى عرفجة بن هرثمة على الموصل»[٢]، وكذلك قال البلاذري: «حدثني أبو رجاء الحلواني.. أن عتبة بن فرقد كتب إلى عمر: إنّي قد بلغتُ بفتوحي أذربيجان فولاه إياها وولّى عرفجة بن هرثمة الموصل». قال البلاذري: «وحدثني أبو موسى الهروي عن أبي الفضل الأنصاري عن أبي المحارب الضبي: أن عمر بن الخطاب عزل عتبة عن الموصل وولاها عرفجة بن هرثمة البارقي»[٣].

* * *

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٦٥ جـ٢.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٣٣٥.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٢٨.

ولاية عرفجة للموصل . . وتأسيس عصرها العربي الإسلامي

لقد كان عرفجة البارقي قائداً فذاً، وإدارياً ذا خبرة ودراية بتسيير الأمور، وعارفاً بتنظيم الخراج والأمور المالية، وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك وابن الأثير في كتاب الكامل أسماء عمال عمر بن الخطاب على البلدان وأنه ـ من سنة ١٦ ـ ٢٠هـ «كان عرفجة بن هرثمة عامل عمر على خراج الموصل»، ولكن الأصوب أن بداية فتح مناطق من بلاد الموصل كانت سنة ١٨هـ فأصبح عرفجة عاملاً على خراج تلك المناطق، ثم كان من القادة الكبار في الفتح الرئيسي لبلاد الموصل مع عتبة بن فرقد سنة ٢٠هـ، ولما اكتمل فتح بلاد الموصل ومصالحة أهلها على الجزية والخراج ـ في أواخر سنة ٢٠هـ ـ وسار عتبة إلى أذربيجان، عَيّنَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عرفجة بن هرثمة أميراً والياً على بلاد الموصل، فتولاها منذ سنة ٢١هـ إلى نحو سنة ٣٠هـ وأسس عصرها العربي الإسلامي، ومما يتصل بذلك ما جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه:

«في عهد عمر بن الخطاب عُيّن عرفجة والياً على الموصل. . وقد اشتهر بإعادة تخطيط الموصل، وهو الذي مَصّرها، وأسكنها العرب»[١].

وجاء في فتوح البلدان للبلاذري عن العباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن جده قال:

«أول من اختط الموصل وأسكنها العرب، ومَصّرها، عرفجة بن هرثمة البارقي»[٢].

وكان من معالم عهد ولاية عَرْفَجة بن هَرْثَمة البارقي لبلاد الموصل ما يلي:

أولاً: تولى عرفجة بلاد الموصل في خلافة عمر بن الخطاب ـ سنة ٢١هـ ـ فلما توفي عمر رضي اللّه عنه ـ في أواخر سنة ٢٣هـ ـ وتولى الخلافة عثمان بن عفان أقرَّ عثمان ولاية عرفجة للموصل فاستمر والياً عليها في خلافة عثمان، ومما يتصل بذلك: قال الحافظ ابن حجر في ترجمة عرفجة بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: (قال أبو زكريا المعافى الموصلي في تاريخ الموصل: الذي جَنّدَ الموصل عثمان وأسكنها أربعة آلاف، وكان أمَرَ عرفجة بن هرثمة فقطع بهم من فارس إلى الموصل»[٣]. ويتبين من ذلك أمران، أحدهما: استمرار عرفجة والياً للموصل في خلافة عثمان بن عفان. وثانيهما: أن قيام عرفجة باختطاط الموصل وتمصيرها كان

(١) الجامع ـ بامطرف ـ ص٣٧١.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٢٨.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٤٧٤ جـ٢.

في خلافة عثمان ما بين سنة ٢٤ وسنة ٢٩هـ، فتكون ولاية عرفجة لبلاد الموصل من سنة ٢١هـ إلى نحو سنة ٣٠هـ وذلك زهاء عشر سنوات.

ثانياً: كانت أول مدينة ومركز للمسلمين وأميرهم عرفجة ببلاد الموصل قرية قديمة اختارها عرفجة بن هرثمة وجعلها مدينة عاصمة وهي مدينة الحديثة. وفي ذلك قال البلاذري: «يُقال: إن عرفجة نزل الحديثة أولاً، فَمَصّرها، واختطها قبل الموصل». ومما يدل على صواب ذلك ما ذكره الإمام أبو عبد اللّه الواقدي في نبأ فتح الموصل ونينوى سنة ٢٠ هجرية أن أمير جيش المسلمين عياض بن غَنْم الأشعري بعث قائداً يُقال له عمرو بن جَنْد إلى حصن الموصل فخرج إليه أهل الحصن وقاتلوه، فقاتل عمرو حتى قُتل، فلما بلغ ذلك الأمير عياض سار بالجيش إلى حصن الموصل فحارب أهلها، قال الواقدي: «فجعلهم حطاماً، ولم يكن عليها يومئذ سور يمنع، فأخذها بالسيف» ويتبين من ذلك أن حصن الموصل تعرض لشيء من الخراب والدمار، وقد تم دفن القائد عمرو بن جَنْد في الجانب الغربي من مشارف الحصن، وكان بالقرب من الحصن (بِيَعٌ للنصارى ومنازل لهم قليلة عند تلك البِيع ومحلة صغيرة لليهود)، فقام عياض ثم عتبة بن فرقد بمصالحتهم على أداء الجزية، وبعث عياض بن غَنْم عُتبة بن فرقد ـ ومعه عرفجة ـ إلى الملك أنطاق صاحب حصن ومدينة نَيْنَوىٰ فتم مصالحته على الجزية والخراج على أهل نينوى وبلاد الموصل التابعة لها ـ أو كما قال الواقدي «على موجها ومرجها»، وتم تأكيد الصلح بعد ستة أشهر عند قدوم عتبة بن فرقد وعرفجة بن هرثمة ـ بعد فتح نهاوند ـ في أواخر سنة ٢٠ هجرية، ثم ما لبث أن ولّى عمر بن الخطاب عرفجة على تلك البلاد ـ سنة ٢١هـ ـ وبما أن حصن الموصل كان خاربا تقريباً وقد تم مصالحة حاكم نينوى وغيرها، فقد اختار عرفجة مكاناً آخر ليكون مقراً له وللسلطة العربية الإسلامية حيث ـ كما جاء في فتوح البلدان ـ «أتى عرفجةُ الحديثة وكانت قرية قديمة فيها بيعتان وأبيات النصارى، فَمَصّرها، وأسكنها قوماً من العرب، وبَنَىٰ نحوها حصناً». وتدل كلمة (مَصّرها) على أن الحديثة كانت مدينة عاصمة ومركزاً للسلطة العربية الإسلامية ومقراً للأمير عرفجة بن هرثمة ـ أمير بلاد الموصل ـ منذ توليته سنة ٢١هـ في خلافة عمر بن الخطاب وحتى أوائل سنوات خلافة عثمان، وكان الحصن الذي بناه عرفجة بالقرب من مدينة الحديثة مقراً للقوة العربية الإسلامية المرابطة ببلاد الموصل.

ثالثاً: قام عرفجة بتنظيم خراج بلاد الموصل وفَرَضَ الخراج على مناطقها ومروجها وأراضيها، والجزية على أهلها، وذلك على نحو ما فرضه عمر بن الخطاب على أرض سواد دجلة. قال عمرو الناقد: «وضع عمر على السواد على كل جريب عامر أو غامر يبلغه الماء درهماً وقفيزاً، وعلى جريب الرطبة خمسة دراهم وخمسة

أقفزة، وعلى جريب الشجر عشرة دراهم وعشرة أقفزة. وضرب الجزية على رؤوس الرجال ثمانية وأربعين درهماً وأربعة وعشرين، واثني عشر».

فقام عرفجة بمسح بلاد الموصل وفَرَضَ الخراج على أراضيها ومحاصيلها الزراعية دراهمَ وأقفزةً. وكان القفيز مكوكاً لهم يُدعى الشابرقان وهو مكيال يكيلون به الشعير والبرّ وغيرهما. كما قام عرفجة بضرب الجزية على من لم يُسلم من الرجال، فكان أهل بلاد الموصل يؤدون الخراج والجزية إلى عرفجة ويقوم هو بتحصيلها وبصرفها في مصارفها وبحفظ ما تبقى في بيت المال، وقد اشتهر عرفجة بأنه كان عاملاً على خراج الموصل لأن تنظيم الخراج كان عملاً مهماً يمتد ليشمل التنظيم المالي والإداري والموازنة بين الدخل والخرج وغير ذلك مما يتصل بالخراج وبيت مال الولاية.

رابعاً: أصبحت بلاد الموصل في عهد عرفجة البارقي ـ ومنذ عهده ـ ولاية ذات مدن ومناطق شاسعة ومحددة تمتد ما بين حدود ولاية الجزيرة الفراتية شمالاً وولاية الكوفة بالعراق جنوباً. وقد جاء في هامش كتاب الكامل أن: «الموصل: باب العراق ومفتاح خُراسان، وسُميت موصلاً لأنها وَصَلَتْ بين الجزيرة والعراق».

وكان من مدن ومناطق ولاية الموصل التي تم فرض الخراج والجزية عليها عند فتحها وفي عهد عرفجة بن هرثمة، فتكونت منها ولاية الموصل المدن والمناطق الرئيسية التالية:

١ ـ **حصن الموصل**: غرب نهر دجلة، تم فرض الجزية على أهله والإذن لمن أراد الجلاء في الجلاء.

٢ ـ **حصن مدينة نينوى**: شرق نهر دجلة. وكانت نينوى عاصمة الدولة الأشورية السامية العربية القديمة وفيها كان النبي يونس عليه السلام، وكان في نينوى عند الفتح العربي الإسلامي الملك أنطاق، ولا بد أنه من الآراميين الساميين العرب القدماء. وقد سلف في خبر الحرب بينه وبين المسلمين في تكريت أنه كان معه (الروم) ولا بد أن ذلك خطأ وتصحيف وأن الأصوب (الآراميين) فهم الذين كانوا ببلاد الموصل والجزيرة الفراتية، وهُمْ هجرات قديمة من اليمن إلى تلك البلاد.

٣ ـ **المرج وقرى المرج**: وهو مرج دجلة الموصل.

٤ ـ **أرض باهذرا**: وقد ذكرها ابن الأثير بلفظ (بانهذرا) وجاء في هامش الكامل (بانهذرا، بالذال المُعجمة، من قرى الموصل، ولم يذكر بانهذرا ياقوت في معجم البلدان).

٥ ـ **أرض باعذرا**: من كور الموصل.

٦ ـ **حِبْتُوْن**: وهو ـ كما في هامش الكامل ـ بكسر الحاء المهملة وسكون ثانيه وضم التاء وسكون الواو: جبلٌ بنواحي الموصل.

٧ ـ **داسن**: ذكره البلاذري بلفظ (داسير، وجميع معاقل الأكراد) وذكره ابن الأثير بلفظ (داسن، وجميع معاقل الأكراد) وجاء في هامش الكامل عن مُعجم ياقوت (داسن ـ بدال مهملة في أوله ونون في آخره ـ: جبل عظيم في شمالي الموصل في جانب دجلة الشرقي فيه خلق كثير من طوائف الأكراد يُقال لهم: الداسنة).

٨ ـ **الحيانة**: منطقة من معاقل الأكراد.

٩ ـ **المعلة**: معقل من معاقل الأكراد.

١٠ ـ **قَرْدىٰ وبازَبْدى**: قال ابن الأثير في نبأ فتح عتبة بن فرقد للموصل وتولية عرفجة بن هرثمة خراج الموصل « . . وقردى، وبازبدى، وجميع أعمال الموصل». وجاء في هامش الكامل: «قردى: بفتح أوله وسكون ثانية ثم دال مهملة وقصر، ـ أي مقصور ـ وبازبدى: بفتح الزاي وسكون الباء مقصور: كورتان متقابلتان قريبتان من جبل الجودي بالجزيرة» ـ أي الجزيرة الفراتية على تخوم تركيا حالياً، ـ أو في تركيا حالياً ـ والكور مثل المحافظة. .

١١ ـ **أرض بانعاثا**: وهي (بانعاثا من حزّة، وتل الشهارجة، والسلق الذي يُعرف ببني الحرّ بن صالح بن عَبّادة الهَمْداني صاحب رابطة الموصل).

١٢ ـ **مدينة أرمية والحور وخوى وسلماس**: قال البلاذري: «أخبرني معافى بن طاوس عن مشايخ من أهل الموصل قال: كانت أرمية من فتوح الموصل، فتحها عتبة بن فرقد، وكان خراجها حيناً إلى الموصل وكذلك الحور وخوى وسلماس». قال البلاذري: «أرمية: مدينة قديمة يزعم المجوس أن زردشت صاحبهم كان منها. وكان صدقة بن دينار مولى الأزد حارب أهلها حتى دخلها وغلب عليها وبَنَىٰ وإخوته بها قصوراً». وتقع أرمية وتلك النواحي في إيران حالياً، وكان خراجها إلى الموصل منذ عهد عرفجة فكانت من كور ولاية الموصل، ثم أصبحت فيما بعد من ولاية أذربيجان.

١٣ ـ **شهرزور وأعمالها**: وهي شهرزور والصامغان ودارأباذ، وكان يسكنها خلق من الأكراد، ففتحها عُتبة بن فرقد ـ ومعه عرفجة ـ وصالح أهلها على الجزية والخراج وعلى أن لا يُقتلوا ولا يُسْبوا ولا يُمنعوا طريقاً يسلكونه، وفرض عرفجة الخراج والجزية على أهل ومناطق شهرزور فكانت إحدى كور ولاية الموصل منذ عهد عرفجة وخلافة عمر بن الخطاب إلى خلافة هارون الرشيد. قال البلاذري: «لم تزل شهرزور وأعمالها مضمومة إلى الموصل حتى فُرقت في آخر خلافة الرشيد فولّى

شهرزور والصامغان ودراباذ رجل مفرد. وكان رزق (أي مُرتب) عامل على كورة من كور الموصل مائتي درهم، فخط الرشيد لهذه الكور ستمائة درهم».

١٤ ـ زران وما يلي دامير: وهي آخر ما تم فتحه من بلاد ولاية الموصل، بعث إليها عرفجة بن هرثمة قوة من المسلمين في خلافة عثمان ففتحوها. وفي ذلك قال البلاذري: (حدثني بعض أهل بابغيش أن المسلمين طلبوا غَرةً أهل ناحية منها مما يلي دامير يقال لها زران فأتوهم في يوم عيد لهم وليس معهم سلاح فحالوا بينهم وبين قلعتهم وفتحوها».

خامساً: في نحو سنة ٢٥هـ بدأ عرفجة بن هرثمة البارقي بالعمل الكبير الذي خلّده التاريخ وهو تأسيس واختطاط مدينة الموصل في مكان حصن الموصل القديم الذي كان أغلبه خارجاً، فانتقل عرفجة من مدينة وحصن الحديثة إلى مكان حصن الموصل في الضفة الشرقية لنهر دجلة، فأسس واختط مدينة الموصل بمساكنها ومبانيها ومرافقها العامة ومسجدها الجامع وسورها وأسكن بها العرب المسلمين الذين كانوا معه وغالبيتهم من الأزد وكندة، وجعل الموصل مدينة عاصمة لولاية الموصل. قال البلاذري: «حدثني أبو موسى الهروي عن أبي الفضل الأنصاري عن أبي المحارب الضبي ـ أنه ـ كان بالموصل الحصن وبيع النصارى ومنازل لهم قليلة عند تلك البِيع ومحلة اليهود، فَمَصَّرها عرفجة البارقي فأنزل العرب منازلهم واختطّ لهم، ثم بَنَى المسجد الجامع». وقال العباس بن هشام الكلبي: (أول من اختط الموصل وأسكنها العرب ومَصَّرها عرفجة بن هرثمة البارقي».

وفي سنة ٢٨هـ توجه الكثير من عمال وقادة بلاد العراق ومشارقها في الجيش الذي بعثه الخليفة عثمان بن عفان بقيادة عبد اللّه بن عامر أمير ولاية البصرة لفتح أقاصي بلاد فارس وسجستان وخراسان، فكان عرفجة البارقي ممن سار في ذلك الجيش والفتح، وكان في ذلك الجيش عدد كبير من قبائل العرب فأقنع عرفجة أربعة آلاف منهم بالعودة معه إلى الموصل والاستقرار بها فاستجابوا، فكتب بذلك إلى عثمان فأمر بمسيرهم معه بعد فتح أقاصي فارس وسجستان فلما تم الفتح ساروا معه إلى الموصل وهو ما يستفاد مما ذكره أبو زكريا الموصلي في تاريخ الموصل قائلاً: «الذي جَنَّدَ الموصل عثمان وأسكنها أربعة آلاف، وكان أَمَّرَ عرفجةَ بن هرثمة البارقي فقطع بهم من فارس إلى الموصل».

فأسكن عرفجة الأربعة الآلاف بالموصل وكان غالبيتهم من مناطق المهرة وحضرموت وأزد عُمان وهي مناطق كان عرفجة من عُمالها في خلافة أبي بكر ويعرف رؤساءها وقبائلها، وتَدُل أنباء الموصل في العهود اللاحقة على أن أغلبية

أولئك العرب كانوا من الأزد وحضرموت، وقد كان ممن تولاها في أيام ابن الزبير وعبد الملك بن مروان المُهلب بن أبي صُفرة الأزدي ومحمد بن الأشعث الكندي، ثم كان عَدِي بن عَدِي بن عميرة الكندي قاضياً للموصل.

وكان عرفجة قد أعطى اهتماماً رئيسياً لنشر دين الإسلام، فكانت مدينة الموصل في عهده قاعدة انطلاق وانتشار دين الإسلام إلى أرجاء مناطق ولاية الموصل، فأسلم على يد عرفجة والعرب الذين كانوا معه بالموصل غالبية أهل تلك البلاد من العرب النصارى، ودخل الأكراد في دين اللّه أفواجاً، وترسخت دعائم الإسلام والعصر العربي الإسلامي في ولاية الموصل ولم يزل عرفجة أميراً والياً عليها إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، ولم تذكر التراجم زمن وفاته، ويمكن القول بصفة عامة إنه توفي بعد سنة ٣٠ هجرية فعليه رحمة ورضوان اللّه تعالى.

٦٤

جَيْفَر بن جُلَنْدَى الأزدي

ـ ملكُ عُمان في عهد الرسول ـ

من أعلام الزعماء اليمانيين الذين كتب وبعث رسول اللّه ﷺ يدعوهم إلى الإسلام فآمنوا أصدق إيمان، هو جيفر بن جُلَنْدَىٰ الأزدي ملك عُمان.

قال ابن هشام في السيرة النبوية: «بعث رسول اللّه ﷺ رُسُلاً من أصحابه وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فبعث دِحْيَةَ بن خليفة الكَلْبِيَّ إلى قيصر ملك الروم. . . وبعث عَمْرَو بن العاص السَّهْمِيّ إلى جَيْفَر وعباد ابني الْجُلنْدَي الأزْدِيَّيْن مَلِكَيْ عُمَان. . وَبَعثَ شُجَاع بن وَهبْ إلى الحرث بن أبي شمر الْغَسَّاني ملك تخوم الشام (و)إلى جَبَلة بن الأيهم الغَسَّاني، وبَعَثَ المُهَاجر بن أبي أُمَيَّة المخْزُومي إلى الحرث بن عبد كُلَال الْحِمْيَرِيّ ملك اليمن»[١].

وقد ذكرت تراجم الصحابة وكتب السنن والسيّر والتاريخ نَص المكتوب النبوي إلى جيفر وعباد ابني الجُلَنْدي الأزدي ملكي عُمان وهو: «بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول اللّه إلى جَيْفر وعَباد ابني الجُلَنْدَي: السلام على من اتّبع الهدى، أما بعدُ: فإنّي أدعوكما بدعاية الإسلام. أسلما تَسلَما، فإنّي رسول اللّه إلى الناس كافَةً لأُنذِرَ من كانَ حيّاً ويَحِقّ القولُ على الكافرين. فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليّتُكما وإن أبيتما فإن ملككما زائل وخَيلي تَحلّ بساحتكما وتظهر نُبوّتي على مُلككما وكتب أُبَيُّ بن كعب»[٢].

فما هي جذور حكم جيفر بن الجُلندي وآل الجُلندى الأزْديِّيْن اليَمانيّيْن لعُمان؟ وما هي معالم الواقع الذي كان في عُمان حتى ظهور الإسلام وحتى مسير مبعوث رسول اللّه ﷺ بذلك المكتوب إلى جيفر بن الجُلندى وأخيه عباد بن الجُلندى؟

معالم الجذور التليدة في عُمان

منذ زمن بعيد في الماضي يرتبط تاريخ منطقة عمان بتاريخ أرض وشعب

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص٢٧٩ جـ٤.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد اللّه ـ ص١٦٢.

اليمن، وباسم عُمان بن قحطان سُميت عُمان، وذلك عندما أسست قبائل بني قحطان أول وأقدم دولة شملت كل بلاد اليمن بزعامة يعرب ابن قحطان وليس يعرب ابناً مباشراً لقحطان وإنما هو من سلالته فبينهما أجيال عديدة. قال ابن خلدون: «وليس بين الناس خلاف في أن قحطان أبو اليمن كلهم.. وكان بنو قحطان.. مُجتمعين في مجالات البادية.. فتشعبت في أرض الفضاء فصائلهم، وتعدد في جو القفر أفخاذهم وعشائرهم، ونما عددهم.. واستجدوا خلق الدولة.. وكان يعرب بن قحطان (أول ملوكهم) من أعاظم ملوك العرب.. وهو الذي مَلَكَ بلاد اليمن.. وولّى إخوته على جميع أعمالهم، فولّى عاد بن قحطان على الشِّحر، وحضرموت بن قحطان على حضرموت، وعُمان بن قحطان على بلاد عُمان»[١]. فكان بنو عمان بن قحطان أول وأقدم من سكنوا عُمان وانقطعوا في تلك البلاد، ثم سكنت عمان في عصور مملكة سبأ قبائل وحاميات يمانية سبئية قديمة وكان سلطان ونفوذ ملوك مملكة سبأ يشمل عُمان وما يليها من مناطق وساحل الخليج، ومن النقوش والشواهد الأثرية السبئية المعثور عليها هناك «نقش سبئي مُدون من اليسار إلى اليمين تم العثور عليه في عمان ـ وهو مُدون بطريقة الكتابة السبئية الأقدم ـ وتم نشره في:

Travels and Researches in Chaldaea and Susiana 1849-1852.

وفي منطقة هنا HANNA وثدج (على بعد مائة ميل شمال غرب القطيف) عثر الكابتن شكسلبير على نقوش مدونة بالسبئية، تم نشرها سنة ١٩٢٢م في:

Douglas Carruthers, The Trip of Captain Shakespeare. Geographic Journal, 59, (1922), PP. 320-323.

وهناك كتابة سبئية أخرى عُثر عليها في ثدج يملكها حالياً أمير الكويت ونشرها ريكمان في:

Le Museon, 50, P. 239.

وفي سنة ١٩٤١م عثر كورنويل على نقوش بالسبئية في جزيرة تارون قرب ساحل القطيف»[٢].

وأسفرت تنقيبات بعثة دراسة الإنسان الأميركية سنة ١٩٥٢ و ١٩٦٥م في عُمان عن العثور على نقوش وآثار سبئية عديدة[٣] وقد

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٣١ و ١٢٣.

(٢) المدخل إلى تاريخ اللغات الجُزرية ـ د. سامي سعيد الأحمد ـ ص٦ ـ مطبعة الحكم المحلي ـ بغداد ـ ١٩٨١م.

(٣) تاريخ اليمن القديم ـ د. محمد بافقيه ـ ص٥٥ ـ ٥٨ ـ ويمتد زمن تلك الآثار والمواقع إلى أواخر القرن الثالث الميلادي.

تم نشرها سنة ١٩٦٦م في كتاب عُمان المجهولة لويندل فيليبس:

W. PHILLIPS. Unknown Oman, London. 1966.

وقد انتقلت عشائر أزدية سبئية من أرض مأرب إلى عمان قبل سيل العرم، وفي ذلك قال ابن خلدون: «كان بنو زهران من الأزد خرجوا من اليمن قبل خروج مزيقيا ونزلوا عُمان»[١]. ثم بعد تلك العصور احتل الفُرس بعض مناطق ساحل عُمان، ولم يكن لهم قبل ذلك وجود ولا نفوذ فيها. ولما وقع سيل العرم انتقلت قبائل أزدية من أرض مأرب إلى عُمان وبدأ بذلك التاريخ المعروف لعُمان وأزد عُمان.

انتقال الأزد من مأرب إلى عُمان.. ونبأ الملوك

في أعقاب سيل العرم وانهيار سد مأرب العظيم الأقدم انتقل من أرض مأرب الشاسعة فريق من قبائل الأزد ـ وليس كل قبائل الأزد ـ ثم بعد ذلك بزمن انتقلت بقية قبائل الأزد، ولذلك فإن الذين انتقلوا إلى عُمان من قبائل الأزد كان منهم فرقة سارت من مأرب عن طريق حضرموت والمهرة وظفار في أعقاب سيل العرم ثم فرقة سارت بعد ذلك بزمن، وقد ذكر المؤرخ العوتبي في تاريخ عُمان نبأ الفرقة الأولى وقال ما يلي:

«كان أولُ من لحق بعمان من الأزد مالك بن فهم بن حاتم بن غَنْم بن دوس بن عدثان بن عبد اللّه بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد اللّه بن مالك بن نصربن الأزد.. سار مالك بن فهم حتى دخل عُمان بعسكر جمّ في الخيل والعدة والعدد، فوجد بها الفُرس، فاعتزل مالك بمن معه إلى جانب قلهات من شط عُمان ليكون ذلك أمنع لهم» ثم «أنذر مالك بن فهم الفُرسَ وقَاتَلَهُم، وأجلاهم من عُمان»[٢].

ويقول د. فاروق عمر: «رغم أن هناك روايات تاريخية عن انتصار مالك بن فهم على الفرس وإجلائهم عن عُمان، فالظاهر أن هذا الانتصار كان في داخل عُمان وليس على الساحل، حيث ظل الفُرس محتفظين بموضع قدم لهم على مساحات من سهول عُمان الساحلية. ثم توالت هجرات أزدية أخرى بعد أن قوي نفوذ مالك بن فهم وبسط سيطرته شمالاً إلى الإحساء والبحرين»[٣]. وليس هناك في الواقع تعارض بين انتصار الأزد بقيادة مالك بن فهم على الفُرس وإجلائهم عن عمان نهائياً وبين وجود الفُرس فيما بعد بمناطق من ساحل عُمان لأنهم احتلوا تلك المناطق مرة أخرى بعد زمن مالك بن فهم وأولاده. فقد ذكر العوتبي والأزكوي أنه: «لم تكن للفُرس رجعة إلى عُمان بعد أن أجلاهم مالكُ عنها إلى أن انقضىٰ مُلكه ومُلك أولاده من

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٣١ و ١٢٣.

(٢) أنساب العرب وتاريخ عُمان ـ العوتبي ـ ص٢٥٤.

(٣) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٢٨.

بعده وصار مُلكها إلى الجُلَنْدى بن الجُلَنْدى بن المُستكبر المعولي»[١] .

وكانت سلطة الفرقة الأولى من قبائل الأزد التي استقرت في عمان قد امتدت إلى الإحساء والبحرين في عهد الملك الأول مالك بن فهم الأزدي وابنه الملك جذيمة بن مالك بن فهم الأزدي، ثم ـ كما ذكر د. فاروق عمر ـ «توالت هجرات أزدية أخرى» وهي هجرة ـ أو انتقال ـ الفرقة الثانية من قبائل الأزد وكان مسيرهم من طريق مأرب ونجران إلى عروض اليمامة ثم البحرين وعمان، وفي ذلك قال جُماعة البارقي في قصيدته عن انتقال الأزد من أرض مأرب والمناطق التي سكنوها، قال جماعة البارقي:

حَلّت الأزدُ بَعْد مَاربها: الْغَوْرَ ، وأرضَ الحجازِ، والسَّروات
وَمَضتْ منهم كتائبُ صِدْقٍ مُنْجِداتٍ تخوضُ عَرضَ الفَلاةِ
فأتَتْ سَاحَةَ اليمامة بالأظْعَانِ والخيلِ والقَنَا والرُّمَاةِ
واتْلَأبّتْ تؤمُّ قافية البحرين بالخور بين أيدي الرُّعَاةِ
فأقرّت قرارها بِعُمانٍ، فَعُمانُ محلّ تلك الحُمَاةِ[٢]

وبذلك كثرت الأزد في عمان وانتشروا إلى مناطق ساحل البحرين بمدلولها الواسع القديم وحكموها وكانوا على علاقة ارتباط بدولة اليمن الحميرية وملوكها التبابعة في عهد الملك تُبّع حسان الثاني والملك تُبّع أسعد الثاني بالقرن الخامس الميلادي، ويُروى أن الملك حسان تُبع الحميري (الذي حكم اليمن في الفترة ما بين سنة ٤٤٠ ـ ٤٦٠ ميلادية) قال:

وأزدُ لها البحرين والسِّيف كُلُّه وأرض عُمان بعد أرض المُشَقّر

وأن قبائل أزد عُمان كانت في جيش الملك أسعد تُبّع الحميري (الذي حكم في الفترة ٤٦٠ ـ ٤٨٠م) وأنه قال لما غزا بلاد الحيرة وغيرها:

ومعي مقاول حِمْيَر وملوكها، والأزدُ، أزْد شنوءة وعُمَانْ
ومعي قُضاعتُنْ، وكِنْدَتنْ معي، والقلبُ مَذْحِجُ، والذُرَىٰ هُمْدَانْ

ويمكن القول على سبيل الاستنتاج إن حكم الملوك آل الجُلَنْدَى لعمان ربما بدأ في ذلك الزمن بأواسط القرن الخامس الميلادي. إذْ أنه ـ كما ذكر د. فاروق عمر ـ «لم تبق السلطة في عُمان في آل مالك بن فَهْم، بل انتقلت إلى بني معولة بن شمس» قال ابن خلدون: «كان منهم قبل الإسلام: المُستكبر بن مسعود بن

---

(١) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٢٨.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٣٧٣.

الجرار بن عبد اللَّه بن معولة بن شمس. . والذي أدرك الإسلام منهم: جَيْفر بن الجُلَنْدَى بن كركر بن المُستكبر» وقد ذكر د. فاروق عمر أنه «ينتمي آل الجُلَنْدى بن المستكبر إلى بني معولة» وقال د. فاروق عمر أيضاً في مصادر التاريخ العماني ما يلي نصه: «إن عشيرتين يمانيتين حملتا لقب الجُلَنْدَى، **إحداهما**: بنو الجُلَنْدَى بن كركر الذين بسطوا نفوذهم على الخليج. . **وثانيهما**: بنو الجُلَنْدى المعولي وهم الذين حكموا عُمان». وقد سلف ما ذكره العوتبي والأزكوي من أنه لم تكن للفرس رجعة إلى عمان بعد أن أجلاهم مالك بن فهم عنها إلا بعد أن صار مُلْكها إلى (الجُلَنْدَى بن الجُلَنْدَى بن المستكبر المعولي».

ويتبين من ربط مجمل النصوص والروايات التاريخية ما يلي:

ـ أن الملك المُستكبر بن مسعود بن الجرار بن عبد اللَّه بن معولة الأزدي كان ملك عُمان ومناطق الخليج بما فيها البحرين والسِّيف ـ أي الساحل ـ كل ساحل الخليج العربي.

ويبدو أن الملك المستكبر عاصر الملك حسان تبع الحميري والملك أسعد تبع الثاني وكان على علاقة وارتباط معهما، وكان عهده في الفترة ما بين ٤٥٠ و ٥٠٠ ميلادية، وهو ـ فيما نعلم ـ أول ملك من الأسرة الجُلَنْدَية بل هو رأس تلك الأسرة الأزدية.

ـ ثم تولى الحكم الملك الجُلَنْدى بن المستكبر، وهو نفسه (كركر بن المستكبر)، وكان الجُلَنْدَى كركر بن المستكبر يحكم عمان ويبسط نفوذه على منطقة الخليج، وقام بتولية أحد أبنائه على منطقة الخليج والساحل الشرقي، ولم يكن في عهده أي وجود للفرس في ساحل عمان والخليج، ويمكن تقدير عهد الجُلَنْدَى بن المستكبر في الفترة ما بين سنة ٥٠٠ وسنة ٥٤٠ ميلادية.

ـ ثم تولى الحكم الملك الجُلَنْدى بن الجُلَنْدَى بن المستكبر الأزدي، وقد عاصر كسرى أنوشروان ملك الفرس الذي حكم في الفترة (٥٢٨ ـ ٥٧٥م)، كما عاصر الملك المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وأبناء المنذر وهم عمرو بن المنذر الذي حكم ما بين (٥٥٥ ـ ٥٧١م) والأسود بن المنذر (٥٧٢ ـ ٥٧٥)، والمنذر بن المنذر (٥٧٦ ـ ٥٧٩م) والنعمان بن المنذر (٥٨٠ ـ ٦٠٢م) وقد ذكر الشاعر الجاهلي أعشى قيس أنه كان يفد على أبناء المنذر ملوك الحيرة وعلى الجُلَنْدَى ملك عمان وقيس بن معدي كرب الكندي ملك حضرموت في الجاهلية، وكذلك أبناء جفنة الغساسنة الملوك بالشام، وقال في ذلك:

قد صحبنا من آل جَفْنَة أملاكاً بالشام ذات الرفيف

وبني المنذر الأشاهب في الحيرة يمشون غدوة كالسيوف
وجُلَنْدَاءَ في عُمان مقيماً ثم قيساً بحضرموت المُنِيفِ

وقد طال عهد وعُمر الملك الجُلَنْدى بن المستكبر إلى ظهور الإسلام، فكان هو ملك عمان في الفترة ما بين سنة ٥٤٠ وسنة ٦٢٠م تقريباً، وقد ذهب البعض إلى أن عُمان كانت تحت حكم الفرس، ولكن الذي يتبين من المصادر التاريخية هو أن الوجود والنفوذ الفارسي بدأ في عهد الجُلَنْدى بن الجُلَنْدى، وبالتالي في عهد كسرى أبرويز بن هرمز وهو الذي قضى على النعمان بن المنذر ملك الحيرة سنة ٦٠٢هـ وأخضع إقليم الحيرة للحكم الفارسي وولّى حاكماً فارسياً يُقال له (المكعبر) في البحرين، وعندئذ ـ فيما يبدو ـ بدأ الوجود الفارسي في مناطق من سهول عمان الساحلية ربما بموافقة الملك الجُلَنْدَى الجُلَنْدى، وقد ذكر د. فاروق عمر عن المؤرخ العوتبي والأزكوي أنه:

«كانت الفرس في السواحل وشواطئ البحر، والأزد ملوكاً في البادية والجبال وأطراف عُمان وكل الأمور منوطة بهم. وكان كل من غضب عليه كسرى أو خافه على نفسه ومُلكه أرسله إلى عُمان يحبسه بها، ولم يزالوا كذلك إلى أن أظهر اللّه الإسلام»[1].

وقد كانت في عمان ثلاث مدن بمثابة عواصم ومراكز للسلطة وهي مدينة صُحَار ـ مقر الملك الجُلَنْدَى ـ ومدينة توأم ولها منفذ على البحر هو ميناء دبا ـ ومدينة الرستاق. وقد نقل د. فاروق عمر عن المستشرق ولكنسون أنه: «كان مركز القبائل الأزدية: توأم ولها منفذ على البحر هو ميناء دَبَا. أما مقر الحاكم الفارسي فكان الرستاق، وكانت هناك قوة عسكرية ساسانية ـ فارسية ـ في صُحَار»[2]. وقال القاضي محمد بن علي الأكوع في كتاب الوثائق السياسية اليمنية أنه «كان الحاكم الفارسي ـ برستاق عمان ـ أسوارُ من أساورة الفرس يقال له بستجان» وأنّ «مدينة توأم: اسم قصبة عُمان مما يلي الساحل. بينما صُحَار قصبة عمان مما يلي الجبل»[3]. وبذلك فإن مدينة صحار كانت هي عاصمة المناطق الجبلية والداخلية من عمان وأطراف عُمان الساحلية، وكانت صُحار مقر الملك الجُلَنْدَى ـ وهي على الساحل الشرقي لعمان على الخليج العربي ـ ثم تليها شمالاً توأم ومدينة وميناء دَبَا

(١) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٢٩.
(٢) جُلندى عُمان ـ ولكنسون ـ ص٩٩.
WILKNSON. The Julanda of Oman. 1975. P. 99.
(٣) الوثائق السياسية اليمنية ـ محمد علي الأكوع ـ ص١٢١.

وفيها أيضاً حاكم من بني الجُلَنْدَى بن المستكبر، بينما كان الفرس في الرستاق ولهم حامية عسكرية في صحار، ولم يزل الحال كذلك إلى ظهور الإسلام.

ـ كان الملك جَيْفر بن الجُلَنْدَى بن الجُلَنْدَى بن المستكبر المعولي الأزدي هو الملك الرابع ـ أو الجيل الرابع ـ من ملوك تلك الأسرة الأزدية اليمانية التي حكمت عُمان منذ أواسط القرن الخامس الميلادي. قال ابن خلدون: «والذي أدرك الإسلام منهم جيفر بن الجُلَنْدى وأخوه عبد اللّه ملكا عمان. كتب إليهما النبي ﷺ فأسلما» وقد تعددت الروايات في اسم أخي جيفر بن الجُلَنْدَى فقيل (عبد) وقيل (عبيد) وقيل (عباد) وهو الأرجح والأكثر، وإنما جاء اسمه في المكتوب النبوي (عبد) لأن حرف الألف لا يتم كتابته إذا جاء في وسط الاسم مثل (رحمن) و (سليمن) وغير ذلك في رسم المصحف. وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة (الجُلَنْدَى ملك عُمان) بكتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) أنه «بعث النبي ﷺ إلى الجُلَنْدَى ملك عمان يدعوه إلى الإسلام. .» وقال: «بعث إليه النبي ﷺ عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام. .» ثم ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة (جيفر بن الجُلَنْدَى) أن رسول اللّه ﷺ بعث وكتب إلى جيفر بن الجُلَنْدَى وأخيه ملكي عُمان، وقال الحافظ ابن حجر أيضاً: «ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم من الإرسال إلى الجُلَنْدى. ولا مانع أن يكون الجُلَنْدَى قد شاخ وفَوّض الأمر إلى ولديه. واللّه أعلم»[1]، وعلى ضوء ذلك يمكن القول إنه في نحو عام ٦٢٠م اعتزل الجُلَنْدى بن الجُلَنْدَى الحكم؛ لأنه قد شاخ وبلغ من الكبر عتياً، وفَوّض الحكم إلى ولديه جيفر وعباد، فتم تمليك جيفر بن الجُلَنْدى ملكاً لعمان وتَسَلم سدة العرش بمدينة صُحَار ومعه أخوه عباد معاوناً له أو ملكاً في توأم، وكان يُقال لهما (ملكا عمان) إلا أنّه ـ وكما ذكر الحافظ ابن حجر ـ «كان الملك منهما جَيْفر بن الجُلَنْدَى»[1]، وبعد زهاء سبع سنوات من تمليك جَيْفر بن الجُلَنْدى بعث وكتب إليه رسول اللّه ﷺ يدعوه مع أخيه وأهل عُمان إلى الإسلام.

* * *

مبعوثا رسول اللّه ﷺ إلى جيفر بن الجُلَنْدَى

بعد عودة رسول اللّه ﷺ مِنْ الحُديبية، وإبرام صلح الحُديبية بينه وبين قريش، وذلك في ذي القعدة سنة ٦ هجرية، ـ وكما ذكر ابن هشام في السيرة النبوية ـ «بعث رسول اللّه ﷺ رُسلاً من أصحابه وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام. . فبعث عمرو بن العاص إلى جَيْفر وعَبّاد ابني الجُلَنْدى الأزديين ملكي عُمان»[2]، وكان

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ ص٢٦٤ جـ٢.
(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص٢٧٩ جـ٤.

ذلك بعد العودة من الحديبية ـ في ذي الحجة سنة ٦ هجرية ـ وقال ابن الأثير عن زمن البعث والكتاب النبوي إلى جيفر بن الجُلَنْدَى وأخيه بأنه «قيل: إنه سنة سبع للهجرة»[١] فيمكن أن يكون كتابة الكتاب النبوي ومسير المبعوث بالكتاب من المدينة المنورة في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٦ هجرية ووصوله إلى جيفر بن الجُلَنْدَى في أول سنة سبع للهجرة، وذلك قبل سنة ونيف من إسلام عمرو بن العاص، لذلك فإن (عمرو) المبعوث إلى جيفر بن الجُلَنْدَى آنذاك لا يمكن أن يكون عمرو بن العاص، وإنما هو أبو زيد عمرو الأنصاري، قال البلاذري:

«لما كانت سنة ثمان بعث رسول اللّه ﷺ أبا زيد الأنصاري أحد الخزرج، وعمرو بن العاص إلى جيفر وعبّاد ابني الجُلَنْدى.. وقال قوم: إن رسول اللّه ﷺ كان وَجّهَ أبا زيد الأنصاري بكتابه إلى جيفر وعُبيد ابني الجُلَنْدَى في سنة ست للهجرة، ثم وَجّهَ عمرو بن العاص في سنة ثمان للهجرة بعد إسلامه بقليل، وكان إسلام عمرو بن العاص في صفر سنة ثمان للهجرة»[٢]. وقد نقل د. فاروق عمر عن الأزكوي أن بعث عمرو بن العاص كان «بعد فتح مكة في رمضان سنة ٨ هجرية»[٣].

ويتيح ذلك إدراك أن مبعوث رسول اللّه ﷺ إلى جيفر بن الجُلَنْدَى وأخيه ـ في ذي الحجة ٦هـ ـ هو أبو زيد عمرو الأنصاري، ثم بعثه رسول اللّه ﷺ مرة ثانية هو وعمرو بن العاص بعد فتح مكة في رمضان ٨هـ وذلك عند عودته من الجعرانة في ذي القعدة سنة ٨ هجرية.

نبأ بعث أبي زيد ولقائه بجيفر وأخيه سنة ٧هـ

كان أبو زيد الخزرجي الأزدي من كبار الصحابة الأنصار بالمدينة المنورة. قال البلاذري: «أبو زيد الأنصاري، أحد الخرزج: قال بعض البصريين: اسم أبي زيد الأنصاري عمرو.. وهو جد عروة بن ثابت بن عمرو الأنصاري. قال البلاذري: وأبو زيد الأنصاري هو أحد من جمع القرآن في عهد رسول اللّه ﷺ».

وكان أبو زيد عمرو الأنصاري، ودحية بن خليفة الكلبي القضاعي الحميري، والعلاء بن الحضرمي، من الصحابة الذين شهدوا غزوة وصلح الحُديبية في ذي القعدة سنة ٦هـ فلما عاد رسول اللّه ﷺ والذين معه من الحديبية إلى المدينة المنورة، بعث رسول اللّه ﷺ رُسُلاً من أصحابه وكتب معهم إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ومنهم: دِحْيَة بن خليفة الكلبي إلى القيصر هرقل ملك الروم ـ وكان

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١٤٣ و ١٨٥ جـ٢.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٨٧.

(٣) مصادر التاريخ العماني ـ فاروق عمر ـ ص٣٠.

مقيماً بحمص، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين ـ وكان مقره في مدينة هجر بالبحرين ـ، وأبو زيد عمرو الأنصاري إلى جيفر بن الجُلَنْدى الأزدي ملك عمان وأخيه عُباد ـ وكان مقره في مدينة صُحَار قصبة عُمان ـ وهو البعث الذي ذكر البلاذري أنه «قال قومٌ: إن رسول اللّه ﷺ كان وَجَّه أبا زيد الأنصاري بكتابه إلى جيفر وعبيد ابني الجُلَنْدَى في سنة ست للهجرة».

وبما أن اسم أبي زيد الأنصاري هو (عمرو) فإن الرواية التي ذهبت إلى أن المبعوث هو (عمرو بن العاص) قد دمجت نبأ بعث (أبي زيد عمرو الأنصاري) بخبر بعث عمرو بن العاص، لتشابه وواحدية اسمهما (عمرو) بينما المبعوث الأول هو (عمرو أبو زيد الأنصاري)، فانطلق من المدينة المنورة إلى عُمان في ذي الحجة سنة ٦ هجرية، وكذلك العلاء بن الحضرمي المبعوث إلى البحرين، فتوجه العلاء إلى المنذر بن ساوي بمدينة هَجَرْ (في الإحساء) وهي قصبة البحرين، بينما مضى أبو زيد عمرو الأنصاري إلى مدينة صُحار قصبة عمان فدخلها في نحو شهر المحرم سنة ٧ هجرية. قال البلاذري: «لما قدم أبو زيد عُمان وَجَدَ عُبيداً وجيفرا بِصُحار على ساحل البحر» ـ وربما وجد عبيداً في توأم ومدينتها دبا ـ ثم جيفراً بصحار.

فالتقى أبو زيد عمرو الأنصاري بِعُبيد ـ أو عباد ـ بن الجُلَنْدى، وقد ذكرت الروايات التاريخية نبأ اللقاء بأنه:

«لما قَدِم عمرو إلى عُمان، عمد إلى عبيد بن الجُلَنْدَى، وكان أحلم الأخوين وأسهلهما خُلقاً.

فقال عمرو: إنّي رسول رسول اللّه إليك وإلى أخيك.

قال عبيد: أخي المُقَدّم عليّ بالسن والملك وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك. فما الذي تدعو إليه؟

فقال عمرو: أدعوك إلى اللّه وحده لا شريك له، وتخلعُ ما عُبد دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال عبيد: يا عمرو، إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة؟».

ـ وتؤكد هذه العبارة على أنه عمرو أبو زيد الأنصاري فقد كان أبوه سيد الخزرج بيثرب، وبما أن الخزرج من الأزد وكذلك آل الجُلَنْدَى من الأزد، قال عبيد (إن لنا فيه قدوة).

فقال عمرو: مات أبي منذ سنوات (ربما قبل الهجرة) فلم يؤمن بمحمد، وقد هداني اللّه إلى الإسلام والإيمان فآمنت.

قال عبيد: فأخبرني ما الذي يأمر به محمد وينهى عنه؟

فقال عمرو: يأمر بطاعة اللّه عزّ وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبِرّ، وصِلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشُرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

فقال عبيد: ما أحسنَ هذا الذي يدعو إليه، ولو كان أخي يُتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ونُصدق به. ولكن أخي أضَنُّ بِمُلكه من أن يدعه.

فقال عمرو: إنه إن أسلم مَلّكه رسول اللّه ﷺ على قومه».

ثم سار عبيد بن الجُلَنْدى إلى أخيه الملك جَيْفَر في قصره بمدينة صَحَار، ومعه عمرو (أبو زيد الأنصاري) فأخبر عبيد أخاه الملك جيفر بالخبر واستأذن لعمرو فأذن له فدخل إليه في مجلسه بقصر صحار.

فقال الملك جيفر: تكلم بحاجتك.

فقال عمرو: هذا كتاب رسول اللّه ﷺ وناوله الكتاب مختوماً.

فأخذ جيفر الكتاب ففض خاتمه فقرأه، فإذا هو:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول اللّه إلى جيفر وعباد ابني الجُلَنْدى، السلام على من اتّبع الهُدى. أما بعد: فإنّي أدعوكما بدعاية الإسلام[1]، أسْلِما تَسْلما، فإني رسول اللّه إلى الناس كافّةً لأُنذِر من كان حيّاً ويحِقُ القولُ على الكافرين. وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتُكما، وإن أبَيْتُما فإن مُلككما زائل، وخَيلي تَحلّ بساحتكما، وتظهر نُبوّتي على مُلككما»[2].

فقرأ جيفر الكتاب حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته.

ثم قال جيفر: ما الذي يأمر به محمد وينهى عنه؟

فقال عمرو: يأمر بطاعة اللّه عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبِرّ وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشُرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. فأسلم تَسلم، يُملكك رسول اللّه على قومك، ويأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم.

فقال جيفر: إن هذا لَخُلُقٌ حَسَن، وماالصدقة؟

---

(١) جاءت هذه الفقرة في كتاب عيون الاثر لابن سيد الناس: « . . أدعوكما بداعية الإسلام». ص٣٤٠ جـ٢ ـ عيون الاثر.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد اللّه ـ ص١٦١ ـ ١٦٢ ـ عن كتب السيرة والسنن وتراجم الصحابة المذكورة في كتاب الوثائق السياسية.

فأخبره عمرو بما فرض من الصدقات على الأموال حتى انتهى إلى الصدقة على الإبل والمواشي.

فقال عُبيد: تؤخذُ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟

قال عمرو: نعم.

فقال عُبيد: واللّه ما أرى قومي على بُعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا.

ثم قال جيفر: يا عمرو دعني يومي هذا وارجع إليّ غداً».

فأتى عمرو في اليوم التالي فلم يؤذن له بالدخول،

ثم سار عمرو إلى أخيه عبيد فاصطحبه إليه فأذن له بالدخول، فلما مثل بين يديه، قال له الملك جيفر:

«إني فكرتُ فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إنْ مَلّكتُ رجلاً ما في يَدَيّ، وهو لا تبلغ خيله هاهنا، وإن بَلَغَتْ خيلهُ أَلْفَتْ قتالاً ليس كقتال مَنْ لاقَىٰ».

وتقول الروايات إن الملك جيفر أوعد عمراً إلى اليوم التالي، فانصرف عمرو ونوى العودة إلى المدينة، ثم:

«أصبح جيفر فأرسل إلى عمرو، فأسلم هو وأخوه، وصدقا النبي ﷺ».

ولكن هذا القول يأتي في نبأ البعث الثاني إلى جيفر بن الجُلَنْدَى وأخيه سنة ٨ هجرية، بينما البعث الأول كان ـ كما سلف التبيين بعد غزوة وصلح الحديبية ـ ويتماثل مع ما جاء في عيون الأثر من أنه: «كتب رسول اللّه ﷺ إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين مع العلاء بن الحضرمي بعد انصراف رسول اللّه ﷺ من غزوة الحديبية»(١). فقد سار العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ـ في ذي الحجة ٦هـ ـ والتقى العلاء بالمنذر بن ساوي ـ في أوائل سنة ٧هـ ـ وكذلك سار أبو زيد عمرو الأنصاري إلى جيفر بن الجُلَنْدَى وأخيه والتقى بهما ـ في أوائل سنة ٧هـ ـ ولكن استجابة المنذر بن ساوي للعلاء بن الحضرمي واستجابة جيفر بن الجُلَنْدَى وأخيه لأبي زيد عمرو الأنصاري لم تأخذ ـ آنذاك ـ الشكل العلني وبداية السلطة الإسلامية لا في البحرين ولا في عُمان. فقد كان ذلك يستلزم فترة من الزمن يتم خلالها دعوة القبائل وتعريفهم بدين الإسلام والتهيئة للواقع الديني والسياسي المنشود، وقد مكث العلاء بن الحضرمي فترة بمناطق بلاد البحرين وسار إلى رؤساء وقبائل بلاد البحرين وقام بدعوتهم وتعريفهم بدين الإسلام والتهيئة لتغيير الواقع الديني والسياسي السائد ثم عاد العلاء بن الحضرمي إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة

(١) عيون الاثر ـ ابن سيد الناس ـ ص٣٣٩ جـ٢.

المنورة ـ في أوائل سنة ٨هـ ـ ويبدو أن ذلك ينطبق على أبي زيد عمرو الأنصاري في عُمان، وأنه قام بالتنقل بين قبائل ومناطق عُمان والتهيئة للواقع الديني والسياسي المنشود بعون مباشر أو غير مباشر من جيفر بن الجُلَنْدى وأخيه، إذ أنه لم يئن الأوان ـ في تلك السنة السابعة ـ لما هو منشود، فعاد أبو زيد عمرو الأنصاري إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة وشهد فتح مكة ـ في رمضان ٨هـ ـ ثم بعثه مع عمرو بن العاص بعد فتح مكة وانصراف رسول اللّه ﷺ من الجعرانة إلى مكة ـ في أوائل ذي القعدة ٨هـ ـ حيث بعث العلاء بن الحضرمي ومعه أبو هريرة الدوسي إلى المنذر بن ساوي وأهل البحرين وبعث أبا زيد الأنصاري وعمرو بن العاص إلى جيفر بن الجُلَنْدَى وأهل عمان، وكانت عُمان قد تهيأت لإعلان شروق العهد الجديد.

بعث عمرو بن العاص وأبي زيد الأنصاري . . وإسلام جيفر وأهل عُمان

في ذي القعدة سنة ٨ هجرية بعث رسول اللّه ﷺ أبا زيد الأنصاري وعَمْرو بن العاص إلى جيفر بن الجُلَنْدى وأخيه فأعلنا إسلامهما، وأسلم معهما قبائل الأزد بعمان، وتم فرض الجزية على الفرس المجوس الذين كانوا بعمان. وقد ذكرت الرواية الشائعة في أغلب المصادر أن المبعوث عمرو بن العاص بمفرده، والصواب أن أبا زيد الأنصاري كان معه، وفي ذلك قال البلاذري:

«لما كانت سنة ثمان بعث رسول اللّه ﷺ أبا زيد الأنصاري وعَمْرو بن العاص إلى عبيد وجيفر ابني الجُلَنْدى، وقال لهما: إن أجاب القوم إلى شهادة الحق وأطاعوا اللّه ورسوله فعمرو الأمير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن. فلما قَدِم أبو زيد وعمرو بن العاص عُمان وَجَدا عُبيداً وجيفراً بصحار على ساحل البحر، فأوصلا كتاب النبي ﷺ إليهما، ودَعَوا العرب هناك إلى الإسلام فأجابوا إليه ورغبوا فيه. فلم يزل عمرو وأبو زيد بعمان حتى توفي النبي ﷺ»[١].

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة جيفر بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«جَيْفَر بن الجُلَنْدى ملك عُمان. . روى ابن سعد من طريق عمرو بن شعيب عن مولى لعمرو بن العاص قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: بعثني رسول اللّه ﷺ إلى جيفر وعبيد ابني الجُلَنْدى بعُمان، وكان الملك منهما جيفراً، وكانا من الأزد. فذكر قصة إسلامهما، وأنهما خليا بينه وبين الصدقة. .

وروى عبدان بإسناد صحيح إلى الزُهري عن عبد الرحمٰن بن عبد القارئ: أن رسول اللّه ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجُلَنْدَى أميري عمان

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٨٧.

فأسلما وأسلم معهما بشر كثير، ووضع الجزية على من لم يُسلم»[١] وقال ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ:

«وفي سنة ثمان، بعث رسول اللّه ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابنيّ الجُلَنْدى بِعُمان مُصدّقاً، فأخذ الصدقة من أغنيائهم وردها على فقرائهم، وأخذ الجزية من المجوس الذين بها..»[٢].

وتتيح تلك النصوص وغيرها من النصوص التاريخية والوثائق إدراك المسار والترتيب التالي:

إن جيفر بن الجُلَنْدَى ملك عُمان أسلم مع أخيه عبيد ـ أو عباد ـ لما بعث إليهما رسول اللّه ﷺ أبا زيد الأنصاري، وقد سلف نبأ ذلك، فأسلما في أوائل سنة ٧ هجرية، ولكن ذلك لم يأخذ الشكل العلني، فقد كانت دعوة وإقناع قبائل عُمان الأزدية اليمانية العربية بدين الإسلام تحتاج فترة من الزمن، وكان الوجود الفارسي في الرستاق ووجود حامية فارسية في صُحار يعني وجود ارتباط سياسي بالامبراطورية الفارسية وملكها كسرى أبرويز، ولا بد من التهيئة للتخلص والتحرر من ذلك الارتباط وأخْذ ذلك الواقع أيضاً بعين الاعتبار.

وفي ذي القعدة سنة ٨هـ كانت عُمان قد تهيأت لشروق العهد الإسلامي العربي الجديد، حيث بعث رسول اللّه ﷺ عمرو بن العاص وأبا زيد الأنصاري وقال لهما: «إن أجاب القوم إلى شهادة الحق وأطاعوا اللّه ورسوله، فعمرو الأمير (العامل على الصدقة) وأبو زيد (الأمير) على الصلاة وأخذ الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنة».

فقَدِم عمرو بن العاص وأبو زيد عمرو الأنصاري إلى مدينة صُحَار وبها جيفر بن الجُلَنْدَى وأخوه، وكان الملك منهما جيفر بن الجُلَنْدَى، فأعلن جيفر وأخوه إسلامهما ـ في ذي القعدة ٨هـ ـ.

وكان أبوهما الجُلَنْدى ما يزال على قيد الحياة إلا أنّه كان قد شاخ وفَوّضَ الأمر إلى ولده جيفر وأخيه، ولم يَعُد ملكاً، فدخل عمرو إلى الجُلَنْدى وأخبره أن النبي محمد ﷺ بعثه إليه يدعوه إلى الإسلام. قال الحافظ ابن حجر: «فقَال الجُلَنْدى: لقد دَلّني على هذا النبيّ أنه لا يأمر بخيرٍ إلا كان أول آخذ به، ولا يَنْهَىٰ عن شرّ إلا وكان أول تارك له، وأنه يَغلبُ فلا يبطر ويُغلب فلا يهجر، وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد، وأشهد أنه نبيّ. ثم قال:

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ترجمة جيفر بن الجلندى ـ ص٢٦٤ جـ١.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١٨٥ جـ٢.

أتانيّ عمرو بالتي ليس بعدها ... مِن الحق شيء والنصيحُ نصيحُ
فَقُلتُ له: ما زدت أنْ جئت بالتي ... جُلَنْدى عُمانٍ في عُمان يصيحُ
فيا عمرو قد أسلمتُ للّه جهرةً ... يُنادي بها في الواديين فصيحُ»[١]

* * *

وفور إعلان جيفر بن الجُلَنْدَى ملك عمان وأخيه عبيد ـ وأبيهما الجُلَنْدى ـ إسلامهم، اجتمع رؤساء وفرسان قبائل أزد عُمان ـ جميعاً ـ إلى مدينة صُحار، وقبائل الأزد في عمان هُم (يَحْمُد، وحُدّان، ومالك، والحارث، وعتيك، وجديد، وثمالة)، فدعاهم الملك جيفر وأخوه ـ وأبو زيد وعمرو بن العاص ـ إلى الإسلام، فأعلنوا جميعاً اعتناق دين الإسلام ونطقوا بالشهادتين، وفي ذلك قال البلاذري إنهم «دعوا العرب هناك إلى الإسلام فأجابوا إليه ورغبوا فيه». وجاء في ترجمة جيفر بكتاب الإصابة بسند صحيح أن جيفر بن الجُلَنْدَى وأخاه: «أسلما، وأسلم معهم بشر كثير». والذين أسلموا هُمُ العرب، وهُم قبائل الأزد اليمانيين في عمان، فنطقوا بالشهادتين على يد أبي زيد الأنصاري؛ لأنه (كان أبو زيد الأمير على الصلاة وعلى أخذ الإسلام على الناس) فتم إسلام جميع العرب ـ الأزد ـ في ذلك الاجتماع بِصُحار في ذي القعدة سنة ٨هـ.

انتهاء النفوذ والوجود الفارسي بعُمان

وفي أعقاب ذلك توجه الملك جيفر بن الجُلَنْدَى ورؤساء وفرسان الأزد إلى الرستاق مركز الوجود الفارسي بعمان وإلى مقر الحامية الفارسية في ساحل صُحار، وقد تقدم قول العوتبي والأزكوي إنه «كانت الفُرس في السواحل وشطوط البحر» وإنه «كان الحاكم الفارسي أسوارُ من أساورة كسرى يُقال له بستجان» حيث ـ كما ذكر ولكنسون ـ «كان الرستاق مقر الحاكم الفارسي، وكانت هناك قوة عسكرية فارسية في صُحار».

ويبدو أن العرب بقيادة جيفر بن الجُلَنْدَى حاصروا الفرس وأميرهم بستجان في الرستاق كما حاصروا الحامية الفارسية بساحل صُحار، وعندئذ أذعن أولئك الفرس المجوس لأداء الجزية وهُم صاغرون، وقد سلف في نبأ إسلام جيفر وأخيه بكتاب الإصابة أنهما «أسلما، وأسلم معهم بشر كثير، ووضع (عمرو) الجزية على من لم يُسلم..» وقال ابن الأثير: «وأخذ الجزية من المجوس الذين بها». وقد ذكر د. فاروق عمر أنه: «حين رفض الفرس الدخول في الدين الجديد قاد العربُ حملة ضدهم في الرستاق وكذلك حاصروا الحامية الفارسية في صُحار»[٢]. والظاهر أن

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ترجمة الجُلندى ـ ص٢٦٢ جـ٢.
(٢) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣١.

ذلك حدث مرتين، المرة الأولى ـ في ذي القعدة ٨هـ ـ فأذعن الفُرس لأداء الجزية، والمرة الثانية بعد وفاة رسول اللّٰه ﷺ سنة ١١هـ وهي الواقعة التي ذكرها د. فاروق عمر في النص السالف قائلاً: « . . قاد العرب حملة ضدهم في الرستاق وكذلك حاصروا الحامية الفارسية في صحار التي استسلمت بشرط أن يُؤمّن العرب إجلاء الفرس مع عوائلهم وأموالهم إلى الساحل الشرقي من الخليج، وقَبِلَ العرب هذا الشرط»[1]، فإجلاء الفرس سنة ١١هـ كان تتويجاً لزوال حكمهم ونفوذهم منذ إذعانهم لأداء الجزية في ذي القعدة ٨هـ حيث أشرق آنذاك العصر العربي الإسلامي في ربوع عُمان.

* * *

عهد ولاية جيفر بن الجُلَنْدى عُمان لرسول اللّٰه ﷺ

منذ إسلام جيفر بن الجُلَنْدَى وسائر قومه العرب الأزد بِعُمان ـ في ذي القعدة سنة ٨هـ ـ أصبح جيفر بن الجُلَنْدَى ملكاً والياً لرسول اللّٰه ﷺ على عُمان، وهو مقتضى قول رسول اللّٰه ﷺ في كتابه إلى جيفر وأخيه:

«إنكما إن أقررتما بالإسلام ولّيتُكما».

وقول مبعوث رسول اللّٰه ﷺ لعبيد بن الجُلَنْدَى لما قال: «إنّ أخي أضنُّ بملكه من أن يدعه» فقال له المبعوث: «إنه إن أسلم مَلّكَهُ رسول اللّٰه ﷺ على قومه». ثم قول المبعوث لجيفر بن الجُلَنْدى: «فأسْلِم تَسْلم، يُملِكْكَ رسول اللّٰه على قومك».

فلما أعلن جيفر بن الجُلَنْدَى وسائر قومه إسلامهم وإيمانهم (في ذي القعدة سنة ٨هـ) بدأ عهد السلطة العربية الإسلامية في عُمان، وكان من معالم وأنباء ذلك العهد أنه:

كان جيفر بن الجُلَنْدى ملكاً والياً لرسول اللّٰه ﷺ على عُمان، ومقره وعاصمته مدينة صُحار، وقد كان ملكاً من قبل ولكنه لم يكن مُمَلكاً من رسول اللّٰه ﷺ وكان مرتبطاً بالفُرس فأصبح مُمَلكاً من رسول اللّٰه ﷺ وانتهى الارتباط بالفرس وزال نفوذهم من عُمان وأذعن من بقي منهم لأداء الجزية إلى السلطة العربية الإسلامية، فكان جيفر بن الجُلَنْدَى على رأس السلطة العربية الإسلامية ملكاً والياً لعمان، ويشترك معه في الحكم أخوه عبيد بن الجُلَنْدى، ويبدو أن جيفراً كان في مدينة صحار بينما كان عبيد في توأم وميناء دَبَا وليس في صُحَار نفسها.

وكان عمرو بن العاص عاملاً على الصدقة ـ وهي الزكاة ـ تؤدى إليه الصدقة

---

(١) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣١.

السنوية، وقد سلف قول الحافظ ابن حجر إن جيفر بن الجُلَنْدَى وأخاه «خَلّيا بين عمرو وبين الصدقة». وقد ذكر ابن الأثير تلك الصفة الصحيحة لعمرو بن العاص قائلاً: «وفي سنة ثمان بعث رسول اللّه ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجُلَنْدَى بِعُمان مُصدقاً، فأخذ الصدقة من أغنيائهم وردها على فقرائهم، وأخذ الجزية من المجوس الذين بها».

وبما أن الصدقة ـ وهي الزكاة ـ تؤدى عند نهاية السنة، وكذلك الجزية، فقد تولى عمرو بن العاص قبض الصدقات (في ذي القعدة وذي الحجة سنة ٩هـ) ثم في نفس الموعد (سنة عشر للهجرة) وقام بردها على الفقراء من أهل صحار وجبال وبادية عُمان، وكذلك قام بقبض الجزية من الفرس المجوس بالرستاق وساحل صحار في السنتين.

وأما مدينة دَبَا والمناطق التابعة لها، فقد جاء في طبقات الصحابة لابن سعد ومعدن الجواهر للنعمان بن محمد وكتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي ما يلي: «أسلم أزد دَبَا، فبعث رسول اللّه ﷺ عليهم مُصدِّقاً منهم يُقال له حذيفة بن اليمان الأزدي من أهل دَبَا، وكتب له النبي ﷺ فرائض الصدقات، فكان يأخذ صدقات أموالهم، ويردّها على فقرائهم»[1].

وكان أبو زيد الأنصاري أميراً على الصلاة وأخذ الناس على الإسلام وتعليمهم القرآن والسنن، فكان يتنقل في مدن ومناطق عمان فيكون تارة في صُحار، وتارة في مناطق الجبال، وتارة في توأم وفي مدينة دَبَا وغيرها من أرجاء عمان يقوم بذلك العمل الجليل.

وكان لجيفر بن الجُلَنْدى دور في توجيه ومسير وفود من رؤساء ورجالات قبائل الأزد في عمان إلى رسول اللّه ﷺ. ففي شهر ذي الحجة سنة ٨هـ توجه ووصل من صُحار عمان إلى المدينة المنورة وفد من بينهم مَسْلمة بن هاران الحدّاني في كوكبة من رجالات بني حُدّان وعبد اللّه بن عيسى الثُمالي في كوكبة من رجالات بني ثُمالة، فلما وقفوا بين يدي رسول اللّه ﷺ ـ بالمسجد النبوي ـ قال مَسْلَمة بن هاران الحُدّاني الأزدي رضي اللّه عنه:

«حَلَفْتُ بربِ الراقصات إلى مِنًى ... طوالع ما بين القصيمة بالرّكْبِ
بأنّ رسول اللّه فِينا محمداً ... له الرأس والقدموس من سلفي كعب[2]

---

(١) طبقات الصحابة ـ ابن سعد ـ ص٧٢/ ١ ـ ومعدن الجواهر للنعمان بن محمد ـ ص٨٠ ـ والوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد اللّه ـ ص١٦٤.

(٢) جاء عجز البيت في الإصابة (له الرأس والقاموس. .) والظاهر أنه تصحيف والأصوب (له الرأس والقدموس. .).

أتـانـا بـبـرهـانٍ مـن الـلّـه قـابِـسٍ أضاء به الرحمٰنُ من ظلمة الكرب
أعـزّ بـه الأنـصـارَ لـمـا تـقـاربَـتْ صدور العوالي في الحنادس والضرب»[١]

وجاء في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي عن طبقات الصحابة لابن سعد أنه:

«قَدِم عبد اللّٰه بن عيسى اليماني (الثمالي؟) ومَسْلَمة بن هاران الحُدّاني على رسول اللّٰه ﷺ في رهط من قومهم بعد فتح مكة، فأسلموا وبايعوا على قومهم»[٢]. وقد كانت عودة رسول اللّٰه ﷺ بعد فتح مكة إلى المدينة في ذي القعدة ٨هـ، فيكون قدومهم في ذي الحجة ٨هـ فمكثوا فترة في موكب الرسول بالمدينة المنورة وتشرفوا بصُحبته، ولما تهيأوا للعودة ـ في أوائل سنة ٩هـ ـ وكما جاء في الوثائق السياسية والطبقات:

«كتب لهم رسول اللّٰه ﷺ كتاباً.. نَصه كما يلي:

هذا كتاب من محمد رسول اللّٰه، لبادية الأسياف ونازلة الأجواف مما حاذت صُحَار:

ليس عليهم في النخل خُراص، ولا مكيال مُطبق حتى يُوضع في الفداء،

وعليهم في كل عشرة أوساق وسق.

كتب: ثابت بن قيس بن شماس. وشهد: سعد بن عبادة ومحمد بن مَسْلَمة»[٢].

قال محمد حميد اللّٰه في الهامش: (كذا في الأصل: بادية الأسياف ونازلة الأجواف. والأرجح: نازلة الأسياف وبادية الأجواف»[٢]، وغنيّ عن البيان أن الأسياف: جمع سِيف ـ بكسر السين ـ وهي السواحل. قال حسان الحميري:

وأزدُ لـهـا الـبـحـران والـسِّـيـف كـلـه وأرض عُـمـان بـعـد أرض الـمُـشَـقَّـرِ

وفي شهر شوال أو في ذي القعدة سنة تسع للهجرة توجه ووصل من عمان إلى المدينة المنورة وفدٌ من أزد دَبَا وقبيلة العَتيك، فهم أبو صُفرة والد المُهلب بن أبي صُفرة. قال الحافظ ابن حجر: «قال ابن قتيبة: المهلبُ من أزد عُمان من قرية يُقال لها دَبَا، أسلم في عهد النبي ﷺ»[٣]. وقال الحافظ ابن عبد البر: «كان أبو صُفرة مسلماً على عهد رسول اللّٰه ﷺ، وأدّى إليه

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ترجمة مَسْلمة الحدّاني ـ ص٤١٩ جـ٣.
(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد اللّٰه ـ ص٧٨.
(٣) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة أبي صفرة الأزدي ـ ص١٠٨ جـ٤.

الصدقات»[١]، وقد كانت وفادة أبي صُفرة إلى رسول اللَّه ﷺ في وفد أزد دَبَا قال الحافظ ابن حجر: «وَفَدَ الأزدُ من دَبَا متزيين بالإسلام على النبي ﷺ» قال: «وأخرج السكن من طريق محمد بن عبد الحميد.. أن أبا صُفرة قَدِم على رسول اللَّه ﷺ.. فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأنك عبده ورسوله حقاً حقاً يا رسول اللَّه..»[١]، وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة النجف بن أبي صُفرة الأزدي: «ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام أن النجف بن أبي صُفرة وَفَدَ على النبي ﷺ مع أبيه وهو أخو المهلب الأمير المشهور»[٢].

وقد مكث أبو صُفرة الأزدي والذين معه من أزد دبا والعَتيك فترة من الزمن في موكب الرسول وتشرفوا بصحبته، ثم رجعوا إلى عُمان في أوائل السنة العاشرة وبعث رسول اللَّه ﷺ عليهم مُصدّقاً منهم هو حذيفة الأزدي وكتب له فرائض الصدقات. وبذلك تم تقسيم عمل قبض الصدقات في عمان بين عمرو بن العاص - في صحار ومناطقها - وحذيفة الأزدي - في دَبَا ومناطقها - بينما استمر أبو زيد الأنصاري أميراً على الصلاة وتعليم الناس القرآن والسنن، وجيفر بن الجُلَنْدى ملكاً والياً على عمان. قال البلاذري: «فلم يزل عمرو بن العاص وأبو زيد بعمان حتى توفي النبي ﷺ».

* * *

ثبات جيفر وأزد عُمان على الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ

كان أول من قَدِمَ إلى جيفر بن الجُلَنْدَى وأهل عُمان بنبأ وفاة رسول اللَّه ﷺ الصحابيّ خميصة بن أبان الحُدّاني الأزدي، قَدِم - عائداً من المدينة - إلى صُحَار في أواخر ربيع الأول سنة ١١هـ فنعى إلى جيفر بن الجُلَنْدَى والذين كانوا عنده ومنهم عمرو بن العاص وفاة النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «خُميصة بن أبان الحُدّاني.. قَدِم من المدينة إلى عمان بوفاة النبي ﷺ وقال لهم: تركتُ الناس بالمدينة يغلون كغليان القِدْر، ونعى النبي ﷺ، فقال عمرو بن العاص:

صَدَعَ القلوبَ مقالة الحُدّاني ونَعَى النبيّ خميصة بن أبان»[٣]

وساد عُمان حزن عميق على وفاة رسول اللَّه ﷺ واقترن ذلك بثبات لا يتزعزع على الإسلام والإيمان، وقال الصحابيّ عامر بن الطفيل بن الحرث الأزدي أبياتاً منها:

---

(١) الاستيعاب - ابن عبد البر - ترجمة أبي صفرة الأزدي - ص١٠٩/ ٤.

(٢) الإصابة - ابن حجر - ترجمة النجف بن أبي صفرة - ص٥٥٢ جـ٣.

(٣) الإصابة - ابن حجر - ترجمة خميصة بن أبان - ص٤٥٦ جـ١.

«بكتْ الأرضُ والسماء على النور الـذي كـان لـلـعـبـاد سـراجـا
مَنْ هُـديـنـا بـه إلـى سُبـل الـحـق وكـنّـا لا نـعـرف الـمـنـهـاجـا»[1]

وقد ثبت جيفر بن الجُلَنْدَى وأخوه عبيد وسائر قبائل الأزد في عُمان على الإسلام والإيمان ثباتاً صادقاً وما بدلوا تبديلاً، وقرر عمرو بن العاص أن يعود إلى المدينة المنورة، (ربما بسبب أنباء الردة في اليمامة ونجد، وكذلك ليضع نفسه تحت إمّرة أبي بكر الصديق كما فعل عدد من العمال حين بلغهم نبأ الوفاة واستخلاف أبي بكر) وحاول جيفر بن الجُلَنْدَى ورؤساء عمان من الصحابة والقادة إقناع عمرو بن العاص بالبقاء، وقال له مجفية بن النعمان العتكي الأزدي:

«يـا عـمـرو إن كـان الـنـبـيُّ مـحـمـد أتـى بـه الأمـرُ الـذي لا يُـدفَـعُ
فـقـلـوبـنـا قَـرْحَـىٰ ومـاء دمـوعـنـا جـارٍ، وأعـنـاق الـبـريـة خُـضَّـعُ
يـا عـمـرو إن حـيـاتـه كـوفـاتـه فـيـنـا ونـنـظـر مـا يـقـولُ ونَـسْـمَـعُ
فـأقِـمْ فـإنّـك لا تـخـاف رجـوعـنـا يـا عـمـرو ذاك هـو الأعـزّ الأمـنـعُ»[2]

وكان عمرو بن العاص قد عقد العزم على الرحيل من عُمان إلى المدينة المنورة، وربما ظن بأنهم لن يسمحوا له بالرحيل وربما يتركونه يرحل وحيداً فيكون فريسة المرتدين والذين يقطعون الطريق في اليمامة ونجد، ولكن القِيَم والوفاء الأزدي اليماني ـ الإيماني ـ سرعان ما أزال مثل تلك الظنون والمخاوف إن وُجِدت، إذْ أن جيفر بن الجُلَنْدَى ورجالات الأزد لما أيقنوا بأنه قد عقد العزم على الرحيل ولم يرض بالبقاء، ودعوه وشيعوه أحسن وداع، وبعث معه جيفر بن الجُلَنْدَى قوة من فرسان وصناديد أزد عمان ساروا معه حتى أوصلوه إلى المدينة المنورة، منهم عقبة بن النعمان العتكي، قال الحافظ ابن حجر في ترجمته بكتاب الإصابة: «عقبة بن النعمان العتكي، أبو النعمان. ثَبَتَ على إسلامه وشيع عمرو بن العاص في جماعة من قومه حتى قَدِموا على أبي بكر، فشكر لهم أبو بكر ذلك. وهو القائل:

وفَـيـنـا لـعـمـرو يـوم عـمـرو كـأنّـه طـريـدٌ بَـغَـتْـهُ مـذْحـجُ والـسـكـاسـكُ
رسـول رسـول الـلّـه، أعـظـم بـحـقـه عـلـيـنـا، ومَـنْ لا يـعـرفُ الـحـقَّ هـالـكُ
ونـحـن أنـاسُ يـأمَـنُ الـجـار وسـطـنـا إذا كـان يـوم كـاسـف الـشـمـس حـالـكُ

وقال أيضاً في أبيات له:

وَفَـيْـنَـا، وفِـيـنَـا يـفـيـضُ الـوفـاء، وفِـيـنَـا مـفـرخُ أفْـرَاخَـهُ

(١) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة عامر بن الطفيل الأزدي ـ ص٢٥١ جـ٢.
(٢) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة مجفية بن النعمان ـ ص٣٦٦ جـ٣.

كـذاك الـوفـاء يـزيـنُ الـرجـال ... كـمـا زيـن الـصـدق شـمـراخـه
وَفَـيْـنَـا لـعـمـرو، وفَـيْـنَـا لـه ... وقـد نـفـخ الـرأي نَـفّـاخَـهُ»[1]

وكان ممن شايع عمرو بن العاص أيضاً من آل الجُلَنْدَى، جيفر بن جُشَم. قال الحافظ ابن حجر في ترجمته: «جيفر بن جشم الأزدي: وَفَدَ مع عمرو بن العاص من عمان إلى أبي بكر الصديق بعد موت النبي ﷺ»[2]. وقد عاد أبو زيد الأنصاري مع عمرو بن العاص إلى المدينة المنورة.

* * *

ولاية جَيْفَر لعمان في خلافة أبي بكر وعُمْر

ولما توفي رسول اللّه ﷺ وعاد عمرو بن العاص وأبو زيد الأنصاري إلى المدينة المنورة ومعهما فرسان الأزد الذين شايعوهما إلى أبي بكر الصديق شكر لهم أبو بكر ذلك، وأقرّ استمرار جيفر بن الجُلَنْدَى حاكماً والياً على عُمان مع أخيه عبيد بن الجُلَنْدَى. وفي ذلك جاء في كتاب مصادر التاريخ العماني:

«أن الخليفة أبا بكر الصديق أبقى جيفراً وعبيداً حكاماً على عُمان»[3].

وفي أواسط الشهر الثالث من خلافة أبي بكر ـ أواسط جمادى الآخرة ١١هـ ـ وقعت في مدينة ومنطقة دَبَا بِعُمان حركة بقيادة ذي التاج لقيط بن مالك الأزدي، وقد شاع في الروايات تصنيف حركة لقيط بن مالك بأنها (ردّة)، فقال ابن الأثير: «وأما عُمان فإنه نبغ بها ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكان يُسامي في الجاهلية الجُلَنْدى، وادّعى بمثل ما ادّعى من تنبأ وغَلَب على عُمان مُرتداً، والتجأ جيفر وعبيد إلى الجبال، وبعث جيفر إلى أبي بكر يُخبره ويستمده»[4]، وكذلك ذكر ابن خلدون وقال: « . . وبعث جيفر بن الجُلَنْدَى إلى أبي بكر بالخبر»[5] وقد نقل ابن الأثير وابن خلدون نبأ تلك الحركة وأنها (ردة) بل (ردّة أهل عمان) عن رواية الطبري وهي من طريق سيف بن عمر التميمي.

بينما نقل د. فاروق عمر عن المؤرخ نور الدين السالمي في كتاب (تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان) أن حركة لقيط بن مالك كانت بسبب «خلافات شخصية». وقال د. فاروق عمر: «يحاول بعض المؤرخين أن يدخلوا عمان ضمن الأقاليم التي

(١) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة عقبة بن النعمان ـ ص١٠٨ جـ٣.
(٢) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة جيفر بن جشم ـ ص٢٦٤ جـ١.
(٣) مصادر التاريخ العماني ـ فاروق عمر ـ ص١٤٦.
(٤) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٥٢ جـ٢.
(٥) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٢٧٠.

ارتدّت، ولكن مؤرخي عُمان لا يتكلمون عن ردّة حدثت في عُمان، ولم تكن حركة لُقَيْط الأزدي إلا بسبب قضية شخصية تمضي وراءها طموحات شخصية وانشقاقات قبلية»[١].

ومن ناحية أخرى فإن لُقَيْط بن مالك لم يتغلب على عُمان وإنما تغلب على مدينة ومنطقة دَبَا. وقد جاء في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي وطبقات ابن سعد ومعدن الجواهر أنه «بعث رسول اللّه ﷺ على أزد دَبَا مُصدِّقاً منهم يقال له حُذيفة. . فكان يأخذ صدقات أموالهم ويردّ على فقرائهم. فلما توفي رسول اللّه ﷺ ارتدّوا ومنعوا الصدقة فكتب حذيفة إلى أبي بكر بذلك»[٢] وما حدث في منطقة دَبَا هو حركة لقيط بن مالك الأزدي، وقد كتب حذيفة إلى أبي بكر بالخبر في بداية تلك الحركة، وكان المهلب بن أبي صُفرة الأزدي هو الذي سار مبعوثاً من حذيفة إلى أبي بكر، ثم ما لبث أن سيطر لُقَيْط بن مالك على مدينة ومنطقة دَبَا جميعها، وهي منطقة توأم، فغادرها حذيفة وكذلك عُبيد بن الجُلَنْدَى ـ غالباً ـ ولحق عُبيد بأخيه الملك جيفر في صُحار والمناطق الجبلية، وعندئذ ـ وكما ذكر ابن الأثير ـ «بعث جيفر بن الجُلَنْدَى إلى أبي بكر الصديق يخبره بالخبر ويستمده».

وفي أواخر جمادى الآخرة سنة ١١هـ، عقد أبو بكر الصديق لواءً لحذيفة بن محصن ولواءً لعرفجة بن هرثمة البارقي الأزدي وبعثهما بجنودهما إلى عمان، قال ابن الأثير: «وأمرهما أبو بكر إذا قربا من عمان أن يُكاتبا جيفراً» وقال ابن خلدون: «أمرهما أبو بكر أن يكاتبا جيفراً ويأخذا برأيه». وقد ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة (أن أبا بكر بعث عرفجة مدداً لجيفر بن الجُلَنْدَى) قال ابن الأثير: «فسارا ـ حذيفة وعرفجة ـ إلى عُمان». وتقول الروايات أن أبا بكر بعث إلى عكرمة بن أبي جهل وكان باليمامة يأمره بالمسير إلى عمان فلحق بهما، قال ابن الأثير: «فلما وصلوا رجاماً وهي قريب من عُمان كاتبوا جيفراً وعبيداً، فأرسلا إلى حذيفة وعكرمة وعرفجة في القدوم عليهما، فقدموا عليهما». وقال ابن خلدون: « . . فراسلوا جيفراً وعبيداً، وبلغ لقيط مجيء الجيوش فعسكر بمدينة دبا، وعسكر جيفر وعبيد بصُحار، واستقدما عكرمة وحذيفة وعرفجة ـ إلى صُحار ـ».

وكان قدوم حذيفة وعرفجة إلى عمان وانضمامهما إلى جيفر بن الجُلَنْدَى وأخيه في صُحار ـ في أواسط رجب ١١هـ ـ وكان جيفر بن الجُلَنْدَى حكيماً يعرف الجذور والأسباب الحقيقة لما حدث، فلم يتعجل إلى القتال، وإنما أخذ يكتب إلى رؤساء

---

(١) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣١ وص١٤٦.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد اللّه ـ ص١٦٤ ـ عن طبقات الصحابة ـ ابن سعد ـ ص٧٢ جـ١ ـ ومعدن الجواهر ـ للنعمان بن محمد ـ ص٨٠.

القبائل الأزدية التي أيدت لُقَيْط بن مالك وحشدت معه في دَبَا، وكانوا غالباً من بني جديد ومن العَتيك، فكتب إليهم جيفر بن الجُلَنْدى فاستمالهم، فتخلّوا عن لُقَيْط وانضموا إلى جيفر والذين معه. وفي ذلك قال ابن الأثير: إن جيفر بن الجُلَنْدَى والقادة الذين معه: «كاتبوا رؤساء مع لقيط، وبدأوا بسيد بني جديد، فكاتبهم وكاتبوه، حتى ارفضُّوا عن لُقيط» وقال ابن خلدون: «كاتبوا رؤساء الدين، فقدموا بجيوشهم»، فلما قَدِم بنو جديد وبنو عَتيك وغيرهم من عشائر الأزد الذين كانوا مع لقيط وانضووا تحت لواء جيفر بن الجُلَنْدَى والذين معه، لم يبق مع لقيط بن مالك من المتمردين سوى جَمْعٍ يسير تحصنوا معه في مدينة دَبَا.

وفي نحو شهر شوال سنة ١١هـ سار جيفر بن الجُلَنْدَى ومعه حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة البارقي ورؤساء وفرسان الأزد إلى مدينة دَبَا، فحاصروا وقاتلوا لقيطاً والذين معه، والتحق أغلب بقية الذين مع لقيط بن مالك بجيفر بن الجُلَنْدَى، ولم يبق مع لقيط بن مالك سوى عدد يسير حتى إنه «أقام لقيط عياله وراء صفوفه» ولكنه عقد العزم على القتال وعدم الاستسلام، فهجم عليه جيش المسلمين، فقاتل لقيط حتى قُتل وانهزم أصحابه فولّى بعضهم الأدبار وتم أسر بعضهم وبذلك انتهت حركة لقيط بن مالك الموسومة بالردّة، بينما قال د. فاروق عمر استناداً إلى مصادر التاريخ العُماني:

«كان من المحتمل أن تتطور حركة لقيط الأزدي إلى ردة ضد حكومة المدينة، لولا مساندة أبي بكر الصديق لآل الجُلَنْدى وإرساله حملة بقيادة حذيفة بن محصن الذي قضى على التمرد، وأرسل قسماً من المتمردين إلى المدينة»(١).

وفي تلك الفترة والأجواء حدث ما ذكره د. فاروق عمر قائلاً:

«حين رفض الفرس الدخول في الدين الجديد، قاد العرب حملة ضدهم في الرستاق وكذلك حاصروا الحامية الفارسية في صحار التي استسلمت بشرط أن يؤمّن العرب إجلاء الفرس مع عوائلهم وأموالهم إلى الساحل الشرقي من الخليج، وقَبِلَ العرب بهذا الشرط»(١). فحملت المراكب أولئك الفرس بعوائلهم وأموالهم من مينائي صحار ودَبَا إلى بلاد فارس، وبذلك انتهى آخر وجود فارسي مجوسي في عُمان.

وقد استتب الأمر في سائر أرجاء عمان بعد انتهاء حركة لقيط بن مالك، ومكث حذيفة بن محصن في مدينة دَبَا بعمان بينما صار عرفجة البارقي بالأسرى من المتمردين إلى أبي بكر الصديق فعفا عنهم أبو بكر، وكان عددهم لا يتجاوز العشرين بينما زعمت رواية سيف التميمي أن القتلى كانوا عشرة آلاف من الأزد وأن السبي ـ

(١) مصادر التاريخ العُماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣٢ وص٣١.

الأسرى ـ أربعة آلاف، وغير ذلك من المزاعم العارية من الصحة، فالقتلى ربما كانوا عشرة أشخاص بينهم لقيط بن مالك والأسرى قال عنهم الإمام الواقدي: «قَدِم سَبْي أهل دَبَا وفيهم أبو صفرة غلام لم يبلغ الحلم (من أولاد لقيط) فأنزلهم أبو بكر في دار رملة بنت الحارث، وهو يريد أن يقتل المقاتلة، فقال له عمر: يا خليفة رسول اللّه، قومٌ مؤمنون إنما شحوا على أموالهم، فقال أبو بكر: انطلقوا إلى أي بلد شئتم، فأنتم أحرار». وغني عن البيان أن إنزال أولئك السبي ـ الأسرى ـ في دار رملة بنت الحارث يتيح إدراك أنهم لا يتجاوزون العشرين.

* * *

قال البلاذري: «وولّى أبو بكر الصديق حذيفة بن محصن عُمان، فمات أبو بكر وهو عليها»[1]، والمقصود تولية حذيفة بن محصن عاملاً على الصدقة، إذْ أنه ـ كما ذكر المؤرخ السالمي في (تحفة الأعيان) ـ «أبقى الخليفة أبو بكر الصديق جيفراً وعُبيداً ابني الجُلَنْدَى حكاماً على عُمان» فلم يزل جيفر بن الجُلَنْدَى حاكماً والياً على عمان مع أخيه عبيد فمات أبو بكر رضي اللّه عنه وهُما عليها.

واستمرت ولاية جيفر بن الجُلَنْدَى على عُمان في خلافة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ) وقد سار حذيفة بن محصن في فرقة من أزد عمان إلى فتوحات العراق سنة ١٣ ـ ١٤هـ، ولم يزل زعماء وفرسان الأزد في عمان يتدفقون إلى البصرة وإلى ميادين الفتوح في العراق وفارس بينما في عُمان «ظلت سلطة جيفر وعبيد ثابتة وتوسعت على أقاليم جديدة في عُمان»[2].

ولم يزل جيفر بن الجُلَنْدَى حاكماً لعمان إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. ولم تذكر الروايات زمن وفاته، وقد حكم أخوه عبيد معه ثم بعده إلى أواخر عصر الخلفاء الراشدين.

* * *

آل الجُلَنْدى . . بعد جيفر

وقد استمر الجُلَنْدى حكاماً لعمان بعد جيفر بن الجُلَنْدى وأخيه عُبيد بن الجُلَنْدى، فقد تولى الحكم بعدهما: عَبَّاد بن عُبيد بن الجُلَنْدى بن المستكبر، وكان عَبّاد الجيل الخامس من تلك الأسرة الأزدية اليمانية التي حكمت عُمان قبل وبعد الإسلام.

ثم انتقل الحكم إلى الجيل السادس فتولى حكم عُمان سعيد بن عبّاد بن

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٨٨.

(٢) مصادر التاريخ العماني ـ فاروق عمر ـ ص١٤٦.

عبيد بن جُلَنْدَى بن الجُلَنْدَى بن المستكبر مع أخيه سليمان بن عَبّاد، وأيّدت عُمان في عهدهما الثورة التي قادها الزعيم اليماني عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي لما خلع عبد الملك بن مروان وعامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٨١ ـ ٨٣هـ وكان عبد الرحمٰن بن الأشعث قد بويع بالخلافة وتلقب بـ (ناصر المؤمنين) ولما انتهت ثورة ابن الأشعث، وفيما يبدو أنه على علاقة بها، بعث الحجاج بن يوسف الثقفي جيشاً بقيادة خيار بن صبرة المجاشعي إلى عمان فوقعت بينه وبين سعيد بن عبّاد وأخيه سليمان حروبٌ إلى أن: فَرَّ سعيد وسليمان الجُلَنْديان إلى شرقي إفريقية، وكانت معاملة الوالي الأموي الجديد خيار بن صبرة المجاشعي لأهل عمان شديدة، على أن تلك السياسة تغيرت بمجيء سليمان بن عبد الملك إلى الخلافة سنة ٩٦هـ، فولّى سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب الأزدي أميراً والياً على العراق ومشارقها. وعيّن أخاه زياد بن المهلب والياً لعُمان، فبسط زياد بن المهلب العدل والأمان في ربوع عُمان، وبقي والياً عليها إلى ما بعد سنة ١٠٣هـ، واستمرت الزعامة المحلية في آل الجُلَنْدى بعمان وكان من عظمائهم الجُلَنْدَى بن مسعود بن جيفر بن جُلَنْدَى بن الجُلَنْدَى بن المستكبر وهو ـ كما جاء في ترجمته ـ «أمير عُمان وعظيم الأزد فيها»[١].

وفي سنة ١٣٢هـ (الموافق ٧٥٠م) بويع الجُلَنْدَى بن مسعود بن جيفر بن الجُلَنْدَى إماماً لعُمان، وكان هو وأزد عُمان على المذهب الإباضي، فأصبح الجُلَنْدَى بن مسعود أول إمام للإباضية في عمان، وقُتل في حرب كبيرة مع جيش الخلافة العباسية سنة ١٣٤هـ (٧٥٢م) وكان هو آخر زعماء عُمان من آل الجُلَنْدى، واللّٰه وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين.

---

(١) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص١٤٠.

٦٥

الْمُهَلَّبُ بن أبي صُفْرَةْ

ـ أمير الشرق وخُراسان ـ

من عظماء الزعماء اليمانيين الذين حملوا رسالة الإسلام إلى آفاق الشرق هو الأمير الفاتح المُهلب بن أبي صُفرة الأزدي.

قال عنه الحافظ ابن كثير: «كان المهلب فاضلاً شجاعاً كريماً.. غزا أرض الهند سنة ٤٤هـ.. وله مواقف حميدة وغزوات مشهورة في الترك وغيرهم»[(١)]. وقال الحافظ ابن حجر: «..ذكره الحاكم في تاريخ نيسابور في باب الصحابة الذين نزلوها»[(٢)]. وقال البلاذري: «غزا المهلب بلاد بنّة والقيقان بالسند سنة ٤٤هـ.. وهو الذي عقر الفيل بباب كابول»[(٣)]، ولما تولى المهلب بلاد الأهواز وفارس وكرمان وسجستان قال كعب الأشقري:

لَوْلَا الْمُهَلّبُ للجيش الذي وَرَدَوا ... أنهار كَرْمان، بعد اللّه، ما صَدَروا
..صُلْتُ الجبينِ، طويلُ الباع، ذوفرح، ... ضَخْمُ الدَّسيعة، لا وانٍ، ولا غُمُرُ
مُجَرِّبُ الْحَرْب، ميمونٌ نَقِيبتُهُ، ... لا يُسْتَخَفُّ، ولا من رأيه البَطَرُ
..نَمَاكَ للمجد أملاكٌ ورثْتَهُمُ ... شُمُّ العَرَانينِ في أخلاقهم يَسَرُ[(٤)]

ولم يزل المهلب قائداً فاتحاً وأميراً والياً زهاء أربعين سنة حافلة بالأمجاد، وتولى بلاد خراسان وآسيا الوسطى فكان كما قال الشاعر نهار بن توسعة:

..تُطيفُ به قحطانُ قد عَصبت به ... وأحلافُها مِنْ حيّ بَكْرٍ وتَغْلِبِ
وحيًّا مَعَدٌّ عُوَّذٌ بلوائهِ ... يُفَدُّونهُ بالنفس والأمّ والأبِ[(٤)]

* * *

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٤٢ جـ٩.
(٢) االإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ ترجمة المهلب ـ ص٥٣٥ جـ٣.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٠١.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٧١ جـ٧ وص٢٠ جـ٨.

إطْلَالةٌ على الجذور

إن للمهلب بن أبي صُفرة جذور يمانية عريقة في المجد، أشار إليها الشاعر كعب الأشقري في قوله للمهلب:

نَمَاكَ لِلمجد أملاكٌ وَرَثْتَهُم شُمُّ العرانين في أخلاقهم يَسَرُ

فالمُهَلّب من بني عَتيك، وهُمْ: بنو عَتيك بن أسد الأزد بن عمران بن عمرو مزيقيا بن عامر بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[١]. فأجداد بني عَتيك أولئك غالبيتهم من ملوك اليمن في عصور دولة وحضارة اليمن التليدة.

وجاء في ترجمة (عَتيك) بكتاب الجامع ما يلي: «عَتيك بن الأزد بن عمران بن عمرو مزيقيا، مِنْ كهلان القحطانية: جدٌّ جاهليٌّ يمانيٌّ قديم. النسبة إليه عتكي ـ بفتح العين والتاء ـ من نسله المهلب بن أبي صُفرة»[٢].

وكذلك نقل الحافظ ابن حجر عن ابن الكلبي أنه (عتيك بن الأزد. .) بينما نقل الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب أنه (عتيك بن الأسد. .) وقد يجمع ذلك أنه (عتيك بن أسد الأزد بن عمران) ثم يتصل نسب عَتيك إلى الأزد كما تَقَدم.

وكان بنو عتيك من بطون وعشائر الأزد الذين انتقلوا من مأرب ـ بعد سيل العرم ـ وسكنوا بمنطقة وادي رمع في تهامة اليمن (بمحافظة الحديدة حالياً) مع عَكّ والأشاعر، وبعد فترة من الزمن انتقلوا من منطقة تهامة اليمن ـ الواقعة على ساحل البحر الأحمر ـ ومضوا شرقاً ـ مع بني جديد وبني حُدّان من الأزد ـ إلى اليمامة وأجازوا منها بالفرسان والرُماة إلى منطقة البحرين ـ وهي منطقة الخليج ـ ثم كما قال جماعة البارقي:

(فأقرّوا) قرارهم بِعُمان، فَعُمان محل تلك الحماة

فنزل واستقر بنو عَتيك وبنو جديد بمدينة وميناء دَبَا بساحل عُمان على الخليج العربي (وتقع دبا في الإمارات العربية المتحدة حالياً) فسكنوا وامتلكوا منطقة دَبَا، وكان زعيمهم (شهاب بن الهلقام العَتَكي) الذي يقال إنه «كان يأخذ كل سفينة غصباً»، وذلك لأنه أصبح أمير منطقة وميناء دَبَا، فكان يأخذ سفن المخالفين من الفرس وغيرهم غالباً.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر حديثاً أخرجه ابن السكن جاء فيه، أن أبا صفرة والد المهلب قال: «**أنا قاطع بن سارق بن ظالم بن عمرو بن شهاب بن الهلقام. . الذي**

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص١٤٣.
(٢) الجامع ـ بامطرف ـ ص٣٦٣.

كان يأخذ كل سفينة غصبا، أنا الملك بن الملك. .». وذكر الحافظ ابن حجر عن ابن الكلبي أن أبا صفرة هو «ابن سارق بن صُبح بن كندي بن عمرو بن عدي بن وائل بن الحارث بن عتيك» وقد ذكر الحافظ ابن حجر عدة أقوال في اسم أبي صفرة منها أن اسمه (غالب بن سُراق).

ويمكن القول إن ذلك الاختلاف يعود إلى الاكتفاء بذكر الاسم الشخصي دون النعت الذي كان جزءًا من الاسم فأسماء الأقيال والزعماء كانت تتكون من اسم ونعت، فاسم (عدي) بقابل (الهلقام) مما يتيح إدراك أنه اسم ونعت (عدي الهلقام) واسم أبي صفرة قيل إنه (غالب بن سراق)، بينما جاء في حديث ابن السكن أنه (قاطع بن سارق) ويتبين من ذلك أن اسمه (غالب) ونعته (قاطع) وبالتالي يمكن إدراك أن أبا صُفرة والد المهلب هو:

أبو صُفرة: غالب القاطع بن سُراق الشارق بن صُبح الظُّلم بن عمرو كندي بن عمرو الشهاب بن عَدِي الهلقام بن وائل الجلد بن حارث يشكر بن عَتيك ـ العَتْكي الأزدي.

وكان أبو صُفرة من رؤساء قبائل الأزد التي استقرت بِعُمان فهو رئيس بني عتيك وله زعامة على بطون قبائل الأزد بمنطقة ومدينة دَبَا والأسياف، وقد كان أبو صُفرة مقيماً بمدينة دَبَا وفيها كان مولد المهلب قبل الهجرة النبوية، وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر أنه «توفي المهلب سنة ٨٢هـ وله يومئذ ست وتسعون سنة»[١]. ومقتضى ذلك أن مولده كان قبل الهجرة بنحو أربع عشرة سنة وكان ترتيب المهلب العاشر بين إخوته، فقد رزق اللّه أبا صُفرة ثمانية عشر ولداً ذكراً كان عاشرهم المهلب، ثم رزقه اللّه عز وجل بنتاً سماها (صُفرة).

* * *

النبأ اليقين عن أبي صُفرة. . والمُهَلّب. . في موكب وعهد الرسول

لقد وقع بعض الأخباريين وذوي الأوهام في ملابسات وأخطاء تحاول إسدال الستار على مرحلة مهمة من سيرة المهلب وأبيه وهي مرحلة عهد رسول اللّه ﷺ وإيمانهما وإسلامهما في عهده وصحبتهما لرسول اللّه عليه الصلاة والسلام، فقد وقع أحد الرواة في وهم القول بأنه (وُلد المهلب في عام الفتح سنة ٨هـ) بينما أفرط أحد ذوي الأهواء فزعم أنه «كان أبو صفرة غلاماً لم يبلغ الحلم في أيام أبي بكر الصديق». ولكن مثل تلك الأوهام والمزاعم تتبدد بالبحث والتحقيق في المصادر الموثوقة التي تُشرق منها الحقيقة ويتبين منها أن من معالم النبأ اليقين ما يلي:

أولاً: أسلم أبو صُفرة مع أولاده ومنهم المهلب في عهد رسول اللّه ﷺ في

---

(١) الاستيعاب ـ ابن عبد البر ـ ص١٠٩/ ٤.

سنة ٨ هجرية، وفي ذلك قال الحافظ ابن عبد البر في كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) ما يلي: «كان أبو صُفرة مسلماً على عهد رسول اللَّه ﷺ، وأدّى إليه صدقات»[١]. وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: «قال أبو عمر: كان أبو صُفرة مسلماً على عهد النبيّ ﷺ. . . وقال ابن قُتيبة: المُهلب من أزد عُمان من قرية يُقال لها دَبَا، أسلم في عهد النبي ﷺ»[٢].

وقد كان إسلامهما عندما بعث رسول اللَّه ﷺ أبا زيد الأنصاري وعمرو بن العاص إلى جيفر بن الجُلَنْدى الأزدي ملك عمان وأخيه عبيد وقبائل الأزد في عُمان بدعوة الإسلام، وذلك في عام الفتح بعد فتح مكة في رمضان سنة ٨هـ، وكان أبو زيد الأنصاري هو المبعوث على الصلاة وعلى أخذ البيعة من الناس على الإسلام، فأسلم جيفر وأخوه ثم رؤساء الأزد وقبائلهم، فكان أبو صُفرة غالب القاطع بن سُراق العتكي من أوائل رؤساء الأزد إسلاماً هو والمهلب وإخوته، وكان له دور في إسلام سائر بني عَتيك لأنه رئيسهم.

وقد ذكر الحافظ ابن عبد البر حقيقة ثانية في قوله: «كان أبو صفرة مسلماً على عهد رسول اللَّه ﷺ، وأدى إليه صدقات». والحقيقة الثالثة هي أنه «أدّى إليه صدقات» وغني عن البيان أن الصدقات ـ وهي الزكاة ـ تؤدى في موعد استحقاقها السنوي، والظاهر أن الصدقات التي أدّاها هي صدقة بني عتيك والذين إليهم من أزد دَبَا، فَذِكْر تأديته الصدقات يشير إلى كثرتها، وكان ذلك في شهر شوال أو ذي القعدة سنة ٩هـ، وثبوت إسلام أبي صفرة في عمان لا يترتب عليه أنه «ليس له وفادة» كما توهم البعض، فليس هنالك تعارض بين إسلامه المُتقدم وبين وفادته بعد ذلك بنحو سنة، فللوفادة وقائعها وأحاديثها.

ثانياً: في شهر شوال سنة ٩هـ انطلق أبو صفرة ـ غالب القاطع بن سُراق الشارق بن صُبح الظلم ـ والد المهلب من مدينة دبا إلى المدينة المنورة في كوكبة من الفرسان بينهم ثلاثة من أولاده ـ منهم النجف والمهلب ـ للقاء وصحبة رسول اللَّه ﷺ.
قال الحافظ ابن حجر في ترجمة «أبي صفرة والد المهلب الأمير المشهور»:

«أخرج ابن السكن: ـ أن أبا صُفرة قَدِم على رسول اللَّه ﷺ على أن يُبايعه، وعليه حلّة صفراء نَسْجها خلفه ذراعان، وله طولٌ وجثةٌ وجَمَالٌ وفصاحة لسان. فلما رآه رسول اللَّه ﷺ أعجبه ما رأى من جماله، فقال له: من أنت؟ قال: أنا قاطع بن سارق بن ظالم بن عمرو بن شهاب بن الهلقام بن الجلد بن

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر ـ ص١٠٩/ ٤.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص١٠٨ جـ٤.

الشكر الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً، أنا الملك ابن الملك يا رسول اللّه.

فقال له النبي ﷺ: أنتَ أبو صُفرة دَعْ عنك سارقاً وظالماً.

فقال: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك عبده ورسوله حقاً حقاً يا رسول اللّه، إن لي ثمانية عشر ذكراً ورُزقت بنتاً سميتُها صُفرة.

فقال له النبي ﷺ: فأنت أبو صُفرة»(١).

ولم يكن أحدٌ يَعلم بمولد ابنته التي سماها صُفرة لأنها وُلِدَتْ وهو يتهيأ للانطلاق إلى المدينة المنورة وربما لم يشاهدها إلا للحظة يسيرة فسماها صفرة وانطلق إلى المدينة، فلما قال له رسول اللّه ﷺ: أنت أبو صفرة دع عنك كذا وكذا. ازداد يقينه وقال: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك عبده ورسوله حقاً حقاً يا رسول اللّه، فإنَّ لي ثمانية عشر ولداً ذكراً ورُزقت بنتاً سميتها صُفرة.. فقال له النبي ﷺ: فأنت أبو صُفرة.

ومنذ ذلك اليوم أصبح اسمه (أبو صُفرة) وأخذ مكانه في موكب الرسول وتشرف بصحبته، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنه (ذكر ابن السكن أن أبا صفرة من الصحابة) وقال في ترجمة المغيرة ما يلي نصه: «المغيرة بن أبي صفرة الأزدي: ذكر أبو علي بن السكن في الصحابة في ترجمة أبي صفرة والده ما يدل على إدراكه، فقال: وسأله النبي ﷺ عن ولده، فقال: هُم ثمانية عشر ذكراً وَوُلدت لي بآخرة بنت سميتها صُفرة. فقال: أنت أبو صُفرة. وقال أبو عمر في ترجمة أبي صفرة: إنه وفد على أبي بكر وعمر ومعه عشرة من ولده أصغرهم المهلب. وقال الطبري: لما ولّي زيادُ الحكم بن عمرو خراسان ولّى المهلب الحرب وولّى أخاه ـ المغيرة ـ أمر العسكر ففتح اللّه عليهم. استدركه ابن فتحون»(٢).

ثالثاً: كان مع أبي صُفرة عند قدومه إلى المدينة المنورة وصحبته لرسول اللّه ﷺ ثلاثة من أولاده مكثوا معه في موكب الرسول وتشرفوا بصحبته، وقد صرحت المصادر والتراجم بصحبة كل من النجف والمهلب:

أ ـ النجف بن أبي صُفرة: قال الحافظ ابن حجر في ترجمته: «النجف بن أبي صُفرة الأزدي: ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام أنه وَفَدَ على النبي ﷺ مع أبيه. وهو أخو المُهلب الأمير المشهور، واستدركه ابن فتحون»(٣).

---

(١) أخرجه ابن السكن من طريق محمد بن عبد الحميد قال حدثنا محمد بن غالب بن عبد الرحمٰن بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة عن أبيه عن آبائه.

(٢) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة المغيرة بن أبي صفرة ـ ص٥٠٠ جـ٣.

(٣) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة النجف بن أبي صفرة ـ ص٥٥٢ جـ٣.

٢ ـ **المُهلب بن أبي صُفرة**: قال ابن قتيبة: «أسلم المهلب في عهد النبي ﷺ» وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة المُهلب «ذكره الحاكم في تاريخ نيسابور في باب الصحابة الذين دخلوها». ولكن الحافظ ابن حجر استبعد صحبته تأسيساً على قول أحد رواة أخبار الخوارج وهو محمد بن قدامة الجوهري «ولد المهلب عام الفتح ـ أي سنة ٨هـ» والقول بأنه «مات سنة ٨٣هـ وهو ابن ست وسبعين سنة». ولكن هذا القول يعارضه قول الحافظ ابن عبد البر، «توفي المهلب سنة ٨٢هـ وله يومئذ ست وتسعون سنة» ومقتضى ذلك أن المهلب كان شاباً في عام الفتح ـ سنة ٨هـ ـ فقد كان عمره نحو إحدى وعشرين سنة، فمقولة أنه (ولد عام الفتح) خطأ وتصحيف، وأصل ذلك أنه (أسلم المهلب عام الفتح ـ سنة ٨هـ) وذلك مع أبيه ثم وفد معه إلى رسول اللّه ﷺ، وبذلك يتبين صواب أنه من الصحابة.

٣ ـ **المُغيرة بن أبي صفرة**: جزم الحافظ ابن حجر بأنه أدرك النبي ﷺ. وقال: «استدركه ابن فتحون» مما يجعل من المحتمل أنه ثالث أبناء أبي صُفرة الذين وفدوا معه ما لم يكن الثالث غيره من إخوة المهلب.

رابعاً: كان مع أبي صُفرة عند قدومه إلى رسول اللّه ﷺ كوكبة من رجالات وفرسان أزد دَبَا، وهم من بني العَتيك الذين كان أبو صُفرة رئيسهم، ومن بقية عشائر الأزد في دبا، وقد ذكرت التراجم والمصادر نبأ قدومهم ذِكراً إجمالياً، فجاء في كتاب الإصابة أنه: «وَفَدَ الأزدُ من دَبَا متزيين بالإسلام على النبي ﷺ»[1] وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة حذيفة بن اليمان الأزدي «وَفَدَ الأزدُ من دَبَا مقرّين بالإسلام فبعث النبي ﷺ عليهم حذيفة بن اليمان الأزدي مُصَدّقاً»[2] وجاء في الوثائق السياسية للعهد النبوي من طبقات ابن سعد ومعدن الجواهر للنعمان بن محمد أنّ «أزد دبا كانوا قد أسلموا، فبعث رسول اللّه ﷺ عليهم مصدّقاً منهم يُقال له حذيفة بن اليمان الأزدي من أهل دبا، وكتب له النبي ﷺ فرائض الصدقات»[3].

وكان قدوم ذلك الوفد إلى رسول اللّه ﷺ عند قدوم أبي صُفرة ـ في شهر شوال سنة ٩هـ ـ ويمكن القول إن المذكورين في تراجم الصحابة من بني عتيك وبني جُديد كانوا في ذلك الوفد لأنهم أزد دَبَا، ومنهم مجفية بن النعمان العتكي وعقبة بن النعمان العتكي وهما من أبناء عمومة أبي صُفرة، فمكثوا معه في موكب الرسول ولما تهيأوا للعودة استعمل رسول اللّه ﷺ حذيفة بن اليمان

(١) الإصابة ـ ابن حجر ـ ص١٠٨ جـ٤.
(٢) الإصابة ـ ترجمة حذيفة بن اليمان ـ ص٣١٨ جـ٢.
(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد اللّه ـ ص١٦٤.

عاملاً على الصدقة بمنطقتهم وكتب له ـ ولهم ـ مكتوباً عن فرائض الصدقات.

خامساً: سمع أبو صُفْرة والمهلب بن أبي صُفرة في فترة مكوثهما في موكب الرسول وصحبتهما له أحاديث نبوية رواها أبو صفرة والمهلب. قال الحافظ ابن حجر: «وقد وقع لنا عن أبي صفرة حديث مسند أخرجه الطبراني في الأوسط من طريق زياد بن عبد اللّه القُرشي قال: دخلتُ على هند بنت المهلب وهي امرأة الحجاج وبيدها مغزل تغزل به، فقلت لها: تغزلين وأنت امرأة أمير؟ فقالت: إن أبي يحدثُ عن جدي قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: أطولكن طاقاً أعظمكن أجراً». وكذلك جاء في ترجمة المهلب بن أبي صُفرة:

«قال المهلب: سمعتُ أبي يقول، قال رسول اللّه ﷺ: أطولكن طاقاً أعظمكنّ أجراً».

وروى ابن قدامة عن حفص بن عمر عن شعبة عن أبي إسحاق قال:

«قال المهلب، قال رسول اللّه ﷺ: إذا كان بين أحدكم وبين القبلة قيد مؤخرة الرجل لم يقطع صلاته شيء».

«وأخرج أصحاب السنن من رواية المهلب قال، قال رسول اللّه ﷺ:

إن يبيتوكم فَلْيَكُنْ شعاركم حم لا ينصرون».

«وأورد ابن شاهين من طريق مسدد قال: حدثنا محمد بن عيينة قال: حدثنا ذكوان قال: كان شعار المهلب حَم لا ينصرون. وقال المهلب: كان شعار رسول اللّه ﷺ».

وقد ذهب الذين يظنون أن أبا صفرة كان صغيراً وأن المهلب ولد عام الفتح إلى أن تلك الأحاديث مرسلة، بينما الذين يعتمدون الأدلة والوقائع التي يعزز بعضها بعضاً تزيدهم تلك الأحاديث يقيناً بأن المهلب وأباه من الصحابة.

وقد سمع المهلب من غيره من الصحابة أحاديث سمعوها من رسول اللّه ﷺ فرواها المهلب بسنده عمن سمعها من إخوانه الصحابة، وفي ذلك قال الحافظ ابن حجر: «أخرج أحمد من رواية المهلب حديثاً عن سمرة بن جندب. وروى المهلب أيضاً عن عبد الله بن عمر وعن ابن عمرو وعن البراءَ الأنصاري».

وقد روى عن المهلب طائفة من التابعين، قال الحافظ ابن عبد البر: «روى عن المهلب: أبو إسحاق السبيعي، وعمر بن سيف، وسماك بن حرب. وهو ثقة». يعني المهلب بن أبي صفرة رضي اللّه عنهما.

وقد عاد أبو صفرة والذين معه ومِنْهم المهلب من المدينة المنورة إلى مدينة دَبَا

في أوائل السنة العاشرة للهجرة تقريباً، وساهموا في ترسيخ الإسلام والإيمان، وكان حذيفة بن اليمان الأزدي عاملاً على الصدقة بمنطقة دبا، يقبض صدقات أموالهم ويردّها على فقرائهم، وإليه أدى أبو صُفرة الصدقات في وقت استحقاقها السنوي (في ذي القعدة وذي الحجة سنة عشر للهجرة)، ثم توفي رسول اللّه ﷺ وبويع أبو بكر الصديق بالخلافة في ربيع سنة ١١هـ.

* * *

وقد جاء في طبقات الصحابة وغيره من المصادر أنه «كان حذيفة بن اليمان الأزدي يأخذ صدقات أموال أزد دبا ويردها على فقرائهم، فلما توفي رسول اللّه ﷺ ارتدّوا ومنعوا الصدقة، فكتب حذيفة إلى أبي بكر بذلك»[١] وهنا تزعم رواية نقلها ابن قتيبة أنه «لما توفي رسول اللّه ﷺ ارتد المهلب فبعثه حذيفة إلى أبي بكر، فعفا عنه». بينما الذي جاء في الطبقات هو أن أزد دبا ارتدّوا (فكتب حذيفة إلى أبي بكر بذلك) مما يتيح إدراك أن حذيفة كتب إلى أبي بكر مع مبعوث هو المهلب، فأتى المهلب إلى أبي بكر الصديق بنبأ ما حدث في منطقة دبا ولم تكن هنالك رِدّة عن الإسلام وإنما «نبغ في عُمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكان يُسامي في الجاهلية الجُلَنْدى، وتغلب على منطقة دَبَا في عُمان مُرتداً»، وقال د. فاروق عمر: «ولكن مؤرخي عُمان لا يتكلمون عن ردّة حدثت في عُمان، ولم تكن حركة لُقَيْط الأزدي إلا بسبب قضية شخصية تمضي وراءها طموحات شخصية وانشقاقات قبلية»[٢].

وقد وقف رجالات بني عَتيك وَهُم عشيرة المهلب بن أبي صُفرة ضد حركة لقيط الأزدي وكان منهم مجفية بن النعمان العتكي الذي قال لعمرو بن العاص:

يا عمرو إن كان النبيُّ محمد ... أتى به الأمرُ الذي لا يُدْفَعُ
فقلوبنا قَرْحَىٰ، وماء دمُوعنا ... جارٍ، وأعناق البرية خُضّعُ
فَأقِمْ فإنّك لا تخاف رجوعنا ... يا عمرو ذاك هو الأعزُّ الأمنعُ[٣]

ومنهم عقبة بن النعمان العتكي وهو ابن عم أبي صفرة والد المهلب، قال الحافظ ابن حجر في ترجمته: «عقبة بن النعمان العتكي، أبو النعمان: ثَبَت على إسلامه، وشيّع عمرو بن العاص في جماعة من قومه حتى قدموا على أبي بكر، فشكر لهم أبو بكر ذلك»[٣]. ثم كان المهلب بن أبي صُفرة هو مبعوث حذيفة بن

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ محمد حميد اللّه ـ ص١٦٤.
(٢) مصادر التاريخ العماني ـ فاروق عمر ـ ص٣١.
(٣) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة مجفية العتكي ـ ص٣٦٦ جـ٣، وترجمة عقبة العتكي ـ ص١٠٨ جـ٣.

اليمان إلى أبي بكر بخبر حركة لقيط بن مالك الأزدي في منطقة دَبَا ـ في جمادى الآخرة سنة ١١هـ ـ وما لبث أن سيطر لُقَيْط بن مالك على منطقة ومدينة دبا وأخرج منها عبيد بن الجُلَنْدى وحذيفة وأصحابهم فلحقوا بجيفر بن الجُلَنْدى في صُحار، فكتب جيفر إلى أبي بكر الصديق يخبره بذلك ويستمده، فبعث أبو بكر الصديق ـ في أواخر جمادى الآخرة سنة ١١هـ ـ حذيفة بن محصن الغلفاني الحميري وعرفجة بن هرثمة البارقي الأزدي على رأس قوة من الأزد وبارق وبَجِيلة لمساندة جيفر بن الجُلَنْدَى فانطلقوا إلى عمان ـ ومعهم المهلب بن أبي صُفرة غالباً ـ قال ابن الأثير: «فلما وصلوا رجاماً وهي قريب من عمان كاتبوا جيفراً وعُبيداً، فأرسلا إلى حذيفة وعكرمة وعرفجة في القدوم عليهما، فقدموا عليهما بصحار» وقال ابن خلدون: «بلغ لقيط مجيء الجيوش فعسكر بمدينة دَبَا، وعسكر جيفر وعبيد بصحار، واستقدموا عكرمة وحذيفة وعرفجة ـ إلى صحار ـ وكاتبوا أهل الدين فقدموا بجيوشهم» ـ وكان ذلك ما بين شهر رجب وشهر شوال سنة ١١هـ ـ وكان ممن كتب إليهم جيفر بن الجُلَنْدَى من رؤساء وقبائل الأزد أبو صفرة العتكي والد المهلب فقدم إليه بفرسان بني عتيك، وقال ابن الأثير: «كاتبوا رؤساء من كانوا مع لقيط وبدأوا بسيد بني جُديد، فكاتبهم وكاتبوه حتى ارفضُّوا عنه» ـ وفي شوال سنة ١١هـ ـ التقى الفريقان بمدينة دَبَا ولم يكن مع لقيط بن مالك سوى جماعة يسيرة من عشيرته حتى أنّه «أقام لقيط عياله وراء صفوفه» فوقعت معركة أسفرت عن مقتل لقيط بن مالك وبعض أصحابه وتم أسر بقيتهم ومنهم عيال لقيط بن مالك وكان يُقال لواحد منهم (أبو صُفرة) واسمه (ظالم بن لقيط بن مالك) فانتهت حركة لقيط بن مالك الموسومة بأنها (ردّة) بينما قال د. فاروق عمر في مصادر التاريخ العماني: «كان من المحتمل أن تتطور حركة لُقيْط الأزدي إلى ردّة ضد حكومة المدينة لولا مساندة أبي بكر الصديق لآل الجُلَنْدَى وإرساله حملة بقيادة حذيفة بن محصن البارقي الذي قضى على التمرد وأرسل قسماً من المتمردين إلى المدينة»[1].

وقد أرسل حذيفة أولئك المتمردين الأسرى مع عرفجة بن هرثمة البارقي ومعه أبو صفرة والد المهلب في كوكبة من فرسان بني عتيك بينهم المهلب وتسعة من إخوته فساروا بالأسرى إلى أبي بكر الصديق ليرى فيهم رأيه. وقد نقل الحافظ ابن حجر في ترجمة أبي صفرة والد المهلب رواية منسوبة إلى الواقدي تقول: «قَدِم سَبْي أهل دبا وفيهم أبو صُفرة غلامٌ لم يبلغ الحلم، فأنزلهم أبو بكر في دار رملة بنت الحارث، وهو يريد أن يقتل المقاتلة، فقال له عمر: يا خليفة رسول اللّه، قومٌ

(١) مصادر التاريخ العماني ـ فاروق عمر ـ ص٣٢.

مؤمنون إنّما شحوا على أموالهم. فقال أبو بكر: انطلقوا إلى أي بلد شئتم فأنتم أحرار».

وقد تَوهّم صاحب تلك الرواية وآخرون وزعموا أن أبا صُفرة الذي كان بين أولئك الأسرى هو والد المهلب، وليس ذلك بصحيح لأن أبا صُفرة هذا كان (غلاماً لم يبلغ الحلم)، بينما أبو صفرة والد المهلب كان يومئذ لا يقلُّ عمره عن أربعين سنة، وقد أخرج ابن السكن أنه لما وَفَد على رسول اللّه ﷺ قال له: (يا رسول اللّه إن لي ثمانية عشر ولداً ذكراً ورُزِقْتُ بنتاً سميتها صُفرة. فقال له: فأنت أبو صُفْرة). وقد ثَبَتَ أيضاً أن النجف بن أبي صُفرة له صحبة، قال الحافظ ابن حجر: «النجف بن أبي صفرة الأزدي ذَكَرَ أبو عبيد القاسم بن سلام أنه وَفَدَ على النبي ﷺ مع أبيه. وهو أخو المهلب الأمير المشهور. استدركه ابن فتحون». وكذلك فقد ثبت أيضاً أن المغيرة بن أبي صفرة أدرك النبي ﷺ وأن للمهلب صحبة، ويتيح كل ذلك إدراك أن أبا صفرة الذي كان غلاماً لم يبلغ الحلم إنما هو ابن لقيط بن مالك الذي قاد التمرد ـ أو الردة ـ بمنطقة دَبَا وتم إرساله مع الأسرى إلى أبي بكر الصديق، أما أبو صُفرة والد المهلب فكان هو ـ غالباً ـ الذي أتى بأولئك الأسرى ليرى فيهم أبو بكر رأيه، وكان أبو صفرة على رأس كوكبة من فرسان بني عتيك بينهم المهلب وتسعة من إخوته وقيس بن ثعلبة الأزدي. وقد ثبت في ترجمة المهلب بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر عن الحاكم ما يلي نصه:

«وَفَدَ أبو صُفْرة الأزدي على أبي بكر الصديق ومعه عشرة من أولاده وكان المهلبُ أصغرهم، فنظر إليه عمر بن الخطاب فقال لأبي صُفرة: هذا سيّدهم وأشار إلى المهلب»[1].

وكان ذلك عند قدوم أبي صُفرة مع عرفجة بن هرثمة البارقي بالأسرى من أصحاب لقيط بن مالك والذين أنزلهم أبو بكر في دار رملة بنت الحارث وكان يريد أن يقتل المقاتلين منهم، ويبدو أن أبا صُفرة لما شعر بذلك ذهب إلى عمر بن الخطاب وطلب منه أن يكلم أبا بكر في العفو عن الأسرى، وربما تكلم المهلب أيضاً بكلام حسن، وكان مع المهلب تسعة من إخوته بينهم النجف بن أبي صُفرة، والمغيرة بن أبي صُفرة، ومُعارِك بن أبي صُفرة، وقُبيصة بن أبي صُفرة، فنظر عمر بن الخطاب إليهم وقال لأبي صُفرة: «هذا سيّدهم. وأشار إلى المهلب». ثم سار عمر إلى أبي بكر الصديق وكلّمه في العفو عن الأسرى قائلاً: «يا خليفة رسول اللّه، قومٌ مؤمنون إنّما شَحّوا على أموالهم ـ فدعاهم أبو بكر فأقرّوا بالإيمان والإسلام ـ فقال:

(١) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة المهلب ـ ص٥٣٥ جـ٣.

انطلقوا إلى أي بلد شئتم فأنتم أحرار» ـ وكان ذلك في شوال سنة ١١هـ ـ فعادوا مع أبي صُفرة والمهلب وإخوته إلى منطقة دَبَا، وترسخت دعائم الإسلام فيها، ومكث حذيفة بن محصن فيها عاملاً على الصدقة إلى أن توفي أبو بكر الصديق وتولى الخلافة عمر بن الخطاب سنة ١٣هـ.

* * *

أنباء المهلب وأبيه في خلافة عمر بن الخطاب

وكان أبو صُفرة والد المهلب من أوائل رؤساء وفرسان الأزد الذين استجابوا لنداء الجهاد لما استنفر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رؤساء وقبائل العرب لجهاد الفُرس بالعراق (بعد موقعة الجسر التي تغلب فيها الفُرس على قوة من العرب المسلمين في الحيرة بالعراق في شعبان سنة ١٣هـ) قال البلاذري: «ثم إن عمر بن الخطاب نَدَب الناس إلى العراق فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه.. وقَدِم عليه خَلْقٌ من الأزد يريدون غزو الشام فَدَعاهم إلى العراق ورَغَّبَهم، فَرَدوا الاختيار إليه. وقَدِم جرير بن عبد اللّه البَجَلي من السَرَاة (سَرَاة اليمن) في بَجِيلة، فقال له عمر: هل لك في العراق، وأنفِلكم الثلث بعد الخمس؟ فقال جرير: نعم»[١]. وقال الطبري: «..قَدِم على عمر جرير بن عبد اللّه من اليمن في بَجِيلة، وعرفجة بن هرثمة البارقي.. وغالب بن عبد اللّه الليثي.. فكلمهم عمر فقال: إنكم قد علمتم ما كان من المصيبة في إخوانكم بالعراق ـ يوم الجسر ـ فَسِيرُوا إليهم»[٢]، وكان من الأزد الذين قدموا على عمر فدعاهم إلى العراق فردوا الاختيار إليه قيس بن ثعلبة، قال الحافظ ابن حجر في ترجمته: «قيس بن ثعلبة الأزدي: وَفَدَ على عمر مع أبي صُفرة. ذكره ابن الكلبي»[٣]. وقد تكررت فراسة عمر بن الخطاب في المهلب لما قَدِم مع أبيه وإخوته وفرسان من الأزد إلى المدينة في خلافة عمر، حيث ذكر الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب والحافظ ابن حجر في الإصابة أنه:

«أخرج عبد الرزاق في مُصَنّفه من طريق جعفر بن سليمان قال: وَفَدَ أبو صُفرة على عمر بن الخطاب ومعه عشرة من أولاده أصغرهم المهلب فجعل عمر ينظر إلى المهلب ويتوسم، ثم قال لأبي صُفرة: هذا سيّدُ ولدك».

وقد عقد عمر لواء الأزد وبارق لعرفجة بن هرثمة البارقي فانطلق أبو صفرة وأولاده ومنهم النجف والمغيرة ومُعارك والمهلب إلى العراق، وتولى جرير بن

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٥٤.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٧٨ جـ٤.
(٣) الإصابة ـ ابن حجر ـ ترجمة قيس بن ثعلبة ـ ص٢٧١ جـ٣.

عبد اللّه البجلي القيادة العامة للمسلمين، وتم النصر على الفُرس في موقعة يوم النخيلة بالحيرة ـ في آخر رمضان ١٣هـ ـ وما تلاها من فتوح إقليم الحيرة، وكان بعد ذلك ـ في سنة ١٤هـ ـ ما جاء في تاريخ الطبري من أنه: «سار عرفجة البارقي إلى البصرة بعد أن نُزِلت، وَتَرَكَ بَجِيلة». وكان ذلك هو الزمن الصحيح لما جاء في الإصابة عن رواية الواقدي بأن أبا صُفرة والذين معه من الأزد ساروا من المدينة ـ قال الواقدي ـ:

«فنزلوا البَصْرة، فكان أبو صُفرة والد المُهلب فيمن نزل البصرة».

وقد بعث عمر بن الخطاب عُتبة بن غزوان في قوة من المسلمين إلى منطقة البصرة في شهر ربيع سنة ١٤هـ فلما نزلها وَفَتَح الأبلة في رجب أو شعبان سنة ١٤هـ اختط عُتبة والذين معه البصرة ونزلوا فيها، وعندئذ نزلها أبو صُفرة والذين معه من الأزد ومنهم المهلب وإخوته، كما نزلها عرفجة بن هرثمة البارقي الأزدي والذين معه من أزد السَرَاة وأزد عُمان وكذلك حذيفة بن محصن الذي كان عاملاً لمنطقة دَبَا في عُمان فأصبح من كبار القادة في البصرة.

وفي أواخر سنة ١٤هـ أغزا العلاء بن الحضرمي أمير ولاية البحرين قوة من المسلمين إلى بلاد فارس عن طريق البحر فحوصروا هناك، فكتب عمر بن الخطاب إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة يأمره بتوجيه جيش كثيف إلى المسلمين المحصورين بفارس لاستنقاذهم، قال ابن خلدون وابن كثير: (فأرسل عتبة بن غزوان اثني عشر ألف مقاتل فيهم عرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، وعاصم بن عمرو، والأحنف بن قيس، وأمثالهم) ـ فكان من أمثالهم أبو صفرة والد المهلب ـ (وكان على الجميع سبرة بن أبي رُهم) فمضوا إلى منطقة الساحل الفارسي فهزموا الفرس واستنقذوا الذين كانوا محصورين وعادوا معهم إلى البصرة.

قال الجاحظ: «ورأى بكير بن الأخنس المُهَلَّبَ (وهو فتى بالبصرة) فقال بكير:

خُذُوني به إن لم يَسُدْ سَرَواتِهم ويبرعْ حتى لا يكونَ له مِثْلُ»[1]

وفيما بين سنة ١٥ وسنة ١٨هـ شهد المهلب مع أبيه فتوحاً بالعراق مع سعد بن أبي وقاص أمير ولاية الكوفة، وكان للمهلب مواقف محمودة قال الجاحظ: «بلغ سعداً شيءٌ فَعَلَهُ المُهلَّب في العدوّ، والمهلَّب يومَئذٍ فَتَى، فقال سعد: (اللَّهمّ لا تُره ذُلّاً)، فَيَرَوْنَ أنَّ الذي ناله المهلب بتلك الدّعوة»[2] ولما خرج محمد بن سعد بن أبي وقاص على الخليفة عبد الملك بن مروان ـ سنة

---

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٢٣٤ وص٢٧٨ جـ٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٥ جـ٣.

٨٢هـ ـ ووقع أسيراً في يد يزيد بن المهلب، قال ابن جرير الطبري:

«قال محمد بن سعد بن أبي وقاص ليزيد بن المهلب: أسألك بدعوة أبي لأبيك. فَخَلّى يزيدُ سبيله. ولقول محمد بن سعد ليزيد بن المهلب: أسألك بدعوة أبي لأبيك، حديثٌ فيه بعض الطول»(١).

وفيما بين سنة ١٩ وسنة ٢٢هـ كان أبو صُفرة والد المهلب من قادة فتوح محور (توج ـ اصطخر) ببلاد فارس، وفي ذلك قال ابن خلدون:

«أرسل عثمان بن سعيد بن أبي العاص أخاه الحَكَمْ إلى فارس في ألفين، فسار إلى توج وعلى مجنبته الجارود وأبو صفرة والد المُهلب»(٢).

فكان أبو صُفرة والد المهلب ثالث ثلاثة قادة لذلك الجيش وهُمْ الحَكَمْ والجارود وأبو صُفرة فمضوا إلى منطقة توج في الساحل الفارسي للخليج ففتحوها. قال البلاذري: (كان فتح توج سنة ١٩هـ) فرابط ذلك الجيش في توج وتقدموا منها إلى مدينة سابور وكان بها جيش قوي للفُرس فتوقف المسلمون عند مشارف سابور، وكتبوا بالخبر إلى البصرة وكان أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة وعثمان بن سعيد بن أبي العاص الأموي أميراً قائداً بمحور البحرين ـ البصرة ـ قال البلاذري: «فكتب عمر إلى عثمان بن سعيد بالمسير إليهم (إلى سابور) وكتب إلى أبي موسى الأشعري وهو بالبصرة أن يكاتف عثمان بن سعيد، فغزا أبو موسى من البصرة ـ إلى سابور ـ»(٣)، قال ابن خلدون: «وحاصر المسلمون مدينة سابور حتى صالحهم ملكها» ـ وكان ذلك سنة ٢٠هـ وقيل سنة ٢١هـ ـ فرابط جيش من المسلمين بمنطقة سابور وما إليها من إقليم اصطخر مع عثمان بن سعيد وأخيه الحكم وعلى مجنبته أبو صفرة والد المُهلب ومعه أولاده المغيرة والمهلب ومُعارِك فشهدوا فتوح ما بين سابور واصطخر، وفي أثناء ذلك أوفد عثمان بن سعيد أبا صُفرة والد المهلب إلى عمر بن الخطاب ليخبره بالموقف في جبهة اصطخر، فانطلق أبو صفرة في كوكبة من فرسان الأزد إلى المدينة المنورة، فذلك هو زمن ما ذكره الحافظ ابن حجر بأنه:

«قال عمرو بن شبة في أخبار البَصرة: أوفد عثمان بن أبي العاص وهو أمير بالبصرة أبا صُفرة في رجال من الأزد إلى عمر بن الخطاب. وكان أبو صُفرة أبيض الرأس واللحية فأتاه وقد اختضب، فقال له عمر: أنت أبو صُفرة. وغَلَبَتْ عليه كُنيته». (ص١٠٨ جـ٤).

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٣١ جـ٨.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٦.

(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٨٠.

وقد كان والد المهلب يُكنى أبا صفرة منذ قدومه على رسول اللّه ﷺ سنة ٩هـ فلما أتى إلى عمر بن الخطاب وقد اختضب ـ سنة ٢١هـ ـ كان الخضاب يتطابق مع كنيته فقال له عمر: أنت أبو صُفرة! ـ يعني (لا عجب، فأنت أبو صفرة) ـ ويُستفاد من كونه قد أصبح (أبيض الرأس واللحية) أنه قد اشتعل رأسه شيباً وبلغ من الكبر عتياً، وكان يومئذ في نحو الستين من عمره.

وعاد أبو صفرة من المدينة بجواب وتعليمات عمر إلى أمير البصرة وإلى عثمان بن سعيد ـ بشأن المواجهة في اصطخر ـ وعلى ضوء ذلك ـ غالباً ـ حدث ما ذكره البلاذري قائلاً: «اجتمع أبو موسى الأشعري وعثمان بن سعيد بن أبي العاص في آخر خلافة عمر، ففتحا أرجان صلحاً على الجزية والخراج، وفتحا شيزار وسينيز من أرض أردشيرخره، وتركا أهلها عماراً للأرض»[1]، وقال د. ناجي محسن: «تقدم أبو موسى الأشعري إلى اصطخر، وسيطر على جنديسابور»[2] وقد شهد أبو صُفرة ومعه المهلب تلك الفتوح ـ سنة ٢٢هـ ـ وكانت اصطخر مدينة حصينة منيعة فلم يتسنَّ فتحها آنذاك وإنما كما قال البلاذري «وافَى أبو موسى اصطخر فرام فتحها، فلم يمكنه ذلك». فرابط عثمان بن سعيد في اصطخر ومعه أبو صفرة، بينما سار أبو موسى وبعث الجيوش إلى إقليم كرمان فتم فتحها سنة ٢٣هـ، ولم يبق من بلاد فارس إلا اصطخر وتم فتحها في خلافة عثمان بن عفان وولاية عبد اللّه بن عامر للبصرة سنة ٢٩هـ.

وكان أبو صُفرة والد المهلب على قيد الحياة في خلافة عثمان بن عفان، فقد أقطع عثمان عدداً من الصحابة أرضاً في مناطق البصرة ـ منذ سنة ٢٩هـ ـ قال البلاذري: (حدثني الوليد بن صالح عن محمد بن عمرو الأسلمي عن إسحاق بن يحيىٰ عن موسى بن طلحة، قال: أول من أقطع العراق عثمان بن عفان، أقطع قطائع من صوافي كسرى وما كان من أرض الجالية، فأقطع طلحةَ النشاستج، وأقطع وائل بن حُجر الحضرمي ما وَالَى زرارة، وأقطع خباب بن الأرت أسبينا، وأقطع عَدِي بن حاتم الطائي الروحاء، وأقطع الأشعث بن قيس الكندي ظيزناباذ، وأقطع جرير بن عبد اللّه البجلي أرضه على شاطئ الفرات»[3] وكذلك «قال ابن شبرمة: أقطع عثمان بالبصرة عمران بن حصين الخزاعي وعبد اللّه بن عامر أقطعه داره»[4]،

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٨٠.
(٢) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي محسن ـ ص١٦٦.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٧٣.
(٤) الإصابة ـ ترجمة عمران بن حصين ـ ص٢٧/ ٣. ـ ترجمة أبي صفرة ـ ص١٠٨/ ٤ ـ وترجمة المهلب ـ ص٥٣٦/ ٣.

وكذلك «ذكر الأصمعي: أنّ أبا صُفرة سأل عثمان أن يُقطعه فأقطعه خططاً بالمهالبة»[١] وذلك هو آخر ما وقفنا عليه من أنباء أبي صُفرة والد المُهلب، وقد توفي أبو صُفرة رضي اللّه عنه بالبصرة عن عمر يناهز السبعين عاماً في أواخر خلافة عثمان بن عفان رضي اللّه عنه.

* * *

عَقْد لواء القيادة للمُهلب في خلافة علي بن أبي طالب

وكان المهلب بن أبي صُفرة من أشراف وفرسان اليمانيين بالبصرة لما تولى الخلافة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه وعارضته عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير والذين معهم فأتوا إلى البصرة ـ في ربيع سنة ٣٦هـ ـ ثم أتى علي بن أبي طالب إلى البصرة وانقسم المقيمون بالبصرة ومنهم الأزد فانضم فريق منهم إلى عائشة وطلحة والزبير، بينما انضم فريق منهم إلى علي بن أبي طالب وكان المهلب من الذين أيقنوا بأنّ الحق إلى جانب عليّ فبايعوه وأخذوا أماكنهم في صفوفه.

ولما اندلعت موقعة الجمل بين الفريقين ـ في جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ ـ حمل جيش طلحة على فرسان الأزد الذين في جيش عليّ فانكسر فرسان الأزد وتراجعوا، فنادى علي بن أبي طالب المهلب بن أبي صُفرة وعقد له لواء القيادة على الأزد والذين معه فقادهم المهلب إلى النصر، فكان عليّ بن أبي طالب أول من عقد لواء قيادة للمهلب. وفي ذلك ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة المهلب بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة ما يلي نصه:

«قال أبو إسحاق السبيعي: ما رأيتُ أميراً خيراً من المهلب. وقال محمد بن قدامة في كتاب أخبار الخوارج: ذكر الكوفيون عن أبي إسحاق عن أصحابه قالوا: لم يُولّ المهلب ولاية قط نظراً له إنما كان يولّى لحاجتهم إليه، قال أبو إسحاق: صدقوا أول من عقد له لواء علي بن أبي طالب حين انهزمت الأزد يوم الجمل»[٢].

ومنذ أن عقد له الإمام علي بن أبي طالب لواء القيادة ـ سنة ٣٦هـ ـ لم يزل المهلب من كبار القادة والأمراء الزعماء على امتداد أربعة عقود حافلة بأمجاد وبطولات المُهلب وفتوحاته.

* * *

(١) المصدر السابق ـ ترجمة أبي صفرة ـ ص١٠٨ جـ٤.
(٢) المصدر نفسه ـ ترجمة المهلب ـ ص٥٣٦/ جـ٣.

أنباء المهلب وقيادته للفتوح في خلافة معاوية

قال الحافظ ابن كثير: «كان المهلب أحد أشراف أهل البصرة ووجوههم ودُهاتهم وأجوادهم وكرمائهم.. وكان فاضلاً شجاعاً كريماً.. وله كلام حسن، فَمِنه: نِعْم الخصلة السخاء، تسترُ عورة الشريف وتلحق خسيسة الوضيع وتُحببُ المزهود فيه. وقال المهلب: يعجبني في الرجل خصلتان؛ أن أرى عقله زائداً على لسانه ولا أرى لسانه زائداً على عقله.. وكان المهلب من الشجعان وله مواقف حميدة وغزوات مشهورة.. وقد غزا في أيام معاوية أرض الهند سنة ٤٤ هجرية»[١].

أولاً: المهلب في فتوح سجستان وكابول (٤٢ ـ ٤٤هـ)

في عام ٤١هـ انتهت فترة الفتنة الكبرى والصراع على الخلافة بين الإمام عليّ وأمير الشام معاوية ثم بين الحسن بن عليّ ومعاوية، فقد بايع الحسن والذين كانوا مع أبيه معاوية بالخلافة سنة ٤١هـ وولّى معاوية الصحابي عبد اللّه بن عامر أميراً على ولاية البصرة، وكان إقليم سجستان قد خرجت أغلب جهاته من سلطة المسلمين في فترة الفتنة، فولّى وبعث عبد اللّه بن عامر إلى سجستان الصحابي عبد الرحمٰن بن سمرة ـ سنة ٤٢هـ ـ فسار من البصرة ومعه خمسة من القادة وَهُم المهلب بن أبي صُفرة، وعمر بن عبيد اللّه بن معمر، وعباد بن الحصين الحبطي وعبد اللّه بن خازم وقطري بن الفجاءة، فتم إعادة فتح ما بين (بست) وبين (كابل) من إقليم سجستان، وتقدم ذلك الجيش العربي الإسلامي بقيادة الأمير عبد الرحمٰن بن سمرة ومعه المهلب وبقية القادة إلى كابل ـ وهي مدينة كابول في أفغانستان ـ وكانت كابل مقر الملك (شاه كابل) فحاصرها المسلمون شهراً ورموها بالمجانيق حتى ثلمت بوابتها ثلمة عظيمة: «فلما أصبح الكفرة خرجوا يقاتلون المسلمين فضرب ابن خازم والمهلب فيلاً كان معهم فسقط على الباب الذي خرجوا منه، فلم يقدروا على غلقه، فدخلها المسلمون عنوة.. قال أبو مخنف: الذي عقر الفيل هو المهلب»[٢] فانسحب كابل شاه إلى بعض المناطق بينما فتح المسلمون كابل، فبعث عبد الرحمٰن بن سمرة المهلب وعمر بن عبيد اللّه بنبأ وبشارة الفتح إلى عبد اللّه بن عامر بالبصرة ومعاوية بدمشق، وفي ذلك قال البلاذري:

«أتى عبد الرحمٰن بن سمرة كابُلْ وقد نكث أهلها ففتحها، وَوَجَّه عبد الرحمٰن ببشارة الفتح عمر بن عبيد اللّه بن معمر والمهلب بن أبي صُفرة الأزدي»[٢].

ثم في سنة ٤٣ ـ ٤٤هـ ـ وبينما كان المهلب في البصرة ـ سقطت كابل شاه وحليفه الملك رُتبيل. قال البلاذري: «جمع كابل شاه للمسلمين وأخرج من كان

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٤٢ جـ٩. (٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٨٨.

منهم بكابل، وجاء رتبيل فغلب على زابلستان والرُّخّج حتى انتهى إلى بست»(١).

وولّى معاوية على ولاية البصرة ـ سنة ٤٤ ـ ٤٥هـ ـ زياد بن أبي سفيان فعزل زياد عبد الرحمٰن بن سمرة وولّى على سجستان الصحابي الربيع بن زياد الحارثي المذحجي، فانطلق الربيع من البصرة ومعه المهلب وعباد الحبطي والحسن البصري، وكان الحسن البصري كاتب الربيع بن زياد. «فَقَاتَل الربيع بن زياد رتبيل في (بست) وهزمه، واتّبعه حتى أتى (الرُحج) فقاتله بالرُحج» ثم عرض رتبيل أداء الجزية فَصَالحُه الربيع «ومضى الربيع ففتح بلاد الداور» ـ أو الدوار ـ ومضى إلى كابول، فجعل الربيع المهلب على رأس فرقة وعباد الحبطي على رأس فرقة، وتكرر حصار كابول وقَصْفَها بالمنجنيق فتم ثلم بابها ثلمة عظيمة، «فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يطاعن المشركين حتى أصبح فلم يقدروا على سدها، وخرج الكفرة يقاتلون المسلمين في الصباح». وهنا قال البلاذري: «فضرب ابن خازم فيلاً كان معهم فسقط على الباب.. وقال أبو مخنف: الذي عقر الفيل المهلب وكان الحسن البصري يقول: ما ظننت أن رجلاً يقوم مقام ألف حتى رأيت عباد بن الحصين(١)، وبما أن الحسن البصري كان مع الربيع بن زياد وهو كاتب الربيع، يتبين أن واقعة ضرب الفيل وقعت مرتين، إحداهما في غزوة عبد الرحمٰن بن سمرة سنة ٤٢هـ وكان الذي ضرب الفيل ابن خازم ومعه المهلب. وثانيهما في غزوة الربيع بن زياد وكان عباد بن الحصين الحطمي في كتيبة والمهلب في كتيبة، فقاتل عباد بن الحصين الكفار الذين خرجوا إليه بينما اقتحم المهلب الباب الذي خرجوا منه فضرب فيلاً كان معهم فعقره على الباب فلم يقدروا على غلقه، فدخل المهلب وكتيبته وعباد وكتيبته والأمير الربيع بن زياد مدينة كابول فاتحين في أواخر سنة ٤٤هـ، ورفرفت رايات الإسلام في كابول، ومما يتصل بذلك الفتح، قال د. ناجي محسن:

«استمر تَدفُّق الأزد تحت لواء المهلب بن أبي صفرة أيام معاوية حين غزا بهم بلاد الملتان وكابل»(٢).

ثانياً: فتوح المهلب في بلاد السند والهند (٤٤ ـ ٤٦هـ)

في عام ٤٤ ـ ٤٥هـ انطلق المهلب من سجستان وكابول إلى الملتان في بلاد السند والهند ـ باكستان حالياً ـ فغزا وفتح بلاد الملتان على رأس فرقة من فرسان الأزد، وهو الغزو والفتح الذي أشار إليه د. ناجي محسن في كتابه عن دخول قبائل العرب إلى بلدان المشرق قائلاً: «استمر تدفق الأزد تحت لواء المهلب أيام معاوية حين غزا بهم بلاد الملتان وكابل»(٢) كما أشار الحافظ ابن

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٨٨.

(٢) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي محسن ـ ص١٨٩.

كثير إلى ذلك قائلاً: «غزا المهلب في أيام معاوية أرض الهند سنة ٤٤ للهجرة»[١].

إن غزوات وفتوح المهلب في بلاد السند والهند هي الغزوات العربية الإسلامية الأولى التي بلغت وفتحت تلك البلاد، وقد شملت منطقة (بنة) ومنطقة (الملتان) ومنطقة (لاهور) في ثغر بلاد السند والهند، وفي ذلك قال البلاذري:

«غزا ذلك الثغر المهلب بن أبي صُفرة الأزدي في أيام معاوية سنة أربع وأربعين، فأتى المهلب بنّة والأهوار، وهما ما بين الملتان وكابل، فلقيه العدو، فقاتلهم ومن معه.. وفي (غزوة) بنة يقول الأزدي:

أَلَمْ تَرَ أن الأزد ليلة بُيِّتوا ... ببنَّة كانوا خير جيش المهلبِ»[٢]

فقد غزا المهلب منطقة (بنة) وهي (بانو) حالياً ـ في شمال باكستان ـ ثم عبر نهر السند وغزا الملتان وهي (ملتان) حالياً ـ في البنجاب الغربية ـ ثم غزا اللاهور وهي (لاهور) حالياً ـ شمال شرق باكستان على تخوم الهند ـ فأذعنت تلك المناطق للمصالحة وأداء الجزية، ثم مضى إلى بلاد القيقان ـ وهي جنوب غرب باكستان على تخوم إيران ـ فدخل بلاد القيقان ـ سنة ٤٥هـ ـ قال البلاذري في فتوح البلدان:

«ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من التُرك على خيل محذوفة، فقاتلوه، فَقُتلوا جميعاً.

وقال المهلب: ما جُعِلَ هؤلاء الأعاجم أولَى بالتشمير منّا، فحذف الخيل، فكان أول من حذفها من المسلمين»[٢]. ويتبين من ذلك أن المهلب هو أول أمير قائد فاتح في بلاد السند، ومكث أميراً قائداً فيها سنة ٤٤ وسنة ٤٥هـ وشملت غزواته وفتوحه مناطق بنة والملتان ولاهور وبعض بلاد القيقان وكان بها إلى سنة ٤٦هـ.

* * *

ومن المفيد الإشارة إلى أنه بينما عاد المهلب إلى البصرة وانطلق منها إلى سجستان مع عباد بن زياد ـ كما سيأتي ـ تولى قيادة ثغر السند عبد اللَّه بن سوار العبدي ـ سنة ٤٦هـ ـ فغزا بلاد القيقان واستشهد فيها. ثم تولى السند الأمير اليماني راشد بن عمرو الجُديدي الأزدي، وكان راشد أميراً لرُبع خراسان في ولاية عبد اللَّه بن عامر للبصرة سنة ٤٢ ـ ٤٤هـ حيث «صيّر ابن عامر خراسان أرباعاً، فولّى قيس بن الهيثم على ربع، وراشد بن عمرو الجديدي على ربع، وعمران

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٤٢ جـ.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٢١ ـ ٤٢٢.

البرجمي على ربع، وعمرو بن مالك الخزاعي على رُبع»[١]، فكان راشد أميراً قائداً لربع خراسان في تلك الفترة التي كان فيها المهلب من قادة سجستان وأميراً قائداً بالسند. فلما ولّى معاوية على ولاية البصرة زياد بن أبي سفيان «جعل زياد ـ في سنة ٤٥هـ ـ خراسان أرباعاً ـ أيضاً ـ فاستعمل على ربع هراة وباذغيس وبوشنج وفادس نافع بن خالد الأزدي. .»، ويبدو من ذلك أن نافع بن خالد تولى الربع الذي كان أميره راشد بن عمرو لأن كليهما من الأزد، فانتهت ولاية راشد بخراسان. قال لسان اليمن الحسن بن أحمد الهَمْداني في الإكليل:

«وَفَدَ راشد بن عمرو الجديدي الأزدي إلى معاوية بن أبي سفيان، فاستشرفه، فأجلسه معه على السرير، وحَدَّثَهُ طويلاً، فلما نهض أتْبَعه بصره حتى خرج. ثم أقبل معاوية على من عنده من قريش فقال: أيَسُركُم أن يكون هذا من قريش؟ قالوا: وما يسوءنا من ذلك؟ قال: لو كان من قريش لنازعني الخلافة، وإنّي له الآن لخائف، وما الرأي إلّا أن أرمي به نحر العدو، فولّاه وأغزاه بلاد السند»[٢].

وقد كتب معاوية إلى زياد أمير ولاية البصرة بتولية راشد بن عمرو على ثغر السند؛ لأن ثغر السند كان تابعاً لولاية البصرة، وكان المهلب قد رجع من السند إلى البصرة. قال البلاذري: «ثم استعمل زياد على ثغر السند راشد بن عمرو الجديدي من الأزد، فأتى مكران وغزا القيقان، فظفر»[٣].

وقال الحسن بن أحمد الهمداني: «فدخل راشد مكران والقيقان، وفيه قال الشاعر:

غزا السنـد ميمـونُ النقيبةِ حـازمٌ	من الأزدِ جَلْداً للصعـاليك رافع
تـرى عينـه مـا لا يـرون إذا سَـمَـا	بعيني قطامي خضيبِ الأشاجع
وإن الجُدَيديّ ابن عمرو على الكرىٰ	وغِبّ السُّرىٰ، صَقْرٌ بعلياء واقع»[٢]

وكانت ولاية وفتوح راشد بن عمرو في بلاد السند امتداداً لفتوح المهلب في تلك البلاد سنة ٤٤ ـ ٤٦هـ فقد غزا وافتتح راشد سنة ٤٧هـ مناطق من بلاد القيقان، وبعث راشد قوة بقيادة نائبه سنان بن سَلَمَة فغزا وفتح (قصدار) ـ سنة ٤٨هـ ـ وبَثّ راشد وسنان السرايا في بلاد القيقان والبوقان وقصدار فظفروا. وفي سنة ٥١هـ غزا راشد بن عمرو الأزدي إلى (هندمند) وعبر نهر السند إلى بلاد (ميد) فجاهد فيها الكفار حتى استشهد هناك، (فقام بأمر الناس سنان بن سلمة فولاه

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٢٧ ـ وفتوح البلدان ص٤٠٠.
(٢) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢١٥ ـ ٢١٦ جـ٢.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٢٢.

زياد بن أبي سفيان على ثغر السند فأقام سنتين وفتح قصدار ثم مات بها)[1] فكان أولئك أوائل الأمراء الفاتحين لبلاد السند.

* * *

ثالثاً: المهلَّب مع عَبَّاد بن زياد في سجستان وفارس (٤٦ ـ ٤٧هـ)

ولما عاد المهلب من بلاد السند إلى البصرة قام زياد بن أبي سفيان أمير ولاية البصرة بتولية ابنه عَبّاد بن زياد على غزو فارس ـ أو على ولاية سجستان ـ وبعث معه المهلب بن أبي صُفرة أميراً قائداً على الحرب، وكان للمهلب في ذلك المسير خبر ذكره أبو علي القالي في كتاب الأمالي قال: (حدثنا أبو بكر بن دريد قال: حدثنا العُكْليُّ قال: حدثني حاتم بن قبيصة قال: أَغْزَى زِيَادُ ابنَه عَبَّاداً الفارس (إلى فارس؟) وأَصْحَبه المُهَلَّب ففتح، فَبينما هُمْ كذلك إذ جاءهم فتى شابٌّ بفرس يقوده إلى المهلّب، فقال: أيها الأمير، أحبُّ أن تَقْبَل منّي هذا الفرس فإنّه من سِرِّ خيلنا. فَقَبِله المهلبُ منه. فلما ذهب الفتى نظر إليه المهلب وحرّكه، فقال: واللّه ما أرى فيه ما قال ولا أحْسَبُه إلا تَعَرَّض لِصِلَتنا: فأمر له بوَصِيفَتَيْن فَحُمِلتا على الفرس ورَدَّه إلى الشّابّ، فقبل الوصيفتين ورَدَّ الفرسَ إلى المهلب فكان في خيله.

وكان داود بن قَحْدَم القَيْسي أحد بني قيس بن ثَعْلَبَة نشأ في حِجْر المهلب وكان يلي القيام على خيله فَقَدِموا شِيرَازَ وبها حُمْرانُ بن أبان والياً عليها وعلى فارس، فقال لهم: هل لكم في السِّباق؟ فقال عبّاد: ونحن على ظَهْرها. فقال المهلب: أَجِّلْنا أَجلاً. فقال: كم تريدون؟ قال: أربعين يوماً. قال: نعم. فَعَلَّفَها الرِّطابَ عشرين وأَضْمَرها عشرين. فقال داود بن قَحْدم للمهلَّب: إن الفرس الذي أهداه الشاب إلينا لا واللّه ما أضُمُّه إلى شيء من خيلنا إلا سَبَقَه. فقال المهلب: لعلّه فرسٌ مِنْزَاقٌ يَصْبِر في القُرْب ولا يصبر إذا بَعُدت الغايةُ. قال: لا أدري. قال: لا تُرْسِلْه حتى أجيء. فأمر المهلب بلِقْحة تُحْلَب والفرس يسمع فلما سَمِع صوتَ الحِلاب أصاخ بسمعه حتى أَدْنَيْت منه العُلْبة فشربها، فلما رأى المهلبُ ذلك قال لداود: لا تُرْسِلِ الخيل حتى تعلم أنه قد تَوَسَّط الميدانَ؛ فاستهان داود بالفرس، فَحَمَل عليه شاباً. فقال المهلب: واللّه لقد مَرَّ بي سابقاً وما أَرَى معه من الخيل واحداً. (يعني أنه سبق كل الخيول).

فأخذه عَبّاد من المهلب (أي أخذ الفَرسَ الذي وَهَبَه إياه المهلب) فَحَمَله عَبّاد إلى الشام وأهداه إلى معاوية، فَسَبَق خيلَ الشام»[2].

* * *

(١) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٢٨ جـ٢.
(٢) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص١٨٢ جـ٣.

وبينما كان المهلب بن أبي صفرة أميراً قائداً مع عَبَّاد بن زياد في سجستان كان من الأمراء القادة اليمانيين بخراسان خالد بن نافع الطاحي الأزدي ـ من بني طاحية بن سُود بن مالك بن فهم الأزدي ـ إذْ أنه «جعل زياد خراسان أرباعاً، واستعمل أمير بن أحمر اليشكري على (مرو) وخُليد بن عبد اللّه الحنفي على (أبْرَشَهْر) وقيس بن الهيثم على (فارياب والطالُقان) ونافع بن خالد الأزدي على (هراة وباذغيس وفادس وبوشنج من أنواران)».

فغزا نافع بن خالد ـ في سنة ٤٦هـ ـ إلى مناطق باذغيس أو غيرها، فغنم غنائم كان منها خُوْان بأزهَرْ قوائمه منه، فبعث به إلى زياد بن أبي سفيان أمير البصرة مع غلام له يقال له زيد، وكان أحد قوائم الخُوْان من ذهب. فسعى زيد بنافع بن خالد وقال لزياد: إن نافعاً أخذ قائمة من قوائم الخُوان وجعل مكانه قائمة من ذهب. فاستدعاه زياد من خراسان فحبسه. قال الطبري: «فمشى رجال من وجوه الأزد ـ بالبصرة ـ إلى زياد، فيهم سيف بن وهب المَعْولي الأزدي، وكان شريفاً وله يقول الشاعر:

إعْمِدْ بِسَيْفِ للسماحة والنَدىٰ ... واعْمِدْ بِصَبْرة للفعال الأعظم

فدخلوا على زياد، فتمثّل زياد حين رآهم:

أذكر بنا مَوْقِف أفراسنا ... بالحنو إذْ أنت إلينا فَقِيْرْ

وأما الأزد فيقولون: بل تمثل سيف بن وهب بهذا البيت حين دخل على زياد، وإنما ذَكَّرَه أيام أجاره صَبْرةُ الأزدي. فقال زياد: نعم. وأخرج نافعاً»[1].

وعاد المهلب بن أبي صُفرة آنذاك من سجستان وفارس إلى البصرة ـ في أوائل سنة ٤٧هـ ـ وقد عزل زياد نافعَ بن خالد وأمير بن أحمر اليشكري وخليد الحنفي من أرباع خراسان وقرر تولية أمير واحد لولاية خراسان هو الصحابي الحكم بن عمرو الغِفاري وكان عفيفاً له صُحبة، فاستجاب الحكم بن عمرو للتولية على أن يسير المهلب معه أميراً قائداً على الحرب، فاستجاب المهلب لذلك وانطلق مع الحَكَمْ إلى خراسان.

رابعاً: قيادة المهلب لفتوح خُراسان مع الحكم بن عمرو (٤٧ ـ ٥٠هـ)

قال الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«لما ولّى زيادٌ الحكم بن عمرو خُراسان ولّى المهلَّبَ الحرب وولّى أخاه المُغيرةَ أمر العسكر ففتح اللّه عليهم»[2]، فكان المهلب هو القائد الحربي في غزوات وفتوح سنة ٤٧ ـ ٤٨هـ والتي أشار إليها الطبري قائلاً: «غزا الحكم بن عمرو

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٢٧ و ١٢٨.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٥٠٠ جـ٣.

طخارستان. . فغزا جبال الغور وفراوندة فقهرهم بالسيف عنوة، ففتحها، وأصاب فيها مغانم كثيرة[١]، وقال البلاذري: «فتح الحكم بن عمرو الصغانيان». وكان المهلب قائد الجيش في تلك الفتوح.

وفي سنة ٤٩هـ سار الحكم بن عمرو بالمسلمين إلى بلاد جبل الأشل ـ بين أفغانستان وأوزبكستان ـ فأوغل في بلاد جبل الأشل حتى أحدق العدو بالمسلمين في وسط تلك البلاد ولكن عبقرية المهلب أنقذت المسلمين. قال الطبري:

«غزا الحكم بن عمرو أهل جبال الأشل حتى توسط، فأخذوا بالشعاب والطرق، فأحدقوا به، فَعَيَّ بالأمر، فولّى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أخذ عظيماً من عظمائهم (أسيراً) فقال له: اخْتَرْ بين أن أَقْتُلَكَ وبين أن تُخرجنا من هذا المضيق»[١].

وقد ذكر ابن الأثير ذلك تحت عنوان «ذكر مكيدة للمهلب» فقال: «كان المهلب مع الحكم بن عمرو بخراسان وغزا معه بعض جبال الترك، فغنموا، وأخذ الترك عليهم الشعاب والطرق، فعيّى الحكمُ بالأمر، فولّى المهلب الحرب، فلم يزل يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك فقال له: إما أن تخرجنا من هذا المضيق أو لأقتلنك»[٢].

وكان المكان الذي فيه المسلمون يقع وسط جبال تحيط به وقد أخذ التركُ الطرق وعسكروا فيها وكان من بينها طريق رئيسي واحد وطرق فرعية، فدلّ الأسيرُ التركي المهلب على أحد الطرق الفرعية، ثم «أوقد المهلبُ النار حيال طريق من تلك الطرق ـ هو الرئيسي ـ وسيّر بعض الأثقال نحوه فظن الترك أنهم سيسلكون ذلك الطريق فاجتمعوا فيه وأخلّوا ما سواه من الطرق، فبادرهم المهلب إلى طريق أخرى، فلم يدركوه ـ ولم يتنبهوا لذلك ـ حتى خرج بالمسلمين من المضيق) قال ابن الأثير: «فسلم الناس بما معهم من الغنائم»[٢]، وعاد بهم المهلب إلى منطقة هراة ـ بأفغانستان ـ ثم مضوا إلى مدينة مرو ـ عاصمة خراسان ـ «وتوفي الحكم بن عمرو ـ سنة خمسين ـ بمرو بعد انصرافه من غزوة جبل الأشل»[٢].

خامساً: المهلب في فتوح ما وراء النهر وحتى وفاة معاوية (٥٢ ـ ٦١هـ)

وكان المهلب قائداً في خراسان بعد وفاة الحكم بن عمرو، حيث وصل إلى خراسان والياً عليها الزعيم اليماني الصحابي الربيع بن زياد الحارثي المذحجي ولاه وبعثه زياد بن أبي سفيان ـ بأمر معاوية ـ فسار الربيع ومعه خمسون ألفاً من العرب

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ جـ١٢٧ و ١٢٨.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٢٦ جـ٣.

بعيالاتهم ليقوم بتوطينهم في أرجاء ولاية خراسان وكان غالبيتهم من اليمانيين ـ الأزد وخزاعة ومذحج وطيء ـ فوصل الربيع بهم إلى خراسان في أول سنة ٥١هـ (٦٧١م) وأوطنهم في مرو ومناطق ما دون نهر جيحون من ولاية خراسان.

وفي سنة ٥٢هـ عَبَر الربيع بن زياد الحارثي بالمسلمين نهر جيحون وغزا بعض مناطق ما وراء النهر ـ في أوزبكستان ـ وكان المهلب من قادة ذلك الغزو الأول إلى بلاد ما وراء النهر، ثم عاد الربيع إلى مرو فتوفي بها في ربيع الثاني سنة ٥٣هـ واستخلف ابنه الأمير عبد اللّه بن الربيع، فافتتح بلاد آمل ثم توفي بمدينة مرو في أواخر سنة ٥٣هـ، وكان زياد بن أبي سفيان أمير ولاية البصرة قد توفي ـ في رمضان ٥٣ ـ فولّى معاوية ابنه عبيد اللّه بن زياد على خراسان سنة ٥٤هـ فغزا بالمسلمين إلى بلاد بُخارى فصالحتهم (خاتون) حاكمة بُخارى على جزية وأموال، ثم كتب معاوية إلى عبيد اللّه بن زياد بتوليته على البصرة سنة ٥٥هـ فسار إلى البصرة وعاد المهلب ـ آنذاك ـ إلى البصرة.

وفي سنة ٥٦هـ ولّى معاوية على خراسان سعيد بن عثمان بن عفان، فكان المهلب ثالث ثلاثة قادة انطلقوا معه إلى ولاية خراسان لفتح بلاد ما وراء النهر وهم المهلب وطلحة بن عبد اللّه الخزاعي اليماني وأوس بن ثعلبة التميمي، وفي ذلك قال الطبري: «خرج سعيد بن عثمان بن عفان إلى خراسان ومعه أوس بن ثعلبة التميمي وطلحة بن عبد اللّه بن خلف الخزاعي، والمهلب بن أبي صفرة» وقال ابن الأثير: «وولى معاوية إسحاق بن طلحة على خراج خراسان».

وانطلق الجيش العربي الإسلامي بخراسان مع الأمير سعيد بن عثمان بن عفان والقادة الذين منهم المهلب فعبروا نهر جيحون إلى ما وراء النهر، قال البلاذري: «فلما بلغ خاتون ـ صاحبة بُخارى ـ عبورهم النهر حملت إلى سعيد الصلح. وأقبل أهل السغد والترك وأهل كش ونَسَفْ إلى سعيد بن عثمان في مائة وعشرين ألفاً ـ للحرب ـ فالتقوا ببخارى، وقد نَدِمَتْ خاتون على أدائها الأتاوة فنكثت العهد، فحضر عبد لأهل تلك الجموع فانصرف بمن معه فانكسر الباقون» ـ يعني جيش السغد وكش ونَسَفْ الذين كانوا في مائة وعشرين ألفاً، ولم تذكر الروايات كيفية انكسارهم، وقد ذكر البلاذري في أحداث زمن لاحق أنه «غزا المهلب بن أبي صُفرة السُغد وكش ونَسَفْ» مما يشير إلى أن المهلب هو الذي كسرهم ـ وجاء في سياق الرواية الأولى: « . . فانكسر الباقون، فلمّا رأت خاتون ذلك أعادت الصلح، ودخل سعيد مدينة بخارى».

وفي سنة ٥٦ ـ ٥٧هـ سار سعيد بن عثمان بن عفان بالجيش العربي الإسلامي

إلى سمرقند، قال ابن الأثير: «فخرج إليه الصغد، فتوافقوا يوماً إلى الليل ولم يقتتلوا، فقال مالك بن الريب لسعيد:

ما زلت يوم الصغد ترعد واقفاً   من الجُبن حتى خفت أن تتنصرا

فلما كان من الغد اقتتلوا فهزمهم سعيد وحصرهم في مدينتهم سمرقند» [ص٢٥٣/ ٣] وكان المهلب قائد نصف الجيش الذي هزم الصغد وحاصر سمرقند، قال البلاذري: «فنزل سعيد على باب سمرقند فقاتل أهلها ثلاثة أيام وكان أشد قتالهم في اليوم الثالث فأُصيبت عينه وعين المهلب بن أبي صُفرة» ـ وذلك لأنهما كانا قائدي الجيش فانطلقا على رأس الجيش فانهمرت النبال من العدو فأصاب سهم عين سعيد وأصاب سهم آخر عين المهلب أو بالقرب من عينه ـ قال البلاذري: «ولزم العدو المدينة وقد فشت فيهم الجراح، فلما خاف أهل المدينة طلبوا الصلح، فصالحهم سعيد على سبعمائة ألف درهم وعلى أن يعطوه رهناً من عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة هو ومَنْ شاء ويخرج من الباب الآخر» فدخل سمرقند سعيد بن عثمان والمهلب بن أبي صفرة وكوكبة من القادة والفرسان، ودفنوا قثم بن العباس بن عبد المطلب بسمرقند، وكان قثم معهم فمات بسمرقند وما زال قبره بها حتى اليوم ومكث سعيد والمهلب والقادة أياماً بسمرقند، وأخذ سعيد رهائن من أبناء كبار سمرقند خمسين غلاماً ضماناً لعدم الغدر، ثم سار المسلمون من سمرقند باستثناء جماعة يسيرة أقاموا بها مع عامل من المسلمين لم تذكره الروايات وهو غالباً يمانيّ من الأزد.

وسار سعيد بن عثمان بن عفان ومعه المهلب بالجيش إلى مدينة ترمذ فتم فتحها صلحاً، ثم عاد المسلمون من بلاد ما وراء النهر إلى مدينة مرو (الشاهجان) عاصمة خراسان ثم عزل معاوية سعيد بن عثمان سنة ٥٩هـ وولّى على خراسان عبد الرحمٰن بن زياد بن أبي سفيان، فغادر سعيد بن عثمان خراسان وسار إلى المدينة المنورة فأقام بها، بينما مكث المهلب بن أبي صفرة قائداً وأميراً لمناطق من ولاية خراسان إلى وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة ٦١هـ.

سادساً: أنباء المهلب بخراسان في خلافة يزيد بن معاوية (٦١ ـ ٦٤هـ)

كان المهلب قائداً أميراً لمناطق من خراسان في ولاية عبد الرحمٰن بن زياد لخراسان (٥٩ ـ ٦١هـ) فتوفي معاوية وتولى الخلافة يزيد بن معاوية ـ في رجب سنة ٦١هـ ـ فولّى يزيد على خراسان سَلْم بن زياد بن أبي سفيان، وقد ولّى سَلْم بن زياد المهلب بن أبي صُفرة أميراً على أقاليم (مرو الروذ، والفارياب، والطالقان، والجوزجان) مما يشير إلى أن المهلب كان أميراً عليها منذ فترات سابقة، وخاصة

الفارياب والطالقان، بالإضافة إلى أنه من كبار القادة بولاية خراسان جميعها.

قال ابن الأثير: «استعمل يزيد بن معاوية سلم بن زياد على خراسان وسجستان.. وقَدِم سلم البصرة فتجهز منها فَوَجَّه أخاه يزيد إلى سجستان (بدلاً عن عبَّاد بن زياد) ولما سار سلم إلى خراسان كتب معه يزيد إلى أخيه ينتخب له ستة آلاف فارس (لغزو ما وراء النهر) وكان سلم ينتخب الوجوه فخرج معه عمران بن الفضيل البرجمي والمهلب بن أبي صُفرة، وعبد اللّه بن خازم السلمي، وطلحة بن عبد اللّه بن خلف الخزاعي.. وغيرهم. وسار سَلْم إلى خراسان وعَبَر النهر غازياً، وكان عمال خراسان قبله يغزون فإذا دخل الشتاء رجعوا إلى مرو الشاهجان، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلي خوارزم فيتعاقدون أن لا يغزو بعضهم بعضاً ويتشاورون في أمورهم، فكان المسلمون يطلبون إلى أمرائهم غزو تلك المدينة فيأبون عليهم. فلما قدم سَلْم غزا فشتا، فألحّ عليه المهلب بن أبي صُفرة وسأله التوجه إلى تلك المدينة، فوجهه في ستة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، فحاصرهم المهلب، فطلبوا أن يصالحهم عَلَى أن يَفْدُوا أنفسهم، فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيف وعشرين ألف ألف، وكان في صلحهم أن يأخذ منهم عروضاً فكان يأخذ الرأس، والدابة، والمتاع بنصف ثمنه، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف فحظي بها المهلبُ عند سَلْم، وأخذ سَلْم من ذلك ما أعجبه وبعث به إلى يزيد بن معاوية»[1].

وتلك المدينة التي فتحها المهلب ذكرها البلاذري باسم (خارزم) وكانت قاعدة بلاد (خوارزم) فانضوت تلك البلاد في طاعة السلطة الإسلامية ـ سنة ٦٢هـ ـ وكان يزيد بن معاوية قد جمع لسلم بن زياد ولاية خراسان وولاية سجستان فولّى سَلْم على سجستان أخاه يزيد بن زياد، قال ابن الأثير: «فغدر أهل كابل فنكثوا وأسروا أبا عبيدة بن زياد فسار إليهم يزيد بن زياد في جيش فاقتتلوا وانهزم المسلمون وقُتل منهم كثير. فلما بلغ الخبر سلم بن زياد سيّر طلحة بن عبد اللّه بن خلف الخزاعي وهو طلحة الطلحات ففدى أبا عبيدة بن زياد بخمسمائة ألف درهم، وسار طلحة من كابل إلى سجستان والياً عليها فجبى المال وأعطى زواره»[1]، فمكث طلحة الخزاعي اليماني والياً على سجستان حتى وفاته سنة ٦٤هـ، وقد سار سلْم بن زياد بالمسلمين فعبر نهر جيحون ـ ومعه المهلب ـ إلى سمرقند فأعطاه أهلها الجزية التي سبق أن صولحوا عليها. قال البلاذري: «وَوَجّه سَلْم بن زياد وهو بالسغد جيشاً إلى خُجَنْدَة وفيهم أعشى هَمْدَان فَهُزِموا، فقال أعشى هَمْدَان:

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٠٤ جـ٣.

لَيْت خيلي يوم الخُجندة لم تُهْـ ـزَم، وغُودرتُ في المَكَرِّ سليبا
تحضُرُ الطيرُ مصرعي وتروحـ ـتُ إلى اللَّه بالدماء خضيبا»
(ص٤٠٣).

وكذلك ذكر ابن الأثير، ولم تذكر الروايات انتصار المسلمين بعد ذلك في خجندة إلا في ولاية المهلب لخراسان حيث قال البلاذري: «وفتح المهلب خجندة وأدّت إليه السغد الأتاوة» (ص٤٠٧) ويمكن أن يكون ذلك حدث مرتين: أولاهما بعد انهزام الجيش الذي وجهه سلم بن زياد إلى خجندة وذلك الشعر الذي قاله أعشى همدان، حيث قال البلاذري: «ثم رجع سَلْم إلى مرو، ثم غزا منها فقطع النهر وقتل بندون السغدي وقد كان السغد جمعت له فقاتلها». ففي نفس ذلك المسير والقتال هزم المهلب السغد وفتح خجندة صلحاً فأذعنوا لأداء الجزية، فلما أقبل فصل الشتاء رجع سلم بن زياد والمهلب بالمسلمين إلى ما دون النهر من ولاية خراسان ـ سنة ٦٣هـ ـ وأقام سَلْم بمرو الشاهجان.

وفي ربيع الأول سنة ٦٤هـ مات الخليفة يزيد بن معاوية وتولى الخلافة معاوية بن يزيد وكان مريضاً فمات خلال ثلاثة شهور وانقسمت الأمة في أمر الخلافة. قال ابن الأثير: (لما بلغ سلم بن زياد وهو بخراسان موت يزيد بن معاوية. وابنه معاوية بن يزيد دعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة فبايعوه ثم نكثوا به بعد شهرين وكان محسناً إليهم محبوباً فيهم، فلما خُلع عنهم استخلف عليهم المهلب بن أبي صُفرة. ولما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة فقال له: ضاقت عليك نزار حتى خَلّفت على خراسان رجلاً من اليمن. يعني المهلب وكان أزدياً والأزد من اليمن. فولاه مرو الروذ، والفارياب، والطالقان، والجوزجان. وولّى أوس بن ثعلبة ـ من بكر بن وائل ـ هراة. فلما وصل إلى نيسابور لقيه عبد اللَّه بن خازم فقال: من وليت خراسان؟ فأخبره، فقال: أما وجدت مَنْ تستعمله من مُضَر حتى فَرقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن، اكتب لي عهداً على خراسان، فكتب له، وأعطاه ـ ابن خازم ـ مائة ألف درهم، وسار ابن خازم إلى مرو، وبلغ خبره المهلب فأقبَلَ (عاد إلى البصرة) واستخلف رجلاً من تميم بمرو» (ص٣٣١/ ٣) وبذلك تكون عودة المهلب من خراسان إلى البصرة في رمضان سنة ٦٤هـ وانتهت في تلك السنة مرحلة مجيدة من التاريخ العربي الإسلامي. وما لبث أن بدأت مرحلة من تاريخ المهلب حافلة بالأحداث والأمجاد.

أنباء وأمجاد المُهلَّب في خلافة ابن الزبير (٦٥ ـ ٧١هـ)

قال الحافظ ابن عبد البر: «وكان المهلب شجاعاً، ذا رأي في الحرب، خطيباً، وهو الذي حمى البصرة من الأزارقة الخوارج والصفرية بعد أن جَلَىٰ أكثر

أهلها عنها إلا مَنْ لم يكن له قوة على النهوض، حتى قيل: بصرة المهلب»[١].

وكان المهلب قد رجع من خراسان إلى البصرة ـ في حوالي رمضان سنة ٦٤هـ ـ فأتى إليها وقد انضوت البصرة والعراق والجزيرة العربية في خلافة عبد اللّه بن الزبير الذي بويع بالخلافة في مكة المكرمة، وكان سَلْمْ بن زياد لما عاد من خراسان ـ كما تقدم ـ أتى إلى عبد الله بن الزبير فحبسه بمكة بينما اضطرب الأمر في بلاد خراسان وتنازع فيه العديد من الأمراء، واندلعت حركة قوية للخوارج في بلاد فارس وانتشروا ما بين كرمان والسند ـ شرقاً ـ إلى الأهواز وتخوم البصرة ـ غرباً ـ فلما عاد المهلب إلى البصرة ووجد أن البصرة والعراق والجزيرة العربية قد انضوت في خلافة ابن الزبير سار المهلب إليه بمكة فولاه عبد اللّه بن الزبير على بلاد خراسان وكتب له العهد بولايته عليها. فتوجه المهلب من مكة ـ بعد أداء فريضة الحج ـ إلى البصرة ليمضي منها إلى خراسان. وكان الخوارج قد سيطروا على الأهواز، قال أبو العباس المبرد « . . اجتمع للخوارج أهل الأهواز وكُورِها رغبةً ورهبةً . . فَضَجَّ أهل البصرة . . وخافوا الخوارج خوفاً شديداً» وقال الطبري في أحداث سنة ٦٥هـ بتاريخ الأمم والملوك:

« . . أقبلت الخوارج نحو البصرة، وقَدِم المُهلّبُ من قِبَل عبد اللّه بن الزبير ومعه عهده على خراسان. فقال الأحنف بن قيس للحارث بن أبي ربيعة ـ أمير البصرة ـ وللناس عامة: لا واللّه ما لهذا الأمر إلا المهلّب. فخرج أشراف الناس إلى المهلب فكلموه أن يتولى قتال الخوارج، فقال: لا أفعل، هذا عهد أمير المؤمنين معي على خراسان فلم أكن لأدع عهده وأمره. فدعاه الحارث بن أبي ربيعة فكلمه في ذلك فقال مثل ذلك . . »[٢].

والمقصود بأن يتولى قتال الخوارج أن يكون القائد العام لجيش وأهل ولاية البصرة وكان الحارث بن أبي ربيعة المخزومي والياً لعبد اللّه بن الزبير على البصرة. وقد ذكر أبو العباس المبرد ما حدث قائلاً:

« . . ضَجّ أهل البصرة وخافوا الخوارج خوفاً شديداً . . واجتمع الناس عند الحارث، فقال الحارث: سَمّوا رجلاً، (يعني أميراً للحرب) فقال الأحنفُ: الرأيُّ لا يُخيلُ ما أرى لها إلا المهلب. فقال الحارث: أوَ هذا رأي جميع أهل البصرة؟! اجتمعوا إليّ غداً . . ولما اجتمعوا عنده كانوا ثلاثَ فِرَقٍ، فَسَمَّى قوم المهلَّب، وسَمَّى قومُ مالك بن مِسْمَعٍ، وسَمّى قومُ زيادَ بن عمرو بن الأشرف العَتَكيَّ. ثم

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر ـ ص١١٠ جـ٤.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٨٦ جـ٧.

اختبر ما عند مالك وزياد فوجدهما متثاقلين عن ذاك، وعاد إليه مَنْ أشار بهما وقالوا: قد رجعنا عن رأينا ما نرى لها إلا المهلَّب»[(١)].

ولما كلم أشراف الناس المهلب ولم يستجب لذلك وقال: (هذا عهد أمير المؤمنين معي على خراسان فلم أكن لأدع عهده وأمره) ثم دعاه الحارث بن أبي ربيعة إليه، وكان المهلبُ يُكنى أبا سعيد:

«فقال له الحارث: يا أبا سعيد، قد ترى ما رَهِقَنا من هذا العدو، وقد اجتمع أهلُ مِصْرِك عليك.

وقال الأحنف: يا أبا سعيد، إنّا واللّه ما آثرناك بها ولكننا لم نرَ مَنْ يقومُ مقامك.

وقال له الحارث ـ وأومأ إلى الأحنف ـ: إن هذا الشيخ لم يُسَمِّكَ إلا إيثاراً للدين، وكل مَنْ في البصرة مادٌّ عَيْنَهُ إليك راجٍ أن يكشف اللّهُ عز وجل هذه الغمَّة بك.

فقال المهلب: لا حول ولا قوة إلا باللّه، إني عند نفسي لدونَ ما وَصَفْتم، ولستُ آبياً ما دعوتم إليه على شروط أشْتَرِطُها.

قالوا: قُلْ.

فقال المهلب: أن أنْتَخِبَ من فُرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أَحببتُ. قالوا: ذاكَ لَك. قال: وَلي ولِمَنْ سار معي فَيءُ كُلِّ بلد أظْفَرُ به ثلاث سنين وليس لِمَنْ تَخلّف عني منه شيء. . وأن تعطوني من بيت المال ما أقوّي به من معي»[(١)].

قال الطبري: «فأجابوه إلى ذلك، وكتب بذلك عليهم كتاباً، وأوفدوا بذلك وفداً إلى ابن الزبير، فأمضى تلك الشروط كلها للمهلب وأجازها له» وينطبق ذلك على المكتوب الذي قال الطبري إنه «اتفق رأي الحارث ووجوه أهل البصرة على أن كتبوا كتاباً على لسان ابن الزبير» فلا بد أن الحارث بعث بالمكتوب إلى ابن الزبير، فأقرّه وختمه بختمه، ثم سَلّم الحارث المكتوب إلى المهلب، وهو:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من عبد اللّه بن الزبير إلى المُهلب بن أبي صُفرة. سلام عليك، فإني أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن الحارث بن عبد اللّه كتب إليّ أن الخوارج المارقة أصابوا جند المسلمين، إذْ كان عددهم كثيراً، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البصرة. وقد كنتُ وجّهتُك إلى خراسان وكتبت لك عليها عهداً، وقد رأيتُ حيث ذُكِرَ أمر هذه الخوارج أن تَلِيْ أنت قتالهم، فقد رجوتُ أن يكون ميموناً طائرك. . والأجر في ذلك أفضل من المسير إلى خراسان، فسِرْ إليهم

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٢٦ ـ ٢٢٧ جـ٢.

راشداً، وقاتِلْ عدو اللّه وعدوك، ودافع عن حقك وحقوق أهل مِصْرك.. والسلام عليك ورحمة اللّه»[١].

* * *

قيادة المهلّب لجيش البصرة وولايته للأهواز وفارس (٦٥ ـ ٦٧هـ)

لما وصل مكتوب عبد اللّه بن الزبير إلى المهلّب وتمت الاستجابة للشروط التي اشترطها، تولى المهلّب قيادة جيش أهل البصرة. وبلغ ذلك حارثة بن بدر الغُدّاني فقال:

كَـــــرْنِـــــبُـــــوا ودَوْلِـــــبُـــــوا
وحَـــيْـــثُ شِـــئْـــتُـــم فـــاذهَـــبُـــوا
قَـــــد أُمِّـــــرَ الـــمُـــهَـــلّـــبُ

وانتخب المهلّبُ اثني عشر ألفاً من أهل البصرة. ونظروا إلى ما في بيت المال فلم يكن إلا مائتيّ ألف درهم، فعجزت ـ عن الإيفاء بمتطلبات ذلك الجيش فبعث المهلب إلى التجار فاقترض منهم ما يُصلحُ به عَسكرهُ، واتخذ لأصحابه الخفَاتين والرانات المَحْشُوَّة بالصوف.. وكان الخوارج أحسن عدّة وأكرم خيولاً وأكثر سلاحاً من أهل البصرة، وذلك لأنهم مَخَرُوا الأرض وجرّدوها ـ نهبوها ـ وجَبُوا ما بين كَرْمان إلى الأهواز، فكانوا عليهم مغافرُ تضرب إلى صدورهم وعليهم دروع وسوق من زرد يشدونها بكلاليب الحديد، وكانوا قد عسكروا في الجانب الشرقي من الفرات، وهُم عشرة آلاف. فسار المهلب بعسكره حتى إذا صار بحِذاء القوم أمر بِسفُنٍ فأُحضِرتْ وأُصْلِحتْ، فما ارتفع النهار حتى فرغ منها.

وأسند المهلب إلى ابنه حبيب بن المهلب قيادة ستمائة من الفرسان لمواجهة قوة من الخوارج خلف الجسر الأصغر، وأسند إلى المغيرة بن المهلب قيادة فرقة من الفرسان والرُماة لمواجهة قوات الخوارج في الشاطئ الشرقي، بينما يتقدم بقية الجيش بقيادة المهلب من الجسر الأكبر، فيتم الانقضاض على العدو من الجهات الثلاث مرة واحدة.

«أمر المهلّب الناس بالعبور إلى الفُراتِ وأَمَّر عليهم ابنَهُ المُغيرة، فخرج بالناس فلما قاربوا الشاطئ خاضت إليهم الخوارج فحاربهم المغيرةُ ونَضَحَهم بالسهام حتى تَنَحَّوْا، فصار هو وأصحابه على الشاطئ فحاربوهم وشَغَلوهم حتى عَقَدَ المهلّبُ الجسر وعَبَر، والخوارج منهزمون».

وقال الطبري: «وَجّه المهلّب ابنه حبيباً في ستمائة فارس إلى عمرو القَنَا وهو

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٨٦ جـ٧.

معسكر خلف الجسر الأصغر في ستمائة فارس، فأمر المهلب بعقد الجسر الأصغر، فقطع حبيبُ الجسر إلى عمرو ومن معه حتى نفاهم عما بين الجسر وانهزموا حتى صاروا ناحية الفرات. وتجهز المهلب فيمن معه فسار بهم حتى نزل الجسر الأكبر، فبعث المغيرة في الخيل والرّجالة، فنضحتهم الرّجالة بالنبال واتبعتهم الخيل فانهزم الخوارج، وأمر المهلب بالجسر، فَعُقد، فعبر هو وأصحابه».

وعندئذ وَلّى الخوارج الأدبار منهزمين، وَنَهَىٰ المهلب الناس عن إتباعهم، فهربوا إلى إقليم الأهواز ـ في إيران ـ وتم للمهلب النصر وتأمين البصرة وشرق دجلة والفرات إلى منتهى تخوم العراق بمشارف الأهواز. وفي ذلك قال الشاعر:

«إنّ العِراقَ وأهلَهُ لم يَخْبُروا مثلَ المُهَلَّبِ في الحروب فَسَلِّموا
أمْضَى وأيْمنَ في اللِّقاء نَقيبةً وأقَلَّ تهليلاً إذا ما أحْجَموا»[1]

وأقام المهلب بمنطقة شرق دجلة والفرات، وجباها، فقَضىٰ التجار الذين اقترض منهم لتجهيز ذلك الجيش، وأعطى أصحابه الذين معه، فأسرع الناس بالانضمام إليه وكثرت الفرسان في عسكره.

* * *

ثم تَقدم المهلّب بجيشه إلى إقليم الأهواز ـ في إيران ـ وكان الخوارج الأزارقة يسيطرون على إقليم الأهواز وقد جَندوا معهم أهل الأهواز من الفُرس وأكراد نهر تيري، فسار المهلب إلى منطقة نهر تيري فانهزم وهرب الذين بها من الخوارج إلى أصحابهم في سوق الأهواز ـ وكان سوق الأهواز عاصمة إقليم الأهواز ـ فاستخلف المهلب أخاه مُعارِك بن أبي صُفرة على نهر تيري، ومَضَى يَؤُمُّ سوق الأهواز، وعلى مقدمته المُغيرة. فلما قاربهم المغيرة بن المهلب ناوشوه فانكشف عنه بعض أصحابه. وثبت المغيرة بقية يومه وليله يُوقدُ النيران ثم غاداهم القتال، وقد جاءت أوائل خيل المهلب، فإذا الخوارج قد أوقدوا النيران في ثِقْلةِ متاعهم وارتحلوا عن سوق الأهواز، فدخلها المغيرة والمهلب، وبذلك انضوى إقليم الأهواز تحت لواء المهلب فأصبح هو أمير الأهواز. قال أبو العباس المبرد: «وكان المهلّب يَبُثُّ الأحراسَ في الأمن كما يبثُّهم في الخوف، ويُذكي العيون في الأمصار كما يُذكيها في الصحارى، ويأمر أصحابه بالتحرز، ويُخوِّفهم البيات ـ أي الهجوم المفاجئ من العدو ـ وإن بَعُد منهم العدو».

وكان الخوارج الأزارقة وأميرهم عُبيد اللّه بن بشير بن الماحوز التميمي يتمركزون بمنطقة (مَناذِر الصغرى) ومنطقة (سُولاف) ـ في إيران ـ فتهيأ المهلب

---

(١) قال أبو العباس المبرد (التهليل: التكذيب والانهزام).

للمسير إليهم ـ في أوائل سنة ٦٦هـ ـ وقام المهلب خطيباً فقال خطبة منها:

«أيها الناس، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج، وإنهم إن قدروا عليكم فَتَنُوكُم في دينكم وسفكوا دمائكم، فَقَاتِلوهم على ما قَاتَلَ عليه أولَهم عليٌّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه. قَاتِلوهم بِجِدٍّ وحَدٍّ فإنما هُم مَهَنَتُكم ومواليكم، وعارٌ عليكم ونَقْصٌ في أحسابكم ودينكم أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم ويطأوا حريمكم».

ويستفاد من قول المهلب (إنما هُم مهنتكم ومواليكم) أن أولئك الخوارج كان غالبيتهم من العجم الذين أسلموا بعد الفتوحات رغبة ورهبة، فلما سار المهلّبُ بالناس إلى (مناذر الصغرى) و (سُولاف) وقعت معركة كبيرة مع جيش الخوارج في سُولاف، فانكسر وانهزم بعض جيش المهلب ومضوا هاربين إلى البصرة، بينما صَمَد المهلب والذين بقوا معه ـ وغالبيتهم من الأزد ومذحج وربيعة ـ ثلاثة أيام، فانكسر الخوارج وجمعوا جموعهم بموضع يُقال له (سَلَّى وسَلَّيْري) فسار إليهم المهلب، والتقى الجيشان، فقال المهلب لأصحابه:

«اجعلوا شعاركم: حَم لا ينصرون، فإن رسول اللّه ﷺ كان يأمر بها».

والتحم جيش البصرة بقيادة المهلب وجيش الخوارج بقيادة عبيد اللّه بن الماحوز التميمي في معركة انتصر فيها الحق على الباطل انتصاراً باهراً وسقط ابن الماحوز التميمي صريعاً. قال أبو العباس المبرد: «وقال رجل من أصحاب المهلب في يوم سَلَّى وسَلَّيْري وقتل عبيد اللّه بن المأحوز:

ويوم سَلَّى وسَلَّيْري أحاط بهم ... مِنّا صَواعِقُ ما تُبْقِي ولا تَذَرُ
حتى تركنا عبيد اللّه مُنْجَدِلاً ... كما تَجَدَّلَ جِذْعٍ مَالَ مُنْقَعِرُ

وقد كان فلُّ المهلب ـ الذين هربوا من سولاف ـ وصاروا إلى البصرة وقالوا: إن المهلب أصيب. فهَمّ أهل البصرة بالنّقلة إلى البادية، وَوَرَدَ كتاب المهلب بظفره فأقام الناسُ وتراجع من كان ذهب منهم، فعند ذلك قال الأحنف بن قيس:

«البَصْرةُ بصرة المهلب».

وقد كتب المهلّبُ مكتوباً بنبأ النصر إلى الحارث بن أبي ربيعة أمير البصرة وأهل البصرة. قال الطبري: «وبعث الحارث بالكتاب إلى عبد اللّه بن الزبير فَقُرِئ على الناس بمكة». وقد ذكر أبو العباس المبرد نص كتاب المهلب وهو:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم، أما بعد، فإنّا لقينا الأزارقة المارقة بِحَدٍّ وجِدٍّ فكانتْ في الناس جَوْلَةٌ، ثم ثاب أهلُ الحِفاظِ والصبر بنيّات صادقةٍ وأبدان شِدادٍ وسيوف حِدادٍ، فأعقب اللّه خيرَ عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دَرَأة

رِماحِنا وضرائب سيوفنا. وقتل اللَّهُ أميرَهم ابن الماحوز، وأرجو أن يكون آخرُ هذه النعمة كأولها. والسلام».

وتختلف رواية الطبري للكتاب، ويقول المهلب في آخره « . .ثم إن اللَّه عز وجل أنزل نصره على المؤمنين، وضرب وجوه الفاسقين. نزل طاغيتهم في رجال كثير من حُماتهم وذوي نياتهم فقتلهم اللَّه في المعركة. . والحمد للَّه رب العالمين. والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته».

قال الطبري: «وكتب الحارث بن أبي ربيعة إلى المهلب: أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه نصر اللَّه إياك وظفر المسلمين، فهنيئاً لك يا أخا الأزدِ بشرف الدنيا وعزّها وثواب الآخرة وفضلها، والسلام عليك ورحمة اللَّه. فلما قرأ المهلب كتابه ضحك، ثم قال: أما تظنونه يعرفني إلا بأخي الأزد، ما أهل مكة إلا أعراب» (ص٨٩ جـ٧).

وجاء في كتاب الكامل أنه «كتب الحارث إلى المهلب: هنيئاً لك أَخَا الأَزْدِ الشرفُ في الدنيا والذُخْرُ في الآخرة. . قد قرأتُ كتابك ـ يا أخا الأزد ـ فرأَيتك قد وَهَبَ اللَّه لك شرف الدنيا وعِزَّها، وذَخَر لك ثواب الآخرة إن شاء اللَّه وأجرَها، ورأيتك أوثقَ حُصونِ المسلمين، وهادَّ أركانِ المشركين، وأخا السياسةِ وذا الرياسة، فاسْتَدِم اللَّه بشكره يُتْمِم عليك نِعَمَهُ، والسلام». وهما كتابان «فقال المهلب: ما أجْفَى أَهلَ الحجاز، أما تَرَوْنَهُ يعرف اسمي وكُنيتي».

قال أبو العباس المبرد: «وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه ولم يكتب إليه الأحنف، ولكن قال: أَقْرِئُوا عليه السلام وقولوا له: أنا لك على ما فارقتك عليه. فلم يزل المهلب يقرأ الكتب ويلتمس في أضعافها كتاب الأحنف، فلما لم يره قال: أما كَتَبَ إلينا؟ فقال له الرسول: حَمَّلني إليك رسالةً، وأَبْلَغَهُ ـ بمقولة الأحنف ـ فقال: هذه أحبُّ إليَّ من هذه الكتب» (ص٢٣٨/ ٢) وجاء في ترجمة المهلب بكتاب الجامع أنه «قال فيه عبد اللَّه بن الزبير: هذا سيّد أهل العراق»[1].

وقد بسط المهلب سيادة الدولة في إقليم الأهواز وفارس ونشر الأمن والاستقرار في ربوع تلك البلاد، بينما كانت بقية أقاليم المشرق في إيران وكرمان إلى السند وسجستان وبلاد خراسان إما بيد الخوارج وإما بيد أمراء متغلبين من العرب والعجم، وفيها اضطراب لا ينقطع. وكان زعيم الخوارج ببلاد كرمان وأرَّجَان يقال له زبير بن علي وهو من بني سَليط بن يربوع من تميم. وساق زبير بن عليّ أتباعه من (ارّجان) للهجوم على المهلب في الأهواز، فوجدوه مستعداً، آخذاً بأفواه الطرق فلم

(١) الجامع ـ بامطرف ـ ترجمة المهلب ـ ص٥٩٨.

يتمكنوا مما يريدون، وكَمَن مائة فارس منهم في سفح جبل بالقرب من معسكر المهلب ليغتالوه، فسار المهلب يطوف بعسكره فوقف على جبل فقال: إن من التدبير لهذه المارقة أن تكون قد أكْمَنَت في سفح هذا الجبل كميناً، فبعث عشرة فوارس، فاطلعوا على المائة فلما علموا أنهم قد علموا بهم قطعوا القنطرة هاربين، وسار المهلب بالفرسان وراءهم حتى أدبروا من إقليم الأهواز، وتركهم يهربون إلى بلادهم، وفي ذلك قال ابن رياح اليربوعي:

سَقَى اللَّه المهلّبَ كلَّ غَيْثٍ   من الوَسْمِيِّ يَنْتَحِر انتحارا
فما وَهَنَ المهلَّبُ يوم جاءت   عوابِسُ خيلهم تَبْغى الغوارا

ومكث المهلب أميراً قائداً لإقليم فارس والأهواز سنة ٦٦هـ ثم سنة ٦٧هـ وانتهج سياسة حكيمة تتجلى في قول حبيب بن عوف يُثْني على المهلب:

«أبا سعيدٍ جَزَاكَ اللَّهُ صالحةً   فقد كَفَيْتَ ولم تَعْنُفْ على أحد
داوَيْتَ بالحلم أهل الجهل فانقمعوا   وكنت كالوالد الحاني على الولد»[1]

وكان المهلب بن أبي صُفرة ومحمد بن الأشعث بن قيس الكندي هما أكبر الزعماء اليمنيين بالعراق في ذلك الزمن والعهد، كان المهلب سيّد أهل البصرة وكان محمد بن الأشعث سيد أهل الكوفة وولاه عبد اللَّه بن الزبير على ولاية الموصل والجزيرة الفراتية. قال ابن الأثير في أنباء سنة ٦٥هـ «استعمل ابن الزبير محمد بن الأشعث على الموصل»[2]، فمكث محمد بن الأشعث أميراً لولاية الموصل إلى أواخر سنة ٦٦هـ وفيها تغلب على الكوفة المختار بن أبي عبيد الثقفي وأظهر في أول أمره الولاء لعبد اللَّه بن الزبير فأقرّ ولايته على الكوفة، وبعث المختارُ عبد الرحمٰنَ بن سعيد بن قيس الهمداني أميراً على الموصل، قال ابن الأثير: «وكان ابن الزبير قد استعمل على الموصل محمد بن الأشعث فلما بعث المختارُ عبد الرحمٰنَ بن سعيد إلى الموصل أميراً سار محمد عنها إلى تكريت ينظر ما يكون من أمر الناس» (ص٣٦٤/ ٣) قال الطبري: « . . وكان المختار يتزين بطلب دم الحسين ويُسرُّ طلب الدنيا والإمارة فيأتي منه الكذب والجنون. . وكان قبل ذلك معدوداً في أهل الفضل والخير، يرائي بذلك كله ويكتم الفسق فظهر منه ما كان يُضمر ـ واللَّه أعلم ـ حين فارق ابن الزبير وطلب الإمارة» (ص١٤٧/ ٧) وقد أظهر المختار ما كان يُضمر وسيطر على الكوفة وقتل الذين عارضوه وحاربوه بالكوفة ـ سنة ٦٧هـ ـ قال ابن الأثير: «وأرسل المختار إلى محمد بن الأشعث ـ

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرد ـ ص٣٠٠ جـ٢.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٢٥/ ٣.

وهو في قرية له إلى جنب القادسية ـ فطلبوه فلم يجدوه وكان قد هرب إلى مصعب بن الزبير فهدم المختار داره» ـ وكان عبد اللّه بن الزبير قد وَلّى مصعب بن الزبير على البصرة سنة ٦٧هـ ـ قال ابن الأثير: «ولما هرب أشراف الكوفة من وقعة السبيع (التي سيطر فيها المختار وشيعته على الكوفة) أتى أشراف الكوفة إلى مصعب بن الزبير. . وسألوه النصر لهم والمسير إلى المختار معهم، وقَدِم عليه محمد بن الأشعث أيضاً واستحثه على المسير فأدناه مصعب وأكرمه لشرفه، وقال مصعب لأهل الكوفة حين أكثروا عليه: لا أسير حتى يأتيني المُهلب بن أبي صُفرة، وكتب إليه، وهو عامله على فارس، يستدعيه ليشهد معهم قتال المختار، فأبطأ المهلب واعتلّ بشيء من الخراج لكراهية الخروج، فأمر مصعب محمد بن الأشعث أن يأتي المهلب يستحثه. .» (ص٣٠٠ جـ٣) ولم يكن محمد بن الأشعث بالكوفة حين وقع ما تذكره الروايات من ادعاء المختار الثقفي بأنه يُوحى إليه وغير ذلك مما هو منسوب إليه، ومحاربته للذين حاربوه في وقعة السبيع بالكوفة التي هرب بعدها كثير من أشراف ورجالات الكوفة إلى البصرة، فقد ذكر الطبري أنه «كان محمد بن الأشعث في قصر له مما يلي القادسية بطيزَنَابَاذ وبلغه هزيمة الناس بالكوفة» وعندئذ أتى محمد بن الأشعث إلى مصعب بن الزبير، وكان أشراف الكوفة قد أتوا إلى البصرة، قال الطبري: «فدخلوا على مصعب فأخبروه بما أُصيبوا به، ووثوب عبيدهم ومواليهم عليهم، وسألوه النصر والمسير لقتال المختار معهم. وقَدِم عليه محمد بن الأشعث واستحثه بالخروج، وأدناه مصعب وأكرمه لشرفه. . وقال مصعب: إني لا أسير حتى يأتيني المهلب بن أبي صفرة، وكتب مصعب إلى المهلب وهو عامله على فارس: أن أقْبِل إلينا لتشهد أمرنا، فإنّا نريد المسير إلى الكوفة. فأبطأ عليه المهلب، واعتلّ بشيء من الخراج، كراهية الخروج. فأمر مُصْعَبُ محمدَ بن الأشعث أن يأتي المهلب، فَيُقْبِل به، وأعلمه أنه لا يشخص ـ إلى الكوفة ـ دون أن يأتي المهلب» (ص١٤٧ جـ٧).

وغنيّ عن البيان أن المهلب لم يكن عامل مصعب على فارس وإنما كان عامل الخليفة عبد اللّه بن الزبير على بلاد فارس وكان مصعب عامل البصرة ـ ولكنه أخو الخليفة ـ ولم يستجب المهلب لما كتب إليه مصعب بالقدوم للمسير إلى الكوفة وقتال المختار وشيعته، ربما لعدم قناعته بصحة بعض ما يقال عن المختار وعدم قناعته بمقاتلتهم أو كراهية الخروج ـ أي كراهية قتالهم ـ فلما ألحّ محمد بن الأشعث وأهل الكوفة على مصعب بالمسير قال لمحمد بن الأشعث: لن أشخص إلا إذا أتى المهلب، فاذهبْ إليه وأقْبِل به. وربما كان مصعب يدرك أن سيّد يمانية البصرة سيستجيب لسيد يمانية الكوفة، وكتب مصعب مكتوباً مع محمد بن الأشعث إلى

المهلب يستحثه بأن يقدم إليه ليسيروا جميعاً لقتال المختار الكذاب. فانطلق ابن الأشعث من البصرة على رأس كوكبة من فرسان كندة وهمدان إلى مدينة الأهواز مقر المهلب ـ في إيران ـ فاستقبله المهلب بالترحيب والتشريف، ثم ناوله كتاب مصعب فلما قرأه المهلب قال لمحمد بن الأشعث: «مثلك يا أبا القاسم يأتي بريداً لمُصعب؟ أما وَجَد مصعب بريداً غيرك؟ فقال ابن الأشعث: واللّه ما أنا بريد لأحد، غير أن نساءنا وأبناءنا وأموالنا ـ بالكوفة ـ غلبتنا عليها عبيدنا وموالينا». ـ يعني نساء وأبناء وأموال العرب بالكوفة، ويريد بقوله (غَلَبَ عليها عبيدنا وموالينا) وفي رواية ابن الأثير (غَلَبَتْنَا عليهم عبيدنا) أن أصحاب واتباع المختار كانوا من العبيد والموالي، وقد تَجَاهَلَ العرب الذين مع المختار، وتَجَاهَلَ مسألة ادعاء المختار نزول الوحي عليه أو مسألة مبايعة أصحابه إياه بالخلافة، وربما سمع المهلب رأي محمد بن الأشعث حول كل ذلك، ولكن مجيء محمد بن الأشعث كان من العوامل الرئيسية لاستجابة المهلب لكتاب مصعب بن الزبير فتهيأ المهلب للمسير.

قال أبو العباس المبرد: «كتب مُصعب إلى المهلب: أن أَقْدِمْ عليّ واستخلفْ ابنك المغيرة. فجمع المهلب الناس فقال لهم: إني قد استخلفتُ عليكم المغيرة وهو أبو صغيركم رِقَّةً ورحمةً، وابنُ كبيركم طاعةً وبراً وتبجيلاً، وأخو مثله مُواساةً ومُناصحةً. فَلْتَحسنْ له طاعتُكم، ولْيَلنْ له جانبكم، فواللّه ما أردتُ صواباً قط إلا سبقني إليه». (٢/٢٤١).

وكان المغيرة أكبر أولاد المهلب فقد كان للمهلب تسعة أولاد رجال، وهم: المغيرة، يزيد، قبيصة، مُدرك، عبد الملك، حبيب، محمد، زياد، والمفضل. وقد وصفهم كعب بن مَعْدان الأشقري فقال:

«المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى يزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيّهم قُبيصة، ولا يستحي الشجاع أن يفرّ مِنْ مُدْرِك، وعبد الملك سُمٌّ ناقِعٌ، وحبيب موتُ زُعاف، ومحمد ليث غاب، وكفاك بالمفضل نَجْدة».

* * *

مسير المهلب إلى الكوفة والمواجهة مع المختار

انطلق المهلب من مدينة الأهواز ـ في إيران ـ إلى مدينة البصرة للمسير منها إلى الكوفة. قال ابن الأثير: «أقبل المهلب مع محمد بن الأشعث بجموع كثيرة وأموال عظيمة فَقَدِمَ البصرة». وقال الطبري: «أقبل المهلب بجموع كثيرة وأموال عظيمة معه، في جموع وهيئة ليس بها أحد من أهل البصرة. فأتى إلى باب مصعب ـ دار الإمارة ـ ليدخل عليه، وقد أذن للناس، فحجبه الحاجب

وهو لا يعرفه[١] فرفع المهلب يده فكسر أنف الحاجب، فدخل إلى مصعب وأنفه يسيل دماً، فقال له: ما لك؟ قال: ضربني رجل ما أعرفه، ودخل المهلب فلما رآه الحاجب قال: هو ذا. فقال له مصعب: عد إلى مكانك».

وتشاور مصعب مع المهلب والذين حضروا من رؤساء الناس حول خطة المسير، وتم استنفار الناس، ثم سار مصعب بالناس من البصرة، وجعل على مقدمته عباد بن الحصين الحبطي التميمي، وعلى ميمنته عمر بن عبيد اللّٰه بن معمر، وعلى ميسرته المهلب بن أبي صفرة.. وكان محمد بن الأشعث على رأس فرسان الكوفة ومعه عبد الرحمٰن ابن الأشعث وأعشى همدان الشاعر.

وبلغ المختار الثقفي الخبر، فَوَجّه إليهم جيشاً بقيادة أحمر بن شميط، وعلى مقدمته عبد اللّٰه بن كامل الشاكري الهمداني ومعهما قادة من فرسان وقبائل العرب بالكوفة وجموع كثيرة من العبيد والموالي، فوصلوا إلى المذار. ونزل مُصعب والذين معه قريباً منهم. ودنا عباد بن الحصين من أحمر بن شميط وأصحابه فقالوا له: «إنّا ندعوكم إلى كتاب اللّٰه وسنة رسوله وإلى بيعة المختار وإلى (أو إلى) أن نجعل هذا الأمر شورى في آل الرسول. فرجع عباد إلى مصعب فأخبره بذلك، فقال له: ارجع فاحمل عليهم، فرجع وحمل على ابن شميط وأصحابه فلم ينزل منهم أحد (للقتال) فانصرف إلى موقفه؛ وحمل المهلب على ابن كامل الشاكري وأصحابه فجال بعضهم أمام بعض، فنزل ابن كامل (للقتال) فانصرف عنه المهلب»[٢]، وقد لفت انتباه المهلب أن القوم الذين مع ابن كامل عرب يمانيون فقد «تنادوا: أنا الغلام الشاكري، أنا الغلام الشبامي. أنا الغلام الثوري.. ولما وقع القتال تنادى بعضهم: يا معشر بَجِيلة وخثعم الصبر الصبر. فناداهم المهلب: الفرار الفرار اليوم أنجى لكم، عَلَامَ تقتلون أنفسكم مع العُبدان (العبيد) أضلّ اللّٰه سعيكم. ثم قال ـ لمّا استحرّ القتال ـ واللّٰه ما أرى كثرة القتل اليوم إلا في قومي» ـ ولذلك حرص المهلب على عدم الاندفاع إلى القتال وأمر أصحابه بالحملة وأن يتيح للقوم سبيل الهروب ـ فقد «قال المهلب لأصحابه: كروا عليهم كرة صادقة فحملوا عليهم حملة منكرة، فولوا الأدبار، وصبر ابن كامل في رجال من همدان ساعة ثم انهزم». أما العبيد والموالي وغالبية جيش المختار فكانوا بقيادة أحمر بن شميط، فحمل عليهم جميع جيش أهل

---

(١) كان الحاجب من أعراب الحجاز، ويبدو أن مصعبا كان قد علم بقدوم المهلب ـ لأنه قدم في جموع كثيرة وهيئة عظيمة إلى البصرة ـ فأمر الحاجب بأن يتظاهر بعدم معرفة المهلب وأن يأذن لآخرين بالدخول ولا يأذن للمهلب حتى يتأخر فترة بالباب لحاجة في نفس مُصعب.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٠٠ جـ٣ ـ وتاريخ الطبري ـ ص١٤٩ جـ٧.

البصرة فانهزموا وقد «سَرّح مصعب محمد بن الأشعث في خيل عظيمة من أهل الكوفة وقال لهم: دونكم ثأركم. فكانوا أشد على القوم من أهل البصرة لا يدركون منهزماً إلا قتلوه.. وقال مصعب لعباد بن الحصين: أيما أسير أخذته فاضرب عنقه.. فلم ينج من جيش المختار بالمذار إلا أصحاب الخيل». وقال أعشى همدان أبياتاً منها:

..فَبَشّر شيعة المختار إما مررت على الكُوَيْفَةِ بالصَّغَار
أقرَّ العينَ صَرْعاهُمْ، وفَلٌّ لهم جَمٌّ يُقتَّلُ بالمذار

وكان من القتلى ابن كامل الشاكري ونحو خمسين من فرسان همدان وبجيلة، لذلك قال أعشى همدان:

وما أن سَرَّني إهلاكُ قومي وإن كانوا ـ وجدّك ـ في خيار
ولكنّي سُرِرْتُ بما يُلاقي أبو إسحاق من خزيّ وعار

وأبو إسحاق كنية المختار الثقفي، ولما بلغ المختار انهزام أصحابه بالمذار، استنفر الناس بولاية الكوفة فاجتمع إليه عشرون ألف مقاتل، كانوا قد بايعوه بالخلافة، فسار إليه مصعب بن الزبير بالجيش الذي معه من المذار، فوقعت حرب بين الفريقين بالكوفة، ويهمنا من ذلك ما يتصل بالمهلب فعندما تزاحف الفريقان وبدأ الاقتتال «بعث مُصعبُ إلى المهلب: ما تنتظر أن تحمل على مَنْ بإزائك، احملْ بأصحابك عليهم. فقال المهلب: إي لَعَمْري ما كنتُ لأجزر الأزد خشية أهل الكوفة حتى أرى فرصتي». وأثناء المعركة قبيل الغروب «حمل خمسون من أصحاب المختار على محمد بن الأشعث حملة منكرة، فَقُتل ابن الأشعث، وكان قد توغل في عسكر المختار مع نفر من أصحابه» ـ وقُبيل مقتل محمد بن الأشعث ـ «بعث مُصعب إلى المهلب وهو في عسكر كثير العدد والفرسان قائلاً: يا أبا سعيد ما تنتظر أن تحمل على القوم؟ فمكث غير بعيد فقال ـ المهلب ـ لأصحابه: قد قاتل الناسُ وأنتم وقوفٌ، وقد ما بقي عليكم، احملوا واستعينوا باللّه. فحمل المهلب معهم على من بإزائه حملة منكرة فحطموا أصحاب المختار حطمة منكرة فكشفوهم». فانهزم المختار وجيشه هزيمة نكراء في المساء وانسحب المختار وتحصن في قلعة الكوفة، وتم النصر في الليل. «فلما أصبح مصعب أقبل يسير فيمن معه نحو السبخة، فمرّ بالمهلب، فقال له المهلب: يا له فتحاً ما أهنأه لو لم يُقتل محمد بن الأشعث. فقال مصعب: صدقت فرحم اللّه محمداً. ثم قال مصعب للمهلب: أعلِمْت أن عبيد اللّه بن علي بن أبي طالب قُتِل، فقال المهلب: إنّا للّه وإنا إليه راجعون. فقال مُصعب: قد كنتُ أحبُّ أن يشهد هذا الفتح أتدري

من قتله؟ قَتَله من يزعم أنه شيعة لأبيه» ـ يعني المختار ـ[١] وقد انتهى أمر المختار بمقتله في ١٤ رمضان ٦٧هـ.

ولاية المهلب للموصل والجزيرة الفراتية (٦٧ ـ ٧٠هـ)

لما انتهى أمر المختار بن أبي عبيد الثقفي استتب الأمر لمصعب بن الزبير في ولاية الكوفة وكان بالموصل والجزيرة الفراتية إبراهيم بن الأشتر النخعي المذحجي أميراً عليها من عند المختار، فأتى إبراهيم بن الأشتر إلى الكوفة وبايع ابن الزبير، وكان المهلب بمنطقة شرق الفرات من ولاية الكوفة فلما استتب الأمر عاد إلى مدينة الكوفة ـ بعد قدوم ابن الأشتر من الموصل ـ وكان المهلب يرغب في العودة إلى عمله كأمير للأهواز وفارس، ويبدو أن مصعب بن الزبير لم يكن راغباً في بقاء المهلب أميراً على تخوم البصرة ـ في الأهواز وفارس ـ وكان المهلب قد استخلف عليها ابنه المغيرة فقام مصعب بتحويل نيابة المغيرة بن المهلب إلى ولاية، قال أبو العباس المبرد:

«كتب مصعب إلى المغيرة بولايته، وكتب إليه: إن لم تكن كأبيك، فإنك كافٍ لما وَلَّيْتُكَ، فَشَمِّرْ واتَّزِرْ وَجِدَّ واجتهدْ»[٢].

ولما قَدِمَ المهلب من شرق الفرات إلى مصعب بن الزبير بالكوفة يريد العودة إلى عمله بالأهواز وفارس، ـ وكما ذكر المبرد ـ: «قال مُصعب للمهلب: أشِرْ عليَّ برجل أُوليه على الجزيرة ـ والموصل ـ فقال المهلب: أذكرُ لك واحداً من ثلاثة، محمد بن عمير الدارِميّ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العَتكي، أو داود بن قَحْذَم. فقال مصعب: أوَ تكفيني؟ قال: أكفيك إن شاء اللّه: فولاه المَوْصِلْ، فَشَخَصَ المهلَّبُ إليها»[٢].

وقال ابن الأثير ـ بعد نبأ مقتل المختار الثقفي في رمضان ٦٧هـ ـ «كتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعته ويقول له: إن أطعتني فَلَكَ الشام وأعنة الخيل وما غلبتَ عليه من أرض المغرب ما دام لآل الزبير سلطان وأعطاه عهد اللّه على ذلك. وكتب عبد الملك بن مروان (وهو الخليفة على الشام ومصر) إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعته ويقول: إن أنت أجبتني فَلَكَ العراق. فاستشار إبراهيم أصحابه فاختلفوا. فقال إبراهيم: لو لم أكُن أصبتُ ابن زياد وأشراف الشام لأجبتُ عبد الملك مع أني لا أختار على أهل مصري وعشيرتي غيرهم (يعني أهل الكوفة) فكتب إلى مصعب بالدخول معه، فكتب إليه مصعب أن أقْبِل، فأقْبَل إليه

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٠٠ جـ٣ ـ وتاريخ الطبري ـ ص١٤٩ جـ٧.
(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٤١ جـ٢.

بالطاعة. فلما بلغ مصعباً إقباله إليه بعث المهلب على عمله بالموصل والجزيرة وأرمينيا وأذربيجان»(١).

وقال ابن الأثير في موضع آخر: «أراد مصعب أن يولّي المهلَّب بلاد الموصل والجزيرة وأرمينيا ليكون بينه وبين ابن مروان، فكتب إليه وهو بفارس في القدوم عليه فَقَدِم واستخلف على عمله ابنه المغيرة ووصاه بالاحتياط، وقَدِم ـ المهلب على مصعب ـ فعزله مصعب عن بلاد فارس وحرب الخوارج»(١).

وقال ابن جرير الطبري: «لما فرغ مُصعب من أمر المختار، وصار إليه إبراهيم بن الأشتر، وَجَّهَ المهلَّب بن أبي صُفرة ـ أميراً ـ على الموصول والجزيرة وأذربيجان وأرمينيا. وأقام ـ مصعب ـ بالكوفة»(٢).

ويتبين من مجمل ذلك ومما ذكره الطبري وابن الأثير وأبو العباس المبرد ما يلي:

ـ في ١٤ رمضان سنة ٦٧هـ انتهى أمر المختار الثقفي بمقتله واستسلام الذين كانوا معه بقلعة الكوفة وكانوا سبعة آلاف أعطاهم الأمان عباد بن الحصين الحبطي وأقرّه مصعب بن الزبير، وكان المهلب في شرق الفرات، وأتى عندئذ إبراهيم بن الأشتر النخعي المذحجي وكان أميراً للموصل والجزيرة الفراتية وتتبعه أذربيجان وأرمينيا، فكتب مصعب إلى المهلب بالقدوم عليه، فلما قَدِم عليه بالكوفة، قال له مُصعب: أشِرْ عليَّ برجلٍ أُوليه على الجزيرة والموصل. فقال له المهلّب: أذكرُ لك واحداً من ثلاثة، محمد بن عمير، أو زياد بن عمرو العتكي، أو داود بن قَحْذَم. فقال مُصْعَب: أوَ تكفيني ذلك ـ أنت ـ وتتولى الموصل والجزيرة وأرمينيا فتكون بيني وبين عبد الملك بن مروان؟ فقال المهلب: أكفيك إن شاء اللّه. فولّاه مُصعب أميراً على ولاية الموصل والجزيرة الفراتية ومعها أذربيجان وأرمينيا، وكتب له كتاب العهد بولايته عليها. فانطلق المهلب إلى الموصل ـ في شوال ٦٧هـ ـ فتولاها ومكث أميراً للموصل والجزيرة الفراتية وأذربيجان وأرمينيا زهاء أربع سنوات إلى سنة ٧٠هـ. وقال ابن كثير «وُلّي المهلَّبُ بلاد الجزيرة لابن الزبير سنة ٦٨هـ» فبسط المهلب سيادة الدولة في الموصل والجزيرة الفراتية ومعهما أذربيجان وأرمينيا منذ سنة ٦٨ هجرية حتى أواسط سنة ٧٠هـ بدليل أن عبد الملك بن مروان سار بجيشه من دمشق يريد أخذ العراق من مصعب بن الزبير سنة ٧٠هـ فسار مصعب بجيشه من البصرة لقتال عبد الملك بن مروان فسمع ابن خازم بذلك فقال (أمَعُه المهلب؟ قيل: لا، استعمله

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٨٧ و ٣٨٩ جـ٣.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٥٧ جـ٧.

على الموصل. قال: أَقَمَعَهُ ابن معمر؟ قيل: لا، استعمله على فارس». . فذلك يدل على أن المهلّب كان ما يزال في الموصل أميراً على الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان منذ توليته ومسيره إليها ـ في شوال ٦٧هـ ـ إلى مسير عبد الملك بن مروان من دمشق يريد العراق سنة ٧٠هـ وقد وقعت آنذاك أحداثٌ في دمشق فرجع عبد الملك بن مروان إلى دمشق، فاستمرت العراق في سلطة مصعب بن الزبير وخلافة عبد اللّه بن الزبير.

وكان مصعب بن الزبير قد ارتكب جريمة نكراء بالكوفة بعد مسير المهلب إلى الموصل، وفي ذلك قال ابن الأثير: «بعث مُصعب بن الزبير المهلّب على عمله بالموصل والجزيرة وأرمينيا وأذربيجان. ثم إن مُصعباً دعا أم ثابت بنت سمرة بن جَنْدب امرأة المختار، وعمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية امرأته الأخرى، فسألهما عن المختار، فقالت أم ثابت: نقول فيه بقولك أنت، فأطلقها. وقالت عمرة بنت النعمان: رحمه اللّه كان عبداً للّه صالحاً، فحبسها مُصعب وكتب إلى أخيه عبد اللّه بن الزبير: إنها تزعم أنه نبيّ، فأمره بقتلها، فقتلها مُصعب بن الزبير، أمر بعض الشرط فضربها ثلاث ضربات بالسيف وهي تقول: يا أبتاه يا عشيرتاه، فرفع رجل يده فلطم القاتل وقال: يا ابن الزانية عذبتها. ثم تشطحت فماتت. . فقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي في ذلك:

إن من أعجب العجائب عندي ... قَتْل بيضاء حرّة عطبول
قُتِلت هكذا على غير جرم ... إنّ للّه درها من قتيلِ

وقال سعيد بن عبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت الأنصاري ـ لما بلغه مقتلها وهو بالمدينة المنورة قصيدة منها ـ:

أتى راكبٌ بالأمر ذي النَّبَأِ العجبْ ... بقتلِ ابنة النعمان ذي الدين والحَسَبْ
بقتلِ فَتَاةٍ ذات دَلٍّ سَتِيرَةٍ ... مُهَذَّبة الأخلاق والخيم والنسَبْ
مطهَّرة من نسل قوم أكارم ... من المؤثرين الخير في سالِفِ الحِقَبْ
خليلُ النبيّ المصطفى ونَصِيرُهُ ... وصاحبه في الحرب والنكب والكُربْ
أتاني بأنّ المُلْحِدين توافقوا ... على قَتلها، لا جُنِبُوا القتلَ والسَّلَبْ
. . فلا هَنَأت آلَ الزبير معيشةٌ ... وذاقوا لباس الذلّ والخوف والحَرب
كأنهمُ إذْ أبرزُوها وقُطِّعَتْ ... بأسيافهم فازوا بمملكة العرب

واستنكر الناس ـ وخاصة اليمانيون ـ جريمة قتل بنت النعمان بن بشير الأنصاري رضي اللّه عنه، بينما قام مصعب بن الزبير بجريمة أكبر وهي قتل سبعة

الآلاف الذين استسلموا من أصحاب المختار وأعطاهم عباد الحبطي ومصعب الأمان، ولما أقدم مصعب بن الزبير على قتلهم (قال له مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي الهمداني: ما تقول يا ابن الزبير لربك غداً وقد قَتَلت أمة من المسلمين حَكَّمُوكَ في أنفسهم؟.. وقال عقبة الأسدي في ذلك:

قَتَلْتُم سبعة الآلاف صبراً   مع العهد الموثق مُكَتَّفِينا
جعلتُم ذمة الحبطي جسراً   ذلولاً ظهره للواطئينا

وكان من القتلى سبعمائة من العرب وسائرهم من الموالي العجم. والتقى عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب بمصعب بن الزبير ـ ربما في مكة بموسم الحج ـ فسلم عليه مُصعب فقال له ابن عمر: أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القِبلة عِشْ ما استطعت، فقال مُصعب: إنهم كانوا كَفَرةً فَجَرة، فقال ابن عمر: واللَّه لو قَتَلْتَ عدَّتهم غنماً من تراث أبيك لكان ذلك سَرَفاً».

وعاد مصعب بن الزبير إلى البصرة ـ والياً للبصرة والعراق ـ سنة ٦٨هـ، وكان المغيرة بن المهلب أميراً على الأهواز وفارس، فاستدعاه مصعب، فَقِدم المغيرة إلى البصرة فعزله مُصعب واستعمل على الأهواز وفارس عمر بن عبيد اللَّه بن معمر، ـ وذلك في أواسط سنة ٦٨هـ ـ فعادت وتعاظمت حركة الخوارج الأزارقة الذين كان لم يعد لهم وجود بالأهواز وفارس في عهد المهلّب، وهربت فلولهم إلى كرمان. قال ابن جرير الطبري: «كانت الخوارج الأزارقة لحقت بكرمان بعدما أوقع بهم المهلب بالأهواز، فلما شَخَصَ المهلب عن ذلك الوجه إلى الموصل ونواحيها عاملاً عليها، وَوَجَّه مُصعب عبيد اللَّه بن معمر أميراً على فارس، رجعت الأزارقة إلى فارس والعراق حتى صاروا إلى قرب الكوفة والمدائن».

وكانت كثير من القلوب قد تغيرت على ابن الزبير بعد جريمة قتل الأسرى سبعة الآلاف وجريمة قتل عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري حيث قال سعيد بن عبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت الأنصاري:

فلا هَنَأت آل الزبير معيشة   وذاقوا لباس الذلّ والخوف والحَرب

وقد ذاق ابن الزبير وشيعته على يد الخوارج شيئاً من لباس الخوف والحرب حتى بلغت غاراتهم إلى القرب من الكوفة وباتت الأهواز وفارس تحت نفوذهم والتحق بهم بشر كثير سنة ٦٩ ـ ٧٠هـ وكان المهلب آنذاك بالموصل والجزيرة الفراتية.

عودة المهلب إلى البصرة والأهواز.. ونهاية ابن الزبير

وفي شوال سنة ٧٠هـ عاد المهلب من الموصل إلى البصرة، لأن مصعب بن الزبير كتب إليه بالقدوم وولّى إبراهيم بن الأشتر على الموصل والجزيرة الفراتية، فلما

عاد المهلب إلى البصرة ولّاه مصعب على الأهواز وحرب الخوارج. ويتبين زمن ذلك مما ذكره ابن الأثير قائلاً: «حين قُتِل مصعب كان المهلب يحارب الأزارقة بسولاف بلد بفارس على شاطئ البحر ثمانية أشهر»، ويستفاد من ذلك أن تولية المهلب على الأهواز وحرب الخوارج كان قبل مقتل مُصعب بثمانية شهور، فيكون ذلك في شوال أو ذي القعدة سنة ٧٠هـ. وقال ابن الأثير: «سار عبد الملك إلى العراق، فلما بلغ مصعباً مسيره وهو بالبصرة أرسل إلى المهلب وهو يقاتل الخوارج يستشيره. وقيل: بل أحضره عنده. فقال المهلّب لمصعب: اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك بن مروان وكَاتَبهم فلا تبعدني عنك، فقال له مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على حرب الخوارج وهُم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذ سار عبد الملك إليّ أن لا أسير إليه، فأكفني هذا الثغر، فعاد إليهم»[1]. فتولى المهلب الأهواز وقام بصد الخوارج عن سوق الأهواز وغيرها حتى تراجعوا إلى سولاف، فرابط في مواجهتهم بسولاف. وربما كان مصعب لا يرغب في بقاء المهلب معه بالبصرة والعراق، وكان يشعر بأن القلوب قد انحرف أكثرها عن آل الزبير منذ مقتل عمرة بنت النعمان والأسرى الذين قتلهم مصعب.

وفي أواخر سنة ٧٠هـ بعث عبد الملك بن مروان إلى البصرة خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد، فوصل إليها مستخفياً يدعو رؤساء البصرة إلى عبد الملك، فاستجاب لخالد عدد من رؤساء البصرة بينهم المغيرة بن المهلب ومالك بن مسمع وعبيد اللّه بن أبي بكرة، فبعث عامل البصرة عبيد اللّه بن معمر قوة لمحاربة خالد والقبض عليه بقيادة عباد بن الحصين الحطمي فتصدى لهم خالد وحاربهم في موضع الجُفْرة بالبصرة، قال ابن الأثير: «وكان من أصحاب خالد: عبيد اللّه بن أبي بكرة، وحمران بن أبان، والمغيرة بن المهلب.. فاقتتلوا أربعة وعشرين يوماً.. ومشت بينهم السفراء، فاصطلحوا على أن يخرج خالد من البصرة فأخرجه مالك بن مسمع ثم لحق مالك بالنِباج ـ مكان على طريق البصرة»[1] وأتى مصعب إلى البصرة فخرَّبَ منازل الذين كانوا مع خالد وعَذَّبَ بعضهم «ثم سار مصعب إلى الكوفة فلم يزل بها حتى خرج إلى حرب عبد الملك بن مروان»[1].

وكان قدوم عبد الملك بن مروان بجيش الشام إلى العراق في ربيع سنة ٧١هـ، فسار إليه مصعب بن الزبير بالجيش من الكوفة، فالتقى الجيشان في منطقة (مسكن)، وكان غالبية جيش عبد الملك بن مروان من يمانية الشام ومنهم عَدِي بن زيد بن عَدِي بن الرقاع العاملي القضاعي الحميري فقال أبياتاً منها:

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣ وص١٠ جـ٤.

لعَمْري لقدْ أصحَرَت خيلُنا ... بأكناف دِجْلَةَ للمُصْعَبِ
إذا ما مُنافق أهل العراق ... عوتب ثمَّة لم يُعْتَبِ
دَلَفْنا إليه بذي تدْرَإٍ ... قليل التَفَقُّدِ للغُيَّبِ
يهزُّون كلَّ طويل القناة ... مُلتئم النَصْل والثَعْلَبِ

وكانت مشاعر وعواطف أغلب القادة والناس بالعراق قد انقلبت على ابن الزبير منذ جريمة قتل عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري ولم يقاتل مع مصعب بن الزبير بإخلاص في (مسكن) إلا إبراهيم بن الأشتر النخعي وجماعة معه، فَقُتِل إبراهيم بن الأشتر، بينما انصرف عن مصعب عدد من القادة والشخصيات منهم زحّر بن قيس الجعفي المذحجي، والغضبان بن القبعثرى، وعَتّاب بن ورقاء، ومحمد بن عمير الحاشدي الهمداني. «وقال مصعب بن الزبير للقائد قطن بن عبد اللّه الحارثي المذحجي: أبا عثمان قَدِّم خيلك. فقال: ما أرى ذلك، قال: وَلِمْ؟ قال: أكرهُ أن تُقْتَلَ مذحج في غير شيء.. وقال مصعب لمحمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الهمداني: يا محمد قَدِم رايتك، فقال: ما أرى أحداً فعل ذلك فأفعلُه. فقال مصعب: يا إبراهيم ولا إبراهيم اليوم».

وكان ذلك المكان ـ المسمى (مسكن) ـ قريباً من المكان الذي أمر مصعب بن الزبير بقتل عمرة بنت النعمان فيه، إذْ أنه لم يقتلها في الكوفة وإنما أمر أحد شرطته بقتلها في موضع خارج الكوفة، فضربها الشرطي السياف ثلاث ضربات بالسيف وهي تصرخ (يا أبتاه، يا أهلاه، يا عشيرتاه) ثم ـ غير بعيد من ذلك المكان ـ صاح مصعب بن الزبير في يوم مَسْكَن (يا إبراهيم ولا إبراهيم اليوم)، وسقط مصعب قتيلاً بثلاث وسائل، فقد رشقه أحد فرسان الشام بالنبال، ووثب إليه زائدة بن قدامة ـ وهو من أصحاب المختار ـ فطعنه بالسيف، ونزل ابن ظبيان فقطع رأسه. وكان مقتل مصعب بن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧١هـ.

قال ابن الأثير: «وحين قُتِل مُصعب كان المهلّب يحارب الأزارقة بسولاف بلد بفارس على شاطئ البحر، فبلغ ـ خبر ـ قتله الأزارقة قبل المهلب، فصاحوا بأصحاب المهلب: ما قولكم في مصعب؟ قالوا: أمير هدى وهو ولينا في الدنيا والآخرة ونحن أولياؤه. قالوا: فما قولكم في عبد الملك؟ قالوا: ذاك ابن اللعين نحن نبرأ إلى اللّه منه وهو أحلّ دماً منكم. قالوا: فإن عبد الملك قتل مصعباً، وستجعلون غداً عبد الملك إمامكم». ـ وقد كان ذلك الحديث بين الخوارج الأزارقة وبين بعض أصحاب المهلب وليس بينهم وبين المهلب ـ «فلما كان الغد سمع المهلّب وأصحابه قتل مصعب، فبايع المهلَّبُ الناس لعبد الملك بن مروان. فصاح

بهم الخوارج: يا أعداء اللّه ما تقولون في مُصعب؟ قالوا: يا أعداء اللّه لا نخبركم وكرهوا أن يُكَذِّبوا أنفسهم. قالوا: وما قولكم في عبد الملك؟ قالوا: خليفتنا. قالوا: يا أعداء اللّه أنتم بالأمس تبرأون منه في الدنيا والآخرة وهو اليوم إمامكم وقد قتل أميركم الذي كنتم تولونه فأيهما المهتدي وأيهما المُبْطِل؟ قالوا: رضينا بذاك إذْ كان يتولى أمرنا ونرتضي بهذا..» (١٦/ ٤ ـ الكامل).

* * *

أنباء المُهَلَّبْ في خلافة عبد الملك بن مروان (٧١ ـ ٨٢هـ)

كان عبد الملك بن مروان عاشر الخلفاء الذين عاصرهم المُهلّب بن أبي صُفرة الأزدي، فقد كان المهلَّبُ من الفرسان القادة في عهود الخلفاء الراشدين الأربعة، أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ (١١ ـ ٤٠هـ) ثم في خلافة الحسن بن عليّ بالعراق (٤٠ ـ ٤١هـ) ثم كان المهلب من الأمراء وقادة الفتوحات في خلافة معاوية (٤١ ـ ٦٠هـ) وخلافة يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد (٦٠ ـ ٦٤هـ) وخلافة ابن الزبير للعراق والجزيرة (٦٥ ـ ٧١هـ) ففي عهود أولئك الخلفاء التسعة تولّى المهلّب قيادة الكثير من الفتوحات وإمرة العديد من البلدان، في فارس وسجستان والسند وفي خُراسان وآسيا الوسطى، ثم الأهواز وفارس، ثم الموصل والجزيرة الفراتية وأذربيجان وأرمينيا، وبينما هو أميرٌ قائد في إقليم الأهواز أتاه نبأ مقتل مُصعب بن الزبير وانضواء العراق في خلافة عبد الملك بن مروان ـ في جمادى الآخرة ٧١هـ ـ فأعلن المهلب أن عبد الملك بن مروان هو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وأخذ له البيعة من الناس في الأهواز وما تحت يده من بلاد فارس، وكتب المهلّب بالمبايعة إلى عبد الملك بن مروان وكان عبد الملك قد استقر بالكوفة ـ بعد مقتل مصعب بن الزبير ـ وكان المغيرة بن المهلّب قد بايع عبد الملك منذ بعث خالد بن أسيد إلى البصرة في أواخر سنة ٧٠هـ، فلما استقر عبد الملك بالكوفة أتى إليه المغيرة في كوكبة من أبناء المهلّب وفرسان الأزد، وأتى إليه مكتوب المهلّب بالمبايعة، وربما أتى إليه المهلب ثم عاد إلى الأهواز، وتواصلت أنباء وأمجاد المهلّب في خلافة عبد الملك بن مروان.

أولاً: إمْرَة المهلّب على خَرَاج الأهواز (٧١ ـ ٧٣هـ)

لما استتب الأمر لعبد الملك بن مروان في العراق وما جاورها وتهيأ للعودة من الكوفة إلى الشام استعمل على ولاية البصرة خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أَسيد الأموي وأمره بتجهيز وتوجيه جيش لمحاربة الخوارج إلى الأهواز وفارس وبقاء المهلّب أميراً قائداً على الأهواز وحرب الخوارج. ولكن خالد.. ابن أسيد الأموي

كان يريد أن يصنع مجداً لنفسه، قال ابن الأثير: «استعمل عبد الملك خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد على البصرة، فلما قَدِمها كان المهلب يحارب الأزارقة فجعله على خراج الأهواز ومعونتها، وسيّر أخاه عبد العزيز إلى قتال الخوارج» (١٩/ ٤) والمقصود أنه ولّى المهلب على الخراج وولّى أخاه عبد العزيز القيادة الحربية، فقد كتب عبد الملك بن مروان ـ فيما بعد ـ إلى خالد قائلاً: «إني كنتُ حَدَدْتُ لك حَدًّا في أمر المُهلّب، فلما مَلَكْت أمرك استبددت برأيك، فَوَلَّيْتَ المهلّبَ الجباية وولّيت أخاك الحرب، فَقَبَّحَ اللّه هذا رأياً».

لقد جعل خالد بن أسيد ولاية المهلب تقتصر على شؤون الخراج وجباية الأموال والشؤون المدنية بإقليم الأهواز، وولّى أخاه عبد العزيز القيادة الحربية، وذلك بعد أن استنفر خالد أهل ولاية البصرة وما جاورها فاجتمع إليه ثلاثون ألفاً فقام بتجهيزهم بالسلاح والخيول والمؤن، فرأى أنهم جيش كثيف وأن انتصارهم على الخوارج لا شك فيه، فأسند قيادة الجيش إلى أخيه عبد العزيز فسار بهم إلى الأهواز وفارس ـ سنة ٧٢هـ ـ قال أبو علي القالي: «حدثنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: لما بَعَثَ خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة، قام إليه عَزْهَم أخو بني العَدَوِيَّة فقال: أصلح اللّهُ الأمير، إن هذا الحيّ من تميم تَئِطُّ بقريش منهم رَحِمُ داسَّة ماسَّة، وأن الأزارقة ـ الخوارج ـ ذُؤْبان العرب وسِبَاعُها، فليس صاحِبُهم إلا المُبَاكِر المُنَاكِر المُحَرَّب المُجَرَّب، الذي أَرْضَعَتْه الحربُ بِلِبَانِها، وجَرَّسَتْه وضَرَّسَته، وذلك أخو الأزد المُهَلَّب بن أبي صُفرة، واللّه ـ أيها الأمير ـ إنَّ غَثَّك أحب إلينا من سَمِينه، ولكني أخاف عَدَواتِ الدَّهْرِ وغَدْرَه، وليس المُجَرَّب كمن لا يُعْلَم، ولا الناصح المُشْفِق كالغاشّ المُتَّهَم. فقال له خالد: اسْكُتْ ما أنت وذا»[1]. وقد أعرض خالد عن رأي ونصيحة عَزْهَم وغيره من رجالات البصرة لأنه كان واثقاً من أن ذلك الجيش الذي يبلغُ زهاء ثلاثين ألفاً لا بد أن ينتصر، فسار عبد العزيز بالجيش إلى الأهواز، ومكث المهلّب أميراً على الخراج والجباية والشؤون المدنية ـ في مدينة سوق الأهواز عاصمة إقليم الأهواز. ثم سار عبد العزيز بالجيش من الأهواز إلى فارس ـ في أواخر سنة ٧٢هـ ـ واصطحب معه زوجته بنت المنذر بن الجارود لثقته بالنصر، وقال لبعض أصحابه في الطريق «يَزْعُمُ أهلُ البصرة أن هذا الأمر لا يَتِمُّ إلا بالمهلّب فسيعلمون».

وكان المهلّب واقفاً على سطح دار الإمارة بسوق الأهواز يُتابع مسير الجيش بقيادة عبد العزيز، وما لبث المهلب أن استدعى صعب بن زيد وهو قائد من

---

(١) الأمالي ـ أبو علي القالي ـ ص٣٢ جـ ٣.

أصحاب المُهلَّب إذْ أنه كان مع المهلب ثلثمائة من أصحابه بسوق الأهواز. قال أبو العباس المبرد:

«قال صَعْب بن زيد: لما خرج عبد العزيز عن الأهواز، جاءني كُرْدُوس حاجبُ المهلب فقال: أجِب الأمير. فجئتُ إلى المهلّب وهو في سطح، وعليه ثيابٌ هَرَوِيَّةٌ فقال: يا صعب، كأنّي أنظر إلى هزيمة عبد العزيز وأخشى أن توافيني الخوارج ولا جُند معي، فابعث رجلاً يأتيني بخبرهم يومياً، فبعث صعبُ رجلاً اسمه عمران». (ص٢٥٦/ ٢).

قال ابن الأثير: «وسار عبد العزيز لقتال الخوارج.. فأتت الخوارج من ناحية كرمان إلى (دارابجرد)، وأرسل قطري بن الفجاءة المازني مع صالح بن مخارق تسعمائة فارس فأقبل بهم حتى استقبل عبد العزيز وهو يسير مهلاً على غير تعبية.. فانهزم عبد العزيز وأُخِذت امرأته بنت المنذر بن الجاود.. وانتهى عبد العزيز إلى (رام هرمز) وأتى المهلّب خبره فأرسل إليه شيخاً من الأزد وقال له: إن كان منهزماً فعزّه. فأتاه الرجلُ فرآه نازلاً في نحو ثلاثين فارساً كئيباً حزيناً فأبلغه الرسالة وعاد إلى المهلب بالخبر» (١٩/ ٤).

ويعث المهلّب قوة من أصحابه لمرافقة عبد العزيز من (رام هرمز) إلى (سوق الأهواز)، فأتى عبد العزيز إلى سوق الأهواز، قال المبرد (فأكرمه المهلّب وكساهُ)، وكان المهلب أرسل إلى خالد أمير البصرة بخبر هزيمة جيش عبد العزيز ـ لاتخاذ ما يلزم ـ قال ابن الأثير: «فقال خالد لرسول المهلّب: كَذَبْت. فقال: واللّه ما كذبت فإن كنتُ كاذباً فاضرب عنقي وإن كنتُ صادقاً فأعطني جُبّتَك ومطرفك.. وحبسه خالد وأحسن إليه حتى صح خبر الهزيمة. وقال قيس بن الرقيات في هزيمة عبد العزيز وفراره عن امرأته:

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم وتركتهم صرعى بكلّ سبيل

من بين ذي عطش يجود بنفسه وملحب بين الرجال قتيل

..وَنَسيت عرسك إذ تقادُ سبية تبكي العيون برنة وعويل»

(١٩/ ٤ ـ الكامل)

وكان عَرْهَم العدوي قد نصح خالد بن أسيد بنصيحته سالفة الذكر حين ولّى عبد العزيز، قال أبو علي القالي: «فلما هزمت الأزارقةُ عبد العزيز وأخذوا امرأته وفَرَّ عنها، قال عَرْهَم:

لَعَمْري لقد ناجيتُ بالنصح خالداً ونـادَيْتُه حتى أَبَى وعصانيا

وَلَـجّ وكـانـت هَـفْـوة مـن مُـجَـرِّب ... عـصـاني فَـلَاقَـى مـا يَـسُـرُّ الأعـاديـا
نَصَحْتُ فـلـم يَقْبَـل وردَّ نصيحتي ... وذو النصح مُظَّنٌّ بما ليس آتيا[١]
وقُلتُ الحَرُورِيُّون مَنْ قد عَرَفْتَهُمْ ... حُـمـاةٌ كُـمَـاةٌ يَـضْـربـون الـهَـوَاديـا
فلا تُرْسِلَنْ عبدَ العزيز وسَرِّحَنْ ... إليهم فَتى الأَزْد الأَلَدَّ المُساميا
فتى لا يلاقي الموت إلا بوجهه ... جَرِيئاً على الأعداء للحرب صاليا
فلما أَبَى أَلْقَيْتُ حَبْل نصيحتي ... على غارب قد كان زَهْمانَ ناويا
وشَمَّرْتُ عن ساقَيَّ ثوبي إذْ بَدَتْ ... كتائبُهم تُزْجي إلينا الأفاعيا
يَـهُـزُّون أرْمــاحــاً طِـوَالاً بـأذْرُع ... شدادٍ إذا ما القوم هَزُّوا العواليا»[١]

وكان انهزام جيش عبد العزيز بمقاتليه الثلاثين ألفاً ـ في (دار بجرد) ـ وهروب عبد العزيز إلى (رام هرمز) قد أدى إلى هروب الذين نجوا من ذلك الجيش إلى ما يليهم من بلاد فارس والأهواز بشكل غيرِ منظم، فأخذ الخوارج يتتبعونهم ويجتاحون المناطق واحدة بعد الأخرى حتى دخلوا الأهواز ـ سنة ٧٣هـ ـ ولحق عبد العزيز وفلول المنهزمين بالبصرة، وكان المهلب عاملاً على الخراج ليس إلا، فاستخلف حبيب بن المهلب على سوق الأهواز، وقَدِم المهلب إلى خالد بن أسيد بالبصرة ـ للتشاور ـ وما لبث أن اجتاح الخوارج سوق الأهواز فانسحب حبيب بن المهلب ومن معه إلى البصرة، فلم يَعد في الأهواز خراجٌ يتم جبايته، فانتهت بذلك إمّرة المهلب على خراج الأهواز، وانتقد الناس خالداً لأنه ولّى عبد العزيز على الجيش، وفي ذلك قال الشاعر لخالد:

«بَعَثْتَ غلاماً مِنْ قُريشٍ فَروقةً ... وتترك ذا الرأي الأصيلِ المُهَلَّبَا
أَبَىٰ الذَّم، واختار الوَفاءَ، وأُحكِمَتْ ... قُواهُ، وقد ساسَ الأمورَ وجَرَّبا»

قال أبو العباس المبرد: وكتب عبد الملك بن مروان إلى خالد:

«أما بعد، فإني كنتُ حَدَدْتُ لك حَدّاً في أمر المُهلَّب، فلما مَلَكْتَ أمرك نبذت طاعتي واستبددت برأيك، فَوَلَّيتَ المُهلَّب الجباية ووليّت أخاك الحرب، فَقَبَّحَ اللّهُ هذا رأياً، أَتَبْعَثُ غلاماً غِرّاً لم يُجَرِّبِ الحروب وتتركُ سيداً شجاعاً قد مارس الحروب.. أما ـ واللّه ـ لو كافأتك على قدر ذنبك لأتاك من نكيري ما لا بَقيَّةَ لك معه، ولكن تذكرتُ رَحمكَ، فجعلتُ عقوبتك عزلَكَ»[٢].

فانتهت تلك الفترة بعزل خالد بن عبد الله بن خالد بن أَسيد الأموي من ولاية

---

(١) مُظَّنٌّ: متهم ـ الأمالي ـ ص٣٣ جـ٣.
(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٦٢ جـ٢.

البصرة، وكان بشر بن مروان ـ أخو عبد الملك ـ أميراً على الكوفة، فكتب إليه عبد الملك بتوليته على البصرة أيضاً، فجمع له ولاية الكوفة والبصرة ـ العراق ـ منذ أواسط، أو في أواخر، سنة ٧٣هـ. وأمره بتولية المهلّب على الأهواز وفارس وعلى محاربة الخوارج بجيش أهل البصرة، فاستاءَ بشر بن مروان من ذلك.

ثانياً: أنباء المهلَّب في ولاية بشر بن مروان للعراق (٧٣ ـ ٧٤هـ)

قال أبو العباس المبرد: «وَلّى عبد الملك بِشْرَ بن مَرْوَانَ وهو بالكوفة وكتب إليه: أما بعد، فإنك أخو أمير المؤمنين، يجمعك وإياه مَرْوَانُ بن الحَكم، وأن خالداً لا مجْتَمَعَ له مع أمير المؤمنين دون أُمَيَّة، فانظر المهلب فَوَلِّه حربَ الأزارِقة، فإنه سيّدُ بَطَلٌ مُجَرَّبٌ، وأمدده من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل، فَشَقَ عليه ما أمره في المهلّب وقال: واللَّه لأقتلنَّه، فقال له موسى بن نُصَيْر: إنّ للمهلب حفاظاً وبَلاءَ وَوَفَاءَ»[١].

وكان موسى بن نُصَيْر اللخميّ اليماني مع عبد الملك لما انضوت العراق تحت خلافته، فلما عاد عبد الملك إلى الشام استعمل بشر بن مروان أميراً للكوفة وجعل موسى بن نُصير معه مستشاراً، وذلك قبل مسير موسى بن نصير إلى بلاد المغرب، فقد كان أمير بلاد المغرب العربي آنذاك الزعيم اليماني حسان بن النعمان الغساني (٦٩ ـ ٨٠هـ) وكان موسى بن نصير مستشاراً لبِشْر بن مروان أمير الكوفة ـ منذ سنة ٧١هـ ـ فلما أتى كتاب عبد الملك إلى بِشر بن مروان بتوليته البصرة مع الكوفة ـ في أواسط سنة ٧٣هـ ـ وأن يولّي المهلب القيادة الحربية لجيش أهل البصرة لمحاربة الخوارج لأنه (سيّدٌ بطلٌ مُجَرَّبٌ) واغتاظ بِشر بن مروان وشَقّ عليه ما أمره به عبد الملك في المهلب، قال: «واللَّه ـ لئن تمكنت من المهلّب ـ لأقتلنَّه» فقال له موسى بن نُصير:

«إنّ للمُهلّبَ حفاظاً وبَلاءَ وَوَفاءَ».

وذكر ابن الأثير أنه: «لما استعمل عبد الملك أخاه بِشْراً على البصرة.. أتاه كتاب عبد الملك يأمره أن يبعث المهلّب إلى حرب الأزارقة في أهل البصرة ووجوههم وأن ينتخب منهم من أراد، وأمره أن يبعث من أهل الكوفة رجلاً شريفاً معروفاً بالبأس والنجدة والتجربة في جيش كثيف إلى المهلّب.. وشَقّ على بِشْر أن إمْرة المهلّب جاءت من عبد الملك فأوغرت صدره عليه حتى كأنّه أذْنَبَ إليه. فدعا عبد الرحمٰن بن مخنف فقال له: قد عرفت منزلتك عندي، وقد رأيتُ أن أوليك هذا الجيش الذي أسيرُه من الكوفة للذي عرفته منك فكُنْ عند أحسن ظني بك، وانظر

---

(١) المصدر السابق ـ ص٢٦٢ جـ٢.

إلى هذا، كذا كذا يقع في المهلّب، فاستبد عليه بالأمر ولا تَقْبَلَنّ له مشورة ولا رأياً وتَنَقَصْه. قال عبد الرحمٰن، فَتَرَكَ أن يوصيني بالجيش وقتال العدو والنظر لأهل الإسلام، وأقْبَلَ يغريني بابن عمي كأنّي من السفهاء، ما رأيتُ شخصاً مثلي طمع منه في مثل هذا، فلما رأى أني لستُ بنشيط إلى جوابه، قال لي: مَا لَكَ؟ قلت: أصلحك اللّهُ وهل يسعني إلا إنفاذ أمرك فيما أحببت وكرهت. وسار المُهلّب حتى نزل رام هرمز، وأقبل عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث في أهل الكوفة». (ص٣٠/ ٤ ـ الكامل).

ويتبين من ذِكْرِ عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث وأنه كان على رأس جيش أهل الكوفة، أن ما ذكره ابن الأثير وكذلك الطبري في النبأ سالف الذكر يرتبط بنبأ مسير المهلب مع خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد بجيش أهل البصرة إلى الأهواز ـ أواسط سنة ٧٣هـ ـ قبل قدوم بِشر بن مروان من الكوفة إلى البصرة، وكان مسير خالد ومعه المهلّب ـ عن أمر بشر بن مروان بموجب كتاب من عبد الملك ـ فقد ذكر ابن الأثير في موضع سابق أنه «كتب عبد الملك إلى بِشر أخيه بالكوفة يأمره بإنفاذ خمسة آلاف مع رجل يرضاه لقتال الخوارج ـ مع خالد والمهلب ـ فبعث بشر خمسة آلاف وعليهم عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث وكتب له عهداً ـ بتأميره ـ على الريّ عند الفراغ من قتال الخوارج، وسار خالد ـ ومعه المهلّب ـ بأهل البصرة حتى قَدِمِ الأهواز، وقَدِمَها عبد الرحمٰن بن الأشعث في أهل الكوفة». ـ وكان معه عبد الرحمٰن بن مخنف الذي قال له بِشر بن مروان: (استبد على المهلب بالأمر ولا تَقْبَلَنّ له مشورة ولا رأياً) ويبدو أن بشر بن مروان أصدر مثل ذلك التوجيه لخالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد وغيره من القادة أيضاً، فقد ذكر ابن الأثير بعد الفقرة السالفة، عن مسير خالد والمهلب إلى الأهواز ما يلي: «وجاءت الخوارج إلى الأهواز، فقال المهلب لخالد: إني أرى ههنا سفناً كثيرة فَضُمّها إليك فإنهم سيحرقونها ـ فلم يقبل خالد رأي المهلب ـ فلم يمض إلا ساعة حتى أرسل الخوارج إليها فأحرقوها». وقال أبو العباس المبرد «خرج خالد والمهلب إلى الأهواز... ثم أقام قَطَري بن الفجاءة ـ أمير الخوارج ـ بإزائه.. فعبر خالد دجيلاً إلى شِقِّ نهر تيري، وصار قطريّ إلى مدينة نهر تيري وخَنْدَق على نفسه. فقال المهلّب لخالد: خَنْدِقْ على نفسك، فإني لا آمنُ عليك البَياتَ، فقال: يا أبا سعيد، الأمر أَعجل من ذلك. فقال المهلّب لبعض أولاده: إني أرى أمراً ضائعاً، ثم قال لزياد بن عمرو العتكي: خَنْدِق علينا، فَخَنْدق المهلب وأصحابه، وأمر المهلب بسفُنه فَفُرِّغَت، وأبى خالدُ أن يفرِّغُ سُفُنَهُ (أو يضمها إليه) وقال المهلب لفيروز حُصَيْن: صِرْ معنا، فقال:

يا أَبا سعيد، الحزْمُ ما تقول غير أني أكره أَن أفارق أصحابي. قال: فَكُنْ بقربنا. قال: أما هذه فَنَعم. وقد كان عبد الملك كتب إلى بشر بن مروان يأمره أَن يمدّهم بجيش أميره عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشْعَث الكندي، ففعل، فَقَدِم عليهم عبد الرحمٰن، وأقام قَطَرِيٌّ يغاديهم القتال أربعين يوماً، فقال المهلب لِمَوْلَى لأبي عُيَيْنَة: انْتَبِذْ إلى ذلك الناوس فَبِتْ عليه في كل ليلة، فمتى أحسست خبراً من الخوارج أو حركةً أو صَهيلَ خيلٍ فاعْجَل إلينا، فجاءه ليلة فقال: قد تَحَرَّكَ القوم، فجلس المهلب بباب الخندق. وأَعَدَّ قطريٌّ سفناً فيها حطباً فأشعلها ناراً وأرسلها على سُفُنِ خالدٍ (فأحرقها)، وخرج قطريٌّ في أدبارها حتى خالَطَهُم ـ أي عسكر خالد ـ فجعل لا يَمُرُّ برجل إلا قتله، ولا بدابةٍ إلا عقَرها، ولا بفُسْطاطٍ إلا هَتَكَهُ. فأمر الـمُهَلّبُ يزيدَ فخرج في مائة فارس فَقَاتَل وأبْلَى يومئذٍ، وخرج عبد الرحمٰن بن الأشعث فأبْلَى بلاءً حسناً، وخرج فيروزُ حُصين في مواليه فلم يزل يرميهم بالنُّشَّابِ هو ومن معه، فَأَثَّرا أَثراً جميلاً. فَصُرِع (فرس) يزيد بن المهلّب يومئذ وصُرِعَ (فرس) عبد الرحمٰن فحامى عنهما أصحابهما حتى ركبا. وسقط فيروز حُصين في الخندق، فأخذ بيده رجل من الأزد فاستنقذه. بينما أصبح عسكرُ خالد كأنه حَرَّةٌ سوداءُ فجعل لا يَرَى إلا قتيلاً أو صريعاً، فقال للمهلَّب: يا أبا سعيد، كِدْنا نفتضح! فقال: خَنْدِقْ على نفسك فإن لا تفعل عادوا إليك. فقال: اكفني أمر الخندق. فجمع له الأخْماسَ فلم يبق شريفٌ إلا عَمِلَ فيه». (ص٢٥٣/ ٢).

قال ابن الأثير: «فأقاموا نحواً من عشرين ليلة، ثم زحف خالد إليهم بالناس، فرأوا أمراً هالهم من كثرة الناس، فكثرت عليهم الخيل وزحفت إليهم فانصرفوا كأنّهم على حامية وهُم مولّون لا يرون طاقة بقتال.. وانصرف خالد إلى البصرة، وسار عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى الري، وأقام المهلب بالأهواز». وقال ابن الأثير في فقرة تالية: «وَجّهَ خالد داود بن قحدم في أثر الخوارج وانصرف إلى البصرة» ـ ويستفاد من ذلك أن الذي قام بالأهواز هو داود بن قحدم ـ «وبعث بشر بن مروان عتاب بن ورقاء في أربعة آلاف فارس من الكوفة، فساروا حتى لحقوا داود والذين معه فاجتمعوا، ثم اتّبعوا الخوارج حتى هلكت خيولهم وأصابهم الجوع والجهد، ورجع عامة الجيشين مشاة إلى الأهواز». (ص٢٠ جـ٤) وقال المبرد: «أخذت الخوارج الأهواز.. وصاروا بالفرات».

فكتب عبد الملك بن مروان إلى بِشر بأن يسير من الكوفة إلى البصرة، ويُقيم بالبصرة، وأن «يبعث المهلّب في أهل البصرة ووجوههم إلى حرب الخوارج وأن ينتخب المهلب من يشاء، وأَمْدِدْهُ من أهل الكوفة بثمانية آلاف» وعندئذ شقّ على بِشر

ما أمره عبد الملك بشأن المهلب ـ أكثر من قبل ـ وقال: «واللّه ـ لئن لقيتُ المُهلَّب ـ لأقْتُلنه. فقال له موسى بن نُصير: إنّ للمهلب حِفاظاً وبَلاءً وَوَفَاءً».

وسار بِشْر بن مروان من الكوفة يريد البصرة ـ في أوائل سنة ٧٤هـ ـ قال أبو العباس المبرد: «فكتب موسى بن نُصير وعِكْرمةُ بن رِبْعِيٍّ إلى المهلّب: أن يتلقّاه لِقاءً لا يعرفه به. فتلقاه المهلّبُ على بغل، فسلَّم عليه في خُمارِ الناس. فلما جَلَسَ بِشْرُ مَجْلِسَه ـ في دار الإمارة بالبصرة وعنده وجوه الناس ـ قال: ما فعل أَميركُم المهلّب؟ قالوا: قد تلقاك أيها الأمير ـ وسَلَّمَ عليك ـ وهو شاكٍ». ـ أيْ مريض لا يستطيع الحضور ـ «فَهمّ بِشْر أَن يُوَلِّي عمر بن عبيد اللّه ـ أو غيره ـ وقال له أَسماءُ بن خارجة: إنما ولّاكَ أمير المؤمنين لترى رأيك. فقال له عكرمة بن رِبْعِيّ ـ موسى بن نُصير ـ أُكتب إلى أمير المؤمنين وأَعلمه علة المهلَّب، فكتب إليه يُعْلِمُهُ عِلَّةَ المهلّب، وأنّ بالبصرة من يغني غَناءَهُ، وَوَجَّهَ بالكتاب مع وَفْدٍ أَوفدهم إِليه، رئيسُهم عبد اللّه بن حكيم المجاشعي. فلما قرأ عبد الملك الكتاب (أو قرأ الكتاب له قُبيصة بن ذؤيب الخزاعي صاحب الختم والديوان وكان هو الذي يقرأ الكتب) خَلَا عبد الملك بعبد اللّه بن حكيم فقال له: إن لك ديناً ورأياً وحَزْماً، فَمَنْ لقتال الأزارقة وإمرة الحرب؟ قال: المهلّب. قال عبد الملك: إنه عَليل؟ قال: ليست علته بمانعته. فقال عبد الملك: أَراد بِشْرٌ أن يفعل كما فعل خالد. فكتب عبد الملك إلى بِشْر يَعْزِمُ عليه أَن يولي المهلَّب». (ص٢٦٢/ ٢) وقال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «لما صار بِشْر بالبصرة ـ سنة ٧٤هـ ـ كتب عبد الملك إليه: ابعث المهلّب في أهل البصرة، ولْيَنْتَخِبْ من وجوههم وفرسانهم وأُولي الفضل والتجربة منهُم فإنه أعرفُ بهم، وخَلِّه ورأيه في الحرب فإنّي أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين. وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً.. والسلام عليك»، واقترن هذا المكتوب بأنه «عزم عليه أن يولّي المهلّب» ـ أي أقسم عليه ـ فلم يجد بِشْر بُداً من التنفيذ.. ولو على مَضض!

قال المبرد: «فَوَجَّهَ بِشْر إلى المهلَّب (يخبره بتأميره ويدعوه) وقال المهلّب: أنا عَليلٌ، ولا يمكنني الاختلاف. فأمر بِشر بحمل الدواوين إليه، فجعل ينتخب الناس» ـ والدواوين هي سجلات دواوين العطاء والمرتبات وفيها أسماء أشراف ورؤساء وقادة وجنود وأهل ولاية البصرة ـ وقال ابن الأثير: «أرسل المهلّب جديع بن سعيد بن قبيصة وأمره أن ينتخب الناس من الديوان»، فيكون المهلّب بعث أولاً جديع بن سعيد لينتخب الناس من سجلات الديوان، ثم حمل مع صاحب الديوان السجلات إلى المهلَّب، فاعتمد وأتم انتخاب الناس ـ الذين سيكونون جيشه ويسير بهم إلى الأهواز وفارس ـ ثم أتى صاحب الديوان إلى بشر بن مروان وعرض عليه

أسماء الذين انتخبهم المهلّب قال المبرد: «فاعترض بِشْر عليه، فاقتطع أكثر نخبته، ثم عَزَم أن لا يقيم المهلب بعد ثالثة» فتهيأ المهلَّب للمسير خلال ثلاثة أيام بالناس والقادة الذين لم يعترض عليهم بِشْر، ورأى المهلَّب أن من الحكمة أن يسير بذلك الجيش خلال الثلاثة أيام التي حددها بشر بن مروان، وكان يعلم بأنه قد كتب إلى نائبه بالكوفة بانتداب ثمانية آلاف من أهل الكوفة ويُوجههم مدداً للمهلب بناء على تعليمات أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان.

وتم تجهيز الجيش من أهل البصرة ـ خلال الأيام الثلاثة ـ وعقد بشر بن مروان لواء القيادة والإمارة للمهلّب، فانطلق بذلك الجيش من البصرة حتى صار إلى (شَهارْطاق) فنزل فيها، وكان من المقرر أن يوافيه بقية الناس إلى (شَهارْطاق). قال المبرد: «خرج المهلّب حتى صار إلى شَهارْطاقَ، فأتاه شيخُ من بني تميم فقال: أصلحَ اللّهُ الأمير، إنّ سنّي ما ترى فَهبْني لعيالي. فقال له المهلّب على أن تقول للأمير ـ بشر بن مروان ـ إذا خَطَبَ فَحَثَّكم على الجهاد كيف تَحُثُّنا على الجهاد وأنت تحبس أشرافنا وأهل النجدة منا. . وأعطى المهلّبُ رجلاً ألف درهم على أن يأتي بِشْراً فيقول له: أعِنِ المهلَّبَ بالشُرْطةِ والمقاتِلةِ».

ثُم، وبينما بشر بن مروان يخطب في أهل البصرة ويحثهم على الجهاد، وقف الشيخ التميمي وقال: (كيف تَحُثُّنا على الجهاد وأنت تحبس أشرافنا وأهل النجدة منّا. فقال له بشر: ما أنت وذاك؟ قال: لا شيء). ثم قام الرجل الذي أعطاه المهلّب ألف درهم فقال: «أيها الأمير أعِنِ المهلَّبَ بالشُرْطةِ والمقاتِلة. فقال له بشر: ما أنتَ وذاك! قال: نصيحةٌ للأمير والمسلمين ولا أعودُ إلى مثلها. فأمَدَّهُ بالشُرْطةِ والمقاتِلةِ».

وكان «بِشْر كَتَبَ إلى نائبه بالكوفة ـ عمرو بن حريث ـ أن يعقد لعبد الرحمٰن بن مِخنفِ على ثمانية آلاف من كُلِّ رُبْع ألفين، ويوَجِّه به مدداً إلى المهلَّب. فلما أتاه الكتاب بعث إلى عبد الرحمٰن بن مِخْنَف الأزدي، فعقد له واختار له من كل رُبع ألفين، فكان على ربع أهل المدينة بشر بن جَرير البَجَلِيُّ، وعلى ربع تميم وهَمْدان عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الهَمْدانيّ، وعلى رُبْع كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن الأشعث الكِنْدِيّ، وعلى مَذْحج وأسدِ زَحْرُ بن قيس المَذْحجيُّ[1]، فقدِموا على بِشر بن مروان ـ بالبصرة ـ فخلا بعبد الرحمٰن بن مِخْنفِ الأزدي فقال له: قد عرفتَ رأيي فيك وثقتي بك فكن عند ظني، انظر هذا المَزونيّ ـ يعني المهلب ـ فخالفه في أمره وأفْسِدْ عليه رأيه! فخرج عبد الرحمٰن وهو يقول: ما

(١) هؤلاء الأربعة من كبار القادة اليمانيين بالعراق. وبشر بن جرير نجل الصحابي الفاتح الأمير جرير بن عبد اللّه البجلي.

أَعجبَ ما طمع مني فيه هذا الغلام! يأمرني أن أُصَغِّرَ شيخاً من مشايخ أهلي وسيداً من ساداتهم. فلحق بالمهلب»[١].

* * *

فانطلق المهلب بجيش أهل البصرة ومدد أهلِ الكوفة في منطقة (شَهارْطاقَ). قال المبرد: «وقد أخذت الخوارج الأهواز، وخَلَّفوها وراء ظهورهم، وصاروا بالفُراتِ، فخرج إليهم المهلب.. فلما أَحَسَّ الخوارج الأزارقةُ بدنوه منهم انكشفوا عن الفُرات. فاتّبعهم المهلّبُ إلى سوق الأهواز فنفاهم عنه. ثم تبعهم إلى رامَ هُرْمُزَ فهزمهم منها.. وأَبْلَى يزيدُ ابنهُ في وقائعه هذه بَلاء حسناً تقدم فيه، وهو ابن إحدى وعشرين سنة»[١] وكذلك كان لعبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي بلاء حسنٌ في مواجهة الخوارج والانتصارَ عليهم في الأهواز، وقال أعشى همدان لابن الأشعث في أبيات له:

ويـــومَ أَهْـــوازِكَ لا تَـــنْـــسَـــهُ ليس الثَّنا والذكرُ بالداثِرِ

ولما انهزم الخوارج بالأهواز ومدينة سوق الأهواز صاحوا «واللّه لولا هذا السَاحر المزَوني لكان اللّه قد دَمَّر عليكم، وكانت الخوارج تُسَمِّي المهلَّبَ الساحر»[١]، وتم للمهلَّب تطهير الأهواز من الخوارج ـ في أواسط سنة ٧٤هـ ـ وسار عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى إقليم الريّ (في إيران) لأنه أمير إقليم الريّ ـ ثم توجّه المهلّب إلى رامَ هُرْمُزَ فهزم الخوارج فيها، فلحقوا بأصحابهم في إقليم فارس، «فلما صارَ القومُ بفارس وَجَّهَ إليهم المهلّب ابنَهُ المُغيرةَ، فقال له عبد الرحمٰن بن صُبْح: أيها الأمير، ليس برأيي قتلُ هذه الأَكلُب، ولئن واللّهِ قتلتَهم لتقعدنَّ في بيتك ولكن طاوِلْهُمْ وكُلْ بهم. فقال: ليس هذا من الوفاء. فلم يلبث ـ المهلب ـ برامَ هُرْمُزَ إلا شهراً حتى أتاه نعي بشر بن مروان، توفي بالبصرة ـ أواخر سنة ٧٤هـ ـ».

فلما علم عسكر المهلّب بوفاة بشر بن مروان، جعل الجندُ من أهلِ الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز، وبقي مع المهلب عبد الرحمٰن بن مِخْنَف في نفر من أهل الكوفة. وأراد أهل البصرة الانسلالَ من المهلب، فخطبهم فقال: إنكم لستم كأهل الكوفة إنما تَذُبُّون عن مِصْركم وأموالكم وحَرمِكُمْ. فأقام منهم قومٌ وتَسلَّلَ منهم ناسٌ كثير. وأما جند أهل الكوفة الذين اجتمعوا بسوق الأهواز فكتب إليهم خالد بن عبد اللّه ـ وكان خليفة بِشر ـ بالرجوع إلى المهلب ويتهددهم إن لم يرجعوا إلى مراكزهم وانصرفوا عُصاة لا يظفر بأحد منهم إلا قَتَله ويحذرهم عقوبة

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٦٣ ـ ٢٦٤ جـ٢.

عبد الملك. فلما قرأ رسول خالد من الكتاب عليهم سطراً أو سطرين، قال له زَحْرُ: أيها العبد، أوجز، وانصرف إلى صاحبك، فقرأ الكتاب وانصرف. وسار زحر بجند أهل الكوفة عائداً بهم إلى الكوفة فنزلوا النخيلة ـ بجانب الكوفة ـ وأرسلوا إلى عمرو بن حريث ـ نائب بِشر بالكوفة ـ: إن الناس لما بلغهم وفاة الأمير بِشر تفرقوا، فأقبلنا، وأحببنا أن لا ندخل إلا بإذن الأمير، فلم يأذن لهم بالدخول وأمرهم بالرجوع إلى المهلب، فانتظروا الليل ثم دخلوا إلى بيوتهم بالكوفة بغير إذنه. فأقاموا حتى قَدِم الحجاج والياً على العراق، ولم يزل المهلّبُ ومن معه من قُوَّادِهِ وابن مِخنف في عدد قليل بإقليم الأهواز ورام هرمز إلى أن وَلّى عبد الملكُ الحَجاجَ على العراق.

ثالثاً: حروب وانتصارات الـمُهلَّب في إيران وولايته عليها أيام ولاية الحجاج للعراق (٧٥ ـ ٧٨هـ)

ولّى الخليفة عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق في أوائل سنة ٧٥هـ فدخل الكوفة التي كان أكثر جندها الذين مع المهلب قد انصرفوا إليها. قال الجاحظ: «دخل الحجاج الكوفة، وقد كان بشرُ بن مروان بعث المهلب إلى الحَرُورية» ثم ذكر الجاحظ خطبة الحجاج وقال في آخرها «مَن وجدتُ بعد ثالثة، مِنْ بَعث المهلَّب سفكتُ دمه»[1] وجاء في الهامش: «الحرورية هم أصل الخوارج، كانوا مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام ثم خالفوه.. وكَفَّرُوه وتبرؤوا منه.. فخرج عليّ فحاربهم بالنهروان.. فسموا الحرورية لوقعة حروراء. وحروراء قرية بظاهر الكوفة»[1]، وكان الخوارج الذين يحاربهم المهلب بالأهواز وإيران بمثابة تجمع كبير للخوارج الحرورية والأزارقة والموالي العجم من أهل إيران، وكانوا قد بسطوا سيادتهم على أقاليم الأهواز وفارس وكرمان وسجستان وهي إيران إلى بلاد السند، فأعاد المهلب سلطة دولة الخلافة على إقليم الأهواز بينما فارس وكرمان وغيرها بيد الخوارج، فلما تولي الحجاج العراق خطب وهدد أهل الكوفة الذين كانوا في جيش المهلب وقال: «قد أَجّلْتكم ثلاثاً، وأقسم باللّه لا يتخلف أحدٌ من بعدها إلا قتلته.. فلما مضت ثلاثة أيام جاءه عُمَيْرُ بن ضابئ البُرْجُمِيُّ التميمي بابنه، فقال: أصلح اللّه الأمير، إن هذا ـ ابني ـ أنفعُ لكم مني فهو أشدُّ بني تميم أَيْداً وأجمعهم سلاحاً، وأنا شيخ كبير عليلٌ، فقال الحجاج: إن عذرك لواضح، وإن ضعفك لبَيِّنْ، ولكني أكره أن يجترئ بك الناسُ عليّ. ثم أمر به فَقُتِل، فبادر الناس باللحاق بالمهلب، وفي ذلك قال ابن الزبير الأسدي:

أقولُ لعبد اللّه يوم لقيتُهُ ... أرى الأمر أَمْسَى مُنْصِباً متشعِّبا

---

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٣٠٧ جـ٢.

تَـخَـيَّـرْ فـإمـا أن تَـزورَ ابـنَ ضـابـئ   عُـمَـيْـراً وإمـا أن تَـزورَ الـمـهـلَّـبـا
هـمـا خُطَّتا خسفٍ نجاؤك منهـمـا   ركـوبُـكَ حَـوْلِـيًّا من الثَّلْجِ أشهـبا»

وتتابع أهل الكوفة وأهل البصرة في اللحاق بالمهلّب والانضمام إلى جيشه بالأهواز ورام هرمز. قال أبو العباس المبرد:

«وكتب الحجاج إلى المهلّب: أما بعد، فإن بِشْراً رحمه اللّه استكره نفسه عليك وأراك غناءه عنك، وأنا أُريك حاجتي إليك، فأرني الجِدَّ في قتال العدو. ومَنْ خِفْتَهُ على المعصية ممن قِبَلِك فاقتله فإني قاتلٌ مَنْ قِبَلي، ومَنْ كان عندي من وَلِيِّ مَنْ هَرَبَ عنك فأعلمني مكانه، فإني أرى أن آخذ الولِيَّ بالوليّ، والسَمِيّ بالسميّ.

فكتب إليه المهلّبُ: ليس قِبَلي إلا مُطيعٌ. وإن الناس إذا خافوا العقوبةَ كَبَّرُوا الذنب وإذا أَمِنوا العقوبة صَغَّروا الذَنب، وإذا يئسوا من العفو أكفرَهم ذلك، فَهَبْ هؤلاء الذين سميتهم عصاةً فإنما هم فرسان أبطال أرجو أن يقتل اللّه بهم العدو».

* * *

وفي حوالي شهر ربيع سنة ٧٥هـ انطلق المهلّب بجيش أهل البصرة والكوفة ـ من إقليم الأهواز ومدينة رامَ هُرمز إلى إقليم فارس ـ (وكان فارس اسم إقليم جنوب إيران وهو من أمنع الأقاليم وكان المهلّب وأبوه ممن شهد فتوح إقليم فارس في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وولاية أبي موسى الأشعري للبصرة، وقد استغرق فتح إقليم فارس آنذاك اثني عشرة سنة من (١٧ ـ ٢٨هـ) فلما تقدم المهلّب إلى إقليم فارس، كانت قوات الخوارج في السَرْدان وسابور وكازرون واصطخر وأرجان، ولما علم قطري بن الفجاءة أمير الخوارج بقدوم المهلب إلى أَرَّجان، قال لأصحابه: انهضوا بنا إلى السَرْدان نتحَصَّنُ فيها فقال أحد أصحابه: أو نأتي سابور. وأتى المهلّبُ أرَّجان فدخلت في طاعته، ومضى منها إلى السَرْدان وليست بمدينة ولكن جبال مُحْدِقةُ مَنيعة، فلم يُصِبْ بها أحداً، وعَلِم أن الخوارج تجمعوا في كازرون ـ بسابور ـ «فسار نحوهم فَعَسْكَرَ بكازرون، واستعد الخوارج لقتاله، وخندق المهلبُ على نفسه، ثم وجَّهَ إلى عبد الرحمٰن بن مِخْنَف: خَنْدِق على نفسك، فَوَجَّه إليه: خَنادقُنا سُيوفُنا. فَوَجّه إليه المهلبُ: إني لا آمن عليك البيات. فقال ابنه جعفر: إنهم أهون علينا من ضَرْطة جَمل. فأقبل المهلب على ابنه المغيرة فقال: لم يصيبوا الرأي ولم يأخذوا بالوثيقة. فلما أصبح القومُ غادَوْهُ الحرب، فبعث إلى ابن مِخْنَف يستمدّه فأمدّه بجماعة من أهل الكوفة وعليهم ابنه جعفر، فجاؤوا وعليهم أَقْبِيةٌ بيضٌ جُدَدٌ، فقاتلوا يومئذ حتى عُرِف مكانُهم، وحاربهم المهلّب يومئذ وأبْلَى بنوه كبلاء الكوفِيّين أو أشد.. وانكشف الخوارج والأمرُ للمهلّب عليهم، وقد كثر فيهم القتل والجِراح».

ومكث المهلّب وجيشه في كازرون والخوارج في مواجهتهم ـ بسابور ـ عدة أسابيع، أو شهور، دون قتال حاسم، وبدأ المهلب في تلك الفترة بتنفيذ مظاهر سيادة دولة الخلافة بإقليم فارس ـ لأول مرة منذ زهاء عشر سنوات ـ وكان من مظاهر السيادة جباية الخراج، وكان المهلّب هو أمير الأهواز وفارس، بالإضافة إلى القيادة الحربية، فبعث عماله إلى مدن ومناطق فارس يجبون خراجها ـ قبل الموقعة الحاسمة مع الخوارج في سابور ـ فأذعن الناس لأداء الخراج. قال المبرد: «وكتب الحجاج إلى المهلّب قبل الوَقْعةِ: أما بعد، فإنه بلغني أنك أقبلتَ على جِباية الخراج، وتركتَ قتال العدوّ، وإني ولّيتُكَ وأنا أرى مكان عبد اللّه بن حكيم المُجاشعيّ وعَبَّاد بن حَصَيْنٍ الحَبَطِيّ، واخترتك وأنت رجل من الأزْدِ، فالْقَهُمْ يوم كذا في مكان كذا، وإلا أشرعتُ إليك صَدْرَ الرمح.

فشاور المهلّبُ بنيه (وكانت ولاية المهلّب من عند الملك لا من الحجاج) فقالوا: إن الحجاج أمير العراق فلا تَغْلُظْ عليه في الجواب. فكتب المهلّبُ إلى الحجاج ـ أما بعد، فإنّه ـ ورد عليَّ كتابك، تزعم أني أقبلتُ على جباية الخراج وتركتُ قتال العدو، فمَنْ عجز عن جباية الخراج فهو عن قتال العدو أعْجَز. وزعمْتَ أنك وليتني وأنت ترى مكان عبد اللّه بن حكيم وعباد بن حصين، فلو وليتهما لكانا مُسْتَحقّين لذلك لفضلهما وغنائهما. ـ وزعمتَ أنك ـ اخترتني وأنا رجلُ من الأزد، ولَعمْري إن شراً من الأزد قبيلةٌ تَنَازعَها ثلاث قبائل لم تستقر في واحدة منهن[1]، وزعمتَ أني إن لم أَلقَهم في يوم كذا في مكان كذا أشرعتَ إليَّ صدرَ الرمح، فلو فعلتَ لقلبتُ إليك ظهرَ المِجَنّ. والسلام».

* * *

ثم إن المهلّب أتته عيونه بأن رئيساً من الخوارج يقال له صالح بن مِخْراق يختار أفراد كتيبة من عسكر الخوارج حتى بلغوا أربعمائة، فقال المهلّب لابنه المُغيرة: ما يُعِدُّ هؤلاء إلا للبيات، وإني أخاف البيات على بني تيم فانْهَضْ إليهم فَكُنْ فيهم. فأتاهم المغيرة، فقال له الحريشُ بن هلال التميمي: يا أبا حاتم، أيخاف الأميرُ أن يُؤْتَى من ناحيتنا، قُلْ له فَلْيَبِتْ آمناً فإنّا كافُوه ما قِبَلَنا إن شاء اللّه. فلما انتصف الليل وقد رجع المغيرةُ إلى أبيه، سرى صالح بن مِخْراق بكتيبة الخوارج على ناحية بني تميم فأغاروا عليهم.. وقال بعض الخوارج لبعض: نأتي عسكر ابن مِخْنف فإنه لا خَنْدَقَ عليهم، وقد زعموا أنّا أهونُ عليهم من ضَرْطة جمل، فأتتهم

(١) يعني قبيلة ثقيف، فالبعض ينسبهم إلى نزار ومُضَر، وينسبهم البعض بأنهم من بقية قوم ثمود، ويزعم البعض أنهم ليسوا من نسب العرب.

كتيبة أخرى من الخوارج، فلم يشعر ابن مِخْنف وأصحابه بهم إلا وقد خالطوهم في عسكرهم، وكان عبد الرحمٰن بن مِخنف الأزدي شريفاً، يقول رجلُ من غامدٍ لرجل يعاتبه، ويضرب بابن مِخْنَف المثل:

تَروحُ وتَغْدو كل يوم مُعظَّما كأنك فينا مِخْنَفُ وابنُ مِخْنَفِ

فترجل عبد الرحمٰن بن مِخْنف، فَجَالَدَ الخوارج، فَقُتِلَ، وقُتِلَ معه سبعون من القُرَّاء فيهم نَفَرٌ من أصحاب علي بن أبي طالب ونفر من أصحاب ابن مسعود، وبلغ الخبرُ المُهلّبَ وجعفر بن عبد الرحمٰن بن مِخْنف عند المهلّب. فجاءهم جعفر مُغيثاً فقاتلهم حتى أرتَثَّ وصُرِعَ ـ عن فرسه ـ وَوَجَّه المهلّبُ إليهم ابنه حبيباً فكشفهم ـ حتى هرب فلول الخوارج إلى معسكرهم ـ وجاء المهلَّبُ وصلّى على ابن مِخْنف وأصحابه رحمهم اللّه، وصار جنده في جند المهلّب، فَضَمّهم إلى ابنه حبيب. فَعَيّرهم البصريون فقال رجل لجعفر بن عبد الرحمٰن:

تركتَ أصحابنا تدْمَى نُحورُهم وجِئْتَ تَسْعَى إلينا خَضْفَةَ الجَمَل

قال المبرد: (قوله خَضْفَةَ الجمل، يريد: ضرطة الجمل. يقال: خَضَفَ البعير)، فلامهم المهلّب وقال: بئسما قلتم، واللّهِ ما فَرُّوا ولا جَبُنوا ولكنهم خالفوا أميرهم، أفلا تذكرون فراركم يوم دُولابَ وفراركم بدارس. فانْتَهوا عن تعيير أهل الكوفة.

وكان المهلّبُ لا يَتَّكِلُ في الحراسة على أحدٍ بل كان يتولى ذلك بنفسه، ويستعين بولده وبمن يَحُلُّ محلَّهم في الثقة عنده، قال أبو حرملة العبدي (يلوم المهلّب؟ لأنّ الخوارج قتلوا جماعة من أهل البصرة بينهم بعض الفقراء في القتال بمنطقة دُولاب):

عدمتُكَ يا مُهَلَّبُ من أَمير أما تَنْدَى يمينُكَ للفقير

بدُولابٍ أضعتَ دماء قوم وطِرْتَ على مُواشكةٍ دَرور

فقال له المهلب: ويحك، واللّه إني لأقِيكُمْ بنفسي وولدي. قال: جعلني اللّه فِداء الأمير، فذاك الذي نَكَرَهُ منكَ، فما كلنا يحب الموت. قال: ويحك وهل عنه مَحيص؟ قال: لا، ولكنّا نكره التعجيل وأنت تُقْدِم عليه إقْداماً. فقال المهلب: أما سمعت قول الشاعر:

فقلتُ لكَأسٍ أَلْجِميها فإنما نَزَلْنا الكَثيبَ من زَرودَ لِنَفْزَعا

قال أبو حرملة: بَلَى واللّه لقد سمعته، ولكن أَحَبُّ إليّ منه قولي:

فلما وقفتم غُدْوةً وعَدُوكُمْ إلى مُهْجتي وَلَّيْتُ أعداءَكم ظَهْري

وطِرْتُ ولم أَحْفِلْ مَقالةَ عاجزٍ يُساقي المَنايا بالرُدَيْنِيَّةِ السُمْرِ

فقال المهلب: بئس حَشْوُ الكتيبة واللّه أنتَ، فإن شئتَ أذنتُ لكَ فانصرفتَ إلى أهلك، فقال: بل أقيم معك أيها الأمير فوهب له المهلّب وأعطاه، فقال يمدح المهلّب:

يرى حتماً عليه أبو سَعيدٍ جِلادَ القوم في أُولى النفير
إذا نادى الشُراةُ أبا سَعيدٍ مَشَى في رَفْلٍ مُحْكَمةِ القَتير(١)

ووَجّهَ الحجاجُ البراء بن قَبيصةَ إلى المهلب يستَحِثُّه في مناجزة القوم، فأمر المهلّب بعض فرسانه بالخروج للقتال فخرج إليهم فرسان من الخوارج فتبارزوا وتقاتلوا، فرأى البراء بن قبيصة قتالاً وعدواً ليس له مثيل. فرجع البراءُ إلى الحجاج، فقال له الحجاج: مَهْ؟ قال: رأيتُ قوماً لا يُعينُ عليهم إلا اللّه. وكتب إليه المهلّبُ: إنّي منتظرٌ بهم إحدى ثلاث، موتٌ ذريعٌ، أو جوع مُضِرٌّ، أو اختلاف من أهوائهم.

* * *

وقال المهلب ذات يوم: ما يسرني أَن في عسكري أَلف شجاع بدلَ بَيْهَس بن صُهَيْب، فقيل له: أيها الأمير، بَيْهَس ليس بشجاع. فقال: أَجَلْ، ولكنه سَديدُ الرأي مُحْكَمُ العقل وذو الرأي حَذِرٌ سَؤول فأنا آمِنُ أن يُغْتَفَل. .

ومطرت السماء ذات ليلة مطراً شديداً، وهم بسابور وبين المهلَّب وبين الخوارج عَقبةٌ، فقال المهلَّب: من يكفينا هذه العقبةَ الليلةَ؟ فلم يقم أحد، فلبس المهلّبُ سِلاحه وقام إلى العقبة، واتبعه ابنه المغيرة، فقال رجل من أصحابه يقال له عبد اللّه: دعانا الأمير إلى ضبط العقبة فلم نُطِعْهُ، فلبس سلاحه، واتبعه جماعة من العسكر فصاروا إليه، فإذا المهلّب والمغيرة لا ثالثَ لهما، فقالوا: انصرف أيها الأمير فنحن نكفيك إن شاء اللّه. فلما أصبحوا إذا بجماعة من الخوارج على العقبة، فحمل عليهم مُدْرِكِ بن المهلّب في جماعة معه حتى رَدَّهم. . وكان الخوارج يدبرون الأمر فيجدون المهلّب قد سبق إلى نفس تدبيرهم أو تحرز منه، فعقدوا العزم على مهاجمة المهلّب والناس في يوم النحر ـ وقت خطبة وصلاة عيد الأضحى في ذي الحجة سنة ٧٥هـ ـ.

فلما كان يومُ النَحْرِ والمهلّبُ على المنبر يخطب الناس ـ في سابور ـ إذا الخوارج قد أقبلوا، فقال المهلب: سبحان اللّهِ، أفي مثل هذا اليوم! يا مُغيرة أكفِنيهم، فخرج إليهم المغيرةُ بن المهلب بالفرسان وأمامه سعدُ بن نَجْد القُرْدوسيُّ الأزدي، وكان شجاعاً متقدماً في شجاعته، وكان المهلّب إذا ظَنَّ برجل أن نفسه قد

(١) قال المبرد «الرفل: الذيل».

أعجبته قال له: لو كنتَ سعد القُردوسيَّ ما عَدَا. فخرج سعد أمام المغيرة، ومع المغيرة جماعة من الفرسان فالتقوا بالخوارج وكان أَمَامَ الخوارج فارسٌ مديد القامة، كريهُ الوجه، شديد الحَمْلةِ صحيح الفُروسية، فأقبل يحمل على الناس وهو يقول:

نحن صَبَحْناكُمْ غَداةَ النحر بالخيل أَمثالِ الوَشِيج تَجْرِي

فبرز إليه سعد القُردوسيّ فتجاولا ساعة فطعنه سعد فقتله. والتقى الناسُ فَصُرِع يومئذ المغيرة ـ عن فرسه ـ فحامى عليه سعد القردوسيّ وذُبيانُ السِخْتيانيُّ وجماعةٌ من الفُرْسانِ حتى ركب. وانكشف بعض الناس عند سَقْطةِ المُغيرة حتى صاروا إلى أبيه المهلّب فقالوا: قُتِل المغيرة، ثم أتاه ذُبْيانُ السخْتياني فأخبره بسلامته وبانكسار الخوارج، فأعْتَقَ كلَّ مملوك كان بحضرته.

وانتهت سنة ٧٥هـ والمهلّب قد بسط سلطته وسيادة دولة الخلافة على كل إقليم الأهواز وعلى طائفة من مدن ومناطق إقليم فارس وهو مُرابط في سابور في مواجهة الخوارج وأميرهم قطري بن الفجاءة وكان الخوارج زهاء عشرة آلاف غير من معهم من أهل فارس.

* * *

وفي أوائل سنة ٧٦هـ بعث الحجاجُ الجرّاحَ بن عبد اللّه الحكمي المذحجي ـ من البصرة ـ إلى المهلّب يستبطئه في مناجزة القوم، وكتب إليه: «أما بعد، فإنك جَبَيْتَ الخراج بالعِلَلِ وتحصنت بالخنادق، وطاوَلْت القوم، وأنت أعزُّ ناصراً وأكثرُ عدداً، وما أَظنُّ بك مع هذا معصية ولا جُبْناً ولكنك اتخذتَ أُكْلاً، وكأنّ بقاءهم أيسر عليك من قتالهم، فناجِزْهُم وإلا أنكرتني. والسلام.

فقال المهلّبُ للجَرّاحِ: يا أبا عُقْبَةَ واللّه ما تركتُ حيلة إلا احتَلْتُها ولا مكيدة إلا أعملتُها، وما العجب من إبطاء النصر وتراخي الظفر، ولكنَّ العجب أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يُبْصِره. ومكث الجراح ثلاثة أيام والمهلب يغاديهم القتال كل يوم ويصرف أصحابه وبهم قَرْحٌ وقَتْل، فقال للمهلب: قد أَعْذَرْتَ.

ثم كتب المهلب إلى الحجاج: أتاني كتابك تستبطئني في لقاء القوم.. وقد عاتبتني وأوعدتني.. فاسأل الجرّاح. والسلام. فقال الحجاج للجَرّاح: كيف رأيتَ أخاك؟ قال: واللّه ما رأيتُ أيها الأمير مثله قَطُّ ولا ظننتُ أن أحداً يبقى على مثل ما هو عليه، ولقد شهدتُ أصحابه أياماً ثلاثةً يغدون إلى الحرب ثم ينصرفون عنها وهم بها يتطاعنون بالرماح ويتجالدون بالسيوف ويتخابطون بالعَمَدِ، ثم يروحون كأن لم

يصنعوا شيئاً رواحَ قوم تلك عادتُهم وتجارتهم. فقال الحجاج: لَشَدَّ مَا مدحَتْهُ أبا عُقْبَة، قال: الحقُّ أَوْلَى»[١].

* * *

وفيما بين شهر محرم وشهر ربيع سنة ٧٦هـ قام المهلّب بإنجاز مهم كان في نظر الناس أهَمّ مما قام به الخليفة عبد الملك بن مروان حيث قام عبد الملك بسك النقود العربية الإسلامية الأولى في التاريخ، وكانت النقود المُستعملة إلى ذلك الوقت رومية بيزنطية فتم سَك الدراهم والدنانير العربية الإسلامية في ديوان السَك بدمشق وكان صاحب الديوان قُبيصة بن ذؤيب الخزاعي اليماني وهو الذي سَكّ النقود بأمر عبد الملك بن مروان، أما المُهلّب فقام بإنجاز وضرب الركاب الحديد للخيول، قال المبرد: «كانت رُكُبُ الناسِ قديماً من الخشب فكان الرجلُ يُضْرَبُ رِكابُهُ فينقطع، فإذا أراد الضربَ أو الطعنَ لم يكن له معتمدٌ، فأمر المهلّبُ فضُرِبَتِ الرُكُبُ من الحديد، وهو أول من أمر بصنعها. ففي ذلك يقول عِمْرانُ بن عِصامِ العُنَزِيُّ:

ضربوا الدراهم في إمارتهم ... وضربتَ للحَدَثانِ والحرب
حلقاً تُرَى منها مَرَافِقُهم ... كمناكب الجَمَّالةِ الجُرب»[٢]

وقد تقدم في نبأ فتوح المهلب لبلاد السند سنة ٤٤هـ ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان قال: «لقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من التُرك على خيل محذوفة، فقاتلوه، فَقُتِلوا جميعاً، وقال المهلّب: ما جُعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير مِنّا، فحذف الخيل، فكان أول من حذفها من المسلمين»[٣]، ثم في ولاية المهلب للأهواز وفارس ـ سنة ٧٦هـ ـ أمر المهلّب بصناعة الركاب الحديدية للخيول فكان أول من أمر بصناعتها من المسلمين، صنعها لجيشه، ثم انتشرت في أرجاء دولة الخلافة.

* * *

وفي شهر جمادى سنة ٧٦هـ بعث الحجاجُ عَتَّابَ بن ورقاء التميمي وجعله قائداً على جُند عبد الرحمٰن بن مِخْنَف ـ الذين هُم من أهل الكوفة ـ وقال له: كل بلد من فتوح أهل البصرة فالمهلّب أميره، وأنت على أهل الكوفة.. فَقَدِم عتَّاب في إحدى جُمادَيَيْنِ من سنة ٧٦هـ على المهلّب وهو بسابور، وهي من فتوح أهل

(١) الجرّاح بن عبد الله الحكمي: أمير قائد يماني، وهو من عُمال عمر بن عبد العزيز، وتولى إمرة بلاد أرمينيا وأذربيجان، وله مبحث خاص في هذا الكتاب.
(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرد ـ ص٢٧٥ جـ٢.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٢٢.

البصرة، فكان المهلّب أمير الناس وعتابُ على أصحاب ابن مِخْنَف. والخوارجُ في أيديهم كَرْمانُ، وهم بإزاء المهلّب بفارس يحاربونه من بعض النواحي.

وفي رجب وشعبان ٧٦هـ كان يزيد بن المهلب يقود كتيبة من الفرسان وحبيب بن المهلب يقود كتيبة من الفرسان يحاربان فرقة من الأزارقة ـ ما بين سابور واصطخر ـ فَوَّجَه الحجاج رجلين إلى المهلّب يَسْتَحِثَّانِهِ مناجَزَة القوم، أحدهما زياد بن عبد الرحمٰن من بني صعصعة، والآخر ثقفي من آل أبي عقيل جدّ الحجاج، فضم المهلّب زياداً إلى كتيبة ابنه حبيب وضَمّ الثقفي إلى كتيبة ابنه يزيد، وقال لهما: خُذَا يزيدَ وحبيباً بالمناجزة، فغادوا الأزارقة فاقتتلوا أشدَّ قتال، فَقُتِل زياد الصعصعي وفُقِد الثقفيّ، ثم باكروهم في اليوم الثاني، وقد وُجِدَ الثقفيُّ، فدعا به المهلب ودعا بالغدَاء فجعل النَّبْلُ يقع قريباً منهم والثقفي يعجب من أمر المهلب، فقال الصَلّتانُ العبديُّ:

ألا يا أصبحاني قَبْلَ عَوْقِ العَوائق ... وقبل اخْتراطِ القوم مثلَ العقائق

غداة حَبيب في الحديد يقودُنا ... نَخوضُ المنايا في ظِلال الخوافق

حَرونٌ إذا ما الحربُ طار شَرارُها ... وهاجَ عَجاجُ الحرب فوق البَوارق

فَمَنْ مُبْلِغُ الحجاج أن أمينه ... زياداً أَطاحتْه رِماحُ الأزارق»

قال أبو العباس المبرد: (قوله: وقبل اختراط القوم مثل العقائق، يعني السيوف، والعقائق جمع عقيقة. يُقال: سيف كأنّه عقيقة بَرْق، أي كأنّه لمعَةُ برق. ويقال: انعقَّ البرق إذا تبسم). وقوله: (غداة حبيب، يعني حبيب بن المهلب، وكان يُقال له: الحَرونُ حبيبُ).

وفي أواخر سنة ٧٦هـ وبينما المهلب يحارب الخوارج، (وذلك في قرية من قرى اصْطَخْرَ، وَجَّه الحجاج إلى المهلّب رجلين أحدهما من كَلْبٍ والآخر من سُلَيْم يستحثّانه بالقتال. فقال المهلّب متمثلاً:

ومُسْتَعْجِبٍ مما يرى من أناتنا ... ولو زَبَنتْهُ الحربُ لم يَتَرمْرَمِ

قال المبرد: الشعر لأوس بن حَجَرٍ. وقوله: زبنته، أي دفعته. ولم يترمرم: لم يتحرك، يقال: قيل له كذا وكذا فما ترمرم».

وما لبث الحجاج أن زَبَنَتْهُ الحرب، فقد أخذت جماعة من الخوارج في أعالي العراق بقيادة شبيب الخارجي تشن الغارات ما بين الجزيرة الفراتية والكوفة، وأغارت مجموعة صغيرة من الخوارج على مدينة الكوفة وبها الحجاج فترمرم الحجاج هارباً من الكوفة، فعرف الحجاج عندئذ مكانة وعظمة المهلّب الذي كان يواجه بحكمة ودهاء عشرة آلاف من الخوارج في أمنع وأصعب بلاد فارس. وكان عتّاب بن وَرقاءَ

التميمي مع المهلّب ثمانية أشهر ـ منذ بعثه الحجاج في جمادى الآخرة ٧٦هـ ـ وحتى ظهور شبيب الخارجي، فكتب الحجاج إلى عتّاب يأمره بالقدوم إليه في جند أهل الكوفة للمشاركة في مواجهة شبيب، فطلب عَتّاب من المهلّب أن يرزق أهل الكوفة ـ أي يعطيهم أموالاً من مال الخراج ـ فأبَىَ المهلّب، فجرت بينهما غِلْظةٌ، فشتم عَتّاب المهلَّبَ، فغضبت بَكْرُ بن وائل للمهلّبِ لِلْحِلْفِ ـ حلف اليمن وربيعة ـ ووثب ابن نُعَيْم بن هُبَيْرَةَ بن المهلّب، مشى بين أبيه وبين عَتّاب، فقال لعتّاب: يا أبا ورقاء إن الأمير يصير لك إلى كل ما تحب. وسأل أباه أن يرزق أهل الكوفة، فأجابه، وَرَزَقهم، فصلح الأمر. فَشَخَص عَتّاب إلى الحجاج في محرم ٧٧هـ فَوَجَّهه إلى شبيب، فقتله شبيب. بينما انتصر المهلّب على الخوارج انتصاراً باهراً في القرية ـ من قرى اصطخر التي كان فيها القتال، فانسحب الخوارج إلى ما يليها من بلاد اصطخر، وعسكروا ما بين اصطخر وإقليم كرمان.

* * *

وفي أوائل سنة ٧٧هـ أتم المهلّب إعادة سلطان دولة الخلافة في إقليم فارس بعد مواجهات مع الخوارج كان لدهاء المهلَّب فيها دور استحق أن يسجله التاريخ، فمن ذلك: أن رجلاً حداداً يُقال له أبْرَى كان يعمل نِصالاً مسمومة للخوارج فيرمون بها عسكر المهلب. فَوَجَّه المهلب رجلاً من أصحابه بمكتوب وألف درهم إلى منطقة وعسكر الخوارج، وأمره أن يتسلل حتى إذا صار بالقرب من القوم ورآه بعضهم ألقى المكتوب وكيس الدراهم ويرجع متظاهراً بالهروب، ففعل الرجل ذلك، فوقع المكتوب وكيس الدراهم بيد الخوارج، فسلموه إلى أميرهم قَطَرِي، فقرأ المكتوب فإذا هو إلى أَبْرى الحداد، أما بعد: فإن نِصَالكَ قد وصلتْ إليّ، وقد وجهتُ إليك بألف درهم فاقْبِضْها وزِدْنا من هذه النصال. فدعا قَطَري بالحداد أبْرى، فقال له: ما هذا الكتاب؟ قال: لا أَدري، قال: فهذه الدراهم؟ قال: لا أدري، فأَمَر به، فَقُتِلْ). فأدى ذلك إلى انتهاء أمر صانع السهام المسمومة للخوارج من جهة وإلى بداية خلق الاختلاف في صفوف الخوارج من جهة أخرى، إذْ أنه «جاء عبدُ رَبِّهِ الصغير مولى بني قيس بن ثَعْلَبة إلى قَطَري، فقال له: أقتلتَ رجلاً على غير ثقة ولا تَبَيُّنٍ؟ فقال: ما حالُ هذه الدراهم؟ قال: يجوز أن يكون أَمرُها كَذِباً ويجوز أن يكون حقاً، فقال له قطريُّ: قَتْلُ رجلٍ في صلاحِ الناس غير مُنْكَرٍ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً وليس للرعية أن تعترضَ عليه. فَتَنَكَّرَ له عبدُ رَبِّهِ في جماعة، ولم يفارقوه، فبلغ ذلك المهلَّبَ.

ودعا المهلّب برجل نصراني (من أهل المناطق التي كانت بيد الخوارج فأخذها المهلب منهم) فأعطى المهلّب ذلك الرجل النصراني مالاً، وقال له: اذهب إليهم فإذ رأيت قَطَرياً فاسجدْ له، فإذا نهاكَ فَقُلْ إنما سجدتُ لكَ. ـ فسار النصراني إلى مكان

قَطَري والخوارج ـ فلما وصل إلى قطري سجد له، فقال له قطري: إنما السجود للّه، فقال: ما سجدتُ إلا لك. فقال رجل من الخوارج لقطري: قد عَبَدَكَ من دون اللّه، وتلا: إنكم وما تعبدون من دون اللّه حَطَبُ جهنم أنتم لها واردون. فقال قطري: إن هؤلاء النصارى قد عَبدُوا عيسَى بن مريم، فما ضَرَّ ذلك عيسى شيئاً. فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله. فأنكر قطري ذلك عليه وقال: أَقَتَلْتَ ذِمِّيًا. فاختلفت الكلمة.

ثم وَجَّهَ المهلبُ إليهم رجلاً يسألهم عن شيء ـ قال المهلّبُ للرجل أن يسألهم عنه ـ، فأتاهم الرجل، فقال: أرأيتم رجلين خرجا مهاجرَين إليكم فمات أحدُهما في الطريق وبلغكم الآخر فامتحنتموه، فلم يُجْزِ المِحْنَةَ، ما تقولون فيهما؟ فقال بعضهم: أما الميتُ فمؤمنٌ من أهل الجنة، وأما الآخر الذي لم يجز المحنة فكافر حتى يجيزها، وقال بعضهم: بل هما كافران حتى يُجيزا المِحْنَة. فكثر الاختلاف بينهم. فخرج قطري إلى حدود اصطَخْرَ، فأقام شهراً والقوم في اختلافهم، ثم أقْبَلَ فقال لهم صالح بن مخراق: إنكم قد أقررتم عين العدو وأطمعتموهم فيكم لما ظهر من اختلافكم، فعودوا إلى اجتماع الكلمة.

فاجتمع الخوارج وتقدموا للقتال ـ وكانوا زهاء عشرة آلاف ومعهم من الموالي مثل ذلك ـ وتقدم إليهم جيش المهلب وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً، فالتقى الفريقان، فكان الصدام بينهما، كما قال ابن المُنْجِبِ السدوسي الطائي لرجل يقال له خِلاج، في أبيات له:

أو أن يُعَلِّمك المهلّبُ غَزوةً وتَرَى جبالاً قد دَنَتْ لجبال

والتقت جبال الخوارج بجبال المهلّب في معركةٍ ـ ذكر المُبرّد أخبارها في كتاب الكامل ـ وتتوجت المعركة بانتصار المهلّب. قال المُبرِّد: «وكان قَطَريُّ هَدَم مدينة اصطخر؛ لأن أَهلها كانوا يكاتبون المهلّب بأخباره، وأراد مثل ذلك بمدينة فَسَا، فاشتراها منه أزاذْمَرْدُ بن الهِرْبِذِ بمائة ألف درهم، فلم يهدمها، فواقعه المهلّب فهزمه ونفاه إلى كرمان». (ص٢٨٣/ ٢).

وبانسحاب قَطَري والخوارج إلى إقليم كرمان، تَمّ للمهلّب إعادة سلطة دولة الخلافة في كل أرجاء إقليم فارس بالإضافة إلى إقليم الأهواز، وبَسَط المهلّب الأمن والاستقرار في ربوع إقليمي الأهواز وفارس جميعهما.

* * *

ومنذ أواسط سنة ٧٧هـ بدأ المهلّب يتقدم داخل إقليم كرمان (وهو أقصى جنوب إيران ويمتد إلى داخل باكستان) وكان إقليم كرمان معقل سلطة الخوارج

ومركزهم الرئيسي وتحت حكمهم منذ عشر سنوات ونيف، فَوَجَّه المهلّب ابنه المُغيرة إلى كرمان، ودفع إليه سيفاً وَجَّه به الحجاج إلى المهلّب وأقسم عليه أن يتقلده، فتقلد به المهلب ودفعه إلى المغيرة، فتقلده المغيرة ودخل بفرسانه أوائل إقليم كرمان، ثم رجع المغيرة بالسيف وقد أدمّاه، فَسُرَّ المهلّبُ بذلك، وقال: ما يسرني أن أكون كنتُ دفعته إلى غيرك من ولدي، اكفني جباية خراج هاتين الكُوَرَتَيْنِ، وضَمّ إليه الرُقادَ، فجعلا يَجْبيانِ ولا يُعْطيان الجُنْدَ.. وفي ذلك قال رجل منهم:

ألا قُلْ للأمير جُزيتَ خيراً أرِحْنا من مُغيرةَ والرُقاد

فما رَزقاً الجنودَ بها قفيزاً وقد ساسَتْ مَطاميرُ الحَصاد

قال المبرِّد (يُقال: ساسَ الطعامُ وأَساس، إذا وقع فيه السوس).

وسار المهلّبُ إلى السِبرَجانِ ـ بإقليم كرمان ـ فحارب الخوارج حتى نفاهم من السِبرجان إلى جِيرُفت، فعادت السِبرجان إلى سلطة دولة الخلافة، وتقدم المهلّب بالجيش إلى مشارف مدينة جيرُفت وهي عاصمة كرمان وقد اجتمع فيها سائر الخوارج مع إمامهم قَطَريّ بن الفجاءة وقادتهم، ومعهم من العجم عدد كبير. ووقع اختلاف بين قطري وبعض قادته في مدينة جيرفت، فبايع ناسٌ منهم عبدَ ربِّه الصغير، فَنَشَبت الحرب بينهم، فانحاز إلى عبد ربه الصغير أكثر من النصف وجُلُّهُمْ من الموالي والعجم ـ لأنه من الموالي ـ وحمل فتى من العرب على صالح بن مخراق فطعنه فقتله، وأجْلَتْ الحرب بينهم عن ألفيّ قتيل. وتقاتلوا في اليوم الثاني «فلم ينتصف النهار حتى أَخرجت العجمُ العربَ من المدينة، وأقام عبد ربه والعجم بها، فَخَنْدَق قَطَريّ على باب المدينة وأخذ يناوشهم، وكان المهلّب منهم على مسيرة ليلة، ثم دَسَّ المهلّب رجلاً من أصحابه، فقال: إيت عسكر قطريّ فَقُل إنّي لم أزل أرى قطرياً يُصيبُ الرأيَ حتى نزل منزله هذا، فبان خطؤه، أنقيم بين المهلب وعبد ربه، يغادينا هذا القتالَ ويُراوِحُنَا هذا. فَنَما الكلام إلى قطرِيٍّ فقال: صدق، تَنَحُّوا بنا عن هذا الموضع، فإن اتّبعنا المهلب قاتلناه وإن أقام على عبد ربه رأيتم فيه ما تحبون. فقال له الصَّلْتُ بن مُرَّة: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد اللّه فاحمل على القوم، وإن كنت تريد الدنيا فَاعْلِمْ أصحابك حتى يستأمنوا. ثم قال: أصبح المهلّب يرجو منّا ما كنا نطمع فيه منه. فارتحل قَطري من جيرفت، فبلغ ذلك المهلب.. فسار حتى نزل خَنْدق قطري، فجعل يقاتل الذين بجيرفت أحياناً بالغداة وأحياناً بالعشي، وفي ذلك قال المُعْنِقُ السدوسي الطائي:

ليت الحرائر بالعراق شَهِدْنَنا ورأيْنَنا بالسَفْحِ ذي الأَجْبال

فنكحن أهلَ الجُزْءِ من فُرْسانِنا والضاربين جماجم الأبطال

ووَجَّه المهلّب ابنه يزيد إلى الحجاج يخبره أنه قد نزل منزل قطري ـ بباب جيرفت ـ فسَرَّ ذلك الحجاج سروراً أظهره. ولم يزل المهلّب والخوارج العجم بجيرفت يَتَغادَوْنَ القتال ويتراوحون.. ولما اشتد الحِصارُ على عبد ربه، قال لأصحابه: انتقلوا عن منزلكم هذا.. فلما كان العشيُّ خرجوا ـ من جيرفت ـ وقد حملوا أموالهم وخِفَّ متاعهم لينتقلوا.. فقال المهلّب للناس: رُدُّوهم عن وِجْهتهم، وقال لبنيه تفرقوا في الناس. فكان يزيد على فرقة من الناس والمغيرة على فرقة من الناس، فقاتلوا الخوارج قتالاً شديداً حتى عُقِرَت الدواب وصُرع الفرسان، وقُتِلَت رجال، فجعلت الخوارج تقاتلُ على القدَح يؤخذ منها والسوط والعِلْقِ الخسيس أشد قتال. وسقط رمح لرجل من الخوارج فقاتلوا عليه حتى كثر الجِراحُ والقتل.. فبعث المهلّب إلى المغيرة: خَلِّ عن الرمح عليهم، فخلوا لهم عنه، ثم مضت الخوارج حتى نزلوا على بُعد أربعة فراسخ من جيرفت. ودخل المهلّب جيرفت، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع وما خلفوه، وخَتَم عليه).

وسار المهلب من جيرفت إلى حيث تَجَمّع الخوارج ـ على بُعد أربعة فراسخ من جيرفت، فوقعت معركة حاسمة سقط فيها عبد ربه قتيلاً، وانجلت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح من الخوارج، وأمر المهلّبُ بأن يُدْفَعَ كلُّ جريح إلى عشيرته، وظَفِرَ بعسكرهم فَحَوى ما فيه، واستأمن قوم فأمّنَهم. ثم عاد المهلّب إلى مدينة جِيرُفْت، ورفرفت رايات دولة الخلافة العربية الإسلامية في سائر أرجاء إقليم كرمان ومكران إلى داخل السند شرقاً وسجستان شمالاً، كما رفرفت في أرجاء إقليم فارس وإقليم الأهواز وغيرهما من آفاق إيران الممتدة.

إن ما قام به الأمير المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي في الأهواز وفارس وكرمان وسجستان في تلك الفترة (سنة ٧٤ ـ ٧٨هـ) يُضاهي ما قام به الأمير اليماني حسان بن النعمان الغساني في بلاد المغرب العربي التي كان سلطان دولة الخلافة قد انحسر عنها وباتت تونس والقيروان والمغرب الأدنى والأوسط تحت حكم وسيطرة البربر المتحالفين مع الروم (ما بين سنة ٦٩ ـ ٧٤هـ) فانطلق حسان بن النعمان بالجيش العربي الإسلامي من برقة ـ في ليبيا ـ إلى تونس والقيروان ـ سنة ٧٤هـ ـ وخاض جهاداً مجيداً فأعاد سلطة دولة الخلافة في تونس والقيروان ثم في الأوراس والمغرب الأدنى ـ الجزائر ـ (سنة ٧٨هـ) حتى المغرب الأوسط فدخل البربر في دين اللّه أفواجاً، وذلك في ذات الفترة التي أعاد فيها المهلّب سلطة دولة الخلافة العربية الإسلامية في ربوع الأهواز وفارس وكرمان وسجستان بالمشرق، فوقف الشاعر كعب بن معدان الأشقري بين يدي المهلّب في قصر الإمارة بكرمان، وألقى قصيدة أثنى فيها على المهلّب ومدحه وسَجَّل معاركه وانتصاراته، وقد ذكر ابن جرير الطبري

في تاريخ الأمم والملوك قصيدة كعب بن معدان وهي ٨٣ بيتاً، أولها:

يا حَفْصَ إنّي عَدَاني عنكُم السَفَرُ (وقد أرقتُ فآذى عَيْنيَ السهرُ)

ومنها قوله:

لولا المُهَلّبُ للجيش الذي وَرَدَوا أنهار كَرْمان ـ بعد اللّه ـ ما صَدَروا
. . لولا المهلّبُ ما زُرْنا بلادَهمُ ما دامت الأرضُ فيها الماءُ والشجرُ
. . صُلْتُ الجبين، طويلُ الباع، ذوفرح، ضَخْمُ الدَّسيعة، لا وانٍ، ولا غُمُرُ
. . يا وَاهِبَ القَيْنَةِ الحسناءِ سُنَّتها كالشمس هِرْكولةً في طَرْفِها فَترُ
نَماكَ للمجدِ أملاكُ وَرِثْتَهُمُ شُمُّ العرانين في أخلاقهم يَسَرُ[١]

* * *

وكَتَبَ وبَعث المُهلَّب إلى الحجاج مكتوباً بنبأ النصر، قال أبو العباس المبرِّد: «وكان كتاب المهلب إلى الحجاج: بسم اللّه الرحمٰن الرحيم، الحمد للّه الكافي بالإسلام فَقْدَ ما سواه، الذي حكم بأن لا ينقطع المَزيدُ منه حتى ينقطعَ الشكرُ من عباده. أما بعد: فقد كان من أمرنا ما قد بلغك، وكنّا نحن وعدوّنا على حالين مختلفين، يسرُّنا منهم أكثر مما يسؤنا، ويسوءهم منا أكثرُ مما يسرهم على اشتداد شوكتهم، فقد كان عَلَنَ أَمرُهم حتى ارتاعتْ له الفتاةُ ونُوِّمَ به الرضِيعُ، فانتهزتُ منهم الفُرْصَة في وقت إمكانها، وأدنيتُ السواد حتى تعارفت الوجوهُ، فلم نزل كذلك حتى بَلَغ الكتاب أجَلَهُ فَقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا، والحمد للّه رب العالمين»[٢] .

ولم يذكر المهلّب في أول المكتوب أنه إلى الحجاج، لأنه كان يعلم بأن الحجاج سيبعثه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق، فيتم قراءته في دمشق على الناس كما قرئ في العراق.

وبعث المهلّب مكتوبه إلى الحجاج مع الخطيب مُرَّةَ بن تَليد الأزدي والشاعر كعب بن معدان. قال الجاحظ في باب (. . الخطباء والعلماء من قحطان: . . ومنهم: مُرَّة بن فَهْم التَّليدُ، وهو الخطيب الذي أوفده المهلّب إلى الحجاج»[٣]، وقال أبو العباس المبرِّد: «وَجَّه المهلّب كَعْبَ بن مَعْدانَ الأَشْقَرِيَّ ومُرةَ بن تَليد الأزْدِيَّ من أزْدِ شنوءةَ فوفدا على الحجاج». وقال أبو علي القالي في كتاب الأمالي:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٧٠ ـ ٤٧٤ جـ٧ ـ والأغاني ـ للأصفهاني ـ ص٥٥ ـ ٥٦ جـ١٣.
(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٩٥ جـ٢.
(٣) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٣٥٨ جـ١.

«حدثنا أبو بكر بن دريد قال: حدّثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عبّاد قال: أوْفَدَ المُهَلَّبُ كعبَ بن معدان الأشقريّ حين هَزَمَ عَبْدَ ربه الأصغرَ وأَجْلَى قَطِرياً حتى أخرجه من كرمان نحو أرض خراسان.

فقال له الحجاج: كيف كانت محاربة المهلّب للقوم؟

قال كعب: كان إذا وَجَدَ الفُرصة سار كما يُسور الليث، وإذا دَهَمَتْه الطَّحْمة راغ كما يروغ الثعلب، وإذا مادّه القوم صَبَرَ صَبْر الدهر[1].

فقال الحجاج: وكيف كان فيكم؟ (وفي رواية المبرِّد: فكيف كان لكم المهلّب وكنتم له؟).

قال كعب: كان لنا منه إشفاقُ الوالد الحَدِب، وله منّا طاعةُ الولد البرِّ.

قال الحجاج: فكيف أفلتكم قَطَرِي؟ (وفي رواية المبرِّد: قال الحجاج فكيف كنتم أنتم وعدوكم؟ قال كعب: كنّا إذا أخذنا عفونا، وإذا أخذوا يئسنا منهم، وإذا اجتهدوا اجتهدنا طمعنا فيهم. فقال الحجاج: إن العاقبة للمتقين، فكيف أفلتكم قطريُّ؟).

قال كعب: كادنا ببعض ما كِدْناه به، والأجلُ أحصن جُنَّة وأنْفَذ عُدَّة.

قال الحجاج: فكيف اتبعتم عبد ربه وتركتموه؟

قال كعب: آثرْنا الحَدَّ على الفَلِّ، وكانت سلامة الجُنْد أحبَّ إلينا من شَجَب العدو[2]. (وفي رواية المبرِّد: فصرنا من قَطَري إلى الذي نحبّ.. قال الحجاج: فكيف اغتباط الناس؟ قال: فَشَا فيهم الأمْنُ وَشمِلَهُمُ النَفَلُ).

فقال الحجاج: أكنت أعددت هذا الجواب قبل لقائي؟

قال كعب: لا يعلم الغيب إلا اللّه»[3].

قال أبو العباس المبرد: «فقال الحجاج: هكذا تكون واللّهِ الرجالُ، المهلبُ كان أَعلَمَ بكَ حيث وجَّهَكَ»[4].

ولما دخل كعب ومُرَّة إلى الحجاج عند قدومهما ـ وربما في اليوم التالي ـ «أنشده كعب:

يا حَفْصَ إني عَدَاني عنكم السفرُ (وقد سَهِرْتُ فأرْدَى نَوْمِيَ السهرُ)

---

(١) الطحمة: الجماعة الكثيرة من الناس. يريد جند العدو.

(٢) شجب العدو: هلاك العدو. وقوله: (فصرنا منه إلى الذي نحب) يعني هروب قطري إلى خراسان ثم مقتله في طبرستان سنة ٧٧هـ.

(٣) الأمالي ـ أبو علي القالي ـ ص٢٦٥ جـ١.

(٤) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٩٤ جـ٢.

فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: كلاهما. ثم أنشده القصيدة، ثم أقبل عليه فقال له: أخبرني عن بني المهلب، فقال: المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسَخِيُّهم قبيصةُ، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مَدْرِكٍ، وعبد الملك سمُّ ناقِعُ، وحبيب موتُ زُعافُ، ومحمد ليثُ غاب، وكفاك بالمفضل نَجْدةً. قال الحجاج: فكيف كان بنو المهلّب فيكم؟ قال: كانوا حُماةَ السَرْح نهاراً، فإذا أَلْيَلُوا ففُرسان البَياتِ. قال: فأيُّهم كان أنْجَدَ؟ قال كعب: كانوا كالحَلْقَةِ المُفْرَغةِ لا يُدْرَى أين طرفها»(١).

* * *

وكان من أنباء المهلّب بعد انتهاء أمر الخوارج في إقليم كرمان وانضواء كرمان تحت إمرة المهلب ـ وذلك كما ذكر الطبري وابن الأثير سنة ٧٧هـ ـ أن إمرّة المهلّب امتدت وشملت إقليم سجستان إلى كابول. وقد سلفت النصوص بأن تأمير المهلّب على حرب الخوارج وبلاد الأهواز وفارس كان مِن قِبل الخليفة عبد الملك بن مروان منذ ولاية بِشر بن مروان للعراق سنة ٧٤هـ واستمر ذلك في ولاية الحجاج للعراق، وكان أمراء بلاد وأقاليم مشارق العراق يرتبطون بوالي العراق ولكن توليتهم تكون بأوامر الخليفة ولذلك ارتبطت ولاية المهلب للأهواز وفارس وكرمان بالحجاج والي العراق ثم امتدت سنة ٧٧هـ إلى سجستان وكابول، وفي ذلك قال الطبري: «كان الحجاج ولّى المهلّب سجستان» وقال: «كان المهلّب ولِّيَ كابل وزابلستان، وجَبَاهم، وقاتلهم، وصالحهم. ثم قال المهلّب للحجاج: ألا أدلك على رجل هو أعلم مني بسجستان، قال: بَلَىٰ فمن هو؟ قال: عبيد اللّه بن أبي بكرة، فولاه الحجاج على سجستان، وولّى المهلّب على خراسان»(٢)، وقال ابن الأثير: «ولّى الحجاج عبيد اللّه بن أبي بكرة سجستان وذلك سنة ثمان وسبعين»(٣). ويتبين من مجمل تلك النصوص أن ولاية المهلّب كانت تشمل سنة ٧٧هـ وحتى أواسط سنة ٧٨هـ إقليم فارس وإقليم كرمان وإقليم سجستان إلى كابول في أفغانستان، وقد بسط ـ وأعاد ـ المهلّب سلطة دولة الخلافة العربية الإسلامية في تلك الربوع، وقد سأل الحجاجُ كعبَ بن معدان: «فكيف اغتباط الناس؟ فقال: فَشَا فيهم الأَمْنُ وشَمِلَهُمُ النَفَلُ»، وقال حبيب بن عوف للمهلّب:

أبا سعيدِ جزاك اللّهُ صالحةً ... فقد كَفَيْتَ ولم تَعْنُفْ على أحدِ

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٩٤ جـ٢.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٨٠ جـ٧.
(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٧٢ جـ٤.

داوَيت بالحلم أهلَ الجهل فانقمعوا وكنت كالوالد الحاني على الولدِ

ولم يقتصر حلم المهلّب على أهل الطاعة وإنما شمل حتى الأعداء في فترة محاربته للخوارج، قال أبو علي القالي: «قيل للمهلّب: إن فلاناً عينٌ للخوارج في عسكرك، وأنه يَتَكَفَّنْ بالسلاح إذا دُعُوا للحرب ليغتالك ويلحق بالخوارج. فبعث إليه، فأُتِيَ به فقال له: قد تَقَرَّر عندنا كَيْدُكَ لنا، ولم نُقْدم من أمرك على ما عَزَمْنا عليه إلا بعد ما لم يَدَع اليقينُ للشك مُعْتَرَضا، فاخْتَرْ أيَّ قِتْلة تحب أن أقتلك؟ فقال: سَيْفٌ مُجْهِز أو عَطْفة كريم مُحْتَقِر لِضِغْن ذوي الضغائن، قال: فإنها عطفة كريم محتقر للذنوب. فَخَلَّى سَبيله، فكان بعد ذلك من أوثق أصحابه عنده». (ص٢٦٤/ ١ ـ الأمالي).

وقال المبرِّد: «أسَرَ المفضل ومدرِك رجلاً من الأزارقة، فقال له المهلّب: ممن الرجل؟ قال: رجل من هَمْدان. فقال: إنك لشَيْنُ هَمْدان. وخَلَّى سبيله». (٢٨٠/ ٢ ـ الكامل).

ومن أنباء المهلّب في ولايته لفارس، قال أبو القالي: «حدّثنا أبو بكر بن دريد قال، حدثنا العُكْلِيّ عن أبي خالد عن الهيثم، قال: قَدِم حكيمٌ من حكماء أهل فارس على المُهلّب فقال: أصلح اللّه الأمير، ما أَشْخَصَتْني الحاجةُ، وما قَنِعْتُ بالمُقام، ولا أَرْضَى منك بالنَّصَف إذْ قمت هذا المقام، قال: وَلِمَ ذلك؟ قال: لأن الناس ثلاثة: غَنِيٌّ وفقير ومُسْتَزيد، فالغَنِيُّ من أُعْطِي ما يَسْتَحِقُّه، والفقير مَنْ مُنِع حَقَّه، والمستزيد الذي يطلب الفَضْلَ بعد الغِنى. وإنِّي نظرت في أمرك فرأيتُ أنك قد أدِّيت إليّ حقِّي فتاقتْ نفسي إلى استزادتك، فإن منعتَني فقد أنصفتَني، وإن زِدْتَني زادتْ نعمتُك عليَّ فأَعْجَبَ المهلّبَ كلامه وقضى حوائجه» (١٧٩/ ٢ ـ الأمالي).

* * *

تكريم الحَجَاج للمهلّب

فيما يبدو أنه بناءً على توجيهات الخليفة عبد الملك بن مروان، وبعد زهاء ستة أشهر من المكتوب الذي كتبه المهلّب إلى الحجاج عند انتهاء أمر الخوارج في كرمان، كَتَب الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق إلى المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي: «أما بعد، فإن اللّه عز وجل قد فعل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حَدِّ الجهاد، وكنتَ أَعلمَ بما قِبَلكَ، والحمد للّه رب العالمين، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسم في المجاهدين فَيْئَهُمْ ونَفِّلِ الناسَ[1] على قدر بلائهم، وفَضِّلْ من رأيت

(١) قال المبرِّد «قوله: نَفِّل: أي أقسم بينهم. والنفلُ العطية التي تَفْضُلُ.. وقال اللّه جل جلاله: ﴿**يسألونك عن الأنفال**﴾. ويقال: نَفَّلْتُكَ كذا وكذا، أي أعطيتك».

تفضيله، وإن كانت بقيتْ من القوم بقيةٌ فَخَلِّفْ خيلاً تقوم بإزائهم، واسْتَعْمِل على كرْمانَ مَنْ رأيتَ، ووَلِّ الخيلَ شهماً من ولدك، ولا تُرَخِّصْ لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تَقْدَمَ بهم عليّ. وعَجّلِ القُدومَ إن شاء اللّه»[(١)].

وقال ابن الأثير: «كتب الحجاج إلى المهلّب يشكره، ويأمره أن يولي كرمان من يثق إليه ويجعل فيها من يحميها، ويقدم إليه»[(٢)].

فلما ورد كتاب الحجاج إلى المهلّب قام بترتيب ما يلزم من الأمور في الأقاليم التي تحت ولايته، وكان المغيرة بن المهلب عاملاً في اصطخر بإقليم فارس، وحبيب في سجستان، قال المبرِّد: «فَوَلّى المهلَّبُ ابنه يزيد كرمان، وقال له.. أحسنْ إلى مَنْ معك، وإن أنكرتَ من إنسان شيئاً فوجِّهه إليَّ، وتَفَضَّلْ على قومك»[(١)].

وقَدِمَ المهلّب في موكبٍ مهيب إلى البصرة ـ في حوالي شهر ربيع سنة ٧٨هـ ـ واستقبله أهل البصرة استقبالاً حافلاً، إذْ أنه كما قال الأحنف بن قيس (البَصْرةُ بصْرَةُ المهلب)، ثم سار المهلّب إلى دار الإمارة بالبصرة فاستقبله الحجاج وكبار الشخصيات، وكان الحجاج إذْ ذاك بالبصرة ـ وكانت مدينة الكوفة هي مقر الحجاج ولم تذكر الروايات سبب قدومه إلى البصرة التي كان نائبه عليها الجرّاح بن عبد اللّه الحكمي ـ قال ابن الأثير: «قَدِم المهلّب على الحجاج وهو بالبصرة فأجلسه معه على السرير»[(٢)]، والسرير هو كرسي الوالي في قصر الإمارة. وقال ابن الأثير في السياق الأول: «استعمل المهلب على كرمان يزيد ابنه، وسار إلى الحجاج، فلما قَدِم عليه أكرمه وأجلسه إلى جانبه..»[(٢)] وقال أبو العباس المبرِّد: «قَدِم المهلّب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه، وأظهر إكرامه وبرّه»[(١)] قال ابن الأثير وأبو العباس المبرِّد: «وقال الحجاج: يا أهل العراق أنتم عبيد المهلّب[(٣)] ثم قال للمهلب: أنت واللّه كما قال لَقيطُ بن يعمر الإيادِي:

وقَلِّدوا أَمركم للّه درُّكُمُ رَحْبَ الذِرَاعِ بأمر الحَرْبِ مُضْطَلِعا[(٤)]

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرّد ـ ص٢٩٥ ـ ٢٩٦ جـ٢.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٦٧ و ٧١ جـ٤.
(٣) أراد الحجاج بقوله (يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب) استفزاز وتحقير أهل العراق وكان أشراف ووجهاء العراق في المجلس، وقد قال المهلب (استغفر اللّه) وربما أراد الحجاج أن يأتي بعبارة أقوى من قول الأحنف (بصرة المهلب) فأتى بعبارة غير لائقة.
(٤) قال المبرّد «قول الأيادي: رَحْبَ الذراع، فالرحب الواسع، وإنما هذا مثلٌ يريد واسع الصدر، متباعدَ ما بين المنكبين والذراعين. وليس المعنى على تَباعُدِ الخَلْق، ولكن على سهولة الأمر عليه، قال الشاعر:

رحيبُ الذراعِ بالتي لا تَشينُهُ وإن قيلَتِ العَوْراءُ ضاق بها ذَرْعا

لا يَطْعَمُ النومَ إلا رَيْثَ يبعثُه هَمٌّ يكاد حَشاهُ يَقْصِمُ الضِلَعا(١)
لا مُتْرَفاً إنْ رَخاءُ العيش ساعَدَهُ ولا إذا عَضَّ مكروهٌ له خَشَعَا
ما زال يَحْلُبُ هذا الدهرَ أَشْطُرَهُ يكون مُتَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعَا(٢)
حتى استمرّتْ على شَزْرٍ مَريرتُهُ مُسْتَحْكِم الرأي لا قَحْماً ولا ضَرَعا(٣)

قال المبرِّد: «فقام رجلٌ فقال للحجاج: أصلح اللّهُ الأمير، واللّه لكأني أسمع الساعة قَطَرياً وهو يقول: المهلّبُ كما قال لقيط الأيادي، ثم أنشد هذا الشعر. فَسُرَّ الحجاج حتى امتلأ سروراً.

وقال المهلب: إنّا واللّه ما كنا أَشدَّ على عدونا ولا أَحَدَّ، ولكن دَمَغَ الحقُّ الباطلَ وقهرت الجماعةُ الفتنةَ، والعاقبةُ للتقوى، وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أَحببناه من العَجَلةِ. فقال له الحجاج: صدقتَ».

* * *

وفي اليوم التالي جرى الحديث بين المهلّب والحجاج عن الذين أَبْلَوْا بَلاءً حَسناً في حروب الأهواز وفارس وكرمان لتكريمهم بالعطاء، قال أبو العباس المبرد: «فقال له الحجاج: اذكر لي القوم الذين أَبْلَوْا وصِفْ لي بَلاءهُمْ. فأمر المهلّبُ ناساً ـ من أصحابه ـ فكتبوا ذلك للحجاج، فقال لهم المهلّب: ما ذَخَر اللّهُ لكم من عاجل الدنيا إن شاء اللّه.

ثم ذَكَرَهُم ـ المهلب ـ للحجاج على مراتبهم في البَلاء وتَفاضُلِهِمْ في الغَناء، وقَدَّمَ بَنيه المُغيرةَ ويَزيدَ ومُدْركاً وحبيباً وقَبيصةَ والمُفَضَّلَ وعبد الملك ومحمداً،

قال المبرِّد: «وقوله مضطلعاً إنما هو مُفْتَعِلٌ من الضَليع، وهو الشَديد، يريد أنه قويّ على أمر الحرب مستقل بها.

(١) قال المبرِّد: (قوله: لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هَمُّ: فَرَيْثُ وعوضُ مما يُضاف إلى الأفعال. وتأويله أنه لا يطعَمُ النوم إلا يسيراً حتى يبعثه هَمٌّ».

(٢) ما زال يحلب هذا الدهر أشطره: يريد له تجربة وخبرة نصف هذا الدهر. قال المبرِّد: «وقوله: يكون متبعاً طوراً ومتَبعاً، أي قد اتَّبَعَ الناس، فعلم ما يُصْلِحُ الرئيس، كما قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: قد أُلنا وإيل علينا، أي قد أَصْلحنا أمور الناس وأصلحت أمورنا».

(٣) وقوله: «على شَزْرِ مريرته فهذا مَثَلٌ، يقال: شزرت الحبل، إذا كررت فتله بعد استحكامه راجعاً عليه، والمريرة: الحبل.
والضَرَع: الصغير الضعيف. والقحم: آخِر سن الشيخ. قال العجاج:
رأَيـنَ قـحـمـاً شَـابَ واقْـلَـحَـمَّـا طـال عـلـيـه الـدهـرُ فـاسْـلَـهَـمَّ
والمُقْلَحِمُّ: مثل القحم، وهو الجاف. ويقال للصبي مقلحم إذا كان سيىء الغذاء. والمسلهم: الضامر» ـ «٢/٢٩٧ ـ الكامل).

وقال: واللّه لو تقدمهم أحد في البلاء لَقَدَّمْتُهُ عليهم، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم. فقال الحجاج: صدقتَ وما أنتَ بأعلم بهم مني، وإن حضرتَ وغِبْتُ. إنهم لسُيوفٌ من سُيوف اللّه.

ثم ذكر مَعْنَ بن المُغيرة بن أبي صُفْرةَ، والرُقاد، وأشباههما، فقال الحجاج: أين الرُقاد؟ فدخل رجل طويلُ أجْنَأُ، فقال المهلّبُ: هذا فارس العرب. فقال الرُقادُ للحجاج: أيها الأمير، إني كنتُ أقاتل مع غير المهلّب فكنتُ كبعض الناس، فلما صِرتُ مع مَنْ يُلْزِمُني الصبرَ ويجعلُني إسوةَ نفسه وولده ويجازيني على البَلاء، صرتُ أنا وأصحابي فُرْساناً.

فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم. وزاد ولد المهلَّب ألفين (درهم أو دينار لكل منهم) وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك» ـ منهم مَعْن بن المغيرة، فأثناء مواجهةٍ مع أعدائهم في كرمان قال المهلّب لأبي علقمة العبدي: أمدد بخيل اليَحْمَدِ وقل لهم: فليعيرونا جماجمهم ساعة، فقال له: إن جماجمهم ليست بفَخّار فتُعارَ، وليست أعناقهم كَرادِي فتنبت (يقال لأعذاق النخل كَرادٍ)، فقال المهلب لحبيب بن أوس: كُرَّ على القوم، فلم يفعل، وكان شاعراً فقال:

يقول لِيَ الأميرُ بغير علم ... تَقَدَّم حين جَدَّ به المِراسُ
فما لي إن أطعتُكَ من حياةٍ ... وما لِيَ غير هذا الراسِ رَاسُ

فقال المهلب لمَعْنِ بن المغيرة بن أبي صُفرة: احْمِلْ. فقال: لا، إلا أن تزوجني أم مالك ـ وهي بنت المهلب ـ، فوعده بالزواج منها، فحمل مَعْن على العدو فطعن فيهم وكشفهم، وقال:

يَحُثُّ مَنْ يَشتري الغَدَاةَ بمال ... هُلْكُهُ اليومَ عندنا ألوانا
نَصِلُ الكَرَّ عند ذاك بطَعْنٍ ... إن للموت عندنا ألوانا

فلما تم النصر زَوّجَهُ المهلّب بابنته.

ومنهم أخوه بِشر بن المغيرة، ذكره الجاحظ في باب (الخطباء من قحطان) فقال: «ومن العتيك: بِشْر بن المغيرة بن أبي صُفرة» وقال المبرِّد: «كان بِشْر أبْلَى يومئذ (في فارس) بلاء حسناً عُرِف مكانُهُ فيه، وكانت بينه وبين بني المهلّب جَفْوةٌ، فقال لهم: يا بني عمِّي..» ثم ذكر المبرد مقالة بشر، وقد ذكرها الجاحظ قائلاً بعد الفقرة السالفة «وهو الذي قال لبني المهلّب: يا بني عمِّي، إنّي واللّه قد قصّرت عن شَكاة العاتب، وجاوزت شكاة المستعتب، حتّى كأنِّي لست موصولاً ولا محروماً، فعُدُّوني إمرأً خفتم لسانَه، أو رجوتم شُكرَه..» قال المبرِّد: «فرجعوا له ووصلوه

وكلموا فيه المهلب فوصله» ثم كان بشر، ومَعْن، وأخوهما البختري من الذين كوفئوا بما يماثل مكافأة أولاد المهلب، وقد كوفئ الكثير من القادة والفرسان، قال الطبري: «أخذ الحجاج لا يذكر له المهلب رجلاً من أصحابه ببلاء حسن إلا صدّقه الحجاج بذلك، فحملهم الحجاج وأحسن عطاياهم وزاد في أعطياتهم ثم قال: هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال، هؤلاء حُماة الثغور وغيظ الأعداء». (ص٢٨٠/٧) وغني عن البيان أن تكريم الحجاج للمهلب وأبناء المهلب وذوي البلاء الحسن من قادته وفرسانه يتنافى مع طبائع الحجاج مما يتيح إدراك أن ذلك كان بتوجيهات الخليفة عبد الملك بن مروان.

* * *

وفي لقاء آخر بين المهلب والحجاج، جرى بحث الأوضاع في منطقتين إحداهما: المنطقة التي كان المهلّب أميرها وهي إقليم كرمان وإقليم سجستان ومنطقة اصطخر بفارس. والأخرى: منطقة خراسان وآسيا الوسطى التي كان المهلب من الأمراء القادة السابقين فيها (سنة ٤٧ ـ ٦٤هـ) وكان من نتائج ذلك التباحث ما أشار إليه الطبري ـ في أنباء سنة ٧٨هـ ـ قائلاً: «كان الحجاج ولّى المهلّب سجستان» وقوله: «كان المهلّب ولّيّ كابل وزابلستان، وجباهم، وقاتلهم، وصالحهم. ثم قال المهلب للحجاج: ألا أدُلُّكَ على رجل هو أعلم مني بسجستان؟ قال: بَلَىٰ، فَمَنْ هو؟ قال: عبيد اللّه بن أبي بكرة. فولاه الحجاج على سجستان، وولّى المهلب على خراسان». وقال ابن الأثير ـ في أنباء سنة ٧٨هـ ـ «وفي هذه السنة عزل عبد الملك بن مروان أُمية بن عبد اللّه بن خالد بن أسِيد عن خراسان. وسجستان. وضمهما إلى أعمال الحجاج بن يوسف.. فولّى المهلّب بن أبي صفرة على خراسان.. وبعث عبيد اللّه بن أبي بكرة على سجستان ـ سنة ٧٨هـ ـ ولما استعمل الحجاجُ المهلّب على خراسان سيّر ابنه حبيباً إليها، فلما ودع ـ حبيبُ ـ الحجاجَ أعطاه بغلة خضراء فسار عليها وأصحابه على البريد (دواب البريد) فسار عشرين يوماً حتى وصل إلى خراسان، فلما دخل باب مرو لقيه حمل حطب فنفرت البغلة فعجبوا من نفارها بعد ذلك التعب وشدة السير، فلما وصل ـ حبيب ـ خراسان لم يَعْرِض لأمية ولا لعماله، وأقام عشرة أشهر حتى قدم عليه المهلب سنة تسع وسبعين»[١].

مكوث المهلب بالبصرة إلى أوائل سنة ٧٩هـ

لم يبادر المهلب بالمسير إلى ولاية خراسان حين أبلغه الحجاج بتوليته عليها ـ في حوالي شهر ربيع سنة ٧٨هـ ـ فقد غاب عن البصرة منذ سنوات في البلدان التي

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٧١ جـ٤.

جاهد فيها والأقاليم التي تولاها، فقرر المكوث في البصرة إلى ما بعد موسم الحج أو عيد الأضحى ـ فيما يبدو ـ فإذا أطال اللّه عمره إلى ما بعد ذلك سيتوجه إلى خُراسان. ولذلك فإنه بالرغم من أن الخليفة عبد الملك بن مروان عَزَلَ أُمية بن عبد اللّه عن خراسان واستقر الرأي على أن يتولاها المهلّب فولّاه الحجاج عليها، وأقرّ الحجاج مسير حبيب بن المهلب بالنيابة عن أبيه، إلا أن أُمية بن عبد اللّه استمر في خراسان. قال الطبري: «ولّى الحجاجُ المهلبَ على خراسان، وَوَجَّه المهلب ابنه حبيباً على مقدمته، فأتى الحجاج فودعه فأمر الحجاج له بعشرة آلاف وبغلة خضراء، فسار حبيب على تلك البغلة حتى قدم خراسان هو وأصحابه على البريد فسار عشرين يوماً، فتلقاهم حين دخلوا ـ مرو ـ حملُ حطب فنفرت البغلة فتعجبوا منها ومِنْ نفارها بعد ذلك التعب وشدة السير. فلم يَعَرّض ـ حبيبُ ـ لأُمية ولا لعماله وأقام عشرة أشهر حتى قَدِم عليه المهلّب سنة ٧٩هـ»(١) فأقام حبيب بن المهلب في مرو (مرو الروذ) بخراسان بينما استمر يزيد بن المهلب أميراً نائباً في كرمان والمغيرة بن المهلب في اصطخر بإقليم فارس خلال تلك الفترة التي مكث فيها المهلّب بالبصرة.

وقام المهلب بتصفية حسابات خراج بلاد الأهواز وفارس وكرمان منذ ولايته للأهواز أيام بِشر بن مروان سنة ٧١هـ حتى سنة ٧٨هـ وقَدَّم المهلب الحساب إلى الحجاج فإذا على المهلّب ألف ألف درهم. قال الطبري: «وأخذ الحجاج المهلّب بألف ألف من خراج الأهواز وكان ولاه إياها خالد بن عبد اللّه، فقال المهلّب لابنه المغيرة: إن خالداً ولّاني الأهواز وولّاك اصطخر، وقد أخذني الحجاج بألف ألف، فنصفٌ عليّ ونصف عليك. ولم يكن عند المهلّب مال.. فكَلّم أبا ماويّة مولى عبد اللّه بن عامر، فأسلف المهلب ثلاثمائة ألف، فقالت خَيْرَةُ القشيْرية امرأة المهلّب: هذا لا يفي بما عليك، فباعت حليّاً لها ومتاعاً فأكمل خمسمائة ألف، وحمل المغيرة إلى أبيه خمسمائة ألف، فحملها إلى الحجاج»(١)، ولكن هذه الرواية مؤداها أن المغيرة كان والياً لاصطخر بإقليم فارس من أيام ولاية خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسِيد للبصرة وذلك غير صحيح، فقد كانت اصطخر وبقية إقليم فارس بيد الخوارج وأميرهم قطريّ بن فجاءة إلى أن نفاهم المهلّب منها سنة ٧٦هـ ـ في ولاية الحجاج للعراق ـ فولّى الحجاج على خراج فارس رجلاً يُقال له كَرْدَم. قال أبو العباس المبرد: «وَلّى الحجاجُ كَرْدَماً فارس، فوجهه الحجاج إليها والحرب قائمة، فقال رجل من أصحاب المهلّب:

ولـــو رآهـــا كَـــرْدَمٌ لـكَـــرْدَمـــا كَرْدمة العَيْر أَحَسَّ الضَيْغَما(٢)

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٨١ جـ٧.

(٢) قال المبرد: «الضيغم: الأسد. والكردمة: النفور».

فكتب المهلّبُ إلى الحجاج يسأله أن يتجافى له عن اصْطَخْرَ ودَرَابِجَرْدَ لأرزاق الجند. ففعل. وكان قَطَرِيٌّ هَدم مدينة اصطخر؛ لأن أَهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره.. فَوَاقَعه المهلّبُ فهزمه ونفاه إلى كرمان ـ سنة ٧٧هـ ـ وقال المهلّب للمغيرة: اكفني جِبايةَ خراج هاتين الكُورَتَيْنِ ـ اصطخر ودَرَابِجَرْدَ ـ وضم إليه الرُّقادَ»[١] فتولية المغيرة على اصطخر كانت آنذاك مما يدل على أن الرواية التي ذكرها الطبري فيها كلام غير صحيح، ولعل أصلها أن المهلّب قَدَّم للحجاج حسابات فترة ولايته وأن المتبقى لبيت المال ألف ألف درهم، منها خمسمائة ألف من خراج الأهواز وكرمان وخمسمائة ألف من خراج اصطخر وفارس، ولم يكن ذلك المال بحوزته ـ لأن الأموال هناك ـ نصفها في بيت مال اصطخر عند المغيرة ونصفها عند يزيد في كرمان، فكتب إليهما «قد طالبني الحجاج بألف ألف، فنصفٌ عليَّ ونصفُ عليك». وكان مع المهلب ما يوازي نصف المبلغ واقترض ثلاثمائة ألف، وباعت زوجته حليّاً لها فأكمل خمسمائة ألف، وما لبث أن بعث إليه المغيرة بخمسمائة ألف، فحمل إلى الحجاج ألف ألف درهم، وأعاد القرض الذي اقترضه واستعاد حليّ ومتاع زوجته، وبعث إليه يزيد بمبلغ الخمسمائة ألف درهم الذي قام بتقديمه من عنده، وكان المهلّب جواداً كريماً، مدحه وأثنى عليه كثير من الشعراء، وفيه قال المُغيرة بن حَبْناء الحنظلي:

إنّ المهلّب إنْ أشْتَقْ لرؤيته ... أو أَمْتَدِحْهُ فإن الناس قد علِموا
أنَّ الأَريبَ الذي تُرْجَى نوافِلُهُ ... والمُسْتعانَ الذي تُجْلَى به الظُلَمُ
القائلُ الفاعلُ الميمونُ طائرُهُ ... أبو سَعيدٍ إذا ما عُدَّتِ النِعَمُ

قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: «قال المهلّبُ: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه. وقال بُكَيرُ بن الأخنس:

نَزلتُ على آل المُهلَّب شاتياً ... (فقيراً بعيدَ الدارِ في سَنَةٍ مَحْلِ)[٢]
فما زالَ بي إلطافُهم وافتقادُهم ... وإكرامُهم حتى حَسِبتُهُم أهلي[٣]

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٨٣ جـ٢.

(٢) جاء في الهامش: البيتان نقلهما ابن خلكان في ترجمة المهلب بن أبي صفرة.. ورواية ابن خلكان (بعيداً عن الأوطان في الزمن المحل) وفي الحماسة: (غريباً عن الأوطان في زمن محل) وابن قتيبة: (بعيداً قصي الدار في زمن محل).

(٣) جاء في الهامش: الإلطاف: الإتحاف. والافتقاد والفقد: طلب الشيء عند غيبته، ويعني: كثرة سؤالهم عنه واهتمامهم بأمره. ورواية الحماسة (فما زال بي إكرامهم واقتفاؤهم وإلطافهم) وفي الوفيات: (فما زال بي معروفهم وافتقادهم وبرهم).

وقال في كلمةٍ له أخرى:

وقد كنت شيخاً ذا تجارِبَ جمَّةٍ   فأصبحتُ فِيهمْ كالصبيِّ المُدلَّلِ

وقالوا في المهالبة (والقائل هو الفرزدق):

إنّ المَهالِبةَ الكِرامَ تحمَّلوا   دَفْعَ المكارِهِ عن ذَوِي المكرُوهِ

زانوا قدِيمَهُم بحُسنِ حَديثِهم   وكَرِيمَ أخلاقٍ بحُسن وجُوهِ»[١]

وجاء في هامش البيتين «المهالبة: جَمْعُ مهلبي، نسبة إلى المهلب بن أبي صُفرة، فالتاء فيه للدلالة على أن واحده منسوب، وذلك أنهم حين أرادوا أن يجمعوا المنسوب جمع تكسير اضطروا إلى حذف ياء النسب، لأن ياء النسب والجمع لا يجتمعان فأتى التاء بدلاً من ياء النسب.. فمنهم: يزيد بن المهلب، وقبيصة بن المهلب، والمغيرة بن المهلب، ويزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، وروح بن يزيد بن حاتم. ومنهم الوزير المهلبي، وهو الحسن بن محمد بن هارون بن إبراهيم بن عبد اللّه بن يزيد بن حاتم بن قبيصة، المتوفى سنة ٣٥٢هـ. قال ابن قتيبة: ويقال إنه وقع على الأرض من صلب المهلب ثلاثمائة ولد»[١].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أولاد المهلّب بأنهم (المغيرة، ويزيد، وزياد، والمفضل، وحبيب، ومدرك، وقبيصة، ومحمد، وهند، وفاطمة)[٢]، وكذلك من أولاد المهلب (عبد الملك، وعيينة، ومروان)، وكان المهلب يُكنى أبا سعيد مما يدل على أن ابنه الأكبر سعيد، ومات سعيد ـ قبل سنة ٦٥هـ غالباً ـ وكان المغيرة من القادة الأمراء منذ سنة ٦٥هـ فقد ولّاه مصعب بن الزبير على الأهواز وفارس سنة ٦٧هـ وكتب إليه: «إنك إن لم تكن كأَبيك، فإنك كافٍ لما وَلّيْتُكَ، فَشَمِّر واتَّزِرْ وجِدَّ واجتهد». وكان أبناء المهلب العشرة ـ أو ثمانية منهم ـ من القادة الفرسان في حروب المهلّب بالأهواز وفارس وكرمان وزابلستان (سنة ٧١ ـ ٧٧هـ) وقد تقدم قول كعب بن معدان الأشقري للحجاج واصفاً إياهم: «المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى يزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وَسخِيُّهم قبيصة، ولا يستحي الشجاع أن يفرّ من مُدْرك، وعبدُ الملك سمُّ ناقِع، وحبيبُ موتُ زُعاف، ومحمد ليثُ غاب، وكفاك بالمفضل نَجْدة. قال الحجاج: فأيهم كان أنجد؟ فقال كعب: كانوا كالحَلْقة المُفْرغةِ لا يُدرى أين طَرَفُها».

وقال الجاحظ: «قال أبو الحسن المدائني: قَدِم عبد الرحمٰن بن سليم الكلبيّ،

(١) البيان والتبيين: الجاحظ ـ ص٢٣٢ ـ ٢٣٣ جـ٣.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٤٢ جـ٩.

على المهلَّب بن أَبي صُفرة في بعض أيامه مع الأزارقة، فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم فقال: (شَدَّ اللَّه الإسلامَ بتلاحُقِكم، فواللَّه لئن لم تكونوا أَسباطَ نُبُوءةٍ إنّكم لأسباط مَلْحَمة» (٦٦/ ٢).

وقال الحجاج بن يوسف الثقفي: «إن أبناء المهلّب سُيوفُ من سيوف اللَّه». وقد سلف نص ما ذكره أبو العباس المبرِّد عندما ذكر المهلّب للحجاج القادة والفرسان الذين أبْلَوْا بلاءً حسناً في الجهاد، قال المبرِّد: «فَقدَّمَ المهلّب بَنيه المغيرة ويَزيدَ ومُدْركاً وحَبيباً وقَبيصةَ والمُفَضَّل وعبد الملك ومحمداً، وقال: واللَّه لو تقدمهم أحد في البلاء لَقَدَّمْتُهُ عليهم، ولولا أن أَظلمهم لأَخَّرتهم. فقال الحجاج: صدقتَ وما أنتَ بأعلم بهم مني، وإن حضرتَ وغِبْتُ. إنهم لسُيوفٌ من سُيوف اللَّه».

وقد عَيَّنَ الحجاجُ عبد الملك بن المهلّب قائداً لشرطته وحرسه الخاص، فكان عبد الملك هو قائد شرطة وحرس الحجاج أمير العراق ومشارقها ما بين سنة ٧٨ ـ ٨٦هـ، وتَزَوج الحجاج هنداً بنت المهلب، وقد تكون والدة هند هي خيرة بنت ضَمْرة القشيرية.

قال الجاحظ: «قالت خَيرَة بنت ضَمْرة القشيريَّة إمرأة المهلَّب، للمهلَّب: إذا انصرفتَ من الجمعة فأحبُّ أن تمرّ بأهلي. فقال لها: إنَّ أخاك أحمق. قالت: فإنّي أحب أن تفعل. فجاء وأخوها جالسٌ وعنده جماعةٌ، فلم يوسِّع له، فجلس المهلَّب ناحيةً ثم قال له: ما فعل ابنُ عمِّك فلان؟ قال: حاضر، فقال: أرسلْ إليه. ففعل، فلما ـ أتى ـ نظر إليه غيرَ مرفوع المجلس فقال: يا ابن اللَّخناء؛ المهلب جالسٌ ناحيةً وأنت جالسٌ في صدر المجلس!؟ وواثبه. فتركه المهلَّبُ وانصرف، فقالت له خَيرة: أمررتَ بأهلي؟ قال: نعمْ، وتركتُ أخاك الأحمقَ يُضرب». (ص٧ جـ٤).

وفي أواخر سنة ٧٨هـ قَدِم المغيرة بن المهلب ويزيد بن المهلب إلى أبيهما بالبصرة فاجتمع عنده جميع أولاده ـ وقد تكون تلك هي مناسبة الحكمة البليغة التي ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين وهي:

«قال المهلّبُ لبنيه: يا بَنِيَّ تباذَلُوا تَحَابُّوا؛ فإنّ بني الأمِّ يختلفون، فكيف بنو العَلّات[١] إنَّ البِرَّ يَنْسأ في الأجَل، ويزيد في العدد، وإن القطيعة تُورِثُ القلّة، وتُعْقِب النّار بعد الذِّلَّة.

واتّقوا زَلّة اللسان؛ فإنَّ الرّجُل تزلُّ رِجله فينتعش، ويزلُّ لسانُه فيهلِك[٢].

---

(١) بنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى. والعلة: الضُرة.
(٢) انتعش العاثر: نهض من عثرته.

وعليكم في الحرب بالمكيدة؛ فإنّها أبلغ من النَّجدة؛ فإنَّ القتالَ إذا وَقَعَ وقع القضاء، فإن ظَفِر فقد سَعِد، وإن ظُفِر به لم يقولوا فرّط». (١٨٩/ ٢).

ولما تهيأ المهلّب للمسير إلى خراسان، بَعَثَ ابنيه المغيرة ويزيد إلى الحَجّاج بالكوفة، وكانت الوساوس تنتاب الحجاج، فقد ذكر الجاحظ في باب (الموسوسين) أنه «كان المغيرة بن المهلّب ممروراً، وكان عند الحجاج يوماً فهاجت به مرَّته، فقال له الحجاج: ادخُل المتوضّأ. وأَمَر مَن يقيم عنده حتّى يتقيّأ ويُفيق». (ص٨ جـ٤).

وقد سلف ذكر النصوص التاريخية بأنه في سنة ٧٨هـ «ولّى الحجاجُ المهلّب على خراسان. . فَسيّر ابنه حبيباً إليها. . فسار عشرين يوماً حتى وصل مرو خراسان. . ولم يَعْرِض لأمية بن عبد اللّه وعماله حتى قدم عليه المهلب سنة ٧٩هـ» وجاء في ترجمة المهلب بكتاب الجامع أنه: «ولاهُ عبد الملك بن مروان على خراسان، فقَدِمها سنة ٧٩ هجرية»[١] ويستفاد من ذلك وصول مكتوب من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أوائل سنة ٧٩ هـ بشأن تولية المهلب على خراسان ومسيره إليها، وعلى ضوء ذلك، وبعد عودة المغيرة ويزيد من عند الحَجَّاج بالكوفة انطلق المهلب إلى خراسان.

* * *

رابعاً: ولاية المهلّب على خراسان ومعالم عهده (٧٩ ـ ٨٢هـ)

في حوالي شهر محرم سنة ٧٩هـ انطلق موكب المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي من مدينة البصرة قاصداً خراسان وعلى ميمنته المغيرة بن المهلب وعلى ميسرته يزيد بن المهلب ومعه كوكبة من الفرسان فسار موكب المهلّب عشرين يوماً، إذْ أنه «كان طريق المسلمين إلى خراسان: من فارس إلى كرمان ثم مرو خراسان»، فوصل المهلب إلى مرو (مرو الروذ) التي كان حبيب بن المهلب فيها منذ عشرة أشهر (وذلك من حوالي شهر ربيع سنة ٧٨هـ إلى محرم ٧٩هـ) ولا بد أن المهلّب استمع إلى شرح مُفصل من حبيب عن الوضع في بلاد خراسان، ولم يكن المهلب جديداً على خُراسان فقد مضى فيها مرحلة سابقة من حياته امتدت من سنة ٤٧ ـ ٦٤هـ ولم يكن المهلب والياً على خراسان في تلك المرحلة ولكنه كان من كبار القادة الأمراء، ومما هو جدير بالذكر هنا ما يلي:

* ـ يتكون اسم خراسان من كلمتين بلغة أهل تلك البلاد وهما (خُر) ومعناها (شمس) ثم (اسان) وتعني (مشرقه) فهي بلاد الشمس المشرقة، وكانت تمتد لتشمل آسيا الوسطى جميعها، فقد كانت خراسان بمدلولها الواسع القديم تشمل:

---

(١) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص٥٩٩.

أ ـ إقليم خراسان الذي في إيران حالياً، وكان يمتد من الطبسين (طباس) ـ عند تخوم كرمان ـ جنوباً إلى نيسابور ومشهد شمالاً، وفي أعالي شرق ذلك الإقليم كانت مدينة (مرو الروذ). وقد جاء في ترجمة المهلب بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: أن المهلّبَ بن أبي صفرة «ذكره الحاكم في تاريخ نيسابور في باب الصحابة الذين دخلوها». وكان ذلك في الفتوح الأولى، وكانت مدينة مرو الروذ بمثابة المدينة الرئيسية في ذلك الإقليم.

ب ـ إقليم مرو الطالقان (في جمهورية تركمنستان حالياً) وفيه كانت مدينة مرو عاصمة ولاية خراسان، ويمتد ذلك الإقليم شرقاً إلى نهر جيحون (نهر أمودريه حالياً).

جـ ـ إقليم هَرَاتْ وبَلْخ (شمال أفغانستان حالياً) وكان يمتد إلى نهر جيحون شمالاً وإلى باذغيس شرقاً.

د ـ أقاليم بلاد ما وراء النهر (ما وراء نهر جيحون) وهي خمسة أقاليم: الصُغد (السغد، وفيه بخارى وسمرقند)، وإقليم خوارزم (غرب الصغد) وإقليم الصغانيان والخُتل، وإقليم فرغانة، وإقليم الشاش. وكان يحكم ويسكن أقاليم ما وراء النهر أقوام من الترك يدينون بديانات وثنية ولهم ملوك وجيوش وشعوب من الجنس التركي ـ اليافثي.

* ـ وقبل تولية المهلب على خراسان وقدومه إليها (سنة ٧٩هـ) ـ باثني وثلاثين سنة ـ أي في عام ٤٧هـ ـ كان المهلّب قائداً لجيش الفتح العربي الإسلامي بخراسان، وذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان وولاية زياد للعراق حيث ولى الصحابي الحكم بن عمرو الغفاري على خراسان سنة ٤٧هـ. قال الحافظ ابن حجر: «لما ولّى زيادٌ الحَكَم بن عمرو خراسان، ولّى المهلّب الحرب وولّى أخاه المغيرة أمر العسكر ففتح اللّه عليهم». فكان المهلّب هو قائد الجيش ـ أو أمير الحرب ـ في ولاية الحكم بن عمرو لخراسان سنة ٤٧ ـ ٥٠هـ ثم في ولاية الربيع بن زياد الحارثي المذحجي (٥١ ـ ٥٣هـ)، وقام الربيع بتوطين خمسين ألفاً من العرب بعائلاتهم في أقاليم خراسان التي دون نهر جيحون، مما أدى إلى ترسيخ السلطة العربية الإسلامية ونشر الإسلام في تلك الأقاليم من خراسان، أما أقاليم وبلاد ما وراء النهر فكانت دار حرب.

وكان المهلّب من كبار قادة الجيش العربي الإسلامي فعبّر نهر جيحون وغزا إقليم الصغد (السغد) في ولاية سعيد بن عثمان بن عفان لخراسان سنة ٥٦ ـ ٥٩هـ فأذعن أهل السغد وحاكمة بُخارى ـ خاتون ـ لأداء الجزية، وحاصر المسلمون سمرقند فقاد المهلب كتيبة من الفرسان وسعيد بن عثمان كتيبة من الفرسان لاقتحام سمرقند فرشقهم العدو بالنبال، قال البلاذري: «فأُصيبت عين سعيد وعين المهلّب بن

أبي صُفرة، وفشت الجراح في العدو، فلما خاف أهل سمرقند طلبوا الصلح» فتم مصالحتهم على أداء الجزية، وكذلك تم فتح الترمذ صلحاً. ولما تولى الخلافة يزيد بن معاوية وولّى على خراسان سَلْم بن زياد بن أبي سفيان ـ سنة ٦١هـ ـ انتخب سَلم بن زياد القادة والفرسان لغزو بلاد ما وراء النهر، قال ابن الأثير: «وكان سلم ينتخب الوجوه فخرج معه عمران بن الفضيل البرجمي والمهلّب بن أبي صُفرة، وعبد اللّه بن خازم السلمي، وطلحة بن عبد اللّه بن خلف الخزاعي.. وسار سلم وَعَبَرَ النهر، وكان عمال خراسان قبله يغزون فإذا دخل الشتاء رجعوا إلى مرو الشاهجان، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خُراسان ـ التُرك ـ بمدينة مما يلي خوارزم فيتعاقدون ويتشاورون في أمورهم، فكان المسلمون يطلبون إلى أمرائهم غزو تلك المدينة فيأبون عليهم، فلما غزا سلم بن زياد ألَحّ عليه المهلب بن أبي صُفرة وسأله التوجه إلى تلك المدينة، فَوَجَّهَه في ستة آلاف، فحاصرهم المهلب، فطلبوا أن يُصالحهم فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيف وعشرين ألف ألف (درهم) وكان في صُلحهم أن يأخذ منهم عروضاً.. فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف، فحظى بها المهلّب عند سلم» (٣٠٤/٣ ـ الكامل). وبذلك الفتح شملت طاعة السلطة الإسلامية إقليمين من بلاد ما وراء النهر هما السغد وخوارزم.

ولما بلغ سلم بن زياد بن أبي سفيان وفاة الخليفة يزيد بن معاوية ثم معاوية بن يزيد بن معاوية ـ في رجب ٦٤هـ ـ وأن الناس انقسموا في أمر الخلافة غادر سلم بن زياد خراسان بعد شهرين، قال ابن الأثير: «واستخلف سلم بن زياد على خراسان المهلّب بن أبي صُفرة. ولما صار بسرخس لقيه سليمان بن مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة من ربيعة فقال له: ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من اليمن؟ قال ابن الأثير: يعني المهلّب وكان أزدياً والأزد من اليمن. فولّى سلم بن زياد المهلب على مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان. وولّى أوس بن ثعلبة ـ من بكر بن وائل من ربيعة ـ على هَرَاة. فلما وصل إلى نيسابور لقيه عبد اللّه بن خازم السلمي ـ التميمي ـ فقال: من وليتَ خراسان؟ فقال: المهلّب وأوس بن ثعلبة، فقال: أما وجدت من تستعمله من مُضَر حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن؟ اكتب لي عهداً على خراسان، فكتب له، وأعطاه مائة ألف درهم. وسار ابن خازم إلى مرو، وبلغ المهلّب خبره، فأقبل إلى البصرة واستخلف رجلاً من تميم بمرو» (ص٣٣١/ ٣ ـ الكامل) وبذلك انتهت تلك المرحلة من تاريخ المهلب في خراسان، وشهدت خراسان صراعاً على الحكم بين العديد من الأمراء إلى أن استتب أمر الخلافة بالعراق ومشارقها لعبد الملك بن مروان، فولّى على خراسان أُمية بن عبد اللّه بن خالد بن أسِيد الأموي ثم عزله في أول سنة ٧٨هـ وجعل

ولاية خراسان مرتبطة بوالي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي فولّى عليها المهلب بن أبي صُفرة.

وكان من أسباب عزل أمية بن عبد اللّه وتولية المهلّب ما ذكره ابن الأثير في أحداث سنة ٧٧هـ من أنه «عبر أمية بن عبد اللّه نهر بلخ لغزو ـ ما وراء النهر ـ فحوصر حتى جهد هو وأصحابه ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك ورجعوا إلى مرو» (اهـ)، ومن جهة أخرى كان أمر العرب بخراسان منقسماً، فكان موسى بن عبد اللّه بن خازم السلمي متغلباً على ترمذ ونواحيها وغير مرتبط بدولة الخلافة، واحتدم الصراع بين أمية بن عبد اللّه وبين القائد بكير بن وساج التميمي وكان أمية استخلف بكيراً على مدينة مرو فتغلب عليها وأخذ ابن أمية فحبسه وخلع أُمية، فحاصر أُمية مدينة مرو، قال ابن الأثير: «فاقتتلوا قتالاً شديداً» ثم اصطلحوا على أمور، فدخل أُمية مدينة مرو وَوَفَىٰ لبكير بما اصطلحا عليه ـ وذلك في أواخر سنة ٧٧هـ ـ ثم قام أمية باعتقال بكير بن وساج مع ابن أخيه، واتهمهما بالتآمر، ثم أمر أمية بعض رؤساء من معه بقتل بكير فامتنعوا، فأمر بحير بن ورقاء الصريمي التميمي بقتله، فقتله ـ وكان هو الذي وشى به ـ وقتل أمية ابن أخي بكير.

وفي تلك الأجواء كان قدوم حبيب بن المهلّب إلى خراسان ـ في ربيع ٧٨هـ ـ فمكث بمدينة مروالروذ، ولم يتعرض لأمية بن عبد اللّه وعماله، وكانت أمية بمدينة مرو الطالقان عاصمة ولاية خراسان، فلما قَدِم المُهلّب والياً على خراسان ـ في محرم ٧٩هـ ـ غادر أُمية خراسان وتَسَلّم المهلّب مقاليد الأمور بخراسان.

وكان بين قدوم المهلب إلى خراسان وقيادته لجيشها العربي الإسلامي سنة ٤٧هـ وبين قدومه والياً عليها سنة ٧٩هـ فارق كبير، لأن المهلّب ـ في سنة ٧٩هـ ـ كان قد بلغ من الكبر عتياً، ولكن خبرته ودرايته بالأمور كانت لا تُقَدّرُ بثمن.

* * *

وقد استهلّ المهلّب عهد ولايته لخراسان بتولية الأمراء والقادة على أقاليم خراسان ـ التي دون النهر ـ وقام بضبط الأمور فيها، ومن أنباء المهلّب ذات الصلة بذلك، قال أبو علي القالي في كتاب الأمالي: «حدّثنا أبو بكر بن دريد قال، حَدّثنا السَّكَنُ بن سعيد عن محمد بن عَبَّاد قال: استعمل المُهلَّبُ يزيدَ على حرب خراسان، واستعمل المغيرةَ على خراجها، ولم يولّ البَخْتَرِيَّ بن المغيرة بن أبي صُفْرة، فكتب إليه:

اقْرَ السَّلامَ على الأميرِ وقُلْ له ... إن المُقَامَ على الهَوانِ بَلاءُ
أَصِلُ الغُدُوَّ إلى الرواحِ وإنما ... أُذْنِي وأُذنُ الأبعدينَ سَواءُ
أُجْفَى ويُدْعَى مَنْ ورائيَ جالساً ... ما بالكرامة والهَوانِ خَفَاءُ

فوجَدَ عليه المهلّبُ وألزمه منزله، فكتب إليه:

جَفانِي الأميرُ، والمغيرةُ قد جَفا، وأَمْسَى يَزِيدُ لي قد ازْوَرَّ جانِبُهْ
وكُلُّهُمُ قد نال شِبْعا لبَطْنِه، وشِبْعُ الفَتَى لُؤْمٌ إذا جاعَ صاحِبُهْ
فيا عَمِّ مهلاً واتَّخِذني لِنَوْبَةٍ تُلِمُّ فإن الدهرَ جَمٌّ نوائبُهْ
أنا السيفُ إلّا أنَّ للسيف نَبْوةً ومثْلِيَ لا تَنْبُو عَلَيْك مَضارِبُهْ

فرضي عنه وعزل المغيرة وولاه على الخراج»[١].

وقال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: «قال ثابِتُ قُطنةَ في رجلٍ كان المهلَّب ولّاه على بعض خُراسان:

ما زالَ رأيُكَ يا مُهلَّبُ فاضِلاً حتَّى بَنيتَ سُرادِقاً لوكيعِ
وجعلْتَهُ رَبًّا على أربَابِهِ ورفَعتَ عبداً كانَ غيرَ رَفيعِ
لَو رَا أبُوهُ سُرادقاً أحدثتَهُ لبَكَى وَفاضَتْ عَيْنُهُ بدُموعِ»[٢]

ووكيع هذا هو وكيع بن أبي سود، وكان من القادة الأفذاذ بخراسان وهو غير تميمي، إلا أن يكون تميميًا بالولاء، وفيه قال الفرزدق:

ومِنّا الذي سل السيوفَ وشَامَهَا عشيةَ باب القصر من فَرَغانِ
.. فيُجْزى وكيعُ بالجماعة إذْ دعا إليها بسيف صارم وبنانِ

وقال الجاحظ في (باب النَّوْكَى والحَمْقَى): «ومن النَّوكَى ابن قَنَانِ الأزدي، وضرب له المثل ابنُ ضَبٍّ العَتَكيُّ، في قوله لجُديع بن عليٍّ، خالِ يزيدَ بن المهلّب حيث يقول:

لولا المهلَّبُ يا جُدَيْعُ ورُسْلُه تغدُو عليك لكنت كابن قَنَانِ
أنت المَرَدَّدُ في الجيادِ وإنّما تأتي سُكَيتاً كلَّ يومِ رِهَانِ

والسُكَيت ـ بضم ففتح ـ: آخر خيل الحلبة»[٢]. وكان جُديع خال يزيد بن المهلّب من كبار القادة ومن رؤساء اليمانية الذين استقروا بخراسان وكرمان وهو جُديع بن سعيد بن قَبيصة بن سُراق الأزدي.

ومما حدث في ولاية المهلب لخُراسان، وبينما المهلّب في مجلسه في دار الإمارة بمدينة مرو الطالقان ـ في تركمنستان ـ كان سبعة عشر رجلاً من بني عوف من الأبناء التميميين قد تعاقدوا على قتل بحير بن ورقاء الصريمي الذي قتل بكير بن

(١) الأمالي ـ أبو علي القالي ـ ص٣١٣ جـ٢.
(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٥١ جـ٤ وص٢٤٦ جـ٢.

وساج بأمر أمية بن عبد اللّه، وكلاهما بحير وبكير تميميان، وكان بكير من بني عوف من الأبناء، قال ابن الأثير: (والأبناء عدة بطون من تميم.. فبلغ بحيراً أن رهط بكير من الأبناء يتوعدونه، فقال:

توعدني الأبناءُ جهلاً كأنما يرون فنائي مقفراً من بني كعب)

ثم إن رجلاً من بني عوف الأبناء يقال له صعصعة بن حرب العوفي أتى بحيراً فزعم أنه من بني حنيفة من أصحاب ابن أبي بكرة وأن له مالاً بسجستان وميراثاً قَدِم ليبيعه، فأنزله بحير وأمر له بنفقة، قال ابن الأثير: «فأقام صعصعة شهراً يحضرُ مع بحير باب المهلّب، فجاء يوماً وبحير عند المهلب وعليه قميص ورداء، فقعد صعصعة خلفه ودنا منه كأنّه يكلمه، فطعنه بخنجر معه في خاصرته فغيبه في جوفه ونادى يا لثارات بكير. فأُخِذَ وأُتي به المهلّب فقال له: بؤساً لك ما أدركت بثأرك وقتلت نفسك وما على بحير بأس. فقال: لقد طعنته طعنة لو قُسمت بين الناس لماتوا.. فحبسه المهلّب، فدخل عليه قوم من الأبناء فَقَبَّلُوا رأسه. ومات بحير من الغد فقال صعصعة: اصنعوا الآن ما شئتم فقد حلت نذور بني عوف وأدركت بثأري واللّه لقد أمكنني منه خالياً غير مرة فكرهتُ أن أقتله سراً. فقال المهلب: ما رأيتُ رجلاً أسخى نفساً بالموت من هذا وأمر بقتله، فَقُتِل. وقيل: إن المهلّب بعثه إلى بحير قبل أن يموت فقتله ومات بُحير بعده. وغضبت عوف والأبناء وقالوا: علامَ قُتل صاحبنا وإنما أخذ بثأره. فنازعهم بنو مقاعس والبطون ـ بقية بطون تميم ـ حتى خاف الناس أن يعظم الأمر. فقال أهل الحجي: احملوا دم صعصعة واجعلوا دم بحير ببكير، فودوا صعصعة»[1]. وتجلى بذلك حزم المهلّب، فقتل القاتل، وأرضى قومه بالدية، فسَكَنَ ورَضيَ بذلك الفريقان، فبسط المهلّب سيادة وهيبة دولة الخلافة في الأقاليم الإسلامية من بلاد خراسان وهي أقاليم ما دون النهر، في سنة ٧٩هـ، فاستتب الأمر في ربوعها، فاستخلف المهلّب بمدينة مرو المغيرة بن المهلب، ومضى إلى الجهاد والفتوحات.

غزوات وفتوح المهلّب لبلاد ما وراء النهر (٨٠ ـ ٨٢هـ)

في سنة ٨٠هـ سار المهلب بالجيش العربي الإسلامي من بَلْخ (في شمال أفغانستان) وعَبَرَ نهر جيحون غازياً بلاد ما وراء النهر (أوزبكستان وما جاورها) وقد ذكر ابن الأثير ذلك بعنوان (غزو المهلب ما وراء النهر) فقال: «وفي هذه السنة ـ وهي سنة ثمانين ـ قطع المهلّبُ نهر بَلْخ ونزل على كش، وكان على مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف، وهو في خمسة آلاف (وكذلك حبيب بن المهلب في

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٧٦ جـ٤.

أربعة آلاف، ويزيد بن المهلب في عدة آلاف) وكان أبو الأدهم يغني غناء ألفين في البأس والتدبير والنصيحة.. وأقام المهلّب بكش سنتين». قال البلاذري: «فغزا المهلّب غزوات كثيرة، غزا كشّ.. وفتح بلاد الخُتل وكانت قد انتقضت. وفَتَحَ خُجَنْدة، وأدت إليه السُغدُ الأتاوة، وغزا نَسَفْ»[١] وكان من أنباء ذلك ما يلي:

غزو وفتح بلاد كش: عبر المهلّب نهر جيحون ـ من طريق بلخ ـ فغزا وافتتح بلاد كش وهي من إقليم السغد ـ أو الصغد ـ فأذعن أهل كش لأداء الجزية، وكان فيما يلي بَلْخ بلد يُقال له (زم) فأسلم ملك زم على يد المهلّب، وقد اتخذ المهلّبُ مدينة ومنطقة كش قاعدة ومركزاً له، وبعث منها السرايا والبعوث إلى ما يليها من بلاد ما وراء النهر.

فَتْحُ بُخَارىٰ وبلاد السُغد: وكانت بُخارىٰ وسمرقند حاضرتا إقليم السُغد وكان المهلّب من قادة غزوها وفتحها الأول مع سعيد بن عثمان بن عفان في خلافة معاوية بن أبي سفيان، فأذعنت بخارى وسمرقند وغيرها لأداء الجزية، ثم انتقضوا بعد سنة ٦٤هـ، ولما غزا أمية بن عبد اللّه الأموي ما وراء النهر ـ سنة ٧٧هـ ـ قاصداً بُخارى، «حوصر أمية وأصحابه حتى جهدوا، ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك ورجعوا إلى مرو». فلما عبر المهلب نهر جيحون وغزا بلاد كش ونزلها ـ ٨٠هـ ـ كتب إلى صاحب بُخارى ـ وهو ملكها ـ وأنذره بالدخول في الطاعة وأداء الجزية أو الحرب، فحشد صاحب بُخارى أربعين ألف مقاتل من أهل بخارى وسمرقند وبلاد السغد للقتال، قال ابن الأثير: «وَوَجَّه المهلّب ـ من كش ـ ابنه حبيباً، فوافى صاحب بُخارى في أربعين ألفاً، فنزل جماعة من العدو قرية، فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف، فقتلهم، وأحرق القرية فسميت المحترقة». (٧٤ جـ٤) وقال الطبري: «وَجَّه المهلّبُ ابنه حبيباً، فسار إلى رَبِنجَن فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً، فدعا رجل من المشركين للمبارزة، فبرز له جَبَلَة غلام حبيب فقتل المشرك، وحمل على جمعهم، فقتل ثلاثة نفر» ـ وعندئذ حمل المسلمون بقيادة حبيب فانهزم جيش صاحب بخارى ـ «ونزلت جماعة من العدو قرية ـ تحصنوا بها ـ فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف، فقاتلهم، وظفر بهم، وأحرق القرية، فسُميت المحترقة». ويستفاد من قول البلاذري: «وأدت إليه السغد الأتاوة» أن بخارى وسمرقند وسائر مناطق إقليم السُغد أذعنت للمصالحة وأدّت الجزية إلى المهلّب سنة ٨٠هـ.

فتح بلاد الخُتَّل وقلعة السَّبَلْ: قال البلاذري: «وفتح المهلّب بلاد الخُتّل وكانت قد انتقضت»[١]، وتقع بلاد الختل في الإقليم الثالث من أقاليم بلاد ما وراء النهر،

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٠٧.

وهو إقليم الصغانيان والخُتّل في الجنوب الشرقي من إقليمي الصغد وخوارزم، وقد ذكر الطبري في تاريخ الأمم والملوك نبأ فتح بلاد الخُتَّل، فقال: «أتى المهلّب وهو نازلٌ على كشّ ابن عم ملك الخُتَّل، فدعاه إلى غزو الخُتَّل. فَوَجَّه المهلبُ معه ابن يزيد، فنزل يزيد في عسكره ناحيةً ونزل ابن عم الملك ناحية، وكان ملك الخُتّل يومئذ اسمه السَبَل، فبيّت السَّبَلُ ابن عمه فكبّر في عسكره، فظن ـ ابن عم السَبَل ـ أن العرب غدروا به وأنهم خافوه على الغدر حين اعتزل عسكرهم، فأسره السَبَلُ فأتى به قلعته فقتله. فحاصر يزيد بن المهلّب قلعة السَّبَل، فصالحوه على فدية حُمِلَتْ إليه»[١].
وكانت الفدية مقابل عدم اقتحام يزيد القلعة وفَتحها عنوة، فأذعنوا لأداء الفدية إلى جانب أداء الجزية والدخول في الطاعة، فأذعن السَّبَل ملك الخُتّل وسائر بلاد الخُتّل لأداء الجزية، فقبض يزيد الفدية والجزية منهم ومكث فترة في بلادهم ثم عاد إلى المهلّب في منطقة كش، ويستفاد من قول البلاذري أن المهلّب «فتح بلاد الخُتل وكانت قد انتقضت» أن سائر بلاد الخُتّل أذعنت للطاعة وأدى كفارها الجزية وهم صاغرون.

قصيدة كعب الأشقري في مدح المهلّب بكش: وبينما المهلّبُ بن أبي صُفرة مُرابط في بلاد كش ـ بأوزبكستان ـ مدحه الشاعر كعب بن معدان الأشقري الأزدي بقصيدة من غرر القصائد، أوّلها:

طَـرِبْـتُ وهـاج لـي ذاك إدكـارا ... بـكـشٍّ قـد أطـلـت بـه الـحـصـارا
وكـنـتُ ألـذّ بـعـض الـعـيـش حـتـى ... كـبـرتُ، وصـار لـي هـمّـي شـعـارا

ومنها قوله:

. . لَقَوْمِي الأزْد في الغمرات أمْضَىٰ ... وأوفَـىٰ ذِمّـةً وأعـزُّ جـارا
هُـمُ قـادوا الـجـيـاد عـلـى وَجَـاهـا ... مـن الأمـصـار يـقـذفـن الـمـهـارا
فَـهُـنّ يُـبِـحْـنَ كـلَّ حِـمًـى عـزيـزٍ ... ويَـحـمِـيـنَ الـحـقـائـق والـذمـارا
طـوالات الـمـتـون يُـصِـبْـنَ إلّا ... إذا سـار الـمـهـلّـبُ حـيـث سـارا

إلى أن يقول في المهلّب وأبناء المهلّب الأبيات التي ذكر أبو الفرج الأصفهاني أنه: «كان الخليفة عبد الملك بن مروان يقول للشعراء: تُشَبِهُوني مرة بالأسد ومرة بالبازي ومرة بالصقر، ألا قلتم كما قال كعب الأشقري في المهلّب وولده:

بَـرَاكَ الـلّـهُ حـيـن بَـرَاكَ بَـحْـراً ... وفَـجَّـرَ مِـنْـكَ أنـهـاراً غِـزَارا
بَـنُـوكَ الـسـابـقـون إلـى الـمـعـالـي ... إذا مـا أَعـظـم الـنـاسُ الـخِـطـارا
كـأنّـهـم نـجـومٌ حـول بَـحْـرٍ ... دَرَارِيّ تـكَـمَّـل فـاسـتـدارا

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٣ جـ٨.

مـلـوكٌ يـنـزلـون بـكـل ثَـغْـرٍ إذا مـا الـهَـامُ يـوم الـرَوْعِ طـارا
رزانٌ فـي الأمـور، تَـرَى عـلـيـهـم مِنَ الـشيـخ، الـشـمـائـل وَالْـفـخـارا
نـجـومٌ يُـهـتـدىٰ بِـهُـمُ إذا مـا أخو الظلمَاءِ في الغَمَراتِ حارا»[1]

وكان أبناء المهلّب آنذاك كما قال كعب بن معدان (ملوك ينزلون بكل ثغر)، فقد كان المغيرة أميراً في مرو ـ بتركمنستان ـ، وكان يزيد يفتتح بلاد الخُتَّل، وحبيب يفتتح بلاد بُخارى، والمُفَضّل بجهات هَرَاتْ وأفغانستان، بينما كان المهلّب مرابطاً في كش.

فَتْح المهلّب لبلاد خُجَنْدة بإقليم فَرَغانة: وبلغت فتوح المهلّب سنة ٨١هـ الإقليم الرابع من أقاليم ما وراء النهر وهو إقليم فرغانة، في الشمال الشرقي من بلاد ما وراء النهر، وتقع فيه مدينة فرغانة ومدينة خُجندة (خوقند حالياً)، وكان سَلَم بن زياد بن أبي سفيان في عهد ولايته لخراسان (٦١ ـ ٦٤هـ) حاول فتح خجندة، قال البلاذري: «وَجَّه سَلْم بن زياد وهو بالسغد ـ سنة ٦٢هـ ـ جيشاً إلى خُجَنْدة، وفيهم أعشى هَمْدَان، فانهزموا، فقال أعشى همدان:

لَيْت خيلي يوم الخُجَنْدة لم تُهزَم وغُـودِرتُ فـي الـمَـكَـرِّ سـلـيـبـا
تحضُرُ الطير مصرعي وتروحتُ إلـى الـلّـه بـالـدمـاء خـضـيـبـا»

(ص٤٠٣/ فتوح البلدان).

فلما تولى المهلّب خراسان وغزا بلاد ما وراء النهر ـ سنة ٨٠هـ ـ وكما ذكر البلاذري: «غزا المهلّب كشّ، وفتح بلاد الخُتّل وكانت قد انتقضت، وفتح خُجَنْدَة» (ص٤٠٧)، ويستفاد من هذا الترتيب أن المهلّبَ بعد أن فتح بلاد الخُتَّل على يد يزيد بن المهلّب، بعث جيشاً إلى خُجَنْدَة في إقليم فرغانة ـ بقيادة يزيد غالباً ـ ففتح خُجَنْدة صلحاً على أداء الجزية، وأدّت خُجَنْدة وما جاورها وبلاد السغد الجزية إلى المهلّب، أو كما قال البلاذري: «فَتَح خُجَنْدَة وأدت إليه السُغد الأتاوة».

قدوم كتاب ابن الأشعث إلى المهلّب وموقفه من ثورة ابن الأشعث: وبينما المهلّب في كش ببلاد ما وراء نهر جيحون، وكما ذكر الطبري: «أتاه كتاب عبد الرحمٰن بن الأشعث بخلع الحجاج، ويدعوه إلى مساعدته»[2]. وكان عبد الرحمٰن بن الأشعث بن قيس الكندي قد تولّى ولاية سجستان ـ ٧٩هـ ـ وافتتح ما يليها من بلاد الترك والهند، وأمر جيشه بالإقامة حتى يعرفوا البلاد التي فتحوها

---

(١) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص٥٦ ـ ٦١ جـ١٣.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٠ جـ٨.

ويترسخ سلطانهم فيها ثم يغزون ما يليها في السنة القادمة، فأتى إليه كتاب الحجاج يأمره بالتوغل في بلاد العدو، وكان جيش ابن الأشعث من أهل الكوفة والبصرة، فأيقنوا أن الحجاج يريد هلاكهم، فبايعوا ابن الأشعث وخلعوا الحجاج ـ أول سنة ٨١هـ ـ ثم تعاظم أمر عبد الرحمٰن بن الأشعث فبويع بالخلافة وانضوت تحت لوائه بلاد سجستان ثم بلاد كرمان ثم بلاد فارس ونودي بناصر المؤمنين ـ في أواسط سنة ٨١هـ ـ فكتب إلى المهلب يدعوه إلى مساعدته أو مبايعته وخلع الحجاج وعبدالملك بن مروان، فرأى المهلّب في ذلك انقسام الأمة، وربما أدرك ببصيرته الثاقبة أن الأمر لن يتم لابن الأشعث، قال الطبري: «فكتب المهلّب إلى ابن الأشعث: أما بعد، فإنك وضعت رجلك في غرز طويل الغيّ على أمة محمد ﷺ. اللّه اللّه فانظر لنفسك لا تُهلكها والجماعة فلا تُفرقها. . فاللّه أحق أن تخافه على نفسك من الناس فلا تعرّضها في سفك دم ولا استحلال محرم، والسلام عليك»(١). ولكن الثورة كانت قد انطلقت، وأخذ الناس يتدفقون إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث من العراق ومشارقها يبايعونه بالخلافة، ويسيرون تحت لوائه لمحاربة الحجاج ونفيه من البصرة والعراق، وأعشى هَمْدَان يقول:

إنّا سَمَونا للكفور الفَتّانْ ... بالسيد الغطريف عبد الرحمٰنْ
سار بجمع كالدّبَىْ مِنْ قحطانْ ... ومِنْ مَعَدٍّ جاء ابن عدنانْ
فَقُلْ لحجّاج وليّ الشيطانْ ... يثبُتْ لِجَمْع مَذْحِج وهَمْدَانْ
فإنهم سَاقُوه كأس الذيفانْ ... ومُلْحِقُوه بِقُرىٰ ابن مروانْ

ولما علم المهلّب بزحفهم إلى العراق وأن الحجاج جَمَعَ الجيوش وأتته الإمدادات من الشام فتهيأ لمحاربتهم بالأهواز والبصرة، كتب المُهلَّبُ إلى الحجاج: «أما بعد: فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهُمْ مثل السيل المنحدر من عَلٍ ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، فاعْلَمْ أن لأهل العراق شِرَّةً في أول مخرجهم. . فليس شيء يردهم (فلا تقاتلهم) حتى يسقطوا إلى أهاليهم، ويشموا أولادهم. ثم واقفهم عندها فإن اللّه ناصرك عليهم إن شاء اللّه. والسلام. فقال الحجاج: فعل اللّه بالمهلّب وفعل، واللّه ما لي نظر ولكن لابن عمه نَصَحْ»(١)، ويعني بابن عمه عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي فقد نظر الحجاج إلى رأي المهلّب من زاوية أن المهلّب وابن الأشعث أبناء عمومة لأنهما من اليمن، وأن المهلّب بذلك الرأي إنما نصح لابن عمه عبد الرحمٰن بن الأشعث كي يتم له أخذ البصرة وما إليها من العراق فيتعاظم أمره، فلم يأخذ الحجاج برأي المهلّب،

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٠ جـ٨.

وتصدى الحجاج بجيشه لابن الأشعث وجيشه في تُسْتر والبصرة، فانهزم الحجاج وجيشه شر هزيمة وهرب من البَصَرة ودخل عبد الرحمٰن بن الأشعث البصرة وانضوت البصرة وما جاورها في طاعته. فلما انهزم الحجاج، وكما ذكر الطبري: «دعا الحجاج بكتاب المهلّب فقرأه، ثم قال: للّه أبوه، أيُّ صاحب حرب هو، أشار علينا بالرأي، ولكنّا لم نَقْبَل»[1] وكان دخول عبد الرحمٰن بن الأشعث البصرة في ذي الحجة سنة ٨١هـ ثم دخل الكوفة وبويع بها سنة ٨٢هـ.

وفاة المُغيرة.. وَجَزَع المهلّب عليه

وبينما المهلّب في منطقة كش ببلاد ما وراء النهر، توفي المغيرة بن المهلّب بمدينة مرو الشاهجان بتركمنستان ـ في رجب سنة ٨٢هـ ـ. قال الحافظ ابن كثير: «وكان المغيرة بن المهلّب جواداً مُمْدحاً شجاعاً، له مواقف مشهورة»[2]. وقد كان المغيرة من الأمراء القادة منذ سنة ٦٥هـ وولّاه مصعب بن الزبير على بلاد الأهواز وفارس سنة ٦٧هـ ولم يزل أميراً قائداً مجاهداً له مواقف محمودة واستخلفه المهلّب على مدينة مرو عاصمة ولاية خراسان لما سار إلى كش وبلاد ما وراء النهر سنة ٨٠هـ. قال الطبري: «كان المغيرة بن المهلب خليفة أبيه بمرو على عمله كله، فمات في رجب سنة ٨٢هـ فأتى الخبرُ يزيدَ وعَلِمه أهل العسكر فلم يخبروا المهلّب. وأحبّ يزيد أن يبلغه فأمر النساء فصرخن، فقال المهلّب: ما هذا؟ فقيل: مات المغيرة. فاسترجَعَ وجَزع حتى ظهر جزعه عليه، فَلَامَهُ بعض خاصته، فَدَعا يزيدَ فوجهه إلى مرو فجعل يوصيه بما يعمل ودموعه تنحدر على لحيته، وكتب الحجاج إلى المهلب يعزيه في المغيرة، وكان سيداً، وكان المهلّب يوم مات المغيرةُ مقيماً بكش وراء النهر». (ص١٧ جـ٨).

موقعة نَسَفْ بين يزيد بن المهلّب والترك

لما علم المهلب بوفاة المغيرة ـ بمدينة مرو الشاهجان في تركمنستان ـ دعا يزيدَ فوجهه إلى مرو، فجعل يوصيه بما يعمل ودموعه تنحدر على لحيته، قال الطبري: «فسار يزيد في ستين فارساً ـ ويقال سبعين ـ فيهم مَجّاعة بن عبد الرحمٰن العَتَكي، وعبد اللّه بن معمر اليشكري، ودينار السجستاني، والهيثم بن المنخل الجُرْموزي، وغزوان أسكاف صاحب زَمّ وكان أسلم على يد المهلّب، وأبو محمد الزَمّيّ، وعطية مولى للعتيك».

وقد وَجَّهَهُم المهلّب من بلاد كش ـ في أوزبكستان ـ إلى مرو ـ في تركمنستان

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٠ جـ٨.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٤٣ جـ٩.

ـ عبر جبال ومناطق لم يفتحها المسلمون وكانت الطريق إلى مرو عبر تلك البلاد أقصر بكثير من العودة إلى بَلْخ والمسير منها في الأقاليم الإسلامية إلى مرو الشاهجان ـ بتركمنستان ـ ولذلك لم يسر مع يزيد بن المهلّب إلا ستون أو سبعون فارساً أو سبعين متظاهرين بأنهم تجار.

قال الطبري: «فلقيهم خمسمائة من الترك في مفازة نَسَفْ، فقالوا: ما أنتم؟ قالوا: تجار، قالوا: فأين الأثقال؟ قالوا: قَدَّمناها، قالوا: فاعطونا شيئاً، فأبَىٰ يزيد. فأعطاهم مَجّاعة ثوباً وكرابيس وقوسساً، فانصرفوا. ثم غدروا وعادوا إليهم، فقال يزيد: أنا كنتُ أعلم بهم، فقاتلوهم واشتد القتال بينهم، ويزيد على فرس قريب من الأرض ومعه رجل من الخوارج كان يزيد أخذه ـ أسيراً ـ فقال: استَبْقِني، فَمَنَّ عليه، فحمل عليهم حتى خالطهم وصار من ورائهم وقد قتل رجلاً، ثم كرّ فخالطهم حتى تقدّمهم وقتل رجلاً، ثم رجع إلى يزيد، وقتل يزيدُ عظيماً من عظمائهم.. وصَبَرَ لهم يزيد حتى حاجزوهم ـ في الليل ـ. فقال الراجز في ذلك:

يـزيـدُ يـا سـيـفَ أبـي سـعـيـدْ قـد عَـلِـمَ الأقـوامُ والـجـنـودْ
والـجـمعُ يوم الـمجمع الـمشهـودْ أنـك يـوم الـتُـركِ صَـلْـبُ الـعـودْ

وقال كعب الأشقري (يذكر تلك الموقعة فيما بعد):

والـتركُ تـعـلـمُ إذْ لاقـى جُـمـوعَـهُـمُ أن قد لقوهُ شـهـاباً يـفـرِجُ الـظُّـلـمـا
بـفـتـيـة كـأسُـودِ الـغـابِ لَـمْ يـجـدوا غيرَ التأسي وغيرَ الصبرِ مُعتَصَمَا
نرى شَرائجَ تغشى القومَ مِنْ عَلَقٍ ومـا أرى نـبـوةً مـنـهـم ولا كَـزَمـا
وتـحـتَـهُـم قـرّحُ يـركـبْـنَ مـا رَكِـبـوا مـن الـكـريـهـة حتى يـبـتـلـعـن دَمَـا
في حازَّة الموتِ حتى جَنَّ لَيْلُهُمُ كـلا الـفـريـقـيـن مـا ولّـى ولا انـهـزَمـا

والتقى الفريقان في اليوم التالي، ورُميّ يزيد في ساقه وهرب أبو محمد الزمّيّ واشتدت شوكة الترك فصبر لهم يزيد حتى حاجزوهم، فقالوا: لا ننصرف حتى نموت جميعاً أو تموتوا أو تعطونا شيئاً، فحلف يزيد لا يعطيهم شيئاً، فقال له مَجّاعة: أذكُركَ اللّه قد مات المغيرة وقد رأيتَ ما دخل على المهلّب من مصابه فأنشدك اللّه أن تصاب اليوم، فقال يزيد: إن المغيرة لم يَعْدُ أجله ولست أعدو أجلي. فَرَمَى إليهم مَجّاعة بعمامة صفراء فأخذوها وانصرفوا. وجاء أبو محمد الزّمّي بفوارس وطعام، فقال له يزيد: أسلمتنا يا أبا محمد؟ فقال: إنما ذهبتُ لأجيئكم بمدد وطعام». (ص١٨/ ٤).

ومضى يزيد بفرسانه إلى مدينة مرو الشاهجان، فتولى مقاليد الحكم فيها حتى يأتي أبوه من كش وبلاد ما وراء النهر.

عودة المهلَّب مِنْ كشّ . . إلى بَلْخ

وفي حوالي شهر شعبان ٨٢هـ صَالَح المهلَّبُ ملكَ وأهل بلاد كشّ على أداء مبلغ من المال مقابل ما عليهم من الجزية وفدية مقابل بقاء البلاد تحت حكم ملك كش، فأعطوه رهائن إلى أن يجمعوا المبلغ الذي عليهم، فاستخلف المهلّب حريث بن قطبة مولى خزاعة وقال له: إذا استوفيت الفدية فرُدَّ عليهم الرُّهُن. وقطع المهلّب نهر جيحون إلى بَلْخ فأقام بها، فلما صار ببَلْخ كتب إلى حريث: إني لستُ آمن إن رددت عليهم الرُّهُن أن يُغيروا عليك فإذا قبضت الفدية فلا تخلي الرهن حتى تقدم أرض بَلْخ ـ ثم تَرُد إليهم الرُّهن ـ فقال حريثُ لملك كشّ: إن المهلّب كتب إليّ أن أحبس الرُّهن حتى أقدم أرض بَلْخ فإن عَجّلْتَ لي ما عليك سلمتُ إليك رهائنك وسرتُ، فأخبره أن كتابه ورد وقد استوفيتُ ما عليكم ورددتُ عليكم الرُّهن. فَعَجّل له الملك صُلحهم، وردّ إليهم الرُّهن. وأَقْبَل بمن معه من فرسان المسلمين فأغار عليه جماعة من الترك، فقاتلهم. (ويُقال أنهم قالوا له: أفدِ نفسك ومن معك فقد لقينا يزيد بن المهلب ففدى نفسه. فقال حريث: ولَدَتني إذاً أمُّ يزيد). وقَاتَلهم فَقَتَل وأسر منهم أسرى ففَدَوْهم فمنَّ عليهم وخلاهم، وقَدِم إلى بَلْخ. (فيُقال: بلغ المهلّب قوله: ولدتني أمّ يزيد إذاً، فقال: يأنف العبدُ أن تلده رحمُه، فغضب) والأصوب أن الترك الذين قاتلوا حريثاً كانوا في جنوب بلاد كش بينها وبين بلخ، بينما الذين قاتلوا يزيد كانوا في الغرب على طريق مرو الشاهجان، فلا يصح ما قيل من ذكر يزيد ولا قال حريث: (ولدتني أم يزيد إذاً)، وإنما غضب المهلّب لأنه لم يمتثل لأوامره وأدى عدم امتثاله إلى إصابة بعض المسلمين، فلما قَدِم إلى بَلْخ، قال له المهلّب: أين الرُّهن؟ قال: قبضتُ ما عليهم من مال وخليت عنهم، قال: ألم أكتُب إليك أنْ لا تخليهم؟ قال: أتاني كتابك وقد خليتهم وقد كُفيتُ ما خفتَ ـ فشهد بعض الذين كانوا مع حريث بكذبه ـ فقال له المهلّب: كذبت ولكنك تقرَّبت إليهم وإلى ملكهم فأطلعته على كتابي إليك. فأمر بتجريده وبضربه ثلاثين سوطاً، فَتَم ضربه ثلاثين سوطاً. . تأديباً وإرضاءً للذين أصيبوا من المسلمين، فنوى حريث الغدر وانقطع عن إتيان المهلّب وأظهر أنه وَجِع، وبلغ المهلب أنه تمارض، فقال لثابت بن قَطَبْه: جئني بأخيك فإنما هو كبعض ولدي عندي، وما كان ما كان منّي إليه إلا نظراً له وأدباً ولربما ضربت بعض ولدي أؤدّبه. فأتى ثابت أخاه وسأله أن يركب إلى المهلّب فقال: واللّه لا أجيئه بعد ما صنع بي، وحَلَف ليقتُلنّ المهلّب، فخاف ثابت أن يحاول حريث قتل المهلّب، فيُقتلون جميعاً، فقال له: إن كان هذا رأيك فاخرج بنا إلى ابن خازم ـ وكان مع الترك بالترمذ ـ فخرجا إليه في جماعة من الموالي وغيرهم، نحو ثلاثمائة، وكانوا قد أضمروا الغدر بالمسلمين في بَلْخ، فكان

خروجهم ولحاقهم بالعدو خيراً ومصلحة للمسلمين، ومكث المهلّب في بَلْخ إلى حوالي شهر ذي القعدة، وَوَلّى على بَلْخ وهَرَاة ـ شمال أفغانستان ـ الرُقاد بن عبيد العتكي وتَوَجَّه المهلّب من بَلْخ قاصداً مرو الشاهجان عاصمة ولاية خراسان.

* * *

وصية المهلّب . . ووفاته بمرو الروذ في ذي الحجة ٨٢هـ

كان المهلّبُ قد بلغ من الكبر عتياً، بل كان قد جاوز الثمانين وقيل جاوز التسعين عاماً، لما سار من بَلْخ يريد مرو ـ الشاهجان ـ قال الطبري: (فلما كان بزَاغُول من مرو الرُّوذ أصابته الشَّوصة، وقوم يقولون الشوكة) ـ والشوصة: وَجَعُ في البطن من ريح تنعقد تحت الأضلاع. والشوكة: حمرة تعلو الوجه والجسد ـ فأدرك المهلّب أن ساعته قد دَنت فأخذ في كل يوم يوصي أولاده ويعظهم بشيء من وصيته التاريخية.

قال الطبري وابن الأثير وابن خلدون: «دعا المهلبُ حبيباً ومن حَضَر من ولده، ودعا بِسهام فَحُزِمت، وقال: أترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا، قال: أفترونك كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم، قال: فهكذا الجماعة. ثم قال: أوصيكم بتقوى اللّه وصِلَة الرحم، فإنها تنسئ في الأجل وتُثري المال وتُكْثِرُ العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإنها تُعْقب النار وتُورِث الذلة والقلّة. . وعليكم بالطاعة والجماعة، ولْيَكُنْ فعالكم أفضل من قولكم فإنّي أحبُّ الرجل أن يكون لعمله فضلٌ على لسانه. واتقوا الجواب وزلة اللسان، فإن الرجل تزلّ قدمه فينتعش من زلته ويزلّ لسانه فيهلك. اعرفوا لِمَن يغشاكم حقه فكفى بغُدُوّ الرجل ورواحه إليكم تذكرةً له. وآثروا الجود على البخل. وأحِبّوا العربَ واصنعوا المعروف فإن الرجل من العرب تَعِدُه لِعدَة فيموت دونك فكيف بالصنيعة عنده. وعليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء فإن أخذ الرجلُ بالحزم فظفر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه فظفر، فَحُمِد، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن، وتعليم السنن، وأدب الصالحين. وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم. وقد استخلفتُ عليكم يزيداً، وجعلتُ حبيباً على الجُند حتى يقدم بهم على يزيد، فلا تخالفوا يزيدَ. فقال له المفضّل: لو لم تقدّمه لقَدَّمْنَاه»[١].

ومن وصية المهلّب في كتاب الكامل لأبي العباس المبرِّد «قال المهلّب لبنيه:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٠ جـ٨ ـ والكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٨٤ جـ٤ ـ وتاريخ ابن خلدون ـ ص٥٣ جـ٨.

إذا وُليتُمْ فلِينُوا للمُحسن واشتدوا على المريب، فإن الناسَ للسلطان أهْيَبُ منهم للقرآن».

ثم رجعت نفس المهلّب إلى ربها راضية مرضية، قال الطبري: «توفي المهلّب بمرو الروذ في ذي الحجة سنة ٨٢هـ» وقال الحافظ ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: «توفي المهلب سنة ٨٢هـ وله يومئذ ست وتسعون سنة» وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة المهلب بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: « . . وافق الحاكم من أرخ وفاة المهلب سنة ثلاث وثمانين وأنه مات وهو ابن ست وسبعين سنة». ثم قال ابن حجر: «مات المهلب سنة اثنتين وثمانين، وقيل: مات سنة ثلاث وثمانين وله ست وسبعون سنة» (ص٥٣٦/ ٣). ويبدو أن مقولة مات سنة ٨٣هـ أصلها مات وله ثلاث وثمانون سنة، لأنه مات في ذي الحجة سنة ٨٢هـ وهو الصحيح.

وتم تشييع جثمان المهلّب في موكب مهيب بمدينة مَرْو الرُّوذ، وصلى عليه حبيب بن المهلّب والمسلمون، وتم دَفْنه بمرو الرُّوذ، قال الطبري: «توفي المهلب في ذي الحجة سنة ٨٢هـ فصلى عليه حبيبٌ، ثم سار إلى مرو ـ مرو الشاهجان ـ فكتب يزيد إلى عبد الملك بن مروان بوفاة المهلب واستخلافه إياه». وقال أبو علي القالي: «حدّثنا أبو بكر بن دريد قال: حدّثنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: مات المُهَلَّبُ بمَرْوِ الرُّوذ بخُرَاسانَ، وكانت ولايته أربع سنين. فقال نهارُ بن تَوْسِعَة:

ألا ذَهَبَ الغَزْوُ المُقَرِّبُ للغِنَى ... وماتَ النَّدَى والحَزْمُ بعد المُهَلّبِ
أقاما بِمَرْوِ الرُّوذِ رَهْنَ ضَرِيحِه ... وقد غُيِّبا عن كل شَرْقٍ ومَغْرِبِ»[1]

وجاء البيت الأول في رواية ابن الأثير بكتاب الكامل في التاريخ:

ألا ذَهَبَ المعروف والعزُّ والغِنَى ... وماتَ النَّدى والجُودُ بعد المهلّب

وقال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «توفي المهلّب في ذي الحجة سنة ٨٢هـ فقال نهار بن توسعة التميمي:

ألَا ذَهَبَ الغزوُ المُقَرَّبُ للغِنَى ... وماتَ النَّدَى والجُودُ بعد المهلّبِ
أقاما بمرو الرُّوذِ رَهنَى ضريحِهِ ... وقد غُيِّبَا عن كل شرْقٍ ومغربِ
إذا قيل: أيُّ الناسِ أولَى بنعمةٍ ... على الناسِ؟ قلناهُ ولَمْ نَتَهَيَّبِ
أباح لنا سهل البلادِ وحَزْنَها ... بخيلٍ كأرسال القَطَا المتَسَرِّبِ
يُعَرِّضُها للطعنِ حتى كأنّمَا ... يُجللُها بالأرجوان المخضَّبِ
تطيفُ به قحطانُ قد عَصَبَتْ به ... وأحلافُها من حيّ بكرٍ وتَغْلِبِ

(١) الأمالي ـ أبو علي القالي ـ ص١٩٨ جـ٢.

وَحَيًّا مَعَدٌ عُوَّذٌ بلوائه يُفدُّونهُ بالنفس والأمّ والأبِ»[١]

وقد بارك اللّه عز وجل في ذرية المهلّب وجعل منهم أمراء وولاة في مشارق الأرض ومغاربها، فليس بين الصحابة والأمراء والفاتحين والولاة مَنْ تواصلت في ذريته الإمارة والزعامة زهاء ثلاثة قرون إلا المهلّب.

وسيأتي نبأ ذلك في المبحث الخاص بيزيد بن المهلّب أمير خراسان (٨٣ ـ ٨٦هـ) ثم أمير العراقين ومشارقها (٩٦ ـ ٩٩هـ) وقد بلغ يزيد ذروة المجد وافتتح ما لم يفتحه أحد من البلدان ورفرفت راياته في أرض لم يبلغها الإسلام من قبل في آسيا الوسطى وباكستان والصين، ولما ثار سنة ١٠١هـ بويع بالخلافة وتلقّب بالخليفة (القحطاني) وانضوى الشرق تحت لوائه، فكان ثاني الخلفاء اليمنيين الثوار في تاريخ الإسلام بعد عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي.

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٠ جـ٨.

٦٦

عبد الرحمٰن بن الأشعث

ـ ناصر المؤمنين ـ

من عظماء الزعماء والأمراء اليمانيين الذين جاهدوا في الفتوحات ثم ثاروا على الظلم والطغيان هو عبد الرحمٰن بن الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي. وله قال أعشى هَمْدان:

يابْنَ الأشَجِّ، قريع كندة ... لا أُبالي فيك عَتْبَا
أنت الرئيس، ابن الرئيس، ... وأنت أعلى الناسِ كَعْبَا
فانْهَضْ هُدِيتَ لَعلهُ ... يجلو بك الرحمٰن كَرْبَا

وقال الدكتور ناجي حسن ـ أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة بغداد «كانت ثورة ابن الأشعث محاولة جِدِّية للتخلص من سيطرة مُضَر، لا سيما وأن معظم القبائل العربية القوية في العراق كانت قحطانية.. ولهذا فإن عبد الرحمٰن بن الأشعث حينما عظم جمعه خلع عبد الملك بن مروان وسمى نفسه ناصر المؤمنين»(١).

وقال الحافظ ابن كثير: «وعبد الرحمٰن هذا هو أبو محمد بن الأشعث بن قيس الكندي. ومنهم من يقول عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي. قد روى له أبو داود والنَسَائي عن أبيه عن جده عن ابن مسعود حديث: (إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة فالقولُ ما قال البائع أو تشاركا). وروى عنه أبو العميس.. والعجب كل العجب من الذين بايعوه بالإمارة وليس من قريش وإنما هو كنديٌ من اليمن.. فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويُبايعون لرجل كِنْدي؟»(٢).

* * *

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٤٧.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥٤ جـ٩ ـ وسيأتي مناقشة ذلك في موضعه.

الجذور التاريخية لابن الأشعث

إن عبد الرحمٰن بن الأشعث هو نجل الصحابي الزعيم الأشعث بن الملك قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جَبَلة بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحرث الأصغر بن معاوية بن الحرث الأكبر الكندي. قال ابن مسافع الغطفاني:

لَسْتَ كالأشعثِ المُعَصَّبِ بالتاج، غلامُ قد ساد وهو فَطِيمُ
جدُه آكلُ المُرّار، وقَيْسٌ خَطْبُهُ في الملوك خَطْبٌ عظيمُ
فَلَهُ هَيْبَةُ الملوكِ، وللأشعث تاجان، حادثٌ وقديمُ[١]

وآكل المُرار الذي قال ابن مسافع أن الأشعث «جده آكل المرار» هو الملك (حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن الحرث الأصغر بن معاوية بن الحرث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مَرْتع الكندي). قال ابن خلدون: «وأما كندة: فاسمه ثور بن عُفير بن عدي بن الحرث بن مُرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ومنهم الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جَبَلَة بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية ـ الأكرمين ـ ابن الحرث الأكبر»[٢]. ولذلك يصف الدارسون عبد الرحمٰن بن الأشعث بأنه (سليل ملوك اليمن القدماء) لأن جذور كندة تعود إلى سبأ وملوك سبأ القدماء ثم كان بنو معاوية الأكرمين ملوك كندة وحضرموت في إطار دولة اليمن الحميرية وملوكها التبابعة، وكان حُجر آكل المرار وأولاده ملوكاً على الحجاز ونجد ونواباً لملوك اليمن التبابعة عليها، ثم كان قيس بن معدي كرب الكندي ملكاً لحضرموت وشبوة والمهرة ومن كبار ملوك اليمن في الجاهلية، وفيه قال عبد يغوث الحارثي:

. . أبا كَربٍ والأيْهَمَيْنِ كِلَيْهما وقَيْساً بأعلى حَضْرَمَوْت اليمانيا

وقال الجاحظ في البيان والتبيين: «قال بعض القرشيين يذكر قيسَ بن معدي كَرِب ومَقْدَمَه مكة في كلمة له:

قَيسٌ أبو الأشعثِ بِطريقُ اليَمَنْ لا يسألُ السائلُ عنه ابنُ مَنْ
أَشْبَعَ آل اللّه من بُرٍّ عدن»[٣]

ثم انتقلت مرتبة قيس في الزعامة إلى نجله الأشعث بن قيس، قال عنه القاضي محمد بن علي الأكوع: «كان الأشعث بن قيس سيداً وجيهاً، وكريماً

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٥١ جـ١ و ١٠٨ جـ٢.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٠.
(٣) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص١٨ جـ١.

سمحاً، وملكاً مُطاعاً، وهو آخر ملوك كندة، وأحدُ أقيال وعظماء اليمانية، ومِنْ السابقين الأولين إلى الإسلام»[١] وكان الأشعث بن قيس على رأس وفد كندة وحضرموت الذين انطلقوا من اليمن إلى رسول اللّٰه ﷺ بالمدينة لمنورة، قال ابن هشام في السيرة النبوية: «قَدِم على رسول اللّٰه ﷺ الأشعث بن قيس في وفد كِنْدَة. قال الزُّهْرِيُّ بن شهاب: قَدِم الأشعث في ثمانين راكباً من كِنْدة، فدخلوا على رسول اللّٰه ﷺ مسجده، وقد رَجَّلُوا جُمَمَهُمْ وتَكحَّلوا، عليهم جُبَبُ الحَبَرة»[٢]. وجاء في هامش السيرة: «الحَبَرة: ضَربُ مِنْ برود اليمن ذو خطوط»[٢] وهو من ملابس ملوك وأقيال اليمن، قال أُمية بن أبي الصلت لسيف بن ذي يزن «واسْبِل اليوم من برديك إسبالاً» وقال أعشى قيس الجاهلي في بعض أقيال اليمن:

إذا الحبراتُ تَلوَّتْ بهم وَجرّوا أسافل هُدّابها

وقد صحب الأشعث بن قيس رسول اللّٰه ﷺ وله أحاديث. قال ابن هشام في السيرة النبوية وابن كثير في البداية والنهاية وابن سيد الناس في عيون الاثر: «قال الأشعث بن قيس: يا رسول اللّٰه نحن بنو آكل المُرار وأنت ابن آكل المرار. فتبسم رسول اللّٰه ﷺ وقال: (ناسِبُوا بهَذَا النَّسَب العباسَ بن عَبْدِ المطلب وربيعة بن الحرث) قال ابن هشام: (وكان العباس وربيعة رجُلين تاجرين، وكانا إذا شاعا في بعض العرب فَسُئلا مِمّنْ هُمَا، قالا: نحن بنو آكل المُرار، يتعززان بذلك، وذلك لأنهم كانوا ملوكاً). وقال ابن كثير: «كان العباس وربيعة تاجرين، إذا شاعا في العرب فسُئلا ممن أنتما؟ قالا: نحن بنو آكل المرار، ينتسبان إلى كندة لِيعزّا في تلك البلاد لأنّ كندة كانوا ملوكاً، فاعتقدت كندة أن قريشاً منهم لقول عباس وربيعة: نحن بنو آكل المُرّار. ثم قال لهم رسول اللّٰه ﷺ: «لا، نحن بنو النَّضْر بن كِنَانَة، لا نقفوا أُمَّنَا ولا نَنْتَفي مِنْ أبينا» قال ابن سيد الناس «وللنبي ﷺ جدة مِنْ كِنْدَة مذكورة هي أم كلاب بن مُرّة، فذلك أراد الأشعث»[٣] ويُستفاد من مجمل ذلك أن العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحرث كانا في الجاهلية ينتسبان إلى كندة لأن أم كلاب بن مُرّة كانت من كندة. وكلاب هو والد قُصيّ بن كلاب، فأنجب قُصيّ أربعة أبناء: عبد مناف، وعبد شمس، وعبد الدار، وعبد العُزّى، وأمُّهم أيضاً يمانية وهي: حُبَّىٰ بنت حُلَيل بن كعب الخزاعي. ولـمّا وَفَدَ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف إلى الملك سيف بن ذي يزن في صنعاء

(١) قرّة العيون ـ ابن الديبع ـ تحقيق الأكوع ـ ص٤٢.
(٢) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص٢٥٧ جـ٤.
(٣) عيون الأثر ـ ابن سيد الناس ـ ص٣٠٨ جـ٢.

وخَطَب بين يديه باسم وفد قريش، قال له سيف: «وأيُّهم أنت أيُّها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فقال سيف: ابن أختنا؟ قال: نعم. فقال: ادنُ مني.. وأجلسه بالقرب منه». والذي يهمنا هنا أن أم جميع بني كلاب بن مُرّة يمانية من كندة، وكان العباس وربيعة وغيرهما ينتسبون إليها في الجاهلية، وقد وصفها ابن سيد الناس بأنها «جدة النبيّ ﷺ» لأنه (محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ بن كلاب بن مرّة) بل إن النبيّ ﷺ قد وصفها بأنها (أمهم) في قوله: «نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفوا أُمّنا ولا ننتفي من أبينا» فقوله: «لا نقفوا أمنا» تصريحٌ وتَبيينٌ بأنها (أُمُّهُمْ). ولذلك قال عبد الرحمٰن بن الأشعث لما بويع بالخلافة أيام عبد الملك بن مروان: «إنْ كان هذا الأمر في قُريش فَعنّي فُقئت بيضة قريش، وإنْ كان في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس»[1].

* * *

وكان للأشعث بن قيس عدد مِن الأخوة ومِنْ الأولاد، فَمِنْ إخوته الصحابي سيف بن قيس، قال الحافظ ابن حجر في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة «سيف بن قيس، أخو الأشعث بن قيس: أمره النبي ﷺ أن يؤذن في قومه.. ويُروى أنه قال: يا رسول اللّه هَبْ لي آذان قومي، فوهبه له. فلم يزل يؤذن فيهم. قال ابن الكلبي: وأم سيف هذا التيحاقينة من حضرموت وهي إحدى الشوامت»[2]. والصحابي إبراهيم بن قيس، قال الحافظ ابن حجر في ترجمته: «إبراهيم بن قيس بن معدي كرب الكندي، أخو الأشعث بن قيس.. ذكره ابن شاهين في الصحابة، واستدركه ابن فتحون وأبو موسى.. وقال هشام بن الكلبي: وَفَدَ على النبي ﷺ، وهو والد إسحاق الأعرج النسابة»[3].

وأما أولاد الأشعث بن قيس، فقد جاء في ترجمته بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب أنه «لما وَفَدَ الأشعث سأله رسول اللّه ﷺ: هل لك من الولد؟ فقال: لي ابن وُلِدَ عند مخرجي إليك ووددتُ أن لي به سبعة، فقال له: إنّهم لمَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ، وإنّهم لقُرّة وثمرة فؤاد»[4] وقال الحافظ ابن كثير: «قال الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان قال: حدثنا هشيم ـ قال ـ أنبأنا مُجالد عن الشَّعْبي ـ قال ـ حدثنا

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ترجمة سيف بن قيس ـ ص١٤٤ جـ٢ ـ وترجمة إبراهيم بن قيس ـ ص١٥ جـ١.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر القرطبي ـ ص١٠٩ جـ١.
(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٧٣ جـ٥.

الأشعث بن قيس قال: قَدِمت على رسول اللّه ﷺ في وفد كندة، فقال لي: هل لك من الولد؟ قُلتُ: غلام وُلِد لي في مخرجي إليك وددتُ أن مكانه سبع القوم [أو: شبع القوم] ـ فقال رسول اللّه ﷺ: «لا تقولن ذلك فإن فيهم قُرّة عينٍ وأجراً إذا قُبضوا، ثم ولئن قلت ذاك إنّهم لمجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ، إنهم لمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَة»(١). ونَقل ابن كثير عن سريج قال إن ابن الأشعث المذكور (من ابنة حمد) يعني أن والدته: بنت حَمَدْ، وهي امرأة من بنات أقيال حضرموت. ولم تذكر الروايات اسم ذلك الابن من أبناء الأشعث.

وأثناء مكوث الأشعث في موكب الرسول بالمدينة المنورة تزوج الأشعث بأم فروة أخت أبي بكر الصديق، وأولم الأشعث يوم زواجه وليمة عظيمة، اشترى وأمر بذبح كل ما في سوق المدينة من شاة وغنم وثور وبقر، قال الصحابي وبرة بن قيس الخزرجي الأنصاري: « . . لم يَبْق دار مِنْ دور المدينة إلا ودخله من اللحم، فكان ذلك اليوم قد شُبّه بيوم الأضحى، وقال وبرة بن قيس في ذلك:

لقد أولَمَ الكندي يوم مَلَاكِه ... وليمة حَمّالٍ ثقيل الجرائم

. . فَقُل للفتى الكندي إمّا لقَيْتَه: ... ذهَبْتَ بأسنى مجد أولاد آدم»

وكان زواج الأشعث بأخت أبي بكر عند وفادته الأولى ومكوثه في موكب الرسول بالمدينة في شوال سنة ٩هـ. وعاد الأشعث ومعه امرأته أخت أبي بكر إلى منطقته في شرق مدينة تريم بحضرموت، فأنجبت له ابناً سماه محمد، وكان مولد محمد بن الأشعث في حوالي شعبان سنة ١٠هـ ووفد الأشعث مرة ثانية إلى رسول اللّه ﷺ في رمضان سنة عشر للهجرة بعد مولد محمد، قال الحافظ ابن حجر: «وقد ذكر ابن مِنْدَة: أن محمد بن الأشعث وُلد في عهد النبي ﷺ». وقال الحافظ ابن عبد البر: «أخت أبي بكر التي تزوجها الأشعث هي أم فروة، وهي أم محمد بن الأشعث». وقال الأكوع في هامش قرة العيون: «محمد بن الأشعث: رابع أربعة وُلدوا في حياة رسول اللّه ﷺ وتَسَمّوا بمحمد».

وقد مكث الأشعث بن قيس في موكب الرسول بالمدينة المنورة إلى ذي الحجة سنة عشر للهجرة وشهد حجة الوداع، وكان ممن وَفَد آنذاك كبشة بنت معدي كرب عمة الأشعث وقد سألت النبيّ ﷺ عن أمر يتعلق بالطواف فقال لها: «طوفي سبعاً . . الحديث. أخرجه الدارقطني» وقال الحافظ ابن حجر في ترجمتها «كبشة بنت معدي كرب: عمة الأشعث بن قيس وهي والدة معاوية بن حُديج الصحابي المعروف». وعندما تهيأ الأشعث للعودة إلى حضرموت ـ في حوالي شهر محرم سنة ١١هـ ـ

(١) عيون الاثر ـ ابن سيد الناس ـ ص٣٨٩ جـ٢.

تزوج رسول اللّه ﷺ بالسيدة قُتيلة أخت الأشعث، زَوَّجَه إياها الأشعث، وكانت قُتيلة في حضرموت باليمن، وكان سيبعثها إلى رسول اللّه ﷺ عند عودته، وقد ذكرها ابن سيد الناس في باب «ذِكر أزواج النبي ﷺ» بكتاب (عيون الأثر) فقال: «قُتَيْلة بنت قيس بن معدي كرب، أخت الأشعث، تزوجها رسول اللّه ﷺ قبل موته بيسير، ولم تكن قَدِمت عليه ولا رآها. قيل: وأوصى النبي ﷺ أن تُخَيّر فإن شاءت ضُرِب عليها الحِجاب وحُرِمت على المؤمنين، وإن شاءت طُلِقَتْ ونَكَحَتْ مَنْ شاءت» وذلك لأن الأشعث لما رجع إلى حضرموت وتهيأ ليبعثها إلى المدينة، لم يلبث أن أتى نبأ وفاة رسول اللّه ﷺ ـ في ربيع سنة ١١هـ ـ فمكثت قُتَيْلة بنت قيس في دارها بقصر النجير في حضرموت وهي إحدى زوجات النبي ﷺ، وقد بعث أبو بكر الصديق إلى حضرموت المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل في ذي الحجة سنة ١١هـ عُمالاً على صدقات حضرموت، وعندئذ سار الأشعث بن قيس إلى أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة ـ في حوالي محرم ١٢هـ ـ وقيل تزوج قُتيلةَ عكرمةُ بن أبي جهل كما ذكر ابن سيد الناس حيث قال: « . . قيل: أوصى النبي ﷺ أن تُخَيّر فإن شاءت ضُرب عليها الحجاب وحُرمت على المؤمنين وإن شاءت طُلِقَتْ وَنَكَحَتْ مَنْ شاءت، فاختارت النكاح، فتزوجها بَعدُ عكرمة بن أبي جهل»[١]، بينما ذكر ابن خلدون أن التي تزوجها عكرمة هي أسماء أخت النعمان الكندي، ومؤدى ذلك أن قُتيلة بنت قيس ـ عمة عبد الرحمٰن بن الأشعث ـ ربما اختارت أن يُضرب عليها الحِجاب، فلم تزل من زوجات رسول اللّه ﷺ إلى أن رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية.

وقد كان الأشعث من كبار الصحابة الزعماء اليمانيين الذين انطلقوا حاملين رسالة الإسلام والحرية لجهاد الامبراطورية الفارسية الكسروية المجوسية عندما استنفر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رؤساء وقبائل العرب لجهاد الفرس الذي حشدوا جيشاً عظيماً بالعراق ـ سنة ١٤هـ ـ فقال عمر: «واللّه لأضْرِبن ملوك العجم بملوك العرب. . وكتب عمر إلى عماله على العرب أن يستنفروا من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي فجاءت أفواجهم إلى المدينة»[٢]، وقد ولّى عمر بن الخطاب آنذاك سعد بن أبي وقاص على جيش المسلمين، قال الطبري: «سَرّح عمر سعداً في أربعة آلاف ممن اجتمع عند عمر من المستنفرين. . ثم أمدّه بثلاثة آلاف من أهل اليمن، وألف من سائر الناس. . فنزل سعد بسيراف. . ثم قَدِم على سعد بسيراف الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن»[٢]. وقال ابن خلدون: «سار

---

(١) عيون الأثر: " ابن سيد الناس ص٣٨٩ جـ٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٨٧ جـ٤.

سعد إلى سيراف فنزلها واجتمعت إليه العساكر ولحقه الأشعث بن قيس في ثلاثين ألفاً»[١]. وقد ذكرت رواية الطبري الذين كانوا بقيادة الأشعث من فرسان ورجال كندة وكانوا زهاء ألف وسبعمائة، بينما ذكر ابن خلدون الذين قَدِموا من كتائب وقبائل اليمن إلى عمر بن الخطاب عند قدوم الأشعث بفرسان كندة ثم ساروا وانطلقوا سوياً مع الأشعث وفرسانه وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً من شتى قبائل اليمن، إلا أنه كان لفرسان كل قبيلة رئيسها ورايتها، فاجتمع الجيش العربي الإسلامي في القادسية، فكان الأشعث بن قيس من كبار القادة الذين كان لهم إسهام وافر في تحقيق النصر على جيش الامبراطورية الفارسية في موقعة القادسية (محرم ١٥هـ) ثم في فتح المدائن (صفر ١٦هـ) وفي فتح جلولاء (ذو القعدة ١٦هـ) وصولاً إلى موقعة نهاوند في إيران حيث كان الأشعث سابع سبعة قادة أمراء للجيش العربي الإسلامي سماهم عمر بن الخطاب. قال البلاذري: «كتب عمر إلى النعمان بن مقرن بتوليته الجيش وقال: إنْ أصِبْتَ فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أُصيب فجرير بن عبد اللّه البجلي، فإن أُصيب فالمغيرة بن شعبة، فإنْ أُصيب فالأمير الأشعث بن قيس»[٢]. وقال ابن كثير: «كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجنود البصرة، وكتب إلى النعمان بن مقرن أن يسير بِمَنْ هناك (بكسكر) من الجنود إلى نهاوند، وإذا اجتمع الناس فكُل أمير على جيشه، والأمير على الناس كلهم النعمان فإن قُتِل فحذيفة، فإن قُتِل فجرير، فإن قُتِل فقيس بن مكشوح، فإن قُتِل قيس ففلان ثم فلان حتى عدّ سبعة أحدهم المغيرة بن شُعبة»[٣] وقال الطبري: «حتى عَدّ سبعة آخرهم المغيرة بن شعبة» وهُمْ: النعمان بن مقرن، حذيفة بن اليمان، جرير بن عبد اللّه البجلي، قيس بن مكشوح المرادي، الأشعث بن قيس الكندي، المغيرة بن شعبة، وكان سابع السبعة أبو موسى الأشعري، وكان كل واحد منهم أمير على جيشه إلى أن اجتمعوا في نهاوند فتولى النعمان بن مقرن القيادة العامة، قال البلاذري: «وجعل النعمان على ميمنته الأشعث بن قيس، وعلى ميسرته المغيرة بن شعبة. . وكان النعمان بن مقرن أول مقتول في نهاوند»[٢] وقال الطبري: «فاضت نفس النعمان، واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس، وفيهم عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، وعبد اللّه بن الزبير، وعمرو بن معدي كرب، وحذيفة بن اليمان»[٤] فاجتماعهم إلى الأشعث بن قيس يؤكد علو مكانته بين الصحابة والزعماء، وقد ذكر المسعودي أن منهم أيضاً (الزبير بن العوام) وذكر ابن كثير أن منهم (أبا موسى الأشعري، والمغيرة بن

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٩٤.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٠.
(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٠٨ جـ٧.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٤٩ جـ٢.

شعبة، وجرير بن عبد اللَّه البجلي، وقيس بن مكشوح، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر الحضرمي)، وأمثالهم من الصحابة وأمراء الناس، وقد ذكر المسعودي أيضاً أنه: «اجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس»(١) فأحضروا وقرأوا كتاب عمر فإذا فيه «إذا أُصيب النعمان ففلان، فإن أُصيب ففلان، وإن أُصيب ففلان، فامتثلوا» فتولى حذيفة القيادة العامة وعلى ميمنته الأشعث بن قيس ففتح اللَّه على المسلمين بنهاوند فتحاً عظيماً، وكانت نهاوند سنة عشرين هجرية في ولاية عمار بن ياسر للكوفة.

ثم كان الأشعث من قادة فتح بلاد أذربيجان منذ ولّى عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة ٢١هـ، قال البلاذري: «إن المغيرة بن شعبة قَدِم الكوفة والياً من قِبل عمر ومعه كتاب إلى حذيفة بن اليمان بغزو أذربيجان، فأنفذه إليها وهو بنهاوند أو بقربها..» وتقول رواية ثانية: «إن المغيرة بن شعبة غزا أذربيجان من الكوفة سنة ٢٢هـ حتى انتهى إليها، فَصَالَحَ أهلها» ويبدو أن صلح المغيرة وصلح حذيفة هو نفس الصلح لأن حذيفة كان قائداً بينما كان المغيرة هو الأمير، وعلى ضوء ذلك الصلح رابطت في أذربيجان حامية عسكرية بقيادة الأشعث بن قيس، وفي ذلك قال د. ناجي حسن: «عَقَدَ حذيفة صلحاً مع أهل أذربيجان، دفعت بموجبه أذربيجان بعض ما وُضع عليها من تعهدات، إلّا أنّها سرعان ما قاومت الحامية العسكرية التي تولاها الأشعث بن قيس الكندي»(٢) وقال البلاذري: «إن المغيرة بن شعبة غزا أذربيجان ففتحها ـ صلحاً ـ ثم إنهم كفروا فغزاها الأشعث بن قيس ففتح حصن باجروان، وصالحهم على صلح المغيرة، ومضى صلح الأشعث إلى اليوم»(٣). وكان ما تم فتحه في خلافة عمر منطقة من مناطق أذربيجان يقع فيها حصن باجروان، ثم انعقد العزم على فتح سائر أَذَرْبَيْجان في خلافة عثمان بن عفان وولاية الوليد بن عقبة للكوفة. قال البلاذري: «غزا الوليد بن عقبة أذربيجان ومعه الأشعث بن قيس ـ سنة خمس وعشرين ـ وطلب أهل كور أذربيجان الصُلح فَصَالَحَهُم.. فلما انصرف الوليد ولّى الأشعث بن قيس أذربيجان، فانتقضت، فكتب إليه الأشعث يستمده، فأمدّه بجيش عظيم من أهل الكوفة، فتتبع الأشعث بن قيس أذربيجان حاناً حاناً ففتحها وأسكنها ناساً مِنْ العرب من أهل العطاء والديوان، وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام»(٣). وقال د. ناجي حسن: «استطاع الأشعث بن قيس فتح أذربيجان منطقة بعد أخرى، وأسكنها ناساً من العرب، وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام، وهو أول

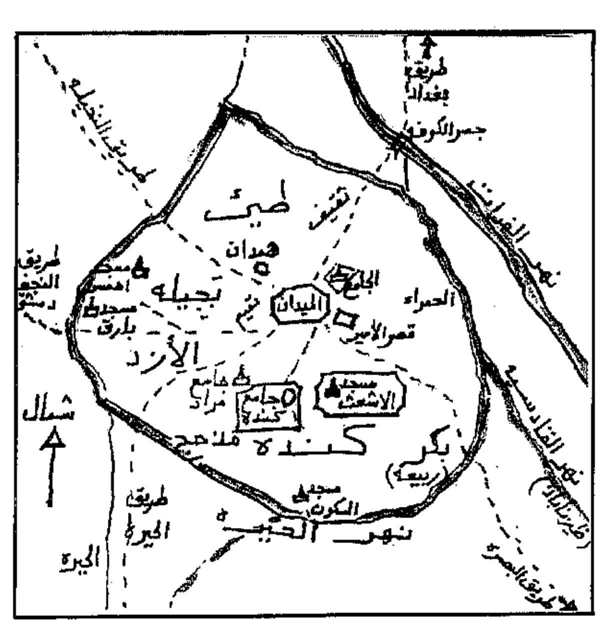
(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٣٣٣ جـ٢.
(٢) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٧٠.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٢ و ٣٢٢.

استيطان للعرب بإقليم أذربيجان»[١] وبذلك الفتح الواسع لبلاد أذربيجان على يد الأشعث بن قيس منذ سنة ٢٥هـ، لم يعد الوجود العربي يقتصر على حامية عسكرية ولم تعد مسؤولية الأمير قيادة الحامية وقبض الجزية من أهل البلاد، وإنما أصبحت أذربيجان ولاية من ولايات دولة الخلافة العربية الإسلامية، وولّى الخليفة عثمان بن عفان عليها الأشعث بن قيس ولم تأت سنة ٣٠هـ إلا وقد شملت السيادة العربية الإسلامية أذربيجان بقسميها ـ أي القسم الذي يقع في إيران حالياً والقسم الذي يقع في القوقاز وأرمينيا ـ فشملت ولاية الأشعث القسمين، وهو ما يشير إليه المسعودي قائلاً: «كان الأشعث عاملاً لعثمان على أذربيجان وأرمينيا»[٢] فأسكن الأشعث في مناطقها ناساً من العرب، وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام. وجعل الأشعث مدينة أردبيل عاصمة للولاية، قال البلاذري: «وأنزل الأشعثُ أردبيلَ جماعة من العرب، ومَصَّرَها، وبَنَىٰ مسجدها»[٣].

* * *

نَشْأة عبد الرحمٰن بن الأشعث

في فترة ولاية الأشعث بن قيس لأذربيجان ـ وبصفة خاصة ما بين سنة ٢٥ وسنة ٣٠هـ ـ استقدم الأشعث بقية أسرته وأولاده من منطقة شرق تريم في محافظة حضرموت باليمن إلى الكوفة بالعراق، وكان للأشعث دار بالكوفة منذ اختطاط مدينة الكوفة سنة ١٧هـ في ولاية سعد بن أبي وقاص. قال الطبري: «بعث سعد رجلاً من



خارطة لمدينة الكوفة وخطط القبائل ومنها خطة كندة ومسجد الأشعث

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٧٠.
(٢) مروج الذهب ـ المسعودي.
(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٢ و ٣٢٢.

الأنصار يُقال له الحارث بن سلمة، ويُقال بل عثمان بن حُنيف، فارتاد لهم موضع الكوفة، فنزلها سعد بالناس، وخَطّ مسجدها، وخَطّ فيها الخطط للناس»[١]. وكان عدد العرب الذين اختطوا بالكوفة مع سعد عشرين ألفاً منهم اثنا عشر ألفاً من فرسان اليمن وثمانية آلاف من بقية مناطق وقبائل الجزيرة العربية، فأسهم سعد لأهل اليمن ولغيرهم من الناس بسهمين، قال البلاذري: «فخرج سهم أهل اليمن الجانب الأيسر وهو خيرهما، فصارت خططهم في الجانب الشرقي» وقال الإمام الشَّعبي الهمداني: «كُنّا ـ أي أهل اليمن ـ اثني عشر ألفاً.. وخرج سهمنا بالناحية الشرقية ـ أو الجانب الأيسر ـ فلذلك صارت خططنا بحيث هي»[١] والخطط هي المناطق السكنية للقبائل، فكانت خطة كندة في الجنوب الأيسر من الكوفة، وعلى يسار كندة مذحج والأزد، وفي الشمال الأيسر بَجِيلة وهمدان وطيء. وكانت دار الأشعث داراً مشهورة وبالقرب منها كان مسجد الأشعث، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة الأشعث أنه «صلى أبو إسحاق الفجرَ في مسجد الأشعث بالكوفة، فَوُضِع بين يديه كيسٌ وحلّة ونَعْل، فسأل عن ذلك فقالوا: قَدِم الأشعث الليلة من مكة».

ويبدو أن دار الأشعث بالكوفة لم تكن كافية عندما استقدم الأشعث بقية أسرته وأولاده من اليمن، وقد أقْطَعه الخليفة عثمان بن عفان منطقة يقال لها (طَيزناباذ) وذلك عندما أقطع عثمان عدداً من الصحابة مناطق من أرض سواد الكوفة والفرات عوضاً عن أراضٍ لهم بمناطقهم في الجزيرة العربية جعلوها لبيت المال، قال البلاذري: «أقطعَ عثمان عبد اللّه بن مسعود أرضاً بالنهرين، وأقطع عمار بن ياسر اسبينا، وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز، وأقطع الأشعث بن قيس طَيْزَنَابَاذ، وأقطع جرير بن عبد اللّه البجلي أرضه بالفرات»[٢]. وذكر البلاذري أن طَيْزناباذ كان اسمها (ظيزن أباذ) وقد أقطعه عثمان إياها في ولاية عثمان بن أبي العاصي للكوفة ـ حوالي سنة ٣٠هـ ـ فَبَنَىٰ فيها الأشعث مساكن لأسرته وأولاده، ربما عند قدومهم من اليمن، وقد ذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٦٦هـ أنه «كان محمد بن الأشعث في قرية له إلى جانب القادسية». وقال الطبري: «كان محمد بن الأوشعث في قصر له مما يلي القادسية بِطَيْزناباذ» (ص١٤٧ جـ٧) ويتبين من ذلك موقع قرية طَيْزَناباذ التي فيها وفي دار الأشعث بالكوفة نشأ وعاش أولاد الأشعث وأسرته.

وقد سلفت النصوص بأن محمد بن الأشعث بن قيس وُلد في عهد رسول اللّه ﷺ وأن والدته هي أم فروة أخت أبي بكر الصديق، وكان محمد بن

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٤٣ جـ٤ ـ وفتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٧٥ و ٢٧٣.
(٢) تاريخ الطبري ـ ص١٤٣ جـ٤ ـ وفتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٧٥ و ٢٧٣.

الأشعث ابن عشرين سنة عندما اجتمعت أسرة الأشعث بالكوفة سنة ٣٠هـ وقد كان للأشعث عدد من الأولاد غير محمد، منهم إسحاق، والقاسم. أما عبد الرحمٰن بن الأشعث فهو عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، ولكنه اشتهر بعبد الرحمٰن بن الأشعث، بل قال هو نفسه: «إن كان هذا الأمر في قريش فعنّي فُقِئت بيضة قريش وإن كان في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس».

ولم تذكر الروايات تاريخ مولد عبد الرحمٰن، إلا أن القرائن تُشير إلى أنه كان قد وُلِد في سنة ٣٠هـ، وكانت والدة عبد الرحمٰن بنت زعيم كبير من زعماء اليمن هو سعيد بن قيس الحاشدي الهمداني. قال أبو الفرج الأصفهاني: «كان أعشى همدان من أخوال عبد الرحمٰن، لأن أم عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث هي أم عمرو بنت سعيد بن قيس الهمداني»[١] وسعيد بن قيس هو ـ كما جاء في الإكليل ـ (سعيد بن قيس (بن ذي زُوُد) بن زيد بن مَرِب بن معدي كرب بن زُوُد بن سيف بن عمرو بن السبيع بن السبع بن صعب بن معاوية بن ناشح بن مالك بن جُشم بن حاشد الهمداني)[٢] وكان أسلاف سعيد بن قيس من أقيال وزعماء اليمن في الجاهلية، ثم كان سعيد بن قيس من كبار القادة الذين انطلقوا حاملين رسالة الإسلام إلى ساحات الجهاد والفتوحات بالعراق. قال لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني: «كان سعيد بن قيس صاحب أمر هَمْدان بالعراق، وأحد فرسان العرب المعدودة..»[٢] والمقصود بقوله: «كان صاحب أمر همدان بالعراق» أنه كان رئيس وقائد فرسان ورجال همدان ـ أي حاشد وبكيل ـ في فتوحات العراق والذين استقروا فيها بعد الفتوحات، وقد ذكر الحافظ ابن كثير في نبأ موقعة نهاوند أنه «كمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً.. وكان الذين ضربوا الفسطاط ـ أي الخيام والقبب ـ أربعة عشر من أشراف الجيش» ثم ذكرهم ابن كثير فذكر فيهم «جرير بن عبد اللّه البجلي، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر الحضرمي»[٣] وكذلك جاء في تاريخ الطبري أن «مِنْ أشراف الكوفة الذين شهدوا نهاوند سعيد بن قيس الهمداني»[٣] وكانت موقعة نهاوند سنة ٢٠هـ. وقد كان أبو موسى الأشعري والياً للبصرة في خلافة عمر بن الخطاب ثم في خلافة عثمان إلى سنة ٢٩هـ وسكن بالكوفة، فسار أبو بردة بن أبي موسى إلى سعيد بن قيس ليُسلم عليه، فأمر له سعيد بعشرة آلاف درهم فحملت معه، قال الهمداني: «فأخبر أبو بردة أبا موسى بذلك، فقال أبو موسى الأشعري: يا بني لكل قوم ملوك، وهؤلاء ملوكنا»[٢].

---

(١) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص١٤٥ جـ٥.

(٢) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢١ جـ٢ وص٦٤ جـ١٠.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٠٨ جـ٧ ـ وتاريخ الطبري ـ ص٢٤٠ جـ٤.

وقد سلف ذكر أنباء وأمجاد سعيد بن قيس في مبحث سابق بهذا الكتاب، وقد استوجب ذكره هنا أن ابنته هي والدة عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، قال الشاعر أعشى همدان في عبد الرحمٰن:

وإذا سَألْتَ المجدَ أيْنَ مَحَلُّه فالمَجْدُ بين مُحمدٍ وسعيدِ
بين الأشج وبين قيسٍ باذخُ، بَخٍ بَخٍ، لوالده وللمولود

يريد بقوله: (فالمجد بين محمد وسعيد) أن والد عبد الرحمٰن محمد بن الأشعث وأمه بنت سعيد بن قيس، وأما قوله: (بين الأشج وبين قيس) فإن الأشج هو الأشعث، وقيس والد سعيد بن قيس، وقوله: (بخٍ بخٍ) يعني هنيئاً هنيئاً، والمولود هو عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث.

لقد نشأ وعاش عبد الرحمٰن الفترة من سنة ٣٠ ـ ٤٣هـ في ظل حياة الأشعث بن قيس، ولذلك فإن شيوع تسميته عبد الرحمٰن بن الأشعث قد يعود إلى تلك المرحلة، وكان من معالم أنباء الأشعث في تلك المرحلة:

* ـ **من سنة ٣٠ ـ ٣٥هـ**: كان الأشعث بن قيس أميراً والياً لبلاد أذربيجان للخليفة عثمان بن عفان، وأسكن الأشعث في مناطق أذربيجان عشائر من العرب وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام وتعريفهم بالدين، فبدأ الإسلام ينتشر في تلك البلاد. وكان مقر الأشعث مدينة أردبيل ويأتي إلى الكوفة بين الوقت والآخر، وكان الأشعث بأذربيجان حينما انتهت خلافة عثمان بمقتله في ذي الحجة ٣٥هـ بالمدينة المنورة، فبويع الإمام عليّ بالخلافة وعارضه الذين عارضوه فانقسم الناس واندلعت الفتنة الكبرى.

* ـ **وفي سنة ٣٦ ـ ٣٧هـ**: كان الأشعث بن قيس من الولاة الأمراء القليلين الذين بايعوا الإمام علي بن أبي طالب بالخلافة وأخذ لَهُ البيعة في أذربيجان، فلما قَدِم الإمام عليّ الكوفة ـ في ربيع ٣٦هـ ـ بعث إلى الأشعث بالقدوم إليه، فأقبل بِمَنْ معه من الفرسان، فكان الأشعث من كبار قادة جيش الإمام عليّ في صِفِّين، وكذلك كان سعيد بن قيس الهمداني صاحب راية همدان في صِفِّين، ثم آل الأمر إلى التحكيم والعودة من صفين ـ في ربيع ٣٧هـ ـ وشهد الأشعث مع الإمام عليّ محاربة الخوارج إلى أن استتب الأمر بالعراق.

* ـ **ومن سنة ٣٨ ـ ٤٠هـ**: عاد الأشعث والياً للإمام علي بن أبي طالب على أذْرْبيجان. قال البلاذري: «ولّى عليّ بن أبي طالب الأشعث بن قيس أذربيجان، فلما قَدِمها وجد أكثر أهلها قد أسلموا وقرأوا القرآن، فأنْزَل الأشعث في أردبيل جماعة من أهل الديوان والعطاء من العرب، ومَصَّرَها، وبَنَى مسجدها». (ص٢٠٩) ولم يزل

الأشعث والياً لأذربيجان حتى وفاة الإمام عليّ رضي اللّه عنه في رمضان سنة ٤٠هـ، وحتى بايع الحسن بن علي بن أبي طالب وأهل العراق معاوية بالخلافة وأتى معاوية إلى الكوفة سنة ٤١هـ فعاد الأشعث إلى الكوفة، قال الحافظ ابن حجر: «قال الطبراني: استأذن الأشعث على معاوية بالكوفة وعنده الحسن بن علي وابن عباس، فذكر قصته».

* ـ **وفي سنة ٤١ ـ ٤٣هـ:** استقر الأشعث بن قيس بالكوفة إلى أن مرض مرض الموت، فاجتمع إليه أولاده، وفيهم محمد بن الأشعث، وعبد الرحمٰن، فأوصاهم بوصية تاريخية ذكرها ابن عبد ربه في العقد الفريد، وفيما يلي نصها:

«قال الأشعث بن قيس لبنيه: لا تَذِلُوا في أعراضكم، وانخدعوا في أموالكم، ولْتَجِفَّ بطونكم من أموال الناس، وظهوركم من دمائهم، فإن لكل امرئ تَبِعة. وإياكم وما يُعتذرُ منه أو يُستحى، فإنما يُعتذر من ذنب ويُسْتَحَىٰ مِنْ عيب. أصلحوا المالَ لجفوة السُلطان وتَغَيُّر الزمان. وكُفّوا عند الحاجة عن المسألة فإنه كفى بالرد مَنْعاً، وأجملوا في الطلب حتى يوافق الرزق قدراً. وامنعوا النساء من غير الأكفاء، فإنكم أهل بيت يتأسى بكم الكريم ويتشرف بكم اللئيم. وكونوا في عوام الناس ما لم يضطرب الحبل، فإذا اضطرب الحبل فالحقوا بعشائركم»[١].

وقد توفي الأشعث بن قيس بالكوفة سنة ٤٣هـ، وكان محمد بن الأشعث يومئذ ابن ٣٣ سنة وعبد الرحمٰن في نحو الخامسة عشرة من عمره، فانتقلت رئاسة كندة بالكوفة إلى محمد بن الأشعث، واستمر عبد الرحمٰن في تحصيل علوم القرآن والسُنّة والفقه والأدب واللغة على يد العلماء بالكوفة من الصحابة والتابعين، وقد شهدت الكوفة ـ سنة ٥١هـ ـ قضية حجر بن عَدِي الكندي التي كان لها أثر عميق في نفس عبد الرحمٰن بن الأشعث.

* * *

قضية حُجْر بن عَدِي الكِنْدِي

حُجْر بن عَدِي هو ـ كما جاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة ـ «حُجْر بن عَدِي بن معاوية بن جَبَلَة بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي»[٢] فهو بمثابة عم «الأشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جبلة بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي».

قال الحافظ ابن حَجَر: «ذكر ابن سعد ـ في طبقات الصحابة ـ ومصعب

---

(١) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ ص١٤٥ جـ٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٣١٤ جـ١.

الزبيري فيما رواه الحاكم عنه أن حجر بن عدي وَفَدَ على النبي ﷺ هو وأخوه هانئ بن عَدِي. . وأما البخاري وابن أبي حاتم وخليفة وابن حِبّان فذكروه في التابعين. . وروى ابن قانع في ترجمته من طريق شعيب بن حرب عن شعبة عن أبي بكر بن حفص عن حجر بن عدي عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: إن قوماً يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها»[١].

وقد انطلق حُجر بن عَدِي من اليمن مع الأشعث بن قيس إلى ميادين الجهاد والفتوحات بالعراق فشهد معه سائر الفتوحات، ومن ذلك ما جاء في الإصابة «أن حجر بن عدي شهد القادسية» وذكر البلاذري في نبأ (يوم جلولاء الوقيعة) أنه «كان حجر بن عدي على الميمنة» (ص٢٦٤). وقال الشاعر في أبيات عن حجر بن عدي بتاريخ الطبري:

ويوم جلولاء الوقيعة لم يُلَمْ ويوم نهاوند الفتوح، وتُسْترا

وسكن حجر بن عدي الكوفة وكان هو أقرب أقارب الأشعث بالكوفة وشهدا سوياً موقعة صِفِّين مع الإمام علي بن أبي طالب وكان حجر مع الأشعث بن قيس في يوم الشريعة بصِفِّين، وقال الشاعر في ذلك:

وتنسونه يوم الشريعة والقنا بصِفِّين في أكتافهم إذْ تكسرا

ولما توفي الإمام عليّ رضي اللّه عنه ثم بايع الحسن بن علي وأهل العراق معاوية بالخلافة سنة ٤١هـ بايعه حُجْر والأشعث وسائر الناس واستقرت الأمور. وكان حُجر بن عدي ـ بعد وفاة الأشعث ـ بمثابة الوالد لمحمد بن الأشعث وعبد الرحمٰن، ومن المشايخ الذين يتلقى عبد الرحمٰن على يدهم العلوم.

وكان حُجْر بن عَدِي لا يخشى في الحق لومة لائم، فقد ولّى معاوية على الكوفة الصحابي المغيرة بن شعبة ـ في جمادى ٤١هـ ـ قال الطبري: «قال أبو مِخْنف قال الصقعب بن زهير سمعت الشّعبي يقول. . أقام المغيرة على الكوفة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً وهو من أحسن شيء سيرة وأشده حباً للعافية غير أنه لا يدع ذم عليّ والوقوع فيه أو العيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه. فكان حجر بن عدي إذا سمع ذلك قال: بل إياكم ذمم اللّه ولعن، ثم قام فقال: إن اللّه عز وجل يقول: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ وأنا أشهد أن من تذمون وتُعيرون لأحق بالفضل، وأن من تُزكون وتطرُون أولى بالذم. فيقول له المغيرة: يا حُجْر لقد رُميَ بِسهمك إذْ كنت أنا الوالي عليك، يا

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٣١٤ جـ١.

حُجْر ويحك اتق السلطان، اتق غضبه وسطوته فإن غضب السلطان أحياناً مما يُهلكُ أمثالك. ثم يكف عنه ويصفح. فلم يزل حتى كان آخر إمارته قام المغيرة فقال (في علي وعثمان) كما كان يقول، وكانت مقالته اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه وأجزه بأحسن عمله فإنه عمل بكتابك وسنّة نبيك ﷺ وجَمَع كلمتنا وحَقَنَ دماءنا وقُتِل مظلوماً، اللّهم فارحم أنصاره وأولياءه ومُحبيه والطالبين بدمه، ويدعو على قتلته. فقام حُجر بن عدي فنعر نعرة بالمغيرة سمعها كل من كان في المسجد وخارجاً منه، وقال: إنكَ لا تدري بمن تَوَلّعُ من هَرَمك أيها لإنسان، مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنك قد حبستها عنّا وليس ذلك لك، . . فقام معه أكثر من ثلثَي الناس يقولون: صَدَق واللّه حُجْر، مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنا لا ننتفع بقولك هذا وأكثروا في مثل هذا القول ونحوه. فنزل المغيرة، فدخل ـ دار الإمارة ـ واستأذن عليه قوم فأذن لهم، فقالوا: علامَ تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ويجترئ عليك. . وكان أشدهم له قولاً في أمر حجر والتعظيم عليه عبد اللّه أبي عقيل الثقفي»[1] فكان مما قال لهم المغيرة: (قد اقترب أجلي وضعف عملي ولا أحبُّ أن أبتدئ بقتل خيارهم وسفك دمائهم. . ولكني قابل مِنْ محسنهم وعافٍ عن مُسيئهم حتى يفرق بيني وبينهم الموت). ومات المغيرة سنة ٥١هـ وكان زياد بن أبِيه ـ وهو زياد بن أبي سفيان ـ أميراً لولاية البصرة فجمع له معاوية ولايتي البصرة والكوفة.

وقد ذكر الطبري رواية تقول إن زياداً لما قَدِم الكوفة خطب خطبة على المنبر «ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرظهم وذكر قتلته ولعنهم فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة، ورجع زياد إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث». ثم ذكر رواية ثانية وهي الصحيحة عن محمد بن سيرين أنه «خطب زياد في الجمعة فأطال الخطبة وأخّر الصلاة فقال له حجر بن عَدِيّ: الصلاة، فمضى في خطبته، ثم قال له: الصلاة، فمضى في خطبته، فلما خشى حُجُر فوْتَ الصلاة ضرب بيده إلى كف من الحَصَا وثار إلى الصلاة وثار الناس معه فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس». ويدل ذلك على أن رواية المدح واللعن بعيدة عن الصحة فما حدث هو تطويل الخطبة حتى دخل وقت الصلاة، فنبهه حجر إلى ذلك مرتين، فلما خشي حُجر فوات وقت الصلاة ضرب بيده بعض الحصى الذي أمامه ـ لأن المسجد كان مفروشاً بالحصى ـ ونهض للصلاة فنهض الناس معه فلما رأى زياد ذلك نزل من المنبر وصلى بالناس، ومكث زياد فترة بالكوفة ثم استخلف عمرو بن حريث وعاد إلى البصرة. وتقول الرواية الأولى: «فبلغه أن حجراً يجتمع إليه شيعة عليّ ويظهرون

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٤٢ ـ ١٤٨ جـ٦ ـ والكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٣٥ ـ ٢٤٠ جـ٣.

لعن معاوية والبراءة منه وأنهم حصبوا عمرو بن حريث» بينما يتبين مما تلا ذلك أن الأمر لا علاقة له بالشيعة ولا علاقة له بأي لعن، ويستفاد من مجمل ما ذكرته الروايات وقوع اتصالات ولقاءات بين حجر بن عدي والعديد من شخصيات الكوفة بهدف إعلان خلع معاوية من الخلافة والدعوة إلى ذلك، وربما مجرد التفكير في ذلك، فأقبل زياد إلى الكوفة، وبعث القادة والجنود لاعتقال حُجر بن عَدِي وأصحابه، فاختبأ حجر في دار رجل من الأزد يقال له عبيد اللّه بن مالك ثم في دار ربيعة بن ناجذ الأزدي. قال ابن الأثير: «فلما أعياهم طلبه دعا زياد محمد بن الأشعث وقال له: واللّه لتأتيني به أو لأقطعنّ كل نخلة لك وأهدم دورك ثم لا تسلم مني حتى أقطعك إرباً إرباً، فاستمهله، فأمهله ثلاثاً»[1]. وقال الطبري: «أتى حُجر دار ربيعة بن ناجذ الأزدي في الأزد متنكراً فنزلها يوماً وليلةً فلما أعجزهم أن يقدروا عليه دعا زياد بمحمد بن الأشعث فقال له: أما واللّه لتأتيني بحُجْر أو لا أدَعُ لك نخلةً إلا قطعتُها ولا داراً إلا هدمتُها ثم لا تسلم مني حتى أقطعك إِرْباً إِرْباً. قال: أمهلني حتى أطلبه، قال: قد أمهلتُك ثلاثاً.. ومكث حُجر في منزل ربيعة بن ناجذ الأزدي يوماً وليلة، ثم بعث حجر إلى محمد بن الأشعث غلاماً له يدعى رشيداً من أهل إصبهان أنه: قد بلغني ما استقبلك به هذا الجبار العنيد فلا يهولنك شيء من أمره فإني خارج إليك، فاجْمعْ نفراً من قومك ثم ادخل عليه فاسأله أن يؤمنني حتى يبعث بي إلى معاوية فيرى فيَّ رأيه. فخرج محمد بن الأشعث إلى حجر بن يزيد الكندي وإلى جرير بن عبد اللّه البجلي وإلى عبد اللّه بن الحارث أخي الأشتر النخعي، فدخلوا إلى زياد، فكلموه وطلبوا منه أن يؤمّنه حتى يبعث به إلى معاوية فيرى فيه رأيه. ففعل وأعطاهم الأمان له، فبعثوا إليه رسوله ذلك يُعلمونه أنه قد أخذنا الذي تسأل. فأقبل حجر حتى دخل على زياد، فقال زياد: مرحباً بك أبا عبد الرحمٰن حربٌ في أيام الحرب وحربٌ وقد سالم الناس؟ على أهلها تجني براقش. فقال حجر: ما خلعت طاعةً ولا فارقت جماعةً وإني لعلى بيعتي. فقال زياد: هيهات هيهات يا حجر، تشج بيد وتأسو بأخرى وتريد إذ أمكن اللّه منك أن نرضى، كلا واللّه. قال حجر: ألم تؤمّني حتى آتي معاوية فيرى فيَّ رأيه؟ قال: بَلَىٰ قد فعلنا، انطلقوا به إلى السجن.. فحُبس عشر ليال وزياد ليس له عمل إلّا طلب رؤساء أصحاب حُجر» (٦/١٤٨).

ويتبين من مجمل ذلك عدم صحة الزعم بأن محمد بن الأشعث خذل حجراً، فقد ذكر الطبري رواية تزعم بأنه «قال عبيدة البدّيَ يعيّر محمد بن الأشعث بخذلانه حجراً:

أَسْلَمْتَ عَمّكَ لم تُقاتل دونه فَرَقاً، ولولا أنت كان مَنيعا»

(١) تاريخ الطبري - ص١٤٢ - ١٤٨ جـ٦ - والكامل في التاريخ - ابن الأثير - ص٢٣٥ - ٢٤٠ جـ٣.

وذلك الخبر والشعر موضوع، فقد ذكر الطبري عن محمد بن سيرين أنه «أراد قوم حُجر أن يمنعوه فقال: لا ولكن سمعاً وطاعة» فقام بتسليم نفسه على الشرط الذي طلب من محمد بن الأشعث أن يشترطه على زياد فاصطحب محمد بن الأشعث الصحابي جرير بن عبد اللّه البجلي والصحابي حجر بن يزيد الكندي وعبد اللّه بن الحارث أخي الأشتر النخعي المذحجي، فأخذوا الأمان من زياد على أن يبعث به إلى معاوية فالتزم زياد بذلك. ولم يكن بمقدور محمد بن الأشعث أن يُقاتل دولة الخلافة وهي آنذاك في أوج قوتها ـ سنة ٥١هـ ـ ثم إن الاعتقالات شملت شخصيات من كافة العشائر والقبائل في الكوفة، بل إن زياداً بعث قوة لاعتقال عبد اللّه بن خليفة الطائي فلم يتمكنوا منه فاعتقل الصحابي الجليل عدي بن حاتم الطائي، قال الطبري: «فلم يبق رجل بالكوفة من أهل اليمن وربيعة ومضر إلا فزع لعدي بن حاتم فأتوا إلى زياد فكلموه فيه وقالوا له عدي صاحب رسول اللّه ﷺ» وقد حبسه زياد ليُسلم إليه عبد اللّه بن خليفة بتهمة أنه من أصحاب حجر، ثم (دعا زياد عديًا وقال له: إني أخلي سبيلك على أن تنفيه من الكوفة وتسير به إلى الجبلين، فقال: نعم» فنفاه إلى الجبلين، واعتقل زياد أكثر من عشرين من أصحاب حجر، ثم أطلق بعضهم، وأبقى منهم اثني عشر رجلاً في السجن.

ثم جمع زياد وجوه أهل الكوفة وأمرهم بأن يكتبوا شهادتهم في كتاب كتبه إلى معاوية «إن حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخَلْع أمير المؤمنين معاوية. . » وقد تعددت الروايات في نص الكتاب الذي كتبه إلى معاوية وأسماء الشهود، فقيل (شهد عليه سبعون رجلاً) وقد شهد البعض رغبة أو رهبة. . «فكتبت شهادة الشهود في صحيفة ثم دفعها زياد إلى وائل بن حُجْر الحضرمي وكثير بن شهاب الحارثي، وبعثهما زياد مع حجر بن عدي وأصحابه، وكتب زياد في الشهود شريح بن هانئ الحارثي وشريح بن الحارث الكندي قاضي الكوفة. فأما شريح القاضي فقال: سألني عنه فأخبرته أنه كان صَوَّاماً قواماً، وأما شريح بن هانئ فكان يقول: ما شهدتُ ولقد بلغني أن قد كُتِبت شهادتي فأكذبته ولُمْته».

وروى الطبري عن أبي إسحاق السبيعي «أن حجراً لما قُفي به من عند زياد نادى بأعلى صوته: اللّهم إني على بيعتي لا أقيلها ولا أستقيلها سَمَاع اللّه والناس. وكان عليه بُرْنُسٌ» ـ وكان حجر مقيداً بالقيود والأغلال مع اثني عشر رجلاً، فتم تسييرهم من سجن الكوفة وقت العشاء مع قوة من فرسان وجنود زياد، ووقف محمد بن الأشعث وعبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث ورجال من كندة وغيرهم يشيعون موكب حُجر، وبجوار ابن الأشعث هند ابنة زيد ابن مَخرَمَة الأنصارية وكانت

تُشيّع حجراً ـ أي تودعه وليست تتشيع كما في بعض الروايات ـ فقالت وهي تُشَيّعُ حُجْراً أبياتاً منها:

تَرَفَّع أيها القمرُ المنيرُ ... تَبَصَّرْ هل ترى حُجْراً يسيرُ[1]

يسيرُ إلى معاويةَ ابن حربٍ ... ليَقْتُلَهُ كما زَعَمَ الأميرُ

ألا يا حُجْرُ، حُجْرُ بني عَدِيٍّ ... تَلَقَّتْكَ السلامةُ والسرورُ

أخافُ عليك ما أرْدَى عَدِيًّا ... وشيخاً في دِمَشقَ له زئيرُ

يرى قَتلَ الخِيار عليه حقاً ... له من شَرِّ أمَّتِهِ وَزِيرُ

وروى الطبري عن النضر بن صالح العبسي أن عُبيد اللَّه بن الحُرّ الجُعفي المذحجي كان واقفاً عند باب السري بن أبي وقاص حين مروا بحُجْر وأصحابه، فقال: (ألاعشرة رهط أستنْقِذُ بهم هؤلاء، ألاخمسة، فلم يُجبه أحد من الناس). فمضى جنود زياد بحُجْر وأصحابه حتى انتهوا بهم إلى الغَرِيَّيْنِ، فلحقهم شريح بن هانئ الحارثي ـ ومعه عدد من الفرسان ربما كان بينهم ابن الأشعث ـ فلما وصلوا إلى جنود زياد وكان على رأسهم كثير بن شهاب الحارثي، فقال له شريح بن هانئ: بَلِغْ كتابي هذا إلى أمير المؤمنين. قال كثير: ما فيه؟ قال: لا تسألني فيه حاجتي، فأبَىٰ كثير وقال: ما أحبُّ أن آتي أمير المؤمنين بكتاب لا أدري ما فيه. فأتى شريح بن هانئ وائل بن حجر الحضرمي فَقَبِل منه الكتاب. ووائل بن حجر هو الصحابي وائل بن حُجر الحضرمي جد ابن خلدون، وكان وائل مبعوثاً هو وكثير بن شهاب من عند زياد أمير العراق، ولكن غرض وائل من المسير كان أن يشفع للأرقم بن عبد اللَّه الكندي وشريك بن شداد الحضرمي، وهما من المبعوثين الاثني عشر مع حُجْر بن عدي وهُمْ: الأرقم بن عبد اللَّه الكندي، وشريك بن شداد، وعاصم بن عوف البَجَلي، وورقاء بن سُمَي البَجَلي، وكريم بن عفيف الخثعمي، وصيفي بن فسيل، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، وكدام بن حيان العنزي، وعبد الرحمٰن العنزي، ومحرز بن شهاب التميمي، وعبد اللَّه بن حويّة السعدي التميمي، وسعد بن نمران الناعطي الهمداني. فلما وصلوا مَرْج عَذْراء ـ وبينها وبين دمشق اثنا عشر ميلاً ـ وجدوا أمر معاوية ببقاء حجر وأصحابه في سجن مرج عذراء، وقدوم كثير بن شهاب ووائل بن حجر، فتم إيداع حجر وأصحابه في سجن مرج عذراء، وسار كثير ووائل وغيرهما إلى معاوية في دمشق، فدخلوا إليه، فقرأ معاوية كتاب زياد وفيه شهادة شريح بن هانئ الحارثي وشريح بن الحارث الكندي

(١) ويروى:

«تمهل أيها القمر المنيرُ ... لعلك أن ترى حُجْراً يسيرُ»

القاضي، فلما أتمّ معاوية قراءة كتاب زياد وشهادة الشهود على حجر بن عَدِي، تقدم إليه وائل بن حجر الحضرمي رضي اللَّه عنه وناوله كتاب شريح بن هانئ، فقرأه معاوية ـ أو أمر بقراءته ـ فإذا فيه: «بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم. إلى عبد اللَّه معاوية أمير المؤمنين من شريح بن هانئ. أما بعد، فإنه بلغني أن زياداً كتب إليك بشهادتي على حجر بن عَدِي، وأن شهادتي على حُجر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويُديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. حرام الدم والمال. فإن شئت فاقتُله وإن شئت فَدَعْهُ». فقال معاوية لممثلي زياد: ما أرى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم. فأخبره أحد الحاضرين ـ وقد يكون وائل بن حجر ـ أن شريحاً القاضي يقول إنه لم يشهد على حُجر وإنما سأله عنه زياد فقال: اعلم أنّه كان صَوّاماً قواماً. وتم إخبار معاوية أيضاً أنه «قال حجر: أبلغوا معاوية أنّا على بَيْعتنا لا نستقيلها ولا نُقيلها، وإنما شهد علينا الأعداء والأظناء. فقال معاوية: زياد أصدق عندنا من حُجر». وأمر معاوية ببقاء حجر وأصحابه في سجن مرج عذراء، وأخذ معاوية يستشير فيما يفعل بهم، قال الطبري وابن الأثير: «قال يزيد بن أسد البجلي: أرى أن تفرقهم في قرى الشام فيكفيكهم طواغيتُها» ـ يعني أن يبعث بهم إلى ثغور الشام لجهاد طواغيت الروم فيكفيه الطواغيتُ أمرهم ـ وكتب إليه زياد يحثّه على قتلهم، وكان أشد الناس تحريضاً على حجر بن عدي جماعة من ثقيف، وكانوا قد حرضوا عليه المغيرة بن شعبة حيث «كان أشدهم له قولاً في أمر حُجْر والتعظيم عليه عبد اللَّه بن أبي عقيل الثقفي»، وربما ساهموا أيضاً في تحريض زياد، ثم كانوا أشد تحريضاً عند معاوية، فبينما كان معاوية يتمهل ويستشير في أمرهم، وكما ذكر الطبري: «قال له عبد الرحمٰن بن أم الحَكَم الثقفي، ويُقال عثمان بن عمير الثقفي: جُذاذها، جذاذها. فقال له معاوية: لا تعنَّ أبْراً، فخرج أهل الشام ولا يدرون ما قال معاوية والثقفي. فأتوا النعمان بن بشير الأنصاري فأخبروه بمقالتهما. فقال النعمان: قُتِل القوم». ـ وبعث معاوية إلى صاحب سجن مرج عذراء أمراً بقتل حُجْر وأصحابه ـ.

وأتى يزيد بن أسد البجلي وقال لمعاوية: (يا أمير المؤمنين، هَبْ لي ابْنيْ عمي) عاصم بن عوف البجلي وورقاء بن سُمي البجلي وكان الصحابي جرير بن عبد اللَّه البجلي رضي اللَّه عنه كتب فيهما إلى معاوية (إن امرأين من قومي من أهل الجماعة والرأي الحسن سعى بهما ساعٍ ظنينٌ إلى زياد فبعث بهما في النفر الكوفيين الذين وَجّه بهم زياد إلى أمير المؤمنين، وهما ممن لا يحدث حدثاً في الإسلام ولا بَغْياً على الخليفة فلينفعهما ذلك عند أمير المؤمنين). فلما سألهما يزيد بن أسد، ذكر معاوية كتاب جرير، فقال: قد كَتَبَ إليَّ ابن عمك جرير فيهما، مُحسناً عليهما

الثناء، وهو أهلٌ أن يُصدَّق قوله ويُقبل نُصحه، وقد سألتني إياهما، فَهُمَا لك.

وكَلّمَهُ وائل بن حجر الحضرمي في الأرْقم بن عبد اللّه الكندي، فقال معاوية: هو لك، فتركه له. وكَلّمَهُ حُمرة بن مالك الهمداني في سعد بن نمران الناعطي الهمداني فقال معاوية: هو لك، فتركه له. وطلب أبو الأعور السُلَمي في عتبة بن الأخنس فوهبه له، وكلمه حبيب بن مَسْلمة في ابن حَويّة السعدي فوهبه له، وكلمه شَمِرُ الخثعمي في كريم بن عفيف الخثعمي، فنجا أولئك السبعة.

وأتى مالك بن هبيرة السكوني الكندي إلى معاوية ـ وكان مالك من كبار القادة اليمنيين بالشام ـ «فقال مالك بن هبيرة لمعاوية: يا أمير المؤمنين دَعْ لي ابن عمي حُجْراً. فقال معاوية: إن ابن عمك حُجْراً رأس القوم وأخافُ إن خلّيتُ سبيله أن يُفْسِد عليّ الكوفة فيضطرنا غداً إلى أن نشخصك وأصحابك إليه بالعراق. فقال له مالك: واللّه ما أنصفتني يا معاوية، قاتلتُ معك يوم صِفّين ـ وبعد صِفّين ـ حتى ظَفِرت كفُّك وعلا كعبُك، ثم سألتُك ابن عمي فسَطَوْتَ وبسطتَ من القول ما لا أنتفع به. ثم انصرف غاضباً». قال الطبري ثم «إن مالك بن هبيرة السكوني حين أبَى معاوية أن يَهَبَ له حُجْراً، اجتمع إليه قومه من كندة والسكون وناسٌ من اليمن كثير، فقال: واللّه لنحن أغْنَى عن معاوية من معاوية عنّا، وإنّا لنجدُ في قومه منه بَدَلاً ولا يَجدُ منّا في الناس خلفاً، سيروا إلى حُجر فلنُخلّه من أيديهم، فساروا ولم يشكّوا أنهم بمرج عذراء لم يُقتلوا.. فالتقاه بعض من جاء منها فأخبره أن حُجْراً وبقية أصحابه قد قُتلوا..».

وقد توسعت الروايات في وصف وتفصيل جريمة قتل حُجْر بن عدي الكندي، وكان لمقتله أصداء حزينة واسعة بين الصحابة وفي أرجاء دولة الخلافة العربية الإسلامية، فقد ذكر الطبري وابن كثير والحافظ ابن حَجَرْ والحافظ ابن كثير أنه: «أرْسَلَتْ عائشة أم المؤمنين عبد الرحمٰن بن الحرث إلى معاوية في حُجر وأصحابه، فقَدِم عليه وقد قَتَلَهم، فقال له عبد الرحمٰن: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ قال: حين غاب عني مثلك من حلماء قومي، وحَمّلني ابن سميّة فاحتملت. وقالت عائشة رضي اللّه عنها: لولا أنّا لم نغير شيئاً إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه لغَيّرنَا قتل حُجْر، أما واللّه إنه كان ما علمتُ مسلماً حجّاجاً مُعْتَمِراً. قال الحافظ ابن حَجَر: «وروى ابن أبي الدنيا والحاكم وعمر بن شبة من طريق ابن عون عن نافع قال: لما انطُلِق بحجر بن عَدِي كان عبد اللّه بن عمر بن الخطاب يتخبُر عنه، فأُخبر بقتله، وهو بالسوق، فأطلق ابن عمر حبوته وولّى وهو يبكي»[١].

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حَجَر العسقلاني ـ ص٣١٥ جـ١.

وفي مصر وشمال إفريقية كان الزعيم اليماني الصحابي معاوية بن حُديج السكوني أمير مصر يجاهد في شمال إفريقية حين أتاه نبأ قتل حُجر بن عَدِي، فجاء في هامش الإكليل عن تذكرة الحفاظ للذهبي أنه: «كان معاوية بن حُديج غازياً بإفريقية فقال لأصحابه: يا أشقائي في الرحم وأصحابي وخيرتي، أُقاتِل لقريش في المُلك حتى إذا استقام لهم دفعوا يقتلوننا، أما واللّه لئن أدركتها ثانياً لأقولن لِمَنْ أطاعني من أهل اليمن اعتزلوا بِنَا ودعوا قريشاً يقتل بعضهم بعضاً فأيهم غَلَب اتبعناه، أو لنثبن على المُلْك»[١]. وكانت والدة معاوية بن حُديج هي كبشة بنت معدي كرب عمة الأشعث بن قيس الكندي، وقد عاد معاوية بن حُديج من غزوته تلك بشمال إفريقية إلى مصر فاعتزل الولاية أو القيادة.

وكان الزعيم اليماني الصحابي الربيع بن زياد الحارثي المذحجي أميراً والياً لخُراسان وآسيا الوسطى فأتاه نبأ قتل حُجْر وهو بمدينة مرو الشاهجان بتركمنستان، فذكر الطبري «أن الربيع بن زياد ذكر يوماً بخُراسان حُجر بن عَدِي فقال: لا تزال العرب تُقتَلُ صَبْراً بعده ولو نفرت عند قتله لم يُقتَلْ رجلٌ منهم صبراً، ولكنها أقرّت فذلت. فمكث بعد هذا الكلام جمعة.. ومات»[٢]، وقد ذكرت نبأ وكلام الربيع بن زياد كتب تراجم الصحابة، وكان موت الربيع بن زياد سنة ٥٣هـ، مما يعزز القول بأن قتل حُجْر كان سنة ٥٣هـ قال الحافظ ابن حجر: «قال خليفة وأبو عبيد وغير واحد: قُتِل حجر بن عدي سنة إحدى وخمسين. وقال يعقوب بن إبراهيم بن سعد: كان قتله سنة ثلاث وخمسين»[١]، وكان قتل حُجر بن عَدِي صبراً، أي إعداماً بالسيف، فلما أخرجوه لإعدامه قال: «لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً، فإنّي لاقٍ معاوية بالجادة، وإني مخاصم»[١]، فضرب عُنقه سيافُ يُقال له الأعور، فقالت الكندية ـ وهي عمة محمد بن الأشعث ـ ترثي حجراً:

دُموعُ عيْنِي دِيمَةٌ تَقْطُرُ ... تبكي على حُجرٍ وما تُقتِرُ
لو كانت القوس على أسره ... ما حُمِّل السيفَ إليه الأعورُ

وقال عبد اللّه بن خليفة الطائي في قصيدة طويلة يرثي حجراً وأصحابه:

على أهل عذراءَ السلام مضاعفاً ... من اللّه وَلْيُسْقَ الغمامَ الكَنَهْورَا
ولاقَىٰ بها حُجُر من اللّه رحمةً ... فقد كان أرْضىٰ اللّه حُجْرُ وأعذرَا
ولا زالَ تهْطالٌ مُلِثٌّ ودِيمةٌ ... على قبر حُجرٍ أو يُنادَى فَيُحْشَرا

(١) الإكليل ـ الهمداني ـ تحقيق الأكوع ـ ص٢٣٠ جـ٢.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٦٣ جـ٦.

فيا حجرُ مَنْ للخيلِ تُدْمَى نُحُورُها ... ولِلمَلِكِ المُغْرِبي إذا ما تَغَشْمرا
ومَنْ صادعٌ بالحقّ بَعدكَ ناطِقٌ ... بتَقوَى ومَن إن قيل بالجوْرِ غيّرا
فنِعْمَ أخو الإسلام كنتَ وإنني ... لأطمَعُ أن تُؤتَى الخلودَ وتُحْبَرا

وقال الحافظ ابن عبد البر في ترجمة حُجْر بن عَدِي الكندي بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب «كان حُجر بن عَدِي من فضلاء الصحابة، وكان على كندة يوم صِفّين وكان على الميسرة يوم النهروان. ولما ولّى معاوية زياداً العراق وما وراءها وأظهر من الغلظة وسوء السيرة ما أظهر، خلعه حُجر ولم يخلع معاوية، وتابعه جماعة من أصحاب عليّ وشيعته.. فبعث به زياد إلى معاوية في اثني عشر رجلاً، فقتل معاويةُ منهم ستة واستحيا ستة، وكان حُجر ممن قُتِل.. قال محمد بن سيرين: إن معاوية لما أُتي بحُجر قال حجر: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: وأمير المؤمنين أنا؟! اضربوا عنقه، فلما قُدِم للقتل.. قال حُجر لمن حضر من أهله: لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً فإني ملاق معاوية على الجادة»[١]، قال الطبري: «قال مخلد، قال هشام كان محمد بن سيرين إذا سُئل عن الشهيد يُغسل، حدّثهم حديث حُجر» (ص١٤٣/ ٦).

فتم قتل وضرب أعناق حجر بن عدي وأصحابه في مرج عذراء، ولم يُغسلوا وإنما دفنوا في الدماء مُرَمَّلِيْنا، وقد ذهب الدكتور طه حسين في كتابه المشهور (في الأدب الجاهلي) إلى أن قصة امرئ القيس بن حُجْر الكندي أصلها قصة عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي، ومع عدم تسليمنا بآراء طه حسين، فإن مقتل حُجْر والد امرئ القيس ومقتل حُجْر عم ابن الأشعث هما نقطة اتفاق بين الواقعتين تلفت الانتباه. فما حدث لحجر بن عدي وأصحابه في مرج عذراء يكاد ينطبق عليه قول امرئ القيس بن حُجْر الكندي:

«ألا يا عينْ بَكّي لي شَنيْنا ... وبَكّي لي المُلُوكَ الذاهبينا
ملوكاً من بني حُجْر ابنِ عَمْرٍو ... يُسَاقُونَ العَشِيَّة يُقْتَلونَا
فلَوْ في يَوْمِ مَعْرَكَةٍ أُصيبُوا ... ولكِنْ في ديَارِ بني مَرِيْنَا
فَلَمْ تُغْسَلْ جَمَاجِمُهُم بِغسْلٍ ... ولكِنْ بالدِّماءِ مُرَمَّلِيْنَا»[٢]

ولكن هذا التشابه لا يعني تأييد رأي طه حسين بأن امرئ القيس بن حُجر إنما هو عبد الرحمٰن بن الأشعث، وإنما يمكن القول إن عبد الرحمٰن تَمَثّل بهذا الشعر

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر ـ ص٣٥٨ جـ١.
(٢) ديوان امرىء القيس ـ ص١٣ وص١٤٧.

لتشابه الواقعتين. وقد سلف ذكر الأبيات التي قالتها هند بنت زيد الأنصارية لما سيق حُجر بن عَدِي إلى معاوية بالشام، فلما أتاها نبأ قتل حُجْر، أضافت هندُ أبياتاً إلى تلك الأبيات ترثي حجراً، منها:

ألا يا ليتَ حُجْراً ماتَ مَوْتاً ولم يُنحَرْ كما نُحِرَ البعيرُ
فإن يَهلكْ فكلُّ زعيمِ قَومٍ من الدنيا إلى هُلكٍ يصيرُ

وهند بنت زيد الأنصارية هي غالباً امرأة حُجْر، وكذلك هند الكندية التي قالت:

دُموعُ عينِي دِيمَةٌ تَقْطُرُ تبكي على حُجْرٍ وما تُقتِرُ

ومن الملفت للانتباه أن امرئ القيس بن حجر يتوجه بشعره إلى امرأة اسمها هند ويعاهدها بالثأر لحُجْر، كما في أبياته التي أولها:

واللّه لا يذهبُ شيخي باطلاً حتى أبير مالكاً وكاهلا
القاتِلِينَ المَلِكَ الحُلاحِلَا خَيْرَ (عَدِيٍّ) حَسَباً ونائلا

ولكن هذا التشابه لا يعني أن الشعر لعبد الرحمٰن بن الأشعث وإنما يمكن القول إنه تمثل به، فامرؤ القيس أراد بقوله (واللّه لا يذهب شيخي باطلاً) أباه حُجْر بن الحارث، بينما شيخ ابن الأشعث هو حُجر بن عَدِي.

ولقد كان لأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق مواقف وأقوال في قتل حُجر بن عَدِي، ولا يمكن الزعم بأن موقف عائشة يعود إلى كون حُجر من أصحاب علي بن أبي طالب وشيعته، فموقف عائشة يؤكد أن قضية حُجر لا علاقة لها بالتشيع، وقد سلفت النصوص بأن حُجْر بن عَدِي هو عم محمد بن الأشعث، ووالدة محمد هي أخت أبي بكر الصديق عمة عائشة، فذلك النسب له أهميته في موقف عائشة. قال الحافظ ابن عبد البر: «بعثت عائشة أم المؤمنين إلى معاوية عبد الرحمٰن بن الحرث بن هشام ـ تقول ـ اللّه اللّه في حُجْر وأصحابه. فوجده عبد الرحمٰن قد قُتِل هو وخمسة من أصحابه، فقال لمعاوية: أين عزب عنك حلم أبي سفيان في حجر وأصحابه ألا حبستهم في السجون وعَرّضتهم للطاعون؟ قال: حين غاب عني مثلك من قومي، قال: واللّه لا تعدّ لك العرب حلماً بعد هذا أبداً ولا رأياً، قَتَلْتَ قوماً بُعث بهم إليك أسارى من المسلمين؟ قال: فما أصنع كتب إليّ فيهم زياد يشدد في أمرهم ويذكر أنهم سيفتقون عليّ فتقاً لا يُرْقع». ـ وقد مات زياد بالطاعون في رمضان سنة ٥٣هـ بالكوفة ـ قال الحافظ ابن عبد البر: «ثم قَدِم معاويةُ المدينةَ فدخل على عائشة فكان أول ما بدأته به قتل حُجر في كلام طويل جرى بينهما، ثم قال معاوية: دعيني وحُجْراً حتى نلتقي عند ربنا.. ورُوينا عن سعيد المقبري قال: لما حجّ معاوية جاء المدينة زائراً فاستأذن على عائشة رضي اللّه عنها،

فأذنت له، فلما قعد، قالت: يا معاوية أأمنت أن أخبئ لك من يقتُلك ـ بأخي محمد ـ فقال: بيت الأمان دخلت. قالت: يا معاوية أما خشيت اللّه في قتل حجر وأصحابه؟ قال: إنما قتلهم من شهد عليهم». فجرى بينهما كلام إلى أن قال معاوية: (فدعيني وحُجراً حتى نلتقي عند ربنا). قال ابن عبد البر: «وعن مسروق بن الأجدع ـ الهمداني ـ قال: سمعت عائشة أم المؤمنين تقول: أما واللّه لو علم معاوية أن عند أهل الكوفة منعة ما اجترأ على أن يأخذ حجراً وأصحابه من بينهم حتى يقتلهم بالشام ولكن ابن آكلة الأكباد علم أنه قد ذهب الناس، أمَا واللّه إن كانوا لجمجمة العرب عزّاً ومنعة وفقهاً، للّه درّ لَبيد حيث يقول:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خَلفٍ كجلد الأجرب

لا ينفعون ولا يُرجَّى خيرُهم ويُعاب قائلهم وإن لم يشغب

. . وعن مبارك بن فضالة قال: سمعتُ الحسن البصري يقول وقد ذكر معاوية وقتله حجراً وأصحابه: ويلٌ لِمَن قتل حُجْراً وأصحاب حُجر». (ص٣٥٩/ ١ ـ الاستيعاب).

وقال ابن الأثير في كتاب الكامل: «قال ابن سيرين: بلغنا أن معاوية لما حضرته الوفاة جعل يقول: يومي منك يا حُجْر طويل». (ص٢٤٣/ ٣) وقد توفي معاوية في رجب سنة ٦٠هـ، ولكن رسالة عبد الرحمٰن بن الأشعث ـ والتي سيأتي ذكرها ـ إلى عبد الملك بن مروان سنة ٨٠هـ تدل على أن قضية حُجر كانت حيّة في نفس عبد الرحمٰن وأنه كان قد عقد العزم على أن يكون لبني أُمية يوم بسبب حُجْر طويل، فكان قتل حجر من بواعث ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث والتي سيأتي ذكرها في ترتيبها الزمني.

* * *

أنباء محمد بن الأشعث في ولاية النعمان. . وفي قضية ابن عقيل

كان معاوية بن أبي سفيان قد ولّى على الكوفة عبد الرحمٰن بن عبد اللّه الثقفي وهو ابن أم الحَكَم، وهو ابن أخت معاوية، وكان لعبد الرحمٰن بن أم الحكم هذا دور في التحريض على حجر بن عَدِي، فهو القائل لمعاوية: «جُذاذها، جذاذها» يشير عليه بقتل حجر وأصحابه، فقال له معاوية: «لا تعنَّ أبْراً» فخرج قادة أهل الشام ولا يدرون ما قال معاوية وابن أم الحكم، فأتوا النعمان بن بشير الأنصاري فأخبروه بما قالا، فقال النعمان: قُتِل القوم. ثم إنّ معاوية ولّى عبد الرحمٰن بن أم الحكم على ولاية الكوفة سنة ٥٧هـ ـ أو ٥٨هـ ـ فانعقد عزم محمد بن الأشعث ووجوه وأهل الكوفة على إخراجه، وكان ابن أم الحكم فاسقاً سيِّء السيرة، فطلبوا من

معاوية عزله، قال ابن الأثير: «ثم إن عبد الرحمٰن بن أم الحكم طرده أهل الكوفة» وقال الطبري: «استعمل معاويةُ ابنَ أم الحَكَم على الكوفة فأساء السيرة فيهم، فطردوه، فلحق بمعاوية»[(١)]. ولم يذكر الطبري وابن الأثير كيف طردوه، والأصوب كما ذكر الهمداني في الإكليل «أن عبد الرحمٰن بن أم الحكم شكاه أشراف الكوفة، وقالوا: شرب الخمر، فعزله معاوية»[(٢)] فقد كتب أشراف ووجهاء ولاية الكوفة ومنهم محمد بن الأشعث إلى معاوية بسوء سيرة ابن أم الحكم وشربه الخمر، فرأى معاوية أن يستميل أهل الكوفة فعزله وأمره بالعودة إليه، وقال ابن كثير: «إن ابن أم الحكم أساء السيرة في أهل الكوفة فأخرجوه من بين أظهرهم طريداً، فرجع إلى خاله معاوية. فقال له: لأولينك مِصراً هو خيرُ لك، فولاه على مصر»[(١)]. وكان عزل عبد الرحمٰن بن أم الحكم عن الكوفة ولحاقه بمعاوية في شهر ربيع الثاني سنة ٥٨هـ، فولّى معاوية على الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري.

ومن المفيدالإشارة إلى أن معاوية بن أبي سفيان ولّى وبعث عبد الرحمٰن بن أم الحكم أميراً على مصر بدلاً عن مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر منذ سنة ٥٠هـ، وكان مُعاوية بن حُديج السكوني رأس اليمانية بمصر، وكان معاوية بن حُديج قد غضب لقتل حجر بن عدي وقال مقالته سالفة الذكر، ثم لما وَلّى معاوية ابن أم الحكم على مصر سنة ٥٨هـ وكما ذكر الحافظ ابن كثير «سار عبد الرحمٰن بن أم الحكم إلى مصر فتلقاه معاوية بن حُديج السكوني على مرحلتين من ـ فسطاط ـ مصر، فقال له: ارجع إلى خالك معاوية، فلَعمْري لا ندعك تدخلها فتسير فينا سيرتك في إخواننا أهل الكوفة، فرجع ابن أم الحكم إلى معاوية. ولحقه معاوية بن حُديج وافداً على معاوية»[(١)]. وكذلك ذكر الحسن الهمداني في الإكليل وقال: «ثم أقبل معاوية بن حُديج إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان إذا وَفَدَ عليه قُلِّسَت له الطرق، والتقليس أن يُضرب عليها قِباب الرياحين»[(١)]، وكذلك ذكر ابن الأثير وقال: «ثم إن معاوية بن حُديج وَفَدَ على معاوية، وكان إذا قَدِم إلى معاوية ـ بالشام ـ زُينت له الطرق بقباب الرياحين تعظيماً لشأنه»[(١)]، قال الحافظ ابن كثير والطبري وابن الأثير: «فدخل ابن حُديج على معاوية وعنده أخته أم الحكم وهي أم عبد الرحمٰن ـ وكانت في ناحية تسمع الكلام ـ فقالت: مَنْ هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: بَخٍ بَخٍ، هذا معاوية بن حُديج.

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٥٤ جـ٣ ـ وتاريخ الطبري ـ ص١٧٤ جـ٦ ـ والبداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٨٢ جـ٨.
(٢) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٣١ جـ٢.

فقالت: لا مرحباً به، تسمع بالمُعيديّ خيرٌ من أن تراه[١] أنت الفاعلُ في ابني ما فعلت. فقال معاوية بن حُديج: على رِسْلِكِ يا أمّ الحكم، أما واللّه لقد تزوجت فما استكرمتِ، وولدتِ فما أنْجبتِ، أردت أن يلّي ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار في إخواننا أهل الكوفة، فما كان اللّه ليريه ذلك، ولو فعل ذلك لضربناه ضرباً يُطاطئ منه رأسه، وإن كره ذلك هذا القاعد ـ يعني خاله معاوية ـ فالتفت إليها معاوية وقال: كُفّي، فَكَفّت»[٢] وكذلك جاء في الإكليل إلى قوله: « . . ولو أراد لضربناه ضرباً يُصَأصئ منه»[١] وإن كره ذلك أمير المؤمنين. فقال لها معاوية: عزمتُ عليك لما سَكتِ»[٣]. وأقرّ معاوية استمرار مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري والياً على مصر، وعاد معاوية بن حُديج راضياً إلى مصر، كما رضي أهل الكوفة بتولية النعمان بن بشير الأنصاري، وأقام عبد الرحمٰن بن أم الحكم عند والدته معزولاً مطروداً من الكوفة ومصر.

وفي ولاية النعمان بن بشير الأنصاري للكوفة (٥٨ ـ ٦٠هـ) استتبت الأمور وساد الاستقرار، وكان محمد بن الأشعث ذا زعامة ومكانة عالية بالكوفة تدل على مداها قصيدة أعشى هَمْدان التي سيأتي ذكرها، وجاء في أنباء سنة ٥٩هـ بتاريخ الطبري أنه «قَدِم عبد الرحمٰن بن زياد على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين أما لنا حَقٌّ؟ قال: بَلَى، قال: فماذا توليني؟ قال مُعاوية: بالكوفة النعمان وهو رجل رشيد من أصحاب النبي ﷺ، وبالبصرة عبيد اللّه بن زياد ولست أرى إلا أن أشركك في عمل أخيك عبيد اللّه»، وذكر الطبري في أحداث سنة ٥٩هـ أيضاً أنه «وَفَد عبيد اللّه بن زياد أمير البصرة على معاوية في أشراف أهل البصرة، ـ وقيل: في أشراف أهل العراق ـ فأذِن لهم معاوية، ودخل الأحنف بن قيس فرحب به معاوية وأجلسه على سريره» ثم ذكر الطبري في موضع آخر أنه «أذن معاوية للأحنف، وكان يبدأ بإذنه، ثم دخل محمد بن الأشعث فجلس بين معاوية والأحنف، فقال معاوية: إنّا لم نأذن له قبلك فتكون دونه. . إنّا كما نملك أموركم نملك إذنكم، فأريدوا منّا ما نريد منكم فإنه أبقى لكم». وكان الأحنف بن قيسَ في وفد أشراف البصرة ومحمد بن الأشعث في وفد أشراف الكوفة، فتكلم وفد أهل البصرة وقال لهم معاوية: «قد عزلت عبيد اللّه عنكم فاطلبوا والياً ترضونه، فتكلموا وأثنوا على عبيد اللّه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: ما لك لا تتكلم؟ فقال: إن وليت علينا أحداً من أهل بيتك لم نعدل بعبيد اللّه أحداً وإن وليت مِنْ غيرهم فانظر في

---

(١) جاء في هامش الكامل «هذا مثل يُضرب لمن كانت شهرته عظيمة وشكله ليس كذلك» وقوله: (يصاصىء منه: صاصأ: ذلّ وخاف).

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٥٤ جـ٣ ـ وتاريخ الطبري ـ ص١٧٤ جـ٦ ـ والبداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٨٢ جـ٨.

(٣) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٣١ جـ٢.

ذلك، فقال معاوية: فإني قد أعدتُه والياً عليكم». وأما محمد بن الأشعث وأشراف الكوفة فأثنوا على النعمان بن بشير الأنصاري، وكان النعمان أهلاً للثناء، وقد قال معاوية: «بالكوفة النعمان وهو رجل رشيدٌ من أصحاب النبي ﷺ». فعاد عبيد اللّه بن زياد والياً على البصرة، واستمر النعمان بن بشير الأنصاري والياً للكوفة، وكان النعمان ذا سياسة حسنة أديباً شاعراً ذا نزعة يمانية، وقال في قصيدة له:

ومِنْ سبأ أصْلي وفرعي ومَحْتدي ... تنازعُني منها الجدود الأكارمُ
لنا في بني قحطان سبعون تُبّعاً ... دانت لهم بالخرج منها الأعاجمُ
ومنّا ملوكُ الناس: فَهْدٌ وتُبَّعٌ، ... وعبد كُلالٍ، والقرومُ القماقمُ
وحسان ذو الشَّعْبين منّا، ويُرْعشُ، ... وذو يزنٍ، تلك البحورُ الخضارمُ

ولم يزل النعمان بن بشير والياً للكوفة حتى وفاة معاوية وأيلولة الخلافة إلى يزيد بن معاوية في رجب سنة ٦٠هـ، قال الطبري: «فأقرّ يزيد بن معاوية عبيد اللّه بن زياد على البصرة والنعمان بن بشير الأنصاري على الكوفة».

ثم وقعت مراسلات بين بعض أهل الكوفة وبين الحسين بن علي بن أبي طالب وهو بمكة يدعونه إلى القدوم عليهم ويبايعونه، فَوَجّه إليهم مسلم بن عقيل بن أبي طالب، قال الطبري: «فلما تحدث أهل الكوفة بمقدمه دبوا إليه فبايعه منهم اثنا عشر ألفاً، فقام رجل ممن يهوى يزيد بن معاوية إلى النعمان بن بشيرالأنصاري فقال له: إنك ضعيف أو متضعفٌ قد فسد البلاد (يريد منه أن يبطش بالمتهمين بمكاتبة الحسين) فقال له النعمان: أن أكون ضعيفاً وأنا في طاعة اللّه أحبّ إليّ من أن أكون قوياً في معصية اللّه وما كنتُ لأهتك ستراً ستَرَهُ اللّه. فكتب الرجل بقول النعمان إلى يزيد بن معاوية. . فكتب يزيد إلى عبيد اللّه بن زياد بالبصرة بأنه قد ولاه الكوفة مع البصرة وأن يطلب مسلم بن عقيل فيقتله إن وجده. فأقبل عبيد اللّه بن زياد في وجوه أهل البصرة حتى قدم الكوفة متلثماً. . فظن الناس أنه الحسين فأخذوا يخرجون إليه ويرحبون به، وسمع بهم النعمان بن بشير فغلق عليه وعلى خاصته دار الإمارة فانتهى إليه عبيد اللّه بن زياد وهو لا يشك أنه الحسين، فكلمه النعمان فقال: أنشدك اللّه إلا تنحيت عني ما أنا بمسلم إليك أمانتي ومالي في قتلك من أرب، فقال عبيد اللّه: افتح لا فتحت، فقال أحد أصحاب النعمان: ابن مرجانة والذي لا إله غيره. ففتح له النعمان، فإذا هو ابن مرجانة عبيد اللّه بن زياد». فتولى عبيد اللّه مقاليد الأمور وكان عند النعمان رؤساء أهل الكوفة وفيهم محمد بن الأشعث، واجتمع إلى عبيد اللّه أشراف أهل الكوفة وفرسانهم وأظهروا جميعاً الطاعة، وقد ذكرت الروايات أمرين بشأن محمد بن الأشعث:

الأمر الأول: «قال عبيد اللّه بن زياد لوجوه أهل الكوفة: ما لي أرى هانئ بن

عروة المرادي لم يأتني فيمن أتاني. فخرج إليه محمد بن الأشعث في ناس من قومه وهو على باب داره، فقالوا: إن الأمير قد ذكرك واستبطأك فانطلق إليه، فلم يزالوا به حتى ركب معهم إلى عبيد اللّه بن زياد»(١)، فهذه الرواية تدل على حرص محمد بن الأشعث على هانئ بن عروة والذين معه من مراد ومذحج، وكان عبيد اللّه قد بلغه أن مسلم بن عقيل بن أبي طالب عند هانئ بن عروة، وكان يمكن أن يوجه جيشاً ويبطش بهانئ بن عروة وقومه ويهدم دورهم، فبادر محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة بالمسير إلى هانئ وأقنعاه بالحضور إلى عبيد اللّه، فوقع بين هانئ وعبيد اللّه بن زياد كلام، فأمر عبيد اللّه بحبسه، وذكر الطبري في موضع آخر أنه «قام محمد بن الأشعث إلى عبيد اللّه بن زياد فكلمه في هانئ بن عروة وقال: إنك قد عرفت مَنزلةَ هانئ بن عُروة وقد علم قومه أني وصاحبي سُقناه إليك، فأنشدك اللّه لما وهبتَه لي فإني أكرهُ عداوة قومه وهُم أعزّ أهل المِصر وعَددُ أهل اليمن، فوعده عبيد اللّه أن يفعل»(١).

وذكر ابن الأثير: أن عبيد اللّه بن زياد كان قد دَسّ مولى له فدخل إلى مسلم بن عقيل وهو عند هانئ بن عروة فبايع مسلم بن عقيل وجعل يعلم أسرارهم وينقلها إلى ابن زياد، فكتم ابن زياد ذلك. «فدعا ابن زياد محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة وعمرو بن حجاج الزبيدي، فسألهم عن هانئ وانقطاعه فقالوا: إنه مريض، فقال: بلغني أنه يجلس على باب داره وقد برأ. فساروا إليه فقالوا له: إن الأمير سأل عنك وقد بلغه أنك تجلس على باب دارك وقد استبطأك والجفاء لا يحتمله السلطان، أقسمنا عليك إلا ركبت معنا، فركب معهم إلى ابن زياد»(١)، ثم أمر ابن زياد بحبس هانئ بن عروة، ووعد محمد بن الأشعث بإطلاق سراحه. وبعث ابن زياد القادة والجنود والعيون يبحثون عن مسلم بن عقيل، وقد تفرّق عنه الناس حتى لم يبق معه أحد، «فمضى مسلم بن عقيل في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب، فانتهى إلى باب امرأة من كندة يقال لها طوعة أم ولد كانت للأشعث وأعتقها فتزوجها أسيد الحضرمي، فولدت له بلالاً، وكان بلال قد خرج مع الناس وهي تنتظره. فسلم عليها ابن عقيل وطلب الماء فَسَقته، فجلس، فقالت له طوعة: يا عبد اللّه ألم تشرب؟ قال: بَلَىٰ، قالت: فاذهب إلى أهلك، فسكت. فقالت: سبحان اللّه إني لا أحلّ لك الجلوس على بابي، فقال لها: ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة.. أنا مسلم بن عقيل وقد كذبني هؤلاء القوم وغَرّوني، فأدخلته بيتاً ـ أي غرفة ـ في

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٩٤ ـ ٢١٣ جـ٦ ـ والكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢٧٠ ـ ٢٧٣ جـ٣.

دارها، وجاء ابنها بلال، فعرف بالأمر، فاستكتمته أُمه، فسكت. وأما ابن زياد، فوجه الحصين بن تميم التميمي صاحب شرطته وأمره أن يفتش الدور، وبعث عمرو بن حريث بالجنود على أبواب السكك، يبحثون عن ابن عقيل.

الأمر الثاني: أن عبيد اللّٰه بن زياد عرف بأن مسلم بن عقيل في دار طَوعة التي كانت أم ولد للأشعث بن قيس، وكان بلال ابن طوعة «أتى عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث فأخبره بمكان ابن عقيل فأتى عبد الرحمٰن أباه وهو عند ابن زياد فأسرّه بذلك» ـ أي أخبره سراً بأن مسلم بن عقيل في منازل كندة في دار طوعة ـ وكان ابن زياد قد خطب في أهل الكوفة وأنذرهم ببراءة ذمته ممن يوجد ابن عقيل في داره أو دور عشيرته، فرأى محمد بن الأشعث أن يخبره بأنه في دار امرأة من كندة، وكان ابن زياد قد عرف من جواسيسه بذلك، وبأنه في منطقة كندة، فقال ابن زياد لمحمد بن الأشعث: قم فائتني بمسلم بن عقيل وله الأمان، وبعث معه عمرو بن عبيد اللّٰه السلمي في سبعين مقاتلاً من القيسية، فأحاطوا بالدار التي فيها ابن عقيل واقتحموها، فأراد أن يقاتلهم، فقال له محمد بن الأشعث: «إن لك الأمان فلا تقتل نفسك، وإن القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك. وكان ابن عقيل قد أُثخن بالحجارة وعجز عن القتال، فأسند ظهره إلى حائط ذلك الدار، فقال لابن الأشعث: آمن أنا؟ قال: نعم، وقال بقية القوم: أنت آمن، غير عمرو بن عبيد اللّٰه السلمي فإنه قال: لا ناقة لي في هذا ولا جمل. ثم أتوا ببغلة فحملوا مسلم بن عقيل عليها وانتزعوا سيفه، فكأنه أيس من نفسه فدمعت عيناه ثم قال هذا أول الغدر.. ثم بكى، فقال له عمرو السلمي: من يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك.. وقال له محمد بن الأشعث: أرجو أن لا يكون عليك بأس، فقال: ما هو إلا الرجاء أين أمانكم، وقال: ما أبكي لنفسي ولكني أبكي لأهلي المنقلبين إليكم أبكي للحسين وآل الحسين. ثم قال لمحمد بن الأشعث: إني أراك ستعجز عن أماني فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، وإن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي، فقال له ابن الأشعث: واللّٰه لأفعلن».

ولما مَثَلَ مسلم بن عقيل بين يدي عبيد اللّٰه بن زياد في دار الإمارة، قام ابن زياد بتعنيف مسلم بن عقيل، قال الطبري: «فأخبر محمد بن الأشعث عبيد اللّٰه بن زياد بما كان من أمان مسلم بن عقيل، فقال عبيد اللّٰه: ما أنت والأمان، ما أرسلناك لتؤمنه، وإنما لتأتينا به». وبذلك تبينت فراسة مسلم بن عقيل بأن ابن زياد سوف يغدر، بينما كان ابن الأشعث يظن بأن القوم لن يخدعوا مسلم بن عقيل لأنهم بنو

عمه، لأن بني أمية وبني هاشم من ولد قصيّ بن كلاب من قريش فَهُم بنو عمومة، وتحاول إحدى روايات الشيعة تحميل محمد بن الأشعث مسؤولية إعطاء الأمان لمسلم بن عقيل وعدم وفاء ابن زياد بذلك وقيامه بقتل مسلم بن عقيل، بينما المسؤولية إنما تقع على الثمانية عشر ألفاً من الشيعة الذين بايعوا مسلم بن عقيل للحسين بن عليّ، ثم تفرقوا جميعاً عن مسلم بن عقيل، بل انضموا إلى صفوف ابن زياد، فكان خذلان الشيعة لمسلم بن عقيل وللحسين هو سبب ما حدث، أما ابن الأشعث فلم يكن ممن بايع مسلم بن عقيل وإنما كان مع النعمان بن بشير الأنصاري فلما تولى الكوفة عبيد اللّٰه بن زياد حاول ابن الأشعث تجنيب هانئ بن عروة المرادي وقومه من بطش ابن زياد وتأمين مسلم بن عقيل، وكان ابن زياد قد وعده بإطلاق سراح هانئ بن عروة، فلما أصبح مسلم بن عقيل بيد ابن زياد أحضر ابن زياد مولاه الذي كان قد دسه على هانئ بن عروة ومسلم بن عقيل، فأحضر ابن زياد هانئ ودعا مولاه ذاك العين فقال له: أتعرف هذا؟ قال: نعم، فعلم هانئ أنه كان عيناً عليهم، وتكلم العين بكل ما كان، فأمر عبيد اللّٰه بن زياد بقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة فتم قتلهما معاً في سوق الكوفة، فقال الشاعر في ذلك:

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري إلى هانئ في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشّم السيف وجهه وآخر يهوى من طمار قتيل

وكان مخرج مسلم بن عقيل بالكوفة لثماني ليال مضين من ذي الحجة سنة ٦٠هـ وكتب ابن زياد إلى يزيد بن معاوية بقتل مسلم وهانئ، فكتب إليه يزيد يشكره ويقول له: قد بلغني أن الحسين توجه إلى العراق فضع المراصد والمسالح واحترس، وافعل كذا وكذا.

ابن الأشعث يحذر الحسين بن عليّ

وقد وَفَىٰ محمد بن الأشعث بوعده لمسلم بن عقيل بن أبي طالب بأن يبعث رجلاً من عنده إلى الحسين بن علي بن أبي طالب يقول له: إن ابن عقيل يقول ارجع بأهل بيتك ولا يغرّك أهل الكوفة فقد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي. . فقال ابن الأشعث لمسلم بن عقيل: واللّٰه لأفعلنّ. فذكر الطبري من طريق جعفر بن حذيفة الطائي قال: «دعا محمد بن الأشعث إياس بن العثل الطائي وكان شاعراً وكان لمحمد بن الأشعث زَوّاراً، فقال له: الق الحسين بهذا الكتاب، وكتب فيه الذي أمره ابن عقيل، وقال لإياس: هذا زادُك وجهازك ومُتْعةٌ لعيالك، فقال: من أين لي براحلة فإن راحلتي قد أنضيْتُها، فقال ابن الأشعث: هذه راحلة فاركبها برَحلها. ووهبه إياها ثم سار إياس بن العثل فلقي حسيناً بزُبالة لأربع ليال (أي مسيرة أربع ليال)».

قال الطبري: «وقد كان مسلم بن عقيل كتب إلى الحسين بن عليّ: قد بايعني ثمانية عشر ألفاً من أهل الكوفة، فعجِّل الإقبال حين يأتيك كتابي فإن الناس كلهم معك»، وكان الحسين قد سار من مكة يوم التروية، قال ابن الأثير: «وأتاه خبر قتل مسلم بن عقيل بالثعلبية.. ثم ارتحلوا فانتهوا إلى زبالة. فلقيه رسول ابن الأشعث بزبالة» فأخبره رسول ابن الأشعث وهو إياس الطائي بكل ما حدث بالكوفة وما أمره محمد بن الأشعث أن يخبره به، وناوله كتاب محمد بن الأشعث ويقول له على لسان ابن عقيل: ارجع بأهل بيتك ولا يغرّك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذين كان يتمنّى فراقهم بالموت أو القتل، فإن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي، «فقال الحسين لرسول ابن الأشعث: كل ما حُمَّ نازل، وعند اللّٰه نحتسب أنفسنا وفساد أمتنا». ومما يتصل بذلك ما ذكره ابن الأثير: أن الحسين لما أتاه خبر قتل مسلم بن عقيل قال له بعض أصحابه: ننشدك اللّٰه إلا رجعت من مكانك فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف عليك أن يكونوا عليك.. وقال له بعض أصحابه: إنك واللّٰه ما أنت مثل مسلم بن عقيل ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع». (ص٢٧٣/ ٣ ـ الكامل).

وقد تلا ذلك ما هو معروف ومذكور بالتفصيل في الروايات من مسير الحسين قاصداً الكوفة وكان الناس في جيش عبيد اللّٰه بن زياد فاستشهد الحسين بكربلاء في محرم ٦١هـ واستمر عبيد اللّٰه بن زياد والياً ليزيد بن معاوية على ولايتي البصرة والكوفة إلى أن مات يزيد بن معاوية ـ في ربيع أول ٦٤هـ ـ ثم مات معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ثلاثة أشهر من خلافته ـ في جمادى ٦٤هـ ـ ولم يستخلف أحداً، وكان عبيد اللّٰه بن زياد بالبصرة ونائبه بالكوفة عمرو بن حريث، فقال ابن زياد: إن الذي كنا نقاتل على طاعته قد مات فإن أمرتموني توليت أمركم حتى يجتمع الناس على خليفة، فأجابه أهل البصرة إلى ذلك، وبعث إلى أهل الكوفة مقاتل بن مسمع وسعيد بن القرحا التميمي يدعوان إليه مع عمرو بن الحريث نائبه بالكوفة، فخطب الثلاثة في أهل الكوفة يدعون لمبايعة ابن زياد، قال الطبري: «فقام يزيد بن الحارث الشيباني فقال: الحمد للّٰه الذي أراحنا من ابن سميّة، أنحن نبايعه، لا ولا كرامة. فأمر به عمرو إلى السجن، فحالت بكر بينه وبينهم، فانطلق يزيد الشيباني إلى أهله خائفاً، فأرسل إليه محمد بن الأشعث: إنّك على رأيك ـ أو: إننا على رأيك ـ. وصعد عمرو بن حريث المنبر، فحصبوه، فدخل داره. واجتمع الناس إلى المسجد، فقالوا: نؤمر رجلاً إلى أن يجتمع الناس على خليفة، فأجمعوا على عمرو بن سعيد بن العاص» قال ابن الأثير: «وكانت كندة تقوم بأمر عمر بن سعد لأنهم أخواله. فجاءت نساء همدان يبكين الحسين، ورجالهم متقلدي السيوف، فقال

محمد بن الأشعث: جاء أمر غير ما كنا فيه. فاجتمعوا على عامر بن مسعود الجُمحي فبايعه أهل الكوفة وكتبوا بذلك إلى عبد اللّه بن الزبير». وكان القول الفصل في ذلك لكندة بزعامة محمد بن الأشعث وهمدان بزعامة عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الحاشدي الهمداني خال عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، فأجمع أهل الكوفة ـ بعدهما ـ على تأمير عامر بن مسعود الجمحي والارتباط بعبد اللّه بن الزبير الذي بويع بالخلافة في مكة، فلما علم أهل البصرة بذلك خلعوا عبيد اللّه بن زياد، فخرج هارباً حتى لحق بالشام، فانضوت البصرة والكوفة والجزيرة العربية في خلافة عبد اللّه بن الزبير، بينما آل الأمر في الشام إلى مبايعة مروان والد عبد الملك بن مروان فانقسم أمر الخلافة.

* * *

ولاية محمد بن الأشعث للموصل

قال ابن الأثير في أنباء سنة ٦٤هـ «لما بايع أهل الكوفة عامر بن مسعود وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير أقرّه عليها فمكث ثلاثة أشهر من مهلك يزيد بن معاوية، ثم قدم عليهم عبد اللّه بن يزيد الأنصاري على الصلاة وإبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج من قبل ابن الزبير، واستعمل محمد بن الأشعث بن قيس على الموصل. فاجتمع لابن الزبير أهل الكوفة والبصرة ومن بالقبلة من العرب وأهل الجزيرة..»[١] ـ أي الجزيرة الفراتية ـ وكانت الموصل وما جاورها من الجزيرة ولاية واحدة، فانطلق إليها محمد بن الأشعث على رأس قوة من فرسان كندة وربما أيضاً من همدان، وكانت تولية محمد بن الأشعث بعد ثلاثة أشهر من وفاة يزيد بن معاوية، والأصوب من وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية، فيكون ذلك في أواسط شهر رمضان سنة ٦٤هـ، فأتى محمد بن الأشعث مدينة الموصل واستقر بها أميراً والياً للموصل وما جاورها من الجزيرة من قِبل عبد اللّه بن الزبير، قال الطبري: «وكان محمد بن الأشعث في إمارة عبد اللّه بن يزيد وإبراهيم بن محمد للكوفة منقطعاً بإمارة الموصل لا يكاتب أحداً دون ابن الزبير»[٢]، واستمر محمد بن الأشعث كذلك سنة كاملة إلى أن ولّى ابن الزبير على الكوفة عبد اللّه بن مطيع العدوي في رمضان سنة ٦٥هـ، فجعل ابن الزبير ولاية الموصل والجزيرة مرتبطة بوالي الكوفة، قال الطبري: «وكان عبد اللّه بن الزبير قد بعث محمد بن الأشعث أميراً على الموصل، فأمره بمكاتبة ابن مطيع وبالسمع له والطاعة غير أن ابن مطيع لا يقدر على عزله إلا بأمر ابن الزبير»[٢].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٢٥ جـ٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٩٤ و ٢١٣ جـ٦.

وكان قدوم ابن مطيع الكوفة في رمضان لخمس بقين منه ـ في سنة ٦٥هـ ـ فتولاها، واستمر محمد بن الأشعث والياً للموصل وكان يكاتب ابن مطيع إلى شهر ربيع أول سنة ٦٦هـ حيث وثب المختار بن أبي عبيد الثقفي بالكوفة وأخرج منها ابن مطيع عامل عبد اللّٰه بن الزبير، بعد قتال بالكوفة، فلما سيطر المختار الثقفي على الكوفة، كتب إلى عبد اللّٰه بن الزبير زاعماً أنه في طاعته، فأصبح كالوالي لعبد اللّٰه بن الزبير، فبعث المختار الولاة على المناطق المرتبطة بالكوفة، فولّى عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الهمداني على الموصل وهو خال عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، قال الطبري: «فلما قدم عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس من قِبل المختار أميراً تنحى له محمد بن الأشعث عن الموصل، وأقبل حتى نزل تكريت وأقام بها مع أناس من أشراف قومه وغيرهم وهو معتزل ينظر ما يصنع الناس وإلى ما يصير أمرهم، ثم شخص إلى المختار ـ بالكوفة ـ . . ودخل فيما دخل فيه أهل البلاد»[1]، فكانت ولاية محمد بن الأشعث للموصل زهاء سنتين، وكان معه عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث.

ومن المفيد الإشارة أن عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الهمداني لما تولى الموصل لم يلبث فيها إلا يسيراً، حتى بعث عبد الملك بن مروان جيشاً بقيادة عبيد اللّٰه بن زياد ـ أمير العراق السابق ـ فلما دخل ابن زياد أوائل أرض ولاية الموصل تنحى له عبد الرحمٰن بن سعيد إلى تكريت وكتب إلى المختار لكي يمده بجيش، فبعث المختار يزيد بن أنس الأسدي في ثلاثة آلاف من الفرسان، وكتب إلى عبد الرحمٰن بن سعيد أن خل بين يزيد وبين الموصل، فانتهت ولاية عبد الرحمٰن بن سعيد وسار يزيد الأسدي بالجيش فهزمه عبيد اللّٰه بن زياد وأخذ بلاد الموصل، فبعث المختار القائد اليماني إبراهيم بن الأشتر النخعي المذحجي وسار مع ابن الأشتر سبعة آلاف، فالتقى ابن الأشتر بجيش ابن زياد ـ في ذي الحجة ـ فهزمهم هزيمة ساحقة وسقط ابن زياد قتيلاً، فقال سراقة بن مرداس البارقي الأزدي يمدح إبراهيم بن الأشتر:

أتاكم غُلامٌ مِنْ عَرَانين مذْحج ... جريءٌ على الأعداء غير نكول
فيا ابن زيادٍ بُؤْ بأعظم هالكٍ ... وذُقْ حدّ ماضي الشفرتين صقيل
جَزَى اللّٰهُ خيراً شُرطة اللّٰه إنهم ... شفوا من عبيد اللّٰه أمس غليلي

وبعث إبراهيم بن الأشتر عماله على الجزيرة الفراتية وأقام بالموصل والياً للموصل والجزيرة الفراتية من ذي الحجة ٦٦هـ إلى أن تولاها المهلب بن أبي

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٩٤ و ٢١٣ جـ٦.

صُفرة الأزدي مِنْ قِبَل مصعب بن الزبير في رمضان سنة ٦٧هـ بعد انتهاء فتنة المختار الثقفي.

* * *

التصدي لفتنة المختار.. واستشهاد محمد بن الأشعث

في أوائل سنة ٦٧هـ اجتمع محمد بن الأشعث، وعبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس، وشبث بن ربعي، وغيرهم من أشراف المقيمين بالكوفة، قال ابن الأثير: «فقالوا: إن المختار تأمّر علينا بغير رضا منّا، ولقد أذرى بموالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم فيئنا. فقال لهم شبث: دعوني حتى ألقاه، فذهب إليه فلم يدع شيئاً أنكروه إلا ذكره له، فأخذ لا يذكر خصلة إلا قال المختار: أنا أرضيهم في هذه الخصلة وآتي لهم كل ما أحبوا، وذكر له الموالي ومشاركتهم في الفيء، فقال له: إن أنا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معي بني أمية وابن الزبير وتعطوني على الوفاء عهد اللّه وميثاقه وما أطمئن إليه من الأيمان؟ فقال: حتى أخرج إلى أصحابي فأذكر لهم ذلك، فخرج إليهم فلم يرجع إليه، وأجمع رأيهم على قتاله، فاجتمع شبث بن ربعي، ومحمد بن الأشعث، وعبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس، ودخلوا على كعب بن أبي كعب الخثعمي فكلموه في ذلك فأجابهم إليه، فخرجوا من عنده حتى دخلوا على عبد الرحمٰن بن مِخْنف الأزدي فدعوه إلى ذلك..» (ص٣٦٦/ ٣).

وقد أشارت الرواية السالفة إلى أمرين، أحدهما: أمر الموالي والعبيد الذين أشركهم المختار في الفيء والعطاء وباتوا طوع إرادته. وثانيهما: نية المختار بالخروج على ابن الزبير وهو خليفتهم الذي منه يستمد المختار شرعية ولايته حتى ذلك الوقت، ولكن الأمر الأكثر أهمية كان أمر كرسي المختار وقد ذكره الطبري وابن الأثير بتفصيل واسع، وهو كرسي قديم ملفوف بالحرير والديباج كان المختار يزعم أنه في هذه الأمة مثل التابوت في بني إسرائيل وكان المختار يسير والكرسي أمامه على بغلة ويمسك بيمين الكرسي سبعة من الموالي وبيسار الكرسي سبعة من الموالي، ويطوفون حول الكرسي ويعكفون حوله ويُقدسُونه. وقد ذكر الطبري عن فضيل بن خديج قال: إن إبراهيم بن الأشتر النخعي نظر إلى أصحاب الكُرسي وقد عكفوا حوله وهم رافعو أيديهم إلى السماء يستنصرون، فقال إبراهيم بن الأشتر: اللّهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء، سُنة بني إسرائيل والذي نفسي بيده إذْ عكفوا على عِجْلهم) وقال أعْشَى هَمْدان في ذلك:

شهدتُ عليكم أنكم (صابئية) وإني بكم يا شُرْطَة الشِّرْكِ عارفُ

وأقْسِمُ ما كُرْسِيُّكم بسَكينةٍ ... وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللفائفُ
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سَعَتْ ... شِبَامٌ حواليه ونَهْدٌ وخارفُ

يعني موالي شِبام ونهد وخارف، وقد يكون (شبامُ مواليها ونَهدُ وخارفُ).
وقال المتوكل الليثي في أبيات له:

أبْلِغْ أبا إسحاق إن جئتَهُ ... أني بكُرْسِيِّكُمُ كافرُ

وكان المختار الثقفي يكنى أبا إسحاق، وكان أحدَ أصحاب المختار رجلاً يكنى أبا أُمامة «يأتي مجلس أصحابه فيقول قد وُضع لنا اليوم وحيٌّ ما سمع الناس بمثله فيه نبأ ما يكون من شيء» (ص١٤١/ ٧ ـ الطبري).

وقال الحافظ ابن حجر: «أخبار المختار بن أبي عبيد الثقفي غير مرضية، حكاها عنه ثقات.. وكان قد طلب الإمارة وغلب على الكوفة.. وكان قبل ذلك معدوداً في أهل الخير والفضل إلى أن فارق ابن الزبير وكان يتزين بطلب دم الحسين ويسر طلب الدنيا فيأتي بالكذب والجنون.. وقد شهد عليه بدعوى النبوة والكذب الصريح جماعة.. ومما ورد في ذلك ما أخرجه أحمد من طريق السدي عن رفاعة الغساني قال: دخلت على المختار فألقى إليّ وسادة وقال: لولا أن أخي جبرائيل قام عن هذه وأشار إلى أخرى عنده لألقيتها لك. قال رفاعة: فأردت أن أضرب عُنقه.. وقال ابن حِبان في ترجمة صفية بنت أبي عبيد في الثقات: هي أخت المختار المتنبي بالعراق. وأقوى ما ورد فيه ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «يكون في ثقيف كذاب ومبير»، فشهدت أسماء أن الكذاب هو المختار المذكور.. وقتل المختار محمد بن عمار بن ياسر ظلماً لأنه سأله أن يحدث عن أبيه بحديث كذب فلم يفعل فقتله». (ص٥١٨/ ٣ ـ الإصابة).

وقد جرت الاتصالات سالفة الذكر بين أشراف الكوفة وفيهم محمد بن الأشعث، وعبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس، لقتال المختار، في ذات الفترة التي ولّى فيها عبد اللّٰه بن الزبير على البصرة أخاه مصعب بن الزبير، فأظهر المختار الخلاف لعبد اللّٰه بن الزبير، فيكون ذلك في أوائل سنة ٦٧هـ، وقد ذكر الطبري وابن الأثير نبأ ذلك والمعركة بالكوفة بأنها في ذي الحجة سنة ٦٦هـ قبل مسير إبراهيم بن الأشتر لمحاربة ابن زياد بالموصل، ولكن ابن الأثير استدرك قائلاً: «وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة». وكانت تولية مصعب وقدومه البصرة في أوائل سنة ٦٧هـ. فلما جرت بين أشراف الكوفة الاتصالات سالفة الذكر، حشد المختار أتباعه من الشيعة والموالي والعبيد وكان معه جماعة من فرسان العرب الأشداء، بينما جمع بعض أشراف الكوفة قبائلهم وعشائرهم في جبانة السبيع

الهمدانية بالكوفة، وكان محمد بن الأشعث سار إلى قريته بالقادسية لجمع من في تلك الجهات وما يليها من الكوفة، فبادر المختار بالهجوم على المجتمعين في السبيع، فانهزموا، وكان من أبرز من قتلهم المختار هناك عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الهمداني، وهرب الكثير من أشراف وفرسان الكوفة إلى البصرة، ووقع سراقة بن مرداس البارقي الأزدي أسيراً، وهو الشاعر الذي تقدمت أبياته في إبراهيم بن الأشتر لما انتصر على ابن زياد بالموصل، فلما وقع سراقة بن مرداس أسيراً ـ وكما ذكر الطبري وابن الأثير ـ «قال سراقة بن مرداس للمختار: احلف باللّٰه الذي لا إله إلا هو لقد رأيتُ الملائكة تُقاتل معك على الخيول البلق بين السماء والأرض، فقال له المختار: اصعد المنبر فاعْلِم الناس، فصعد فأخبرهم بذلك، ثم نزل فخلا بالمختار فقال له: إني قد علمتُ أنك لم تر الملائكة وإنما أردت أن لا أقتلك فاذهب عني حيث شئت، وخَلَّىٰ سبيله، فلحق سراقة بن مرداس بعبد الرحمٰن بن مِخنف الأزدي عند مصعب بن الزبير بالبصرة، فخرج سراقة بن مرداس من الكوفة وهو يقول:

ألا أبْـلِـغ أبـا إسـحـاق أنـي رأيـتُ الـبُـلْـق دُهْـمـاً مُـصْـمـتَـاتِ

كـفَـرْتُ بـوحـيِـكُـم وجـعـلـتُ نـذراً عـلـيَّ قِـتـالـكـم حـتـى الـمـمـاتِ

أرِي عَـيْـنَـيَّ مـا لـم تُـبـصِـراهُ كـلانـا عـالـمُ بـالـتـرَّهـاتِ

وتؤكد هذه الواقعة أن انتصار إبراهيم بن الأشتر النخعي على عبيد اللّٰه بن زياد ومقتل ابن زياد في الموصل كان قبل أن يظهر المختار الخلاف لابن الزبير ويحارب أهل الكوفة ويستقل بحكمها، فمعركة الكوفة هذه كانت في أوائل سنة ٦٧هـ فلحق أشراف الكوفة وسراقة بن مرداس بالبصرة. وكان محمد بن الأشعث الكندي في قرية له مما يلي القادسية وهي طَيْزناباذ، فأقْبَل منها إلى البصرة. فأتى محمد بن الأشعث إلى مصعب بن الزبير أمير ولاية البصرة يحثه على المسير لمواجهة المختار الثقفي بالكوفة. قال الطبري: «وكان أشراف الكوفة دخلوا على مصعب فأخبروه بما أُصيبوا به ووثوب عبيدهم ومواليهم عليهم وسألوه النصرة والمسير لقتال المختار معهم. وقَدِم عليه محمد بن الأشعث واستحثه على الخروج، فأدناه مُصعب وأكرمه لشرفه». وقال ابن الأثير: «وقَدِم على مصعب محمد بن الأشعث أيضاً واستحثه على المسير فأدناه مصعب وأكرمه لشرفه. وقال مصعب لأهل الكوفة حين أكثروا عليه: لا أسير حتى يأتيني المهلّب بن أبي صُفرة. وكان كتب إلى المهلب وهو عامل ابن الزبير على فارس، يستدعيه ليشهد معهم قتال المختار، فأبطأ المهلّبُ واعتلّ بشيء من الخراج كراهية الخروج». قال الطبري: «وأعلم مصعبٌ محمد بن الأشعث أنه لا يشخص ـ إلى الكوفة ـ دون أن

يأتي المهلّب. فأمر مصعب بن الأشعث أن يأتي المهلّب، فيُقبِل به» ـ وكان محمد بن الأشعث هو الذي أبدى استعداده للمسير إلى المهلّب فكتب مصعب معه كتاباً إلى المهلّب يحثه على القدوم، فانطلق محمد على رأس كوكبة من الفرسان من البصرة إلى الأهواز فاستقبله المهلب بالترحيب والتشريف في دار الإمارة وأجلسه على كرسي الأمير بجانبه، ثم ناوله محمد بن الأشعث كتاب مصعب، فقال له المهلّب: «مثلك يا أبا القاسم يأتي بريداً لمُصعب! أما وجد مصعب بريداً غيرك؟ فقال: واللّه ما أنا بريد أحد، غير أن أبناءنا وأموالنا ـ بالكوفة ـ غَلَبَ عليها عبيدنا وموالينا». وأخبر ابن الأشعث المهلّب بكل ما وقع في ولاية الكوفة وبأن فتنة المختار الثقفي قد بلغت ما يستوجب الجهاد، قال ابن الأثير: «فأقْبَل المهلب مع محمد بن الأشعث بجموع كثيرة وأموال عظيمة إلى البصرة».

فلما قَدِم المهلّب مع محمد بن الأشعث استنفر مصعب بن الزبير أهل البصرة، وما لبث أن سار مصعب بالجيش من البصرة وعلى ميسرته المهلّب وعلى فرسان الكوفة محمد بن الأشعث. فالتقوا بجيش للمختار في منطقة المذار، فحمل عليهم جيش أهل البصرة. «وسَرّح مصعب بن الزبير محمد بن الأشعث في خيل عظيمة من أهل الكوفة، وقال لهم: دونكم ثاركم. فكانوا أشد على القوم من أهل البصرة. فلم ينج من جيش المختار بالمذار إلا أصحاب الخيل.. فقال أعشى همدان في أبيات له:

مررت على الكُوَيْفَةِ بالصَّغار	فَبَشر شيعة المختار إما
لهم جَمٌّ يُقتَّل بالمذار	أقرَّ العينَ صَرْعاهُمْ وفَلٌّ

وتقدم الجيش إلى الكوفة، وكان المختار قد جمع عشرين ألف مقاتل بالكوفة، فتهيأوا للقتال، يتقدمهم حملة الكرسي، فالتحم الجيشان في معركة كبيرة وأثناء القتال انهزمت فرقة من فرسان الكوفة وتقهقرت، فاندفع محمد بن الأشعث يمزق صفوف العدو فحمل خمسون من أصحاب المختار على محمد بن الأشعث فقاتلهم حتى استشهد مع نحو عشرة من أصحابه»، وحمل المهلّب بفرسان الأزد فحطموا أصحاب المختار حطمة منكرة، وحمل عبد الرحمٰن بن الأشعث وغيره من القادة فاجتاحوا عسكر العدو في الليل، فنصر اللّه الحق على الباطل. قال الطبري وابن الأثير: «فلما أصبح مصعب بن الزبير أقبل يسير فيمن معه نحو السبخة، فمرّ بالمهلّب فقال له المهلّب: يا له فتحاً ما أهنأه لو لَمْ يُقْتل محمد بن الأشعث، فقال مُصعب: صدقت فرحم اللّه محمداً. ثم قال مصعب للمهلب: أعلِمت أن عبيد اللّه بن علي بن أبي طالب قُتِل؟ فقال المهلب: إنا للّه وإنا إليه راجعون، فقال مصعب: قد كنت أحبُّ أن يشهد هذا الفتح أتدري مَنْ قَتَله؟ قتله من يزعم أنه شيعة لأبيه» ـ يعني المختار الثقفي ـ وقد انتهى أمر المختار بمقتله

في ١٤ رمضان ٦٧هـ. واقترن الابتهاج الذي شمل بانتهاء فتنة المختار بحزن عميق على استشهاد محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وقال أعشى همدان يرثي محمد بن الأشعث:

تأوَّبَ عَيْنَكَ عُوّارُهَا ... وعاد لنفسك تذْكارُها
وإحدى لياليك راجَعْتَها ... أرِقْتَ ونَوَّمَ سُمَّارُها
وما ذاقَتِ العينُ طَعْمَ الرُقا ... دِ حتى تبلَّجَ إسفارُها
وقام نُعاةُ أبي قاسم ... فأسبل بالدمع تَحْدارُها
فحقُّ العيون على ابن الأ ... شجّ أن لا يُفَتّرَ تَقْطارُها
وألّا تَزالَ تبكى له ... وتَبتَلُ بالدمع أشفارُها
عليك محمدُ لما ثَوْيت ... تبكي البلادُ وأشجارُها
وما يذكرونك إلا بَكَوا ... إذا ذِمَّةٌ خانَها جارُها
وعاريةٍ من لَيَالي الشتا ... لا يتمنَّحُ أيْسَارُها
ولا يُنبِحُ الكلبَ فيها العقُو ... رَ إلا الهريرُ وتَخْتَارُها
ولا يَنفعُ الثوبُ فيها الفَتى ... ولا رَبَّةَ الخِدْر تَخْدارُها
فأنت محمدٌ في مثلِها ... مُهينُ الجزائر نَحَّارُها
تَظَلّ جِفانُكَ مَوْضوعةً ... تَسيل من الشَحْم أصْبَارُها
وما في سقائك مُسْتنطَقٌ ... إذا الشَّوْلُ رَوّح أغبارُها
فيا وَاهِبَ الوُصَفَاء الصِبَا ... ح إن شُبِرَتْ تَمّ أشبارُها
ويا واهِبَ الجُرْد مثل القدا ... ح قد يُعجِبُ الصفَّ شُوَّارها
ويا واهِبَ البَكَرات الهِجَا ... نِ عُوذاً تَجاوَبَ أبكارها
وكنتَ كدِجْلَة إذْ تَرْتَمي ... فيُقذفُ في البحر تَيَّارُها
وكنتَ جليداً وذا مِرَّةٍ ... إذا يُبتَغى منك إمرارها
وكنتَ إذا بلدةٌ أصفَقَتْ ... وآذَنَ بالحرب جبارُها
بعثتَ عليها ذواكي العيو ... نِ حتى تواصلُ أخبارُها
بإذن من اللّه والخيلُ قد ... أُعِدّ لذلك مِضْمَارُها
وقد تُطعَمُ الخيل منك الو ... جيفَ حتى تُنبَّذُ أمهارُها
وقد تعلمُ البازلُ العَيْسَجُو ... رُ أنك بالخبت حَسَّارُها
فيا أسَفي يومَ لاقيتَهُمْ ... وخانت رجالك فُرَّارُها
وأقبلتِ الخيلُ مَهزُومَةً ... عِشَاراً تُضَرَّبُ أدبارُها

بشطِ حرُوراءَ واستَجمَعَتْ ... عليك الموالي وسَحَّارُها[١]
فأخطرتَ نفسَك من دونهم ... فحاز الرَّزيئةَ أخطارُها
فلا تَبعَدَنَّ أبا قاسم ... فقد يَبلغُ النفسَ مِقدارُها
وأفنى الحوادثُ سَادَاتِنا ... ومَرُّ الليالي وتكْرارُها[٢]

إن قصيدة شاعر اليمن أعشى همدان هذه تتيح إدراك أن محمد بن الأشعث كان من عظماء الزعماء في التاريخ، وقد كانت وفاته سنة ٦٧هـ الموافق ٦٨٦م وهو ابن ثمان وخمسين سنة، فعليه رحمة اللّٰه تعالى.

السنوات الأولى من زعامة عبد الرحمٰن بن الأشعث (٦٧ ـ ٧١هـ)

انعقدت رئاسة المقيمين بالكوفة والعراق من قبيلة كندة لعبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث غداة وفاة أبيه محمد بن الأشعث سنة ٦٧هـ (٦٨٦م) وهو يومئذ في نحو السابعة والثلاثين من عمره، فبعد هزيمة جيش المختار الثقفي مباشرة «بعث مصعب بن الزبير عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث إلى الكناسة ـ كناسة الكوفة ـ وعبد الرحمٰن بن مِخْنف الأزدي إلى جبانة السبيع.. وزَحْر بن قيس الجعفي إلى جبانة مراد.. وبعث محمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الهمداني عند دار أبيه»[٢] فتولى أولئك القادة وغيرهم محاصرة ومواجهة فلول جيش المختار داخل مدينة الكوفة والسيطرة عليها، وتم أسر الكثير من فلول المختار، فأراد مُصعب أن يخلي سبيل المنتمين إلى إحدى القبائل، «فقام عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث فقال: تُخلي سبيلهم، اخترنا يا ابن الزبير أو اخترهم. ووثب محمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الهمداني وقال: اخترنا أو اخترهم». فتراجع مُصعب بن الزبير، وأبقاهم مع بقية الأسرى، فاعتراض عبد الرحمٰن على مصعب بن الزبير يدل على قوة شخصيته القيادية، واتخذ محمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الحاشدي الهمداني ذات الموقف، بل إن حاشد وهمدان كانوا يسيرون تحت لواء ابن الأشعث إذا دعاهم إلى ذلك، فوالدة عبد الرحمٰن هي أم عِمران بنت سعيد بن قيس. قال أعشى همدان لعبد الرحمٰن بن الأشعث في قصيدة له[٣]:

يا أيها القرم الهجان الذي ... يبطش بطش الأسد اللابد
والفاعل الفعل الشريف الذي ... ينمَىٰ إلى الغائب والشاهد

---

(١) قوله: الموالي وسحارها. يعني الموالي والمختار الثقفي وكان يقال إنه سحار وهذا البيت يدل على ذلك.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٥٢ جـ٧.
(٣) الأغاني ـ أبو فرج الأصفهاني ـ ص١٤٥ جـ٥.

. . إنْ تَكُ مِنْ كِنْدة في بيتها فإن أخوالك مِنْ حَاشدِ
شم العرانين، وأهل الندى ومنتهى الضيفان والرائد
كم فيهُمُ من فارس مُعْلِم وسائس للجيش أو قائِدِ
وراكبٍ للهول يجتابه مثل شهاب القبس الواقد
. . ورُبّ خال لك في قومه فرعٌ طويل الباع والساعد
يحتضر البأس وما يبتغي سوى أسار البطل الماجد
. . ورُبّ خال لك في قومه حَمّال أثقال لها واجد
معترفُ للرزء، في ماله الحق للسائل والعامد

وقد مكث عبد الرحمٰن بن الأشعث بالكوفة إلى أن استتب الأمر فيها وكذلك المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي، وكتب مصعب بن الزبير إلى إبراهيم بن الأشتر النخعي أمير الموصل والجزيرة الفراتية بالقدوم إليه. قال ابن كثير: «فقدِم ابن الأشتر على مصعب بالكوفة فأكرمه وعظمه واحترمه كثيراً. وبعث مُصعب المهلّب بن أبي صُفرة أميراً على الموصل والجزيرة»[١] وقد تزامن ذلك مع مسير عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى عبد اللّٰه بن الزبير بمكة المكرمة وتوليته أميراً على المدينة المنورة، ويبدو أن مصعب بن الزبير لم يرغب في بقاء المهلّب أميراً للأهواز وفارس بولاية البصرة وبقاء ابن الأشعث زعيماً بالكوفة فمكانتهما الكبيرة في البصرة والكوفة ربما لم تكن تروق لمصعب بن الزبير.

لقد مضى المهلّب إلى الموصل والجزيرة الفراتية وتولاها في رمضان أو شوال سنة ٦٧هـ، وذلك هو ـ غالباً ـ زمن مسير عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى عبد اللّٰه بن الزبير في مكة وتوليته على المدينة المنورة، فمكث والياً عليها زهاء سنة. قال ابن كثير: «وفي سنة ٦٨هـ استعمل عبد اللّٰه بن الزبير على المدينة جابر بن الأسود الزهري وعزل عنها عبد الرحمٰن بن الأشعث»[١] وبذلك رجع ابن الأشعث إلى الكوفة، ومن المحتمل أنه أدى فريضة الحج قبل عودته إلى الكوفة، وقد تجلّت في الحج حالة الانقسام التي تعيشها الأمة، فقد ذكر ابن كثير أنه «شهد موقف عرفة أربع رايات متباينة، كل واحدة منها لا تأتم بالأخرى، الواحدة لمحمد بن الحنفية وأصحابه، والثانية لنجدة الحروري وأصحابه، والثالثة لبني أُمية، والرابعة لعبد اللّٰه بن الزبير» وذلك لأن خلافة ابن الزبير كانت بالجزيرة العربية والعراق بينما كان عبد الملك بن مروان هو الخليفة بالشام ومصر والمغرب، أما نجدة الحروري فكان زعيم الخوارج في نجد.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٢٩٣ جـ٨.

ولما رجع عبد الرحمٰن بن الأشعث ـ بعد أداء فريضة الحج ـ إلى الكوفة، كان نفوذ الخوارج الأزارقة قد امتدّ ما بين فارس والمدائن، قال ابن كثير: «وذلك أن مصعباً كان قد عزل عن ناحية فارس المهلّب بن أبي صُفرة وولّاه الجزيرة، وكان المهلب قاهراً للأزارقة، وولّى مصعب على فارس عمر بن عبيد اللّه بن معمر. . فتقووا وكثر عددهم» ـ وبلغت غاراتهم إلى المدائن التابعة لولاية الكوفة، وسيطروا على مناطق من الأهواز ـ «فكتب مصعب بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة وهو على الموصل أن يأتي لقتال الخوارج، فانصرف المهلّب إلى الأهواز فقاتل الخوارج ثمانية أشهر قتالاً لم يُسمع بمثله» وقد ساهم عبد الرحمٰن بن الأشعث في التصدي للخوارج سنة ٧٠هـ، وأيقن الناس أن دولة ابن الزبير أضعف من أن تكون دولة خلافة، وكانت بعض ممارسات مُصعب بن الزبير قد أغضبت كثيراً من الناس مثل جريمة قتل عَمْرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري التي قتلها مُصعب بن الزبير، فقال عبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت الأنصاري في ذلك أبياتاً منها:

أتى راكب بالأمر ذي النَّبَإِ العجبْ ... بقتل ابنَة النعمان ذي الدين والحَسَبْ
. . فلا هنأتْ آل الزبير معيشةٌ ... وذاقوا لباس الذلّ والخوف والحَرَبْ
كأنّهمُ إذْ أبرَزُوها وقُطِّعَتْ ... بأسيافهم فازوا بمملكة العربْ[1]

وفي شهر جمادى سنة ٧١هـ أتى عبد الملك بن مروان بجيش الشام لمحاربة ابن الزبير في العراق وسار إليه مصعب بن الزبير بالجيش من البصرة والكوفة، فلما التقى الفريقان «قال مُصعب لقطن بن عبد اللّه الحارثي: أبا عثمان قَدّم خيلك، قال: ما أرى ذلك، قال: ولم؟ قال: أكرهُ أن تُقتل مذحج في غير شيء. فقال لحجار بن أبجَر: أبا أسيد قدم رايتك، قال: إليّ هذه العذرة. فقال لمحمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس مثل ذلك. فقال: ما أرى أحداً فعل ذلك فأفعله. فقال مصعب: يا إبراهيم ولا إبراهيم اليوم» ثم ما لبث أن سقط مصعب قتيلاً في مكان غير بعيد من المكان الذي قَتَل فيه عمرة

---

(١) هي بنت الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري، وقد تولى النعمان اليمن والكوفة وحمص. قال الأصفهاني: «خرج أعشى همدان إلى النعمان بن بشير وهو عامل على حمص فشكا إليه حاله، فكلم له النعمان بن بشير اليمانية وقال لهم: هذا شاعر اليمن ولسانها، واستماحهم له فقالوا: نعم يعطيه كل رجل منّا دينارين من عطائه فقال: لا، بل أعطوه ديناراً ديناراً واجعلوها معجلة. . وكانوا عشرين ألفاً، فأعطاه عشرين ألف دينار. فقال أعشى همدان:

ولم أر للحاجات عند التماسها ... كنعمان، نعمان الندى ابن بشير
إذا قال أوفىٰ ما يقول ولم يكن ... كمُدْلٍ إلى الأقوام حبل غرور»

ومات النعمان سنة ٦٥ هجرية.

بنت النعمان بن بشير. وبمقتل مُصعب بن الزبير انضوت العراق في خلافة عبد الملك بن مروان.

* * *

ولاية ابن الأشعث لإقليم الريّ وإقليم كرمان (٧٢ ـ ٧٧هـ)

لما انضوت العراق في خلافة عبد الملك بن مروان أقام عبد الملك بالكوفة فبايعه والتقى به الزعماء والقادة ووجوه الناس، وكان على رأس رجالات كندة وحضرموت عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث ومعه عبد اللّه بن إسحاق بن الأشعث ومحمد بن إسحاق بن الأشعث الكندي، وعلى رأس رجالات همدان ومذحج محمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الهمداني وقَطَن بن عبد اللّه الحارثي وزحر بن قيس المذحجي. قال الطبري: «لما أتى عبدالملك بن مروان الكوفة دعا الناس إلى البيعة.. فلما جاءت مذحج وهمدان قال: ما أرى لأحد مع هؤلاء بالكوفة شيئاً.. ثم جاءت كِنْدة فنظر عبد الملك إلى عبد اللّه بن إسحاق بن الأشعث فأوصَىٰ به بِشْراً أخاه وقال: اجعله في صحابتك»(١). فعندما تهيأ عبد الملك للعودة إلى الشام استعمل على ولاية الكوفة أخاه بشر بن مروان، وعلى ولاية البصرة خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد الأموي، وكان المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي أميراً بالأهواز وقائداً يقود الحرب ضد الخوارج الأزارقة، فبعث خالد جيشاً من البصرة بقيادة أخيه عبد العزيز لمحاربة الخوارج ـ بدلاً عن المهلّب ـ فانهزم ذلك الجيش، فكتب عبد الملك بن مروان إلى خالد أمير البصرة ـ سنة ٧٢هـ ـ بأن يسير لقتال الخوارج بالأهواز مع المهلب وقال: «فإذا لقيتم العدو فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلّب وتستشيره، وقد كتبت إلى بِشْر بن مروان يمدك بجيش من أهل الكوفة» فسار خالد والمهلب إلى الأهواز وبدأت المواجهة مع الخوارج. قال أبو العباس المبرِّد:

«وقد كان عبد الملك كتب إلى بِشْر بن مروان يأمره أَن يمدّهم بجيش أميره عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث الكندي، ففعل، فَقَدِم عليهم عبد الرحمٰن»(٢).

بينما جاء في رواية الطبري أنه:

«كتب عبد الملك إلى بِشر بن مروان أما بعد، فإني قد كتبت إلى خالد آمره بالنهوض إلى الخوارج، فَسَرِّحْ إليه خمسة آلاف رجل وابعث عليهم رجلاً ترضاه، فإذا قضوا غزاتَهم تلك صَرَفتهم إلى الريّ فقاتلوا عدوَّهم وكانوا في مسالحهم وَجَبُوا

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٨٩ و ١٩٣ جـ٧.
(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرِّد ـ ص٢٥٣ جـ٢.

فيئهم حتى تأتي أيام عقبهم فتُعْقبهم وتبعث آخرين مكانهم. فقطع بِشْر على أهل الكوفة خمسة آلاف وبعث عليهم عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث وقال له: إذا قضيت غزاتك هذه فانصرف إلى الريّ. وكتب له عليها عهداً»[١].

ويجمع بين الروايتين أن عبد الملك بن مروان هو مصدر التوجيه بأن يكون الأمير عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، وأن قرار تأميره على الجيش وتوليته على الريّ صدر من بشر بن مروان، وبذلك يزول التعارض.

وقد ذكر الجاحظ مقولة لعبد الرحمٰن بن الأشعث نرى أن زمنها هو آنذاك في ولاية بِشْر، وقد وقع فيها تصحيف من الناسخين فجاءت بلفظ (ما أعطيت بشرياً طاعة) والصواب (ما أعطيت بِشْراً طاعة). . قال الجاحظ ما يلي نصه:

«قال ابن الأشعث: لولا أربعُ خصالٍ ما أعطيتُ (بشرياً) طاعة:
لو ماتت أم عِمران ـ يعني أُمَّه ـ، ولو شاب رأسي، (ولو) قرأتُ القُرآن، ولو لم يكن (رأسي) صغيراً»[٢].

وقد وقع تصحيف من الناسخين في عبارة (لو قرأت) وإنما هو (لولا قرأت القرآن) وأما التصحيف في عبارة (رأسي صغيراً) فلم يظهر أصل الاسم الذي تصحف إلى (رأسي)، وعلى ضوء ذلك يكون النقل الأصوب كما يلي:

«قال ابن الأشعث: لولا أربعُ خصال ما أعطيتُ بِشْراً طاعة: لو ماتت أم عِمران، ولو شَابَ رأسي، ولولا قرأتُ القرآن، ولو لم يكن (رأس) صغيراً».

ويستفاد من ذلك أن أم عِمران بنت سعيد بن قيس، والدة عبد الرحمٰن كانت على قيد الحياة، ولم يكن رأس عبد الرحمٰن قد شاب يومئذ، وكان في القرآن ما يجعله يطيع. وكان له ابن صغير السن، فتلك هي الخصال الأربع. وقد كانت امرأة عبد الرحمٰن بن الأشعث السيدة مليكة ابنة أخي عبد اللّٰه بن يزيد بن مُغفَّل الأزدي، فودعها عبد الرحمٰن وودع والدته.

وانطلق عبد الرحمٰن على رأس خمسة آلاف من فرسان كندة وهمدان ومذحج وربيعة إلى الأهواز، قال المبرِّد: «فقَدِم عبد الرحمٰن على المهلّب وخالد بن عبد اللّٰه ـ بالأهواز ـ وأقام قَطَري ـ زعيم الخوارج ـ يغاديهم القتال أربعين يوماً». وقال الطبري: «مرّ المهلّب على عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث ولم يُخندق، فقال له: يا ابن أخي ما يمنعك من الخندق، فقال: واللّٰه لَهُم أهونُ عليّ من ضرطة

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٨٩ و ١٩٣ جـ٧.
(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص١١٢ جـ٢.

جَمَل، قال: فلا يهونوا عليك يا ابن أخي فإنهم سباع العرب لا أبرحُ أو تضرب عليك خندقاً. ففعل». (٧/١٩٢) وقد وقع في رواية الطبري التباس، فالذي قال إنهم أهون علينا من ضرطة جمل إنما هو جعفر بن عبد الرحمٰن بن مِخْنف، فقد ذكر أبو العباس المبرِّد أنه «قال المهلّب لخالد بن عبد اللّٰه: خَنْدِق على نفسك فإني لا آمنُ عليك البَياتَ، فقال: يا أبا سعيد الأمرُ أعجلُ من ذلك. فقال المهلّب لبعض أولاده: إني أرى أمراً ضائعاً، ثم قال لزياد بن عمرو العتكي: خَنْدق علينا. فخندق المهلّب وأصحابه». وذكر المبرِّد في موضع آخر أنه: «وَجَّهَ المهلّبُ إلى عبد الرحمٰن بن مِخْنَف: خَنْدِق على نفسك، فقال: خنادقنا سيوفنا، وقال ابنه جعفر: إنهم أهون علينا من ضَرْطَة جَمل، فأقبل المهلب على ابنه المغيرة فقال: لم يصيبوا الرأي ولم يأخذوا بالوثيقة». وبالتالي يتبين أنه لما «مَرّ المهلّب على ابن الأشعث ولم يُخندق، فقال له: يا ابن أخي ما يمنعك من الخندق، قال: واللّٰه لهم أهونُ علينا من أن نُخندق. فقال المهلب: لا يهونوا عليك يا ابن أخي لا أبرح أو تضرب عليك خندقاً، ففعل».

ثم إن الخوارج بَيّتوا عسكر خالد الذين لم يخندقوا على أنفسهم، «فجعل الخوارج لا يمرُّون على رجل إلا قتلوه، ولا بدابة إلا عقروها، ولا بفسطاط إلا هتكوه. فأمر المهلّبُ ابنه يزيد فخرج بالفرسان فَقَاتل وأبْلى يومئذ، وخرج عبد الرحمٰن بن الأشعث بالفرسان فأبْلَى بلاءً حسناً. فَصُرع (فرس) يزيد بن المهلّب يومئذ، وصُرع فرس عبد الرحمٰن فَحَامَى عنهما أصحابهما حتى ركبا» قال المبرِّد: «فقال أَعْشَى هَمْدان لابن الأشعث في كلمة طويلة:

ويومَ أَهْوازِكَ لا تَنْسَهُ ... ليس الثَّنا والذكرُ بالداثِرِ»

وقد تكللت تلك الموقعة بالنصر، قال الطبري: «وانصرف عبد الرحمٰن إلى الريّ».

***

لقد مضى عبد الرحمٰن بن الأشعث بفرسانه من الأهواز إلى إقليم الريّ وهو بلاد الديلم ـ شمال غرب إيران ـ وقد سلف قول عبد الملك بن مروان في كتابه إلى بِشْر بن مروان بأن يبعث خمسة آلاف أميرهم عبد الرحمٰن بن الأشعث فإذا قضوا غزاتهم للخوارج بالأهواز «صرفتهم إلى الريّ فيقاتلوا عدوهم ويكونوا في مسالحهم ويجبوا فيئهم حتى تأتي أيام عقبهم فتُعْقبهم وتبعث آخرين مكانهم. فَوَجَّه بِشْر خمسة آلاف وعليهم عبد الرحمٰن وقال له: إذا قضيت غزاتك هذه فانصرف إلى الريّ، وكتب له عليها عهداً» والعهد هو قرار توليته أميراً عليها، فلما قضى عبد الرحمٰن وفرسانه غزاتهم مدداً للمهلّب بالأهواز، تَوَجَّه منها إلى بلاد الريّ وهي بلاد الديلم وكانت من أصعب البلاد وكان الأعداء فيها من أشد الأعداء.

وربما كان عبد الرحمٰن بن الأشعث وفرسانه يتذاكرون أنباء الفتح العربي الإسلامي لتلك البلاد والذي بدأ سنة عشرين للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب وولاية عمار بن ياسر العنسي للكوفة. قال البلاذري: «كتب عمر بن الخطاب إلى عمار بن ياسر وهو عامله على الكوفة أن يبعث عُروة بن زيد الخيل الطائي إلى الريّ ودسْتَبي في ثمانية آلاف، ففعل، وسار عُروة إلى هناك فجمعت له الديلم فقاتلوه فأظهره اللّه عليهم فقاتلهم واجتاحهم.. وقال عُروة في ذلك:

وأيقنت يوم الديلميين أنني ... متى ينصرف وجهي إلى القوم يُهزموا
محافظة إني امرؤ ذو حفيظة ... إذا لم أجد مستأخراً أتقدمُ

ثم استخلف عروة أخاه حنظلة بن زيد بالريّ وقَدِم على عمار بن ياسر فسأله أن يوجهه إلى عمر بن الخطاب.. فلما رآه عمر قال: إنا للّه وإنا إليه راجعون (لأنه ظن أنهم انهزموا) فقال عروة: بل أحمد اللّه يا أمير المؤمنين فقد نُصِرنا عليهم، فقال عمر: هلا أقمْت وأرسلْت. قال: أحببت أن آتيك بنفسي. فسماه البشير.. وقد كانت وقعة عُروة كسرت الديلم وأهل الريّ، فلما انصرف عروة بعث حذيفة على الجيش سلمة بن عمرو ويُقال البراءَ بن عازب الأنصاري فأناخ على حصن الفرخان بن الزينبدي، والعرب تسميه الزينبي، فصالحه ابن الزينبي بعد قتال على أن يكونوا ذمة يؤدون الجزية والخراج وعلى أن لا يُقتل منهم أحداً ولا يسبيه ولا يهدم لهم بيت نار.. ثم لما عزل عمر بن الخطاب عماراً وولّى المغيرة بن شعبة الكوفة ـ سنة ٢١هـ ـ ولّى المغيرةُ كثيرَ بن شهاب الحارثي ـ المذحجي ـ الريّ ودستبي، فلما صار إلى الريّ وَجَدَ أهلها قد نقضوا فقاتلهم حتى رجعوا إلى الطاعة وأذعنوا بالخراج والجزية، وغزا الديلم فأوقع بهم.. ولم تزل الريّ تنتقض وتُفتح حتى كان آخر من فتحها قرظة بن كعب الأنصاري في ولاية أبي موسى الأشعري الكوفة لعثمان بن عفان ـ ٣٤هـ ـ فاستقامت.. وكانت مدينة الريّ تُسمى في الجاهلية أرازي ـ فيُقال أنه خُسف بها ـ وبها سُميت الريّ. وكان عُمالها ينزلون حصن الزبندي ويُجمّعون في مسجد اتُّخذ بحضرته، وكانوا يغزون الديلم من دستبي»[1].

وكان أبرز من تولى إقليم الريّ الزعيم اليماني الصحابي كثير بن شهاب بن الحصين الحارثي المذحجي، قال البلاذري: (وكان لكثير بن شهاب أثر جميل في موقعة القادسية). وقد تولى كثير بن شهاب إقليم الري في خلافة عمر بن الخطاب وفي سنوات من خلافة عثمان بن عفان. ثم تولاها مرة ثانية في خلافة معاوية. قال البلاذري: «ولّى معاوية كثير بن شهاب الريّ ودستبى، حيناً مِنْ قِبَله، ومن قِبَل

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٥ وص٣١٣ ـ ٣١٥.

المغيرة بن شعبة وزياد عامليه على الكوفة» ـ وذلك ما بين سنة ٤١ وسنة ٥٣هـ ـ وغزا كثير بن شهاب الديلم وغزا الببر والطيلسان فأذعنوا بالطاعة. ثم عزله معاوية وحبسه بدمشق فَشَخَص إليه شريح بن هانئ المرادي في أمره فعفا عنه. ولما تولى الخلافة يزيد بن معاوية ـ سنة ٦٠هـ ـ «كتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد بتولية كثير بن شهاب على ماسبذان ومهرجانقدف وحلوان والماهين وأقطعه ضياعاً بالجبل فبنى قصره المعروف بقصر كثير»[١] فلما انقسم أمر الخلافة سنة ٦٤هـ اضطربت تلك الجهات، وقد مات كثير بن شهاب بالكوفة سنة ٦٦هـ.

ولما دخل عبد الرحمٰن بن الأشعث وفرسانه الخمسة آلاف بلاد الريّ ـ سنة ٧٢هـ ـ اجتمع العدو وقاتلوه، فقاتلهم ابن الأشعث وفرسانه، فانتصر عليهم، وكان لفرسان همدان ـ حاشد وبكيل ـ إسهامهم الوافر في ذلك النصر على الأعداء من الديلم وغيرهم في موقعة الريّ وهو ما يتجلى في قول أعشى همدان لعبد الرحمٰن بن الأشعث في قصيدته الدالية:

«ووقعة الريّ التي نلتها ... بجحفلٍ مِنْ جَمْعنا عاقدِ
وكم لقينا لك مِن واترٍ ... يصرف نابيّ حنق حاردِ
ثم وطئناه بأقدامنا ... وكان مثل الحيّة الراصدِ
فاذكرْ أياديـنا وآلاءنا ... بعودة من حلمك الراشد»[٢]

وكانت موقعة الريّ في سنة ٧٢هـ واستقر عبد الرحمٰن بن الأشعث في حصن الزبندي الذي سَلَف النّص بأنه «كان عُمال الريّ ينزلون حصن الزبندي، ويُجمِّعُون ـ أي يُصلُّون الجمعة ـ في مسجد أُتّخِذ بحضرته. وكانوا يغزون الديلم من دستبى» وقد كانت ولاية الري تشمل مناطق الريّ ودستبى وقزوين وهي بمثابة محافظات الولاية وفيها مناطق ومدن وقرى كثيرة تمتد إلى بحر قزوين. وقد جاء في رسالة عبد الملك بن مروان ببعث عبد الرحمٰن بن الأشعث في خمسة آلاف إلى الريّ أن «يقاتلوا عدوهم، ويكونوا في مسالحهم، ويجبوا فيئهم». وتلك هي المعالم الرئيسية لما قام به ابن الأشعث في ولايته لبلاد الريّ، فبعد انتصاره في موقعة الريّ استقر في حصن الزبندي بمدينة الريّ، وبعث كتائب من جيشه فرابطوا في المسالح وهي مواقع الحصون والحاميات والثغور، فتم إعادة سلطة دولة الخلافة بتلك الأرجاء، وجباية الخراج، باستثناء بعض المناطق الجبلية المنيعة التي تمركز فيها أعداءٌ من الديلم ولكن سلطة الدولة امتدت في أغلب تلك البلاد.

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٠٥ وص٣١٣ ـ ٣١٥.
(٢) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص ١٣٩ ـ ١٤٦ جـ٥.

وبينما كان عبد الرحمٰن بن الأشعث في بلاد الريّ، ولّى بشر بن مروان ـ بأمر عبد الملك ـ المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي على إقليم الأهواز وفارس وقيادة الحرب على الخوارج، في أواسط سنة ٧٤هـ وأمدّه بثمانية آلاف من أهل الكوفة من كل رُبْع ألفين، قال أبو العباس المبرد: «فكان على ربع أهل المدينة بِشر بن جرير البجلي، وعلى ربع تميم وهمدان عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس الهمداني، وعلى رُبع كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث، وعلى مذحج وأسد زُحْرُ بن قيس المذحجي. وعلى الجميع عبد الرحمٰن بن مِخْنف الأزدي». فاشتركوا مع المهلّب وجنوده في هزيمة الخوارج وتم دحرهم إلى رَامَهُرْمُزَ بفارس، قال ابن الأثير: «وسار المهلّب حتى نزل رامهرمز، وأقْبَلَ عبد الرحمٰن بن الأشعث في أهل الكوفة». (٣٠/ ٤ ـ الكامل) ومؤدى ذلك أن ابن الأشعث قَدِم من الريّ مدداً للمهلّب في رامهرمز، فاشترك في دحر الخوارج، «ولم يلبث المهلّب برامَهرمُزَ إلا شهراً حتى أتاه نعي بشْر بن مروان. وقد توفي بِشْر في أواخر سنة ٧٤هـ بالبصرة». ويستفاد من ذلك أن عبد الرحمٰن بن الأشعث كان في رامهرمز مع المهلّب ثم عاد منها إلى الريّ في أواخر سنة ٧٤هـ، فكان عبد الرحمٰن في الريّ أميراً عليها عندما ولّى عبد الملك بن مروان على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي أوائل سنة ٧٥ هجرية وكان الشاعر أعشى همدان قد رجع إلى الكوفة فيمن رجع إليها من المبعوثين إلى الريّ وإلى الأهواز وفارس، فلما تولّى الحجاج ضرب البعث على أهل ولاية الكوفة فعاد الذين كانوا مع المهلّب إلى الأهواز وفارس وعاد الذين كانوا في الريّ إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث ومنهم أعشى همدان. قال الأصفهاني: «كان أعشى همدان مِمّن أغزاه الحجاج بلد الديلم ونواحي دستبى» وقال: «كانت لأعشى همدان مع ابن الأشعث مواقف محمودة وبلاء حسن وآثار مشهورة، وكان الأعشى من أخواله لأن أم عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث ـ هي ـ أم عمرو بنت سعيد بن قيس الهمداني»[1]، والأصوب: أم عِمران بنت سعيد بن قيس، وكان سعيد بن قيس وكذلك أعشى همدان من حاشد. وقد سلف قوله لعبد الرحمٰن في قصيدته الدالية:

إنْ تَكُ مِنْ كِنْدة في بيتها ... فإن أخوالك مِنْ حاشدِ

وقد شهد أعشى همدان موقعة الريّ مع عبد الرحمٰن بن الأشعث وقال له في تلك القصيدة:

ووقعة الريّ التي نِلْتَها ... بجحفلٍ مِنْ جَمْعِنا عاقدِ

وفي سنة ٧٥هـ ـ وربما ٧٦هـ ـ كان الذين لم يُسلموا ولم يُذعنوا للطاعة من

(١) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص ١٣٩ ـ ١٤٦ جـ٥.

الديلم ـ المجوس ـ بالمناطق الجبلية المنيعة البعيدة في بلاد الريّ يناوئون المسلمين وكان أعشى همدان يُرابط مع قوة بعثها ابن الأشعث في تلك المنطقة التي ذكرها أعشى همدان قائلاً:

بين القليسم فالقيول فحامنٍ ... فاللهزمين ومضجعي متكنف
فجبال ويمةَ ما تزال منيفة ... يا ليت إن جبال ويمة تُنسفُ

قال الأصفهاني: «هذه أسماء مواضع من بلاد الديلم» وقال: «ويمة وشلبة ناحيتان من نواحي الريّ». فغزا أعشى همدان والقوة التي معه معقلاً من معاقل الديلم ـ المجوس ـ فوقعوا في كمين للعدو، فأخذ أعشى همدان في مصاولة العدو وشغلهم عن بقية قوة المسلمين إلى أن انسحبوا سالمين بينما وقع أعشى همدان أسيراً، فقال وهو أسير في جبال الديلم قصيدة مطلعها:

لِمَن الظعائنُ سيّرهُن تَرجّفُ، ... عَوْم السَفِين إذا تقاعَسَ مُجذف

ويقول فيها:

وإذا تُصِبْكَ مِن الحوادثِ نكبة ... فاصبر فكل مصيبة سَتكَشَّفُ
عَجَباً مِن الأيام كيف تَصَرّفَتْ ... والدارُ تدنو مرةً وتقذفُ
أصبحت رهناً للعداة مكبلاً ... أمسي وأصبح في الأداهم أرسفُ
بين القليسم فالقيول فحامن ... فاللهزمين ومضجعي متكنفُ
فجبال ويمة ما تزالُ منيفةً ... يا ليت إن جبال ويمة تُنْسَفُ
ولقد أراني قبل ذلك ناعماً ... جذلان آبَى أن أُضام وآنفُ
ولقد تُضَرّسُني الحروبُ وإنني ... ألفى بكل مخافة أتعسفُ
ما إن أزال مُقنعاً أو حاسراً ... سلف الكتيبة، والكتيبة وُقّفُ
فأصابني قومٌ، وكنتُ أُصِيبُهم، ... فالآن أصبرُ للزمان وأعرفُ

قال أبو عبيدة والأصمعي: «فلم يزل أعشى همدان أسيراً في أيدي الديلم مدة ثم إن بنتاً للعلج الذي أسَرَه هويته وصارت إليه ليلاً. فقالت له الديلمية: أهكذا تفعلون بنسائكم يا معشر المسلمين؟ فقال لها: هكذا نفعل كلنا، فقالت: إذا خلصتُك أتصطفيني لنفسك؟ قال: نعم، وعاهدها، فلما كان الليل حَلّت قيوده وأخذت به طرقاً تعرفها وهربت معه». ثم تزوج بها أعشى همدان بعد وصوله إلى ابن الأشعث والمسلمين وابتهجوا بسلامته. وقد عاد ابن الأشعث إلى الكوفة سنة ٧٦هـ وكذلك أعشى همدان.

* * *

وفي أواسط سنة ٧٦هـ كانت فرقة من الخوارج يتزعمها شبيب الخارجي تشن غارات على طريقة حرب العصابات في منطقة المدائن التابعة لولاية الكوفة بشرق دجلة، وأخذ الحجاج أمير العراق في توجيه الأمراء والقادة لمواجهتهم. قال أبو العباس المبرِّد: «ودعا الحجاج ابن عبد الرحمٰن بن الأشعث وقال له: انتخبْ الناس واخرجْ في طلب هذا العدو. فانتخبَ ستة آلاف من فرسان الناس ووجوههم، وأخرج من قومه ستمائة من كندة وحضرموت، وسار لقتال شبيب في المدائن»[1]. وتتمثل أهمية تلك الواقعة في تخويل ابن الأشعث بأن ينتخب ويختار من يشاء من الناس وذلك من سِجِلات ديوان العطاء ـ أي المرتبات ـ مما يؤكد علوّ مكانة ابن الأشعث، فانتخب ستة آلاف من فرسان الناس ووجوههم، وسَارَ بهم إلى المدائن، وكان الخوارج يقومون بحرب عصابات، فاشترك في مواجهتهم العديد من الأمراء والبعوث إلى أن انتهى أمر أولئك الخوارج سنة ٧٧هـ بينما في ذات الفترة كان المهلّب بن أبي صُفرة أمير بلاد فارس يتقدم داخل إقليم كرمان الذي كان تحت سيطرة الخوارج الأزارقة منذ سنوات فانتصر المهلّب عليهم ودخل مدينة جيرفت ـ عاصمتهم بكرمان ـ فانتهى أمر الأزارقة سنة ٧٧هـ، قال ابن الأثير: «وكتب الحجاج إلى المهلّب يشكره، ويأمره أن يولّي كرمان مَنْ يثق به ويجعل فيها من يحميها، ويَقْدِم إليه، فاستعمل المهلّب على كرمان يزيدَ ابنه، وسار إلى الحجاج». وكان ذلك في أوائل سنة ٧٨هـ وعندئذ كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج وضمّ إليه ولايتي سجستان وخُراسان. قال الطبري وابن الأثير: «فولّى الحجاج على سجستان عبيد اللّه بن أبي بكرة وعلى خراسان المهلّب بن أبي صُفرة». وقال الطبري: «وَجَّه الحجاج هميان بن عَدِي السدوسي إلى كرمان مسلحة لها، وليَمُدَّ عامل سجستان ـ عبيد اللّه بن أبي بكرة ـ إذا احتاج إلى مدد، فعصى هميان ومن معه، فكتب الحجاج إلى عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث..» وقال ابن خلدون: «..فبعث الحجاج عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى كرمان..» فعبارة رواية الطبري بأنه «كتب الحجاج إلى عبد الرحمٰن..» تعني أن عبد الرحمٰن بن الأشعث كان في بلاد الريّ، بينما عبارة ابن خلدون بأنه «بعث الحجاج عبد الرحمٰن» تعني أنه كان في الكوفة. وتجمع الروايتان أنه عاد من الريّ إلى الكوفة ثم انْطَلَقَ منها إلى كرمان أميراً عليها.

* * *

كان مسير عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى إقليم كرمان في أواسط سنة ٧٨هـ ويقع إقليم كرمان مع مكران في جنوب شرق إيران إلى السند، وكان أول من فتحها

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرِّد ـ ص٢٥٤ جـ٢.

الربيع بن زياد الحارثي المذحجي في ولاية أبي موسى الأشعري للبصرة في خلافة عمر وعثمان. قال البلاذري: «وَجّه أبو موسى الأشعري الربيع بن زياد الحارثي ففتح ما حول الشيرجان ـ وهي مدينة كرمان ـ وصَالَح أهل بم «الانذغار»[١]، وفي الربيع بن زياد قال عمرو بن معدي كرب الزُبيدي:

ومَضَىٰ ربيعُ بالجياد مُشرقاً ينوي الجهاد وطاعة الرحمٰن
حتى استباح قرى السواد وفارس والسهل والأجبال من مكرانِ

ثم ولى عثمان بن عفان على البصرة عبد اللّٰه بن عامر ـ سنة ٢٩هـ ـ فولّى على كرمان مجاشع بن مسعود السلمي وولّى على فتح سجستان الربيع بن زياد، فأتى مجاشع الشيرجان وكان أهلها قد انتقضوا، فأعاد فتح الشيرجان وفتح بيمنذ وجيرفت عنوة، وأذعنت بلاد كرمان وشملتها سلطة دولة الخلافة وتولاها في خلافة معاوية ويزيد بن معاوية وولاية ابن زياد للبصرة شريك بن الحارث الحارثي. قال البلاذري: «وكان ابن زياد ولّى شريكاً الحارثي كرمان، وكتب ليزيد بن مفرغ الحميري إليه فأقطعه أرضاً بكرمان، فباعها بعد هرب ابن زياد من البصرة»[١] وذلك سنة ٦٤هـ. ثم وقعت بلاد كرمان تحت سيطرة الخوارج الأزارقة إلى أن أعاد المهلب سلطة دولة الخلافة في كرمان سنة ٧٧هـ واستخلف على كرمان يزيد بن المهلّب ـ أوائل سنة ٧٨هـ ـ ثم بعث الحجاج هميان بن عدي السدوسي قائداً لحامية عسكرية بكرمان وبمثابة أمير عليها عندما ولّى عبيد اللّٰه بن أبي بكرة سجستان فتمرد هيمان والحامية التي معه بكرمان، فولّى الحجاج على كرمان عبد الرحمٰن بن الأشعث وانتخب ابن الأشعث الفرسان الذين انطلقوا معه من الكوفة إلى كرمان ومكران ـ أواسط سنة ٧٨هـ ـ وقد أشار الأصفهاني إلى ذلك البعث في أنباء أعشى همدان بعد عودته من الريّ إلى الكوفة قائلاً: «ثم ضُرب البعث على جيش أهل الكوفة إلى مكران فأخرجه الحجاج معهم، فخرج إليها» ـ وذلك بقيادة عبد الرحمٰن بن الأشعث ـ قال الطبري: «وَجّه الحجاج هيمان بن عدي السدوسي إلى كرمان مسلحة لها وليمُدّ عامل سجستان إن احتاج إلى مدد، فعصى هميان ومن معه، فكتب الحجاج إلى عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث لمحاربته، فسار ابن الأشعث إليه وهزمه، ثم أقام في موضعه». وقال ابن خلدون: «كان الحجاج قد أنزل هميان بن عدي مسلحة بكرمان، فعصى هميان، فبعث الحجاج عبد الرحمٰن بن الأشعث فهزمه، وأقام بموضعه»[٢].

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٨٣ ـ ٣٨٤.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٨٣.

وقد أقام ابن الأشعث في مدينة الشيرجان التي هي عاصمة إقليم كرمان، ويبدو أن يزيد بن المهلب كان ما يزال مقيماً بمدينة جيرفت منذ استخلفه المهلّب عليها وعاد إلى البصرة فولّى الحجاج المهلّب على خراسان ـ بناءً على توجيهات عبد الملك بن مروان ـ ولما تهيأ المهلّب للمسير إلى خراسان توجه يزيد بن المهلّب من كرمان إلى البصرة وسار مع المهلّب إلى خراسان في محرم ٩ بينما استمر عبد الرحمٰن بن الأشعث أميراً على ولاية كرمان وقام بنشر الحاميات في مناطق إقليم كرمان ومكران، وكان أعشى همدان ممن سار إلى مكران فقال: وهو في مكران قصيدة طويلة ذكرها الأصفهاني في كتاب الأغاني، منها قول أعشى همدان:

وقولا لذي طرب عاشق ... أشط المزارُ بمن تذكر
بكوفية أصلها بالفرات ... تبدو هنالك أو تخطر
وأنت تسير إلى مكران ... فقد شحط الورد والمصدر
ولم تك من حاجتي مكران ... ولا الغزو فيها ولا المتجرُ
وخُبِّرتُ عنها ولم آتها ... فما زلتُ من ذكرها أذعُرُ
بان الكثير بها جائعٌ ... وأن القليل بها مُقتر
وأن لحَىٰ الناس من حرها ... تطول فتجلم أو تضفر
ويزعم من جاءها قبلنا ... بأنا سنُسْهم أو نُنْحَرُ
وما كان بي من نشاط لها ... وإني لذو عدة مُوسرُ
ولكن بُعثتُ لها كارهاً ... وقيل انطلق كالذي يؤمرُ
هو السيف جُرّد من غمده ... فليس عن السيف مُستأخرُ
.. وقد قيل إنكم عابرون ... بحراً لها لم يكن يُعْبَرُ
إلى السند والهند في أرضهم ... هُمُ الجنُّ لكنهم أنكرُ
وما رام غزواً لها قبلنا ... أكابرُ عادٍ ولا حميرُ
ولا رام سابور غزواً لها ... ولا الشيخ كسرى ولا قيصرُ
ومن دونها معبرٌ واسعٌ ... وأجرٌ عظيمٌ لمن يؤجرُ

ويدل ذلك الشعر على أنهم غزوا ما يلي كرمان ومكران من نهر السند في ولاية عبد الرحمٰن بن الأشعث لإقليم كرمان في سنة ٧٨ ـ ٧٩هـ.

وكان الاهتمام العربي الإسلامي في المشرق متوجهاً آنذاك إلى إقليم سجستان الذي ولّي وبعث الحجاج إليه عبيد اللّه بن أبي بكرة، وكان قسم من سجستان بيد المسلمين وعاصمتها مدينة زرنج بينما القسم الآخر الأعلى من سجستان بيد الملك

رتبيل وكان يؤدي الجزية للمسلمين منذ فَتَحَ سجستان الربيع بن زياد الحارثي المذحجي في خلافة عثمان بن عفان وخلافة معاوية بن أبي سفيان، فلما ولّى الحجاج عبيد اللّه بن أبي بكرة على سجستان ـ سنة ٧٨هـ ـ وكما ذكر ابن خلدون: «أقام عبيد اللّه بسجستان، ورتبيل على صلحه يؤدي الخراج ـ منذ سنة ـ ثم امتنع، فأمر الحجاج عبيد اللّه بن أبي بكرة بغزوه واستباحة بلاده.. فدخل ابن أبي بكرة بلاد رتبيل وتوغل فيها حتى كانوا على ثمانية عشر فرسخاً من مدينتهم، وأثخن واستباح وخرّب القرى والحصون. ثم أخذ التُرك ـ وهمُ قوم رتبيل ـ على المسلمين القرى والشِعاب حتى ظنوا الهلكة، فصالحهم عبيد اللّه بن أبي بكرة على الخروج من أرضهم على أن يعطيهم سبعمائة ألف درهم فأنكر ذلك عليه شريح بن هانئ المرادي وأبَىٰ إلا القتال وحرّض الناس على الجهاد ورجع ـ يقاتل الترك ـ وقُتِل حين قُتِل في ناس من أصحابه ـ وكذلك قُتِل عبيد اللّه بن أبي بكرة ـ ونجا الباقون وخرجوا من بلاد رتبيل، ولقيهم الناس بالأطعمة فكانوا يموتون إذا شبعوا، فجعلوا يطعمونهم السمن قليلاً قليلاً حتى استمرُّوا»(١). وقام أصحاب رُتبيل باجتياح المناطق الإسلامية من سجستان واستولوا عليها، وكان ذلك في أوائل أو أواسط سنة ٧٩هـ، وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان قائلاً: «أما بعد.. فإن جند أمير المؤمنين الذين بسجستان أُصيبوا فلم ينج منهم إلا القليل، وقد اجترأ العدو بالذي أصابه على أهل الإسلام، فدخلوا بلادهم وغلبوا على كل حصونهم وقصورهم»(١). واستأذن من عبد الملك بتوجيه جيش كثيف إلى سجستان فأذن له وأمره عبد الملك بذلك، وتقرر أن يتولى قيادة الجيش عبد الرحمٰن بن الأشعث فقدِم إلى الكوفة وانتهت بذلك ولايته لكرمان في أواسط سنة ٧٩هـ

* * *

تأمير ابن الأشعث على جيش الطواويس وتحريره لسجستان

بناءً على توجيهات عبد الملك بن مروان قام الحجاج بن يوسف الثقفي بتجهيز جيش من أربعين ألف مقاتل كان يُسمى جيش الطواويس وقام بتأمير عبد الرحمٰن بن الأشعث على ذلك الجيش. قال ابن خلدون والطبري وابن الأثير: «جَهَّز الحجاج عشرين ألف فارس من الكوفة وعشرين ألفاً من البصرة، واختار أهل الغِنى والشجاعة، وأنفق فيهم ألفيّ ألف درهم سوى أعطياتهم، وأخذهم بالخيل الرائعة والسلاح الكامل. وبعث عليهم عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث أميراً». قال ابن خلدون: «وكان ـ ذلك الجيش ـ يُسمى جيش الطواويس لحُسن زيهم».

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٨٣.

وبينما كان عبد الرحمٰن بن الأشعث يتابع تجهيز ذلك الجيش ويستعرض كتائب الجيش كان الحجاج بن يوسف الثقفي ينظر إليه بغيظ وحسد، فقد كان ابن الأشعث يمشي مشية أقيال وملوك اليمن، فكان كما قال الشاعر:

وأقبَلَ يَمشي مُستخيلاً كأنّه　　شراحيلُ ذو همدان أو سيف ذو يزن

قال ابن خلدون: «وكان الحجاج يبغضه ويقول: أريد قَتْلَهُ، ويُخبر الشَعبي عبد الرحمٰن بذلك فيقول: أنا أزيله من سلطانه» وفي ذلك ذكر الطبري أنه: «كان الإمام الشَعبي واقفاً مع الحجاج، فَمَرّ ابن الأشعث أمامهما، فقال الحجاجُ للشعبي: انظر إلى مشيته واللّه لهممتُ أن أضرب عُنقه ـ أو قال: ما رأيتُه قط إلا أردت قَتْله ـ فأخبر الشعبي بذلك ابن الأشعث فقال: وإنا كما يشاء الحجاج إن لم أحاول أن أزيله عن سلطانه إذا طال بي وبه المقام».

وكان موقف الحجاج شبيهاً بموقف بشر بن مروان لما كتب إليه وأمره عبد الملك بن مروان بتأمير المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي على جيش البصرة والكوفة لمحاربة الخوارج الأزارقة بفارس فقال بشر بن مروان: «واللّه لأقتلنّ المهلّب»، فقال له موسى بن نصير اللخمي «إن للمهلّب حِفاظاً وبَلاءً وَوَفَاء». وكان بشر بن مروان حاسداً وناقماً على المهلّب لمكانته الكبيرة في العراق ولأن تأميره جاء من عبد الملك بن مروان، ولكنه اضطر إلى تأميره وانتصر المهلّب على العدو، وكان ذلك سنة ٧٤هـ، ثم تولّى الحجاجُ العراق فكانت مكانة المهلّب في ولاية البصرة ومكانة ابن الأشعث في ولاية الكوفة تغيظ الحجاج، ومع ذلك فقد ولّى المهلب على خراسان فسار إليها في مطلع سنة ٧٩هـ وولّى عبد الرحمٰن بن الأشعث على جيش الطواويس وبلاد سجستان، مما يشير إلى أن ذلك ربما كان بأمر عبد الملك بن مروان، وأياً كان الأمر فقد ولاه الحجاج على جيش الطواويس، فانطلق عبد الرحمٰن بن الأشعث بجيش الطواويس لتحرير سجستان في أواسط سنة ٧٩هـ.

وقد مضى ابن الأشعث بالجيش إلى إقليم كرمان، وهو طريق سجستان، ثم دخل نواحي ومدن القسم الإسلامي من بلاد سجستان، إذْ أنه ـ كما سلف في رسالة الحجاج إلى عبد الملك بن مروان ـ «دخل العدو بلاد الإسلام وغلبوا على كل حصونهم وقصورهم». وهي حصون وقصور ومدن القسم الإسلامي من سجستان وعاصمته مدينة زرنج، فلما دخل ابن الأشعث بجيش الطواويس سجستان قام بتحرير تلك الحصون والمدن ودخل مدينة زرنج ـ العاصمة ـ فجمع المسلمين من أهل سجستان فخطب بهم ابن الأشعث في مسجد مدينة زرنج. قال الطبري وابن الأثير: «صعد عبد الرحمٰن بن الأشعث المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه، واستنفر الناس لجهاد

عدوهم الذي استباح بلادهم وأباد خيارهم». وقد أتم ابن الأشعث تحرير القسم الإسلامي من سجستان وأقام بمدينة زرنج أميراً على سجستان منذ أواسط سنة ٧٩هـ ثم تهيأ لفتح القسم التركي من سجستان وبلاد رتبيل.

فتوحات ابن الأشعث وولايته لسجستان (٧٩ ـ ٨٠هـ)

لقد بدأت ولاية عبد الرحمٰن بن الأشعث لسجستان منذ انطلاقه إليها على رأس جيش الطواويس وقيامه بتحرير القسم الإسلامي من سجستان وعاصمته مدينة زرنج في أواسط سنة ٧٩هـ، ولكن رواية الطبري وابن الأثير تذكر ولايته منذ مسيره لقتال رتبيل وفتح بلاده في أوائل سنة ٨٠هـ حيث خطب ابن الأشعث في مسجد زرنج واستنفر المسلمين من أهل سجستان للجهاد وحذرهم قائلاً: «إياكم أن يتخلف منكم رجلٌ، فَيُحلّ بنفسه العقوبة». فاستجابوا وأخذوا ينضوون في جيش ابن الأشعث وهو جيش الطواويس.

قال أبو الحسن المسعودي في مروج الذهب: «كان الحجاج قد استعمل عبد الرحمٰن بن الأشعث على سجستان وبُسْتَ والرَّحج، فحارب مَنْ هنالك من أمم الترك، وهُم أنواع يقال لهم الغوز والخلج ـ أو الطغرغر والجلح ـ وحاربَ من يلي تلك البلاد من ملوك الهند مثل رتبيل وغيره، وكان كل ملك يلي ذلك الصقع من بلاد الهند يُقال له رتبيل»(١).

ففي أوائل سنة ٨٠هـ انطلق ابن الأشعث من مدينة زرنج في سجستان إلى منطقة ومدينة بُسْتَ وهي المنطقة الرئيسية الأولى من بلاد العدو الذين تسميهم الروايات باسم الترك، وهم من الذين يقال لهم حالياً البلوشستان في جنوب أفغانستان وشمال باكستان وما حاذاها من إيران، فافتتح ابن الأشعث بُسْتَ ومناطقها ونواحيها ونشر فيها الحاميات العسكرية، وولّى عليها العُمال، ثم تقدم ـ في أواسط سنة ٨٠هـ ـ إلى منطقة ومدينة الرحج وهي عاصمة ومقر الملك رُتبيل ـ في جنوب أفغانستان حالياً وما جاورها من شمال باكستان ـ فافتتحها ابن الأشعث رستاقاً رستاقاً وحصناً حصناً، وفتح مدينة الرحج وما يليها من بلاد الهند والسند التي ذكرها الشاعر أعشى همدان في قصيدته الرائية قائلاً:

وقيل لنا إنكم عابرون ... بحراً لها لم يكن يُعْبَرُ

إلى السند والهند في أرضهم ... هُمُ الجنُ لكنهم أنكرُ

قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «سار عبد الرحمٰن بن الأشعث حتى

---

(١) مروج الذهب ـ أبو الحسن المسعودي ـ ص٣١٨ جـ٣.

دخل أول بلاد الترك فأخذها. . وأخذ (رتبيل) يدع الأرض رستاقاً رستاقاً وحصناً حصناً، وطَفَقَ ابن الأشعث كلما حوى بلداً بعث إليه عاملاً وبعث معه أعواناً، ووضع البُرُد (أي محطات البريد والاتصالات) فيما بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب والشِعاب، ووضع المسالح (وهي الحاميات العسكرية) بكل مكان مخوف»[١]. وكذلك ذكر ابن خلدون أنه «سار ابن الأشعث إلى بلاد رُتبيل، وبذل (رتبيل) الخراج فلم يقبل منه. ودخل ابن الأشعث بلاده فحواها شيئاً فشيئاً، وبعث عماله عليها، ووضع المسالح بالنواحي، والأرصاد على العقاب والشِعاب، وامتلأت أيدي الناس من الغنائم»[٢]. قال الطبري: «ولما حاز ابن الأشعث من أرض الترك أرضاً عظيمة، حبس الناس عن الوغول في بلاد الترك، وقال: نكتفي بما أصبناه من بلادهم حتى نعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك في أقصى بلادهم وحصونهم، ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم اللّٰه»[١]. وقد استشار عبد الرحمٰن بن الأشعث أهل الرأي وذوي الخبرة بالحرب والبلاد فأجمعوا على صواب ذلك الرأي وأن فيه صلاح وخير الإسلام والمسلمين في العاجل والآجل، فولّى ابن الأشعث العمال على البلاد المفتوحة ونشر فيها الحاميات العسكرية والأرصاد ومحطات البريد وعاد إلى مدينة زرنج عاصمة سجستان ـ في أواخر سنة ٨٠هـ ـ وكان معه الشاعر أعشى همدان. قال الأصفهاني: «لما صار ابن الأشعث إلى سجستان جَبَىٰ مالاً كثيراً، فسأله أعشى همدان أن يعطيه منه زيادة على عطائه، فامتنع، فقال الأعشى في ذلك:

هل تعرف الدارُ عَفَا رَسْمُها ... بالحَضْرِ فالروضةِ مِنْ آمدِ

دارُ لِخَوْدٍ طفلةٍ رودةٍ ... بانت فأمسى حُبّها عامِدِ

بيضاء مثل الشَمْسِ رقراقةٌ ... تبسمُ عن ذي أشر باردِ

لم يخط قلبي سهمها إذْ رَمَتْ ... يا عجباً من سهمها القاصد

يا أيها القرم الهجان الذي ... يبطشُ بطش الأسد اللابد

والفاعل الفعل الشريف الذي ... يَنْمَىٰ إلى الغائب والشاهد

كم أنا أسدي لك من مدحة ... تُروى مع الصادر والوارد

وكم أجبنا لك من دعوة ... فاعرف فما العارف كالجاحد

. . إنّا لنرجوك كما نرتجي ... صوب الغمام المبرق الراعد

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٥ جـ٨.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٨٤.

فانفح بكفيك وما ضمتا ... وافعل فعال السيد الماجد
ما لك لا تُعطي وأنت امرؤ ... مُثْرٍ من الطارف والتالد
تجبي سجستان وما حولها ... متكئاً في عيشك الراغد
لا ترهب الدهر وأيامه ... وتجرد الأرض مع الجارد
. . نحنُ ولدناك فلا تجفنا ... واللّٰه قد وصّاك بالوالد
إنْ تكُ من كندة في بيتها ... فإنّ أخوالك من حاشد

إلى آخر تلك القصيدة وقد سلف ذكر أبياتها الأخيرة، ولم يكن ابن الأشعث يستطيع أن يعطيه من بيت المال إلا كغيره من الناس، وكان الأعشى يريد أن يعطيه زيادة على العطاء من بيت المال فامتنع عن ذلك تجسيداً للمساواة والعدالة بين المسلمين، ثم أعطاه وأرضاه ابن الأشعث من عطائه وماله الخاص.

وقد تزامنت فتوح عبد الرحمٰن بن الأشعث في سجستان وما يليها شرقاً من أفغانستان وبلاد السند والهند ـ سنة ٨٠هـ ـ مع فتوح المهلب بن أبي صفرة الأزدي أمير خراسان في بلاد ما وراء نهر جيحون بأوزبكستان ـ سنة ٨٠هـ ـ والتي قادها يزيد بن المهلّب وحبيب بن المهلّب. ولما افتتح ابن الأشعث ما افتتح من بلاد العدو وولّى عليها العمال ونشر فيها الحاميات العسكرية وقرر التوقف وعدم التوغل إلى ما يلي ذلك من بلاد العدو حتى يتعرف المسلمون على البلاد، ثم يتعاطى المسلمون في العام المقبل ما وراء ذلك من بلاد العدو «كتب ابن الأشعث إلى الحجاج بما فتح اللّٰه عليه من بلاد العدو وبما صنع اللّٰه للمسلمين، وبهذا الرأي الذي رآه للمسلمين فيما يستقبل من أيامه». فاستصوب الحجاج ذلك، حيث ذكر الطبري أن الحجاج كتب إليه: «أما بعد، فَمُر مَنْ قِبَلك من المسلمين، فلْيَحرثوا، ولْيقيموا، فإنها دارهم، حتى يفتح اللّٰه عليهم» أي ما يليهم من بلاد العدو. ثم ما لبث أن بعث الحجاج كتاباً ثانياً أدى إلى إعلان الثورة.

* * *

اندلاع ثورة ابن الأشعث . . وأسبابها

بينما عبد الرحمٰن بن الأشعث والذين معه بسجستان وقد فتحوا ما فتحوا من بلاد العدو، وقرروا فتح ما يلي ذلك من بلاد العدو في العام المقبل، وبعد أن كتب عبد الرحمٰن بذلك إلى الحجاج وأتى جوابه بصواب ذلك، ما لبث أن بعث الحجاج كتاباً ثانياً إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث يأمره بأن يسير بالمسلمين فوراً ويتوغل في أرض العدو ويقتل مقاتلتهم ويسبي ذراريهم، حتى يفتح أقصى حصونهم، ويتهمه بالعجز والضعف. وأصاب ابن الأشعث وأصحابه الذهول من كتاب الحجاج، لأنّه

من غير المعقول أن يدفع الحجاج بعشرات الآلاف من المسلمين إلى الهلاك بالتوغل داخل بلاد الترك والهند قبل الاستعداد لذلك، وما لبث الحجاج أن عزز كتابه بكتاب آخر إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث قال فيه: «إن مضيت بالناس وتوغلت في بلد العدو، وإلا فأخوك إسحاق أمير الناس».

فجمع عبد الرحمٰن جيش المسلمين وقام فيهم خطيباً ـ قال الطبري ـ «فحمد اللَّهَ وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني لكم ناصحٌ ولصلاحكم مُحبٌّ، ولكم في كل ما يُحيط بكم نفعُهُ ناظر. وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأيٌ، استَشَرْتُ فيه ذوي أحلامكم وأُولي التجربة للحرب منكم، فرضوه لكم رأياً ورأوه لكم في العاجل والآجِل صلاحاً، وقد كتبتُ إلى الحجاج فجاءني منه كتابٌ يُعجّزني ويُضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وإنما أنا رجلٌ منكم أمضي إذا مضيتم، وآبىٰ إذا أبيتم».

فقام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني، وكان أبوه من الصحابة، فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: «إن الحجاج واللَّه ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذْ قال: (احمل عبدك على الفرس فإِن هَلَكَ هَلَكْ وإن نَجَا فَلَكْ)، إن الحجاج واللَّه ما يبالي أن يخاطر بكم فَيُقحِمكم بلاداً كثيرة اللهوب واللصوب، فإن ظفرتم فغنمتم، أكَلَ البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإنْ ظفر عدُوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذي لا يُبالي عَنَتَهم ولا يُبقِي عليهم..».

وقام عبد المؤمن بن شبث بن ربعي التميمي، وكان صاحب وقائد شرطة عبد الرحمٰن بن الأشعث فقال: «عباد اللَّه، إِنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم، وجَمَّركم تجمير فرعون الجنود فإنه بلغني أنه أول من جَمّر البعوث».

وتكلم عدد من أهل الرأي والقادة والخطباء بينهم أعشى همدان، قال ابن خلدون والطبري وابن الأثير: «فثار الناس وقالوا: لا نسمع لعدو اللَّه الحجاج ولا نطيع. فقال أبو الطفيل عامر بن واثلة: اخلعوا عدو اللَّه الحجاج وبايعوا الأمير عبد الرحمٰن، فتنادى الناس من كل جانب: فعلنا فعلنا.. ووثب الناس إلى عبد الرحمٰن فبايعوه على خلع الحجاج ونفيه من العراق وعلى النصرة له، ولم يذكر عبد الملك بن مروان»[١]. وقال المسعودي في مروج الذهب: «كان أعشى همدان أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الأشعث بسجستان.. وقال في أبيات له:

مَنْ مُبْلِغُ الحجاجِ أنّي قد جَنَيْتُ عليه حربا

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٨ جـ٨ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٨٦.

وصَفَقْتُ في كفِّ امْرِئ جَلْدٍ إذا ما الأمر عبَّى
يا ابْن الأشج، قريع كندة لا أبالي فيك عَتْبَا
أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كعبا»[1]

وقد أثارت ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث بالمدى الذي بلغه اهتمام المؤرخين والدارسين بتحديد ومعرفة أسبابها، لأن الواقعة سالفة الذكر لم تكن السبب الوحيد للثورة، فقد سبقتها ورافقتها أسباب من بينها:

* ـ وجود جذور عميقة للثورة في نفس عبد الرحمٰن بن الأشعث منذ الجريمة التي أقدمت عليها السلطة الأموية بقتل حُجَر بن عدِي الكندي، وليس صائباً ما ذهب إليه د. طه حسين في كتابه المشهور (في الأدب الجاهلي) من أن الملك الضليل امرأ القيس بن حُجر الكندي ـ الجاهلي ـ إنما هو عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي. وإنما يمكن أن يكون هناك تشابه بين واقعة قتل حجر بن الحارث الكندي والد امرئ القيس في الجاهلية حيث عقد امرؤ القيس العزم على الأخذ بثأره ثم حارب الذين قتلوه في نجد وحارب المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ـ بالعراق ـ وكان امرؤ القيس يسعى لأن يكون ملكاً لِنجد وبلاد الحيرة. فهناك بعض التشابه بين ذلك وبين قيام السلطة الأموية بقتل حُجر بن عدي الكندي ـ عم ابن الأشعث ـ ثم الثورة التي قادها عبد الرحمٰن بن الأشعث ضد السلطة الأموية حينما تهيأت له الظروف لذلك، ومما يشير إلى جذور الثورة في نفسه أنه عندما عادت السلطة الأموية على العراق وانضوت في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧١هـ وولّى عبد الملك على العراق بشر بن مروان قال عبد الرحمٰن بن الأشعث: «لولا أربعُ خِصالٍ ما أعطيتُ بِشْراً طاعة: لو ماتت أم عِمْران، ولو شاب رأسي، ولولا قرأتُ القرآن، ولو لم يكن (رأسي) صغيراً». ولما تولى العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ـ منذ سنة ٧٥هـ ـ أدّت سياسة الحجاج التعسفية الاستبدادية إلى ازدياد النقمة عليه وعلى الخلافة الأموية. قال ابن خلدون: «وكان الحجاج يبغض عبد الرحمٰن بن الأشعث ويقول: أريد قتله، ويخبر الشَّعبي بذلك عبد الرحمٰن فيقول: أنا أزيله من سلطانه». وذكر الطبري في أنباء تأمير ابن الأشعث على جيش الطواويس وسجستان ـ سنة ٧٩ ـ ٨٠هـ ـ أنه «كان الإمام الشَّعبي واقفاً مع الحجاج، فمرّ ابن الأشعث أمامهما، فقال الحجاج للشعبي: انظر إلى مشيته، والله لهممتُ أن أضرب عنقه، فأخبر الشّعبي بذلك ابن الأشعث فقال: وإنا كما يشاء الحجاج إن لم أحاول أن أزيله عن سلطانه إذا طال بي وبه المقام».

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص١٦٢ جـ٣.

ويجزم فريق من المؤرخين والدارسين بأن ثورة ابن الأشعث كانت ثورة يمانية قحطانية ضد السلطة والسيطرة الأموية والثقفية ـ المضرية ـ فيقول الدكتور ناجي حسن ـ أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة بغداد ـ في كتاب (القبائل العربية في المشرق):

«كانت ثورة ابن الأشعث محاولة جديّة للتخلص من سيطرة مُضَر، لا سيما وأن معظم القبائل العربية القوية في العراق كانت قحطانية.. ولهذا فإن عبد الرحمٰن بن الأشعث حينما عظم جمعه خلع عبد الملك بن مروان وسمى نفسه ناصر المؤمنين»[١].

* * *

وقال الدكتور يوسف خليفة في كتاب (حياة الشعر في الكوفة):

«لما كانت ثورة ابن الأشعث التي أشعل نيرانها ضد الخليفة عبد الملك بن مروان وواليه على العراق ـ الحجاج ـ كان أعشى همدان هو شاعر هذه الثورة بدون منازع.. لقد وجد أعشى همدان في العصبية اليمنية صخرة عاتية تصلح مقاماً لوِكْرِه، فَشَدّ جناحيه إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث سليل ملوك اليمن القدماء ومضى يُحلق في ميدان الصراع الفسيح الممتد من سجستان شرقاً إلى العراق غرباً.. لقد كانت نفس الأعشى تُسيطر عليها نزعة أرستقراطية عميقة آثارها فيه شعوره بمجد اليمن القديم وبأن زعيمه سليل ملوك اليمن القدماء وأنه يعمل لإعادة ذلك المجد.. فأغلب الظن أن الأعشى لم يكن يتمثل ثورة ابن الأشعث ثورة سياسية بقدر ما يتمثلها محاولة لاسترداد اليمانية ملكهم القديم، وهو في هذا لم يكن إلا ممثلاً لشعور اليمانية الذين نظروا إلى الثورة من هذه الزاوية فكانوا لهذا أسرع الطوائف استجابة لابن الأشعث»[٢].

وأعشى همدان هو عبد الرحمٰن بن الحارث بن نظام الحاشدي الهمداني، انتقل من منطقة حاشد باليمن وسكن بالكوفة، وكان أحد حفاظ القرآن وأحد القراء العلماء الفقهاء بالكوفة ثم غلب عليه الشعر، قال أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني «كان أعشى همدان شاعر أهل اليمن بالكوفة وفارسهم» وقال عنه الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري: «هذا شاعر اليمن ولسانها». وقال القاضي محمد بن علي الأكوع في هامش الإكليل: كان أعشى همدان «شاعر اليمن والمُعَبِّرُ عن لسانها ومشاعرها ونبرات قلوبها ونبضات أحاسيسها»[٣].

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٤٧.

(٢) حياة الشعر في الكوفة ـ يوسف خليفة ـ ص٨٠.

(٣) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ تحقيق الأكوع ـ ص٧٤ جـ١٠ ـ قال الهمداني: «وأعشى همدان الشاعر هو عبد الرحمٰن بن الحارث بن نظام بن جشم بن عمرو بن مالك بن عبد الحق بن زيد بن حرب بن قيس بن عامر بن مالك بن جشم بن حاشد».

إن ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث بالإضافة إلى أبعادها اليمانية القحطانية كانت في ذات الوقت ثورة عربية وإسلامية ضد سياسة الجور والانحراف والاستبداد والظلم الذي انتهجته السلطة الأموية منذ واقعة قتل الصحابي حُجْر بن عدي الكندي ـ سنة ٥٣هـ ـ ثم واقعة قتل الحسين بن علي بن أبي طالب وأصحابه في كربلاء ـ سنة ٦١هـ ـ ثم طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي وسياسته التعسفية بالعراق ـ منذ سنة ٧٥هـ ـ وخروج الخلافة الأموية عن نهج الخلافة الراشدة، فتغيير ذلك الواقع وقيام دولة عادلة تنهجُ نهج العُمرين كان من أسباب وعوامل وأهداف ثورة ابن الأشعث الذي التف حوله من الصحابة وعلماء التابعين ورؤساء وفرسان العرب والمسلمين عدد كبير لم يلتف حول أي ثورة من قبل ولا من بعد.

* * *

مسار الثورة.. ومبايعة ابن الأشعث بالخلافة

لقد بدأت ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث في مدينة زرنج عاصمة ولاية سجستان ـ في أوائل سنة ٨١هـ ـ حيث أجمع علماء ورجال الجيش العربي الإسلامي الذي بسجستان على خلع الحجاج ومبايعة عبد الرحمٰن بن الأشعث ووثبوا إلى عبد الرحمٰن يبايعونه، فقال لهم: «تبايعوني على خلع الحجاج وعلى النصرة لي وجهاده معي حتى ينفيه اللّه من أرض العراق، قالوا: نعم، فبايعه الناس على خلع الحجاج ونفيه من العراق وعلى النصرة له ولم يذكر خلع عبد الملك بن مروان إذْ ذاك بشيء».

وكان من أول من بايع ابن الأشعث على ذلك أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني، وأعشى همدان، وعبد المؤمن بن شبث بن ربعي التميمي قائد شرطة ابن الأشعث، وقال عبد المؤمن للناس: «انهضوا إلى عدو اللّه الحجاج، ننفيه من بلادنا». ولكن عبد الرحمٰن بن الأشعث أمر الناس بالتمهل، وبدأ بترتيب الأمور في بلاد سجستان حتى لا يغتنم العدو مسيره مع جيشه فيهاجمون المسلمين، فقام بما يلي:

* ـ بَعَثَ عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى رُتبيل ملك الذين تسميهم الروايات التُرك ـ وهُمْ الذين يسكنون جنوب أفغانستان وشمال باكستان ـ فأبرم عبد الرحمٰن صلحاً مع رُتبيل بأن لرتبيل بلاد الرّحج وما يليها من بلاده على أن يؤدي الخراج ـ أو الجزية ـ مبلغاً معلوماً إلى نائب عبد الرحمٰن في سجستان وأن لا يتعرض رتبيل وأتباعه للمسلمين في إقليم بُسَت وإقليم زرنج، وإذا انتصر عبد الرحمٰن على الحجاج وتم له الأمر فلا خراج على رتبيل، وإذا انهزم يلجأ عبد الرحمٰن ومن أراد من المسلمين إلى بلاد رتبيل. وفي ذلك قال ابن خلدون: «صالح عبد الرحمٰن رتبيل

على أنه إن ظهر فلا خراج على رتبيل ما بقي من الدهر، وإن هُزم منعه ممن يريد». وقال الطبري: «بعث ابن الأشعث إلى رتبيل فصالحه على أن ابن الأشعث إن ظهر فلا خراج عليه أبداً ما بقي، وإن هُزم فأراده ألجأه عنده». فتعهد رتبيل بذلك وبأن لا يتعرض للمسلمين في بلاد سجستان.

* ـ قام عبد الرحمٰن بن الأشعث بتقسيم بلاد سجستان إلى قسمين، فجعل مدينة بُست عاصمة لأقاصي سجستان والبلاد التي فتحها بتلك الجهات، وولّى على بُست عياض بن هميان السدوسي وترك معه كتيبة من الجيش وحاميات عسكرية، وأما القسم الثاني فيشمل سجستان الإسلامية وعاصمتها مدينة زرنج وولّى عليها عبد اللّه بن عامر الدارمي التميمي وترك معه قوة من الجيش وحاميات عسكرية، فأصبحت سجستان بمثابة ولايتين: بست وزرنج. قال ابن خلدون: «جَعَلَ عبد الرحمٰن على بُست عياض بن هميان الشيباني، وعلى زرنج عبد اللّه بن عامر التميمي».

ولما أتمّ ابن الأشعث ضبط الأمور في سجستان، انطلق من مدينتي زرنج وزابلستان في سجستان إلى ولاية كرمان ومكران، وكان على مقدمته أعشى همدان يرتجز بأبيات أولها:

شَطَّتْ نَوىٰ مَنْ دارُهُ بالإيوانْ ... إيوان كِسْرى ذي القُرىٰ والرَّيْحَانْ
مِن عاشقٍ أمْسى بزابلستانْ

والأرجح أنه قال تلك القصيدة عند المسير من كرمان وسيأتي ذكرها، وكذلك أبيات ابن حلزة اليشكري وأولها:

نحن جلبنا الخيل من زرنجا ... مَا لَكَ يا حجاج مِنّا مَنْجَىٰ

وقد ذكر الأعشى زابلستان وذكر ابن حلزة زرنجا؛ لأن بداية الثورة والمسير كان من زرنج وزابلستان في سجستان إلى إقليمي كرمان ومكران الذي كان يمتد إلى بلاد السند والهند ـ باكستان ـ شرقاً ـ والمحيط الهندي ـ جنوباً.

* * *

دخل عبد الرحمٰن بن الأشعث ولاية كرمان قادماً من سجستان في النصف الأول من سنة ٨١هـ، فكان من أنباء ذلك ما يلي:

* ـ كان بكرمان عامل للحجاج ومعه جيش من بينهم أربعة آلاف من فرسان البصرة والكوفة، فلما دخل ابن الأشعث كرمان دعاهم إلى البيعة فامتنع عامل الحجاج وبعض جيشه فانهزموا، وكان الأربعة آلاف فرسان البصرة والكوفة انضموا إلى ابن الأشعث، وفي ذلك قال الطبري: «كان بكرمان أربعة آلاف فارس، فلما مرّ

بهم ابن الأشعث انجفلوا معه». وتتابعت سائر بلاد كرمان ومكران على مبايعة ابن الأشعث والدخول في طاعته.

* ـ وكان الحجاج يتابع أنباء ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث، فبعث الغضبان بن القَبَعْثَرى إلى كرمان ليأتيه بخبر ابن الأشعث، وليُبَلغ أمير كرمان رسالة من الحجاج، وكان الغضبان من البلغاء الفصحاء ومن رجالات التابعين وله أنباء مشهورة، فوصل إلى كرمان وعاصمتها مدينة الشيرجان وقد انضوت في طاعة ابن الأشعث وهو مقيم بعاصمتها الشيرجان، فابتهج الغضبان بذلك ودخل إلى ابن الأشعث وبايعه.. وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب نبأ ذلك فقال: «إن الحجاج وَجَّهَ الغضبان بن القبعثرى إلى بلاد كرمان ليأتيه بخير ابن الأشعث عند خَلْعه، فَفَصَل من عنده، فلما صار ببلاد كرمان.. دخل على عبد الرحمٰن بن الأشعث فقال له: ما وراءك يا غضبان؟ قال: الشر، تَغَدَّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك. ثم صعد المنبر فخطب بمعايب الحجاج والبراءة منه، ودخل مع ابن الأشعث في أمره».

* ـ وبعث الحجاجُ أيوب بن القِّرِيَّة وكان أبلغ وأفصح الناس فما أن وصل إلى ابن الأشعث حتى بايعه وأصبح كاتباً له. قال ابن كثير: «ومن أصحاب ابن الأشعث أيوب بن القِّرِيَّة: كان يُضرب به المثل في فصاحته وبيانه وبلاغته. صحب الحجاج، ووفد على عبد الملك، ثم بعثه رسولاً إلى ابن الأشعث..» قال المسعودي في مروج الذهب: «كان أيوب بن القِّرِيَة من البلاغة والعلم والفصاحة بموضع، وخرج مع ابن الأشعث وكان يُنشئ الكتب له ويضع الصدور والخطب».

* ـ وبَعَث عبد الرحمٰن بن الأشعث المبعوثين والكتب ـ الرسائل ـ من كرمان إلى الولاة والأمراء والقادة ووجوه الناس في ولايات وأقاليم خراسان وفارس والريّ وأصبهان والجبال والعراق وغيرها، وكان ممن كتب إليهم المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي أمير ولاية خراسان فأتى إليه مبعوث وكتاب ابن الأشعث وهو يجاهد في بلاد ما وراء نهر جيحون ـ بأوزبكستان ـ حيث كما ذكر الطبري: «أتاه كتاب عبد الرحمٰن بن الأشعث بخلع الحجاج ويدعوه إلى مساعدته.. فكتب المهلّب إليه: أما بعد، فإنك وضعت رجلك في غرز طويل النيِّ على أمة محمد ﷺ، اللَّه اللَّه فانظر لنفسك لا تهلكها والجماعة فلا تُفرقها..» (ص١٠ جـ٨) فامتنع المهلب من تأييد ومساندة ابن الأشعث ولكن بعض القادة والفرسان أقبلوا من مناطق في بلاد خراسان وانضموا إلى ابن الأشعث، أما أمراء وقادة ولايات وأقاليم فارس وأصبهان والريّ والجبال وغيرها فاستجاب كثير منهم لابن الأشعث وتدفقوا إليه. قال المسعودي في مروج الذهب:

«خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج بسجستان، وصار إلى بلاد كرمان فَثَنَّىٰ بخلع عبد الملك بن مروان، وانقاد إلى طاعته أهلُ الريّ والجبال مما يلي الكوفة والبصرة وغيرهما.. وفي عبد الرحمٰن بن الأشعث يقول الشاعر:

خَلَعَ الملوكَ وسَارَ تَحت لوائِه   شجرُ العُرى، وعراعرُ الأقوام»

(ص١٣٨/ ٣).

بينما ذكر ابن خلدون والطبري وغيرهما أن خلع عبد الملك ومبايعة عبد الرحمٰن بن الأشعث كان بعد مسيره من كرمان إلى بلاد فارس.

* ـ وقد استعمل عبد الرحمٰن بن الأشعث على ولاية كرمان خَرَشة بن عمرو التميمي ومعه أبو إسحاق السبيعي الحاشدي الهمداني وهو من علماء التابعين. قال الطبري: «كان عبد الرحمٰن قد كاتب أبا إسحاق السبيعي في أصحابه وكان يقول له: أنت خالي.. فنزل أبو إسحاق السبيعي كرمان».

* * *

وفي أواسط سنة ٨١هـ تقدم عبد الرحمٰن بن الأشعث من بلاد كرمان إلى ولاية فارس التي كانت تمتد من تخوم كرمان ومكران شرقاً إلى سواحل الخليج وإلى الأهواز غرباً، فاتخذت الثورة المسار التالي:

* ـ انتصر عبد الرحمٰن بن الأشعث على القوات الموالية للحجاج والتعزيزات التي بعثها الحجاج ببلاد فارس، قال الطبري: «وبعث الحجاج إليه الخيول، فجعل لا يلقى خيلاً إلّا هزمها ـ وكان على خيل ابن الأشعث عطية بن عمرو العنبري ـ فذلك قول الأعشى لابن الأشعث:

فإذا جَعلتَ دُروبَ فارس   خَلْفَهُمْ دَرْباً فَدَرْبَا

فابعثْ عطية في الخيول   يكُبُّهُنّ عَلَيْه كَبَّا»

(ص٩ جـ٨).

والبيتان من أبيات لأعشى همدان قال المسعودي في مروج الذهب ذاكراً إياها: «كان أعشى همدان أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الأشعث بسجستان. وقال في أبيات له (وذلك عند دخولهما فارس):

مَنْ مُبْلغُ الحجاج أنّي   قد جَنَيْتُ عليه حربا

وَصَفَقْتُ في كفِّ امْرِئٍ   جَلْدٍ إذا ما الأمر عُبّى

يا ابنْ الأشج، قريع كِنْدة،   لا أُبالي فيك عَتْبَا

أنت الرئيس ابن الرئيس   وأنت أعلى الناس كعبا

فـانْـهَـضْ هُـدِيـتَ لـعـلـه ... يـجـلـو بـك الـرحـمٰـنُ كـربـا
وإذا جَـعَـلْـتَ دُروبَ فـا ... رس خـلـفـهـم دربـاً فـدربـا
فـابـعـث عـطـيـة بـالـخـيـو ... ل يـكـبُـبُـهُـنَّ عـلـيـه كَـبَّـا
نُـبِّـئْـتُ حـجـاج ابـن يـو ... سُـفَ خَـرَّ مـن زَلَـقٍ فَـتَـبَّـا

* ـ ولما دخل عبد الرحمٰن بن الأشعث بلاد فارس وانضوت تحت رايته خلع الناس عبد الملك بن مروان وبايعوا عبد الرحمٰن بن الأشعث بالخلافة ـ في أوائل شهر رجب سنة ٨١هـ ـ وتلقب عبد الرحمٰن بناصر المؤمنين. وفي ذلك قال ابن خلدون:

«لما بلغ عبد الرحمٰن بن الأشعث فارس بدا للناس في أمر عبد الملك وقالوا إذا خلعنا الحجاج ـ عامل عبد الملك ـ فقد خلعناه، فخعله الناس وبايعوا عبد الرحمٰن على السنةِ وعلى جهاد أهل الضلالة والمُحِلِّين..».

وكان الصحابي تيحان بن أبجر من بني تيم اللّه بن ثعلبة هو أول من خلع عبد الملك وبايع عبد الرحمٰن بن الأشعث بالخلافة، وكان عبد الملك يكنيه الناقمون عليه (أبا ذبّان)، قال ابن جرير الطبري:

«كان أول الناس خلع عبد الملك بن مروان تيحانُ بن أبجر ـ له صحبة ـ قام فقال: إني خَلَعْتُ أبا ذبان كخلعي قميصي، فخلعه الناس.. ووثبوا إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث فبايعوه. وكانت بيعته: تبايعون على كتاب اللّه وسنة نبيّه، وعلى خلع أئمة الضلالة وجهاد المُحِلِّين. فإذا قالوا: نعم، بايع».

وكان من أوائل الذين بايعوا عبد الرحمٰن بن الأشعث بالخلافة الصحابي تيحان بن أبجر، وأعشى همدان، وأبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني وكان أبوه من الصحابة، وعبد المؤمن بن شبث بن ربعي التميمي، والغضبان بن القبعثرى، وأيوب بن القِرِّيّة، وعطية بن عمرو العنبري، وابن حلزة اليشكري، وأمثالهم من وجوه الناس والقادة وكبار التابعين، وسائر الجيش والمسلمين الذين معه ببلاد فارس، وبويع له بالخلافة في ولايات وبلدان سجستان وكرمان ومكران وفارس، وفي ذلك قال المؤرخ البجاوي:

«كان عبد الرحمٰن بن الأشعث من القادة الشجعان الدعاة، وقد تم له مُلك فارس وكرمان وسجستان»[١].

وقال الدكتور ناجي حسن في النص سالف الذكر بكتاب القبائل العربية في المشرق:

(١) أيام العرب في الإسلام ـ البجاوي ـ ص٤٧٥.

«ـ إن ابن الأشعث ـ لما عظم جمعه، خَلَعَ عبد الملك بن مروان وسَمَّىٰ نفسه ناصر المؤمنين»[١].

معالم عهد ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث

لقد كان خلع عبد الملك بن مروان ومبايعة عبد الرحمٰن بن الأشعث بالخلافة نقطة تحول مهمة في مسار ثورة ابن الأشعث فَسَمى نفسه ناصر المؤمنين ـ في رجب سنة ٨١هـ ـ وبايعته بالخلافة ولايات وأقاليم سجستان وكرمان ومكران وفارس. قال المسعودي: «وانقاد لطاعته أهل الريّ والجبال مما يلي البصرة والكوفة» ومؤدى ذلك أن أكثر من ست ولايات وأقاليم بايعت ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث بالخلافة وخلعت عبد الملك بن مروان، وهي ولايات وأقاليم سجستان وبُست وكرمان ومكران وفارس وأصبهان والريّ والجبال الممتدة إلى أذربيجان.

قال الطبري: «فلما بلغ الحجاج خلعه لعبد الملك بن مروان، كتب إلى عبد الملك يخبره خبر عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث ويسأله أن يُعجِّل بعثة الجنود إليه، وبعث كتابه (أي كتاب ابن الأشعث) إلى عبد الملك يتمثل في آخره بأبيات الحارث بن وعلة . . » وكذلك ذكر ابن الأثير والأصفهاني: أن عبد الرحمٰن بن الأشعث كتب إلى عبد الملك كتاباً تمثل في آخره بأبيات الحارث بن وعلة الجرمي وهي أبيات ذات دلالات مهمة تتصل بجذور الثورة، وقد ذكرها أبو العباس المبرد ولم يذكر أنها للحارث بن وعلة. وإنما قال أبو العباس المبرِّد: «أتى رسول الحجاج إلى عبد الملك، فأذِن له، فأعطاه كتاباً من عبد الرحمٰن بن الأشعث فيه سطور أربعة يقول فيها:

سائِلْ مُجاورَ جَرْمٍ هل جَنَيْتُ لها ... حَرْباً تُزيِّلُ بين الجيرةِ الخُلُطِ

وهل سَمَوْتُ بجَرَّارٍ له لَجَبٌ ... جَمِّ الصَواهلِ بين الجَمِّ والفُرُطِ

وهل تركتُ نساء الحيّ ضاحيةً ... في ساحةِ الدارِ يَسْتَوْقِدنَ بالغُبُط

وتحتها بيت آخر على غير الرويّ وهو:

قَتَلَ الملوك وصار تحت لوائه ... شجرُ العُرى وعراعِر الأقوام»[٢]

فالمشهور أن الأبيات الثلاثة الأولى للشاعر اليمني الجاهلي الحارث بن وعلة الجرمي القضاعي الحميري، وكانت جرم تسكن بمنطقة نجران وعسير فوقعت منازعات بين جرم وبعض قبائل الحجاز ونجد في الجاهلية فقتلوا ناساً من قبيلة جرم، وبعد ذلك بفترة من الزمن حشد الحارث بن وعلة قبائل جرم وإخوانها من

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٤٧.
(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس ـ ص١٦٠ ـ ١٦٤ جـ٢.

قبائل قضاعة وبجيلة وخثعم ومذحج فشنوا حرباً على القبائل النجدية والحجازية وأثخنوا فيها، فقال الحارث بن وعلة تلك الأبيات، ويروى البيت الأول:

سائِل مجاورَ جَرْمٍ هل جَنَيْتُ لها   حرباً تفرق بين الجيرة الخُلطِ

وقوله: (وهل سموت بجرار له لَجَبٌ) أي بجيش، وجمّ الصواهل: كثير الصواهل. قال أبو العباس المبرد (وقوله: بين الجمِّ والقُرُطِ: هما موضعان بأعيانهما». والبيت الثالث في الأغاني:

حتى تركتُ نساءَ الحيّ ضاحية   في ساحةِ الدار يَسْتوقدن بالغُبُط

قال أبو العباس المبرد: «قوله: في ساحة الدار يستوقدن بالغُبُط، يُقَالُ فيه قولان متقاربان، **أحدهما**: أنهنَّ قد يَئِسْنَ من الرحيل فَجَعَلْنَ مراكِبَهُنَّ حَطَباً. هذا قول الأصمعي، وقال غيره: بل قد مَنَعُهنَّ الخوف من الاحتطاب. والغَبيطُ من مراكب النساء. قال امرؤ القيس بن حُجر الكندي:

تقولُ وقد مَالَ الغبيطُ بنا مَعاً   عَقَرْتَ بعيري يا أمْرَاء القيس فانزِلِ»[1]

ولم تذكر الروايات لماذا تَمَثَّل ابن الأشعث الكندي بتلك الأبيات، وغالب الظن أنه يشير إلى قيام السلطة الأموية بقتل حُجر بن عدي الكندي وغيره ممن قُتِلوا ظلماً وعدواناً، وقد كان ذلك من جذور وأسباب الثورة.

وأما البيت الذي على غير الرويّ في الرسالة، فقد ذكره المسعودي قائلاً: «خلع عبد الرحمٰن بن الأشعث طاعة الحجاج بسجستان، وصار إلى بلاد كرمان، فَثَنّىٰ بخلع عبد الملك بن مروان، وانقاد إلى طاعته أهل الريّ والجبال مما يلي الكوفة والبصرة وغيرهما.. وفي عبد الرحمٰن بن الأشعث يقول الشاعر:

خَلَعَ الملوكَ وسار تحت لوائه   شجر العُرى وعراعر الأقوام»

قال أبو العباس المبرد: «وقوله: شجر العرا، فالعرا: نبتُ بعينه إن ضُمَّ العينُ. والعَراءُ ـ ممدود ـ وجه الأرض.. وأما قوله: وعَراعِرُ الأقوام، فمعناه رؤوس الأقوام، الواحد: عُرعُرةٌ. وعُرعُرةُ كل شيء أعلاه»[1].

وفيما بين شهر شعبان وشهر ذي القعدة سنة ٨١هـ كان ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث في بلاد فارس يتدفق إليه وجوه وفرسان الناس من أقاليم مشارق العراق ومن بعض ثغور البصرة وسواحل عمان والبحرين، فيبايعونه بالخلافة وينضوون تحت لوائه، وكان ممن وصل إليه عبد اللّه بن أبان الحارثي المذحجي في فرسانٍ من مذحج وعبد اللّه بن يزيد بن المغفل الأزدي في فرسان من الأزد. بينما

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس ـ ص١٦٠ ـ ١٦٤ جـ٢.

كانت الإمدادات تتدفق من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان في الشام إلى الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق الذي رابط بجيشه في البصرة. قال الطبري: «أقام الحجاج بالبصرة، وتجهز ليَلْقى ابن الأشعث، وكان فرسان أهل الشام يسقطون إلى الحجاج في كل يوم من قِبل عبد الملك، وهو في كل يوم تسقط إلى عبد الملك كُتُبه ورسلُه بخبر ابن الأشعث، أيَّ كورة نزل ومن أيّ كورة يرتحل وأيُّ الناس إليه أسرع». قال الحافظ ابن كثير: «وجعل الناس يلتفون حول عبد الرحمٰن بن الأشعث من كل جانب حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل»[1].

وأخذت أنظار الأمة تتطلع إلى المواجهة المنتظرة بين جيش أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بقيادة الحجاج وجيش ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي، في تُسْتر ـ بالأهواز ـ وفي البصرة، حيث تقدم عبد الرحمٰن بن الأشعث من فارس إلى الأهواز، قال ابن خلدون: «وسار الحجاج من البصرة فنزل تُسْتر..» وقال الطبري: «عزم الحجاج رأيه على استقبال ابن الأشعث فسار من البصرة حتى نزل تُستر.. وقال آخرون: سار الحجاج في جيشه من البصرة حتى نزل رستقباذ وهي من كور الأهواز فعسكر بها، وأقبل ابن الأشعث فنزل تُستر وبينهما نهر».

انتصار ناصر المؤمنين في تُسْتر والبصرة (ذو الحجة ٨١هـ)

قال ابن خلدون: «سار ابن الأشعث إلى العراق بجموعه، وأعشى همدان بين يديه يرتجز بمدحه وذم الحجاج» وقد ذكر الأصفهاني والمسعودي وغيرهما الأبيات التي كان يرتجز بها أعشى همدان بين يدي ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي ويبدو أن مجموعة من الفرسان والمشاة كانوا يرتجزون بتلك الأبيات مع أعشى همدان بين يدي ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث (على طريقة الزامل في اليمن) والأبيات هي:

شَطَّتْ نَوَىٰ من داره بالإيوانْ ... إيوان كِسْرى ذي الْقُرَى والريحانْ

مِنْ عاشقٍ أمْسَىٰ بزابُلِسْتَانْ

إنّ ثقيفاً مِنهمُ الكذابان ... كذابُها الماضي وكذابٌ ثانْ

أمكن ربي من ثقيفٍ هَمْدَانْ

إنّا سَمَونا للكفور الفَتّانْ ... بالسيد الغطريف عبد الرحمٰنْ

سار بجمعٍ كالدّبَىٰ مِنْ قحطانْ ... ومِنْ مَعَدٍّ جاء ابن عدنانْ

فَقُل لحَجّاجٍ ولّي الشيطان ... يثبت لجمع مَذْحَجٍ وهَمْدَان

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٣٦ جـ٩.

فإنهم ساقوه كأس الذيفان ومُلحقوه بِقُرىٰ ابن مروان

وقول أعشى همدان: «إن ثقيفاً منهم الكذابان، كذابها الماضي وكذابٌ ثان» يعني المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب والحجاج بن يوسف الثقفي، وقد تقدم ذكر فتنة المختار بن أبي عبيد الثقفي والتي استشهد محمد بن الأشعث الكندي وهو يتصدى لها وتم القضاء عليها وقتل المختار في رمضان ٦٧هـ. قال الحافظ ابن حجر: «وأقوى ما ورد في المختار ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يكون في ثقيف كذاب ومبير» فشهدت أسماء أن الكذاب هو المختار»(١). وقال الحافظ ابن كثير: «قال الإمام أحمد: حدثنا ابن إسحاق بن يوسف قال حدثنا ابن عوف.. عن أسماء بنت أبي بكر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «سَيخرُجُ مِن ثقيف كذابان الآخر منهما شرٌّ من الأول، وهو مبير» هكذا رواه أحمد بهذا السند واللفظ. وقد أخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة بن مكرم عن يعقوب بن إسحاق الحضرمي عن الأسود بن شيبان عن أبي نوفل عن أبي عقرب بن سَلَم عن أسماء بنت أبي بكر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن في ثقيف كذاباً ومبيراً». وقد ذكر البيهقي هذا الحديث في دلائل النبوة. وقد ذكر العلماء أن الكذاب هو المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة، وأسرّ إلى أخصائه أنه يوحى إليه، ولكن ما أدري هل كان يدعي النبوة أم لا؟ وكان قد وضع له كرسي يُعَظم ويحف به الرجال، ويستر بالحرير، ويحمل على البغال، وكان يضاهي به تابوت بني إسرائيل المذكور في القرآن، ولا شك أنه كان ضالاً مضلاً.. وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف الثقفي نائب العراق لعبد الملك بن مروان، وكان الحجاج ناصبياً جلداً ظالماً غاشماً»(٢). وأما قول أعشى همدان:

إنّا سمونا للكفور الفَتّان بالسيد الغطريف عبد الرحمٰن

سار بجمع كالدَّبَىٰ مِنْ قحطان ومِنْ معدٍّ جاء ابن عدنان

فالدّبي: أسراب صغار الجراد، وقد شَبّه جيش عبد الرحمٰن بن الأشعث بالدَّبَىٰ الذي يسد الأفق، وقد ذكر الحافظ ابن كثير أنه «جعل الناس يلتفون حول ابن الأشعث من كل جانب حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل».

وكان من قادة وأصحاب ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث أبو

---

(١) الإصابة ـ ابن حجر ـ ص٥١٨ جـ٣.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٢٧٤ و ٢٩٢ جـ٨.

الطفيل ابن الصحابي عامر بن واثلة فقال في ذلك المسير:

أَلَا أَبْلِغ الحجاجَ أن قد أظَلَّهُ عذابٌ بأيدي المؤمنين مُصيبُ
أتوكَ يقُودُون المنايا وإنّما هَدَتها بأولانا إليك ذنوبُ
متى نَهْبط المِصْرَيْن يهب محمدٌ ولَيْسَ بِمُنْجي ابن اللعين هروبُ[1]

وكذلك كان ابن حلزة اليشكري يرتجز بين يدي ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث في ذلك المسير قائلاً:

نحن جَلَبْنا الخيل من زرنجا ما لك يا حجاج منّا مَنْجَىٰ
لتُبْعَجَنَّ بالسيوفِ بَعْجَا أو لتفرّن فذاك أحْجَىٰ

وكان الحجاج قد استنفر جيش وأهل العراق وإمدادات عبد الملك التي وصلت من الشام وتمركز بجيشه في البصرة والأهواز، قال المسعودي في مروج الذهب: «وسار الحجاج إلى البصرة، وسار ابن الأشعث إليه، فكانت له حروب عظيمة». وقد أوجزت الروايات الإشارة إلى تلك الحروب التي وصفها المسعودي بأنها حروب عظيمة، وكان أوّلها في تُسْتر بالأهواز، قال ابن خلدون: «سار الحجاج من البصرة، فنزل تُسْتر، وبعث مقدمة الخيل، فهزمهم أصحاب ابن الأشعث بعد قتال شديد، وقُتِل منهم جَمْعٌ كثير، وذلك في أضحى إحدى وثمانين».

وقال الطبري: «سار الحجاج حتى نزل تُستر، وقَدّم بين يديه مطهر بن حرّ وعبد اللّه بن رميثة ـ بالخيول ـ فجاؤوا حتى انتهوا إلى دُجيل، وقد بعث عبد الرحمٰن بن الأشعث خيلاً له عليها عبد اللّه بن أبان الحارثي، فلما انتهى إليه مطهر بن الحرّ أمر عبد اللّه بن رميثة فأقدم عليهم، فهُزِمت خيل ابن رميثة حتى انتهت إلى الحجاج وجُرح أصحابه.. وقال آخرون: سار الحجاج في جيشه من البصرة حتى نزل رستقباذ وهي من كور الأهواز فعسكر بها، وأقْبَلَ ابن الأشعث فنزل تُستر وبينهما نهر، فَوَجَّه الحجاج مطهر بن حرّ ـ في مقدمة الخيل والرجال ـ وسار ابن الأشعث مُبادراً فَوَاقَعَهُم في عشية عرفة من سنة ٨١هـ فيقال إنهم قتلوا ألفاً وخمسمائة، وجاءه الباقون منهزمين، ثم أقبل الحجاج منهزماً إلى البصرة».

وقد دمجت الروايات بين موقعتين، أولاهما: موقعة تُسْتر بالأهواز، وكانت قوات الحجاج بقيادة عبد اللّه بن رميثة، وفرسان ابن الأشعث بقيادة عبد اللّه بن أبان الحارثي المذحجي، فانهزم ابن رميثة حتى تقهقر ببقية أصحابه إلى الحجاج في رستقباذ بالأهواز، فانسحب الحجاج من الأهواز إلى منطقة نهر دجيل بمشارف

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٣ جـ٨ وقوله: (متى نهبط المصرين) يعني البصرة والكوفة.

البصرة، فسار إليه ابن الأشعث بجيشه، فالتقى الجيشان وبينهما نهر دُجيل، فدارت هناك الموقعة الثانية، وكان على رأس فرسان الحجاج مطهر بن الحرّ ـ ومعه ابن رميثة ـ عند نهر دُجيل. قال الطبري: «قال أبو الزبير الهمداني: كُنتُ في أصحاب ابن الأشعث إذْ دعا الناس وجمعهم إليه ثم قال: اعبروا إليهم من هذا المكان، فأقحم الناسُ خيولهم دُجَيْلَ من ذلك المكان الذي أمرهم به، فواللّٰه ما كان أسرع من أن عَبَرَ عِظم خيولنا فما تكاملت حتى حملنا على مطهر بن حرّ وابن رميثة فَهَزَمْنَاهما يوم الأضحى وأصبنا عسكرهم. وأتت الحجاجُ الهزيمة وهو يخطب فقال: أيها الناس ارتَحِلُوا إلى البصرة فإن هذا المكان لا يحمل الجند ثم انصرف راجعاً، وتبعته خيول ابن الأشعث فكلما أدركوا منهم شاذاً قتلوه، أو أصابوا نفلاً حووه، ومَضَىٰ الحجاج حتى نزل الزاوية..» فانهزم الحجاج في الزاوية كما انهزم في دجيل والأهواز.

وقد ذكر المسعودي خطبة للحجاج قالها فيما بعد، وأشار فيها إلى ما حدث في موقعة تُسْتَر بالأهواز وموقعة البصرة، فقد خطب الحجاج بالكوفة يذم أهل العراق فقال: «ألستم أصحابي بالأهواز حين سعيتم بالغدر بي فاستجمعتم عليّ، وأقسم باللّٰه إني لأراكم بطرفي تتسللون لِواذاً منهزمين، سراعاً متفرقين، كل امرئ منكم عَلَى عنقه السيف رعباً وجبناً. ثم يوم الزاوية، وما يوم الزاوية، بها كان فَشَلُكم وتخاذلكم وبراءة اللّٰه منكم، توليتم على أكتافكم السيوف هاربين، ولّيتم كالإبل الشَّوَارِدِ إلى أوطانها، لا يسأل الرجل عن بنيه، ولا يلوي امرؤ على أخيه، حتى عضكم السلاح، وقصفتكم الرماح»[(١)].

وقد حاول الحجاج تحميل جيشه من أهل العراق مسؤولية الهزيمة والهروب في الأهواز والبصرة، بينما كان الحجاج على رأس المنهزمين الهاربين، قال ابن خلدون: «أجْفَلَ الحجاجُ إلى البصرة، ثم تأخر عنها إلى الزاوية، ودخل عبد الرحمٰن بن الأشعث البصرة» ـ وقد كان انتصاره في نهر دُجيل عشية عيد الأضحى، وبالتالي كان دخوله البصرة أيام عيد الأضحى سنة ٨١هـ وقال الطبري: «كان دخول عبد الرحمٰن البصرة في آخر ذي الحجة سنة ٨١هـ».

* * *

انضواء ولاية البصرة تحت لواء ناصر المؤمنين

كان دخول ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي مدينة البصرة ـ في ذي الحجة ٨١هـ ـ حدثاً تاريخياً كبيراً، فمنذ عهد ولاية الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري للبصرة في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان سنة ١٦ ـ ٢٩هـ

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص١٣٩ جـ٣.

أصبحت البصرة مدينة عاصمة كبيرة استقر فيها كثير من الصحابة والتابعين وانتقل إليها وسكن فيها كثير من أهل اليمن وعمان والخليج العربي ـ الذي كان يُسمى البحرين ـ ونجد والحجاز وغيرها، وأصبحت البصرة مركز الإشعاع العلمي والفكري والديني والحضاري العربي الإسلامي على أرجاء واسعة من المشرق. وكانت البصرة العاصمة الإدارية لولاية كبيرة شملت بادية السماوة ومنطقة الخليج العربي ـ وكانت تُسمى البحرين ـ إلى اليمامة غرباً وتخوم عُمان جنوباً، وكذلك شملت عُمان في خلافة عبد الملك بن مروان، بينما شرقاً كانت ولاية البصرة تشمل الأهواز وبلاد فارس وغيرها. فلما دخل عبد الرحمن بن الأشعث مدينة البصرة ـ في ذي الحجة ٨١هـ ـ بايعه بالخلافة سائر الصحابة والتابعين والعلماء والفقهاء والأدباء والرؤساء والقادة والناس الذين بالبصرة وبالمناطق والأقاليم التابعة لولاية البصرة.

قال الحافظ ابن كثير: «دخل ابن الأشعث البصرة، فخطب الناس بها، وبايعهم وبايعوه، على خلع عبد الملك ونائبه الحجاج، ووافقه على خلعهما جميع من في البصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب»[1].

وقال ابن خلدون: «دخل عبد الرحمٰن البصرة فبايعه أهلها وسائر نواحيها، لأن الحجاج كان اشتد على الناس في الخراج وأمر من يدخل الأمصار أن يرجع إلى القرى ويستوفي الجزية، فنكر الناس ذلك وجعل القرى يبكون منه، فَلَمَا قَدِم عبد الرحمٰن بايعوه»[1].

وقال ابن جرير الطبري: «لما دخل عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث البصرة بايعه جميعُ أهلها من قُرائها وكهولها، وكان رجل من الأزد من الجَهاضِم يُقال له عقبة بن عبد الغافر له صُحبة، فبايعه مستبصراً في قتال الحجاج»[1].

ولم يكن أهل البصرة فقط الذين بايعوه وإنما ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ «بايعه أهل البصرة وسائر نواحيها» أي سائر ولاية البصرة والمناطق التي كانت تابعة لها في شرق الجزيرة العربية ومنها بلاد البحرين بمدلولها الواسع في فجر الإسلام والذي كان يشمل بالتسميات الحالية الكويت وقطر والبحرين والأحساء والإمارات العربية المتحدة وجهات اليمامة، وكذلك بلاد عُمان التي كان حكامها يرتبطون بوالي البصرة وكان يحكم عمان آنذاك سعيد بن عبّاد بن عُبيد بن الجُلَنْدَى بن الجُلَنْدَى الأزدي وأخوه سليمان بن عبّاد.

وقَدِم إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث بالبصرة ثم بالكوفة شخصيات وفرسان من البحرين وعُمان واليمن ومكة المكرمة والمدينة المنورة فانضووا تحت لوائه وبايعوه

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٣٧ و ٤٠ جـ٩ ـ وتاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١١ جـ٨ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٨٩.

بالخلافة. قال ابن كثير: «وكان ممن قَدِم عليه عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب بن هاشم»[١]. وقد استخلف ابن الأشعث على البصرة عبد الرحمٰن بن العباس هذا وسار قاصداً الكوفة. وكذلك قال ابن الأثير: «دخل عبد الرحمٰن البصرة فبايعه جميع أهلها، وقراؤها وكهولها.. وكان السبب في سرعة إجابتهم إلى بيعته أن عمال الحجاج كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار، فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها، فأُخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية فجعلوا يبكون وينادون: يا محمداه يا محمداه، ولا يدرون أين يذهبون وجعل قُراء البصرة ـ أي علماء البصرة ـ يبكون لما يرون. فلما قَدِم ابنُ الأشعث عقيب ذلك بايعوه»[٢]. وقال ابن الأثير في خاتمة أنباء سنة ٨١هـ «وحج بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الملك، وكان العامل على المدينة أبان بن عثمان، وعلى العراق والمشرق الحجاج، وعلى خراسان المهلّب، وكان سجستان، وكرمان، وفارس، والبصرة بيد عبد الرحمٰن بن الأشعث»[٢].

وكان الحجاج لما انهزم من البصرة قد نزل منطقة الزاوية فعسكر بجيشه فيها، قال ابن الأثير: «وَخَنْدَقَ الحجاج على نفسه، وخَنْدَق عبد الرحمٰن على البصرة. وفي المحرم من سنة اثنتين وثمانين اقتتل عسكر الحجاج وعسكر عبد الرحمٰن بن الأشعث قتالاً شديداً، فتزاحفوا في المحرم عدة دفعات، فلما كان ذات يوم في آخر المحرم اشتد قتالهم فانهزم أصحاب الحجاج حتى انتهوا إليه وقاتلوا على خنادقهم، ثم إنهم تزاحفوا آخر يوم من المحرم فجال أصحاب الحجاج وتقوض صفهم» ـ إلى أن قال ـ «وهذه الوقعة تُسمى وقعة الزاوية»[٢]. وقد شهدت الزاوية موقعتين إحداهما في محرم ٨٢هـ. وفيها انهزم الحجاج وجيشه، وولّى الحجاج الأدبار منسحباً إلى القادسية ثم أعالي الكوفة، والموقعة الثانية في الزاوية في صفر سنة ٨٣هـ وكان عبد الملك بن مروان قد بعث الجيوش من الشام فأتى جيش من جند الشام بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي إلى الزاوية والبصرة، فتصدت لهم فرقة من أصحاب ابن الأشعث بقيادة عبد الرحمٰن بن العباس نائب ابن الأشعث على البصرة، فظفر جند الشام، فوقع التباس بين الموقعتين في الزاوية ودمجت الروايات بينهما، ومما يدل على ذلك أن جيش الحجاج في موقعة الزاوية (الأولى) كانوا من جند وأهل العراق، بينما في موقعة الزاوية (الثانية) كانوا من جند الشام بقيادة سفيان بن الأبرد، ولم يأت

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٣٧ و ٤٠ جـ٩ ـ وتاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١١ جـ٨ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٨٩.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٧٩ ـ ٨٠ جـ٤.

سفيان بن الأبرد وجند الشام إلا في أواسط سنة ٨٢هـ. ومما يدل على ذلك أيضاً، قال ابن كثير: «لما التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية، جعل جيش الحجاج يحمل عليهم، فقال القُراء وكان عليهم جَبَلة بن زُحر: أيها الناس قاتلوا عن دينكم ودنياكم، وقال سعيد بن جُبير نحو ذلك، وقال الشّعبي: قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة..» فأولئك القُرّاء العُلماء: جَبَلة بن زُحر، وسعيد بن جبير، والإمام الشّعبي من علماء الكوفة الذين انضووا تحت لواء ابن الأشعث وبايعوه عند دخوله الكوفة في شهر ربيع سنة ٨٢هـ مما يدل على أن موقعة الزاوية التي شهدوها هي الزاوية الثانية في محرم وصفر سنة ٨٣هـ، أما الزاوية التي كانت في محرم سنة ٨٢هـ فانهزم فيها الحجاج وجيشه وتقهقر إلى القادسية، وتلا ذلك ما ذكره الطبري في موضع لاحق من أنه «بعث عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى الحجاج عبد الرحمٰن بن العباس في خيل عظيمة فمنعوه من نزول القادسية، ثم سايروه حتى ارتفع إلى وادي السباع، ثم تسايروا حتى نزل الحجاج دير قُرَّة». ويقع دير قُرَّة في أعالي ولاية الكوفة التي إليها تقهقر الحجاج منهزماً من ولاية البصرة التي رفرفت في سائر ربوعها رايات ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي.

* * *

انضواء ولاية الكوفة تحت لواء ناصر المؤمنين

في شهر صفر أو ربيع الأول سنة ٨٢هـ تهيأ ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث للمسير من البصرة إلى الكوفة، واجتمع إليه الفرسان والناس في مِرْبَدِ البصرة، فخطب فيهم وحَثّهم على مصاولة عدوهم. قال أبو العباس المُبرِّد:

«خَطَبَ الناسَ عبدُ الرحمٰن بن محمد بن الأشْعثِ بالمِرْبَدِ (مربد البصرة) فقال: أيها الناس إنه لم يبق من عَدوِّكمْ إلا كما يبقى من ذَنبِ الوزغَةِ تضرب به يميناً وشمالاً فلا تَلبَثُ أن تموت. فسمعه رجلٌ من بني عامر بن صَعْصَعة فقال: قَبَحَ اللَّه هذا، يأمرُ أصحابه بقلة الاحتراس من عدوهم ويَعِدُهُم الغُرور»[١]. ولم يكن ابن الأشعث بأمر بذلك القول أصحابه بقلة الاحتراز ولا كان يَعِدُهُمُ الغُرور، وإنما كان يرفع معنوياتهم ولم يبق من عدوهم الحجاج آنذاك إلا كما يبقى من ذَنبِ الوزغَةِ ـ بالفعل ـ فقد تقهقر الحجاج إلى وادي السباع وكان نائبه على الكوفة مطر بن ناجية التميمي وهو من قوم ذلك الرجل الذي قال وظن أن ابن الأشعث يَعِدُ أصحابه الغُرور؛ لأن الكوفة أميرها مطر بن ناجية التميمي وهو بعيد المنال! فلما خطب

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص١٦٠ جـ١.

عبد الرحمٰن بن الأشعث الناس بمربد البصرة استخلف على البصرة عبد الرحمٰن بن العباس وسار بالفرسان إلى الكوفة.

ولما عَلِم أهل الكوفة بمسير ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث إليهم تهيأوا وخرجوا لاستقباله والانضواء تحت لوائه، قال الطبري: «قال أبو الزبير الهمداني ثم الأرحبي: كنتُ قد أصابتني جراحة، وخرج أهل الكوفة يستقبلون عبد الرحمٰن بن الأشعث حين أقْبَل، فاستقبلوه بعدما جَازَ قنطرة زبارا، فلما دَنَا منها قال لي: إن رأيت أن تعدل عن الطريق فلا يرى الناس جراحتك فإنّي لا أحب أن يستقبلهم الجرحى، فَعَدلتُ، فلما دخل الكوفة مال إليه أهل الكوفة كلهم وسبقت همدان إليه فَحَفّت به. إلا أنّ طائفة من تميم ليسوا بالكثير قد أتوا مطر بن ناجية فأرادوا أن يُقاتلوا دونه فلم يطيقوا قتال الناس (فَتَحَصنُوا معه في قصر الإمارة) فدعا عبد الرحمٰن بالسلاليم والعجل، فَوُضِعَتْ ليصعد الناس القصر، فصعد الناسُ القصرَ فأخذوه، فأوتي به عبد الرحمٰن، فقال له مطر: استبقني فإنّي ـ سأكون ـ أفضل فرسانك، فأمر به فَحُبِس، ثم دعا به بعد ذلك فعفا عنه، وبايعه مطر»[1].

وقال الحافظ ابن كثير: «لما قَصَدَ عبدُ الرحمٰن بن الأشْعثِ الكوفةَ خرج إليه أهلها فتلقوه وحفّوا به ودخلوا بين يديه، غير أن شرذمة قليلة أرادت أن تُقاتل دون مطر بن ناجية نائب الحجاج فلم يمكنهم ذلك، فعدلوا إلى القصر، فلما وصل ابنُ الأشعث الكوفةَ أمر بالسلالم فنُصبت على قصر الإمارة فأخذه، واستنزل مطر بن ناجية وأراد قتله، فقال له: استبقني فإني خيرٌ من فرسانك، فحبسه، ثم استدعاه فأطلقه وبايعه، واستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة»[1].

وقال ابن خلدون: «لما وصل ابن الأشعث الكوفة، لقيّه أهل الكوفة، وحَفَّت به همدان، وجاء إلى القصر، فمنعه مطر بن ناجية، فصعد الناس القصر وأخذوه، فحبسه ابن الأشعث ومَلَكَ الكوفة»[1].

وكذلك قال ابن الأثير: «لما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة كان مطر بن ناجية بالقصر، فخرج أهل الكوفة يستقبلونه، ودخل الكوفة وقد سبقت إليه همدان فكانوا حوله، فأتى القصر فمنعه مطر بن ناجية ومعه جماعة من بني تميم، فأصعد عبد الرحمٰن الناس في السلاليم إلى القصر فأخذوه، فأُتي عبد الرحمٰن بمطر بن ناجية فحبسه ثم أطلقه وصار معه. ولما استقر عبدُ الرحمٰن بالكوفة اجتمع إليه الناس وقصده أهل البصرة، منهم عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة الهاشمي بعد قتاله الحجاج بالبصرة»[1]

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٢ جـ٨ ـ والبداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٣٧ جـ٩ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٨٩ ـ والكامل ـ لابن الأثير ـ ص٨٠ جـ٤.

وكان الحجاج لمّا انهزم من البصرة والزاوية صار إلى القادسية، حيث كما ذكر الطبري: «بعث إليه عبد الرحمٰن بن الأشعث عبد الرحمٰن بن العباس في خيل عظيمة فمنعوه من نزول القادسية، ثم سايروه حتى ارتفع إلى وادي السباع، ثم تسايروا حتى نزل الحجاج دَيْر قُرَّة.. وكان الحجاج أراد قبل أن ينزل دَيْر قُرَّة أن يرتفع إلى ناحية هِيتَ وناحية الجزيرة ـ الفراتية ـ إرادة أن يقترب من الشام والجزيرة فيأتيه المدد من الشام من قريب، فلما مرَّ بدير قُرَّة قال: ما بهذا المنزل بُعدٌ من أمير المؤمنين، فنزل دير قُرّة».

ويتبين من ذلك أن قدوم عبد الرحمٰن بن العباس إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث بالكوفة كان بعد أن تتبع هو والفرسان الذين معه الحجاج والمنهزمين معه حتى لحق الحجاج بمنطقة دَيْر قُرَّة متوجهاً إلى ناحية هِيتَ وأطراف الجزيرة الفراتية، وعندئذ عاد عبد الرحمٰن بن العباس والفرسان الذين معه إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث بالكوفة ـ في حوالي رجب ٨٢هـ ـ بينما نزل الحجاج مع مَنْ بَقي معه بمنطقة دير قُرَّة، وقد ذكر ابن الأثير قول البعض «إن دَيْر الجماجم كانت في شعبان ٨٢هـ» وهو زمن نزول الحجاج في دير قُرّة، مما يشير إلى أن قدوم عبد الرحمٰن بن العباس إلى ابن الأشعث بالكوفة كان في حوالي شهر رجب سنة ٨٢هـ وكان ابن الأشعث قد استقر بالكوفة منذ ربيع الثاني سنة ٨٢هـ حيث كما ذكر الطبري عن أبي الزبير الهمداني «دخل الناسُ إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث في دار الإمارة فبايعوه، وتقوضت إليه المسالح والثغور».

وغني عن البيان أن الكوفة كانت المدينة العاصمة الرئيسية بالعراق منذ اختطاطها في ولاية الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص وخلافة عمر بن الخطاب، فاستقر بها كثير من الصحابة بينهم الأشعث بن قيس وكثير من التابعين وسكنها واختط بها قبائل يمانية من كندة وحضرموت وهمدان ـ حاشد وبكيل ـ ومذحج وطيء والأزد، وعشائر غير يمانية من ربيعة وتميم ومُضر، وأصبحت مركز وعاصمة ولاية مترامية الأطراف هي ولاية الكوفة التي كانت مناطقها وثغورها تمتد إلى ما يلي العراق من بلاد الريّ وأصبهان والجبال وأذربيجان وغيرها من ثغور الكوفة، فتدفق أهلها وقادتها إلى مدينة الكوفة يبايعون ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث (في الفترة ما بين ربيع الثاني ورجب سنة ٨٢هـ)، وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير: «دخل ابن الأشعث الكوفة فبايعه أهلها.. وكثر متابعو ابن الأشعث.. واتسع الخُرقُ على الراقع».

* * *

ما بين مبايعة الكوفة لابن الأشعث وموقعة دير الجماجم.

بانضواء الكوفة تحت لواء ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي أصبحت الولايات والبلدان التي خلعت عبد الملك بن مروان وبايعت عبد الرحمٰن بن

الأشعث بالخلافة تشمل ولايات وبلدان سجستان، وكرمان، ومكران، وفارس، والأهواز، وأصبهان، والريّ، والجبال، والعراق بعاصمتيها البصرة والكوفة، وبلاد البحرين بمدلولها الواسع القديم ـ منطقة الخليج العربي ـ وكذلك عُمان، وتشير بعض الوقائع اللاحقة إلى أن الانضواء تحت لواء ابن الأشعث امتد إلى مناطق حضرموت وغيرها من مناطق اليمن.

وقد نقل الدكتور يوسف خليفة قول الدكتور فلهوزن:

«إن اليمنيين كانوا ممثلين في هذه الثورة تمثيلاً ضخماً لأنهم نظروا إلى ابن الأشعث على أنه رجلهم الخاص»(١).

وقال الدكتور يوسف خليفة في تكييفه لموقف الشاعر أعشى هَمْدان شاعر ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث:

« . . لقد كانت نفس أعشى همدان تسيطر عليها نزعة أرستقراطية عميقة أثارها فيه شعوره بمجد اليمن القديم وبأن زعيمه سليل ملوك اليمن القدماء وأنه يعمل لإعادة ذلك المجد. . فأغلب الظن أن الأعشى لم يكن يتمثل ثورة ابن الأشعث ثورة سياسية بقدر ما كان يتمثلها محاولة لاسترداد اليمانية ملكهم القديم، وهو في هذا لم يكن إلا ممثلاً لشعور اليمنية الذين نظروا إلى الثورة من هذه الزاوية، فكانوا لهذا أسرع الطوائف استجابة لابن الأشعث»(٢).

وأياً كان مدى سلامة ذلك التكييف لموقف أعشى همدان واليمنيين الذين استجابوا لعبد الرحمٰن بن الأشعث وبايعوه بالخلافة، فقد اعتمد د. يوسف خليفة وغيره من الدارسين في ذلك التكييف ـ بصفة أساسية ـ على قصيدة دالية لأعشى همدان قالها بعد انضواء الكوفة تحت لواء ابن الأشعث بأمد يسير، وقد اكتفت الروايات بذكر قوله تلك القصيدة يمدح عبد الرحمٰن بن الأشعث، ولكن الأجواء التي قيلت فيها تلك القصيدة تكتسب أهمية كبيرة، فقد ذكر ابن جرير الطبري عن محمد بن السائب: «إن الناس لما اجتمعوا بدير الجماجم قال عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث: ألا إنّ بني مروان يعيَّرون بالزرقاء واللّه ما لهم نسبٌ أصحّ منه، ألا إن بني أبي العاصي أعلاجٌ من أهل صَفورِية، فإنْ يكُنْ هذا الأمرُ في قريش فعنّي فُقئت بَيضة قريش وإنْ يكُ في العرب فأنا ابنُ الأشعث بن قيس»(٢).

ويتبين من ذلك أنه في تلك الفترة أظهر بعض المشايعين لعبد الملك بن مروان القول بأن الخلافة ينبغي أن تكون في قريش وأن بني مروان من قريش بينما

(١) الشعر في الكوفة ـ د. يوسف خليفة ـ ص٨٥ وص٨٠.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٦ جـ٨.

عبد الرحمٰن بن الأشعث كندي من اليمن، وأن نوعاً من الجدل الفكري حول أمر الخلافة دار بين الفريقين، فكان ذلك سبب مقولة عبد الرحمٰن بن الأشعث سالفة الذكر والتي ذَمّ فيها نسب بني مروان؛ لأنّ لهم عروقاً غير عربية وأن بني أبي العاص الأمويين أخوالهم أعلاج أعاجم، ثم قال:

«فإن يك هذا الأمر في قريش فعنّي فُقئت بيضة قريش وإن يك في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس»[١].

وفي مثل تلك الأجواء قال أعشى همدان قصيدته الدالية في عبد الرحمٰن بن الأشعث والتي اعتمد عليها د. يوسف خليفة في قوله: «إن نفس أعشى همدان كانت تسيطر عليها نزعة عميقة أثارها فيه شعوره بمجد اليمن القديم وبأن زعيمه سليل ملوك اليمن القدماء وأنه يعمل لإعادة ذلك المجد. .» وفيما يلي قصيدة أعشى همدان الدالية في عبد الرحمٰن بن الأشعث:

يـأبَىٰ الإلـهُ، وعـزّ ديـن مـحـمـدٍ، وجـذور مُـلْـكٍ قـبـل آل ثـمـودِ[٢]
أن تُـنـسـبوا كـمُـذَمَّـمِـيـن عـروقـهـم في الناس إن نُسِبوا عروق عبيدِ[٣]
كَـمْ مِـنْ أبٍ لـك كـان يَـعْـقِـدُ تـاجَـه بـجـبـيـن أبْـلَـج، مقْـولٍ، صِـنـديـدِ
ما قَصّرَت بِكَ أن تَنَال مَدَى العُلا آبـاء مـكـرمـةٍ، وإرث جـدودِ
وإذا سـألـتَ الـمـجـدَ، أيْـنَ مـحـلـه؟ فـالـمـجـد بـيـن مـحـمـدٍ وسـعـيـد[٤]
بـيـن الأشَـجّ وبـيـن قَـيْـسٍ بَـاذِخٌ، بَـخٌ بَـخٌ لـوالـده ولـلـمـولـود[٥]
قِـرمٌ إذا سَـامَـىٰ الـقـروم تَـرىٰ لـه أعـراق مـجـدٍ طـارفٍ وتـلـيـدِ

(١) قوله: (فعنّي فُقئت بيضة قريش) تقدم تبيين أن بني كلاب وهم بيت قريش كانت أمهم من كندة. وقد سلف الحديث عن ذلك.

(٢) جاء صدر البيت في الأغاني (يأبى الإله وعزة ابن محمد) ويدل السياق على أن الصواب (وعز دين محمد) أي دين الإسلام.

(٣) جاء صدر البيت في الأغاني (إن تأنسوا بمذميين عروقهم) ويدل عجز البيت على أن الأصوب (إن تُنبسوا كمذممين عروقهم) يعني بني مروان وأخوالهم بني أبي العاصي الذين قال ابن الأشعث إنهم أعلاج. . إلخ. فقال الأعشى: إن عروقهم عروق عبيد.

(٤) محمد: هو محمد بن الأشعث. وسعيد: سعيد بن قيس الحاشدي الهمداني، وكان آباء وأجداد الأشعث وكذلك أجداد سعيد من ملوك اليمن.

(٥) الأشج: لقب الأشعث. وقيس: والد سعيد بن قيس. وباذخ: عال. وتبذخ: علا وشرف.

(٦) قال الفيروزابادي: «بَخْ: أي عَظُم وفَخُم. وتُكرر بَخ بَخْ الأول منون والثاني مُسكن. وبخٌ بخٌ مشددين: تُقال عند الرضا والإعجاب بالشيء والمدح».

وإذا دَعَا لكريهةٍ حَشَدَت له … هَمْدانُ تحت لوائه المعقود[١]

يمشون في حِلَقِ الحديد كأنهم … أُسدُ الإباءِ سَمِعْنَ زأر أُسودِ

وإذا دَعَا في آل كندة أجْفَلوا … بكهولِ صدقٍ سيدٍ ومَسُودِ

وشبابُ مأسدة كأنّ سُيوفَهم … في كُلِّ مَلْحمة بروق رعودِ

لقد تجسدت في قصيدة أعشى همدان تلك مشاعر الاعتزاز بمجد اليمن القديم وبأن عبد الرحمٰن بن الأشعث سليل ملوك اليمن القدماء الذين كانوا في تلك العصور ملوك كافة قبائل وجزيرة العرب، ولكنه لم يكن ينظر إلى ابن الأشعث بأنه رجل وزعيم اليمانيين فحسب فقد أشار إلى الشخصيات والعشائر العدنانية من ربيعة وقريش ومُضَر في قوله:

إنّا سَمَونَا للكفور الفَتّانْ … بالسيد الغطريف عبد الرحمٰنْ

سار بجمعٍ كالدَّبَىٰ مِنْ قحطانْ … ومِنْ مَعدٍّ جاء ابن عدنانْ

وقد كان من بين أبرز الذين انضووا تحت لواء ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي في البصرة والكوفة أو قَدِموا إليه وهو بالبصرة أو الكوفة وبايعوه بالخلافة وساروا تحت لوائه من الصحابة وأبناء الصحابة وعلماء التابعين والأمراء والقادة وأعلام الأُمة جَمْعٌ كثير من بينهم الصحابي الجليل أنس بن مالك الأنصاري، والصحابي تيحان بن أبجر، والصحابي عقبة بن عبد الغفار الجهضمي الأزدي، ومن أبناء الصحابة والأمراء وعلماء التابعين ذكر الحافظ ابن كثير أن الذين بايعوا عبد الرحمٰن بن الأشعث كان من بينهم «محمد بن سعد بن أبي وقاص. وعبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب بن هاشم. وأبو عبيدة بن عبد اللّٰه بن مسعود.. وعبد الرحمٰن بن عياش بن أبي ربيعة بن عبد المطلب بن هاشم. وكميل بن زياد النخعي[٢] وَجَبَلة بن زحر بن قيس الجُعفي المذحجي.. ومن علماء التابعين بالبصرة: مُسلم بن يسار.. وأبو مرانة العجلي.. وعقبة بن وشاح، وعبد اللّٰه بن خالد الجهضمي، وأبو الجوزاء الربعي، والنضر بن أنس بن مالك، وعمران والد أبي حمزة الضبعي، وأبو المنهال سيار بن سلامة، ومالك بن دينار، ومرّة بن ذباب الهدادي، وأبو نجيد الجهضمي، وأبو سبيح الهنائي الأزدي، وسعيد بن أبي

---

(١) قوله (وإذا دعا لكريهة): أي إذا دعا للحرب. وهمدان: يعني همدان بن زيد ويجمع حاشداً وبكيلا.

(٢) هو كميل بن زياد النخعي المذحجي. قال ابن كثير: روى عن عمر وعثمان وعليّ وابن مسعود وأبي هريرة، وشهد صفين مع عليّ وكان شجاعاً.

الحسن، وأخوه الحسن البصري[١]، ومن العلماء التابعين بالكوفة: سعيد بن جُبير، وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى، وعبد اللّه بن شداد، والإمام الشّعبي الهمداني، والمعرور بن سويد، وأبو البختري الطائي، وطلحة بن مصرف، وزبيد بن الحارث، وعطاء بن السائب.. وجماعات من السادات الأخيار والعلماء الأبرار»[٢].

وجاء في تاريخ الطبري أن (عمر بن موسى بن عبيد اللّه بن معمر بن سُمرة القُرشي كان صاحب شرطة عبد الرحمٰن بن الأشعث) وأن عمال ابن الأشعث على الولايات والأقاليم كان منهم عياض بن هميان أمير بُسْت وعبد اللّه بن عامر أمير زرنج ـ سجستان ـ وعمرو بن لقيط العبدي على كرمان ومعه أبو إسحاق السبيعي الهمداني، وبسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني أمير إقليم الريّ والجبال، بينما استقر عبد الرحمٰن بن الأشعث بالكوفة، قال ابن كثير: «وأمر ابن الأشعث بالمسالح من كل جانب، وحُفظت الثغور والطرق والمسالك» وبذلك تكتمل معالم أنباء ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي منذ دخوله الكوفة إلى ما قبل موقعة دير الجماجم، أو إلى نهاية سنة ٨٢ هجرية.

* * *

أما أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وعامله الحجاج بن يوسف الثقفي، فقد سلف ذكر أن الحجاج لما انهزم من البصرة ثم الزاوية تقهقر إلى القادسية وبعث عبد الرحمٰن بن الأشعث إليه عبد الرحمٰن بن العباس في خيل عظيمة فمنعوه من نزول القادسية فتقهقر منها ـ في حوالي شهر ربيع الثاني ٨٢هـ ـ ثم سايروه حتى ارتفع إلى منطقة وادي السباع فمنعوه من الاستقرار بها فتقهقر منها ـ في حوالي شهر جمادى ـ ثم سايروه حتى نزل منطقة دَيْر قُرَّة، وأراد أن يرتفع إلى ناحية هَيتَ وناحية الجزيرة الفراتية ليكون قريباً من الشام فيأتيه المدد من قريب، وربما ارتفع إلى ناحية هَيتَ بالفعل عندما رجع ابن العباس والفرسان الذين معه إلى ابن الأشعث بالكوفة ـ في رجب ٨٢هـ ـ ثم رأى أن ينزل دَيْر قُرَّة وقال: «ما بهذا المنزل بُعدٌ من أمير المؤمنين» وربما أن نزوله بِدَيْر قُرَّة كان بعد وصول أوائل الإمدادات إليه من عبد الملك بن مروان بالشام.

قال المسعودي في مروج الذهب: «دخل ابن الأشعث الكوفة، وكتب الحجاج

---

(١) قال ابن كثير: «قال أيوب: قيل لابن الأشعث: إن أحببت أن يُقتل الناس حولك كما قتلوا حول هودج عائشة يوم الجمل فأخرج الحسن معك. فأخرجه». يعني أخرجه معه لما سار إلى الكوفة، لأن مبايعة الحسن البصري لابن الأشعث كانت بالبصرة وبقناعته.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥٣ ـ ٥٤ جـ٩.

كتاباً إلى عبد الملك يذكر فيه جيوش ابن الأشعث وكثرتها ويستنجد عبد الملك ويسأله الأمداد، وقال في كتابه: واغوثاه يا اللّه، واغوثاه يا اللّه، واغوثاه يا اللّه، فأمَدَّه عبد الملك بالجيوش وكتب إليه: يا لبيك، يا لبيك، يا لبيك»[1].

وقد ذكر الطبري وابن الأثير قولين في زمن قدوم جيش الشام إلى الحجاج ونزوله دَيْر قُرَّة ومسير ابن الأشعث إليه من الكوفة ونزوله دَيْر الجماجم، فاستهل ابن الأثير ذلك قائلاً: «وكانت وقعة دير الجماجم في شعبان سنة ٨٢هـ، وقيل: كانت سنة ثلاث وثمانين». وقد اكتفت أكثر كتب التاريخ بنقل القول بأن وقعة دير الجماجم في شعبان ٨٢هـ بينما مصدرها جميعاً هو رواية تاريخ الطبري وقد ذكر القول بأن ذلك في شعبان ٨٢هـ ثم ذكر بسند عن علماء التاريخ وعن أبي المخارق الذي شهد الموقعة قال: «نزلنا دير الجماجم مع ابن الأشعث غداة الثلاثاء لليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة ٨٣هجرية». فذلك هو الزمن الصحيح الذي لا يتعارض مع وصول إمدادات من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج ونزوله ما بين هَيتَ ودَيْر قُرّة في شعبان ٨٢هـ، فيمكن إدراك أن ذلك كان أوائل المدد من جيش الشام، فلم يكن جمع وتوجيه زهاء مائة وخمسين ألفاً من جند أهل الشام والجزيرة الفراتية وثغور الروم وأرمينيا أمراً يسيراً، فقد كان ذلك يستلزم فترة من الزمن، وكان عبد الملك يبعث الإمدادات تدريجياً إلى الحجاج حتى نهاية سنة ٨٢هـ، ولم يحشد ويبعث عبد الملك الجيش الرئيسي من الشام إلا في صفر ٨٣هـ كما سيأتي.

قبل أن يبعث عبد الملك بن مروان الجيش الرئيسي كان الحجاج قد نزل بمنطقة دَيْر قُرّة واتخذها معسكراً وخَنْدَق على نفسه وجنوده، فلما علم عبد الرحمٰن بن الأشعث بذلك بعث جيشاً من الكوفة ـ وقيل سار بنفسه ـ فنزل جيش ابن الأشعث بمنطقة دير الجماجم وخَنْدَق على نفسه، وكان معسكر وخندق الحجاج ـ بدير قُرّة ـ ومعسكر وخندق قوات ابن الأشعث ـ بدَيْر الجماجم ـ متقابلان، فقال الحجاج: «أما كان عبد الرحمٰن يزجر الطير حيث رآني نزلتُ دير قُرَّة فنزل دَيْر الجماجم». وتدل عبارة الحجاج تلك على عدم استعداده لقتال وعدم رغبته في ذلك، ويعود ذلك غالباً إلى انتظار وصول التعليمات والجيش من عبد الملك بن مروان، فمكث جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث في معسكريهما وخندقيهما، وكان قائد جيش ابن الأشعث المرابط بدير الجماجم في تلك الفترة اسمه عبد الرحمٰن ولكنه ليس عبد الرحمٰن بن الأشعث، وقد يكون عبد الرحمٰن بن العباس، وكانت تقع مناوشات ومبارزات بين الوقت والآخر بين الفريقين، فلا يزال أحدهما يدني

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٩٥ جـ١.

خندقه نحو صاحبه فإذا رآه الآخر أدنى خندقه من صاحبه وطال القتال ـ أو ذلك التناوش ـ بينهما، وكان الفريقان زهاء عشرين ألفاً لأن جيش الشام لم يكن قد أتى.

وفي حوالي شهر صفر سنة ٨٣هـ احتشد في دمشق زهاء مائة وخمسين ألفاً من الفرسان والرجال وتهيأوا للمسير إلى العراق والانضمام إلى القوة التي بقيادة الحجاج في دَيْر قُرَّة، وقبل وصولهم إلى دَيْر قُرَّة، استنفر ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث قادته وعماله وفرسان ولاية الكوفة وولاية البصرة والثغور فتدفقوا إليه بالكوفة وانطلق بهم إلى دير الجماجم، قال ابن الأثير: «اجتمع إلى عبد الرحمٰن أهل الكوفة، وأهل البصرة، والقراء، وأهل الثغور والمسالح، بدير الجماجم، وكانوا مائة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم» وقال الحافظ ابن كثير: «كان جملة من اجتمع مع عبد الرحمٰن بن الأشعث بدير الجماجم مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم». قال الطبري: «قال أبو المخارق: نزلنا دير الجماجم مع عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث غداة الثلاثاء لليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة ٨٣هـ».

وقد ذكر الطبري في سياق رواية ثانية النص التالي: «نزل الحجاج دير قُرَّة، ونزل عبد الرحمٰن بن العباس دير الجماجم، ثم جاء ابن الأشعث فنزل دير الجماجم، والحجاج بدير قُرَّة»[1]، وقد وقع في بقية سياق تلك الرواية التباس في ترتيب الوقائع، ولكن هذا النص يؤكد ما سلف تبيينه من أن الحجاج كان قد عسكر في دير قُرَّة وأن ابن الأشعث بعث قوة بقيادة عبد الرحمٰن بن العباس فعسكر بدير الجماجم، فكانت تقع بين الفريقين مناوشات ومبارزات بين الوقت والآخر، أما مسير ابن الأشعث فكان في صفر ونزل دير الجماجم في ٢ ربيع الأول سنة ٨٣هـ على رأس مائة ألف من الفرسان والرجال العرب ومعهم مائة ألف من مواليهم، وبذلك بلغ جيش ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي مائتيّ ألف من الفرسان والرجال المسلمين الذين عسكروا بمنطقة دَيْر الجماجم.

وما لبث أن وصل جيش الشام الذي سبق قدومه اجتماع شوروي بين أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وكبار أمراء وقادة الشام الذين كان غالبيتهم من اليمانيين وكان اجتماعهم في صفر سنة ٨٣هـ، ولم تذكر الروايات الذين حضروا الاجتماع ولا بد أن منهم كبار الأمراء والقادة اليمنيين الذين بالشام فقد ذكر المسعودي في أنباء مبايعة حسان بن مالك الكلبي ويمانية الشام لمروان الشروط التي اشترطها حسان لليمنيين ومنها: «أن كل ما يكون من حلّ وعقد فعن رأي منهم

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٥ ـ ١٦ جـ٨.

ومشورة، فرضي مروان بذلك»[١]، وكان من الأمراء والقادة اليمنيين أهل المشورة على عبد الملك بن مروان رجاء بن حيوة الكندي وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي وروح بن زنباع الجذامي وسفيان بن الأبرد الكلبي وأمثالهم ممن يمكن أن يكونوا شاركوا في الاجتماع الشوروي وساهموا في إقناع عبد الملك بن مروان بمبادرة ذات ثلاث نقاط. قال الحافظ ابن كثير:

«اجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان فقالوا له: إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم..». وجاء نص تلك النقطة في تاريخ الطبري بأنهم «قالوا: إن كان إنما يُرضي أهل العراق أن تنزع عنهم الحجاج فإنَّ نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق، فانزعه عنهم تخلص لك طاعتهم وتحقن به دماءنا ودماءهم». وقد اقترنت تلك النقطة الأولى بأن يكون محمد بن مروان أميراً للعراق، وكان محمد بن مروان أميراً لولاية الجزيرة الفراتية وأرمينيا ومقيماً بالموصل، وعبد اللّه بن عبد الملك بن مروان أميراً ربما بأعالي الشام وثغور الروم. قال الطبري: «وبعث عبد الملك إلى ابنه عبد اللّه بن عبد الملك وبعث إلى أخيه محمد بن مروان بأرض الموصل يأمره بالقدوم عليه، فاجتمعا عنده في جُنديهما»، وبالتالي اشتركا في الاجتماع الشوروي والذي تم الاتفاق فيه أيضاً على النقطة الثانية وهي «أن يختار عبد الرحمٰن بن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه والياً»، والنقطة الثالثة وهي: مساواة أهل العراق ومشارقها في العطاء ـ أي المرتبات ـ بأهل الشام. قال الطبري: «فأمَرَ عبد الملك ابنه عبد اللّه وأخاه محمد بن مروان: أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج عنهم، وأن يجري عليهم أعطياتهم كما تجري لأهل الشام، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد ـ من عراق ـ شاء يكون عليه والياً ما دام حياً وكان عبد الملك والياً. فإن هُم قبلوا عزل الحجاج وكان محمد بن مروان أمير العراق». وكذلك ذكر الحافظ ابن كثير أن عبد الملك كتب معهما كتاباً فيه العرض بعزل الحجاج وأن تكون أعطياتهم كأهل الشام: «ولْيَختَرْ ابن الأشعث أي بلدٍ شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان. وقال في عهده هذا: فإن لم يُجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب، ومحمد بن مروان وعبد اللّه بن عبد الملك في طاعة الحجاج وتحت أمره في الحرب وغيره». أو كما في رواية الطبري: فإن لم يقبلوا «فالحجاج أمير جماعة أهل الشام وولّي القتال، ومحمد بن مروان وعبد اللّه بن عبد الملك في طاعته».

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٩٥ جـ١.

فسار محمد بن مروان وعبد اللّه بن عبد الملك بجيش الشام والجزيرة الفراتية وثغور أرمينيا والروم، ويُقال لهم جُند أهل الشام وقد ذكر الطبري في موضع آخر أنه «كان عُظْمُ جند الشام من اليمانية». فسارا بذلك الجيش إلى العراق وكان كبار قادة ذلك الجيش من اليمنيين وهُمْ سفيان بن الأبرد الكلبي وعبد الرحمٰن بن سليم الكلبي وعمارة بن تميم اللخمي وعبد اللّه بن حبيب الحكمي المذحجي والجراح بن عبد اللّه الحكمي وكانوا ممن ساهموا في المشورة على عبد الملك بن مروان بتلك المبادرة، فوصل محمد بن مروان وعبد اللّه بن عبد الملك بذلك الجيش الكثيف إلى معسكر الحجاج في دير قُرَّة، وكان عبد الرحمٰن بن الأشعث قد وصل وعسكر بجيشه في دير الجماجم، فبلغ قوام الجيشين زهاء ثلاثمائة وستين ألفاً من الفُرسان والرجال. وقد حاول الحجاج إثناء عبد الملك بن مروان عن تلك المبادرة وكتب إليه في ذلك، فأبَىٰ عبد الملك إلا عرض تلك الخصال على ابن الأشعث وأصحابه حرصاً على سلامة الجميع وربما أيضاً لإرضاء أمراء وقادة الشام اليمنيين فالاتفاق على ذلك كان قد تَمّ في دمشق، فسار عبد اللّه بن عبد الملك ومحمد بن مروان من معسكر الحجاج وجيش الشام ـ بدير قُرَّة ـ إلى معسكر ابن الأشعث وأهل العراق ـ بدير الجماجم ـ وكان المعسكران متقابلين: «فنادى عبد اللّه بن عبد الملك: يا معشر أهل العراق: أنا عبد اللّه ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وأنه يعرض عليكم نزع الحجاج عن العراق، وأن يُجري عليكم أعطياتكم كأهل الشام، وأن يختار عبد الرحمٰن بن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه والياً ما دام حياً.. وقال محمد بن مروان: وأنا رسول أخي أمير المؤمنين بذلك. فقالوا: ننظرُ في أمرنا غداً، ونَرُدُ عليكم العشية».

* * *

وفي اليوم التالي ـ في ربيع الأول ٨٣هـ ـ انعقد في معسكر ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث اجتماع شوروي عام، قال الطبري: «اجتمعوا عند ابن الأشعث فلم يبق قائد ولا رأس قوم ولا فارس إلا أتاه» وقال ابن كثير: «اجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث» وكان من أبرزهم محمد بن سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمٰن بن العباس الهاشمي، وجَبَلة بن زُحر الجعفي المذحجي، وعبد اللّه بن رزام الحارثي، وعبد اللّه بن يزيد بن المُغفل الأزدي، وأعشى همدان عبد الرحمٰن بن نظام الحاشدي، وجماعة من العلماء التابعين ورؤساء القبائل بالعراق ومشارقها والقادة وأعيان الفرسان. قال ابن كثير: (فقام ابن الأشعث فيهم خطيباً، ونَدَبَهُم إلى قبول ما عُرِض عليهم» قال الطبري: «فَحَمَدَ اللّه ابنُ الأشعث وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فقد أُعطِيتُم أمراً، انتهازكم اليوم إياه فرصة، ولا آمن أن يكون

على ذي الرأي غداً حسرة[١]. . فاقْبَلوا ما عُرِض عليكم وأنتم أعزاء أقوياء والقوم لكم هائبون وأنتم لهم مُنتقصون، فلا واللّه لا زلتم عليهم جُرّاء ولا زلتم عندهم أعزاء إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم».

وبذلك وكما ذكر ابن كثير: (نَدَبَهُم ابن الأشعث إلى قبول ما عُرض عليهم من عزل الحجاج، وبيعة عبد الملك، وإجراء الأعطيات، وإمرة محمد بن مروان على العراق)، وقال ابن خلدون: (تشاور أهل العراق فيما بينهم وأشار عليهم ابن الأشعث بقبول ذلك، وأنّ العزة لهم على عبد الملك لا تزول). وقد جاء في عبارة ابن كثير السالفة بين ما عرض عليهم ابن الأشعث قبوله (بيعة عبد الملك بن مروان) وذلك لأنهم قد خلعوه وبايعوا ابن الأشعث منذ انضواء فارس تحت لوائه ـ في رجب ٨١هـ ـ وبالتالي يكون ابن الأشعث قد أحَلّهم من بيعته وأشار عليهم بمبايعة عبد الملك وقبول مبادرته في ذلك الاجتماع ـ في ربيع الأول ٨٣هـ ـ قال الطبري: «فوثب الناس من كل جانب فقالوا: لا واللّه لا نقبل. . فأعادوا خلع عبد الملك ثانية، وكان اجتماعهم على خلعه بالجماجم أجمع من خلعهم إياه بفارس»، وكذلك ذكر ابن خلدون رأي عبد الرحمٰن بن الأشعث كما تقدم ثم قال: «فتواثبوا من كل جانب منكرين ذلك، ومُجددين الخلع، وتقدمهم في ذلك عبد اللّه بن دواب السلمي وعمير بن تيحان» وقال ابن كثير: «جددوا خلع عبد الملك، واتفقوا على ذلك كلهم». وقد اقترن ذلك التجديد لخلع عبد الملك بتجديد وتأكيد مبايعتهم لناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث، وتم إبلاغ عبد اللّه بن عبد الملك ومحمد بن مروان بعدم قبول العرض ـ أو المبادرة ـ في مساء ذلك اليوم فأسند الحرب وقيادة جيش الشام إلى الحجاج وقالا له: «شأنك بالعسكر والقتال فقد أمرنا أمير المؤمنين أن نسمع لك ونطيع، فكانا إذا لقياه سَلّما عليه بالإمرة. قال أبو يزيد السكسكي: كان الحجاج أيضاً يسلم عليهما بالإمرة إذا لقيهما وإنما خلياه والحرب فتولاها». يعني في فترة موقعة دير الجماجم.

* * *

نبأ مَوْقعتَي دير الجماجم ومَسْكَن

في أوائل ربيع الأول سنة ٨٣هـ بدأت موقعة دير الجماجم التي استمرت مائة

(١) تضيف رواية الطبري هنا عبارة «وأنتم اليوم على النّصف، وإن كانوا اعتدّوا بالزاوية فأنتم تَعتدّون عليهم بيوم تُستَر» ولعل أصل ذلك (وأنتم تعتَدّون عليهم بيوم الزاوية ويوم تُستر) لأن موقعة يوم الزاوية بالبصرة ـ في محرم سنة ٨٢هـ ـ انتصر فيها أصحاب ابن الأشعث أما موقعة الزاوية التي انتصر فيها جند الشام فالأصوب أنها بعد موقعة دير الجماجم ولا يمكن أن يذكرها ابن الأشعث قبل وقوعها بشهور وقد كانت موقعة دير الجماجم من ربيع الأول إلى ٢٤ جمادى الآخرة ٨٣هـ وتلتها موقعة مسكن في شعبان إلى شوال ٨٣هـ.

يوم بين جيش ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث وجيش أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الذي تولى قيادته الحجاج بن يوسف الثقفي مع وجود الأميرين محمد بن مروان وعبد اللَّه بن عبد الملك اللذين كان الحجاج يُسلم عليهما بالإمرة. قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «برز الفريقان للقتال فجعل الحجاج على ميمنته ـ أي ميمنة الجيش ـ عبد الرحمٰن بن سليم الكلبي وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي وعلى خيله سفيان بن الأبرد الكلبي وعلى رجاله عبد الرحمٰن بن حبيب الحكمي. وجعل ابن الأشعث على ميمنته ابن جارية الخثعمي وعلى ميسرته الأبرد بن قُرّة التميميّ وعلى خيله عبد الرحمٰن بن عباس بن ربيعة بن الحارث الهاشمي وعلى رجالته محمد بن سعد بن أبي وقاص وعلى مجففته عبد اللَّه بن رزّام الحارثيّ، وجعل على القُراء ـ وهُم العلماء الفقهاء ـ جبلة بن زَحَر بن قيس الجعفيّ وكان فيهم عامر الشّعبيّ وسعيد بن جُبَير وأبو البختريّ الطائي وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى. ثم إنهم أخذوا يتزاحفون في كل يوم ويقتتلون» وقد ذكر الطبري تفاصيل كثيرة عن موقعة دير الجماجم وذكر الزمن الدقيق لذلك عن أبي المخارق وهو من أصحاب ابن الأشعث قائلاً: «قال أبو المخارق: قاتلناهم مائة يوم سَوَاءَ أَعُدُّها عدًّا، نزلنا دير الجماجم مع ابن الأشعث غداة الثلاثاء لليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة ٨٣هـ ـ فقاتلناهم ـ حتى خرجنا إليهم وخرجوا إلينا يوم الأربعاء لأربع عشرة مضت من جمادى الآخرة فقاتلناهم عامة النهار أحسن قتال قاتلناهموه قط ونحن آمنون من الهزيمة عالون للقوم». (ص٢٤ جـ٨).

وكان من أبرز معالم وأنباء موقعة دير الجماجم التي من المفيد ذكرها والإشارة إليها أنه:

* ـ كانت دير الجماجم رابع المعارك الرئيسية في تاريخ الصراع العربي الإسلامي الداخلي على الخلافة، فالمعركة الأولى هي موقعة صِفّين بين جيش الإمام علي بن أبي طالب وجيش الأمير معاوية بن أبي سفيان في صفر سنة ٣٧هـ وكان عدد الجيشين زهاء مائة وثمانين ألفاً ولم تستمر إلا عشرة أيام. والمعركة الثانية موقعة كربلاء بين الحسين بن علي بن أبي طالب وعامل يزيد بن معاوية على العراق في محرم سنة ٦١هـ وكان عدد الذين كاتبوا وبايعوا الحسين ثمانية عشر ألفاً ولما سار إلى الكوفة ونزل كربلاء لم يكن لهم وجود ولم يقاتل معه في كربلاء إلا نحو مائة من أصحابه فَقُتل مع جماعة منهم في نفس يوم الموقعة بكربلاء. وكانت الثالثة المعركة بين جيش الخليفة عبد اللَّه بن الزبير بقيادة أخيه مُصعب وبين جيش الخليفة عبد الملك بن مروان بقيادته في جمادى سنة ٧١هـ ولم يُقاتل مع ابن الزبير إلا نفرٌ يسير ورفض قادة جيشه التقدم للقتال فانتهت المعركة بمقتله في نفس اليوم. وكانت

الرابعة موقعة دير الجماجم هذه بين جيش ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث وجيش أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وكان قوام جيش ابن الأشعث مائتيّ ألف من الفرسان والرجال وجيش ابن مروان زهاء مائة وستين ألفاً، واستمر القتال مائة يوم، فهي أعظم تلك المواقع والمعارك جميعها مما يؤكد عظمة ابن الأشعث.

* ـ وكان لعلماء الأمة الفقهاء القُراء في جيش ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث دور كبير في القتال وفي حَثّ الناس على قتال جيش عبد الملك بن مروان في دير الجماجم: «كان العلامة الفقيه الإمام عامر الشَعبي الهمداني يقول: يا أهل الإسلام قاتلوهم ولا يأخذكم حرج مِنْ قِتالهم فواللَّه ما أعلم قوماً على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور منهم في الحكم. وقال الفقيه أبو البختري الطائي: أيها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم فواللَّه لئن ظهروا عليكم ليُفسدُنّ عليكم دينكم وليغلُبنّ على دنياكم. وقال سعيد بن جُبير ـ وهو من كبار العلماء ـ: قاتلوهم ولا تأثموا من قِتالهم بنية ويقين، قاتلوهم على آثامهم وعلى جورهم في الحكم وتجبُّرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة. وكان عبد الرحمٰن بن أبي ليلى الفقيه يقول: قاتلوا هؤلاء المُحِلّين المُحْدِثين المُبتدعين الذين قد جهلوا الحقّ فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس يُنكرونه، إنّي سمعتُ عليًّا رفع اللَّه درجته في الصالحين يقول مَنْ رأى عدواناً يُعمل به ومُنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ ومَنْ أنكر بلسانه فقد أُجر وهو أفضل مِنْ صاحبه ومَنْ أنكره بالسيف لتكون كلمةُ اللَّهِ العُليَا وكلمةُ الظالمين السُّفْلَى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونوّر في قلبه باليقين». وكان لغير أولئك من العلماء أيضاً أقوال في حثّ جيش ابن الأشعث على القتال، واستمر ذلك على امتداد المائة يوم.

* ـ وكان الطابع الرئيسي للقتال في دير الجماجم هو المبارزة، وذات يوم تقدم للمبارزة من أصحاب ابن الأشعث القائد عبد اللَّه بن رزام الحارثي المذحجي، قال عوانة الكلبي: (خرج عبد اللَّه بن رزام الحارثي إلى كتيبة الحجاج فقال: اخرجوا إليّ رجلاً رجلاً، فأخرج إليه رجل فقتله، وآخر فقتله، وثالث فقتله، ثم فعل ذلك ثلاثة أيام حتى إذا كان اليوم الرابع أقبل فدعا إلى المبارزة فقالوا: قد جاء لا جاء اللَّه به، فقال الحجاج للجرَّاح بن عبد اللَّه الحكمي: اخرج إليه، فخرج إليه، فقال له عبد اللَّه بن رزام وكان له صديقاً: ويحك يا جرّاحُ ما أخرجك إليّ؟ قال: قد ابتُليت بك. قال: فهل لك في خير؟ قال: ما هو؟ قال: أنهزم لك فترجع إلى الحجاج وقد أحسنتَ عنده وحمدك أما أنا فإني أحتملُ مقالة الناس في انهزامي عنك حُبًّا لسلامتك فإني لا أحبّ أن أقتل من قومي مثلك. قال: فافعلْ. فحمل عليه فأخذ يستطرد له. وكان الحارثيّ يعطش كثيراً وكان معه غلام له معه إداوة من ماء فكلما عطش سقاه

الغلامُ، فاطرد له الحارثيّ وحمل عليه الجرّاحُ حملة بجدّ لا يريد إلا إصابته، فصاح به غلامه: إن الرجل جادُ في قتلك، فعطف عليه فضربه بالعمود على رأسه فصرعه ـ من جواده ـ فقال الحارثي لغلامه: انضح على وجهه ماء واسقه ففعل ذلك به، فقال له: يا جراح بئس ما جزيتني أردتُ بك العافية وأردتَ أن تُزيرني المنيّة؟ فقال: لم أردْ ذلك. فقال: انطلق فقد تركتك للقرابة والعشيرة». وذلك لأن كليهما من مذحج من اليمن.

وخرج ذات يوم رجل من أهل الشام يدعو إلى المبارزة فخرج إليه من أصحاب ابن الأشعث الحجاج بن جارية الخثعمي، ـ قال أبو عوانة ـ فحمل عليه ابن جارية فطعنه فأذراه، وحمل أصحابه فاستنقذوه فإذا هو رجل من خثعم يُقال له أبو الدرداء فقال الحجاج ابن جارية: أما إني لم أعرفه حتى وقع ولو عرفته ما بارزته ما أحبّ أن يصاب من قومي مثله.

وخرج عبد الرحمٰن بن عواف الرُؤاسي أبو حميد فدعا إلى المبارزة فخرج إليه ابن عمّ له من أهل الشام فاضطربا بسيفيهما، فقال كل واحد منهما: أنا الغلام الكلابيّ فقال كل واحد منهما لصاحبه: من أنت؟ فلما تعارفا، تحاجزا.

وروى الطبري عن محمد بن عمر الواقدي: أن سعيد الحرشي قال: أنا في صف القتال بدير الجماجم إذْ خرج ذات يوم رجل من أصحاب ابن الأشعث يقال له قدامة بن الحريش فوقف بين الصَّفين فقال: يا معشر جرامقة أهل الشام إنّا ندعوكم إلى كتاب اللّٰه وسنّة رسوله فإن أبيتم فلْيخرج إليّ رجلٌ، فخرج إليه رجل من أهل الشام فقتله حتى قتل أربعة، فلما رأى الحجاج ذلك أمر منادياً فنادى لا يخرج إلى هذا الكلب أحد، فكفّ الناس. قال سعيد الحرشي: فدنوت من الحجاج فقلت: أصلح اللّٰه الأمير إنك رأيت أن لا يخرج إلى هذا الكلب أحد وإنما هلكَ مَنْ هلك من هؤلاء النفر بآجالهم ولهذا الرجل أجَلٌ وأرجو أن يكون قد حضر فأذن لأصحابي الذين قدموا معي فليخرج إليه رجل منهم. فقال الحجاج: إن هذا الكلب لم يزل هذا له عادة وقد أرعب الناس وقد أذنتُ لأصحابك فمن أحبّ أن يقوم فَلْيقم. فرجع سعيد الحرشي إلى أصحابه فأعلمهم فبرز رجل منهم فقتله قُدامة. فأتى سعيد إلى الحجاج فقال: ائذن لي في الخروج إلى هذا الكلب فقال: وعندك ذلك؟ قال: نعم أنا كما تحبّ. . فخرج سعيد فلما دنا منه قال: قفْ يا عدو اللّٰه، فوقف سعيد، فقال له قدامة: اخترْ إما إن تمكنني فأضربك ثلاثاً وإما أن أمكنك فتضربني ثلاثاً، قال: أمكني. فضرب سعيد ثلاث ضربات قوية فردّها قدامة بدرعه أو بتفادي الضربة. ثم اخترط سيفه فقال: أمكنّي، فأمكنه، فضربه ضربة فسقط من فرسه ثم نزل قدامة عن

فرسه وجلس على صدره وانتزع خنجراً فوضعها على حلقه يريد أن يذبحه فقال سعيد: أنشدك اللّٰه فإنك لست مصيباً من قتلي الشرف والذكر مثل ما أنت مصيب من تركي، قال: ومن أنت؟ قال: سعيد الحرشي. قال: فانطلق يا عدو اللّٰه وأعلم صاحبك عدو اللّٰه بما لقيت. فانطلق سعيد يسعى حتى انتهى إلى الحجاج فقال: كيف رأيت؟ فقال: الأمير كان أعلم بالأمر.

* ـ وكان عبد الرحمٰن بن الأشعث قد جعل القُراء ـ وهم الفقهاء العلماء ـ كتيبة خاصة يقال لها كتيبة القُراء بقيادة جَبَلة بن زحر بن قيس الجعفي المذحجي، وكان منهم عبد الرحمٰن بن أبي ليلى الفقيه، وأبو البختري الطائي، والإمام عامر الشَّعبي الهمداني، وسعيد بن جُبير، وكميل بن زياد النخعي، وعطاء بن السائب، والنضر بن أنس بن مالك، وأمثالهم من العلماء القراء ومعهم المئات من الفرسان، وكانت كتيبة القُراء تحمل على كتائب جيش عبد الملك بن مروان فتُثخن فيهم حتى تردهم إلى خنادقهم، وذات يوم في الشهر الثاني من القتال تهيأت كتيبة القُراء للحملة، قال أبو الزبير الهمداني: كنت في كتيبة القُراء فقال لنا جَبَلة بن زحْر: إذا حملتم عليهم فاحملوا حملة صادقة ولا تردّوا وجوهكم عنهم حتى تواقعوا صفّهم. فحملنا عليهم حملة فضربنا ثلاث كتائب لهم حتى أشفترت ثم مضينا حتى واقعنا صفهم فضربناهم حتى أزلناهم عنه ثم انصرفنا فمررنا بجَبلة صريعاً لا ندري كيف قُتِل، فهدّنا ذلك فوقفنا موقفنا الذي كنّا به ونحن نتناعى جَبَلة بن زَحْر بيننا كأنما فقد به كلُ واحد منّا أباه أو أخاه بل هو في ذلك الموطن كان أشدّ علينا فقداً، فقال لنا أبو البختري الطائي: لا يستبينَنّ فيكم قتلُ جبلة بن زحر فإنما كان كرجلٍ منكم أتته منيَّته ليومها فلم يكن ليتقدَّم يومه ولا ليتأخر عنه وكلكم ذائقٌ ما ذاق ومدعو فمجيب. وأما أهل الشام فقد سُرّوا وجَذِلوا ونادوا: يا أعداء اللّٰه قد قتل اللّٰهُ طاغوتكم.

وروى الطبري عن هشام عن أبيه قال: أقبل الوليد بن نحيْت الكلبي في كتيبة إلى جبلة بن زحْر فانحط عليه الوليد من رابية وكان جسيماً وكان جبلة رجلاً ربعة فالتقيا فضربه على رأسه وانهزم أصحابه.. وزعم أبو مخنف العامري أنه: جيء برأس جبلة بن زحر إلى الحجاج فحمله على رمحين وقال: يا أهل الشام أبشروا هذا أول الفتح لا واللّٰه ما كانت فتنةٌ قطّ فخَبت حتى يُقتل فيها عظيم من عظماء اليمن وهذا من عظمائهم». ويمكن أن يقول الحجاج هذا القول لبعض أصحابه ولبني مروان وليس لجند أهل الشام؛ لأن غالبيتهم من أهل اليمن بما في ذلك الوليد بن نحيت الكلبي الذي قتل جبلة بن زحر.

* ـ وروى الطبري عن سهم بن عبد الرحمٰن الجُهنِي القضاعي الحميري قال:

لما أُصيب جبلةُ هدَّ الناس مقتله حتى قَدِم علينا بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني ـ وكان عامل ابن الأشعث على بلاد الريّ ـ فشجع الناس مقدمه وقالوا: هذا يقوم مقام جبلة فسمع هذا القول من بعضهم أبو البختري الطائي فقال: قُبِحْتم إن قُتل منكم رجلٌ واحد ظننتم أن قد أحيط بكم فإن قُتل الآن ابنُ مصقلة ألقيتم بيدكم إلى التهلكة وقلتم لم يبق أحد يقاتل معه ما أخلقكم أن يُخلف رجاؤنا فيكم. وكان مقدم بسطام من الريّ فالتقى هو وقتيبة بن مسلم الباهلي في الطريق، فدعاه قتيبة إلى عبد الملك بن مروان والحجاج وأهل الشام، ودعاه بسطام إلى عبد الرحمٰن بن الأشعث وأهل العراق فكلاهما أبىٰ على صاحبه.. وكان بسطام قد نزل مَاسبَذَان ـ لأنه كان أمير بلاد الريّ وماسبذان وهي من أعمال الدينور وأصبهان ـ فلما قَدِم على عبد الرحمٰن بن الأشعث بدير الجماجم قال له: أمِّرْني على خيل ربيعة، فأمّره عبد الرحمٰن على خيل ربيعة وكان شجاعاً. وذات يوم خرج الناس للقتال فحمل بسطام في خيل ربيعة حتى دخل وسط معسكر الحجاج فأصاب وأسر منهم نحواً من ثلاثين امرأة من بين أمَة وسرّية فأقبل بهنّ حتى إذا دَنَا من عسكر ابن الأشعث ردّهنّ ـ أو أمره ابن الأشعث بردّهنّ ـ فرجعن ودخلن عسكر الحجاج فقال: أولىٰ لهم، مَنَع القومَ نساؤهم، أما لو لم يردّوهنّ لسبيت نساءهم إذا ظهرتُ عليهم. وفي ذات يوم آخر اقتتلوا، فحمل عبد اللّه بن مُلَيل الهمداني في خيل همدان حتى دخل عسكر الحجاج فسبى ثماني عشرة امرأة، فساقهن حتى إذا دنا من عسكر ابن الأشعث خلى سبيلهن، فقال الحجاج مثل مقالته الأولى.

* ـ وروى المسعودي في مروج الذهب وأبو العباس المبرّد: أن عامل إفريقية ـ وهي تونس ـ وقيل عامل اليمن، فبعث إلى عبد الملك بن مروان جارية في وقت محاربته لابن الأشعث، فلما دُخِلَ بالجارية عليه رأى وجهاً جميلاً لم يُرَ مثله قط وخَلْقاً نبيلاً، فألْقى إليها قضيباً فَنَكَسَتْ لتأخذه فرأى منها جِسماً بَهَرهُ فلما هَمّ بها، أعْلمهُ الآذِنُ أن رسول الحجاج بالباب فأذِنَ له ونَحّى الجارية، (فقرأ عبد الملك كتاب الحجاج وفيه كلام أو شعر قاله عبد الرحمٰن بن الأشعث) ثم بات عبد الملك يُقَلِّبُ كَفَّ الجارية ويقول: ما أَفَدْتُ فائدةً أحبَّ إليّ منك، فقالت: فما بالُكَ يا أمير المؤمنين وما يمنعك؟ فقال: يمنعني ما قاله الأخْطَلُ:

قومٌ إذا حاربوا شَدُّوا مآزِرَهُمْ … دونَ النِساء ولو باتَتْ بأطْهارِ

فما إليك سبيلُ أو يَحْكمَ اللّه بيني وبين عدوّ الرحمٰن بن الأشعث».

قال أبو العباس المبرِّد: وكتب عبد الملك إلى الحجاج كتاباً وجعل في طَيّه جواباً على ابن الأشعث ـ قال فيه ـ:

.. أظُنُّ خُطوبَ الدَهرِ بَيني وبَينَهُم ... سَتَحْمِلُهُم مني على مَرْكبٍ وعْرِ
وإنّي وإيّاهُمْ كَمَنْ نَبَّه القَطا ... ولوْ لم تُنَبَّهْ باتت الطَيرُ لا تَسْري
أناةً وحِلماً وانْتِظاراً بهم غداً ... فما أنا بالواني ولا الضَرَعِ الغُمْر»[1]

قال أبو العباس المبرِّد: قوله (دون النساء ولو باتت بأطهار) معناهُ أنه يتجنبها في طُهرها وهو الوقت الذي يستقيم له غِشْيانُها فيه، وأهل الحجاز يَرَوْن الأقراء الطُهْرَ، وأهل العراق يَرَوْنه الحيضَ وأهلُ المدينة يجعلون عدد النساء الأطهارَ ويحتَجُّون بقول الأعشى:

وفي كلِّ عامٍ أنتَ جاشِمُ غَزْوةٍ ... تشُدُّ لأقصاها عَزيمَ عَزائِكا
مُوَرِّثةً مالاً وفي الحيِّ رِفْعةً ... لِما ضاعَ فيها مِن قروءِ نسائكا»

* ـ وروى الطبري أن محمد بن السائب الكلبي قال: (سمعتُ عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث بدير الجماجم وهو يقول: أَلَا إن بني مروان يعيَّرون بالزرقاء واللّٰه ما لهم نسبٌ أصحّ منه، أَلَا إن بني أبي العاص أعلاجٌ من أهل صَفورية، فإن يكن هذا الأمر في قريش فعنّي فُقئت بيضة قريش وإن يك في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس. ومَدّ بها صوته يُسمع الناس) ـ أي ليسمع أهل الشام وفيهم محمد بن مروان وعبد اللّٰه بن عبد الملك بن مروان ـ وجاء في رواية ابن الأثير: أن عبد الرحمٰن بن الأشعث قال: (فإن يكن هذا الأمر في قريش فمنّي تقويت بيضة قريش وإن يك في العرب فأنا ابن الأشعث» وجاء في هامش نص ابن الأثير تعليقاً على ذلك ما يلي: «في الطبري (فعني فُقعت بيضة قريش) والصواب (تقشرت) والمعنى: إني تخلصتُ من قريش وإمْرتها كما يتخلصُ الفرخ من البيضة»[2]. وهذا التأويل يخالف ما سلف تبيينه من أنه يعني: أن أخوال بيوت قريش من اليمن.

وفي تلك الفترة قال الأعشى قصيدته الدالية:

يأبَىٰ الإلهُ وعزّ دين محمدٍ ... وجذور مُلْكٍ قبل آل ثمود
أنْ تُنسبوا كمذممين عروقهم ... في الناس إن نُسِبُوا عروق عبيد

وقد قال أعشى همدان عدة قصائد في عبد الرحمٰن بن الأشعث ضاع أكثرها وربما تم نسبة بعضها إلى أعشى قيس الجاهلي.

* ـ وفي أواسط جمادى الآخرة سنة ٨٣هـ شهدت موقعة دير الجماجم أيامها

---

(١) تمثل عبد الملك بهذا الشعر وهو للشاعر الجرمي كما في الأغاني.
(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٨٢ جـ٤.

الأخيرة، قال ابن الأثير في أحداث سنة ٨٣هـ «كانت مدة الحرب بدير الجماجم مائة يوم وثلاثة أيام؛ لأنه كان نزولهم بالجماجم لثلاثة مضت من ربيع الأول.. فلما كان يوم ـ الرابع عشر من جمادى الآخرة اقتتلوا أشد قتال واستظهر أصحاب عبد الرحمٰن على أصحاب الحجاج واستعلوا عليهم وهم آمنون من الهزيمة، فبينما هُم كذلك إذْ حمل سفيان بن الأبرد الكلبي وهو في ميمنة الحجاج ـ أي قائد الميمنة ـ فحمل على الأبرد بن قرّة التميمي وهو على ميسرة عبد الرحمٰن فانهزم الأبرد بن قرّة التميمي من غير قتال يُذكر فظن الناسُ أنه قد صولح على أن ينهزم بالناس، فلما انهزم تقوضت الصفوف من نحوه وركب الناس بعضهم بعضاً ـ هاربين ـ فصعد عبد الرحمٰن المنبر ينادي الناس: إليّ عباد اللّه، فاجتمع إليه جماعةٌ فثبت حتى دنا منه أهل الشام فَقَاتل بمن معه، ودخل أهل الشام العسكر ـ أي معسكر عبد الرحمٰن بن الأشعث ـ فأتاه عبد اللّه بن يزيد بن المفضل الأزدي فقال له: انزل فإنّي أخاف عليك أن تؤسر ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعاً يهلكهم اللّه به، فنزل هو ومن معه..» وذكر ابن خلدون في نبأ موقعة دير الجماجم أنهم «اقتتلوا ما يزيد على مائة يوم ثم اقتتلوا يوماً في منتصف جمادى الآخرة، وحمل سفيان بن الأبرد الكلبي في ميمنة جيش الشام على ميسرة جيش عبد الرحمٰن، فانهزم الأبرد بن قرة التميمي بدون قتال، فتقوضت صفوف جيشه ثم انهزم عبد الرحمٰن وأصحابه» وذكر الطبري عن أبي المخارق قال: «قاتلناهم مائة يوم.. فلما كان يوم الأربعاء لأربع عشرة مضت من جمادى الآخرة، خرجنا إليهم وخرجوا إلينا، فقاتلناهم عامة النهار أحسن قتال ونحن عالون عليهم، ثم خرج سفيان بن الأبرد الكلبي في الخيل من قِبَل ميمنة أصحابه حتى دنا من الأبرد بن قرة التميمي وكان على ميسرة عبد الرحمٰن، فواللّه ما قاتله كبير قتال حتى انهزم، فأنكرها الناس منه وظنوا أنه قد كان صُولح على أن ينهزم بالناس، فلما فعلها تقوضت الصفوف من نحوه وركب الناس وجوههم. فصعد عبد الرحمٰن بن الأشعث المنبر فأخذ ينادي الناس: عباد اللّه، إليّ أنا عبد الرحمٰن.. فأتاه عبد اللّه بن رِزَام الحارثي فوقف تحت منبره، وجاء عبد اللّه بن ذُؤاب السُلمي في خيل له فوقف بالقرب منه، وثَبَتَ عبد الرحمٰن حتى دنا منه أهل الشام فأخذت نُبُلُهم تحوزه، فقال: يا ابن رِزام احمل على تلك الرجال والخيل، فحمل عليهم حتى أمعنوا، ثم جاءت خيل لهم أخرى ورجال، فقال: احمل عليهم يا ابن ذؤاب فحمل عليهم حتى أمعنوا. وثبت عبد الرحمٰن لا يبرح منبره ـ وقد دخل أهل الشام معسكره ـ فصعد إليه عبد اللّه بن يزيد بن المُغفَّل الأزدي ـ وكانت مُليكةُ ابنة أخيه امرأة عبد الرحمٰن، فقال له: انزل فإني أخاف عليك أن تؤسر ولعلك إن انصرفت تجمع لهم جمعاً يهلكهم اللّه به. فنزل، وقد خَلّى أهل العراق العسكر

وانهزموا لا يلوون على شيء» وبذلك انتهت موقعة دير الجماجم في منتصف جمادى الآخرة سنة ٨٣هـ وانسحب عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى الكوفة ومعه جماعة من الفرسان وأناس من أهل بيته. قال أبو المخارق: «حتى إذا حاذوا قرية بني جعدة بالفَلوجة دعوا بمعبر فعبروا فيه، فأتى إليهم بسطام بن مصقلة فقال: هل في السفينة عبد الرحمٰن، فلم يكلموه وظن أنه فيهم فقال: لا وآلَتْ نفسُ عليها تُحاذر.. ثم سار حتى انتهى إلى بيته بالكوفة. فودع أهله وخرج من الكوفة». فمضى عبد الرحمٰن من الكوفة إلى البصرة والتي هرب وانسحب إليها كثير من قادته وأصحابه. بينما تَوَجَّه الحجاج ومحمد بن مروان وعبد اللّٰه بن عبد الملك وجيش الشام من دير الجماجم إلى الكوفة. قال محمد بن السائب: «فقال الحجاج: اتركوهم ـ يعني أهل العراق ـ فَلْيَتبددوا ولا تتبعوهم، ونادى المنادي: مَنْ رجع فهو آمن» ـ وكان ذلك بمشورة محمد بن مروان وعبد اللّٰه بن عبد الملك وقادة جيش الشام ـ قال الطبري: «ورجع محمد بن مروان إلى الموصل وعبد اللّٰه بن عبد الملك إلى الشام بعد الوقعة وخَلّيَا الحجاج والعراق، ودخل الحجاج الكوفة.. وأقام بها شهراً» وكان دخوله الكوفة في أوائل رجب ٨٣هـ بينما تمركز عبد الرحمٰن بن الأشعث بالبصرة، قال ابن الأثير: «أتى عبد الرحمٰن البصرة واجتمع إليه من المنهزمين جمع كثير فيهم عبيد اللّٰه بن عبد الرحمٰن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس القرشي.. وبسطام بن مصقلة، وقد بايعه خلق كثير على الموت، وكان بالمدائن محمد بن سعد بن أبي وقاص ـ والمدائن من أعمال الكوفة ـ فسار إليه الحجاج..» قال الطبري: «خرج الحجاج ـ من الكوفة ـ فبدأ بالمدائن، فأقام عليها خمساً حتى هيأ الرجال في المعابر فلما بلغ محمد بن سعد عبورهم إليهم خرجوا حتى لحقوا بابن الأشعث جميعاً».

* ـ وفي منتصف شعبان سنة ٨٣هـ أقبل الحجاج بجيش الشام إلى البصرة، قال الطبري: «وَخَنْدَق عبد الرحمٰن على أصحابه ـ في مسكن على نهر دُجيل ـ وبثق الماء من جانب فجعل القتال من وجه واحد، وقَدِم عليه خالد بن جرير بن عبد اللّٰه القَسْري من خُراسان في ناس من بعث الكوفة ـ ونزل الحجاج بمسكن ـ فاقتتلوا خمس عشرة ليلة من شعبان أشد القتال حتى قُتل زياد بن غنيم القيني وكان على مسالح الحجاج فهدّه ذلك وأصحابه هدًّا شديداً».

ويبدو أن القتال توقف في شهر رمضان، وفي أوائل شوال تنادوا للقتال. قال ابن الأثير: «وبات الحجاج يحرض أصحابه، ولما أصبحوا باكروا القتال فاقتتلوا أشد قتال كان بينهم فانكشفت خيل سفيان بن الأبرد الكلبي. فأمر الحجاج عبد الملك بن المهلّب فحمل على أصحاب عبد الرحمٰن، وحمل أصحاب الحجاج من كل جانب، فانهزم عبد الرحمٰن وأصحابه.. وقد قيل في هزيمة عبد الرحمٰن بمسكن غير هذا،

والذي قيل: إنه اجتمع هو والحجاج بمسكن، وكان عسكر ابن الأشعث والحجاج بين دجلة والسيب والكرخ، فاقتتلوا شهراً ودونه، فأتى شيخٌ فدلّ الحجاج على طريق من وراء الكرخ في أَجَمَة وضحاضح فأرسل معه أربعة آلاف وقال لقائدهم: إن صدق فأعطه ألف درهم وإن كذب فاقتله، فسار بهم، ثم إن الحجاج قاتل أصحاب عبد الرحمٰن فانهزم الحجاج فعبر السيب، ورجع ابن الأشعث إلى عسكره آمناً، ونُهِبَ عسكر الحجاج فأمِنُوا ـ أي أصحاب عبد الرحمٰن ـ وألقوا السلاح، فلم يشعروا نصف الليل إلا والسيف يأخذهم من تلك السرية ـ التي بعثها الحجاج مع الشيخ وأتوا من وراء الكرخ ـ فغرق من أصحاب عبد الرحمٰن أكثر ممن قُتل، وأتى الحجاج بعسكره على الصوت فقاتلوا من وجدوا. .»، وكذلك ذكر ابن خلدون وأنه عندئذ (انهزم عبد الرحمٰن وأصحابه، وكان الغرقى منهم أكثر من القتلى، وكان عدة القتلى أربعة آلاف منهم: عبد الرحمٰن بن أبي ليلى الفقيه، وأبو البختري الطائي، وعبد اللّه بن شداد، وبسطام بن مصقلة، وبشر بن المنذر بن الجارود، وغيرهم).
وروى الطبري عن أبي يزيد قال: «كان أبو البختري الطائي وسعيد بن جبير يقولان ـ بدير الجماجم ـ ما كان لنفس أن تموت إلا بإذنِ اللّه كتاباً مؤجلاً إلى آخر الآية ثم يحملان حتى يواقعا الصف. وقُتِل أبو البختري الطائي وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى ـ بموقعة مسكن ـ وقال قبل أن يقتتلا: إن الفرار بنا لقبيح، فأُصيبا». ومشى بسطام بن مصقلة في أربعة آلاف من أهل الكوفة والبصرة فقاتلوا قتالاً شديداً كشفوا فيه أهل الشام مراراً، فأمر الحجاج الرماة فرموهم ـ بالنبال ـ وأحاطوا بهم من كل جانب. فَقُتل بسطام وجماعة من أصحابه وهرب الباقون. وقَاتَل بشر بن المنذر بن الجارود ـ وهو ابن ملك البحرين الذي كتب إليه رسول اللّه ﷺ فآمن مع أهل البحرين، وكان بشر بن المنذر من أصحاب ابن الأشعث وربما عامله على البحرين ـ فقاتل حتى قُتِل، وانسحب أخوه عبد الرحمٰن بن المنذر مع ابن الأشعث، وكانت موقعة مسكن قد استمرت شهراً أو دونه وذلك في شوال سنة ٨٣هـ، وانتهت في أواخر شوال من تلك السنة.

وذكر الطبري بعد موقعة مسكن أنه «قال الواقدي: كانت وقعة الزاوية بالبصرة في المحرم سنة ٨٣هـ»، ويشير هذا السياق إلى أن وقعة الزاوية كانت بعد وقعة مسكن، وبما أن مسكن في شوال ٨٣هـ تكون الزاوية في محرم سنة ٨٤هـ، وهي وقعة الزاوية الثانية، وقد دمجها ابن الأثير مع وقعة الزاوية الأولى فقال: «اقتتل عسكر الحجاج وعسكر ابن الأشعث بالزاوية قتالاً شديداً، ثم إنهم تزاحفوا آخر يوم من المحرم فحمل سفيان بن الأبرد الكلبي على الميمنة التي لعبد الرحمٰن فهزمها، وانهزم أهل العراق مع عبد الرحمٰن. . وقُتل منهم خلق كثير منهم ـ الصحابي ـ عقبة بن عبد الغافر الأزدي وجماعة من القُراء. . واجتمع من بقي في البصرة مع

عبد الرحمٰن بن عباس فقاتل بهم الحجاج خمس ليال أشد قتال رآه الناس ثم انصرف فلحق بابن الأشعث ومعه طائفة من أهل البصرة. وقُتل منهم طفيل بن عامر بن واثلة وكان أبوه من الصحابة. فأقام الحجاج بالبصرة أول صفر»، وكانت موقعة مسكن في البصرة ـ في أواخر شوال ـ وانسحب عبد الرحمٰن إلى مدينة البصرة فأقام بها إلى شهر ذي الحجة ٨٣هـ بينما نزل الحجاج وجيش الشام بالزاوية، فبعث عبد الرحمٰن العسكر إليه فقاتلوه في شهر محرم فانهزموا في آخر محرم ٨٤هـ وعندئذ غادر البصرة ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي، وانتهى بذلك عهد خلافته التي دامت ثلاث سنوات من محرم ٨١هـ إلى محرم ٨٤هـ، ولكن المواجهات تواصلت بعد ذلك في مناطق شَتّى زهاء سنة كاملة مما يدل على مدى الالتفاف حول ابن الأشعث.

* * *

نهايات ثورة وعهد ابن الأشعث. . ناصر المؤمنين

عندما سقطت البصرة بيد الحجاج وجيش عبد الملك بن مروان ـ في آخر محرم ٨٤هـ ـ انسحب عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى ولاية فارس فأقام بمدينة السوس وهي العاصمة القديمة للامبراطورية الفارسية ولحق به وانضم إليه عشرات الآلاف من أصحابه، بينما استقر الحجاج بالبصرة وعادت العراق إلى سلطة وخلافة عبد الملك بن مروان ونائبه الحجاج، وبدأ الحجاج بقتل وإعدام الكثير من رجالات عهد ابن الأشعث من العلماء والقادة والشعراء والخطباء، وهرب كثير من الناس، وخَيّم على العراق ليلٌ رهيب[١].

وفي صفر ٨٤هـ بعث الحجاج جيشاً بقيادة عمارة بن تميم اللخمي ومعه محمد بن الحجاج لمحاربة ابن الأشعث في بلاد فارس، قال الطبري وابن خلدون: «فأدركوا ابن الأشعث في السوس فقاتلوه، فانهزم هو وأصحابه إلى سابور، واجتمع إلى عبد الرحمٰن الأكراد مع من كان معه، فقاتلوا جيش الحجاج قتالاً شديداً ـ في سابور ـ فهزموهم، وجُرح عمارة وكثير من أصحابه» وكانت موقعة سابور في شهر ربيع ٨٤هـ، وبالرغم من انتصار ابن الأشعث فقد مضى من سابور ـ بولاية فارس ـ إلى ولاية كرمان، فباتت فارس في سلطة عمارة اللخمي وبعث الحجاج إليه إمدادات من جيش الشام فسيطر على إقليم فارس.

قال ابن خلدون: «ولحق ابن الأشعث بكرمان فلقيه عامله بها، وهيأ له النزل

---

(١) وبعث الحجاج جيشاً إلى عُمان، فتصدى لهم سليمان وسعيد ابنا عباد بن الجُلندى الأزدي، ووقع قتال طويل استمر عدة أشهر ثم انهزم سليمان وسعيد ابنا عباد، وهربا بحراً إلى شرق إفريقية، ولم تذكر الروايات زمن ذلك.

فنزل». وذكر الطبري أنه» «لما دخل عبد الرحمٰن كرمان تلقاه عمرو بن لقيط العبدي وكان عامله عليها، فهيأ له نزلاً، فنزل [في دار الإمارة بمدينة شرجان عاصمة كرمان] فقال له شيخ من عبد القيس يقال له معقل: لقد بلغنا عنك أن قد كنتَ جباناً، فقال عبد الرحمٰن: واللّٰه ما جبنت، واللّٰه لقد دلفت الرجال بالرجال ولففت الخيل بالخيل، ولقد قاتلتُ فارساً وقاتلتُ راجلاً، وما انهزمتُ ولا تركت الفرصة للقوم في موطن حتى لا أجد مقاتلاً ولا أرى معي مقاتلاً، ولكني زاولتُ مُلكاً مؤجلاً».

وفي حوالي ربيع الثاني ٨٤هـ مضى ابن الأشعث من كرمان إلى ولاية سجستان ـ ولم تذكر الروايات قتالاً بكرمان وإنما ذكرت أنه: ـ «مضى ابن الأشعث إلى زرنج مدينة سجستان وفيها رجل من تميم كان قد استعمله عليها يقال له عبد اللّٰه بن عامر البعار، فلما قَدِم عليه عبد الرحمٰن بن الأشعث أغلق باب المدينة دونه ومنعه من دخولها. فأقام عليها عبد الرحمٰن وحاصرها أياماً، فلما رأى أنه لا يصل إليها، سار حتى أتى مدينة بُسْت، وكان عامله عليها عياض بن هميان السدوسي فاستقبله، فنزل عبد الرحمٰن بها». قال الطبري: « . . وكان مع ابن الأشعث ناسٌ من الفلّ كثير، ثم إن عُظْمَ الفلول من أصحابه، ومن كان لا يرجو الأمان من الرؤساء والقادة، أقبلوا في أثر ابن الأشعث حتى نزلوا سجستان فكان بها منهم وممن اتبعهم من أهل سجستان نحوٌ من ستين ألفاً، فنزلوا على عبد اللّٰه بن عامر بن البعار التميمي ـ بمدينة زرنج ـ فحاصروه وكتبوا إلى ابن الأشعث يخبرونه بقدومهم وعددهم. . فأقبل إليهم فيمن معه، فحصروا عبد اللّٰه بن عامر حتى استنزلوه، فأمر به عبد الرحمٰن فحُبِس ثم عَفَا عنه». وأقام عبد الرحمٰن بمدينة زرنج.

* ـ وفي حوالي شهر رجب ٨٤هـ سار عمارة اللخمي بجند الشام إلى كرمان وسجستان، فكره عبد الرحمٰن بن الأشعث قتاله وأراد أن يسير إلى بست وبلاد رتبيل، «فقال لعبد الرحمٰن أصحابه: اخرج بنا من سجستان إلى خُراسان فقال: إن على خراسان يزيد بن المهلّب وهو رجل شجاعٌ صارم ولا يترك لكم سلطانه ولو دخلتموها وجدتموه إليكم سريعاً ولن يدع أهل الشام اتباعكم، فيجتمع علينا أهل خراسان وأهل الشام. فأبوا، وقالوا: بل يكثر فيها تابعنا. فسار بهم حتى بلغوا مدينة هراة (بأفغانستان) فهرب من أصحابه عبيد اللّٰه بن عبد الرحمٰن بن سمرة القرشي في الفين. فلما أصبح عبد الرحمٰن بن الأشعث قام فيهم خطيباً فحمد اللّٰه وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنّي قد شهدتكم في هذه المواطن وليس فيها مشهد إلا أصبر لكم فيه نفسي حتى لا يبقى منكم فيه أحد، ثم رأيتم أن نمضي إلى خراسان وزعمتم أنكم لن تَفَرَّقوا عني، ثم هذا عبيد اللّٰه بن عبد الرحمٰن قد صنع ما قد رأيتم، فحسبي منكم هذا، فاصنعوا ما بدا لكم، أما أنا فمنصرف إلى ملجإٍ ومأمنٍ عند رتبيل، فمن أحبّ

منكم أن يتبعني فليتبعني، ومن كره ذلك فليذهب حيث أحب». وذكر الجاحظ في البيان والتبيين أنه:

«قال ابن الأشعث لأصحابه وهو على المنبر: قد علمنا إن كُنّا نَعْلم، وفهمنا إن كنّا نفّهم، أنّ المؤمن لا يُلْسَعُ من جُحرٍ مرتين، وقد واللّه لُسِعْتُ بكم من جُحر ثلاث مرات، وأنا أستغفِر اللّه من كلِّ ما خالف الإيمان وأعتصِمُ به من كل ما قَارَب الكفر» (٢/١٦).

* ـ ورجع ابن الأشعث من هراة وسار إلى مدينة سجستان ـ في حوالي شهر شعبان ٨٤هـ ـ وبذلك انقسم أصحابه إلى فرقتين، أقامت فرقة في إقليم هراة بخراسان وكانوا زهاء عشرين ألفاً، وتولى قيادتهم عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب وكان معه عبد الرحمٰن بن المنذر بن الجارود، فأرسل يزيد بن المهلب إلى عبد الرحمٰن قائلاً: قد كان لك في البلاد مُتَّسَعٌ ومَنْ هو أكلّ مني حَدًّا وأهون شوكة، فارتحلْ إلى بلد ليس لي فيه سلطان فإني أكره قتالك وإن أحببت أن أمدّك بمال لسفرك أعِنْتُكَ به. فأجاب عليه: ما نزلنا هذه البلاد لمحاربة ولا لمقام ولكنّا أردنا أن نريح ثم نشخص إن شاء اللّه وليست بنا حاجة إلى ما عرضت» ـ فرأى يزيد بن المهلّب أن لا يتعرض لهم حتى ينقضي شهر رمضان ـ وأما الفرقة الثانية من أصحاب ابن الأشعث فساروا معه إلى سجستان، فأقام ابن الأشعث بمدينة سجستان ـ إما بُست وإما زرنج ـ فلما انقضى شهر رمضان تهيأ ابن الأشعث للمسير إلى بلاد رُتبيل، فذكر الطبري عن هشام بن محمد وكذلك ذكر ابن خلدون أنه: (لما انصرف ابن الأشعث من هراة كان معه علقمة بن عمر الأودي المذحجي، فقال له ـ وهما بسجستان ـ: ما أريد أن أدخل معك بلاد رتبيل وهي دار حرب، وإني أتخوف عليك وعلى من معك.. ولكن ههنا معي خمسمائة قد تبايعنا على أن ندخل المدينة فنتحصن فيها ونقاتل حتى نُعطى أماناً أو نموت كراماً، فقال له عبد الرحمٰن: أما لو دخلت معي لآسيتُك وأكرمتك. فأبَىٰ علقمة، فتحصن علقمة ـ مع الخمسمائة ـ بمدينة سجستان مع أميرها مودود العنبري».

* ـ وفي حوالي شهر شوال ٨٤هـ مضى عبد الرحمٰن بن الأشعث في جماعة معه إلى بلاد رُتبيل ـ وهي الرحج وكابل ـ لاجئاً إلى الملك رتبيل، بينما في منطقة هراة بخراسان بايع أصحابه الذين هناك عبد الرحمٰن بن عباس فوثبوا على عامل يزيد بن المهلّب في هراة وهو الرقاد بن عبيد العتكي فقتلوه فسار إليهم يزيد بن المهلب من مرو ـ عاصمة خراسان ـ فلما أتى هَراة أرسل إلى عبد الرحمٰن بن عباس قائلاً: قد أرَحْتَ وَجَبَيْت فلك ما جَبَيت وإن أردت زدناك فاخرجْ فواللّه ما أريد أن أقاتلكم، فأبَىٰ ابن عباس إلا القتال، قاتلهم يزيد بن المهلّب فهزمهم، وأمر بالكف

عن المنهزمين فأتاح لهم الهروب، وأخذ الأسرى إلى مرو، فعفا عن محمد بن سعد بن أبي وقاص وجماعة من الأسرى وبعث بعدد من الأسرى إلى الحجاج، وبذلك انتهى أمر تلك الفرقة، وأما الذين بمدينة سجستان، فذكر الطبري عن أبي عبيدة: أن عمارة بن تميم اللخمي سار من كرمان إلى سجستان، وكان على سجستان مودود العنبري ـ ومعه علقمة الأودي وأصحابه ـ فحاصرهم عمارة، فقاتلوه حتى أعطاهم الأمان فخرجوا إليه ـ وسلموه المدينة ـ فوفى لهم».

وبذلك وبلجوء عبد الرحمٰن بن الأشعث إلى بلاد رُتبيل ـ في شوال ٨٤هـ ـ انتهت ثورته وانتهى عهده، وذلك لثلاث سنوات وعشرة أشهر من بداية ثورته في محرم سنة ٨١هـ وحتى نهايتها في شوال سنة ٨٤هـ. ومضى الحجاج في قَتْل من يؤسر من أصحاب ابن الأشعث فقتل طائفة من العلماء الأخيار والقادة والأدباء ورؤوس الناس، وكان لكل واحد ممن قتلهم الحجاج خبر مذكور في كتب التاريخ والتراث، ومنهم الشاعر أعشى همدان، قال له الحجاج أنت القائل في ابن الأشعث:

بين الأشج وبين قيس باذخ بَخٌ بَخٌ لوالده وللمولود

واللّه لا تبخبخ بعدها أبداً، وأمر بضرب عنقه، فَضُربت عنقه. ومنهم أيوب بن القرِّية، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وموسى بن عبيد اللّه بن معمر وكان صاحب شرطة ابن الأشعث، وعمرو بن أبي قرة الكندي، ومائة وعشرين أو مائة وثلاثين من القُراء الفقهاء وخيار الناس. قال الحافظ ابن كثير: «شرع الحجاج في تتبع أصحاب ابن الأشعث فجعل يقتلهم مثنى وفرادى حتى قيل إنه قتل منهم مائة وثلاثين ألفاً، قاله النضر بن شميلة عن هشام بن حسان. منهم محمد بن سعد بن أبي وقاص، وجماعات من السادات الأخيار والعلماء الأبرار حتى كان آخرهم سعيد بن جبير رحمهم اللّه ورضي عنهم»[١] ويبدو أن قول ابن شميلة بأن الحجاج قتل مائة وثلاثين ألفاً ليس صائباً وأن أصل ذلك مائة وثلاثون وذلك من العلماء وخيار الأمة، ولما أفرط الحجاج في القتل، وكما ذكر الجاحظ: «قال رجاء بن حَيْوة الكندي لعبد الملك بن مروان، في أسرى ابن الأشعث: إنّ اللّه قد أعطاك ما تحبُّ من الظَّفَر، فأعطِ اللّه ما يحبُّ من العفو»[٢]. ـ فأمر عبد الملك الحجاج بالكفّ عن القتل ـ وأخذ الحجاج في تعذيب وإذلال الأسرى وكان ممن أسرهم الحجاج الصحابي الجليل أنس بن مالك الأنصاري، قال الجاحظ: «قال الحجاج لأنس بن مالك وكان خرج مع ابن الأشعث.. لعنة اللّه عليك من شيخ

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥١ جـ٩ ـ ونبأ أنس بن مالك ـ ص١٣٣ ـ ١٣٤ جـ٩.
(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص١٠٧ جـ٢ ـ ونبأ أنس بن مالك ـ ص٣٨٦ جـ٢.

جَوَالٍ في الفتنة، مرة مع أبي تراب ـ يعني عليّ بن أبي طالب ـ ومرة مع ابن الأشعث. واللَّهِ لأقلعنَّك قلع الصَّمْغة، ولأعصبنَّك عَصْب السَّلمة، ولأجرِّدنك تجريد الضب. فقال أنس: مَنْ يعني الأمير أعزّه اللّه. قال: إيَّاك أعْني، أصمَّ اللّه صداك[1]. وكذلك ذكر الحافظ ابن كثير وأنه «قال أنس بن مالك: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، واللّه لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قُتِلْتُ ولا أي ميتة متُّ. ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان بخبره وبما قال له الحجاج، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً.. فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد اللّه بن أبي المهاجر بكتابين إلى أنس والحجاج وقال لإسماعيل: ابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول اللّه ﷺ فارفع كتابي إليه وقُل له: قد كتبتُ إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوعَ لك من أمَتِكْ[2]. ثم ذكر ابن كثير كتابه إلى أنس بن مالك وإلى الحجاج، وقال الجاحظ بعد نصه سالف الذكر «فكتب أنسُ إلى عبد الملك بن مروان، فكتب عبد الملك إلى الحجاج: «يا ابن المستَفْرِمة بعَجَم الزبيب، واللّه لقد هممتُ أنْ أركُلَك ركلةً تهوِي بها في نار جهنّم. قاتلك اللّه، أخيفشَ العينين أصكَّ الرِّجْلين، اسودَ الجاعرتين..»[3] وذكر ابن كثير نص كتاب عبد الملك إلى الحجاج وفيه قال عبد الملك للحجاج: «..لعنك اللّهُ من عبدٍ أخفش العينين، منقوص الجاعرتين.. يا ابن المستفرية بعجم الزبيب، واللّه لأغمرنك غمر الليث الثعلبَ، والصقرِ الأرنبَ، وثَبْتَ على رجل من بقية أصحاب رسول اللّه ﷺ بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه ولم تتجاوز عن سيئاته.. فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفّه ونعله. وإلا أتاك مني سهمٌ بكل حتف قاض»[2].

وفاة عبد الرحمٰن بن الأشعث

ومكث ابن الأشعث في بلاد رُتبيل ـ بمدينة كابل ـ وكان رتبيل يُعظمه ويكرمه. قال ابن خلدون: (وتتابعت كتب الحجاج إلى رتبيل في عبد الرحمٰن بن الأشعث يُرهبه ويُرَغِّبُهُ) ـ فأبَىٰ رتبيل الغدر بابن الأشعث ـ قال الطبري: «ثم دخلت سنة خمس وثمانين ففيها كان هلاك عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث». ثم ذكر الطبري وكذلك ابن خلدون وابن كثير عن نهايته ثلاث روايات:

---

(١) السلم: شجر من العضاة. وقوله: لأجردنك جرد الضب: أي لأسلخنك سلخ الضب لأنه إذا شوي جرد من جلده. والصدى: رجع الصوت وهذا كناية عن الإهلاك، إذا مات الرجل فإنه لا يسمع صوته.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥١ جـ٩ ـ ونبأ أنس بن مالك ـ ص١٣٣ ـ ١٣٤ جـ٩.

(٣) عجم الزبيب: حبه. والمستفرمة: التي تجعل الدواء في ههنا ليضيق. والصكك: اضطراب الرجلين والركبتين.

تزعم الرواية الأولى أنه: كان عبيد بن مسمع التميمي من أصحاب ابن الأشعث وكان معه عند رتبيل، فقال عبيد لرتبيل: أنا آخذ لك من الحجاج عهداً ليكُفَنّ عنك الخراج سبع سنين على أن تدفع إليه عبد الرحمٰن، فقال له رتبيل: إن فَعَلْتَ فإن لك عندي ما سألت، فكتب عبيد إلى الحجاج فأجابه إلى ذلك وأعطاه مالاً، فبعث رتبيل برأس عبد الرحمٰن إلى الحجاج وترك له خراج سبع سنين. قال ابن كثير: «وعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث، فقيل إنه أمر بضرب عنقه بين يديه، وبعث برأسه إلى الحجاج». وقال الطبري في نهاية تلك الرواية «كان الحجاج يقول بعث إليّ رتبيل ـ بعدو الله ـ فألقى نفسه من فوق أجار فمات».

وتزعم الرواية الثانية، وقد ذكرها الطبري عن أبي عبيدة أنه «كان مع ابن الأشعث عبيد بن أبي سبيع التميمي قد خُصّ به وكان قد خُص برتبيل أيضاً، فقال القاسم بن محمد بن الأشعث لأخيه عبد الرحمٰن: إنّي لا آمن غدر هذا التميمي فاقتله، فهمّ به، وبلغ عبيد ذلك فخافه، فوشى به إلى رتبيل وخوّفه ودعاه إلى الغدر بابن الأشعث فأجابه، واشترط رتبيل أن لا تُغزى بلاده عشر سنين وأن يؤدي بعد العشر سنين الخراج في كل سنة تسعمائة ألف فقط، فخرج عبيد سراً إلى عمارة بن تميم ـ عامل سجستان ـ وكتب بذلك عمارة إلى الحجاج فكتب إليه: أن أعطِ عُبيداً ورتبيل ما سألاك، فأعطى عبيداً ألف ألف ـ درهم ـ وأعطى رتبيل عهداً بما سأل، فأرسل رتبيل إلى ابن الأشعث فأحضره وثلاثين من أهل بيته فقيدهم بالقيود وفيهم القاسم، وأرسل بهم إلى أدنى مسالح عمارة، وقال لجماعة ممن كانوا مع ابن الأشعث تفرقوا إلى حيث شئتم. ولما قرب ابن الأشعث من عمارة ألقى بنفسه من فوق قصر فمات..» وقال ابن كثير في تلك الرواية: «قبض رتبيل على عبد الرحمٰن وعلى ثلاثين من أهل بيته وبعث بهم مع رُسل الحجاج إليه، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرحج، صعد ابن الأشعث إلى سطح قصر وهو مقيد بالحديد ومعه رجل موكل به لئلا يفر، وألقى نفسه من ذلك القصر وسقط الموكل به فماتا معاً، فعمد رسول رتبيل إلى رأس ابن الأشعث فاحتزه، وقتل من معه من أصحاب ابن الأشعث وبعث برؤوسهم إلى الحجاج..».

أما الرواية الثالثة: فقد ذكرها الطبري من طريق سليمان بن أبي راشد قال: (سمعتُ مليكة ابنة يزيد ـ امرأة عبد الرحمٰن ـ تقول: والله لمات عبد الرحمٰن وإن رأسه لَعَلى فخذي كأنّ السلّ قد أصابه. فلما مات وأرادوا دفنه بعث إليه رتبيل فحزّ رأسه فبعث به إلى الحجاج وأخذ ثمانية عشر رجلاً من آل الأشعث فحبسهم عنده، وترك جميع من كان معه من أصحابه، وكتب إلى الحجاج بأخذه الثمانية عشر رجلاً، فكتب إليه أن اضرب رقابهم وابعث إليّ برؤوسهم، وكره أن يؤتى بهم إليه أحياءً

فيُطلبُ فيهم إلى عبد الملك فيتركُ منهم أحداً». ويتبين من ذلك أن عبد الرحمٰن مات من مرض ألمّ به، وجاء في رواية ابن كثير لذلك «كان ابن الأشعث مرض مرضاً شديداً» وفي رواية ابن خلدون «مات عبد الرحمٰن بالسل، فقطع رتبيل رأسه، وبعث به» ومؤدى ذلك أن الذي ألقى بنفسه من القصر في الرحج فمات هو القاسم بن محمد بن الأشعث، فعمد رسل رتبيل إلى رأسه فاحتزوه، وقتلوا بقية الثمانية عشر، وبعثوا برؤوسهم ورأس ابن الأشعث إلى الحجاج».

وذكر الطبري وابن خلدون وابن كثير أنه: بعث الحجاج برأس ابن الأشعث إلى عبد الملك بن مروان، فطيف برأسه في الشام، ـ قال الطبري: وأرسل عبد الملك برأس ابن الأشعث مع خصيّ إلى امرأة منهم ـ أي من كندة ـ كانت زوجة رجل من قريش، فلما وُضع بين يديها قالت: مرحباً بزائر لا يتكلم ملكٌ من الملوك طلب ما هو أهله فأبَتْ المقاديرُ. فذهب الخصيّ يأخذ رأسه، فقالت: لا واللَّه.. ثم دعت بخَطْميّ فغسلته وغلفته ثم قالت: شأنك به الآن، فأخذه، ثم أخبر عبد الملك بما كان ـ ثم بعث بالرأس إلى أخيه عبد العزيز بن مروان أمير مصر، فطيف برأسه هناك. قال ابن كثير: «ثم دفنوا رأسه بمصر وجثته بالرحج، فقال في ذلك بعض الشعراء:

هيهاتُ موضعُ جُثةٍ من رأسها ... رأسٌ بمصر وجثةٌ بالرُّخَّجِ»

وكان موت ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث الكندي ـ كما في تاريخ الطبري ـ (في سنة خمس وثمانين للهجرة) ولم يذكر الشهر الذي مات فيه، وكذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: مات سنة ٨٥هـ الموافق ٧٠٤م.

وكان موته في شهر ربيع الأول ـ تقريباً ـ وذلك قبل عبد العزيز بن مروان الذي أمر بأن يُطاف برأسه في عاصمة مصر ـ وهي الفسطاط ـ ثم ما لبث أن مات عبد العزيز بن مروان في ١٣ جمادى الأولى ٨٥هـ، ومات عبد الملك بن مروان بعده بسنة في منتصف شوال سنة ٨٦هـ.

* * *

دلالات مبايعة ابن الأشعث بالخلافة

وتبقى المسألة الأكثر أهمية هي أن عبد الرحمٰن بن الأشعث بويع بالخلافة، وانقادت إلى طاعته وبايعته بالخلافة زهاء نصف الولايات والأقاليم العربية والإسلامية في ذلك الزمن ودام عهده فيها ثلاث سنوات (٨١ و ٨٢ و ٨٣) وامتد في بعضها إلى أواسط سنة ٨٤ فكانت مدة ثورته وخلافته ثلاث سنوات ونصف، وهي مدة تضاهي مدة حكم العديد من الخلفاء، ولكن الأهم من ذلك أن بقية الصحابة وأبناء الصحابة

وعلماء التابعين الذين هم عمدة الفقه وأئمة السنة النبوية وأئمة العلوم والفكر بايعوه بالخلافة مما أثار تساؤلات عميقة ليس في ذلك الزمن وإنما بعد ذلك بمئات السنين لأن تلك المبايعة تلقي ظلالاً من الشك حول مقولة وأحاديث الخلافة في قريش. وقد تطرق إلى ذلك الحافظ ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤هـ) فقال الحافظ ابن كثير في كتاب البداية والنهاية:

«وعبد الرحمٰن هذا هو أبو محمد بن الأشعث بن قيس، ومنهم من يقول عبد الرحمٰن بن قيس بن محمد بن الأشعث بن قيس. قد روى له أبو داود والنَسائي عن أبيه عن جده عن ابن مسعود حديث (إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة فالقول ما قال البائع أو تشاركا» وروى عنه أبو العميس. ويقال إن الحجاج قتله بعد التسعين سنة، والله أعلم.

والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وهو ليس من قريش وإنما هو كنديٌّ من اليمن. وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش واحتج عليهم الصِدّيق بالحديث في ذلك حتى أن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين فأبَى الصديق عليهم ذلك ثم مع هذا كله ضُرِب سعد بن عبادة الذي دعا إلى ذلك أولاً ثم رجع عنه. فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويبايعون لرجل كِنْدي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير»[١].

لقد أثار الحافظ ابن كثير ذلك التساؤل العميق حول مبايعة ابن الأشعث بالخلافة، ثم تفادى البحث في المسألة بعبارة «زلّةٌ وفتنة». ويكفي أن ابن كثير أثار ذلك التساؤل العميق بل وذكر أسماء عدد كبير من الذين بايعوا عبد الرحمٰن بن الأشعث ومنهم أكبر وأعلم مَنْ تبقى من الصحابة آنذاك وهو أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ولما انتهى عهد ابن الأشعث قال له الحجاج: «إيه يا أنس، جوالٌ في الفتنة، مرة مع أبي تراب ـ علي بن أبي طالب ـ ومرة مع ابن الأشعث». فقد اعتبر الحجاج مبايعة عليّ بن أبي طالب بالخلافة فتنة ومبايعة عبد الرحمٰن بن الأشعث فتنة، وبالتالي يسقط تبرير مبايعة ابن الأشعث بأنها (فتنة) لأنّ مبايعة الإمام عليّ صحيحة وكان هو الخليفة الشرعي، وكذلك مبايعة ابن الأشعث فقد بايعه الذين بايعوه وهم يعرفون أن بيعتهم صحيحة وأن الخلافة لا يشترط فيها النسب القرشي أو العلوي. أما القول بأن الصحابة أجمعوا يوم السقيفة على أن الإمارة والخلافة لا

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥٤ جـ٩.

تكون إلا في قريش، فإن من المعلوم أن الغالبية العظمى من الصحابة في المدينة كانوا من الأنصار وقد كانوا على وشك أن يبايعوا الصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري، مما يدل على أن الأنصار لم يسمعوا بوجود حديث بأن الخلافة في فلان ولا في قريش، فلما جاء أبو بكر الصديق وافقوا على مبايعته لفضله ومكانته، وأما القول بأن الصديق احتج عليهم بحديث بأن الخلافة في قريش فإن ذلك يتعارض مع أحاديث نبوية كثيرة وأقوال مأثورة بأن الخلافة لا يشترط فيها النسب، ثم إن مبايعة عبد الرحمٰن بن الأشعث تتيح إدراك أن بقية الصحابة وأبناء الصحابة والعلماء التابعين وأعلام الأمة الذين هم عمدة الفقه والسنة النبوية لم يقولوا بأن الخلافة في قريش ولم يأخذوا بمثل ذلك الرأي ـ إن كان موجوداً في ذلك الزمن ـ بدليل أنهم بايعوا عبد الرحمٰن بن الأشعث بل وقاتلوا تحت لوائه كما لم يفعلوا مع أي خليفة من قبل ولا من بعد، وبذلوا أرواحهم بإيمان لا يتزعزع بأنهم على الحق، وقد تجاوز عددهم العشرات إلى المئات، وبما أن نصاب التواتر هو أربعون، نذكر فيما يلي أسماء أربعين من الصحابة وأبناء الصحابة والتابعين الذين بايعوا عبد الرحمٰن بن الأشعث ممن ذكرهم الحافظ ابن كثير، وهم:

- الصحابي أنس بن مالك الأنصاري
- الصحابي تيحان بن أبجر
- عقبة بن عبد الغفار
- الإمام عامر الشَعبي
- محمد بن سعد بن أبي وقاص
- أبو الطفيل بن عامر بن وائلة
- أبو عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود
- أبو الجوزاء الربعي
- جبلة بن زحر الجعفي
- عبد اللّه بن خالد الجهضمي
- أبو البختري الطائي
- عقبة بن وشاح
- عبد الرحمٰن بن أبي ليلى
- مسلم بن يسار المزني
- أبو مرانة العجلي
- بسطام بن مصقلة
- عبد الرحمٰن بن عباس الهاشمي
- النضر بن أنس بن مالك
- سيار بن سلامة الرياحي
- عمران الضبعي
- عبيد اللّه بن عبد الرحمٰن بن سمرة
- مرّة بن ذباب الهدادي
- أبو نجيد الجهضمي
- أبو سبيح الهنائي
- بِشْر بن المنذر بن الجارود
- كميل بن زياد النخعي
- مالك بن دينار
- سعيد بن أبي الحسن
- عبد اللّه بن شداد بن الهاد
- المعرور بن سويد
- الحسن البصري
- طلحة بن مصرف

- زبيد بن الحارث اليامي
- عطاء بن السائب
- عمران بن عصام الضبعي
- ابن جارية الخثعمي
- خالد بن جرير بن عبد اللّٰه
- أعشى همدان
- عمر بن موسى بن معمر
- سعيد بن جُبير

وقد نجا الكثير من العلماء ومن آل الأشعث، ولما ثار يزيد بن المهلّب الأزدي وبويع بالخلافة سنة ١٠١هـ كان من أول من بايعه ودعا إليه النضر بن أنس بن مالك الأنصاري وكان لآل الأشعث إسهامهم في ثورة وعهد يزيد بن المهلب ثاني الخلفاء اليمنيين الثوار الذي انتهج نهج عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي عليه رحمة ورضوان اللّٰه تعالى.

٦٧

يَزِيْد بن المُهَلَّب . . أمير العراقين

ـ ثاني الخلفاء اليمنيين الثوار ـ

مِنْ عظماء الفاتحين وكبار الأمراء الولاة ذوي الإسهام الوافر في نشر وترسيخ الإسلام في آسيا الوسطى والمشارق هو يزيد بن المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي. قال أبو العباس المبرِّد في كتاب الكامل:

«وفي يزيد بن المهلّب قال الفرزدق:

فـإذا الـرجـالُ رَأَوْا يَـزيـدَ رأيـتَـهُـمْ ... خُضُـعَ الـرقـابِ نـواكِـسَ الأبـصـارِ»

وفي ولايته لخراسانَ وآسيا الوسطى قاد يزيد بن المهلّب فرسان الأزد ومذحج اليمانيين القحطانيين من العراق إلى بلاد ما وراء النهر وافتتح أقاليم واسعة من باذغيس شرقاً إلى جرجان وبحر قزوين غرباً، فقال الطِّرِمَّاح بن حكيم الطائي[1] :

وتَـقَـدَّمَـتْ أزدُ الـعـراقِ ومـذْحـجٌ ... لـلـموتِ يَـجْـمـعُـهـا أبـوهـا الأكـبـرُ

قـحـطـانُ، تضربُ رأس كل مدجَّج ... تـحـمـي بـصـائـرُهـنّ إذْ لا تُـبـصـرُ

والأزدُ تَـعْـلَـمُ أنَّ تـحـت لـوائـهـا ... مَـلِـكٌ قُـراسِـيَـةٌ، ومـوتٌ أحـمـرُ

وذلك الملك هو يزيد بن المهلّب أمير خُراسان ثم سجين الحجاج ثم أمير العراقين والمشارق ثم ثاني الخلفاء اليمانيين الثوار، ثار وبويع بالخلافة سنة ١٠١هـ وحَمَل لقب (القحطاني) فقال الشاعر ثابت بن قطنة الأزدي قصيدة أولها:

إنَّ امْـرَأً حـدبـتْ ربـيـعـةُ حـولـه ... والـحـيُّ مِـنْ يَـمَـنٍ وهـابَ كـئـوداً

لـضـعـيـفُ ما ضَمّتْ جوانحُ صدره ... إنْ لـم يَـلُـفّ إلـى الـجـنـود جـنـودا

---

(١) جاء في ترجمته بكتاب الجامع «الطرماح بن حكيم الطائي: شاعر إسلامي فحل. ولد ونشأ في الشام. وانتقل إلى الكوفة، فكان معلماً فيها. . قال الجاحظ: (كان الطرماح قحطانياً عصبياً). واتصل بخالد بن عبد الله القَسْري أمير العراق (١٠٥ ـ ١٢٠هـ) فكان يكرمه ويستجيد شعره. له ديوان شعر: توفي سنة ١٢٥هـ» ولم يكن الطرماح متعصباً للقحطانية. وإنما كان يعتز بقحطانيته ويمانيته، وكذلك كان ثابت بن قطنة الأزدي.

أيزيدكُنْ في الحرب إذْ هَيّجْتها كأبيك لا رعشاً ولا رعديدا

وكان ثابت شاعر ثورة يزيد بن المهلّب، قال د. حسين عطوان: إن قصائده تتضح فيها «الآمال التي عقدها ثابت علي الثورة والتي كان يرجو أن تُتوج بفوز ابن المهلّب بالخلافة.. وبالمثل تتضح نزعته اليمانية الحادة، واعتزازه بماضيهم في الجاهلية وبحاضرهم في الإسلام مما يجعلهم أهلاً للخلافة»[1].

***

معالم المرحلة الأولى من حياة يزيد بن المهلّب (٥٣ ـ ٧٨هـ)

في سنة ٥٣هـ الموافق ٦٧٣م وُلد يزيد بن المهلّب بن أبي صُفْرة الأزدي[2] ولم تذكر الروايات مكان مولده، وغالب الظن أنه وُلِد في عُمان وقد انتقل والده الزعيم المهلّب بن أبي صُفرة من عُمان إلى البصرة وسكن بها ولكن ذلك لا يتعارض مع بقاء بيته وأسرته في عمان فكان له منزل وأسرة بِعُمان ومنزل وأسرة بالبصرة، وقد رزقه اللّه بكثير من الأولاد ذكر المهلّب أنهم «بنو عَلّات» وجاء في هامش ذلك بالبيان والتبيين: «بنو العلّات: بنو رجل واحد من أمهات شتى. والعَلّة: الضَّرة»[3]، وكانت والدة يزيد من بني العتيك الأزديين الساكنين في منطقة دبا بعمان وهي السيدة بنت سعيد بن قبيصة بن سُراق الأزدي، إذْ أن خال يزيد هو جديع بن سعيد بن قبيصة بن سُراق العتكي الأزدي[4].

ونشأ يزيد وتثقف بالبصرة، فأخذ علوم القرآن والسنّة والفقه والأدب عن الصحابة وكبار التابعين بالبصرة وتميَّز عن غيره من التابعين بالجود والكرم، وبرع في الفروسية والشجاعة، وكان وسيماً طويلاً ذا شخصية ومهابة، وقد وصف الفرزدق يزيداً وإخوته بأنهم «كل فُنيق يرتدي السيف مُعصب».

وكان ترتيب يزيد الرابع بين أولاد المهلّب المذكورين في المصادر التاريخية وهُم: سعيد، المغيرة، حبيب، يزيد، المُفضل، عبد الملك، زياد، مدرك، قبيصة، محمد، أبو عيينة، مروان، هند، فاطمة، أم مالك.

وقد أخذ اسم يزيد بن المهلّب يتألف في ميدان الفروسية وهو ابن عشرين سنة، ففي سنة ٧٢ ـ ٧٣هـ أمر الخليفة عبد الملك بن مروان عامله على البصرة خالد بن أسيد الأموي بالمسير مع المهلّب في جيش أهل البصرة لقتال الأزارقة في

---

(١) الشعر العربي في خراسان ـ د. حسن عطوان ـ ص٢٤٣.

(٢) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ص٦٥٤.

(٣) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص١٨٩ جـ٢.

(٤) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٠٧ جـ٨.

إقليم الأهواز، فسارا بجيش البصرة إلى الأهواز، قال أبو العباس المبرِّد: «وقد كان عبد الملك كتب إلى بِشر بن مروان ـ أمير الكوفة ـ يأمره أن يمدهم بجيش أميره عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث الكندي، ففعل، فقَدِم عليهم عبد الرحمٰن. . فأمر المهلّبُ يزيدَ فخرج في مائة فارس فَقَاتَل وأبْلَى يومئذ، وخرج عبد الرحمٰن فأبْلَى بلاءً حسناً. . فصُرِع (فرس) يزيد بن المهلب يومئذ وصُرِع (فرس) عبد الرحمٰن بن الأشعث، فحامى أصحابهما عنهما حتى ركبا»[1] . وبذلك تجلّت شجاعة يزيد بن المهلّب من يومئذ وهو ابن عشرين سنة، ومن يومئذ أيضاً نشأت معرفة وثيقة بينه وبين عبد الرحمٰن بن الأشعث، وكان آل المهلّب من أنساب عبد الرحمٰن لأن امرأة عبد الرحمٰن أزدية وهي مُليكة بنت يزيد بن يزيد بن المُغَفّل الأزدي.

وفي سنة ٧٤هـ وبأمر عبد الملك بن مروان ولّى بشر بن مروان المهلّب على الأهواز وفارس وقيادة حرب الأزارقة فانطلق المهلّب بجيش البصرة إلى الأهواز، قال أبو العباس المبرِّد: «وتتبعهم المهلّب ـ أي الأزارقة ـ إلى سوق الأهواز فنفاهم عنها، ثم تبعهم إلى رامَ هُرْمُزَ فهزمهم عنها، فدخلوا فارس، وأبْلَى يزيد بن المهلّب في تلك الوقائع بَلاءً حسناً تقدم فيه، وهو ابن إحدى وعشرين سنة»[1] . وقد شهد عبد الرحمٰن بن الأشعث أيضاً موقعة رام هُرْمُز ثم مضى إلى إقليم الريّ الذي كان أميراً له، ورابط المهلّب في رامَ هُرْمُز ومعه أولاده ومنهم يزيد، وأتاهم بعد شهر نبأ وفاة بشر بن مروان ـ في أواخر سنة ٧٤هـ ـ وولّى عبد الملك بن مروان على العراق ـ في أوائل سنة ٧٥هـ ـ الحجاج بن يوسف الثقفي.

وأقام يزيد وإخوته مع أبيهم المهلّب أمير الأهوازوفارس يجاهدون الأزارقة سنة ٧٥ وسنة ٧٦هـ، ثم دخل المهلّب إقليم كرمان سنة ٧٧هـ فوقعت معركة شديدة مع العدو كان يزيد بن المهلّب من أبطالها حتى أخذ المهلّب خندق مدينة جيرفت في أواسط سنة ٧٧هـ (ووَجّه المهلّب ابنه يزيد إلى الحجاج يبشره بذلك، فأظهر الحجاج السرور» وكان ذلك أول لقاء بين الحجاج ويزيد بن المهلّب، ورجع يزيد إلى أبيه، وشهد معه فتح جيرفت «وصبر بنو المهلب وصبر يزيد بين يدي أبيه، وقاتل قتالاً شديداً أبلى فيه. فقال له أبوه: يا بُنيّ إني أرى موطناً لا ينجو فيه إلا من صبر، وما مرّ بي مثل هذا اليوم منذ مارستُ الحروب». وتتوجت المعركة بالنصر والفتح، واستتبت دعائم دولة الخلافة في تلك البلاد.

وبعث المهلّب مكتوباً إلى الحجاج بنبأ الفتح مع كعب بن معدان الأشقري، فأخذ الحجاج يسأل كعباً، «فقال له: أخبرني عن بني المهلّب؟ فقال: المغيرة

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٥٣ و ٢٦٣ جـ٢.

فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسَخِيُّهم قبيصةُ، ولا يستحي الشجاع أن يفرّ من مُدْرِكٍ، وعبد الملك سمٌّ ناقِعُ، وحبيب موتُ زُعاف، ومحمد ليثُ غاب، وكفاك بالمفضل نَجْدة، فقال الحجاج: فكيف كان بنو المهلّب فيكم؟ قال: كانوا حُماةَ السَّرْحِ نهاراً، فإذا أَلْيَلُوا ففرسان البيات. قال: فأيّهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحَلْقة المُفْرَغةِ لا يُدْرى أين طرفها».

وفي أوائل سنة ٧٨هـ ـ وبناء على توجيهات عبد الملك بن مروان غالباً ـ كتب الحجاج إلى المهلّب مكتوباً شكره فيه على جهاده وقال فيه: « . . واسْتَعْمِلْ على كرْمانَ مَنْ رأيتَ، ووَلِّ الخيل شهماً من ولدك . . وعَجِّل القُدومَ إن شاء اللّه. فولَّى المهلّبُ ابنه يزيد كرمان، وقال له: يا بُنَيَّ إنك اليوم لست كما كنتَ، إنما لك من مال كرمان ما فضُل عن الحجاج، ولن تُحْتَمَلَ إلا على ما احْتُمِلَ عليه أبوك. فأحسنْ إلى مَنْ معك، وإن أنكرتَ مِنْ إنسان شيئاً فوجِّهه إليَّ، وتَفَضَّلْ على قومك».

وقال ابن الأثير: «كتب الحجاج إلى المهلّب يشكره، ويأمره أن يولي كرمان من يثق إليه ويجعل فيها من يحميها، ويقدم إليه، فاستعمل المهلّب على كرمان يزيد ابنه. وسار إلى الحجاج . .»[١]، وذكر ابن الأثير والطبري أن ذلك في سنة ٧٧هـ، فأصبح يزيد بن المهلّب أميراً على ولاية كرمان وهو يومئذ ابن أربع وعشرين سنة.

بينما في البصرة تم استقبال المهلّب استقبالاً حافلاً وقام الحجاج بتكريم المهلّب وأجلسه معه على كرسي الإمارة، وأظهر إكرامه وبرَّه. ثم قال له الحجاج: اذكر لي القومَ الذين أبْلَوْا وصِفْ لي بَلاءَهُمْ. فذكرهم للحجاج وقَدَّم بنيه المُغيرةَ ويَزيدَ ومُدْرِكاً وحبيباً وقَبيصةَ والمُفَضَّلَ وعبدَ الملك ومحمداً، وقال: واللّه لو تَقَدَّمهُم أحد في البلاء لَقَدَّمْتُهُ عليهم، ولولا أن أظلمهم لأَخّرتهم. فقال الحجاج: صدقتَ وما أنتَ بأعلم بهم مني، وإن حضرتَ وغِبْتُ. إنهم لسُيوفٌ من سُيوف اللّه. ثم ذكر مَعْنَ بن المغيرة بن أبي صُفرة والرُّقادَ وأشباههما، فقال الحجاج: أين الرُّقاد؟ فدخل رجل طويل أَجْنَأ، فقال المهلّبُ: هذا فارسُ العرب[٢]. قال الطبري: «وأخذ الحجاج لا يذكر له المهلّب رجلاً من أصحابه ببلاء حسن إلا صدّقه الحجاج بذلك، فأحسن عطاياهم، وزاد في أعطياتهم، ثم قال: هؤلاء أصحاب الفعال وأحق

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٦٧ جـ٤.
(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرد ـ ص٢٩٨ جـ٢.

بالأموال هؤلاء حُمارة الثغور وغيظ العداء»(١)، وقد كان التكريم والعطايا وزيادة الأعطيات بتوجيهات عبد الملك بن مروان، ولكن كلام وتقدير الحجاج له أهميته، وبخاصة وصفه ليزيد بن المهلّب وإخوته قائلا: «إنهم لَسُيوفٌ من سُيوف اللَّه».

وكان يزيد بن المهلّب أميراً في كرمان والمغيرة بن المهلّب أميراً لإقليم اصطخر بفارس في أوائل سنة ٧٨هـ حيث ـ كما ذكر الطبري وابن الأثير: «في سنة ٧٨هـ عزل عبد الملك بن مروان أُميةَ بن عبد اللَّه عن خراسان، وضَمّ خراسان وسجستان إلى أعمال الحجاج، فولّى عبيد اللَّه بن أبي بكرة على سجستان فسار إليها، وولّى المهلّب بن أبي صُفرة على خراسان، فَسَيّر المهلّب ابنه حبيباً إليها، فلمّا ودع الحجاج أعطاه بغلة خضراء فسار عليها وأصحابه على البريد، فسار عشرين يوماً حتى وصل مرو بخراسان فلم يَعرِض لأمية بن عبد اللَّه وعماله، وأقام عشرة أشهر حتى قدم عليه المهلّب سنة تسع وسبعين»(٢).

إن تلك الشهور العشرة التي أقام فيها حبيب بن المهلّب في مرو ـ مرو الروذ ـ بخراسان هي من ربيع أول ٧٨هـ إلى محرم ٧٩هـ وقد استمر أُمية بن عبد اللَّه عاملاً على خراسان خلالها، ومؤدى ذلك أن تولية المهلّب على خراسان كانت مرتبطة بمسيره إليها، وبما أن المهلّب أراد المكوث في البصرة إلى نهاية سنة ٧٨هـ فإن ولايته الفعلية استمرت على إقليم اصطخر ـ فارس ـ وإقليم كرمان، فاستمر المغيرة أميراً على اصطخر ويزيد أميراً على كرمان وبالذات على إقليم جيرفت بكرمان، فقد بعث الحجاج هميان السدوسي على كرمان ـ إقليم الشيرجان ـ ثم ولّى مكانه عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي في أواسط سنة ٧٨هـ، فكان يزيد أميراً لكرمان ـ إقليم جيرفت ـ وابن الأشعث أميراً لكرمان ـ إقليم الشيرجان ـ مما يتيح تعزيز العلاقة بينهما في تلك الفترة.

بينما في البصرة التي كان المهلّب مقيماً فيها خلال تلك الشهور، قام الحجاج بتوطيد علاقته بالمهلّب وآل المهلب؛ لأنهم بيت الزعامة في ولاية البصرة بمدلولها الواسع القديم، بل إن آل المهلب في العراق كانوا يُقاسون ببيت مروان ـ وهو بيت الخلافة ـ بالشام، وفي ذلك قال الشاعر حمَّاد عجرد:

مروان بيت الشام غير مُدَافِعٍ وبيت العراقيين آل المهلّب(٣)

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٨٠ جـ٧.
(٢) الكامل ـ ابن الأثير ـ ص٧١ جـ٤ ـ تاريخ الطبري ـ ص٢٨١ جـ٧.
(٣) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٥٣ ـ عن كتاب القضاة لوكيع ـ ص١٦٩ جـ٢.

وقد تزوج الحجاج هنداً بنت المهلّب، وأصبح عبد الملك بن المهلب صاحب شرطة الحجاج ـ أي قائد شرطته وحرسه الخاص ـ وهو من أرفع المناصب القيادية بين قادة الأمير الحجاج بالعراق.

وفي أواخر سنة ٧٨هـ قَدِم يزيد بن المهلّب من كرمان والمغيرة بن المهلّب من اصطخر، إلى أبيهما المهلّب بالبصرة، ثم أخذ يتهيأ للمسير إلى خراسان، وبعث المغيرةَ ويزيدَ إلى الحجاج بالكوفة، ويبدو أن ذلك تزامن مع وصول مكتوب من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بتولية المهلّب على خُراسان ويستحثه بالمسير إليها، فقد جاء في ترجمة المهلّب بن أبي صُفرة بكتاب الجامع أنه «ولّاهُ عبد الملك بن مروان على خراسان، فقَدِمها سنة ٧٩ هجرية»(١).

* * *

أنباء يزيد في ولاية المهلّب لخراسان (٧٩ ـ ٨٢هـ)

في محرم ٧٩ انطلق موكب المهلّب بن أبي صُفْرة الأزدي من البصرة إلى مدينة مرو الروذ بخراسان ومعه المُغيرة، ويزيد، والمفضل، وغيرهم من أولاده، والمئات من فرسان الأزد، واستقبلهم في مرو الروذ حبيب بن المهلّب والذين معه. واستهلّ المهلّب عهد ولايته لخراسان بتولية الأمراء والقادة والعمال على أقاليم خُراسان المشمولة بالسلطة العربية الإسلامية ويسكنها عشرات الآلاف من العرب وأهلها مسلمون وهي أقاليم ما دون نهر جيحون.

وكانت المناصب العليا للولاية ثلاثة، الأمير الوالي ـ وهو المهلّب ـ وقائد الجيش والحرب، وعامل الجباية والخراج، فأسند المهلّب القيادة الحربية العامة إلى يزيد بن المهلّب والجباية والخراج إلى المغيرة. وفي ذلك جاء في كتاب الأمالي:

«استعمل المهلّبُ يزيدَ على حرب خراسان، واستعمل المُغيرةَ على خراجها»(٢).

وقام المهلّبُ في السنة الأولى من ولايته ـ وهي سنة ٧٩هـ ـ بتنظيم الأمور الداخلية في الولاية واستقر في مدينة مرو الشاهجان وهي عاصمة الولاية ومعه يزيد والمغيرة، بينما مكث حبيب بن المهلب عاملاً على مرو الروذ وإقليمها، وكان من العمال الذين ولاهم المهلّب الرقاد العتكي، وجُديع بن سعيد خال يزيد بن المهلّب، ووكيع بن أبي سود التميمي، والبَخْتَرِيَّ بن المغيرة بن أبي صُفرة.

وفي سنة ٨٠هـ استخلف المهلّب بمدينة مرو ـ الشاهجان ـ المغيرة بن المهلّب نائباً له على الولاية كلها، ومضى المهلّب بجيش المسلمين للجهاد في بلاد ما وراء

---

(١) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص٥٩٩. (٢) الأمالي ـ أبو علي القالي ـ ص٣١٣ جـ٢.

نهر جيحون ومعه يزيد بن المهلّب قائد الجيش، فعبر المهلّب نهر بَلْخ إلى بلاد ما وراء نهر جيحون فنزل ببلاد كش. وقد ذكر ابن الأثير ذلك بعنوان: «غزو المهلّب ما وراء النهر» وقال: «وفي سنة ثمانين قطع المهلّبُ نهر بَلْخ ونزل على كش.. وأقام المهلّب بكش سنتين». قال البلاذري: «فغزا المهلّب غزوات كثيرة، غزا كشّ، ونَسَفْ، وفتح بلاد الخُتَّل وكانت قد انتقضت، وفَتَح خُجَنْدة، وأدت إليه السُغدُ الأتاوة»[١].

فقد افتتح المهلّب بلاد كشّ واتخذها قاعدة ومركزاً له، وبعث منها جيشاً بقيادة يزيد بن المهلّب إلى بلاد الخُتَّل وجيشاً بقيادة حبيب بن المهلب إلى إقليم بُخارىٰ. قال الطبري: «أتى المهلّب وهو نازلٌ على كشّ ابن عم ملك الخُتَّل، فدعاه إلى غزو الخُتَّل، فَوَجَّه المهلّبُ معه ابنه يزيد، فنزل يزيد في عسكره ناحيةً ونزل ابن عم الملك ناحية، وكان ملك الخُتَّل يومئذ اسمه السَّبَل، فبيّت السَبَلُ ابن عمه فكبّر في عسكره، فظن أن الغرب غدروا به وأنهم خافوه على الغدر حين اعتزل عسكرهم، فأسره السَبَلُ فأتى به قلعته فقتله، فحاصر يزيد قلعة السَبَل، فصالحوه على فدية حُمِلت إليه»[٢]. ولم تذكر هذه الرواية الوقائع الكاملة لفتح يزيد بن المهلّب لبلاد الخُتَّل والتي تتجلى في قول البلاذري: «فتح بلاد الخُتَّل وكانت قد انتقضت» ومؤدى ذلك أن بلاد الخُتّل جميعها أذعنت لأداء المصالحة والجزية بعد أن أذعن ملكهم لذلك. بينما في ذات الفترة توجه حبيب بن المهلب إلى بلاد بُخارى، قال الطبري: «وَجَّه المهلّبُ ابنه حبيباً، فسار إلى رَبِنجَن، فوافاه صاحب بُخارى في أربعين ألفاً، فدعا رجل من المشركين للمبارزة، فبرز له جَبَلة غلام حبيب فقتل المشرك، وحمل على جمعهم، فقتل ثلاثة أنفار منهم» ـ ثم بعد انهزام جيش صاحب بُخارى ـ «نزلت جماعة من العدو قرية فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف، فقَاتلهم، وظفر بهم»[١]، وأذعنت بلاد بخارى وحاكمها للطاعة وأداء الجزية.

وفي سنة ٨١هـ ـ وكان المهلّب ما يزال مرابطاً في بلاد كشّ ـ أسفرت حملات قادها يزيد، وحبيب، والمُفضل، عن استجابة مناطق إقليم السُغد للمصالحة وأداء الجزية، وامتد الفتح إلى خُجْنَدة في إقليم فرغانة. وقد ذكر البلاذري ذلك قائلاً: إن المهلّب «فَتَح خُجَنْده، وأدت إليه السغد الأتاوة».

وقال الشاعر كعب بن معدان الأشقري الأزدي في تلك الفتوح التي حَقّقَها المهلّب من كش إلى أرجاء ما وراء النهر، وكان كعب مع المهلّب في كش قصيدة أولها:

طَـرِبْـتُ وهــاج لـي ذلـك ادّكــارا بـكـشٍّ قـد أطـلـت بـه الـحـصــارا

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٠٧.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٣ جـ٨.

وفيها قال كعب عن تلك الفتوح:

لَقَوْمِي الأزْد في الغمرات أمْضَىٰ وأوفَىٰ ذِمَّةً وأعزّ جارا
هُمُ قادوا الجياد على وَجَاها من الأمصار يقذفن المهارا
فَهُنّ يُبِحْنَ كلَّ حِمَى عزيزٍ ويَحمِينَ الحقائق والذمارا
طوالات المتون يُصَبْنَ إلاّ إذا سار المهلَّبُ حيث سارا

وقال يصف يزيد بن المهلّب وإخوته الأبيات التي ذكر أبو الفرج الأصفهاني أنه: «كان الخليفة عبد الملك بن مروان يقول للشعراء: تُشَبِهُوني مرة بالأسد ومرة بالبازي ومرة بالصقر، ألا قلتم كما قال كعب الأشقري في المهلّب وولده:

بَرَاكَ اللَّهُ حين بَرَاكَ بَحْراً وفَجَّرَ مِنْكَ أنهاراً غِزَارا
بَنُوكَ السابقون إلى المعالي إذا ما أعظم الناسُ الخِطَارا
كأنّهم نجومٌ حول بحرٍ دَرَارِيٌّ تَكَمَّلَ فاستدارا
ملوكٌ ينزلون بكل ثَغْرٍ إذا ما الهَامُ يوم الرَوْعِ طارا
رِزانٌ في الأمور، تُرى عليهم من الشيخ، الشمائل والفخارا
نجومٌ يُهتدىٰ بهم إذا ما أخو الظلماءِ في الغَمَراتِ حارا»[١]

وكان أبناء المهلّب آنذاك كما وصفهم كعب بن معدان (ملوك ينزلون بكل ثغر)، فقد كان يزيد بن المهلب يفتتح بلاد الخُتَّل وخُجْندة، وكان حبيب في بلاد بُخارى، والمغيرة في مرو الشاهجان ـ بتركمنستان ـ نائباً لأبيه على ولاية خراسان، والمهلّب في بلاد كش بأوزبكستان.

وفي رجب ٨٢هـ وبينما المهلّب في بلاد كش توفي المغيرة بن المهلّب في مرو الشاهجان. قال الحافظ ابن كثير: «وكان المغيرة بن المهلّب جواداً مُمْدحاً شجاعاً، له مواقف مشهورة»[٢]، وكان المغيرة أميراً مجاهداً ولاهُ مصعب بن الزبير على الأهواز وفارس سنة ٦٥هـ ولم يزل أميراً مجاهداً حتى توفي سنة ٨٢هـ قال الطبري: «كان المغيرة بن المهلّب خليفة أبيه بمرو على عمله كله، فمات في رجب سنة ٨٢هـ، فأتى الخبرُ يزيدَ وعَلِمه أهل العسكر فلم يخبروا المهلّب.. وأحبّ يزيد أن يبلغه فأمر النساء فصرخن، فقال المهلّبُ: ما هذا؟ فقيل: مات المغيرة. فاسترجع ـ قال: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون ـ وجزع حتى ظهر الجزع عليه، فَلَامَهُ بعض خاصته، فدعا يزيدَ فَوَجَّهَهُ إلى مرو فجعل يوصيه بما يعمل ودموعه تنحدر على لحيته، وكتب

(١) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص٥٦ ـ ٦١ جـ١٣.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٤٣ جـ٩.

الحجاج إلى المهلّب يعزيه في المغيرة، وكان سيداً، وكان المهلّب يوم مات المغيرةُ مقيماً بكشّ وراء النهر»(١).

فبعث المهلّبُ يزيدَ من كشّ إلى مدينة مرو الشاهجان ليتولى إدارة شؤون الولاية بعد وفاة المغيرة وحتى قدوم المهلّب، قال الطبري: «فسار يزيد في ستين فارساً، ويقال سبعين، فيهم مَجّاعة بن عبد الرحمٰن العتكي، وعبد اللّه بن معمر اليشكري، ودينار السجستاني، والهيثم بن المنخل الجُرموزي، وغزوان إسكاف صاحب زَمّ وكان أسلم على يد المهلب، وأبو محمد الزَمّيّ، وعطية مولى للعتيك. فلقيهم خمسمائة من الترك في مفازة نَسَفْ، فقالوا: ما أنتم؟ قالوا: تجار، قالوا: فأين الأثقال؟ قالوا: قَدَّمْنَاها. قالوا: فأعطونا شيئاً، فأبَىٰ يزيد، فأعطاهم مَجّاعة ثوباً وكرابيس وقوساً، فانصرفوا. ثم غدروا، وعادوا إليهم، فقال يزيد: أنا كنتُ أعلم بهم. فقاتلوهم واشتد القتال بينهم، ويزيد على فرس قريب من الأرض ومعه رجل من الخوارج كان يزيد أخذه أسيراً فقال: استبقني، فَمنَّ عليه، فقال له: ما عندك، فحمل عليهم حتى خالطهم وصار من ورائهم وقد قتل رجلاً، ثم كرّ فخالطهم حتى تقدّمهم وقتل رجلاً ثم رجع إلى يزيد. وقتل يزيدُ عظيماً من عظماء الترك، ورُمي يزيد في ساقه، واشتدت شوكتهم، وهرب أبو محمد الزَمّيّ، وصبر لهم يزيد حتى حاجزوهم. وقالوا: قد غُدرنا ولكن لا ننصرف حتى نموت جميعاً أو تموتوا أو تعطونا شيئاً، فحلف يزيد لا يعطيهم شيئاً، فقال مجّاعة: أذكُرك اللّه قد هلك المغيرة وقد رأيت ما دخل على المهلب من مصابه فأنشدك اللّه أن تُصاب اليوم، فقال يزيد: إن المغيرة لم يَعْدُ أجله ولستُ أعدو أجلي. فرمى إليهم مجّاعة بعمامة صفراء فأخذوها وانصرفوا، وجاء أبو محمد الزمّيّ بفوارس وطعام فقال له يزيد: أسلمتنا يا أبا محمد فقال: إنما ذهبتُ لأجيئكم بمدد وطعام.

فقال كعب الأشقري يذكر بلاء يزيد في تلك الموقعة في قصيدة قالها فيما بعد:

والتركُ تَعْلَمُ إذْ لاقى جُموعَهُمُ ... أن قد لقوهُ شِهاباً يَفرِجُ الظلما
بفِتيَةٍ كأسُودِ الغابِ لم يجدوا ... غيرَ التأسي وغيرَ الصبرِ مُعْتَصَمَا
نرى شرائجَ تَغشى القومَ مِنْ علق ... وما أرى نبوةً منهم ولا كَزَما
وتحتَهُم قُرَّحٌ يركبْنَ ما ركبوا ... من الكريهة حتى يبتلعن دَمَا
في حازَّة الموتِ حتى جَنَّ لَيْلُهُمُ ... كلا الفريقين ما وَلّى ولا انهزَما

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٧ ـ ١٨ جـ٨.

ومضى يزيد بن المهلّب من مفازة نسف إلى مدينة مرو الشاهجان ـ بتركمنستان ـ فقال الراجز:

يـزيـدُ يـا سـيـفَ أبـي سـعـيـدْ قـد عـلـم الأقـوامُ والـجـنـودْ
والـجمعُ يوم الـمجمع المشهودُ أنـك يـومَ الـتـركِ صَـلـبُ الـعـودْ

فتولى يزيد مقاليد الأمور بمدينة مرو الشاهجان عاصمة ولاية خراسان بالنيابة عن أبيه المهلب، وكان المهلب ببلاد كشّ، وكان المهلّبُ يُكنّى أبا سعيد، باسم ابنه الأكبر سعيد وقد مات قبل المغيرة، فلما استقرّ يزيد بمرو الشاهجان، قام المهلّب بمصالحة ملك وأهل بلاد كشّ على أداء مبلغ من المال مقابل ما عليهم من الجزية ومقابل بقاء البلاد تحت حكم ملكهم، وعاد المهلّب من كشّ وما وراء نهر جيحون إلى بَلْخ ـ بأفغانستان ـ في شعبان ٨٢هـ واستخلف في كش حريث بن قطبة مولى خزاعة ليقبض من ملك كشّ مبلغ الصلح والفدية، فقبض ذلك وقَدِم إلى المهلّب ببلخ ـ في رمضان أو شوال ٨٢هـ ـ وتقول رواية الطبري: «إن المهلّب اتَّهم قوماً من مُضَر فحبسهم». ولم يذكر تفصيل ذلك، ويبدو أنهم من أصحاب موسى بن عبد اللّه بن خازم التميمي وكان خارجاً على دولة الخلافة هو وأتباعه في مدينة ترمذ بما وراء النهر متحالفاً مع الكفار منذ سنوات ولاية أمية بن عبد اللّه لخراسان، فلما اتَّهم المهلّب قوماً من مُضَر فحبسهم في بَلْخ، هرب حريث بن قطبة مولى خزاعة في نحو ثلاثمائة من الموالي وغيرهم فلحقوا بابن خازم في ترمذ، وكانوا قد أضمروا الغدر بالمهلّب والمسلمين فكان هروبهم خيراً ومصلحة للمسلمين، ومكث المهلّب في بَلْخ إلى حوالي شهر ذي القعدة ثم استخلف على إقليم بلخ وهراة الرقاد بن عبيد العتكي. وسار المهلّب من بَلْخ إلى إقليم مرو الروذ ـ في خراسان إيران ـ قاصداً مرو الشاهجان بتركمنستان حيث كان يزيد بن المهلّب، فلما صار المهلّب بمرو الروذ مرض مرض الموت، وكان قد بلغ من الكبر عتياً، فأوصى المهلّبُ أولاده بوصيته التاريخية المشهورة[١] إلى أن قال لهم: «وقد استخلفتُ عليكم يزيداً، وجعلتُ حبيباً على الجُند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيدَ. فقال له المفضل: لو لم تقدّمه لقَدّمْنَاهُ. ومات المهلّب بمرو الروذ في ذي الحجة سنة ٨٢هـ، فصلى عليه حبيب، ثم سار بالجند إلى مرو ـ مرو الشاهجان ـ فكتب يزيد إلى عبد الملك بن مروان بوفاة المهلّب واستخلافه إياه، وقال نهارُ بن تَوْسِعَة التميمي:

ألا ذَهَبَ الـغَـزْوُ الـمُـقَـرِبُ لـلـغِـنَـى وماتَ النَّدَى والحَزْمُ بعد المُهَلَّبِ[٢]

---

(١) ذكرنا وصية المهلب في المبحث الخاص به في هذا الكتاب.

(٢) روى ابن الأثير هذا البيت الأول كما يلي:

«ألا ذهـب الـمـعـروف والـعـزّ والـغـنـى ومـات الـنّـدى والـجـود بـعـد الـمـهـلـب»

أقاما بـمَرْوِ الرُّوذِ رَهنَ ضريحِهِ وقد غُيِّبَا عن كل شَرْقٍ ومغربِ
إذا قيل: أيُّ الناس أولَى بنعمةٍ على الناس؟ قلناهُ ولم نتهيبِ
.. تطيفُ به قحطانُ قد عَصَبَتْ به وأحلافُها من حيّ بكرٍ وتَغْلِبِ
وحيًّا مَعَدٌّ عُوَّذٌ بلوائِهِ يُفدُّونه بالنفس والأمّ والأبِ»[١]

كذلك كان المهلّب في حياته وفي يوم تشييع جثمانه ودفنه بمرو الروذ في ذي الحجة سنة ٨٢هـ فعليه رحمة ورضوان اللّه تعالى، وكذلك كان نجله الأمير الفاتح العظيم يزيد بن المهلّب.

* * *

ولاية يزيد بن المهلّب لخراسان ومعالم عهده (٨٣ ـ ٨٥هـ)

تولى يزيد بن المهلّب مقاليد الأمور بولاية خراسان غداة وفاة أبيه المهلّب باستخلاف المهلّب إياه في ذي الحجة ٨٢هـ، قال ابن الأثير: «فلما توفي المهلّب كتب ابنه يزيد إلى الحجاج يعلمه بوفاته فأقرّ يزيد على خراسان». والأصوب ما ذكره الطبري أنه: «كتب يزيد إلى عبد الملك بن مروان بوفاة المهلّب واستخلافه إياه فأقرّه الحجاج». وذلك لأنه في ذي الحجة ٨٢هـ كانت العراق بعاصمتيها الكوفة والبصرة بيد ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي وكذلك سجستان وكرمان وفارس وهي الطريق إلى العراق، فيكون يزيد بن المهلّب إنما كتب إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بالشام بوفاة المهلّب واستخلافه إياه، فأقرّه عبد الملك أميراً والياً على خراسان، ولا يمنع ذلك من أن يكون يزيد كتب أيضاً إلى الحجاج لأن هند بنت المهلّب كانت امرأة الحجاج وكان عبد الملك بن المهلّب صاحب شرطة الحجاج، وكان الحجاج في دير قُرّة بأعالي الكوفة وقد بعث عائلته وأسرته إلى الشام، ثم دارت موقعة دير الجماجم بين جيش الشام وبين عبد الرحمٰن بن الأشعث من ربيع الأول إلى منتصف جمادى الآخرة ٨٣هـ، فلما انتصر جيش الشام دخل الحجاجُ الكوفة وأقام بها ـ في شعبان ٨٣هـ ـ فعادت ولايته للعراق ومشارقها، وعندئذ أقرّ الحجاج ولاية يزيد بن المهلّب لخراسان. قال ابن خلدون: «تولى يزيد بن المهلّب على خراسان بعد موت أبيه وذلك سنة اثنتين وثمانين. وكتب له الحجاج العهد بذلك»[٢]، فقد بدأت ولاية يزيد من ذي الحجة ٨٢هـ وأقرّ عبد الملك بن مروان ولايته عليها، ثم كتب له الحجاج العهد بولايته بعد انتصار جيش الشام على ابن الأشعث ودخول الحجاج الكوفة في شعبان ٨٣هـ. وكان من أبرز معالم وأنباء يزيد بن المهلّب في ولايته لخراسان:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٩ جـ٨.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٠١.

أولاً: نبأ حاجب الفيل وثابت قطنة في رحاب يزيد

وَفَدَ إلى يزيد في أوائل عهده وهو بمدينة مرو الشاهجان عاصمة ولاية خراسان الشاعر حاجب الفيل، واسمه حاجب بن ذبيان المازني، والفيل لقبُ سماه به الشاعر ثابت قطنة الأزدي صاحب يزيد بن المهلّب. فلمّا وَفَدَ حاجب إلى يزيد ومَثَل بين يديه في دار الإمارة بمرو الشاهجان في تركمنستان، قال:

إليكَ امْتَطَيتُ العِيس تسعين ليلةً … أرجّي ندا كَفَيْك يا ابْن المُهَلّبِ
وأنت امرؤٌ جادت سماء يمينه … على كلّ حيٍّ بين شرق ومغربِ

ثم طلب في عشرة أبيات ـ بعد البيتين ـ أن يجود عليه يزيد بحصان ودرع وسيف ورمح ومال إلى أن قال:

وقُلْ لي إذا ما شئت في حومة الوَغَىٰ … تَقَدَم أو اركب حومة الموت أركَبِ

فأمر له يزيد بحصان ودرع وسيف ورمح، وقال له: قد عَرفتَ ما شرطتَ على نفسك، فقال حاجب: أصلح اللّه الأمير حجَّتي بَيّنة وهو قول اللّه عز وجل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦]، فقال له ثابت قطنة: ما أعجَبَ ما وفَدتَ به من بلدك في تسعين ليلة، مَدحت الأمير ببيتين وسألته حوائجك في عشرة أبيات وختمت شعرك ببيت تشترط فيه على نفسك ـ أن تُجاهد في حومة الموت ـ حتى أعطاك ما أردتَ حدت عما شرطه له على نفسك فأكذبْتَها كأنّك كنت تخدعه. فقال له يزيد: مَهْ يا ثابت، إنّا لا نُخْدَع ولكنّا نتخادع، وأَمر لحاجب بألفيّ درهم وسَوّغه ما أعطاه». واستقر حاجب في رحاب يزيد بخراسان وله أخبار مع ثابت قطنه ذكرها الأصفهاني في الأغاني.

وثابت قطنة هو أبو العلاء ثابت بن كعب الأزدي، وكان أصيب بسهم في إحدى عينيه أو بالقرب من إحدى عينيه في الجهاد ومحاربة الترك ببلاد ما وراء النهر فكان يجعل على عينه قُطنة، فقيل له ثابت قُطنة، واشتهر بذلك، وكان ثابت من الشعراء الفرسان أيام ولاية المهلّب لخراسان، قال الجاحظ: «قال ثابتُ قُطنة في رجل كان المهلّبُ ولّاه على بعض خُراسان:

ما زالَ رأيُكَ يا مُهلّبُ فاضِلاً … حتَّى بَنيْتَ سُرادِقاً لوكيعِ
وجعلْتَهُ رَبّاً على أربَابِهِ … ورفعتَ عبداً كانَ غيرَ رَفيعِ
لَو رَا أبوه سُرادقاً أحدثتَهُ … لبَكَى وفَاضَتْ عَينُهُ بدُموعِ»(١)

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٥١ جـ٤ ـ وكان لوكيع دور أساسي في قتل قتيبة بن مسلم الباهلي بخراسان فيما بعد ـ في سنة ٩٧هـ ـ كما سيأتي.

ووكيع هذا هو وكيع بن أبي سود التميمي، ولم يكن عبداً وإنما هو من تميم، وكان من الفرسان الأبطال في غزوات ما وراء النهر مع يزيد بن المهلّب، فولّاه المهلّب ثم يزيد على بعض الثغور. وكان ثابت قطنه من الشعراء الفرسان، قال عنه أبو الفرج الأصفهاني: «ثابت قُطنة: شاعر، فارس، شجاع، كان في صحابة يزيد بن المهلّب وكان يوليه أعمالاً من أعمال خراسان فيُحمد فيها مكانه لكتابته (أو كفاءته) وشجاعته. وصعد المنبر ذات يوم جمعة، فتعذر عليه الكلام وحُصِر، فقال: سيجعلُ اللّه بعد عسر يُسراً، وبعد عيّ بياناً، وأنتم إلى أمير فَعَّالْ أحوجُ منكم إلى أميرٍ قَوَّالْ:

وإلّا أكُنْ فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جَدّ الوغَىٰ لخطيبُ

فبلغت كلماته خالد بن صفوان فقال: واللّه ما علا ذلك المنبر أخطب منه في كلماته هذه، ولو أن كلاماً استخفَّني فأخرجني من بلادي إلى قائله استحساناً له لأخرجتني هذه الكلمات».

ثانياً: نبأ يزيد وفلول ابن الأشعث

وبينما يزيد بن المهلب في مدينة مرو الشاهجان عاصمة ولاية خراسان شهدت ثورة ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي نهاياتها بانتصار جيش الشام في موقعة دير الجماجم في منتصف جمادى الآخرة ٨٣هـ ثم في موقعة مسكن بالبصرة بين ابن الأشعث وأصحابه من أهل العراق ـ من جهة ـ وبين الحجاج وجيش الشام ومَنْ معه من أهل العراق ـ من جهة أخرى ـ وكان عبد الملك بن المهلّب مع الحجاج في موقعة مسكن؛ لأنه صاحب شرطة الحجاج، وقد دارت موقعة مسكن في شعبان وشوال سنة ٨٣هـ وانتهت بانهزام أصحاب ابن الأشعث، فانسحب ابن الأشعث من البصرة إلى بلاد فارس وكرمان، وانضم إليه عشرات الآلاف من فلول أصحابه المنهزمين، واجتمعوا إليه في زرنج بسجستان، وكان عبد الرحمٰن بن الأشعث قد أدرك أن الأمر انتهى، وأراد اللجوء إلى بلاد رتبيل، وكان الحجاج قد بعث جيشاً من جند الشام بقيادة عمارة اللخمي لتتبع ابن الأشعث في فارس وكرمان، فلما اجتمع الفلول إلى ابن الأشعث في سجستان قالوا له: «اخرج بنا عن سجستان، فَلْندعها ونسير إلى خُراسان، فإنّ بها مِنّا ـ أي أهل العراق ـ جنداً عظيماً، فلعلهم يتابعوننا على قتال أهل الشام، وخراسان بلاد واسعة عريضة وبها الجبال والحصون. فقال لهم عبد الرحمٰن بن الأشعث:

(على خراسان يزيد بن المهلّب وهو شابٌ شجاع صارم، وليس بتارك لكم سلطانه، ولو دخلتموها وجدتموه إليكم سريعاً، ولن يدع أهل الشام إتباعكم، فأكره

أن يجتمع عليكم أهل خراسان وأهل الشام، وأخاف أن لا تنالوا ما تطلبون).

فقالوا: لو قد دخلناها سيكون من يتبعنا من أهل خراسان أكثر ممن يقاتلنا وهي أرض طويلة عريضة نتنحّى فيها حيث شئنا[١]، وكذلك ذكر ابن الأثير وأنه «قال لهم عبد الرحمٰن: إن بخراسان يزيد بن المهلّب وهو رجلٌ شجاع ولا يترك لكم سلطانه»[٢]، وقال ابن خلدون: «إن عبد الرحمٰن بن الأشعث أثناهم عن قصد خراسان مخافة سطوة يزيد بن المهلّب وأن يجتمع أهل الشام وأهل خراسان، فأبوا، وقالوا: بل يكثر بها تابعنا.

وكان عبد الرحمٰن بن الأشعث حريصاً على تجنيب يزيد بن المهلّب ذلك الصراع وعدم القتال معه، فلما ألحوا على المسير إلى خراسان اشترط عليهم أن يكون كل شيء عن أمره، فسار معهم إلى هَرَاة، فلما صاروا بإقليم هراة ـ وهو من أقاليم ولاية خراسان ـ خالفه عبيد اللَّه بن عبد الرحمٰن بن سمرة القُرشي في ألفين، فهرب وإياهم ـ أو: سار معهم إلى مدينة هراة يريد القتال ـ فخطب عبد الرحمٰن بن الأشعث في الذين معه بإقليم هراة وكانوا زهاء أربعين ألفاً، فقال لهم: زعمتم أنكم تجتمعون إليّ وأنكم لا تتفرقون، وهذا عبيد اللَّه قد صنع ما رأيتم، فاصنعوا ما بدا لكم، فأنا منصرفٌ إلى مأمن وملجأ عند رتبيل، فمن شاء فليتبعني، وانصرف عبد الرحمٰن بن الأشعث ومعه طائفة وعاد إلى سجستان، وتفرق من أصحابه طائفة، وبقي زهاء عشرين ألفاً في هراة، فبايعوا عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي فكان يُصلي بهم ويقودهم، وبلغ نبأ ذلك يزيد بن المهلّب وهو بمدينة مرو الشاهجان، وكان عامله على إقليم ومدينة هراة وبَلْخ ـ بأفغانستان ـ الرقاد بن عبيد العتكي الذي وصفه المهلّب بفارس العرب، قال المدائني:

«وكان مع عبد الرحمٰن بن العباس عبد الرحمٰن بن المنذر بن الجارود، فأرسل إليه يزيد بن المهلّب: قد كان لك في البلاد مُتَّسع، ومَنْ هو أكَلّ مني حداً وأهون شوكة، فارْتَحِلْ إلى بلد ليس لي فيه سلطان، فإنّي أكره قتالك، وإن أحببت أن أمدّك بمالٍ لسفرك أعنتُك به. فأجاب عليه: ما نزلنا هذه البلاد لمحاربة ولا لمقام ولكنّا أردنا أن نريح ثم نشخص إن شاء اللَّه وليس بنا حاجة إلى ما عرضت. فانصرف رسول يزيد إليه ـ بذلك الجواب ـ».

فسكت عنهم يزيد لكراهيته قتالهم ولأنهم وعدوه بالانصراف بعد أن يستريحوا، فظن عبد الرحمٰن بن العباس والذين معه أن يزيد بن المهلّب ضعيف أو خائف من مواجهتهم، فوثب جماعة منهم على الرُقاد بن عبيد العتكي أمير هراة

---

(١) تاريخ الطبري ـ ص٢٩ جـ٨.

(٢) الكامل ـ ابن الأثير ـ ص٨٨ جـ٤.

فقتلوه ظلماً وعدواناً، وتغلبوا على إقليم هراة، وَجَبَىٰ عبد الرحمٰن بن العباس الخراج من أهل هراة بالقوة، فلما علم يزيد بن المهلّب بذلك وَجّه أخاهُ المُفَضّل في ستة آلاف من الفرسان إلى هراة، ثم استخلف يزيد على مرو الشاهجان ـ عاصمة خراسان ـ خاله جُديع بن سعيد، وسار يزيد ـ بعد المُفَضّل ـ في أربعة آلاف من الفرسان وهو على صهوة حصانه (الكامل)، وجعل طريقه عبر (مرو الروذ) فأتى قبر أبيه، فأقام عنده ثلاثة أيام، وتصدّق على الناس، وأعطى من معه مائة درهم لكل واحد، ثم مضى من مرو الروذ ـ في أعالي شمال إيران ـ إلى هراة ـ في أفغانستان ـ وكان المفضل قد سبقه إليها، فنزل يزيد بالمعسكر الذي تمركز فيه المفضل بضواحي هراة، وأعاد يزيد مراسلة عبد الرحمٰن بن العباس وقال له: (إنك قد أرحت، وسَمّنت، وجَبَيْتَ الخَراجَ فَلَكَ ما جَبَيْت، وإن شئت زدتك، فارحلّ عني فإنّي أكره قتالكم. فأبَىٰ ابن العباس إلا القتال. بل وكتب إلى جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه. فعلم يزيد فقال: جَلّ الأمر عن العتاب.

وتَقَابَلَ الجيشان، فأقبل رجلٌ من فلول ابن الأشعث يقال له خليدُ عَيْنينْ على ظهر فرسه، فلما صار أمام مقدمة جيش يزيد ـ وكان يزيد جالساً على كرسي في المقدمة ـ رفع خُليد صوته قائلاً:

دَعتْ يا يَزِيدَ ابن المُهَلَّبِ دَعْوَةٌ لها جَزَعٌ ثم استهلَّت عيُونُها
ولو يسمع الداعي النداء أجابَها بِصُمّ القَنَا، والبيضُ تُلقَى جُفونُها
وقَدْ فَرَّ أشرافُ العِراق وغادَرُوا بها بَقَراً للحيْنِ حُمَّا قُرُونُها

قال الطبري: «أراد خليد أن يحض يزيداً ـ لكي يكون معهم ـ فسكت يزيد طويلاً حتى ظنّ الناس أن الشعر قد حركه. ثم قال لرجل: ناد وأسْمِعهم: جَشَّمُوهم».

ثم تقدم أصحاب عبد الرحمٰن بن العباس يطلبون القتال والمبارزة، فخرج إليهم إخوة وفرسان يزيد، وقد أمرهم يزيد أن يتجنبوا القتل، وأن يأسروا مَنْ يبارزهم، فأسروا جماعة منهم. ثم قال يزيد للمفضل: قَدِم خيلك، فتقدم بها، فالتحم وتهايج الفريقان، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أصحاب عبد الرحمٰن بن العباس وتفرقوا هاربين. قال الطبري: «فأمر يزيد بالكفّ عن إتباعهم، ثم لحق عبد الرحمٰن بن العباس بالسند».

وبذلك تم ليزيد بن المهلّب تخليص هراة من أولئك المتغلبين، وأعاد الأمن والاستقرار وسلطة الدولة في ربوعها، وأخذ معه الأسرى وعاد إلى مرو، وكانت وقعة هراة في شوال، وقد ذكرها الطبري وابن الأثير في أحداث سنة ٨٣هـ تبعاً لأنباء

وقعة دير الجماجم ووقعة مسكن بالبصرة ـ في شعبان وشوال ٨٣هـ ـ ولكن ترتيب ما حدث بعد مسكن يدل على أن وقعة هراة في سنة ٨٤هـ.

* * *

وعاد يزيد بن المهلّب من هراة إلى مدينة مرو، فأودع الأسرى في سجن مرو، قال ابن الأثير: «وكان من الأسرى محمد بن سعد بن أبي وقاص، وعمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر، وعباس بن الأسود بن عوف الزهري، والهلقام بن نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وفيروز بن الحصين، وأبو الفلج مولى عبيد الله بن معمر، وسوار بن مروان، وعبد الرحمٰن بن طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وعبد الله بن فضالة الزهراني الأزدي».

فذكر الطبري عن هشام بن الكلبي عن محمد بن القاسم الحضرمي عن حفص بن عمر بن قبيصة عن جابر بن عمارة أنه: «قال محمد بن سعد بن أبي وقاص ليزيد بن المهلّب: أسألك بدعوة أبي لأبيك. فَخَلّى يزيد سبيله. ولقول محمد بن سعد ليزيد بن المهلب: أسألك بدعوة أبي لأبيك، حديثُ فيه بعض الطول»[١]، وكانت دعوة سعد بن أبي وقاص للمهلّب في فتوح العراق وولاية سعد للكوفة سنة ١٥ ـ ١٨هـ في خلافة عمر بن الخطاب، قال الجاحظ: «بلغ سعداً شيءٌ فَعَلَهُ المهلَّب بالعدو، والمهلّب يومئذٍ فتى، فقال سعد: (اللّهُمّ لا تُرِه ذُلّاً). فَيَرَوْنَ أنَّ الذي ناله المهلّب بتلك الدعوة»[١]. فلما قال محمد بن سعد ليزيد: أسألك بدعوة أبي لأبيك. خلّى يزيدُ سبيله، فلحق محمد بن سعد ببلاد الريّ.

وبعث الحجاج إلى يزيد يأمره بإرسال الأسرى إليه. قال الطبري وابن الأثير وأبو عبيدة: «لما أراد يزيد أن يوجّه الأسرى إلى الحجاج قال له أخوه حبيب: بأي وجه تنظر إلى اليمانية وقد بعثت ابن طلحة؟ فقال يزيد: هو الحجاج ولا يُتعرَّض له، فقال حبيب: وَطِّن نفسك على العزل ولا ترسل به فإن له عندنا بلاءً، قال: وما بلاؤه؟ قال: لَزِم المهلّب في مسجد الجماعة بمائتي ألف فأدّاها طلحة عنه. فأطلقه يزيد». (ص٣٤/٨) وقد قال حبيب ليزيد: بأي وجه تنظر إلى اليمانية وقد بعثت ابن طلحة، لأن طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي كان من كبار الرؤساء اليمانيين في الفتوحات وساهم بدور بارز هو والمهلّب في فتوح خراسان في خلافة عثمان بن عفان وخلافة معاوية بن أبي سفيان، وكان طلحة والمهلّب من القادة الفاتحين بخراسان في خلافة يزيد بن معاوية وولاية سلم بن زياد لخراسان سنة ٦٢هـ وكان أبو عبيدة بن زياد قائداً بسجستان مع يزيد بن زياد عامل سجستان، قال ابن الأثير:

(١) تاريخ الطبري ـ ص٣١ جـ٨ ـ والبيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٢٧٨ جـ٣.

«فغدر أهل كابل فنكثوا وأسروا أبا عبيدة بن زياد فسار إليهم يزيد بن زياد في جيش فانهزموا وقُتِل منهم كثير، فلما بلغ الخبر سلم بن زياد سيّر طلحة بن عبد اللّٰه بن خلف الخزاعي وهو طلحة الطلحات، ففدى أبا عبيدة بخمسمائة ألف درهم، وسار طلحة من كابل إلى سجستان والياً عليها، فجبى المال وأعطى زواره». ومات طلحة الخزاعي رضي اللّٰه عنه بسجستان وهو أمير عليها سنة ٦٤هـ ثم كان ابنه عبد الرحمٰن بن طلحة من الرؤساء القادة اليمانيين ومن قادة ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث، فلما وقع أسيراً هو ومحمد بن سعد بن أبي وقاص وغيرهما من أصحاب ابن الأشعث في وقعة هراة ـ سنة ٨٤هـ ـ وقال حبيب ليزيد بن المهلّب ما قال أطلق يزيد سراح عبد الرحمٰن بن طلحة. قال الطبري «فقال الفرزدق في ذلك:

وَجَدَ ابنُ طلحةَ يومَ لاقَىٰ قَوْمَه ... قَحْطانَ، يوم هَرَاة، خير المعشر»

قال الطبري: «وخَلَّى يزيد ـ أيضاً ـ عبد اللّٰه بن فضالة الزهراني الأزدي، وأرسل بالباقين إلى الحجاج»، وكان من الأسرى الذين أرسلهم يزيد بن المهلب عبد اللّٰه بن عامر البعار التميمي وهو من قتلة الرُقاد بن عبيد العتكي عامل هراة، فلما مَثَلَ بين يدي الحجاج، «قال عبد اللّٰه بن عامر: لا رأت عيناك يا حجاج الجنةَ إنْ أقْلَتَ ابن المهلّب بما صَنَع. قال: وما صَنَعْ؟ قال:

لأنه كاسَ في إطلاقِ أُسرَتِهِ ... وقَادَ نحوك في أغلالها مُضَرَا

وَقَىٰ بقومِكَ وِرْد الموتِ أسرَتهُ ... وكان قومُك أدنى عنده خطرا

ـ قال الطبري ـ: فأطرق الحجاجُ ملياً، ووَقُرَتْ في قلبه، وقال: وما أنت وذاك، اضرب عنقه، فضُربت عنقه. ولم تزل في نفس الحجاج حتى عزل يزيد عن خراسان..». ولم يكن ما وقر في قلب الحجاج ذلك فحسب، وإنما أيضاً قيام يزيد بإطلاق سراح محمد بن سعد بن أبي وقاص وجماعة معه حتى لحقوا ببلاد الريّ، وقيامه بالكف عن عبد الرحمٰن بن العباس وأصحابه حتى هرب عبد الرحمٰن إلى السند، وغير ذلك من الأمور، وقد وقع محمد بن سعد بن أبي وقاص، وعمر بن موسى، وابن عبيد اللّٰه بن عبد الرحمٰن بن معمر، أسرى ـ مع عمر بن أبي الصلت بن كناز ـ بيد عامل الحجاج على بلاد الريّ، فأرسلهم إلى الحجاج، فتزامن وصولهم إليه مع وصول الأسرى الذين بعثهم يزيد بن المهلّب، فدمجت الروايات نبأ قيام الحجاج بقتل محمد بن سعد وأصحابه بنبأ الأسرى الذين بعثهم الحجاج، بينما الصواب أن الذين بعثهم يزيد كانوا عبد اللّٰه بن عامر التميمي ونحو خمسة من الأسرى فقط، أما محمد بن سعد والذين معه فكان أسرهم في بلاد الريّ التي كان عاملها قتيبة بن مسلم الباهلي فقام الحجاج بقتلهم وإعدامهم بمدينة واسط

ـ سنة ٨٤هـ ـ وكان من الأسرى الذين بعثهم يزيد عبد اللّه بن عامر (قاتل الرُقاد) فقتله الحجاج، وكان الرُقاد من الأبطال المجاهدين في فتوح بلاد فارس والسند وخراسان مع المهلّب وقال المهلّب عنه (هذا فارس العرب) ثم كان أمير هراة ليزيد بن المهلّب حتى مقتله ظلماً وعدواناً، ويبدو أن قتل قاتله لا يتنافى مع العدل.

وقد وَجَدَ الآلاف من فلول ابن الأشعث الذين كانوا لحقوا بخراسان العفو والحماية من يزيد بن المهلّب وأصبحوا مجاهدين في جيشه وفتوحاته، وكان ممن لحق بيزيد في خراسان عشيرة عراقية يقال لهم (بنو الأهتم)، فكتب إليه الحجاج يأمره بقتلهم، وقد ذكر خبرهم الأصفهاني قال: «نَسَخْتُ من كتاب النَضْر بن الحديد: أن الحجاج كتب إلى يزيد بن المهلّب يأمره بقتل بني الأهتم، فكتب إليه يزيد: إن بني الأهتم أصحاب مقال وليسوا بأصحاب فعال، فلا نقدر أن نُحدث فيهم ضرراً، وفي قتلهم عارٌ وسبّة، فتغافل الحجاج عنهم..» وسيأتي بقية خبرهم في ترتيبه الزمني.

* * *

ثالثاً: فتوحات يزيد بن المهلّب في خراسان وما وراء النهر

كان مصطلح خُراسان وولاية خراسان في ذلك الزمن يمتد ليشمل آسيا الوسطى جميعها، وكان من معالم الواقع السائد في عهد ولاية المهلّب لخراسان (٧٩ ـ ٨٢هـ) وعهد ولاية يزيد بن المهلّب (٨٣ ـ ٨٥هـ) أن تلك البلاد كانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: بلاد السلطة العربية الإسلامية الشاملة وهي بلاد ما دون نهر جيحون وتشمل:

أ ـ إقليم خُراسان (الواقع في إيران حالياً) وكان يمتد من الطبسين (طباس) على تخوم كرمان جنوباً إلى (نيسابور) و (مشهد) شمالاً، وفي أعالي شرق ذلك الإقليم تقع مدينة مرو الروذ التي توفي بها المهلّب.

ب ـ إقليم مرو الطالقان (في جمهورية تركمنستان حالياً) ـ وفيه تقع مدينة مرو ـ مرو الشاهجان ـ عاصمة ولاية خراسان، ويمتد ذلك الإقليم شرقاً إلى نهر جيحون (وهو نهر أمودرية حالياً) وفيما بين النهر وبين مرو تقع منطقة ومفازة نَسَفْ التي أجاز منها يزيد بن المهلّب إلى مرو الشاهجان عند وفاة المغيرة ومسير يزيد إليها في رجب ٨٢هـ.

ج ـ إقليم هراة وبَلْخ (شمال جمهورية أفغانستان حالياً) ويمتد إلى نهر جيحون شمالاً.

القسم الثاني: بلاد ما وراء نهر جيحون، وهي بلاد شاسعة غزا المسلمون أكثر أقاليمها وصالحوا أهلها وملوكها على أداء الجزية، ويتضمن ما وراء النهر خمسة أقاليم:

أ ـ إقليم الصُغد (السُغد) وحاضرتيه بُخارى وسمرقند (في جمهورية أوزبكستان

حالياً) وكان المهلّب من قادة الغزو والفتح الأول لبخارى وسمرقند والذي تم فيه مصالحة حكام وأهل البلاد على أداء الجزية في ولاية سعيد بن عثمان بن عفان سنة ٥٦ و ٥٧هـ، ثم في ولاية المهلب لخراسان غزا حبيب بن المهلّب بُخارى وهزم جيش صاحب بُخارى ـ سنة ٨٠ ـ ٨١هـ ـ فأذعنوا للمصالحة وأداء الجزية، وبعث المهلّب يزيداً إلى أرجاء السُغد، قال البلاذري: «غزا المهلّب غزوات كثيرة. . وأدّت إليه السُغد الأتاوة». وهي الجزية وأموال المصالحة.

ب ـ إقليم الصغانيان ومعه الخُتَّل، ويقع في الجنوب الشرقي من إقليم الصغد. قال البلاذري: «فتح المهلّب بلاد الخُتّل وكانت قد انتقضت». وقد فتح المهلب بلاد الختل على يد يزيد بن المهلّب، وحاصر يزيد ملكهم السَبَل في قلعته حتى أذعن لأداء الجزية.

جـ ـ إقليم فرغانة: شمال شرق بلاد ما وراء النهر، وتقع فيه مدينة فرغانة ومدينة خُجْنَدة (خوقند حالياً) وقد ذكر البلاذري أن المهلّب «فَتَحَ بلاد الخُتَّل وكانت قد انتقضت، وفَتَحَ خُجندة». وكان ذلك على يد يزيد وتم مصالحتهم على أداء الجزية.

د ـ إقليم خوارزم: ويقع إلى الغرب من إقليم الصُغد على حافتي نهر جيحون.

هـ ـ إقليم الشاش: ويمتد في المنطقة الشمالية الغربية من بلاد ما وراء النهر، وكان أكبر الأقاليم وأبعدها.

القسم الثالث: بلاد الحرب التي لم يسبق غزوها ومصالحة أهلها على أداء الجزية وهي بلاد كثيرة، أهمها:

أ ـ بلاد باذغيس (بادخشان وبادكشان) في شرق إقليم هراة وبلخ (بشمال أفغانستان إلى تاجيكستان وتخوم الصين حالياً).

ب ـ أقاليم خوارزم، والشاش، والصغانيان، من بلدان ما وراء نهر جيحون (بأوزبكستان وما يليها حالياً).

جـ ـ أقاليم جرجان وبياسان ودهستان (في غرب تركمانستان إلى بحر قزوين غرباً).

قال البلاذري في فتوح البلدان: «واستخلف المهلّب ابنه يزيد بن المهلّب فغزا مغازي كثيرة، وفَتَحَ البتم. .»(١).

* * *

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٠٧.

فتح يزيد لبلاد باذَغِيس وقلعة نيزك

لما توفي المهلّب وتولى خراسان يزيد بن المهلّب، سار يزيد بجند العروبة والإسلام إلى بلاد باذغيس ـ وهي باداخشان وبادكشان حالياً في شرق شمال أفغانستان إلى تاجيكستان ـ فغزا يزيد وافتتح مناطق بلاد باذغيس الممتدة شمال إقليم هراة وبلخ إلى أن بلغ جبل قلعة نيزك العظيمة الشامخة فوق أعلى جبال باذغيس، ويبدو من وصف كعب بن معدان الأشقري ـ الآتي ذكره ـ لقلعة نيزك بأعلى جبال باذغيس أنها في بادكشان حيث توجد (هضبة يامير) ويبلغ ارتفاعها (٦٩٧٥م) وفيها (قلعة بنجة) وتُطلّ هضبة يامير البادكشانية التاجيكية على الصين، كما توجد شمال بادكشان قمة عالية يبلغ ارتفاعها (٧١٣١م) ـ فوق البحر ـ وكانت تسمى أيام الاتحاد السوفياتي (قمة لينين) وتطلّ على إقليم كشغر بالصين. فلما غزا وفتح يزيد بن المهلّب مناطق بلاد باذغيس ـ سنة ٨٣هـ ـ حاصر جبل قلعة نيزك الشامخة وهي مقر الملك (نيزك طورخان) فنشر يزيد العيون والطلائع في مداخل ومخارج الجبل أو القلعة، ولما خرج الملك نيزك من القلعة وتوجه إلى مخرج شرق الجبل ـ في أوائل سنة ٨٤هـ ـ انطلق يزيد إلى القلعة فحاصرها بينما حاصرت قوة من جيشه الملك نيزك عند مخرج الجبل، فعاد الملك إلى القلعة فوجد يزيد وقواته يحاصرونها، فلم يجد الذين بالقلعة وكذلك الملك نيزك طورخان مفراً من الاستسلام والنزول تحت حكم يزيد بن المهلّب يحكم عليهم بما شاء، فافتتح يزيد قلعة نيزك، قال ابن الأثير: «وفي هذه السنة ـ وهي سنة ٨٤هـ ـ فتح يزيد بن المهلّب قلعة نيزك بباذغيس. . وكانت من أحصن القلاع وأمنعها، وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيماً لها. . وكان يزيد قد وضع على قلعة نيزك العيون، فلما بلغه خروج الملك نيزك عنها سار إليها فحاصَرَها، فَمَلَكَها بما فيها من الأموال والذخائر»[١]. وقال الطبري: «وفي هذه السنة ـ سنة ٨٤هـ ـ فَتَح يزيد بن المهلّب قلعة نيزك بباذَغِيس. وكان الملك نيزك ينزل بقلعة باذغيس، فتحيّن يزيدُ غزوه، ووضع عليه العيون فبلغه خروجه، فخالفه يزيدُ إليها، وبلغ نيزك فرجع، فصالحه على أن يدفع إليه ما في القلعة من الخزائن، ويرتحل عنها بعياله، فقال كعب بن معدان الأشقريّ في فتح يزيد بن المهلّب باذغيس وقلعة نيزك:

وبـاذَغِـيس الـتـي مَـنْ حَـلّ ذُرْوَتَـهـا	عَـزَّ الـمـلـوكَ فإنْ شَـا جَـارَ أو ظَـلَـمَـا
مَـنـيـعـة لَـمْ يَـكِـدْهـا قـبـلـه مَـلِـكٌ	إلا إذا واجَـهَـتْ جـيـشـاً لـه وَجَـمَـا
تـخـالُ نـيـرانـهـا مـن بُـعـدِ مـنظـرهـا	بـعـضَ الـنـجـومِ إذا مـا لـيـلُـهـا عَـتَـمَـا
لـمّـا أطـاف بـهـا ضـاقـت صُـدورُهُـمُ	حـتـى أقـرّوا لـه بـالـحـكـم فـاحـتَـكَـمَـا

(١) الكامل ـ ابن الأثير ـ ص٩٤ جـ٤.

فـذلّ سـاكـنُـهـا مـن بَـعـدِ عـزّتـهِ يُعطِي الجِزَى عارفاً بالذُلّ مُهتَضَمَا
ويـعـد ذلـك أيـامـاً نُـعـدّدُهـا وقبلها مَا كَشفَتِ الكرب والظُلما
أعـطـاك ذاك ولِـيُّ الـرزق يـقـسِـمُـهُ بين الخلائق والمحرُومُ مَنْ حُرِمَا
يداك إحداهـمـا تُسقي العدو بـهـا سُمّاً، وأخرى نداها لـم يـزل ديَمَا
فـهـل كَـسَـيْـبِ يـزيـدٍ أو كـنـائِـلِـه إلّا الـفـراتُ وإلا الـنِيـلُ حيـن طَـمَـا
لـيـسـا بـأجـود مـنـه حـيـن مَـدِّهِـمـا إذْ يـعـلـوانِ حـدابَ الأرض والأكَـمَـا

وتنطق قصيدة كعب بأن الملك نيزك وقومه لما حاصرهم يزيد بن المهلّب واشتد عليهم الحصار أذعنوا لحكمه:

لـمـا أطـاف بـهـا ضـاقـت صُـدُورهُـمُ حتى أقرّوا له بالحكم فاحتَكَمَا

فدخل يزيد القلعة، قال ابن الأثير: «فَمَلكها بما فيها من الأموال والخزائن» وهي أموال وخزائن ملك باذغيس، وحكم يزيد على ملكهم بالرحيل من القلعة مع أسرته وذلك لأن القلعة كانت موقعاً استراتيجياً فرحل الملك إلى مدينة أخرى فسكنها مع التزامه بالطاعة وأداء الجزية هو وسائر أهل بلاد باذغيس، وفي ذلك قال كعب:

(يُعطِي الجِزَي عارفاً بالذُلّ مُهتَضَمَا)

وجعل يزيد في القلعة حامية عربية إسلامية ورفرفت عليها راية الإسلام، وفي نفي يزيد الملك نيزك من قلعة نيزك، قال كعب بن معدان في قصيدة ثانية ذكرها الطبري بعد القصيدة الأولى، قال كعب:

نَفَىٰ نـيـزكـاً عـن بـاذَغِـيسَ ونـيـزكُ بِـمنزِلـةٍ أعيّا الـمـلـوكَ اغتِصَابُـهـا
مُـحـلّـقـة دون الـسـمـاءِ كـأنّـهـا غَمامةُ صيفٍ زلّ عنها سحابُـهـا
ولا يبلُغُ الأروى شماريخَها العُلَىٰ ولا الـطـيـرُ إلا نـسـرُهـا وعُـقـابُـهـا
ومـا خُـوِّفَـتْ بـالـذئب ولـدانُ أهـلـهـا ولا نَـبَـحَـتْ إلا الـنـجـومَ كـلابُـهـا»

ويدل ذلك الوصف على أن قلعة جبل باذغيس هي إما قلعة هضبة يامير في بادكشان التي يبلغ ارتفاعها (٦٩٧٥م فوق سطح البحر) أو في قمة جبل شمال بادكشان التي يبلغ ارتفاعها (٧١٣١م فوق سطح البحر) وتطل على إقليم كاشغر في الصين.

غزوة يزيد إلى كاشغر بالصين ورسالته إلى الحجاج

وقد ذكر الطبري وابن الأثير بعد نبأ فتح يزيد بن المهلب لقلعة نيزك رسالة كتبها يزيد إلى الحجاج، ولكنها لا تنطبق على فتح قلعة باذغيس وإنما على مسيره من جبال بادكشان إلى ما يتاخمها من إقليم كاشغر بالصين، وقد ذكر ابن كثير ذلك

في أنباء ولاية يزيد الثانية لخراسان قائلاً: «غزا يزيد بن المهلّب قهستان من أرض الصين فحاصرها ولم يزل حتى تَسَلّمَها. وأخذ منها من الأموال والأمتعة ما لا يُحدّ ولا يُوصفُ كثرة وقيمة وحسناً»[١]. ولا يمنع غزوه إياها في ولايته الثانية ـ سنة ٩٧هـ ـ من أنه غزاها بعد فتح باذغيس وجبل قلعة نيزك المطل على الصين في ولايته الأولى سنة ٨٤هـ، فلما عاد من تلك الفتوح والغزوات إلى مدينة مرو، وكما ذكر الطبري في أنباء سنة ٨٤ هجرية:

«كتب يزيد بن المهلّب إلى الحجاج بالفتح، وكانت كتب يزيد إلى الحجاج يكتبها يحيى بن يعمر العدوانيّ، فكتب: إنّا لقينا العدوّ فمنَحنَا اللّه أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغِيطان وأثناء الأنهار. فقال الحجاج: من يكتب ليزيد؟ فقيل يحيى بن يعمر. فكتب إلى يزيد ـ أن يرسله إليه ـ فحمله على البريد..»[٢].

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين رسالة يزيد بن المهلّب إلى الحجاج قائلاً: «قال ـ يزيد بن عياض ـ: رأيتُ النّاس يتداولون رسالة يحيى بن يعمر على لسان يزيد بن المهلّب: «إنّا لقِينا العدُوّ فقتلنا طائفةً وأسَرْنا طائفة، ولحقَتْ طائفة بعَراعِر الأودية وأهضام الغِيطان، وبتنا بعُرعُرة الجبل، وباتَ العدُوُّ بحضيضه». فقال الحجاج: ما يزيدُ بأبي عُذْرِ هذا الكلام، فقيل له: إنّ معه يحيى بن يعمر، فأمر أن يحمل إليه..»[٣].

ويحيى بن يعمر كاتب يزيد بن المهلّب هو (يحيى بن يعمر العدواني: تابعيّ، أديب نحويّ فقيه، كان من فصحاء أهل زمانه وأكثرهم علماً باللغة، سمع ابن عمر وجابراً وأبا هريرة، وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي).

وقول الحجاج: (ما يزيدُ بأبي عُذْرِ هذا الكلام) جاء في الهامش: (يقال: هو أبو عذر هذا الكلام، وعذرته أيضاً، أي أول من قاله، كأنه افتضه أولاً. ويروى (ما يزيد بأبي عذرة هذا الكلام). قال الجاحظ: «وعراعر الأودية: أسافلها، وعراعر الجبال: أعاليها، وأهضام الغيطان: مداخلها. والغيطان: جمع غائط، وهو الحائط ذو الشجر»[٢]، وقد استغرب الجاحظ أن يكون ذلك الكلام يدل على فصاحة وبلاغة.. ويمكن القول إن اهتمام الحجاج بكلمات الرسالة قد يعود أيضاً إلى أنها ذكرته برسالة عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي في أول ثورته، وكان مكتوب في آخرها البيت التالي:

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٧٥ جـ٩.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٣٩ جـ٨.
(٣) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٣٧٧ جـ١.

خلع الملوك وسار تحت لوائه ... شجرُ العرى وعَراعِر الأقوام

وربما ظن الحجاج أن أيوب بن القرِّية كاتب عبد الرحمٰن بن الأشعث عند يزيد بن المهلّب، وكان الحجاج لما يقبض عليه، فلما سأل: من يكتب ليزيد؟ فقيل له يحيى بن يعمر، كتب إلى يزيد أن يرسله إليه، فأرسله إليه، قال الطبري: «فَقَدِم عليه (فإذا هو من) أفصح الناس، فقال له: أين وُلدت؟ قال: بالأهواز، قال: فهذه الفصاحة؟ قال: حفظت كلام أبي وكان فصيحاً. قال الحجاج: فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد؟ قال: نعم كثيراً، قال: ففلان؟ قال: نعم، قال: فأخبرني عني هَلْ ألحن؟ قال: نعم تلحن لحناً خفيّاً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل أنّ في موضع إنَّ، وأنّ في موضع إنّ. فقال الحجاج: قد أجَّلتُك ثلاثاً، فإن أجدْك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتُك. فرجع إلى خراسان»[1].

ولم يزل الحجاج يبحث عن أيوب بن القرِّية كاتب عبد الرحمٰن بن الأشعث، وكان أيوب هرب بعد دير الجماجم إلى بعض مناطق الكوفة، ثم أتى إلى حوشب بن يزيد عامل الحجاج بالكوفة، فعلم الحجاج أنه يتردد على حوشب بن يزيد، فكتب إليه: أما بعد فإنك صرت كهفاً لمنافقي أهل العراق ومأوى فإذا نظرت في كتابي هذا فابعثْ إليّ بابن القرّية مشدودة يده إلى عنقه، فبعث به حوشب إلى الحجاج موثقاً. فلما دخل على الحجاج قال له: يا ابن القرِّية ما أعددت لهذا الموقف؟ قال: أصلح اللّٰه الأمير، ثلاثة حروف كأنهنَّ ركبٌ وُقوف، دنيا وآخرة ومعروف. قال: اخرج مما قلتَ، قال: أما الدنيا فمال حاضر يأكل منه البرّ والفاجر، وأما الآخرة فميزان عادل ومشهد ليس فيه باطل، وأما المعروف فإن كان عليّ اعترفت وإن كان لي اغترفت، قال: أما لي فاعترف بالسيف إذا وقع بك، قال: أصلح اللّٰه الأمير، أقلني عثرتي فإنه ليس جواد إلا له كبوة ولا شجاع إلا له هفوة. قال الحجاج: لا واللّٰه.. قدْمه يا حرسي فاضربْ عنقه، فضُربت عنقه ثم أمر به، فأخرج، فرمى به». وكان أيوب بن القرِّية أفصح وأبلغ أهل ذلك الزمان وله أخبار وأقوال مأثورة في كتب التاريخ والتراث والأدب. وقد ذكرنا خبر أيوب بن القرِّية رحمه اللّٰه بمناسبة خبر يحيى بن يعمر الذي رجع من مقابلة الحجاج سالماً مسروراً إلى رحاب يزيد بن المهلّب في خُراسان.

***

غزوات يزيد لأقاليم ما وراء النهر.. وفتح البتم

لقد سلف ذكر قول البلاذري في فتوح البلدان «غزا المهلّب غزوات كثيرة، وفتح بلاد الخُتّل وكانت قد انتقضت، وفتح خُجَنْدة وأدت إليه السُغدُ الأتاوة،

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٣٩ جـ٨.

واستخلف المهلّب ابنه يزيد بن المهلّب فغزا مغازي كثيرة، وفتح البتم على يد مخلد بن يزيد» وقد أجمل البلاذري ذكر ذلك، لأن غزوات عهد المهلّب وعهد يزيد كانت متشابهة وقد شملت:

أ ـ إقليم السُغد، بحاضرتيه بُخارى وسمرقند ومناطقه الشاسعة، وكان المهلّب قد وَجّه حبيب بن المهلب إلى صاحب بُخارى فهزم جيشه وأذعن صاحب وأهل بخارى لأداء الجزية وكذلك أذعنت مناطق السغد التي غزاها يزيد بن المهلّب آنذاك، فلما تولى خراسان يزيد بن المهلب قام بقيادة وتوجيه غزوات إلى إقليم السُغد ـ سنة ٨٣ و ٨٤هـ ـ فأذعنوا والتزموا بأداء الجزية، وكان غيرالمسبوق في ذلك هو ما ذكره الطبري عن وجود «عمال ليزيد بن المهلب ببلاد ما وراء النهر» وكان ذلك في بُخارى ـ عند ملكها صاحبُ بخارى ـ وفي سمرقند ـ عند ملكها طَرْخُون ملك سمرقند والصُغد ـ وكانت المدينة العاصمة الرئيسية الثالثة في ذلك الإقليم هي ترمذ، وكان موسى بن عبد اللّه بن خازم التميمي متغلباً على ترمذ منذ سنوات هو والخارجون معه على دولة الخلافة، فلم يتعرض له يزيد بن المهلب، رجاء أن يعودوا إلى الطاعة، وغزاهم المُفَضّل بن المهلّب سنة ٨٥هـ كما سيأتي.

ب ـ بلاد الخُتَّل ـ بإقليم الصغانيان ـ وقد ذكر البلاذري أن المهلّب (فتح بلاد الختل وكانت قد انتقضت)، وكان فتحها على يد يزيد بن المهلّب وحاصر ملكها السَّبَل في قلعته إلى أن أذعن لأداء الجزية ومبلغ المصالحة، فلما تولى يزيد خراسان بعث قوة إلى بلاد الخُتَّل ـ سنة ٨٣ ـ ٨٤هـ ـ فالتزم ملكهم بالمصالحة والجزية، واستقر هناك عامل ليزيد بن المهلّب كما في سمرقند وبُخارى.

جـ ـ بلاد خُجَنْدة ـ بإقليم فرغانة ـ والتي ذكر البلاذري أن المهلّب (فتح خُجَنْدة) وكان ذلك على يد يزيد، فصالح أهلها وحاكمها على الجزية، وكذلك في ولاية يزيد (سنة ٨٣ و ٨٤هـ) مع استقرار عامل ليزيد فيها كما في سمرقند وبخارى والخُتَّل.

د ـ بلاد البتم، وقد وجه يزيد إليها جيشاً بقيادة ابنه مخلد بن يزيد، حيث كما ذكر البلاذري «فتح يزيد البتم على يد مخلد بن يزيد». وبذلك شملت فتوح يزيد ـ سنة ٨٤هـ ـ أقاليم ما وراء النهر باستثناء إقليمي خوارزم والشاش، ولم يظهر في أي إقليم تقع بلاد البتم التي فتحها مخلد بن يزيد بن المهلّب وهو يومئذ ابن خمس عشرة سنة. وإذا كانت الروايات لم تذكر أنباء تلك الغزوات والفتوح فقد ذكرها ديوان العرب.. الشعر.. بأبيات وأشعار خالدة.

ففي أعقاب تلك الغزوات والفتوحات، وبعد فتح مخلد لبلاد البتم، وَفَدَ إلى

يزيد ومخلد الشاعر حمزة بن بيض الحنفي والشاعر الكميت بن زيد الأسدي، فتوجه الكميت إلى مخلد بن يزيد ومدحه بقصيدته اللامية:

هَـلّا سَـألـتَ مَـعَـالـم الأطـلال ... والـرَّسـمَ بـعـد تـقَـادُم الأحْـوَالِ
دِمَناً تَـهِـيجُ رُسُـومُـها بعـد البِلَىٰ ... طَـرَبـاً وكـيـف سؤالُ أعـجـم بـالِ
يـمشين مَشْيّ قطا البِطاح تأوداً ... قُـبَّ الـبُـطُـونِ رَوَاجِـح الأكـفـالِ
مِنْ كـلّ آنـسـة الـحـديـثِ حَـيِيَّـة ... لـيـسـتْ بـفـاحـشـةٍ ولا مـتـفـالِ[١]
وتـكـون ريـقـتـهـا إذا نـبـهـتـهـا ... كـالـشُّـهـد أو كـسُـلافـة الـجـريـال

وقال فيها يمدح مخلد ويشير إلى فتحه لبلاد البتم:

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ... ولـداتُـه عـن ذاك فـي أشْـغَـالِ
قَعَدَتْ بـهـم هـمـاتـهـم، وسَـمتْ بـه ... هِـمَـمُ الـمـلـوكِ وسـورةُ الأبـطـالِ
فـكـأنّـمـا عـاش الـمـهـلـب بـيـنـهـم ... بـأغـر قـاس مـثـالـه بـمـثـالِ
فـي كـفـه قـصـبـاتُ كـل مـقـلـد ... يـوم الـرهـان وقـوت كـل نـصـالِ
ومـتـى أزِنْـكَ بـمـعـشـرٍ وأزِنْـهُـمُـوا ... بـك ألْـفِ، وزنـك أرجـح الأثـقـالِ

قال الأصفهاني: «وكان قُدام مخلد دراهم يُقال لها الرويجة فقال للكميت: خُذْ وقْرَكَ منها، فقال: البغلة بالباب وهي أجْلدُ مني، فقال: خُذْ وقرها، فأخذ أربعة وعشرين ألف درهم، فقيل لأبيه في ذلك، فقال: لا أردُّ مكرمةً فعلها ابني»[١]، وكانت تلك الدراهم الرويجة من حصة مخلد وسهامه في فتح بلاد البتم وغيرها من بلاد ما وراء النهر، ومكث الكميت فترة بخراسان المهالبة ومدح مخلد بن يزيد بقصيدة مطلعها:

هـلا سَـألْـتَ مَـنـازلاً بـالأبـرقِ

فبلغ ما ناله الكميت من عطاء مخلد وأبيه مائة ألف درهم، وروى الأصفهاني أن الكميت لما مدح مخلد بن يزيد بالقصيدتين: «أعطاه مائة ألف درهم سوى العروض والحملان، فَقَدِم الكوفة في هيئة لم يُر مثلها»[١].

وأما الشاعر حمزة بن بيض الحنفي فمدح يزيد بن المهلّب ومدح مخلد بن يزيد بقصائد كان من أولها قصيدة في مخلد بن يزيد ذكر الأصفهاني منها قوله:

فـإنـك فـي الـفـرع مِـنْ أُسْـرَةٍ ... لـهـا خـضـع الـشـرق والـمـغـربُ

---

(١) قال الأصفهاني (المتفال: المنتنة الرائحة) والمقصود أنها ذات رائحة طيبة.
الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص١٢٢ و ١٠٨ و١٥ ـ جزء ١٥.

وفي أدبٍ منهم ما نَشَأت ... ونِعم لعَمْرك ما أدبوا
بلغتَ لعشرٍ مَضَتْ مِنْ سنيك ... ما يبلُغُ السيدُ الأشيبُ
فَهَمُّكَ فيها جِسَام الأمور ... وهَمُّ لِداتِكَ أن يلعبوا
وجُدْتَ فَقُلْتَ ألا سائلٌ ... فَيُعطى، ولا راغبٌ يرغبُ[1]

وجاء في رواية الأصفهاني أن قصائد حمزة في مخلد كانت في ولاية يزيد بن المهلب الثانية لخراسان سنة ٩٨ ـ ٩٩هـ وأنه «استخلفه أبوه على خراسان وكان واليها، وله ثمانيَ عشرة سنة». بينما ذكر البلاذري في ولاية يزيد الأولى لخراسان أنه «فتح البتم على يد مخلد بن يزيد» وكان ذلك سنة ٨٣هـ ومخلد ابن خمس عشرة سنة، وفي ذلك قال الكميت:

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ... ولِداتُه عن ذاك في أشْغَالِ

وكان مخلد ابن ثماني عشرة سنة لما انتهت ولاية يزيد لخراسان وتولاها المفضل بن المهلّب سنة ٨٥ ـ ٨٦هـ وقد استخلفه آنذاك على مدينة مرو، أما في ولاية يزيد بن المهلّب الثانية لخراسان فكان مخلد ابن ثمان وعشرين سنة، ولذلك لزم التنبيه والتصويب.

* * *

وقد ذكر البلاذري بعد تلك الغزوات وفَتْح مُخَلّد لبلاد البتم، نبأ قدوم عبد الرحمٰن بن العباس وفلول ابن الأشعث إلى هراة، فقال: «وصار عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب إلى هراة في فل ابن الأشعث وغيرهم، فقتل الرُقاد العتكي وجبى الخراج فسار إليه يزيد بن المهلّب فاقتتلوا فهزمهم يزيد وأمر بالكف عن اتباعهم ولحق الهاشمي بالسند. وغزا يزيد خارزم..» (ص٤٠٧) ويؤكد هذا الترتيب ما سلف تبيينه من أن وقعة هراة وهزيمة ابن العباس ومن معه كانت في النصف الثاني من سنة ٨٤هـ، وكان من نبأ يزيد بن المهلّب في ذلك وفي إطلاق سراح العديد من الأسرى ما سلف عنه النبأ اليقين.

وكان موسى بن عبد اللّه بن خازم التميمي متغلباً على مدينة ومنطقة ترمذ بإقليم الصُغد وراء النهر منذ سنوات مضت ومعه جموع من المتمردين الخارجين على دولة الخلافة، قال الطبري: «وسقط إلى موسى بن عبد اللّه بن خازم فلُّ عبد الرحمٰن بن العباس من هراة وفلّ ابن الأشعث من ناحية كابل وقوم من بني

(١) قال الأصفهاني (المتفال: المنتنة الرائحة) والمقصود أنها ذات رائحة طيبة.
الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص١٢٢ و ١٠٨ و١٥ ـ جزء ١٥.

تميم.. فاجتمع إلى موسى ثمانية آلاف، فقال له ثابت مولى خزاعة وحريث أخوه: سر حتى تقطع النهر فتخرج يزيد بن المهلّب عن خراسان فنوليك وأن طرخون (ملك سمرقند) ونيزك والسَّبَل (ملك الختل) وأهل بُخارى معنا ـ أو سيكونون معنا ـ فقال لثابت: إن أخرجنا يزيد قَدِم عامل لعبد الملك ولكنّا نخرج عمّال يزيد من وراء النهر مما يلينا وتكون هذه الناحية لنا نأكلها، فرضي ثابت بذلك، وأخرجوا من كان من عمال يزيد من وراء النهر، وانصرف طرخون وأهل بخارى والسبل إلى بلادهم».

ويتبين من ذلك أن موسى بن خازم وثابت مولى خزاعة تحالفوا مع ملوك الكفار ببلاد ما وراء النهر فأخرجوا عمال يزيد بن المهلّب الذين ببلاد ما وراء النهر، ثم ما لبث أن انقسموا وتقاتلوا ووقعت حرب بين موسى وثابت وحشد ملوك سمرقند وبخارى والختل مع ثابت ضد موسى وأصحابه، وقد ذكر الطبري رواية طويلة عن ذلك القتال واغتيال ثابت في نهر الصَغَانِيان، (فقام بأمر العجم بعد موت ثابت طرخون ملك سمرقند.. وأرسل طرخون إلى موسى: كُفّ أصحابك فإنا نرتحل إذا أصبحنا، فرجع موسى إلى عسكره، فلما أصبحوا ارتحل طرخون والعجم فأتى كل قوم بلادهم». (ص٤٨/٨) ومكث موسى في ترمذ.

وكان ذلك في أواخر سنة ٨٤هـ، حيث قام يزيد بن المهلّب بتوجيه وقيادة غزوات إلى بلاد ما وراء النهر هي نفس الغزوات سالفة الذكر إلى إقليم الصُغد وبلاد الخُتَّل والصغانيان وخُجَنْدة والبتم، فأذعن ملوك تلك البلاد إلى أداء الجزية ـ بدون قتال ـ وعاد عمال يزيد إلى أعمالهم ببلاد ما وراء النهر، وتقدم يزيد هذه المرة إلى إقليم خوارزم.

فَتْح يزيد لإقليم خُوارِزم

كان إقليم خوارزم الواقع غرب إقليم الصُغد من المناطق شديدة الصعوبة قارسة البرودة شحيحة الموارد، فلما دخل يزيد بن المهلّب بلاد الصغد والخُتَّل ـ في أواخر سنة ٨٤هـ ـ لم يكن في خطته غزو إقليم خوارزم. فقد جاء في تاريخ الطبري أنه: «كتب الحجاج إلى يزيد بن المهلّب: أن اغزُ خُوارِزم، فكتب إليه يزيد: إنها قليلة السلب شديدة الكَلَب، فكتب إليه الحجاج: اسْتَخْلِفْ واقْدِمْ، فكتب إليه: إني أريد أن أغزو خوارزم. فكتب إليه الحجاج: لا تغزها فإنها كما وَصَفْتَ. فغزا يزيد ولم يُطعه، فصالحه أهل خوارزم»[١].

وذلك أن يزيد بن المهلّب بالرغم من أنه لم يكن ينوي غزو خوارزم وكتب إلى

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٤٤ جـ٨.

الحجاج بأنها قليلة السلب شديدة الكَلَب، فإنه في ذات الوقت تهيأ لغزوها وفتحها حتى لا يزعم الحجاج وأشياعه أنه لا يقدر على ذلك، ولما تهيأ للمسير إليها بجيشه من بلاد الصُغد أتى إليه مكتوب آخر من الحجاج بما تقدم فكتب إليه: إني أريد أن أغزو خوارزم، فكتب إليه الحجاج: (لا تغزها فإنها كما وصفت)، فلم يطعه يزيد، وربما لم يأت مكتوب الحجاج إلا وقد انطلق يزيد بفرسان العروبة والإسلام إلى خوارزم. قال المقدسي: «يقع إقليم خوارزم إلى الغرب من إقليم الصغد على حافتي نهر جيحون»[1] وقال البلاذري: «وخوارزم ثلاث مدائن يحاط بها فارقين ومدينة الفيل أحصنها».

فلما دخل يزيد بن المهلب إقليم خوارزم فَتَح مدينتين صلحاً على أداء الجزية والدخول في طاعة، ومضى إلى مدينة خوارزم وعاصمتها وهي حصن فيل وكان معه الشعراء كعب بن معدان الأشقري وحاجب بن ذبيان المازني وثابت قُطنة الأزدي، قال الأصفهاني: «حاصر يزيد بن المهلّب مدينة خوارزم..»، وذكر الأصفهاني شعر كعب الأشقري في فتحها وأوله:

رمتك فيلُ بما فيها وما ظلمت ... من بعد ما رامها الفجفاجة الصلِّفُ

وقال: «فيل: هو حصن خوارزم، يقال له الكهندر، والكهندر: الحصن العتيق».

وقد نقل الأصفهاني رواية عن شخص يُقال له ابن خلف المرزبان زعم فيها أنه «حاصر يزيد بن المهلّب مدينة خوارزم في أيام ولايته فلم يقدر على فتحها، ثم وُلّي قتيبة بن مسلم فحاصرها ففتحها، فقال كعب الأشقري هذا الشعر يمدحه ويهجو يزيداً». وتلك الرواية غير صحيحة فقد كان كعب الأشقري مع يزيد بن المهلب في حصار وفتح مدينة خوارزم وهي فيل، فقال كعب الأشقري يمدح يزيد بن المهلّب ويهجو قائداً من قيس كان أخواله وأجداده من الفرس المجوس (وربما كان من أقارب خلف بن المرزبان) وكان غزا فيل فلم يقدر على فتحها فلما غزاها وحاصرها وفتحها يزيد بن المهلب قال كعب الأشقري:

رَمَتْكَ فيلُ بما فيها وما ظلمت ... من بعد ما رامها الفجفاجةُ الصَلِّفُ
صريخ قيسٍ وبعض الناس يجمعهم ... قُرى وريفٌ ومنسوب ومقترفُ
منهم (شناسُ) (ومرداذاء) نعرفه ... و (فسخراء) قبور حشوها القُلَفُ
لم يركبوا الخيل إلا بعد ما هُزموا ... فَهُم ثقال على أكتافها عنفُ

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ المقدسي ـ ص٢٨٤.

وقد ذكر ثقاة المؤرخين الطبري وابن الأثير والبلاذري فتح يزيد بن المهلب لمدينة خوارزم ـ وهي فيل ـ وكان قد حاصرها، وأسر وسَبَىٰ منهم، فلما اشتد عليهم الحصار أذعنوا للمصالحة وأداء الجزية، فتم فتحها مع سائر إقليم خوارزم صلحاً. وقد أجمل الطبري ذكر ذلك قائلاً: «فصالحه أهل خوارزم» وقال ابن الأثير: «غزا يزيد بن المهلب خوارزم، فصالحه أهلها. وأصاب سبياً مما صالحوه، وقَفَل في الشتاء، فاشتد البرد على الناس، فأخذوا ثياب السبيّ فلبسوها، فمات ذلك السبي من البرد»(١). وكذلك ذكر البلاذري في فتوح البلدان، وذلك يؤكد فتح يزيد بن المهلّب لخوارزم، وقد وقعت للشاعر حاجب بن ذبيان قصة في مدينة فيل، فسماه ثابت قُطنة حاجب الفيل في بيتٌ من الشعر قال فيه:

هيهات ذلك بيتُ قد سبَقْتُ له فاطلُب له ثانياً يا حاجب الفيل

وقد رجع يزيد بن المهلب من خوارزم إلى إقليم الصُغد ثم عبر نهر جيحون عائداً إلى مدينة مرو الشاهجان عاصمة ولاية خراسان فاستقر في دار الإمارة وقد خفقت رايات الإسلام وجالت خيوله في أقاليم بلاد ما وراء النهر جميعها. قال ابن الصباح: «ودخل حاجب بن ذبيان على يزيد بن المهلّب وعنده ثابت قُطنة وكعب الأشقري وكانا لا يفارقان مجلسه، فوقف بين يديه، فقال له: تكلم يا حاجب، قال: يأذن لي الأمير أن أنشده أبياتاً.. قال: هات فما زلت مجيداً مُحسناً، فقال:

كَمْ مِنْ كميّ في الهَيَاج تَركْتَهُ يَهوىٰ لِفيهِ مُجَدَّلاً مَقْتُولا
جَلَّلْتَ مفرق رأسِه ذا رَوْنَقٍ عضْب المَهزة صارماً مَصْقُولا
قُدْتَ الجيادَ وأنت غرّ يافعٌ حتى اكْتَهَلتَ ولم تزل مأمولا
كم قد جَرَّبْتَ وقد جَبَرتَ معاشراً وكَمِ امْتَنَنْتَ وكم شفيت غليلا

فأمر له يزيد بخمسة تخوت ثياباً وخمسة آلاف درهم وغلامين وجاريتين وفرس وبغل وبرذون، فقال حاجب:

شِمْ الغيثَ وانظُرْ ويكَ أين تَبَعَّجَتْ كُلَاه تَجِدْها في يد ابن المُهلّبِ
يداهُ: يَدٌ يُخْزى بها اللّهُ مَنْ عَصَىٰ وفي يده الأُخْرى حياة المُعْصَبِ»

وهذا شبيه بقول كعب بن معدان الأشقري في يزيد بن المهلب أيضاً:

يداك: إحداهما تُسْقِي العدو بها سُمّاً، وأخرى نداها لم يزل دِيَما
فهل كَسَيْب يزيدِ أو كنائِلِهِ إلا الفراتُ وإلا النِيلُ حين طَمَا
ليسا بأجودَ منه حين مَدّهُما إذ يعلوان حدابَ الأرض والأكَمَا

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٩٧ جـ٤.

وكان يزيد بن المهلب ـ في أواخر سنة ٨٤ وأوائل سنة ٨٥هـ ـ قد بلغ ذروة المجد، وكانت سياسته العادلة، وفتوحاته، وجوده وكرمه، مضرب الأمثال في مشارق الأرض ومغاربها، مما جعل الحسد يمتزج بالخوف في نفس الحجاج.

* * *

رابعاً: عزل يزيد عن ولاية خُراسان.. وتولية المُفَضّل

بينما كان يزيد بن المهلّب يُجاهد في سبيل اللّه فاتحاً أقاليم ما وراء النهر وناشراً العدل والأمان والاستقرار في ربوع ولاية خراسان، كان الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق ومشارقها يسعى ويتآمر لعزل يزيد بن المهلّب، وفي ذلك قال الطبري:

«كان الحجاج أذَلّ أهل العراق كلهم إلا يزيد بن المهلّب وأهل بيته ومَنْ معه من أهل المِصْرين (البصرة والكوفة) بخراسان، ولم يكن يتخوف بعد عبد الرحمٰن بن الأشعث بالعراق غير يزيد بن المهلّب».

وبدأ الحجاج مساعيه لعزل يزيد بالتشكيك في ولاء آل المهلّب لعبد الملك بن مروان وبني أمية؛ لأنهم كانوا من أمراء عهد ابن الزبير في فترة حكمه للعراق والجزيرة العربية (٦٥ ـ ٧١هـ) وفي ذلك ذكر الطبري وابن كثير أنه: «كتب الحجاج إلى عبد الملك يشير عليه بعزل يزيد، وأن آل المهلّب كانوا زبيرية، فكتب إليه عبد الملك: إني لا أرى طاعتهم لابن الزبير تقصيراً، فإن ذلك يدعوهم إلى طاعتي والوفاء لي».

ولما تغلب عبد الرحمٰن بن العباس وفلول ابن الأشعث على هَرَاة، فهزمهم يزيد بن المهلّب تَرَكَ أكثرهم يهربون وكفّ عنهم، باستثناء مجموعة من الأسرى حبسهم في مرو، فلما كتب الحجاج بأن يرسلهم إليه أطلق سراح محمد بن سعد بن أبي وقاص وجماعة معه ثم أطلق سراح عبد الرحمٰن بن طلحة الخزاعي وجماعة من اليمانية ولم يبعث إلى الحجاج إلا بعبد اللّه بن عامر التميمي ونحو خمسة من الأسرى، فقال عبد اللّه بن عامر: «لا رأت عيناك يا حجاج الجنة إن أقلْت ابن المهلّب بما صَنَعْ، قال: وما صَنَع؟ قال:

لأنّــه كَــاسَ فــي إطــلاق أســرتــه وقَــادَ نـحـوك فـي أغـلالـهـا مُـضَـرا
وَقَـىٰ بـقـومـكَ وِرد الـمـوت أسـرتـه وكـان قـومـك أدنـى عـنـده خـطـرا

فأطرق الحجاجُ ملياً، ووقرت في قلبه.. ولم تزل في نفس الحجاج حتى عزل يزيد عن خراسان»، فقد اتخذ الحجاج من ذلك دليلاً لاتهام يزيد بالتعصب لقومه اليمانية القحطانية من جهة وأنه لا يطيع أوامره؛ لأنه أطلق سراح أبرز

الأسرى من جهة أخرى، ولكن دعوى العصبية كانت ضعيفة لأنه أطلق سراح محمد بن سعد بن أبي وقاص وغيره من المُضرية أيضاً، وقد قبض عامل الحجاج بمنطقة الريّ على محمد بن سعد والذين معه وأرسلهم إلى الحجاج فقام بقتلهم (في شوال ٨٤هـ) بينما الذين لجأوا إلى يزيد بن المهلّب وبقوا في خراسان وجدوا الأمان ودخلوا في الجماعة وكان ذلك مما يغيض الحجاج، وكان ابن سمّرة قد لحق بمدينة مرو فكتب الحجاج إلى يزيد بقتله وبقتل بني الأهتم فلم يفعل. وكانت فتوحات يزيد بن المهلب وحسن سياسته محل رضا عبد الملك بن مروان، فلم تَجِدْ مساعي الحجاج لعزل يزيد آذاناً صاغية في دمشق لفترة من الزمن، وكذلك لم يجد الحجاج ما يمكن مؤاخذة يزيد عليه، وكان يتتبع ذلك، وذات مرة قَدِم إليه الخيار بن سبرة المجاشعي وهو من ذوي الثقة عند الحجاج: «وكان الخيار من فرسان المهلب وكان مع يزيد ـ في فتوح ما وراء النهر ـ فقال له الحجاج: أخبرني عن يزيد، قال: حَسَن الطاعة ليّن السيرة، قال: كذبتَ فأصدقني، قال: اللّه أجلّ وأعظم قد أسرج يزيد ولم يلجم، قال: صَدَقْتَ».

وسار الحجاج إلى عبد الملك بن مروان للتباحث في عزل عبد العزيز بن مروان من ولاية العهد، وكان عبد العزيز أمير مصر وهو والد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وكان عبد العزيز ولي العهد بعد عبد الملك، قال ابن كثير: «وقد كان الحجاج بعث إلى عبد الملك يُحَسِن له ولاية الوليد ويزينها له من بعده، وأوفد إليه وفداً في ذلك.. فَهَاجَه ذلك على أن كتب لأخيه عبد العزيز يستنزله عن الخلافة للوليد، فأبَى وامتنع أخوه من إجابته إلى ما طلب»[1]. ثم سار الحجاج إلى عبد الملك بدمشق للتباحث ـ أو للتآمر ـ في عزل عبد العزيز عن ولاية العهد والترتيب لجعل الوليد ولياً للعهد وخليفة بعد عبد الملك، وكان من بين آراء ومشورة الحجاج استقدام عبد العزيز إلى دمشق ثم عزله عن ولاية مصر أو احتجازه وإعلان البيعة للوليد، وقد كتب عبد الملك ـ في أوائل سنة ٨٥هـ ـ إلى عبد العزيز يأمره بأن يحمل إليه خراج مصر ـ أي يأتي إليه ومعه خراج مصر ـ فكتب إليه عبد العزيز: «إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بَلَغنا سناً لا يبلغها أحدٌ من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً، وإنّي لا أدري ولا تدري أيّنا يأتيه الموت أولاً، فإذا رأيتَ أن لا (تعتب؟) عليّ بقية العمر، فافعلْ». ولكن عبد الملك مضى في الترتيب والتدبير لعزل عبد العزيز، وسيأتي النص على دور الحجاج واتفاقه مع عبد الملك على ما يتم من أمور ثم توجّه الحجاج عائداً إلى العراق. وقد ذكر الطبري وابن الأثير وابن خلدون: «أن الحجاج

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥٧ جـ٩.

وَفَد إلى عبد الملك، فمَرّ في منصرفه بدَيْر فنزله، فقيل له إن في هذا الدَير شيخاً من أهل الكتب عالماً». فدعاه الحجاج وسأله عن أمير المؤمنين عبد الملك مَنْ سيتولى الخلافة بعده قال: رجلُ يقال له الوليد. «قال الحجاج: فَمَنْ يتولى العراق بعدي؟ قال: رجلُ يُقال له يزيد. قال: في حياتي أم بعد موتي؟ قال: لا أدري. قال: أفتعرف صفته؟ قال: يُغْدَرُ غَدْرةً لا أعرف غير هذا. فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب، وارتحل من الدَيْر وسار سبعاً ـ أي سبعة أيام ـ وهو وَجِلٌ من كلام الشيخ» وكان مسيره إلى مدينة واسط التي اتخذها عاصمة ومقراً للوالي بالعراق بدلاً عن الكوفة منذ سنة ٨٤هـ «ثم إن الحجاج جلس يوماً مُفكراً، واستدعى عُبيد بن موهب وقال له: ويحك يا عُبيد إنّ أهل الكتاب يذكرون أن ما تحت يدي يتولاه رجل يقال له يزيد، وقد تذكرتُ يزيد بن حُصين بن نُمير ـ السكوني ـ ويزيد بن أبي كبشة ـ السكسكي ـ ويزيد بن دينار فليسوا هناك وما هو إن كان إلا يزيد بن المهلّب. فقال عُبيد: لقد شرف يزيد بن المهلّب وعَظُمت ولايته وإن له قَدْراً وجَلْداً وطاعة وحظاً، فأخْلِقْ به أن يكون». قال الطبري: «فأجمع رأيه على عزل يزيد فلم يَجِدْ له شيئاً».

فقام الحجاج بأمرين مُترابطين: «كتب إلى عبد الملك يستعفيه من ولاية العراق، فأجاب عليه بالتقريع والتأنيب والتوبيخ والأمر بالثبات والاستمرار على ما هو عليه وقال له: إنك إنما تريد أن تعلم رأيي فيك، فالّه عن هذا حتى يأتي اللّه بما هو آت». فكان ما قام به الحجاج أشبه بالاستقالة من ولاية العراق، فلما رفضها عبد الملك قام الحجاج بما يشبه اشتراط عزل يزيد بن المهلّب وكذلك التلميح بأن خطة عزل عبد العزيز من ولاية العهد واستخلاف الوليد سيُعارضها يزيد بن المهلّب ويغدر بنا ـ قال الطبري وابن الأثير: «وكتب الحجاج إلى عبد الملك يُخوفه غَدْرَ يزيد بن المهلّب ويُخبره بما أخبره ذلك الشيخ الكتابي، فكتب إليه عبد الملك: قد أكْثَرت في يزيد بن المهلّب، فَسمّ لي رجلاً يصلح لخراسان». وبذلك أذن عبد الملك بعزل يزيد عن ولاية خراسان في محرم أو صفر سنة ٨٥هـ، وربما أمر أيضاً بأن يتم ذلك بطريقة تليق بمكانته، فقد ذكر الطبري أنه: «لما أذن عبد الملك للحجاج في عزل يزيد، كره أن يكتب إليه بعزله، فكتب إليه: أن اسْتَخْلِف المفضّل وأقْبِل» وكذلك قال ابن الأثير: «لما أذن عبد الملك في عزل يزيد، كره الحجاج أن يكتب إليه بعزله، فكتب إليه أن يستخلف أخاه المُفَضّل ويُقبل إليه. واستشار يزيد بن المهلّب حُضَينَ بن المنذر الرقاشي فقال له: أقِمْ واعتلْ واكتبْ إلى أمير المؤمنين يُقِرّكَ فإنه حسن الرأي فيك. فقال يزيد: نحن أهل بيت بُورك لنا بالطاعة وأنا أكره الخلاف، فأخذ يتجهز». فقد أدرك يزيد أنه سيُعزل وأن ذلك بإذن أمير المؤمنين عبد الملك، فأخذ يتجهز للمسير إلى العراق، وكان يزيد آنذاك يُهيئ الجيش والناس

للجهاد ولفتح بلاد شومان وآخرون وترمذ، ولذلك تأخر حتى استكمال التجهيز، وقد ذكرت رواية ابن الكلبي ذلك بقولها: «أخَذَ الحجاج في مؤاربة يزيد ليستخرجه من خراسان فكان يبعث إليه ليأتيه، فيعتل عليه بالعدو وحرب خراسان». فأصل ذلك أنه تأخر بعض الوقت لاستكمال تجهيز الجيش والناس لحرب العدو في شومان وآخرون وترمذ بخراسان، بينما كان الحجاج يريد سرعة قدومه (ربما لأن ذلك يرتبط بخطة عزل عبد العزيز عن ولاية العهد واستخلاف الوليد) فبعث الحجاج إلى يزيد أخاه عبد الملك بن المهلّب، وكتب معه إلى المُفَضل (إنّي قد وليتك خراسان)، قال الطبري: «فجعل المُفضل يستحث يزيد، فقال له يزيد: إن الحجاج لا يقرّك بعدي وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه. قال: بل حسدتني. قال يزيد: يا ابن بهلة أنا أحسدك، ستعلم..»[١]، وقال حُضَين بن المنذر ليزيد: أقِمْ واعْتَلّ فإن أمير المؤمنين حسن الرأي فيك وإنما أُتِيتَ من الحجاج فإن أقَمْتَ ولم تعجل رَجَوتُ أن يكتب إليه أن يُقِرّك، فقال يزيد: إنّا أهل بيت بورك لنا في الطاعة وأنا أكره المعصية والخلاف، فقال حُضين ليزيد:

أمَرْتُكَ أمْراً حازِماً فَعَصَيْتني ... فأصْبَحْتَ مَسْلوبَ الإمارَةِ نَادِمَا

فما أنَا بالباكي عليك صَبَابَةً ... وما أنا بالدَّاعي لتَرْجِعَ سَالِمَا)[٢]

وقام يزيد بتسليم مقاليد حكم ولاية خراسان لأخيه المُفضل بن المهلّب، وترك عنده ابنه مُخلد بن يزيد، وغادر يزيد مدينة مرو الشاهجان ـ عاصمة ولاية خراسان ـ في أواسط ربيع الثاني ٨٥هـ ـ إلى مرو الروذ، ومضى إلى كرمان ثم فارس ومنها إلى البصرة، وكان يزيد لا يمرّ ببلد إلا استقبلوه وودعوه بأكاليل الرياحين وبنثر الورود والرياحين على موكبه منذ مغادرته مدينة مرو حتى وصوله البصرة، وذلك مسيرة

---

(١) عزل الحجاج المفضل بعد تسعة أشهر، قال الطبري «فعزل الحجاج المفضل فقال الشاعر للمفضل وعبد الملك وهو أخوه لأمه:

يا ابنَي بهلة إنما أخزاكما ... رَبِّي غَدَاة غَدَا الهُمامُ الأزهرُ

.. جودا بتوبةِ مُخلِصين فإنّما ... يأبَى ويأنَفُ أن يَتُوبَ الأخسرُ»

(ص٨٣ جـ٨).

(٢) قال الطبري: «فلما قَدِم قتيبةُ خراسان قال لحُضين: كيف قُلت ليزيد؟ قال: قُلتُ:

أمرتك أَمراً حازماً فعصيتني ... فَنَفْسُكَ أوْلى باللوْم إنْ كُنْتَ لائما

فإن يَبْلُغ الحجاج أنْ قَدْ عَصَيْتَهُ ... فإنك تَلْقى أمْرَهُ مَتَفاقما

قال: فماذا أمرته به فعصاك؟ قال: أمرته أن لا يدع صفراء ولا بيضاء إلا حملها إلى الأمير. فقال رجل لعياض بن حضين: أما أبوك فوجده قتيبة حين فرّ قارحاً بقوله: أمرته أن لا يدع صفراء ولا بيضاء إلا حملها إلى الأمير».

عشرين يوماً بالخيول والقوافل. فكان ذلك أعظم تقدير ووفاء ليزيد بن المهلّب وجهاده العظيم وفتوحاته وسيرته الطيبة وإنجازات تلك الحقبة من تاريخه ـ منذ ولايته لكرمان سنة ٧٧هـ ثم في عهد ولاية أبيه لخراسان (٧٩ ـ ٨٢هـ) ثم في عهد ولايته لخراسان (٨٢ ـ ٨٥هـ). قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك:

«خرج يزيد ـ من خُراسان ـ في ربيع الآخر سنة ٨٥هـ. . فلم يَمُرّ ببلد إلا فرشوا له الرياحين. وكان يزيد وُلّي خراسان سنة ٨٢ وعُزل سنة ٨٥ وخرج من خراسان في ربيع الآخر سنة ٨٥هـ، ووُلّي المُفَضل»[١].

وقال ابن الأثير:

«خرج يزيد بن المهلّب من خراسان في ربيع الآخر سنة خمس وثمانين. . فكان لا يمرُّ ببلدٍ إلا فرش أهلها له الرياحين»[١] ووصل يزيد إلى البصرة في أوائل جمادى الأولى، ومضى إلى الحجاج بمدينة واسط فأظهر الحجاج نحوه التقدير والتكريم مُخفياً ما في نفسه من حسد ونوايا شريرة، وكتب الحجاج إلى عبد الملك بأن يزيد صار عنده.

وليس من باب المصادفة أن يتزامن قدوم يزيد بن المهلب معزولاً عن ولاية خراسان وصيرورته عند الحجاج ـ في جمادى الأولى ٨٥هـ ـ مع ما شهدته دمشق في ذات الوقت من الاستعداد لإعلان عزل عبد العزيز بن مروان عن ولاية مصر وولاية العهد وإعلان استخلاف الوليد بن عبد الملك، ولكن في ذات الوقت أتى نبأ وفاة عبد العزيز بن مروان بمصر. وفي ذلك ذكر ابن كثير والطبري أنه:

«عزم عبد الملك على عزل أخيه عبد العزيز من إمرة مصر، وحَسَّنَ له ذلك روح بن زنباع الجذامي، فبينما هما في ذلك، إذْ دَخَل عليهما قبيصة بن ذؤيب الخزاعي في الليل، وكان لا يُحجب عنه في أي ساعة جاء من ليلٍ أو نهار، فَعَزّاه في أخيه عبد العزيز، فندم عبد الملك على ما كان منه من العزم على عزله، وإنما حمله على إرادة عزله أنه أراد أن يعهد بالأمر بعده إلى ولده، وذلك عن رأي الحجاج وترتيبه ذلك لعبد الملك»[١]. وكانت وفاة عبد العزيز في ١٣ جمادى الأولى سنة ٨٥هـ.

* * *

معالم عهد ولاية المُفَضّل بن المهلّب وفتوحاته بخراسان

قال الطبري: «عزل الحجاجُ يَزيدَ وكتب إلى المُفضل بولايته على خراسان سنة

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٤٤ جـ٩ ـ والكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٩٧ جـ٤ ـ والبداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥٧ جـ٩.

٨٥هـ فولّيها تسعة أشهر» فتكون مدة ولايته من أواسط ربيع الثاني ٨٥هـ إلى شهر صفر سنة ٨٦هـ، وكان عهده امتداداً لعهد المهلّب ولعهد يزيد بن المهلّب في الجهاد والفتوحات وفي الجود والكرم وفي العدل والرخاء، وكان الناس يعتبرونه نائباً ليزيد ويعتقدون أن يزيدَ سيعود.

وقد استهلّ المُفَضّل عهده بالمسير للجهاد والفتوحات وتنفيذ خطة يزيد الذي كان قد بدأ في تهيئة الجيش والناس لذلك، فانطلق المُفَضّل بِجُند العروبة والإسلام من مرو (عاصمة خُراسان) إلى باذغيس (في شرق شمال أفغانستان إلى تاجيكستان) في حوالي شهر جمادى سنة ٨٥هـ واستخلف في مرو مُخلد بن يزيد، قال الطبري وابن الأثير: «فغزا المُفَضّل باذغيش ففتحها وأصاب مغنماً فَقَسّمه بين الناس فأصاب كلُ رجل منهم ثمانمائة درهم». وقد سلف ذكر فَتْح يزيد بن المهلّب لباذغيس وقلعة نيزك ونفيه الملك نيزك من القلعة إلى مدينة غير مهمة، وأن الملك وقومه أذعنوا للطاعة وأداء الجزية، ثم قال البلاذي: «وَلّى الحجاج المُفَضل بن المهلب ففتح باذغيس وقد انتقضت.. وأصاب غنائم قَسَّمَها بين الناس»[1]. وما قَسَّمَهُ المفضل هو سهم المجاهدين من غنائم الفتح، وأذْعَنَ نيزك وقومه للطاعة وأداء الجزية.

وفي حوالي شهر رجب سنة ٨٥هـ عَبَر المُفَضّل بجند العروبة والإسلام نهر جيحون، ومضى إلى بلاد شومان وأخْرُونَ ـ في جهات أو إقليم طخارستان ـ فحاربه الأعداء الكفار فانتصر المُفَضّل عليهم، وفي ذلك قال الطبري: «ثم غزا المُفَضّلُ أخرونَ وشومان فظفر وغنم، وقَسَّم ما أصاب بين الناس، ولم يكن للمفضل بيت مال، كان يعطي الناس كلما جاءه شيءٌ، وإن غَنَم شيئاً قَسَّمَه بينهم» ـ والمقصود لم يكن له بيت مال في غزواته، أو لم يكن يؤجل تقسيم الغنائم إلى العودة إلى العاصمة حيث بيت مال الولاية وإنما كان يعطي الناس سهمهم من الغنائم وهي الأنفال دون تأجيل ـ قال البلاذري: «ففتح المُفَضّل.. شومان وأخرون وأصاب غنائم قَسّمها بين الناس»[1]. وعن ذلك الفتح قال كعب بن معدان الأشقري في قصيدة مدح بها المفضل بعد عودته إلى مرو:

لَعَمْري لقد صال المُفَضّلُ صَوْلَةً ... أباحتْ بشومان المناهل والْكَلَا
ويَوْمَ ابن (عباس) تناولتَ مثلها ... فكانت لنا بين الفريقين فَيْصلا

وكانت أقاليم الصُغد وخوارزم والخُتَّل وخجندة والبتم مُذعنة لأداء الجزية وفيها عمال يزيد بن المهلّب، فانضمت إليها بلاد أخرون وشومان، فرجع المُفضل إلى إقليم بلخ وهراة وكان مدرك بن المهلّب أميراً لإقليم بلخ وهراة منذ عهد يزيد

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٠٧.

فأسند إليه المُفَضّل قيادة حملة إلى ترمذ التي كان موسى بن عبد اللّٰه بن خازم التميمي متغلباً عليها منذ سنوات وخارجاً على دولة الخلافة، وعاد المُفضل إلى مدينة مرو عاصمة خراسان، فأتاه مكتوبٌ من الحجاج يأمره بقتلِ ابن سُمرة ـ الذي كان لاجئاً مطيعاً في مرو منذ نهاية ثورة ابن الأشعث ـ فلم يُنَفِّذ المفضّل ذلك، وبعث الحملة إلى ابن خازم والمتمردين معه في ترمذ.

* * *

قال الطبري: «لما وُلّي المُفضّل خُراسانَ أراد أن يحظى عند الحجاج بقتال موسى بن عبد اللّٰه بن خازم، فأخرج عثمان بن مسعود وكان يزيد حَبَسه فقال: إني أريد أن أوجّهك إلى موسى، فقال: واللّٰه لقد وَتَرني وإني لثائر بابن عمتي ثابت وبالخزاعي.. فَوَجّهَه المفضل في ثلاثة آلاف.. وكتب المفضل إلى مدرك بن المهلّب وهو ببلخ أن يسير معه، فسار عثمان من بلخ وخرج معه مدرك (في اثني عشر ألفاً) فقطع النهر ـ نهر جيحون ـ فنزل عثمان جزيرة بالترمذ يقال لها جزيرة عثمان لنزوله بها في خمسة عشر ألفاً (وهم الجيش الذي معه ومع مدرك) وكتب إلى السَّبَل (ملك الخُتَّل) وطرخون (ملك الصُّغد وسمرقند) فقَدِموا إليه، فحاصروا ـ جميعهم ـ موسى فضيّقوا عليه وعلى أصحابه بترمذ.. فمكث موسى شهرين في ضيق وقد خَنْدق عثمان وحَذِرَ البيات فلم يقدر موسى منه على غرّة، فقال لأصحابه: حتى متى؟ اخرُجوا بنَا فاجعلوا يومكم إما ظفرتم وإما قُتِلتم.. وخَلّف النضر بن سليمان بن عبد اللّٰه بن خازم في المدينة وقال له: إن قُتِلتُ فلا تدفعنّ المدينة إلى عثمان وادفعها إلى مدرك بن المهلّب».

وخرج موسى وأصحابه للقتال، فوقعت معركة فانكشف أصحاب موسى ـ منهزمين ـ قال الطبري: « ..وعثرت دابة موسى فسقط هو ومولاه فابتدروه فانطووا عليه فقتلوه.. فذكر البختريّ أن مغراء بن المغيرة بن أبي صُفرة قتل موسى فقال:

وقد عَرَكت بالتِّرمِذِ الخيلُ خازماً ونوحاً وموسى عَركةً بالكلاكل»[1]

ولما انهزم أصحاب موسى: «نادى منادي عثمان: لا تقتلوا أحداً، مَنْ لقيتموه فخذوه أسيراً، فتفرّق أصحاب موسى، وأُسر منهم قوم، فعُرضوا على

---

(١) هكذا جاء في رواية الطبري: (فذكر البختريّ أن مغراء بن المغيرة..) ويبدو وقوع تصحيف من الناسخين وأن الأصوب «فذكروا: أن البختري مغراء بن المغيرة بن أبي صُفرة قتل موسى». فقد ذكر القالي في كتاب الأمالي البختري بن المغيرة بن أبي صفرة وكان شاعراً وعاملاً على الخراج بخراسان في عهد المهلب ويزيد بن المهلب، وسلف ذكره في المبحث الخاص بالمهلب.

عثمان ـ أثناء المعركة ـ فكان إذا أُتي بأسير من الموالي شتمه وأمر بضربه ثم يتركه، وإذا أُتي بأسير من العرب قَتَله، فلم يسلم منه يومئذ أسيرٌ من العرب إلا عبد اللَّه بن بديل بن عبد اللَّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي فإنه كان عثمان مولاه(١) وإلّا رقبة بن الحرّ كان أُسر فأطلقه، ونظر يومئذ عثمانُ إلى زُرعة بن علقمة السلميّ وحجاج بن مروان وسنان الأعرابيّ ناحيةً فقال: لكم الأمان، فظن الناسُ أنه لم يُؤمنهم حتى كاتبوه. وبقيت مدينة ترمذ بيد النضر بن سليمان فقال: لا أُسلمها إلى عثمان ولكني أسلمها إلى مدرك، فَسَلّمها إليه، وأمّنَه مدرك». وكذلك ذكر البلاذري أنه «دُفعت مدينة ترمذ إلى مدرك بن المهلب، وكان قتل موسى في آخر سنة خمس وثمانين». وقام مدرك بتأمين أهل ترمذ وبقية أصحاب موسى، وولّى على ترمذ عثمان بن مسعود كعامل للمُفَضّل على مدينة ومنطقة ترمذ، وبذلك عادت ترمذ إلى سلطة دولة الخلافة، واستتب الأمر في سائر إقليم الصُغد وغيره من أقاليم ما وراء النهر. قال الطبري: «وكتب المُفضل بالفتح إلى الحجاج، فقال الحجاج: العجب من ابن بَهْلة آمره بقتل ابن سَمُرة فيكتب إليّ أنه لمآبه ويكتب إليّ أنه قتل موسى بن عبد اللَّه بن خازم!» وقال ابن الأثير: «ولم يَسُرّ الحجاج قتل موسى لأنه من قيس» ولم يتنبه ابن الأثير إلى أن ابن سَمُرة كان أيضاً من قيس وإنما كان للحجاج مآرب أخرى.

* * *

وقد كان عهد المفضل امتداداً لعهد يزيد في الجود والكرم، قال الشاعر كعب بن معدان الأشقري يمدح المفضل ويذكر واقع عهده:

ترى ذا الغِنَىٰ والفقرِ من كلّ معشرٍ	عَصَائِبَ شَتّى يَنْتَوُونَ المفضّلا
فَمِن زائرٍ يرجُو فواضلَ سَيْبِهِ	وآخَرَ يقضي حاجةً قد ترَحّلا
إذا ما انتوينا غيْر أرضِك لم نَجِد	بها منتوًى خَيْراً ولا مُتَعَلَّلَا
إذا ما عَدَدْنَا الأكرمين ذوي النُّهى	وقد قدّموا مِن صالح كُنتَ أوّلا
.. صفَتْ لك أخلاقُ المهلَّبِ كُلها	وسُرْبِلْتَ من مَسْعاتِهِ ما تَسَرْبلَا
أَبُوكَ الذي لم يَسْعَ ساعٍ كسعيِهِ	فأوْرَثَ مَجْداً لم يكنِ مُتَنَحَّلَا

ومن هذه القصيدة قوله:

لعَمْري لقد صال المفضّل صولة	أباحت بشومان المناهل والكلا

---

(١) قال الطبري: «عبد اللَّه بن بُدَيل بن عبد اللَّه بن بُدَيل بن ورقاء كان ممن أتى من فَلِّ ابن الأشعث» (٥٠ جـ٨) وكان عبد اللَّه بن بديل من التابعين وحفيد الصحابي الفاتح عبد اللَّه بن بديل الخزاعي اليماني ومن أصحاب ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي.

ويومَ ابن (عباس) تناولت مثلها فكانت لنا بين الفريقين فيصلا

ولما غزا المفضل تلك الغزوات كان مخلد بن يزيد بن المهلّب نائباً له في مدينة مرو، فقد ذكر الأصفهاني أنه «وفد الكميت إلى مخلد بن يزيد وهو يخلف أباه على خراسان وكان ابن ثماني عشرة سنة، وقد مدحه بقصيدته التي أولها (هلا سألت معالم الأطلال).. فقال حمزة بن بيض: واللّه لأنا أولى من الكميت بما ناله من مخلد، وأنا حليفه وناصره في العصبية على الكميت وعلى مُضر جميعاً، فهيأت لمخلد مديحاً على رويّ قصيدة الكميت وقافيتها، ثم شخصت إليه، فلما كان قبل خروجي بيوم أتتني جماعة من ربيعة في خمس ديات عليهم فقالوا: إنك تأتي مَخْلداً وهو فتى العرب ونحن نعلم أنك لا تؤثر على نفسك ولكن إذا فرغ من أمرك فاعلمه بممشانا إليك.. فلما قَدِم حمزة إلى مخلد مدحه بقصيدة على روي قصيدة الكميت فأمر له بمائة ألف درهم.. ثم أتاه يوماً ومعه تذكرة بحاجة القوم ـ وهم ربيعة ـ في الديات، فقال أبياتاً أولها:

أتيناك في حاجة فاقضها وقُلْ مرحباً يجبُ المرحبُ

فقال مخلد: مرحباً بك وبحاجتك، فما هي؟ فأخرج له رقعة القوم، فأدى مخلد الديات التي عليهم.

* * *

نهاية ولاية آل المهلّب ـ الأولى ـ لخُراسان

كانت الشهور التسعة التي تولى فيها المفضّل خراسان امتداداً لعهد يزيد بن المهلب فبالرغم من عزله وإقامته في العراق كان المعروف عند الناس أنه استخلف المفضل على خراسان وسوف يعود، بينما استمر الحجاج في الكيد لآل المهلّب والسعي لعزلهم نهائياً من ولاية خراسان وغيرها، وقد ذكر الطبري وابن الأثير وابن خلدون في نبأ ذلك الشيخ من أهل الكتاب الذي تنبأ بأن العراق ومشارقها سيتولاها بعد الحجاج رجل يُقال له يزيد، وأنه «وقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلّب» ـ إلى آخر ذلك النبأ الذي سلف ذكره ـ أنه «كتب الحجاج إلى عبد الملك يُخوفه غَدْر يزيد، ويخبره بما أخبره به ذلك الشيخ الكتابي، فكتب إليه عبد الملك: قد أكثرت في يزيد بن المهلّب، فسمِّ لي رجلاً يصلح لخراسان، فَسَمّى له مُجّاعة بن سعر السعدي، فكتب عبد الملك إلى الحجاج: إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل المهلب هو الذي دعاك إلى مُجّاعة فانظر لي رجلاً صارماً ماضياً لأمرك يصلح لخراسان، فَسَمّى له قتيبة بن مسلم الباهلي، فكَتَبَ إليه: وَلِّه».

فهذا إنما يعني أن المفضّل بن المهلّب كان نائباً ليزيد في تلك الشهور التسعة،

وكذلك فإن الكثير من الروايات والوقائع يقترن فيها نبأ عزل يزيد بتولية قتيبة ومسيره إلى خراسان في أواسط شهر صفر ٨٦هـ، قال الطبري: «فَقَدِم قُتَيبةُ خراسان في سنة ٨٦هـ والمُفَضّل يعرض الجُند وهو يريد أن يغزو شومان وأَخْرون» والأصوب أنه كان يريد أن يغزو ما بعد شومان وأخرون من بلاد ما وراء النهر؛ لأنّ شومان وأخرون كان قد تم فتحها، فلما قَدِم قتيبة إلى خراسان والياً عليها قام المفضل بتسليم مقاليد الأمور إلى قتيبة، ثم عاد المُفَضّل والذين بخراسان من آل المهلّب إلى البصرة ـ في حوالي ربيع الثاني ٨٦هـ ـ فانتهت بذلك ولاية آل المهلّب لخراسان والتي بدأت بمسير حبيب بن المهلب إلى خُراسان نيابة عن أبيه في شهر ربيع سنة ٧٨هـ ثم بقدوم المهلّب إليها وولايته في محرم ٧٩هـ وعهد المهلّب ثم عهد يزيد بن المهلب وعهد نيابة المُفضل ـ إلى ربيع ٨٦هـ ـ فتكون مدة ولاية آل المهلب ثمان سنوات ـ من ربيع ٧٨هـ حتى ربيع ٨٦هـ ـ وكان ذلك العهد المهلّبي أزهر عهود العصر العربي الإسلامي فقد تم فيها فتح ـ أو إعادة فتح ـ أقاليم بلاد ما وراء النهر: الصُّغد، خوارزم، الصغانيان والخُتَّل، خُجَنْدة والبتم، وغيرها، وأذعن ملوك وأهالي تلك البلاد إلى أداء الجزية وكان فيها عمال ليزيد بن المهلّب، وكذلك بلاد باذغيس وقلعة نيزك إلى تخوم الصين، وقد ساد ولاية خُراسان الرخاء والازدهار والعدل والعفو والجُود والكرم في ذلك العهد الزاهر. ثم استعمل الحجاجُ قتيبة بن مُسلم لمحو ذلك كله، وخاصة بعد وفاة عبد الملك بن مروان وأيلولة الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ـ في شوال ٨٦هـ ـ مما أتاح للحجاج التنكيل بآل المهلب ـ كما سيأتي ـ وتنفيذ سياسة حجاجية في خراسان على يد قتيبة، فَبَكَتْ خُراسان بُكاءً مريراً.

قال الشاعر الفرزدق:

بَكَتْ جَزَعاً مَرْوَا خُراسان إذْ رأتْ ... بـهـا بـاهـلـيـاً بـعـد آل الـمُـهَـلّـب

تَـبَـدّلَـتَ الـظُّرُبـيِّ الـقـصـيـر أنـوفُـهُ ... بكلِّ فَنِيقٍ يرتدي السيفَ مُصْعَبِ(١)

وقال د. ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق: «كان يزيد بن المهلّب قد استمال قلوب الناس بكرمه وإحسانه وعطاياه، وإلى هذا يشير الفرزدق موضحاً الفرق بين يزيد وقتيبة، فيقول:

بكت جزعاً مروا خراسان إذ رأت ... بها باهلياً بعد آل المهلّب..»(١)

قوله: (مروا خراسان: يعني المدينتين العاصمتين الرئيسيتين مرو الرُّوذ ومرو الشاهجان. وقوله: (باهلياً: يعني قتيبة بن مسلم، وقد وصفه بأنه (الظربي القصير

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٩٢ ـ عن ديوان الفرزدق ـ ص٤٢/ ٢.

أنوفه) قال الفيروزأبادي: «الظُّرُبِّي: القصير الغليظ.. وكالهِرَّة ـ الظِرَّبي ـ: مُنْتِنَةٌ.. وفَسَا بينهما الظَّرِبانُ أي تقاطعوا لأنها إذا فَسَتْ في ثوبٍ لا تَذْهَبُ رائحته حتى يَبْلَىٰ»[١] وقول الفرزدق: (آل المهلب: يعني يزيد بن المهلب وإخوته. وقد وصفهم بأنهم (كل فنيق يرتدي السيف مُصْعب) قال الفيروزأبادي: «.. أَفْنَقَ: تَنَعَّمَ. والتَّفْنيقُ: التَّنْعِيمُ. وتَفَنَّقَ: تَنَعَّمَ. وعَيْشٌ مُفانِقُ: نَاعِمٌ»[١] وقال شاعر (لا ذنب لي كنتُ امرأ مُفَنْقاً: أي مُتنعماً) قال الفيروزأبادي: «والمُصْعَب ـ كمُكْرَمٍ ـ: الفَحْلُ.. والصَّعْبُ: العَسِرُ والأبِيّ والأسد»[١].

وكانت خراسان في عهد يزيد بن المهلّب واحة آمنة، وكان ممن انتقل إليها هرباً من طغيان الحجاج بالعراق عشيرة يُقال لهم بنو الأهتم فعاشوا في آمان. قال الأصفهاني: «نَسَخْتُ من كتاب النَضْر بن الحديد: إن الحجاج كتب إلى يزيد بن المهلّب يأمره بقتل بني الأهتم، فكتب إليه يزيد: إن بني الأعتم أصحاب مقال وليسوا بأصحاب فعال فلا نقدر أن نُحدث فيهم ضرراً وفي قتلهم عار وسبّة، فتغافل الحجاج عنهم. ثم انضموا إلى المفضل بن المهلّب فكتب إليه الحجاج يأمره بقتلهم، فكتب إليه المفضل بمثل ما كتب أخوه. ثم وُلّي قتيبة بن مسلم فخرج إليه بنو الأهتم وذكروا بني المهلّب فَعَابُوهم، فغلبهم قتيبة واحتوى عليهم» يعني أنهم أصبحوا من رجال وأصحاب قتيبة، ثم استاء من بعض تصرفاتهم، فقيل له: إن الحجاج كان قد كتب إلى يزيد ثم إلى المفضل بقتلهم، فكتب قتيبة بشأنهم إلى الحجاج «فكتب إليه الحجاج يأمره بقتلهم، فَقَتَلَهُم جميعاً، فقال كعب بن معدان الأشقري في ذلك:

قُلْ للأهاتم مَنْ يعودُ بفضله ... بعد المُفَضّلِ والأغرّ يزيدِ
رَدّاً على الحجاج فيكم أمره ... فَجَزَيْتُمُ إحْسَانَهم بجحودِ
فاليوم فاعتبروا فراق أخيكم ... إن القياس بجاهل ورشيد»[٢]

وضاق قُتيبة بأحد فرسان العرب بخراسان فقيل له إنه: ضَرَب ساق موسى بن خازم بعد مقتله.. فقال له قُتيبة: ما دعاك إلى ما صنعت بابن خازم بعد موته، قال: قَتَل أخي. فأمر به قتيبة فَقُتِل بين يديه[٣].

وقال أبو علي القالي في كتاب الأمالي: «مات المُهَلَّب بمَرْوِ الرُّوذ بِخُراسانَ، فقال نَهَارُ بن تَوْسِعَة:

---

(١) القاموس المحيط ـ للفيروزآبادي ـ مادة الظّرب ـ ص١٠٣ جـ١ ـ ومادة فنيق ص٢٨٧ جـ٣ ـ ومادة الصّعب ـ ص٩٥ جـ١.
(٢) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص٥٩ جـ١٣.
(٣) تاريخ الطبري ـ ص٥٣/٨.

أَلا ذَهَبَ الغَزْوُ المُقَرِّب للغِنَى ... وماتَ النَّدَى والحَزْمُ بعد المُهَلَّبِ
أَقاما بِمَرْوِ الرُّوذِ رَهْنَ ضَريحه ... وقد غُيِّبا عن كل شَرْقٍ ومَغْرِبِ

ثم وُلِّي قُتيبةُ بن مُسْلم، فدخل عليه نَهَارُ فيمن دخل وهو يعطِي الناسَ العَطاء، فقال: من أنت: قال: نَهار بن تَوْسعة، قال: أنت القائل في المهلّب ما قلت؟ قال: نعم وأنا القائل:

وما كانَ مُذْ كُنّا ولا كانَ قَبْلَنا ... ولا كائنٌ مِنْ بَعْدُ مِثْلَ ابنِ مُسْلِم..

فقال قتيبة: إن شئت فاقْلِلْ، وإن شئت فأكْثِرْ، وإن شئت فامْدَح وإن شئت فَذُمّ، لا تصيب منّي خيراً أبداً، يا غلام، اقْرِض اسمه من الدفتر (يعني من دفتر العطاء والمرتبات) فلزم منزله حتى قُتِل قتيبة وولّى يزيد، فدخل عليه وهو يقول:

إن كان ذَنْبي يا قتيبةُ أنني ... مدحتُ امْرأً قد كان في المَجْدِ أوْحَدا
أَبا كُلِّ مَظْلوم ومَنْ لا أبا لَهُ، ... وغَيْثَ مُغِيثاتٍ أَطَلْنَ التَّلَدُّدا
فشَأْنك إنّ اللّه إنْ سُؤْتَ مُحسنٌ ... إلَيَّ إذا أبْقَى يَزِيدَ ومَخْلَدَا

قال: احْتَكِمْ، قال: مائة ألف درهم، فأعطاه إياها. وقال أبو عبيدة: بل كان الممدوح مخلد بن يزيد، وكان خليفة أبيه على خراسان»[(١)]، والظاهر من الشعر أن نهار بن توسعة قال تلك الأبيات بعد لزومه منزله في ولاية قتيبة، ولكنها لم تُقال علناً في تلك الفترة التي فيها كانت تبكي خراسان كما قال الفرزدق في بيتيه الخالدين.

وقد ذكر الجاحظ واقعة تدل على أن الأذى امتد حتى إلى غير البشر، قال الجاحظ: «قال أبو الحسن المدائني: اتخذ يزيد بن المهلّب بستاناً في داره بخراسان، فلما ولِّيَ قتيبة بن مسلم خراسانَ جعل ذلك لإبله؛ فقال له مَرزُبان مرو: إن هذا كان بستاناً ليزيد، اتّخَذْتَه لإبلك؟! فقال قتيبة: إنّ أبي كان أشْتُرْبان وأبو يزيد كان بُستان بان»[(٢)]. وجاء في الهامش (أشتربان: كلمة فارسية مكونة من كلمتين (أشتر: بمعنى جمل) و (بان: بمعنى قائد وضابط وحارس) قال الجاحظ (يريد جمّالاً). أما: بستان بان فتعني صاحب بساتين، ولكن الأمر لم يكن أمرَ بداوةٍ وحضارة، بقدر ما كان انسياقاً وراء أهواء الحجاج وسياسته الطُغيانية التي ملأت العراق ومشارقها جوراً وظلماً كما استهدف يزيد بن المهلّب وآل المهلّب وكل مَا لَه صلة بهم لفترة من الزمن.

❊ ❊ ❊

(١) الأمالي: أبو علي القالي ـ ص١٩٨ جـ٢.
(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٨٢/ ٢.

حَبْس يزيد بن المهلّب . . وعبقرية الخروج

عندما استجاب عبد الملك بن مروان لمساعي الحجاج بعزل يزيد بن المهلّب عن ولاية خراسان وتوليه قُتيبة بن مُسلم، لم تتجاوز موافقة عبد الملك ذلك فعاد المُفَضّل والذين كانوا بخراسان من آل المهلّب إلى البصرة ـ في شهر ربيع ٨٦هـ ـ ولم يتسرع الحجاج في إظهار نواياه الكاملة، فقد استمر حبيب بن المهلّب أميراً لإقليم كرمان واستمر عبدالملك بن المهلّب قائداً لشرطة الحجاج، وكان ليزيد بن المهلّب مكانته الاجتماعية الكبيرة، ولكن وفاة عبد الملك بن مروان وأيلولة الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ـ في شوال ٨٦هـ ـ أتاح للحجاج إظهار وتحقيق نواياه التي عقد العزم عليها منذ قال لذلك الشيخ مِن أهل الكتاب: مَنْ سيتولى العراق بعدي؟ قال: رجل يُقال له يزيد، فقال: في حياتي أم بعد موتي؟ قال: لا أدري. فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلّب. ثم منذ أخبر واستشار الحجاجُ عُبيد بن موهب قائلاً: ويحك يا عبيدُ إن أهل الكتاب يذكرون أن ما تحت يدي يتولاه رجل يُقال له يزيد. . وما هو إن كان إلا يزيد بن المهلّب، فقال عُبيد: لقد شرف وعظمت ولايته وإن له قَدْراً وجَلداً وطاعة وحظاً، فَأَخْلِقَ به أن يكون. فسعى الحجاج إلى عزل يزيد وتم له ذلك، فلما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك وأطلق يد الحجاج في أن يفعل ما يُريد؛ قام الحجاج بما ذكره الطبري في أحداث سنة ٨٦هـ قائلاً:

«وفي هذه السنة حَبَسَ الحجاج يزيد بن المهلّب، وعزل حبيب بن المهلّب عن كرمان، وعبد الملك بن المهلّب عن شرطته».

ولم تذكر الروايات ترتيب ذلك، والظاهر أن الحجاج بدأ بعزل حبيب عن ولاية كرمان فرجع إلى البصرة ـ في حوالي شهر ذي القعدة ـ ثم عزل عبد الملك عن قيادة شرطته ـ في حوالي شهر ذي الحجة ـ وبذلك لم يبق أي أمير أو قائد من آل المهلّب، أما حبس يزيد فكان بعد سنة ٨٧هـ، وقد استلزم ذلك تدبير سبب مناسب ليس لتبرير الحبس فقط وإنما أيضاً لأن غاية الحجاج هي القضاء على مكانة وسمعة يزيد وما كان له من شرف وقدر وجَلَد وحظوة، فقام الحجاج بتلفيق مطالبة مالية هي فيما ذكرت رواية للطبري مطالبة يزيد بستة آلاف ألف أو مطالبة يزيد وإخوته بستة آلاف ألف، ثم ذكر الطبري وابن الأثير رواية عن سليمان: (أن الحجاج أغرم يزيد بن المهلّب ستة آلاف ألف، فأدَّى ثلاثة آلاف ألف، وبقي عليه ثلاثة آلاف ألف)، ويمكن التعبير عن ذلك بالقول بأن إيرادات بيت المال من الغنائم والخراج والجزية بخراسان في ولاية يزيد كانت ثلاثة آلاف ألف درهم فقام الحجاج بتلفيق الزعم بأن الإيرادات كانت ـ أو كان ينبغي أن تكون ـ ستة آلاف ألف درهم، وأن على يزيد أن يدفع مبلغ ثلاثة آلاف ألف الذي هو بقية الإيراد المزعوم، ومما يؤكد

عدم صحة ذلك الزعم ما ذكرته كافة النصوص التاريخية من أن الحجاج لما سعى لعزل يزيد وإقناع عبد الملك بن مروان بعزله «لم يجد على يزيد شيئاً»، فلجأ إلى إقناعه بعزله بوسيلة سلف ذكرها، فذلك يؤكد أن الحجاج قام بتلفيق المطالبة بالمبلغ المزعوم، وبالتالي قام بحبس يزيد بن المهلّب في مدينة واسط ثم حبس معه أخويه المفضل وعبد الملك.

* * *

وكان تقدير الناس الأوفياء ليزيد بن المهلّب عظيماً حتى وهو في الحبس، بل إن الشاعر حمزة بن بيض سار ليمدحه في الحبس، فقد «دخل حمزة بن بيض على يزيد بن المهلب وهو في الحبس فأنشده قوله:

أصبح في قيدك السماحةُ ... والحاملُ للمفضلات والحسبُ
لا بطرٌ إن تتابعت نِعَمٌ ... وصابرٌ للبلاء محتسبُ

فقال له يزيد: ويحك أتمدحني على هذا الحال؟ قال: نعم لطالما آتيت على الثناء فأحسنت الثواب والرفد، فلا بأس أن نسلفك الآن. قال: أما إذا جعلته سلفاً فاقنع بما حضر إلى أن يمكن قضاء دَيْنِكْ»[1]. وقد ذكر الأصفهاني نفس الواقعة عن طريق ابن دريد أنه: دخل حمزة بن بيض على يزيد بن المهلب وهو في الحبس ومدحه بقوله:

أُغْلِقَ دون السماح والجُود ... والنجدة باب حديده أشبُ
ابن (أربع وثلاثين) مضتْ ... لا ضَرَعٌ واهنٌ ولا نكِبُ[2]
لا بَطِرٌ إن تتابعت نِعَمٌ ... وصابرٌ في البلاء مُحتسِبُ
برزت سَبْقَ الجواد في مَهَلٍ ... وقَصَرتْ دون سعيك العربُ

فقال له يزيد: واللّه يا حمزة لقد أسأتَ إذْ نَوَّهْتَ باسمي في غير وقت تنويه. ثم رفع مقعداً تحته فرمى إليه بخرقة مصرورة، وعليه صاحب خبر واقف، فقال يزيد لحمزة: خذ هذا الدينار فواللّه ما أملك ذهباً غيره، فأخذه حمزةُ وأراد أن يرده، فقال له يزيد سراً: خذه ولا تُخدع عنه. قال حمزة: فقال لي صاحب الخبر: ما أعطاك يزيد؟ فقلتُ: أعطاني ديناراً فأردتُ أن أرده عليه فأبَىٰ. قال حمزة: فلما صرتُ إلى منزلي حللتُ الصُرّة فإذا فيها فصّ ياقوت أحمر كأنّه سقط

(١) ذكرالأصفهاني في هذه الرواية عن حماد الراوية وقال فيها إن يزيد كان محبوساً بدمشق بينما ذكر نفس الواقعة والشعر عن ابن دريد بأنه كان في حبس الحجاج بالعراق وهو الصحيح.

(٢) جاء صدر البيت في رواية الأصفهاني (ابن ثلاث وأربعين) والأصوب (ابن أربع وثلاثين) لأنه ولد سنة ٥٣هـ.

زند، فقلتُ: واللَّه لئن عرضتُ هذا بالعراق ليُعْلَمَنّ أني أخذته من يزيد فيؤخذُ مني، فَخَرَجْتُ إلى خراسان فبعته بثلاثين ألفاً».

* * *

وقد ذكر الطبري رواية تناقلتها العديد من المصادر وأصلها رواية الطبري من طريق أبي مخنف. تقول تلك الرواية إن الحجاج خرج إلى رُسْتُقْباذ لمحاربة الأكراد وكانوا قد تغلبوا على عامة أرض فارس، فأخرج الحجاج معه يزيد بن المهلب وأخويه المفضل وعبد الملك في عسكره حتى قَدِم بهم رستقباذ، فجعل على يزيد وأخويه كهيئة الخندق وجعلهم في فسطاط قريباً من حجرته وجعل عليهم حرساً من أهل الشام، وأخذ يُعذبهم، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً، وكان الحجاج يُغيظه ذلك، فقيل له: إنه رُمي بنُشَّابة في ساقه فثبت نصلها فيه فإذا مسها شيء صاح، فأمر الحجاج أن يُعذّب في ساقه، فلما فعلوا به ذلك صاح، وكانت أخته هند بنت المهلب امرأة الحجاج فلما سمعت صياح يزيد صاحت وناحت فطلقها الحجاج. ثم إنه كفّ عنهم، ولما عادوا معه إلى واسط أعادهم إلى الحبس[١]. وتلك الرواية فيها بعض الصحة وبعضها غير صحيح، فالصحيح فيها أن الحجاج لما سار إلى رُسْتُقْباذ أخذ يزيد وأخويه معه؛ لأنه خشي أن يتركهم في الحبس بمدينة واسط فيهربون، وغير الصحيح فيها تعذيبهم وإن هند بنت المهلّب لما سمعت صياح يزيد صاحت وناحت فطلقها الحجاج، فقد ذكر أبو العباس المبرد النبأ اليقين عن طلاق هند، وقال: «رأى الحجاج في منامه أن عَيْنَيهِ قُلِعتا، فطلّقَ الهِنْدين هِنداً بنت المُهلّبِ وهنداً بنت أسماء بن خارجة»[٢]، فلم تكن هند بنت المهلّب مع الحجاج عندما سار لقتال الأكراد، وقد أخذ يزيداً معه للسبب سالف الذكر ولما رجع إلى واسط أعاد يزيداً إلى الحبس مع أخويه المفضل وعبد الملك.

قال الجاحظ في البيان والتبيين: وقال يزيد بن المهلّب، وهو في سجن الحجّاج: لهفي على طَلِيَّةٍ بمائة ألف، وفَرَجٍ في جبهة أسد. وأنشدَ:

كَرِهتُ وكان الخَيرُ فيما كرِهتُه وأحبَبتُ أمراً كان فيه شَبَا القَتَل[٣]

وأنشد يزيد أيضاً وهو في السجن:

رُبَّما تَجزَعُ النُّفوسُ مِن الأمر لـه فُرجةٌ كحلِّ العِقالِ[٤]

* * *

(١) تاريخ الطبري ـ ص٧١ جـ٨ ـ والكامل لابن الأثير ـ ص١١٤ جـ٤.

(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٣٠٣ جـ١.

(٣) الشبا: جمع شباة وهو حد الشيء أو حد طرفه، ومنه شباة السيف.

(٤) هذا البيت من بيتين مشهورين أولهما: «لا تضيقن في الأمور فقد تُكْشف غماؤها بغير احتيال».

ثم عقد يزيد بن المهلّب العزم على الهروب من السجن مع أخويه المُفَضّل وعبد الملك، وكان الحجاج قد ملأ العراق والمشارق جَوْراً وطغياناً، قال أبو العباس المبرِّد: «ويروى أن عمر بن عبد العزيز خرج يوماً فقال: الحجاج بالعراق، وقرّة بن شريك بمصر. وعثمان بن حيّان بالحجاز، ومحمد بن يوسف باليمن امتلأت الأرضُ واللّه جَوْراً». ولكن ذلك لا يعني أنهم متساوون، فقد كان قرّة وعثمان ومحمد بن يوسف لا يعدلون، أما الحجاج فقد قال عنه عمر بن عبد العزيز: «لو تخابثت الأمم وجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم» وكان الحجاج لا تزيده الأيام إلا تمادياً في الطغيان وفي سفك دماء الأخيار وكان في سجونه بالعراق عشرات الآلاف، ولم يكن هناك ما يمنع من احتمال أن يندفع في لحظة طغيان إلى قتل يزيد بن المهلّب وآل المهلّب ويختلق ما شاء من تبرير للقتل، وكان ذلك من أهم العوامل التي جعلت يزيد بن المهلّب يعقد العزم ـ في أوائل سنة ٩٠هـ ـ على الهروب والخروج من السجن ومن العراق مع إخوته، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً ولا هيناً، ولكن عبقرية فذّة جعلت ذلك ممكناً. فقد بعث يزيد والمفضل وعبد الملك وهم في السجن بمدينة واسط «بعثوا إلى أخيهم مروان بن المهلب وهو بالبصرة أن يضمّر لهم خيلاً ويُري الناسَ أنه إنما يريد بيعها، ويعرضها على البيع ويُغلي بثمنها لئلا تُشْتَرى، ويهيئ الخيل لتكون لنا عُدّة إن نحن قدرنا على أن ننجو مما ههنا، ففعل مروان ذلك» ـ أي هيأ عشرات الخيول في البصرة ـ بينما في ذات الوقت قام صديقٌ اعتمد عليه يزيد بتهيئة ثلاثة مراكب في شاطئ البطائح بالفرات غير بعيد من سجن واسط، فلما تم ذلك أمر يزيد بتهيئة وليمة طعام لحراس السجن واختلق مبرراً لذلك فأتى الطباخ والحمالون بالطعام في المساء إلى السجن، وقد ذكرت المصادر التاريخية نبأ ما حدث بأنه «أمر يزيد بن المهلّب فَصُنع لحرس السجن طعام كثير، فأكلوا، وانشغلوا بالطعام، ولبس يزيد ثياب طبّاخه ووضع على لحيته لحيةً بيضاء وخرج، فرآه بعض الحرس فقال: كأنّ هذه مِشْية يزيد فجاء حتى استعرض وجهه ليلاً فرأى بياض اللحية وقال هذا شيخ وانصرف عنه فخرج يزيد من السجن وخرج المُفَضّل على أثره ولم يُفْطَن له، فمضوا إلى سفنهم وقد هيأوها في البطائح، فلما انتهوا إلى السفن أبطأ عليهم عبد الملك، فأقام يزيد والمفضل حتى جاءهم عبد الملك وركبوا عند ذلك السفن وبينهم وبين البصرة ثمانية عشر فرسخاً، فساروا ليلتهم ـ بالسفن ـ حتى أصبحوا في المكان الذي قصدوه بالسفن. بينما في سجن واسط لما أصبح الحرس علموا بذهابهم، فرفع الحرس خبرهم إلى الحجاج ـ وبدأ البحث عنهم في واسط ـ بينما في البصرة خرج مروان بن المهلب بالخيول إلى المكان الذي وصل إليه يزيد بالمراكب عند منتهى البطائح فاستقبلت يزيد الخيول قد هيأت له ولإخوته.

وتتابع رجال وشباب بني المهلب في الخروج من البصرة بشكل غير ملفت للانتباه حتى بلغ عدد الذين مع يزيد خمسين من آل المهلب فمضوا بالخيول. وعرف الحجاج خلال يومين بأنهم ساروا من البصرة، ففزع لذلك.. وقال الفرزدق في خروج يزيد بن المهلّب والذين معه:

وَلَمْ أرَ كالرَّهْطِ الذِينَ تَتَابعوا ... على الجذع والحرَّاسُ غيرُ نِيام
مَضَوْا وَهُمْ مُسْتَيْقِنُونَ بأنهم ... إلى قَدَرِ آجالِهِم وحِمَامِ
وإن منهمُ إلّا يُسَكّنُ جأشَهُ ... بعضب صَقيلِ صارِمٍ وحُسامِ
فلما التَقَوْا لم يلتقُوا بِمُنَقَّهٍ ... كبيرٍ ولا رُخصِ العِظَامِ غُلَامِ
بمثل أبيهمْ حينَ تمت لِدَاتهم ... بخمسين تَترى جُرْأةٍ وَتَمَامِ

قال ابن جرير الطبري: «وفزع الحجاج وذهب وهْمُه أنهم ذهبوا قِبَلَ خُراسان، وبعث البريد إلى قتيبة بن مُسلم يُحذره قدومهم ويأمره أن يستعد لهم، وبعث إلى أمراء الثغور والكُوَرِ أن يرصدوهم ويستعدّوا لهم، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك يُخبره بهربهم وأنه لا يراهم أرادوا إلا خراسان، ولم يزل الحجاج يظنّ بيزيد ما صنع وكان يقول: إنّي لأظنه يحدّث نفسه بمثل الذي صَنَع ابن الأشعث».

ويتبين من ذلك مدى الرُّعب الذي أصاب الحجاج ومدى حالة الاستنفار التي خلقتها رسائل الحجاج إلى أمراء وعمال الثغور والأقاليم المُمتدة إلى خراسان. لقد كان خروج يزيد والذين معه ضربة لِهيْبَةِ وجبروتِ الحجاج، ثم كانت الضربة الأكبر حين اتضح عدم مسير يزيد إلى الشرق وخراسان، وإنما سار من طريق بادية السماوة ورملة عالج ـ في شرق الجزيرة العربية ـ إلى فلسطين بالشام قاصداً سليمان بن عبد الملك ولي العهد «فلما دخل فلسطين نزل يزيد عند وهيب بن عبد الرحمٰن الأزدي وأنزل بعض ثقله وأهله عند سفيان بن سليمان الأزدي، وكان دليل يزيد والذين معه في ذلك المسير عبد الجبار بن يزيد بن الرَّبعة الكلبي القضاعي الحميري فلما وصلوا عند وهيب وسفيان الأزديين بفلسطين قال عبد الجبار:

ألّا جَعَلَ اللَّهُ الأخلّاء كلَّهُم ... فِداءً على ما كان لابن المهلّبِ
لنِعْمَ الفتَى يا معشر الأزد أسْعَفَتْ ... رِكابكُمُ بالوهبِ شرْقيّ مَنْقَبِ
عَدَلْن يَميناً عنهم رَمْلُ عالجٍ ... وذات يمين القوم أعلامُ غُرَّبِ
فإلّا تُصَبّحْ بعدَ خمسٍ ركابُنا ... سليمانَ من أهل اللوى تتأوّبِ
تَقرُّ قَرَارَ الشَّمسِ مما وراءَنا ... وتَذْهَبُ في داجٍ مِنَ الليلِ غَيْهَبِ
بقوم هُمُ كانوا الملوكَ هَدَيْتُهُمْ ... بِظلْماءِ لم يُبْصَرْ بها ضَوءُ كوكبِ

ولا قمرٍ إلّا ضَئِيلاً كأنّه سِوَارٌ حناهُ صائغُ السُّور مُذهبِ

وكان وهيب بن عبد الرحمٰن الأزدي من قادة اليمانية بفلسطين وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك فسار حتى دخل إليه وقال له: هذا يزيد بن المهلب وإخوته في منزلي وقد أتوك مستجيرين بك من الحجاج فقال سليمان: ائتني بهم فقد أجرتُهم، فجاء بهم إلى سليمان في فلسطين فاستقبلهم وأكرمهم سليمان وأنزلهم عنده في دار الإمارة.

وكتب سليمان إلى الوليد بن عبد الملك: إنّ يزيد بن المهلّب عندي وقد أمّنته. وتزعم رواية ثانية: أن الحجاج عرف بعد يومين من مسير يزيد وإخوته بأنهم قصدوا الشام فكتب إلى الوليد أن آل المهلب خانوا مال اللّه وهربوا مني ولحقوا بسليمان، وهذه الرواية غير صحيحة؛ لأن المسافة التي سارها يزيد كانت نحو أسبوعين وكانوا يسيرون في الليل، وقد ذكرت كافة المصادر أنه «كان قدوم آل المهلب على سليمان وقد أمر الوليدُ الناس أن يستنفروا ليسرَّحوا إلى خراسان، وكانوا لا يرون إلا أن يزيد توجّه إلى خراسان ليفتن منْ بها، فلما بلغ الوليد بأنه عند سليمان هَوّن عليه ذلك بعض ما كان في نفسه، وسَكَنَ ما به لأنه كان خشيهم على خراسان» فذلك يدل على أن الوليد إنما عرف بأنهم عند سليمان عندما قَدِموا على سليمان ونزلوا عنده وكان ذلك بعد نحو أسبوعين وكان هناك استنفار عام للجيوش إلى خراسان، فلما علم الوليد بأن يزيد عند سليمان اتضح له عدم صحة مزاعم وتقديرات الحجاج، وأبلغ الوليد الناس بما فيهم الحجاج بإنهاء الاستنفار لأن يزيد ليس في خراسان ـ كما كان يظن الحجاج ـ وإنما هو في قلب الشام. وأما التهمة المالية فإن الوليد كان يعرفها منذ قام الحجاج بتلفيقها وحبس يزيد قبل أكثر من سنة وكان يعرف كسائر الناس أنها غير صحيحة، ولذلك فإنه عندما (كتب سليمان إلى الوليد: أنّ يزيد بن المهلّب عندي وقد أمّنته، وأن الحجاج أغرمه ستة آلاف ألف، وأدى ثلاثة آلاف ألف، والذي بَقي أنا أؤديه). لم يلتفت الوليد إلى ذلك القول عن المال ولم يفُته إدراك أن سليمان يريد بتلك العبارة عن المال توفير مخرج شكلي ليس هنالك ما يدعو إليه، فقد أصبحت القضية أن سليمان ـ ولي العهد ـ أجار وأمّنَ يزيد بن المهلّب، ولا بد أن يكون للوليد ـ الخليفة ـ رأي يجعل له أيضاً فضلا في ذلك أو يؤكد أنه الأقوى فكتب إلى سليمان «لا واللّه لا أؤمّنه حتى تبعث به إليّ. فكتب إليه سليمان: لئن أنا بعثت به إليك لأجيئنَّ معه فأُنشدك اللّه أن لا تفضحني ولا أن تخفرني. فكتب إليه الوليد: واللّه لئن جئتني معه لا أؤمّنه». وبتلك المراسلات والرُسل بين الخليفة في دمشق وولي العهد بفلسطين أخذ الموقف يتصاعد ويستقطب اهتمام وآذان الناس (فقال يزيد بن المهلب لسليمان: ابعثني إليه

فواللّه ما أحبّ أن أوقع بينك وبينه عداوة وحرباً ولا أن يتشاءم بي لكما الناس، ابعث إليه بي وأرسلْ معي ابنك واكتُبْ إليه بألطف ما قدرت عليه. فأرسل سليمان ابنه أيوب معه، وكان الوليد أمره أن يبعث به إليه مقيداً، فقال سليمان لابنه: إذا أردت أن تدخل عليه فادخل أنت ويزيد في سلسلة ثم ادخلا معاً على الوليد، ففعل ذلك، فلما دخلا إلى الوليد ـ في قصر الخلافة بدمشق ـ ورأى الوليد ابن أخيه في السلسلة قال: واللّه لقد بلغنا من سليمان ـ وأمر بنزع السلسلة عنهما ـ ثم إن الغلام أيوب دفع كتاب أبيه إلى عمه وقال: يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك لا تخفر ذمة أبي وأنت أحقُ من منعها، ولا تقطع منّا رجاء من رَجَا السلامة في جوارنا لمكاننا منك، ومَنْ رجا العزّ في الانقطاع إلينا لعزّنا بك. وقُرِئ كتاب سليمان إلى الوليد وقد جاء فيه: «يا أمير المؤمنين، واللّه إن كنتُ لأظُنُ لو استجار بي عدوٌّ قد نابذك الحرب أنك لا تخفر جواري، بل لم أجر إلا سامعاً مطيعاً حَسَنَ البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته، وقد بعثتُ به إليك فإن كنت إنما تغزو قطيعتي والإخفار لذمتي فقد قدرت إن أنت فعلتَ، وأنا أعيذك باللّه من احتراد قطيعتي وانتهاك حرمتي فواللّه يا أمير المؤمنين ما تدري ما بقائي وبقاؤك ولا متى يُفرق الموت بيننا. . فقال الوليد: لقد شققنا على سليمان. ثم تكلم يزيد بن المهلب فحمد اللّه وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال: يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء فَمن ينْسى ذلك فلسنا ناسيه ومن يكفر ذلك فلسنا كافريه وقد كان من بلائنا أهل المهلّب في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغارب ما أن المنّة علينا فيه عظيمة. فقال له الوليد: اجلسْ، فجلس، فأمنّه الوليد، وكتب إلى الحجاج: إني لم أستطع الوصول إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان فاكفف عنهم وانْتَهِ عن الكتابة إليّ فيهم، فكف الحجاج عنهم، وكان في سجونه أبو عيينة وحبيب فخلى سبيلهم، ومكث يزيد عند سليمان بفلسطين.

* * *

فترة مكوث يزيد بن المهلّب في فلسطين (٩٠ ـ ٩٦هـ)

لقد اقترن تأمين الوليد ليزيد بن المهلب بشرط غير مباشر هو أن يقيم عند سليمان بن عبد الملك بفلسطين، وهو ما يتجلى في مكتوبه إلى الحجاج فقد كتب إليه قائلاً: «إني لم أصل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان فأكفف عنهم وانْتَهِ عن الكتابة إليّ فيهم». فمؤدى ذلك أن يقيم يزيد والذين معه من آل المهلّب عند سليمان بن عبد الملك، وبالفعل خرج يزيد بن المهلّب من قصر الخلافة بدمشق إلى سليمان في مدينة اللد بفلسطين. قال الطبري:

«وأقام يزيد عند سليمان بن عبد الملك يعلمه الهيئة ويهدي له الهدايا العظام

وكان من أحسن الناس عنده منزلة» وقد أشاد الشعراء والناس بموقف سليمان بن عبد الملك من يزيد بن المهلب ابتداءً بقول عبد الجبار بن يزيد الكلبي:

ألا جعل اللَّهُ الأخِلّاءَ كلَّهُم ... فِداءً على ما كان لابن المهلّبِ

. . فإلّا تُصَبِّح بعدَ خَمسٍ ركابُنا ... سليمانَ من أهل اللوىٰ تتأوَّبِ

ولما نال يزيد بن المهلّب الأمان واستقر عند سليمان بن عبد الملك، وَفَدَ من خراسان والعراق الشاعر حمزة بن بيض الحنفي فأدخله يزيد على سليمان فمدحه بقصيدة قال فيها:

ساس الخلافة والداك كلاهما ... من بين سخطة ساخط أو طائع

أبواك ثم أخوك أصبح ثالثاً ... وعلى جبينك نور مُلك الرابع

سرَّيت خوف بني المهلب بعدما ... نظروا إليك بسم موت ناقع

ليس الذي ولّاك ربُك منهم ... عند الإله وعندهم بالضائع

وفي فترة إقامة يزيد بن المهلّب عند سليمان بفلسطين تم تأسيس وتمصير مدينة الرملة واتخاذها مدينة وعاصمة إدارية لفلسطين بدلاً عن مدينة اللّد. قال البلاذري: «ولّى الوليد بن عبد الملك سليمان بن عبد الملك جَنْد فلسطين فنزل مدينة لدّ، ثم أحدث مدينة الرّملة ومَصّرَها، ولم تكن مدينة الرملة قبل سليمان، وكان موضعها رملة، وكان أول ما بَنَى سليمان من الرملة قصره والدار التي تُعرف بدار الصباغين، ثم اختط للمسجد خطة، وبناهُ. .»[1] وقد تولى الإشراف على بناء المدينة والقصر كاتب لسليمان نصراني من عرب فلسطين يقال له البطريق بن النكا، ربما تحت الإشراف العام لرجاء بن حيوة الكندي، أما بناء مسجد الرملة فكان بإشراف رجاء بن حيوة الكندي وهو الذي أشرف على بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٦٦ ـ ٧٣هـ وكان رجاء من أهل مشورة عبد الملك بن مروان ثم كان وزيراً لسليمان منذ ولايته لفلسطين في خلافة الوليد، فكان له دور في تأسيس واختطاط مدينة الرملة ـ منذ نحو سنة ٩٠هـ ـ وبالذات بناء مسجد الرملة وقد اختط سليمان للمسجد مساحة شاسعة، ربما تضاهي مساحة المسجد الأقصى، فاستغرق البناء عدة سنوات، قال البلاذري: «ثم أتمّ مسجد الرملة عمر بن عبد العزيز، ونقص من خطة المسجد، وقال: أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار». وقد أصبحت الرملة مدينة وعاصمة إدارية لفلسطين منذ نحو سنة ٩٠هـ قال البلاذري: «ولما بَنَى سليمان لنفسه بالرملة، أذن للناس في

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص١٤٩.

البناء، فبنوا، واحتفر لأهل الرملة قناتهم التي تُدعى بردة، واحتفر آباراً» وكان لرجاء بن حيوة دور في ذلك، وكان يزيد بن المهلّب والذين معه من آل المهلب ممّن بنوا مساكن لهم بالرملة واستقروا في ربوعها.

وكانت السنوات التي عاشها يزيد بن المهلّب بفلسطين من أفضل مراحل حياته استقراراً وهدوءاً وعلماً ومكانةً، وكان يزيد من أحسن الناس منزلة عند سليمان بن عبد الملك ومن أهل مشورته، كما تعززت وتوطدت علاقات يزيد بشخصيات الشام ورؤساء اليمانية بالشام والذين كان من أبرزهم: الأمير خالد بن عبد اللّه القَسْري البجلي أمير مكة. قال ابن الأثير في أحداث سنة ٨٩هـ «وفي هذه السنة ولّي خالد بن عبد الله القسري مكة.. وقيل: ولّيها سنة إحدى وتسعين. فلم يزل والياً عليها حتى مات الوليد». وكان خالد صاحباً ليزيد بن المهلّب وسيأتي ذكر وقوفه معه في خلافة سليمان. وكذلك كان من رؤساء اليمانية بالشام الأمير الفاتح موسى بن نُصير اللخمي، وكان موسى بن نصير مستشاراً لبشر بن مروان أمير العراق سنة ٧٣هـ لما أراد بِشْر الكيد للمهلّب فقال له موسى بن نُصير: «إنّ للمهلّب حِفاظاً وبَلاءً ووَفاء» ومكث موسى بن نُصير مستشاراً لأمير العراق حين تولى المهلّب محاربة الخوارج وأعاد سلطة دولة الخلافة في بلاد فارس وكرمان سنة ٧٤ ـ ٧٧هـ وعرف يزيد بن المهلّب منذ تلك الفترة، ثم عندما استقر يزيد بفلسطين كان موسى بن نُصير أميراً والياً لبلاد المغرب العربي (٨٨ ـ ٩٣هـ) ثم افتتح موسى بن نصير بلاد الأندلس وتولاها (٩٣ ـ ٩٦هـ) وكذلك كان من رؤساء اليمانية بالشام قرّة بن شريك العبسي المذحجي أمير ولاية مصر (٩٠ ـ ٩٦هـ) والجراح بن عبد اللّه الحكمي المذحجي أمير البصرة بالعراق، وكانت تصل الهدايا من أولئك الأمراء أو غيرهم إلى يزيد بن المهلّب بفلسطين، قال ابن الأثير: «وكان لا يأتي يزيد هدية إلا بعث بها إلى سليمان، ولا يأتي سليمان هدية إلّا بعث بنصفها إلى يزيد، وكانت لا تعجبه جارية إلا بعث بها إلى يزيد»[1] وقال ابن جرير الطبري:

«أقام يزيد بن المهلّب عند سليمان بن عبد الملك يعلمه الهيئة ويصنع له طيب الأطعمة ويهدي له الهدايا العظام وكان من أحسن الناس عنده منزلةً. وكان لا تأتي يزيد بن المهلب هديّة إلا بعث بها إلى سليمان، ولا تأتي سليمان هدية ولا فائدة إلا بعث بنصفها إلى يزيد بن المهلّب، وكان لا تعجبه جارية إلّا بعث بها إلى يزيد إلا خُطيئة الجارية. فبلغ ذلك الوليد بن عبد الملك فدعا الحارث بن مالك بن ربيعة الأشعري فقال: انطلق إلى سليمان فقل له: يا خالفة أهل بيته إن أمير المؤمنين قد

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١١٦ جـ٤.

بلغه أنه لا تأتيك هدية ولا فائدة إلا بعثت إلى يزيد بن المهلّب بنصفها، وإنك تأتي الجاريةُ من جواريك فلا ينقضي طهرها حتى تبعث بها إلى يزيد، وقَبِحْ ذلك عليه وعَيّره به ـ وقال للحارث ـ أتراك مبلغاً ما أمرتك به؟ قال: طاعتك طاعة وإنما أنا رسول، قال: فأتِهْ فَقُلْ له ذلك وأقم عنده فإني باعثٌ إليه بهديّة فادفعها إليه وخذ منه البراءة بما تدفع إليه ثم أقْبِلْ. فمضى الحارث حتى قدِم على سليمان وبين يديه المصحف وهو يقرأ فدخل عليه، فسلم، فلم يرد عليه السلام حتى فرغ من قراءته، ثم رفع رأسه إليه، فكلمه بكل شيء أمره به الوليد، فتمعر وجهه ثم قال: أما واللّه لئن قدرت عليك يوماً من الدهر لأقطعن منك طابقاً. فقال له: إنما كانت عليّ الطاعة، ثم خرج من عنده، فلما أتى بذلك الذي بعث به الوليد على سليمان دخل عليه الحارث بن ربيعة الأشعري وقال له: أعطني البراءة بهذا الذي دفعت إليك، فقال: كيف قلت لي؟ قال: لا أعيده عليك أبداً إنما كان عليّ فيه الطاعة. فسكن وعلم أن قد صدقه الرجل، ثم خرج سليمان وخرجوا معه فقال: خذوا نصف هذه الأعدال وهذه الأسفاط وابعثوا بها إلى يزيد، فعلم الرجل أنه لا يطيع في يزيد أحداً. ومكث يزيد بن المهلب عند سليمان (بعد ذلك) تسعة أشهر وتوفي الحجاج سنة ٩٥ في رمضان»[١].

* * *

وكان يزيد بن المهلب في فترة مكوثه عند سليمان بفلسطين يُتابع أنباء العراق وخراسان، وكان من بين ذلك أنباء غزوات وفتوحات قتيبة بن مسلم عامل الحجاج على خراسان، فقد ذكر الطبري وابن الأثير أنه «كان سليمان كلما فتح قتيبة فتحاً يقول ليزيد: ألا ترى ما يفتح اللّه على قتيبة ـ أو: ما ترى في ما يفتح قتيبة؟ ـ فيقول يزيد: ليست هذه الغزوات والفتوح بشيء، الشأن هي جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور».

وقد اعتبر يزيد بن المهلب غزوات وفتوحات قتيبة ليست بشيء لأنها في الفترة من سنة ٨٩ ـ ٩٤هـ كانت عبارة عن غزوات البلاد قد تم غزوها وفتحها ويؤدي حكامها وأهلها الجزية منذ عهد المهلّب ويزيد بن المهلّب، فعندما تولى قتيبة خراسان ـ وكما ذكر الطبري وابن الأثير ـ «سار إلى الطالقان فأتاه دهاقين بَلْخ وساروا معه فقطع نهر جيحون فتلقاه ملك الصغانيان بهدايا وسار معه إلى بلاده، ثم سار منها إلى أخْرون وشومان وهما من طخارستان فأدّى إليه ملكها الفدية ـ أو الجزية ـ ثم انصرف إلى مرو، وكتب إلى نيزك صاحب باذغيس.. فصالحه على أهل باذغيس».

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٨٤ جـ٨.

وذلك يؤكد التزام ملوك وأهالي تلك البلاد بأداء الجزية والطاعة منذ افتتحها يزيد بن المهلّب إلى أن تولى قتيبة خراسان، وكذلك كان ملوك بخارى وسمرقند بإقليم الصُّغد وملك بلاد الختل وملك خجندة بإقليم فرغانة، وكان في سائر تلك البلاد عمال ليزيد بن المهلّب ومنها بلاد زم التي فتحها المهلّب بل وأسلم ملكها غزوان الإسكاف على يد المهلّب واشترك مع يزيد في فتح بلاد نَسَفْ ـ سنة ٨٢هـ ـ وقد سلف نص الطبري عن ذلك. فقام قتيبةُ بن مسلم ـ بناء على أوامر الحجاج ـ بإعادة غزو تلك البلاد، ففي سنة ٨٩ ـ ٩٠هـ «غزا قتيبة بلاد زّم، وحارب الصُّغد وأهل كش، وصَالَح طرخون ملك الصُّغد ـ ملك سمرقند ـ وغزا نيزك ملك باذغيس» وفي سنة ٩١هـ «غزا شومان وكشّ ونَسَفْ مرة ثانية، وبُخارى» وفي سنة ٩٣هـ «غزا خوارزم، وافتتح سمرقند» ثم في سنة ٩٤هـ «غزا فرغانة حتى بلغ خُجَنْدة وكاشان مدينتي فرغانة». بينما كل تلك الأقاليم والمناطق قد سبق غزوها وفتحها ومصالحة حكامها وأهلها على أداء الجزية في عهد المهلّب ويزيد بن المهلّب، وقد سلف ذكر النصوص التاريخية عن ذلك، وقد اعتبر أهل تلك البلاد غزوات قتيبة غدراً، ويبدو أنه لم يكن لها مبرر إلا أمرين، أحدهما: النهب أو الغنائم، وهو ما أشار إليه الشاعر قائلاً:

كُلّ عام يحوي قتيبةُ نهباً ويَزِيدُ الأموالَ مالاً جديداً

والأمر الثاني أن قادة وعمال تلك الأقاليم وغيرها كانوا في عهد المهلّب ويزيد من اليمانية القحطانية غالباً ومن ربيعة، فقام قتيبة بن مسلم ـ بناء على أوامر الحجاج ـ بإقصاء اليمانية وتغليب القيسية، وفي ذلك يقول د. ناجي حسن «ارتفعت مكانة القيسية في زمن قتيبة حتى سيطروا على سمرقند بعد أن كانت الغلبة فيها لليمانية، وإلى هذا يشير الكميت بقوله:

كانت سمرقند أحقاباً يمانيةً فاليوم تنسبها قيسيَّةٌ مُضَرُ»[1]

فإعادة غزو وفتح سمرقند سنة ٩٣هـ ربما لم يكن إلا من أجل ذلك الهدف الذي نطق به الكُميت بن زيد الأسدي وهو شاعر العصبية القيسية في ذلك الزمان، وكان الحجاج يحاول تدعيم حكمه للعراق ومشارقها بعصبية قيسية مع أن طغيانه شَمَل الجميع بالعراق سواء اليمانية أو القيسية أو ربيعة أو المسلمين من العجم.

وفي سنة ٩٣هـ وبينما يزيد بن المهلّب عند سليمان بن عبد الملك بفلسطين: «كتب عمر بن عبد العزيز ـ وكان عاملاً للمدينة المنورة ـ إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بعسف الحجاج بأهل العراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق. فبلغ ذلك

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص٩٧.

الحجاج فكتب إلى الوليد: إنّ مَنْ عندي من الْمُرَّاق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولحقوا بالمدينة وإن ذلك وهن. فكتب إليه الوليد يستشيره فيمن يوليه المدينة، فأشار عليه بعثمان بن حيان، فعزل الوليد عمر بن عبد العزيز وولّى عثمان بن حيّان على المدينة، وكان عزل عمر في شعبان سنة ٩٣هـ، فخرج من المدينة إلى الشام» وكان عمر بن عبد العزيز عند سليمان بفلسطين سنة ٩٥هـ، وربما منذ خروجه من المدينة، فالتقى يزيد بن المهلّب بعمر بن عبد العزيز في رحاب سليمان بفلسطين، وكان سليمان قد بويع بولاية العهد بوصية عبد الملك بن مروان بأن الخليفة بعده الوليد وبعد الوليد سليمان، فبويع للوليد بالخلافة ولسليمان بولاية العهد.

وفي سنة ٩٤ ـ ٩٥هـ أخذ الحجاج في التآمر على سليمانّ بن عبد الملك، لقد كان الحجاج يتخوف من نبوءة ذلك الشيخ من أهل الكتاب بأن البلاد التي بيد الحجاج سيتولاها بعده (رجل يقال له يزيد) فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلّب فتآمر عليه إلى أن حَبَسه، وكان يريد قتله، فنجا يزيد، واستقر عند سليمان بفلسطين، فهدأت مخاوف الحجاج، وأخذ يعمل لكي يكون حكم العراق ومشارقها بعده لآل بيت الحجاج وشيعته، وكان سليمان بن عبد الملك مثل عمر بن عبد العزيز يبغض جَوْر وطغيان الحجاج، فأخذ الحجاج في لعب الدور الذي قام به في خلافة عبد الملك بن مروان حين سعى في عزل عبدالعزيز بن مروان ـ والد عمر بن عبدالعزيز ـ من ولاية العهد واستخلاف الوليد، ولكن عبد العزيز مات آنذاك قبل اكتمال الخطة، فتم أمر استخلاف الوليد، ثم كان للحجاج دور في مسعى الوليد بن عبد الملك لخلع سليمان من ولاية العهد واستخلاف عبد العزيز بن الوليد، وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير قائلاً: «كان الوليد قد عزم قبل موته على خلع سليمان وأن يجعل ولاية العهد لولده عبد العزيز وقد كان الحجاج طاوعه في ذلك وأمره به»[١] وقال الطبري: «أراد الوليد أن يبايع لابنه عبد العزيز ويخلع سليمان، فأبَىٰ سليمان. فأراده على أن يجعل له الأمر من بعد عبد العزيز، فأبَىٰ سليمان. فعرض عليه أموالاً كثيرة، فأبَىٰ. فكتب الوليد إلى عماله ـ سنة ٩٥هـ ـ أن يبايعوا لعبد العزيز ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس.. وقال الهلوث الكلبي: كنّا بالسند مع محمد بن القاسم الثقفي فجاءنا كتاب الحجاج: أن اخلعوا سليمان»[٢]. ولكن مبادرة الحجاج بالعراق وقتيبة بخراسان ومحمد بن القاسم بالسند إلى خلع سليمان لم تكن كافية لأن غالبة الأمراء والقادة والعلماء تمسكوا

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٦٦ و ١٧٨ جـ٩.

(٢) تاريخ الطبري ـ ص٩٩ جـ٨.

بأنهم قد بايعوا لسليمان، وما لبث أن مات الحجاج في شوال سنة ٩٥هـ واستخلف نواباً بالعراق بينهم ابن الحجاج، واستمر الوليد في جهوده لخلع سليمان واستخلاف ابنه ولكن ذلك ما لبث أن انقطع، قال ابن كثير: «لم ينتظم ذلك حتى مات الوليد في منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ وانعقدت البيعة لسليمان بن عبد الملك».

* * *

وكان يزيد بن المهلب من أوائل الذين بايعوا سليمان في الرملة بعد موت الوليد يوم مات، قال ابن كثير: «وكان موته يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ وكان سليمان بالرملة». فبويع سليمان بالرملة وكان من أوائل الذين بايعوه عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة الكندي ويزيد بن المهلّب وغيرهم ممن كان بالرملة وفلسطين من الرؤساء والناس فمكث سليمان أياماً بالرملة ثم سار إلى القدس. قال ابن كثير: «وأتته الوفود إلى بيت المقدس يبايعونه، وكان يجلس في قبة في صحن المسجد مما يلي قبة الصخرة من جهة الشمال، وتجلس أكابر الناس على الكراسي»(١).

وقام سليمان ـ وهو بالقدس ـ بعزل بعض الولاة والأمراء والعمال، وتولية ذوي الصلاح من الأمراء، وكان ممن يستشيرهم سليمان وزيره رجاء بن حيوة الكندي، وعمر بن عبد العزيز، وكذلك يزيد بن المهلّب، وقد تشفع يزيد للأمير اليماني خالد بن عبد اللّه القسري أمير ولاية مكة (٨٩ ـ ٩٦هـ) وكان سليمان قد نقم عليه لموقفه من محاولة الوليد خلع سليمان والبيعة لعبد العزيز بن الوليد ولم يكن خالد ممن خلعوا سليمان ولكنه لم يعارض ذلك، فقام سليمان بعزله من ولاية مكة، وكان رجل من قريش يُقال له ابن شيبة قام بالشعب عند باب الكعبة في ولاية خالد، فأمر بضربه مائة سوط، فلما تولى سليمان الخلافة وعزل خالداً، سار ابن شيبة يشكوه إلى سليمان وتعصب معه ناس وشهدوا على خالد، فأمر سليمان بالاقتصاص من خالد فَتَشَفَّعَ يزيد بن المهلّب لخالد عند سليمان، فاستمع سليمان لرأي يزيد، وفي ذلك قال الفرزدق لخالد بن عبد اللّه القسري فيما بعد:

لَعمْري لقد صال ابن شيبة صولة	أرَتْكَ نجوم الليل ظاهرةً تسري
ولولا يزيد ابن المُهَلّبِ حَلّقَتَ	بكفك فتخاءُ إلى الفرخ في الوكر

وكان خالد من رؤساء اليمانية بالشام، وكان له قصر في دمشق، فأقام بدمشق، وولّى سليمان على مكة ـ مكان خالد ـ طلحة بن داوود الحضرمي، وكذلك: عزل سليمان عثمان بن حيّان عن ولاية المدينة المنورة في رمضان ٩٦هـ

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٦٦ و ١٧٨ جـ٩.

وولّى عليها أبا بكر محمدبن عمرو بن حزم الأنصاري[١] وعزل أيوب بن يحيى الثقفي عن ولاية اليمن، وولّى سليمان على اليمن عُرْوة بن محمد السعدي[٢] وكان قرّة بن شريك العبسي أمير مصر قد مات، فولّى سليمان على مصر عبد الملك بن رفاعة اللخمي[٣] وولّى سليمان على ولاية أرمينيا وأذربيجان عَدِيّ بن عَدِي بن عُميرة الكندي[٤].

وبينما يزيد بن المهلّب عند سليمان بن عبد الملك ـ في القدس ـ أتى إلى سليمان رسول من قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان، وقد ذكر الحافظ ابن كثير أنه «كان الوليد قد عزم قبل موته على خلع أخيه سليمان وأن يجعل ولاية العهد لولده عبد العزيز، وقد كان الحجاج طاوعه في ذلك وأمره به، وكذلك قتيبة بن مسلم وجماعة، فلم ينتظم ذلك حتى مات، وانعقدت البيعة لسليمان فخافه قتيبة بن مسلم». وكذلك ذكر الطبري أنه «كان الوليد كتب إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز.. فلم يُجبه أحد إلا الحجاج وقتيبة وخواصُ من الناس..» ولذلك خاف قتيبة عندما تولى سليمان الخلافة، وقد علم قتيبة بمكانة يزيد بن المهلّب عند سليمان وتأثيره في عزل وتولية الولاة والأمراء، فبعث قتيبة إلى سليمان ثلاثة كتب (رسائل)، قال الطبري: «وبعث قتيبة بالكتب الثلاثة مع رجل من بَاهِلة، وقال له: ادفع إليه الكتاب (الأول) فإن كان يزيد بن المهلّب حاضراً فقرأه ثم ألقاه إليه فادفع إليه الكتاب الثاني فإن قرأه وألقاهُ إلى يزيد فادفع إليه الكتاب الثالث، فإن قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين. فدخل رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلّب، فأعطاه الكتاب الأول فقرأه ثم دفعه إلى يزيد بن المهلّب، فأعطاه الكتاب الثاني فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد بن المهلّب، فأعطاه الكتاب الثالث فقرأه وأمسكه بيده، وأمر سليمان بنزول رسول قتيبة في دار الضيافة»[٥].

---

(١) أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري. من العلماء الثقاة، وهو أمير ولاية المدينة المنورة في خلافة سليمان ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز.

(٢) عروة بن محمد السعدي أمير ولاية اليمن في خلافة سليمان (٩٦ ـ ٩٩هـ) ثم في خلافة عمر (٩٩ ـ ١٠١هـ) وكان من خيرة ولاة اليمن، قال الأكوع في هامش قرة العيون: «كان عروة من أصلح الولاة وأزهدهم في المال وأتقاهم لله».

(٣) عبد الملك بن رفاعة اللخمي اليماني أمير مصر في خلافة سليمان، جاء في ترجمته بكتاب الجامع «كان عبد الملك بن رفاعة عادلاً عفيف النفس فاضلاً.. ومن كلامه: إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاقة» تولى مصر سنة ٩٩ ـ ١٠١هـ.

(٤) عدي بن عدي الكندي: من علماء التابعين، قال الحافظ ابن حجر «وهو صاحب عمر بن عبد العزيز» وقد ذكرناه في مبحث خاص بهذا الكتاب.

(٥) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٠٤ جـ٨.

وقد ذكر الطبري وابن الأثير أن مكتوب قتيبة ـ الأول ـ إلى سليمان «كان يعزيه فيه بوفاة الوليد ويهنئه بالخلافة، وأنه على مثل ما كان للوليد من الطاعة إن لم يعزله عن خراسان». ـ وتزعم رواية من طريق ابن خلف ذكرها الطبري: أن قتيبة ذم يزيد بن المهلّب في مكتوبه الأول، وقد استبعد ابن الأثير ذلك الزعم ولم يذكره ـ أما المكتوب الثاني «فذكر قتيبة في الكتاب الثاني ما قام به من الغزوات والقتال والفتوح في خراسان وما وراء النهر، وهيبته في صدور الملوك الأعاجم» ـ وجاء في رواية ابن خلف أنه ـ «ذم قتيبةُ يزيد بن المهلّب وآل المهلّب في الكتاب الثاني، وأقْسَم لئن عزله سليمان وولّى يزيد، ليخلعن سليمان عن الخلافة» بينما ذكر الطبري نفسه عن أبي عبيدة قال: «كان في الكتاب الثاني ثناء على يزيد بن المهلّب». فيكون قتيبة في المكتوب الثاني ذكر غزواته وفتوحاته ثم أثنى على يزيد بن المهلّب لأنه كان قد غزا وفتح أغلب تلك البلاد ومنها أقاليم الصُّغد وسمرقند وبخارى وخوارزم والخُتّل وكش وباذغيس ثم انتقض بعضها فغزاها قتيبة، كما غزا وفتح مناطق لم يسبق غزوها في إقليم فرغانة والشاش وكشغر سنة ٩٤ ـ ٩٦هـ وقد قرأ سليمان المكتوب الأول وأعطاه ليزيد ثم قرأ المكتوب الثاني وأعطاه ليزيد، أما المكتوب الثالث فقد ذكر الطبري وابن الأثير أنه «قال قتيبة لسليمان في الكتاب الثالث: لئن لم تقرّني على ما كنتُ عليه وتؤمِّنّي لأخلعنَّك ولأملأنها عليك خيلاً ورجالاً. فأمسك سليمان الكتاب بيده، ـ ولم يدفعه إلى يزيد ـ وأمر بنزول رسول قتيبة في دار الضيافة».

ولم تذكر الرواية التشاور بين سليمان ويزيد بعد مسير رسول قتيبة إلى دار الضيافة، وقد أسفر التشاور عن اقتناع يزيد بما قام به سليمان، حيث «دعا سليمان رسول قتيبة فأحضره ليلاً، وأعطاه كتاباً فيه تولية قتيبة على خراسان، وسيّر معه رسولاً ـ من سليمان ـ بذلك، فسار الرسولان فلما كانا بحلوان بلغهما أن قتيبة خلع سليمان بن عبد الملك، فرجع رسول سليمان ـ إلى القدس ـ».

وقال الدكتور ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق: «تولى قتيبة بن مسلم الباهلي ولاية خراسان بعد عزل يزيد بن المهلّب ـ عام ٨٦هـ ـ وقتيبة هذا ينتمي إلى باهلة تلك القبيلة المغمورة التي لا حول لها ولا طول، فهو والحال هذه أداة طيعة بيد الحجاج يتلاعب به كيف شاء، وقد أصاب فلها وزن حين قال (إن الحجاج كان مسروراً من أن قتيبة لا ينتمي إلى عشيرة قوية تسنده وأنه مضطر إلى أن يتخذ من الحكومة مسنداً له). غير أن قتيبة استطاع أن يكسب أهل العالية (قيس) إلى جانبه حتى أصبحوا شعاره ودثاره وارتفعت مكانتهم في زمانه حتى سيطروا على سمرقند بأجمعها بعد أن كانت الغلبة فيها لليمانية، وإلى هذا يشير الكميت بقوله:

كانت سمرقند أحقاباً يمانيةً ... فاليوم تحسبها قيسيَّةً مُضَرُ

ويبدو أن قتيبة بالغ في الميل لهم ـ أي القيسية ـ دون أدنى مبرر حيث لم يكونوا أصحاب شكيمة عند اللقاء ولا أصحاب نجدة عند الشدة، وتجلى ذلك في تخاذلهم عن نصرته أثناء نزاعه مع سليمان بن عبد الملك.. وثورته عليه.. ولا سبيل لإخفار الدوافع الشخصية لثورة قتيبة، إذْ أن النزاع بين سليمان وصنائع أخيه الوليد كالحجاج وقتيبة كان محتوماً منذ الأيام الأولى لتسلمه منصب الخلافة لوقوف هؤلاء القوم من الوليد موقفاً مؤيداً حين حاول خلعه والبيعة لابنه عبد العزيز بولاية عهده.. وبايعه على خلع سليمان الحجاج وقتيبة، وقد نجا الحجاج من التنكيل حين مات قبل مجيء سليمان»[١].

إن مخاوف قتيبة من سليمان بن عبد الملك جعلته يبعث الكتب سالفة الذكر إلى سليمان ـ في حوالي شهر رجب ـ ثم لم ينتظر عودة رسوله، فتعَجَّل بإعلان الثورة ـ أو التمرد ـ وخلع سليمان بن عبد الملك ـ في حوالي شهر شعبان ـ قال ابن كثير: «وذلك أن قتيبة جمع الناس والجيوش وعزم على خلع سليمان وترك طاعته، وذكر لهم همته وفتوحاته.. فلما فرغ من مقالته لم يجبه أحد منهم إلى خلع سليمان، فشرع في تأنيبهم وذمهم، قبيلة قبيلة، وطائفة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرقوا، وعملوا على مخالفته وسعوا في قتله..»[٢] وقال د. ناجي حسن «..ويذكر اليعقوبي (أن قتيبة أراد الخلع وهو لا يشك أن موضعه من النزارية واليمانية لا يخالفونه).. غير أن صدى دعوته كان على غير ما توقع، حيث لم تعط له القبائل أذناً صاغية، فانبرى يشبعهم شتماً، مما زاد في الطين بلّة، فأجمعوا على خلافه وخلعه» ـ أي خلعه من ولاية خراسان ـ وقد ذكر الطبري في رواية عن المدائني أنه: كان بخراسان يومئذ من المقاتلة ـ أي الجيش ـ من أهل البصرة من العالية تسعة آلاف، وبكر بن وائل سبعة آلاف رئيسهم الحصين بن المنذر.. وعبد القيس أربعة آلاف عليهم عبد اللّه بن علوان، والأزد عشرة آلاف رئيسهم عبد اللّه بن حوذان، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف عليهم جهم بن زحر الجعفي المذحجي.. وتميم عشرة آلاف عليهم ضرار بن عصين الضبي، والموالي سبعة آلاف عليهم حيان). ومؤدى ذلك أن اليمانية وغالبيتهم الأزد ومذحج كانوا (١٧٠٠٠) مقاتل، وتليهم ربيعة وهم بكر وعبد القيس (١١٠٠٠) مقاتل، ثم تميم وكانوا (١٠٠٠٠) مقاتل. ثم أهل البصرة من العالية وكانوا من قيس وبينهم عشائر قحطانية وكان أهل العالية (٩٠٠٠) مقاتل، ثم الموالي وكانوا (٧٠٠٠) مقاتل. وهذا

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٩٤ ـ ١٩٦.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٦٨ جـ٩.

نص فريد لأنه يذكر تفصيلاً تعداد الجنود من القبائل العربية بخراسان. ويقول د. ناجي حسن: «حاولت الأزد تزعُّمَ حركة المقاومة المضادة لقتيبة إلا أن رئيسهم حصين بن المنذر حذرهم مغبة ذلك العمل لقلة عددهم. .» بينما حصين بن المنذر إنما هو رئيس بكر بن وائل من ربيعة وليس من الأزد، وكان بين الأزد وربيعة حلف وثيق، ولم يكن عددهم قليلاً فمجموع الأزد ومذحج وربيعة كان (٢٨٠٠٠ مقاتل) بينما تميم (١٠٠٠٠ مقاتل) وأهل العالية الذين يرى د. ناجي أنهم من قيس كانوا (٩٠٠٠) مقاتل. وقد اكتفت الأزد ومذحج وربيعة بادئ ذي بدء بإعلان انتهاء طاعتها لقتيبة وخلعه من خراسان ـ أو إعلان أنه لم يعد أميراً عليهم ـ فسار قتيبة إلى إقليم فرغانة وما جاوره من بلاد ما وراء النهر، فتمركز بفرغانة وأعلن خلع سليمان بن عبد الملك، وكان يظن أن قبيلتي تميم وقيس ـ الذين طالما تعصب لهم ـ سوف يكونون معه، ولكن فرقة من تميم بقيادة وكيع بن أبي سود التميمي أعلنت معارضتها لقتيبة، وكان وكيع من عمال المهلب بخراسان وفيه قال ثابت قطنة للمهلّب:

مــا زال رأيــك يــا مــهــلّــب حتى بنيت سرادقاً لوكيع

واستمر وكيع من عمال خراسان في عهد يزيد بن المهلب وكان سيد تميم ورئيسها بخراسان، فعزله قتيبة من عمله ومن رئاسة تميم وأسند رئاسة تميم إلى ضرار بن حصين الضبي، فلما خرج قتيبة عن الطاعة وخلع سليمان بن عبد الملك، وتمركز بإقليم فرغانة، بدأ وكيع في محاربته. ويقول د. ناجي حسن: «استطاعت تميم بقيادة وكيع أن تقضي على ثورة قتيبة بعد أن وقفت بقية القبائل إلى جانبها كالأزد، وبكر بن وائل». وقال ابن كثير: إن القبائل والجند «عملوا على مخالفة قتيبة ـ لما خلع سليمان ـ وسعوا في قتله، وكان القائم بأعباء ذلك وكيع بن أبي سود فجمع جموعاً كثيرة ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذي الحجة من سنة ٩٦هـ وقد كان قتيبة بن مسلم من القادة النجباء الكبراء والشجعان وذوي الحرب والفتوحات. . ولكنه زَلّ زلة كان فيها حتفه، وخلع الطاعة فبادرت المنيّة إليه، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفّر اللّه به سيئاته. . وكانت وفاته بفرغانة من أقصى بلاد خراسان».

وقال الفرزدق يفخر بوكيع وبقتاله قتيبة بن مسلم قصيدة ذكرها الطبري، منها قول الفرزدق:

ومِنّا الذي سلّ السيوفَ وشَامَهَا عشيةَ باب القصر من فَرَغانِ
. . فيُجْزى وكيع بالجماعة إذْ دعا إليها بسيف صارم وبنانِ
جزاءَ بأعمال الرجال كما جزى ببدر وباليرموك فَيْءَ جِنانِ

وقال الشاعر الطرماح بن حكيم الطائي المذحجي القحطاني يفخر بدور مذحج والأزد في القضاء على تمرد قتيبة بن مسلم ومقتله على يد حمال بن زحر الجعفي المذحجي قصيدة ذكرها الطبري، منها قول الطرماح:

لولا فوارس مَذْحجَ ابنة مذحج، والأزدُ، زُعزع واستُبيح العسكرُ
وتَقَطَّعتْ بهم البلاد ولم يَؤُبْ منهم إلى أهل العراق مُخبِرُ
واستُضْلِعَتْ عُقَدُ الجماعة وأزدُرِي أمرُ الخليفة واستُحلَّ المُنْكَرُ
قومٌ هُمْ قتلوا قُتَيْبَةَ عُنوةً والخيلُ جانحةٌ عليها العِثْيَرُ
بالمرج، مَرْج الصينِ حيثُ تَبَيَّنَتْ مُضَرُ العراقِ مَنِ الأعزّ الأكبرُ

* * *

ولاية يزيد بن المهلّب للعراقين والمشرق.. ومعالم عهده (٩٦ ـ ٩٩هـ)

إن يزيد بن المهلّب الذي تآمر الحجاج عليه وعزله من ولاية خراسان سنة ٨٦هـ خوفاً من تنبؤ شيخ من أهل الكتاب بأنه سيتولى ما بيد الحجاج من البلاد (رجلٌ يُقال له يزيد) ثم تأمر عليه الحجاج وحبسه مع إخوته حتى نجا إلى فلسطين سنة ٩٠هـ ومكث عند سليمان بن عبد الملك إلى أن تولى الخلافة، ما لبث أن عاد إلى العراق والياً على العراق ومشارقها سنة ٩٦هـ وفي ذلك قال ابن كثير:

«عزل سليمان بن عبد الملك نواب الحجاج، وولّى على إمرة العراق ثم خراسان يزيد بن المهلّب، فأعاده إلى إمرتها بعد عشر سنين، وأمره بمعاقبة آل الحجاج، وكان الحجاج هو الذي عزل يزيد بن المهلّب على خراسان».

قال الطبري: «وكان الحجاج استخلف لما حضرته الوفاة ـ في شوال ٩٥هـ ـ ابنه عبد اللّه بن الحجاج على الصلاة.. وقيل إنه استخلف على الحرب والصلاة بالمصرين الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة، وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم فأقرّهما الوليد بعد موت الحجاج (ولم يُقرّ عبد اللّه بن الحجاج).. فعزل سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم ونواب الحجاج وأمّر على العراق يزيد بن المهلب». وقال ابن الأثير: «وفي سنة ٩٦هـ بويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه الوليد وهو بالرملة. وفيها عزل سليمان عثمان بن حيان عن المدينة لسبع بقين من رمضان واستعمل عليها أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم. وفيها عزل سليمان يزيد بن أبي مسلم عن العراق واستعمل يزيد بن المهلّب».

فانطلق يزيد بن المهلبُ من الشام ـ أو من القدس بفلسطين ـ إلى العراق أميراً والياً على العراقين ـ في رجب أو شعبان سنة ٩٦هـ ـ فأزال يزيد ما كان قد عَمّ البلاد والعباد من الظلم والجور في ولاية الحجاج ونوابه، وأفرج عن زهاء ثلاثين ألفاً من

المسجونين والرهائن الذين في سجون الحجاج بالعراق، وألْغَىٰ الزيادة التي كان الحجاج فرضها في الخراج، ورد الصلاة إلى ميقاتها، وبذل الأعطيات بالعراق، ونشر في ربوعها العدل والأمان والاستقرار، وفي ذلك قال كعب بن معدان الأشقري يمدح يزيد بن المهلّب:

شَفَيْتَ صدوراً بالعراقين بعدما ... تجاوب فيها النائحاتُ الصوادحُ
مَدَدْتَ الندىٰ والجود للناس كلهم ... فَهُم شُرَعٌ فيه صديق وكاشحُ

* * *

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن من محاسن سليمان بن عبد الملك «عَزَل سليمان نواب الحجاج، وأخرج أهل السجون منها وأطلق الأسرى، وبذل الأعطيات بالعراق، ورد الصلاة إلى ميقاتها الأول بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها، مع أمور حسنة» وقد تمت تلك المحاسن على يد يزيد بن المهلّب، فقد ذكر الحافظ ابن كثير نفسه أنه: «عزل سليمان بن عبد الملك نواب الحجاج، وولّىٰ على إمرة العراق ثم خراسان يزيد بن المهلّب» وكذلك ذكر الطبري وابن الأثير، وقال ابن خلدون: «عزل سليمان عبد الملك ولاة الحجاج عن العراق، فولّى يزيد بن المهلّب على المِصْرين، وعزل يزيد بن أبي مسلم.. وبعث يزيد بن المهلّب أخاه زياداً على عُمان فتولاها»[(١)] .

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن عمال العراق والمشرق في ولاية الحجاج كان منهم: حوشب بن يزيد عامل الكوفة، ويزيد بن أبي مسلم الذي استخلفه الحجاج وذلك بمدينة واسط عاصمة ولاية العراق ولذلك اعتبرته الروايات عاملاً على العراق وخليفة للحجاج، وقيل: استخلف الحجاج على الصلاة عبد اللّٰه بن الحجاج وعلى الخراج يزيد بن أبي مسلم، وذلك بواسط، وكان عامل البصرة الجَرّاح بن عبد اللّٰه الحكمي المذحجي، وقد ذكر ابن الأثير في أنباء سنة ٨٧هـ أنه «كان على العراق وخراسان الحجاج وكان خليفته على البصرة الجرّاح بن عبد اللّٰه الحكمي..» ثم ذكر في سنة ٨٨ و ٨٩هـ أنه «كان العمال نفس الذين في السنة التي قبلها» وقال في أحداث سنة ٩٠هـ «وكان على العراق والمشرق الحجاج بن يوسف، وعامله على البصرة الجراح بن عبد اللّٰه الحكمي، وعلى خراسان قتيبة بن مسلم، وكان على السند محمد بن يوسف» وكذلك السنوات التالية إلى وفاة الحجاج في شوال ٩٥هـ ثم إلى خلافة سليمان وعزله نواب وولاة الحجاج وتوليته يزيد بن المهلّب سنة ٩٦هـ، فكان عمال وولاة العراق والمشرق إذْ ذاك: يزيد بن أبي مسلم وعبد اللّٰه بن الحجاج في واسط، وحوشب بن يزيد في الكوفة، والجراح بن عبد اللّٰه الحكمي المذحجي

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٤٠٨.

على البصرة وثغورها، والخيار بن صبرة المجاشعي على عُمان، ومحمد بن قاسم الثقفي على السند، وقتيبة بن مسلم على خراسان، فأولئك هُمْ نواب وولاة الحجاج بالعراق والمشرق.

ثم تولى العراقين والمشرق يزيد بن المهلّب، فأقام بمدينة واسط، وقد ذكر ابن الأثير في خاتمة أنباء سنة ٩٦هـ أنه «كان على العراق في هذه السنة يزيد بن المهلّب، وعلى خراجها صالح بن عبد الرحمٰن، وعلى البصرة سفيان بن عبد اللّٰه الكندي من قِبل يزيد بن المهلّب، وعلى قضائها عبد الرحمٰن بن أذينة، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى الأشعري، وعلى حرب خراسان وكيع بن أبي سود» قال ابن خلدون: «وبعث يزيد أخاه زياداً على عُمان فتولاها». . وبعُمان نبدأ ذكر نواب يزيد ومعالم عهده:

أولاً: نيابة زياد بن المهلّب لعُمان

لقد تم في ولاية الحجاج للعراق ربط ولاية عمان وولاية البحرين ومنطقة الخليج بالحجاج بن يوسف الثقفي، فبعث الحجاج إلى عمان جيشاً بقيادة خيار بن صبرة المجاشعي القيسي وولاه على عُمان، فدخل خيار بن صبرة وجيشه عُمان، وحارب ملكيها سعيد بن عَبّاد بن عُبيد بن الجُلَنْدى الأزدي وأخاه سليمان بن عبّاد، وقد ذكر د. فاروق عمر الحرب التي وقعت في عُمان إلى أن قال: «وفرّ سعيد وسليمان الجُلَنْديَان إلى بلاد الزنج في شرقي إفريقية. وكانت معاملة الوالي الأموي الجديد الخيار بن صبرة المجاشعي شديدة، على أن هذه السياسة تغيرت بمجيء سليمان بن عبد الملك إلى الخلافة حيث عاد آل المهلب بزعامة يزيد بن المهلّب إلى النفوذ في دمشق. وحين أصبح يزيد والياً على العراق عَيّن أخاه زياداً والياً على عُمان، فتسلم زيادة الولاية دون مقاومة وبَقِيَ والياً عليها. .»[١] فبسط زياد العدل والأمان في ربوع عُمان وساد عهده الاستقرار.

ومما يتصل بعمان أن كعب الأشقري كان من الشعراء الذين مدحوا المهلب ثم يزيد بن المهلّب والمفضل بن المهلّب في خراسان، وقد سلف ذكر العديد من قصائده فلما تولى خراسان قتيبة بن مسلم وأرهب الناس وقطع العطاء على بعض الشعراء ـ ومنهم نهار بن توسعة لأنه مدح آل المهلّب ـ أخذ كعب في مدح قتيبة وذم يزيد بن المهلّب نفاقاً لقتيبة، وفي ذلك قال الأصفهاني: «لما عزل الحجاج يزيد بن المهلّب عن خراسان ووليّها قتيبة بن مسلم مدحه كعب الأشقري ونال من يزيد وثَلَبَهُ، ثم بلغته ولاية يزيد بن المهلّب على خُراسان، فهرب كعب بن معدان الأشقري إلى عُمان على طريق الطبسين وقال:

(١) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣٣.

وإنـــي تـــاركٌ مَـــرْواً ورائـــي إلى الطبسين مُعتاماً عُمَانا
لآوي معقلاً فيها وحرزاً فكنّا أهل ثروتها زمانا

ـ وكان كعب الأشقري من أزد عُمان ـ فأقام بعُمَان مدة ثم اجتواها وساءت حاله بها، فكتب إلى يزيد بن المهلّب معتذراً:

بِئس التبدلِ مِنْ مَرْوٍ وسَاكِنَها أرضُ عُمَانٍ، وسَكْني تحت أطوادِ
يضحي السحابُ مطيراً دون منصفها كأنّ أجبالها عَلّت بفرصادِ
يا لهف نفسي على أمر حظلت به وما شفيتُ به غمري وأحقادي
أفنيتُ خمسين عاماً في مديحكم ثم اغتررتُ بقول الظالم العادي
أبلغ يزيد قرين الجُود مألكةً بأنّ كعباً أسيراً بين أصفادِ
فإن عَفَوتَ فبيتُ الجودِ بيتكم والدهرُ طَورَان مِنْ غيٍّ وإرشادِ
وإن مَنَنْتَ بصفح أو سمحت به نزعتُ نحوك أطنابي وأوتادي»[1]

وقد زعم الذي روى عنه الأصفهاني تلك الرواية (أن يزيد بن المهلّب حبس كعب ودسّ إليه ابن أخ له فقتل) ولكن أبيات كعب بن معدان تدل على عدم صحة ذلك، فحبس كعب لم يكن بعد تلك القصيدة وإنما قالها وبعثها إلى يزيد وهو في الحبس بعمان، بدليل قوله:

أبْلِغْ يزيد قرين الجُود مألكةً بأنّ كعباً أسيراً بين أصفادِ

والمألكة: الرسالة. فقد بعث كعب الأشقري تلك الأبيات وهو موقوف في حبس زياد بعُمان، ويبدو أنه بعثها مع ابن أخ له، وكان يزيد بالعراق، فعفا عنه يزيد وبعث بكتاب العفو مع ابن أخيه، فخلّى زياد سبيله، فسار كعب إلى يزيد ومدحه بقصائد منها قصيدة ذكر الطبري منها بيتين ينطقان بأنهما في ولاية يزيد للعراق ومشارقها ولم يكن يزيد والياً للعراقين إلا في هذه الفترة، والبيتان هما قول كعب الأشقري يثني على يزيد بن المهلّب:

شفيت صدوراً بالعراقين بعدما تَجَاوَبَ فيها النائحاتُ الصوادحُ
مددت الندى والجود للناس كلهم فَهُم شُرّعٌ فيه صديقٌ وكاشحُ

ثانياً: نواب يزيد على البصرة ومنجزات عهده

كانت مدينة البصرة العاصمة الإدارية لمناطق وثغور شاسعة منذ ولاية أبي موسى الأشعري للبصرة في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ثم في ولاية

(١) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ ص٥٨ جـ١٣.

زياد بن أبي سفيان على البصرة في خلافة معاوية، وقد شملت ثغور وأعمال البصرة: مناطق البصرة بجنوب العراق، ومنطقة البحرين والخليج العربي إلى تخوم عمان، وأقاليم الأهواز وفارس وكرمان وغيرها من إيران.

وقد اختط الناس وبنوا المنازل بالبصرة في ولاية أبي موسى، قال البلاذري: «وبَنَىٰ أبو موسى الأشعري مسجد البصرة ودار الإمارة باللّبن والطين..»[1] ولما تولى البصرة زياد بن أبي سفيان في خلافة معاوية «زاد زياد في بناء دار الإمارة باللّبن والطين وجعل فيها أساطين من الحجارة»[1]. وقد تعرضت البصرة لعسف وطغيان شديد من الحجاج منذ نهاية ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي ـ في أواخر سنة ٨٣هـ ـ وقام الحجاج بهدم دار الإمارة بالبصرة هدماً كاملاً، وقيل في سبب ذلك أن دار الإمارة بالبصرة كانت من بناء زياد ـ وكذلك أبي موسى ـ فأراد الحجاج أن يزيل اسم زياد ـ أو اسمهما عنها ـ فَهَمَّ ببنائها بالجُصّ والآجر (الياجور) فقيل له: إنما تزيد اسمه فيه ثباتاً، فقام الحجاج بهدم دار الإمارة هدماً كاملاً. وقد قام الحجاج ببناء واتخاذ مدينة واسط عاصمة ومقراً له في سنة ٨٣ و ٨٤هـ فَهَدْم دار الإمارة بالبصرة، كان ذا صلة بذلك وبمعاقبة البصرة والكوفة. قال البلاذري: «فلم تكن بالبصرة دار إمارة حتى وُلّي الخلافة سليمان بن عبد الملك..»[1] فلما تولّى سليمان الخلافة ولّى على العراق يزيد بن المهلّب ـ في رجب أو شعبان ـ فولّى على الخراج وبيت المال صالح بن عبد الرحمٰن «فأمَرَه بإعادة بناء دار الإمارة بالبصرة فأعاد صالح بناءها بالآجر والجصّ على أساسها، وَرَفع سُمْكها»[1] فكان إعادة بناء دار الإمارة بالياجور والجص من منجزات عهد يزيد بن المهلّب وقام صالح بتمويل العمل بصفته عامل الخراج وبيت المال، أما نائب يزيد على البصرة فكان سفيان بن عبد اللّه الكندي ولاه يزيد على البصرة منذ شعبان ٩٦هـ، وقد ذكر الطبري في عمال الأقاليم سنة ٩٦هـ أنه «كان على البصرة سفيان بن عبد اللّه الكندي من قِبَل يزيد بن المهلّب، وعلى قضاء البصرة عبد الرحمٰن بن أذينة» ـ وقد تقدم نص ابن الأثير بمثل ذلك ـ وقال الطبري في أحداث سنة ٩٧هـ «واستعمل يزيد على البصرة عبد اللّه بن هلال الكلابي» ثم ذكر استمرار سفيان أميراً على البصرة فقال في ذكر العمال سنة ٩٨هـ «وكان عامل يزيد بن المهلّب على البصرة في هذه السنة سفيان بن عبد اللّه الكندي»[2] ويتبين من ذلك استمرار سفيان أميراً نائباً ليزيد بن المهلّب على البصرة من سنة ٩٦ ـ ٩٩هـ، وكان عبد اللّه بن هلال عاملاً على بعض مناطق ولاية البصرة في إطار نيابة سفيان الكندي

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٤٤ و ٣٦٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١١٣ و ١١٥ و ١٢٦ جـ٨.

للبصرة وثغورها وعمالها. قال الطبري: «وصيّر يزيد أخاه مروان بن المهلّب على أمواله وأموره بالبصرة وكان أوثق إخوته عنده. ولمروان يقول أبو البهاء الإياديّ:

رأيتُ أبا قبيصةَ كلَّ يوم على العَلات أكرَمَهُمْ طِبَاعَا
إذا ما هُمْ أبَوْا أنْ يَستطيعواً جَسِيمَ الأمر يَحمِلُ ما استطاعا
وإنْ ضَاقت صُدُورُهُم بأمر فَضَلتَهُمُ بذاك ندًى وباعا»[١]

وقد قام يزيد بن المهلّب بشق أنهار في البصرة واستصلاح أراضي زراعية واسعة، وقد ذكر البلاذري من أنهار البصرة ومعالمها ومناطقها الزراعية الشاسعة «خيرتان: لخيرة بنت ضمرة القشيرية امرأة المهلّب وهي أم أبي عيينة بن المهلّب.. ومهلبان: كانت للمغيرة بن المهلّب وفيها نهر.. وهي اليوم لآل سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلّب.. والحاتمية: لحاتم بن قبيصة بن المهلّب.. وكان القصر الأحمر بالبصرة: لعمر بن حفص بن قبيصة بن أبي صُفرة». قال البلاذري: «وحفر يزيد بن المهلب نهر يزيد بالبصرة.. وكان سليمان بن عبد الملك أقطع يزيد بن المهلّب ما اعتمل من البطيحة (أي: ما استصلحه من أراضي منطقة البطيحة) فاعتمل يزيد: الشرقي، والجبان، والخست، والريحية، ومغيرتان، وغيرها»[٢]. وقد استمر سفيان بن عبد الله الكندي أميراً نائباً ليزيد بن المهلب على البصرة وثغورها وأعمالها حتى وفاة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ.

ثالثاً: ولاية حبيب بن المهلّب لبلاد السند وفتوحاته

في سنة ٩٦هـ تولى السند حبيب بن المهلّب الأزدي، ومن المفيد الإشارة قبل ذلك إلى أنه كان مِنْ أول من غزا بلاد السند المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي، قال البلاذري: «غزا المهلّب ثغر السند أيام معاوية سنة ٤٤هـ» وقد غزا وفتح المهلّب آنذاك بلاد القيقان ولاهور والملتان وبنّة. وقال الشاعر في ذلك:

ألم تر أن الأزد ليلة بيتوا ببنة كانوا خير جيش المهلّب

ثم تولى مكران والسند الأمير راشد بن عمرو الجُديدي الأزدي، ولاّهُ عليها معاوية سنة ٤٧ ـ ٥٠هـ في ولاية زياد بن أبي سفيان للبصرة، قال البلاذري: «أتى راشد مكران، ثم غزا القيقان بالسند فظفر»، وفيه قال الشاعر:

غزا السند ميمونُ النقيبةِ حازمُ من الأزدِ جَلداً للصعاليك رافعُ
وإنّ الجُديديّ ابن عمرو على الكرىٰ وغِبّ السُّرىٰ، صقرٌ بعلياء واقعُ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١١٣ و ١١٥ و ١٢٦ جـ٨.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٤٤ و ٣٦٢.

وقد تعاقب الأمراء الفاتحون في بلاد السند، ففي خلافة عبد الملك بن مروان وسنوات ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث كان على مكران وثغر السند محمد بن الحارث العلافي الحميري، فبعث الحجاج سعيد بن أسلم، قال البلاذري: «فثار عليه محمد ومعاوية ابنا الحارث العلافيان، فقُتل سعيد بن أسلم، وغلب العلافيان على الثغر، واسم علاف: ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير».

ثم ولّى الحجاج ـ سنة ٨٤هـ ـ على مكران مَجّاعة بن سعر التميمي وعلى ثغر السند محمد بن هارون بن ذراع النمري، ففتحا طوائف من قنادبيل بالسند، ومات مجاعة بعد سنة بمكران، فاستعمل الحجاج محمد بن هارون على مكران وثغر السند، فأغار قوم من أهل (ميدالديبل) على سفينة للمسلمين، فغزاهم عبيد اللّه بن نبهان فَقُتِل، فكتب الحجاج إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعُمان بأن يسير إلى ثغر السند أميراً، فسار بديل إلى السند وتولاها، وغزا بلاد الديبل فاستشهد ـ سنة ٨٥هـ ـ ثم تولى كرمان ومكران حبيب بن المهلّب، ولم تذكر الروايات سوى أنه «في سنة ٨٦هـ عزل الحجاج حبيب بن المهلّب عن كرمان»[1].

ثم تولى السند محمد بن القاسم الثقفي فسار إليها في جيش من جند الشام والبصرة والكوفة، وكان على مقدمته القائد جهم بن زحر بن قيس الجعفي المذحجي، فغزا محمد بن القاسم مدينة الديبل، قال البلاذري: «وأمر بالسلاليم فوُضعت وصعد عليها الرجال، فكان أولهم صعوداً رجل من مُراد، ففُتحت الديبل عنوة» وفي سنة ٩٠هـ غزا محمد بن القاسم بلاد الملك داهر وكانت عاصمته (برهمناباذ)، فوقعت معركة انتصر فيها جند الإسلام وسقط الملك داهر قتيلاً، «قال ابن الكلبي: الذي قتل داهر القاسم بن ثعلبة الطائي. وذكر منصور بن حاتم: أن داهر والذي قَتَلَه مُصَوَّران ـ أي مرسومان ـ في بروص». وتلى ذلك فتح العديد من المدائن، وكان آخرها (ملتان)، وأتى محمد بن القاسم نبأ موت الحجاج وهو في الملتان ـ في شوال سنة ٩٥هـ ـ وكان الحجاج قد زَجّ بمحمد بن القاسم في مؤامرة خلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد وأن يكون بدله عبد العزيز بن الوليد، قال الطبري: «قال الهلوث الكلبي: كنّا بالسند مع محمد بن القاسم، فأتانا كتاب

(١) لما عزل الحجاج حبيب بن المهلب سنة ٨٦هـ عاد حبيب إلى البصرة وأقام بها، ثم لما حبس الحجاج يزيد بن المهلب وأخويه المفضل وعبد الملك في واسط ـ أو عندما هرب يزيد إلى سليمان بفلسطين ـ قام الحجاج بحبس حبيب بن المهلب في البصرة، وتعرض حبيب للتعذيب إلى أن قام الوليد بتأمين يزيد وكتب إلى الحجاج بالكف عن آل المهلب فخلى سبيل حبيب سنة ٩٠هـ فمكث بالبصرة.

الحجاج أن اخلعوا سليمان» قال ابن خلدون: «ولم يزل محمد بن القاسم على السند إلى أن وُلّي الخلافة سليمان بن عبد الملك فعزله وولى يزيد بن أبي كبشة السكسكي على السند مكانه، فقيّده يزيد بن أبي كبشة وبعث به إلى العراق فحبسه صالح بن عبد الرحمٰن بواسط وعَذّبه في رجال من قرابة الحجاج على قتلهم لأخيه، وكان الحجاج قتل أخاه آدم بن عبد الرحمٰن على رأي الخوارج، ومات يزيد بن أبي كبشة بالسند لثماني عشرة ليلة من مقدمه، فولّى سليمان بن عبد الملك على السند حبيب بن المهلّب»[١].

وقد تولى سليمان الخلافة في منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ فتكون تولية يزيد بن أبي كبشة ومسيره إلى السند في رجب ٩٦هـ، وكانت ولايته ١٨ يوماً، فقد ذكر البلاذري أيضاً أنه «مات يزيد بن أبي كبشة بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوماً». فيكون ذلك في أواخر شهر رجب ٩٦هـ تقريباً[٢].

وكان حبيب بن المهلّب مُقيماً بالبصرة منذ مسير يزيد بن المهلب إلى سليمان بفلسطين سنة ٩٠هـ إلى عودة يزيد أميراً والياً على العراق ومشارقها في رجب أو شعبان ٩٦هـ وقد تزامن ذلك مع تولية حبيب على السند، حيث ذكر ابن خلدون أن توليته كانت من قِبَل سليمان بن عبد الملك، وكذلك قال البلاذري ـ بعد نبأ موت يزيد بن أبي كبشة ـ «واستعمل سليمان بن عبد الملك حبيب بن المهلب على السند» وقد سلف في ذكر أمراء السند في ولاية الحجاج أن توليتهم كانت من قِبَل الحجاج لأن السند كانت ترتبط بوالي العراق وكان ذلك هو النظام والتقسيم الإداري في عصر الخلفاء الأمويين، فكان محمد بن القاسم الثقفي مرتبطاً بالحجاج، وينطبق ذلك على حبيب بن المهلّب بولايته على السند كانت في إطار الولاية العامة ليزيد بن المهلّب للعراق ومشارقها، ولا يتعارض ذلك مع مجيء قرار توليته من الخليفة سليمان بن عبد الملك فهو يرتبط بعد ذلك بأمير العراق ومشارقها يزيد بن المهلّب.

وقد انطلق حبيب بن المهلّب ـ في حوالي شعبان ٩٦هـ ـ من البصرة إلى السند، قال البلاذري: « . . فَقَدِمها وقد رجع ملوك الهند إلى ممالكهم ورجع حليشة بن داهر إلى برهمناباذ» ـ والمقصود أنهم عادوا إلى السيطرة على مناطقهم في جهات نهر السند والهند ـ فلما وصل حبيب إلى بلاد السند نزل مع فرسانه بمدينة (قندابيل) وكانت مدينةً عاصمة لمكران والسند فاستقر بها، وقام بضبط الأمور إلى (الديبل) ونواحيها بالسند،

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٠٨.

(٢) يزيد بن أبي كبشة السكسكي: من كبار قادة اليمانية بالشام، غزا سنة ٩٤هـ أرض وثغور الروم، فبلغ سورا ـ في تركيا ـ.

وقد استقر بالديبل أربعة آلاف من العرب وسَادها الإسلام.

وفي سنة ٩٧هـ سار حبيب بن المهلّب بجند العروبة والإسلام، قال ابن خلدون: «فنزل حبيب على شاطئ مهران، وأعطاه أهل الرور الطاعة، وحارب فظفر»[١] ومهران نهر السند بباكستان وتأتي إليه أنهار من أعالي بلاد السند، قال المسعودي: «ثم تجتمع الأنهار بعد المولتان بثلاثة أيام.. في الموضع المعروف بدوسات، فإذا انتهى جميع ذلك إلى مدينة الرور من غربيها سُمِّي هنالك مهران، ثم ينقسم قسمين ويصب كل من القسمين من هذا الماء العظيم المعروف بمهران السند في مدينة شاكرة في البحر الهندي، وذلك على مقدار يومين من مدينة الديبل، والمسافة من المولتان إلى المنصورة خمسة وسبعون فرسخاً سندية والفرسخ ثمانية أميال»[٢].

ومضى حبيب بن المهلّب بجند الإسلام إلى بلاد حليشة بن داهر والذين معه من ملوك الهند ـ وهم ببلاد السند ـ وكانت عاصمة حليشة بن داهر مدينة «برهمناباذ العتيقة وهي على رأس فرسخين من المنصورة»[٢] قال البلاذري: «فحارب حبيب فظفر» فأذعن حليشة بن داهر والذين معه لأداء الجزية، وقد مكث حبيب والياً للسند إلى نهاية خلافة سليمان سنة ٩٩هـ.

وكانت تجاور السند من جهة الغرب ولاية سجستان وكرمان، وقد ولّى يزيد بن المهلب عليها أخاه مدركاً. قال البلاذري: «لما ولّي سليمان بن عبد الملك ولّى يزيد بن المهلب العراق، فولى يزيد أخاه مدرك بن المهلب سجستان» (ص٣٩٢ فتوح البلدان)

رابعاً: أنباء عهد يزيد في واسط والكوفة

لقد كانت مدينتا البصرة والكوفة العاصمتين الإداريتين للعراق ومشارقها منذ فجر العصر العربي الإسلامي، فلما قام الحجاج بالتنكيل بالبصرة والكوفة وأهلهما، وخاصة سنة ٨٣هـ، لم يرغب ـ وربما خشي ـ أن يقيم بالبصرة أو الكوفة، فقام ببناء مدينة واسط واستقر بها منذ أوائل سنة ٨٤هـ فأصبحت واسط العاصمة ومقر الأمير الحجاج، فسفك فيها دماء المئات من العلماء ورجالات الأمة وزَجّ في سجونها بالآلاف، أو بعشرات الآلاف، ولم يتمكن من الهروب والخروج منها إلا يزيد بن المهلّب وأخويه المفضل وعبد الملك ـ سنة ٩٠هـ ـ فاستقر يزيد عند سليمان بن عبد الملك بفلسطين إلى أن عاد إلى واسط أميراً والياً على العراق ـ سنة ٩٦هـ ـ قال الطبري: «لما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ولّى يزيد بن المهلّب العراق، فذكر هشام بن محمد: أن يزيد بن المهلّب نظر لمّا ولاهُ سلميانُ ما ولاه من

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٠٨.

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص١٦٨ جـ١.

أمر العراق في أمر نفسه فقال: إن العراق قد أخربها الحجاجُ، وأنا اليومَ رجاءُ أهل العراق. . »[١] ثم اقتصرت رواية هشام على اقتراح يزيد على سليمان بتعيين صالح بن عبد الرحمٰن عاملاً على الخراج بالعراق، (فقال له سليمان: قد قبلنا رأيك)، ولكن قول يزيد «إن العراق قد أخربها الحجاج، وأنا اليوم رجاء أهل العراق» يتيح إدراك أنه ناقش مع سليمان واقترح عليه عدة أمور لتحقيق رجاء أهل العراق وإزالة مظالم عهد الحجاج، وكان من بين ذلك إخراج من في سجون الحجاج وإعادة المنقوشين، وبذل الأعطيات، وقد ذكرت الروايات ذلك منسوباً إلى سليمان بن عبد الملك، ولا شك أن له فضل الأمر بذلك، ولكن التنفيذ تم على يد يزيد بن المهلّب، فلما وافق سليمان على تعيين صالح بن عبد الرحمٰن عاملاً على الخراج، أمره بالمسير إلى مدينة واسط وأن يضبط الأمور المالية وأن يقوم بإفراغ وتجهيز دار من دور الحجاج ـ وهو دار الإمارة ـ حتى قدومه. قال عمر بن شبة: «قَدِم صالح بن عبد الرحمٰن العراق قبل قدوم يزيد فنزل واسطاً. قال عباد بن أيوب: فلما قَدِم يزيد بن المهلب خرج الناس يتلقّونه. . فلما قرب من المدينة خرج صالح وبين يديه أربعمائة من أهل الشام فالتقى يزيد فسايره، فلما دخل مدينة واسط قال له صالح: قد فرّغت لك هذا الدار. . فنزل يزيد في الدار»[١]. وهي دار الإمارة في واسط، وذلك في رجب أو شعبان ٩٦هـ.

وكان يزيد قد أمر بتجهيز كشوف بالمسجونين الذين ليس عليهم حدود ولا حقوق في سجون واسط والكوفة وكذلك البصرة وغيرها، وكان أغلبهم في سجون واسط، ثم أطلق سراحهم باسم أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، قال الحافظ ابن كثير: «قال الأصمعي: حدثنا أبو الأصم عن عباد بن كثير عن قحدم قال: أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة، أحداً وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج. وقيل إنه لبث في سجنه ثمانون ألفاً منهم ثلاثون ألف امرأة، وعُرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب، وكان فيمن حبس أعرابي وُجد يبول في أصل ربض مدينة واسط وكان فيمن أُطلق فأنشأ يقول:

إذا نحن جاوزنا مدينةَ واسطٍ　　　خرينا وصلينا بغير حساب»[٢]

وقال أبو العباس المبرِّد «لما قام سليمان بن عبد الملك أخرجَ من كان في سجن الحجّاج من المظلومين، فيقال إنه أخرج في يوم واحد ثمانين ألفاً»[٣].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١١٣ جـ٨.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٣٦ جـ٩.
(٣) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرد ـ ص٢٩٧ جـ١.

وأما خبر المنقوشين، فقد كان من طغيان الحجاج، فيما ذكر أبو العباس المبرِّد أنه: «نظر الحجاجُ فإذا جُلُّ مَنْ خرج مع عبد الرحمٰن بن الأشعث من الفقهاء وغيرهم من الموالي، فأحبَّ أن يُزيلَهم عن موضع الفصاحة والآداب، ويخْلِطَهُمْ بأهل القرى والأنباط، فقال: إنما الموالي عُلوجٌ، وإنما أُتِيَ بهم من القرى، فَقُراهُمْ أولى بهم. فأمر بتسييرهم من الأمصار ـ أي المدن ـ وأمر بأن يُنْقَشَ على يد كل إنسان منهم اسمُ قريته»[1] وهذا يضاهي ما قام به الخبيث الحجاج في وقت سابق بمكة والحجاز مع رجالات من أعيان وأعلام العرب بل ومن كبار أصحاب رسول اللّه ﷺ فقد ذكر الحافظ ابن كثير أنه: «في سنة ٩١هـ توفي سهل بن سعد الساعدي، صحابيّ مدني جليل، وكان ممن ختمه الحجاج في عنقه هو وأنس بن مالك الأنصاري، وجابر بن عبد اللّه في يده، ليذلهم كيلا يسمع الناس من رأيهم»[2]. فما قام به الحجاج من إخراج الفقهاء والموالي من المدن ـ وخاصة الكوفة والبصرة ـ إلى القرى إنما يعود إلى التجبر والطغيان وكانوا عشرات الآلاف من الكوفة وعشرات الآلاف من البصرة، مما أضرّ بالحياة الاقتصادية والأعمال المهنيّة وغيرها، فلما تولّى العراق يزيد بن المهلّب سمح باسم أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك بعودتهم، وفي ذلك قال أبو العباس الميرّد إن سليمان بن عبد الملك «رَدّ المنقوشين فرجعوا في صورة الأنباط»[1].

فكان إطلاق سراح المسجونين ظلماً وردّ المنقوشين إلى مُدنهم، وخاصة البصرة والكوفة، مما شفا الصدور بالعراقين في عهد يزيد بن المهلّب، وفي ذلك قال الشاعر كعب بن معدان الأشقري:

شفيت صدوراً بالعراقين بعدما ... تَجَاوَبَ فيها النائحاتُ الصوادحُ
مَدَدْت النَدىٰ والجُود للناس كلهم ... فَهُم شُرَّعٌ فيه صديقٌ وكاشحُ

وقد ذكر الطبري أنه «اتخذ يزيد بن المهلّب ألف خوان يُطعم الناس عليها» وكان ذلك لفترة من الزمن وربما حتى يتمكن الذين تم إطلاق سراحهم والذين عادوا من المنقوشين من ترتيب أوضاعهم، ويبدو أنه لما تحقق ذلك، اتفق يزيد مع عامله على الخراج وبيت المال صالح بن عبد الرحمٰن على ما تذكره الروايات من أنه «أعطى يزيد لباعة الطعام وغيرهم أصكاكاً إلى صالح ليدفع لهم، فلم يُنفذها، فرجعوا إلى يزيد، فاستدعاه، فقال صالح: أصلحك اللّه أيها الأمير ما هذه الصكاك الخراج لا يقوم لها وقد أنفذتُ لك منذ أيام صكاً بمائة ألف، وعَجّلَتُ لك

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ المبرد ـ ص٢٩٧ جـ١.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٣٦ جـ٩.

الأرزاق، وأمرت بمال للجند فأعطيتهم، فهذا لا يقوم له شيء ولا يرضى أمير المؤمنين به وتؤاخذ به، فقال له يزيد: يا أبا الوليد أجِزْ هذه الصكاك هذه المرّة وضاحكه، فقال: إني أجيزها فلا تكثرن عليّ، قال: لا».

وكان يزيد بن المهلّب يجود بعد ذلك من أمواله الخاصة ومزارعه والأراضي التي استصلحها بالبصرة، وقد سلف ذكرها وأنه «صيّر مروان بن المهلّب على أمواله وأموره بالبصرة وكان أوثق إخوته عنده»، وكانت أراضي ومزارع وبساتين يزيد وإخوته في البصرة والسواد ذات مردود وفير، قال الجاحظ في البيان والتبيين: «قال أبو الحسن: كان هشام بن حسان إذا ذُكر يزيد بن المهلب قال: إن كانت السُفن لتَجْرِي في جُوده.

ودخل الهُذيل بن زُفَرَ الكلابيّ، على يزيد بن المهلّب في حَمالات لزِمَتْه[1] ونوائبَ نابَتْه، فقال له: «أصلحك اللّه، إنّك قد عظُم شأنُك، وارتَفَع قَدرُك أن يُستعان بك أو يُستعانَ عَلَيك، ولست تفعل شيئاً من المعروف إلا وأنتَ أكبر منه، وليس العَجب من أن تفعل، ولكن العجبَ من أن لا تفعل. قال يزيد: حاجَتَك؟ فذكرها، فأمَرَ له يزيد بها، وأمر له بمائة ألف. فقال: أمّا الحمالات فقد قبلتُها، وأمّا المال فليس هذا موضعَه»[2].

نواب يزيد على الكوفة وواسط

كانت مدينة الكوفة مركز عدة أقاليم مثلها في ذلك مثل البصرة، فقد كانت البصرة العاصمة الإدارية لأقاليم تشمل البصرة ومناطقها بالعراق وأقاليم الأهواز وفارس وكرمان في إيران كما تشمل منطقة البحرين والخليج العربي، وكان عامل يزيد بن المهلّب على البصرة وثغورها وأقاليمها الأمير سفيان بن عبد اللّه الكندي، وعلى القضاء بالبصرة عبد الرحمٰن بن أذينة.

أما الكوفة فكانت العاصمة الإدارية لمناطق الكوفة والسواد والمدائن وحلوان بالعراق وأقاليم الريّ ودُسْتَبى وأصبهان وإقليم هَمَذان بأعالي شمال غرب إيران، قال الطبري: «وكان يزيد بن المهلّب استعمل على الكوفة حرملة بن عمير اللخمي، أشهراً، ثم عزله وولّى على الكوفة بشير بن حسان النهدي، وكان على قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى الأشعري» فكان حرملة بن عمير اللخمي اليماني أميراً للكوفة وأقاليمها عدة أشهر إلى آخر سنة ٩٦هـ ثم ولّى يزيد على الكوفة الأمير بشير بن

(١) الحمالة: الدية يحملها قوم عن قوم أو رئيس عن عشيرته وكان الهذيل بن زفر من وجهاء إقليم الجزيرة الفراتية وقرقيسياء.

(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٦٦ و ٧٨ جـ٢.

حسان النهدي القضاعي الحميري سنة ٩٧هـ فمكث والياً للكوفة طيلة عهد يزيد وخلافة سليمان إلى عام ٩٩هـ بينما كان قاضي قضاة الكوفة طيلة عهد يزيد أبا بكر بن أبي موسى الأشعري.

وكانت مدينة واسط مقر يزيد بن المهلّب وكان مقيماً بها سنة ٩٦ و ٩٧هـ وكان نائبه الجراح بن عبد اللّه الحكمي المذحجي، فعندما سار يزيد لفتح بلاد جرجان وبحر قزوين ـ كما سيأتي ـ وكما ذكر الطبري وابن خلدون:

«استخلف يزيد على واسط الجرّاح بن عبد اللّه الحكمي».

* * *

خامساً: نيابة مَخْلَد بن يزيد على خُراسان

كانت ولاية يزيد بن المهلب للعراق ومشارقها تشمل خراسان، إلا أنه في الشهور التسعة الأولى من عهده، كان وكيع بن أبي سود قائداً أميراً بخراسان منذ قيام قتيبة بن مسلم بخلع سليمان بن عبد الملك ـ في رجب أو شعبان ٩٦هـ ـ حتى مقتل قتيبة في معركة بفرغانة ـ في ذي الحجة ٩٦هـ ـ فاستمر وكيع قائداً أميراً بخراسان وأقرّه سليمان بن عبد الملك، ثم في حوالي شهر صفر ٩٧هـ بعث يزيد بن المهلب مبعوثاً هو عبد الرحمٰن بن الأهتم إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك للتشاور بشأن خُراسان، وتقول رواية ذكرها الطبري ما يوجزه الحافظ ابن كثير قائلاً: «بعث يزيد بن المهلّب عبد الرحمٰن بن الأهتم إلى سليمان بن عبد الملك ليُحسن عنده أمر يزيد بن المهلّب في إمرة خراسان، وينتقص وكيع بن أبي سود، فسار ابن الأهتم إلى سليمان فلم يزل به حتى عزل وكيعاً عن خراسان وولّى عليها يزيد بن المهلب مع إمرة العراق، وبعث بعهده مع ابن الأهتم، فسار في سبع حتى جاء يزيد، فأعطاه عهد خراسان مع العراق. وبعث يزيد ابنه مخلداً بين يديه إلى خراسان، ومعه كتاب أمير المؤمنين مضمونه أن قيساً زعموا أن قتيبة بن مسلم لم يكن خلع الطاعة فإن كان وكيع قد تعرض له بسبب أنه خلع ولم يكن خلع فقيده وابعث به إليّ»[1]. وقال ابن خلدون: «كتب سليمان عهد يزيد بن المهلب على خراسان وبعثه مع ابن الأهتم، فلما جاءه العهد بعث ابنه مَخلداً على خراسان. وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع، فأوصى سليمان يزيداً: إن أقامت قيس بيّنة أنه لم يخلع أن يَقِيد به من وكيع»[1].

وتتيح تلك النصوص إدراك أن ولاية يزيد كانت تشمل خراسان منذ ولايته للعراق في رجب أو شعبان ٩٦هـ، لأن فترة التسعة أشهر التي تذكر الروايات أن وكيع بن أبي سود كان فيها أمير خراسان هي من رجب ٩٦هـ إلى شهر ربيع ٩٧هـ،

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٧٠ جـ٩ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٠٨.

فمنها ستة شهور كان فيها وكيع أميراً قائداً في مرو خراسان وكان قتيبة بن مسلم في إقليم فرغانة ببلاد ما وراء النهر وقد خلع الطاعة، ثم سار إليه وكيع بالجيش ـ ربما بعد فصل الشتاء ـ فوقعت المعركة التي قُتِل فيها قتيبة بفرغانة في ذي الحجة ٩٦هـ، ثم تولى وكيع بعد ذلك ثلاثة أشهر، فخلال شهر محرم أتى النبأ إلى سليمان بدمشق وإلى يزيد بواسط بما حدث في خراسان، ثم جرى التراسل ـ خلال شهر صفر ـ فرؤي عدم صلاحية وكيع للولاية والإدارة، قال د. ناجي حسن: «وقد وُصِفَ وكيع هذا بأنه من الأعراب الجفاة. وجعله ابن حزم فاتكاً من فُتاك العرب»[١] وقد كان شجاعاً فاتكاً بالفعل ولكنه كان أعرابياً من الجُفاة لا يصلح لإمارة أو إدارة، ففوض الخليفة سليمان أمر خراسان إلى يزيد بن المهلّب، لأنه أمير العراق ومشارقها، وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع، فأمر سليمان يزيداً أنه «إذا أقامت قيسُ البينة بأن قتيبة لم يخلع وينزع يداً من طاعة، أن يَقِيد به وكيعاً» فأمر يزيدُ مَخْلداً بذلك وولاه على خُراسان مكان وكيع بن أبي سود.

فانطلق مَخْلد بن يزيد من واسط ثم من البصرة إلى مدينة مرو بخراسان ـ في ربيع الأول ٩٧هـ ـ وكانت المسافة من البصرة إلى مرو عشرين يوماً، فوصلها مخلد وفرسانه في أواخر ربيع الأول ٩٧هـ. قال الطبري: «وَجَّه يزيد ابنه مَخلداً إلى خراسان، فَقَدّم مخلد عمرو بن عبد اللّه بن سنان العتكي الصُّنَابحيّ حين دنا من مَرو (ليخبر الناس بقدوم الأمير مخلد) فخرج وجوه أهل مرو يتلقّون مخلداً، وتثاقل وكيع عن الخروج، فأرسل إليه عمرو العتكي: يا أعرابيُّ أحمق جلفا جافياً انطلق إلى أميرك.. فخرج وكيع مع الناس، فلما بلغوا مخلداً نزل الناس كلهم..» فاستقبلوه وسلموا عليه ثم ساروا في موكبه، فدخل مخلد بن يزيد مدينة مرو وسط ترحيب وابتهاج الناس ـ في أواخر شهر ربيع الأول ٩٧هـ ـ فأشرق بذلك العهد الثاني لولاية يزيد بن المهلب وآل المهلب على ربوع خُراسان وآسيا الوسطى.

وقد نظر مخلد في ادعاء بعض قيس بأن قتيبة لم يخلع الطاعة ويفارق الجماعة، فلم يقدم القيسية بيّنة على ذلك، وإنما ثَبَتَ أنه خلع وخرج عن الطاعة حتى قال ابن كثير أنه (مات ميتة جاهلية) لذلك فإن ما نقله ابن كثير وغيره عن إحدى الروايات من أنه «حبس مخلد بن يزيد وكيعاً وعاقبه..» لا علاقة له بقضية قتيبة، وقد ذكر د. ناجي حسن أنه «قَدّم يزيد بن المهلّب ابنه مخلداً إلى مرو، فأخذ وكيعاً وطالبه بالأموال التي حصل عليها في ولايته لخراسان وقال له: أدّ مال اللّه، فقال وكيع: أوَ خازناً للّه كنت»[١] وذلك أن وكيع بن أبي سود كان أعرابياً جافياً جلفاً،

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ ناجي حسن ـ ص١٩٨.

وكان المال الذي جباه يسيراً، فأمر مخلد بتوقيفه، ثم سُويَ الأمر وعاد وكيع إلى موقعه في الجيش لأنه كان شجاعاً فاتكاً.

ولما استقر مَخلد بن يزيد في دار الإمارة بمدينة مرو، أقبل إليه الشاعر نهار بن توسعة التميمي وكان قتيبة بن مسلم في ولايته لخراسان عاقب نهار بن توسعة لأنه مدح المهلّب حيث أمر قتيبة بمحو اسم نهار من سجل العطاء والمرتبات، وكان ذلك سنة ٩٣هـ، قال أبو عليّ القالي: «فلزم نهار بن توسعة منزله حتى قُتِل قُتيبة ووُلّي يزيد، فأتاه، فدخل عليه، (قال أبو عبيدة: بل أتى مخلد بن يزيد. فأخبره بما فعل به قتيبة بن مسلم لأنه مدح المهلّب) وقال له:

إن كـان ذَنْبـي يـا قـتـيـبـةُ أنـنـي ... مدحتُ أمْرأً قد كان في المَجْدِ أوحدا

أبـا كُـلِّ مَـظْـلـوم ومَـنْ لا أبـا لَـهُ ... وغَـيْـثَ مُـغِـيثاتٍ أطَـلّـن الـتَّـلَـدُّدا

فَشَـأنَك إنّ اللّه إنْ سُؤتَ مُحْسِنٌ ... إلَـيَّ إذا أبْـقَـى يَـزِيـدَ ومَـخْـلَـدَا

قال (يزيد): احْتَكِمْ، قال (نهار): مائة ألف درهم، فأعطاه إياها. قال أبو عبيدة: بل كان الممدوح مخلد بن يزيد، وكان خليفة أبيه على خراسان. فكان نهار يقول بعد موته: رحم اللّه مخلداً فما ترك لي بعده من قول»[١].

وكان مخلد قد برز في ميدان القيادة والفروسية ومدحه الشعراء بخراسان في عهد ولاية يزيد بن المهلّب الأولى لخراسان ـ سنة ٨٣ ـ ٨٦هـ ـ حيث ذكر البلاذري أنه: «فتح يزيد بلاد البتم على يد مخلد بن يزيد» وكان يومئذ ابن خمس عشرة سنة، وذلك عام ٨٣هـ، ووفد إليه ومدحه الشاعر حمزة بن بيض الحنفي والشاعر الكميت وهو ابن ثماني عشرة سنة وكان نائباً لأبيه ولعمه المفضل بمدينة مرو ـ سنة ٨٦هـ ـ ثم تولى خراسان قتيبة بن مسلم، ثم عاد مخلد بن يزيد إلى خراسان أميراً نائباً لأبيه في شهر ربيع ٩٧هـ وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وجاء في رواية الأصفهاني بكتاب الأغاني أن قصائد حمزة بن بيض والكميت في مخلد بن يزيد بن المهلّب كانت وهو نائب لأبيه على خراسان سنة ٩٧ ـ ٩٨هـ، ويمكن أن يكونا مدحاه المرة الأولى ثم وفدا إليه ومدحاه هذه المرة سنة ٩٧هـ أيضاً، فقد مدح الكميت مَخلداً بقصيدتين، أولها القصيدة اللامية:

هَـلّا سـألـتَ مَـعَـالـم الأطـلالِ ... والـرَسْـمَ بـعـد تـقـادُم الأحـوالِ

ومنها قوله يمدح مخلداً:

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة، ... ولِـداتُـه عـن ذاك فـي أشـغـالِ

---

(١) الأمالي ـ أبو علي القالي ـ ص١٩٩ جـ٢.

قعدتْ بهم هِماتهم، وسَمَتْ به هِمَمُ الملوكِ وثورةُ الأبطالِ
.. فكأنّما عاش المهلّبُ بينهم بأغرَّ قاسَ مثاله بمثال
في كفّه قصبات كُلِّ مقلد يوم الرهان وقوت كل نصالِ
ومتى أزِنْكَ بمعشرٍ وأزِنْهُمُو بك ألْفِ، وزنك أرجحَ الأثقالِ

ثم وفد الكميت إلى مخلد بن يزيد مرة ثانية ومدحه بقصيدة اكتفى الأصفهاني بذكر مطلعها، وهو:

هَلّا سألْتَ منازلاً بالأبرق»

وقال إن الكميت «أعطاهُ مَخْلَدٌ مائةَ ألف درهم سوى العروض والحملان، فَقدِم الكوفة في هيئة لم يُرْ مثلها»[١].

وكان حمزة بن بيض الحنفي من الشعراء الذين وفدوا إلى يزيد بن المهلب في ولايته الأولى لخراسان ومدحه ومدح مخلد بن يزيد بقصائد سلف ذكرها، ولما حبس الحجاج يزيد بن المهلّب قَدِم إليه حمزة ومدحه بالقصيدة التي قال فيها:

.. برزت سَبْقَ الجواد في مَهَلٍ وقَصَرتْ دون سعيك العربُ

ولما نجا يزيد إلى فلسطين وأقام عند سليمان بن عبد الملك قَدِم إليه حمزة ومَدَح سليمان بن عبد الملك بقصيدة سلف ذكرها وأشاد بموقفه من يزيد وآل المهلّب. ثم لما تولى يزيد العراق ومشارقها وتولى مخلد خراسان ـ سنة ٩٧هـ ـ وَفَدَ إليه الشاعر حمزة بن بيض، قال الأصفهاني: «أخبرني حبيب بن نصر المهلبي قال: حدثني عبد اللّه بن عمر بن أبي سعيد قال: حدثني إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي قال: حدثني أبو عمر العمري، قال: حدثني عطاء بن مصعب عن عاصم الخُتلي قال: قال حمزة بن بيض إنه دخل على مخلد بن يزيد بن المهلّب فوعده أن يصنع به خيراً، ثم شُغل عنه، فاختلف عليه مراراً ثم لم يصل إليه.. فقال:

أمَخْلَد إنّ اللّه ما شاء يصنعُ يجودُ فيعطي ما يشاءُ ويمنعُ
وإنّي قد أمّلْتُ منك سحابة فجادت سراباً فوق بيداء تلمعُ
فأجمعتُ صرماً ثم قلتُ لعله يثوبُ إلى أمر جميل ويرجعُ
فأيأسني من خير مخلد أنه على كل حال ليس لي فيه مطمعُ
يجودُ لأقوام يودون أنه مِن البُغْض والشنآن أمسى يُقَطّعُ
ويبخلُ بالمعروف عَمّن يوده فَواللّه ما أدري به كيف أصنعُ

---

(١) الأغاني ـ الأصفهاني ـ ص١٢٢ و ١٠٨ جـ١٥.

أأصرمه فالصرم شر مغبة ونفسي إليه بالوصال تَطَلّعُ
وشتان بيني والوصال وبينه على كل حال أستقيم ويظلع
وقد كان دهراً واصلاً لي بودّه ومعروفه يعدو يَزِيدَ ويفزعُ
وأعقبني صرماً على غير إحنّة وبخلاً وقدماً كان لي يتبرعُ
وغيّره ما غيّر الناس قبله فنفسي بما يأتي به ليس تقنعُ

ثم كتبها في قرطاس وختمه، وبعث به مع رجل، فدفعه إلى غلام لمخلد، فدفعه الغلام إليه فلما قرأه، سأل الغلام: من صاحب الكتاب؟ قال: لا أعرفه، فأدخل إليه الرجل الذي أعطاه الكتاب، فقال: من أعطاك وبعث معك هذا الكتاب؟ قال: لا أدري ولكن صفته كذا وكذا. فوصف صفة ابن بيض. فأمر به مَخْلد فضُرب عشرين سوطاً على رأسه وأمر له بخمسة آلاف درهم وكساه، وقال: إنما ضربناك أدباً لك لأنك حملت كتاباً لا تدري ما فيه لمن لا تعرفه فإياك أن تعود لمثلها، قال الرجل: لا واللّه أصلحك اللّه لا أحمل كتاباً لمن أعرف ولا لمن لا أعرف، قال: احذر فليس كل أحد يصنع بك صنيعي. ثم بعث مخلد إلى حمزة بن بيض فقال له: أتعرف ما لحق صاحبك الرجل؟ قال: لا، فحدثه مخلد بقصته، فقال حمزة: واللّه أصلحك اللّه لا تزال نفسه تتوق إلى العشرين سوطاً مع الخمسة آلاف أبداً، فضحك مخلد، وأمر له بخمسة آلاف درهم وخمسة أثواب وقال: وأنت واللّه لا تزال نفسك تتوق إلى عتاب إخوانك أبداً، قال: أجل واللّه ولكن من لي بمثلك يعتبني إذا استعتبته ويفعل بي مثل فعلك، ثم قال:

وابيضُ بهلولٌ إذا جئتُ داره كفاني وأعطاني الذي جئتُ أسألُ
ويعتبني يوماً إذا كنتُ عاتباً وإن قلتُ: زدني، قال: حتماً سأفعلُ
تراهُ إذا ما جئته تطلبُ الندى كأنّك تعطيه الذي جئت تسألُ
فللّه أبناء المهلّب فتية إذا لقحت حربٌ عوانٌ تأكلوا
هموا يصطلون الحرب والموتُ كانعُ بسُمر القنا والمشرفية عُسَّلُ
ترى الموت تحت الخافقات أمامهم إذا وردوا عَلّوا الرماح وأنهلوا
يجودون حتى يحسب الناس أنّهم لجودهم نذر عليهم يُحلّلُ
غيوثٌ: لِمَنْ يرجو نداهم وجودهم، سمام: لأقوام صحاة وثملُ
كفاك من أبناء المهلّب أنهم إذا سُئلوا المعروف لم يتسعلوا
فذلك ميراثُ المهلّب إنه كريم نماه للمكارم أولُ
جرى وجرت آباؤه فتمجدوا من أقدم في عيطاء لا يتوقلُ

فلما أنشده ابن بيض هذه الأبيات أمر له مَخْلد بعشرة آلاف درهم وعشرة

أثواب، وقال: نزيدك ما زدتنا ونضاعف لك، فقال حمزة بن بيض (مترجلاً في ذات الموقف):

أَمَخْلَد لم تترك لنفسي بقية ... وزدت على ما كنت أرجو وآملُ
فكنت كما قد قال مَعْنٌ فإنه ... بصيرٌ كما قد قال إذْ يتمثلُ
وجدتُ كثير المال إذ ضَنّ معدماً ... يُذَمّ ويلحاهُ الصديقُ المؤملُ
وإن أحق الناس بالجود مَنْ رأى ... أباه جواد للمكارم يجزلُ
.. وجَدْتَ يزيداً والمهلّب بَرّزَا ... فقُلْتَ فإني مثل ذلك أفعلُ
ففزتَ كما فازا وجاوزتَ غاية ... يقصر عنها السابق المتمهلُ
فأنت غياثٌ لليتامى وعصمةٌ ... إليك رجاء الطالبي الخير يرحلُ
أصاب الذي رَجّىٰ نداك مخيلة ... تصبُّ عزاليها عليك وتهطلُ
ولم تلف إذْ رجّوا نوالك باخلا ... يظل على المعروف والمال يعقلُ
فموت الفتى خيرٌ له من حياته ... إذا كان ذا مال يضنُّ ويبخلُ

فقال له مخلد: احتَكِم. فأَبَىٰ. فأعطاه ألفي دينار وجارية وغلاماً وبرذوناً[١].

وغزا مَخْلَد بن يزيد بلاد البتم فيما وراء نهر جيحون، وكان غزاها في ولاية يزيد الأولى لخراسان ثم نقضوا بعده، فغزاها مجاهداً في سبيل اللّه ـ سنة ٩٧هـ ـ قال البلاذري: «غزا مخلد بلاد البتم ففتحها ثم نقضوا بعده.. ثم غزاهم وكَرّ عليهم حتى دخلها، ودخلها جهم بن زحر الجعفي وأصاب بها مالاً وأصناماً من ذهب، فأهل البتم يُنسبون إلى ولائه»[٢] يعني أنهم كانوا موالي مخلد بن يزيد، أو موالي القائد جهم بن زحر الجعفي المذحجي.

* * *

سادساً: مسير يزيد بن المهلّب إلى خُراسان سنة ٩٧هـ

في أواسط سنة ٩٧هـ سار يزيد بن المهلّب أمير العراقين ومشارقها إلى خُراسان، وفي ذلك تقول الرواية الشائعة أنه: «ضجر يزيد من العراق، فبعث ابن الأهتم إلى سليمان بن عبد الملك ليوليه على خراسان ولا يُشعره بطلبته بذلك، فلم يزل ابن الأهتم يشاور سليمان فيمن يوليه على خراسان إلى أن قال: يزيد بن المهلّب، فقال سليمان: العراقُ أحبُّ إليه، فقال ابن الأهتم: نعم ولكن يستخلف على العراق ويسير إلى خراسان، فكتب سليمان عهد يزيد على خراسان مع العراق،

(١) الأغاني ـ الأصفهاني ـ ص٢٣ ـ ٢٥ جـ١٥.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤١٤.

وبعثه مع ابن الأهتم، فلما جاءه العهد بعث ابنه مخلداً على خراسان. . ثم سار يزيد بعده».

وقد سلف تبيين عدم صواب تلك الرواية، وأن يزيد بن المهلّب إنما بعث ابن الأهتم إلى الخليفة سليمان للتباحث بشأن ولاية خراسان لعدم صلاحية وكيع بن أبي سود للولاية، ففوض سليمان أمر خراسان إلى يزيد لأنه أمير العراق ومشارقها، فبعث يزيد ابنه مخلداً إلى خراسان فتولاها منذ شهر ربيع سنة ٩٧هـ.

أما السبب الصحيح لمسير يزيد بن المهلّب بعد ذلك إلى خراسان فيعود إلى أنه ـ كما ذكر الطبري ـ «لما وُلّي يزيد بن المهلّب لم يكن له همة غير فتح جرجان. .» وقال ابن خلدون: «كان يزيد بن المهلّب يريد فتحهما ـ جرجان وطبرستان ـ لأنهما كانتا للكفار وتوسطتا بين فارس وخراسان ولم يصبهما الفتح، وكان يقول وهو في جوار سليمان بالشام إذا قُصت عليه أخبار قتيبة وما يفعله بخراسان وما وراء النهر من غزوات: ما فعلت جرجان التي قطعت الطريق الأعظم، وأفسدت قومس وابَرْشهر ـ ونيسابور ـ إنما الشأن في جرجان»[1].

ولذلك فإن يزيد بن المهلّب لما رأى أن الأمور مستتبة في العراق والمشارق التي هو واليها، بما في ذلك خراسان التي تولاها مخلد منذ شهر ربيع الأول ٩٧هـ بعث يزيدُ إلى سليمان بن عبد الملك يستأذنه في المسير إلى خُراسان لغزو وفتح جرجان وطبرستان ودهستان ـ وهي البلاد الممتدة ما بين غرب خراسان وبحر قزوين ـ وكان سليمان يدرك أهمية ذلك، فأذن ليزيد بالمسير إلى خراسان وأن يستخلف من يشاء على العراق، فاستنفر يزيد جند أهل ولايتي البصرة والكوفة والريّ للجهاد وكذلك الذين بالعراق من جند أهل الشام، وقد ذكر ابن خلدون أنه: «سار يزيد إلى جرجان في مائة ألف من أهل العراق والشام وخراسان، سوى الموالي والمتطوعة». وقال الطبري: «قال هشام بن الكلبي: سار مع يزيد بن المهلّب من أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل خراسان والريّ مائة ألف مقاتل سوى الموالي والمماليك والمتطوعة» وقال الطبري: «كان يزيد بن المهلّب في عشرين ومائة ألف: منهم من أهل الشام ستون ألفاً». ويشمل هذا التحديد عدد الجيش الذين كانوا بخراسان قبل قدوم يزيد بن المهلّب وقد ذكر المدائني أنه «كان بخراسان يومئذ من المقاتلة من أهل البصرة من أهل العالية تسعة آلاف، ومن بكر بن وائل سبعة آلاف رئيسهم الحصين بن المنذر، ومن عبد القيس أربعة آلاف عليهم عبد اللّه بن علوان، ومن الأزد عشرة آلاف رئيسهم عبد اللّه بن حوذان الأزدي، ومن أهل الكوفة ـ من مذحج

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٤٠٨.

وهمدان وكندة ـ سبعة آلاف عليهم جهم بن زحر الجعفي، ومن تميم عشرة آلاف عليهم ضرار الضبي، ومن الموالي سبعة آلاف عليهم حيان». فيكون قوام الجيش الذين بخراسان (٤٧٠٠٠ من العرب) و (٧٠٠٠ من الموالي)، ويكون قوام الجيش الذين ساروا مع يزيد بن المهلّب من العراق زهاء سبعين ألفاً.

فقد انطلق يزيد بن المهلب من مدينة واسط والكوفة ـ في حوالي شهر رجب ٩٧هـ ـ على رأس زهاء أربعين ألفاً من جند الشام وجند أهل ولاية الكوفة وإقليم الريّ التابع للكوفة، قال ابن خلدون:

«واستخلف يزيد بن المهلّب على واسط الجراح بن عبد اللّه الحكمي، وعلى الكوفة بشير بن حسان النهدي»[(١)] ومضى يزيد من واسط والكوفة إلى مدينة البصرة، وكان نائبه على البصرة الأمير سفيان بن عبد اللّه الكندي قد استنفر أهل ولاية البصرة للمسير والجهاد مع يزيد بن المهلّب، وكانت أقاليم وثغور البصرة تشمل البحرين ومنطقة الخليج العربي وعُمان وفارس، فاجتمع زهاء ثلاثين ألفاً من ثغور وأقاليم البصرة إلى مدينة البصرة، وانضووا تحت لواء أميرهم يزيد بن المهلّب، فانطلق يزيد من البصرة ـ في شعبان ٩٧هـ ـ فسلك طريق إقليم فارس ثم إقليم كرمان، إذْ أنه ـ كما ذكر الطبري وابن كثير ـ «كان أهل جرجان قد حالوا بين الناس والطريق الأعظم إلى خراسان، فلم يكن أحد من المسلمين يسلك طريق خراسان إلا على وَجَلٍ وخوف من أهل جرجان، فكان طريق المسلمين إلى خراسان من فارس إلى كرمان ثم إلى مرو خراسان». فسلك يزيد بن المهلّب وجيشه طريق فارس وكرمان إلى مرو خراسان ـ وكانت الطريق مسيرة عشرين يوماً ـ فوصل إلى مدينة مرو خراسان ـ في أواخر شعبان ٩٧هـ ـ فاستقبله الأمير مَخْلد وجند وأهل مرو خراسان، فدخلها في موكب مهيب وجيش كثيف، واستقر في دار الإمارة بمدينة مرو عاصمة ولاية خراسان.

قال الطبري: «وأقام يزيد بخراسان ثلاثة أشهر أو أربعة. .»، فيكون ذلك من أواخر شعبان إلى ذي القعدة ٩٧هـ ويرتبط ذلك بفصل الشتاء، وقام يزيد بن المهلّب خلال تلك الشهور بتنظيم الأمور في ولاية خراسان وما وراء نهر جيحون، وكان من أنباء يزيد في تلك الفترة بخراسان:

* ـ قال الطبري: «أقام يزيد بخراسان ثلاثة أشهر أو أربعة. . واستخلف على خراسان مَخْلد بن يزيد، واستعمل على سمرقند وكشّ ونَسَفْ وبُخارى معاوية بن يزيد بن المهلّب، وعلى طخارستان حاتم بن قبيصة بن المهلّب. .» وقال الأصفهاني: «وَلّى يزيد بن المهلّب رجلاً من اليحمد يقال له عمرو بن عمير ـ بلاد ـ

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٤٠٨.

الزم، فلقيه كعب الأشقري فقال له: أنت شيخ من الأزد يوليك الزم ويولي ربيعة الأعمال السنية، وأنشده:

لقد فازت ربيعةُ بالمعالي وفاز اليحمدي بعهد زمٍّ
فإن تك راضياً منهم بهذا فزادك ربُّنا غماً بغمِ

. . فرد اليحمدي عهد يزيد عليه، فحلف لا يستعمله سنة، فلما أجحفت به قال اليحمدي لكعب:

لو كنت خليتني يا كعب متكئاً في دور زَمّ لما أقفرت من خلفِ
ومِن (شرابٍ) ومن لحم أعل به لكن شعرك أمر كان من خرفي
إن الشقيّ بمرو من أقام بها يقارعُ السوق من بيع ومن حلف»

ويؤكد ذلك النبأ عدم صحة الزعم بأن كعباً قُتِل في عمان بتدبير يزيد، والصحيح أنه قَدِم على يزيد بالعراق ثم سار في الجيش الذي سار مع يزيد إلى خراسان سنة ٩٧هـ وله أخبار مع ثابت قُطنة الأزدي في هذه الفترة بخراسان، وكان ثابت قطنة من الفرسان والشعراء الذين مَسّهم الضرر في ولاية قتيبة، قال ابن القحذمي: «دخل ثابت قطنة على بعض أمراء خراسان، أظنه قتيبة بن مسلم، فمدحه وسأله حاجة فلم يقضها له، فخرج من عنده وقال لأصحابه: لكن أبا خالد يزيد بن المهلب سألته هذا وأكثر منه لم يردني عنه، وأنشأ يقول:

أبا خالدٍ لم يبق بعدك سوقة ولا ملك ممن يعينُ على الرفد
ولا فاعل يرجو المقلّون فضله ولا قائل ينكي العدو على حقد»

فلما عاد يزيد بن المهلب إلى خراسان «كان ثابت في صحابة يزيد بن المهلب وكان يوليه أعمالاً من أعمال الثغور. . وقال دعبل: كان يزيد بن المهلب يقدم إلى ثابت قطنة أن يصلي بالناس يوم الجمعة».

* ـ وقال د. ناجي حسن: «حاول يزيد بن المهلّب كما يظهر إعادة هيبة الأزد مجدداً في خراسان، بعد أن عمل جاهداً على ضعضعة قوة تميم بعزل وكيع بن أبي سود التميمي فَقُضِي بذلك على نفوذ تميم بمناطق خراسان ولم يَعُد لها صوتٌ يُسمع بعد أن عاثت في تلك المناطق فساداً، ولم تدع فرصة إلا وبرزت من خلالها لتحصل على قدر أكبر من المنافع الذاتية. وعقد يزيد مؤتمراً في (مرو) دعا إليه جميع الأزديين، ووضح لهم فضل آل المهلب عليهم. . وهو بذلك يحاول توحيد الأزد تحت قيادته بحيث يستطيع أن يصمد بهم أمام الأحداث وهو لم يزل يتذكر مصير قتيبة حين خذلته قيس». وقال د. ناجي حسن: «أدرك آل المهلب طبيعة الأوضاع

القبلية بخراسان نتيجة لخبراتهم الواسعة في هذا الميدان فأكدوا العلاقة الوثيقة مع ربيعة بحلف عُقد لهذه الغاية حتى «كان المهلّب وابنه يزيد ينزلان هاتين القبيلتين في محلتهما». . ويظهر من بعض الروايات أن آل المهلب بالغوا في إظهار الود نحو ربيعة حتى كانوا يُقلدونها الأعمال السنية، وإن كانوا في الوقت نفسه قد اتبعوا سياسة يمانية صرفة». (ص١٩٩).

* ـ وقام يزيد بن المهلّب باستنفار وتهيئة الناس للجهاد ولغزو وفتح أقاليم جرجان ودهستان وطبرستان، ـ عند انتهاء فصل الشتاء ـ فأخذ الناس من جند وقبائل العرب بخراسان ومن العجم المسلمين والموالي بأقاليم خراسان في الالتحاق بجيش يزيد بن المهلّب الذين قدموا معه من جند الشام ومن جند أهل ولايتي البصرة والكوفة وإقليم الريّ وفارس، فارتفع عدد الجيش إلى ثمانين ألفاً ثم إلى تسعين ألفاً ثم إلى مائة ألف، ولم يأت الشهر الرابع ـ وهو شهر ذي القعدة ـ إلا وقد بلغ الجيش زهاء مائة وعشرين ألفاً، بينهم مائة ألف من العرب، فاستخلف يزيد العمال والقادة على أقاليم وثغور ما دون النهر من ولاية خراسان، واستخلف على بُخارى وسمرقند والصُغد (أوزبكستان) معاوية بن يزيد بن المهلّب، وعلى إقليم طخارستان الأمير حاتم بن قبيصة بن المهلب، وعلى خُراسان (شمال أفغانستان وأعالي إيران وشرق تركمنستان) الأمير مَخْلَد بن يزيد ـ وهو نائب أبيه على خراسان ـ وانطلق يزيد بن المهلّب من مدينة مرو الشاهجان (في شرق تركمنستان) إلى أقاليم دهستان وجرجان (في غرب تركمنستان ومشارق بحر قزوين) حيث قال ابن خلدون: «سار يزيد بن المهلب إلى جرجان في مائة ألف من أهل العراق والشام وخُراسان سوى الموالي والمتطوعة» وقال هشام بن الكلبي: «سار مع يزيد بن المهلب من أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الشام وأهل خراسان والريّ مائة ألف مقاتل سوى الموالي والمماليك والمتطوعين» وقال الطبري: «كان يزيد في عشرين ومائة ألف، منهم من أهل الشام ستون ألفاً. . فسار بهم من خراسان إلى دهستان وجرجان. . ».

* * *

سابعاً: أنباء فتح يزيد بن المهلّب دِهِستان والبحيرة وطبرستان

في ذي الحجة ٩٧هـ انطلق يزيد بن المهلّب من مرو خُراسان إلى إقليم دِهِستان وهو إقليم شاسع كان يمتد في النصف الغربي من جمهورية تركمنستان ـ حالياً ـ وحتى بحر قزوين، وكان ملك دِهِستان الملك صول التركي يُقيم بمدينة حصينة اسمها دِهِستان ـ وهي العاصمة ـ ومدينة ثانية في جزيرة ببحر قزوين، وفي ذلك جاء في تاريخ الأمم والملوك أنه: «كان الملك صول التركي ينزل دِهِستان،

والبحيرة جزيرة في البحر بينها وبين دِهِستان خمسة فراسخ، وكان الملك صول يُغير على ملك جرجان (فيروز بن قول)، وبينهم خمسة وعشرون فرسخاً، فيُصيب من أطرافهم ثم يرجع إلى البحيرة ودهستان».

فدخل يزيد بن المهلّب بلاد دهستان في مائة وعشرين ألفاً من فرسان وجند العروبة والإسلام، فقام يزيد بتقسيمهم إلى عدة فِرق، وتوجيههم إلى محاور إقليم دهستان، وتقدم يزيد ـ في محرم ٩٨هـ ـ إلى مدينة دهستان، وفي ذلك جاء في تاريخ الأمم والملوك للطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير: «نزل يزيد بن المهلّب بدِهِستان وكان أهلها من التُرك، فأقام عليها وحاصر أهلها وجيشها، فكانوا يخرجون فيقاتلون المسلمين، فلا يلبثهم المسلمون أن يهزموهم فيدخلون حصنهم ثم يخرجون أحياناً فيقاتلون فيشتد قتالهم. وكان جهم بن زَحر وحمال بن زَحر من يزيد بن المهلّب بمكان، وكان يكرمهما[1]، وكان محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي سبرة الجُعفي ذا لسان وبأس، وكان إذا نادى المنادي: يا خيل اللّه اركبي وأبشري، كان هو أول فارس من أهل العسكر يبدر إلى موقف البأس عند الروع، فنودي ذات يوم في الناس، فبدروا، وخرج الترك، فاقتتلوا أشد قتال، فحمل محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي سبرة على قائد تركي قد صدّ الناسَ عنه، فاختلفا ضربتين، فثبت سيف التركي في بيضة (أي خوذة) ابن أبي سبرة، وضربه ابن أبي سبرة فقتله، ثم أقْبَل وسيفه في يده يقطر دماً وسيف التركي في بيضته، فنظر الناس إلى أحسن منظر رأوه من فارس، ونظر يزيد بن المهلّب إلى ائتلاف السيفين والبيضة والسلاح فقال: من هذا؟ قالوا: ابن أبي سبرة، فقال يزيد: للّه أبوه أيُّ رجل هو..».

وخرج يزيد بعد ذلك يوماً وهو يرتادُ مكاناً يدخل منه على القوم مدينة دِهِستان الحصينة، وكان مع يزيد نحو أربعمائة من الفرسان، فلم يشعر حتى هجم عليه جيش من الترك وكانوا أربعة آلاف، فقاتلهم ساعة، ثم قال أصحاب يزيد له: أيها الأمير انصرف ونحن نقاتلُ عنك، فأبَىٰ أن يفعل، وغشى القتال يومئذ بنفسه وكان كأحدهم، وقَاتَل ابن أبي سبرة وابنا زحر والحجاج بن جارية الخثعميّ وجلّ أصحابه فأحسنوا القتال، حتى إذا أرادوا الانصراف جعل يزيدُ الحجاجَ بن جارية على الساقة، فكان الحجاج يُقاتل من ورائه حتى انتهى إلى الماء، وقد كانوا عطشوا فشربوا

---

(١) جهم بن زحر بن قيس الجعفي المذحجي: قائد يماني من الأبطال، كان على مقدمة الجيش العربي الإسلامي في فتح بلاد السند مع محمد بن القاسم الثقفي، ثم كان قائد فرسان مذحج وهمدان وكندة في خراسان، وافتتح البتم مع مخلد بن يزيد.

وانصرف عنهم العدوّ، ولم يظفروا منهم بشيء، فقال سفيان بن صفوان الخثعمي ـ لأحد ابني زَحر ـ:

لـولا ابـنُ جـاريَـة الأغـرُّ جَـبـيـنُـهُ   لَـسُـقِـيـتَ كـأسـاً مُـرَّةَ الـمـتـجَـرَّع
وحَـمَـاكَ فـي فُـرسَـانِـهِ وخـيُـولِـهِ   حتَّـى وَرَدتَ الـماء غَـيْـرَ مُـتَـعـتَـعِ»[1]

وكان ذلك اليوم شبيهاً بيوم قتال يزيد للترك في نَسَفْ، حيث قال الراجز يومذاك، وكذلك في هذه الموقعة:

يـزيـد يـا سـيـف أبـي سـعـيـد   قـد عـلـم الأقـوام والـجـنـود
أنـك يـوم الـتـرك صـلـب الـعـود

وقال كعب بن معدان الأشقري الأبيات التي سلف ذكرها في نبأ موقعة نسف، وتنطبق أيضاً على هذه الموقعة في دهستان، ولعل الأصوب أنها قيلت في هذه الموقعة بضواحي مدينة دِهِستان، واستمر حصار يزيد وجند الإسلام لمدينة دِهِستان، قال الطبري: «ثم ألحّ يزيد عليها، وأنزل الجنود من كل جانب حولها، وقطع عنهم المواد، فلما جهدوا وعجزوا عن قتال المسلمين، واشتد عليهم الحصار والبلاء، بعث دهقانُ دِهِستانَ إلى يزيد: إني أصالحك على أن تؤمنني على نفسي وأهل بيتي ومالي وأدفع إليك المدينة وما فيها وأهلها، فصالحه وقَبِل منه ووفى له، ودخل يزيد المدينة فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز، ومن السبيّ شيئاً لا يُحْصَىٰ..».

وقد أضاف الطبري عن صاحب تلك الرواية قوله: «وقتل يزيد أربعة عشر ألف تركي صبراً، وكتب بذلك إلى سليمان بن عبد الملك، ثم خرج حتى أتى جرجان».
وجاء في تلك الرواية أيضاً أن دهقان دهستان الذي سلم المدينة هو الملك صول، وقد وقع في تلك الرواية التباس، فالملك صول لم يكن بمدينة دهستان وإنما كان بمدينة البحيرة، والذين قتلهم يزيد من الترك كان فيما بعد لأنهم غدروا، فالذي حدث في فتح مدينة دِهِستان هو استسلام دِهقان المدينة وهو نائب الملك صول، فأعطاه يزيد الأمان هو وأهل المدينة، واستعمل يزيد على مدينة دهستان عبد اللّه بن معمر اليشكري وخَلَف معه أربعة آلاف من المسلمين، وسار إلى البياسان القريبة من دهستان.

***

وكان يحكم البياسان ابن عم لفيروز بن قول ملك جرجان يُقال له المُرزبان،

---

(١) الحجاج بن جارية الخثعمي: قائد يماني باسل، كان على ميمنة جيش عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي في موقعة دير الجماجم.

وكانت بينهما مُنازعة، فذكر الطبري من طريق طفيل بن مرداس وبشر بن عيسى ومن طريق أبي حفص الأزدي وسليمان بن كثير أنه: كان الملك صول ينزل البحيرة جزيرة في البحر بينها وبين دهستان خمسة فراسخ.. وكان صول يُغير على فيروز بن قول ملك جرجان فيصيب من أطرافهم ثم يرجع إلى البحيرة ودهستان. فوقع بين فيروز وبين ابن عم له يقال له المرزبان منازعة، فنزل المرزبان البياسان ـ وتولى حكمها ـ فخاف أن يغير عليه التُرك، فخرج إلى يزيد بن المهلّب.. فقال له يزيد: ما أقدمك؟ قال: خفتُ صولاً، فهربت منه «أو: فقَدِمت إليك» وتتيح تلك الرواية إدراك أن مرزبان البياسان رأى تسليمها إلى يزيد بن المهلب خوفاً من صول ملك دهستان وكذلك من المسلمين، فسار يزيد مع المرزبان واستلم البياسان، وقد ذكر الطبري في رواية تالية عن أبي محمد الثقفي أنه «استعمل يزيد بن المهلّب عبد اللّه بن مُعَمَّر اليشكُريَّ على البياسان ودِهِستان، وخلف معه أربعة آلاف من جند المسلمين».

* * *

ولما تَسَلّم يزيد البياسان، قال للمُرْزبان: هل من حيلة لقتال الملك صول؟ قال: نعم، فهو الآن بأطراف جرجان، فإذا كتبت إلى الأصبهبذ كتاباً تسأله أن يحتال لصول حتى يقيم بجرجان وتجعل له على ذلك جعلاً، فإنه يبعث كتابك إلى صول يتقرب إليه فيتحول عن جرجان وينزل البحيرة، فإن نزل البحيرة حاصرته وظفرت به. ففعل يزيد ذلك، فأرسل الأصبهبذ كتاب يزيد إلى صول، فلما أتاه الكتاب رحل صول إلى البحيرة وتحصن بها.

والظاهر من ذلك أن المرزبان إنما أراد تحذير الملك صول لكي يتحصن في مدينة البحيرة قبل أن يسير إليها يزيد بن المهلّب، فأشار على يزيد بتلك المشورة التي أتاحت لأصبهبذ طبرستان تحذير الملك صول، فبادر بالعودة بجيشه إلى مدينة البحيرة وتحصن بها. قال ابن خلدون: «وسار يزيد بن المهلّب إلى البحيرة، جزيرة في البحر على خمسة فراسخ من دِهستان، فحاصر الملك صول». وجاء في تاريخ الطبري أنه: «بلغ يزيد أن صولاً قد صار إلى البحيرة، فخرج يزيد في ثلاثين ألفاً.. وهرب المرزبان، وسار يزيد بالناس إلى البحيرة، فأناخ على صول، وتَمَثّل حين نزل بهم:

فخرّ السّيفُ وارْتَعَشَتْ يَدَاهُ وكانَ بِنفسِهِ وُقِيَتْ نُفُوسُ

فحاصرهم يزيد، فكان يخرج إليه صول في الأيام فيقاتله ثم يرجع إلى حصنه بالبحيرة، وكان مع يزيد ثلاثين ألفاً فمكث التُرك محصورين يخرجون فيقاتلون ثم يرجعون إلى حصنهم ستة أشهر».

إن مسير يزيد بن المهلّب إلى البحيرة في ثلاثين ألف مقاتل، يتيح إدراك أنه

قام في ذات الوقت بتوجيه وتوزيع زهاء تسعين ألف مقاتل على جبهات أخرى، وقد جاء ذكر ذلك في رواية الطبري بعد فتح البحيرة ومصالحة الملك صول، والترتيب الأصوب أن ذلك كان عند مسير يزيد إلى البحيرة، وفي ذلك قال ابن خلدون: «استعمل يزيد بن المهلّب على البياسان عبد اللّه بن معمر اليشكري وخلف معه أربعة آلاف. وسار إلى أدنى جرجان من جهة طبرستان ونزل بآمد واستعمل راشد بن عمرو في أربعة آلاف. ودخل بلاد طبرستان، فسأله صاحبها الأصبهبذ في الصلح، فأبَىٰ يزيد ورجا أن يفتحها، فَوَجَّه أخاه عيينة من وجه، وخالد بن يزيد ابنه من وجه، وإذا اجتمعا فعيينة على الناس». وكذلك ذكر ابن الأثير ـ قبل نبأ فتح البحيرة ـ أنه «استعمل يزيد على البياسان ودهستان عبد اللّه بن معمر اليشكري وجعله في أربعة آلاف، واستعمل على ايزوسا راشد بن عمرو وجعله في أربعة آلاف» والأصوب كما ذكر الطبري « . . واستعمل على أندرستان أسد بن عبد اللّه بن ربعة وخلف معه أربعة آلاف. . وسار إلى أدنى جرجان من جهة طبرستان ونزل بآمد واستعمل راشد بن عمرو في أربعة آلاف». قال الطبري: «وَوَجّه يزيد إلى طبرستان أخاه أبا عيينة من وجه، وخالد بن يزيد من وجه، وأبا الجهم الكلبي من وجه، وقال: إذا اجتمعتم فأبو عيينة على الناس».

ويتبين من مجمل ذلك أن توزيع يزيد بن المهلّب لجيشه كان على النحو التالي:

٤ كتائب (أربعة آلاف جندي) مع عبد اللّه بن معمر اليشكري في مدينة دهستان والبياسان.

٤ كتائب (أربعة آلاف جندي) مع أسد بن عبد اللّه بن ربعة عامل أندرستان.

٤ كتائب (أربعة آلاف جندي) مع راشد بن عمرو في ثغر طبرستان وآمد.

٢٠ كتيبة (عشرون ألف مقاتل) بقيادة خالد بن يزيد بن المهلب إلى جهة طبرستان (الشمال)

٢٠ كتيبة (عشرون ألف مقاتل) بقيادة أبي الجهم الكلبي إلى جهة من طبرستان (الشرق)

٢٠ كتيبة (عشرون ألف مقاتل) بقيادة أبي عيينة بن المهلّب إلى جهة ثالثة من طبرستان

٣٠ كتيبة (ثلاثون ألف مقاتل) بقيادة يزيد بن المهلّب سار بهم إلى البحيرة لقتال الملك صول.

إذا اجتمعت الجيوش الثلاثة فأبو عيينة القائد العام.

وبينما كان يزيد بن المهلب يحارب الملك صول وجيشه في البحيرة، وهي

جزيرة في بحر قزوين غرب تركمنستان، أو شرق بحر قزوين، كان أبو عيينة بن المهلّب يتقدم بجيشه داخل إقليم طبرستان ـ جنوب بحر قزوين ـ قال الطبري وابن الأثير: «سار أبو عيينة فدخل بلاد طبرستان، فأصعد في الجبل إليهم، وقد بعث أصبهبذ طبرستان إلى الديلم وأهل جيلان، فاستجاش بهم، فأتوه ـ وكانوا زهاء مائة ألف ـ فاقتتلوا، فحازهم المسلمون ساعة وكشفوهم، وخرج رأس الديلم يسأل المبارزة فخرج إليه ابن أبي سبرة فقتله. فانهزم المشركون في الجبل، فأتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى فم الشِعب، فدخله المسلمون، وصعد المشركون في الجبل واتبعهم المسلمون يرومون الصعود، فرماهم المشركون بالنبال والحجارة، فانهزم المسلمون من فم الشِعب من غير كبير قتال، وأدبروا يركب بعضهم بعضاً حتى أخذوا يتساقطون في اللهوب والجبل، ومضوا حتى انتهوا إلى بقية عسكر يزيد، واجتمعوا فتحصنوا في جانب من طبرستان فلم يزالوا فيه حتى أَقْبَلَ إليهم يزيد.. وكان الأصبهبذ قد كتب إلى أهل جرجان ومقدمهم المرزبان (وهو ابن عم ملك جرجان) يسألهم أن يثبوا بأصحاب يزيد وأن يقطعوا عليه المادة ـ أي المؤن ـ والطريق فيما بينه وبين بلاد الإسلام، وأن يبيتوا من عندهم من المسلمين، فغدر المرزبان بعبد اللّه بن معمر اليشكري والذين معه من المسلمين في دهستان والبياسان وكانوا أربعة آلاف، فوثب عليهم المرزبان والمشركون فقتلوهم أجمعين في الليل وهم آمنون. وبلغ ذلك كله يزيد وأصحابه، فعظم عليهم وهالهم».

وبادر يزيد بن المهلّب إلى اتخاذ إجراءات سريعة متزامنة في الجبهات الثلاث، طبرستان، ودهستان، والبحيرة، ففي جبهة طبرستان: بعث يزيدُ حيّان النبطيّ وهو قائد الموالي، إلى أصبهبذ طبرستان، وكان الأصبهبذ قد طلب سابقاً المصالحة فأَبَى يزيد، فقال يزيد لحيّان: اذهب إلى الأصبهبذ واعمل في الصلح، وأمره بأن يقول كذا وكذا. قال ابن الأثير: «فأتى حيان الأصبهبذ فقال: أنا رجل منكم وإن كان الدين فَرّق بيني وبينكم، فأنا لكم ناصح، فأنت أحبّ إليّ من يزيد، ولَسْت آمن أن يأتيك بمن لا تقوم له، فأرح نفسك وصالحه فإن صالحته صيّر حدّه على أهل جرجان ـ ودهستان ـ بغدرهم، وقتلهم أصحابه، فصالحه الأصبهبذ على سبعمائة ألف درهم.. إلخ»، بينما ذكر الطبري أن أهل طبرستان «صولحوا على مائتي ألف درهم» وأنه فيما بعد «صالحهم يزيد على سبعمائة ألف درهم.. إلخ». ولذلك يبدو أن الصلح الذي أقنع به حيانُ الأصبهبذ كان على أن يؤدي الأصبهبذ وأهل طبرستان مائتي ألف درهم مقابل الجزية، ونظراً لأن المبلغ كان يسيراً، استجابوا لذلك، فتم ليزيد ما كان يريد، وهو تهدئة جبهة بلاد طبرستان، ومكثت قواته في جانب من طبرستان حتى أقبل يزيد إليهم بعد فتح البحيرة كما سيأتي.

وفي جبهة دهستان والبياسان: أتاح تهدئة جبهة طبرستان عودة قواتٍ إلى مناطق دهستان والبياسان، وتعزيز الحاميات العربية الإسلامية فيها، ومحاصرة المشركين الذين غدروا بعبد اللَّه بن معمر والذين معه وقتلوهم غدراً، فتم محاصرة المشركين في مدينة دهستان حتى قدوم يزيد من البحيرة.

وفي جبهة البحيرة: شَدَدّ يزيد بن المهلب وجنوده حصارهم لمدينة البحيرة وللملك صول وجنوده التركمان المشركين، قال الطبري: «فمكث الترك محصورين حتى شربوا ماء الإحساء فأصابهم داءٌ يُسمى السُّؤاد، فوقع فيهم الموت، وأرسل ـ الملك ـ صول يطلب الصلح. فقال يزيد: لا، إلّا أن ينزل على حكمي، فأبَىٰ، فأرسل إليه صول: إني أصالحك على نفسي ومالي وثلاثمائة من أهل بيتي وخاصتي على أن تؤمنني، فتنزل البحيرة، فأجابه يزيد إلى ذلك. فخرج صول بماله وثلاثمائة ممن أحبّ وصار مع يزيد. فدخل يزيد البحيرة».

وهنا تضيف الرواية «فقتل يزيد من الأتراك أربعة عشر ألفاً صبراً، ومَنّ على الآخرين فلم يقتل منهم أحداً» بينما ذكر الطبري في موضع آخر: «إن قتل أولئك الأتراك كان في مدينة دهستان»، وهو الصواب، فبعد فتح البحيرة سار يزيد إلى دهستان وفيها المشركون الذين قتلوا عبد اللَّه بن معمر والجنود المسلمين الأربعة آلاف، فاستسلم المشركون في دهستان، فقتل يزيد الذين يثبت اشتراكهم في قتل المسلمين وكانوا أربعة عشر ألفاً من الترك المشركين، فتم إعدامهم، وعفا يزيد عن أهل البلاد الذين لم يغدروا فلم يَقْتُلْ منهم أحداً، أما أهل مدينة البحيرة فلم يُقتل منهم أحد، وإنما دخلها يزيد وجنوده فاتحين، قال الطبري: «وقال الجند ليزيد: أعْطنا أرزاقنا، فدعا إدريس بن حنظلة فقال له: احْصِ لنا ما في البحيرة حتى نُعطي الجُند، فدخلها إدريس فلم يقدر على إحصاء ما فيها، فقال ليزيد: فيها ما لا أستطيع إحصاءه وهو في ظروف فنحصي الجواليق ونعلّم ما فيها ونقول للجند: ادخلوا فخذوا، فمن أخذ شيئاً عرّفنا ما أخذ من ـ الغنائم ـ فقال يزيد: نِعْم ما رأيت، فاحصَوْا الجواليق عدداً وعلّموا كلَّ جولق بما فيه ـ من الحنطة والشعير والأرز والسمسم والعسل ـ وقالوا للجند: خذوا، فكان الرجل يخرج وقد أخذ متاعاً أو طعاماً أو ما حَمَلَ من شيء، فيُكتب على كلّ رجل ما أخذ ـ بما يوازي رزقه وسهمه من الغنائم ـ فأخذوا شيئاً كثيراً. قال أبو بكر الهذليّ: وكان شَهْرُ بن حوشب على خزائن يزيد بن المهلّب فرفعوا عليه أنه أخذ خريطة، فسأله يزيدُ عنها، فأتاهُ بها، فدعا يزيد الذي رفع عليه ـ وكان قد أشاع الخبر ـ فشتمه يزيد، وقال لشَهْر: هي لك، قال: لا حاجة لي فيها، فقال القُطامي الكلبي ـ ويقال سنان بن مكمّل النميري ـ:

لـقـد بَـاعَ شَـهْـرٌ دِيـنَـهُ بـخـريـطـة فـمـن يـأمـن الـقُـرَّاءَ بـعـدك يـا شَـهْـرُ
أَخَـذْتَ بـه شـيـئـاً طـفـيـفـاً وبِـعْـتـهُ من ابن جـونـبـوذانٌ هـذا هـو الـغَـدْرُ

وقال مُرّة النخعيّ في شَهْر:

يا ابنَ المُهلّب ما أردت إلى امْرِئٍ لـولاك كـان كـصـالـح الـقُـرَّاءِ»

واستعمل يزيد بن المهلّب على البحيرة والمنطقة المجاورة لها من غرب تركمنستان قائداً من المسلمين.

ومضى يزيد بن المهلّب إلى مدينة دهستان، فانضم بجنوده إلى الذين يحاصرونها من قواته، فلما اشتد الحصار على العدو، استسلموا، وعندئذ وقع ما ذكره الطبري من أنه «دخل يزيد بن المهلب مدينة دهستان، فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز، ومن السبيّ شيئاً لا يُحصى، وقتل المسلمون أربعة عشر ألف تركي صبراً (وهم الذين غدروا وقتلوا عبد اللّه بن معمر وأربعة آلاف من المسلمين) وكتب يزيد بذلك الفتح إلى سليمان بن عبد الملك».

وقبل أن يكتب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك، توجه بجيشه من دهستان إلى بلاد طبرستان ـ التي كان قد بعث إليها جيشاً فوقع لهم في شِعب جبل طبرستان ما سلف ذكره، فانسحبوا من الجبل ـ قال الطبري: «فتحصنوا في جانب من طبرستان فلم يزالوا فيه حتى خرج إليهم يزيد، وأقام يزيدعلى الإصبهبذ في أرضه حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم.. وقد كانوا صولحوا قبل ذلك على مائتي ألف درهم» ويتبين من ذلك أن الصلح السابق كان عندما بعث يزيد بن المهلب حيان النبطي إلى أصبهبذ طبرستان، وكان يزيد في البحيرة، فنجح حيّان في إقناع الاصبهبذ بالمصالحة على أن يؤدي مائتي ألف درهم، فتم تهدئة جبهة طبرستان، فلما أتم يزيد فتح البحيرة ودهستان توجه إلى طبرستان في كامل جيشه وأتى إلى المكان الذي تحصن فيه الأولون من جنوده فاتخذه معسكراً، ودخل أرض طبرستان، فلم يكن للأصبهبذ طاقة بيزيد وجيشه الكثيف، فبعث إليه يزيدُ حيانَ النبطيّ ـ مرة أخرى ـ قال الطبري في تتمة النص السالف: «وأقام يزيد على الأصبهبذ في أرضه حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم، وأربعمائة ألف نقد.. وأربعمائة حمار موقرة زعفران، وأربعمائة رجل على رأس كل رجل برنس على البرنس طيلسان وجام من فضة، وقطعة حرير وكسوة». قال ابن خلدون: «فأرسل يزيد من قبض صلحهم المذكور» وذلك بطبيعة الحال إلى جانب الشروط التقليدية للمصالحة وهي الإذعان بأداء الجزية السنوية وطاعة سلطة دولة الخلافة، وإقامة حامية إسلامية وعامل في بلادهم، فتم بذلك فتح إقليم طبرستان صلحاً، واستخلف يزيد القائد راشد بن عمرو على رأس أربعة آلاف

من جند الإسلام في حامية آمد وطبرستان، وبذلك اكتمل الفتح العربي الإسلامي لإقليمين كانا بمثابة دولتين في ذلك الزمن وهما:

أ ـ إقليم دهِستان، بعاصمتيه دهستان والبحيرة، وهما مما يلي إقليم خوارزم، بين إقليم خوارزم وبحر قزوين، وقد استسلم الملك صول التركماني ملك دهستان وتم تأمينه مع ثلاثمائة من أهل بيته وخاصته فرحلوا من البحيرة، وقد ذكر الطبري وابن الأثير أن ذلك كان بعد ستة أشهر، فيكون ذلك في شهر جمادى سنة ٩٨هـ.

ب ـ إقليم طبرستان، جنوب بحر قزوين، وقد أذعن حاكم طبرستان الأصبهبذ إلى المصالحة على الشروط سالفة الذكر وأداء الجزية، مما يعني وقوع الفتح صلحاً. وقد كتب يزيد بن المهلّب إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك بنبأ الفتح وبأنه متوجّه لفتح جرجان.

ومن المفيد الإشارة إلى أن مسير يزيد بن المهلب لفتح أقاليم دهستان وطبرستان وجرجان ـ على رأس مائة وعشرين ألفاً من الفرسان ـ قد تزامن مع قيام الخليفة سليمان بن عبد الملك بتوجيه جيش كبير يضم زهاء ثلاثمائة ألف مقاتل لفتح القسطنطينية ـ تركيا حالياً ـ بقيادة أخيه مَسْلمة بن عبد الملك، فاخترق ذلك الجيش الثغور إلى القسطنطينية، وحاصروها، وطالت المواجهات والمعارك حول القسطنطينية، ولم يتحقق الفتح، فأمر سليمانُ مَسْلَمة أن يقيم على القسطنطينية، حتى يفتحها أو يأتيه أمره، فاستمر حصار القسطنطينية في الوقت الذي تقدم فيه يزيد بن المهلب بجيشه إلى جرجان، والتي ربما كان يظن كثيرون أن فتحها لا يقل صعوبة عن فتح القسطنطينية، ولن يستطيع يزيد فتحها.

* * *

ثامناً: الفتح المبين لجرجان بقيادة يزيد بن المهلّب

في رجب ٩٨هـ تقدم يزيد بن المهلّب بفرسان العروبة والإسلام إلى جرجان التي تقول وثيقة سيأتي ذكرها من ذلك العهد أنه «قد أعيا فتح جرجان سابور ذا الأكتاف وكسرى بن قباذ وكسرى بن هرمز، وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومَنْ بعدهما من الخلفاء» وكان ملك وأهل جرجان قد قطعوا الطريق الأعظم إلى خراسان، فلم يكن يسلك ذلك الطريق أحدٌ إلا على وجل وخوف، وكان طريق المسلمين من فارس إلى كرمان ثم مرو خراسان. واقترن اسم جرجان باسم الموت في أذهان المسلمين، ربما لأن أهل جرجان كانوا يقتلون من تقذف بهم الأقدار إلى طريق جرجان ولا ينجو من يدخل تلك البلاد.

وكان فرسان قبائل الأزد وقبائل مذحج اليمانية القحطانية يمثلون القوة الرئيسية

في جيش يزيد بن المهلب الذي تقدم لفتح بلاد دهستان وجرجان، ويبدو أن ذلك هو التقدم الذي عناه الطرماح بن حكيم الطائي حيث قال:

وتَقَدَّمَتْ أزدُ العِرَاق ومذْحجُ للموتِ يجمعُها أبوها الأكبرُ
قحطانُ، تضربُ رأس كل مَدَجَّجٍ تحمي بصائرُهنّ إذْ لا تُبصرُ
والأزدُ تعلمُ أن تحت لوائها مَلِكٌ قُرَاسيَةٌ، وموتٌ أحمرُ

والملك هو يزيد بن المُهلّب، وقد كان أبرز قادته في فتح دهستان من مذحج وهم: جهم بن زحر الجعفي، وحمال بن زحر الجعفي، ومحمد بن عبد الرحمٰن بن أبي سمرة.

وقد بدأ غزو وفتح يزيد بن المهلب لبلاد جرجان منذ شهر محرم ٩٨هـ؛ لأن إقليم دِهِستان كان يشمل القسم الأعلى من بلاد جرجان، ولأن يزيد بن المهلب كان قد بعث قوة إلى جرجان، فاستقبلوه بالصلح وجاء في رواية للطبري أنه: استخلف عليهم رجلاً من الأزد يقال له أسد بن عبد اللّه ثم غدروا بجنده ونقضوا العهد.. ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال محيطة بها وأبواب ومخارم يقوم الرجل منها على باب منها فلا يقدم عليه أحد.

وقد ذكرت الروايات ملك جرجان تارة بأن اسمه (فيروز بن قول) وتارة بأنه (المرزبان)، والمُرزبان لقب بمعنى الملك أو الحاكم، فيمكن القول إنه (المرزبان فيروز بن قول)، وكانت عاصمته مدينة حصينة منيعة في جنوب بلاد جرجان يقال لها (وجاه)، وكانت هي جرجان التي تقدم يزيد لفتحها بعد فتح إقليم دهستان ومصالحة أصبهبذ وأهل طبرستان.

قال الطبري وابن خلدون: «لما صالح يزيد بن المهلب أهل طبرستان، سار إلى جرجان.. ولما بلغ المرزبان أنه قد صَالَح الأصبهبذ وتوجّه إلى جرجان جمع أصحابه وأتى (وجاه) فتحصن فيها، وصاحبها لا يحتاج إلى عُدّة من طعام ولا شراب. وأقبل يزيد حتى نزل عليهم وهم متحصنون فيها وحولها غياض، فليس يعرف لها إلا طريق واحد، فكانوا يخرجون في الأيام فيقاتلونه ويرجعون إلى حصنهم».

وروى الطبري من طريق علي بن مجاهد عن عنبسة قال: (قاتل محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي سبرة الترك بجرجان فأحاطوا به واعتوروه بأسيافهم فانقطع في يده ثلاثة أسياف).

وجاء في رواية ذكرها الطبري وابن الأثير أنه: «أقام يزيد سبعة أشهر لا يقدر منهم على شيء ولا يعرف لهم مأتى إلا من وجه واحد» وقد حسب صاحب الرواية المدة من بداية فتوح إقليم دهستان في محرم ٩٨هـ إلى رجب، أما عند مسير يزيد

إليهم فالصواب أن المدة كانت شهر رجب «فكانوا يخرجون إليه في الأيام فيقاتلونه ويرجعون إلى وجاة».

قال الطبري: (قال هشام بن محمد: فخرج رجل من عسكره من طيء يتصيد، فأبصر وعلا يرقى في الجبل، فأتبعه، وقال لمن معه: قفوا مكانكم، ورقى في الجبل يقتصّ الأثر، فما شعر بشيء حتى وقف عند عسكرهم، فرجع يُرِيدُ أصحابه فخاف أن لا يهتدي، فجعل يخرّق قباءه ويعقد على الشجر علامات حتى وصل إلى أصحابه ثم رجع إلى العسكر[1]، ـ أي إلى معسكر يزيد ـ فأتى إلى عامر بن أينم الواشجي صاحب شرطة يزيد فمنعوه من الدخول، فصاح إنّ عندي نصيحةً، فانطلق به ابنا زحر بن قيس حتى أدخلاه على يزيد، فأعلمه الخبر، فأمر له يزيد بأربعة آلاف درهم».

وسأل يزيد الرجل الطائي عن عدد الجند الذين تسعهم تلك الطريق، فقال: الطريق لا تحمل إلا ثلاثمائة لالتفاف الغياض، ـ أو أربعمائة ـ وسأله يزيد: متى تَصِلُون إليهم إذا خرجتم وقت كذا؟ قال: غداً عند العصر فيما بين الصلاتين. فاختار يزيد ثلاثمائة مقاتل واستعمل عليهم جهم بن زحر الجعفي، ومعه خالد بن يزيد بن المهلب. قال الطبري: «وقال بعضهم: استعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد، وقال له: إن غُلبت على الحياة فلا تُغلبن على الموت وإياك أن أراك عندي منهزماً، وضمّ إليه جهم بن زحر» ثم ذكر عن هشام بن محمد أنه «بعث يزيد جهم بن زحر في أربعمائة رجل». مما يؤكد أن قائدهم جهم بن زحر وبعث معه خالد بن يزيد. وقد أصدر يزيد تعليماته إلى تلك القوة، أو تلك المجموعة الفدائية ودورها التنفيذي في إطار خطة متكاملة للفتح، وقد ذكرت المصادر التاريخية روايتين يكمل كل منهما الآخر، فجاء في الرواية الأولى بتاريخ الأمم والملوك ما يلي نصه:

«اختار يزيد بن المهلّب ثلاثمائة رجل فوّجههم واستعمل عليهم جهم بن زحر، وقال بعضهم: استعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد وضمّ إليه جهم بن زحر. وقال يزيد للرجل الطائي الذي ندب الناس معه: متى تصلُ إليهم قال: غداً عند العصر فيما بين الصلاتين. فقال يزيد: امضوا على بركة اللّه فإني سأجهد على مناهضتهم غداً عند صلاة الظهر، فساروا، فلما قارب انتصاف النهار من غد، أمر يزيد بن المهلّب الناس

---

(١) جاء بعد هذه العبارة ما يلي: «ويقال إن الذي كان يتصيد الهياج بن عبد الرحمٰن الأزدي من أهل طوس وكان منهوماً بالصيد» وقد أشار الطبري في رواية أخرى أنه «خرج رجل من عجم خراسان كان مع يزيد يتصيد» ويجمع الروايات أن الذين خرجوا يتصيدون كانوا ثلاثة: الطائي والأزدي ورجل من عجم خراسان، فلما أبصر الطائي وعلا يرقي في الجبل قال لهما: قفا مكانكما، ولحق بالوعل.

(أي عسكره) أن يشعلوا النار في حطب كان جَمَعه في حصاره إياهم، فصيّره آكاماً، فأضرموه ناراً، فلم تزل الشمس حتى صار حول عسكره أمثال الجبال من النيران، ونظر العدو إلى النار فهالهم ما رأوا من كثرتها، فخرجوا إليهم، وأمر يزيدُ الناس حين زالت الشمس فصلَّوْا فجمعوا بين الصلاتين، ثم زحفوا إليهم فاقتتلوا. وسار الآخرون (أي جهم وأصحابه) فهجموا على عسكر التُرْك قُبيل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيدُ يُقاتل من هذا الوجه، فما شعروا إلا بالتكبير من ورائهم فانقطعوا جميعاً إلى حصنهم، وركبهم المسلمون، فأعطوا بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد».

وجاء في الرواية الثانية عن هشام بن محمد ما يلي نصه:

«دعا يزيد بن المهلّب جهم بن زحر فبعث معه أربعمائة رجل حتى أخذوا في المكان الذي دُلّوا عليه، وقد أمرهم يزيد فقال: إذا وصلتم إلى ـ قرب ـ المدينة فانتظروا حتى إذا كان في السَحَر فكبّروا ثم انْطلقوا نحو باب المدينة فإنكم تجدوني وقد نهضتُ بجميع الناس إلى بابها. فلما بلغ ابن زُحر المدينة أمهل حتى إذا كانت الساعة التي أمره يزيد أن ينهض فيها مشى بأصحابه فأخذ لا يستقبل من أحراسهم أحداً إلا قتله، وكبّر، ففزع أهل المدينة فزعاً لم يدخلهم مثله قط فيما مضى، فلم يُرعهم إلا والمسلمون معهم في مدينتهم فدَهِشوا فألقى اللّه في قلوبهم الرعب وأقبلوا لا يدرون أين يتوّجهون غيرَ أن عصابة منهم ليسوا بالكثير قد أقبلوا نحو جهم بن زحر فقاتلوا ساعة فدُقّت يد جهم وصبر لهم هو وأصحابه فلم يُلبثوهم أن قتلوهم إلا قليلاً، وسمع يزيد بن المهلّب التكبير فوثب في الناس إلى الباب فوجدهم قد شغلهم جهمُ بن زحر عن الباب فلم يجد عليه من يمنعه ولا من يدفع عنه كبير دفع، ففتح الباب ودخل المدينة من ساعته».

وكان الكثير من جنود العدو قد سقطوا منذ إشعار النيران حتى دخول جيش الفتح المدينة، فاستسلم من تبقى من مقاتلي العدو داخل المدينة ـ الحصن ـ فتم الفتح المبين لجرجان، قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك:

«وكتب يزيد بن المهلّب إلى سليمان بن عبد الملك: أما بعد، فإنّ اللّه قد فتح لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً وصَنَعَ للمسلمين أحسن الصُنع فلربنا الحمد على نِعَمه وإحسانه، أظهرنا في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان، وقد أعيا ذلك سابورَ ذا الأكتاف وكسرى بن قباذ وكسرى بن هرمز، وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومَنْ بعدهما مِنْ خلفاءِ اللّه حتى فتح اللّه ذلك لأمير المؤمنين كرامة من اللّه له وزيادةً في نِعَمِهِ عليه».

* * *

ومن المفيد الإشارة إلى أن الروايات عن فتح جرجان قد بالغت في أمرين، أحدهما: الزعم بأن يزيد بن المهلب لما فتح مدينة أو قلعة جرجان الجبلية سالفة الذكر «قَتَلَ مقاتلتهم، وصلبهم مسافة فرسخين على يمين الطريق وشماله، وسبى ذراريهم» وبالتالي لم يبق منهم أحد، ثم تزعم أنه «قاد منهم اثني عشر ألفاً إلى لاندرهز وادي جرجان، وقال: من طلبهم بثأر فَلْيقتل، فكان الرجل من المسلمين يقتل الأربعة والخمسة في الوادي، وأجري الماء في الوادي على الدم..» وهذا الزعم يدل على عدم صحة الزعم الأول، كما يدل الأول على عدم صحة الزعم الثاني، فقد تم الفتح بعد معركة سقط فيها الكثير من مقاتلة العدو، فاستسلم بقية أهل تلك المدينة أو القلعة الجبلية وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً، فأمر يزيد المسلمين فقادوهم إلى وادي جرجان، ويبدو أن ذلك يرتبط ببناء مدينة في الوادي تكون عاصمة لبلاد جرجان بدلاً عن تلك المدينة أو القلعة الجبلية التي كان من المصلحة العامة عدم بقائها، فبات أولئك الجرجانيون موالي للمسلمين في مدينة جرجان التي بناها يزيد بن المهلّب وأصبحت عاصمة لإقليم جرجان بقسميه دهستان وجرجان عبر الأجيال، وفي ذلك قال ابن خلدون وابن الأثير:

«وبَنَىٰ يزيد بن المهلب مدينة جرجان ولم تكن بُنيت قبل ذلك، واستعمل على جرجان جهم بن زحر الجعفي»[1].

إن بناء يزيد بن المهلب لمدينة جرجان يقودنا إلى الأمر الثاني وهو ما غنمه المسلمون بقيادته في فتح جرجان وطبرستان، ففي فتح مدينة البحيرة عاصمة الملك صول، كان ما غنمه المسلمون ـ كما ذكرت سائر المصادر ـ كميات وجواليق من الحنطة والشعير والأرز والسمسم والعسل، وتم إعطاء الجنود أرزاقهم ـ أي مرتباتهم ـ من ذلك الطعام وبعض المتاع، وقد سلف النص التاريخي عن ذلك، أما أقاليم طبرستان فتم مصالحة حاكم وأهل طبرستان على أداء (سبعمائة ألف درهم) وقبض يزيد منهم مبلغ الصلح، وتلا ذلك فتح مدينة أو قلعة جرجان الجبلية، ولم تكن ذات مال وثراء، وقد زعمت إحدى الروايات أن يزيد بن المهلب قال في رسالته إلى سلميان بن عبد الملك عن فتح جرجان وطبرستان «وقد صار عندي من خُمس ما أفاء اللّه على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حَق حقُّه من الفيء والغنيمة ستةُ آلاف ألف درهم». مما يعني أن الغنائم بلغت ثلاثين ألف ألف درهم، وهو ما لم تبلغه غنائم فتح مصر ولا فتح العراق وفارس، وإنما بالغ صاحب تلك الرواية في الخيال، فما غنمه المسلمون من فتح جرجان وطبرستان لا يتجاوز (أربعة آلاف ألف درهم)

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤١٤ ـ والكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١٥٠ جـ٤.

أخذ منه الجيش والمجاهدون حقوقهم وسهامهم، وأخذ كل ذي حق حقه، وتبقى الخمس لبيت المال فبنى به يزيد مدينة جرجان، وكان مما غنمه يزيد من جرجان تاج ملك جرجان، وقد ذكر الطبري خبر التاج عن أبي محمد الثقفي قال:

«أصاب يزيد بن المهلّب تاجاً بجرجان فيه جوهر، فقال: أترون أحداً يزهد في هذا التاج؟ قالوا: لا، فدعا محمد بن واسع الأزدي فقال له: خذ هذا التاج فهو لك، قال: لا حاجة لي فيه، قال: عزمتُ عليك، فأخذه، وخرج، فأمر يزيد رجلاً ينظر ما يصنع به. فلقي سائلاً، فأعطاه إياه، فأخذ الرجلُ السائلَ، فأتى يزيد وأخبره الخبر، فأخذ يزيدُ التاج وعوّض السائلَ مالاً كثيراً».

وكان فتح جرجان في شهر رجب ٩٨هـ، واستخلف يزيد بن المهلب على إقليم جرجان القائد جهم بن زحر بن قيس الجعفي المذحجي، فكان جهم أول أمير لجرجان في التاريخ والعصر العربي الإسلامي بينما بلغ الأمير يزيد بن المهلب ذروة المجد والسلطان، فهو الأمير الوالي للقسم الشرقي من دولة الخلافة العربية الإسلامية بولاياتها وأقاليمها وثغورها المترامية الأطراف فقد كانت ولاية وسلطة يزيد بن المهلّب تشمل:

١ ـ ولاية عُمان وكان نائب يزيد عليها الأمير زياد بن المهلب.

٢ ـ ولاية البصرة وتشمل البصرة والبحرين والأهواز وفارس إلى تخوم السند وكان نائب يزيد عليها سفيان بن عبد اللّٰه الكندي.

٣ ـ ولاية الكوفة وتشمل إقليم همذان وإقليم الريّ في إيران وكان نائب يزيد على الكوفة بشير بن حسان النهدي.

٤ ـ ولاية خراسان وكان نائب يزيد عليها مخلد بن يزيد بن المهلّب.

٥ ـ بلاد ما وراء نهر جيحون وسمرقند وبُخارى وكان نائب يزيد عليها الأمير معاوية بن يزيد بن المهلب.

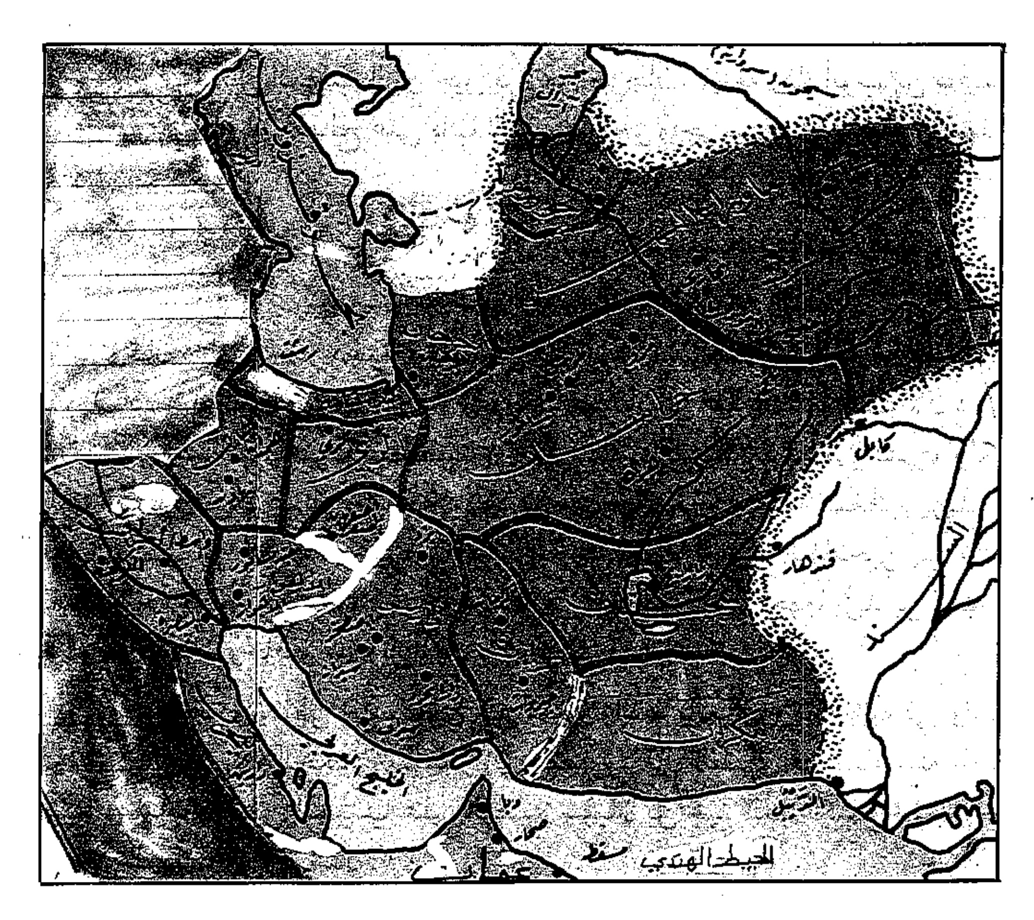
٦ ـ بلاد طخارستان وخوارزم وكان نائب يزيد عليها الأمير حاتم بن قبيصة بن المهلب.

٧ ـ بلاد السند ومكران وكان أميرها حبيب بن المهلب.

٨ ـ سجستان وكرمان وكان أميرها مدرك بن المهلب.

٩ ـ بلاد جرجان وطبرستان وكان نائب يزيد عليها الأمير جهم بن زحر الجعفي المذحجي.

١٠ ـ وكان نائب يزيد في واسط عاصمة أمير العراق والمشارق هو الجراح بن عبد اللّٰه الحكمي المذحجي.



البلاد والولايات التي كان أميرها وواليها يزيد بن المُهلّب.

تاسعاً: ما بعد فتح جرجان إلى وفاة سليمان بن عبد الملك

بعد أن أرسى يزيد بن المهلب دعائم السلطة العربية الإسلامية في بلاد جرجان واستخلف عليها القائد جهم بن زحر بن قيس الجعفي المذحجي سار من جرجان إلى إقليم الريّ التابع لولاية الكوفة، وبينما هو في الريّ أتاه نبأ وفاة ولي العهد أيوب بن سليمان بن عبد الملك في دمشق. وكان سليمان بن عبد الملك قد تولى الخلافة بعد وفاة الوليد بعهد عبد الملك بن مروان بأن الخليفة بعده الوليد وبعده سليمان، قال ابن كثير: «وكان عبد الملك أخذ على الوليد وسليمان أن يبايعا بعدهما لابن عاتكة ولمروان بن عبد الملك، فمات مروان في خلافة سليمان منصرفه من مكة» وكان سليمان أدى فريضة الحج لعام ٩٧هـ وانصرف عائداً إلى دمشق، وعندئذ: «بايع سليمان لابنه أيوب بن سليمان وجعله وليّ عهده، وأمسك عن يزيد بن عبد الملك ـ وهو ابن عاتكة ـ وتربص سليمان ورجا أن يهلك يزيد، فهلك أيوب بن سليمان وهو

ولي عهده» ـ وكان موت أيوب في رجب أو شعبان ٩٨هـ ـ قال الطبري:

«أتى يزيد بن المهلب الريّ حين فرغ من جرجان، فبلغه وفاة أيوب بن سليمان وهو يسير في باغ أبي صالح على باب الريّ. فارتجز راجز بين يدي يزيد بن المهلب فقال:

إنْ يَكُ أيُّوبٌ مَضَىٰ لِشأنِهِ فإنَّ داوُد لَفِي مَكانِهِ
يُقِيمُ ما قد زَالَ مِنْ سُلْطانِهِ»

وكان ذلك الرجز دعوة علنية من يزيد بن المهلّب إلى مبايعة داوود بن سليمان بن عبد الملك بولاية العهد، ولم يفكر سليمان بن عبد الملك بذلك لأن داوود كان مع الجيش المحاصر للقسطنطينية، ولأن سليمان لم يكن كبيراً في السن، ولكن تلك الدعوة من يزيد إلى مبايعة داوود بن سليمان أثارت عليه ضغائن يزيد بن عبد الملك ـ ابن عاتكة ـ وغيره من أبناء عبد الملك بن مروان الطامحين إلى ولاية العهد والخلافة بعد سليمان، وهو ما سيظهر في المتاعب التي واجهها يزيد بن المهلب بعد وفاة سليمان وخاصة عداء يزيد بن عبد الملك فيما بعد كما سيأتي.

وقد توجّه يزيد من إقليم الريّ إلى مدينة واسط بالعراق وكان نائبه في واسط الجراح بن عبد اللّه الحكمي ثم سار إلى البصرة، قال الطبري في أنباء سنة ٩٨هـ «وكان عامل يزيد بن المهلب على البصرة سفيان بن عبد اللّه الكندي» ثم توجه يزيد بن المهلّب إلى خُراسان.

* * *

وكان من أنباء يزيد بن المهلب بخراسان في الفترة ما بين شعبان ٩٨هـ ومحرم ٩٩هـ مسيره للجهاد إلى ما يلي باذغيس وتاجيكستان من أقصى شرق ولاية خراسان وما وراء النهر في تخوم الصين، فغزا إقليماً من أقاليم الصين، وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير: «غزا يزيد بن المهلّب قهستان من أرض الصين فحاصرها وقاتل عندها قتالاً شديداً، ولم يزل حتى تسلمها، وغنم منها من الأموال والأثاث والأمتعة ما لا يُحَدُّ ولا يوصف كثرة وقيمة وحسناً»[1].

وعاد يزيد إلى مدينة مرو عاصمة ولاية خراسان، ووفد إليه الشاعر عبد الملك بن سلام السلوليّ، فأعطاه يزيد بن المهلّب وأكرمه، فقال عبد الملك بن سلام قصيدة ذكر منها الطبري قوله يثني على يزيد بن المهلّب:

ما زال سَيْبُكَ يا يزيدُ بحوبتي حتى ارتوَيتُ وجُودكُم لا يُنكَرُ

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٧٥ جـ٩.

أنت الرَّبيعُ إذا تكونُ خَصَاصَةٌ ... عاش السَّقيمُ به وعاش المُقْتِرُ
عَمَّت سَحَابَتُهُ جميع بلَادِهم ... فرَووا وأغدَقَهم سحابٌ مُمطِرُ
فسقاك رَبُّكَ حَيْث كنتَ مخيلةً ... ريّا سَحَائبها تَروحُ وتبكِرُ

* * *

وبعث يزيد ـ في شهر محرم ٩٨هـ ـ أخاه المُفَضّل بن المهلب برسالة وهدايا إلى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، وربما بعث معه أيضاً بخمس الغنائم من فتح قهستان الصينية وغيرها، فأتى المفضل إلى دمشق، فعلم أن الخليفة سار بالأمراء والقادة والفرسان إلى حَلَبْ يريد المسير إلى القسطنطينية وكان جيشه ما يزال يحاصر القسطنطينية، فسار المفضل من دمشق وكان سليمان في مدينة دابق بجهات حَلَبْ فالتقى به المفضل بن المهلّب وشهد أيامه الأخيرة، قال الطبري:

«قال المفضل بن المهلّب: دخلتُ على سليمان بدابق يوم جمعة، فدعا بثياب فلبسها فلم تعجبه، فدعا بثياب خضر سوسيّة بعث بها يزيد بن المهلب، فلبسها، واعتمَّ، وقال: يا ابن المهلب أعجبتك؟ قلت: نعم. فحسر عن ذراعيه ثم قال: أنا الملك الفتى فصلى الجمعة، ثم لم يُجَمِّعْ بعدها، وكتب وصيَّته ودعا ابن أبي نعيم صاحب الختم فختمه».

وقال رجاء بن حيوة الكندي وزير ومستشار سليمان بن عبد الملك:

«لما كان يوم الجمعة لبس أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ثياباً خضراً من خزّ، فقال: أنا واللّه الملك الشاب، فخرج إلى الصلاة فصلى بالناس الجمعة، فلم يرجع حتى مرض، فلما ثقل، عَهَدَ في كتاب كتبه لبعض بنيه وهو غلام لم يبلغ الحلم، فقلتُ: ما تصنع يا أمير المؤمنين مما يحفظ الخليفة في قبره أنْ يستخلف على المسلمين الرجل الصالح. فقال: أنا أستخير اللّه ولم أعزم، فمكث يوماً ـ أو يومين ـ ثم خرق الكتاب فدعاني فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلتُ: هو غائب عنك بقسطنطينية وأنت لا تدري أحيّ هو أم ميت. قال: فما ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلتُ: أعلمه واللّه خيّراً فاضلاً صالحاً، فقال: واللّه لئن ولّيته ولم أوَلّ أحداً سواه ـ من بني عبد الملك ـ لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يتولى عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده، فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده. فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين».

فكتب سليمان كتاب العهد لعمر بن عبد العزيز بالخلافة ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فدعا رجاء بن حيوة سائر بني مروان وأخذ منهم البيعة لمن في الكتاب، ولم يذكر مَنْ هو، ومات سليمان يوم الجمعة ١٠ صفر ٩٩هـ فجمع رجاء بني مروان والأمراء إلى مسجد دابق، وأخذ منهم البيعة مرة ثانية لمن في كتاب العهد، فبايعوا،

ثم أخبرهم بوفاة سليمان وقرأ كتاب العهد بالخلافة لعمر بن عبد العزيز، وأجلس عمراً على المنبر ودعا الناس إلى أن يبايعوه، فتمت مبايعته، وتم دفن سليمان في دابق، وعاد الناس ـ وفيهم المفضل بن المهلب ـ إلى دمشق مع عمر بن عبد العزيز وأصبح عمر خليفة للمسلمين.

النبأ اليقين عن يزيد بن المهلّب في خلافة عمر بن عبد العزيز

لقد شاعت في المصادر التاريخية رواية تزعم أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة عزل وحبس يزيد بن المهلّب وأنه (كان عمر يبغض يزيد بن المهلّب وآل المهلب ويقول إنهم جبابرة) إلى آخر مزاعم تلك الرواية التي تتنافى مع الحقيقة. لقد تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة في صفر ٩٩هـ ومات في رجب ١٠١هـ وكان من معالم النبأ اليقين عن يزيد بن المهلب في عهده ما يلي:

أولاً: كتاب عمر إلى يزيد بن المهلّب

لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة واستقر بدمشق في منتصف صفر ٩٩هـ كتب إلى ولاة وأمراء ولايات دولة الخلافة العربية الإسلامية كتاباً بموت سليمان واستخلافه، وكان أهمها كتابه إلى يزيد بن المهلب وهو الكتاب الوحيد الذي حفظته المصادر التاريخية، وقد ذكره الطبري في تاريخ الأمم والملوك عن كليب بن خلف عن إدريس بن حنظلة والمفضّل عن جده وعليّ بن مجاهد عن خالد أنه:

«كتب عمر بن عبد العزيز حين ولّي الخلافة إلى يزيد بن المهلّب: أما بعد، فإن سليمان كان عبداً من عباد اللَّه، أنْعَم اللَّه عليه ثم قبضه، واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدي، وأن الذي ولّاني اللَّه من ذلك وقَدَّرَ لي ليس عليَّ بهيّن، ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحدٍ من خلقه، وأنا أخاف فيما ابتليتُ به حساباً شديداً ومسألة غليظة إلا ما عَافَىٰ اللَّه ورحم. وقد بَايَعَ مَنْ قِبَلَنَا فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكْ.

فلما قدِم الكتاب على يزيد بن المهلّب دَفَعه إلى أبي عيينة بن المهلّب فلما قرأهُ قال: لَسْت من عُمَاله، قال يزيد: ولِمَ؟ قال: ليس هذا كلام من مضى من أهل بيته وليس يريد أن يسلك مسلكهم.

فدعا يزيد بن المهلّب الناس إلى البيعة لعمر بن عبد العزيز فبايعوا»[(١)].

وكذلك أخذ عمال يزيد بن المهلب البيعة لعمر في الأقاليم، وكتب يزيد إلى

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٣٨ جـ٨.

عمر بإتمام البيعة له في ولاية خراسان والأقاليم التي تحت ولايته في المشرق.

* * *

ثانياً: استمرار يزيد والياً لخراسان

ثم قام عمر بن عبد العزيز بإعادة النظر في ولاة وأمراء الولايات والأقاليم بدولة الخلافة التي قال د. ناجي حسن: «إن اليمانية سيطرت على دفة الدولة زمن سليمان بن عبد الملك»(١) ونشير هنا إلى أن الولاة والأمراء اليمانيين كانوا:

١ ـ يزيد بن المهلب أمير العراق ومشارقها وخراسان.

٢ ـ زياد بن المهلب نائب يزيد على عُمان.

٣ ـ الجراح بن عبد اللَّه الحكمي نائب يزيد على واسط.

٤ ـ سفيان بن عبد اللَّه الكندي نائب يزيد على البصرة.

٥ ـ بشير بن حسان النهدي نائب يزيد على الكوفة.

٦ ـ حبيب بن المهلب أمير بلاد السند.

٧ ـ عدي بن عدي الكندي أمير أذربيجان وأرمينيا.

٨ ـ عبد الملك بن رفاعة اللخمي أمير مصر.

٩ ـ أبو بكر محمد بن عمر بن حزم الأنصاري أمير المدينة المنورة.

ولكن في مقابل ذلك كان ولاة وأمراء الجزيرة الفراتية وبلاد المغرب العربي والأندلس في خلافة سليمان من القيسية، وكذلك مكة واليمن مما يشير إلى أن التوازن بين اليمانية والقيسية لم يكن غائباً في خلافة سليمان، ولم يكن من الممكن أن يغيب في خلافة عمر بن عبد العزيز، فقد عزل عمر بن عبد العزيز عمال العراق الذين كانوا نواب يزيد بن المهلب وكانوا من اليمانية، واستعمل على ولاية الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمٰن العدوي القريشي وعلى ولاية البصرة عَدِي بن أرطأة الفارسي القيسي، وبذلك لم تعد العراق تحت ولاية يزيد بن المهلب ولم يعد للعراق ومشارقها وخراسان أميراً واحداً، ولكنه لم يعزل يزيد بن المهلب وآل المهلب، وإنما استمر يزيد والياً لخراسان إلى سنة ١٠٠هـ واستمر حبيب بن المهلب والياً للسند وزياد بن المهلب والياً لعمان، وإذا كان ذلك يعني أن دفة الدولة في العراق أصبحت قيسية فإن الأمر يقتضي ربط ذلك بالتغيير في بلاد المغرب والأندلس حيث عزل عمر بن عبد العزيز عمالها القيسيين واستعمل على الأندلس الأمير اليماني السَمْح بن مالك الخولاني وعلى بلاد المغرب العربي إسماعيل بن عبد اللَّه بن أبي المهاجر الأنصاري بالولاء، فكان من الولاة والأمراء اليمانيين في خلافة عمر بن عبد العزيز:

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ ناجي حسن ـ ص١٩٩.

١ ـ السَمْح بن مالك الخولاني أمير الأندلس.
٢ ـ أيوب بن شرحبيل الأصبحي أمير مصر.
٣ ـ أبو بكر محمد بن عمر بن حزم أمير المدينة المنورة.
٤ ـ عَدِي بن عَدِي الكندي أمير أذربيجان وأرمينيا.
٥ ـ يزيد بن المهلّب أمير خراسان.
٦ ـ حبيب بن المهلب أمير السند.
٧ ـ زياد بن المهلّب أمير عُمان.

وقد مكث يزيد بن المهلّب والياً لخراسان في خلافة عمر بن عبد العزيز طيلة سنة ٩٩هـ وحتى أوائل سنة ١٠٠هـ وذلك نحو نصف عهد خلافة عمر بن عبد العزيز، وفي تلك الفترة أصبح الجراح بن عبد اللّه الحكمي عاملاً على خراج خراسان وكان الجرّاح نائباً ليزيد بن المهلب على واسط في خلافة سليمان، فانتقل إلى خُراسان عاملاً على خراج خراسان وبيت المال، وقد كان عمر بن عبد العزيز يريد إعفاء أهل الذمة في ولاية خراسان وما وراء النهر من الجزيّة وانسحاب المسلمين وقواتهم من بلاد ما وراء النهر والتوقف عن الغزوات، وهي أفكار لم يكن من الممكن أن ينسجم معها يزيد بن المهلب.

ثالثاً: انتهاء ولاية يزيد لخراسان.. ومكوثه بدمشق

في حوالي شهر صفر سنة ١٠٠هـ قرر الخليفة عمر بن عبد العزيز عزل يزيد بن المهلب عن ولاية خراسان، فلم يرغب في أن يكتب إليه بالعزل حفاظاً وتقديراً لمكانته وجهاده ودوره العظيم في نشر الإسلام وإعلاء كلمة المسلمين والفتوحات، فكتب إليه بأن يقْدِم إليه للتشاور والتباحث في شؤون خراسان وبلاد ما وراء النهر، وأن يستخلف على خُراسان من يشاء. وفي ذلك قال ابن خلدون:

«كتب عمر بن عبد العزيز في سنة مائة إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على أعماله ويقدِم إليه، فاستخلف مَخْلداً ابنه وقدِم من خراسان»(١).

ويدل ذلك على أن يزيد بن المهلب استمر والياً لخراسان إلى سنة ١٠٠هـ، وأن ما جاء في إحدى روايات الطبري عن عزل يزيد وتولية الجراح بن عبد اللّه منذ شهر جمادى ٩٩هـ إنما هو تولية الجراح على بيت المال وخراج خراسان في إطار ولاية يزيد بن المهلب، بل إنه عندما سار إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق استخلَفَ على خراسان ابنه مَخْلَد بن يزيد وذلك في شهر ربيع سنة ١٠٠هـ، وكان من آخر

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤١٩.

أنباء مَخْلد في خراسان ما رواه الأصفهاني عن جعفر العاصي عن عبد اللّه بن المنهال عن الهيثم بن عَدِي عن أبي يعقوب الثقفي قال: (قال حمزة بن بيض الحنفي: دخلت على مخلد بن يزيد بن المهلب فقلتُ:

ليت المشارق والمغارب أصبحت تحيا وأنت أميرها وإمامها

فضحك وقال: مهْ؟فقلتُ:

أغفيتُ قبل الصبح نومَ مُسَهَّدٍ في ساعةٍ ما كنتُ قبلُ أنامُها

قال: فماذا كان؟ قلتُ:

فرأيتُ أنك جُدْتَ لي بوصيفةٍ موسومةٍ حَسَنٌ عليّ قِيامُها

قال: قد فعلتُ، قلتُ:

وببدرةٍ حُمِلَت إليّ وبغلةٍ صفراء ناجية يضل لجامها

قال: قد حقق اللّه رؤياك، ثم أمر لي بذلك كله. وما علم اللّه أني رأيت من ذلك شيئاً)[١].

فمكث مَخْلد بن يزيد والياً لخراسان ومعه الجَرّاح عاملاً على الخراج وبيت المال إلى أن أتى كتاب عمر بن عبد العزيز بتولية الجرّاح على خُراسان، فانصرف مخلد بن يزيد ومن تبقى من آل المهلب هناك، وانتهت بذلك الولاية الثانية لآل المهلّب على خراسان، وكانت الولاية الأولى من سنة ٧٨ ـ ٨٦هـ والولاية الثانية من ٩٧ ـ ١٠٠هـ، حيث قال د. ناجي حسن: «إن آل المهلّب اتبعوا سياسة يمانية صرفة بخراسان. . غير أن مجيء عمر بن عبد العزيز وعزله آل المهلّب حال دون تمكن الأزد من خراسان إلا أن الروح اليمانية استمرت تتحكم بخراسان بعد آل المهلب، إذْ تولاها الجرّاح بن عبد اللّه الحكمي وهو من سعد العشيرة تلك القبيلة اليمانية المعروفة. ولكنه لم يبق في منصبه هذا سوى سنة وخمسة أشهر حين عزله عمر بسبب عصبيته، ليتولاها يماني آخر هو عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الذي ينتمي في جده الأعلى إلى الأزد، وهكذا لم تخرج خراسان طيلة هذه الفترة عن سيطرة الأزد خاصة واليمانية بوجه عام حتى سنة ١٠٢ هجرية»[٢].

* * *

إن مسألة اليمانية والقيسية ـ التي أشار إليها د. ناجي حسن مراراً ـ لم تظهر بشكل عصبي إلا في العصر العباسي ولكنها امتدت من خلال بعض رواة العصر

(١) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص٢٢ جـ١٥.
(٢) القبائل العربية في المشرق ـ ناجي حسن ـ ص١٩٩ ـ ٢٠٠.

العباسي إلى الشخصيات اليمانية الكبيرة في العهود السابقة وحاولت تشويه تاريخهم ومنهم يزيد بن المهلّب، فقد شاعت في كتب التاريخ رواية نقلها الطبري عن أبي مخنف لوط العامري القيسي تزعم أن عمر بن عبد العزيز استقدم يزيد بن المهلب محبوساً من البصرة إلى دمشق بينما الصحيح وكما ذكر ابن خلدون أنه: «كتب عمر إلى يزيد بن المهلّب أن يستخلف على أعماله ويقدِم إليه، فاستخلف مخلداً ابنه وقَدِم من خراسان». وذلك في شهر ربيع سنة ١٠٠هـ وكانت طريق جرجان قد تأمَّنَتْ منذ فَتَحَ يزيد بن المهلب جرجان ولم يعد الطريق إلى الشام من خراسان هو طريق فارس والبصرة، وإنما أصبح الطريق من خراسان إلى جرجان والريّ ثم إلى الشام، وهو الطريق الذي سلكه يزيد بن المهلّب فلم يذهب إلى البصرة أصلاً وإنما توجه من طريق جرجان والريّ إلى الشام في موكب مهيب، فقد كانت معه كوكبة من أسرته ومواليه ورواحله من الخيول والإبل المحملة بالمتاع، فقد كان يزيد يعرف أن ولايته لخراسان انتهت وأن عمر بن عبد العزيز لم يكتب إليه بالعزل تقديراً لمكانته، فلما قَدِم يزيد إلى دمشق التقى بعمر بن عبد العزيز حيث نقل ابن خلدون عن الرواية سالفة الذكر أنه: «لما قَدِم يزيد بن المهلب إلى عمر بن عبد العزيز طَالَبَهُ عمر بالأموال التي كتب بها إلى سليمان من خُمس غنائم جرجان وطبرستان ـ سنة ٩٨هـ ـ فقال يزيد: إنما كتبتُ بذلك لأُسمع الناس وعلمتُ أن سليمان لم يكن ليأخذني بذلك، فقال عمر: اتق اللّه وهذه حقوق للمسلمين لا يسعني تركها، ثم حبسه، واستعمل الجراح بن عبد اللّه الحكمي والياً على خراسان مكانه. وانصرف مخلد بن يزيد من خراسان فقَدِم على عمر واستعطفه لأبيه وقال له: يا أمير المؤمنين إن كانت لك بيّنة فخذه بها، وإلا فاستحلفه، وإلا فَصَالحه أو فصالحني على ما تسأل، فأبَىٰ عمر ذلك، وشكر من مخلد ما فعل».

وقد جهلت تلك الرواية السبب الحقيقي لعزل يزيد بن المهلب وتولية الجرّاح بن عبد اللّه الحكمي وهو تنفيذ سياسة عمر بن عبد العزيز المثالية التي تبناها سنة ١٠٠هـ والتي لم ينسجم يزيد بن المهلب معها، وربما اعترض عليها، ولذلك أبقاه عمر في دمشق، ربما حتى تأخذ سياسته الجديدة طريقها إلى التنفيذ بهدوء، وهي إعفاء أهل الذمة بولاية خراسان وما وراء النهر من الجزية إذا قبلوا الدخول في الإسلام ثم إخلاء بلاد ما وراء النهر من المسلمين والقوات الإسلامية وعودتهم إلى خراسان، فعندما ولّى عمر الجرّاح بن عبد اللّه على خراسان مكان يزيد بن المهلب ـ في شهر ربيع سنة ١٠٠هـ ـ وكما ذكر الطبري وابن كثير: كتب عمر إلى الجراح: انظر مَنْ يُسلم قِبَلك من أهل الذمة فخلّ عنه الجزية، فسارع الناس إلى الإسلام فراراً من الجزية. فامتحنهم الجراح بالختان، وكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: إن

اللَّه بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتناً. وفي رواية أخرى: ولم يبعثه جابياً. ثم دعا عمر الجرّاح بن عبد اللَّه وعزله عن ولاية خراسان في رمضان سنة ١٠٠هـ واختار لتنفيذ سياسته المثالية عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي فولاه على خُراسان، قال الطبري: وكتب عمر إلى عبد الرحمٰن بن نعيم يأمره بإقفال مَنْ ببلاد ما وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا القفول، فكتب عبد الرحمٰن إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللَّهمّ إنّي قد قضيتُ الذي عليّ، فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذي قد فتح اللَّه عليهم».

وغنيّ عن البيان أن عمر بن عبد العزيز أقْفَلَ ـ أي سحب ـ المسلمين والقوات الإسلامية من بلاد الروم ـ تركيا ـ ومن مشارف القسطنطينية، وفي ذلك قال الطبري: «وَجّه عمر بن عبد العزيز إلى مَسْلمة بن عبد الملك وهو بأرض الروم وأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، فقفلوا إلى الشام». وكذلك ـ في سنة ١٠٠هـ ـ أقفل عمر المسلمين من بلاد السند فانسحب منها المسلمون وانتهت ولاية حبيب بن المهلب لبلاد السند، قال ابن الأثير: «واستعمل عمر بن عبد العزيز على الأندلس السمح بن مالك الخولاني، وأمره أن يميز أرضها ويُخرج منها ما كان عنوة ويأخذ منه الخُمس ويكتب إليه بصفة الأندلس، وكان رأي عمر إقفال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين، فقدِمها السمح سنة مائة وفعل ما أمره عمر، وكان قد بدا لعمر نقل أهلها عنها ثم تركهم»، وذلك لأن السمح كتب إليه بأن الإسلام ينتشر في الأندلس وأن المسلمين ثابتون على البلاد. فتراجع عمر عن إقفال المسلمين عن الأندلس كما تراجع عن إقفال المسلمين من بلاد ما وراء النهر، واكتفى بأمرهم بعدم الغزو، مما يدل على أن السياسة التي تم عزل يزيد بن المهلب وتولية الجرّاح ثم عبد الرحمٰن بن نعيم من أجل تنفيذها كانت تتعارض مع إرادة المسلمين الذين قَدّمُوا تضحيات جسيمة حتى فتحوا تلك البلاد واستقروا بها، فامتثل عمر لإرادتهم، فبقوا في تلك البلاد ونشروا الإسلام في آفاقها الممتدة.

إن معرفة تلك الأسباب الحقيقية لانتهاء ولاية يزيد بن المهلّب تتيح إدراك عدم علاقة الأمر بما زعمته تلك الرواية من مطالبة عمر إياه بالأموال التي كتب بها إلى سلميان من خمس غنائم جرجان وطبرستان، وأن بقاء يزيد في دمشق لا علاقة له بذلك، وكان يزيد قد استخلف مخلداً على خراسان فلما أتى كتاب عمر بتولية الجَرّاح انصرف مخلد من خراسان مع من تبقى هناك من آل المهلّب وعادوا إلى البصرة. قال الطبري: «أقْبَل مخلد بن يزيد من خراسان يُعطي الناس ولا يَمُرّ بكورة إلا أعطاهم فيها أموالاً عظيمةً. ثم خرج ـ من البصرة ـ حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فدخل عليه، فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: إن اللَّه يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها فلا نكن أشقى الناس بولايتك، عَلَامَ تحبس هذا الشيخ أنا

أتحمّل ما عليه فصالحني على ما إياه تسأل. . وقال: يا أمير المؤمنين إن كانت لك بيّنة فَخُذْ بها وإن لم تكن لك بيّنة فصدّق ما قاله وإلا فاستحلفه فإن لم تفعل فصالحه، فقال عمر: ما أجد إلا أخذه بجميع المال، فلما خرج مخلد، قال عمر: هذا خير عندي من أبيه، فلم يلبث مخلد إلا قليلاً حتى مات» وكذلك ذكر ابن كثير، وكانت وفاة مخلد بدمشق في حوالي شهر رجب سنة ١٠٠هجرية.

إن ما ذكرته تلك الروايات من قول مخلد لعمر بن عبد العزيز «إن كانت لك بيّنة فَخُذْه بها. . إلخ» يدل على عدم صحة ما زعمته الرواية عن كتاب يزيد إلى سليمان بشأن خمس غنائم فتح جرجان وطبرستان، فلو كان ذلك في الكتاب لكان بيّنة، بينما لم يكن لعمر بيّنة، ثم إنه لم يقبل اليمين، ولم يقبل أن يؤدي مخلد المال المزعوم، وكل ذلك يتيح إدراك أن الرواية التي تم تلفيقها في العصر العباسي غير صحيحة، وغاية ما في الأمر أن عمر بن عبد العزيز أمر يزيد بن المهلّب بأن يبقى بدمشق والشام، فكان مكوثه بها أشبه بالإقامة الجبرية، وقد ذكرت الروايات أنه كان مع يزيد بدمشق مواليه وغلمانه ورواحله من الإبل والخيول وذلك يدل على عدم صحة مزاعم الحبس وإن إقامته بالشام كانت شبيهة بإقامته بها حين كان سليمان بن عبد الملك ولياً للعهد، كما أن مكوث يزيد بن المهلب بالشام في خلافة عمر ـ أو إقامته الجبرية ـ منذ شهر ربيع سنة ١٠٠هـ إلى ما قبل وفاة عمر في رجب سنة ١٠١هـ قد يكون ذا صلة بالعلاقة غير الودية بين يزيد بن المهلب وبين ولي العهد يزيد بن عبد الملك الذي تقول رواية الطبري أنه «لم يزل يزيد بن المهلب في محبسه حتى بلغه مرض عمر فأخذ يعمل في الهرب مخافة يزيد بن عبد الملك».

* * *

تعود جذور العلاقة غير الودية بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك إلى الفترة التي أقام فيها يزيد بن المهلب بفلسطين والشام مع سليمان بن عبد الملك الذي كان أميراً لفلسطين وولياً للعهد وهي الفترة ما بين سنة ٩٠ وسنة ٩٦هـ. في خلافة الوليد بن عبد الملك وولاية الحجاج للعراق.

آنذاك كان يزيد بن عبد الملك شاباً طائشاً، وكان لا يقال له إلا (ابن عاتكة) لأن أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، قال الحافظ ابن كثير: «وكان عبد الملك بن مروان أخذ على الوليد وسليمان أن يبايعا لابن عاتكة ولمروان بن عبد الملك من بعدهما، فمات مروان في خلافة سليمان. . فبايع سليمان لابنه أيوب بن سليمان وجعله وليّ عهده، وأمسك عن يزيد بن عبد الملك وتربص ورجا أن يهلك يزيد. .» ويتبين من ذلك أن مسألة أن يتولى الأمر يزيد بن عبد الملك كانت واردة منذ فترة إقامة يزيد بن المهلب بفلسطين مع سليمان بن عبد الملك في خلافة

الوليد وولاية الحجاج للعراق وكان آل الحجاج أصهار يزيد بن عبد الملك فقد كانت زوجته بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف الثقفي، ولكن ذلك لم يكن السبب الصحيح للعلاقة غير الودية بين يزيد بن المهلب وبين يزيد بن عبد الملك، ومن الملفت للانتباه أن الحجاج سعى - في سنة ٩٥هـ - إلى أن يجعل الوليد بن عبد العزيز بن الوليد ولياً للعهد بدلاً من سليمان، وقد سلف ذكر نبأ ذلك، ولم يطرح الحجاج اسم يزيد بن عبد الملك بالرغم من المصاهرة بينهما، مما يشير إلى أن الحجاج أيضاً لم يشذ عن الرؤية العامة ليزيد بن عبد الملك الذي وصفه أبو حمزة بن عوف بأنه «غلام سفيه غير مأمون على شيء من أمور المسلمين..» أما كون زوجة يزيد بنت أخي الحجاج، فلم يكن ذا أهمية عند يزيد بن عبد الملك فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أنه «كان الغالب على يزيد بن عبد الملك حُبَّ جارية يُقال لها سَلَّامَة، غلبت على أمره.. واشترت له جدته جارية يقال لها حَبَابة، فغلبت عليه..»[١]، وقال أبو حمزة: «كان يزيد بن عبد الملك.. يُجْلِسُ جاريته حَبَابة عن يمينه وجاريته سَلّامة عن شماله تغنيانه بمزامير الشيطان، ويشرب الخمر الصُراح المحرمة نصاً بعينها..»[١]، مما يدل على أنه كان مشغولاً بمجونه عن زوجته بنت أخي الحجاج بن يوسف الثقفي التي تقول المصادر التاريخية إن يزيد بن المهلب قام بحبسها ومعاقبتها، وأن ذلك كان سبب العداء والعلاقة غير الودية بينه وبين يزيد بن عبد الملك. وفي ذلك قال ابن خلدون:

«كان سليمان بن عبد الملك أمر يزيد بن المهلّب بعذاب قرابة الحجاج كلهم، فنقلهم من البلقاء وفيهم زوجة يزيد بن عبد الملك، وعذبها، وجاءه يزيد بن عبد الملك إلى منزله شافعاً فلم يشفعه، فضَمَنَ حمل ما قرر عليها، فلم يقبل، فتهدده، فقال له ابن المهلّب: لئن وُليتَ أنْتَ لأرمينك بمائة ألف سيف. فحمل يزيد بن عبد الملك عنها مائة ألف دينار».

وقال ابن كثير: «كان يزيد بن عبد الملك يقول: لئن وُليتُ لأقطعنّ من ابن المهلب طائفة، وذلك أنه لما ولّي العراق عاقب بيت الحجاج أصهار يزيد بن عبد الملك»[٢]. وقال الطبري: «كان يزيد بن المهلّب قد عذّب أصهار يزيد بن عبد الملك وكانت بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف امرأة يزيد بن عبد الملك..»[٢]. وينبغي الفصل بين نبأ حبس زوجة يزيد بن عبد الملك وبين معاقبة آل الحجاج، فقد ذكر الطبري نفسه وابن الأثير أن سليمان بن عبد الملك أسند

(١) مروج الذهب - المسعودي - ص٢٠٧ جـ٣ - والأغاني للأصفهاني - خطبة أبي حمزة.
(٢) البداية والنهاية - ابن كثير - ص١٩١ جـ٩ - وتاريخ الطبري - ص١٣٦ جـ٨.

عقاب آل الحجاج بالعراق إلى صالح بن عبد الرحمٰن وليس إلى يزيد بن المهلب، وقد نفى أبو العباس المبرِّد قيام ابن المهلب بعقاب آل الحجاج نهائياً، وقال: «أمر سليمان بن عبد الملك بدفع آل الحجاج إلى يزيد بن المهلّب، فتَفادى منهم. تأويله: فَدَى نفسَهُ من ذلك المقام بغيره»[1]. فالذي تولى عقاب آل الحجاج بالعراق هو صالح بن عبد الرحمٰن. بينما حبس زوجة يزيد بن عبد الملك كان في البلقاء بالشام، فيكون ذلك إما في ولاية سليمان لفلسطين ـ سنة ٩٥هـ ـ وإما في بداية خلافة سليمان قبيل أن يتولى يزيد بن المهلب العراق ـ في جمادى الآخرة ٩٦هـ ـ فقام ابن المهلب بناء على أوامر سليمان بن عبد الملك بحبس زوجة يزيد بن عبد الملك في قضية لا علاقة لها بآل الحجاج، وربما تكون قضية ذات صلة بما كان عليه يزيد بن عبد الملك من فسق ومجون، فأتى إلى منزل ابن المهلب شافعاً فلم يشفعه، فتحمل يزيد بن عبد الملك ما تقرر على زوجته من غرامة مالية وهي مائة ألف دينار، ويعلم اللّٰه سبب تلك الغرامة الكبيرة، ولم يكن ابن المهلب يظن أن يزيد بن عبد الملك يمكن أن يتولى الخلافة حين رَدّ على تهديده قائلاً: «لئن وُليتَ أنت لأرمينك بمائة ألف سيف». وكان ذلك سنة ٩٦هـ.

* * *

لقد تولى يزيد بن المهلب بعد ذلك العراق والمشارق وامتدت فتوحاته إلى تخوم الصين شرقاً وبحر قزوين غرباً، بينما مكث يزيد بن عبد الملك منهمكاً على اللهو والمجون، ولذلك «بايع سليمان بن عبد الملك لابنه أيوب وجعله وليّ عهده، وأمسك عن يزيد بن عبد الملك، وتربص ورجا أن يهلك يزيد ـ قبل وفاته ـ فهلك أيوب بن سليمان وهو ولي عهده». ومؤدى ذلك ظهور اتجاه أو احتمال بأن تكون ولاية العهد والخلافة بعد سليمان ليزيد بن عبد الملك، وكان رأي يزيد بن المهلّب حين أتاه نبأ وفاة أيوب ـ في رجب ٩٨هـ ـ علنياً، وهو إسناد ولاية العهد إلى داوود بن سليمان، فقد ارتجز الراجز بين يدي ابن المهلّب:

إن يَكُ أيوبُ مَضَىٰ لشأنه فإنّ داوود لَفِي مكانه

وهو أمر يمكن أن يؤدي إلى تعميق العلاقة غير الودية بينه وبين يزيد بن عبد الملك ويثير حفائظ بني عبد الملك، ولكن داود كان غائباً بقسطنطينية في الجيش المجاهد هناك حين مرض سليمان مرض الموت في صفر ٩٩هـ فقرر استخلاف عمر بن عبد العزيز وقال: واللّٰه لا يتركه بنو عبد الملك يتولى عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده، فجعل بعده يزيد بن عبد الملك، وكان يرجو ويظن أنه

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٧١ جـ١.

سيهلك في خلافة عمر لانهماكه في اللهو والمجون وأن خلافة عمر ستطول لأنه لم يكن كبيراً في السن، فتولى عمر الخلافة وبات يزيد ولياً للعهد، فكذلك كان حين انتهت ولاية يزيد بن المهلب لخراسان وقَدِم إلى دمشق في شهر ربيع سنة ١٠٠هـ فقرر عمر بن عبد العزيز أن يبقى في دمشق وقد استخدمت الروايات كلمة (حبس) في التعبير عن ذلك، ولكن وقائع خروجه تدل على أن مكوثه كان (إقامة جبرية) ليس في منزل وإنما في مدينة هي عاصمة دولة الخلافة وكان يعيش كزعيم من الزعماء، حتى بلغه المرض المفاجئ لعمر بن عبد العزيز والذي اقترن بأقوال وشائعات بأنه سُقي سماً في طعام أو شراب بتدبير بعض بني عبد الملك وربما يزيد بن عبد الملك ولي العهد.

ففي شهر جمادى سنة ١٠١هـ كان عمر بن عبد العزيز في حِمص وهو في أحسن صحته وذروة خلافته وكان في الأربعين من عمره، وقد ذكر الطبري أن جماعة من الخوارج بالعراق بعثوا رجلين منهم لمناظرة عمر بن عبد العزيز وهما ممزوج الشيباني وفلان اليشكري، ثم تقول الرواية ما يلي نصه: «فدخلا على عمر بن عبد العزيز فناظراه، فقالا له: أخبرْنا عن يزيد لم تُقرّه خليفة بعدك؟ قال: صيّره غيري. قالا: أفرأيتَ لو وُليت مالاً لغيرك ثم وكَلْتَه إلى غير مأمون عليه أتُراك كنتَ أدّيت الأمانة إلى من ائتمنك؟ فقال: انظراني ثلاثاً (أي ثلاثة أيام) فخرجا من عنده. وخاف بنو مروان أن يخرج ما في أيديهم وأن يخلع يزيداً فدسوا إليه من سقاه السم» (ص١٣٢/ ٨).

وقد ذكرت روايات أخرى أنه أُصيب بمرض السل، واشتد عليه المرض وهو في دير سمعان بحمص زهاء شهرين إلى أن مات، وهو الأرجح، قال ابن كثير: «وقيل سبب موته أن مولى له سَمّه في طعام أو شراب، فحصل له بسبب ذلك مرض، فأُخْبِر أنه مسموم، فقال: لقد علمتُ يوم سُقيت السم. ثم استدعى مولاه الذي سقاه، فقال له: ويحك ما حملك على ما صنعت؟ قال: ألف دينار أُعطيتها، فقال عمر: هاتها، فأحضرها، فوضعها في بيت المال ثم قال له: اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك».

ولما بلغ يزيد بن المهلب مرض عمر بن عبد العزيز، وما اقترن بذلك من شائعات بأنه سُقي سماً، فحصل له بسبب ذلك مرض، وأن بعض بني عبد الملك وربما يزيد بن عبد الملك دسّ إليه من سقاه السم، قرر ابن المهلب الخروج والرحيل إلى البصرة.

رابعاً: الخروج من الإقامة الجبرية إلى البصرة

لقد مكث يزيد بن المهلب مقيماً في دمشق منذ شهر ربيع سنة ١٠٠هـ إلى أن مرض عمر بن عبد العزيز واشتد عليه المرض في دير سمعان بحمص في أوائل شهر

رجب سنة ١٠١هـ فقرر الخروج والمسير من دمشق حيث تتيح أنباء الخروج إدراك أنه لم يكن محبوساً سجيناً وأن استعمال الروايات كلمة (حبس) وكلمة (محبس) لا يُعبر عن الواقع الذي لا يتجاوز في أشد الأحوال أن يكون (إقامة جبرية).. وفيما يلي نص ما ذكرته الروايات:

قال الطبري: «لم يزل يزيد بن المهلب في محبسه حتى بلغه مرض عمر بن عبد العزيز فأخذ يعمل في الهرب من محبسه مخافة يزيد بن عبد الملك.. فبعث إلى مواليه فأعدّوا له إبلاً، وكان مرض عمر في دير سمعان، فلما اشتد مرض عمر أمر بإبله فأُتِيَ بها..» وقال ابن خلدون: «لما اشتد مرض عمر بن عبد العزيز عمل ابن المهلب في الهرب مخافة يزيد بن عبد الملك، فأرسل إلى مواليه أن يغدوا له بالإبل والخيل في مكان عيّنه لهم. وبعث إلى عامل حَلَبْ (أو: عامل دمشق) بإشفاقه من يزيد بن عبد الملك، وبذل له المال وإلى الحرس الذين يحفظونه (وهُمْ حرس المدينة) فخلوا سبيله، وأتى إلى دوابه» «ثم إن الإبل جاءت، فاحتمل، فخرج ومعه امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية العامرية في شق المحمل» وكذلك ذكر الطبري أنه كان معه «ثقله - أي المتاع والأثاث - وغِلمة من وصفائه» وذكر ابن خلدون: «أصحابه الذين معه» وذكر أبو العباس المبرد أن منهم «معاوية بن يزيد بن المهلّب». قال ابن خلدون: «وكتب يزيد بن المهلّب إلى عمر: واللّه لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك، ولكن خفت أن يقتلني يزيد شر قتلة» بينما جاء في رواية الطبري أنه «كتب إلى عمر بن عبد العزيز: إنّي واللّه لو علمتُ أنك تبقى ما خرجت من محبسي ولكني لم آمن يزيد بن عبد الملك. فقال عمر: اللّهم إن كان يزيد يُريد بهذه الأمة شراً فأكفهم شرّه وأردد كيده في نحره».

ويُتيح ربط جوهر ما تقدم إدراك أن يزيد بن المهلب كانت معه بدمشق امرأته عاتكة وأولاده ومواليه وغِلمة من وصائفه، وكانت معه إبل وخيول ومحمل وأثقال، مما يدل على أن إقامته كانت كزعيم من الزعماء، وإن ما تسميه الروايات (محبسه) لم يكن حبساً ولا داراً وإنما كانت مدينة دمشق كلها.

ثم إنه لما عقد العزم على الخروج أخبر عامل عمر بن عبد العزيز على دمشق، وكان العامل من الفضلاء الصلحاء الثقاة وهو الضحاك بن عزرب الأزدي، وقد تعاطف العامل وحرس المدينة معه، وهو أمر لا يحتاج إلى مال، فقد كان العامل أزدياً يمانياً وكان الجند من اليمانية، وكان يزيد بن المهلّب من أكبر الزعامات اليمانية في ذلك الزمن، وليس في خروجه من دمشق أي محظور، فغاية الأمر أنهم كتموا ذلك عن ولي العهد يزيد بن عبد الملك.

وقد أحاط يزيد بن المهلب الخليفة عمر بن عبد العزيز وبعث إليه مكتوباً قال فيه: «إني واللّه لو وثقت بحياتك وعلمت أنك تبقى ما خرجتُ، ولكني لم آمن يزيد بن عبد الملك» وربما كان ابن المهلب يشير بذلك إلى ما شاع من أن يزيد بن عبد الملك دس إليه من سقاه السم، وأنه يريد بالأمة شراً، وقد وصل مكتوب ابن المهلب إلى عمر بن عبد العزيز وقد ثقل عليه المرض وسيطر رجال يزيد بن عبد الملك على مقاليد الأمور فقال عمر: «اللّهم إن كان يزيد يريد بهذه الأمة شراً فأكفهم شرّه وأردد كيده في نحره». وكلمة (الأمة) تشير إلى أنه لا يقصد ابن المهلّب وإنما يقصد الذي سيتولى أمر الأمة وهو يزيد بن عبد الملك، فما لبث أن مات عمر وتولى يزيد بن عبد الملك لخمس بقين من رجب سنة ١٠١هـ.

* * *

إن قناعة يزيد بن المهلب بعدم صلاحية يزيد بن عبد الملك لولاية أمر المسلمين هي السبب الرئيسي لخروجه وارتحاله من الشام، فلم يكن ابن المهلب هارباً ولا خائفاً من أن يقتله يزيد بن عبد الملك بدليل أنه بعث إليه فيما بعد بالأمان على أن يبايع ولكن يزيد بن المهلب كان قد عقد العزم منذ خروجه على عدم المبايعة وكان ينوي الاعتزال ولم يكن ينوي المخالفة ولا القتال، ولذلك سلك الطريق الرئيسي المؤدي من دمشق إلى الكوفة ثم إلى البصرة، وفيما هو في الطريق إلى الكوفة، تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك وغضب هو وبطانته من خروج ابن المهلب وعدم مبايعته، فكتب إلى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بأن يطلبه ويعتقله أو يقتله، قال الطبري: «وأقبل يزيد بن المهلّب حتى مرّ بسعيد بن عبد الملك بن مروان، فقال يزيد لأصحابه: ألا نعرض لهذا فنأخذه فنذهب به معنا؟ فقال أصحابه: لا بل أمض بنا ودعه. وأقبل يزيد يسير حتى ارتفع فوق القطقطانة، وبعث عبد الحميد ـ أمير الكوفة ـ هشام بن مساحق القرشي في ناس من الكوفة من الشرطة وأهل القوة وقال له: انطلق إليه فإنه يَمُر اليوم بجانب العذيب، فمشى هشام قليلاً ثم رجع إلى عبد الحميد فقال: أجيئك به أسيراً أم آتيك برأسه؟ فقال: أي ذلك شئت. وسار هشام حتى نزل العذيب، ومرّ يزيد بن المهلب منهم غير بعيد، فاتقوا الإقدام عليه، ومضى يزيد نحو البصرة، ففيه يقول الشاعر ـ وهو الفرزدق ـ:

وسارَ ابنُ المُهلّبِ لم يُعَرّجْ ... وعَرَّسَ ذُو القَطيفَةِ مِن كنَانَةْ
ويَاسَرَ والتَّيَاسُرُ كَانَ حَزماً ... ولم يقرَبْ قُصُورَ القُطْقُطَانَةْ

فلما سار يزيد بن المهلب انصرف هشام بن مساحق إلى عبد الحميد ومضى يزيد إلى البصرة، وقد جمع عَدِي بن أرطأة ـ أمير البصرة ـ جند أهل البصرة، وخَنْدَقَ عليها» وكان يزيد بن عبد الملك قد كتب إلى عدي بن أرطأة يأمره أن يتهيأ

لقتال ابن المهلب وأصحابه وحبس بني المهلب، ولكن يزيد بن المهلب لم يتوجه إلى مدينة البصرة وإنما مضى إلى بعض جهات ولاية البصرة وأقام بها.

إن كل ذلك التفادي للقتال من طريق الكوفة ثم حين التقى بقوة عامل الكوفة في القُطْقُطانة والعذيب، ثم في عدم التوجه إلى مدينة البصرة، يتيح إدراك أن يزيد بن المهلب لم يكن ينوي الثورة ولا كان يريد القتال حين خرج من دمشق قاصداً البصرة، ولم يفرض رأيه الشخصي في يزيد بن عبد الملك على أحد، وأقام في بعض جهات ولاية البصرة، وما لبث أن انجلت الأمور عن طبيعة وسياسة ونهج يزيد بن عبد الملك الذي استوجب إعلان الثورة. ولم تتبين الروايات الفاصل الزمني بين قدومه إلى جهات البصرة وبين بداية الثورة لأنه فاصل زمني يسير ولكنه بالغ الأهمية، ففي تلك الفترة اليسيرة تكمن أسباب انطلاق الثورة.

* * *

ثورة ابن المهلب ومبايعته بالخلافة الإسلامية

في شهر رمضان سنة ١٠١هـ (٧١٩ ميلادية) اندلعت الثورة التي قادها الزعيم اليماني يزيد بن المهلب ضد الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك، فما أن تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه حتى سلك أسوأ سيرة. قال المؤرخ أبو الحسن المسعودي: « . . فَعَذَلَهُ مَسْلَمة بن عبد الملك لِما عَمّ الناس من الظلم والجور باحتجابه وإقباله على الشرب واللهو، وقال له: إنما مات عُمر أمس، وقد كان من عدله ما قد علمت، فينبغي أن تُظْهر للناس العدل، وترفض هذا اللهو، فقد اقتدى بِكَ عُمّالك في سائر أفعالك وسيرتك»[١].

وغنيّ عن البيان أن قوله (إنما مات عمر أمس) يريد منذ فترة يسيرة، وكان من معالم الظلم والجور الذي عَمّ الناس منذ الشهر الأول من خلافة يزيد بن عبد الملك ما ذكره ابن خلدون قائلاً: «لما وُلّي يزيد بن عبد الملك عزل أبا بكر بن محمد بن عمر بن حزم الأنصاري عن المدينة وولّى عليها عبد الرحمٰن بن الضحاك بن قيس الفهري، وغيّر كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز، وكان من ذلك شأن خراج اليمن فإن محمد بن يوسف جعل عليهم خراجاً مجدداً[٢]، وأزال ذلك عمر إلى العُشر أو نصف العُشر، وقال: لئن يأتيني من اليمن حبة ذرة أحبُّ إليّ من تقرير هذه الوظيفة. فلما وُلّي يزيد أعادها وقال لعامله: خذها منهم ولو صاروا حرضاً»[٢]. لقد فرض يزيد سياسة الظلم والجور في ولاية المدينة المنورة بعزل أميرها في خلافة سليمان بن

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٢٠٧ جـ٣.

(٢) محمد بن يوسف الثقفي أمير ولاية اليمن. توفي سنة ٩١هـ. وكان ظالماً جائراً.

عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهو أبو بكر الأنصاري وتولية عبد الرحمٰن الفهري القيسي الذي سار سيرة سيئة وتمادى إلى ما ذكره ابن كثير من أنه ضرب أبا بكر الأنصاري حدّين، كما عزل أمير ولاية اليمن في خلافة سليمان وعمر وهو عروة بن محمد السعدي الذي ساد عهده العدل والرخاء وولّى من يسير بالظلم والجور، ولكنه لم يكن بحاجة إلى تغيير بعض الأمراء ومنهم عَدِي بن أرطأة الفزاري القيسي أمير ولاية البصرة في خلافة عمر، وقد ذكر الحافظ ابن كثير أنه «كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة: بلغني أنك تستن بسنن الحجاج، فلا تستن بِسُننه». فلما تولى يزيد بن الملك أقرّ عديّ بن أرطأة على ولاية البصرة ليسير بسيرة وسنن الحجاج الظالمة الجائرة التي كان يهواها، وكذلك أقرّ أمير ولاية الكوفة. وأخذ الظلم والجور يمتد في العراق ومشارقها كما في أرجاء عديدة. . وكان لبطانة يزيد بن عبد الملك الدور الرئيسي في ذلك فقد ذكر المسعودي في النص السالف (احتجابه وإقباله على الشرب واللهو). وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين خطبة أبي حمزة بن عوف الخارجي وفيها قال ما يلي نصه:

«ثم وَلي يزيدُ بن عبد الملك الفاسقُ في دينه، المأبون في فرجه، الذي لم يُؤْنس منه رُشْد، وقد قال اللّه تعالى في أموال اليتامى ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فأمْرُ أمَةِ محمد عليه السلام أعظم. يأكل الحرامَ ويشرب الخمر، ويلبس الحُلّة قُوِّمت بألف دينار، قد ضُربت فيها الأبشار، وهُتِكت فيها الأستار، وأُخِذت من غير حِلّها. حَبابةُ عن يمينه، وسَلّامة عن يساره تغنّيانه، حتى إذا أخذ الشرابُ منه كلّ مأخذ، قَدَّ ثوبَه، ثم التفت إلى إحداهما فقال: ألا أطير ألا أطير. نعم فَطِرْ إلى لعنة اللّه، وحريقِ ناره، وأليمِ عذابه»[1].

وإزاء ذلك كله انطلق نداء الثورة ودعا يزيد بن المهلب إلى خلع يزيد بن عبد الملك وإلى مبايعته على السمع والطاعة وعلى كتاب اللّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وسنّة العمرين، وتطلعت الأنظار إلى يزيد بن المهلب ليملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، وبدأت وقائع الثورة.

* * *

أولاً: انطلاق الثورة وانتصار ابن المهلّب في البصرة

أقبل يزيد بن المهلّب بالفرسان والرجال إلى مدينة البصرة ـ في شعبان ١٠١هـ ـ وكان عامل يزيد بن عبد الملك على البصرة عدي بن أرطأة الفزاري القيسي قد

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص١٢٣ جـ٢.

كتب إليه يزيد بن عبد الملك أن يتهيأ لقتال ابن المهلب وأن يحبس من في البصرة من آل المهلب، قال الطبري: «فأخذهم عدي بن أرطأة وحبسهم وفيهم المفضل وحبيب ومروان بنو المهلب.. وجمع عدي بن أرطأة إليه أهل البصرة وخَنْدَقَ عليها، وبعث على خيل البصرة المغيرة بن عبد اللّه بن أبي عقيل الثقفي.. وجاء يزيد ومعه أصحابه الذين أقبل فيهم، والبصرة محفوفة بالرجال. وقد جمع محمد بن المهلب ـ ولم يكن ممن حُبس ـ رجالاً وفتية من أهل بيته وناساً من مواليه فخرج حتى استقبله، فأقبل يزيد في كتيبة يهولُ من رآها».

إن قدوم يزيد بن المهلب إلى البصرة في كتيبة يهولُ من رآها، يدل على أن الكثيرين استجابوا له وساروا تحت لوائه إلى مدينة البصرة، وأما عدي بن أرطأة أمير البصرة فقد حشد جند أهل البصرة وكانوا أكثر من خمسين ألفاً من الفرسان والرجال، وكان جند أهل البصرة خمسة أخماس، (فبعث عدي بن أرطأة على كل خُمس من أخماسها رجلاً، فبعث على خُمس الأزد المغيرة بن زياد بن عمرو العتكي، وبعث على خمس تميم محرز بن حمران السعدي المنقري، وعلى خمس بكر بن وائل: عَدِي بن نوح بن شيبان بن مالك بن مسمع، وعلى عبد القيس: مالك بن المنذر بن الجارود، ودعا عدي بن أرطأة عبد الأعلى بن عبد اللّه بن عامر القرشي فعقد له على أهل العالية. والعالية: قريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة. وبعث عدي بن أرطأة على خيل البصرة ـ أي الفرسان ـ المغيرة بن عبد اللّه الثقفي) فنشر عدي بن أرطأة الأخماس حول مدينة البصرة والخندق، وجعل المغيرة الثقفي الفرسان في مقدمة البصرة.

فأقبل يزيد بن المهلب في كتيبة يهولُ من رآها، وعلى مقدمة خيله محمد بن المهلب. قال هشام: «استقبله المغيرة بن عبد اللّه الثقفي في الخيل، فحمل عليه محمد بن المهلب في الخيل، فأفرج له عن الطريق هو وأصحابه. وأقبل يزيد بن المهلب لا يمر بخيل من خيل أخماس البصرة ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن السبيل حتى يمضي.. فأقبل يزيد حتى نزل داره بالبصرة.. وعدي بن أرطأة في دار الإمارة».

❊ ❊ ❊

وأثناء ذلك ـ فيما ذكر الطبري ـ «خرج إلى يزيد بن عبد الملك بالشام حميد بن عبد الملك بن المهلب، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالد بن عبد اللّه القسري وعمر بن يزيد الحكمي بأمان يزيد بن المهلب وأهل بيته». وذلك إذا بايع يزيد بن المهلب وأصحابه يزيد بن عبد الملك، وسيأتي نبأ المبعوثين من يزيد بن عبد الملك.

❊ ❊ ❊

فلما تمركز يزيد بن المهلب في داره بالبصرة وعَدِي بن أرطأة الفزاري في دار الإمارة بالبصرة، انتشر أصحاب ابن المهلّب في جبانة بني يشكر وهو المَنْصَف فيما بينه وبين قصر الإمارة. قال هشام: لما نزل يزيد داره بالبصرة اختلف الناس إليه.. وأخذ يزيد بن المهلب يعطي من أتاه من الناس فكان يقطع لهم قطع الذهب وقطع الفضة فمال الناسُ إليه، ولحق به عمران بن عامر بن مسمع ـ زعيم بكر بن وائل من ربيعة ـ ساخطاً على عدي بن أرطأة لأنه كان نزع منه راية بكر بن وائل وأعطاها لنوح بن شيبان بن مالك بن مسمع. ومالت إلى يزيد بن المهلب ربيعةُ وفيهم عبد الملك ومالك ابنا مسمع، ومالت إليه بقية تميم وقيس وناس بعد ناس، وفهم ناس من أهل الشام. وكان عديّ بن أرطأة لا يعطي الجنود إلا درهمين، ويقول: لا يحلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك ـ لأنه أمر بالعطاء درهمين فقط ـ فقال الفرزدق في ذلك:

أَظُنُّ رِجالَ الدّرهَمَينِ يَسُوقُهُم ... إلى الموتِ آجالٌ لَهُم ومَصَارِعُ

فأحزَمُهُم من كان في قَعر بَيتِهِ ... وأيقَنَ أنَّ الأمر لا شَكَّ واقِعُ»

* * *

وأثناء ذلك بعث الشاعر ثابت قُطنة الأزدي قصيدة من خُراسان إلى يزيد بن المهلب، وهي قصيدة ذات أهمية كبيرة في معرفة طبيعة الموقف والأحداث، وقد وصف د. حسين عطوان في كتاب (الشعر العربي في خراسان) قصائد ثابت في ثورة يزيد بن المهلّب بأنها تتضح فيها: «الآمال التي عقدها ثابت على الثورة والتي كان يرجو أن تتوج بفوز ابن المهلّب بالخلافة.. وبالمثل تتضح فيها نزعته اليمانية الحادة.. واعتزازه بماضيهم في الجاهلية وبحاضرهم في الإسلام، مما يجعلهم أهلاً للخلافة»[1]. وقد ذكر الأصفهاني القصيدة الأولى لثابت في ثورة يزيد بن المهلب مسبوقة بالعبارة التالية: «كتب ثابت قُطنة إلى يزيد بن المهلب يُحرضه» وفيما يلي نص القصيدة التي بعثها الشاعر ثابت قُطنة الأزدي من خراسان ـ أثناء المواجهة في البصرة ـ يؤيد ويحرض الزعيم الثائر يزيد بن المهلّب:

إنَّ امْرَأً حَدَبَتْ ربيعةُ حَوْلَهُ ... والحيُّ من يَمَنٍ وهابَ كؤدا

لضَعِيفُ ما ضَمّت جوانحُ صدره ... إنْ لَمْ يلُفّ إلى الجنودِ جُنودا

أيزيد كُنْ في الحربِ إذْ هَيّجْتَها ... كأبيك لا رعشاً ولا رعديدا

شاورت أكرم من تناول ماجداً ... فرأيت هَمّك في الهموم بعيدا

ما كان في أبويك قادحُ هجنة ... فيكون زندك في الزناد صلودا

(١) الشعر العربي في خراسان ـ د. حسين عطوان ـ ص٢٤٣.

إنّا لضَرّابُون في حمْس الوغَىٰ ... رأسَ المتوج إذْ أراد صدودا
وتَرَىٰ إذا كَفَرَ العَجَاجُ ثَرَىً لنا ... في كل معركة فوارس صِيدا
يا ليت أسرتك الذين تغيبوا ... كانوا ليومك في العراق شهودا
وترى مواطنهم إذا اختلف القَنَا ... والمشرفية يلتظين وقودا

فلما قرأها يزيد قال: إن ثابتاً لغافلٌ عما نحن فيه، ولَعَمْري لأطعينه وسيرى ما سيكون»[١].

وتدل قصيدة ثابت على أن القبائل التي استجابت ليزيد بن المهلب وسارت تحت لوائه إلى البصرة، ثم حدبت حوله داخل البصرة كانت قبائل اليمن وربيعة في ولاية البصرة بينما كانت تميم وقبائل قيس وجند الشام مع ابن أرطأة المتمركز في دار الإمارة بالبصرة. ولذكل قال ثابت قُطنة:

إن امرأً حَدَبتْ ربيعةُ حولهُ ... والحيّ من يَمَنٍ وهاب كؤدا
لضعيفٌ ما ضمت جوانحُ صدره ... إن لم يلف إلى الجنود جنودا
أيزيد كُنْ في الحرب إذْ هيجتها ... كأبيك لا رعشاً ولا رعديدا

* * *

وَوَجَّه يزيد بن المهلب قوة من فرسانه بمعية القائد دارس الأزدي إلى كتيبة من فرسان مُضر الحمراء وعمرو بن تميم كانت ترابط في مربد البصرة وهم من جيش عدي بن أرطأة الفزاري، قال الطبري: «فحمل عليهم دارس فهزمهم، فقال الفرزدق في ذلك:

تَفَرَّقتِ الحَمْرَاءُ إذْ صاحَ دَارِسُ ... ولم يصبروا تَحْتَ السُّيُوفِ الصَّوارِمِ
جَزى اللّهُ قيساً عن عَدِيٍّ مَلَامة ... ألا صبَرُوا حتَّى تكونَ مَلَاحِمِ

وخرج يزيد بن المهلب في أصحابه حتى نزل جبانة بني يشكر وهو المنصف فيما بينه وبين القصر، وجاءته بنو تميم وقيس وأهل الشام ـ أصحاب عدي بن أرطأة ـ فاقتتلوا هُنَيهَةَ . .).

وكان رجل يقال له السميدع الكندي من بني مالك بن ربيعة من ساكني عُمان، يرى رأي الخوارج، وكان خرج وأصحاب يزيد وأصحاب عدي مصطفون، فاعتزل ومعه ناسٌ من القُراء، وهم الفقهاء العلماء، فقال طائفة من أصحاب يزيد وطائفة من أصحاب عدي: قد رضينا بحكم السميدع. فبعث إليه عَدِي ودعاه إلى يزيد بن

---

(١) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٥٢ جـ١٣.

عبد الملك، فأبَىٰ. وبعث إليه يزيد بن المهلب فدعاه إلى نفسه. فأجابه السميدع وبايعه هو والقُراء الذين معه.. فلما ظهر يزيد بن المهلّب هرب رؤوس أهل البصرة من قيس وتميم فلحقوا بالكوفة ولحق بعضهم بالشام، فقال شاعرهم (ويُقال: قال الفرزدق):

فِدَاءٌ لِقَومٍ مِنْ تميمٍ تَتَابَعُوا إلى الشام لم يرضَوا بحكم السَّمَيْدَعِ
أَحُكْمُ حَرورِيٍ مِنَ الدِّينِ مارقٍ أضلُّ وأغوَى من حِمَار مُجَدَّعِ

فأجابه خليفةُ الأقطعُ بأبيات عن حقيقة الذين تتابعوا إلى الشام قائلاً:

وما وجْهُهَا نحوَها عن وفادةٍ ولا نُهْزةٍ يُرْجَىٰ بها خيرُ مَطْمَعِ
ولكنهم راحوا إليها وأدْلَجُوا بأقرَعَ أستَاهُ ترى يوم مَقْرَعِ
وهُمْ من حِذَارِ القوم أنْ يلحَقوا بهمْ لهم نَزلةٌ في كلّ خمسٍ وأربعِ

يعني أنهم راحوا إلى الكوفة ثم الشام منهزمين هاربين من فرسان ابن المهلّب.

وكان جيش ابن المهلّب وجيش عدي بن أرطأة لما التقيا في جبانة بني يشكر، واقتتلوا: «حمل محمد بن المهلّب على مسور بن عباد الحبطي التميمي، قائد فرسان عدي، فضربه محمد بن المهلّب بالسيف فقطع أنف البيضة ـ أي الخوذة ـ ثم أسرع السيف إلى أنفه، وحمل محمد على هريم بن أبي طلحة بن أبي نهشل بن دارم فأخذ بمنطقته فحذفه عن فرسه فوقع فيما بينه وبين الفرس قال ـ محمد ـ هيهات عمك أثقل من ذلك. وانهزم جيش عدي بن أرطأة وأقبل يزيد بن المهلّب يتتبعهم حتى دنا من القصر، فقاتلوهم، وخرج إليه عديٌّ بنفسه، فَقُتِل من أصحابه الحارث بن مصرف الأودي وكان من أشراف أهل الشام وفرسان الحجاج، وقُتل موسى بن الوجيه الكلاعيّ وراشد المؤذن، وانهزم عدي وأصحابه إلى القصر.

وكان المفضل وحبيب وعبد الملك إخوة يزيد بن المهلب في حبس عدي بن أرطأة، فسمعوا الأصوات تدنو، والنبال تقع في القصر، فقال لهم عبد الملك: إنِّي أرى النشاب تقع في القصر وأرى الأصوات تدنو ولا أرى يزيد إلا قد ظهر، وإنِّي لا آمن مَنْ مع عَدِيّ أن يأتونا فيقتلونا قبل أن يصل إلينا يزيد، فاغلِقُوا باب الدار ثم الْقُوا عليه متاعاً. فأغلقوا باب الدار الذي هم محبوسون فيه وجعلوا وراء الباب متاعاً، فلم يلبثوا إلا ساعة حتى جاء عبد الله بن دينار صاحب شرطة عَدِيّ، فجاء يشتد إلى الباب هو وشرطته ـ يريدون قتل بني المهلب ـ وقد وضع بنو المهلب متاعاً على الباب ثم اتّكأوا عليه، فأخذ ابن دينار وأصحابه يعالجون الباب فلم يستطيعوا الدخول، وأعجلهم أصحاب يزيد، فقبضوا عليهم.

ونزل يزيد بن المهلب دار سالم بن زياد بن أبي سفيان إلى جانب القصر، وأتى بالسلاليم، فدخل عثمان وجماعة من أصحاب يزيد القصر، فلم يلبث عثمان أن فتح القصر، ودخل يزيد بن المهلّب القصر، وطورد عدي بن أرطأة داخل القصر حتى أخذوه أسيراً، فجيء به إلى يزيد بن المهلب وهو يبتسم، فقال له يزيد: لم تضحك فوالله إنه لينبغي أن يمنعك من الضحك خصلتان، إحداهما: الفرار من القتلة الكريمة حتى أعطيت بيدك إعطاء المرأة بيدها فهذه واحدة، والأخرى: أني أتيتُ بك تَتَلُّ كما يتلّ العبد الآبق إلى أربابه وليس معك مني عهدٌ ولا عقد يؤمّنك أن أضرب عُنقك.. ثم قال: انطلقوا به إلى الحبس وقال له: أما إن حبسي إياك ليس إلا لحبسك بني المهلب وتضييقك عليهم فيما كنا نسألك التسهيل عليهم فلم تكن تألوا ما عسّرتَ وضيّقتَ وخالفت».

فسيق عدي بن أرطأة وبعض أعوانه إلى السجن، فيما خرج المفضل وحبيب وعبد الملك إلى أخيهم يزيد في قصر الإمارة، وقيل: إنَّ الحمد لله رب العالمين.

* * *

وهرب بعض رؤوس أهل البصرة من القيسية وتميم فلحقوا بعبد الحميد بن عبد الرحمٰن عامل الكوفة ولحق بعضهم بالشام، إلى يزيد بن عبد الملك، وفيهم قال خليفة الأقطع الأبيات سالفة الذكر:

وَمَا وجّهُوهَا نحوَه عن وفادةٍ ... ولا نُهْزةٍ يُرْجَى بها خيرُ مَطْمَع

ولكنهم رَاحُوا إليها وأدْلَجُوا ... بأقرع أستَاه تُرى يوم مَقْرَع

وهُمْ مِنْ حِذَارِ القوم أن يَلْحَقوا بهم ... لهم نزلةٌ في كلِّ خمس وأربع

وخرج الحواريُّ بن زياد يريد يزيد بن عبد الملك هارباً من يزيد بن المهلّب، فلقِيَ خالد بن عبد الله القسري وعمرو بن يزيد الحكمي ومعهما حميد بن عبد الملك، قد أقبلوا من عند يزيد بن عبد الملك بأمان يزيد بن المهلب وكل شيء أراده، فالتقاهم الحواريّ، فسأله خالد وعمرو عن الخبر، فخلا بهما، فقال: أين تريدان؟ قالا: يزيد بن المهلب قد جئناه بكل شيء أراده، فقال: ما تصنعان بيزيد شيئاً ولا يصنع بكما قد ظهر على عدي بن أرطأة، وقتل القتلى، وحبس عَدِياً. فرجعا إلى الشام.

* * *

ثانياً: مبايعة يزيد بن المهلب بالخلافة

لقد ذكرت المصادر والروايات التاريخية بعبارات واضحة صريحة الوجه الأول لثورة يزيد بن المهلب بقولها إنه «خلع يزيد بن عبد الملك» ولكنها لم تذكر بنفس الوضوح الوجه الآخر للحقيقة وهو «مبايعة يزيد بن المهلّب بالخلافة». ويضاهي ذلك

ما حدث في ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي سنة ٨٠ ـ ٨٣هـ حيث خلع الناس عبد الملك بن مروان وبايعوا ابن الأشعث بالخلافة، فقال الحافظ ابن كثير: «والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوا عبد الرحمٰن بن الأشعث بالإمارة، وهو ليس من قريش وإنما هو كنديٌّ من اليمن.. فكيف يعمدون إلى رجل قد بويع بالإمارة على المسلمين من سنين فيخلعونه وهو من صلبية قريش، ويبايعون لرجل كندي... إلخ» وقد سلف تبيين أن الذين بايعوا ابن الأشعث كانوا علماء التابعين وبقية الصحابة وأبناء الصحابة مما يدل على أن مقولة (الخلافة في قريش) لم تكن تُمثل رأي أولئك الصحابة وأبناء الصحابة وعلماء التابعين في عهد عبد الرحمٰن بن الأشعث الذي بويع بالخلافة وتلقب بناصر المؤمنين.

وكذلك فإن ثورة يزيد بن المهلّب وخلع يزيد بن عبد الملك قد اقترن بمبايعة يزيد بن المهلب بالخلافة فكان هو ثاني الخلفاء اليمانيين الثوار في التاريخ العربي الإسلامي، وقد بدأت ثورته بخلع يزيد بن عبد الملك فلما انتصر في البصرة بويع بالخلافة، قال الحافظ ابن كثير: «خلع يزيد بن المهلب يزيد بن عبد الملك واستحوذ على البصرة وذلك بعد محاصرة طويلة وقتال طويل، فلما ظهر عليها بسط العدل في أهلها، وحبس عاملها عدي بن أرطأة.. واستقر أمر يزيد بن المهلب على البصرة، وبعث نوابه على النواحي والجهات»[١].

وقد ذكرت مبايعة يزيد بن المهلب بالخلافة طائفة من النصوص التاريخية نذكرها فيما يلي:

١ ـ كان العالم التابعي الجليل النضر بن أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه يدعو الناس إلى مبايعة يزيد بن المهلب في باب المسجد الجامع بالبصرة، قال الطبري: «كان النضر بن أنس على باب المسجد يقول: يا عباد الله ما تنقمون من أن تجيبوا إلى كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ..»[٢].

٢ ـ وقال الطبري: «إن يزيد بن المهلب لما استجمع له البصرةُ، قام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم أخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيّه محمد ﷺ، ويحثّ على الجهاد..»[٢]. وكذلك قال ابن الأثير: «لما استجمع أهل البصرة ليزيد بن المهلّب، خطبهم، وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيّه ويحثهم على الجهاد»[٣] ـ وتضيف الرواية ـ «ويزعم أن جهاد أهل

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١١٩ و ١٢٠ جـ٩.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٤٩ و ١٥٠ جـ٨.
(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١٧٠ جـ٤.

الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم» وسيأتي أنه إنما قال: «إن أهل الشام تسعة سيوف، سبعة معي، واثنان ضدي..»، فكان يؤمل أن غالبية أهل الشام سيستجيبون له، فلا يصح أنه ذمّهُم.

٣ ـ وقال ابن الأثير: «مرّ الحسن البصري بالناس ـ في البصرة ـ وقد نصبوا الرايات وهم ينتظرون خروج يزيد بن المهلب، وهم يقولون: يدعونا يزيد إلى سُنة العُمرين..»[١]، وكذلك جاء في تاريخ الطبري أنه «مرّ الحسن البصري على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج يزيد بن المهلب، ويقولون: يدعونا يزيد إلى سنة العُمَرين..»[٢] يعني إلى سيرة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب. وتضيف الرواية أنه «قال الحسن: إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرّح بهم إلى بني مروان يريد رضاهم، فلما غضب غضبة نصب قَصَباً ثم وضع عليها خِرَقاً ثم قال: إنّي قد خالفتهم فخالفوهم، فقال هؤلاء: نعم. وقال: إنّي أدعوكم إلى سنة العُمَرين، وإن من سنة العمرين أن يوضع قيدٌ في رجله ويوضع في الحبس، فقال له ناسٌ من أصحابه ممن سمع قوله: واللّه لكأنّك يا أبا سعيد راضٍ عن أهل الشام؟ فقال الحسن: أنا راض عن أهل الشام قبحهم اللّه وبرّحهم أليس هم الذين أحلّوا ما حرم رسول اللّه يقتلون أهله ثلاثة أيام وثلاث ليال، ثم خرجوا إلى بيت اللّه الحرام فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها عليهم لعنة اللّه وسوء الدار»[١]، وهذا الكلام يعني أن الحسن البصري كان ضد حكم بني مروان ـ أهل الشام ـ وقد بلغ به الأمر إلى حد لعنهم وتقبيحهم، مما يشير إلى أنه لم يكن ضد الثورة، وأما الكلام المنسوب إليه في يزيد بن المهلّب، فأكثره لا يصح، إلا أنه كما قال ابن كثير: «كان الحسن البصري يحرض الناس على الكفّ وترك الدخول في الفتنة، وذلك لما وقع من القتال الطويل العريض في أيام ابن الأشعث». ولذلك كان رأي الحسن البصري هو الاعتزال، فوثب عليه أصحابه فأخذوا بيده وأجلسوه، قال معاذ بن سعد: «ثم خرجت أنا والحسن إلى باب المسجد، فإذا على باب المسجد النضر بن أنس بن مالك يقول: يا عباد اللّه ما تنقمون من أن تجيبوا إلى كتاب اللّه وسنة نبيّه ﷺ فواللّه ما رأينا ذلك ولا رأيتموه منذ وُلِدتم إلا هذه الأيام من إمارة عمر بن عبد العزيز. فقال الحسن: سبحان اللّه وهذا النضر بن أنس قد شهد أيضاً».

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١٧٠ جـ٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٤٩ و ١٥٠ جـ٨.

ثم تدفق أهل البصرة وبايعوا يزيد بن المهلب بالخلافة على كتاب اللَّه وسنّة رسوله ﷺ وسيرة العُمْرين، واستكمل أهل البصرة مبايعة له واستجابة.

٤ ـ قال الحافظ ابن كثير ـ في أنباء سنة ١٠٢هـ ـ «خطب يزيد بن المهلّب الناس وحرضهم على القتال ـ يعني قتال جند الشام ـ وكان مع يزيد بن المهلب نحو من مائة ألف وعشرين ألفاً قد بايعوه على السمع والطاعة، وعلى كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ، وعلى أن لا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج»[١].

٥ ـ ذكر الزركلي في كتاب (الأعلام) مبايعة يزيد ابن المهلب وأنه «تَسَمّى بالقحطاني» يعني (الخليفة القحطاني) وفي تلك التسمية إشارة إلى الحديث النبوي عن القحطاني. قال الحافظ ابن كثير: «وقد قال البخاري: (باب ذكر قحطان): حدثنا عبد العزيز بن عبد اللَّه قال: حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي المغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى يخرج رجلٌ من قحطان يسوق الناس بعصاه). وكذا رواه مسلم عن قتيبة عن الدراوردي عن ثور بن زيد به. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة عن جرير قال: حدثني راشد بن سعيد المقراي عن أبي حيّ عن ذي فجر: أن رسول اللَّه ﷺ قال: (كـان هـذا الأمـر فـي حِـمْـيَـر فـنـزعـه الـلّـه مـنـهـم فـجـعـلـه فـي قـريـش (و س ي ع و د ا ل ي هـ م). قال عبد اللَّه: كان هذا الحديث في كتاب أبي وحيث حدثنا به تكلم به على الاستواء يعني (وسيعود إليهم)»[٢].

وكان ذلك التفكير وارداً في ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي، حيث قال الدكتور يوسف خليفة عن موقف أعشى همدان شاعر ثورة ابن الأشعث: «لقد كانت نفس أعشى همدان تسيطر عليها نزعة أرستقراطية عميقة آثارها فيه شعوره بمجد اليمن القديم وبأن زعيمه سليل ملوك اليمن القدماء وأنه يعمل لإعادة ذلك المجد.. فأغلب الظن أن الأعشى لم يكن يتمثل ثورة ابن الأشعث ثورة سياسية بقدر ما كان يتمثلها محاولة لاسترداد اليمانية ملكهم القديم، وهو في هذا لم يكن إلا ممثلاً لشعور اليمنية الذين نظروا إلى الثورة من هذه الزاوية فكانوا لهذا أسرع الطوائف استجابة لابن الأشعث»[٣]. ويماثل ذلك قول د. حسين عطوان عن قصائد ثابت قُطنة الأزدي في ثورة يزيد بن المهلب أنها: تتضح فيها (الآمال التي عقدها ثابت على الثورة والتي

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١١٩ و ١٢٠ جـ٩.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٥٨ جـ٢.

(٣) الشعر في الكوفة ـ يوسف خليفة ـ ص٨٠ ـ والشعر العربي في خراسان ـ حسين عطوان ـ ص٢٤٣.

كان يرجو أن تُتوج بفوز ابن المهلب بالخلافة.. وبالمثل تتضح نزعته اليمانية.. واعتزازه بماضيهم في الجاهلية وبحاضرهم في الإسلام مما يجعلهم أهلاً للخلافة»[١]. وكذلك فإن اللقب الذي تسمى به يزيد بن المهلب عندما بويع بالخلافة وهو لقب (القحطاني) له ذات الدلالة اليمانية القحطانية، وتمثيل شعور اليمانيين في أنهم أهلٌ للخلافة.

إن كون الخلافة هي محور وغاية ثورة يزيد بن المهلب يتجلى حتى في أقوال خصومه، ومن ذلك قول جرير:

يا ابْن المهلّب إن الناس قد علموا أن الخلافة للشُمِّ المغاوير

* * *

ثالثاً: انضواء عُمان ومنطقة الخليج العربي في خلافة ابن المهلّب

وقد كانت ولاية وبلاد عُمان من أول من استجاب ليزيد بن المهلّب وبايعوه بالخلافة ـ في شعبان سنة ١٠١هـ ـ ولم تذكر الروايات تفاصيل ذلك، سوى أنه كما ذكر د. فاروق عمر في كتاب مصادر التاريخ العماني:

«لما ثار يزيد بن المهلب سنة ١٠١هـ عيّن أخاه زياداً على عُمان فتسلم زياد الولاية، وبَقِيَ والياً على عُمان..»[٢] وغني عن البيان أن أهل عمان كانوا وما يزالون من الأزد اليمانيين، قال الشاعر عمران بن حطان يمدح أهل عُمان:

«مِن الأَزْدِ إِنَّ الأَزْدَ أكرمُ مَعْشَرٍ يَمانيةٍ طابوا إذا نُسِبَ البَشَرْ»

(ص١٢٨/ ٢ ـ الكامل ـ المبرِّد).

وامتد التجاوب مع يزيد بن المهلب إلى ما يلي عُمان من المهرة وحضرموت باليمن ومناطق اليمن الداخلية، وكان ممن مضى من حضرموت إلى عمان ثم البصرة وانضم إلى المهلب السَّمَيْدَع بن مالك بن ربيعة الكندي، وقد جاء في رواية الطبري أنه (..من ساكني عمان، وكان يرى رأي الخوارج) ـ وذلك في قضية الخلافة وجوازها فيمن تختاره الأمة وعدم صحة اشتراط النسب العلوي أو القرشي في الخليفة ـ فلما انتصر يزيد بالبصرة وكما ذكر الطبري: «استعمل يزيد بن المهلّب السميدع الكندي على الأبلّة، فأقبل على الطيب والتخلق والنعيم».

وكذلك انضوت في خلافة يزيد بن المهلب منطقة الخليج العربي وكان يقال

---

(١) الشعر في الكوفة ـ يوسف خليفة ـ ص٨٠ ـ والشعر العربي في خراسان ـ حسين عطوان ـ ص٢٤٣.

(٢) مصادر التاريخ العماني ـ د. فاروق عمر ـ ص٣٣.

لها (البحرين)، وقد ذكر الطبري في أنباء موقعة (العقر) قول المفضل ليزيد بن المهلب: «أرى أن تنزل واسط حتى يأتيك مدد أهل البحرين وعُمان». ويدل ذلك على أنهم كانوا قد بايعوه وانضووا تحت رايته، ولما استتب الأمر بالبصرة ليزيد بن المهلب ـ وكما ذكر الطبري ـ «استعمل يزيد على البحرين هرم بن قرار العبدي» وهو من رؤساء بني عبد القيس من ربيعة، وكانوا رؤساء أهل البحرين.

رابعاً: مبايعة ابن المهلب في الأهواز وفارس وكرمان

وكانت أقاليم الأهواز وفارس وكرمان ومكران تابعة لولاية البصرة، فبايع عمالها وقادتها وجنودها العرب وأهلها يزيد بن المهلب، أثناء المواجهة بينه وبين عدي بن أرطأة في البصرة، واكتمل ذلك عند انتصاره ومبايعته بالبصرة. وفي ذلك قال ابن كثير: «استقر أمر يزيد بن المهلب على البصرة، وبعث نوابه على النواحي والجهات، واستناب على الأهواز..» وقال الطبري وكذلك قال ابن خلدون: «استوثق أهل البصرة ليزيد بن المهلب وبعث عماله على الأهواز وفارس وكرمان». وكان ذلك منذ شعبان ورمضان سنة ١٠١هـ.

* * *

خامساً: انضواء سجستان وبلاد السند في خلافة ابن المهلّب

ويعث يزيد بن المهلب إلى ولاية سجستان وكرمان ابنه معاوية بن يزيد بن المهلّب، ومن المفيد الإشارة إلى أنه ـ كما ذكر البلاذري ـ «لما وُلّي سليمان بن عبد الملك الخلافة وولى يزيد بن المهلب العراق، فولى يزيد أخاه مدرك بن المهلب سجستان، فلم يعطه رتبيل شيئاً» يعني من مال المصالحة والجزية وكان رتبيل ملكاً على الرحج وما يليها من بلاد رتبيل في جنوب أفغانستان، وقد تقدم الحديث عن العلاقة معه في أنباء عهد عبد الرحمٰن بن الأشعث فمكث مدرك بن المهلب أميراً على سجستان الإسلامية وعاصمتها زرنج في ولاية يزيد للعراق ومشارقها وخلافة سليمان بن عبد الملك ـ سنة ٩٦ ـ ٩٩هـ ـ وربما إلى أوائل خلافة عمر بن عبد العزيز، ولم تذكر الروايات عامل سجستان إلى أن بعث يزيد بن المهلب إليها ابنه معاوية ـ سنة ١٠١هـ ـ وكان معاوية مع أبيه يزيد لما خرج من إقامته الجبرية بالشام قاصداً البصرة عندما مرض عمر بن عبد العزيز مرض الموت في رجب ١٠١هـ، حيث ذكر أبو العباس المبرِّد أنه: «مَرَّ يَزيدُ بن المهلب بأعرابيّة في خروجه ذلك يريد البصرة، فقَرَتْه الأعرابية عَنْزاً، فقبلها، وقال لابنه معاوية: ما معك من النفقة؟ فقال: ثماني مائة دينار، قال: فادْفَعْها إليها، فقال له ابنه معاوية: إنك تريد الرجالَ ولا يكون الرجالُ إلا بالمال، وهذه يُرْضيها اليسير وهي بعْدُ لا تَعْرِفُكَ. فقال

له: إن كانت ترضى باليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي، ادْفَعْها إليها»[١].

فلما ثار يزيد بجهات البصرة ـ في شعبان ١٠١هـ ـ بعث ابنه معاوية إلى سجستان، فاستجاب له العرب والمسلمون بسجستان، وأدى إليه الملك رتبيل مبلغ المصالحة والجزية، فبعث بذلك إلى يزيد، ومكث معاوية والياً لسجستان إلى سنة ١٠٣هـ، وقد أشار البلاذري إلى ذلك قائلاً: «لما ولي سليمان بن عبد الملك الخلافة وولّى يزيد بن المهلب العراق، ولّى يزيد أخاه مدرك بن المهلب سجستان فلم يعطه رتبيل شيئاً. ثم وُلّي معاوية بن يزيد فرضخ له رتبيل»[٢] وكان معاوية بن يزيد آخر من أدى إليه رتبيل الجزية.

وأما بلاد السند فقد كان أميرها في خلافة سليمان بن عبد الملك حبيب بن المهلب، قال البلاذري: «استعمل سليمان بن عبد الملك حبيب بن المهلب على السند، فقَدِمها وقد رجع ملوك الهند إلى ممالكهم فرجع حليشة بن داهر إلى برهمناباذ، ونزل حبيب على شاطئ مهران فأعطاه أهل الرور الطاعة وحارب قوماً فظفر بهم. ثم مات سليمان بن عبد الملك وكانت خلافة عمر بن عبد العزيز بعده، فكتب ـ سنة ١٠٠هـ ـ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يُملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فأسلم حليشة بن داهر والملوك. وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر»[٢]. وذكر الطبري أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى جيش العرب المسلمين في السند بالقفول، فقفلوا عائدين إلى العراق والشام. ولكن قوة عربية إسلامية بقت في مدينة قندابيل وهي العاصمة وكان عاملها عمرو بن مسلم الباهلي، فلما ثار يزيد بن المهلب انضوت قندابيل والسند في خلافته، وقد ذكر الطبري أنه «استعمل يزيد بن المهلب على قندابيل وداع بن حميد الأزدي». وكذلك ذكر ابن خلدون في أحداث سنة ١٠٢ ـ ١٠٣هـ أنه «كان بقندابيل وداع بن حميد الأزدي، ولاهُ عليها يزيد بن المهلب».

سادساً: امتداد أمر يزيد بن المهلب إلى خراسان

كان ليزيد بن المهلب تاريخ حافل بالأمجاد والعطاء في خراسان وآسيا الوسطى في ولايته الأولى لها سنة ٨٢ ـ ٨٦هـ ثم في ولايته الثانية لخراسان وما وراء النهر سنة ٩٧ ـ ١٠٠هـ، ولما انتهت ولايته لخراسان في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠هـ تولاها الجرّاح بن عبد الله الحكمي المذحجي إلى رمضان سنة ١٠٠هـ ثم انتهت

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٨١ جـ١.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٩٢ وص٤٢٩.

ولايته، وولى عمر بن عبد العزيز عاملين على خراسان، عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي على الحرب والصلاة وعبد الرحمٰن بن نعيم القشيري على الجباية والخراج، فلما مات عمر وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك وثار يزيد بن المهلب بالبصرة ـ في شعبان ١٠١هـ ـ بعث يزيد بن عبد الملك عبد الرحمٰن بن سليمان الكلبي إلى خراسان عاملاً عليها، وبعث يزيد بن المهلب أخاه مدرك إلى خراسان ومعه كوكبة من الفرسان، وما لبث أن رجع ـ أو هرب ـ عبد الرحمٰن بن سليمان من خراسان، وقد بررت رواية الطبري ذلك بقولها: «كان يزيد بن عبد الملك بعث عبد الرحمٰن بن سليمان إلى خراسان عاملاً عليها، فلما بلغه خلع يزيد بن المهلب كتب إليه: إن جهاد من خالفك أحبّ إليّ من عملي على خراسان فلا حاجة لي فيها فاجعلني ممن توجِّهَهُ إلى يزيد بن المهلب، ـ فرجع من خراسان إلى الكوفة ـ» (ص١٤٨/ ٨).

وقد تزامن رجوع عبد الرحمٰن بن سليمان من خراسان مع قدوم مدرك بن المهلّب إليها، وقد ذكر الحافظ ابن كثير مسيره قائلاً: «استقر أمر يزيد بن المهلب على البصرة، وبعث نوابه في النواحي والجهات، واستناب في الأهواز، وأرسل أخاه مدرك بن المهلب على نيابة خراسان ومعه جماعة من المقاتلة» (٢١٩/ ٩ ـ البداية والنهاية).

وقال الطبري: «استوثق أهل البصرة ليزيد بن المهلب وبعث عماله على الأهواز وفارس وكرمان.. وجاء مدرك بن المهلّب حتى انتهى إلى رأس المفازة بخراسان، فدسّ عبد الرحمٰن بن نعيم (الغامدي) إلى تميم: إن هذا مدرك بن المهلّب يريد أن يلقي بينكم الحرب وأنتم في بلاد عافية وطاعة وعلى جماعة، فخرجوا ليلاً يستقبلونه ـ يريدون قتله ـ وبلغ ذلك الأزد فخرج منهم نحو من أَلْفَيّ فارس حتى لحقوهم قبل أن ينتهوا إلى رأس المفازة، فقالوا لهم: ما جاء بكم وما أخرجكم إلى هذا المكان؟ فاعتلوا عليهم بأشياء ولم يقرّوا لهم أنهم خرجوا ليُتلقوا مدرك بن المهلب، فقال لهم الآخرون: بل قد علمنا أن خرجتم لتلقّي صاحبنا وها هو ذا قريبٌ، فما شئتم، ثم انطلقت الأزد حتى تلقوا مدرك بن المهلب على رأس المفازة.. فقال ثابت قُطنة وهو ثابت بن كعب من الأزد (يذكر ما حدث):

أَلَمْ تر دوسراً مَنعَتْ أخاها ... وقد حَشَدَتْ لِتقتلَهُ تميمُ
رأوا من دونه الزُّرْق العوالي ... وحيًّا ما يباحُ لهم حريمُ
شَنُوءتُها، وعمرانُ ابن حزم، ... هناك المجدُ والحسبُ الصَّميمُ
فما حملوا ولكن نَهْنَهَتْهُمْ ... رماحُ الأزدِ والعزُّ القديمُ
رددنا مَدْركاً بَمَردٌ صِدْقٍ ... وليس بوجهه منكم كلُومُ
وخَيلٍ كالقداحِ مُسَوَّماتٍ ... لَدَى أرضٍ مغانيها الجميمُ

عـلـيـهـا كـلُّ أصْـيَـد دوْسَـريٍّ عـــزيـــزٍ لا يَـــفِـــرُّ ولا يَـــرِيـــمُ
بـهـم تُـسْـتَـعْـتَـبُ الـسـفـهـاءُ حـتـى تـرى الـسـفـهـاء تَـرْدَعُـهَـا الـحـلـومُ»

بينما جاء في سياق الرواية التي ذكرها الطبري أنه « . . انطلقت الأزد حتى تلقوا مدرك بن المهلب على رأس المفازة، فقالوا له: إنك أحبّ الناس إلينا وأعزّهم علينا وقد خرج أخوك ونابذهم، فإن يظهره اللّه فإنما ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وإن تكن الأخرى فواللّه ما لك في أن يغشينا ما يعرّنا فيه من البلاء راحة، فعزم له رأيه على الانصراف». ولكن هذا القول في الرواية يتنافى مع منطوق قصيدة ثابت سالفة الذكر والتي هي وثيقة عما حدث بخراسان، وقد يكون ذلك القول من الأزد لمدرك بن المهلّب قبل انتصار يزيد في المواجهة بالبصرة، واقترن ذلك بانصراف عبد الرحمٰن بن سليمان عامل يزيد بن عبد الملك من خراسان، فعزم مدرك على الانصراف، فلما أتى نبأ انتصار يزيد بن المهلّب بالبصرة وانضواء البصرة تحت لوائه، مكث مدرك نائباً له بخراسان، ثم أقبل إليه فيما بعد إلى واسط أو الكوفة. . وقد أقبل إلى يزيد بن المهلب لمّا تم له الأمر بالبصرة قادة وشخصيات من خراسان وإقليم جرجان، منهم القائد حمّال بن زحر الجعفي المذحجي، وابن صول ملك دهستان، والشاعر ثابت قُطنة الأزدي. وذكر ابن الأثير: «أن جهم بن زحر الجعفي، وعبد العزيز بن عمرو الزبيدي، والمنتجع بن عبد الرحمٰن الأزدي تولوا خراسان ليزيد بن المهلب في ثمانية نفر» (ص١٧٧ جـ٤ ـ الكامل).

سابعاً: انضواء واسط والكوفة في خلافة ابن المهلّب

كانت البصرة وواسط والكوفة هي المدن العواصم بالعراق، وقد استتب الأمر ليزيد بن المهلب في البصرة والنواحي والجهات التابعة لها، وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير:

«استحوذ يزيد بن المهلب على البصرة. . فلما ظهر عليها بسط العدل في أهلها، وبذل الأموال. . واستقر أمره على البصرة، وبعث نوابه في النواحي والجهات».

قال الطبري: «ثم إن يزيد خرج من البصرة واستعمل عليها مروان بن المهلب، وخرج معه بالسلاح وبيت المال فأقبل حتى نزل واسط. . فلما نزل واسط أقام بها أياماً يسيرة». وكذلك قال ابن الأثير: «ثم إن يزيد بن المهلب سار من البصرة واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلّب، وأتى واسطاً. . فلما نزل واسطاً أقام بها أياماً يسيرة حتى خرجت السنة» وكذلك قال ابن خلدون: «سار يزيد إلى واسط واستخلف على البصرة مروان بن المهلب، فأقام يزيد بواسط أياماً ـ حتى نهاية سنة ١٠١هـ ـ».

وقد أعْرَضَتْ تلك الرواية عن ذكر كيفية انضواء واسط تحت لواء يزيد بن المهلب، بينما واسط كانت عاصمة أمير العراق ومشارقها، وتفوق أهميتها في ذلك

الزمن مدينة الكوفة، وكان عامل يزيد بن عبد الملك على ولاية الكوفة ومعها واسط هو عبد الحميد بن عبد الرحمٰن العدوي القريشي، وجاء في رواية الطبري: «إن حبيب بن المهلب قال ليزيد وهو في البصرة: إن الرأي الذي ينبغي أن يكون حيث ظهرت على البصرة: أن توجّه خيلاً عليها أهل بيتك حتى ترد الكوفة فإنما عاملها عبد الحميد بن عبد الرحمٰن مَرَرتَ به في سبعين رجلاً فعجز عنك فهو عن خيلك أعجز في العدة فنسبق إليها جند أهل الشام، وعظماءُ أهل الكوفة يرون رأيك، وإن تلي عليهم أحبّ إلى جُلِّهم من أن يلي عليهم أهل الشام» ـ وتضيف الرواية ـ «فلم يطعه يزيد» بينما يستفاد من رواية أخرى ذكرها الطبري أن يزيد بن المهلب بعث إلى الكوفة خالد بن يزيد بن المهلّب وحمال بن زحر الجعفي، وقد بعثهما بمفردهما ـ غالباً ـ لدعوة الناس إليه، حيث تقول الرواية «وثب عبد الحميد بن عبد الرحمٰن عامل الكوفة على خالد بن يزيد بن المهلب وعلى حمّال بن زحر الجعفيّ وهما بالكوفة، فأوثقهما وسرحهما إلى يزيد بن عبد الملك فحبسهما بالشام، فلم يفارقوا السجن حتى هلكوا فيه. وبعث يزيد بن عبد الملك رجالاً من أهل الشام إلى الكوفة يسكّنونهم ويثنون عليهم بطاعتهم ويمنّونهم الزيادات، منهم القطاميّ بن الحصين».

وقد بعث القطامي بن الحصين قصيدة من الكوفة إلى يزيد بن المهلب في البصرة، وهي قصيدة عَبّرت عن تطلعات وآمال القطامي وأهل الكوفة في قدوم يزيد بن المهلب والانضواء تحت لواء ثورته وخلافته، وقد ذكر الطبري قصيدته قائلاً: «القطاميّ بن الحصين هو أبو الشرقيّ واسم الشرقي الوليد، وقد قال القطامي حين بلغه ما كان من يزيد بن المهلّب:

لَعلَّ عيني أن ترى يزيد   يَقودُ جيشاً جحْفلاً شديدا   تَسْمعُ للأرض به وئيدا

لا برماً ـ هو ـ ولا حسودا   ولا جباناً في الوغَىٰ رعديدا   (لا ينقضُ العهد ولا المعهودا)

ترى ذوي التاج له سُجُودا   مُكَفِّرين خاشِعين قودا   وآخرين رحَّبُوا وفودا

مِنْ نَفَرٍ كانوا هجانا صِيدا   ترى لهم في كلِّ يوم عِيدا   من الأعادي جزرا مقصودا

وفي أعقاب ذلك سار يزيد بن المهلب بجيش كثيف من البصرة إلى الكوفة وواسط، وقد أشار المؤرخ المسعودي إلى ذلك الترتيب قائلاً: «كان يزيد بن المهلّب بن أبي صُفْرة.. صار إلى البصرة وعليها عَدِيُّ بن أرْطَأةَ الفَزَاري، فأخذه يزيد بن المهلّب، فأوثقه، ثم خرج يُريدُ الكوفة، وحشدت له الأزد وأحلافها، وانحاز إليه أهله وخاصته، وعظم أمره، واشتدت شَوْكته»[١].

* * *

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٢١٠ جـ٣.

وكان مسير يزيد بن المهلّب من البصرة إلى مدينة واسط ومدينة الكوفة، وتقع الكوفة في الغرب ـ بالقرب من الحيرة ـ بينما تقع مدينة واسط في شرق وسط العراق، مما يستلزم أن يزيد بن المهلب قام بتقسيم جيشه إلى فرقتين، فرقة بقيادته سار بها إلى واسط، وفرقة إلى الكوفة يبدو أنها بقيادة عبد الملك بن المهلّب، وقد ذكر الطبري عن هشام بن محمد الكلبي أنه: «كان عبد الحميد بن عبد الرحمٰن عامل الكوفة قد عسكر بالنُخَيلَة وبعث إلى المياه فبثقها ما بين الكوفة وبين يزيد بن المهلب لئلا يصل إلى الكوفة، ووضع على الكوفة مناظر وأرصاداً لتحبس أهل الكوفة عن الخروج إلى يزيد بن المهلب».

وكان ذلك في الوقت الذي مضى فيه يزيد بن المهلب إلى واسط، فانحاز إليه جند وأهل واسط، فاستقبلوه، فدخل يزيد مدينة واسط وبويع فيها بالخلافة، واستقر في قصر الإمارة بمدينة واسط في ذي الحجة سنة ١٠١هـ.

ثم ذكر الطبري في أحداث سنة ١٠٢هـ ما يدل على أن الكوفة انضوت تحت لواء ابن المهلب منذ دخوله واسط، فقد ذكر أنه: «سقط إلى يزيد ناس من الكوفة كثير ومن الجبال وأقبل إليه ناس من الثغور.. وكان على أرباع أهل الكوفة الذين خرجوا إليه، على ربع أهل المدينة عبد اللّٰه بن سفيان بن يزيد بن المُغفل الأزدي، وعلى ربع مذحج وأسد النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي، وعلى ربع كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث الكندي، وعلى ربع تميم وهمدان حنظلةَ بن عتاب بن ورقاء التميمي». ويبدو من ذلك أن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن انحاز وانسحب إلى إحدى المناطق التابعة للكوفة، فقد ذكرت الروايات أن مسلمة بن عبد الملك لما قَدِم في جيش الشام سنة ١٠٢هـ عزل عبد الحميد وبعث على الكوفة محمد بن عمر بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان بالكوفة عبد الملك بن المهلّب أميراً وقائداً عليها من قِبَل يزيد بن المهلّب، فذلك الانضواء لواسط وولاية الكوفة في ثورته وخلافته هو ما عناه المسعودي بقوله:

«وعظم أمر يزيد بن المهلب واشتدت شوكته»[1].

المدى الذي بلغته ثورة وخلافة ابن المهلّب

لم تبلغ ثورة يزيد بن المهلب غايتها العظمى بصيرورته خليفة لدولة الخلافة العربية الإسلامية بكافة ولاياتها وأقاليمها وأقطارها، ولكن المدى الذي بلغته لم يكن يسيراً وإنما كان كبيراً وعظيماً، ففي سنة ١٠١ ـ ١٠٢هـ كان هناك في الواقع

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٢١٠ جـ٣.

خليفتان، الخليفة الأموي المرواني يزيد بن عبد الملك والخليفة القحطاني يزيد بن المهلّب، فقد شملت الولايات والأقاليم والأقطار التي انضوت تحت لوائه وبايعته بالخلافة وولّى عليها نوابه وعماله الكثير من البلاد، وقد سلف ذكر النصوص التاريخية التفصيلية عن ذلك، ونذكرها إجمالاً فيما يلي:

١ ـ ولاية عُمان: وقد ولى الخليفة القحطاني يزيد بن المهلّب على عُمان أخاه الأمير زياد بن المهلّب.

٢ ـ ولاية البحرين ومنطقة الخليج العربي، وقد ولى الخليفة القحطاني يزيد بن المهلب عليها الأمير هرم بن قرار العبدي الربيعي، وتشمل بالتسميات الحالية دولة الإمارات العربية المتحدة ودولة قطر ودولة البحرين ودولة الكويت ومنطقة الإحساء وما جاورها.

٣ ـ ولاية البصرة وتشمل إقليم البصرة بالعراق وأقاليم الأهواز وفارس وكرمان في إيران وسائر ثغور البصرة، وقد ولّي الخليفة القحطاني على البصرة وأقاليمها الأمير مروان بن المهلّب، وعلى الأُبلّة السميدع الكندي.

٤ ـ ولاية السند ومكران، وقد ولى الخليفة القحطاني عليها الأمير وَدَاع بن حُمَيد الأزدي، وكانت عاصمتها مدينة قندابيل.

٥ ـ ولاية سِجِسْتان وكرمان، وتمتد من شرق إيران إلى جنوب أفغانستان، وقد ولى الخليفة القحطاني عليها الأمير معاوية بن يزيد بن المهلب، ثم قَدِم معاوية بن يزيد إلى واسط سنة ١٠٢هـ واستخلف على سجستان أميراً من آل المهلّب.

٦ ـ ولاية خُراسان وبلاد ما وراء النهر، (وتشمل بالتسميات الحالية إقليم خُراسان في إيران وإقليم شمال أفغانستان، وجمهوريات تركمنستان وأوزبكستان وتاجيكستان) وقد استناب الخليفة القحطاني على خراسان الأمير مدرك بن المهلب، واستعمل على أقاليم خراسان وما وراء النهر ثمانية أمراء منهم (جهم بن زحر الجعفي، وعبد العزيز الزبيدي، والمنتجع بن عبد الرحمٰن الأزدي).

٧ ـ ولاية الكوفة ـ وتشمل أغلب العراق وأقاليم الريّ وأصبهان وهَمَذان وهي جبال أعالي إيران، قال الطبري: «أتى إلى ابن المهلب ناس كثير من الكوفة ومن الجبال والثغور» وكان عبد الملك بن المهلب أميراً بالكوفة، وكان من عمال أقاليم ولاية الكوفة: النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي، وحنظلة بن عتّاب بن ورقاء، ومحمد بن إسحاق بن الأشعث.

٨ ـ وكانت مدينة واسط مقر الخليفة القحطاني يزيد بن المهلب، وكان مقيماً بالبصرة

ـ من شعبان ١٠١هـ ـ وانتقل إلى واسط واستقر بها ـ في ذي الحجة ١٠١هـ ـ ونقل إليها السلاح وديوان بيت المال، قال هشام بن الكلبي: «وأحصى ديوان يزيد بن المهلب مائة وعشرين ألفاً» وهم أهل العطاء والمرتبات الذين هم بمثابة الجيش.

* * *

وقد مكث يزيد بن المهلب وهو خليفة بواسط إلى أواسط سنة ١٠٢هـ، وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب بعض أنباء تلك الفترة، قال أبو الفرج الأصفهاني: «كانت ربيعة لما حالفت اليمن وحشدت مع يزيد بن المهلب تنزل حواليه هي والأزد، فاستبطأته ربيعة في بعض الأمر، فشغبت عليه حتى أرضاها فيه، فقال ثابت قُطنة يهجوهم:

عصافيرُ تنزو في الفساد وفي الوغى ... إذا راعها روعٌ جماميحُ بروقِ[١]

أأحلم عن ديان بكر بن وائل ... وتعلق من نفس الأذى كلّ معلقِ

ألم أكُ قد قلدتكم طوق حرّة ... ونكلت عنكم فيكم كل ملصق

لعَمْرك ما استحلفت بكراً ليشغبوا ... عليّ، وما في حلفكم من معلق

.. فأنتم على الأدنى أسودٌ مخيفةٌ ... وأنتم على الأعداء خزان سملق»[٢]

وتؤكد تلك الحادثة أن ثابت قطنة كان مع يزيد بن المهلب في العراق، وقد مدحه بقصائد اختفى أغلبها.

قال أبو العباس المبرِّد: «وقال الفَرَزْدَقُ في يَزِيدَ بن المُهَلَّب:

فإذا الرجالُ رَأَوْا يَزِيدَ رأيتَهُمْ ... خُضْعَ الرِقابِ نَواكِسَ الأبْصارِ

وفي هذا البيت شيء يستطرفه النحويون وهو أنهم لا يَجْمعون ما كان من فاعِلٍ نعتاً على فَوَاعِلَ لئلا يلتبس بالمؤنث، لا يقولون: ضارِب وضَوَارب وقاتلٌ وقواتِلُ، لأنهم يقولون في جمع ضارِبةٍ ضواربُ وقاتلةٍ قواتلُ، ولم يأتِ ذلك إلا في حَرفين، أحدهما: في جمع فارِسٍ فَوَارِسْ؛ لأن هذا مما لا يُستعمَلُ في النساء، فأمِنُوا الالتباسَ. ويقولون في المَثل: هو هالكُ في الهوالِكِ فأجْرَوْهُ على أصله لكثرة الاستعمال لأنه مَثَلٌ. فلما احتاج الفرزدق لضرورة الشعر أجراه على أصله، فقال: نواكس الأبصار. ولا يكون مثل هذا أبداً إلا في ضرورة»[٣].

(١) قال الأصفهاني: «الجماميح: ما نبت على رؤوس القضب مجتمعاً، وواحده جماح فإذا دق تطاير. وبروق: نبت خفيف».
(٢) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص٥٣ جـ٣.
(٣) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص١٧٢ جـ١.

وذكر ابن جرير الطبري عن العلاء بن المنهال الغنوي عن هشام بن محمد الكلبي قال: «كان يزيد بن الحكم بن أبي العاص أتى يزيد بن المهلّب وهو بواسط فقال له:

إنْ بني مروانَ قد بَادَ مُلكُهُم   فإنْ كنتَ لم تَشعُرْ بذلك فاشعُرِ

قال يزيد: ما شعرتُ، فقال ابن الحكم بن أبي العاص:

فعِشْ مَلكاً أو مُتْ كريماً وإن تمتْ   وسَيفُكَ مشهور بِكَفك تُعْذَرِ

فقال يزيد بن المهلّب: أما هذا فعسى»[1].

قال الجاحظ: «وعن مُقاتل (وهو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني صاحب التفسير) قال: سمعتُ يزيد بن المهلب يخطب بواسط، فقال: يا أهل العراق، يا أهل السَّبق والسِّباق، ومكارم الأخلاق، إنّ أهل الشام في أفواههم لُقمةٌ دَسمة، زَبَّبَتْ لها الأشداق، وقاموا لها على ساق، وهم غير تاركيها لكم بالمِراءِ والجدل، فالبَسوا لهم جُلودَ النُّمور»[2].

قال الجاحظ: «وعن شبيب بن شَيبة قال: حدَّثني خالد بن صفوانَ قال: خَطَبنا يزيدُ بن المهلَّب بواسط فقال: إنِّي قد أسمع قول الرَّعاع: قد جاء العباس، وقد جاء أهل الشام. وما أهل الشام إلا تسعةُ أسيافٍ، سبعةٌ منها معي، واثنان منها عَليّ»[2].

وغني عن البيان أنه ـ وكما ذكر الطبري ـ «أن اليمانية هُمْ عظم جند أهل الشام»[3]. ولذلك فقد قال يزيد بن المهلّب «ما أهل الشام إلا تسعةُ أسياف، سبعةٌ منها معي، واثنان منها عَلَيَّ». ويعني بقوله: «سبعة منها معي» القادة والجنود اليمانيين القحطانيين من أهل وجند الشام، فقد كان يزيد بن المهلب يُؤمل أنهم سيكونون معه، وكان يمكن لو صاروا معه أن يتغير مسار التاريخ.

* * *

التحرك الأموي لمواجهة يزيد بن المهلب والتحرك المهلبي لمواجهة الجيش الأموي

في الوقت الذي بلغت فيه ثورة يزيد بن المهلب ومبايعته بالخلافة المدى سالف الذكر، شهدت الشام ترتيبات وتطورات مهمة كانت نتيجتها ما يذكره المسعودي في مروج الذهب من أنه «لما عظم أمر يزيد بن المهلّب واشتدت شوكته،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٥٥ جـ٨.
(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٤١٠ جـ١ وص٢٩٢ جـ١.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٣ جـ٩.

بعث إليه يزيد بن عبد الملك أخاه مَسْلمة بن عبد الملك، وابن أخيه العباس بن الوليد في جيش عظيم»(١).

وقد سبقت ورافقت ذلك أمور ثلاثة بالغة الأهمية، أولها: توطيد التحالف بين يمانية الشام والبيت الأموي المرواني، فقد تم في أوائل سنة ١٠٢هـ تغيير وتعيين عدد من الولاة والأمراء على نحو يمكن القول إنه أرضى يمانية الشام، فقد ولى يزيد بن عبد الملك الأمير اليماني بشر بن صفوان الكلبي الحميري والياً على بلاد المغرب العربي (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب) بدلاً عن يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج. كما تم تولية الأمير اليماني حنظلة بن صفوان الكلبي والياً لمصر، وتم تولية مسعود بن عوف الكلبي والياً لليمن، واستمر السمح بن مالك الخولاني والياً للأندلس، وتم تولية عبد الواحد بن عبد اللّه القسري اليماني أميراً للطائف كخطوة نحو توليته على الحجاز سنة ١٠٤هـ. وبذلك أصبح ولاة الأندلس والمغرب العربي ومصر واليمن والحجاز من يمانية الشام، ويمكن أن يكون لذلك تأثيره في موقف يمانية الشام الذين كان ابن المهلب يؤمل أن يكونوا معه، والأمر الثاني: توحيد موقف البيت الأموي المرواني إلى جانب يزيد بن عبد الملك، فقد كان الكثير منهم لا يرون جدارته بالخلافة وكان الأجدر بها هشام بن عبد الملك، فأقنعوا يزيد بن عبد الملك بأن يبايع لهشام بولاية العهد والخلافة بعده، وقد اقترن ذلك بالتحرك لمواجهة يزيد بن المهلّب، وفي ذلك قال ابن الأثير: «لما وجَّه يزيد بن عبد الملك الجيوش إلى يزيد بن المهلّب واستعمل على الجيش مَسْلَمة والعباس، قالوا له: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف، وقد توجهنا محاربين، والحوادث تحدث، ولا نأمن أن يرجف أهل العراق بموتك، فيفت ذلك في أعضادنا.. فبايع يزيد بولاية العهد لهشام بن عبد الملك»(٢). والأمر الثالث: تقويم سلوك يزيد بن عبد الملك الذي كان منهمكاً في الفساد واللهو والشراب، قال المسعودي: «فَعَذَلَهُ مسلمة بن عبد الملك لِمَا عَمّ الناس من الظلم والجور باحتجابه وإقباله على الشراب واللهو.. فارتدع يزيد عما كان عليه، فأظهر الإقلاع والندم، وأقام على ذلك مدة مديدة»(١).

وقد أتاحت تلك الأمور الثلاثة مناخاً مناسباً تم فيه استنفار وحشد جند أهل الشام والجزيرة الفراتية ومصر فاجتمع بدمشق جيش عظيم لمواجهة ومحاربة الخليفة القحطاني يزيد بن المهلب الذي قال له ابن الحكم بن أبي العاص:

إنَّ بني مروان قد بَادَ مُلكُهُم ... فإنْ كنتَ لم تَشْعُرْ بذلك فاشْعُرِ

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٢٠٧ و٢١٠ جـ٣.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١٧٨ جـ٤.

فقال: لم أشعر. فقال ابن الحكم:

عِشْ مَلكاً أو مُتْ كريماً، وإن تَمُتْ وسَيفُكَ مشهور بِكفك تُعْذَرُ

فقال يزيد بن المهلب: أما هذا فَعَسَى.

وقد بلغ يزيد بن المهلب احتشاد جيش الخليفة المرواني يزيد بن عبد الملك في دمشق للمسير إلى العراق وإن وجهتهم ستكون منطقة ومدينة الكوفة، وعندئذ وكما ذكر الطبري عن هشام بن محمد: «استشار يزيد بن المهلب أصحابه فقال: هاتوا الرأي فإن أهل الشام قد نهضوا إليكم. . فقال له حبيب بن المهلّب: الرأي أن تسرِّح خيلاً من خيلك عظيمة فتأتي الجزيرة ـ الفراتية ـ وتبادرهم إليها حتى ينزلوا حصناً من حصونها، فإذا أقبل أهل الشام يريدونك لم يَدَعُوا جنداً من جنودك بالجزيرة ويُقبلون إليك، فيقيمون عليهم، فكأنّهم حابستُهم عليك حتى تأتيهم، فيأتيك من بالموصل من قومك وينفضّ إليك أهل العراق وأهل الثغور، فتُقاتلهم في أرض رفيعة السعر، وقد جعلت العراق كلّها وراء ظهرك. فقال يزيد: إنّي أكره أن أقطّع جيشي وجندي». ويدل ذلك على أن العراق جميعها من البصرة جنوباً إلى الموصل شمالاً كانت قد انضوت تحت لواء وخلافة يزيد بن المهلّب.

قال هشام: «وقد أشار عليه غير حبيب أيضاً، فقالوا: نرى أن تخرج وتنزل بفارس، فتأخذ بالشعاب وبالعقاب وتدنو من خراسان وتطاول القوم فإن أهل الجبال ينفضون إليك وفي يدك القلاع والحصون. فقال يزيد: ليس هذا برأي، ليس يوافقني هذا، إنما تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل.

فقال له حبيب: فإنّ الرأي الذي ينبغي أن يكون: أن توجّه خيلاً عليها أهل بيتك حتى تَرِد الكوفة، فإنما فيها عبد الحميد بن عبد الرحمٰن وهو عن مواجهة خيلك أعجز، فنسبقُ إليها أهل الشام، وعظماء أهل الكوفة يرون رأيك وأن تتولى عليهم أحبّ إلى جُلّهم من أن يتولى عليهم أهل الشام». وقد وقع في هذه الرواية التباس فالكوفة كانت قد انضوت تحت لواء ابن المهلب وبايعه أهلها ـ منذ شهر ذي الحجة سنة ١٠١هـ ـ ولكن عامل الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمٰن كان قد انحاز إلى منطقة بأعالي إقليم الكوفة مع جماعة من قيس وتميم، فلم يتعرض لهم يزيد بن المهلّب ونائبه على الكوفة وهو عبد الملك بن المهلب، ويمكن على ضوء ذلك توجيه الرأي الثالث الذي أدلى به حبيب بأنه مواجهة جند أهل الشام في منطقة إقليم الكوفة، وهو الرأي الذي به أخذ يزيد بن المهلّب، فقرر بقاء قوة بمدينة الكوفة مع الأمير عبد الملك، واستنفار الجند والقادة والناس للقدوم إليه في مدينة واسط والمسير معها لمواجهة الجيش الزاحف من الشام إلى إقليم الكوفة، وقد ذكر الطبري

وابن الأثير أنه «قَدَّم يزيد أخاه عبد الملك نحو الكوفة»، فمكث عبد الملك أميراً قائداً بالكوفة، وتم استنفار الجند والقادة والناس فأقبلوا إلى خليفتهم القحطاني يزيد بن المهلب من أقاليم العراق والمشرق والثغور، وفي ذلك قال ابن الأثير: «أتى إلى ابن المهلّب ناس من أهل الكوفة كثير ومن الثغور». وقال ابن جرير الطبري: «أتى إلى يزيد بن المهلب في واسط ناسٌ من الكوفة كثير ومن الجبال، وأقبل إليه ناس من الثغور. قال العلاء بن زهير: والله إنّا لجلوس عند يزيد ذات يوم إذْ قال: أترون أن في هذا العسكر ألف سيف يُضرب به؟ فقال حنظلة بن عتّاب: إي والله وأربعة آلاف سيف. فقال يزيد: إنهم والله ما ضربوا بألف سيف قطّ، والله لقد أحصى ديواني مائة وعشرين ألفاً، والله لوددتُ أن مكانهم الساعة معي مَن بخراسان من قومي..

قال العلاء بن زهير: ودخل علينا عامر بن العَمَيْثل رجل من الأزد قد جمع جموعاً، فأتاه، فبايعه. وكانت بيعة يزيد بن المهلب: تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وعلى أن لا تطأ الجنودُ بلادَنا ولا بيضتَنا ولا يُعاد علينا سِيرة الفاسق الحجاج، فَمَن بايعنا على ذلك قبلنا منه، ومن أبَى جاهدناه أو جعلنا الله بيننا وبينه، ثم يقول: تبايعونا، فإذا قالوا: نعم، بايعهم..» وقد كانت تلك المبايعة في بداية الثورة، أما في سنة ١٠٢هـ فكانت الأمور قد تجاوزت ذلك وأصبح يزيد بن المهلّب خليفة وأمير للمؤمنين بالعراق والخليج العربي وعُمان وفارس وخراسان والسند وغيرها من أقاليم المشرق، فكان عامر بن العَمَيْثَل الأزدي من الشخصيات والقادة الذين أقبلوا إلى خليفتهم القحطاني في واسط على رأس كتيبة من الفرسان وكان قدومه من جهات ولاية البصرة، وربما من عُمان، وكان من أعلام القادة والشخصيات الذين أقبلوا إلى يزيد بن المهلب في واسط الأمير اليماني القائد النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي المذحجي حفيد الأشتر النخعي صاحب الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والأمير اليماني القائد محمد بن إسحاق بن الأشعث الكندي حفيد الأشعث بن قيس صاحب رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ابن أخي ناصر المؤمنين الخليفة الثائر عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي، والأمير اليماني القائد عبد الله بن سفيان بن يزيد بن المُغْفَل الأزدي وهو صهر ناصر المؤمنين عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي. والفقيه القارئ السميدع الكندي عامل يزيد بن المهلّب على منطقة وميناء الأَبُلة، وكان السميدع من الخوارج فانضوى مع أصحابه تحت لواء ابن المهلب، وكذلك كان ممن قَدِم إليه: «أبو رؤبة وكان رأس طائفة من المرجئة ومعه أصحاب له». قال الطبري: «وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة ـ أميراً عليها ـ يحثّ الناس على حرب أهل الشام ويسرّح الناس إلى يزيد بن المهلب ـ في واسط ـ وكان الحسن البصريُّ يثبط الناس عن يزيد بن المهلّب وكان يقول في

تلك الأيام: أيها الناس الزموا رحالكم وكفوا أيديكم ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة.. ألا إنه لم تكن فتنةٌ إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء وأهل التّيه والخُيلاء وليس يسلم منها إلا المجهول الخفيّ والمعروف التقي، فمن كان منكم خفياً فليلزم الحق وليحبس نفسه عما يتنازع الناسُ فيه من الدنيا..» ويتبين من ذلك أن الحسن البصري كان يثبط الناس عن الفريقين فكان يدعو إلى الاعتزال، ولم يتعرض له مروان بن المهلّب بأي سوء، ولم يدَع الحسنُ كلامه ذاك، وتركه مروان يقولُ ما يشاء، واستمر مروان يحثّ الناس على المسير إلى يزيد بن المهلّب فتدفقوا إليه من أرجاء ولاية البصرة إلى واسط.

قال الطبري: «قال العلاء بن زهير: قام يزيد ن المهلب ذاتَ يوم ـ ونحن في واسط ـ فحرّضَنا ورَغّبنا في القتال ثم قال لنا فيما قال: إن هؤلاء القوم لن يَرُدَّهم عن غيّهم إلا الطعن في عيونهم والضرب بالمشرفية على هامهم، ثم قال: إنه قد ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء ـ يعني مَسْلمة بن عبد الملك ـ وعاقر ناقة ثمود ـ يعني العباس بن الوليد وكان العباس أزرق أحمر كانت أمه رومية ـ واللّه لقد كان سليمان بن عبد الملك أراد أن ينفيه حتى كلمتُه فيه فأقرّه على نسبه، فبلغني أنه ليس هَمّهُما إلا التماصي في الأرض، واللّه لو جاؤوا بأهل الأرض جميعاً وليس إلا أنا ما برحتُ العرصةَ حتى تكون لي أو لهم».

وقال الجاحظ في البيان والتبيين: «قال خالدُ بن صفوان: خطبنا يزيدُ بن المهلّب بواسط فقال: إنّي قد أسمع قول الرَّعاع: قد جاء مَسْلمة، وقد جاء العباس[١]، ـ وقد جاء أهل الشام، وما أهلُ الشام إلا تسعةُ أسيافٍ، سبعةٌ منها معي، واثنان منها عَلَيَّ ـ. وأما مَسْلَمة فَجَرَادَةُ صفراء، وأما العباس فنسطوس ابن نسْطوس[٢]، أتاكم في برابرةٍ وصقالبة وجرامقة وجَراجمة[٣] وأقباط وأنباط وأخلاط، إنما أقبل إليكم الفلاحون الأوباش كأشلاءِ اللُّجم[٤]، واللّه ما لَقُوا قوماً قطُّ كحدِّكم

(١) جاء في الهامش «مَسْلمة هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان، قال ابن قتيبة في المعارف: كان مسلمة يكنى أبا سعيد، ويلقب بالجرادة الصفراء، لصفرة كانت تعلوه، وكان شجاعاً.. وأما العباس فهو العباس بن الوليد وكان يسمى فارس بني مروان، وكانت أمه نصرانية».

(٢) جاء في الهامش «نسطوس ابن نسطوس: إشارة إلى أن أمه كانت رومية نصرانية. وفي التيمورية: طبيب ابن طبيب. وليس بشيء».

(٣) جاء في الهامش: «في القاموس (جرجم: قوم من العجم بالجزيرة)» أي الجزيرة الفراتية وكانت تمتد إلى جنوب تركيا.

(٤) جاء في الهامش: «الأوباش: وهم الأخلاط وسفلة الناس. واللجم: جمع لجام، وأشلاء اللجام: حدائده بلا سيور..».

وحديدكم، وعَدِّكم وعديدكم. أعِيروني سواعدَكم ساعةً من نهار تصْفِقُون بها خراطيمَهم[١]، فإنما هي غَدوةٌ أو رَوحةٌ حتى يحكمَ اللّه بيننا وبين القوم الفاسقين»[٢].

وقد اقتصر يزيد بن المهلّب على ذم الجيش الذين بقيادة العباس بن الوليد بن عبد الملك والذين كانوا برابرةً وصقالبة وجرامقة وجراجمة وأقباطاً وأنباطاً وأخلاطاً من الناس، وأما الجيش الذين بقيادة مسلمة بن عبد الملك فقد كانوا من جند أهل الشام والجزيرة الفراتية، وكانت غالبيتهم من اليمانية. وقد أقبل العباس بجيشه قاصداً مدينة الكوفة، وأقبل مَسْلَمة بن عبد الملك بجيشه يسير على شاطئ الفرات حتى نزل الأنبار، وقد وصف المسعودي الجيشين اللذين مع مسلمة والعباس بأنه «جيش عظيم»، وقال ابن خلدون: (سار مسلمة والعباس إلى العراق في سبعين ألف مقاتل أو ثمانين ألفاً من أهل الشام والجزيرة الفراتية). وسار يزيد بن المهلّب بجيشه من واسط قاصداً الأنبار، وكان معه فيما يقال مائة ألف مقاتل وعشرون ألفاً، والأصوب أن نحو عشرين ألفاً من جيشه كانوا مع عبد الملك بن المهلب بالكوفة، فكان مع يزيد زهاء مائة ألف اجتمعوا إليه في واسط. قال الطبري: «استخلف يزيد على واسط حين أراد الشخوص عنها للقاء مَسْلمة بن عبد الملك ابنه معاوية وجعل عنده بيت المال والخزائن والأسرى. ثم سار يزيد حتى مرّ بفم النيل ثم سار حتى نزل العقر، وأقبل مسلمة حتى نزل الأنبار ثم عقد عليها الجسر فعبر مِنْ قِبَلِ قرية يقال لها فارط ثم أقبل حتى نزل على يزيد بن المهلب ـ يعني في مواجهة معسكر يزيد بالعقر، وسار العباس إلى الكوفة ـ»[٣].

* * *

نهايات ثورة وخلافة ابن المهلّب

أولاً: موقعة الكوفة وانهزام العباس

كان عامل يزيد بن عبد الملك على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمٰن قد انحاز إلى منطقة مما يلي الكوفة وعسكر فيها مع جماعة قيس وتميم الذين انهزموا وهربوا من البصرة لما انضوت تحت لواء ابن المهلّب، فلما أقبل مَسْلمة والعباس

(١) الصفق: الضرب، صفقه بالسيف إذا ضربه. والخرطوم: الأنف، أو مقدمته. وقال أعشى همدان في عبد الرحمٰن بن الأشعث:

وصفقتُ في كفّ امرىء جَلْدٍ إذا ما الأمر عَبَّى

(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٢٩٣ جـ٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٥١ جـ٨.

بجيش الشام ـ وكما ذكر الطبري: «بعث عبد الحميد بعثاً من أهل الكوفة الذين معه إلى مَسْلمة بن عبد الملك عليهم سيف بن هانئ وسبرة بن عبد الرحمٰن، فأثنى عليهم مسلمة بطاعتهم وقال: ضمّوا إلى سبرة من كان ههنا من أهل الكوفة والبصرة. وبعث مسلمة إلى عبد الحميد فعزله، وبعث محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط مكانه» فسار مع فلول القيسية وتميم الذين هربوا من البصرة والكوفة فانضموا إلى جيش العباس بن الوليد الذي تقدم إلى الكوفة ـ قال الطبري ـ: « . . وقد قَدّم يزيد بن المهلب أخاه عبد الملك نحو الكوفة، فاستقبله العباس بن الوليد في سُورا، فاصطفوا، ثم اقتتل القوم ـ أي أصحاب عبد الملك وأصحاب العباس ـ فشدّ عليهم (عبدالملك) شدَّة كشفهم فيها، وقد كان معهم ناس من بني تميم وقيس ممن انهزم من يزيد من البصرة فكانت لهم جماعة حسنة مع العباس فيهم هريم بن أبي طحمة المجاشعيّ، فلما انكشف أهل الشام تلك الانكشافة، ناداهم هريم بن أبي طحمة: يا أهل الشام اللَّه اللَّه أن تُسْلمونا. وقد اضطرهم أصحاب عبد الملك إلى نهر». وقال ابن الأثير: «قَدَّم يزيد أخاه عبد الملك بن المهلب نحو الكوفة فاستقبله العباس بن الوليد بسورا، فاقتتلوا، فحمل عليهم أصحاب عبد الملك حملة كشفوهم فيها، ومعهم ناس من تميم وقيس من أهل البصرة ممن انهزم عن يزيد، فنادوا: يا أهل الشام اللَّه اللَّه أن تُسْلمونا، وقد اضطرهم أصحاب عبد الملك إلى نهر».

وبذلك أسفرت الموقعة عن انهزام العباس بن الوليد وجيشه وتقهقروا قاصدين مَسْلمة في الأنبار، بينما حوصر الذين كان معهم من تميم وقيس عند نهر بمنطقة سورا فلم يتمكنوا من الهروب، فنادوا العباس وجيشه المنهزم: اللَّه اللَّه لا تُسْلمونا. وقد جاء في الرواية التي ذكرها الطبري أنه: «ثم كرّ أهل الشام فكشفوا أصحاب عبد الملك وهزموهم، وقُتِل المنْتُوف من بكر بن وائل مولى لهم. .» وذلك إنما كان عند النهر الذي حوصر فيه القيسية والتميمية، فاستنقذوهم، ومضوا منهزمين إلى مسلمة، ولم ينتصر أو يدخل أهل الشام الكوفة إلا بعد موقعة العقر، وقد ذكر الطبري بعد قوله: «وقُتِل المنْتُوف من بكر بن وائل مولى لهم» أنه «فقال الفرزدق يحرّض بكر بن وائل:

تَبَكي على المنتوفِ بكرُ بن وائل	وتَنْهَى عَنِ ابنيْ مِسْمَعٍ مَنْ بَكاهُمَ
غُلَامَينِ شَبَّا في الحروبِ وأدركا	كِرَامَ المساعي قبلَ وصلِ لحاهُمَا
ولـو كـانَ حيًّا مـالِكٌ وابـنُ مـالـكٍ	إذاً أوقدوا نـاريـنِ يَعْلـو سَنَـاهُمَـا

وابنا مِسمع مالك وعبد الملك قتلهما معاوية بن يزيد بن المهلب». ويتبين من ذلك أن كرّة أهل الشام ومقتل المنتوف كانت بعد موقعة العقر لأن مقتل ابنيْ

مِسْمَع كان بعد ذلك وسيأتي نبأ قتل معاوية بن يزيد إياهما في واسط، ومما يؤكد ذلك أن العباس بعد انهزامه في سورا مضى بجيشه عائداً إلى مسلمة في الأنبار، قال الطبري: «وسار عبد الملك بن المهلب من الكوفة حتى انتهى إلى أخيه بالعقر». وكذلك انطلق جند الكوفة وأخذوا أماكنهم في جيش ابن المهلب بالعقر.

ثانياً: موقعة العَقْر ومقتل يزيد بن المهلّب

لما سار يزيد بن المهلب من وساط وسار مَسْلمة بن عبد الملك من الأنبار، نزل يزيد بمنطقة يُقال لها العقر، وعقد مَسْلمة جسراً فعبر من الأنبار من عند قرية يقال لها فارط فنزل في مواجهة معسكر يزيد بن المهلب، فبات كل من الجيشين بمعسكره في مواجهة الآخر، وقام يزيد بتعبئة وتنظيم جيشه، حيث ذكر الطبري وابن الأثير أنه «جعل يزيد بن المهلب على أرباع أهل الكوفة الذين خرجوا إليه قادة وأمراء، فجعل على ربع أهل المدينة عبد اللّه بن سفيان بن يزيد بن المغفل الأزدي، وعلى ربع مذحج وأسد النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي. وعلى ربع كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن الأشعث الكندي، وعلى ربع تميم وهمدان حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمي. وجمعهم جميعاً مع المفضل بن المهلّب» وذلك في ميسرة الجيش، بينما جعل جند أهل ولاية البصرة والثغور ميمنة الجيش. قال الطبري: «وكانت إقامة يزيد بن المهلّب منذ اجتمع هو ومَسْلمة ثمانية أيام» يعني بدون قتال، وذلك أنه كان في جيش يزيد بن المهلب جماعة من الفقهاء القُراء، فنادوا مَسْلمة بن عبد الملك وأهل الشام إلى كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، فزعموا أنهم قابلون ذلك، واستمهلوهم.

قال الجاحظ: «وكتب مَسْلَمة بن عبد الملك إلى يزيد بن المهلّب: إنّك واللّه ما أنت بصاحب هذا الأمر، صاحبُ هذا الأمر مغمورٌ مَوتُور وأنت مشهور غير موتور. فقال له رجل من الأزد يُقال له عثمان بن المفضل: قَدِّم ابنك مَخْلداً حتى يُقتل فتصير موتوراً»[١]. وقد سلف ذكر وفاة مخلد بن يزيد في خلافة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة للهجرة، مما يدل على وقوع التباس في رواية الجاحظ وأن الأصوب «قَدِّم ابنك خالداً..»؛ لأنه الذي كان على قيد الحياة سنة ١٠٢هـ، وقد جاء في رواية ذكرها الطبري أن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن حبس خالد بن يزيد وحَمّال بن زحر الجعفي بالكوفة عند بداية ثورة يزيد بن المهلب وأرسلهما إلى يزيد بن عبد الملك بالشام، ويبدو عدم صحة ذلك، وربما كان عبد الحميد قد حبسهما ثم خرجا عند انضواء الكوفة تحت لواء يزيد بن المهلّب بدليل وجود خالد مع أبيه في العقر حين قال عثمان: «قدِّم ابنك خالداً..». وغنيٌّ عن البيان أن قول

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٢٤٠ جـ٢.

مسلمة ليزيد بن المهلّب «إنك واللّه ما أنت بصاحب هذا الأمر . . إلخ» قد يعني أنّك لست القحطاني المنتظر الذي سيسوق الناس بعصاهُ، وقد سلف ذكر الحديث النبوي عن القحطاني وأن ابن المهلب تسمى بالقحطاني، وقد يكون المقصود: إنّك لست الذي على يده سينتهي حكم بني أمية.

وخلال الأيام الثمانية التي زعم فيها مَسْلمة بن عبد الملك وجند أهل الشام أنهم قابلون تحكيم الكتاب والسنّة استشعر يزيد بن المهلّب أنهم إنما طلبوا المهلة لتدبير مكيدة، ورأى المبادرة بما ذكره هشام قائلاً: «دعا يزيد بن المهلّب رؤوس أصحابه فقال لهم: قد رأيتُ أن أبعث محمد بن المهلّب في اثني عشر ألف رجل حتى يبيّتوا مَسْلَمة، ويحملوا معهم البراذع والأكف والزُبُل لدفن خندقهم، فيقاتلهم على خندقهم وعسكرهم بقية ليلتهم، وأمدّه بالرجال حتى أُصبح، فإذا أصبحتُ نهضتُ أنا إليهم بالناس فنناجزهم فإنّي أرجو عند ذلك أن ينصرنا اللّه عليهم. فقال السَّمَيدع: إنّا قد دعوناهم إلى كتاب اللّه وسنّة نبيه محمد ﷺ وقد زعموا أنهم قابلوا هذا منّا فليس لنا أن نمكر ولا نغدر ولا نريدهم بسوء حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا. وقال أبو رؤبة وكان رأس طائفة من المرجئة ومعه أصحابٌ له: صَدَقَ هكذا ينبغي. فقال يزيد بن المهلب: ويحكم أتصدّقون بني أمية؟ . . إنما أرادوا أن يكفوكم عنهم حتى يعملوا في المكر، فلا يسبقوكم إلى تلك، فابْدأوهم بها، إنِّي قد لَقَيْتُ بني مروان فواللّه ما لقيت رجلاً هو أمكر ولا أبعد غوراً من الجرادة الصفراء يعني مَسْلمة. فقالوا: لا نرى أن نفعل ذلك حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منّا».

بينما قام مَسْلمة باتصال سري غير مباشر بجماعة تميمية في جيش يزيد بن المهلّب لينهزموا بالناس وقام بترتيب جماعة يقومون بإحراق الجسر، وبعد أن أتم الترتيب لذلك، تقدم بجيش أهل الشام للقتال، قال الطبري وهشام الكلبي: «لما كان يوم الجمعة لأربع عشر خلت من الشهر، خرج مسلمة فعبّى جنود أهل الشام ثم ازدلف بهم نحو يزيد بن المهلّب، وجعل مَسْلمة على ميمنته جَبَلَة بن مخرمة الكندي، وعلى ميسرته الهذيل بن زُفر بن الحارث العامري، وجعل العباس بن الوليد على ميمنته سيف بن هانئ الهمداني وعلى ميسرته سويد التميمي. وخرج إليهم يزيد بن المهلّب وقد جعل على ميمنته حبيب بن المهلب ـ ومعه أهل البصرة ـ وعلى ميسرته المفضل بن المهلب ومعه أهل الكوفة وهو عليهم، ومعه خيل لربيعة معها عددٌ حسن، وكان المفضل مما يلي العباس بن الوليد.

فخرج رجل من فرسان الشام فدعا إلى المبارزة، فبرز له محمد بن المهلّب فحمل عليه فاتقاه الرجلُ بيده وعلى كفّه كفٌّ من حديد فضربه محمد فقطع كفّ

الحديد وأسرع السيف في كفه واعتنق فرسه، وأقبل محمد يضربه ويقول: المِنجَل أعوَدُ عليك. فذكر الغنوي أنه حيّان النبطي. ثم اقتتل الفريقان ونشبت الحرب ولم يشتد القتال، فإذا بالجسر يحترق، وكان مَسْلمة قد بعث إلى الوضّاح أن يخرج بالوضاحيّة والسفن حتى يحرق الجسر، فلما دنا الوضاح من الجسر أُلهب فيه النار فسطح دخانه، فلما رأى الناسُ ـ أي أهل العراق ـ الدخان وقيل لهم: أُحرق الجسر، انهزموا. فقالوا ليزيد: قد انهزم الناس، قال: ومما انهزموا هل كان قتالٌ يُنهزم من مثله، فقيل له: قالوا أُحرق الجسر فلم يثبت أحد، قال: قبحهم اللَّهُ بَقٌّ دُخِّن عليه فطار. وقال لناس من فرسانه ومواليه وناس من قومه: اضربوا وجوه من ينهزم، ففعلوا ذلك بهم حتى كثروا عليهم، إذْ كان المنهزمون مثل الجبال، فقال يزيد: دَعُوهم فواللَّه إني لأرجو أن لا يجمعني اللَّه وإياهم في مكان واحدٍ أبداً، دعوهم يرحمهم اللَّه غَنَمٌ عدا في نواحيها الذئب. ولما رأى يزيد ما حدث قال للسَّمَيدع: يا سَمَيْدَعُ أرأيي أم رأيك ألم أعلِمْك ما يريد القوم؟ قال: بَلَى واللَّه كان الرأي رأيك وأنا ذا معك لا أزايلك فمُرْني بأمرك، قال: أمّا الآن فانزل، فنزل في أصحابه ـ يقاتلون ـ، وبقيت مع يزيد جماعةٌ حسنةٌ.

قال ابن خلدون: «واعترض يزيد أصحاب مَسْلمة يضرب في وجوههم حتى كثروا عليه فرجع، ثم ترجّل في أصحابه، وقيل له: قُتِل أخوك حبيب، فقال: لا خير في العيش بعد حبيب، واللَّه لقد كنت أبغَض العيش مع الهزيمة، فواللَّه ما ازددت لها إلا بغضاً. .». وقد كان حبيب بن المهلّب سيفا من سيوف اللَّه في فتوحات كرمان وبُخارى وما وراء نهر جيحون أيام المهلّب، ثم كان والياً لبلاد السند (باكستان) في خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز سنة ٩٦ ـ ١٠٠هـ ولم يزل من الأمراء القادة إلى أن قُتل في موقعة العقر، فلما علم يزيد بمقتله قال: لا خير في العيش بعد حبيب. قال ثابت مولى زهير بن سلمة الأزدي: «أشهد أني أسمعه حين قال: لا خير في العيش بعد حبيبٍ قد كنتُ أبغضُ العيش بعد الهزيمة فواللَّه ما ازددتُ له إلا بغضاً، وقال لأصحابه: امضوا قُدماً، فعلمنا واللَّه أنه قد استقتل، فأخذ من يكره القتال ينكص وأخذوا يتسللون وبقيت معه جماعةٌ حسنةٌ وهو يزدلفُ فكلّما مر بخيل كشفها أو جماعة من جند الشام عدلوا عنه، ـ ورجع إلى مكانه ـ فجاء أبو رُؤبة المرجيء فقال له: هرب الناسُ، فهل لك أن تنصرف إلى واسط فإنها حصنٌ فتنزلها ويأتيك مَدَدُ أهل البصرة ويأتيك أهل عُمان والبحرين في السُفن وتضربُ خندقاً. فقال له يزيد بن المهلّب: قَبّح اللَّهُ رأيك ألِي تقول هذا، الموتُ أيسر عليّ من ذلك. فقال له رؤبة: إنِّي أتخوفُ عليك أما ترى ما حولك من

جبال الحديد ـ وهو يشير إلى جيش الشام ـ فقال له يزيد: أما أنا فما أباليها جبال حديد كانت أم جبال نار.. ثم تمثل يزيد بقول أعشى همدان (شاعر ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث):

أَبِالموتِ خَشتني عِبَادُ وإنما رأيتُ مَنايَا الناسِ يَشقَىٰ ذَلِيلُها
فما مِيتَةٌ إن مِتُّهَا غيرَ عاجِزٍ بعارٍ إذا ما غالَتِ النَّفْسَ غُولها»

وقال أبو العباس المبرِّد: «إن قول المفضل بن المهلب: ما هي إلا رقدَةٌ تُورِثُ العُلَى، فهذا مأخوذ من قول أخيه يزيد بن المهلّب، وذلك أنه قال في يوم العَقْر وهو اليوم الذي قُتل فيه: قَاتَل اللَّه ابنَ الأشْعَث ما كان عليه لو غَمَّضَ عينيه ساعة للموت ولم يكن قَتيلَ نَفْسِهِ». (ص١٨٢/ ١). قال ابن خلدون: «ثم دلف يزيد بن المهلّب إلى مَسْلَمة بن عبد الملك لا يريد غيره، فعطف عليه جند الشام فقتلوه هو وأصحابه الذين حملوا معه وفيهم أخوه محمد..» قال الطبري: «وكان يزيد بن المهلّب على برذون له أشهب (وقال المسعودي: كان على فرس أبلق) فأقبل نحو مَسْلمة لا يريد غيره حتى إذا دنا منه أدنى مَسْلَمة فرسه ليركب، فعطف على يزيد خيول أهل الشام وعلى أصحابه.. وكان على رأس خيول الشام القَحل بن عياش الكلبي.. فاضطربوا ساعة وانفرج الفريقان عن يزيد بن المهلب قتيلاً وعن القحل بن عياش بآخر رمق، فأومى إلى أصحابه يريهم مكانَ يزيد يقول لهم: أنا قتلتُه، وأومَى إلى نفسه أنه: هو قَتَلني، وسقط القحل صريعاً إلى جنب يزيد، وقُتل معه محمد بن المهلّب والسميدع الكندي». قال أبو الفرج الأصفهاني: «وكان ثابت قُطنة مع يزيد بن المهلّب في يوم القعر، فلما خذله أهل العراق وفروا عنه فَقُتِل، قال ثابت قطنة يرثيه:

كل القبائل تابعوك على الذي تَدْعُو إليه وبايعوك وساروا
حتى إذا حَمَسَ الوغىٰ وجعلتهم نُصْبَ الأسنةِ، أَسْلَمُوكَ وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عاراً عليك وبَعْضُ قتلِ عارُ»[1]

وقال المسعودي في مروج الذهب « ..فقُتل يزيد بن المهلب في المعركة.. ففي ذلك يقول الشاعر (وهو ثابت قُطنة):

كل القبائل بايعوك على الذي تَدْعُو إليه طائعين وساروا
حتى إذا حضر الْوَغَى وجعلتهم نُصْبَ الأسنةِ أسلموك وطاروا

---

(١) قال الأصفهاني «ورويَ (وربَّ قتل عار) وهذه رواية ابن هشام في المُغني. قال السيوطي: وقوله رب قتلِ عارُ على تقدير هو عارُ».

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عاراً عليك، وبعضُ قتلٍ عارُ»
(ص٢١١/ ٣).

وقال الجاحظ في البيان والتبيين: «قال رجلٌ عند مَسْلمة: ما استرحْنَا من حائك كِندةً حتى جاءنا هذا المزُونيّ، فقال له مسلمة: أتقول هذا لرجل سار إليه قريعا قريش، إنّ يزيد بن المهلّب حاولَ عظيماً ومات كريماً». وجاء في الهامش: (يعني بحائك كندة عبد الرحمٰن بن الأشعث ولم يكن حائكاً ولكنه من اليمن وكان النسج الرفيع باليمن، ويعني بالمزوني يزيد بن المهلّب، والمزون، بالفتح والضم: اسم لأرض عمان وأهلها من الأزد، وذلك أن جدهم الأعلى مازن بن الأزد». ويعني مَسْلَمة بقوله: سار إليه قريعا قريش، نفسه والعباس بن الوليد، ثم قال: إن يزيد بن المهلّب حاول عظيماً، يعني حاول أن يكون خليفة المسلمين، بل وبايعته بالخلافة شعوبٌ وبلدان كثيرة، ومات كريماً موتة الزعماء العظماء في ميدان المعركة بالعقر سنة ١٠٢ هجرية الموافق ٧٣٠ ميلادية وهو في الخمسين من عمره الحافل بالفتوحات والأمجاد والمآثر الخالدة.

ثالثاً: استمرار المواجهة بقيادة المفضل بن المهلّب

قال ابن خلدون: «وكان المفضل بن المهلب يقاتل في ناحية المعترك وما علم بمقتل يزيد» ـ وذلك لأن منطقة العقر كانت منطقة شاسعة ـ[1] وكان المفضل على رأس فرسان أهل الكوفة الذين كان من قادتهم النعمان النخعي ومحمد بن إسحاق بن الأشعث وسفيان بن عبد اللّه بن المغفل الأزدي وعثمان بن إسحاق بن الأشعث الكندي، وكان مع المفضل خيل لربيعة معها عددٌ حسنٌ من فرسان ربيعة، وكان المفضل يواجه العباس بن الوليد وجيشه في منطقة من أرض العقر، قال الطبري: «وكان المفضل بن المهلب يقاتل أهل الشام ما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة الناس. قال ثابت مولى زهير: وكان المفضل على برذون شديد قريب من الأرض وأن معه لمجففة أمامه فكلما حمل عليها نكصت وانكشفت، فيحمل في ناس من أصحابه حتى يخالط القوم ثم يرجع حتى يكون من وراء أصحابه، وكان لا يرى منّا ملتفتاً إلا أشار إليه بيده ألا يلتفت ليقبل القوم بوجههم على عدوّهم ولا يكون لهم همٌّ غيرهم. ثم اقتتلنا ساعة فكان عامر بن العَمَيْثَل الأزدي يضرب بسيفه وهو يقول:

قد عَلِمتْ أمُّ الصَّبِيِّ المولودْ أني بِنصْلِ السَّيفِ غَيرُ رِعْدِيدْ

ثم اضطربنا ساعةً فانكشفت خيل ربيعة، فاستقبل المفضل ربيعة بالسيف

---

(١) جاء في هامش البيان والتبيين: أن منطقة العقر من أرض بابل. ص٤١٠ جـ٢.

يناديهم: أي معشر ربيعة الكرّةَ واللّه ما كنتم بكُشُف ولا لئام ولا هذه لكم بعادة فلا يؤتينّ أهل العراق اليوم من قِبَلكم، فاجتمعوا حوله وثابوا إليه وقالوا: جاءت كُوَيْفتك. فما رأيتُ رجلاً من العرب مثل منزلة المفضل، كان أغشى للناس بنفسه ولا أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة لأصحابه منه. فاجتمعنا ونحن نريد الحملة على القوم، فأتى رجل فقال له: ما تصنع ههنا وقد قُتِل يزيد وحبيب وانهزم الناس منذ طويل، وأخبر الناس بعضهم بعضاً فتفرّقوا، ومَضَىٰ المفضل إلى واسط».

وقد سلف ذكر أن رؤبة المرجئي كان قد أشار على يزيد بن المهلب بالانسحاب إلى واسط، فلم يقبل ذلك الرأي وخاض غمار المعركة حتى قُتل. قال ابن خلدون: «وجاء أهل الشام إلى عسكر يزيد، فقاتلهم رؤبة رأس طائفة من المرجئة ومعه جماعة منهم قتال صدق ساعة من النهار ثم انصرفوا». فقد يكون رؤبة انصرف إلى المفضل والذين معه، فأخبر المفضل بمقتل يزيد وانهزام الناس، وعندئذ انسحب المفضل ومعه جماعة من القادة والجيش إلى مدينة واسط، فانتهت بذلك موقعة العقر، وقد جاء في رواية ذكرها الطبري أن موقعة العقر كانت في ١٤ صفر سنة ١٠٢هـ وشاع ذلك التحديد في بقية المصادر. وبعث مُسْلمة رأس يزيد بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك، ورجع العباس بن الوليد مع أغلب جند أهل الشام إلى الشام ثم سار إلى حلب أميراً عليها، بينما مكث مسلمة أميراً بالعراق ومعه فرقة من جيش الشام حيث تواصلت المواجهة والأحداث بالعراق إلى حوالي شهر رجب وشعبان سنة ١٠٢هـ.

أحداث واسط والكوفة والبصرة بعد موقعة العقر

كان معاوية بن يزيد بن المهلب نائباً لأبيه في مدينة واسط (عاصمة ومقر أمير العراق) عندما انسحب إليها المفضل بن المهلب والذين معه من القادة والجند بعد موقعة العقر، ثم سار المفضل إلى مدينة البصرة فبايعه آل المهلب وقادة وجند يزيد بن المهلّب، وكان المفضل أميراً قائداً شجاعاً وفيه قال الشاعر ثابت قُطنة الأزدي:

كان المُفَضَّلُ عزاً في ذوي يَمَنٍ   وعصمة وثمالاً في المساكينِ

ومكث معاوية بن يزيد بن المهلب أميراً في واسط، أما مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان فلم يتوجه بعد موقعة العقر إلى واسط أو البصرة، وإنما سار إلى مدينة الحيرة ـ في نفس إقليم الكوفة ـ وبعث محمد بن عمرو بن الوليد المعيطي الأموي إلى مدينة الكوفة. وقد اقتصرت الروايات على ذكر خبر الأسرى لأهمية ذلك، فقد ذكر الطبري من طريق ثابت مولى زهير أنه «أسر أهل الشام نحواً

من ثلاثمائة رجل (في العقر) فسرحهم مسلمة إلى محمد بن عمرو بن الوليد فحبسهم بالكوفة» ثم ذكر الطبري وكذلك ابن الأثير أنه « . . وسار مسلمة حتى نزل الحيرة ومعه نحو من خمسين أسيراً لم يكونوا فيمن بعث بهم إلى الكوفة».

وقد سبقت دخول محمد بن عمرو المعيطي وجند الشام مدينة الكوفة معركة مع قوة من أصحاب يزيد بن المهلب بقيادة المنتوف، وهي التي دمجتها رواية الطبري في موقعة الكوفة بين عبد الملك بن المهلب والعباس بن الوليد قبل موقعة العقر، والأصوب أنها بعد ذلك لأن قائد جيش ابن المهلب في الموقعة الأولى كان عبد الملك بينما في هذه الموقعة كان المنتوف قائد أصحاب ابن المهلب، وفي ذلك قال أبو العباس المبرّد: «كان المنتوف مولى لبني قيس بن ثعلبة ـ من بني بكر بن وائل ـ وكان المنتوف كالخليفة ليزيد بن المهلب. وفي ذلك يقول جرير:

والأَزْدُ قد جَعلوا المنتوفَ قائدهم ... فَقَتَّلَتْهُمْ جنُود اللَّه وانتُتِفوا»

فبعد مقتل المنتوف والذين معه على يد جند الشام استلم محمد بن عمرو المعيطي مدينة الكوفة، فيكون ذلك في شهر ربيع ١٠٢هـ. وعندئذ ـ غالباً ـ كان اعتقال خالد بن يزيد بن المهلب وحمّال بن زحر الجعفي بالكوفة وتم بعثهما إلى يزيد بن عبد الملك فحبسهما في الشام، بينما حبس محمد بن عمرو المعيطي الثلاثمائة أسير ـ سالفي الذكر ـ بالكوفة. قال الطبري:

«وجاء كتابٌ من يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو: أن اضرب رقاب الأسرى. فقال للعريان بن الهيثم وكان صاحب شرطته: أخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين، فقام نحو من ثلاثين رجلاً من بني تميم فقالوا: نحن انهزمنا بالناس فاتقوا اللَّه وابدأوا بنا أخرجونا قبل الناس. فقال لهم العريان: أخرجوا على اسم اللَّه فأخرجهم إلى المصطبة وأرسل إلى محمد بن عمرو يخبره بمقالتهم، فبعث إليه: أن أضرب أعناقهم. قال أبو عبد اللَّه نجيح: واللَّه إني لأنظر إليهم يقولن: إنّا للَّه انهزمنا بالناس وهذا جزاؤنا. فما هو إلا أن فرغ من قتلهم، حتى جاء رسولٌ من عند مسلمة بن عبد الملك فيه عافية الأسرى والنهيّ عن قتلهم. فقال حاجب بن ذبيان التميمي:

لعَمْري لقد خاضت معيطٌ دِماءَنا ... بأسيافها حتى انتهى بهمُ الوحلُ
وما حُمّلَ الأقوامُ أعظَمَ مِنْ دَمٍ ... حرام ولا ذحلٍ إذَا التُمسَ الذَّحْلُ
حَقَنْتُم دِماء المُصْلِتِين عليكُمُ ... وجُرَّ على فُرسانِ شِيعَتِكَ القتلُ
وقَى بهمُ العريانُ فُرسانَ قومه ... فيا عجباً أين الأمانةُ والعدلُ»

وبذلك انكشفت خيانة تميم لجيش يزيد بن المهلّب في موقعة العقر وأنهم انهزموا بالناس، فكان ذلك وما حدث من إعدام للأسرى بالكوفة من العوامل

الرئيسية لما قام به معاوية بن يزيد بن المهلب في واسط.

لقد ذكرت الروايات ما حدث في واسط بقولها: «لما أتى خبر مقتل يزيد بن المهلب إلى واسط أخرج معاوية بن يزيد بن المهلب اثنين وثلاثين أسيراً كانوا في يده، فأمر بضرب أعناقهم.. فقتل الأسارى كلهم غير ربيع بن زياد بن الربيع بن أنس بن الرقان تركه وقال: هو شيخ من قومي له شرفٌ ومعروفٌ وبيت عظيم ولستُ أتهمه». ثم تذكر نفس الروايات أن الذين قتلهم معاوية بن يزيد في واسط كانوا ستة من الأسارى، قال أبو عبد اللَّه نجيح « ..وهُمْ عَدِي بن أرطأة الفزاري، ومحمد بن عدي، ومالك بن مِسْمَع وعبد الملك بن مِسْمَع، وعبد اللَّه بن عَزْرَة، وعبد اللَّه بن وائل، وابن أبي حاضر التميمي».

وقد انتقد الشاعر ثابت قُطنة قتل عدي بن أرطأة الفزاري وابنه ومالك بن مِسْمَع «فقال ثابت قطنة لمعاوية بن زيد:

مـا سَـرَّنـي قَـتْـلُ الـفَـزَارِيِّ وابـنِـهِ ... عَـدِيٍّ ولا أَحْبَبْتُ قَتل ابن مِسْمَعِ
ولـكِـنَّـهـا كـانَـتْ مُـعَـاوِيَ زَلَّـةً ... وضَعْتَ بها أمري على غيرِ مَوضعِ»

ولكن شعر الجعد بن درهم يتيح إدراك أن قتلهم كان بسبب اتهامهم بالغش والخيانة والتواطؤ مع تميم ومسلمة في انهزام تميم بالناس في موقعة العقر، فقد انتقد الشاعر الفرزدق موقف قبيلة بكر بن وائل لأنها أظهرت البكاء على المنتوف ـ مولى بكر بن وائل ـ الذي كان من أصحاب يزيد بن المهلب، ومنعت البكاء على مالك بن مسمع وعبد الملك بن مسمع ـ وهما من رؤساء بكر بن وائل ـ وهما أبرز أسيرين قتلهما معاوية بن يزيد في واسط، قال أبو العباس المبرِّد «قال الفرزدق:

تُبكّي على المَنْتوفِ بَكرُ بن وائِلِ ... وتَنهى عن ابْنَي مِسْمَع مَنْ بَكاهُما
غلامانِ شبَّا في الحُروب وأدْرَكا ... كرامَ المساعي قبل وصلِ لِحاهُما
.. ولو كان حَيّاً مالِكٌ وابنُ مالك ... إذاً أوْقَدا نارَيْن يعلو سَناهما»

قال الطبري «فأجابه الجعد بن درهم:

نبكّي على المنتوف في نصر قومِهِ ... ولَسنَا نبكي الشَّائنَين أَباهُمَا
أرادَا فَنَاءَ الحيِّ بكرِ بن وائلٍ ... فعِزُّ تميم لو أُصِيبَ فنَاهُمَا
فلا لَقِيَا رُوحاً مِنَ اللَّهِ سَاعَةً ... ولا رَقَأتْ عينا شَجِيٍّ بكاهما
أفي الغَشِ نبكي إنْ بكينا عليهما ... وقد لقيا بالغِشِّ مِينا رَدَاهما»

وقد أطلق معاوية بن يزيد بن المهلب سراح بقية الأسرى الذين عنده في واسط. بينما في مدينة الحيرة مقر مسلمة بن عبد الملك، ذكر الطبري عن أبي

عبد اللّٰه نجيح أنه: «أتى مَسْلَمة بنحو من خمسين أسيراً كان أقبل بهم إلى الحيرة معه، فلما رأى الناس أنه يريد ضرب أعناقهم، قام إليه الحصين بن حماد الكلبي فاستوهبه ثلاثة: زياد بن عبد الرحمٰن القشيري وعتبة بن مسلم وإسماعيل العقيلي فوهبهم له، ثم استوهب بقية أصحابه فوهبهم له»، فتم إطلاق سراح الخمسين وكان ذلك في حوالي شهر جمادى الآخرة، ثم سار معاوية بن يزيد بن المهلّب من مدينة واسط إلى البصرة ومعه الفرسان والرجال الذين قرروا المسير معه إلى المفضل بالبصرة. وبذلك انتهت سلطة المهالبة على واسط.

واجتمع المفضل وسائر آل المهلب وكوكبة من كبار أصحاب وقادة يزيد بن المهلّب في البصرة، فأمّروا عليهم المفضل وقالوا له: أنت أكبرنا وسيدنا، وتشاوروا واستقر رأيهم على الانتقال والمسير من البصرة بحراً وبراً إلى فارس وكرمان والسند، وقد ذكرت الروايات نبأ ذلك بشكل غير مترابط، إلا أن جوهر ذلك يتمثل في أمرين، مسير آل المهلب بالسفن بحراً ومسير غيرهم من القادة والفرسان براً، فقد ذكر الطبري وابن الأثير أنه «اجتمع جميع آل المهلب بالبصرة.. وقد أعدّوا السفن البحرية وتجهزوا بكل الجهاز.. فحملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ثم لجّوا في البحر حتى مروا بالأمير هرم بن قرار العبدي وكان يزيد استعمله على البحرين.. ثم مضوا حتى إذا كانوا بحيال كرمان [والأصوب: مكران] خرجوا من سُفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب.. ولم يزل المفضل عليهم حتى خرجوا إلى كرمان، وبكرمان فلول كثيرة من أصحاب يزيد بن المهلّب، فاجتمعوا إلى المُفَضّل بفارس..» وهم الذين ساروا من البصرة براً إلى فارس وكرمان، فقد ذكر الطبري أنه كان: مع المفضل بفارس النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي، ومحمد بن إسحاق بن الأشعث الكندي، وعثمان بن إسحاق، والورد بن عبد اللّٰه السعدي، ومالك بن إبراهيم بن الأشتر، وابن صُول النخعي، ومحمد بن إسحاق بن الأشعث الكندي، وعثمان بن إسحاق، والورد بن عبد اللّٰه السعدي، ومالك بن إبراهيم بن الأشتر، وابن صُول ملك دهستان). وكان ذلك المسير بحراً وبراً من البصرة في حوالي شهر رجب أو شعبان سنة ١٠٢هـ، وبذلك انتهت سلطة المهالبة بالبصرة ولما علم مسلمة بن عبد الملك بمسيرهم بعث عبد الرحمٰن بن سليم الكلبي أميراً على البصرة.

* * *

موقعتا فارس والسند.. ومقتل المُفَضّل

لما صار المفضل وآل المهلب والقادة والفرسان من أصحاب يزيد بن المهلّب ببلاد فارس وكرمان والسند اجتمعت القوة الرئيسية منهم بزعامة المفضل بن المهلّب

في عاصمة إقليم فارس (التي يبدو أنها مدينة اصطخر) قال الطبري: «اجتمعت الفلول إلى المفضل بفارس» ـ يعني قادة وأصحاب يزيد بن المهلّب الذين انسحبوا من العراق إلى فارس وكرمان ـ فبعث مَسْلمة بن عبد الملك القائد مُدْرِك بن ضب الكلبي على رأس فرقة من جند الشام، وكان المفضل زعيماً شجاعاً أديباً شاعراً، قال أبو العباس المبرّد في كتاب الكامل في اللغة والأدب: «قال المُفَضّل بن المهلب في الشجاعة والنجدة:

هل الجود إلّا أن نجودَ بأنفُسٍ ... على كلِّ ماضي الشَفْرَتَينِ قضيبِ
وما خَيْرُ عَيْشٍ بعد قتل محمدٍ، ... وبَعدَ يزيدٍ والحَرونِ حبيبِ[١]
ومَنْ هَرَّ أطرافَ القَنا خَشْيَةَ الرَدى ... فليس لمَجْدٍ صالحٍ بكَسيبِ[٢]
وما هي إلا رقْدَةٌ تُورِثُ العُلىٰ ... لِرهْطِكَ ماحَنَّتْ روائمُ نيب»[٣]

فلما أقبل مُدْرِك الكلبي بجند الشام إلى فارس عقد المُفضل بن المهلب وأصحابه عزمهم على عدم التسليم أو طلب الأمان وربما أرادوا أن يتجنبوا القتال، فقد ذكر الطبري أنه: «أدرك مُدْرِك بن ضب الكلبي المفضل بن المهلب وقد اجتمع إليه الفلول بفارس، فتبعهم، فأدركهم في عَقَبَةٍ، فعطفوا عليه فقاتلوه، واشتد قتالهم إياه. فَقُتِل مع المفضل بن المهلّب النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي، ومحمد بن إسحاق بن الأشعث الكندي، وأُخذ ابن صُول ملك دِهستان أسيراً، وجُرح عثمان بن إسحاق بن محمد بن الأشعث جراحة شديدةً فهرب حتى انتهى إلى حلوان فَقُتِل بها. ورجع ناس من أصحاب يزيد بن المهلّب فطلبوا الأمان فأومِّنوا، منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر، والورد بن عبد اللّه بن حبيب السعدي..» (ص١٥٨ جـ٨).

وابتهج المعسكر المرواني بمقتل المفضل بن المهلّب لأنه يعني اكتمال نهاية ثورة يزيد بن المهلّب، بينما ساد ما تبقى من المعسكر القحطاني حزن عميق تدل عليه قصيدة ثابت قُطنة الأزدي وكان ثابت قد مضى من البصرة إلى خُراسان في وقت سابق، وكانت هند بنت المهلّب في خراسان، قال أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني:

«لما قُتِل المفضل بن المهلّب دخل ثابت قُطنة إلى هند بنت المهلب والناس جلوس يُعزونها، فقال ثابت قُطنة:

---

(١) قال أبو العباس: «قوله: الحرون، فإن حبيب بن المهلب كان ربما انهزم عنه أصحابه فلا يَريمُ مكانه، فكان يُلقّبُ: الحرون».

(٢) قال «وقوله: من هَرَّ أطراف القنا خشية الردى: يقول: من كَرِه، والردى: الهلاك والموت».

(٣) رقدة تورث العُلىٰ: أي موتة تورث العلا لقومك. والنيب: جمع ناب وهي المُسِنّة من الإبل. [ص١٨١ ـ ١٨٢ جـ١ ـ الكامل].

يا هند كيف بنصبٍ بات يُبكيني وعاثرٍ في سوادِ الليلِ يُؤذيني
كأنّ لَيْلِيَّ والأصداءُ هاجدةٌ ليلُ السليم وأعيّا من يداويني
لمّا حَنَى الدهرُ مِنْ قوسي وعذرني قاسيتُ منه أمَرّ الغلظ واللين
إذا ذكرتُ أبا غسان أرّقني هَمٌّ إذا عَرَّسَ السارون يُشجيني
كان المُفَضّلُ عزّاً في ذوي يَمَنٍ وعصمة وثمالاً في المساكينِ
.. إنّي تذكرتُ قَتْلي لو شهدتُهم في حومة الموت لم يُصْلوا بها دُوني
لا خير في العيش إن لم أجن بعدهم حرباً تبيءُ بهم قتلى فيشفوني

فقالت له هند: اجلس يا ثابت فقد قضيت الحق وما مِن المرزئة بدّ، وكم مِن ميتة ميتٍ أشرف مِنْ حياة حيّ، وليست المصيبة في قتل من استشهد ذاباً عن دينه مطيعاً لربه، وإنما المصيبة فيمن قَلّتْ بصيرته وخَمَلَ ذكره بعد موته، وأرجو أن لا يكون المفضل عند اللّه خاملاً. فيُقال إنه ما عُزِّيَ يومئذ بأحسن من كلامها»[1].

* * *

وبعد موقعة فارس ومقتل المفضل وقعت الموقعة الأخيرة في قَنْدابيل عاصمة إقليم السند ومكران، وكان يزيد بن المهلّب قد وَلّى عليها في بادية الثورة وَدَاعَ بن حُميد الأزدي، وفي ذلك قال الطبري: «وقد كان يزيد بن المهلب بعث وَدَاعَ بن حميد الأزدي على قَنْدابيل أميراً..» ثم ذكرت رواية الطبري كلام المفضل بن المهلب مع وَدَاع على أنه كلام يزيد بن المهلب، والظاهر أنه كلام المفضل، فقد ذكر ابن خلدون نبأ مسير المفضل بن المهلب من البصرة قائلاً: «فتجهز المفضل وأهل بيته وأصحابه الركوب في البحر، وركبوا إلى قندابيل وبها وَدَاع بن حميد الأزدي ولاهُ عليها يزيد بن المهلب، فركبوا البحر بعيالهم وأموالهم إلى جبال كرمان..» والأصوب إلى ساحل مكران، ومن الساحل براً إلى مدينة قندابيل، فأسكن المفضل الأهل والعيال في قندابيل، وهو - وليس يزيد - الذي جاء في رواية الطبري أنه: «قال ابن المهلب لوداع بن حُميد الأزدي أمير قندابيل: إنّي سائر إلى هذا العدو.. فإن ظفرتُ أكرمتك، وإن كانت الأخرى (أي الهزيمة) فأنت بقندابيل حتى يقدم عليك أهل بيتي فيتحصنوا بها حتى يأخذوا لأنفسهم أماناً، أما إنّي قد اخترتك لأهل بيتي من بين قومي فكن عند أحسن ظني، وأخذ عليه أيماناً غليظة ليُناصحن أهل بيته إن هم احتاجوا إليه ولجأوا إليه» [ص١٥٩ جـ٨].

ومضى المفضل إلى كرمان وفارس فوقعت الموقعة سالفة الذكر بينما كان أهل

(١) الأغاني - للأصفهاني - ص٥٢ جـ١٣.

وعيال آل المهلب في قندابيل ومعهم كوكبة من بني المهلب منهم مروان، وعبد الملك، ومعاوية، وعثمان بن المفضل، ومعاوية بن يزيد، وكان بعضهم مع المفضل في موقعة فارس فقد ذكر الطبري بعد نبأ موقعة فارس ومقتل المفضل أنه «مضى آل المهلب ومن سقط من الفلول حتى انتهوا إلى قندابيل» ويبدو أنه بعث مُدرك بن ضب الكلبي إلى مسلمة بن عبد الملك بنبأ موقعة فارس ومقتل المفضل والذين قُتلوا معه، وأن بقية آل المهلب في قندابيل حتى يأخذوا لأنفسهم أماناً ولكن مسلمة كان يريد قتلهم جميعاً، ولذلك قام بما ذكره الطبري قائلاً: «وبَعَث مَسْلَمة إلى مُدرك الكلبي، فردّه، وسرّح هلال بن أحوز التميمي في أثر آل المهلب بقندابيل، فأراد آل المهلب (أو: هلال بن أحوز وأصحابه) دخول قندابيل، فمنعهم وَدَاع بن حُميد، وكَاتَبَهُ هلال بن أحوز، ولم يُباين وَداعَ آل المهلب ويفارقهم، فتبين لهم فراقه لما التقوا وصفّوا ـ للقتال ـ وكان وداع بن حُميد على الميمنة وعبد الملك بن هلال على الميسرة وكلاهما أزدي، فرفع لهم هلال راية الأمان فَمَالَ إليهم وداع بن حُميد وعبد الملك بن هلال وارْفضّ عن آل المهلب الناسُ فخلّوهم، فلما رأى ذلك مروان بن المهلّب ـ وكان قائد آل المهلب ـ ذهب يريد أن ينصرف إلى النساء، فقال له المفضل (والأصوب: عثمان بن المفضل): أين تريد؟ قال: ادخل إلى نسائنا فاقتلهن لئلا يصل إليهن هؤلاء الفساق، فقال: ويحك أتقتل نساء أهل بيتك وأخواتك، إنّا واللّه ما نخافُ عليهن منهم، فرده عن ذلك. ثم مشوا بأسيافهم فقاتلوا حتى قُتلوا من عند آخرهم، ألا أبا عيينة بن المهلّب وعثمان بن المفضل فإنهما نَجَوا فلحقا بخاقان ورُتبيل». ولم يذكر الطبري الذين قُتلوا من آل المهلب بالسند، وقد ذكر البلاذري أنه «وَجّه إليهم يزيد بن عبد الملك هلال بن أحوز التميمي فلقيهم، فَقُتِل مدرك بن المهلب بقندابيل، وقُتِل المفضل، وعبد الملك، وزياد، ومروان، ومعاوية بنو المهلب، وقُتل معاوية بن يزيد في آخرين» (ص٤٢٩) وفي ذلك خطأ فإن المفضل إنما قتل بفارس، وزياد بن المهلب كان في عُمان ولم يُقتل، وقد ذكر ابن خلدون أن من القتلى (عبد الملك ومروان وزياد (أو: مدرك) بنو المهلب ومعاوية بن يزيد بن المهلب، وبعث هلال بن أحوز برؤوسهم وبالأسرى من آل المهلب إلى مسلمة بن عبد الملك، فبعثهم مسلمة إلى يزيد بن عبد الملك وكانوا ثلاثة عشر من أولاد المهلب فقتلهم يزيد جميعاً». قال أبو العباس المبرد: «وقرأتُ على عُمارة بن عَقِيل قصيدة جرير التي يهجو فيها آل المهلّب ويذكر الوقعة التي كانت عليهم بالهند في سُلطان يزيد بن عبد الملك بسبب خروج يزيد بن المهلّب عليه:

أقولُ لها من ليلة ليس طولُها ... كطول الليالي لَيْتَ صبحَكَ نَوَّرا
أخافُ على نفس ابن أحْوَزَ أنه ... جلا حُمَماً فوقَ الوجوه فأسفرا

واطفأتَ نيرانَ المَزونِ وأهلَها   وقد حاولوها فِتْنةً أن تُسَعَّرَا
فلم تُبْقِ منهم رايةً يعرفونها   ولم يبق من آل المهلّب عَسْكرا»

وكان جرير من الشعراء الذين انساقوا لرغبة يزيد بن عبد الملك في هجاء آل المهلب، وقال جرير في أبيات له:

يا ابن المهلّب إن الناس قد علموا   إن الخلافة للشُّمِّ المغاوير

قال المسعودي: «وأخذ الشعراء جميعاً يهجون آل المهلب، إلّا كثيراً فإنه امتنع عن ذلك، فقال له يزيد بن عبد الملك: حَرَّكتك الرحم يا أبا صخر لأنهم يمانيون».

وكثير هو الشاعر المشهور باسم كثير عزة، وهو كثير بن عبد الرحمٰن بن الأسود بن عامر الخزاعي اليماني القحطاني، وقد اندفع بعض الشعراء والقصاصين في هجاء آل المهلب وتشويه تاريخهم على مدى الثلاثين سنة التي تبقت من عصر الخلفاء الأمويين واختلقوا الكثير من الأكاذيب والأقاويل التي تحاول الإساءة إلى آل المهلب ابتداءً من مزاعم ردة (أبي صُفرة) والد المُهلّب، وحتى مزاعم حبس يزيد بن المهلب في خلافة عمر بن عبد العزيز، فقد أراد يزيد بن عبد الملك وأشياعه أن تكون نهاية ثورة وخلافة يزيد بن المهلّب نهاية لكل آل المهلب ولتاريخهم العظيم، ولذلك قام مَسْلَمة بتغيير القائد اليماني مدرك الكلبي وبعث ابن أحوز التميمي إلى السند ليتولى قتل بقية آل المهلب، قال الطبري: «وبعث هلال برؤوس القتلى وبأولاد آل المهلب إلى مَسْلمة.. وقال مسلمة: لأبيعن ذريتهم، فقال له الجراح بن عبد اللّه الحكمي: فأنا أشتريهم منك لأبرّ يمينك، فاشتراهم منه بمائة ألف، قال: هاتها، قال: إذا شئت فخذها، فلم يأخذ منه شيئاً، وخَلّى سبيلهم، إلّا تسعة فتية منهم أحداث بعث بهم إلى يزيد بن عبد الملك فضرب رقابهم». وبذلك أنقذ القائد اليماني الجرّاح بن عبد اللّه الحكمي بقية ذرية ونساء آل المهلب، فبقي بعضهم بالبصرة، ولحق بعضهم بعُمان.

وقد بعث مسلمة بن عبد الملك إلى خراسان سعيد خُذَينة القريشي أميراً، قال الطبري: «ثم إن سعيد خذينة رُفع إليه: أن جهم بن زَحر الجعفي، وعبد العزيز بن عمرو بن الحجاج الزبيدي، والمنتجع بن عبد الرحمٰن الأزدي، والقعقاع الأزدي، وُلّوا ليزيد بن المهلّب وهم ثمانية (أي كانوا عمال يزيد بن المهلب في خراسان) وعندهم أموال، فأرسل إليهم فحبسهم في قَهَندَز مرو.. وأرسل سعيد إلى جهم بن زَحر، فحُمل على حمار من قهندز مرو، فمرّوا به على الفِيض بن عمران فوجأ أنفه، فقال له جهم: يا فاسق هلا فعلت هذا حين أتوني بك سكران قد شربت الخمر

فضربتك حداً. فغضب سعيد على جهم فضربه مائتي سوط.. وأمر سعيد بهم والثمانية الذين كانوا في الحبس، فعُذبوا.. فقتلوا في العذاب بالسجن جهماً وعبد العزيز بن عمرو والمنتجع، وتولى عذابهم الزبير بن نشيط وهو زوج أم سعيد خذينة، فكان سعيد يقول: قبح اللّه الزبير فإنه قتل جهماً» وقد كان جهم بن زحر الجعفي المذحجي من القادة الأبطال في فتح بلاد السند وفي فتوح ما وراء النهر وفي فتح إقليم جرجان وطبرستان مع يزيد بن المهلّب وولاه يزيد على جرجان ثم كان أميراً بخراسان في عهد ثورة يزيد بن المهلّب، فكان جهم بن زحر من أعلام الأُمة الذين بايعوا ابن المهلب وبذلوا أرواحهم في سبيل المبادئ والأهداف التي آمنوا بها وفي سبيل تحقيق أمل الخلافة القحطانية.

* * *

آل المهلب.. والأزد.. بعد نهاية الثورة

لقد أراد الخليفة المرواني يزيد بن عبد الملك القضاء على سائر آل المهلب وعلى تاريخهم، ولكن إرادة اللّه شاءت أن تنجو كوكبة من آل المهلب، فقد ذكر الطبري: «أن أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضّل نَجَوا فلحقا ببلاد الملك رتبيل» وذكر ابن خلدون أنه: «لحق المنهال بن أبي عيينة بن المهلب، وعمر بن يزيد بن المهلب، وعثمان بن المفضل، برتبيل ملك الترك»، بينما بَقِيَ في عُمان زياد بن المهلّب، فقد ذكر د. فاروق عمر في كتاب (مصادر التاريخ العماني) أنه: «لما ثار يزيد بن المهلّب سنة ١٠١هـ عيّن أخاه زياداً على عُمان فتسلم الولاية دون مقاومة، وبقي والياً على عُمان حتى بعد القضاء على ثورة أخيه» ـ وذلك لأن عُمان بقيت بعيداً عن سلطة الخلافة الأموية المروانية ـ وكان مِنْ أبرز من نجا من آل المهلب أيضاً عبد الرحمٰن بن يزيد بن المهلّب، بينما كانت في خراسان هند بنت المهلّب التي إليها توجه الشاعر ثابت قُطنة الأزدي بمراثيه التاريخية المهمة، ومنها القصيدة سالفة الذكر في رثاء المفضل بن المهلّب والتي منها قوله:

يا هند كيف بنصبٍ بات يبكيني ... وعاثرٍ في سوادِ الليل يؤذيني
.. كانَ المُفَضلُ عزاً في ذوي يمنٍ ... وعصمة وثمالاً في المساكين

وقصيدته الثانية في رثاء يزيد بن المهلب والتي يقول د. حسين عطوان في تعليقه عليها «إن ثابت قُطنة ينذر فيها بني أُمية والعشائر اليمنية الشامية التي ساعدتهم، والتي دمروا بها المهالبة الأزديين اليمانيين، فقد كان ينتظر منها أن تبايع المهالبة وتقاتل معهم لكي يظفر يزيد بن المهلّب بالخلافة»[1] وقد ذكر الطبري في

---

(١) الشعر العربي في خراسان ـ د. حسين عطوان ـ ص٢٤٣ ـ ٢٤٥.

تاريخ الأمم والملوك تلك القصيدة النونية لثابت قُطنة في رثاء يزيد بن المهلّب، وفيما يلي نصها:

ألا يا هند طال عَلَيّ لَيْلي ... وعاد قصيرُهُ ليلاً تماما

كأنّي حين حَلَّقتِ الثريَّا ... سُقِيتُ لُعَابَ أسوَدَ أو سَمَامَا

أمَرَّ عليَّ حُلو العيش يومٌ ... مِنَ الأيام شَيَّبني غلاما

مُصابُ بني أبيكِ وغِبتُ عنهُمْ ... فلم أشهدهُم ومضوا كراما

فلا واللَّه لا أنسى يزيداً ... ولا القتلى التي قُتِلَت حَرامَا

فَعَلَّيَّ أنْ أبُوَّ بأخيكِ يوماً ... يزيداً أو أبوءَ به هِشاما

(يعني يزيد بن عبد الملك أو هشام بن عبد الملك).

وعَلَّيَ أنْ أقُودَ الخيل شُعثاً ... شَوازبَ ضُمَّراً تَقِصُ الإكامَا

فأصبحَهُنَّ حِمْيَرَ مِن قريب ... وعك أو أرُعَ بها جذاما

وَنَسقيِ مَذْحِجاً والحيّ كلباً ... مِنَ الذَّيفَان أنفاساً قَوَاما

عشائرنا التي تبغى علينا ... (تُجَرُّ بنا) زكاً عاماً بعاما

ولولاهم وما جَلَبُوا علينا ... لأصبح وَسْطَنَا مَلِكا هُمَاما»[١]

ويقول د. حسين عطوان في تحليله وتعليقه على قصائد ثابت قُطنة: «لقد خابت كل الآمال التي عقدها ثابت على الثورة والتي كان يرجو أن تُتوج بفوز ابن المهلب بالخلافة، فتحول يرثيه ويرثي الهالكين من أسرته. وبالمثل تتضح في مراثيه لهم عصبيته اليمانية الحادة ويتضح فيها عداؤه السافر للأمويين، فهو لا ينفث فيها زفراته وأناته لمصرعهم بل يُحَمِّلها كذلك دفاعاً عن ثورتهم واعتداداً بماضيهم في الجاهلية وبحاضرهم في الإسلام مما يجعلهم أهلاً للخلافة. كما يُحملها وعيداً للأمويين أنه لن يغتفر لهم ذنبهم مهما امتدت الأيام بهم بل سينتقم منهم، ويسخط سخطاً شديداً على العشائر اليمنية الشامية التي دعمتهم وأتاحت لهم التغلب على المهالبة لأنه كان يفترض أن تؤيد المهالبة لما يربط بينهما وبينهم من أواصر النسب»[١] وقد تجلى ذلك في قصيدتيه السالفتين وفي قصيدة ميمية ذكرها الطبري في تاريخ الأمم والملوك قائلاً: «وقال ثابت قطنة أيضاً يرثي يزيد بن المهلب:

أبَىٰ طُولُ هذا اللَّيل أنْ يتَصَرَّما ... وَهَاجَ لك الهَمُّ الفؤاد المُتَيَّمَ

أرِقتُ ولَمْ تأرَقْ مَعِي أمُّ خالد ... وقد أرِقَتْ عينايَ حَوْلاً مُجَرَّمَا

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٥٩ ـ ١٦٠ جـ٨.

عَلَى هَالِكٍ هَدَّ العشيرة فَقْدُهُ ... دعته المنايا فاستجاب وَسَلَّما
عَلَى مَلِكٍ يا صاح بالعَقْر جُبنتْ ... كتائبه واسْتَوْرَدَ الموت مُعْلَمَا
(يعني الملك يزيد بن المهلّب)

.. وفي غيرِ الأيام يَا هنْدُ فاعلمي ... لِطَالِبِ وترٍ نظرةٌ إن تَلوَّمَا
فعَلّي إنْ مالتْ بِيَ الريح مَيْلةً ... على ابن أبي ذِبَّانَ أن يَتَندَّما[1]
أمَسْلَم إن تَقْدِر عليك رِمَاحُنا ... نُذِقْكَ بها قَيْء الأسَاوِدِ مَسْلَما
وإن تُلقَ للعباس في الدهر عثرةٌ ... نُكافِهِ باليوم الذي كان قَدَّما[2]
قصاصاً ولا نَعدُ والذي كانَ قَد أتى ... إلينا وإن كان ابنُ مروانَ أظلَمَا
ستَعلَمُ إن زلَّت بك النَّعلُ زلةً ... وأظْهَرَ أقوامٌ حياءً مجَمجَمَا
مَنْ الظالم الجَانِي عَلى أهل بيته ... إذا أحْصِرَت أسباب أمر وَأبهمَا
وإنّا لعَطَّافُونَ بالحلم بعدَما ... نَرى الجَهلَ من فرطِ اللئيم تكرُّما
وإنّا لحَلّالُونَ بالثَّغرِ لا نرى ... به سَاكِناً إلّا الخميس العَرَمْرَمَا

(الثغر: ثغر خراسان. والخميس: الجيش، وكان غالبية الجيش بخراسان من اليمانية خاصة الأزد).

.. أبونا أبُو الأنصار عَمرُو بن عَامِرٍ ... وهُمْ وَلَدُوا عَوفاً وكعباً وَأسلَما
وَقَد كانَ في غَسَّانَ مجدٌ يَعُدُّهُ ... وَعَادِيَّةٌ كانت مِنَ المجدِ مُعظما»

ويمكن القول إن ثابت قُطنة في تلك القصائد كان يُعبر أيضاً عن مشاعر اليمانيين في خراسان والمشرق، وقد اعتبر ثابت قطنة الفترة التي تلت انتهاء ثورة ابن المهلّب ليلاً مظلماً كما في قوله: «أبَىٰ طول هذا الليل أن يتصرما» ولكنه كان على يقين بأن الظروف والأيام ستتغير، إذْ أن قصائده ـ كما قال د. حسين عطوان ـ «كانت تحمل وعيداً للأمويين بأنه لن يغتفر لهم ذنبهم مهما امتدت الأيام بهم..» ويتجلى ذلك أيضاً في قوله:

وفي غِيَرِ الأيام يا هند فاعلمي ... لطالب وترٍ نظرة إنْ تَلومَا

وقد كانت بقية أيام عهد يزيد بن عبد الملك ليلاً مظلماً على آل المهلب والأزد ويمانية المشرق، وقد قام الخليفة يزيد بن عبد الملك بعزل مَسْلمة بن

(١) أبو ذبان: لقب عبد الملك بن مروان، كان خصومه يسمونه أبا ذبان.
(٢) قال الطبري: «بعث يزيد بن عبد الملك برؤوس بني المهلب إلى العباس وهو على حَلَب، فلما نُصبوا خرج ينظر إليهم ويقول لأصحابه: هذا رأس عبد الملك هذا رأس المفضل والله لكأنه جالس معي يحدثني».

عبد الملك عن ولاية العراق ومشارقها في أواخر سنة ١٠٢هـ وبات مَسْلَمة نسياً منسياً، وقام يزيد بتولية عمر بن هبيرة الفزاري القيسي على العراق وكان سيئ السيرة وكذلك عماله القيسيين على خراسان، ولما هلك يزيد بن عبد الملك وتولى الخلافة هشام بن عبد الملك ـ في شعبان سنة ١٠٥هـ ـ أشرق عهد يماني مجيد في العراق ومشارقها وخراسان على يد الأميرين اليمانيين خالد بن عبد اللّه القسري أمير العراق ومشارقها وأسد بن عبد اللّه القسري أمير خراسان، قال الطبري وابن خلدون: «لما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة عَزَلَ عمر بن هبيرة الفزاري عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق وولّى ذلك كله خالد بن عبد اللّه القسري ـ في شوال ١٠٥هـ ـ ثم ولى خالد أخاه أسد بن عبد اللّه على خراسان سنة ١٠٦هـ».

وكان من معالم الانفراج فيما يتصل بالأزد وآل المهلب في خراسان ما يذكره د. حسين عطوان قائلاً:

«إن ثابت قُطنة اعتزل الحياة العسكرية والأدبية بعد إخفاق ثورة المهالبة وأصبح خائفاً ضائقاً من الولاة القيسيين بخراسان.. حتى تولى أسد بن عبد اللّه خراسان فلمعت شخصية ثابت واسترد مكانته وانحلّت عقدة لسانه».

وقد أشار د. ناجي حسن إلى سياسة الولاة القيسيين بعد انتهاء ثورة ابن المهلب قائلاً: «يظهر أن السياسة الجديدة كانت تقضي بتصفية الأزد بشتى الطرق وبمختلف الأساليب حتى اتُّهم بعضهم باحتجاز فيء المسلمين للتنكيل بهم، وتم رفع منزلة أعدائهم التقليديين من تميم.. فعادت تميم لتتولى بعض مسؤوليات الدولة.. ثم تولى خراسان أسد بن عبد اللّه القسري وتعصب لليمانية»[(١)] وقد أفرط بعض الرواة في اتهام أسد واتهام خالد بن عبد اللّه القسري بالتعصب اليماني، ولكن د. ناجي حسن يشير إلى الحقيقة قائلاً: «ولا يخفى أن خالد بن عبد اللّه وإن كان ذا نزعة يمانية إلّا أن هذا الشعور لم يطغ على سياسته بالشكل الذي يجعله منساقاً وراء الأهواء»[(١)].

لقد دامت ولاية خالد بن عبد اللّه القسري للعراق ومشارقها خمسة عشر سنة (١٠٥ ـ ١٢٠هـ) وكان عهده أفضل عهود الرخاء والاستقرار، وكذلك كان عهد أخيه أسد بن عبد اللّه أمير خراسان من أعظم عهود الفتوحات والأمجاد، وكان مما يتصل بالأزد وآل المهلب في عهده.

ما ذكره د. حسين عطوان من أنه: حين تولى أسد بن عبد اللّه خراسان لمعت

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ ناجي حسن ـ ص٢٠٢ و ١٦٠.

شخصية ثابت قُطنة الأزدي واستردّ مكانته وانحلّت عقدة لسانه، وقد ولّاه أسد بن عبد اللّه أميراً على سمرقند.

وأعطى أسد بن عبد اللّه الأمان للهاربين من آل المهلب الذين كانوا لحقوا ببلاد الترك فيما وراء نهر جيحون بعد نهاية ثورة يزيد بن المهلب ومقتل الذين قتلتهم السلطة المروانية من أسرته، حيث ذكر ابن خلدون أنه «نجا المنهال بن أبي عيينة بن المهلب وعمر بن يزيد بن المهلب وعثمان بن المفضل فلحقوا برتبيل ملك الترك.. وأقام عمر وعثمان عند رتبيل حتى أمّنهما أسد بن عبد الله القسري، وقَدِما عليه بخراسان». وذكر الطبري أنه: «كتبت هند بنت المهلب إلى يزيد بن عبد الملك (والأصوب إلى هشام بن عبد الملك) بتأمين أبي عيينة بن المهلّب، فأمّنه». فعاد آل المهلب أولئك إلى خُراسان واستعادوا مكانتهم الاجتماعية ـ أعاد أسد بن عبد اللّه المكانة الطبيعية للأزد في خراسان، وقد سلف تبيين أنه كان في خراسان عشرة آلاف من الأزد، وهم من أزد عُمان وخزاعة وبارق وسائر عشائر الأزد، وقد أسند الأمير أسد زعامة الأزد بخراسان إلى جديع بن علي الكرماني الأزدي، وهو من كبار الأمراء والقادة بخراسان في عهد أسد بن عبد اللّه، قال الطبري: «كان جُديع شيخ خراسان وفارسها». وكان حسن بن شيخ الأزدي نائب أسد في مرو.

وكذلك استعاد آل المهلب في البصرة مكانتهم في ظل ولاية خالد بن عبد اللّه القسري للعراق والمشرقين، وقد كان خالد وأسد ـ وكما سيأتي ـ آخر العظماء السبعين.

٦٨

الحَكَمْ بن عوانة الكلبي..

أمير السند وباني مدينتي المحفوظة والمنصورة بباكستان

من الأمراء الفاتحين والذين خَلّد ذكرهم التاريخ هو الأمير اليماني الحكم بن عوانة الكلبي أمير ولاية السند (باكستان) باني مدينة المحفوظة AL-MAHFUZA ومؤسس مدينة المنصورة Al-MANSURAH التي كانت عاصمة ولاية السند لمئات السنين وكتب عنها الباحثون والعلماء الباكستانيون العديد من الدراسات التي يتألق فيها اسم الحكم بن عوانة الكلبي:

ونستهل هذا المبحث بذكر كوكبة من القادة والأمراء الفاتحين والولاة اليمانيين لبلاد السند منذ بداية الغزوات والفتوح العربية الإسلامية إلى ثغر السند (عام ٤٤هـ) حتى عهد ولاية خالد بن عبد اللّه القسري للمشرقين وقيامه بتولية الحكم بن عوانة الكلبي على بلاد السند، بحيث تتكامل معالم الدور العربي اليماني في تلك الآفاق.

أولاً: الأمراء اليمانيون في السند منذ بداية الفتوحات

١ ـ المهلّب بن أبي صُفرة فاتح السند الأول (٤٤ ـ ٤٦هـ): لقد كان المهلّب أول قائد فاتح لمناطق من بلاد السند وذلك سنة ٤٤هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقد جاء عن ذلك في كتاب (فتوح البلدان) أنه: «غزا المهلب بن أبي صُفرة الأزدي ثغر السند في أيام معاوية سنة أربع وأربعين، فأتى المهلب بنّة واللاهور، وهما ما بين الملتان وكابل، فلقيه العدو فقاتلهم ومن معه.. وفي (غزوة) بنّة يقول الأزدي:

ألَـمْ تَـرَ أن الأزد لـيـلـة بُـيـتـوا ببنّة كانوا خير جيش المهلّب»[1]

فقد غزا المهلب منطقة (بنة) وهي (بانو) حالياً في شمال باكستان ثم غزا الملتان وهي (ملتان) حالياً في البنجاب الغربية، وقد أشار د. ناجي حسن إلى ذلك قائلاً: «استمر تدفق الأزد تحت لواء المهلب أيام معاوية حين غزا بهم بلاد الملتان

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٢١.

وكابل»[١] ثم غزا المهلب منطقة اللاهور وهي (لاهور) حالياً ـ في شمال شرق باكستان ـ. ثم في سنة ٤٥هـ غزا المهلب بلاد القيقان وهي جنوب غرب باكستان. قال البلاذري: «ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من التُرك على خيل محذوفة، فقاتلوه، فقُتلوا جميعاً، وقال المهلب: ما جُعِلَ هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منّا، فحذف الخيل، فكان أول من حذفها من المسلمين»[٢] ومكث المهلب أميراً قائداً في ثغر السند إلى عام ٤٦هـ، فكان أول الأمراء الفاتحين.

٢ ـ راشد بن عمرو الجُديدي فاتح وأمير السند (٤٧ ـ ٥١هـ): وهو من القادة الفاتحين. قال الحسن الهمداني في الإكليل: «وَفَدَ راشد بن عمرو الجُديدي الأزدي إلى معاوية بن أبي سفيان، فاستشرفه، فأجلسه معه على السرير وحَدَّثَهُ طويلاً، فلما نهض أتْبَعه بصره حتى خرج. ثم أقبل معاوية على من عنده من قريش فقال: أيَسُركم أن يكون هذا من قريش؟ قالوا: وما يسوءنا من ذلك؟ قال: لو كان من قريش لنازعني الخلافة وإنّي له الآن لخائف وما الرأي إلا أن أرمي به نحر العدو. فولاه وأغزاه بلاد السند، فدخل راشد مكران والقيقان، وفيه قال الشاعر:

غزا السندَ ميمونُ النقيبةِ حازمُ ... من الأزدِ، جَلْداً للصعاليك رافع
ترى عينه ما لا يرون إذا سما ... بعينيّ قطامي خضيبِ الأشاجع
وإنّ الجُديديّ ابن عمرو على الكرىٰ ... وغِبّ السُّرىٰ صَقْرُ بعلياءِ واقع»[٢]

وكان الوالي على العراق آنذاك زياد بن أبي سفيان فكتب إليه معاوية بتأمير راشد على السند لأن السند من ثغور الوالي بالعراق وقال البلاذري: «استعمل زياد على ثغر السند راشد بن عمرو الجديدي من الأزد فأتى مكران وغزا القيقان فظفر». وكانت مدينة قندابيل في مكران هي مقر أمير ثغر السند وبها أقام راشد ثم غزا منها إلى إقليم القيقان ثم بعث راشد سرايا حربية إلى قصدار والبوقان ـ سنة ٤٨هـ ـ فظفروا. وكانت آخر غزوات الأمير راشد إلى منطقة (هند مند) فيما يلي نهر السند، فاستشهد الأمير راشد هناك.

٣ ـ عبد الرحمٰن بن الأشعث أمير كرمان والثغور (٧٨ ـ ٨١هـ): لما تولى عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي إقليم كرمان سنة ٧٨هـ قام بتوجيه غزوات إلى مكران وثغر السند وكان الوالي على العراق آنذاك الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد ذكر الأصفهاني أنه: «لما ضُرب البعث على أهل الكوفة إلى مكران، أخرج الحجاج أعشى همدان معهم، فخرج إليها» وقد كان أعشى همدان مع عبد الرحمٰن بن

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٨٩.
(٢) الإكليل ـ الحسن الهمداني ـ ص٢٢٨ جـ٢.

الأشعث في سجستان لما تولاها سنة ٧٩هـ. وخلال تلك الفترة قال أعشى همدان قصيدة منها:

ولم تك من حاجتي مكران ... ولا الغزو فيها ولا المتجرُ
وخُبرت عنها ولم آتها ... فما زلت من ذكرها أذعَرُ
بأن الكثير بها جائعٌ ... وإن القليل بها مُقترُ
.. وقد قيل إنكم عابرون ... بحراً لها لم يكن يُعْبَرُ
إلى السند والهند في أرضهم ... هُمُ الجنُّ لكنهم أنكرُ
ومن دونها معبرٌ واسعٌ ... وأجرٌ عظيم لمن يؤجرُ

ويعني بقوله: (عابرون بحراً) نهر السند والهند، وذكر المسعودي في نبأ ولاية عبد الرحمٰن بن الأشعث لسجستان أنه: «حارب ابن الأشعث من يلي تلك البلاد من ملوك الهند»[١]. ويدل كل ذلك على أن ولاية ابن الأشعث لكرمان وسجستان كانت تمتد إلى السند وأنه غزا إلى ما يلي نهر السند والهند، وكان ابن الأشعث كلما حوى بلداً بعث إليه عاملاً وأعواناً، ومكث ابن الأشعث في سجستان إلى سنة ٨٠هـ ثم قاد ابن الأشعث ثورته ضد الحجاج وعبد الملك بن مروان، وانتهت الثورة بالإخفاق سنة ٨٢هـ ومن المفترض أن كرمان ومكران وثغر السند كان مع ابن الأشعث إلى نهاية الثورة.

٤ ـ **محمد بن الحارث العلافي (٨٢ ـ ٨٣هـ)**: وكان قائداً بمكران وثغر السند مع أخيه معاوية بن الحارث. قال البلاذري: «ولّى الحجاج الثقفي سعيد بن أسلم مكران وثغر السند فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافيان، فَقُتِل، وغَلَب العلافيان على الثغر، واسم علاف هو ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة»[٢] فحكم محمد ومعاوية ابنا الحارث ثغر السند فترة غير محددة. وكان ممن تولى ثغر السند بعدهما أميران بعثهما الحجاج فقُتِلا في غزوة إلى الديبل.

٥ ـ **بديل بن طهفة البجلي (٨٥هـ)**: قال البلاذري: «كتب الحجاج إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بِعُمان يأمره أن يسير إلى الديبل»[١] فتولى بديل ثغر السند وغزا إلى الديبل فاستشهد بمنطقة الديبل سنة ٨٥هـ.

ثم ولى الحجاج على ثغر السند محمد بن القاسم الثقفي (٨٥ ـ ٩٦هـ) وأخباره وغزواته مشهورة، ويتوهم البعض بأنه أول فاتح للسند بينما الصحيح أن فتوح السند

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص١٣٨ جـ٣.
(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٢٣.

بدأت عام ٤٤هـ وإنما فتح محمد بن القاسم مناطق من السند وقتل الملك داهر ملك بلاد نهر الهند سنة ٩٠هـ. قال ابن الكلبي: «والذي قتل داهر هو القاسم بن ثعلبة الطائي»[1] ومكث محمد بن القاسم الثقفي أميراً لثغر السند إلى سنة ٩٦هـ وهو ليس من الولاة اليمانيين ولكن القادة الذين معه كانوا من اليمانية ومنهم قائد مقدمة الجيش جهم بن زحر الجعفي المذحجي وقاسم الطائي الذي قتل داهر.

٦ ـ **يزيد بن أبي كبشة السكسكي أمير السند (رجب ٩٦هـ)**: وهو من كبار القادة اليمانيين بالشام، فلما تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك (في أواسط جمادى الآخرة ٩٦هـ) عزل محمد بن القاسم وولى يزيد بن أبي كبشة على السند، فانطلق يزيد بن أبي كبشة إلى مكران أميراً للسند، ومات يزيد بالسند بعد ١٨ يوماً من ولايته وذلك في رجب ٩٦هـ.

٧ ـ **حبيب بن المهلّب أمير السند (٩٦ ـ ٩٩هـ)**: في شعبان ٩٦هـ ولّى الخليفة سليمان بن عبد الملك الأمير حبيب بن المهلب على السند. وكان حبيب من كبار الأمراء والقادة منذ ٢٣ سنة مضت، فقد كان نائباً لأبيه المهلب في الأهواز سنة ٧٣هـ، وكان قائداً فذاً في محاربة الخوارج والمتمردين في بلاد فارس سنة ٧٦هـ حيث قاد حبيب بن المهلب فرقة من الفرسان في تلك الحرب، وقال الصلتان العبدي في ذلك:

غداة حبيبُ في الحديد يقودُنا نخوضُ المنايا في ظلال الخوافق
حَرونٌ إذا ما الحربُ طار شَرارُها وهاجَ عَجاجُ الحرب فوق البوارق

قال أبو العباس المبرد: « . . وقوله حرون: فإن حبيب بن المهلب كان ربما انهزم عنه أصحابه فلا يريمُ مكانه، فكان يُلقب الحرون»[2]. ولما وُلِّي المهلّب خراسان سنة ٧٨هـ بعث حبيباً ـ من البصرة ـ فسار حبيب في موكب من جنوده حتى وصل عاصمة خراسان فتولى حكمها عشرة أشهر حتى قدوم أبيه المهلّب إلى خراسان سنة ٧٩هـ. وبعث المهلّب جيشاً بقيادة حبيب إلى ربنجن وبُخارى (في أوزبكستان) فهزم حبيبٌ العدو وأذعن صاحب بُخارى للطاعة وأداء الجزية وذلك سنة ٨٠هـ وقال كعب بن معدان: «حبيبُ موتٌ زعافْ». وفي حوالي سنة ٨٣هـ كان حبيب أميراً والياً لإقليم كرمان المتاخم للسند ومكث أميراً لكرمان إلى سنة ٨٦هـ. أما ولايته للسند فقد ذكر ابن خلدون أنه: «ولّى الخليفة سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي كبشة على السند، ومات يزيد بالسند لثماني عشرة ليلة من

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٢٣.

(٢) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص١٨١ جـ١.

مقدمه، فولّى سليمان بن عبد الملك على السند حبيب بن المهلّب»[١] وقد تزامن ذلك مع تولية يزيد بن المهلب على العراق ومشارقها، فانطلق حبيب من البصرة إلى السند ـ في شعبان ٩٦هـ ـ واستقر في دار الإمارة بمدينة (قندابيل) بمكران وكانت قندابيل هي مقر أمير السند ومركز السلطة والقوة العربية الإسلامية، وقام حبيب بضبط الأمور إلى (الديبل) ونواحيها بالسند، وكان قد استقر بالديبل أربعة آلاف من فرسان العرب وسادها الإسلام. وفي سنة ٧٩هـ سار حبيب بن المهلب بجيشه العربي الإسلامي إلى مناطق نهر السند والهند، وكان ملوك مناطق نهر السند والهند قد عادوا إلى السيطرة عليها وامتنعوا عن الطاعة وأداء الواجبات المالية، وقد ذكر البلاذري أنه: «قَدِم حبيب بن المهلب (إلى السند) وقد رجع ملوك الهند إلى ممالكهم ورجع حليشة بن داهر إلى برهمناباذ»[٢] فلما سار حبيب إلى مناطق نهر السند والهند ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ «نزل حبيب على شاطئ مهران، وأعطاه أهل الرور الطاعة، وحارب فظفر»[١] فأذعن عن حليشة بن داهر وبقية حكام مناطق نهر السند الذين تسميهم الروايات (ملوك الهند) أذعنوا للطاعة وأداء الجزية، وقد ذكر البلاذري أيضاً أنه «نزل حبيب على شاطئ مهران فأعطاه أهل الرور الطاعة وحارب قوماً فظفر»[٢] وذكر المسعودي موقع نهر مهران ومنطقة الرور ومدينة برهمناباذ حيث قال: «تجتمع الأنهار بعد المولتان بثلاثة أيام في الموضع المعروف بدوسات، فإذا انتهى جميع ذلك إلى مدينة الرور من غربيها سُمِّي هنالك مهران، ثم ينقسم قسمين ويصب كل من القسمين في الماء العظيم المعروف بمهران السند في مدينة شاكرة في البحر الهندي وذلك على مقدار يومين من مدينة الديبل»[٣]. وقال إن: «برهمناباذ العتيقة تقع على رأس فرسخين من المنصورة»[٣] وبرهمناباذ هي مقر الملك حليشة بن داهر الذي أذعن للطاعة. وقد مكث حبيب بن المهلب والياً للسند إلى نهاية خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ. . وإلى أواخر سنة ٩٩هـ حيث انتهت ولايته وعاد إلى البصرة. وفي سنة ١٠٠هـ «أسلم ملوك مناطق نهر السند والهند لما كتب إليهم عمر بن عبد العزيز يدعوهم إلى الإسلام على أن يُملكهم ـ على بلادهم ـ وهُم أسوة بالمسلمين فيما لهم وعليهم، فأسلم حليشة بن داهر والملوك».

٨ ـ وَدَاع بن حميد الأزدي أمير قندابيل (١٠١ ـ ١٠٢هـ): وهو عامل يزيد بن المهلب على ثغر السند لما ثار وخلع يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١هـ حيث وكما

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٤٠٨.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٢٨.

(٣) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص١٦٨ جـ١.

ذكر الطبري: «بعث يزيد بن المهلب وَدَاع بن حميد على قندابيل أميراً». فتولاها إلى سنة ١٠٢هـ.

ثانياً: ولاية خالد القسري للمشرقين والحَكَمْ بن عوانة الكلبي للسند

في شوال سنة ١٠٥هـ (مارس ٧٢٤م) أصبح الزعيم اليماني خالد بن عبد اللّه القسري والياً للعراق والمشرقين، وقد جاء في إحدى الدراسات الباكستانية أن ولاية الحكم بن عوانة الكلبي للسند بدأت آنذاك، حيث جاء في تلك الدراسة[١] ما يلي نصه بالإنكليزية:

«In 105/723 the administration of Sindh was streamlined by the governor of Iraq Khalid Qasri, when Hakam b. Awana Kalbi was appointed governor of Sindh and adjoning territores».

وترجمة ذلك كما يلي:

«في سنة ١٠٥/ ٧٢٤م كانت ولاية السند Streamlined من حاكم العراق خالد بن عبد اللّه قسري حين عيّن حَكَم بن عوانة كلبي حاكماً للسند والمقاطعات التابعة لها». (اهـ).

ولكن يتبين من المصادر التاريخية العربية أن تولية الحكم بن عوانة الكلبي لم تكن سنة ١٠٥هـ وإنما كانت في أواخر سنة ١٠٩هـ ويؤكد ذلك أن الحكم بن عوانة كان مع أسد بن عبد اللّه القسري أمير خراسان (١٠٦ ـ ١٠٩هـ) إذْ أنه: «استأذن خالد بن عبد اللّه القسري ـ من الخليفة هشام ـ لأسد في الحج، فَقَفَلَ أسد بن عبد اللّه إلى العراق ومعه دهاقين خراسان في رمضان ١٠٩هـ واستخلف على خُراسان الحكم بن عوانة الكلبي»[٢]. ولكن ذلك لا يمنع من احتمال أن الحكم بن عوانة كان أميراً بالسند عام ١٠٥ ـ ١٠٦ ثم سار إلى خراسان لدعم أسد بن عبد اللّه القسري سنة ١٠٧هـ في فتوحات أسد لبلدان ما وراء نهر جيحون. فقد تولى السند لخالد القسري (حتى عودة الحكم) أميران هما:

أ ـ الجُنيد بن عبد الرحمٰن المَرِّي عامل خالد بثغر السند إلى عام ١٠٨هـ

قال ابن الأثير: «في سنة ١٠٧هـ استعمل خالد القسري الجنيد بن عبد الرحمٰن على ثغر السند»[٣] بينما في رواية أخرى (أن الجنيد كان عاملاً على ثغر السند قبل أن يتولى خالد العراق) قال البلاذري: «فلما وُلّي خالد بن عبد اللّه القسري العراق كتب

(١) The Habbari Emirate ـ أحمد نبي خان.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٩٣ جـ٨.

(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١٩٧ جـ٤.

الخليفة هشام إلى الجنيد يأمره بمكاتبة خالد»[١] ومؤدى ذلك أن الجنيد أصبح عامل خالد بثغر السند منذ شوال سنة ١٠٥هـ. وقد يكون خالد وَلّى بعد ذلك الحكم بن عوانة في نفس سنة ١٠٥هـ ثم ولّى الجنيد سنة ١٠٧هـ ويتفق ذلك مع قول ابن الأثير «في سنة ١٠٧هـ استعمل خالد الجنيد على ثغر السند» وهي السنة التي وقعت فيها أحداث السند التي ذكرها البلاذري أيضاً بأنه «سار الجنيد إلى الديبل ثم نزل شط مهران فمنعه حليشة بن داهر العبور وأرسل إليه: إنّي قد أسلمتُ وولاني الرجل الصالح بلادي (يعني عمر بن عبد العزيز) ولستُ آمنك، فأعطاه رهناً وأخذ منه رهناً بما على بلاده من الخراج، ثم إنهما ترادّا الرهن، وكفر حليشة وحارب، وقيل إنه لم يحارب ولكن الجنيد تجنى عليه»[١] وأياً كانت الحقيقة فقد كتب الجنيد إلى خالد القسري بأن حليشة بن داهر ارتد وكفر وحارب، فبعث خالد القسري جنوداً وعتاداً من البصرة إلى الجنيد لمقاتلة العدو وحماية الثغور ـ وقال البلاذري بعد الفقرة السابقة ـ «فأتى حليشة بن داهر الهند فجمع جموعاً وأخذ السفن واستعد للحرب، فسار إليه الجنيد في السفن، فالتقوا في بطيحة الشرقي، فأُخذ حليشة أسيراً وقد جنحت سفينته، فقتله الجنيد. وهرب صصة بن داهر وهو يريد أن يمضي إلى العراق فيشكو غدر الجنيد ـ إلى خالد ـ فلم يزل الجنيد يُؤنسه حتى وضع يده في يده فقتله». ثم غزا الجُنيد الكيرج وكانوا قد نقضوا ودخلها عنوة، وفتح البيلمان والجزر، وبعث جيشاً إلى أرض المالية فأغاروا على أزين وغزوا بهريمد فحرقوا ربضها، ووجّه العمال إلى مرمد والمندل ودهنج وبروص. قال البلاذري: «وحصل عند الجنيد (من الغنائم) سوى ما أعطى زواره أربعين ألف ألف، وحمل مثلها إلى خالد القسري». وفي تلك الفترة سنة ١٠٧ ـ ١٠٨هـ كان الحكم بن عوانة مع أسد بن عبد اللّه القسري في خراسان حيث افتتح أسد بلاد نمرون والقرغيز وبلاد غورين وجبال ملع وأرض السَّبَل. فقال الشاعر جرير يمدح الأمير خالد القسري بتلك الفتوح والانتصارات في ثغور السند وثغور خراسان:

حَمَيْتَ ثغور المُسلمين فلم تُضِعْ ... وما زلتَ رأساً قائداً وابن قائد

تُعِدُّ سرابيلَ الحديد مع القَنَا ... وشُعْثَ النَّواصي كالضِّراء الطواردِ

وإنك قد أُعطيت نصراً على العِدَىٰ ... ولُقيت صبراً واحتساب المجاهدِ

وانتهت ولاية الجنيد في أواسط أو أواخر سنة ١٠٨هـ.

ب ـ تميم بن زيد عامل خالد على السند (١٠٨ ـ ١٠٩هـ)

قال البلاذري: «ثم وُلّي بعد الجنيد تميم بن زيد العتبي فضعف ووهن.. وكان تميم من أسخياء العرب وجد في بيت المال بالسند ثمانية عشر ألف ألف درهم طاطرية

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٢٩.

فأسرع فيها» ـ أي أنفقها لإرضاء الناس ـ «وفي أيام تميم خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مركزهم فيها. . ومات تميم قريباً من الديبل. . ثم ولي خالد الحكم بن عوانة الكلبي».

جـ ـ عهد ولاية الحكم بن عوانة الكلبي للسند ومعالم عهده (١٠٩ ـ ١١٩هـ)

هو الحَكَم بن عوانة الكلبي القضاعي الحميري، وكان من رؤساء قبيلة كلب اليمانية التي استقرت بالشام، ولما تولى خالد بن عبد الله القسري العراق والمشرقين سنة ١٠٥هـ (٧٢٣م) أصبح الحكم بن عوانة من الأمراء القادة في السند ثم في خراسان فكان الحكم بن عوانة نائباً لأسد بن عبد الله القسري أمير خراسان وشهد فتوحات أسد في بلاد ما وراء نهر جيحون وبناء أسد لمدينة بلخ في خراسان سنة ١٠٧ ـ ١٠٨هـ ثم عاد أسد من خراسان إلى العراق في رمضان سنة ١٠٩هـ واستخلف على خراسان الحكم بن عوانة الكلبي[١] فتولى الحكم خراسان فترة قصيرة ثم عاد إلى الأمير خالد القسري في العراق فولاه على بلاد السند، فانطلق الحكم بن عوانة في موكب من فرسان ورجالات كلب وشخصيات من البصرة إلى مدينة قندابيل عاصمة ومقر أمير السند ومكران في أواخر سنة ١٠٩هـ وتسنم سدة الإمارة في السند.

وقد جاء في دراسة باكستانية ما يلي نصه بالإنكليزية:

«In 723 the administration of Sindh was streamlined by the governer of Iraq Khalid b. Abdullah Qasri, when Hakam b. Awana Kalbi was appointed governor of Sindh and adjoining territories. The governor came here to take up his new assignment along with his own adherents. Among these were 'Amr b. Muhammad Al-Qasim and Munzir b. Zubair Habbari. 'Awana Kalbi picked up Munzir from Basra where he was leading an influential and prosperous life. Both the generals had to play a significanty important role in the local politics and eventually to rise to power. 'Amr became the right hand man of Hakam, rising even to the governorship of Sindh after the exit of the later, while Munzir decided for the time being to remain aloof from the active politics and settled down at Baniya, a place located some where near the territory where al-Mansurah was to be founded»[٢].

وجوهر ترجمة ذلك بالعربية هو أنه:

ولّى خالد بن عبد الله القسري حاكم العراق حَكَمْ بن عوانة الكلبي حاكماً للسند والمقاطعات التابعة لها، أتى الحاكم الكلبي إلى هنا لتطبيق سياسته الجديدة مع المساعدين الخاصين به، وكان منهم عمرو بن محمد بن القاسم ومنذر بن زبير

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٩٣ جـ٨.

(٢) The Habbari Emirate ـ أحمد بني خان.

الهباري. أحضر حكم بن عوانة الكلبي المنذر من البصرة التي كان يقيم فيها.. وقد لعب الجنرالان دوراً هاماً في الحكم والسياسة المحلية بالسند. أصبح عمرو اليد اليُمنى للحَكَم بن عوانة في السند.. بينما تمركز وأقام المنذر بمنطقة بانيه التي تقع في مكان ما بالمقاطعة التي تم تشييد مدينة المنصورة فيها. (اهـ).

وجاء في دراسة باكستانية ثانية ما يلي نصه بالإنكليزية:

«It has been related that on his arrival, the governor Hakam b. 'Awana Kalbi found the Arab Muslims Scattered all over the areas without having a place for shelter and compose. 'Awana Kalbi gathered all of them together and gounded a cantonment for thim. It was named as Al-Mahfuza. He took other admimistrative and military measures to establish Arab authority in the areas and united them under his banner»(١).

وترجمة ذلك بالعربية كما يلي:

«إن الحكم بن عوانة الكلبي عند وصوله حاكماً للسند وجد العرب المسلمين مشتتين (منتشرين) في أرجاء المنطقة (في مناطق مختلفة) وليس لهم مقر يأويهم ويتحصنون فيه، فقام الحكم بن عوانة الكلبي بِلَمّ شتاتهم في وحدة سكنية إقليمية سُمّيت المحفوظة، وعمل على تثبيت الحكم العربي في مناطق السند ووحدها تحت إمرته (قيادته) بوسائل عسكرية وإدارية» (اهـ).

وقد كان من معالم عهد الحكم بن عوانة الكلبي ما يلي:

١ ـ توحيد العرب والمسلمين ببلاد السند ومكران بزعامة الحكم بن عوانة:

كان أمر العرب والمسلمين في ثغر السند ومكران قد اضطرب أيام ولاية تميم بن زيد العتبي وكان تميم بن زيد قد وجد في بيت المال بالسند ثمانية عشر مليون درهم فأنفقها كلها لإرضاء الناس ولكنه أخفق في تحقيق رضا الناس بالمال، وتشتت أمر المسلمين، فلما تولى الحكم بن عوانة الكلبي بلاد السند قام بجمع كلمة العرب والمسلمين بالحزم والسيرة الحسنة والكفاءة وليس بالمال، فاستجاب الناس لطاعته ورضوا بولايته، وفي ذلك قال البلاذري:

«وُلّي الحكم بن عوانة الكلبي ثغر السند.. ورضي الناس بولايته. وكان خالد بن عبد اللّه القسري يقول: واعجباً، ولَّيتُ أسخى العرب فَرُفض، ـ يعني تميماً ـ وولَّيتُ أبخل الناس فرُضي به ـ يعني الحَكَمْ ـ»(٢).

---

(١) The City of Al-Mansura H ـ ترجمة شوقي حسين الفرح.

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٣٠.

وقال ابن خلدون:

«وُلّي الحكم بن عوانة الكلبي بلاد السند.. ورضي الناس بولايته»(١).

وجاء في الدراسة الباكستانية أنه: «عمل الحكم بن عوانة الكلبي على تثبيت الحكم العربي في مناطق السند ووحدها تحت إمرته وقيادته بوسائل عسكرية وإدارية»(٢)، وكان ذلك في العام الأول من ولايته للسند ومكران وهو عام ١١٠هـ/ ٧٢٨م.

٢ ـ بناء الحَكَمْ بن عوانة مدينة المحفوظة بباكستان

وفي سنة ١١١هـ/ ٧٢٩م قام الأمير الحكم بن عوانة الكلبي ببناء أول مدينة عربية إسلامية ببلاد السند، إذْ أن المدن العربية الإسلامية في العهود السابقة كانت مدينة قندابيل في مكران ـ وهي العاصمة ـ ومدينة الديبل بالسند التي استقر بها أربعة آلاف من العرب في عهد محمد بن القاسم وعهد حبيب بن المهلب، وهما ـ قندابيل والديبل ـ من المدن الموجودة هناك منذ ما قبل الإسلام، أما مناطق نهر السند والهند فلم يكن فيها مدينة ولا حصنٌ للمسلمين فقام الحكم بن عوانة ببناء مدينة هناك وهي مدينة المحفوظة، وعن ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان ما يلي نصه:

«وُلّي الحكم بن عوانة الكلبي ـ ثغر السند ـ وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصّة، فلم ير للمسلمين ملجأ يلجأون إليه، فبَنَىٰ من وراء البحيرة مما يلي (نهر) الهند مدينة سمّاها المحفوظة وجعلها مأوى لهم ومعاذاً ومَصَّرَها. وقال لمشايخ كلب من أهل الشام ـ الذين معه ـ ما ترون أن نُسميها؟ فقال بعضهم: دمشق، وقال بعضهم: حمص، وقال رجل منهم: سمّها تدمر، فقال: دمر الله عليك. ولكني أُسميها المحفوظة. ونزلها» [ص٤٣١]. وكان الذي اقترح تسميتها دمشق أو حمص هو ـ غالباً ـ حسام بن ضرار الكلبي الذي أصبح والياً للأندلس سنة ١٢٤ ـ ١٣٠هـ فأوطن فرقة من العرب بمدينة إشبيلية وسمّاها حمص. وأوطن فرقة من العرب بمدينة البيرة وسماها دمشق، ويشير ذلك إلى أنه الذي اقترح على الحكم بن عوانة تسمية المدينة التي بناها بالسند باسم دمشق أو حمص، ولكن الحكم بن عوانة سماها المحفوظة.

وقال ابن خلدون عن ذلك:

«بَنَىٰ الحَكَمُ مدينة سماها المحفوظة، وجعلها مأوى للمسلمين» [ص٤٤٨].

وقد أتّم الحكم بن عوانة بناء مدينة المحفوظة سنة ١١٢هـ (٧٣٠م) وجعلها مأوى ومعقلاً للمسلمين بمنطقة نهر السند (ومَصَّرَها) ـ أي جعلها مدينة عاصمة

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد حسين الفرح ـ ص٤٤٨.

(٢) The City of Al-Mansura H ـ ترجمة شوقي حسين الفرح.

(ونزلها) أي أقام فيها بدلاً عن مدينة قندابيل في مكران، فكانت مدينة المحفوظة أول مدينة عربية إسلامية في بلاد السند (باكستان) وهي من إنجازات الحضارة العربية في تلك الآفاق.

٣ ـ فتوحات الحكم بن عوانة وتحريره مناطق نهر الهند والسند

لقد سلف قول البلاذري أنه «في أيام تميم بن زيد خرج المسلمون من بلاد الهند ورفضوا مراكزهم». والمقصود ببلاد الهند هو بلاد مناطق نهر السند والهند التي كان المسلمون غزوها وملكوها أيام الجنيد بن عبد الرحمٰن بعد قتل حليشة بن داهر وهي مناطق ومدن الكيرج، ومرمد، والمندل، ودهنج، وبروص، وأزين، وبهرميد، والبيلمان والجزر، فخرج المسلمون من تلك البلاد وتركوا مراكزهم فيها وسيطر عليها العدو أيام تميم بن زيد وكفر من كان قد أسلم فيها، بحيث كما ذكر البلاذري وابن خلدون: «وُلِّي الحكم بن عوانة بلاد السند وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصّة».

فلما تولى الحكم بن عوانة بلاد السند وأعاد وحدة العرب والمسلمين وقام ببناء مدينة المحفوظة واتخذها مقراً، قام بقيادة وتوجيه السرايا الحربية العربية الإسلامية إلى مناطق ما يلي نهر السند من بلاد نهر الهند فأعاد فتح مناطق الكيرج وأرض المالية ومدينتها أزين، والبيلمان والجزر، وبعث العمال والقادة إلى مرمد، ومندل، ودهنج، وبروص، فتم تحرير مناطق نهر الهند والسند، وتثبيت السلطة العربية الإسلامية في تلك الآفاق إلى الملتان وتخوم الهند. وعن ذلك قال ابن خلدون:

«استخلص الحكم بن عوانة ما كان غلب عليه العدو» [ص٤٤٨].

وقال البلاذري: «تخلص الحكم بن عوانة ما كان في أيدي العدو وما غلبوا عليه» [ص٤٣١] فرفرفت رايات الإسلام في تلك الآفاق من بلاد السند والهند، وترسخت في ربوعها السيادة العربية الإسلامية.

٤ ـ بناء الحكم بن عوانة لمدينة المنصورة عاصمة السند

وفي حوالي سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م بدأ الحكم بن عوانة الكلبي أمير السند ببناء مدينة عاصمة لكل أرجاء ولاية السند وهي مدينة المنصورة. ولا بد أن الحكم بن عوانة حصل على موافقة ودعم خالد بن عبد اللّٰه القسري أمير العراق والمشرقين لتنفيذ ذلك الإنجاز الحضاري الكبير ببلاد السند، فقد استغرق تشييد مدينة المنصورة مالاً عظيماً، واكتمل تشييدها في نحو سنتين، وقد أسند الحكم بن عوانة الإشراف على بناء المدينة إلى عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي وكان معه أيضاً منصور بن جمهور الكلبي الذي باسمه سمي الحكم بن عوانة مدينة المنصورة. وقد ذكر البلاذري (المتوفى سنة ٢٧٩هـ) ما يلي:

«كان عمرو بن محمد بن القاسم مع الحكم بن عوانة وكان يفوض إليه ويُقلده جسيم أموره وأعماله فأغزاه من المحفوظة، فلما قَدِم عليه وقد ظفر، أمره فبنى دون البحيرة مدينة وسماها المنصورة وهي التي ينزلها العمال اليوم»[١]، أي أنها أصبحت مقر عمال السند الأمراء منذ أيام الحكم بن عوانة ـ سنة ١١٤هـ ـ إلى أيام البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩هـ وكذلك قال ابن خلدون:

«وكان مع الحكم بن عوانة عمرو بن محمد بن القاسم وكان يفوض إليه عظائم الأمور وأغزاه من المحفوظة فلما قَدِم عليه وقد ظفر، أمره الحكم فبنى مدينة وسماها المنصورة وهي التي كان أمراء السند ينزلونها»[٢].

قال المسعودي في مروج الذهب: «وسُمّيت المنصورة باسم منصور بن جمهور عامل بني أُميّة»[٣] وهو منصور بن جمهور الكلبي ولم يكن عاملاً للسند آنذاك وإنما كان بمثابة نائب للحكم بن عوانة الكلبي، ويدل على تسمية المدينة باسمه على أنه ساهم بدور مهم في الإشراف على بناء المدينة وتشييدها، وسواءً كان الذي أشرف على البناء هو عمرو بن محمد بن القاسم أو بمشاركة منصور بن جمهور، فإن الذي قام بالتفكير والتخطيط لبناء المدينة ووفّر الأموال اللازمة لذلك هو الأمير الحكم بن عوانة فهو الباني للمدينة وهو الذي سماها المنصورة وجعلها عاصمة لولاية السند، وقد ذكر ياقوت الحموي: «أن مدينة المنصورة دائرية الشكل»[٤]. وذكر المقدسي: «أن المنصورة هي كبرى مدن إقليم السند، وأنها بحجم مدينة دمشق وأن بيوتها مبنية من الطين والخشب، ويقع المسجد في قلب المدينة وقد بُني المسجد بالحجارة والطوب ودعاماته التي تحمل السقف من خشب الساج. وكان لسور المدينة أربع بوابات هي باب البحر وباب التوران وباب السندان وباب الملتان. بحسب المناطق التي تؤدي إليها كل بوابة»[٥]، وكانت المنصورة ما تزال عاصمة السند إلى أيام المؤرخ المسعودي ـ عام ٣٣٢هـ ـ حيث ذكر المسعودي الأنهار التي تأتي من أعالي بلاد السند (أفغانستان) إلى المولتان (في شمال باكستان) ثم قال المسعودي ما يلي:

«وتجتمع الأنهار بعد المولتان بثلاثة أيام فيما بين المولتان والمنصورة في الموضع المعروف بدوسات، فإذا انتهى جميع ذلك إلى مدينة الرور من غربيها وهي

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٣١.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٤٤٨.

(٣) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص١٦٨ جـ١.

(٤) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ ص١٥٥.

(٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ المقدسي ـ ص٤٧٦.

من أعمال المنصورة سُمّي هنالك نهر مهران، ثم ينقسم قسمين ويصبُ كل من القسمين من هذا الماء العظيم المعروف بمهران السند في مدينة شاكرة من أعمال المنصورة في البحر الهندي (أي المحيط الهندي) وذلك على مقدار يومين من مدينة الديبل. والمسافة من المولتان إلى المنصورة خمسة وسبعون فرسخاً سندية، والفرسخ ثمانية أميال. وجميع ما للمنصورة من الضياع والقرى ثلاثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة»(١)، ويدل كل ذلك على الشأو العظيم لمدينة المنصورة التي بناها الأمير اليماني الحكم بن عوانة الكلبي وسُميت باسم الأمير اليماني منصور بن جمهور الكلبي.

وجاء في المصادر والدراسات الباكستانية عن مدينة المنصورة ما يلي نصه بالإنكليزية:

«About eight miles to the south-east of a little town now named Shad-had pur in the district of Sanghar in Sindh along the old bed of the river in-dus, and in the immediate Cicinity of the left bank of the Jamrao canal are located some low and high mounds of differnet dimesions and heights. These mounds represent the remains of an earlist known Arab city in Sindh which was founded by an Arab governor between 110/728 and 120/737 and had named it Al-Mansurah.. It has been related that on his arrival the governor hakam b. 'Awana Kalbi found the Arab Muslims Scattered all over the areas without having a place for shelter and compose. 'Awana Kalbi gathred all of them together and founded a cantonment for them. It was named as Al-Mah-fuza.. Later on, Amr Founded yet another city in the vicinty and named it Al-Mansuran, a symbol of victory of islam in sindh»(٢).

وترجمة ذلك بالعربية كما يلي:

«على بعد ثمانية أميال تقريباً من جنوب شرق المدينة الصغيرة المسماة شاهدابور في مقاطعة سنجار بالسند وعلى امتداد المجرى القديم لنهر إندوس، مباشرة بقرب الضفة اليسرى لقناة جامروا توجد تلال عالية ومنخفضة بأبعاد مختلفة وهي بقايا (أطلال) مدينة عربية ظهرت منذ وقت مبكر في السند، أسسها حاكم عربي - ما بين عام ١١٠ - ١٢٠هـ/ ٧٢٨ - ٧٣٨م - وسماها المنصورة.. عندما جاء الحاكم العربي حَكَم بن عوانة الكلبي وجد العرب المسلمين مشتتين (منتشرين) في أرجاء المنطقة وليس لهم مقرٌ يتحصنون فيه، فقام حكم بن عوانة بلم شتاتهم في

---

(١) مروج الذهب - المسعودي - ص١٦٨ جـ١.

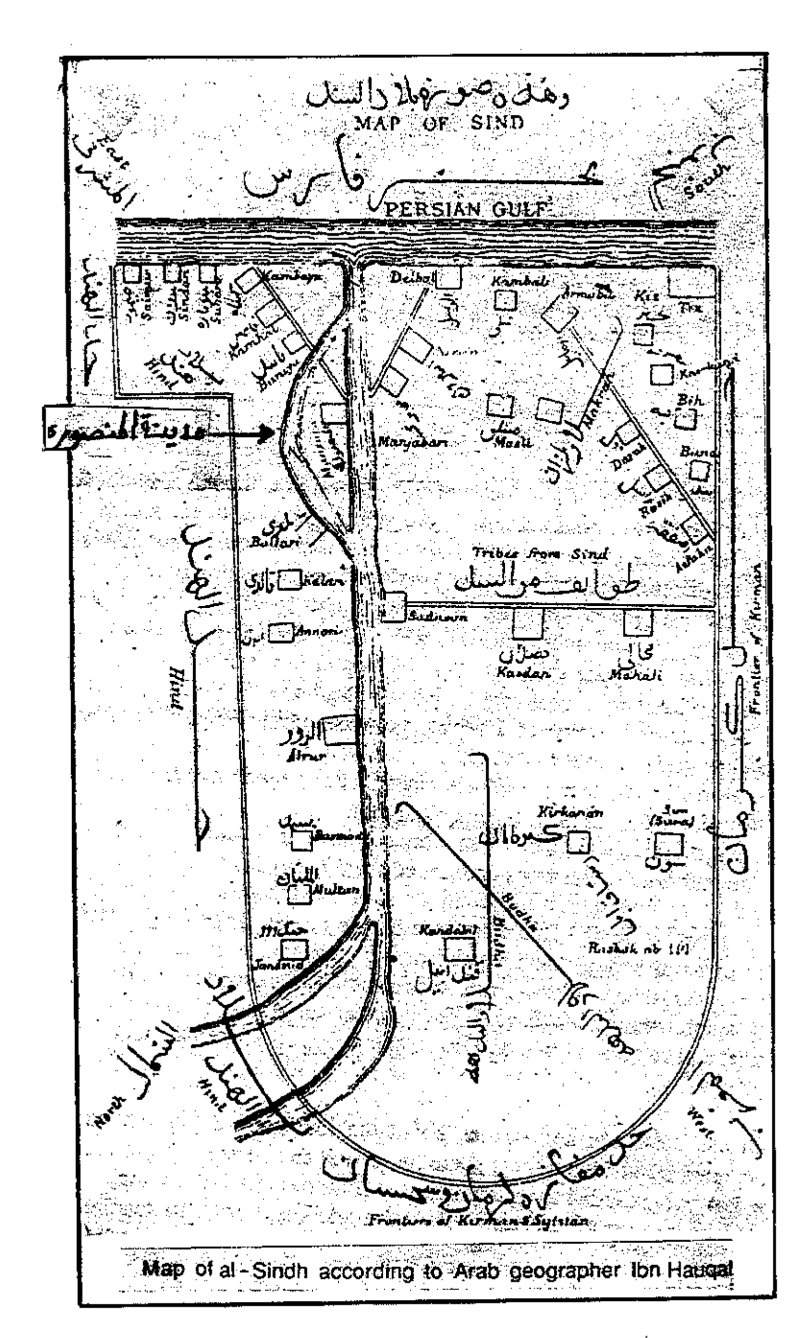
(٢) The City of Al-MANSURAH - ترجمة شوقي حسن الفرح.

وحدة سكنية إقليمية سماها المحفوظة . . وفميا بعد بَنَىٰ (الأمير) مدينة أخرى بالقرب منها وأسماها المنصورة كرمز للانتصار الإسلامي في السند»[١] .

ثم تذكر الدراسة «أن مدينة المنصورة ازدهرت وتوسعت مبانيها الدينية والعلمية العديدة وصارت مركزاً مزدهراً للأنشطة الاجتماعية والسياسية وللحضارة الإسلامية، وذاع صيتها في أرجاء العالم العربي . ولقد قِيل ودُوِّن الكثير عن مدينة المنصورة، وذكر المؤرخون منتجاتها الزراعية وأهميتها عند التجار العرب وعن علمائها البارزين وعن النخبة الذين هاجروا منها وصنعوا لأنفسهم مكانة واسماً في الأوساط الثقافية في العالم العربي . إن المؤرخين والرحالة والجغرافيين قد ذكروا تفاصيل غزيرة عن الموضوع، وأقدم هؤلاء البلاذري فقد ذكر أن المنصورة بُنيت على بُعد فرسخين من موقع مدينة برهمناباذ القديمة، وأشار الجغرافي ياقوت الحموي إلى أن مدينة المنصورة كانت دائرية الشكل وتقع عند خط عرض ٩٣ ضمن جزيرة تكونت من جراء التفاف فرع من نهر إندوس . وكان طقس المدينة حاراً ورطباً، وكان من أهم محاصيل المنصورة الأرز وقصب السكر والليمون والمانجو والموز وأنواع مختلفة من التمور، وكانت تُصدر بعض هذه المحاصيل إلى جهات مختلفة ومدن أخرى من دولة الخلافة . . وجدير بالملاحظة أن وصف المقدسي (سالف الذكر) لمدينة المنصورة يُشبِّهها بأي مدينة عربية مهمة في ذلك العصر، وكان الجامع أو المسجد هو المركز المحوري الذي ينبثق عنه بقية المراكز المهمة مثل دار الإمارة والمدارس والجامعة والأسواق والسرايا Serais وما شابه ذلك . . وعلى كل حال فقد كان مركز المنصورة وحالتها تابعاً لحالة حكامها من حيث الارتفاع والهبوط . وعموماً فقد ثبتت المدينة في مركزها البارز حتى أواخر القرن الثالث عشر»[١] ومؤدى ذلك أن مدينة المنصورة استمرت في مركزها البارز ببلاد السند (باكستان) زهاء خمسمائة سنة منذ بناها الأمير اليماني الحكم بن عوانة الكلبي وجعلها عاصمة لولاية السند . وقد استشهد الحكم بن عوانة وهو يجاهد في بلاد الهند، وقد ذكر البلاذري استشهاده ولم يذكر زمن ذلك ولا اسم الذي تولى السند بعده، ويبدو أنه استشهد في أواخر سنة ١١٨هـ أو في سنة ١١٩هـ، وتولى السند بعده منصور بن جمهور الكلبي حتى نهاية ولاية خالد بن عبد الله القسري للعراق والمشرقين سنة ١٢٠ هجرية .

* * *

(١) The City of Al-MANSURAH ـ ترجمة شوقي حسن الفرح .



Map of al-Sindh according to Arab geographer Ibn Hauqal

خارطة بلاد السند كما رسمها ابن حوقل.

ثالثاً: الولاة اليمانيون لبلاد السند بعد الحكم بن عوانة الكلبي

لقد كان الحَكَم بن عوانة تاسع الفاتحين والأمراء الولاة اليمانيين لبلاد السند، كما سلف التبيين، وكان من ولاة السند بعد ذلك كوكبة من الولاة الأمراء اليمانيين في بقية عصر الخلافة الأموية ثم عصر الخلافة العباسية. وسنذكرهم هنا لتتكامل المعرفة بالولاة اليمانيين لبلاد السند (باكستان) والدور العربي اليماني في تلك الآفاق. والولاة هم:

١٠ ـ محمد بن غزان الكلبي أمير السند وسجستان (١٢٦ ـ ١٢٩هـ)

كان محمد بن غزان الكلبي ومنصور بن جمهور الكلبي من القادة الذين دخلوا السند مع الحَكَمْ بن عوانة الكلبي. ولم تذكر المصادر اسم الذي تولى السند بعد الحكم بن عوانة. وقد عاد منصور بن جمهور إلى الشام، وكان محمد بن غزان أميراً للسند قبل عام ١٢٣هـ فقد ذكر الطبري: أن يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق ولّى عمرو بن محمد الثقفي بلاد السند «فأخذ محمد بن غزان الكلبي عمراً (وحبسه) وبعث به إلى يوسف الثقفي فضربه وألزمه مالاً عظيماً يؤدي منه في كل جمعة نجماً وإن لم يفعل ضُرب خمسة وعشرين سوطاً. فلما تولى منصور بن جمهور الكلبي العراق ـ في رجب ١٢٦هـ ـ ولاهُ السند وسجستان، فأتى محمد بن غزان سجستان وأخذ البيعة للخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ثم سار إلى السند، فأخذ عمرو بن محمد الثقفي وأمر به حرساً يحرسونه وقام ابن غزان إلى الصلاة فتناول عمرو سيفاً من الحرس فاتكأ عليه مسلولاً حتى خالط جوفه، وتصايح الناس فخرج ابن غزان وقال له: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قال: خفت العذاب، فقال: ما كنتُ أبلغُ منك ما بلغت من نفسك. فلبث عمرو ثلاثاً ثم مات. وبايع ابن غزان ليزيد بن الوليد في بلاد السند وأقام بها»[1]. وقد مكث محمد بن غزان والياً للسند وسجستان، وكان مقره مدينة المنصورة، وذلك حتى قدوم منصور بن جمهور إلى السند في أواخر عام ١٢٩هـ.

١١ ـ منصور بن جمهور الكلبي أمير العراق ثم أمير السند (١٣٠ ـ ١٣٤هـ)

هو الأمير اليماني منصور بن جمهور بن حصن بن عمرو الكلبي القضاعيّ الحميري، وهو «أمير، من الفرسان في العصر الأموي، وكان يسكن المَزَّة من ضواحي دمشق»[2]، ولما تولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦هـ ـ وكما ذكر الطبري ـ «ولّى يزيد بن الوليد منصور بن جمهور على العراق، وقَدِم منصور العراق لأيام خلون من رجب ١٢٦ هجرية وولى العمال وبايع ليزيد بن الوليد

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٩ وص٥٦ وص٨٠ جـ٩.
(٢) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص٥٩٤.

بالعراق وفي كورها، وأخرج العطاء لأهل العطاء والأرزاق، وولّى منصور محمد بن غزان الكلبي على السند وسجستان.. ووجّه أخاه منظور بن جمهور على (إقليم) الرّي.. وولّى عبيد اللّه بن العباس الكندي على الكوفة»[1]، ومكث منصور والياً للعراق ومشارقها إلى شوال ١٢٦هـ ثم عاد إلى الشام فكان مستشاراً للخليفة بدمشق إلى أن تغلب على الخلافة مروان بن محمد سنة ١٢٧هـ وأظهر التعصب ضد اليمانية، فتوجه منصور بن جمهور والعديد من القادة والفرسان اليمانيين إلى العراق وأشعلوا المعارضة ضد مروان بن محمد، وكان مع منصور ستمائة من الفرسان الكلبيين اليمانيين، ولم يزل منصور من قادة المعارضة بالعراق بل ـ وكما ذكر الطبري ـ «تغلب منصور بن جمهور على الماهين والجبل أجمع»[1]. وفي ذي القعدة سنة ١٢٩هـ بعث مروان بن محمد جيشاً كثيفاً فانهزم منصور بالكوفة ومضى إلى الماهين (في فارس) ثم «مضى منصور بن جمهور إلى السند»[1]، وعندئذ ـ في أواخر سنة ١٢٩هـ وأوائل سنة ١٣٠هـ ـ «استولى منصور بن جمهور على السند»[2] وكانت سيطرة منصور على السند بدون قتال لأن أميرها السابق محمد بن غزان الكلبي من أبناء عمومته، فأصبح منصور أميراً مستولياً على السند (بالمعارضة للخلافة المروانية). وكان من قادة المعارضة لمروان بن محمد بالشام رفاعة بن ثابت بن نعيم الجذامي، قال الطبري: «وأفلت رفاعة بن ثابت فلحق بمنصور بن جمهور، فأكرمه وولاه وخَلَّفه مع أخيه منظور بن جمهور فوثب عليه رفاعة فقتله، فبلغ منصوراً وهو متوجه إلى الملتان وكان أخوه بالمنصورة فرجع إليه فأخذ رفاعة فبنى له أسطوانة من آجر مجوفة وأدخله فيها ثم سَمّره إليها وبَنَىٰ عليه»[1]. ومكث منصور أميراً لبلاد السند (بالمعارضة لخلافة مروان بن محمد) حتى سقوط الخلافة المروانية وقيام الخلافة العباسية ومبايعة أبي العباس السفاح بالخلافة في شهر ربيع سنة ١٣٢هـ، فأيد منصور بن جمهور خلافة أبي العباس السفاح فأقرّه أبو العباس والياً للسند. وقد ذكر الطبري أنه: «كان العامل على البصرة في هذه السنة ـ وهي سنة ١٣٢هـ ـ سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب. وعلى فارس محمد بن الأشعث الخزاعي. وعلى السند منصور بن جمهور»[3]، وكذلك «في سنة ١٣٣هـ كان العامل على فارس محمد بن الأشعث، وعلى السند منصور بن جمهور»[3].

وفي سنة ١٣٤هـ وقع خلاف بين منصور بن جمهور وأبي العباس السفاح

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٩ وص٥٦ وص٨٠ جـ٩.
(٢) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص٥٩٤.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٤٧ و ١٥١ جـ٩.

«ووجّه أبو العباس موسى بن كعب التميمي وأربعة آلاف من العرب والموالي لقتال منصور بن جمهور، فساروا إلى السند، فلقيهم منصور في اثني عشر ألفاً، فانهزم الذين معه، ومضى منصور فمات في الرمال» وذلك سنة ١٣٤هـ الموافق ٧٥١م.

١٢ ـ عمر بن حَفْص الأزدي (هَزارمَرْدَ) أمير السند والهند (١٤٢ ـ ١٥١هـ)

هو الأمير اليماني عمر بن حفص الأزدي المعروف بلقب (هزارمَرْدَ). قال ابن الأثير: «هو عمر بن حفص بن عثمان بن قَبِيْصة بن أبي صُفرة، المعروف بهزارمرد، يعني ألف رجل»[1]. وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه « . . أمير، من الأبطال، كانت العجم تُسميه (هزارمرد) أي ألف رجل. وُلِّي إمرة السند في أيام المنصور العباسي»[2]. وكان عمر بن حفص من أعلام اليمانيين المقيمين بالبصرة حين تمرد عُيينة بن موسى بن كعب التميمي عامل السند حيث ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «في سنة ١٤٢هـ خلع عُيينة بن موسى بن كعب ـ الطاعة ـ بالسند وكان عاملاً عليها، فلما بلغ الخبر إلى المنصور سار بعسكره حتى نزل على جسر البصرة ووجّه عمر بن حفص عاملاً على السند والهند فحاربه عيينة فسار عمر حتى ورد السند فغلب عليها»[1]. وكذلك قال الطبري: «وَجَّه أبو جعفر المنصور عمر بن حفص عاملاً على السند والهند محارباً لعيينة بن موسى فسار حتى ورد السند والهند وغَلَبَ عليها»[1]. واستقر الأمير عمر بن حفص بمدينة المنصورة وشملت سلطته كل بلاد السند وأطراف الهند وكان بطلاً شجاعاً فسماه العجم (هَزارمَرْدَ) أي ألف رجل، ومكث والياً للسند والهند تسع سنين من عام ١٤٢ ـ ١٥١ هجرية، ثم كتب إليه الخليفة أبو جعفر المنصور بالقدوم إليه سنة ١٥١هـ فلما قَدِم إليه من السند ولاهُ على إفريقية الشمالية، فانتقل من شرق دولة الخلافة إلى غربها، ومكث عمر بن حفص والياً لإفريقية الشمالية حتى وفاته في ذي الحجة سنة ١٥٤ هجرية.

١٣ ـ رَوْح بن حاتم المهلّبي أمير السند (١٥٩ ـ ١٦١هـ)

هو الثالث عشر من الأمراء اليمانيين لبلاد السند الذين كان أولهم جده المهلّب بن أبي صفرة (سنة ٤٤هـ) فهو الأمير رَوْح بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب، وكان من الشخصيات القيادية بالبصرة، وساهم في قيام الخلافة العباسية، وولّاه أبو جعفر المنصور إمرة وقيادة مناطق الأهواز وفارس وتخليصها من قوم من الخوارج، فسار إليهم روح بن حاتم بجيش كان من المبعوثين فيه الشاعر أبو دلامة، فلما تواجه الفريقان للقتال قال أبو دلامة:

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٠ جـ٥.

(٢) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ص٤٠٦.

إنِّي أعوذُ بِرَوْحٍ أن يُقدِمَنّي إلى البراز فَتُخزى بي بنو أسد
إن المهلّب حُبَّ الموتِ أورثكم وما ورثتُ اختيار الموت من أحد

فأعفاه رَوْح من القتال، وهزم روح أولئك الخوارج، ومكث أميراً قائداً بتلك المنطقة، وتولى عدة مناصب إدارية وقيادية في خلافة المنصور. وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه « . . أمير، من الأجواد الممدوحين، وكان جابياً للمنصور العباسي، وولاه المهدي بن المنصور السند» [ص٢١٥] وقد: وُلِّي رَوْح بن حاتم بلاد السند عام ١٥٩هـ. وفي عهده تم فتح مدينة باربد من بلاد السند عام ١٦٠هـ. ومكث روح والياً للسند إلى عام ١٦١هـ وانتهت ولايته بتولية نصر بن محمد بن الأشعث فعاد رَوْح إلى البصرة وأصبح والياً للبصرة سنة ١٦٥ ـ ١٦٨هـ ثم والياً لفلسطين في خلافة الرشيد (سنة ١٧٠ ـ ١٧١هـ) ثم أصبح والياً لإفريقية الشمالية سنة ١٧١ ـ ١٧٥هـ فكان من كبار الولاة حتى وفاته بالقيروان في رمضان سنة ١٧٤هـ.

١٤ ـ نصر بن محمد بن الأشعث أمير السند (١٦١ ـ ١٦٤هـ)

هو الأمير اليماني نصر بن محمد بن الأشعث بن عُقبة الخزاعي، وكان أميراً لفلسطين في خلافة أبي جعفر المنصور وخلافة المهدي بن المنصور إلى سنة ١٦١هـ، وقَدِم نصر من فلسطين إلى المهدي بن المنصور سنة ١٦١هـ حيث ـ كما ذكر الطبري ـ: «في سنة ١٦١هـ وُلِّي نصر بن محمد بن الأشعث السند مكان رَوْح بن حاتم، وشَخَص إليها حتى قَدِمها، ثم عُزِل، ووُجِّه إليها عبد الملك بن شهاب فقَدِمها على نصر، فبغته، فشخص نصر حتى نزل الساحل على ستة فراسخ من المنصورة، فأتاه عهده على السند فرجع إلى عمله، وقد كان عبد الملك بن شهاب أقام بها ثمانية عشر يوماً فلم يعرض له فرجع عبد الملك إلى البصرة». فمكث نصر والياً للسند من سنة ١٦١ ـ ١٦٤هـ وكان مقره مدينة المنصورة حتى وفاته سنة ١٦٤هـ وهو أمير للسند حيث ـ كما ذكر الطبري ـ «في سنة ١٦٤هـ توفي نصر بن محمد بن الأشعث بالسند» [ص٩/٣٤٥] وكانت وفاته في أواخر سنة ١٦٤ هجرية.

١٥ ـ المغيرة بن يزيد المهلّبي أمير السند (إلى عام ١٨٣هـ)

هو الخامس عشر من الولاة اليمانيين لبلاد السند، الأمير المغيرة بن يزيد بن حاتم بن قَبِيْصة بن المهلّب. وُلّي المغيرة بلاد السند في خلافة هارون الرشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الذي تولى الخلافة سنة ١٧٠هـ، ولم تذكر المصادر تاريخ تولية المغيرة على السند، وقد يكون ذلك عام ١٧١هـ، فمكث المغيرة والياً للسند إلى سنة ١٨٣هـ حيث اندلعت حركة خوارج قوية في كرمان والسند ودخل فيها الذين بالسند من قبيلة تميم، فتصدى لهم المغيرة وقاتلهم، فأصابوه في كمين

فقتلوه. قال أبو العباس المبرد « . .وفي المغيرة قال عبد اللّه بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب في قصيدة مُطولة:

إذا كرَّ فيهم كرَّةً أفرجوا له ... فِرار بغاث الطير صَادَفْنَ أجدَلا
وما نِيلَ إلا من بعيدٍ بحاصبٍ ... من النَّبْل والنُشّابِ حتى تَجَدَّلا
وإنّي لمُثْنٍ بالذي كان أهله ... أبو حاتم إن ناب دهرٌ فأعضلا
فتًى كان يستحيي من الذَمّ أن يرى ... له مخرجًا يوماً عليه ومدخلا
وكان يظنُّ الموت عاراً على الفتى ... يد الدهر إلا أن يُصاب فيُقتلا
وقد أطلق اللّهُ اللسان بقتل مَنْ ... قتلنا به منهم ومَنَّ وأفْضَلا
أناخ بهم داودُ يَصْرِفُ نابَهُ ... ويُلقي عليهم كلكلاً ثم كلكلا»[1]

١٦ ـ داود بن يزيد المهلّبي أمير السند وكَرْمَان (١٨٤ ـ ٢٠٥هـ)

هو الأمير داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب، وهو من كبار الولاة الأمراء، فقد كان والياً لشمال إفريقية (١٧٠ ـ ١٧١هـ) ووالياً لمصر (سنة ١٧٤ ـ ١٧٥هـ) وكان أخوه المغيرة والياً للسند فوقعت بالسند حركة للخوارج فقُتل المغيرة وسيطر الخوارج والذين معهم من قبيلة تميم على السند وكرمان وذلك في أواخر سنة ١٨٣هـ، فولّى الخليفة هارون الرشيد داود بن يزيد بلاد السند فانطلق إليها في أوائل سنة ١٨٤هـ حيث ـ كما ذكر الطبري ـ «دخلت سنة ١٨٤هـ وفيها ولّى هارون الرشيد داود بن يزيد بن حاتم المهلّبي السند»[2]. وقد انطلق داود من بغداد على رأس فرقة من الفرسان القحطانيين اليمانيين وفي طليعتهم آل المهلّب فاستلحموا الشراة (الخوارج) في كرمان، ومضوا إلى السند. وفي ذلك قال عبد اللّه بن محمد بن أبي عيينة:

« . . جَلَبنا الخيلَ من بغداد شعثاً ... عوابسَ تحملُ الأُسْد الغِضابا
بكلِّ فتًى أغَرَّ مُهَلّبِيٍّ ... تخالُ بضوءِ صورته شِهابا
ومِنْ قحطان كلَّ أخي حِفاظٍ ... إذا يُدعى لنائبةٍ أجابا
فما بلغَتْ قُرى كَرْمان حتى ... تَخَدَّدَ لحمُها عنها فذابا
وكان لهُنَّ في كَرْمَانَ يومٌ ... أمَرَّ على الشُراة بها الشَرابا
وإنّا تاركون غداً حديثاً ... بأرض السِنْد سعداً والرِبَابَا»

ومضى داود والذين معه إلى السند. قال أبو العباس المبرّد: «وقال

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص٢٥٨ جـ١.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٧١ جـ١٠.

عبد اللّه بن محمد بن أبي عُيينة في قتل داود بن يزيد بن حاتم مَنْ قَتَل بأرض السند بدم أخيه المغيرة:

أَفْنَىٰ تميماً سعدها وربَابها ... بالسند قَتْلُ مُغيرة ابن يزيد
صَعَقَتْ عليهم صعقةٌ عَتَكيَّةٌ ... جعلتْ لهم يوماً كيوم ثمود
.. قُدنا الجياد من العراق إليهم ... مثل القطا مستنةٍ لورودِ
يحملن من ولد المهلّب عُصبة ... خُلقت قلوبُهُم قلوب أسود»

وأعاد داود بن يزيد المهلبي الأمن والاستقرار وهيبة الدولة في كرمان وبلاد السند، واستقر بمدينة المنصورة، وكان شجاعاً شهماً كريماً. ومكث والياً لبلاد السند زهاء إحدى وعشرين سنة، وذلك منذ عام ١٨٤هـ في خلافة الرشيد إلى عام ٢٠٥هـ في خلافة المأمون بن الرشيد حيث توفي داود بالسند وهو والٍ عليها سنة ٢٠٥هـ الموافق ٨٢٠ ميلادية.

١٧ ـ بِشْر بن داود المهلبي أمير السند (٢٠٥ ـ ٢١٦هـ)

هو الأمير اليماني بِشْر بن داود بن يزيد بن حاتم بن قَبِيصة بن المهلّب، تولى بلاد السند عام ٢٠٥هـ، حيث ـ كما ذكر الطبري في تاريخ الأمم والملوك ـ «في سنة ٢٠٥هـ مات داود بن يزيد عامل السند فولاها المأمون بن الرشيد بِشر بن داود على أن يحمل إليه في كل سنة ألف ألف درهم» [ص٢٥٧/ ١٠]. قال أبو العباس المبرد « ..وفي بشر بن داود يقول إبراهيم السوّاق:

سَماؤك تُمْطِرُ الذهبا ... وحَرْبُك تَلْتَظي لَهَبَا
وأيُّ كتيبةٍ لاقتْكَ ... لم تَسْتحسن الهَرَبا»

[ص٢٥٠/ ١].

ومكث بشر بن داود المهلبي أميراً للسند والعلاقة طيبة بينه وبين الخليفة المأمون من سنة ٢٠٥ ـ ٢١١هـ ثم بدأت المشاكل بينهما سنة ٢١١هـ؛ لأن بشر بن داود لم يبعث في تلك السنة مبلغ المائة مليون درهم لأن إيرادات الولاية لم تسمح بذلك، قال الطبري: «في سنة ٢١١هـ ولّى المأمون حاجب بن صالح فهزمه بشر بن داود فانحاز حاجب إلى كرمان.. وفي سنة ٢١٣هـ خالف بشر بن داود المأمون وجبى الخراج ولم يحمل إلى المأمون شيئاً». وقال البلاذري: «إن بشر بن داود عصى وخالف المأمون فوجّه إليه المأمون غسان بن عباد وهو رجل من أهل سواد الكوفة، فخرج بشر إليه في الأمان وورد به مدينة السلام» ويدل مسير بشر بن داود مع غسان إلى المأمون ـ

حوالي سنة ٢١٦هـ ـ على أن بشر بن داود لم يخالف وإنما موارد السند لم تحتمل الأموال التي يريدها المأمون.

وبعودة بشر بن داود المهلبي من السند عام ١١٦هـ انتهت ولايته للسند والتي كانت زهاء عشر سنين، وكان بشر بن داود هو السابع عشر والأخير من الولاة اليمانيين لبلاد السند، وهو آخر الولاة الذين حكموا كل ولاية السند ومات بالبصرة بعد سنة ٢٢٠هـ (٨٣٤م).

وقد تولى السند بعد بشر بن داود عدة عمال في وقت واحد، لكل منطقة أمير، ولكن مدينة المنصورة استمرت كمدينة وعاصمة رئيسية فكانت عاصمة الإمارة الهبارية العربية منذ عام ٢٤٠هـ (٨٥٥م) واستمرت تلك الإمارة أكثر من مائة وسبعين سنة. وكان اسم آخر حكام المنصورة خفيف Khafif الذي قتله جيش محمد الغزنوي عام ٤١٦هـ (١٠٢٥م). وقد ثبتت المدينة في مركزها البارز حتى أواخر القرن الثالث عشر عندما تلقت الضربة الأخيرة وهُجرت. وتذكر دراسة باكستانية أنه «برزت نظريات كثيرة عن أسباب اختفاء مدينة المنصورة. وما أثار الجدل هو أن تحوّل مجرى النهر سَبَّبَ هجرة أهلها، وعداء جيرانها سبب نهايتها، فتحولت المنصورة إلى خرائب وأطلال تحولت مع الأيام إلى هضاب (تلال) عالية ومنخفضة تحكي الماضي المجيد».

٦٩، ٧٠

خالد بن عبد اللَّه القَسْري . .

أمير المشرقين وأسد بن عبد اللّه . . آخر عظماء الفاتحين

مِنْ عظماء الأمراء والزعماء اليمانيين الفاتحين هما الأميران خالد وأسد ابنا عبد اللَّه بن يزيد بن أسد بن كُرزْ بن عامر بن عبداللّه بن عبد شمس بن عقبة بن جرير بن شقّ الذي أخبر وبشر بالنبي محمد ﷺ قبل مبعثه بسبعة أجيال، وبه نبدأ.

* * *

تبشير شقّ وسَطِيح برسول اللَّه ﷺ

كان شقّ بن صعب وسَطِيح بن ربيعة من كبار كهان وعلماء اليمن في زمن الملك نصر يحمد بن معاهر الحميري وابنه الملك ربيعة بن نصر الحميري.

قال ابن هشام في السيرة النبوية: «واسْمُ سَطِيح: رَبيعُ بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عَدِي بن مازن بن غسان. وشقّ ـ هو ـ شقّ بن صعب بن يشكر بن رُهمْ بن أفْرَك بن قَسْر بن عبقر بن أنمار. . وأنمار: أبو بَجِيلة وخَثْعَم. . قالت اليمن: وبَجِيلة: بنو أنمار بن إراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. ويُقال: إراش بن عمرو بن لحيان بن الغوث. ودار بَجِيلة وخَثْعَم يمانية»[١].

وقال أبو الفرج الأصفهاني: «شق بن صعب هو الكاهن المشهور ابن يشكر بن رُهمْ بن أقزل ـ (والصواب: افْرَك) ـ وهو سعد الصَبِحْ بن زيد بن قَسْر بن عَبْقَر بن أنمار بن إراش بن عمرو بن لحيان بن الغوث بن القرز بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[٢].

قال ابن هشام: «وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة، فرأى رؤيا هَالَتْهُ وفَظِع بها، فلم يَدَعْ كاهناً ولا ساحراً ولا منجِّماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه. فقال لهم: إني قد رأيتُ رؤيا هَالَتْني وفَظِعْتُ بها، فأخبروني بها

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص١٢، جـ ١. (٢) الأغاني ـ الأصفهاني ـ ص٥٣، جـ١٩.

وبتأويلها. قالوا له: اقْصُصْهَا علينا نُخْبِرْكَ بتأويلها. قال: إني إنْ أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها. فقال رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيح وشقٍّ فإنه ليس أحد أعلم منهما، فهما يخبرانه بما سأل عنه»[١].

والملك ربيعة بن نصر ملك اليمن، قال عنه ابن خلدون: «كان ملك اليمن ربيعة بن نصر، وهو فيما قال ابن إسحاق: ربيعة بن نصر بن حارثة.. وقال ابن هشام: ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عمرو بن عامر. كان أبو حارثة تخلف باليمن بعد خروج عمرو بن عامر. فأقام ربيعة بن نصر ملكاً على اليمن بعد التبابعة الذين تقدم ذكرهم»[٢] يعني بعد ملوك سبأ التبابعة وبعد عصر مملكة سبأ وخروج الملك عمرو بن عامر بالأزد من مأرب عند انهيار سد مأرب. وقدتم العثور على نقوش باسم الملك نصر والد ربيعة بن نصر، وهو (نصر يحمد بن معاهر) نجل الملك القيل ذي معاهر، وقد ذكره المؤرخ نشوان بن سعيد الحميري في قصيدته عن ملوك وأذواء اليمن التبابعة، فقال في قصيدته:

أو ذو مَعاهِرَ غُلِّقتْ أبوابهُ فأتى لها الحَدَثانُ بالمفتاح

ثم قال في شرح البيت «هذا الملك ذو معاهر بن حسان الأضخم بن تُبع الأقرن، سُمِّي ذا معاهر لأنه أول مَنْ أحدث المعاهر لباب مدينة ظفار، وهي جُرُسٌ من ذهب كانت بباب ظفار، إذا فُتح الباب سُمع لتلك الجُرس صوتٌ من مكان بعيد»[٣]. وقد تم العثور على نقوش منحوتة بقلم المُسند الحميري باسم نجله الملك (نصر يحمد بن معاهر) منها نقشان في موضع صخرة قاع المعسال في ردمان يسجلان قيام نصر يحمد بأعمال عمرانية في مدينة ردمان وقصرها شبعان سنة ٢١٦م وقد حمل الملك نصر يحمد في النقوش لقب (قَيْل ردمان وخولان وكل القبائل التي تَقَيّل عليها) وهي قبائل حمير وخولان ومذحج، كما تم العثور على نقش مسند باسم (نصر يحمد بن معاهر) في موقع جبل القرنين بشبوة، ونقش رابع باسم نائبه كرب إبل ذي معافر في موقع مدينة السوا بناحية المعافر ـ محافظة تعز حالياً ـ مما يدل على امتداد حكم نصر يحمد إلى المعافر وساحل البحر الأحمر غرباً، وإلى ردمان ـ البيضاء ـ وشبوة وخولان شرقاً وشمالاً، وكان عهده في القرن الثالث الميلادي ثم حكم بعده أولاده ومنهم الملك ربيعة بن نصر[٤].

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص١٢، جـ ١.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد حسين الفرح ـ ص٧٧.
(٣) قصيدة ملوك وأذواء حمير ـ نشوان بن سعيد الحميري ـ ص١٤٧.
(٤) كتاب تبابعة اليمن السبعين ـ محمد حسين الفرح ـ ص٦٣٧ ـ ٦٣٨.

فلما رأى الملك ربيعة بن نصر الرؤيا التي هالته وأشار عليه الذين استدعاهم أن «يبعث إلى سَطِيح وشقّ فإنه ليس أحدٌ أعلم منهما» قال ابن هشام: «فبعث إليهما، فقَدم عليه سَطِيح قبل شق، فقال له: إني قد رأيتُ رُؤْيَا هَالَتْنِي وفَظِعْتُ بها فأخبرني بها، فإنك إن أصَبْتَهَا أصبت تأويلها. قال: أفْعَلُ، رَأَيْتَ حُمَمَةً، خَرَجَتْ مِنْ ظُلُمَة، فَوَقَعَتْ بأَرْضٍ تَهمَة، فَأَكَلَتْ مِنْها كُلَّ ذَاتِ جُمْجُمَة[1]. فقال له الملك: ما أَخْطَأتَ منها شيئاً يا سَطِيح فما عندك في تأويلها؟ فقال: أَحْلِفُ بما بين الْحَرَّتَيْنِ من حَنَش، لَتَهْبِطَنَّ أَرْضَكُمُ الْحَبَشْ، فَلَيَمْلِكُنَّ مَا بَيْنَ أَبْيَنَ إلى جُرَش. فقال له الملك: وأبيك يا سَطِيحٌ إن هذا لنا لغائِظٌ مُوجِعٌ فمتى هو كائن؟ أفي زماني هذا أم بعده؟ قال: لا، بل بعده بحين، أكثر من ستين وسبعين يمضين من السنين. قال: أفيدوم ذلك مِنْ ملكهم أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع لبضع وسبعين (والأصوب: لبضع وأربعين)[2]. من السنين، ثم يُقْتَلون ويخرجون منها هاربين. قال: وَمَنْ يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إِرم بن ذي يزن، يَخْرُجُ عليهم من عدن، فلا يترك أحداً منهم باليمن[2]. قال: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع، قال: ومن يقطعه؟ فقال سَطِيح: نَبِيٌّ زكيٌّ، يأتيه الوَحْيُ من قبل الْعَلِيِّ؛ قال: وممَّنْ هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملك في قومه ـ (أو أُمّته) ـ إلى آخر الدهر. قال الملك: وهل للدهر من آخر؟ قال سَطِيح: نعم، يومٌ يُجمع فيه الأولون والآخرون، يَسْعَدُ فيه المحسنون، ويشقى فيه المُسِيئون. قال الملك: أحَقٌّ ما تخبرني؟ قال سَطِيح: نعم، والشَّفَقُ والْغَسَق، والفلقُ إذا اتسق، إنَّ ما أنبأتك لَحَق.

ثم قَدِم عليه شقّ بن صعب فقال له الملك ربيعة كقوله لسَطِيح، وكتمه ما قال سطيحُ لينظُر أيتفقان أم يختلفان. فقال شق: نعم، رأيت حُمَمَة، خرجت من ظُلُمة، فوقعت بين رَوْضَة وأَكَمَة، أكلت منها كل ذات نسمة. فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد، إلا أن سَطِحياً قال: وقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة؛ وقال شق: وقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة. فقال له الملك: ما أخطأت يا شق منها شيئاً فما عندك في تأويلها؟

---

(١) الحُمَمَه: القطعة من النار. وظلمه: يعني من جهة البحر. وأرض تهمة: تهامة ساحلية. الجمجمة: الرأس، يعني رؤوس الناس.

(٢) وقع الغزو الحبشي إلى منطقة تهامة الساحلية باليمن سنة ٥٢٥م وقتلوا الملك الحميري ذا نواس، ثم حاربهم وأخرجهم الملك سيمفع ابن ذي يزن نجل ملشان أريم ذي يزن وأخرجهم من تهامة اليمن. ثم وقع الغزو الحبشي الثاني سنة ٥٣٣م وبلغوا صنعاء فأخرجهم سيف بن ذي يزن سنة ٥٧٢م.

قال شق: أَحْلِفُ بما بين الْحَرَّتَيْنِ من إنسان، لَيَنْزِلَنَّ أَرْضَكُمُ السُّودَانُ، وَلَيَمْلِكُنَّ مَا بَيْنَ أَبْيَنَ إِلَى نَجْرَان.

فقال الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائِظٌ مُوجِعُ فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ ومَنْ يقطعه؟

قال شق: لا، بل بعده بزمان، ثم يستنقذكم منه عظيم ذو شأن، يذيقهم أشد الهوان.

قال الملك: ومَنْ هذا العظيم الشأن؟

قال شق: غلامٌ ليس بِدَنِيٍّ ولا مُدَنٍّ، يخرج عليهم من بيت ذي يَزَنْ فلا يتركُ أحداً منهم باليمن.

قال الملك: أفيدوم سلطَانه أم يتقطع؟[1]

قال شق: بل ينقطع برسول مُرسل يأتي بالحق والعدل بين أهل الدين والفضل، يكون الملكُ في قومه - أو في أُمته - إلى يوم الفصل.

فقال الملك: وما يوم الفصل؟

قال شق: يومُ تُجْزَىٰ فيه الوُلَاة، ويُدْعَى فيه من السماء بدَعَوات، يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجمع فيه بين الناس لميقات يكون فيه لِمَن اتقى الْفَوْزُ والخيرات.

قال الملك: أحقٌّ ما تقول؟

فقال شقّ: إي وَرَبِّ السماء والأرْض، وما بنيهما من رَفْع وخَفْض، إنَّ ما أنبأتك به لحقٌّ ما فيه أَمْضُ»[2].

وقد تناقل ملوك اليمن الحميريون وأقيال وكهان اليمن ذلك الخبر وذلك التبشير بأنه سيأتي (نبيّ زكِيّ يأتيه الوحي من العليّ، رسولٌ مُرسل يأتي بالحق والعدل، ويكون المُلك في أُمته إلى يوم الفصل. وقد تحقق غزو الأحباش واحتلالهم مناطق

---

(١) يعني سلطان ابن ذي يزن والبيت اليزني من بعده، وقد حكم سيف بن ذي يزن عشرين سنة (٥٧٢ - ٥٩٠م) ثم حكم معدي كرب بن سيف بن ذي يزن ثلاث سنوات (٥٩٠ - ٥٩٣م) ثم احتل وحكم الفرس صنعاء وبعض المناطق ولكن مناطق سرو حمير وأبين وشبوه وغيرها استمر فيها حكم أقيال حمير وكان منهم زرعة بن سيف بن ذي يزن الذي كتب إلى رسول الله ﷺ وآمن به مع أقيال وقبائل حمير.

(٢) قال ابن هشام: «أمضّ يعني شكا، هذا بلغة حمير، وقال أبو عمرو: أمضْ - أيّ باطل». ص١٣، جـ١ - السيرة النبوية.

من اليمن ثم حاربهم وقضى عليهم اليمانيون بزعامة الملك سيف بن ذي يزن سنة ٥٧٢م وذلك لسنتين من مولد النبي الزكيّ الذي سيأتي بالحق والعدل، وكان سيف بن ذي يزن من العارفين بالتبشير بالنبيّ الزكيّ، وكذلك كان من العارفين أحفاد شق بن صعب، وكان منهم في عهد سيف بن ذي يزن القيل (كُرْزُ بن عامر بن عبد اللّه بن عبد شمس بن عقبة بن جرير بن شق الْقَسْري)، وقد كان أقيال وزعماء مناطق اليمن ـ ومنهم كرز بن عامر ـ عند الملك سيف بن ذي يزن في قصر غمدان بصنعاء عندما قَدِم إليه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم، فأخبره وبشره سيف بن ذي يزن بالنبيّ الرسول الذي يأتي بالحق والعدل، وكان ذلك لسنتين من مولده، وأمره بكتمان ذلك حتى يبعثه اللّه عز وجل.

وكان كُرْز بن عامر ـ حفيد شق بن صعب الْقَسْري ـ زعيم قبيلة قَسْر وغيرها من عشائر بَجِيلة في منطقة قَسْر وبَجِيلة في السراة بأعالي اليمن في عهد سيف بن ذي يزن وفترة الجاهلية، فقد ذكر الأصفهاني عن هشام بن الكلبي وغيره من علماء التاريخ أنه: «كان لكُرْز بن عامر، ولابنه أسد بن كُرز، سؤددٌ وشرفٌ وجُودٌ، وكان يُقال الكرز: كُرزُ الأعِنة ـ أي أعِنة الخيول ـ وإياه عَنَىٰ قيس بن الخطيم الأوسي بقوله:

فإنْ تنزِل بذي النَجَداتِ كُرْزٍ ... تلاق لديه شرباً غير نَزْر

ويمنعُ مَنْ أراد ولا يَعايا ... مقاماً في المحلة وسط قَسْرَ»

وقد مات كرز بن عامر قبل الإسلام وانتقلت مرتبته من الزعامة إلى نجله أسد بن كُرْز بن عامر الْقَسْري.

أنباء الزعيم الصحابي أسد بن كُرْز القَسْري

هو الصحابي أسد بن كُرْز بن عامر بن عبد اللّه بن عبد شمس بن عقبة بن جرير بن شقّ بن صعب[١] ابن يشكر بن رُهَمْ بن أفْرَك وهو سعد الصَبِح بن زيد بن قَسْر القَسْري البَجَلْي اليماني.

قال الأصفهاني: «وكان أسد بن كُرْز يُدعى في الجاهلية: ربُّ بَجِيلة. وله يقول القَتّال السحمي:

فأبْلِغ ربّنا أسد بن كُرْز ... بأن النأي لم يَكُ عن تقالي

وله يقول القتال السحمي أيضاً يعتذر:

فأبْلِغْ ربّنا أسد ابن كرْزٍ ... بأني قد ضَلِلتُ وما اهتديتُ»

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حَجَر العسقلاني ـ ص٣٣، جـ١.

ومثل ذلك قول امرئ القيس بن حُجر الكندي في الملك مَرْثَد بن ذي جَدَن الحميري:

وإذْ نحنُ ندعُو مَرْثَد الخير ربّنا وإذْ نحن لا ندعو عبيداً لِقرْمَلِ

فالمقصود بقولهم: (ربنا) هو (سيدنا ومليكنا)، ويقال: (أنا رَبُّ إبلي) ويقال: (رَبُّ البيت). فكان أسد بن كُرْز يُدعى في الجاهلية: رب بجيلة، بمعنى سَيْدُ بَجِيلة، بل إن قول القتال السمحي الخثعمي (ربنا أسد بن كُرْز) يعني أنه (رب بَجِيلة وخَثْعم) لأن السحمي من بني سحمة من خَثْعم، وكانت بَجِيلة وخثعم قبيلتين يمانيتين متجاورتين، قال ابن هشام في السيرة النبوية: «ودار بجيلة وخثعم يمانية»، يعني أن منطقة بَجِيلة وخَثْعم في اليمن وهي في أرض السَرَاة بأعالي اليمن، قال الحسن بن أحمد الهمداني: «أرض السَرَاة.. سَرَاة بني علي وفَهْم، ثم سراة بَجيلة، والأزد بن سلامان.. إلى جُرش.. ومدينة السَرَاة اسمها الجهوة وهي أكبر من جُرش.. وبلد خثعم: أعراض بَيْشة، وترج، وتُبالة، والمراغة»[(١)].

فكان أسد بن كُرْز من زعماء اليمن الأقيال وكبير بَجِيلة وخثعم في أرض السراة ـ شمال نجران ـ بأعالي اليمن، فاستجار به ذات مرة في الجاهلية رجلٌ كان بنو سحمة الخثعميون يطلبونه، فأجاره أسد، ولكن بني سمحة أغاروا على إبل لذلك الرجل، قال الأصفهاني: «كان قوم من بني سحمة عرضوا لجار الأسد بن كُرْز، فأطردوا إبلاً له فأوقع بهم أسدٌ في الجاهلية وتبعهم حتى عاذوا به.. ولبني سحمة يقول أسد بن كُرْز وكان شاعراً فاتكاً مغواراً:

ألّا ابْلِغا أبناء سحمة كلّها فتى خثعم عني، وذلُّ لِخَثْعَم
فما أنتُمْ مني ولا أنا مِنكُمْ فراش حريق العرفج المُتَضَرمِ
فلستُ كَمَنْ تذري المقّالة عرضه دنيئاً كعودِ الدوحة المترنم
وما جار بيتي بالذليل فَتُرْتَجَىٰ ظلامتُهُ يوماً، ولا المُتَهضم
وأفْرَكُ آبائي، وقَسْرُ عمارتي هُمَا رديانى عزّتي وتكرمي
وأحمسُ يوماً إن دعوتُ أجابني عرانينُ منهم أهل أيدٍ وانْعُم

.. وهي قصيدة طويلة، ولأسد أشعار كثيرة ذكرتُ هذه منها ههنا لأنَ تَعْلَم إعراقهم في الشعر.. فقال القتال السحمي فيه عدة قصائد يعتذر إليه لقومه ويستقيله فعلهم بجاره، ولم أذكرها ههنا لطولها..»[(٢)] ومنها القصيدة التي قال فيها:

---

(١) صفة جزيرة العرب ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٥٨ ـ ٢٦٠.
(٢) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص٥٣، جـ١٩.

فـابْـلـغ ربّـنـا أسَـدَ ابـن كُـرْز ... بـأنّـي قـد ضَـلـلـتُ ومـا اهـتـديـتُ

فأقالهم أسد عما فعلوا بإبل جاره، وعفا عنهم.

وكان جرير بن عبد اللّه البَجلي يُضاهي أسد بن كُرْز الْقَسْري في الزعامة بالجاهلية، كان كلٌّ منهما يتزعم بعض عشائر وبطون قبيلة بجيلة، وكانت تجاورهم بأرض السراة قبيلة نهد القضاعية الحميرية، قال ابن خلدون: «بلد بني نَهْد من قضاعة في أجوان السروات وتَبَالة، جوار خثعم. والعامة تُسميهم السّرْو، وأكثرهم أخلاط من بَجِيلة وخثعم»[1]. قال الأصفهاني: «وكان جرير بن عبد اللّه نَافَرَ قُضَاعة ـ (أي نَافَرهم للقتال) ـ فبلغ ذلك أسد بن كُرْز، وكان بينه وبين جرير تباعُد، فأقْبَل أسد في فوارس من قومه مناصراً لجرير ومعاوناً له ومُنْجِداً، فلما أقْبَل ورآه جرير ورأى أصحابه في السلاح ارتاع وخافه، فقيل له: هذا أسد جاءك ناصراً لك، فقال جرير: ليت لي بكل بلد ابن عم مثل أسد. فقال جعدة بن عبد اللّه الخزاعي يذكر ذلك من فعل أسد:

تـدارك ركـض الـمـرء مـن آل عَـبْـقَـرٍ ... جـريـراً وقـد رانـت عـلـيـه حـلائـبُـه

فَـنَـفّـسَ واسـتـرخـى بـه الـعـقـدُ بـعـدمـا ... تـغـشـاه يـوم لا تـوارى كـواكُـبَـه

وَقَـاكَ ابـنُ كُـرْز ذو الـفـعـال بـنـفـسـه ... ومـا كـنـت وصـالاً لـه إذْ تُـحـاربُـه..»

ولما رأت قُضاعة قدوم أسد بن كُرْز وانضمامه إلى جرير بن عبد اللّه، استجابوا للصلح والوفاق، وتم حَلّ النزاع القبلي ودياً.

وكان أسد بن كُرْز من الشخصيات المشهود لهم بمكارم الأخلاق. قال ابن الكلبي: «كان لكُرْز بن عامر، ولابنه أسد بن كُرْز، سؤددٌ وشرفٌ وجُودٌ» وقد ذكر جعدة الخزاعي بعض مكارم أخلاق أسد بن كُرْز قائلاً:

إلـى أسـدٍ يـأوى الـذلـيـلُ بـبـيـتـهِ ... ويـلـجـأ إذْ أعـيـت عـلـيـه مـذاهـبُـه

فتى لا يزالُ الدهر يحمل معظما ... إذا المجتدى المجدول ضَنّت رواحبُه

قال الأصفهاني: (وله يقول تأبط شرًّا):

وجـدتُ ابـن كُـرْز تـسـتـهـل يـمـيـنـه ... ويُـطـلـق أغـلال الأسـيـرِ الـمُـكَـبّـلِ»

ومن مكارم الأخلاق التي انفرد بها أسد بن كُرْز ونفر يسيرفي الجاهلية تحريمهم الخمر، قال أبو علي القالي: «حَرَّمَ رجالٌ الخمر في الجاهلية تَكَرُّماً وصيانة لأنفسهم». وقد ذكر أبو علي القالي من أولئك الرجال زعيمين من اليمانيين

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٦٦٢.

هما عفيف بن معدي كرب الكندي عم الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي زعيم حضرموت، وسُوَيْد بن عَدِي بن عمرو المَعْني الطائي. قال الأصفهاني: «وكان أسد بن كُرْز الْقَسْري ممَّن حَرَّم الخمر في الجاهلية تنزهاً عنها». ثم كان أولئك اليمانيون الثلاثة من الذين بادروا إلى الإيمان بدين التوحيد وبالنبيّ الزكيّ المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق.

* * *

لقد انتشر الإسلام في منطقة السَرَاة بأعالي اليمن منذ السنوات الأولى للبعثة النبوية بمكة المكرمة، فكان من أوائل السابقين إلى الإسلام الكاهن سواد بن قارب وارث علم شقّ وسطيح، والطبيب ضماد بن ثعلبة الأزدي، والزعيم الطفيل بن عمرو الدوسي الذي نشر الإسلام في قبيلة دوس بمنطقة السَرَاة، وغيرهم من السابقين إلى الإسلام قبل الهجرة النبوية، وكان جرير بن عبد اللّه البجلي وأسد بن كُرْز الْقَسْري ممّن أسلموا في منطقتهم بسراة أعالي اليمن منذ وقت مبكر قبل مسيرهم ووفادتهم إلى النبيّ ﷺ بعد صلح الحديبية الذي أتاح صيرورة الطريق آمنة بين اليمن والمدينة المنورة، فانطلق المئات من المؤمنين إلى المدينة المنورة سنة ٧هـ مع الطفيل بن عمرو الدوسي، وكان أول من سار من بَجِيلة الزعيم الصحابي جرير بن عبد اللّه البَجَلي وقال رسول اللّه ﷺ عند قدومه: «يطلع عليكم من هذا الفج خيرُ ذي يَمَنْ على وجهه مَسْحة مَلَكْ». فنظروا، فإذا جرير بن عبد اللّه البجلي طالع من الثنيّة، فأخذ جرير والذين معه أماكنهم في موكب الرسول، ثم رجعوا إلى منطقة بَجِيلة وخثعم باليمن بعد فتح مكة، وعاد جرير بن عبد اللّه إلى المدينة المنورة، وقد سلفت وثائق ذلك في المبحث الخاص بجرير. وقد اشتاق أسد بن كُرْز الْقَسْري إلى رؤية وصحبة رسول اللّه ﷺ، فانطلق من اليمن ومعه ابنه يزيد بن أسد بن كُرْز وكوكبة من فرسان قَسر وبجيلة إلى المدينة المنورة ـ سنة ٩هـ ـ فأخذ أسد مكانه في موكب الرسول وتشرف هو وابنه يزيد بن أسد بصحبته، وصارا من الصحابة.

ومن المفيد الإشارة إلى أن أبا الفرج الأصفهاني قال في كتاب الأغاني: «أدرك أسد بن كُرْز الإسلام هو وابنه يزيد بن أسد، فأسلما، فأما أسد فلا أعلمه روى عن رسول اللّه ﷺ رواية كثيرة بل ما روى شيئاً». فقول الأصفهاني: «بل ما روى شيئاً». يعود إلى أن الأصفهاني ليس من أهل العلم بالروايات والأحاديث والصحابة وإنما هو يجمع الشعر والأغاني والمنادمات، فالصحيح أن أسد بن كُرْز روى أحاديث نبوية أخرجها علماء الأحاديث وأصحاب تراجم الصحابة.

الحديث الأول: قال الحافظ ابن حجر في ترجمة أسد بن كُرْز الْقَسْري بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «روى ابن مندة من طريق عبد اللّه بن الفضل بن

عاصم بن عمر بن قَتَادة، قال: حدثني أبي عن أبيه عن جده عن قتادة بن النعمان، قال: أهدى أسد بن كُرْز إلى رسول اللَّه ﷺ قوساً. الحديث. ورُويناه من وجه آخر عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد اللَّه البجلي قال: أسلم أسد بن كُرْز ومعه رجل من ثقيف فأهدى إلى النبي ﷺ قوساً. الحديث»[١]. وتتمة الحديث: «فقال له رسول اللَّه ﷺ: يا أسد من أين لك هذه النبعة؟ فقال: يا رسول اللَّه تنبت بجبلنا بالسراة. فقال الثقفي: يا رسول اللَّه الجبل لنا أم لهم؟ فقال: بل الجبل جَبَلُ قَسْر». وجاء آخر هذا الحديث في كتاب الأصفهاني: «بل الجبل جبل قَسْر، به سمى إبراهيم قسر عبقر»[٢].

الحديث الثاني: قال الحافظ ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: «أسد بن كُرْز بن عامر الْقَسْري جدَّ خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري. حديثه عند يونس بن أبي إسحاق عن إسماعيل بن واسط عن خالد بن عبد اللَّه بن يزيد بن أسد الْقَسْري عن جده أسد بن كُرْز: سمع النبي ﷺ يقول: إن المريض لَتحاتُ خطاياه كما يتحات الشجر»[٣]. وقال الحافظ ابن حجر: «روى عبد اللَّه بن أحمد في زيادات المسند، وأبو يَعْلَىٰ، والبغوي، من طريق إسماعيل بن واسط عن خالد الْقَسْري عن جده أسد بن كُرْز: سمع النبي ﷺ يقول: المريض تحات خطاياه. الحديث»[١]. وقال الحافظ ابن كثير: «. . وروى عن جده عن النبي ﷺ في تكفير المرض للذنوب»[٤] يعني حديث «المريض تحات خطاياه كما تحاتُّ الشجر».

الحديث الثالث: ـ قال الحافظ ابن كثير في ترجمة خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري بكتاب البداية والنهاية: «روى عن أبيه عن جده أن رسول اللَّه ﷺ قال له: (يا أسد أتحبُّ الجنة؟ قال: نعم، قال رسول اللَّه ﷺ: فأحبْ للمسلمين ما تحب لنفسك). رواه أبو يعلى عن عثمان بن أبي شيبة عن هيثم عن سيار عن أبي الحكم أنه سمعه على المنبر يقول ذلك»[٤].

الحديث الرابع: قال الحافظ ابن حَجَر: «وروى البخاري في تاريخه، والطبراني، وابن السكن، من طريق أرطأة بن منذر السكوني عن مهاجر بن حبيب

---

(١) الإصباة في تمييز الصحابة ـ للحافظ ابن حجر ـ ص٣٣، جـ١.

(٢) جاء في السيرة النبوية لابن هشام أنه: « . . قسر بن عبقر» وكذلك في تاريخ ابن خلدون وسائر المصادر، مما يشير إلى أن أصل الكلمة الأخيرة قد لا يكون «به سمي إبراهيمُ قَسْراً عبقرْ» وقد يكون الأصل «به لقى إبراهيم قَسْرَ بن عبقر». واللَّه أعلم.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ الحافظ ابن عبد البر ـ ص٩٩، جـ١.

(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٧، جـ١٠.

عن أسد بن كُرْز قال، قال لي رسول اللّه ﷺ: يا أسد بن كُرْز لا تدخل الجنة بعمل ولكن برحمة اللّه. إسناده حَسَنٌ»[1].

وقال الحافظ ابن عبد البر: «ذكر ابن أبي حاتم عن أبيه: أن أسد بن كُرْز روى عنه أيضاً ضُمرة بن حبيب والمهاجر بن حبيب. وقال: له صحبه»[1]. ولم يذكر الحديث الذي رواه المهاجر بن حبيب، والظاهر أنه نفس الحديث السالف الذي رواه البخاري والطبراني وابن السكن. أما الحديث الذي رواه ضُمرة بن حبيب ولم يذكره ابن عبد البر فالظاهر أنه حديث خامس.

الحديث الخاتم: ـ قال الحافظ ابن حجر: «وقال أسد بن كُرْز: يا رسول اللّه إدْعُ اللّه لي، فدعا له»[1]. وهذا الحديث جاء في ختام الحديث الأول الذي (رواه ابن مِندة من طريق عبد اللّه بن الفضل عن عاصم عن عمر عن قتادة بن النعمان.. ومن وجه آخر عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد اللّه البجلي: قال أسد: يا رسول اللّه ادْعُ لي، فقال رسول اللّه ﷺ: اللهم اجعل نصرك ونصر دينك في عقب أسد بن كُرْز».

ومن المفيد التنبيه هنا إلى أن أبا الفرج الأصفهاني الذي زعم أن أسد بن كُرْز «ما روى شيئاً» ذكر هذا الحديث بسنده: إن رسول اللّه ﷺ قال: (اللهم اجعل نصرك ونصر دينك في عقب أسد بن كُرْز)، ثم قال الأصفهاني: «وما أدري ما أقول في هذا الحديث وأكرَهُ أن أكذِّب ما رُوِيَ عن رسول اللّه ﷺ، ولو كان دعا له بهذا الدعاء لم يكن ابنه مع معاوية بصِّفِين على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب». ثم تكلم الأصفهاني بكلام غير صحيح عن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري. وقد سلف تبيين عدم صحة قوله إن أسد بن كُرْز (ما روى شيئاً) فقد روى خمسة أحاديث نبوية ذكرها علماء الأحاديث وعلماء تراجم الصحابة وهي الأحاديث سالفة الذكر، وأما قوله عن حديث الدعاء: «لو كان دعا له بهذا الدعاء ما كان ابنه مع معاوية بصفين على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» فقد تجاهل الأصفهاني أن ما حدث كان فتنة انقسم فيها الصحابة وانقسمت فيها الأمة بعد مقتل عثمان بن عفان، فاتخذ عشرات الصحابة موقفاً مضاداً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومنهم طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين وعبد اللّه بن عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص والنعمان بن بشير الأنصاري وعشرات الصحابة والزعماء، فيزيد بن أسد الْقَسْري ليس إلّا واحداً منهم، وسيأتي النص التاريخي بأن موقفه كان أقرب إلى الاعتزال في حرب صِفِّين، وأما

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٣٣، جـ١ ـ والاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر ـ ص٩٩، جـ١.

مزاعم الأصفهاني عن خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري فقد ذكرها صاحب كتاب العقد وقال الحافظ ابن كثير تعليقاً عليها: «كان خالد قائماً في إطفاء الضلال والبدع، وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح، لأن صاحب العقد كان فيه تشيع شنيعٌ ومغالاة»[١]. ثم إن قول الأصفهاني عن حديث الدعاء: «ما أدري ما أقول في هذا الحديث، وأكره أن أكذّب بما روي عن رسول اللَّه ﷺ». هذا القول فيه اعتراف بأن هذا (حديث) وأنه «يكره تكذيب ما رويّ عن رسول اللَّه ﷺ». وهذا اعتراف بقوة الحديث، فعندما تهيأ أسد بن كُرْز للعودة إلى اليمن (قال: يا رسول اللَّه ادع لي. فقال رسول اللَّه ﷺ: اللَّهم اجعل نصرك ونصر دينك في عقب أسد بن كُرْز). وقد استجاب اللَّه للدعاء النبوي فكان لعقب أسد بن كُرْز دور كبير في نصر دين اللَّه، وكان أسد بن عبد اللَّه الْقَسْري آخر عظماء الفاتحين وسيأتي عن ذلك النبأ اليقين. ولم تذكر التراجم شيئاً عن أسد بن كُرْز بعد صحبته لرسول اللَّه ﷺ وعودته إلى اليمن وكان قد بلغ من الكبر عتياً، فعاش إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، وانتقلت مرتبته في الزعامة إلى نجله يزيد بن أسد.

* * *

أنباء الزعيم الصحابي يزيد بن أسد بن كُرْز الْقَسْري

هو الزعيم الصحابي ابن الصحابي يزيد بن أسد بن كُرْز بن عامر القَسْري، قال الحافظ ابن عبد البر في ترجمته بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: «يزيد بن أسد بن كُرْز ـ بضم الكاف وسكون الراء بعدها زاي ـ جدُّ خالد بن عبد اللَّه القَسْري، الأمير... وكان يزيد بن أسد مطاعاً في أهل اليمن عظيم الشأن»[٢].

وقد وَفَد يزيد بن أسد بن كُرْز إلى رسول اللَّه ﷺ وتشرف بصحبته، وكان من الصحابة، ومن المفيد التنبيه إلى أصل ما ذكره ابن حجر في ترجمته أنه «قال يحيىٰ بن معين: أهل خالد ينكرون أن يكون لجد خالد صحبة. وقد ذكر ذلك ابن عبد البر قائلاً: «حكى يحيىٰ بن معين عن أهل خالد القَسْري أنهم كانوا ينكرون أن يكون لجد خالد صحبة، قال يحيىٰ بن معين: ولو كان جدهم لقي النبي ﷺ لعرفوا ذلك ولم ينكروا. قال ابن عبد البر: هذا قول يحيىٰ بن معين، وخالفه الناس وعَدّوه في الصحابة»[٢]. وأصل ما حكاه يحيىٰ بن معين أن أهل خالد كانوا ينكرون أن يكون لجد خالد صحبة، فإنهم يقصدون بذلك كُرْز بن عامر الجد الأعلى لخالد،

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٨، جـ١٠.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ترجمة يزيد بن أسد ـ ص٦٥١، جـ٣ ـ والاستيعاب ـ لابن عبد البر ـ ص٩٩، جـ١ وص٦٥٢، جـ٣.

وقد كان الشعراء إذا مدحوا خالداً نسبوه إلى جده كُرْز بن عامر، ومن ذلك قول ابن الأعرابي في أبيات ذكرها الحافظ ابن كثير يمدح خالداً:

إليك ابن كُرْز الخيرِ أقْبَلْتُ راغباً لتجْبُر مني ماوَهَا وتَبَددا
إلى الماجد البهلول ذي الحلم والندى وأكرم خلقِ اللَّه فرعاً ومَحْتدا

فربما سأل البعضُ أهلَ خالد عن جده كُرْز بن عامر هل كان صحابيًّا، فينكرون أن يكون له صحبة لأنه مات قبل الإسلام ولم يلق النبي ﷺ. فظن الذي روى عنه يحيىٰ بن معين أنهم يقصدون يزيد بن أسد بن كُرْز، وليس كذلك فإن أسد بن كُرْز أدرك الإسلام وكان من الصحابة وقد سلف ذكر النصوص والأحاديث النبوية الدالة على وفادة وصحبة أسد بن كُرْز، وقد وَفَد يزيد بن أسد معه، وربما بعده أيضاً، ولذلك خالف سائر الناس وعلماء الأمة ما حكاه يحيىٰ بن معين وأجمعوا على أن يزيد بن أسد بن كُرْز من الصحابة. فقال الحافظ ابن عبد البر: «ليزيد بن أسد صحبة ورواية» وقال الحافظ ابن حجر: «يزيد بن أسد بن كُرْز جد خالد بن عبد اللَّه القَسْري الأمير.. ذكره ابن سعد وقال: كان ممّن وَفَدَ على النبي ﷺ. وقال البخاري: سمع يزيد بن أسد النبي ﷺ. وقال أبو حاتم الرازي: له صُحبة. وقال ابن حِبّان: له صحبة. وقال أبو عبد اللَّه المقدمي: له صحبة[١]».

وقد مكث يزيد بن أسد فترة في موكب الرسول بالمدينة المنورة، وقد أشار الأصفهاني إلى وفادته مع أبيه قائلاً: «أما يزيد بن أسد فقد ذكرتُ إسلامه وقدومه مع أبيه على النبي ﷺ». وذكر ابن سعد في طبقات الصحابة أن يزيد بن أسد «كان مِمّن وفَدَ على النبي ﷺ» مما قد يشير إلى وفادته مرة ثانية أيضاً، فمكث فترة في موكب الرسول بالمدينة حيث كما قال البخاري «سمع يزيد بن أسد النبي ﷺ» ولما تهيأ للعودة إلى اليمن أوصاه رسول اللَّه ﷺ بحديث ذكره الحافظ ابن حجر قائلاً: «وفي مسند عبد الحميد من طريق سيار بن أبي الحكم عن خالد بن عبد اللَّه القَسْري عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ قال له: يا يزيد بن أسد أحبْ للناس ما تُحب لنفسك. صححه الحاكم»[١].

وقد شهد حجة الوداع مع رسول اللَّه ﷺ جَمْعٌ غفير من سائر قبائل ومناطق اليمن وكان منهم المئات مِن بَجِيلة وخثعم مع جرير بن عبد اللَّه البَجلي مما يشير إلى أن أسد بن كُرْز ويزيد بن أسد كانا في ذلك الجمع، قال الحافظ ابن حجر في ترجمة جرير بن عبد اللَّه: «وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال له: اسْتَنْصِت الناس. في حجة

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ترجمة يزيد بن أسد ـ ص٦٥١، جـ٣ ـ والاستيعاب ـ لابن عبد البر ـ ص٩٩، جـ١ وص٦٥٢، جـ٣.

الوداع» وقال الحافظ ابن كثير: «قال رسول اللّه ﷺ لجرير في حجة الوداع: اسْتَنْصِتِ الناس، وإنما أمره بذلك لأنه كان خطيباً». وبعد أداء فريضة الحج ـ في ذي الحجة سنة ١٠هـ ـ عاد الذين شهدوا الحج إلى مناطقهم، وأقام يزيد بن أسد في منطقة بجِيلة بأعالي سراة اليمن، وانتقلت إليه زعامة أبيه، ثم انطلق من اليمن لنصرة دين اللّه والجهاد في سبيل اللّه بأرض الشام.

* * *

لقد كان يزيد بن أسد بن كُرْز من الصحابة والزعماء اليمانيين الذين انطلقوا على رأس فرسان ورجال قبائلهم حاملين رسالة الإسلام والحرية ومجاهدين جيوش الاحتلال الروماني ببلاد الشام. وكان مسير يزيد بن أسد في خلافة عمر بن الخطاب، وفي ذلك جاء في ترجمة يزيد بن أسد بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أنه:

«خرج يزيد بن أسد في أيام عمر في بعوث المسلمين إلى الشام، فكان بها، وكان مطاعاً في أهل اليمن عظيم الشأن».

فقد شهد يزيد بن أسد والذين معه فتوح الشام، والتي كان من أهمها في خلافة عمر موقعة نهر اليرموك الكبرى، ومصالحة أهل دمشق واستقرار جماعة من الصحابة وجنود الفتح بدمشق سنة ١٥هـ وفَتْحَ القدس أوائل سنة ١٦هـ وبقية فتوح الشام، فكلمة (فكان بها) تعني (فكان بالشام، استقر وسكن فيها)، والمنطقة التي سكنها هي مدينة دمشق، وكان له دار مشهورة بدمشق، وقد ذكرها ابن عساكر في ترجمة خالد الْقَسْري بكتاب تاريخ دمشق، قال ابن عساكر: «وكانت داره في مربعة القز، وتُعْرَفُ اليوم بدار الشريف اليزيدي»[(١)].

وقد استقرت بالشام عشائر يمانية كثيرة في الفتح ثم لحقت بهم كثير من عشائرهم بعد الفتوحات حتى أصبح أهل اليمن يمثلون الغالبية العظمى من الجند والقبائل العربية الإسلامية بالشام، وكان منهم الآلاف من بَجِيلة وخَثْعم مما أدى إلى صيرورة يزيد بن أسد من الرؤساء بالشام لأنه زعيمهم ولأنه من أقيال اليمن، فقد ذكر الأصفهاني عن هشام بن الكلبي أنه «كان يزيد بن أسد بالشام، مطاعاً في اليمن عظيم الشأن». وكذلك جاء في الإصابة أنه «كان مطاعاً في أهل اليمن عظيم الشأن». وذلك بالشام في خلافة عمر بن الخطاب ثم خلافة عثمان بن عفان حيث ولّى عمر بن الخطاب على الشام الصحابي معاوية بن أبي سفيان سنة ١٩هـ واستمر معاوية والياً للشام في خلافة عثمان بن عفان كما هو معروف.

قال البلاذري: «لما استُخلِف عثمان بن عفان كتب إلى معاوية وهو عامله على

---

(١) البداية والنهاية ـ ص١٧، جـ١٠ ـ عن تاريخ دمشق لابن عساكر ـ ص٦٧، جـ٥.

الشام والجزيرة وثغورها يأمره أن يوجه حبيب بن مَسْلمة الفهري إلى أرمينية. وكان حبيب ذا أثر جميل في فتوح الشام وغزو الروم. ويُقال: بل كتب عثمان إلى حبيب يأمره بغزو أرمينية، وذلك أثْبَت. فنهض إليها حبيب في ستة آلاف ويُقال ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة ـ الفراتية ـ»[1] وتتمثل علاقة يزيد بن أسد الْقَسْري بذلك في مسير ابنه عبد اللّه بن يزيد مع حبيب بن مسلمة، وكان عبد اللّه بن يزيد قد نشأ باليمن ثم مضى إلى الشام وهو شاب فسكن مع أبيه في دمشق ـ حوالي سنة ٢٤هـ ـ فقد ذكر الأصفهاني في رواية عن المؤرخ المدائني أنه «نشأ عبد اللّه بن يزيد بن أسد، ثم مضى إلى حبيب بن مسلمة الفهري، وكتب له، وكان كاتباً مفوهاً، وذلك في إمارة عثمان بن عفان، فنال حظاً وشرفاً». (ص ٥٧، جـ١٩). والظاهر أن قدوم عبد اللّه بن يزيد إلى أبيه في دمشق، قد تزامن مع مسير الصحابي حبيب بن مَسْلَمة بالجيش إلى أرمينية سنة ٢٤هـ، فقام يزيد بن أسد يبعث ابنه عبد اللّه إلى حبيب بن مسلمة ليسير في ذلك الجيش فقام حبيب بتعيين عبد اللّه كاتباً له، وكان عبد اللّه شاباً ابن أربعة عشر سنة تقريباً، وربما كان يزيد بن أسد القسري من قادة ذلك الجيش الذي كان يضم ثمانية آلاف غالبيتهم من أهل اليمن، وكانت امرأة حبيب بن مسلمة يمانية وهي أم عبد اللّه بن يزيد الكلبية، ففتح حبيب قاليلا، وأقام بها أشهراً، قال البلاذري: «ثم بلغه أن بطريق أرميناقس قد جمع للمسلمين جمعاً عظيماً، فكتب حبيب إلى عثمان يسأله المدد، فكتب عثمان إلى معاوية أن يبعث إليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن يرغب في الجهاد، فبعث إليه معاوية ألفي رجل». وكذلك أمده أمير الكوفة بستة آلاف بقيادة سليمان بن ربيعة، ولم يذكر البلاذري قائد مدد الشام، وإذا لم يكن يزيد بن أسدالقسري في الجيش الأول، فليس ببعيد أنه كان في هذا المدد الشامي، وأن صيرورة عبد اللّه بن يزيد كاتباً لحبيب بن مسلمة كان من ذلك الوقت ـ حوالي سنة ٢٥هـ ـ ومضى حبيب بن مسلمة بجند العروبة والإسلام إلى أقاليم أرمينية وهي بلاد القوقاز، فتم فتح ومصالحة الكثير من أقاليمها إلى جورجيا وعاصمتها تفليس شمالاً وإلى بحر قزوين شرقاً، وكتب حبيب عهود المصالحة لأهل تلك البلدان، وكان الذي يكتب له العهود والمراسلات عبد اللّه بن يزيد بن أسد الْقَسْري. وقد ذكر البلاذري تلك الفتوح والعهود التي كتبها حبيب بن مسلمة لأهل تلك البلدان ثم قال: «ولما فتح حبيب ما فتح من أرض أرمينية كتب بذلك إلى عثمان بن عفان.. فَهَمّ أن يوليه جميع أرمينية، ثم رأى أن يجعله غازياً بثغور الشام والجزيرة، فولى ثغر أرمينية حذيفة بن اليمان، وانصرف حبيب راجعاً إلى الشام وكان يغزو الروم..». (ص٢٠٧).

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٠٠.

لقد استمرت فترة غزوات وفتوح أرمينية ثم تولية حبيب غزوات ثغور الشام نحو عشر سنوات كان عبد اللّٰه بن يزيد بن أسد الْقَسْري فيها يتولى منصب الكاتب للأمير حبيب بن مسلمة وصار ـ كما ذكر المدائني ـ «كاتباً مفوهاً، ونال حظاً وشرفاً». . ولكن ما حدث في أواخر سنة ٣٥هـ يتيح إدراك أن العلاقة والارتباط بين الصحابيين حبيب بن مَسْلَمة ويزيد بن أسد الْقَسْري وجيشهما تصل إلى حد أن الجيش الذي أميره حبيب هو نفس الجيش الذي أميره يزيد بن أسد، ففي أواخر سنة ٣٥هـ حوصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي اللّٰه عنه في داره بالمدينة المنورة من جانب الناقمين على سياسته وكتب عثمان إلى معاوية يستنجده، فقام معاوية بتوجيه جيش يتكون من أربعة آلاف فارس من جند الشام لنصرة عثمان بقيادة يزيد بن أسد الْقَسْري بينما يذكر البلاذري أنه بقيادة حبيب بن مَسْلَمة الفهري، ويزول التعارض بإدراك أن ذلك الجيش كان بقيادتهما معاً. فقد ذكر الأصفهاني ما يلي نصه: «لما كتب عثمان إلى معاوية حين حُصر يستنجده، بعث معاوية إليه بيزيد بن أسد في أربعة آلاف من أهل الشام، فوجد عثمان قد قُتِلَ، فانصرف إلى معاوية، ولم يُحْدِث شيئاً». وكذلك جاء في ترجمة يزيد بن أسد الْقَسْري بكتاب الإصابة ما يلي: «وَجّه معاوية يزيد بن أسد لنصرة عثمان في أربعة الآلاف، فجاء إلى المدينة، فوجد عثمان قد قُتِل، فلم يُحْدث شيئاً». بينما جاء في رواية البلاذري ما يلي نصه: «وَجّه معاويةُ حبيب بن مَسْلَمة في جيش لنُصرة عثمان حين حوصر، فلما بلغ وادي القُرى بلغه مقتل عثمان، فرجع». (ص٢٠٧). ويتبين من ربط الروايتين أن الجيش الذي بعثه معاوية لنصرة عثمان حين حوصر كان بقيادة يزيد بن أسد الْقَسْري وحبيب بن مَسْلَمة الفهري، فلما وصلا وادي القُرى بلغهما مقتل عثمان، فاتخذا موقفاً يدل على الحكمة فلم يمضيا لمهاجمة الذين في المدينة فقد كان الالتباس والغموض يحيط بما حدث وكانت الاتهامات تطال شخصيات كبيرة، فقرر يزيد وحبيب الرجوع بجيشهما إلى دمشق، فرجعا، وكان مقتل عثمان ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٣٥هـ، وبمقتله بدأت الفتنة الكبرى وباتت الأمة في مفترق طرق.

لقد انقسمت الأمة بعد مقتل عثمان ومبايعة علي بن أبي طالب بالخلافة إلى أربع فرق. وكان على رأس كل فرقة كوكبة من الصحابة وأعلام الأمة، الفرقة الأولى مع الإمام عليّ رضي اللّٰه عنه، والفرقة الثانية مع أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، والفرقة الثالثة مع معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وفرقة رابعة اعتزلت الجميع ومنها سعد بن أبي وقاص وعبد اللّٰه بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد بن حارثة.

وفي جمادى الآخرة ٣٦هـ اندلعت موقعة الجمل في البصرة فانهزمت الفرقة الثانية وخرجت من ميدان الصراع ولحق بعض رموزها بالشام، وآل الأمر إلى انقسام

أوسع إلى فرقتين الأولى مع الإمام عليّ أمير المؤمنين وتضم أهل العراق وما جاورها من المشرق، والفرقة الثانية مع معاوية أمير الشام وتضم الشام ومصر والجزيرة الفراتية وما يليها من الثغور.

وفي شهر رجب ٣٦هـ بعث الإمام عليّ الصحابي جرير بن عبد اللّه البجلي إلى معاوية يدعوه إلى المبايعة هو وأهل الشام، فسار جرير إلى دمشق والتقى بمعاوية ورؤساء أهل الشام في قصر معاوية بدمشق وفيهم يزيد بن أسد الْقَسْري البجلي ورؤساء اليمانية بالشام، وخطب جرير خطبة بليغة كان مما جاء فيها قوله: «إنّ أمر عثمان قد أَعْيَا مَنْ شهده فكيف بِمَنْ غاب عنه، وإنّ الناس قد بايعوا عليّاً غير واترٍ ولا موتورٍ.. ألّا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن، وقد كانت بالبصرة روعة ملحّة إنْ يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس. وقد بايعتُ عليّاً ولو ملكنا واللّه الأمور لم تختر لها غيره، فادخل معاوية فيما دخل فيه الناس..»[1] وكان لخطبة جرير تأثيرها البالغ، قال الشاعر:

لَعَمْرُ أبيك والأنباء تَنْمَىٰ ... لقد جَلّىٰ بخطبته جرير

وقال الحافظ ابن عبد البر: «إن جريراً ردّ بصائر أهل الشام». ومكث جرير فترة بدمشق بانتظار جواب معاوية، وسكن جرير عند يزيد بن أسد الْقَسْري غالباً لأنه أقرب رؤساء اليمانية بالشام إليه، فهما معاً من بَجِيلة، وكان لكلمات ولقاءات جرير بالصحابة والرؤساء بالشام تأثيرها الإيجابي، وسار جماعة من الأعيان مع أبي مسلم الخولاني إلى معاوية وطلبوا منه أن يبايع عليًا، فطرح عليهم معاوية قضية قتل عثمان وأن الذين قتلوه موجودون مع عليّ وجيشه، فإذا قام الإمام عليّ بتسليم قتلة عثمان بايعناه، فمال أبو مسلم وعلماء الشام إلى ذلك الرأي، فكتب معاوية رسالة إلى الإمام علي مع أبي مسلم الخولاني كان أهم وجوهر ما فيها قول معاوية للإمام عليّ: «..فإن كنت صادقاً، فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به، ونحن أسرع الناس إليك». فسار أبو مسلم وجماعة من أهل الشام إلى الإمام عليّ بالكوفة ـ في رمضان ٣٦هـ ـ قال ابن كثير: «فأتوا عليًا فكلموه في ذلك، فلم يدفع إليهم أحداً، فعند ذلك صمم أهل الشام على القتال مع معاوية»[1] فرجع جرير إلى الإمام عليّ وأخبره بالأمر، ثم اعتزل. قال الحافظ ابن حجر: «واعتزل جرير الفريقين وسكن قرقيسياء».

وكان يزيد بن أسد الْقَسْري من المعارضين للفتنة ولمحاربة الإمام عليّ، فلما سار الإمام عليّ بجيش أهل العراق قاصداً الشام ونزل منطقة صِفِّين بالجزيرة الفراتية، سار مع معاوية كافة الصحابة والرؤساء وجند أهل الشام إلى صِفِّين وكان يزيد بن أسد

(١) كتاب الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص١٥٨ ـ والبداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٢٨، جـ٩.

الْقَسْري مع معاوية ورؤساء أهل الشام في صفين، وبما أنه لم يكن مع المسير والقتال طلب منه معاوية أن يخطب في أهل الشام ويحرضهم للقتال، فخطب يزيد بن أسد خطبة ذكرها الأصفهاني للتدليل على أن يزيد بن أسد كان مع معاوية ضد علي بن أبي طالب في صِفِّين، ولكن الخطبة تدل على حقيقة موقفه المتميز. قال الأصفهاني في كتاب الأغاني: «لما كان يوم صِفِّين قام يزيد بن أسد الْقَسْري في الناس فخطب فيهم، وعليه عمامة خزّ سوداء، وهو متكئ على قائم سيفه فقال بعد حمد اللّه تعالى والصلاة على نبيه ﷺ، لقد كان من قضاء اللّه جلّ وعزّ أن جمعنا وأهل ديننا في هذه الرقعة من الأرض واللّه يعلَمُ أنّي كنت لذلك كارهاً، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا ولم يَدَعُونا نرتاد لديننا وننظر لِمَعادنا حتى نزلوا في حريمنا وبيضتنا، وقد علمنا أن بالقوم حلماء وطغاماً فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ونسائنا، وقد كُنّا لا نحب أن نقاتل أهل ديننا فأحرجونا حتى صارت الأمور إلى أن يصير غداً قتالُنا حميَّة، فإنّا للّه وإنا إليه راجعون، والذي بعث محمداً بالحق لوددتُ أنّي متُّ قبل هذا، ولكن اللّه تبارك وتعالى إذا أراد أمراً لم يستطع العباد ردّه، فنستعين باللّه العظيم. ثم انكفأ» (ص ١٩/٥٥).

وقد انكفأ يزيد بن أسد على نفسه داخل معسكر معاوية وأهل الشام، فلم يقاتل ولم يسفك دم أحد من المسلمين في موقعة صِفِّين ـ في صفر ٣٧هـ ـ وانتهى القتال باتفاق التحكيم، وعاد يزيد بن أسد مع معاوية وأهل الشام إلى دمشق، وعاد الإمام عليّ مع أهل العراق إلى الكوفة، واستمر الانقسام إلى أن اجتمع أمرالخلافة لمعاوية وبايعه الحسن بن عليّ وأهل العراق سنة ٤١هـ.

وكان معاوية قد ولّى حبيب بن مَسْلمة الفهري على ثغور الروم بأعالي الشام فسار معه عبد اللّه بن يزيد بن أسد الْقَسْري فكان عبد اللّه بن يزيد كاتباً ومسؤولاً إدارياً مع حبيب بن مَسْلَمة، قال البلاذري: «وكان حبيب يغزو الروم ونزل حمص، فنقله معاوية إلى دمشق فتوفي بها سنة ٤٢ هجرية». وبذلك عاد عبد اللّه بن يزيد إلى دمشق واستقر فيها مع أبيه يزيد بن أسد الْقَسْري الذي لم يزل مطاعاً في أهل اليمن بالشام عظيم الشأن ولكنه أخذ يتقدم به السن وأخذت مرتبته في الرئاسة تنتقل إلى ابنه عبد اللّه الذي قال المدائني أنه «نال حظاً وشرفاً».

وكان ليزيد بن أسد الْقَسْري موقفٌ محمود في قضية حُجر بن عَدِي الكندي صاحب الإمام عليّ بن أبي طالب حين قام زياد بن أبيه أمير العراق باتهام حجر بن عَدِي بخلع معاوية والدعوة إلى خلعه بالكوفة سنة ٥١هـ وقام زياد بحبس حجر بن عَدِي وإرساله إلى معاوية فحبسه في مرج عذراء، ثم أمر بقتله، فسار إليه يزيد بن أسد الْقَسْري ونهاهُ عن قتل حجر بن عَدِي ونصحه بإخلاء سبيله وتشفع له، ولكن

معاوية لم يستجب لذلك وقام بقتل حجر بن عَدِي سنة ٥١هـ وقيل سنة ٥٣هـ، ثم ندم معاوية على قتله ندماً شديداً لم يفارقه حتى وهو على فراش الموت.

قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: «وقال قوم ليزيد بن أسد: أطال اللّه بقاءك. فقال: دَعُوني أَمُتْ وفيَّ بقيَّةٌ تبكون بها عليّ»[١] ثم مات يزيد بن أسد الْقَسْري رضي اللّه عنه بدمشق، ولم تذكر التراجم سنة وفاته إلا أنه مات بعد مقتل حجر بن عَدِي وقبل موت معاوية، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة يزيد بن أسد الْقَسْري بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة عن ابن المبارك عن أبي بكر بن عياش قال:

«دخل عبد اللّه بن يزيد بن أسد على معاوية وهو في مرضه الذي مات فيه، فرأى منه جزعاً، فقال: يا أمير المؤمنين ما يُجْزِعك إنْ مِتّ فإلى الجنة وإن عِشْت فقد علمت حاجة الناس إليك: فقال معاوية: رحم اللّه أباك إنه كان لنا ناصحاً نهاني عن قتل ابن الأدبر. يعني حجر بن عَدِي»[٢]. وقد مات معاوية سنة ٦٠هـ فتكون وفاة يزيد بن أسد قبل ذلك، حوالي سنة ٥٩هـ، وكان قد بلغ من الكبر عتياً، فرجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية.

* * *

ما تيسر من أنباء عبد اللّه الْقَسْري والد خالد

لما توفى يزيد بن أسد انتقلت مرتبته في الرئاسة والزعامة بين اليمانيين في الشام إلى نجله عبد اللّه والد الأمير خالد بن عبد اللّه الْقَسْري والأمير أسد بن عبد اللّه الْقَسْري.

وكان مولد عبد اللّه في منطقة بَجِيلة باليمن فنشأ في بيت رياسة وزعامة فهو نجل الزعيم الصحابي يزيد بن الزعيم الصحابي أسد بن الزعيم كُرْز بن عامر الْقَسْري. قال الأصفهاني: «وهم أهل بيت شرف في بَجِيلة لولا ما يقال في عبد اللّه بن أسد فإن أصحاب المثالب يقولون فيه أقوالاً أنا ذاكرها.. وعلى ما قيل فيه أيضاً فقد كان له ولابنه خالد سؤددٌ وشرفٌ ومجد». ثم نقل الأصفهاني مزاعم أصحاب المثالب ومنها قوله: «لم تكن لعبد اللّه بن يزيد نباهة من ذكرتُ من آبائه وكان كذاباً.. وكان يُقال له خطيب الشيطان». وقد نقل الحافظ ابن حجر ما زعمه الأصفهاني عن أصحاب المثالب وما ذكره العلماء الثُّقات، فقال الحافظ ابن حجر: «ولم يكن لعبد اللّه بن يزيد نباهة كأبيه، وقال المبرِّد: كان عبد اللّه بن يزيد في الثقات من عقلاء الرجال.. وذكر ابن حِبّان عبد اللّه بن يزيد في الثقات»[٢].

---

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٢٨٠، جـ٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٦٥١، جـ٣.

لقد كان عبد اللّه بن يزيد من الثُقات التابعين، فأبوه وجدّه من الصحابة، وقد سار عبد اللّه من اليمن وهو شاب فسكن بدمشق في كنف أبيه الزعيم الصحابي يزيد بن أسد الْقَسْري حوالي سنة ٢٤ هجرية ـ وهو ابن ١٤ سنة تقريباً ـ ثم مضى في الجيش الذي بعثه الخليفة عثمان بن عفان بقيادة الصحابي حبيب بن مَسْلَمة الفهري إلى بلاد أرمينية والقوقاز، فشهد عبد اللّه بن يزيد فتوحات بلاد أرمينية والقوقاز مع حبيب بن مَسْلمة وكان يكتب له المراسلات والعهود، ولم يزل معه في أرمينية ثم في أعالي الشام وثغور الروم مجاهداً وكاتباً زهاء عشر سنوات في خلافة عثمان، ثم في فترة ولاية حبيب ثغور الشام وحمص لمعاوية حتى وفاة حبيب سنة ٤٢هـ، وقد ذكر المؤرخ المدائني نبأ ذلك قائلاً: «مضى عبد اللّه بن يزيد إلى حبيب بن مَسْلَمة الفهري، وكتب له، وكان كاتباً مفوهاً، فنال حظاً وشرفاً».

وسمع عبد اللّه بن يزيد من أبيه في دمشق عدة أحاديث نبوية ثم رواها، منها حديث (إن المريض لتحاتُّ خطاياه كما يتحات الشجر) ـ أخرجه أبو يَعْلَىٰ، والبغوي، وعبد اللّه بن أحمد في زيادات المسند ـ وحديث (يا أسد أتحبُّ الجنة؟ قال: نعم، فقال رسول اللّه ﷺ: «فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك». . أخرجه أبو يعلى عن عثمان بن أبي شيبة ـ قال الحافظ ابن حجر: (وفي مسند عبد الحميد من طريق سيار بن أبي الحكم عن خالد بن عبد اللّه بن يزيد الْقَسْري عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ قال له: «يا يزيد بن أسد أحبْ للناس ما تُحب لنفسك». صححه الحاكم». وقد سمع عبد اللّه بن يزيد أيضاً عن غير أبيه من الصحابة الذين سكنوا دمشق، وهو من التابعين الموثوق برواياتهم، وقد ذكره ابن حِبّان في الثقات.

وكان عبد اللّه بن يزيد من الرؤساء والعلماء الذين زاروا الخليفة معاوية بن أبي سفيان ودخلوا إليه وهو مريض مرض الموت، فرأوا منه جزعاً، فقال له عبد اللّه: يا أمير المؤمنين ما يجزعك، إنْ مُتّ فإلى الجنة وإنْ عِشْتَ فقد عَلمتَ حاجة الناس إليك، فقال له معاوية: رحم اللّه أباك، كان لنا ناصحاً، نهاني عن قتل ابن الأدبر.

وقد زعم أصحاب المثالب في العصر العباسي أن عبد اللّه بن يزيد كان كذاباً لأنه قال لمعاوية: (إنْ مُت فإلى الجنة) بينما هذا القول إنما يدخل في باب المواساة والأمل في مغفرة اللّه الواسعة، فمعاوية من الصحابة وأعلام الأمة الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وله في الجهاد وفي امتداد دولة الخلافة إلى الآفاق دور كبير حتى وفاته في رجب سنة ٦٠ هجرية.

وقد أشار الأصفهاني إلى ما ذكره علماء التاريخ أنه (كان لعبد اللّه بن يزيد ولابنه خالد سؤددٌ وشرفٌ ومجد)، وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أن خالد بن

عبد اللّه: (كانت داره في مربعة القز ـ بدمشق ـ وتعرف اليوم بدار الشريف اليزيدي)[١] وفي تلك الدار كان مولد أبناء عبد اللّه بن يزيد الثلاثة وهم: إسماعيل، وخالد، وأسد. وكانت لعبد اللّه بن يزيد زوجتان، إحداهما من بنات عبد الملك بن مروان، والأخرى: رومية نصرانية، وقد شاع في الروايات الزعم بأن أم خالد وأسد رومية نصرانية، بينما ذكر الطبري في تاريخ الأمم والملوك أن أسداً لما تولى خراسان (خطب أسد وقال: من يروم ما قِبَلي أو يترمرم، وخالد بن عبد اللّه أخي وأمير المؤمنين ـ هشام بن عبد الملك ـ خالي) مما يدل على أن أم أسد بن عبد اللّه من بنات عبد الملك بن مروان وهي أيضاً أم خالد، فقد مدح الشاعر جرير صاحب الفرزدق خالداً بقصيدة سيأتي ذكرها ـ قال فيها يذكر أخوال خالد وآبائه: ـ

«تمكَّنْتَ في حَيٍّ مَعدٌ من الذُّرى وفي اليَمَن الأعْلَى كريمَ المَوالدِ»

وكان مولد خالد بمدينة دمشق سنة ٦٦ هجرية الموافق ٦٨٦م وبما أنه وُلد ونشأ بدمشق فقد جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: «من أهل دمشق» وكذلك جاء في ترجمة أخيه أسد بن عبد الله أنه: «وُلِد ونشأ بدمشق»[٢]. وقد نشأ وعاش خالد وإخوته في كنف أبيهم بدمشق نشأة صالحة، وتتلمذ خالد على يد أبيه وعلى يد كبار العلماء من بقية الصحابة وعلماء التابعين ورجال الفقه والحديث والتاريخ والأدب واللغة في دمشق، وظهرت أخلاق النبل والرياسة في خالد منذ أيام أبيه، قال الحافظ ابن كثير: «أول ما عُرف من رياسة خالد أنه وطأ صبياً بدمشق بفرسه، فحمله، فأشْهَدَ طائفة من الناس أنه هو صاحبه فإن مات فعليه ديته»[٣]. وقد كانت الخيول في ذلك الزمن مثل السيارات في عصرنا، فحمل خالد الصبيّ إلى داره وقام برعايته ومعالجته فشفاه اللّه، وكان خالد يومئذٍ في نحو الخامسة عشرة من عمره، كما اشتهر بمقدرته الإدارية والاستثمارية، فتولى إدارة أموال أبيه وقام بتشييد حَمَّام استثماري كبير خلف بوابة توما بدمشق، وكان ذلك الحَمَّام ما يزال قائماً إلى أيام المؤرخ ابن عساكر وقد ذكره في كتابه تاريخ دمشق قائلاً: «وإلى خالد بن عبد اللّه القَسْري يُنْسَبُ الحمام الذي داخل باب توما»[٤]. وباب توما أحد أبواب دمشق القديمة.

ومن المفيد التنبيه هنا إلى عدم صحة الأكاذيب التي رواها الأصفهاني في كتاب

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثر ـ ص١٧، جـ١٠.

(٢) الجامع لإعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ترجمة خالد ـ ص١٩٢، وترجمة أسد ـ ص٨٣.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٧، جـ١٠.

(٤) تاريخ دمشق ـ ابن عساكر ـ ص٦٧، جـ٥.

الأغاني عن أصحاب المثالب في العصر العباسي، فقد زعم أن خالد الخُريت صاحب الشاعر عمر بن أبي ربيعة هو خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري، وكان خالد الخريت غلاماً فاسداً منذ طفولته ونشأته بالمدينة ولم تكن له أسرة، فكان يصحب الفاسدين وكان عمر بن أبي ربيعة يرسله في بعض غرامياته إلى بعض النساء في مكة ويرتاد معه أماكن اللهو والفساد ويبعثه بالقصائد إلى النساء، وذلك في زمن معاوية بن أبي سفيان، وربما عاش عمر بن أبي ربيعة إلى أيام ابن الزبير في أوائل خلافة عبد الملك بن مروان، ولم يكن خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري قد وُلِدَ في ذلك الزمن، وما كان يجوز أن يروي وينقل الأصفهاني أخبار خالد الخريت ويزعم أنه الأمير والزعيم اليماني العظيم خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري، فقد كان مولد خالد سنة ٦٦هـ في دمشق وبها نشأ وعاش بين العلماء والرؤساء في كنف أبيه عبد اللّٰه بن يزيد الْقَسْري.

قال أبو العباس المبرِّد في كتاب الكامل في اللغة والأدب: «كان عبد اللّٰه بن يزيد أبو خالد من عقلاء الرجال، قال له عبد الملك بن مروان يوماً: ما مالُكَ؟ فقال: شيئان لا عَيْلة عليَّ معهما، الرضا عن اللّٰه والغنى عن الناس. فلما نَهَض من بين يديه، قيل له: هَلَّا خَبَّرته بمقدار مالكَ؟ فقال: لم يَعْدُ أن يكون قليلاً فَيَحْقرني أو كثيراً فيحسدني»[1].

وكان عبد اللّٰه بن يزيد الْقَسْري من رؤساء اليمانية بالشام الذين بايعوا عبد الملك بن مروان بالخلافة ومعه عمرو بن سعيد بن أبي العاصي الأموي ولياً للعهد ـ في رمضان ٦٥هـ ـ وقد ذكر الأصفهاني عن المؤرخ المدائني أنه: «كان عبد اللّٰه بن يزيد مع عمرو بن سعيد الأشدق على شرطته أيام خلافة عبد الملك بن مروان..». وعمرو بن سعيد الأشدق هو ابن أبي العاصي الأموي الذي كان ولياً للعهد فقد بويع عبد الملك على أن يكون عمرو بن سعيد الخليفة بعده، فكان عبداللّٰه بن يزيد أمير شرطة عمرو بن سعيد وكان عبد الملك يريد التخلص من عمرو بن سعيد وشاور البعض في ذلك فنهوه، ثم استخلف عبد الملك عمرو بن سعيد على دمشق وسار إلى عين الوردة ـ بالجزيرة الفراتية ـ سنة ٦٩هـ ـ فتولى عمرو بن سعد دمشق ثم خلع عبد الملك وأعلن أحقيته بالخلافة وكان عبد اللّٰه بن يزيد مع عمرو بن سعيد وقائداً لشرطته، فرجع عبد الملك بالجيش إلى دمشق فحارب عمرو بن سعيد وقام باعتقاله وإعدامه، بينما هرب عبد اللّٰه بن يزيد الْقَسْري إلى العراق التي كانت تحت حكم مصعب بن الزبير، وفي ذلك قال الطبري: «ركب عبد اللّٰه بن يزيد وأخوه خالد فلحقوا بالعراق فأقام مع ولد سعيد وهُمْ مع مصعب بن

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرد ـ ص١٢٢، جـ١.

الزبير». وقال المدائني: «لما قُتِل عمرو بن سعيد هرب عبد اللّه بن يزيد حتى سألت اليمانيةُ عبد الملك فيه لما أمّنَ الناس عام الجماعة». ـ وذلك عند انضواء العراق في خلافة عبد الملك في شهر جمادى سنة ٧١هـ، وكان رؤساء وجند اليمانية مع عبد الملك عندما دخل الكوفة وأمّنَ الناس، ويبدو أن عبد اللّه بن يزيد كان في هَجَر بولاية البحرين، فطلب رؤساء اليمانية من عبد الملك أن يؤمّن عبد اللّه بن يزيد فأمّنه، فقَدِم عبد اللّه إليه، قال الطبري: «دخل عبد اللّه بن يزيد على عبد الملك بعد الجماعة، فقال له: كيف أنتم آل يزيد؟ فقال: حُرباء حرباء، فقال عبد الملك: ذلك بما قدمت أيديكم وما اللّه بظلام للعبيد»[1].

وقد ذكر الأصفهاني رواية فيها اضطراب وتخليط، جاء فيها أنه: «كان بين عبد اللّه بن يزيد بن أسد الْقَسْري وبين أبي موسىٰ بن نصر كلام عند عبد الملك بن مروان، فقال له عبد اللّه: إنما أنت عبد لعبد القيس، فقال: اسكت فقد عرفناك إن لم تعرف نفسك، فقال له عبد اللّه: أنا ابن أسد بن كُرْز نحن الذين نضمن الشهر ونُطعم الدهر.. ثم نفاه جرير بن عبد اللّه إلى الشام، فأقام بهامدة، ثم مضى إلى حبيب بن مسلمة فقال له: دع عنك ذكر البحرين لفرارك منهم وائت عبد الملك، فلم يسّره ما قال أبو موسى بن نصر لأنه كان على شرطة عمرو بن سعيد يوم قتله..».

فهذه الرواية جاء فيها ذكر جرير بن عبد اللّه وحبيب بن مسلمة بينما حبيب قد مات قبل ثلاثين سنة، مات سنة ٤٢هـ، وجرير مات قبل عشرين سنة، مات جرير سنة ٥١هـ وقيل سنة ٥٣هـ، فكلاهما ماتا في خلافة معاوية. بينما الكلام بين عبد اللّه بن يزيد والرجل الذي سماه الأصفهاني أبا موسى كان عند عبد الملك بن مروان في عام الجماعة بالكوفة سنة ٧١هـ، وتشير بقية الرواية إلى أن عبد اللّه بن يزيد تولى بعد ذلك البحرين ثم عزله ـ أو كما جاء في الرواية (نفاه جرير بن عبد اللّه إلى الشام.. لفرارهِ من البحرين)، والصواب (عزله خالد بن عبد اللّه..). وهو خالد بن عبد اللّه بن أَسيد الأموي عامل عبد الملك بن مروان على ولاية البصرة وثغورها سنة ٧١ ـ ٧٣هـ وكان أخوه أُمية بن عبد اللّه بن أسيد الأموي أميراً بولاية البحرين ثم هزمه الخوارج فهرب من البحرين سنة ٧٣هـ، وبالتالي يمكن إدراك أن عبد اللّه بن يزيد الْقَسْري كان أميراً مع أمية بن عبد اللّه بن أَسيد في البحرين وأن كلاً منهما كان أميراً على منطقة من أرض البحرين وهي الخليج العربي فلما هزم الخوارج أُمية بن عبد اللّه بن أَسيد وهرب من المنطقة التي هو أميرها بالبحرين رأى عبد اللّه الْقَسْري أن ينسحب من المنطقة التي هو أميرها بالبحرين إلى البصرة، فانسحب إليها، وعندئذٍ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٨٠، جـ٧.

أمره خالد بن عبد اللّٰه بن أَسيد بأن يعود إلى الشام، وقد عبّرت رواية الأصفهاني عن ذلك بلفظ (نفاه إلى الشام)، وفي ذات الوقت سنة ٧٣هـ ـ هزم الخوارج جيشاً كبيراً بقيادة عبد العزيز بن خالد بن عبد اللّٰه بن أَسيد في فارس والأهواز، وما لبث أن عزل عبد الملك بن مروان خالداً هذا عن ولاية البصرة وثغورها، وولّى بشر بن مروان على العراق والمهلّب بن أبي صُفرة الأزدي على الأهواز وفارس وحرب الخوارج سنة ٧٤هـ فهزم المهلّبُ الخوارج بعد حروب شديدة امتدت إلى سنة ٧٧هـ، وكان عبد اللّٰه الْقَسْري خلال تلك الفترة مقيماً في دمشق التي هو من كبار شخصياتها، وقد جاء في رواية الأصفهاني أنه: «أقام بها مدة ثم مضى إلى حبيب بن مسلمة فقال له: دع ذكر البحرين لفرارك منها، وائت عبد الملك . . ». وقد أخطأ الأصفهاني في هذه الرواية، والصواب مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان، فكلمه عبد اللّٰه الْقَسْري باستعداده للعودة أميراً للبحرين وأن يكلم عبد الملك بذلك، فقال له مَسْلَمة: دَعْ ذكر البحرين لفرارك مِنْها وائت عبد الملك بن مروان ـ بنفسك ـ وسيوليك عملاً، فلم يسرّه ذلك، فهو القائل لعبد الملك بن مروان: (شيئان لا عَيْلَة عليَّ معهما، الرِضا عن اللّٰه والغنى عن الناس).

ومكث عبد اللّٰه الْقَسْري في دمشق رئيساً من رؤساء اليمانية ذا وجاهة وشرف وسؤدد، عالماً وخطيباً مُفَوهاً، وكان ابنه خالد وإخوته مضرباً للأمثال في العلم والأدب والفروسية بدمشق، قال الأصفهاني: (ومات عبد اللّٰه فكان خالد في مرتبته)، ولم يذكر زمن موته، وذلك إما في أواخر خلافة عبد الملك وقد توفي عبد الملك سنة ٨٦هـ وإما في أوائل خلافة الوليد بن عبد الملك ما بين سنة ٨٦ وسنة ٨٨هـ فانتقلت مرتبته في الرئاسة إلى خالد.

قال أبو العباس المبرد: «قال لي خالد بن عبد اللّٰه بن يزيد بن أسد بن كُرْز الْقَسْري: ما تَعُدُّون السُّؤدد؟

فقلتُ: أما في الجاهلية فالرياسة، وأما في الإسلام فالولاية، وخَيْرُ من ذا وذاك التقوى.

فقال خالد: صَدَقْتَ، كان أبي يقول: لم يُدْرِكِ الأَولُ الشَرَف إلا بالفعل ولا يدركه الآخِرُ إلا بما أَدركَ به الأول.

فقلتُ: صَدَقَ أبوك، ساد الأحنف بحلمه وساد مالك بن مِسْمَع بمحبة العشيرة له، وساد المهلّبُ بجميع الخلال.

فقال خالد: صَدَقْتَ، وكان أبي يقول: خيرُ الناس للناس خيرهم لنفسه،

وذلك أنه إذا كان كذلك اتَّقى على نفسه مِن السَّرقِ لئلا يُقطعَ ومِن القَتلِ لئلا يُقادَ ومِن الزنا لئلا يُحَدُّ، فَسَلِمَ الناسُ منه باتقائه على نفسه»[١].

وبعد وفاة عبد اللّه الْقَسْري رحمه اللّه بأمد يسير، دعا الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان خالد بن عبد اللّه الْقَسْري إلى قصر الخلافة بدمشق، وعقد له الولاية على مكة المكرمة والبلاد التابعة لها، وذلك سنة ٨٩هـ وكان خالد ابن أربع وعشرين سنة، فانطلق مع أخويه أسد وعبد الواحد وجماعة من الفرسان إلى مكة المكرمة.

* * *

ولاية خالد الْقَسْري لمكة المكرمة ومعالم عهده

في رجب سنة ٨٩هـ (٧٠٩م) بدأ عهد ولاية خالد بن عبد اللّه الْقَسْري لمكة المكرمة وما كان إليها من بلاد الحجاز وكان الحجاز ينقسم إلى إمارتين هما المدينة المنورة وأعمالها ومكة المكرمة وأعمالها، فمكث خالد أميراً والياً على مكة وأعمالها ثماني سنوات (إلى رجب ٩٧هـ)، وقد جاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي نصه: ـ

«خالد بن عبد اللّه بن يزيد بن أسد الْقَسْري، من بَجِيلة، أبو الهيثم: أحد سادة اليمانية. كان أميراً على الحجاز.

ثم أميراً للعراقين. وهو أحد خطباء العرب وأجوادهم. وُلّي مكة سنة ٨٩هـ للوليد بن عبد الملك»[٢].

وقال الحافظ ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: «خالد بن عبد اللّه بن يزيد بن أَسد بن كُرْز بن عامر، أبو الهيثم، البِجلي الْقَسْري. أمير مكة والحجاز للوليد ثم لسليمان، وأمير العراقين لهشام خمس عشرة سنة.. وقد استنابه الوليد على الحجاز من سنة تسع وثمانين إلى أن توفي الوليد ثم سليمان»[٣].

ومن المفيد أن نذكر هنا أن الطبري قال في تاريخ الأمم والملوك: «ولى الوليد عمر بن عبد العزيز على المدينة في ربيع الأول سنة ٨٧هـ وهو ابن خمس وعشرين سنة، وُلد سنة ٦٢هـ» ثم قال في أنباء سنة ٨٩هـ: «وفي هذه السنة ولى الوليد خالد بن عبد اللّه الْقَسْري مكة فيما زعم الواقدي» ثم قال في أنباء سنة ٩٠هـ: «وحج بالناس عمر بن عبد العزيز وكان عامل الوليد على مكة والمدينة.. وكان عمال

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ أبو العباس المبرّد ـ ص١٢٢، جـ١.

(٢) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ محمد بامطرف ـ ترجمة خالد الْقَسْري ـ ص١٩٢.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٧، جـ١٠.

الأمصار سنة ٩١هـ هم العمال الذين كانوا في السنة التي قبلها غير مكة فإن عاملها كان خالد بن عبد اللّه الْقَسْري في قول الواقدي وقال غيره كانت ولاية مكة أيضاً إلى عمر بن عبد العزيز». ثم قال الطبري في أنباء سنة ٩١هـ: «وفي هذه السنة ولّى الوليد مكة خالد بن عبد اللّه الْقَسْري فلم يزل والياً عليها إلى أن مات الوليد بن عبد الملك»[١] ثم قال في أنباء سنة ٩٣هـ: «عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن المدينة في شعبان ٩٣هـ وولى عثمان بن حيان على المدينة وخالد بن عبد اللّه الْقَسْري على مكة» وقال في أنباء سنة ٩٤هـ: «وكان العامل فيها على مكة خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وعلى المدينة عثمان بن حيّان» وكذلك حتى وفاة الوليد سنة ٩٦هـ.

إن ما ذكرته النصوص التاريخية يتيح إدراك أن ما يبدو اضطراباً أو اختلافاً إنما يعود إلى أن الحجاز كان ولايتين، فلم يكن خالد الْقَسْري والياً للحجاز من سنة ٨٩هـ ولا كان عمر بن عبد العزيز والياً للحجاز إلى سنة ٩٣هـ وإنما في تلك السنوات الأربع (٨٩ ـ ٩٣هـ). كان خالد والياً لمكة والمناطق التابعة لها من الحجاز ومنها اليمامة والطائف، وكان عمر بن عبد العزيز والياً للمدينة والمناطق التابعة لها من الحجاز إلى وادي القرى وتخوم الشام، وقيام عمر بن عبد العزيز بالحج بالناس سنة ٨٩ وسنة ٩٠هـ لا يعني أنه كان أمير المدينة ومكة فقد حج بالناس الخليفة الوليد بن عبد الملك نفسه عام ٩١هـ وكان خالد الْقَسْري هو أمير مكة، ولما عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن المدينة في شعبان ٩٣هـ ولى عثمان بن حيان على المدينة وأقرّ خالداً على مكة فاستمر والياً عليها إلى سنة ٩٧هـ، ويتبين من مجمل ذلك أن مدة ولاية خالد لمكة والبلاد التابعة لها كانت ثماني سنوات.

وكان لعهد ولاية خالد الْقَسْري ثمانية معالم رئيسية: ـ

* ـ قال المسعودي في مروج الذهب: «أحدث خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بمكة أموراً، منها أنه أدار الصفوف حول الكعبة، وقد كان قبل ذلك صفوف الناس في الصلاة بخلاف ذلك»[٢].

* ـ وقام خالد بتوسيع وتفخيم المسجد الحرام، وقد أشار البلاذري إلى ذلك قائلاً: «وَسَعَ الوليد بن عبد الملك المسجد الحرام وحمل إليه عمد الحجارة والرخام والفسيفساء»[٣]. والمقصود أنه أرسل الأعمدة والرخام والفسيفساء من دمشق وليس أنه حملها بنفسه، ولا بد أنه كان قد تكلم بشأن ذلك مع خالد الْقَسْري إما عندما ولاه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٦٧ وص٨٠، جـ٨.

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص١٨٤، جـ٣.

(٣) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٦٠.

على مكة سنة ٨٩هـ وإما عندما حج الوليد سنة ٩١هـ فاتفق رأيه مع رأي خالد في توسيع وتفخيم المسجد الحرام، وقد قام الوليد بن عبد الملك في تلك الفترة ببناء الجامع الأموي بدمشق بناءً عظيماً سيأتي ذكره، فاقتنع بتوسيع المسجد الحرام بمكة، وأرسل الأعمدة والرخام والفسيفساء، فقام خالد بتنفيذ توسيع وتفخيم المسجد الحرام وقام ببناء منارة شامخة، ففي فترة ولاية خالد للعراق قال جرير يمدحه قصيدة طويلة أشار فيها إلى مآثره وقال فيها لخالد: ـ

«بَنَيْتَ المَنارَ المُسْتَنيرَ عَلَى الهُدَى ... فَأَصْبَحْتَ نوراً ضَوْءُهُ غَيْرُ خَامِدِ

بَنَيْتَ بِناءً لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ ... يَكادُ يُوازى سُورُهُ بالفَراقِدِ

وأُعطيتَ ما أَعْيَا القُرونَ التي مَضَتْ ... فنَحْمَدُ مولانا وَلِيّ المَحَامِدِ»[١]

وقوله: (وأُعطِيتَ ما أعيا القرون التي مضت) يعني البئر التي حفرها خالد بمكة غالباً.

* ـ قال الحافظ ابن كثير: «ذكر الأصمعي عن أبيه: أن خالداً حفر بئراً بمكة ادّعى فضلها على زمزم..»[٢]. وليس هو الذي ادّعى فضلها على زمزم، فمن المعروف أن مكة شحيحة المياه، وفيها بئر زمزم وهو مالح، فاختار خالد مكاناً لحفر بئر، وكان ذلك المكان ـ كما ذكر الطبري ـ «بالثنيتين: ثنية طوى وثنية الحجون»، ويبدو أن الخليفة الوليد بن عبد الملك لما حج سنة ٩١هـ سار مع خالد إلى المكان الذي اختاره لحفر البئر، ودعا اللّٰه عز وجل أن يسقيهم الماء من ذلك المكان، وعاد إلى دمشق، وكان البئر مشروعاً مائياً متكاملاً ومهماً، قام خالد بتنفيذه، فلما تم حفر البئر تدفق الماءُ عَذْباً فراتاً من البئر، قال الطبري وهي: «بئر حفرها بالثنيّتين ثنية طوى وثنية الحجون فكان يُنْقلُ ماؤها فيوضع في حوض من أدَم إلى جنب زمزم»[٢]. أيّ حوضٌ وقناة من الجلد إلى جوار زمزم ـ وقد زعمت الرواية التي ذكرها الطبري وغيره أنه فعل ذلك «ليُعْرف فضل ذلك الماء على زمزم». بينما هذا القول هو من زعم ذوي الأهواء المتأخرين، فنقل الماء العذب الفرات بقنوات من الجلود إلى جوار موقع زمزم إنما هو لِيَشْرب الناس في مواسم الحج وغيرها وكذلك تخفيف الازدحام على ماء زمزم. وتقول الروايات إنه (خطب خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري على منبر مكة وقال: ألا أن إبراهيم خليل الرحمٰن استسقى فسقاه الرحمٰن مِلْحاً أجاجاً، واستسقاه الخليفةُ فسقاهُ عَذْباً فراتاً». وقد نسب صاحب الرواية إلى خالد كلاماً فيه (تفضيل

---

(١) كتاب النقائض ـ لأبي عبيدة بن مثنى البصري ـ قصيدة جرير في مدح خالد الْقَسْري ـ ص٩٨٥، جـ٢.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٢٠، جـ١٠ ـ وتاريخ الطبري ـ ص٦٧، جـ٨.

الخليفة على الرسول) قال ابن كثير: «وهذا كُفر إلا أن يريد بكلامه غير ما يبدو منه، والذي يظهر أن هذا لا يصح عنه»[١]. وقد يكون صواباً قول خالد القَسْري: «إن إبراهيم خليل الرحمٰن استقى فسقاه مِلْحاً أجاجاً، واستسقاه الخليفة فسقاهُ عذباً فراتاً». وأصوب منه قول جرير لخالد القَسْري:

وأُعْطِيتَ ما أعْيَا القُرونَ التي مَضَتْ فنَحْمَدُ مولانا وَليّ المَحامِدِ

ولم يزل الناس يشربون ماءً عَذْباً فراتاً من تلك البئر ويحمدون اللّه عز وجل على ذلك عشرات السنين. قال الطبري: «ثم غارت البئر فذهبت، فلا يُدْرى أين هي اليوم». يعني أيام العباسيين والموالي، وإنما كانت في زمن العظماء.

* ـ وقام خالد القَسْري بكسوة الكعبة بالحلل النجرانية اليمانية وفوقها الديباج، وكان ذلك سادس مرحلة متميزة في تاريخ كسوة الكعبة، وغني عن البيان أن أول من كسا الكعبة في الزمن القديم هو أبو كرب أسعد الحميري ملك اليمن، كساها البرود والأنطاع والمعافر، قال البلاذري: «كانت كسوة الكعبة في الجاهلية الأنطاع والمعافر، فكساه رسول اللّه ﷺ الثياب اليمانية، ثم كساها عمر وعثمان القَبَاطي، ثم كساها يزيد بن معاوية الديباج الخسرواني، وكساها ابن الزبير والحجاج الديباج ـ (في خلافة عبد الملك بن مروان) ـ ثم كساها بنو أُمية في بعض أيامهم ـ (أيام الوليد) ـ الحُلل التي كان أهل نجران يؤدونها، وأخذوهم بتجريدها وفوقها الديباج» (ص٦٠). وقد تم كسوة الكعبة بالحُلل النجرانية عندما تم توسيع وتفخيم المسجد الحرام، والظاهر أن الوليد بن عبد الملك كان قد أمر بأن يؤدي أهالي مخلاف نجران وسروات وتهائم أعالي ولاية اليمن أموال الخراج إلى خالد القَسْري لأن إيرادات بيت مال مكة كانت شحيحة لا تنهض بنفقات توسيع وتفخيم المسجد الحرام وغير ذلك من الأعمال العمرانية، فجعل خالد على أهل نجران مقابل الخراج أن يصنعوا حُللاً نجرانية ويُجردوها ويجعلوا فوقها الديباج لتكون كسوة للكعبة، وربما أشرف خالد على ذلك لأن منطقة مخاليف نجران وسراة أعالي اليمن هي منطقة خالد وقبيلته بَجِيلة في اليمن، فلما اكتمل توسيع وتفيخم المسجد الحرام قام خالد بكسوة الكعبة بتلك الكسوة النجرانية اليمانية ومعه مبعوث الوليد بن عبد الملك في موسم الحج، وقد ذكر الطبري في أنباء سنة ٩٣هـ أنه حج بالناس عبد العزيز بن الوليد، وقال الواقدي حج بالناس سنة ٩٤هـ عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ويقال مَسْلمة بن عبد الملك وكان أمير مكة خالد بن عبد اللّه القَسْري. فيكون الثلاثة عبدالعزيز ومَسْلَمة وخالد حضروا كسوة الكعبة في ذلك الموسم الذي اكتمل فيه توسيع وتفخيم

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٢٠، جـ١٠ ـ وتاريخ الطبري ـ ص٦٧، جـ٨.

الحرم المكي، وأصبح فيه مشهد الكعبة والمسجد الحرام من أعظم المشاهد.

*ـ قال المسعودي في مروج الذهب: «وبلغ خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري قول الشاعر:

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللاتي تُزَاحِمْنَنَا عند استلام الحجر الأسود

فقال خالد: أما إنهنّ لا يزاحمنك بعد هذا أبداً، ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف». (ص١٨٤، جـ ٣).

* ـ وقد اجتذبت النهضة التي شهدتها مكة في عهد خالد الكثير من العلماء والناس لأنها اقترنت بالأمن والاستقرار والحرية، وقد ذكر الطبري في أنباء سنة ٩١هـ خطة مهمة لخالد في مكة، ثم ذكر في أنباء سنة ٩٤هـ خبراً يمكن إدراك أنه سبب خطبة خالد المذكورة في أنباء سنة ٩١هـ مما يعني أن الزمن الأصوب للخبر هو قبل الخطبة، قال الطبري في روايته للخبر: «ذكر أبو عاصم عن عمر بن قيس قال، كتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الوليد بن عبد الملك: أن أهل النفاق والشقاق قد لجأوا إلى مكة فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم، فكتب الوليد إلى خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري» (ص٩٤، جـ٨).

ومن المفيد الإشارة إلى أن الكثير من الهاربين من ظلم وطغيان الحجاج بالعراق كانوا يجدون ملاذاً آمناً بخراسان في عهد ولاية يزيد بن المهلب لخراسان سنة ٨٢ ـ ٨٦هـ، وكان ليزيد بن المهلب فتوحات وأمجاد، فأخذ الحجاج يسعى لعزله من خراسان بشتى الوسائل إلى أن تم له ذلك، وآل الأمر بيزيد بن المهلب وإخوته إلى الهروب من حبس الحجاج إلى سليمان بن عبد الملك أمير فلسطين سنة ٩٠هـ فأعطاه الوليد بن عبد الملك الأمان وأقام بفلسطين، وصَفَا العراق إلى خراسان لطغيان الحجاج وعماله، وصفا في ذات الوقت من شخصية ذات وزن كبير لأن الحجاج إنما كان يخشى أن يعزله الخليفة ويولي يزيد بن المهلب، ولذلك فإن صعود اسم خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري ومحاولة الكيد له هي فيما يبدو الباعث الحقيقي لرسالة الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك بأن أهل النفاق والشقاق قد لجأوا إلى خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري بمكة، فكتب الوليد إلى خالد برسالة، وربما بعث إليه برسول يحمل بعض التوجيهات والنصائح الودية التي يمكن أن نلمسها من خطبة خالد الْقَسْري في مكة وقد ذكرها الإمام محمد بن عمر الواقدي عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن نافع المخزومي أنه:

«قال خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري: أيها الناس إنكم بأعظم بلاد اللّٰه حرمةً وهي التي اختارها اللّٰه من البلدان فوضع بها بيته، ثم كتب على عبادِهِ حِجَّهُ من استطاع إليه

سبيلاً، أيها الناس فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات فإنّي واللّه ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا ضربته في الحرم. إن اللّه جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها، فسلّموا وأطيعوا ولا تقولوا كيت وكيت، إنه لا أرىٰ فيما كتب به الخليفةُ أو رآه إلّا إمضاءَه، واعلموا أنه بلغني أن قوماً من أهل الخلاف يقدِمون عليكم ويقيمون في منازلكم، فإياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائغ عن الجماعة، فإنّي لا أجد أحداً منهم في منزل أحدٍ منكم إلا هدمت منزله، فانظروا من تنزّلون في منازلكم، وعليكم بالجماعة والطاعة فإن الفرقة هي البلاء العظيم).

وروى محمد بن عمر عن إسماعيل بن إبراهيم عن موسىٰ بن عقبة عن أبي حبيبة قال: اعتمرتُ فنزلتُ في منازل الزّبير، فلم أشعر إلا بخالد بن عبد اللّه يدعوني، فدخلتُ عليه، فقال: ممن أنت؟ قلتُ: من أهل المدينة، قال: ما أنْزَلك.. أمخالفٌ للطاعة؟ قلتُ: إنما مُقامي إن أقمت يوماً أو بعضه ثم أرجع إلى منزلي وليس عندي خلاف فأنا ممن يُعظم أمر الخلافة وأزعم أن من جحدها هلك. قال: فلا عليك ما أقمت إنما يُكرَهُ أن يقيم من كان زارياً على الخليفة. قال أبو حبيبة: وسمعته يوماً يقول: واللّه لو أعلمُ أن هذه الوحش التي تأمن في الحرم لو نَطَقَتْ لم تُقرّ بالطاعة لأخرجتُها من الحرم، إنه لا يسكن حرمَ اللّه وأمنه مخالفٌ للجماعة زارٍ عليهم». (٨١/٨).

وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك سنة ٩٤هـ بأن خمسة من أهل النفاق والشقاق قد لجأوا إلى خالد بمكة فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم، فكتب الوليد بشأنهم إلى خالد، وكان الخمسة من علماء التابعين الأخيار، قال الطبري: «فكتب الوليد إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري، فأخذ عطاء وسعيد بن جبير ومجاهد وطلق بن حبيب وعمرو بن دينار، فأمّا عمرو بن دينار وعطاء فأرسلا لأنهما مكيّان» ـ أي أطلق خالد سراحهما لأنهما من أهل مكة وليسوا من أهل العراق ـ «وأما الآخرون فبعث بهم إلى الحجاج..». والأصوب أن خالد بن عبد اللّه أمرهم بمغادرة مكة فغادروها ـ فمات طلق بن حبيب في الطريق، ونزل سعيد بن جبير بمنطقة الربذة فقبض الحجاج عليه وقتله سنة ٩٥هـ ونجا مجاهد، ثم هلك الحجاج بعد فترة يسيرة في رمضان سنة ٩٥هـ، فحمد المسملون اللّه عز وجل على هلاكه، ولم يتعرض أحد للقتل أو الحبس في ولاية خالد لمكة فكانت أيامه من أحسن الأيام.

* ـ قال الحافظ ابن كثير: «وكان خالد بن عبد اللّه الْقَسْري إذا جلس يوضع المال بين يديه ويقول: إن هذه الأموال ودائع لا بد من تفرقتها.. وقال الأصمعي: سأل أعرابيٌّ خالداً الْقَسْري أن يملأ له جرابه دقيقاً فأمر بملئه دراهم.. وبينما خالد الْقَسْري يسير في

موكبه ذات يوم إذْ تلقاه أعرابيٌّ فسأله أن يضرب عنقه، فقال خالد: ويحك ولِمَ؟ أقطعت السبيل؟ قال: لا. قال: ولِمَ؟ قال: من الفقر والفاقة. فقال: سل حاجتك. قال: ثلاثين ألفاً. فأمر له بها وقال: ما ربح أحد مثل ما ربحت اليوم فإنِّي وضعت في نفسي أن يسألني مائة ألف فسألني ثلاثين فربحت سبعين، ارجعوا بنا اليوم.

قال الأصمعي: ودخل عليه أعرابيٌّ ذات يوم فقال: إني قد قُلتُ فيك شعراً وأنا أستصغره فيك، فقال خالد: قُلْ، فأنشأ يقول:

تعرضتَ لي بالجودِ حتى نعشتني ... وأعطيتني حتى ظننتك تلعبُ
فأنتَ الندى وابنُ الندى وأخو الندى ... حليفُ الندى ما للندى عنك مذهبُ

فقال: سل حاجتك، قال: عليّ خمسون ألفاً، فقال: قد أمرتُ لك بها وأضعفتُها لك، فأعطاه مائة ألف.

* ـ وكان خالد بن عبد اللّه الْقَسْري في مدة ولايته لمكة المكرمة وما إليها من الحجاز بما في ذلك منطقة الطائف يقوم بزيارة منطقة قبيلته بَجِيلة في سراة أعالي اليمن ويمكث فترات باليمن، وقد وصف الدارسون خالداً بأنه: «كان ذا نزعة يمانية». وربما كان خالد يأتي إلى صنعاء ويلتقي برجال وعلماء اليمن فقد كان ذا اهتمام بمعرفة تاريخ اليمن، بل إنه انفرد بمعرفة ورواية النبأ اليقين عن بناء قصر غُمدان بصنعاء وسور صنعاء في الزمن القديم، وقد ذكر لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني في كتاب الإكليل الرواية الشائعة عن بناء سام بن نوح لقصر غُمدان بصنعاء ثم قال: «وقد ذكرنا ما رواه محمد بن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري من بناء إلى شرح يحضب وشعرام أوتر لغُمدان» وقال: «وشعرام أوتر هو الذي وصل بنيان القصور وأحاط على صنعاء بحائط»(١) وليس في الروايات والكتب التراثية عن تاريخ وملوك اليمن القدماء أي ذكر لملك اسمه (شعرام أوتر) سوى ما رواه محمد بن خالد عن أبيه خالد بن عبد اللّه بأن الذي بنى قصر غُمدان هما الملكان إليد شرح يحضب وشعرام أوتر، وقد أثبتت التنقيبات الأثرية ونقوش المسند التي تم اكتشافها في عصرنا أن «إلى شرح يحضب ملك سبأ وذي ريدان» وأن «شعرام أوتر ملك سبأ وذوريدان» كانا من عظماء ملوك اليمن التبابعة وفي عهدهما تم تشييد قصر غُمدان العظيم بصنعاء(٢) ويدل ذلك على معرفة خالد الْقَسْري العميقة بتاريخ اليمن التليد، وأنه كان يمكث باليمن لفترات في مدة ولايته لمكة المكرمة التي دامت ثماني سنوات وأصبح فيها خالد من كبار الرؤساء اليمانيين ليس في الشام فحسب وإنما في اليمن أيضاً.

---

(١) الإكليل ـ الحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٢ و ١٩، جـ٨.
(٢) تبابعة اليمن السبعون ـ محمد حسين الفرح ـ ص٣١٢.

* ـ وفي منتصف جمادى الآخرة ٩٦هـ توفي الوليد بن عبد الملك وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، فقام بعزل وتعيين عدد من الولاة والأمراء، وأقرّ سليمان استمرار خالد بن عبد الله الْقَسْري والياً لمكة المكرمة، وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير: «كان خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير مكة والحجاز للوليد ثم لسليمان. . وقد استنابه الوليد على مكة والحجاز سنة ٨٩هـ ثم استنابه سليمان». بينما التبس الأمر على الطبري فقال: «عزل سليمان عثمان بن حيّان المري عن المدينة وولى عليها أبو بكر بن محمدبن عمر بن حزم الأنصاري لسبع بقين من رمضان سنة ٩٦هـ. . وفيها ـ أي سنة ٩٦هـ ـ عزل سليمان خالد بن عبد اللّه الْقَسْري عن مكة وولاها طلحة بن داود الحضرمي» ثم قال في أنباء سنة ٩٧هـ «وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الملك. . ولما صدر سليمان من الحج عزل طلحة بن داود الحضرمي عن مكة وكان عمله عليها ستة أشهر»[1].

ويتبين من ذلك أن ولاية طلحة الحضرمي لمكة كانت من شعبان ٩٧هـ إلى عودة سليمان من الحج في محرم ٩٨هـ مما يدل على أن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري استمر والياً لمكة في خلافة سليمان من جمادى الآخرة ٩٦هـ إلى رجب سنة ٩٧هـ فاكتملت مدة ولايته لمكة ثماني سنوات من رجب ٨٩هـ إلى رجب ٩٧هـ.

ثم غضب منه سليمان بن عبد الملك لأمر يتعلق بولاية العهد وكان سليمان يريد أن يجعل ابنه داود بن سليمان ولياً للعهد وخليفة بعده، فبلغه كلام منسوب إلى خالد من بعض الوشاة، وزعم الأصفهاني أن خالداً قام بجلد رجل من قريش فشكوه إلى سليمان فعزله وأراد معاقبته، وكان ليزيد بن المهلب الأزدي أمير العراق موقفٌ محمود في إقناع سليمان بعدم التعرض لخالد، وفي ذلك قال الفرزدق لخالد فيما بعد:

ولولا يَزِيدُ ابن المهلّب حَلّقَتْ بكفك فَتْخَاء إلى الفرخ في الوكر

ونميل إلى أن غضب سليمان كان يتصل بمسألة ولاية العهد، وكان يزيد بن المهلب قد أصبح والياً للعراق ومشارقها في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) فكلم يزيد بن المهلب سليمان بن عبد الملك بعدم التعرض لخالد حينما بلغه أن سليمان عزله ودعاه إلى دمشق، قال المسعودي في مروج الذهب:

«غضب سليمان على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، إنّ القدرة تُذهِب الحفيظة، وإنك تَجِلُّ عن العقوبة، فإن تَعفُ فأهلٌ لذلك

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١١٧، جـ٨.

أنت، وإن تُعاقب فأهلٌ لذلك أنا. فعفا عنه»[١]. ثم أقام خالد في داره بدمشق، فكان من الرؤساء وذوي الوجاهة والشرف بالشام، وما لبث أن مات سليمان في صفر ٩٩هـ وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز.

* * *

أنباء خالد في خلافة عمر بن عبد العزيز.. وحتى توليته على العراق

كان لخالد بن عبد اللَّه الْقَسْري معرفة وثيقة بعمر بن عبد العزيز بن مروان في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان، فقد كان عمر والياً للمدينة المنورة وخالد والياً لمكة المكرمة منذ سنة ٨٩هـ إلى سنة ٩٣هـ، وحج عمر بالناس سنة ٨٩هـ وسنة ٩٠هـ، وخالد أمير لمكة، ولذلك كان خالد يعرف عمر بن عبد العزيز معرفة جيدة فابتهج خالد بأيلولة الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز في صفر سنة ٩٩هـ لأنه خيرُ من يتولى أمر المسلمين، وسار خالد لتهنئته مع رؤساء اليمانية بدمشق والشام.

قال الحافظ في كتاب البيان والتبيين: «قال خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري لعمرَ بن عبدِ العزيز: مَنْ كانت الخلافة زانتْه فقد زيَّنْتَها، ومن كانت شرَّفَتْه فقد شَرَّفْتَها، فأنت كما قال الشاعر: ـ

وتَزيدِينَ أَطْيَبَ الطِّيب طيباً ... أن تَمَسِّيه أينَ مثلُك أينا
وإذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجوهٍ ... كان للدُّرِّ حُسْنُ وجهِك زَيْنا

فقال عمر: إنَّ صاحبَكم أُعطى مَقُولا، ولم يُعْط معقولاً»[٢].

وفي سنة ١٠٠هـ بلغ وجهاءُ وشخصيات دمشق أن عمر بن عبد العزيز يريد أن ينزع ما في الجامع الأموي من الذهب والفسيفساء والأعمدة الرخامية والنفائس التي تم بناء الجامع بها في خلافة الوليد بن عبد الملك، فأراد عمر بن عبد العزيز أن ينزع ذلك كله ويجعله في بيت مال المسلمين ـ الخزينة العامة ـ ويجعل مكان ذلك كله طيناً. فجزع وجهاء وشخصيات دمشق لما بلغهم ذلك واجتمعوا عند خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري، فقال خالد: أنا أُكلمه لكم، وقد ذكر الحافظ ابن كثير: «إن الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بِناءٌ أحسن منه، ولا أبهى ولا أجمل منه، بحيث إذا نظر الناظر إليه أو إلى جهة منه أو إلى بقعة أو مكان منه تحيّر فيها نظره لحسنه وجماله، ولا يملّ ناظره، بل كلما أدمن النظر بانت له أعجوبة ليست كالأخرى.. وكان بناء الجامع أيام الوليد.. ولم يزل سليمان بن

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص١٩٠، جـ٣.
(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص١٩٥، جـ١.

عبد الملك يعمل في تكملة الجامع الأموي بعد موت أخيه مدة ولايته». وقد ذكر ابن كثير ما كان في الجامع من السلاسل الذهبية والرخام والفسيفساء والأشياء العظيمة وأنه: «ليس في الجامع الأموي من الرخام شيء إلا الرخامتان اللتان في المقام، مِنْ عرش بلقيس»(١).

قال الحافظ ابن كثير: «فلما وُلّي عمر بن عبد العزيز عَزَمَ على أن يجرد الجامع الأموي مما فيه من الذهب ويقلع السلاسل والرخام والفسيفساء ويرد ذلك كله إلى بيت المال ويجعل مكان ذلك كله طيناً. فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرافهم إليه وقال خالد بن عبد اللّه الْقَسْري: أنا أكلمه لكم. فقال له خالد: يا أمير المؤمنين بلغنا عنك كذا وكذا. قال عمر: نعم. قال خالد: ليس ذلك إليك يا أمير المؤمنين. فقال عمر: ولِم يا ابنِ الكافرة؟ فقال خالد: يا أمير المؤمنين إنْ كانت كافرة فقد ولدت رجلاً مؤمناً. فقال: صدقت، واستحيا عُمر، ثم قال له: فَلِمَ قُلْتَ ذلك؟ فقال خالد: يا أمير المؤمنين لأن غالب ما فيه من الرخام والنفائس إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم وليس هو لبيت المال. فأطرق عمر»(١). وكانت حجة خالد قاطعة، فتراجع عمر بن عبد العزيز عمّا نواه، وبذلك أنقذ خالد الجامع الأموي من أن يتحول إلى أكوام من الطين، فكان له فضل في بقاء الجامع الأموي روعة من روائع الحضارة العربية الإسلامية حتى اليوم.

وفي رجب سنة ١٠١هـ توفي عمر بن عبد العزيز وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك، وكان سيِّء السيرة والأخلاق، وقام بعزل عمال سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ومنهم أبو بكر الأنصاري عامل المدينة المنورة وعروة بن عطية السعدي أمير ولاية اليمن، وسار عمال يزيد بن عبد الملك سيرة سيئة ومنهم عَدِي بن أرطأة الفزاري أمير ولاية البصرة، فثار الزعيم اليماني يزيد بن المهلّب في البصرة وكان يزيد بن عبد الملك قد كتب إلى عَدِي بن أرطأة الفزاري بحبس آل المهلّب الذين بالبصرة فقام عَدِي بحبس المفضل وعبد الملك وحبيب إخوة يزيد بن المهلّب، قال ابن خلدون: «وأرسل يزيد إلى عَدِي بن أرطأة أن يطلق له إخوته فينزل البصرة حتى يأخذ أماناً من يزيد بن عبد الملك ـ فأبَىٰ عَدِي بن أرطأة ـ وبعث يزيد ابن أخيه حميد بن عبد الملك بن المهلب يستأمن له من يزيد بن عبد الملك.. فأجاره خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وعمرو بن يزيد الحكمي بأمان يزيد بن عبد الملك له ولأهله».. ويتبين من ذلك أن حميد بن عبد الملك بن المهلّب وصل إلى خالد بدمشق فنزل

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٤٨ وص١٥١، جـ٩.

عنده، ثم سار خالد بن عبد اللّه وعمرو بن يزيد الحكمي المذحجي إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك فكلمه خالد بأن يعطي يزيد بن المهلّب الأمان له ولآل المهلّب، وكان يزيد بن عبد الملك قدأمر عامل البصرة بالقبض عليهم وبقتلهم، فتراجع عن موقفه وأعطى خالد الْقَسْري وعمرو الحكمي كتاب الأمان ليزيد بن المهلّب وآل المهلّب.

وسار خالد بكتاب الأمان ومعه عمرو بن يزيد الحكمي وحميد بن عبد الملك بن المهلّب من دمشق قاصدين العراق، ولكن الموقف كان قد تحول إلى انطلاق الثورة بقيادة يزيد بن المهلّب وخَلْع يزيد بن عبد الملك ومبايعة ابن المهلّب بالخلافة، وانتصر يزيد بن المهلّب على عَدِي بن أرطأة الفزاري في البصرة وقام بحبس ابن أرطأة وبويع بالخلافة في البصرة ـ قال الطبري: (وخرج الحواريُّ بن زياد يريد يزيد بن عبد الملك هارباً من يزيد بن المهلّب، فلقى خالدَ بن عبد اللّه الْقَسْري وعمرو بن يزيد الحكمي ومعهما حميد بن عبد الملك بن المهلب قدأقبلوا من عند يزيد بن عبد الملك بأمان يزيدبن المهلب وكل شيء أراده. فسألاه عن الخبر، فخلا بهما حين رأى معهما حميد بن عبد الملك، فقال: أين تريدان؟ قالا: يزيد بن المهلّب وقد أتيناه بكل شيء أراده. فقال: ما تصنعان بيزيد شيئاً ولا يصنعه بكما فقد ظَهَرَ على عَدِي بن أرطأة وحبس عَدِياً، فارجعا». (ص١٤٨، جـ٨) وقال ابن خلدون: «خرج المغيرة بن زياد إلى الشام فلقي خالداً الْقَسْري وعمراً الحكمي وقد جاؤوا بأمان يزيد بن المهلّب، فأخبرهما بظهور ابن المهلّب على البصرة وحبسه عَدِياً، فرجعا». (ص٤٢٤/ اليمن في تاريخ ابن خلدون).

ثم بعث يزيد بن عبد الملك في أوائل سنة ١٠٢هـ جيشاً كبيراً من أهل الشام والجزيرة الفراتية وكان في الجيش غالبية رؤساء وجند اليمانية بالشام، إلا خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وإخوته وأسرته، فقد اعتذر خالد عن المسير، ومكث بدمشق وكانت والدته مريضة في تلك الفترة فأقام خالد بدمشق يرعاها، بينما انتهت ثورة يزيد بن المهلّب بمقتله ـ سنة ١٠٢هـ ـ واستشهد يزيد والكثير من آل المهلب، وربما كان أسف خالد على آل المهلّب لا يقل عن حزنه على والدته التي ماتت مؤمنة مسلمة وتم دفنها بجوار قبر زوجها عبد اللّه وقبر أبيه الصحابي يزيد بن أسد الْقَسْري في دمشق، ثم مات يزيد بن عبد الملك في شعبان سنة ١٠٥هـ وتولى الخلافة هشام بن عبد الملك فولى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري على العراق ومشارقها، وأشرق بتولية خالد عهد جديد في ربوع العراقيين.

* * *

ولاية خالد للعراق والمشرق . . ومعالم عهده

في شوّال سنة ١٠٥هـ (مارس ٧٢٤م) تولى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بلاد العراقين ومشارقها، وهو يومئذٍ ابن تسع وثلاثين سنة، كان مولده سنة ٦٦هـ (الموافق ٦٨٦م) وقد سلف ذكر ما جاء في ترجمته بكتاب الجامع من أنه: «أحد سادة اليمانية، كان أميراً للحجاز ثم أميراً للعراقيين». وقول الحافظ ابن كثير: «كان أمير مكة والحجاز للوليد ثم لسليمان وأمير العراقين لهشام خمسة عشرة سنة».

لقد تولى هشام بن عبد الملك الخلافة في شعبان سنة ١٠٥هـ وكان هشام يعرف ما عاناه العراق من الفتن والحروب وعدم الاستقرار منذ ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق إلى ولاية عمر بن هبيرة الفزاري القيسي عامل يزيد بن عبد الملك على العراق (١٠٣ ـ ١٠٥هـ) وكان هشام ذا بصيرة ثاقبة فاختار لولاية العراق ومشارقها خالد بن عبد اللّه الْقَسْري، إذْ أنه كما قال الشاعر جرير الخطفي: ـ

لـقَـدْ كـانَ داءٌ بـالـعـراقِ فـمـا لـقُـوا   طبيباً شَفَـى أدوائَهُـمْ مِثْلَ خالِدِ

وقد كانت ولاية خالد للعراق تحدياً كبيراً منذ لحظاتها الأولى، وفي ذلك يقول د. حسين عطوان: «خلقت القيسية حول خالد منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها العراق جواً مشبعاً بروح العداء، أكرهه على التحول إلى قومه اليمانية برغم حيدته». ويقول د. ناجي حسن: «لا يخفى أن خالد بن عبد اللّه وإنْ كان ذا نزعة يمانية إلا أن هذا الشعور لم يطغ على سياسته بالشكل الذي يجعله منساقاً وراء الأهواء»[(١)].

ونرى أن القول بأن القيسية خلقت حول خالد منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها العراق جواً مشبعاً بروح العداء، هو قول يفتقر إلى الدقة، فإن الأمر في البداية لم يكن كذلك، وإنما ـ وكما ذكر الطبري ـ «قال عمرو بن يزيد الأسيدي التميمي: دخلت على هشام بن عبد الملك وعنده خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وهو يذكر طاعة أهل اليمن، فَصَفَّقْتُ تصفيقة بيدي دقَّ الهواء منها وقُلتُ: تا اللّه ما رأيتُ هكذا خطأً، واللّه ما فُتِحت فتنة في الإسلام إلا بأهل اليمن، هُم قتلوا عثمان وهُم خلعوا عبد الملك وإن سُيُوفنا لتقطر من دماء آل المهلّب. قال: فلما قُمتُ تبعني رجل من آل مروان وكان حاضراً فقال: يا أخا بني تميم، ورت بك زنادي، قد سمعتُ مقالتك، وأمير المؤمنين مولٍ خالداً العراق وليست لك بدار».

وغني عن البيان أن عمرو بن يزيد هذا إنما هو فرد من القيسية، وكان ذا علاقة بعمر بن هبيرة الفزاري القيسي أمير العراق وربما كان مبعوثاً من عنده إلى هشام بن

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٠٦.

عبد الملك، فلما شعر بأن هشاماً سيولي خالداً على العراق قال ذلك الكلام الذي لم يكن له تأثير لأن أهل اليمن كانوا عماد دولة الخلافة، وخاصة يمانية الشام.

وبعد قيام هشام بن عبد الملك بإقرار وتولية الولاة الأمراء على الولايات ومنهم خالد بن عبد اللّه، قال رجل من القيسية لهشام: (يا أمير المؤمنين، رجل من اليمن على إفريقية، ورجل من اليمن على الأندلس، ورجل من اليمن على مصر، ورجلٌ من اليمن على العراق؟!). وهذا القول قد لا يعدو أن يكون نوعاً من الحسد أو الاحتجاج على كون حكام الولايات الرئيسية في أرجاء دولة الخلافة من اليمنيين(١).

لقد تولى خالد بلاد العراقين ومشارقها في شوّال سنة ١٠٥هـ، وفي ذلك قال الطبري: «عزل هشام بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق وولّى ذلك كله خالد بن عبد اللّه الْقَسْري في شوّال سنة خمس ومائة».

فانطلق خالد من يومه إلى العراق التي كانت من ساحات الفتن والحروب وعدم الاستقرار لسنوات طويلة، وكان التحدي الكبير الذي عقد خالد العزم على مواجهته هو تغيير ذلك الواقع وتحقيق العدل والسلام والاستقرار والرخاء في ربوع العراق.

ولما وصل خالد والذين معه إلى مدينة واسط وهي عاصمة ومقر أمير العراق تسلّم سدة الحكم في قصر الإمارة، ثم خطب في الناس بجامع واسط خطبة لم تذكرها الروايات ولكنها ذكرت ما هو أهم من الخطبة ذاتها، فما إن سمع أهل العراق خطبة خالد حتى سموه (خطيب اللّه)، قال الجاحظ في البيان والتبيين: «كان أسدُبن كُرْزٍ الْقَسري يقال له (خطيب الشَّيطان) فلما استُعمل خالدُ ـ بن عبد اللّه الْقَسْري ـ على العراق قيل له (خطيب اللّه)، فَجَرتْ إلى اليوم». (ص ٢٧٥جـ٢).

وكان عهد ولاية خالد الْقَسْري من أفضل العهود منذ أيام الفتوحات، وفي ذلك تقول دراسات تاريخ العراق: «وقَفَ خالد بن عبد اللّه الْقَسْري حياته على السعي لإقرار السلم والنهوض بالعراق من الناحية الاقتصادية، فقد ساد العراق السلام والأمن خلال عهده الطويل، واحتفل بالزراعة، فجُففت البطائح واستصلح كثيراً من الأراضي البكر للزراعة، وشق الأنهار، وحققت جهوده المثمرة الرفاهية للبلاد».

لقد دام عهد خالد ١٥ عاماً من سنة ١٠٥ ـ ١٢٠هـ وكان من أنباء ومعالم عهده:

---

(١) كان أمير إفريقية بشر بن صفوان الكلبي (١٠٢ ـ ١٠٩، هـ) وأمير الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٢ ـ ١٠٧هـ) ثم يحيىٰ بن سَلَمه الكلبي (١٠٧ ـ ١١٠هـ) ثم عبد الرحمٰن الغافقي (١١٢ ـ ١١٤هـ) وكان أمير مصر حنظلة بن صفوان الكلبي (١٠٢ ـ ١٠٦هـ) ثم حفص بن الوليد الحضرمي وعبد الملك بن رفاعة ثم الوليد بن رفاعة اللخمي (١٠٩ ـ ١١٧هـ) ثم حنظلة بن صفوان مرة ثانية (١١٩ ـ ١٢٤هـ).

أولاً: سيادة الأمن والسلام والعدل وقوة الدولة

وفي ذلك قال جرير صاحب الفرزدق يمدح خالداً ويذكر سياسته الحكيمة: -

لَقَدْ كانَ داءٌ بالعراقِ فما لَقُوا   طبيباً شَفَى أَدْواءَهُمْ مِثْلَ خالِدِ
شَفاهُمْ بِحِلْمٍ خَالَطَ الدِّينَ والتُّقا   ورأفَةَ مَهْدِيٍّ إلى الحَقِّ قاصِدِ
فإنَّ أميرَ المؤمنينَ حَباكُمُ   بِمُسْتَبْصِرٍ في الدِّينِ زَيْنِ المَساجِدِ
وإنَّ ابنَ عَبْدِ اللَّهِ قد عُرِفَتْ لهُ   مَواطِنُ لا تُخْزِيهِ عند المَشاهِدِ
فَكَيْفَ يَرومُ النَّاسُ شَيْئاً مَنَعْتَهُ   لَهَا بَيْنَ أنيابِ اللُّيوثِ الحَوارِدِ[(١)]
إذا ما لَقيتَ القِرْنَ في حارَةِ الوَغا   تَنَفَّسَ مِنْ جَيَّاشَةٍ ذاتِ عانِدِ[(٢)]
وإن فَتَنَ الشَّيْطانُ أهلَ ضَلالَةٍ   لَقُوا مِنْكَ حَرْباً حَمْيُها غَيْرُ بَارِدِ
إذا كانَ أمْنٌ كان قَلْبُكَ مُؤمِناً   وإنْ كانَ خَوْفٌ كُنتَ أحْكَمَ ذائِدِ[(٣)]
حَمَيْتَ ثُغورَ المُسْلِمِينَ فلَمْ تُضِعْ   وما زِلْتَ رَأْساً قائِداً وابْنَ قائِدِ
تُعِدُّ سَرابيلَ الحَديدِ مَعَ القَنَا   وشُعْثَ النواصِي كالضِّراءِ الطَّوارِدِ[(٤)]
وإنَّك قَدْ أُعْطيت نَصْراً عَلَى العِدَى   ولُقِّيتَ صَبْراً واحْتِسابَ المُجاهِدِ
إذا جَمَعَ الأعْداءُ أَمْرَ مَكِيدَةٍ   لِغَدْرٍ كَفاكَ اللَّهُ كَيْدَ المُكايِدِ
وإنّا لَنَرْجُوا أنْ تُوافِقَ عُصْبَةً   يَكونونَ لِلْفِرْدَوْسِ أوَّلَ وارِدِ
تَمَكَّنْتَ فِي حَيٍّ مَعِدٍّ مِن الذُّرَى   وفي اليَمَنِ الأَعْلَى كَريمَ المَوالِدِ[(٥)]

---

(١) قال أبو عبيدة: «قوله: منعته، هو مَنَعْتَهُ يعني اللّها فقَدَّمَ وجَمَعَ أي الذي تَمْنَعُه أنت كأنّه في لَهاةٍ بين أنيابِ لَيْثٍ فمَنْ يَقْدِرُ على اسْتِخراجه».

(٢) قال أبو عبيدة: «قوله: جَيَّاشةٍ، يقول هذه الطّعنةُ تَجيشُ بالدمّ كما تَجيشُ القِدْرُ بما فيها من شِدّة الغليان.

وقوله: ذاتِ عانِدٍ، يقول: الدّم الذي يَسيل من هذه الطّعنة عانِدٌ، يريد يأخذ غيرَ الطريق من كَثرته يَذْهَبُ الدّم يَمْنَةً ويَسْرَةً وهو من قولهم: قد عَنَد فلانٌ عن الطريق إذا ذهب مَذْهبَ الباطلِ والظلمِ فكأنّه مشتقّ من ذلك. قال أبو جعفر: عاند، لا يُجيبُ راقِياً من سَعَةِ مَخْرَجِه من الطّعنة».

(٣) قال أبو عبيدة: «قوله: كُنْتَ أحْكَمَ ذائِدٍ: كنتَ أحكمَ مَنْ يُدْفَع عن حَريمِه، يقال: فلانُ يَذودُ النّاسَ وذلك إذا دَفَعَ عنهم» والمقصود أنه يذود الخوف عن الناس والبلاد بالحكمة.

(٤) سرابيل الحديد: الدروع. والقنا: الرماح. وشعث النواصي: الخيول. قال أبو عبيدة (وقوله كالضِّراء الطوارد، يعني الكلاب الضّارِيَة، الواحدُ ضِرْوٌ، والأنثى ضِرْوَةٌ).

(٥) قال أبو عبيدة: يعني كريم الآباءِ والأُمّهات). ويروى (وفي يَمَنٍ أعلى كريم الروافد).

وما زِلْتَ تَسْمُو لِلْمَكارِمِ والعُلَى   وتَغْمُرُ عِزّاً مُستَنيرَ المَوارِدِ
إذا عُدَّ أيَّامُ المَكارِمِ فافْتَخِرْ   بِآبائِكَ الشُّمِّ الطِّوالِ السَّواعِدِ[(١)]
وكَمْ لَكَ مِنَ بانٍ رَفيعٍ بِناؤهُ   وفي آلِ صَعْبٍ من خَطيبٍ ووافِدِ[(٢)]
يَسُرُّكَ أيام المُحَصَّبِ ذِكْرُهُمْ   ويَوْمَ مَقامِ الهَدْيِ ذاتِ القَلائِدِ[(٣)]
بَنَيْتَ المَنارَ المُسْتَنيرَ عَلَى الهُدَى   فأصْبَحْتَ نوراً ضَوْءُهُ غَيْرُ خامِدِ
بَنَيْتَ بِناءً لم يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ   يَكادُ يُوازِي سُورُهُ بالفَراقِدِ
وأُعْطِيتَ ما أَعْيَا القُرونَ الَّتي مَضَتْ   فَنَحْمَدُ مَوْلانا وَلِيَّ المَحامِدِ

ثانياً: قيام خالد بشق النهر المبارك وأنهار دجلة

وكان أبرز معالم عهد خالد بن عبد اللّه القَسْري أنه قام بشق الأنهار واحتفل بالزراعة فجُففت البطائح واستصلح كثيراً من الأراضي البكر للزراعة، وحققت جهوده المثمرة الرفاهية للبلاد.

وقد بدأ خالد بمشروع لم يتكلل بالنجاح وهو أن يشق قناة من نهر دجلة إلى مكان بعيد من أرض سواد دجلة أو غيرها، فقد ذكر البلاذري: «إن خالد بن عبد اللّه القَسْري كتب إلى هشام بن عبد الملك يستأذنه في عمل قنطرة على دجلة، فكتب إليه هشام: لو كان ذلك ممكناً لسبق إليه الفُرس، فراجعه خالد، فكتب إليه هشام: إن كنت متيقناً أنها تتم فاعملها، فعملها وأعظم النفقة فيها، فلم يلبث أن قطعها الماء، فأغرمه هشام ما كان أنفق عليها»[(٤)].

ثم قام خالد بشق النهر المبارك في واسط، وتقع مدينة واسط في سواد دجلة، وكانت واسط مقر أمير ولاية العراق ـ منذ سنة ٨٤هـ ـ قال البلاذري: «وبين واسط وبين الأهواز والبصرة والكوفة مقدار واحد»، فقام خالد بشق النهر المبارك المتفرع من نهر دجلة إلى أرض السواد، وأنفق عليه نفقة جزيلة في حفر مجاري النهر وغير

(١) قال أبو عبيدة: (قوله: الشُّم: الطوال المرتفعة، وهذا مثلُ ضربه للشرف والكرم، أي أنّ حَسَبَهم لا يَبْلُغُه مَنْ يُفَاخِرهُ».

(٢) آل صعب: أجداد خالد، منهم شق بن صعب الذي بشر بالنبي ﷺ. وقوله: ووافِد، الذين وفدوا إلى النبي ﷺ.

(٣) قال أبو عبيدة: (ويُروى: يُشَرِّفُ أيام المُحَصَّبِ. المعنى في ذلك يقول إذا اجتمع الناسُ من كل فَجٍّ عميق تذاكروا آباءهم قديماً وحديثاً يتفاخرون، فإذا اجتمع الناس في تلك الأيام يسَرَّك ما سَمِعتَ من ذكر آبائك وما تَقَدَّمَ من فعالهم».

(٤) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٨٨.

ذلك من الأعمال، فأرجف بعض المرجفين بأن النهر المبارك سيفشل، مثل قنطرة دجلة، وكان على رأس المرجفين الشاعر الفرزدق، قال الأصفهاني في كتاب الأغاني: «لما حفر خالد بن عبد اللّه الْقَسْري النهر المبارك قال الفرزدق يهجوه: ـ

وأهلكتَ مالَ اللّه في غير حقه   على النهر المشؤوم غير المبارك

(ولعل الأصوب: على نهرك المشؤوم غير المبارك).

وقال، ويقال إنها للمفرج بن المرقع: ـ

كأنك بالمبارك بعد شهر   يخوض غماره نقع الكلاب

كذبت خليفة الرحمٰن عنه   وكيف يرى الكذوب جزا الثواب[1]

وقال البلاذري: «حفر خالد بن عبد اللّه الْقَسْري نهر المبارك فقال الفرزدق: ـ

كأنك بالمبارك بعد شهر   تخوض غماره بقع الكلاب

ثم قال في شعر له طويل:

أعطى خليفته بقوة خالد   نهراً يفيض له على الأنهار

إنّ المبارك كاسمه يُسقى به   حرث السواد وناعم الجبار

وكأنّ دجلة حين أقبل مدّها   ناب يمدّ له بحبل قطار»

وقد قال الفرزدق هذا الشعر بعد النجاح العظيم لمشروع النهر المبارك الذي تدفق من دجلة إلى أرجاء واسعة من أرض السواد فسقى المزارع والأراضي البكر، فجُففت البطائح وتم استصلاح أراضي واسعة للزراعة.

وقال الفرزدق في قصيدة دالية مدح بها خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وذكرها أبو عبيدة في كتاب النقائض:

أَلَـمْ تَـرَ كَـفَّـيْ خالِـدٍ قـد أَفَـادَتـا   عَلَى النَّاسِ رِزْقاً مِنْ كَثيرِ الرَّوافِدِ

أسالَ له النَّهْرُ المُبَارَكَ فارْتَمَى   بِمِثْلِ الرَّوابي المُزْبِداتِ الحَواشِدِ

قال أبو عبيدة: «ويروى: فإنَّ له النَّهْرَ المبارَكَ. وروى أبو عمرو: ـ

وكان لهُ النهرُ المُبارَكُ فارْتَمىٰ   بِهِنَّ إِلَيْهِ مُزْبِداتِ الحَوَاشِدِ

ويُروى: على الرَّاسِياتِ العالِياتِ الحَواشِد. (وقوله: المزبدات الحواشد، حواشد الماء حَوالِبُهُ التي تَصُبُّ فيه)[2]. وكان نجاح النهر المبارك انطلاقة لقيام خالد بشق العديد

(١) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٦١، جـ١٩.

(٢) النقائض ـ لأبي عبيدة البصري ـ ص٩٨٢، جـ٢ ـ والأصوب في صدر البيت (أسال له اللّهُ المباركَ فارتمى).

من الأنهار الفرعية من نهر دجلة إلى مناطق وجهات عديدة من أراضي السواد، وقد ذكر الطبري سبعة أنهار، قال الطبري: «حفر خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري أنهاراً منها: نهر خالد، والمبارك، وباجْوى، وبارُمَّانا، والجامع، وكورة سابور، والصَّلح»[(١)].

وقال جرير في قصيدته الدالية بعد الأبيات سالفة الذكر التي مدح بها خالداً، يذكر الأنهار التي شقها خالد والنهر المبارك: ـ

لَقَدْ كانَ في أنْهارِ دِجْلَةَ نِعْمَةٌ ... وحُظْوَةُ جَدٌ لِلْخَلِيفَةِ صاعِدِ

عطاءُ الَّذي أعْطَىَ الخَليفَةَ مُلْكَهُ ... ويَكْفِيه تَزْفارَ النُّفوسِ الحَواسِدِ

فإنَّ الَّذي أنْفَقْتَ حَزْماً وقُوَّةً ... يَجيءُ بِأضْعافٍ مِنَ الرِّبْحِ زائِدِ

(قال أبو عبيدة: ويروى (فكان) و (فأبْشِرْ بأضْعافٍ): يعني ما أَنْفَقَه على المُبارَك ـ نَهْرُ احتَفَرَه خالِد الْقَسْري): ـ

جَرَتْ لَكَ أنْهارٌ بِيُمْنٍ وأَسْعُدِ ... إلَى زِينَةٍ في صَحْصَحانِ الأجالِدِ

يُنَبِّتْنَ أعناباً وَنَخْلاً مُبارَكاً ... وَحَبًّا حَصيداً مِنْ كَريم الحَصائِدِ[(٢)]

إذا ما بَعَثْنا رائداً يَطْلُبُ النَّدَى ... أتانا بحَمْد اللّٰهِ أَحْمَدَ رائِدِ[(٣)]

ثالثاً: نبأ خالد الْقَسْري والفرزدق

إن الأبيات التي قالها الفرزدق في النهر المبارك وفي خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري تجعل من المناسب أن نذكر هنا نبأ خالد والفرزدق، وتبيين التالي: ـ

أ ـ إن الأصفهاني روى في كتاب الأغاني أشعاراً للفرزدق وأعشى همدان في هجاء خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري وذلك في إطار أكاذيب وتلفيقات غير صحيحة نقلها الأصفهاني عن أصحاب المثالب من الشعوبيين وغيرهم من المتعصبين والحاقدين، وبما أن كتاب الأغاني للأصفهاني واسع الانتشار بل إن بعض الكتب نقلت عنه بعض تلك المزاعم، فإن من المفيد بل من الواجب التنبيه إلى عدم صحتها، وإلى أن خالد بن عبد اللّٰه الذي قيلت فيه تلك الأقوال والأشعار إنما هو خالد بن عبد اللّٰه بن خالد بن أسيد الأموي القريشي عامل عبد الملك بن مروان على البصرة ثم الكوفة سنة ٧١ ـ ٧٤هـ، فقد زعمت روايات الأصفهاني أنه (كان خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري، يولّي النصارى والمجوس على المسلمين في ولايته للعراق ويأمرهم بامتهان

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٥٥، جـ٨.

(٢) قال أبو عبيدة: ويروى (وانقاءَ بُرٌ في جَرونِ الحصائد).

(٣) ويروى (إذا ما أرَدْنا رائداً) و (أتانا بحمد اللّٰه من خير رائد)، والرائد: الذي يطلُبُ الكَلأَ: ومن أمثال العرب في الصدق (الرائدُ لا يَكْذِبُ أهْلَهُ).

المسلمين وضربهم، وكان يلعن علي بن أبي طالب في المنابر.. وكانت أمه نصرانية فبنى لها كنيسة في ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة، وكان الناس بالكوفة إذا ذكروه قالوا: ابن البظراء، وقال أعشى همدان يهجوه ويعيره بأمه: ـ

لعَمْرك ما أدري وإنّي لسائل أبظراء أَمْ مختونةٌ أُم خالد

فإن كانت الموسي جرت فوق بظرها فما ختنت إلا ومصان قاعد

وقال فيه أعشى همدان أيضاً يرميه باللواط: ـ

ألم تر خالداً يختار ميماً ويترك في النكاح مشق صاد

ويَبْغَضُ كل آنسة لعوب وينكح كل عبد مستعاد

وقال الفرزدق يهجوه: ـ

ألا لعن الرحمٰن ظهر مطية أتتنا تَخَطَّى للعراق بخالد..»[1]

بينما الشاعر أعشى همدان مات قتيلاً في ثورة عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي سنة ٨٣هـ وقد ذكر الأصفهاني نفسه في أخبار أعشى همدان بكتاب الأغاني قتل الحجاج إياه لخروجه مع ابن الأشعث سنة ٨٣هـ وكذلك ذكرت كل كتب التاريخ والأدب مقتل أعشى همدان سنة ٨٣هـ، ويعتبر ذلك دليلاً قاطعاً على أن أشعار أعشى همدان والفرزدق تلك إنما قيلت في خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسيد الأموي وهو الذي كان يقع في علي بن أبي طالب وكان ممقوتاً من أهل البصرة والكوفة، وقال له أعشى همدان والفرزدق تلك الأشعار، وقد اندفع الأصفهاني وراء ذوي الأهواء الحاقدين في ذلك التلفيق والبهتان على خالد القَسْري بينما أعشى همدان مات سنة ٨٣هـ وذلك قبل أن يتولى خالد القَسْري العراق باثنتي وعشرين سنة. وقد اندفع صاحب كتاب العقد أيضاً إلى رواية بعض تلك المزاعم والتي أشار إليها الحافظ ابن كثير في ترجمة خالد بن عبد اللّه القَسْري قائلاً: «وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح، لأن صاحب العقد كان فيه تشيع شنيع ومغالاة». (ص ٢١، جـ١٠/ البداية والنهاية).

ب ـ وقد كتم الأصفهاني الأشعار التي قالها الفرزدق في الثناء على خالد بن عبد اللّه القَسْري منذ ولايته للعراق سنة ١٠٥هـ حتى وقع التباعد بينهما سنة ١٠٨هـ واكتفى بالإشارة إلى ذلك قائلاً ما يلي نصه: «إن الفرزدق مدح خالد بن عبد اللّه القَسْري مديحاً كثيراً»[1]. ولكنه لم يذكر حتى بيتاً واحداً من ذلك المديح. وكذلك كتم الأصفهاني قصيدة جرير في خالد: ـ

لقد كانَ داءٌ بالعراقِ فما لَقُوا طبيباً شَفَى أدْواءهُمْ مِثل خالِدِ

---

(١) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ص٦١، جـ١٩.

شَفاهُمْ بِحِلْمٍ خالط الدين والتُّقَا ورأفَةَ مَهْدِيٍّ إلى الحَقِّ قاصِدِ

فقد اكتفى الأصفهاني بذكر بيتين في آخر القصيدة تشفع فيهما جرير للفرزدق، وكتم سائر القصيدة.

وقد كان الفرزدق يمدح خالداً. وكان خالد يجزل له العطاء وكان خالد من أجود وأكرم الناس، ثم أراد الفرزدق أن يخدعه فأتى إليه زاعماً أن عليه ديات قتلى، وطلب من خالد أن يعطيه مقداراً كبيراً من المال ليدفع الديات المزعومة، وكان خالد يعلم عدم صحة ذلك، فأجاب عليه بما رواه الأصفهاني قائلاً: «أتى الفرزدقُ خالدَ بن عبد اللّه القَسْري يستحمله في ديات حملها، فقال خالد: إيهٍ يا فرزدق كأني بك قد قُلْتَ آتي الحائكَ ابنَ الحائِك فَأخدعه عن ماله إنْ أعطاني، أو أذمه إنْ منعني، فأنا حائك ابن حائك ولستُ أعطيك شيئاً فاذممني كيف شئت.. فهجاه الفرزدق بأشعار كثيرة..»[1]. والصحيح من ذلك ما رواه أبو عبيدة في كتاب النقائض أنه (هجا خالد بن عبد اللّه القَسْري بقوله: -

لَعمْري لَقَدْ صُبَّتْ عَلَى ظَهْرِ خالِدٍ شآبيبُ لَيْستْ مِنْ سَحابٍ ولا قَطْرِ
..فلولا يَزيدُ بن المُهَلّبِ حَلّقَتْ بِكَفِّكَ فَتْخاءُ الجَناحِ إلى الوَكْرِ)

وقد سنحت الفرصة للفرزدق سنة ١٠٩هـ حيث كان أسد بن عبد اللّه القَسْري والياً لخُرسان، فحاولت جماعة في خراسان الإخلال بالأمن والقيام بعملية تمرد، فقام أسد بإجراءات سريعة أسفرت عن فشل المحاولة واعتقال سائر رجالاتها، وأعرض أسد عن غالبية المتهمين وعفا عنهم، وحبس نصر بن سيار القيسي وثلاثة رجال كانوا وراء الشغب، وكان الأربعة من القيسية، فأمر بهم فضُربوا بالسياط، وبعث بهم إلى خالد بالعراق، فاستغل بعض المتعصبين للقيسية ذلك لاتهام خالد وأسد بالعصبية اليمانية، وقيل إن أسد بن عبد اللّه عفا عن اليمانية وعاقب القيسية، فاشترك الفرزدق في تلك الحملة ووجدها فرصة للكلام على خالد وتحريض هشام عليه، فقد ذكر الطبري أن الفرزدق قال: -

أخالِدُ لولا اللّهُ لَمْ تعط طاعةً ولولا بنو مروانَ لَمْ تُوثِقُوا نَصْرَا
إذاً لـلـقـيـتـم دُون شَدِّ وثاقِهِ بني الحرْبِ لا كشْفَ اللقاءِ ولا ضَجْرا

وذكر المسعودي أن الفرزدق قال: -

سلوا خالداً. لا أكرم اللّهُ خالداً متى وُلّيت قَسْرٌ قريشاً تدينُها
أقَبْلَ رسولَ اللّهِ أم ذاك بعده فتلك قريشٌ قد أغَثَّ سمينُها

---

(١) الأغاني - للأصفهاني - ص٦١، جـ١٩.

وكان هشام حكيماً وكذلك كان خالد فقام بإعفاء أسد من ولاية خراسان في رمضان ١٠٩هـ وأصبح أسد نائباً لخالد في العراق.

قال الأصفهاني: «ولما حفر خالد نهر المبارك بواسط قال فيه الفرزدق في أبيات يهجوه: ـ

وأهلكت مال اللّه في غير حقه　　على النهر المشؤوم غير المبارك
وتضربُ أقواماً صحاحاً ظهورهم　　وتتركُ حق اللّه في ظهر مالك

فأخذ خالد الفرزدق فحبسه واعتلّ عليه بهجائه إياه في حفر المبارك».

وقال الأصفهاني في موضع آخر: «قال أبو عبيدة: هجا الفرزدق خالداً وذكر النهر المبارك الذي حفره بواسط، فبلغه ذلك، فكتب خالد إلى مالك بن المنذر ـ صاحب شرطة البصرة ـ: أن أحبس الفرزدق فإنه هجا نهر أمير المؤمنين بقوله: ـ

أهلكتَ مال اللّه في غير حقه　　على النهر المشؤوم غير المبارك

فحبس مالكُ بن المنذر الفرزدق. فقال الفرزدق: ـ

يا مال هل هو مهلكي ما لم أقلْ　　وليعلمن من القصائد قَيّلِي
يا مال هل لك في كبير قد أتت　　تسعون فوق يديه غير قليل
فتجير ناصيتي وتفرج كربتي　　عني، وتطلق لي يداك كبولي
ولقد بَنَىَ لكم المعلى ذروة　　رفعت بناءك في أشم طويل

ثم إن مالكاً وَجّهَ الفرزدق إلى خالد ـ في واسط» (اهـ) بينما الذي ذكره أبو عبيدة في كتاب النقائض هو أنه: «كان الفرزدقُ هَجَا هِشَامَ بن عبد الملك بشِعْرٍ فيه هذا البيتُ: ـ

يُقَلِّبُ رَأْساً لم يَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ　　وعَيْناً لَهُ حَوْلَاء بادٍ عُيوبُها

وهجا خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بقوله: ـ

لِعَمري لَقَدْ صُبَّتْ عَلَى ظَهْرِ خَالِدٍ　　شَآبيبُ لَيستْ مِنْ سَحابٍ ولا قَطْرِ
فلَوْلا يَزيدُ بن المُهَلَّبِ حَلَّقَتْ　　بكَفِّكَ فَتْخاءُ الجَناحِ إلَى الوَكْرِ

فطلبه خالدُ حتى ظفرَ به فَحَبَسَه..».

قال أبو عبيدة في كتاب النقائض: «فقال الفرزدق لخالد بن عبد اللّه الْقَسْري: ـ

ألا مَنْ لِمُغْتادٍ مِنَ الحُزْنِ عائِدِ　　وهَمٌ أتَى دونَ الشّراسيفِ عامِدي[1]
وكَمْ مِنْ أخٍ لي ساهِرِ الليلِ لَمْ يَنَمْ　　ومُسْتَثْقَلٍ عَنّي مِنَ النَّوْمِ راقِدِ

(١) قال أبو عبيدة: الشراسيف مُنْقطعُ ضُلوع الجَنْبَيْن. والمعنى في ذلك يقول هذا الهَمُّ الذي أصابني قد دخل هذا المدخل».

وما الشَّمْسُ ضوْءَ المشرِقَيْنِ إذا انْجَلَتْ ولكِنَّ ضَوْءَ المَشْرِقَيْنِ بِخالِدِ
سَتَعْلَمُ ما أُثْنِي عَلَيْكَ إذا انْتَهَتْ إلى حَضْرَمَوْتٍ جَامِحاتُ القَصائِدِ
أَلَمْ تَرَ كَفَّيْ خالِدٍ قد أَفَادَتا عَلَى النَّاسِ رِزْقاً مِنْ كَثيرِ الرَّوافِدِ
أسالَ له النَّهْرُ المُبَارَكُ فَأرْتمى بِمِثْلِ الرَّوابِي المُزْبِداتِ الحَواشِدِ

(ويروى: فإنَّ له النَّهْرَ المُبارَكَ. وروى أبو عمرو: -

وكان لهُ النهرُ المُبارَكُ فارْتَمىٰ بِهِنَّ إليهِ مُزْبِداتِ الحَواشِدِ

ويروى (على الرَّاسِياتِ العالياتِ الحَواشِدِ) وقوله: (المزبدات الحواشد، هو أشد الماء حَوالِبُهُ التي تَصُبُّ فيه).

فَزِدْ خالِداً مِثْلَ الذي في يَمِينِه تَجِدْهُ عَنِ الإسْلامِ مِنْ خَيْرِ ذائِدِ

(قوله: فزدْ خالداً، يقول يا رَبِّ زِدْ خالِداً من الولاية مثلَ الذي بيده فهو خير ذائد عن الإسلام).

فإنّي ولا ظُلْماً أخافُ لخالِدٍ مِنَ الخَوْفِ أُسْقَىٰ مِنْ سِمامِ الأَساوِدِ
وإنّي لأرْجُو خالِداً أنْ يَفُكَّني ويُطْلِق عَنّي مُقْفَلاتِ الحَدائِدِ
هو القائِدُ المَيْمونُ والكاهلُ الَّذي يَثوبُ إليه النَّاسُ من كُلِّ وافِدِ
تَكَشَّفَتِ الظَّلْماءُ عَنْ نورِ وَجْهِهِ لِضَوءِ شِهابٍ ضَوْؤُهُ غَيْرُ خامِدِ
أَلا تَذْكُرونَ الرَّحْمَ، أو تُقْرِضونَني لَكُمْ خُلُقاً مِنْ واسِعِ الخُلْقِ ماجِدِ

(يقول: فإن لكم خُلُقاً واسعاً. ويروى: لكم حَلَباً يعني بِلاءً يُحْلَبُ).

لَهُ مِثْلُ كَفَّيْ خالِدٍ حِينَ يَشْتَري بِكُلِّ طَريفٍ كُلَّ حَمْدٍ وتالِدِ
فإنْ يَكُ قَيْدي رَدَّ هَمِّي فَرُبَّما تَناوَلْتُ أَطْرافَ الهُمومِ الأَباعِدِ

(ويروى: -

فإنْ يك قَيْدي أدْهَمَيْنِ فَرُبَّمَا تَرامى به رامِي الهُمومِ الأَباعِدِ)
مِنَ الحامِلاتِ الحَمْدَ لَمّا تَكَمَّشَتْ ذَلاذِلُها واسْتَوْرَأَتْ لِلْمُناشِدِ[١]
فَهَلْ لابْنِ عَبْدِ اللَّهِ في شاكِرٍ لَهُ بِمَعْروفٍ إنْ أَطْلَقْتَ قَيْدَيْهِ حامِدِ[٢]

---

(١) قال أبو عبيدة: «لما تكمشت: يعني ارتفعت. وذَلاذِلُها: عَلائِقُها. واسْتَوْرَأَتْ: نَفَرَتْ ومَضَتْ. والمناشد: الذي يطلب ضَالَّةً».

(٢) قال أبو عبيدة: «بمعروفٍ: مُنَوَّنٌ، وحامِدٌ مردودٌ على شاكِرٍ، يريد بمعروفٍ حامِدٍ إنْ أطلقتَ قيْدَيْهِ حامِدٍ لك، فَفَرَّقَ بين المُضاف والمُضاف إليه. وهذه حُجَّةٌ في النَّحْو».

وما مِنْ بَلاءٍ غَيْرَ كُلّ عَشِيَّةٍ وَكُلّ صَباحٍ زائِرٍ غَيْرِ عائِدِ
يَقولُ لِيَ الحَدّادُ هل أنتَ قائِمٌ؟ وما أنا إلّا مِثْلُ آخَرَ قاعِدِ
كأنّي حَروريٌّ لَهُ فَوْقَ كَعْبِهِ ثَلاثونَ قَيْداً مِنْ صَريمٍ وكابِدِ[١]
وإمّا بِدَيْنٍ ظاهَروا فَوْقَ ساقِهِ فَقَدْ عَلِموا أَنْ لَيْسَ دَيْنِي بِناقِدِ
وراوٍ عَلَيَّ الشِّعْرَ ما أنا قُلْتُهُ كَمُعْتَرِضٍ لِلرُّمحِ بَيْنَ الطَّرائِدِ[٢]
فذاكَ الّذي يَرْوِي عَلَيّ التي مَشَتْ بِهِ بَيْنَ حَقْوَيْ بَطْنِها والقَلائِدِ
بأَيْرِ ابْنِها إنْ لم تَجِئْ حينَ تَلْتَقِي عَلَى زورِ ما قالوا عَلَيَّ بِشاهِدِ»

وقال جرير في ختام قصيدته الدالية سالفة الذكر التي مدح فيها خالد بن عبد اللّه القَسْري يشفعُ للفرزدق: ـ

فَهَلْ لَكَ في عانٍ ولَيْسَ بِشاكِرٍ فتُطْلِقَهُ مِنْ طولِ عَضّ الحَدائِدِ[٣]
يَعودُ وكانَ الخُبْثُ مِنْهُ سَجِيّةً وإنْ قال: إنّي مُعْتِبٌ غَيْرُ عائِدِ

إلى آخر أبيات جرير، قال أبو عبيدة: (فلما أنشد جَريرُ خالداً مِدْحَتَه أَمَرَ بإطلاق الفرزدق، فأُخْرِجَ إلى أَسَدٍ وهو يقول: ـ

سَيُطْلِقُني أغَرُّ فَتَى يَمانٍ وقُلْ ما شِئْتَ في كَرَمِ الطَّليقِ)

وجاء في رواية الأصفهاني أنه: «كان خالد قد حَجّ واستخلف أخاه أسد بن عبد اللّه عَلى العراق، ووافق عنده جريراً فوثب يشفع له، فقال أسد: أتَشْفعُ له يا جرير!؟ فقال: إن ذلك أذلُ له أصلحك اللّه. وكلم أسدٌ ابنه المنذر، فَخَلى سبيله، فقال الفرزدق في ذلك: ـ

لا فضل إلا فضل أم على ابنها كفضل أبي الأشبال عند الفرزدق
تداركني من هوة دون قعرها ثمانون باعاً للطوال العُشَنق»

ويجمع القولين: أن خالد بن عبد اللّه لما سمع قصيدة الفرزدق ولما أنشده جرير مِدْحَتَه التي تشفع فيها للفرزدق، أمر خالدُ أخاه أسداً بإطلاق سراح الفرزدق عندما سار لأداء فريضة الحج واستخلف أسداً على العراق في ذي الحجة ١٠٩هـ.

---

(١) قال أبو عبيدة: «صريم: يعني صريم بن الحرث وهو مُقاعِس، وكانوا خوارج. وكابِد حيٌّ من اليمن».
(٢) قال أبو عبيدة: «الطرائد التي تُطْرَدُ. والطريدةُ: ما طُرِدَ من الصَّيْد».
(٣) عان: أسير، يعني الفرزدق. قال أبو عبيدة: هذا يقوله جرير لخالد في الفرزدق، أي إنْ أطلقته لم يَشْكُرْكَ».

فأمر أسد ابنه منذراًبإحضاره من الحبس فأخرجه وأحضره إلى أسد، فخرج الفرزدق وهو يقول: ـ

سَيُطْلِقُني أغَرُّ فَتىً يَمانٍ ... وقُل ما شِئْتَ في كَرَم الطَّليقِ

فأطلق أسد بن عبد اللّٰه سراحه وأكرمه. وقد كتم الأصفهاني هذا البيت وقصيدة الفرزدق الدالية سالفة الذكر في خالد وهي من آخر روائع قصائد الفرزدق.

وتليها القصيدة التي ذكر البلاذري أنه: قال الفرزدق في شعر له طويل: ـ

أعطى خليفته بقوة خالد ... نهراً يفيض له على الأنهار

ويشير زمن الأحداث السالفة إلى أن القصيدة الرائية هذه كانت بعد عودة خالد من فريضة الحج في مطلع سنة ١١٠هـ، قال الأصفهاني: «ومات الفرزدق سنة عشر ومائة، ومات جرير بعده بستة أشهر».

* * *

رابعاً: نبأ عمال خالد على ولاية البصرة وبلاد فارس

لقد جاء في المزاعم التي رواها الأصفهاني أنه: «كان خالد بن عبد اللّٰه يولي النصارى والمجوس على المسلمين ويأمرهم بامتهان المسلمين وضربهم..». وهذا الزعم هو من الأكاذيب والتلفيقات التي نسبها الأصفهاني إلى خالد بن عبد اللّٰه القَسْري، فقد ذكر الطبري في تاريخ الأمم والملوك أنه: ـ

«في هذه السنة ـ وهي سنة ١٠٦هـ ـ كان على العراق وخراسان خالد بن عبد اللّٰه القَسْري، وعامل خالد على صلاة البصرة عقبة بن عبد الأعلى، وعلى شرطتها مالك بن المنذر بن الجارود، وعلى قضائها ثمامة بن عبد اللّٰه بن أنس، وعلى خراسان أسد بن عبد اللّٰه.. وكان عمال الأمصار سنة ١٠٧ وسنة ١٠٨هـ الذين ذكرناهم سنة ١٠٦هـ» ـ (ص١٨٨، جـ٨).

قال الطبري: «وفي هذه السنة ـ وهي ١٠٩هـ ـ كان على البصرة والكوفة خالد بن عبد اللّٰه، وعلى الصلاة بالبصرة أبان بن ضبارة اليزني، وعلى شرطتها بلال بن أبي بردة، وعلى قضائها ثمامة بن عبد اللّٰه الأنصاري.. وفي سنة ١١٠هـ جعل خالد الصلاة بالبصرة مع الشرطة والأحداث والقضاء إلى بلال بن أبي بردة فجمع ذلك كله له وعزل به ثمامة بن عبد اللّٰه عن القضاء..» ثم ذكر في أنباء سنة ١١٦هـ عودة أسد والياً لخراسان، وقال في أحداث سنة ١١٨هـ «كان على العراق خالد بن عبد اللّٰه وإليه المشرق كله، وعامله على خراسان أخوه أسد وعامله على البصرة وأحداثها وقضائها والصلاة بأهلها بلال بن أبي بردة» ـ (ص٢٣، جـ٨). وقال

في أنباء عمال سنة ١١٩هـ «كان على العراق والمشرق خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وعامله على خراسان أخوه أسد» ـ (ص٢٤٣، جـ٨).

أما الكوفة فقد ذكر الطبري في أنباء عمال سنة ١٠٥هـ أنه: «كان على قضاء الكوفة حسين بن حسن الكنديَ» ولم يذكر غيره في السنوات التالية، وأما بلاد فارس فقد ذكر الأصفهاني أنه: «كان إبان بن الوليد البجلي عامل فارس لخالد الْقَسْري».

وننتهي من ذلك إلى أن عمال خالد بن عبد اللّه الْقَسْرِي بالبصرة وبلاد فارس هم: ـ

١ ـ **مالك بن المنذر بن الجارود بن المعلى العبدي**، وهو حفيد الصحابي الجارود بن المعلي، من بني عبد القيس، من قبيلة ربيعة، بمنطقة إقليم البحرين وهي منطقة الخليج العربي وكان إقليم البحرين يتبع ولاية البصرة، فكان مالك بن المنذر هو أمير الشرطة وقوى الأمن بولاية البصرة في عهد خالد بن عبد اللّه الْقَسْري من سنة ١٠٥ ـ ١٠٩هـ وربما استمر قائداً للشرطة عندما جمع خالد ولاية البصرة لبلال بن أبي بردة.

٢ ـ **ثمامة بن عبد اللّه بن أنس الأنصاري**، قاضي البصرة من سنة ١٠٦ ـ ١٠٩هـ وهو حفيد الصحابي أنس بن مالك الأنصاري.

٣ ـ **عقبة بن عبد الأعلى**: عامل خالد على الصلاة والشؤون المدنية بولاية البصرة من سنة ١٠٥ ـ ١٠٨هـ.

٤ ـ **أبان بن ضبارة اليزني**: عامل خالد على الصلاة بالبصرة والشؤون المدنية سنة ١٠٩هـ.

٥ ـ **بلال بن أبي بُرْدَة أمير ولاية البصرة وقاضيها**، وهو حفيد الصحابي أبي موسى الأشعري. جاءفي ترجمته بكتاب الجامع ما يلي: ـ

«بلال بن أبي بُرْدَةَ عامر بن أبي موسى الأشعري: أمير البصرة وقاضيها. ولّاه خالد الْقَسْري سنة ١٠٩هـ فأقام إلى أن قَدِم يوسف بن عمر الثقفي سنة ١٢٥هـ فعزله وحبسه فمات سجيناً. كان بلال ثقة في الحديث.. وهو ممدوح ذي الرِّمة الشاعر». (ص١١١ ـ الجامع).

وقد استمر بلال بن أبي بردة أميراً لخالد بن عبد اللّه الْقَسْري على ولاية البصرة من سنة ١٠٩هـ إلى سنة ١٢٠هـ وقام بشق عدد من الأنهار بأمر خالد وازدهرت البصرة أيام ولايته كغيرها من أرجاء العراق، قال البلاذري في فتوح البلدان: «كانت دار سليمان بن علي ـ العباسي ـ بالبصرة لسلم بن زياد بن أبي سفيان فغلب عليها بلال بن أبي بردة أيام ولايته البصرة لخالد بن عبد اللّه الْقَسْري.. وكانت القطيعة

لعباد بن زياد فاشتراها بلال. . قال القحذمي: وكان بلال بن أبي بُردَة هو الذي فتق نهر معقل في فيض البصرة، وكان قبل ذلك مكسوراً يفيض إلى القبة التي كان زياد يعرض فيها الجند. واحتفر بلال أيضاً نهر بلال وجعل على جنبتيه حوانت ونقل إليها السوق وجعل ذلك ليزيد بن خالد الْقَسْري. . وبلالان: نهر لبلال بن أبي بردة» (ص٣٤٧ و ٣٥٨/ فتوح البلدان).

وقال أبو العباس المبرِّد في كتاب الكامل في اللغة والأدب:

«كان بِلالُ بن أبي بُرْدةَ أميرَ البصرة وقاضيها، وفي ذلك يقول رؤبة: ـ

وأنتَ يا ابن القاضِيَيْنِ قاضي ... مُعْتَرِمٌ على الطريق ماضي

. . وكان بلالُ داهيَةً لَقِناً أديباً، ويقال إن ذا الرُمَّةِ لما أنشده: ـ

سمعتُ الناسَ يَنْتَجعونَ غَيْثاً ... فَقُلت لصَيْدَحَ انْتَجِعي بلالا

تُناخي عند خَيْرِ فَتىً يَمانٍ ... إذا النَكْباءُ ناوَحَت الشَمالا

فلما سمع قوله: فقلت لصيدح انتجعي بلالا. قال: يا غلامُ مُرْ لها بقَتٍّ ونَوىً. أراد أن ذا الرُمَّةِ لا يُحْسِنُ المدح ـ (وصيدح اسم ناقة ذي الرُمّة) ـ وقوله: سمعت الناس ينتجعون غيثاً. . إنما هو سمعتُ هذه اللفظةَ أي قائلاً يقول: الناسُ ينتجعون غيثاً. . وقوله: إذا النكباء ناوحت الشَمالا، فإن الرياح أربع، ونَكْباوَاتُها أربع، وهي: الرياح التي تأتي من بين ريحين فتكون: بين الشَمالِ والصبَا، أو الشَمالِ والدَبُورِ، أو الجَنوب والدَبُورِ، أو الجنوب والصبا. فإذا كانت النكباءُ تناوح الشمال فهي آية الشتاء. ومعنى تُناوِحُ تُقابِلُ. يقال: تَناوَحَ الشجرُ إذا قابلَ بعضُهُ بعضاً.

وقال يحيىٰ بن نَوْفَلٍ الحِمْيَرِيُّ، ويقال إنه لم يَمْدَحْ أحداً قط: ـ

فلو كنتُ مُمتدِحاً للنَوال ... فَتىً لامْتَدَحْتُ عليه بِلالا

ولكنني لَسْتُ مِمّن يُريد ... بمدح الرجالِ الكرام السؤالا

سَيَكفي الكريمَ إخَاءُ الكريم ... ويَقْنَعُ بالوُدِّ منه نَوَالا

ومن أحسن ما امْتَدَحَ به ذو الرُمَّة بلالاً قوله: ـ

تقول عجوزٌ مَدْرِجي مُتَرَوِّحاً ... على بيتها مِن عند أهلي وغادِيا[1]

أذو زَوْجةٍ بالمِصْرِ أم ذو خُصومةٍ ... أراكَ لها بالبَصْرةِ العامَ ثاوِيا؟[1]

فقلت لها: لا إن أهلي لجيرةٌ ... لأكْثِبَةِ الدَهْناء جميعاً ومالِيَا[1]

(١) مدرجي: مروري. ثاوياً: مقيماً. أكثبة: جمع كثيب. والدهناء: صحراء الدهناء بين شرق الجزيرة العربية والعراق.

وما كنتُ مذ أَبصَرْتِني في خُصومةٍ أُراجِعُ فيها يا ابْنةَ الخَيْرِ قاضيا
ولكنني أَقْبَلتُ من جانِبَيْ قسَاً أزورُ فتىً نَجْداً كريماً يمانيا[١]
مِنْ آل أبي موسى تَرى القومَ حوله كأنَّهُمُ الكِرْوانُ أبْصَرْنَ بازيا[٢]
مُرمِّينَ من لَيْثٍ عليه مَهابةٌ تَفادَى أسودُ الغاب منه تفادِيا[٣]
وما الخُرْقَ منه يَرهبونَ ولا الخَنَى عليهِمْ، ولكن هَيْبَةٌ هِيَ ماهيَا»[٤]

وقد كانت ولاية البصرة تشمل إقليم البصرة جنوب العراق وإقليم البحرين وهو منطقة الخليج العربي وإقليم الأهواز في إيران حتى إقليم مكران وكرمان المتاخم لبلاد السند، فكان بلال بن أبي بردة أميراً لولاية البصرة جميعها في إطار ولاية خالد الْقَسْري للعراق ومشارقها، وكان عهد بلال آخر عهود التقدم والازدهار الحضاري بالبصرة الذي بدأ في عهد ولاية أبي موسىٰ الأشعري رضي اللّه عنه للبصرة في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي اللّه عنهما وانتهى بانتهاء عهد ولاية بلال بن أبي بردة بن أبي موسىٰ الأشعري للبصرة وولاية خالد بن عبد اللّه الْقَسْري للعراق ومشارقها.

٦ ـ **أبان بن الوليد البجلي عامل بلاد فارس،** هو الأمير اليماني أبو الوليد أبان بن الوليد البجلي عامل خالد بن عبد اللّه الْقَسْري على بلاد فارس. وقد ذكر الأصفهاني في كتاب الأغاني أنه: تزوج الفرزدقُ ظبية بنت حالم المجاشعي، بعد أن أسَنّ، وتركها عند أمها بالبادية سنة، ولم يكن معه صداقها. فكتب إلى أبان بن الوليد البِجلي وهو عامل على فارس لخالد بن عبد اللّه الْقَسْري، فأعطاه صَدَاقها وأكثر من ذلك، فقال يمدحه قصيدة منها قول الفرزدق: ـ

فَلَو جَمَعُوا مِن الخِلّانِ ألفاً فقالوا أعْطِنا بِهُمُ أبانا
لقُلتُ لهم: إذا مَا تغبنوني وكيف أبيعُ مَنْ شرطَ الزمانا
خليلُ لا يرى المائة الصفايا ولا الخيل الجياد ولا القيانا
عطاءً، دون أضعاف عليها، ويُطعِمُ ضيفَه الغبط السمانا
فما أرجو لظبية غير ربِّي وغير أبي الوليد بما أعانا
أعان بهجمة[٥]، أرضَىٰ أباها، وكانت عنده غلقاً رهانا

(١) قسا: اسم موضع من الدهناء. (٢) الكِرْوانُ: جمع كَرْوان وهو طائر معروف.
(٣) مرمين: يعني سكوتاً مُطرقين. وتفادى أسود الغاب: معناه تفتدي منه بعضها ببعض.
(٤) الكامل في اللغة والأدب: ـ أبو العباس المبرّد ـ ص٢٦٨ ـ ٢٧١، جـ١.
(٥) الْبَهْجَمَةُ: الجماعة من الإبل من الأربعين إلى ما زادت، أو ما بين السبعين إلى المائة أو إلى دُوَيْنَها. القاموس مادة هجم.

خامساً: عمال خالد على بلاد السند ومُنجزات عهده بباكستان

كان ثغر السند والهند من ثغور المسلمين التي أعطى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري اهتماماً كبيراً لحمايتها ولنشر وترسيخ الإسلام فيها والجهاد في آفاقها الممتدة. وفي ذلك قال جرير يمدح خالد بن عبد اللّه الْقَسْري: ـ

حَمَيْتَ ثُغورَ المُسْلِمينَ فَلَمْ تُضِعْ ... وما زلتَ رأساً قائداً وابْنَ قائِدِ
تُعِدُّ سَرابيلَ الحَديد مع القَنَا ... وشُعْثَ النَّواصِي كالضِّراء الطَّوارِدِ
وإنّك قَدْ أُعطيتَ نَصْراً على العِدَىَ ... ولُقِّيتَ صَبْراً واحْتِسابَ المُجاهِدِ
إذا جَمَعَ الأعداءُ أمْرَ مَكيدَةٍ ... لِغدرٍ كفاكَ اللّهُ كَيْدَ المُكايِدِ

ومن المفيد الإشارة إلى أن مناطق شاسعة من بلاد السند كان قد تم غزوها وفتحها في عهد ولاية محمد بن القاسم الثقفي للسند أيام ولاية الحجاج للعراق وخلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) ثم في عهد ولاية حبيب بن المهلّب للسند أيام ولاية يزيد بن المهلّب للعراق وخلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) وقام محمد بن القاسم ثم حبيب بن المهلّب بمحاربة وهزيمة ملوك السند وكان أبرزهم حليشة بن داهر فأذعن لأداء الجزية، وكانت مدينة (قندابيل) هي عاصمة ومقر الأمير حبيب بن المهلّب وهي مدينة قديمة في مكران اتخذها المسلمون عاصمة لمكران وثغر السند.
ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) كتب إلى حليشة بن داهر وملوك السند يدعوهم إلى الإسلام وإذا أسلموا لا جزية عليهم وسيوليهم على بلادهم، قال ابن خلدون: «فأسلم ملوك السند لما كتب عمر بن عبد العزيز يدعوهم إلى الإسلام على أن يُملكهم، وهُمْ أسوة بالمسلمين فيما لهم وعليهم، فأسلم حليشة بن داهر والملوك»، وكان ذلك سنة ١٠٠هـ وأمر عمر بن عبد العزيز الجيش العربي الإسلامي بالقفول من السند، فقفلوا منها، وتمركز المسلمون بمدينة قندابيل، ولما ثار يزيد بن المهلّب وبويع بالخلافة سنة ١٠١ ـ ١٠٢هـ استعمل على قندابيل وَدَاع بن حُميد الأزدي، ثم وَجّه الخليفة يزيد بن عبد الملك ونائبه بالعراق مَسْلمة بن عبد الملك قوة إلى قندابيل بقيادة هلال بن أحوز التميمي فحارب الذين بها من آل المهلّب وتمركز في قندابيل في أوساخر سنة ١٠٢هـ، ثم ولي يزيد بن عبد الملك على العراق ومشرقها عمر بن هبيرة الفزاري في أواخر سنة ١٠٣هـ، قال البلاذري: «ووُلِّي الجنيد بن عبد الرحمٰن المري مِنْ قِبل عمر بن هبيرة الفزاري ثغر السند ـ فنزل قندابيل ـ ثم ولاه إياها هشام بن عبد الملك، فلما

قَدِم خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري العراق ـ في شوّال ١٠٥هـ ـ كتب هشام إلى الجنيد يأمره بمكاتبة خالد»[١]. وقال ابن الأثير: «في سنة ١٠٧هـ استعمل خالد الْقَسْري الجنيد بن عبد الرحمٰن على ثغر السند»[٢].

١ ـ فترة ولاية الجنيد ثغر السند لخالد القسري

قال البلاذري: (كتب هشام إلى الجنيد يأمره بمكاتبة خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري، فأتى الجنيد الديبل، ثم نزل شط مهران فمنعه حليشة العبور، وأرسل إليه إني قد أسلمتُ وولاني الرجل الصالح بلادي ولست آمنك، فأعطاه رهناً وأخذ منه رهناً بما على بلاده من الخراج، ثم إنهما ترادّا الرهن، وكفر حليشة وحارب، وقيل إنه لم يحارب ولكن الجنيد تجنى عليه».

فكتب الجنيد إلى خالد الْقَسْري بأن حليشة بن داهر كفر وحارب، فأمدّه خالد بقوة من الفرسان ذوي الدروع والخيول الذين أشار إليهم جرير في قوله لخالد: ـ

. . تُعِدُّ سَرابيلَ الحديد مع القَنَا   وشُعْثَ النَّواصِي كالضِّراء الطَّوارِدِ

وبعث خالد الإمدادات بالسفن من البصرة إلى قنداييل غالباً. قال البلاذري: «فأتى حليشة بن داهر الهند فجمع جموعاً وأخذ السفن واستعد للحرب، فسار إليه الجنيد في السفن، فالتقوا في بطيحة الشرقي فأخذ حليشة أسيراً وقد جنحت سفينته، فقتله. وهرب صصة بن داهر وهو يريد أن يمضي إلى العراق فيشكو غدر الجنيد ـ إلى خالد بالعراق ـ، فلم يزل الجنيد يؤنسه حتى وضع يده في يده، فقتله».

وكتب الجنيد إلى خالد يخبره بالنصر على الأعداء وبقتل حليشة بن داهر، ويستأذنه في غزو الكيرج وأرض المالية والبيلمان والجرز، فأذن خالد بذلك، وبعث إليه قوة مع حبيب بن مرة، وذلك في حوالي أواسط سنة ١٠٧هـ، «فغزا الجنيد الكيرج وكانوا قد نقضوا، فاتخذ كباشاً نطاحة فصك بها حائط المدينة حتى ثلمة ودخلها عنوة فقتل وسبى وغنم، ووجّه العمال إلى مرمد، والمندل، ودهنج، وبروص. وكان الجنيد يقول: «القتل في الجزع أكبر منه في الصبر». ووجَّه الجنيد جيشاً إلى أزين، ووجّه حبيب بن مرة في جيش إلى أرض المالية فأغاروا على أزين وغزوا بهريمد فحرقوا ربضها، وفتح الجنيد البيلمان والجرز. وحصل في منزله ـ من الغنائم ـ سوى ما أعطى زواره أربعين ألف ألف، وحمل مثلها إلى خالد، وفيه قال جرير: ـ

أصبح زوار الجنيد وصحبه   يحيون صلت الوجه جمّا مواهبه»

وكان قوم حليشة بن داهر في بلاد نهر السند يجمعون الجموع للحرب،

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٢٩.   (٢) والكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١٩٧ جـ٤.

ويزعمون أن الجنيد غدر بحليشة بن داهر وصصة بن داهر، وربما كان ذلك سبب إعفاء الجنيد من ولاية السند.

٢ ـ ولاية تميم بن زيد ثغر السند لخالد

قال البلاذري: «ثم ولّى بعد الجنيد تميم بن زيد العتبى» وقال في موضع آخر «وكان خالد يقول: واعجباً ولّيتُ فتى العرب فرُفِض، يعني تميماً..». ويتبين من ذلك أن الذي ولاه هو خالدالقسري فكان تميم ثاني عمال خالد على السند.

قال البلاذري: «وكان تميم بن زيد من أسخياء العرب، وجد في بيت المال بالسند ثمانية عشر ألف ألف درهم طاطرية، فأسرع فيها» ـ يعني أنفقها، وذلك لاستمالة أهل البلاد بالمال غالباً.

«وكان قد شخص مع تميم بن زيد في الجُند ـ(من البصرة) ـ فتى من بني يربوع يقال له خنيس وأُمه من طيء ـ شَخَصَ معه ـ إلى الهند، فأتت أمه الفرزدق فسألته أن يكتب إلى تميم في إقفاله وعاذت بقبر غالب أبيه، فكتب الفرزدق إلى تميم: ـ

أتتني فعاذت يا تميم بغالبٍ ... وبالحفرة السافي عليها ترابها
فهبْ لي خنيساً واتّخِذْ فيه مِنّةً ... لحوبة أم ما يسوغ شرابها
تميم ابن زيد لا تكونن حاجتي ... بظهر ولا يجفى عليك جوابها
فلا تكثر الترداد فيها فإنني ... ملول لحاجات بطيء طلابها

فلم يدر ما اسم الفتى أهو حبيش أم خنيس، فأمر أن يقفل كل من كان اسمه على مثل هذه الحروف.

وفي أيام تميم بن زيد خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم ـ أي تركوا مراكزهم ـ فضعف تميم ووهن، ومات قريباً من الديبل بماء يقال له ماء الجواميس لأنّه يهرب بها إليه من ذباب زرق تكون بشاطئ مهران» وكانت وفاة تميم بن زيد في أوائل سنة ١١٠هـ تقريباً أو في أواخر سنة ١٠٩هـ.

٣ ـ ولاية الحَكَمْ بن عوانة الكلبي وبناء مدينتي المحفوظة والمنصورة بالسند

ثم ولّى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري على بلاد السند الأمير الحكمَ بن عوانة الكلبي القضاعي الحِمْيَري سنة ١١٠ هجرية، ومن المفيد الإشارة إلى أن الحكمَ بن عوانة كان من رؤساء قبيلة كلب اليمانية بالشام، فعندما تولى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري العراق ومشارقها في شوّال ١٠٦هـ كان بشر بن صفوان الكلبي أميراً لإفريقية الشمالية والمغرب (١٠٢ ـ ١٠٩هـ) وكان الأمير الفاتح عنبسة بن سحيم الكلبي أميراً للأندلس (١٠٢ ـ ١٠٧هـ) ثم ولّى بشر بن صفوان على الأندلس يحيىٰ بن سلمة

الكلبي (١٠٧ ـ ١١٠هـ) ولما مات بشر بن صفوان سنة ١٠٩هـ انتهت ولاية الكلبيين لبلاد المغرب، وسار الحَكَمْ بن عوانة من الشام مع كوكبة من رجالات كلب إلى خالد بن عبد اللّه بالعراق، ثم سار الحَكَمْ بن عوانة إلى خراسان وكان من قادة ونواب أسد بن عبد اللّه الْقَسْري في ولاية أسد الأولى لبلاد خراسان والتي انتهت في رمضان ١٠٩هـ، قال الطبري: «كتب هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد اللّه: أعزل أخاك أسداً، فعزله فاستأذن له في الحج، فقفل أسيد إلى العراق في رمضان ١٠٩هـ واستخلف على خراسان الحكمَ بن عوانة الكلبي». فتولى الحكمَ بن عوانة خراسان إلى أوائل سنة ١١٠هـ ثم استعمل هشام على خراسان الأشرس بن عبد اللّه السلمي وأمره بمكاتبة خالد، وكتب خالد إلى الحَكَمْ بن عوانة بالقدوم إليه، وكان ذلك عند وفاة تميم بن زيد أمير السند، فلما قدِم الحَكَمْ بن عوانة إلى خالد بالعراق، ولّاه خالِدٌ على بلاد السند وأعطاه التوجيهات اللازمة لإصلاح الأوضاع وترسيخ الإسلام في ثغر السند والهند، فانطلق إليها الحَكَمْ بن عوانة والذين معه من رجالات وفرسان كلب ومنهم منصور بن جمهور الكلبي وحسام بن ضرار الكلبي، فكان من معالم ومنجزات عهد الحَكَمْ بن عوانة والتي هي من معالم عهد خالد الْقَسْري أنه: ـ

* ـ وصل الحَكَمْ بن عوانة الكلبي والذين معه إلى مدينة قندابيل ـ عاصمة ومقر أمير ثغر السند ـ وكانت المناطق التي بيد المسلمين مضطربة، وهي مناطق مكران وقندابيل والديبل ـ غالباً ـ، بينما كانت مناطق نهر السند والهند قد تخلى عنها المسلمون أيام تميم بن زيد حيث كماذكر البلاذري (في أيام تميم خرج المسلمون من بلاد الهند ورفضوا مراكزهم) فقام الحَكَمْ بن عوانة في سنة ١١٠هـ بتوطيد سلطة الدولة والولاية في القسم الذي بيد المسلمين من بلاد السند، ولم يستخدم في ذلك المال والعطاء كما فعل تميم بن زيد وإنما كانت وسيلة الحَكَمْ بن عوانة هي الحزم والسيرة الحسنة والكفاءة، فاستجاب الناس لطاعته. وفي ذلك قال البلاذري: «ثم وُلِّي الحَكَمْ بن عوانة الكلبي ثغر السند.. ورضي الناس بولايته، وكان خالد الْقَسْري يقول: واعجبا، وليتُ فتى العرب فَرُفض، يعني تميماً، ووليتُ أبخل الناس فَرُضي به». وقال ابن خلدون: «وُلِّي الحَكَمْ بن عوانة الكلبي بلاد السند... ورضيَ الناس بولايته».

* ـ وفي سنة ١١١ ـ ١١٢هـ سار الحَكَمْ بن عوانة بجند العروبة والإسلام إلى شط نهر مهران ـ وهو جزء من نهر السند ـ فعبر النهر إلى مناطق نهر السند والهند التي كان العدو قد أخذها أيّام تميم بن زيد، إذْ أنه كما ذكر البلاذري: «في أيام تميم خرج المسلمون من بلاد الهند ورفضوا مراكزهم.. ثم وُلِّيَ الحَكَمْ بن عوانة الكلبي وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصّة»، وكذلك ذكر ابن خلدون أنه (ولِّي الحَكَمْ بن عوانة، وقد كفر

أهل الهند إلا أهل قصة. .». والمقصود أهل مناطق شرق نهر السند والهند، ومنها (الكيرج) وبلاد (رهمناباذ) و (مرمد) و (دهنج) و (بروص) و (أزين) و (بهريمد) إلى بلاد (الملتان) وغيرها من أقاصي تلك البلاد، فافتتح الحَكَمْ بن عوانة قسماً منها سنة ١١١هـ ثم افتتح بقيتها سنة ١١٢ ـ ١١٣هـ. وفي ذلك قال ابن خلدون: «استخلص الحَكَمْ بن عوانة ما كان غلب عليه العدو»، وقال البلاذري: «تخلص الحَكَمْ بن عوانة ما كان في أيدي العدو مما غلبوا عليه». ومؤدى ذلك أنه أعاد فتح تلك البلاد جميعها.

* ـ وكتب الحَكَمْ بن عونة إلى خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري بما تم فتحه سنة ١١١هـ وأن ليس للمسلمين ملجأ يلجؤون إليه في بلاد ما يلي نهر السند والهند، ويرى بناء مدينة هناك تكون عاصمة ومأوى لجند المسلمين، فكتب إليه خالد بأن يبني المدينة، وربما بعث إليه أيضاً ببعض الأموال والأشياء، فقام الحَكَمْ بن عوانة بتشييد أول مدينة عربية إسلامية في بلاد السند، إذْ أن الأمراء الولاة السابقين للسند كانوا يقومون بتوطين حاميات عسكرية في مدن قائمة ووسط سكانها فإذا وقع انتقاض تم إخراج المسلمين منها، كما حدث أيام ولاية تميم بن زيد، فقام الحَكَمْ بن عوانة ببناء أول مدينة عربية إسلامية في بلاد السند (باكستان) وسماها المحفوظة. وفي ذلك قال البلاذري: «وُلِّي الحَكَمْ بن عوانة الكلبي وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصة، فلم ير للمسلمين ملجأ يلجؤون إليه، فبنى من وراء البحيرة مما يلي الهند مدينة سماها المحفوظة وجعلها مأوى لهم ومعاذاً، ومَصَّرَهَا. وقال لمشايخ كَلْب من أهل الشام: ما ترون أن نسميها، فقال بعضهم (وهو حسام بن ضرار) نسميها دمشق، وقال بعضهم حمص، وقال رجل منهم: سمها تدمر، فقال الحكم: دمر اللَّه عليك يا أحمق ولكني أسميها المحفوظة. ونزلها»[1] وقال ابن خلدون: «بَنَىٰ الحَكَمُ مدينة سماها المحفوظة وجعلها مأوى للمسلمين»[1] وقد اكتمل بناء مدينة المحفوظة سنة ١١٢هـ فأصبحت مأوى للمسلمين وقاعدة لجند الإسلام، وقد ذكر البلاذري أن الحَكَمْ بن عوانة (مَصّرها) أي جعلها مدينة عاصمة، وأنه (نزلها) أي أقام فيها، وبذلك كانت المحفوظة أول مدينة عربية إسلامية عاصمة في ولاية السند بناها العرب المسلمون، علماً بأن مدينة قندابيل التي كان ينزلها أمراء ثغر السند كانت في إقليم مكران (بجنوب شرق إيران حالياً)، بينما المحفوظة داخل السند (باكستان) نفسها. وقام الحَكَمْ بن عوانة بقيادة وتوجيه السرايا الحربية من مدينة المحفوظة إلى بلاد (برهمناباذ) وبلاد (ملتان) والى قشمير (كشمير) وبسط سيادة الإسلام في آفاق بلاد السند الممتدة من سنة ١١٢ ـ ١١٣هـ ثم امتدت غزواته إلى داخل الهند حالياً.

---

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٣١ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٤٤٨.

* ـ وفي حوالي سنة ١١٤هـ كتب الحَكَمْ بن عوانة إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بما بلغته فتوحاته، وبما اجتمع في بيت المال من أموال الخراج والجزية وغنائم الفتوحات، وكان مالاً عظيماً لم تذكر الروايات مقداره، ورأى الحَكَمْ بن عوانة الكلبي بناء مدينة عاصمة كبيرة في مكان يقع على مسافة فرسخين من مدينة برهمناباذ العتيقة، فكتب إليه خالد ببناء المدينة وربما أمدّه خالد بالمزيد من الأموال والمستلزمات، فقام الحَكَمْ بن عوانة بتشييد المدينة التي استغرق تشييدها نحو ثلاث سنوات ثم أصبحت عاصمة للسند أكثر من ثلثمائة سنة وهي مدينة المنصورة، وقد أشار البلاذري إلى وضعها السابق وموقعها في حديثه عن غزوة إسلامية سابقة إلى (برهمناباذ) التي كانت مقر الملك الهندي (دارا) وابنه (حليشة بن دارا) قائلاً عن تلك الغزوة «فأتى المسلمون برهمناباذ العتيقة وهي على رأس فرسخين من المنصورة، ولم تكن المنصورة يومئذٍ إنما كان موضعها غيضة». وقد بدأ الحَكَمْ بن عوانة الكلبي ببناء مدينة المنصورة سنة ١١٤هـ، وأسند الحَكَمْ بن عوانة عملية البناء والإشراف عليها إلى ثلاثة من قادة عهده وهُمْ عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي، وعمرو بن القاسم بن ثعلبة بن عبد اللّه بن حصن الطائي ـ (وهو ابن القاسم بن ثعلبة الطائي الذي قتل الملك دارا في أيام إمرة محمد بن القاسم للسند) ـ ومنصور بن جمهور الكلبي الذي باسمه سَمّى الحَكَمْ بن عوانة مدينة المنصورة. قال ابن خلدون: «وكان مع الحَكَمْ بن عوانة عمرو بن محمد بن القاسم وكان يفوض إليه عظائم الأمور، وأغزاه من المحفوظة، فلما قدم عليه وقد ظفر، أمره الحَكَمْ فَبَنَىٰ مدينة وسماها المنصورة وهي التي كان أمراء السند ينزلونها». وقال البلاذري: «كان عمرو بن محمد بن القاسم مع الحَكَمْ بن عوانة، وكان يُفوض إليه ويُقَلّده جسيم أموره وأعماله، فأغزاه من المحفوظة، فلما قدم عليه وقد ظفر، أمره فَبَنَى دون البحيرة مدينة وسماها المنصورة وهي التي ينزلها العمال اليوم»[١].

قال المسعودي في مروج الذهب: «وسميت المنصورة باسم منصور بن جمهور عامل بني أمية»[٢]. وقد ذكر المسعودي النهر الذي يأتي من أعالي بلاد السند ـ (في أفغانستان) ـ ويتدفق مع عدة أنهار إلى المولتان بالسند، قال المسعودي: «وتجتمع الأنهار بعد المولتان بثلاثة أيام فيما بين المولتان والمنصورة في الموضع المعروف بدوسات، فإذا انتهى جميع ذلك إلى مدينة الرور من غربيها، وهي من أعمال المنصورة، سُمِّي هنالك نهر مهران، ثم ينقسم قسمين، ويصب كل من القسمين من

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٤٣١ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٤٤٨.

(٢) مروج الذهب ـ أبو الحسن المسعودي ـ ص١٦٨، جـ١.

هذا الماء العظيم المعروف بمهران السند في مدينة شاكرة من أعمال المنصورة في البحر الهندي وذلك على مقدار يومين من مدينة الديبل. والمسافة من المولتان إلى المنصورة خمسة وسبعون فرسخاً سندية والفرسخ ثمانية أميال. وجميع ما للمنصورة من الضياع والقرى ثلثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة»[١]. ويدل ذلك على الشأن العظيم الذي بلغته مدينة المنصورة التي كانت عاصمة بلاد السند (باكستان) منذ بناها الأمير اليماني الحَكَمْ بن عوانة الكلبي أمير بلاد السند لخالد بن عبد اللّه الْقَسْري سنة ١١٤ ـ ١١٦هـ، وقد استشهد الحَكَمْ بن عوانة وهو يجاهد في بلاد الهند، ولـم يذكر البلاذري زمن استشهاده، ولا اسم الذي تولى السند بعده. ويبدو أن الحَكَمْ بن عوانة الكلبي استشهد في أواخر سنة ١١٨هـ وتولى السند بعده منصور بن جمهور الكلبي. لأن الخليفة هشام بن عبدالملك وَلّى حنظلة بن صفوان الكلبي على مصر سنة ١١٩هـ مما يعني عودة ولاية الكلبيين من الشرق إلى الغرب، فقد تولى حنظلة مصر سنة ١١٩ ـ ١٢٤هـ. ثم تولى إفريقية الشمالية والمغرب (١٢٤ ـ ١٢٩هـ) وتولى حسام بن ضرار الكلبي بلاد الأندلس (١٢٤ ـ ١٢٩هـ) فذلك يشير إلى انتهاء ولاية الحَكَمْ بن عوانة لبلاد السند باستشهاده في أواخر سنة ١١٨هـ فتولى السند نائبه منصور بن جمهور الكلبي، ربما إلى نهاية ولاية خالد بن عبد اللّه الْقَسْري للعراق ومشارقها وخراسان سنة ١٢٠هـ.

* * *

سادساً: الولاية الأولى لأسد بن عبد اللّه الْقَسْري على خُراسان وآسيا الوسطى

كان أسد بن عبد اللّه الْقَسْري من عظماء الزعماء الأمراء اليمانيين الفاتحين، بل هو آخر عظماء الفاتحين في التاريخ العربي الإسلامي. قال عنه الشاعر ابن السجف المجاشعي في أبيات ذكرها الطبري في تاريخ الأمم والملوك: ـ

لوْ سِرْتَ في الأرض تَقِيسُ الأرضا ... تَـقِـيسُ مِـنـهـا طُـولـهـا والـعـرضـا
لَـمْ تَـلْـق خـيـراً مِـرَّةً ونَـقْـضـا ... مِـنَ الأمـيـر أسَـدٍ وأمـضـا

وكان أسد بن عبد اللّه يُكنى أبا المنذر، قال الطبري: «وقال أبو الهندي لأسد بن عبد اللّه الْقَسْري في وقعة سان: ـ

أبـا مُـنْـذِرٍ زُمْـتَ الأُمـور فَـقِـسْـتَـهـا ... وسَألت عَنها كالحريصِ المُساوِمِ
فـمـا كـان ذو رأيٍ مِن الناسِ قِسْتَهُ ... بـرأيـك إلا مِـثْـلَ رأي الـبـهـائِـمِ
أبـا مُـنْـذِرٍ لـولا مَـسِـيـرُكَ لَـمْ يَـكُـنْ ... عِـراقٌ ولا انْـقـادَت مُـلـوكُ الأعـاجِـمِ

---

(١) مروج الذهب ـ أبو الحسن المسعودي ـ ص١٦٨، جـ١.

ولا حَجّ بَيْتَ اللّهِ مُذْ حَجّ راكبٌ   ولا عَمَر البَطْحَاء بَعْدَ المواسم . .)

وسيأتي ذكر بقية الشعر ومناسبته فيما بعد. . وجاء في ترجمة أسد بكتاب الجامع: «أسد بن عبد اللّه القَسْري البجلي: أمير من الشجعان الأجواد. وُلد ونشأ في دمشق. وولاهُ أخوه خالد بن عبد اللّه خراسان. .»[1]. جاء أيضاً في ترجمة خالد بنفس الكتاب أن مولد خالد كان سنة ٦٦هـ الموافق ٦٨٦م وكان من سادة اليمانية[1] وبالتالي يمكن تقدير مولد أسد بن عبد اللّه إما قبل خالد بنحو عامين (سنة ٦٤هـ) وإما بعد خالد بنحو عامين (سنة ٦٨هـ). وقد ذكر الطبري خطبة لأسد بن عبد اللّه في خراسان حين وقعت محاولة للشغب هناك، حيث قال أسد في تلك الخطبة « . .مَنْ يروم ما قِبَلي أو يترمرم، وأمير المؤمنين خالي، وخالدٌ أخي، ومعي اثنا عشر ألف سيف يماني». ويتبين من ذلك أن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان هو خال أسد بن عبد اللّه القَسْري، ولذلك قال الشاعر جرير لخالد بن عبد اللّه القَسْري في قصيدته الدالية التي مدح بها خالداً: ـ

تَمَكَّنْتَ في حَيَّيْ مَعَدٍّ مِن الذُّرَىَ   وفي اليَمَنِ الأَعْلَى كريمَ المَوالِدِ

قال أبو عبيدة: يعني كريم الآباءِ والأُمهات»[2].

وقد نشأ أسد في كنف أبيه الزعيم اليماني عبد اللّه بن الصحابي يزيد بن الصحابي أسد بن كُرْز القَسْري البجلي، ولما ولى الخليفة الوليد بن عبد الملك على مكة المكرمة خالد بن عبد اللّه القَسْري سنة ٨٩هـ أتى أسد مع أخيه خالد إلى مكة وكان أسد مساعداً لخالد فمكث معه بمكة المكرمة عشر سنوات وكانا يأتيان إلى منطقة قبيلتهما بجيلة في أعالي اليمن فيمكثان فترات باليمن خلال مدة ولاية خالد لمكة سنة ٨٩ ـ ٩٧هـ ثم عادا إلى دمشق فكانا من رؤساء اليمانية بدمشق والشام.

وفي شوّال سنة ١٠٥هـ ولّى الخليفة هشام بن عبد الملك خالداً على العراق ومشارقها وخراسان، فانطلق أسد من دمشق مع أخيه الأمير خالد إلى العراق وأصبح مساعداً له في إدارة ومتابعة أمور الولايات، وبصفة خاصة متابعة أمور ولاية خراسان التي ما لبث أن أصبح أسد والياً عليها سنة ١٠٦هـ، ومن المفيد الإشارة إلى معالم الأوضاع بخراسان قبل أن يتولاها أسد:

أ ـ كانت خراسان ولاية كبيرة مترامية الأطراف، بلغ المسلمون فيها أوج القوة في عهد ولاية آل المهلب ويزيد بن المهلّب لخراسان سنة ٧٨ ـ ٨٦هـ ثم سنة ٩٦ ـ

---

(١) الجامع ـ بامطرف ـ ترجمة أسد ـ ص٨٣ ـ وترجمة خالد ـ ص١٩٢.
(٢) النقائض ـ لأبي عبيدة البصري ـ ص٩٨٢، جـ٢.

١٠٠هـ، حيث قال د. ناجي حسن: «إن آل المهلّب اتبعوا سياسة يمانية صرفة بخراسان.. غير أن مجيء عمر بن عبد العزيز وعزله لآل المهلّب حال دون تمكن الأزد من خراسان، إلا أن الروح اليمانية استمرت تتحكم بخراسان بعد آل المهلّب، إذْ تولاها الجرّاح بن عبد اللّه الحكمي وهو من سعد العشيرة تلك القبيلة اليمانية المعروفة، ولكنه لم يبق في منصبه هذا سوى سنة وخمسة أشهر حين عزله عمر، ليتولاها يماني آخر هو عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الذي ينتمي في جده الأعلى إلى الأزد، وهكذا لم تخرج خراسان طيلة هذه الفترة عن سيطرة الأزد خاصة واليمانية بوجه عام حتى سنة ١٠٢ هجرية»[١]. وقد كان لليمانيين دور عظيم في الجهاد وفي نشر الإسلام بأقاليم خراسان وأقاليم ما وراء النهر في تلك العهود هُم وبقية إخوانهم العرب والمسلمين. ثم كان لثورة يزيد بن المهلّب والقضاء عليها سنة ١٠٢هـ تأثيرها ومضاعفاتها على خراسان، فقد لَفّها ليل طويل حتى قال ثابت قُطنة الأزدي: ـ

أَبىٰ طُولُ هذا اللَّيل أنْ يَتَصَرَّما   وَهَاجَ لك الهَمُّ الفؤاد المتيما

ب ـ بدأ الليل الطويل في أواسط سنة ١٠٢هـ بتولية سعيد خُذينة القريشي القيسي على خراسان، وقد أشار د. ناجي حسن إلى معالم الوضع قائلاً: «يظهر أن السياسة الجديدة كانت تقضي بتصفية الأزد بشتى الطرق ومختلف الأساليب حتى اتهم بعضهم باحتجاز فيء المسلمين للتنكيل بهم..»[١]. وقال د. حسين عطوان: «اعتزل ثابت قطنة الحياة العسكرية والأدبية.. وأصبح خائفاً ضائقاً من الولاة القيسيين بخراسان..».

وليست المشكلة فيما نرى أن الولاة قيسيون وإنما المشكلة أنهم كانوا سيئين وانتهجوا سياسة أضعفت العرب والإسلام، فقد حبس سعيد خذينة ثمانية من أعلام العرب بخراسان، مات في الحبس منهم جهم بن زحر الجعفي المذحجي وعبد العزيز بن عمرو الزُبيدي والمنتجع بن عبد الرحمٰن الأزدي، ووقعت معركة مع السغد سقط فيها كثير من المسلمين، وما لبث أن عُزل سعيد خذينة عن خراسان سنة ١٠٣هـ، قال الطبري: «وكان سبب عزله أن المجشر بن مزاحم السلمي وعبد اللّه بن عامر الليثي قَدِما على عمر بن هبيرة ـ عامل يزيد بن عبد الملك بالعراق ـ فشكواه، فعزله.. فكتب يزيد بن عبد الملك إلى عمر بن هبيرة. ولِّ سعيد الحرشيّ خراسان، فولاه فبلغ الناس بخراسان عزل سعيد خذينة وتولية سعيد الحرشي فقال نهار بن توسعة: ـ

فمن ذا مُبْلغٌ فتيانَ قَوْمي   بأنَّ النَّبلَ ريشَتْ كُلَّ رَيْشِ

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص٢٠٢.

بـأنَّ الـلَّـهَ أَبْـدلَ مـن سـعـيـدٍ سعيداً لا المُخَنَّثَ من قُرَيْش»[1]

ولم تطل ولاية سعيد بن عمرو الحرشي فقد عزله عمر بن هبيرة سنة ١٠٤هـ واستعمل على خراسان مسلم بن سعيد الكلابي القيسي، قال الطبري: «ثم دخلت سنة خمس ومائة، وفيها غزا مسلم بن سعيد الترك فلم يفتح شيئاً، فقفل، ثم غزا أفشِينَة مدينة من مدائن السغد فصالح ملكها وأهلها وانصرف لتمام سنة ١٠٥هـ» (ص١٧٨، جـ٨).

جـ ـ وقد تولى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري العراق ومشارقها بما في ذلك خراسان في شوّال سنة ١٠٥هـ وكان مسلم بن سعيد أمير خراسان، قال ابن خلدون: «وغزا مسلم بن سعيد الترك فعبر النهر وسار إلى بُخارى، فلحقه بها كتاب خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بولايته على العراق، فسار إلى فرغانة لإتمام غزاته..». وقال الطبري: «غزا مسلم بن سعيد الترك.. فلما صار ببُخَارى أتاه كتاب من خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بولايته على العراق، وكتب إليه: أتمم غزاتك. فسار إلى فرغانة... فلما صار بفرغانة بلغه أن خاقان قد أقبل إليه.. فارتحل بالعسكر فسار حتى قطع وادي السبوح فأقبل إليهم خاقان وتوافت إليه الخيل». قال ابن خلدون: «ولقى خاقان طائفة من المسلمين فأصابهم، ثم أطاف بالعسكر وقاتل المسلمين ـ وذلك سنة ١٠٦ هجرية ـ فَقُتِل المسيب الرباحي، والبراء من فرسان المهلب، وأخو غورك، وثار الناس في وجوههم، ورحل مسلم بن سعيد بالناس، والتُرك مطيفون بهم، بعد أن أمر بإحراق ما ثقل من الأمتعة فأحرقوا ما قيمته ألف ألف، وأصبحوا قريب النهر، ودونه أهل فرغانة والشاش، فأمر مسلم الناس أن يخرطوا سيوفهم ويحملوا، فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر، ونزل مسلم بعسكره ثم عبر النهر من الغد واتبعهم ابن خاقان، وأتوا خُجَندة وقد أصابتهم مجاعة وجهد..».

ووصلت أنباء تلك الهزائم، وكذلك محاصرة الترك لسمرقند وغيرها، إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري، فدعا خالد أخاه أسداً وولاه على خراسان وذلك سنة ١٠٦هـ فأشرق بتوليته عهد مجيد على خراسان وآسيا الوسطى.

١ ـ أنباء أسد الْقَسْري في خراسان سنة ١٠٦هـ

في سنة ١٠٦هـ (٧٢٥م): تولى أسد بن عبد اللّه الْقَسْري بلاد خراسان التي كانت ولاية كبيرة تشمل أقاليم آسيا الوسطى، وتنقسم إلى أقاليم خراسان التي تقع دون النهر وأقاليم ما وراء النهر.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٦٨ وص١٨٧، جـ٨.

أ ـ أقاليم خُراسان التي دون النهر، وهي:

١ ـ إقليم هراة وبلخ (شمال أفغانستان حالياً) وكانت عاصمة الإقليم مدينة البروقان.

٢ ـ إقليم مرو الرُّوذ ونيسابور وما إليهما (في شمال إيران حالياً) وكانت عاصمة الإقليم مدينة مرو الرُّوذ التي بها توفي المهلّب بن أبي صُفرة.

٣ ـ إقليم الطالقان ومرو الشاهجان (جمهورية تركمنستان حالياً) وفيها تقع مدينة مرو عاصمة ولاية خراسان ومقر أمير خراسان.

٤ ـ إقليم جرجان الذي فتحه يزيد بن المهلّب سنة ٩٩هـ ويمتد إلى بحر قزوين غرباً.

ب ـ أقاليم ما وراء النهر ـ نهر جيحون ـ وهي:

١ ـ إقليم السُغد (الصغد) وحاضرتاه: بُخارى وسمرقند (في جمهورية أوزبكستان حالياً)،

٢ ـ إقليم خوارزم، ويقع على حافتي نهر جيحون، غرب إقليم الصغد.

٣ ـ إقليم الصغانيان، ويقع في الجنوب الشرقي من الصُغد.

٤ ـ إقليم فرغانة في المنطقة الشمالية الشرقية، وتقع فيه مدينة فرغانة ومدينة خُجندة (خوقند).

٥ ـ إقليم الشاش في شمال غرب بلاد ما وراء النهر، وكان أكبر أقاليم ما وراء النهر ويمتد إلى كازاخستان حالياً.

وكانت سلطة الإسلام راسخة في أقاليم ما دون النهر ولكنها ضعفت في بلاد ما وراء النهر منذ سنة ١٠٢هـ وقام ملوك وشعوب الترك بزعامة ملكهم خاقان بحروب وغارات على المسلمين، وألحق خاقان هزيمة بمسلم بن سعيد في إقليم السُغد فانسحب مسلم بن سعيد إلى خجندة بأقليم فرغانة، وحوصرت مدينة سمرقند، وذلك سنة ١٠٦هـ.

قال الطبري: «وفي هذه السنة ـ وهي سنة ١٠٦هـ ـ استعمل خالد أخاه أسد بن عبد اللّه على خراسان، فَقَدِمها ومسلم بن سعيد غازٍ بفرغانة»[1]. وقد وصل أسد إلى مدينة مرو عاصمة خراسان، فتولى مقاليد الأمور، وانطلق في قوة من الفرسان إلى النهر ـ نهر جيحون ـ قاصداً سمرقند التي كان الترك الكفار يحاصرونها.

قال الطبري: «لما أتى أسدُ النهر ليقطع، منعه الأشهب بن عبيد التميمي وكان

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٦٨ وص١٨٧، جـ٨.

على السفن بآمُل ـ (فمنعه من العبور، ولم يخبره أسد بأنه الأمير وأراد أن يختبره) ـ فقال له أسد: اقطعني، فقال: لا سبيل إلى إقطاعك لأنّي نُهيتُ عن ذلك، قال: لاطفوه وأطعموه ـ أي أعطوه مالاً ـ فأبىٰ. قال: فأنا الأمير. ففعل. فقال أسد: اعرفوا هذا حتى نشركه في أمانتنا.

فقطع أسد النهر، فأتى السُغد، فنزل مرجها، وكان على خراج سمرقند هانئ بن هانئ فخرج في الناس يتلقى أسداً، فأتوه بالمرج وهو جالسٌ على حجر، فتفاءل الناس فقالوا: أسدٌ على حَجر.. فقال له هانئ: أَقَدِمْتَ أميراً فنفعل بك ما نفعل بالأمراء؟ قال: نعم قَدِمتُ أميراً، ثم دعا بالغداء فتغدّى بالمرج.

ـ ولما علم الترك بقدوم أسد ونزوله بالمرج انسحبوا من مشارف سمرقند، وكانوا سبعة آلاف ـ، وركب أسد فدخل سمرقند، وقال للناس: إنما أنا رجل مثلكم.. وعزل أسد هانئاً واستعمل على سمرقند الحسن بن أبي العَمَرَّطة الكنديَّ من ولد حُجر آكل المُرَار. وبعث أسد من سمرقند رجلين معهما عهد عبد الرحمٰن بن نعيم (الغامدي) على الجُند (يعني على جند المسلمين الذين مع مسلم بن سعيد)، فقدم الرجلان على عبد الرحمٰن بن نعيم وهو في وادي أفشين على الساقة، وكانت الساقة على أهل سمرقند الموالي وأهل الكوفة، فسأل الرجلان عن عبد الرحمٰن فقالوا: هو في الساقة، فأتياه بعهد وكتاب أسد بالقَفْل، فقرأ الكتاب ثم أتى به مسلماً وبعهده، فقال مسلم سمعاً وطاعة، وقفل عبد الرحمٰن بالناس وشَخص معه مسلم بن سعيد، وقَدِموا على أسد وهو بسمرقند).

وبذلك أنجز أسد أمرين، أحدهما: إنهاء الحصار على سمرقند وتنظيم أمور المسلمين فيها، وثانيهما: عودة الجند الذين مع مسلم بن سعيد من أرض العدو بسلام بقيادة عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي الذي كان عامل عمر بن عبد العزيز على خراسان، فعاد بالجند إلى سمرقند بسلام لم يُصب منهم أحد، وأصبح عبد الرحمٰن من القادة والعمال في عهد أسد.

قال الطبري: «فشَخَص أسد بن عبد اللّه إلى مرو، واستعمل على سمرقند الحسن بن أبي العَمَرَّطة الكنديّ، فقَدِمت على الحسن امرأته الجَنوب ابنة القعقاع بن الإمام رأس الأزد، وكان يعقوب بن القعقاع قاضي خراسان، فخرج الحسن يتلقاها، وغزاهم الترك ـ (حين علموا بعودة أسد إلى مرو) ـ فقيل للحسن: هؤلاء الترك قد أتوك، وكانوا سبعة آلاف. فقال: ما أتونا بل أتيناهم وغلبناهم على بلادهم، وايمُ اللّه مع هذا لأدنينكم منهم ولأقرننّ نواصي خيلكم بنواصي خيلهم، ثم خرج فتباطأ حتى أغاروا وانصرفوا، فقال الناس: خرج إلى امرأته يتلقاها مُسرعاً وخرج إلى العدو

متباطئاً، فبلغه، فخطبهم، فقال: تقولون وتعيبون، اللّهم اقطع آثارهم وعجلْ أقدارهم وأنزلْ بهم الضراء وارفع عنهم السرّاء ـ (يعني الترك) ـ فشتمه الناس في أنفسهم ـ (لأنه أخطأ في بعض الدعاء فدعا على المسلمين وليس على الترك) ـ وكان خليفته حين خرج إلى الترك ثابت قُطنة الأزدي فخطب الناس، فحُصر، فقال: من يُطع اللّهَ ورَسُولَه فقد ضلّ. وارتجّ عليه فلم ينطق بكلمة فلما نزل عن المنبر قال: ـ

إنْ لَـمْ أكـنْ فـيكـمْ خـطـيـبـاً فـإنـنـي بِسَـيـفـي إذا جَدَّ الـوغـى لـخـطـيـبُ

فقيل له: لو قلت هذا على المنبر لكنت خطيباً. فقال حاجب الفيل اليشكريّ يعيّره حَصرَه: ـ

أبـا الـعَـلَاءِ لـقـد لاقـيـتَ مُـعْـضِـلـةً يَـومَ الـعَـرُوبـةِ مِـنْ كَـرْبٍ وتَـخْـنِـيـقِ
تَـلـوِي الـلـسـانَ إذا رُمـتَ الـكـلامَ بـه كما هوى زلَقٌ منْ شاهِقِ النِيقِ. . »
(ص١٨٨، جـ٨)

وقوله: يوم العروبة، فإن يوم العروبة هو يوم الجمعة. ويدل ذلك على عدم صحة مزاعم الأصفهاني في كتاب الأغاني فقد ذكر تلك الحادثة بأنها في عهد يزيد بن المهلّب وأن حاجب الفيل هجاه بأشعار، بينما الصحيح أن تلك الحادثة بعد انتهاء عهد وثورة يزيد بن المهلب ومقتله سنة ١٠١هـ بخمس سنوات، وكان ثابت قطنة شاعر ثورة يزيد بن المهلّب، ثم أخذ في رثاء يزيد بن المهلّب والذين قُتِلوا من آل المهلّب، قال د. حسين عطوان: «واعتزل ثابتُ الحياة العسكرية والأدبية بعد إخفاق ثورة المهالبة، وأصبح خائفاً ضائقاً من الولاة القيسيين بخراسان. . حتى تولى أسد بن عبد اللّه الْقَسْري خُراسان فلمعت شخصية ثابت واسترد مكانته وانحلّت عقدة لسانه»[١]. ولكن ذلك لم يكن بسبب يمانية أسد بن عبد اللّه فحسب وإنما أيضاً بسبب عودة الأمجاد وعودة الفتوحات في ولاية أسد، وكذلك وحدة الصف العربي الإسلامي في ظل سياسة أسد الحكيمة، فبينما انتهج الأمراء القيسيون السابقون سياسة فيها شيء من التعصب والعداء للأزد اليمانيين وغيرهم بخراسان فإن أسد بن عبد اللّه انتهج سياسة حكيمة، فلم يتعرض للأمير السابق مسلم بن سعيد القيسي وإنما أكرمه وبعثه إلى خالد بالعراق، قال الطبري: «وفي سنة ١٠٧هـ حُمل مسلم بن سعيد إلى خالد بن عبد اللّه، وكان أسد بن عبد اللّه له مكرّماً بخراسان لم يعرّض له ولم يحبسه، فقدِم مسلم وابن هبيرة مُجْمعٌ على الهرب فنهاه عن ذلك مسلم وقال له: إن القوم فينا أحسن رأياً منكم فيهم».

وقام أسد باستمالة وتأمين الناس، وكان بعض آل المهلّب هربوا إلى رتبيل ملك الترك في جنوب أفغانستان، قال ابن خلدون: «لحق المنهال بن أبي عيينة، وعمر بن

(١) الشعر العربي في خرسان ـ د. حسين عطوان.

يزيد بن المهلّب، وعثمان بن المفضل بن المهلّب برتبيل ملك الترك. . فأقام عمر وعثمان عند رتبيل حتى أمّنَهُما أسد بن عبد اللّه الْقَسْري، وقَدِما عليه بخراسان».

٢ ـ فتح أسد بن عبد اللّه بلاد نمرون والغَرْشِسْتان (القرغيز)

وفي أوائل سنة ١٠٧هـ انطلق أسد بن عبد اللّه الْقَسْري بجند العروبة والإسلام إلى بلاد نمرون ملك الغَرْشَسْتان ـ قال ابن كثير (جبال نمرون ملك القرقيسيان) ـ فافتتح أسد تلك البلاد، ودعا ملكها إلى الإسلام، فأسلم الملك على يدي أسد، وأسلم أهل تلك البلاد وأصبحت من ديار الإسلام.

وفي ذلك قال الحافظ ابن كثير: «غزا أسد بن عبد اللّه الْقَسْري جبال نمرون ملك القرقيسيان، مما يلي جبال الطالُقان، فصالحه نمرون وأسلم على يديه»[(١)].

وقال الطبري: «وفي هذه السنة ـ سنة سبع ومائة ـ غزا أسدُ جبال نمرون ملك الغَرْشِسْتان، مما يلي جبال الطالُقان، فصالحه نمرون وأسلم على يديه، فَهُم اليوم يتولون اليمن»[(٢)].

والظاهر أن الغَرْشِسْتان أو القرقيسيان هُم القرغيز ـ بلاد قرغيزستان حالياً بجوار أوزبكستان وشرق شمال أفغانستان ـ وقول الطبري (فهُم اليوم يتولون اليمن) يعني أنهم أصبحوا من موالي اليمنيين منذ إسلامهم على يد الأمير اليماني أسد بن عبد اللّه الْقَسْري سنة ١٠٧هـ، وما تزال قرغيزستان بلداً إسلامياً حتى اليوم.

٣ ـ فتح أسد بلاد غُورين وجبال ملع (بأفغانستان)

وفي نفس سنة ١٠٧هـ (٧٢٦م) غزا وفتح أسد بن عبد اللّه الْقَسْري بلاد غُورين وهي بلاد جبلية منيعة شرق أفغانستان، وفي ذلك قال الطبري: «غزا أسد الغُور وهي جبال هراة. .» وقال ابن خلدون: «سار أسد إلى غُورين وقاتلها، فانهزم المشركون وحوى المسلمون عسكرهم بما فيه».

وكان ملك وأهل الغُورين قد جعلوا كنوزهم وأموالهم في كهف بجبل الغُور ليس إليه طريق، فلما هزم أسد جيش وملك الغُورين وحوى المسلمون عسكرهم بما فيه، علم أسد بأن القوم جعلوا الكنوز والأموال في كهف جبل الغور، فمضى أسد إلى ذلك الجبل. قال الطبري: «غزا أسد الغور وهي جبال هراة، فعمد أهلها إلى أثقالهم فصيّروها في كهف ليس إليه طريق، فأمر أسد باتخاذ توابيت ووضع فيها الرجال ودلاها بالسلاسل، فاستخرجوا ما قدروا عليه». وقال الحافظ ابن كثير: «غزا

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٢٤٤، جـ٩.

(٢) وتاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص١٨٨، جـ٨.

أسد الغُور، فعَمَدَ أهلُها إلى أموالهم وأثقالهم فجعلوا ذلك كله في كهف منيع لا سبيل لأحدٍ عليه، وهو مُستعلٍ جداً، فأمر أسدٌ بالرجال فَحُمِلوا في توابيت ودلاهم إليه، وأمر بوضع ما هنالك في التوابيت، ورفعهم، فسلموا وغنموا. وهذا رأي سديد».

وشملت غزوات وفتوح أسد بلاد غُورين وأزبّ وصكّ حتى بلغ جبالَ ملع التي تعانق قممها السحاب وهي على تخوم الصين، قال الطبري: «ملع: من جبال خُوط فيها تُعمل الحزم الملْعية)، فقال ثابت قُطنة الأزدي يثني على أسد ويذكر تلك الفتوحات: ـ

أَرَى أَسَداً تَضَمَّنَ مُفْظِعَاتٍ ... تَهَيَّبها الملوكُ ذَوُو الحِجابِ
سَمَا بالخيل من أكنافِ مروٍ، ... تَوفُّزِهُنَّ بين هلا وهَابِ
إلى غُورينَ حيثُ حَوى أَزَبَّ ... وصَكَّ، بالسُّيوف وبالحرابِ
هَدانا اللَّهُ بالقتلى تَراها ... مُصَلَّبةً بأفواهِ الشِّعابِ
وأوردها نِهابَ وآبَ منها ... بأفضلِ ما يُصابُ مِنَ النهابِ
وكان إذا أناخَ بِدارِ قومٍ ... أراها المُخزياتِ مِنَ العذابِ
ألم يزُرِ الجبالَ جبالَ مُلعٍ ... ترى من دونها قِطَعَ السَّحابِ
بأرعَنَ لَم يدع لهمُ شَريداً ... وعاقَبَها المُمِضّ مِنَ العقابِ
مَلاحِمُ لَمْ تَدَعْ لِسَرَاةِ كلبٍ ... مُهاتَرَةً ولا لبني كِلابِ

فقوله: (ملاحم لم تدع لسراة كلب مُهاترةً ـ أو مفاخرةً ـ)، يعني أن فتوح وملاحم أسد في قرغيزستان والغُورين وجبال ملع ـ في شمال شرق الأرض ـ لم تدع للقادة الأمراء الكلبيين المفاخرة بملاحمهم وفتوحهم في المغرب والأندلس، إذْ أنه كان بشر بن صفوان الكلبي الحِمْيَري أمير إفريقية الشمالية وبلاد المغرب سنة ١٠٢ ـ ١٠٩هـ وكانت له فتوحات، وكان عنبسة بن سحيم الكلبي أميراً لبلاد الأندلس (١٠٣ ـ ١٠٧هـ: وغزا عنبسة الكلبي جنوب فرنسا سنة ١٠٦هـ وافتتح (قرقشونة) و (نيم) و (ليون) و (ماسون) و (شالمون) و (ديجون) وفي سنة ١٠٧هـ غزا عنبسة الكلبي مناطق (لانجزر) و (سانس) في شمال شرق فرنسا، فأصيب بجراح وعاد إلى الأندلس فمات بها سنة ١٠٧هـ، فبينما كان عنبسة يفتح جنوب وشرق فرنسا كان أسد الْقَسْري يفتح ما وراء نهر جيحون والقرغيز وشمال شرق أفغانستان، فجزاهما اللَّه خيراً ورضي عنهما.

سابعاً: بناء أُسد مدينة بَلْخ في خُراسان

وفي أواسط سنة ١٠٧هـ (٧٢٦م) بدأ أسد بن عبد اللَّه الْقَسْري بعمل تاريخي كان أهم من كل الغزوات والفتوحات، وهو تشييد أول مدينة عربية إسلامية في بلاد

خراسان وآسيا الوسطى، فمنذ بداية الفتوحات والحكم العربي الإسلامي في بلاد خراسان في خلافة عثمان بن عفّان وخلافة معاوية بن أبي سفيان اتخذ المسلمون من المدن القائمة مراكز وعواصم لهم، ومنها مدينة (مرو) عاصمة ولاية خراسان، ومدينة (البروقان) عاصمة إقليم هراة وبَلْخ ـ شمال أفغانستان ـ ومدينة سمرقند في إقليم الصُغد ببلاد ما وراء نهر جيحون، وهي مدن قديمة موجودة في تلك البلاد منذ ما قبل الإسلام.

ولعل من المفيد الإشارة إلى أن سمرقند ذات تشييد عربي سبئي يماني قديم، فقد ذكرت كتب التاريخ العربية أن شَمّر يُرعِشْ ملك اليمن غزا بالعرب حتى بلغ الصُغد والهند والتبت، فقام ببناء سمرقند، قال ابن خلدون: «وباسمه سُميت سمرقند»، وقد بناها كمستوطنة تجارية سبئية في الزمن القديم، وسماها (شمّر/كند) فتحول اسمها إلى (سمرقند)، وفي ذلك قال المؤرخ نشوان بن سعيد الحميري في قصيدته عن تاريخ الملوك التبابعة: ـ

أم أين شمّر يُرعش الملك الذي مَلَك الورى بالعنف والإسجاح
وبه سمرقند المشارقِ سُمّيت لله مِنْ غازٍ ومِنْ فَتّاح

وشمّر يُرعش هو (شمّر يُهرعش ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويَمانت) وقد سجلت نقوش عهده المعثور عليها في محرم بلقيس بمأرب فتوحاته لبلاد فارس وأرض قط وبلاد صف، وهي الصُغد[1]. ثم كان المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي من أوائل القادة الفاتحين لسمرقند، وتولى سمرقند أمراء يمانيون تعاقبوا على حكمها منذ الفتح، منهم معاوية بن يزيد بن المهلّب في عهد ولاية أبيه لخراسان، قال الطبري: «استعمل يزيد بن المهلّب على سمرقند وكشّ ونَسَفْ وبُخارى معاوية بن يزيد بن المهلّب». ولما تولى سمرقند عامل غير يماني أيام الولاة القيسيين لخراسان قال الكُميت: ـ

كانت سمرقندُ أحقاباً يمانيةً واليوم تحسبُها قيسيةً مُضَرُ

فلما تولى أسد بن عبد الله خراسان استعمل على سمرقند الحسن بن أبي العَمَرَّطة الكندي، فعادت سمرقند يمانية كما كانت.

ثم إن أسد بن عبد الله القَسْري اشتَعلت همّته إلى تشييد أول مدينة عربية إسلامية في بلاد خراسان، وكتب بذلك إلى أخيه خالد بن عبد الله القَسْري أمير العراق ومشارقها وخراسان لأن أسد بن عبد الله هو عامل لأخيه خالد على خُراسان، فوافق خالد على بناء المدينة، وهي مدينة بلْخ.

(١) كتاب تابعة اليمن السبعين ـ محمد حسين الفرح ـ ص٣٩٣ ـ ٤٣٥.

ومن المفيد التنبيه إلى أنه جاء في ترجمة أسد الْقَسْري بكتاب الجامع لبامطرف أنه: « . . أعاد أسد بناء مدينة بَلْخ» وهذا خطأ، فلم تكن مدينة بَلْخ موجودة من قبل وإنما كان الإقليم يُسمى إقليم (هراة وبَلْخ) وكانت المدينة العاصمة لإقليم هراة وبَلْخ مدينة البروقان، وقد ذكر ذلك الطبري في أنباء قيام أسد ببناء مدينة بَلْخ قائلاً: «وفي هذه السنة ـ سنة سبع ومائة ـ نقل أسد من كان بالبروقان من الجُند إلى بَلْخ. . وقَسَم لعمارة مدينة بَلْخ الفعلة على كلّ كورة على قدر خراجها. . وكان البروقان منزل الأمراء، وبين البروقان وبين بَلْخ فرسخان». وقد ذكر د. حسين عطوان في كتاب الشعر العربي في خراسان بناء أسد لمدينة بَلْخ، فقال:

«اختار أسد بن عبد اللّه الْقَسْري أرضاً مستوية تتوسطها الأنهار، ثم ألزم أهل كل مدينة وناحية من خراسان ببناء جزء من المدينة. ثم جعل على المدينة سوراً له سبعة أبواب، وبعد السور الأول سورين يبعدان عنه ١٢ فرسخاً، ويُحيطان بقراها ومزارعها». وقال الحافظ ابن كثير: «أمر أسد بجمع ما حول بَلْخ إليها. وبناها بناءً جديداً محكماً، وحَصّنها، وجعلها معقلاً للمسلمين».

وقد أتم أسد بناء المدينة ومساكنها وأسوارها ومرافقها العامة سنة ١٠٨هـ. قال د. حسين عطوان: «وبعد أن تم بناء المدينة نقل أسد إليها العرب والمسلمين من البروقان، وأقطع كل من له بالبروقان مسكن مسكناً بقدر مسكنه، ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكناً، وخلط بين السكان منعاً للعصبية».

وذلك أن البروقان كغيرها من المدن في العراق ومشارقها كان للسكان المقيمين بها من كل قبيلة خطة ـ أي منطقة ـ سكنية خاصة بها، فكانت المدن مقسمة إلى خمسة أقسام أو أربعة، فكانت البروقان أخماساً، خُمس للأزد، وخمس لمذحج ومن معهم من بقية اليمانية، وخمس لربيعة، وخُمس لتميم، وخُمس لبقية القبائل وللموالي ـ مثلاً ـ. قال الطبري: «نقل أسد من كان بالبروقان من الجند إلى بَلْخ. . وأراد أنْ ينزلهم على الأخماس، فقيل له: إنهم يتعصبون، فخلط بينهم. وأقطع أسد كلَّ من كان له بالبروقان مسكن مسكناً بقدر مسكنه، ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكناً. . فقال أبو البريد البكري في بنيان أسد مدينة بَلْخ: ـ

شَعفَتْ فؤادكَ فالهوى لك شاعِفُ ... رئْمٌ على طِفلٍ بحَوْمَلَ عَاطِفُ
ترعَى البَريرَ بِجانِبيْ مُتَهَدِّلٍ ... رَيَّان لا يَغْشُو إليه آلِفُ
بِمحَاضِرٍ مِنْ مُنْحنىً عَطِفَتْ له ... بَقَرٌ تَرَجَّحُ زانَهنّ روَادِفُ
(يا خَيْرَ مَلكٍ سَاسَ أمرَ رَعيَّةٍ ... إني على صِدْقِ اليمينِ لحالِفُ)
إنَّ المباركةَ التي حَصَّنْتَها ... عُصِمَ الذَّلِيلُ بها وقرَّ الخائِفُ

فـأراكَ فـيـهـا مـا رَأى مِـنْ صـالـحٍ فـتـحـاً وأبـوابُ الـسـمـاءِ رَواعِـفُ
فَمَضىٰ لكَ الإسمُ الذي يَرضى بهِ عنك البصيرُ بما نويتَ اللّاطِفُ
يـا خَـيْـرَ مَـلْـكٍ سَـاسَ أمـر رعـيـةٍ إنـي عـلـى صدق الـيـمـين لـحـالِـفُ
الـلَّـهُ أمّـنـهـا بـصُـنـعِـكَ بـعـدَمـا كـانـت قـلـوبٌ خـوفُـهـن رواجِـفُ

وقال ثابت قطنة في بناء أسد بن عبد اللّه لحصن مدينة بَلْخ.

ألم يكُ في الحصنِ المبارَكِ عصمَةٌ لِـجُـنـدِكَ إذْ هَـابَ الـجَـبـانُ وأرهـبـا
بَـنَىٰ لـكَ عَـبْـدُ الـلَّـهِ حِـصـنـاً ورثـتَـهُ قـديـمـاً إذا عُـدّ الـقـديـمُ وأنـجَـبـا

ولم تزل مدينة بَلْخ معقلاً من معاقل الإسلام في أفغانستان وآسيا الوسطى منذ أن بناها الأمير اليماني أسد بن عبد اللّه الْقَسْري سنة ١٠٧ ـ ١٠٨هـ (٧٢٦ ـ ٧٢٧م) وحتى اليوم.

* * *

ثامناً: أنباء أسد وغَزْواته إلى ما وراء النهر سنة ١٠٨ ـ ١٠٩هـ

كان أسد بن عبد اللّه قد استهل ولايته لخراسان سنة ١٠٦هـ بالمسير إلى إقليم الصُغد ومدينة سمرقند فقام بتوطيد سلطة الإسلام في ذلك الإقليم من أقاليم بلاد ما وراء النهر، وأقفل الجنود من جهات إقليم فرغانة وبلاد الخُتَّل حيث كان التُرك الكفار وملكهم الأكبر خاقان ـ بإقليم الشاش ـ لهم قوة كبيرة في تلك الجهات.

ثم في أواسط سنة ١٠٨هـ انطلق أسد بجند الإسلام من بَلْخ وعَبَرَ نهر جيحون وغزا بلاد الخُتلِ وسُرْخ دَرَة، وفي ذلك قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «غزا أسدُ بن عبد اللّه الختَّل سنة ١٠٨هـ. وكان السَّبْل ـ ملك الختَّل ـ محارباً له، فاستجلب السَّبْلُ خاقان ـ (وذلك بعد انهزام السَّبْل) ـ وكان أسد قد أظهر أنه يشتو بسُرْخ دَرَةَ، فأمر أسد الناس فارتحلوا ووجّه راياته وسار في ليلة مظلمة إلى سُرْخ دَرَةَ، فكبّر الناس، فقال أسد: ما للناس؟ قالوا: هذه علامتهم إذا قفلوا، فقال لعروة المنادي: نادِ أنَّ الأمير يريد غوريان، ومضى، وأقبل خاقان حين انصرفوا إلى غوريان فقطع النهر فلم يلتق هو ولا هُم. وقال علي بن محمد: إن خاقان أتى أسداً وقد انصرف إلى القَوْادِيَان وقطع النهر ولم يكن بينهم قتال في تلك الغزاة. وذكر عن أبي عبيدة أنه قال بعضهم: بل هزموا أسداً فرجع مغلولاً من الخُتّل فقال بعض أهل خراسان: ـ

آزْ خُـتَّـلَانْ آمَـذِي بـرُوتَـبـاهْ آمَـذِي بِـيـدَل فـراز آمَـذِي)

ـ والصحيح أنه لم يكن بين أسد وخاقان قتال، وإنما قيل ذلك لأنه انصرف بجيشه من الخُتل قبيل قدوم خاقان فتجنب القتال معه، ومضى بالغنائم التي غنمها

من الخُتل إلى غُوريان ـ قال الطبري: (ورجع أسد إلى بَلْخ فقال الشاعر في ذلك يمدح أسداً: ـ

نـدَيْت لـي مـن كـلِّ خُـمْسٍ ألـفيـن　　　مـن كـلّ لـحـاف عـريـضِ الـدَّفّـيـن

ومضى المسلمون إلى الغُوريان فقاتلوهم يوماً وصبروا لهم.. ثم عادوا من الغد فلم يلبث المشركون أن انهزموا وحوى المسلمون عسكرهم وظهروا على البلاد. فأسروا وسبوا وغنموا» (ص ١٩٠، جـ٨).

وقال الحافظ ابن كثير: «غزا أسد بن عبد اللّه أمير خراسان ـ سنة ١٠٨هـ ـ فكسر التركَ كسرة فاضحة».

* * *

وكان من أنباء أسد في تلك السنة ـ سنة ١٠٨هـ ـ أنه: استعمل أسدٌ عيسى بن شداد البُرْجُميّ التميمي في وجهٍ وجَّهَهُ على ثابت قُطنة الأزدي، فغضب ثابت من تأمير البرجمي عليه وقال لأسد أبياتاً منها: ـ

إنّـي وَجَـدْتُ أبـي أبـاكَ فـلا تـكُـنْ　　　إلْـبـاً عـلـيَّ مـع الـعَـدُوِّ تُـجَـلِّـبُ
أرْمي بِسَهْمي مَنْ رماكَ بِسَهْمِهِ　　　وعـدُوُّ مَـنْ عـادَيْـتَ غَـيْـر مُـكـذَّبُ
أجَـعَـلْـتَـنِـي لـلـبُـرْجُـميّ حقـيـبـةً　　　والبُرجميُّ هو اللئيمُ المُحْقَبُ
أسـدُ بـن عـبـد الـلَّـه جَـلَّـلَ عـفْـوُهُ　　　أهل الذُّنوبِ فكَيف مَنْ لا يُذْنِبُ
إنّــي أعــوذُ بِــقَــبْـرِ كُــرْزٍ أن أرَى　　　تَـبَـعـاً لـعـبـدٍ مِـنْ تَـمـيـم مُـحْـقَـبُ)

فأعفاه أسد من المسير تحت إمرة عيسى البرجمي، واستمر ثابت نائباً للحسن الكندي أمير سمرقند.

* * *

إن قول ثابت قُطنة: ـ

أسـدُ بـن عـبـد الـلَّـه جَـلَّـلَ عـفْـوُهُ　　　أهلَ الذُّنوبِ فكَيف من لا يُذْنِبُ

يشير إلى السياسة الحكيمة المتسامحة التي انتهجها أسد منذ قدومه والياً على خراسان سنة ١٠٦هـ إلى سنة ١٠٨هـ.

ويرتبط ذلك بصفة أساسية بأمرين: ـ

الأمر الأول: في أيام ولاية مسلم بن سعيد القيسي لخراسان سنة ١٠٤ ـ ١٠٥هـ انتهج مسلم بن سعيد وعماله سياسة اتسمت بشيء من التعصب ضد اليمانية وخاصة الأزد، قال الطبري: «وفي السنة ـ سنة ١٠٥هـ ـ كانت الوقعة بين المضريّة واليمانية وربيعة بالبرُوقان من أرض بَلْخ». ويتلخص نبأ ذلك في أن مسلم بن سعيد

بعث نصر بن سيار القيسي وجماعة من القادة إلى بَلْخ، وعليهم جميعاً نصر بن سيار، فنزل نصر بالبرُوقان واجتمعت إليه مُضر وتميم وغيرهم من القيسية وكذلك أهل الصغانيان وغيرهم من العجم، بينما تجمعت الأزد وربيعة بالبرُوقان مع عمرو بن مسلم عامل بَلْخ ـ وهو من ربيعة ـ والبختريّ، فوقعت معركة بينهم وبين نصر وأصحابه بالبرُوقان. «فَقُتِل من بكر بن وائل واليمن ثلاثون، وقاتلت الأزد ثم انهزموا ودخلوا حصناً فحصرهم نصر، ثم أخذ عمرو بن مسلم والبختريَّ أحد بني عبّاد وزياد بن طريف فضربهم نصر مائة مائة وحلق رؤوسهم ولحاهم وألبسهم المسوح. . . وكان عمرو بن مسلم والأزد وربيعة هزموا نصراً، ثم انقلبت تميم إلى جانب نصر، فانهزم الأزد وربيعة بالبروقان».

وعندما تولى أسد بن عبد اللّه خراسان انتهج سياسة التسامح مع أولئك المتعصبين للقيسية ولم يُؤاخذهم بذنوبهم في تلك الفتنة وغيرها، وإنما ـ وكما ذكر الطبري ـ «كان أسد بن عبد اللّه مكرماً لمسلم بن سعيد بخراسان لم يعرّض له ولم يحبسه». وسار مسلم بن سعيد إلى خالد بن عبد اللّه بالعراق ـ أول سنة ١٠٧هـ ـ (فقدِم مسلم، وابن هبيرة مُجْمعٌ على الهرب، فنهاه عن ذلك مسلم وقال له: إن القوم فينا أحسن رأياً منكم فيهم».

وكذلك أبقى أسد بن عبد اللّه نصر بن سيار القيسي وسلم بن أحوز التميمي بين قادة الجيش، ولما قام أسد ببناء مدينة بَلْخ ونقل إليها الجند والناس من البروقان، خلط بين السكان منعاً للعصبية. ولما غزا أسد بلاد الختَّل والغوريان سنة ١٠٨هـ كان من قادة جيشه نصر بن سيار وسلم بن أحوز، وأثناء القتال بين المسلمين والترك في الغوريان كان قتال نصر بن سيار وسلم بن أحوز دون مقدرتهما بل لم يقاتلا في اليوم الأول، «وأتاهما رسول أسد فقال: يقول لكما الأمير قد رأيتُ موقفكما اليوم وقلة غنائمكما عن المسلمين، لعنكما اللّه». وقد ذكرت رواية الطبري قبل ذلك ما حدث في اليوم التالي حيث «برز رجل من المشركين، وسلم بن أحوز واقف مع نصر بن سيار، فقال سلم لنصر: قد عرفت رأي أسد، وأنا حامل على هذا العِلج فلعلي أن أقتله، فيرضى. فحمل عليه سلم فقتله، ثم حمل وقَتَل رجلاً من العدو، ورجع سلم جريحاً. فقال نصر لسلم: قف لي حتى أحمل عليهم، فحمل حتى خالط العدوّ فصرع رجلين ورجع. فقال لسلم: أترى ما صنعنا يُرضيه لا أرضاه اللّه؟ فقال: لا واللّه فيما أظن» ثم ذكرت الرواية خبر مجيء رسول أسد إليهما وكلامه سالف الذكر، والظاهر أن ذلك إنما كان في اليوم الأول، وأنهما خرجا للمبارزة اليوم الثاني عندما حمل أسد بجميع الجيش على العدو فانهزموا، وحوى المسلمون عسكرهم، قال ابن كثير: « . . فكسر أسد التُرك كسرة فاضحة».

الأمر الثاني: في سنة ١٠٧ ـ ١٠٨هـ واجه أسدٌ نشاط قادة الدعوة الشيعية بخراسان بالتسامح والعفو، وكان نشاطهم ضد دولة الخلافة قد بدأ في خلافة عمر بن عبد العزيز، وفي ذلك قال الطبري: «في سنة مائة للهجرة وجّه محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس من أرض الشراة ميسرةَ إلى العراق، وَوَجّه محمد بن خنيس وأبا عكرِمة السرّاج وهو أبو محمد الصادق وحيّانَ العطار خال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان وعليها يومئذٍ الجرّاح بن عبد الله الحكمي من قِبَلِ عمر بن عبد العزيز، وأمرهم محمد بن علي بالدعاء إليه وإلى أهل بيته، فلقوا من لَقوا، ثم انصرفوا بكُتُبِ من استجاب لهم إلى محمد بن عليّ. واختار أبو محمد الصادق اثنى عشر رجلاً نُقباء للدعوة بخراسان منهم سليمان بن كثير الخزاعي.. الخ». فبدأوا نشاطاً سرياً في خراسان. قال الطبري: «وفي سنة ١٠٥هـ قَدِم بكير بن ماهان من السند وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمٰن ترجماناً له، فلما عُزِل الجنيد بن عبد الرحمٰن [كانت ولاية الجنيد للسند سنة ١٠٦ ـ ١٠٨هـ] قَدِم بكيرُ الكوفةَ فلقى أبا عكرمة الصادق وميسرة ومحمد بن خُنيس وسالماً الأعين وأبا يحيىٰ مولى بني سلمة، فذكروا له أمر الدعوة، فقبل ذلك ورضيه، وأنفق ما معه عليهم، ودخل إلى محمد بن عليّ، ومات ميسرة، فَوَجّه محمد بن عليّ بكير بن ماهان إلى العراق مكان ميسرة، فأقامه مقامه». قال الطبري: «وفي سنة ١٠٧هـ وجَّه بكير بن ماهان أبا عكرمة محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبّاديّ في عدة من شيعتهم معهم زياد وخالد بن الوليد الأزرق دعاة إلى خراسان، فجاء رجلٌ من كندة إلى أسد بن عبد الله فوشى بهم إليه، فأتي بأبي عكرمة ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه..». ولم يتعرض لهم أسد في تلك السنة، ويبدو أنهم برروا قدومهم بالتجارة وغير ذلك، فَقَبِلَ تبريرهم، وحذّرهم، وعفا عنهم، فأخذوا في النشاط السري، وربما كان تسمية النقباء للدعوة بخراسان من ثمار ذلك النشاط السري، وأخذ الدعاة ينفثون دعوتهم للفرقة وللقضاء على دولة الخلافة وإقامة دعوة الشيعة ومن يسمونهم آل البيت.. قال الطبري في أحداث سنة ١٠٨هـ «..فوشى بهم رجلٌ إلى أسد بن عبد الله فأخذ عماراً العباديّ ـ وكذلك أبا عكرمة محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعامة أصحابهم ـ». وقد ذكر الطبري روايتين متناقضتين تزعم إحداهما أنه «قطع أسد أيدي أبي عكرمة ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه وقطع أسد أرجلهم وصلبهم. ونجا عمار العباديّ فأقبل إلى بكير بن ماهان فأخبره الخبر ـ وذلك سنة ١٠٧هـ ـ» ثم ذكر الطبري رواية ثانية في أحداث سنة ١٠٨هـ يتبين منها عدم صحة ما زعمته الرواية الأولى، وتزعم الرواية الثانية أنه: «أخذ أسدٌ عماراً العباديّ فقطع يديه ورجليه، ونجا عامة أصحابه ـ ومنهم أبو عكرمة ومحمد بن خنيس ـ فقدموا على بكير بن ماهان فأخبروه الخبر..». ويتبين من جمع

جوهر الروايتين أن أسد بن عبد اللّه حبسهم جميعاً، ولم يقطع أيدي وأرجل أحد منهم، وإنما عفا عنهم جميعاً، وأمرهم بمغادرة خراسان، فغادروها، وقال الطبري في رواية ثالثة: «وذكر عليّ بن محمد أن أول من قدِم خراسان من دعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى همدان في ولاية أسد بن عبد اللّه الأولى، بعثه محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس، ونهاهُ عن رجل من أبرشهر يقال له غالب لأنه كان مفرطاً في حب بني فاطمة، فلما قَدِم زياد أبو محمد ودعا إلى بني العباس وذكر سيرة بني مروان وظلمهم، وجعل يطعم الناس الطعام، قَدِم عليه غالب من أبرشهر، فكانت بينهم منازعة، غالب يفضل آل أبي طالب وزياد يفضل بني العباس، ففارقه غالب. وأقام زياد بمرو، شتوة، وكان يختلف إليه من أهل مرو يحيىٰ بن عقيل الخزاعي وإبراهيم بن الخطاب العدويّ، وكان ينزل برزَنْ سويد الكاتب. وكان على خراج مرو الحسن بن شيخ، فبلغه أمره، فأخبر به أسد بن عبد اللّه، [وكان أسد في بَلْخ، وذلك سنة ١٠٧ ـ ١٠٨هـ، وكان الحسن بن شيخ نائب أسد على مرو، فكتب بخبر زياد إلى أسد]، فدعا به أسد، وكان معه رجل يكنى أبا موسىٰ، فلما نظر إليه أسد قال له: أعرفك، قال: نعم، قال أسد: رأيتك في حانوت بدمشق، قال: نعم. وقال أسد لزياد: فما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: رفع إليك الباطل إنما قدمت خراسان في تجارة وقد فَرقتُ مالي على الناس فإذا صار إليّ خرجت. وقال له أسد: أخرج عن بلادي (إذا استوفيت مالك) فانصرف إلى مرو».

ويبدو من ربط الروايات الثلاث: أن قدوم زياد إلى خراسان كان مع أبي عكرمة ومحمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادي وبقية أصحابهم، وأن أبا عكرمة وأصحابه كانوا في إقليم هراة وبَلْخ بينما كان زياد أول من قدم مرو ـ عاصمة خراسان ـ ولذلك قيل إنه أول من قَدِم خراسان من دعاة بني العباس، فلما عرف أسد بنشاط أبي عكرمة وأصحابه في إقليم خراسان الشرقي، وكتب إليه الحسن بن شيخ عامل مرو بخبر ونشاط زياد في مرو، أمر أسد بإحضار زياد، فجرى بينهما الكلام سالف الذكر، وكذلك كان الأمر مع أبي عكرمة ومحمد بن خنيس وعمار العبادي وأصحابه، قالوا: إنما قدمنا خراسان في تجارة، فقال لهم أسد: اخرجوا عن بلادي، فخرج أبو عكرمة وابن خنيس وعمّار والذين معهم، ومضوا إلى العراق. وأما زياد فقال: قد فرقتُ مالي على الناس فإذا صار إليّ خرجت، فقبل منه أسد ذلك العذر، وقال له: استوفِ مالك واخرج من بلادي، فعاد زياد إلى مرو. ولذلك قال ثابت:

أسدُ بن عبد اللّه جلّلَ عفوه أهلَّ الذُنوبِ فكيف من لا يُذْنِبُ

وكان ذلك في أواسط سنة ١٠٨هـ عندما سار أسد بجند الإسلام لجهاد العدو

في أرض الختَّل بأقاليم ما وراء النهر، بينما عاد زياد مولى همدان إلى مدينة مرو، حيث عاد زياد إلى أمرة، وهو أمر دعوة الشيعة والتحريض بالخروج على دولة الخلافة، وكان مع زياد تسعة من موالي أهل الكوفة، وأخذت جماعات من المتشيعين تلتف حولهم، فيذمون الخليفة هشام وبني مروان ويجاهرون بالتحريض على الخروج والشقاق. وكان الحسن بن شيخ عامل مرو يراقب تحركاتهم ويكتب بذلك إلى أسد، وكان أسد يجاهد الكفار في أرض الختَّل وغوريان بأقاصي بلاد ما وراء نهر جيحون، مما يعني أن أنباء دعاة الشيعة في مرو يمكن أن تؤدي إلى قلق كبير على الجبهة الداخلية. ولما عاد أسد وجند الإسلام من بلاد ما وراء النهر إلى بَلْخ في حوالي شهر ذي القعدة سنة ١٢٨هـ، لأن المسلمين يرجعون من غزوات بلاد ما وراء النهر قبيل حلول فصل الشتاء، قام الحسن بن شيخ عامل مرو باعتقال زياد مولى همدان وأصحابه، بناء على تعليمات الأمير أسد، وأقبل الأمير أسد من بَلْخ إلى مرو.

وقد أوجز الطبري نبأ ذلك فقال: «عاد زياد إلى أمره ـ وهو أمر دعوة الشيعة ـ فعاود الحسن بن شيخ أسداً، وعَظَّم عليه أمره، فأرسل إليه، فلما نظر إليه قال: ألم أنهك عن المقام بخراسان؟ قال: ليس عليك أيها الأمير مني بأس.. وقال له أبو موسى: اقضْ ما أنْتَ قاضٍ، فازداد غضباً وقال له: أنزلتني منزلة فرعون، فقال: ما أنزلتك ولكن اللَّه أنزلك. وكانوا عشرة من أهل بيت الكوفة ـ (أي: من موالي أهل الكوفة) ـ فلم ينج منهم يومئذٍ إلا غلامان استصغرهما أسد، وأمر بالباقين فقُتِلوا بكشانشاة. وقال قوم: بل عرض عليهم أسدٌ البراءة، فمن تَبَرَّأ منهم مما رُفع عليه خُلِّيَ سبيله، فأبَىَ البراءة ثمانية منهم، وتبرأ اثنان. فلما كان الغدُ أقبل أحدهما وأسدٌ في مجلسه المشرف على السوق بالمدينة العتيقة ـ وهي مرو ـ فقال أسد: أليس هذا أسيرنا بالأمس، فأتاه، فقال له: أسألك أن تُلحقني بأصحابي ـ (وتراجع عن براءته من خلع وذم الخليفة وغير ذلك) ـ فأشرفوا به على السوق.. فَضُرب عنقه قبل الأضحى بأربعة أيام». (ص١٩٤، جـ٨).

ويتبين من ذلك أن العقوبة اقتصرت على سبعة من الموالي القادمين من خارج بلاد ولاية خراسان، وكانوا عشرة فنجا منهم غلامان استصغرهما أسد فعفا عنهما، وتَبَرَّأ اثنان مما رُفع عليهما، ثم رجع أحدهما عن براءته، فيكون الذين قُتِلوا سبعة من الموالي بينما الذي شغل عامل مرو الحسن بن شيخ وجعله يعاود الكتابة إلى أسد ويعظم عليه أمرهم، إنما هو دخول العشرات وربما المئات من أهالي مدينة ومناطق مرو في أمرهم، منهم يحيىٰ بن عقيل الخزاعي، وإبراهيم بن الخطاب العدوي، ورجال من خزاعة وربيعة وغيرهم، كانت قد شملتهم الاتهامات، ولكن أسد بن عبد اللَّه تسامح معهم، وتغاضى عنهم، وأظهروا جميعاً الثبات على الطاعة، وقد

أُثيرت مسأله عفو أسد عنهم كنقطة ضده فيما بعد ـ كما سيأتي ـ بينما تلك السياسة أدت إلى اختفاء نشاط دعاة الشيعة من خراسان في ولاية أسد. وكان أسد قد قضى عيد الأضحى في مرو ثم عاد منها إلى مدينة بَلْخ.

* * *

إجهاض محاولة تمرد في بَلْخ . . واتهام أسد بالعصبية اليمانية

فيما بين شهر محرم وشهر ربيع سنة ١٠٩هـ كان الأمير أسد بن عبد اللّٰه في مدينة بَلْخ ـ العاصمة الجديدة ـ يُدير أمور ولاية خراسان الممتدة في أرجاء آسيا الوسطى، ويتهيأ لغزو وجهاد العدو في أرض السَّبْل وغُوريان وخاقان عند انتهاء فصل الشتاء، وبينما هو في ذلك اكتشف أن أربعة من القادة بينهم نصر بن سيار القيسي يتآمرون للقيام بتمرد انقلابي للوثوب على السلطة، عندما يسير لجهاد العدو فيما وراء النهر، فقام أسد بإجهاض تلك المحاولة والقبض على قادتها، وتم ـ فيما بعد ـ تصوير ما قام به أسد بأنه عصبية يمانية، بحيث قال د. حسين عطوان في كتاب الشعر العربي في خراسان: ـ

«تعصب أسد بن عبد اللّٰه الْقَسْري لقومه اليمانية، وأهان الـمُضَرّية، وضرب نصر بن سيار ونفراً معه بالسياط، وسَيّرهم إلى أخيه خالد مُدّعياً أنهم أرادوا الوثوب عليه».

وبالرغم من أن ذلك القول جاء في بداية رواية الطبري التي شاعت في بقية المصادر، فإن الرواية الكاملة التي ذكرها الطبري تتيح إدراك الصورة الكاملة لما حدث، قال الطبري: «قال عليّ بن محمد: تعصب أسد على نصر بن سيار ونفر معه من مُضَر، فضربهم بالسياط» ثم ذكر الطبري تفصيل ما حدث فقال بعد ذلك مباشرة ما يلي: ـ

«خطب أسد في يوم جمعة، فقال في خطبته: قَبَّحَ اللّٰهُ وجوه أهل الشقاق **والنفاق** والشغب والفساد، اللّٰهم فرّق بيني وبينهم وأخرجني إلى مهاجري ووطني. **وقال**: مَنْ يرومُ ما قِبَلي أو يترمرم، وأمير المؤمنين خالي، وخالد بن عبد اللّٰه أخي، **ومعي** اثنا عشر ألف سيف يمانٍ.

ثم نزل عن منبره، فلما صلى، ودخل عليه الناس ـ (في دار الإمارة) ـ فأخذوا مجالسهم، أخرج كتاباً من تحت فراشه، فقرأه على الناس، فيه ذكر نصر بن سيار، وعبد الرحمٰن بن نعيم العامري، وسورة بن الحرّ الأباني أبان بن دارم، والبختَرِيُّ بن أبي درهم من بني الحارث بن عبّاد.

فَدَعاهُم، فأنَّبَهُم، فأزم القوم، فلم يتكلم منهم أحد، فتكلم سورة فذكر حاله

وطاعته ومناصحته، وأنه ليس ينبغي له أن يقبل قول عدوّ مبطل، وأن يجمع بينهم وبين من فرّقهم بالباطل. فلم يقبل قوله» (ص١٩٢، جـ٨).

ويتبين من ذلك ترتيب ما حدث: أن أسد بن عبد اللّه تلقى معلومات أكيدة، ربما من بعض القادة، عن ما يدبره نصر بن سيار القيسي ومعه القادة الثلاثة للتمرد والسيطرة على السلطة، وتم تدوين المعلومات وتفاصيل المؤامرة. ثم خطب أسد في يوم جمعة وقال في خطبته قوله سالف الذكر يشير إلى متآمرين من أهل الشقاق والنفاق أو الشغب والفساد إلى أن قال: «ومعي اثنا عشر ألف سيف يماني» وهذا يعني فيما يعني أن تهمة التآمر تشمل غير اليمانيين في الجيش العربي الإسلامي بخراسان، وبعد صلاة الجمعة توجه سائر القادة ووجهاء الناس إلى دار الإمارة فأخذوا مجالسهم، فأخرج الأمير أسد من تحت فراش سريره أو كرسيه المكتوب الذي فيه المعلومات عن المتآمرين وخطتهم، وأسماء القادة الأربعة المتهمين، فقرأ أسد المكتوب على جميع الحاضرين وبينهم القادة الأربعة. ثم دعاهم، فقاموا من مجالسهم إلى وسط القاعة، فأنّبَهم، فالتزم نصر بن سيار وعبد الرحمٰن العامري، والبختَريُّ، الصمت التام، بينما تكلم سورة الأباني فذكر حاله ومناصحته وطاعته للأمير ثم سأل أن يجمع بينهم وبين من فرقهم بالباطل، وهذا يعني أن يكشف الأمير أسد أسماء القادة الذين بلغوا عنهم وكشفوا خطتهم، ولذلك لم يقبل الأمير أسد قوله، وكانت المعلومات التي قرأها الأمير أسد في المكتوب بمثابة إدانة كاملة دون حاجة إلى كشف أسماء الذين بلّغوه بها.

إن عقوبة محاولة التمرد المنسوبة إلى القادة الأربعة كانت الإعدام، ولكن أسد بن عبد اللّه اكتفى بما ذكرته رواية الطبري من أنه: «أمر بهم أسد فَضُرِبوا في مجلسه» ـ وذلك عدة ضربات خفيفة بالسوط فقط ـ «وكان البختريُّ بن أبي درهم ـ وهو من ربيعة ـ يقول: لوددت أنه ضربني وهذا شهراً يعني نصر بن سيار، لما كان بينهما بالبرُوقان» ـ وقد تقدم ذكر ما حدث بالبرُوقان ـ وبعث بهم أسد مع اثنين من الحرس إلى الأمير خالد بن عبد اللّه بالعراق، قال الطبري: «ووجههم أسد إلى خالد وكتب إليه أنهم أرادوا الوثوب عليه». (ص١٩٣، جـ٨).

وكان من الطبيعي أن يحبسهم خالد ويكتب إلى الخليفة هشام بأمرهم، وكان من الطبيعي أيضاً أن يكون لحبس نصر بن سيار والثلاثة الذين معه بعض ردود الفعل العصبية فقد كان نصر بن سيار من أبرز القادة القيسيين بخراسان، وكان الثلاثة الآخرون من قادة عشائرهم المشهورين، ولذلك شاع الكلام عن تعصب أسد لقومه اليمانية، وأثار البعض مسألة قيام أسد بالتسامح مع الذين تبنوا دعوة الشيعة من رجالات خراسان، فقد ذكر الطبري أنه قال عرفجة التميمي:

بكيْتُ ولم أملك دُمُوعي وحُقَّ لي ... ونَصْرُ شهاب الحرْبِ في الغلّ مُوثق

فكَيفَ وأعداء الخليفَةِ كُلُّهُم ... عُتَاةٌ، وأعداءُ الخليفَةِ تُطلَقُ

ويكاد يكون ذلك هو رد الفعل الوحيد في خراسان، إذا كان عرفجة التميمي من أهل خراسان أما إذا كان من سكان العراق مثل الفرزدق وأبياته سالفة الذكر في تلك الحادثة، فإن غياب ردود الفعل في خراسان يعود إلى تفهم الجميع بأن قيام أسد بإرسال نصر بن سيار والذين معه إلى العراق كان إجراءً سليماً، لِيَنْطلق أسد بجند العروبة والإسلام لجهاد الأعداء في بلاد ما وراء النهر.

فتح أسد لأرض السّبْل وغوريان

بعد انتهاء فصل الشتاء، وذلك في حوالي شهر ربيع ١٠٩هـ، انطلق زهاء أربعين ألفاً من جند العروبة والإسلام بقيادة الأمير أسد بن عبد اللّه الْقَسْري من مدينة وأرض بَلْخ، وعبروا نهر جيحون، لغزو وجهاد العدو في أرض السَّبْل بأقاصي أقاليم بلاد ما وراء النهر.

قال الطبري: «وفي هذه السنة، وهي سنة تسع ومائة، غزا أسد بن عبد اللّه غورين، فقال ثابت قُطنة في ذلك:

أَرَى أَسَداً في الحرْبِ إذْ نَزَلَتْ به ... وَقَارَعَ أهْلَ الحرْبِ فازَ وأوجبَا

تَنَاول أرضَ السَّبْلِ، خاقانُ ردؤه ... فَحَرَّق ما استعصَى عليه وخَرَّبَا..»

(ص١٩١، جـ٨)

فقد غزا واجتاح أسد بن عبد اللّه أرض السَّبْل وهي بلاد الخُتَّل وغوريان، وكان خاقان ملك التُرك الكفار الأكبر مسانداً بجيشه للسَّبْل ملك الخُتَّل الذي كان استنجد بخاقان سنة ١٠٨هـ فأتى إلى الخُتَّل بجيشه، فانتصر جند الإسلام بقيادة أسد عليهم جميعاً سنة ١٠٩هـ فتم اجتياح وفتح سائر أرض السَّبْل التي هي أرض الخُتَّل وغوريان، وحَرَّق أسد ما استعصى عليه من الحصون في تلك الأرض وأخربها، ربما للحيلولة دون استخدامها للعدوان على المسلمين في أقاليم ما وراء النهر الإسلامي ومنها إقليم الصُغد وسمرقند، وقد كان ثابت قطنة في سمرقند نائباً للحسن الكندي عامل أسد على سمرقند والصُغد، فشهد ذلك الفتح مع أسد، وقال القصيدة التي منها البيتان بعد عودة أسد بالنصر والظفر والغنائم إلى مدينة بَلْخ بمناسبة احتفال مهرجان النيروز ـ الربيع ـ بمدينة بَلْخ سنة ١٠٩هـ، والذي هو أول احتفال تشهده مدينة بَلْخ منذ اكتمال تشييدها.

احتفال النيروز بمدينة بَلْخ

وقَدِم إلى الأمير أسد بن عبد اللّه بمدينة بَلْخ ـ في مهرجان النيروز ـ وفود

حكام وشعوب آسيا الوسطى المحليون وهُم الترك من كابول في جنوب أفغانستان ـ جنوباً ـ إلى أعالي بلاد ما وراء النهر ـ شمالاً ـ وفي ذلك قال ثابت قطنة بعد البيتين السابقين مخاطباً الأمير أسد:

أتَتْكَ وُفُودُ التُّرْك ما بين كابُلٍ ... وغُوريان إذْ لَمْ يَهْرَبُوا منْكَ مَهْرَبَاً

فما يغمُرُ الأعدَاءَ مِنْ لَيْثِ غابَةٍ ... أبي ضارياتٍ حَرَّشُوه فَعَقَّبا

أزبَّ كأنَّ الوَرْسَ فَوْقَ ذِراعِهِ ... كَريمَ المُحَيَّا قد أسَنَّ وجَرَّبَا

ألم يكُ في الحصْنِ المبارَكِ عِصمَةٌ ... لَجُندِكَ إذْ هابَ الْجَبَانُ وأرهبا

بَنَى لكَ عَبْدُ اللّه حِصْناً وَرِثتَهُ ... قديماً إذا عُدّ القَدِيمُ وأنْجَبَا

وفي ذلك الاحتفال أو الوقت، بأواسط سنة ١٠٩هـ، كان أيضاً قدوم الشاعر أبي البريد البكري الربيعي إلى الأمير أسد بمدينة بَلْخ، فقد ذكر الطبري في آخر أنباء ولاية سنة ١٠٩هـ أنه: «قال أبو البريد لبعض الأزد ادخلني على ابن عمك عبد الرحمٰن بن صبح وأوصه بي وأخبره عني، فأدخله إليه وهو عامل لأسد على بَلْخ، فقال: اصلح اللّه الأمير هذا أبو البريد البكري أخونا وناصرنا وهو شاعر أهل المشرق وهو الذي يقول:

إنْ تَنْقُضِ الأزدُ حِلْفاً كان أكدّهُ ... في سالف الدّهرِ عبَّادٌ ومَسْعُودُ

ومالكٌ وسُوَيدٌ أكَّدَاهُ معاً ... لما تُجَرَّدُ فيها أيَّ تجريدِ

حتى تَنادَوا أتاكَ اللّهُ ضاحيَةً ... وفي الجلُود من الإيقاع تَقْصِيدُ

فجذب أبو البريد يده وقال: «لعنك اللّه من شفيع كذب. أصلحك اللّه ولكني الذي أقول:

الأزْدُ إخْوَتُنا وهُمْ حُلَفَاؤنا ... ما بيْنَنا نكْثٌ ولا تَبْدِيلُ»

قال: «صدقت، وضحك. وأبو البريد من بني علباء بن شيبان بن ثعلبة، من ربيعة».

وقال أبو البريد يمدح أسداً ويذكر بنيانه لمدينة بَلْخ:

يَا خَيْرَ مَلْكٍ سَاسَ أمرَ رَعيَّةٍ ... إنّي على صِدْقِ اليمينِ لحالِفُ

إنَّ المباركةَ التي أحصنْتَها ... عُصِمَ الذّلِيلُ بها وقَرَّ الخائِفُ

فأراكَ فيها ما رأى مِنْ صَالحٍ ... فتحاً وأبوابُ السماءِ رَواعِفُ

فمضى لكَ الاسمُ الذي يَرضى به ... عنك البصيرُ بما نويتَ اللَّاطفُ

* * *

انتهاء الولاية الأولى لأسد على خُراسان

إنّ أمجاد وسلطة الأمير خالد بن عبد اللّه القَسْري في العراق ومشارقها وأمجاد وفتوحات أخيه الأمير أسد في خُراسان، قد أثارت حسد وعداء بعض المتعصبين والطامحين، وقام البعض بتصوير حادثة حبس نصر بن سيار والذين معه بأنها تعصب يماني من أسد وخالد، بينما لم يكن في ذلك أي عصبية، ولكن امتناع الأمير أسد عن الإفصاح بأسماء القادة الذين أخبروه بمحاولة التمرد قد أتاح المجال للتأويلات، ويبدو أن موقف أسد لم يتغير حتى بعد أن أرسلهم إلى خالد فحبسهم في العراق وكتب إلى هشام بن عبد الملك بأمرهم، فقيلت أشعار منها قول الفرزدق:

أخالِدُ لولا اللّه لَمْ تُعط طاعة ولولا بنو مروان لَمْ توثِقُوا نَصْرا

وكتب هشام إلى خالد بأن يخلي سبيل نصر والذين معه، ولا شك أن هشام بن عبد الملك كان متيقناً من صدق أسد ولكن امتناعه عن الإفصاح عن الأسماء أدى إلى إخلاء سبيلهم، ولم يكن أسد ولا خالد يرغب في أن يتجاوز الأمر ذلك إلى عقوبة كبيرة.

ثم رأى هشام إعفاء أسد من ولاية خُراسان، وقد ربطت الروايات ذلك بما تسميه عصبية أسد، بينما لو كان الأمر كذلك ما عاد أسد والياً لخراسان مرة ثانية، ولذلك فإن هدف هشام من إعفاء أسد يرتبط فيما نرى بإحداث بعض التوازن في الولايات بالعراق ومشارقها. وقد اتخذ إعفاء وعزل أسد من ولاية خراسان شكلاً يليق بمكانته حيث ذكر الطبري في تاريخ الأمم والملوك أنه: «كتب هشام إلى خالد بن عبد اللّه: اعزل أخاك، فعزله فاستأذن له في الحج، فقفل أسد إلى العراق ومعه دهاقين خراسان في شهر رمضان سنة ١٠٩هـ واستخلف أسد على خراسان الحَكَمْ بن عوانة الكلبي». (ص٩٣/٨).

وبذلك فإن إعفاء أسد من ولاية خراسان لم يتخذ شكل العزل، وإنما كتب إليه الأمير خالد بأن يستخلف على خراسان ويقدم إليه لأن أمير المؤمنين أذن له بأداء فريضة الحج، فاستخلف أسد على خراسان الحَكَمْ بن عوانة الكلبي. وغادر خراسان في موكب مهيب ومعه دهاقين خراسان في رمضان ١٠٩هـ واستقبله خالد في العراق استقبالاً يليق بمكانته كأمير وفاتح عظيم.

واستمر الحَكَمْ بن عوانة نائباً لأسد في خراسان مدة أشار الطبري إلى أنها (صيفية) وذلك حوالي ثلاثة أشهر، بينما مكث أسد بن عبد اللّه في العراق وأخبره خالد بأن ولايته لخراسان انتهت وأن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك سيولي على

خراسان أشرس بن عبد اللّٰه السلمي القيسي، وسيبقى أسد في العراق نائباً لخالد على العراق ومشارقها.

وأتى إذن هشام بن عبد الملك لخالد بأداء فريضة الحج، وبذلك بدأ أسد مهامه كنائب لخالد بالعراق في ذي العقدة ١٠٩هـ، بينما سار خالد لأداء فريضة الحج، وتَوَافَقَ ذلك مع حبس الشاعر الفرزدق، قال الأصفهاني: «وكان خالد قد حج واستخلف أخاه أسد بن عبد اللّٰه على العراق، ووافق عنده جريراً فوثب يشفع للفرزدق، فقال أسد: أتشفعُ له ـ أنت ـ يا جرير؟ فقال: إن ذلك أذلّ له أصلحك اللّٰه، وكلم أسد ابنه منذراً فخلى سبيله». وقال أبو عبيدة: «لما أنشد جريرٌ خالداً مِدْحَتَه أَمَرَ بإطلاق الفرزدق، فأُخرج إلى أسدٍ وهو يقول:

سَيُطْلِقُني أغَرُّ فَتىً يَمانٍ وقُلْ ما شِئْتَ في كَرَمِ الطَّليق»

فأطلقه الفتى اليماني الأغرّ أسد بن عبد اللّٰه الْقَسْري.

قال الطبري: «وعزل هشام بن عبد الملك أسد بن عبد اللّٰه عن خراسان واستعمل أشرس بن عبد اللّٰه السلمي عليها وأمره أن يكاتب خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري».

فلما وصل أشرس السلمي إلى خراسان سلم إليه الحَكَمْ بن عوانة الكلبي نائب أسد مقاليد الأمر في خراسان وذلك في شهر ذي القعدة أو ذي الحجة ١٠٩هـ وعاد الحَكَمْ بن عوانة إلى العراق فولاه خالد أميراً على بلاد السند.

وكان أشرس السلمي ذا نزعة قيسية وأرضت توليته على خراسان القيسية وتميماً، فقد ذكر الطبري أنه (كان أشرس لما قدم خُراسان كبر الناس فرحاً به، فقال رجل:

لَقَدْ سَمِعَ الرحمٰنُ تكبيرَ أمَّةٍ غداةَ أتاها من سليم إمامُها)

بينما قال يحيىٰ بن حضين ـ وهو من ربيعة ـ لما قَدِم أشرس أميراً لخراسان: (رأيتُ في المنام قائلاً يقول: أتاكم الوعر الصدر، الضعيف الناهضة، المشؤوم الطائر، الخائن قومه جغر.. وكان أشرس يُلقب جغرا بخراسان). وسار أشرس إلى سمرقند ـ أوائل سنة ١١٠هـ ـ فعزل أميرها اليماني الحسن الكندي واستعمل على سمرقند المجشر بن مزاحم السلمي القيسي فقام المجشر بحبس الشاعر ثابت قُطنة الأزدي لسان اليمانية بخراسان. ثم استعمل الأشرس على سمرقند والصُغد نصر بن سيار، وقام أشرس والذين معه بغزوة فاشلة إلى مناطق الترك الكفار ببلاد ما وراء النهر، فقال يحيىٰ بن حضين:

لَقَدْ ضَاعَ جَيشٌ كان جَغرٌ أميرَهُم فَهَل من تلافٍ قبل دوس القَبائلِ

وقام أشرس بفرض الجزية على من كان قد أسلم في بلاد السغد، «فكفرت السغد وبُخارى واستجاشوا بالترك»، ثم تصدوا لأشرس وللمسلمين، وتم الإفراج عن ثابت قُطنة، فقاتل ثابت قتالاً باسلاً حتى استشهد مع عدد كبير من المسلمين في أواخر سنة ١١٠هـ وسيطر الأعداء على بُخارى والسغد، وما لبث أن عزل هشام بن عبد الملك أشرساً عن ولاية خراسان سنة ١١١هـ، ولم تزل الأمور تزداد سُوءاً في خراسان إلى أن عاد أسد والياً عليها كما سيأتي بعد الإطلال على معالم أنباء خالد في الفترة التي مكث بها أسد بن عبد اللّٰه في العراق.

تاسعاً: معالم أنباء خالد القسري بالعراق إلى سنة ١١٦هـ

لقد كان من معالم أنباء عهد خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري بالعراق ما سلف تبيينه من أنه: «سعى خالد لإقرار السلام والنهوض بالعراق من الناحية الاقتصادية، فقد ساد العراق السلام والأمن في عهده الطويل، واحتفل بالزراعة، فجُففت البطائح واستصلح كثيراً من الأراضي البكر للزراعة، وشقّ الأنهار، وحققت جهوده المثمرة الرفاهية للبلاد».

وقد حج خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري سنة ١٠٩هـ وربما زار منطقته في اليمن، فقد كانت لآبائه وأجداده أموال وأراضٍ زراعية واسعة شاسعة، والظاهر أنه قام ببيع الكثير منها، فعندما عاد إلى العراق بعد أداء فريضة الحج، ـ في أوائل سنة ١١٠هـ ـ قام باستثمار أمواله الخاصة في مشاريع زراعية كبيرة واستصلح أراضي في سواد دجلة والكوفة وشق في أراضيه أنهاراً وقنوات فرعية، وكذلك في البصرة فقد ذكر البلاذري أن بلال بن أبي بردة عامل خالد على البصرة (احتفر نهر بلال وجعل على جنبتيه حوانيت ونقل إليها السوق وجعل ذلك ليزيد بن خالد الْقَسْري). وقال الطبري: (اعتقد خالد بالعراق أموالاً وحفر أنهاراً حتى بلغت عشرين ألف ألف). يعني مجموع ما بلغته أمواله الخاصة. وجاء في دراسة من تاريخ العراق أنه: «وُفِقَ خالد توفيقاً كبيراً في تنمية أمواله الخاصة علاوة على جهوده في تحقيق رفاهية البلاد، فجمع على الأيام ثروة طائلة». وكان يزيد بن خالد الْقَسْري هو الذي يدير أموال أبيه الخاصة.

وقد زعم الأصفهاني في كتاب الأغاني أنه: «كان خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري بخيلاً» ثم ذكر رواية عن بخل خالد هي إما أن صاحبها خالد بن عبد اللّٰه بن أسيد الأموي وليس خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري وإما أنها من الأكاذيب والتلفيقات التي رواها الأصفهاني عن أصحاب المثالب الشعوبيين والحاقدين على خالد الْقَسْري لأنه من عظماء الأمة اليمانيين، فالصحيح المتواتر أن خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري كان من الجود والكرم بمكان. قال الحافظ ابن كثير: (كان خالد الْقَسْري إذا جلس يوضع المال بين يديه ويقول إن هذه الأموال ودائع لا بد من تفرقتها). ومن أنباء جود وكرم خالد ذكر الحافظ ابن كثير أنه:

* ـ قال الأصمعي: دخل أعرابيٌّ على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري فقال: إنّي قد مدحتك ببيتين، قال: نعم، فأنشأ يقول: ـ

لَزِمْتَ نعمْ، حتّى كأنك لَمْ تَكُنْ سمعت من الأشياء شيئاً سوى نَعَمْ
وأنكرتَ لا، حتى كأنك لَمْ تكُنْ سمعت بها في سالف الدهر والأُمم

فأمر له خالد بعشرة آلاف درهم وخادم.

* ـ وقال الأصمعي: دخل أعرابيٌّ على خالد الْقَسْري فقال له: سل حاجتك، فقال: مائة ألف، فقال: أكثرتَ حُطَّ منها، قال: أضع تسعين ألفاً، فتعجب منه خالد، فقال: أيها الأمير سألتك على قدرك ووضعتُ على قدري، فقال له: لن تغلبني أبداً، وأمر له بمائة ألف.

* ـ وقال أبو العباس المبرِّد: أُتيَ خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بشاب قد وُجِدَ في دار قوم وادُّعيَ عليه بالسرقة، فسأله، فاعترف، فأمر بقطع يده، فتقدمت حسناء فقالت: (في ورقةٍ ناولته إياها): ـ

أخالد قد أوطأتَ واللّهِ عثرةً وما العاشقُ المسكينُ فينا بسارقِ
أقرَّ بما لم يجنِه غير أنه رأى القطعَ أولى من فضيحة عاشق

فأمر خالد بإحضار أبيها، فَزَوَجَها من ذلك الشاب وأمهرها عنه عشرة آلاف درهم.

* ـ وكان خالد سريع الحفظ لا يفرغ الشاعر من إلقاء القصيدة بين يديه حتى يكون قد حفظها، فذكر الأصمعي عن عمر بن الهيثم إن شيخاً إعرابياً شاعراً قدم على خالد فأنشده: ـ

إليكَ ابن كُرز الخيرِ أقبلتُ راغباً لتجبرَ مني ماوَهَىٰ وتبدّدا
إلى الماجدِ البهلولِ ذي الحلم والندى وأكرم خلقِ اللّهِ فرعاً ومحتدا
إذا ما أناسٌ قَصّروا بفعالهم نهضتَ فلم تلْقَ هنالكَ مقعدا
فيا لك بحراً يغمرُ الناسَ موجهُ إذا يُسألُ المعروفَ جاش وأزبدا
بلوتُ ابنَ عبد اللّهِ في كل موطنٍ فألفيتُ خيرَ الناس نفساً وأمجدا
فلو كانَ في الدنيا مِنَ الناسِ خالدٌ لجودٍ بمعروفٍ لكُنتَ مُخَلدا.

فحفظها خالد، وأنشده إياها، وقال: أيها الشيخ إن هذا شعر قد سبقناك إليه، فنهض الشيخ، فولى ذاهباً، فأتبَعَهُ خالد من يسمع ما يقول، فإذا هو يقول هذه الأبيات: ـ

ألا في سبيل اللّهِ ما كنتُ أرتجي لديه وما لاقيتُ من نكدِ الجهدِ
دخلتُ على بحرٍ يجودُ بمالِه ويعطي كثيرَ المالِ في طلبِ الحمدِ

فحالفني الجدُ المشومُ لشقوتي وقاربني نحسي وفارقني سعدي
فلو كانَ لي رزقٌ لديهِ لنلتهُ ولكنه أمرٌ منَ الواحدِ الفردِ

فرده إلى خالد وأعلمه بما كان يقول، فأمر له بعشرة آلاف درهم.

* ـ وذكر أبو علي القالي في كتاب الآمالي أنه: «دخل أعرابي على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري فقال: أصلح اللّه الأمير، شيخ كبير حَدَتْه إليك باريةُ العِظَام، ومُؤَرِّثة الأسقام، ومُطَوِّلة الأعوام، فذهبتْ أمواله، وذُعْذِعَتْ آبالُه، وتغيرت أحوالُه، فإن رأى الأمير أن يَجْبُرَهُ بفضله، ويَنْعَشَه بسَجْله، ويَرُدَّه إلى أهله. فقال خالد: كلّ ذلك. وأمر له بعشرة آلاف درهم.

قال أبو علي: بارية العظام: التي تَبْرِي العظام. وذُعْذِعتْ: فُرِّقت. والسَّجْل: الدلو الذي فيه ماء، وهو هاهنا مَثلٌ» (ص٤٧/ ٢).

* ـ وذكر الطبري في تاريخ الأمم والملوك أنه: «قَدِم زيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وداوود بن علي بن عبد اللّه بن العباس، على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وهو على العراق، فأجازهم، ورجعوا إلى المدينة». ثم ذكر الطبري في حادثة لاحقة أنه: «قال داوود بن علي: قَدِمتُ على خالد بالعراق فأمر لي بمائة ألف درهم».

ويتبين من ذلك أن خالداً أجاز وأمر لكل واحد من الثلاثة بمائة ألف درهم، لزيد مائة ألف، ولمحمد مائة ألف، ولداوود مائة ألف درهم. وقال الطبري: «إنّ خالداً ابتاع من زيد بن عليّ أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار، ثم ردَّ الأرض عليه». (ص٢٦٠، جـ٨).

ويدل ذلك كله على مدى تقدير خالد الْقَسْري لعلي بن أبي طالب وأسرته، كما يؤكد ما سلف تبيينه أن خالد بن عبد اللّه بن أسيد الأموي الذي كان أميراً بالعراق سنة ٧٢هـ هو الذي كان يلعن عليًا في المنابر وليس خالد بن عبد اللّه الْقَسْري كما ظن الأصفهاني وبعض الرواة الذين نسبوا ذلك إلى خالد الْقَسْري زوراً وبهتاناً، أو تشابه عليهم الاسم وغاب عنهم التحقيق، فإن ما كان يقال من لعن غير صريح للإمام علي في منابر العراق انتهى منذ خلافة سليمان وعمر بن عبد العزيز سنة ٩٦هـ، فزمن اللعن المزعوم انتهى قبل أن يتولى خالد الْقَسْري العراق بعشر سنوات، فلم يكن في عهد خالد الْقَسْري أي ذكر للإمام عليّ إلا بالخير والترحم عليه، وقيام خالد بتكريم زيد بن عليّ ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب هو من الشواهد التي لا تخطئ دلالتها على ذلك. وقد تواصلت العلاقة الطيبة بين خالد الْقَسْري وزيد بن عليّ حتى نهاية ولاية خالد للعراق عام ١٢٠هـ.

* * *

وكانت مدينة واسط بالعراق هي عاصمة ومقر خالد منذ بداية ولايته للعراق سنة ١٠٥هـ حتى نهاية ولايته سنة ١٢٠هـ، ومما يتصل بذلك جاء في خبر حبس ابن هبيرة الفزاري سنة ١٠٦هـ قول الشاعر:

لقد حَبَسَ الْقَسْريُّ في سجن واسطٍ ... فَتَى شَيْظَمِيًّا ما يُنَهْنِهُه الزَّجْرُ

وجاء في أخبار الفرزدق بكتاب الأغاني أنه: «هَجَا الفرزدقُ خالداً وذكر النهر المبارك الذي حفره بواسط، فكتب خالد إلى مالك بن المنذر ـ صاحب شرطة البصرة ـ: أن احبس الفرزدق.. ثم إن مالكاً وَجَّه الفرزدق إلى خالد، فلما قُدِم به عليه وجده قد حج، واستخلف أخاه أسد بن عبد اللّٰه على العراق، فحبسه بواسط.. ثم خلّى أسد سبيله». وذلك في ذي القعدة ١٠٩هـ.

وكان خالد مع إقامته بمدينة واسط يذهب إلى المدن الأخرى في زيارة تفقّديّه أو كلما اقتضت الأمور ذلك، ففي سنة ١١٠هـ ولّى خالد الحَكَمْ بن عوانة الكلبي أميراً على بلاد السند وبعثه في جيش من البصرة، وعندئذٍ سار خالد إلى البصرة وقام بجمع أعمال ولاية البصرة لبلال بن أبي بردة بن أبي موسىٰ الأشعري، وفي ذلك قال ابن الأثير: «وفي هذه السنة ـ سنة عشر ومائة ـ جمع خالد الْقَسْري الصلاة والأحداث والشرط والقضاء بالبصرة لبلال بن أبي بردة». فأصبح بلال أميراً والياً للبصرة وأقاليمها، وكان عامل خالد على بلاد فارس أبان بن الوليد البجلي، وعلى إقليم الريّ زياد بن عبيد اللّٰه بن عبد المدان الحارثي وقد ذكر الطبري نبأ توليته على إقليم الريّ سنة ١٠٥هـ، وقال: «وعلى قضاء الكوفة حسين بن حسن الكندي» (ص١٨١، جـ٨) وكان عامل خالد على شرطة الكوفة طارق بن أبي زياد، ثم جمع له خالد ولاية الكوفة بعد سنة ١١٠هـ، قال الجاحظ في البيان والتبيين:

«كان طارقٌ صاحبُ شُرَطِ خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْرِيّ، مرّ بابن شبرُمة، وطارقٌ في مَوكبِه، فقال ابن شُبرُمة: ـ

فإن كانت الدُّنيا تُحَبُّ فإنّها ... سَحابةُ صيفٍ عن قليل تَقَشَّعُ

اللّٰهم لي ديني ولهم دنياهم. فاستُعمل ابن شُبرمة بعد ذلك على القضاء، فقال ابنُه: أتذكرُ قولك يوم مَرّ طارقٌ في موكبِه؟ فقال: يا بُنَيَّ، إنّهم يجدون مثل أبيك، ولا يجدُ أبوك مثلَهم. يا بُنَيّ، إن أباكَ أكل من حَلْوائهم وحَطَّ في أهوائهم»[١].

ومما يدل على أن طارق بن أبي زياد أصبح عاملاً لخالد على الكوفة جاء في

---

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص١٤٦، جـ٣ ـ وابن شبرمة هو القاضي عبد اللّٰه بن شبرمة الكوفي. ولد سنة ٧٢هـ، ولاه أبو جعفر المنصور قضاء الكوفة، وتوفي سنة ١٤٤هـ.

تاريخ الطبري أنه: «ركب طارق بن أبي زياد من الكوفة إلى خالد وهو بواسط، فسار يوماً وليلة فصبّحهم، فرآه داود البَرْبَرِيّ وكان على حجابة خالد وحرسه وعلى ديوان الرسائل، فأعلم خالداً، فغضب وقال: قَدِم بغير إذن، فأذن له، فلما رآه قال: ما أقدمك؟ قال: أمر كنت أخطأت فيه، قال: ما هو؟ قال: (كذا وكذا).. فقال خالد: ارجع إلى عملك» (ص٢٥٣، جـ٨) فرجع طارق إلى عمله بالكوفة.

* * *

ومن أنباء الكوفة في ولاية خالد بن عبد اللّه الْقَسْري ما ذكره الأصفهاني وغيره من الرواة عن قيام خالد ببناء كنيسة في الكوفة. وقد خلطت رواية الأصفهاني خبر بناء الكنيسة بكثير من المزاعم والتلفيقات، فقد جاء في مزاعم رواية الأصفهاني ما يلي: «كانت أم خالد رومية نصرانية، فبنى لها كنيسة في ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة، فكان إذا أراد المؤذن في المسجد أن يؤذن ضرب لها بالناقوس وإذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى أصواتهم بقراءتهم، فقال أعشى همدان يهجوه ويعيره بأمه: ـ

لعمرك ما أدري وإني لسائل ... أبظراءُ أم مختونة أُم خالد

.. وقال الفرزدق يهجوه: ـ

بنى بيعة فيها الصليب لأمه ... وهَدّم من بُغضِ الإله المساجدا»

(ص٥٩، جـ١٩)

وقد شاعت تلك المزاعم في عدد من كتب التاريخ والأدب فقال أبو العباس المبرِّد في كتاب الكامل: «وكانت أم خالد نصرانية رومية، وكان أبوه استلبها في يوم عيد للروم فأولدها خالداً وأسداً. ولذلك يقول الفرزدق: ـ

.. بَنَى بيعةً فيها الصليبُ لأمِّه ... ويَهْدِمُ من بُغض الصلاة المساجدا

ويروى عنه فيما رُوِيَ من عُتُوِّهِ أنه اسْتُعْفِيَ من بيعةٍ بناها لأمِّه. فقال لَمَلأ من المسلمين: قَبَحَ اللَّهُ دينهم إن كان شَرًّا من دينكم». (ص٧٥، جـ٢/ الكامل) وكذلك ذكر أبو العباس المبرد ما رواه الأصفهاني من أنه: «استعان خالد الْقَسْري بالمجوس والنصارى، وولّاهم رقاب المسلمين» (ص٣٨٩، جـ٢).

ومن المفيد، بل من الضروري هنا تبيين الحقائق التالية: ـ

١ ـ لقد زعمت الروايات أن أم خالد الْقَسْري كانت رومية نصرانية، وقد شاع ذلك القول إلى الحد الذي يجعل المرء لا يشك في صحة ذلك، إلا أن ما ذكره أبو العباس المبرد عن أصحاب تلك الروايات بأن أم خالد «رومية نصرانية، استلبها

أبوه في يوم عيد للروم فأولدها خالداً وأسداً». يكشف عدم صحة تلك المزاعم والأكاذيب، فقد ثبت في تاريخ الطبري أن أسد بن عبد اللَّه الْقَسْري خطب في خراسان سنة ١٠٩هـ فقال:

«مَنْ يروم ما قِبَلي أو يترمرم، وأمير المؤمنين خالي، وخالد بن عبد اللَّه أخي، ومعي اثنا عشر ألف سيف يماني». ويتبين من ذلك أن أُم أسد هي أخت أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، وجاء في كتاب النقائض لأبي عبيدة معمر بن مثنى البصري، (قال جرير في خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري: ـ

تَمَكَّنْتَ في حَيَّيْ مَعَدٍّ مِنَ الذُّرَى وفي اليَمَنِ الأعْلَى كَرِيمَ المَوالِدِ
فُروعٍ وأصْلٍ مِنْ بَجِيلَةَ في الذُّرَى إلـى ابْـنِ نِـزارٍ كـانَ عَـمًّـا ووالِـدَ

قال أبو عبيدة: «يعني كريم الآباءِ والأُمهات»[1] وذلك لأن آباء خالد من زعماء قبيلة بَجِيلة الذين هم من ذُرَى بيوتات اليمن، وأم خالد وأسد من ذُرَى بيوت بني معد بن عدنان بن نزار وهم بيت أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي القريشي.

٢ ـ إن خبر بناء خالد كنيسة بالكوفة اقترن بهجاء أعشى همدان إياه في رواية الأصفهاني، بينما أعشى همدان مات سنة ٨٣هـ قبل أن يتولى خالد الْقَسْري العراق باثنتين وعشرين سنة، فخالد الذي هجاه أعشى همدان والفرزدق وكان يقيم بالكوفة إنما هو خالد بن عبد اللَّه بن خالد بن أَسيد الأموي القريشي عامل عبد الملك بن مروان سنة ٧١ ـ ٧٤ هجرية، وكانت أمه رومية نصرانية وقد يكون بَنَى لها بيعة بالكوفة لأنه كان يقيم بالكوفة استخلفه عليها بشربن مروان سنة ٧٣ ـ ٧٤هـ ثم عزل عبد الملك بن مروان خالداً وولّى على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٥هـ، بينما تولى خالد الْقَسْري العراق سنة ١٠٥ هجرية، وكان عمال خالد الْقَسْري بالعراق ومشارقها من القادة الأمراء العرب المسلمين ومن أحفاد الصحابة وخيار الناس في ذلك الزمن ولم يكن بينهم مجوسي ولا نصراني، وقد سلف ما ذكره ابن جرير الطبري عن عمال خالد الْقَسْري، وكذلك ذكر ابن الأثير عمال خالد الْقَسْري، وابن الأثير هو صاحب كتاب (أُسد الغابة في معرفة الصحابة)، قال ابن الأثير: ـ

ـ «في سنة خمس ومائة عزل هشام بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن العراق واستعمل خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري في شوّال، فسار خالد إلى العراق من يومه». (ص١٩٢/ ٤ ـ الكامل).

---

(١) النقائض ـ لأبي عبيدة البصري ـ ص٩٨٨/ ٢.

ـ «وفي سنة ست ومائة.. كان على العراق وخراسان خالد بن عبد الله الْقَسْري، وكان عامل خالد على البصرة، على صلاتها عقبة بن عبد الأعلى؛ وعلى شرطتها مالك بن المنذر بن الجارود؛ وعلى قضائها ثمامة بن عبد اللَّه بن أنس. وعلى خراسان أسد بن عبد اللَّه الْقَسْري». (ص١٩٧/ ٤) وكذلك «كان على قضاء الكوفة حسين بن حسن الكندي» (ص١٩٣/ ٤) بينما كان على شرطة الكوفة طارق بن أبي زياد، وكان عامل خالد على بلاد الريّ زياد بن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عبد المدان الحارثي وعلى فارس أبان بن الوليد.

ـ قال ابن الأثير: «ثم دخلت سنة سبع ومائة. وفي هذه السنة استعمل خالد الْقَسْري الجنيد بن عبد الرحمٰن على بلاد السند، . .وكان عمال الأمصار من تقدم ذكرهم في السنة التي قبلها». (ص١٩٥/ ٤) وكذلك (في سنة ١٠٨هـ كان العمال من تقدم ذكرهم في السنة قبلها».

ـ قال ابن الأثير: «ثم دخلت سنة تسع ومائة.. وفيها كتب هشام إلى خالد: إعزل أخاك عن خراسان، فعزله، فرجع إلى العراق في رمضان سنة تسع ومائة، واستخلف على خراسان الحَكَمْ بن عوانة الكلبي فأقام الحَكَمْ صيفية فلم يغز، ثم استعمل هشام أشرس بن عبد اللَّه السلمي على خراسان وأمره أن يكاتب خالد.. وكان على الكوفة والبصرة خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري، وكان قد استخلف على الصلاة بالبصرة أبان بن ضبارة اليزني وعلى الشرطة بها بلال بن أبي بردة، وعلى القضاء ثمامة بن عبد اللَّه بن أنس. وعلى خراسان أشرس السلمي». (ص٢٠٠ ـ٢٠١ جـ٤).

ـ قال ابن الأثير: «ثم دخلت سنة عشر ومائة.. وفيها جمع خالد الْقَسْري الصلاة والأحداث والشرط والقضاء بالبصرة لبلال بن أبي بردة، وعزل ثمامة عن القضاء؛ وفيها مات الحسن البَصْري ومحمد بن سيرين، وفيها ـ أعني سنة عشر ومائة ـ مات الفرزدق الشاعر وجرير بن الخطفي الشاعر» (ص٢٠٥، جـ٤ ـ الكامل).

وفي سنة عشر ومائة أيضاً: استعمل خالد على بلاد السند الحَكَمْ بن عوانة الكلبي، وجمع خالد أعمال الكوفة لطارق بن أبي زياد، وكان عامل خالد على البصرة بلال بن أبي بردة، وعلى فارس أبان بن الوليد البِجَلي، وعلى الريّ زياد بن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عبد المدان الحارثي المذحجي، وعلى خراسان أشرس بن عبد اللَّه السلمي، وكان أسد بن عبد اللَّه الْقَسْري مساعداً ونائباً لأخيه خالد بالعراق.

٣ ـ إن النبأ اليقين عن بناء كنيسة بالكوفة في ولاية خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري قد يعود إلى سنة ١١١هـ، فقد وافقت دولة الخلافة على بناء كنيستين للعرب المسيحيين إحداهما في مصر والأخرى في الكوفة بالعراق، وكان أمير مصر يومئذٍ الوليد بن

رفاعة بن خالد الفَهْمي اللخمي اليماني، وكان الوليد صاحب الشرطة بمصر (قائد قوى الأمن) إلى سنة ١٠٧هـ ثم ولاه هشام بن عبد الملك على مصر سنة ١٠٩هـ فأصبح الوليد بن رفاعة والياً لمصر من سنة ١٠٩ ـ ١١٧هـ، وجاء في ترجمته أنه: «أذن الوليد بن رَفاعة أمير مصر ببناء كنيسة بالحمراء، عُرفت بعد ذلك بأبي مينا، فثار وهِيْب اليحصبي، فَقُتل، فخرج القُراء بالفسطاط غضباً لمقتله، فأصلح الوليد بن رفاعة الأمر بالقبض على قتلة وهيب، وسكنت الفتنة، واستمر الوليد والياً على مصر إلى أن توفي سنة ١١٧هـ (٧٣٥م. وحُمدت سيرته»[١].

ففي السنة التي أذن فيها الوليد بن رفاعة أمير مصر ببناء كنيسة للمسيحيين الأقباط بالحمراء في مصر، وذلك سنة ١١١هـ أو سنة ١١٢هـ، أذن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير العراق ببناء كنيسة للعرب المسيحيين بالكوفة، ولم يكن بناء الكنيسة لأمِّه كما في الشعر المكذوب على الفرزدق أنه قال: «بنى بيعة فيها الصليب لأمِّه»، وهو شعر مكذوب على الفرزدق لأن الفرزدق مات سنة ١١٠هـ بينما بناء الكنيسة كان سنة ١١١هـ بعد موت الفرزدق بسنة، وكانت أم خالد مؤمنة مسلمة وقد ماتت بدمشق قبل ذلك بنحو ست سنوات غالباً. ويتمثل السبب الصحيح لقيام خالد ببناء كنيسة بالكوفة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان قد أجْلَى نصارى نجران العرب اليمانيين من منطقة نجران باليمن، وقد ذكر محمد حميد اللّه وثائق ذلك بكتاب الوثائق السياسية وجاء فيها أنه: «كتب عمر بن الخطاب لنصارى نجران وقت إجلائه إياهم: بسم اللّه الرحمٰن الرحيم، هذا ما كتب عُمر أمير المؤمنين لأهل نجران مَن سار منهم آمن بأمان اللّه، لا يضره أحد من المسلمين. . فَمَنْ مرُّوا به من أُمراء الشام والعراق، فليُوسعهم من حرث الأرض، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقةً لوجه اللّه، وعقبةً لهم مكان أرضهم، لا سبيل عليهم فيه لأحد، ولا مغرم. فَمَنْ حضرهم مِن رَجُل مسلم، فَلْينصرهم على من ظلمهم، فإنهم أقوام لهم ذمة). . فوقع ناسٌ منهم بالعراق، فنزلوا النجرانية التي بناحية الكوفة»[٢]. فأولئك هم الذين أذن لهم خالد بن عبد اللّه الْقَسْري ببناء كنيسة في منطقتهم بالكوفة وليس في ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة كما زعمت رواية الطبري، وقد كان بالعراق جماعة من اليهود والمجوس، ويبدو أنهم كلموه في بناء معبد لهم كما أذن ببناء الكنيسة لنصارى نجران الذين بالكوفة، فلم يأذن خالد بذلك وقال لهم في مَلأ من المسلمين: (قَبّحَ

(١) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ترجمة الوليد بن رفاعة أمير مصر ـ ص٦٣٩.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد اللّه ـ ص١٩٣ ـ ١٩٤.

اللَّه دينهم إن كان شرًا من دينكم). فزعم بعض ذوي الأهواء أنه قال ذلك للمسلمين وإنما قال ذلك لجماعة من المجوس أو اليهود، فلم يعترض أحد من المسلمين على بناء البيعة أو الكنيسة لنصارى نجران الذين بالكوفة تعبيراً عن سماحة الإسلام.

وأما ما جاء في الشعر المكذوب على الفرزدق أنه قال في خالد: «ويَهْدِمُ من بُغض الصلاة المساجد» وفي رواية أخرى: «ويَهْدِمُ من بُغضِ منارَ المساجد» فقد جاء في رواية المبرِّد أنه: «كان سبب هدم خالد مَنار المساجد حتى حَطَّها عن دُورِ الناس، أنه بلغه شعرٌ لرجل من الموالي وهو: ـ

ليتني في المؤَذِّنين حياتي	إنهم يُبْصِرونَ مَن في السُّطوح
فَيشيرونَ أو تُشيرُ إليهم	بالهَوَىَ كلُّ ذات دَلٍّ مليح

فحطها عن دور الناس». (ص٧٥/ ٢ ـ الكامل) ـ ويتصل ذلك بمُصلى الكوفة، وكان المُصلى وسط دور الناس وكان ضيقاً وله منارة من طين، فقام خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري بهدم ذلك المصلى وبناء مُصلى كبير بالكوفة ذا منارات عالية، بناه بالحجر والأعمدة وقام بتزيينه وتفخيمه أحسن زينة. وقد ذكره ابن جرير الطبري في أخبار زيد بن علي بالكوفة سنة ١٢٢هـ قائلاً: «ثم إن زيداً أخذ ذات اليمين على مصلى خالد بن عبد اللَّه حتى دخل الكوفة». (ص٢٧٤، جـ٨).

وقد كانت عامرة بالعلماء وبوجوه رؤساء العرب وأحفاد الصحابة في عهد خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري وكانوا شاكرين لأيامه ولسيرته الحميدة، وكان رجالات عهد خالد بالكوفة من وجوه العرب وأحفاد الصحابة، ومنهم رؤساء أرباع الكوفة في عهد خالد فقد ذكر الطبري أنه: «كان على أرباع الكوفة: على ربع أهل المدينة إبراهيم بن عبد اللَّه بن جرير البِجلي، وعلى ربع مذحج وأسد عمروبن أبي بذل العبدي، وعلى كندة وربيعة المنذر بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وعلى ربع تميم وهمدان محمد بن مالك الهمداني الخيواني». (ص٢٧٣، جـ٨) ـ فإبراهيم بن عبد اللَّه بنص جرير البجلي هو حفيد الصحابي الفاتح جرير بن عبد اللَّه البِجَلي، والمنذر بن محمد بن الأشعث هو حفيد الصحابي الفاتح الأشعث بن قيس الكندي، ومحمد بن مالك الهمداني يبدو أنه حفيد الصحابي مالك بن نمط الهمداني رائد وفد همدان إلى رسول اللَّه ﷺ، وكان من أعلام الشخصيات أيضاً زياد بن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عبد المدان الحارثي المذحجي وهو من أحفاد الصحابة ومِنْ فرسان اليمن الزعماء، وكان بنو عبد المدان بن الديان الحارثي زعماء منطقة نجران باليمن منذ الجاهلية وفي الإسلام، وقد استعمل خالد الْقَسْري زياد بن عبيد اللَّه على إقليم الريّ التابع لولاية الكوفة، وزياد هذا هو خال أبي العباس السفاح عبد اللَّه بن

محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب، فوالدة أبي العباس هي ريطة بنت عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عبد المدان الحارثي أخت زياد عامل خالد الْقَسْرِي على بلاد الريّ[١]. وكان عامل خالد على الكوفة طارق بن أبي زياد، وقد ذكر الجاحظ طارقاً بأنه صاحب شرطة خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بالكوفة، وقد كان يزيد بن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري مقيماً بالكوفة وله دار وأموال وأسرة وموالٍ بالكوفة في عهد ولاية أبيه خالد للعراق، مما يشير إلى أنه ربما كان من عمال أبيه خالد على الكوفة ما بين سنة ١١٠هـ وسنة ١٢٠هـ وقد ذكر الطبري في أحداث سنة ١٢٠هـ أن عامل خالد بالكوفة كان طارق بن أبي زياد، ولم يذكر أن يزيد بن خالد كان عاملاً بالكوفة، وكان على القضاء بالكوفة حسين بن حسن الكندي، فأولئك هُمْ عمال ورجال عهد خالد الْقَسْري بالكوفة.

وقد كان خالد الْقَسْري ذا اجتهاد على العبادة والخير، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان بالكوفة شاعر يُقال له عمار ذي كناز بن عمرو بن عبد الأكبر، فقام خالد بإيقاف صرف عطاء عمار ذي كناز، قال الهيثم بن عدي: «وحضر عمار مع همدان لقبض عطائه، فقال له خالد: ما كنتُ لأعطيك شيئاً، قال: ولم أيها الأمير؟ قال: لأنك تنفق المال في الخمر والفجور، فقال: هيهات ذلك، وهل بَقّى لي أرب في هذا». ثم أنشده أبياتاً بأنه قد بلغ من الكبر عتياً وانتهى عن الخمر، قال الهيثم: «فضحك خالد وأمر بعطائه، فلما قبضه قضى دينه، وأصلح حاله، وعاد لما كان عليه». ثم قدِم خالد إلى الكوفة فبلغه أن عمار ذا كناز قد عاد إلى معاقرة الخمر والأخلاق السيئة، فأوقف خالد عطاءه، فذكر الأصفهاني في كتاب الأغاني عن أبي اليقظان أنه: ـ

«دخل عمار ذو كناز على خالد الْقَسْري بالكوفة فلما مثل بين يديه صاح أيها الأمير: ـ

أخلقت ريطتي وأودى القميصُ ... وإزاري والبطن طاوٍ خميصُ

قال خالد: فلنصنع ماذا؟ ما كل من أخلقت ثيابه كسوناه، فقال: ـ

وخلا منزلي فلا شيء فيه ... لستُ ممن تجني عليه اللصوصُ

---

(١) كان أبو العباس السفاح يقال له: (ابن الحارثية) وهو أول الخلفاء العباسيين. قال ابن خلدون: «لما استقام الأمر لأبي العباس السفاح وهو عبد اللّه بن الحارثية.. وَلّى سنة ١٣٣هـ على الحجاز واليمامة خاله زياد بن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عبد المدان الحارثي، وولّى على اليمن محمد بن يزيد بن عبد اللّه بن عبد المدان الحارثي». وقد مكث زياد والياً على الحجاز ومكة واليمامة من ربيع الأول ١٣٣هـ حتى وفاة أبي العباس في ذي الحجة ١٣٦هـ ثم استمر والياً على الحجاز في خلافة أبي جعفر المنصور إلى سنة ١٤١هـ ـ (اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٠٢).

فقال له خالد: ذلك من سوء فعلك وشربك الخمر بما تُعطاه، فقال: ـ

واستحل الأمير حبس عطائي ... خالدٌ إن خالداً لحريصُ
ذو اجتهاد على العبادة والخير ... ولكن في رزقنا تعويصُ

فقال خالد: علامَ تقبض العطاء ولا غناء فيك عن المسلمين، فقال: ـ

رخّص اللَّهُ في الكتاب لذي العذر ... وما عند خالدٍ ترخيصُ

فقال: أَوَلم نرخص لذي العذر أن يقيم ويبعث مكانه بديلاً، فقال: ـ

كلف البائس الفقير بديلاً ... هل له عنه معدل أو محيصُ
العليل الكبير ذا العرج الظا ... لع، أعشى بعينه تنحيصُ

ثم قال: ـ

يا أبا الهيثم المبارك جُدّ لي ... بعطاء ما شَانَهُ تنغيصُ
وبرزقي فإننا قد رزحنا ... من ضياع وللعيال بصيصُ
كبصيص الفرخين ضمهما العـ ... ـش، وغاديهما أسيرٌ قنيصُ

فدمعت عينا خالد وأمرله بعطائه»[1].

واتخذ خالد إجراءات ضد انتشار مجالس الأغاني والفساد بالعراق، ثم بلغه أن الناس يرتادون مكاناً في واسط فيه خمس مغنيات أو ست، قال المدائني: «قال خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري لصاحب الشرطة: يا عربان أعجزت عن الشُرط حتى أُولّي غيرك فإن الغناء قد فشا وظهر، قال: لم أعجز وإن شئت فاعزلني، فقال له: خذ المغنيات، فأحضره خمساً منهم أو ستاً»، فلما مثلن بين يدي خالد، قالت سيدتهن إنها تغنّي شعراً ليس فيه مجون، فأمرها خالد بالغناء، فغنت: ـ

إلى خالد حتى أنخن بخالد ... فَنِعم الفتى يُرجى، ونِعْم المؤملُ

فقال: اعدلي عن هذا إلى غيره، فغنت: ـ

أروحُ إلى القصاص كل عشية ... أُرَجّي ثواب اللَّه في عدد الخطا

فأمر خالد بإحضار القصاص المصري، فلما حضر قال له خالد: أكانت هذه تروح إليك؟ قال: لا وما مثلها يروح إليّ، فقال خالد: خذ بيدها، ووهبها له. وكان مولاها بالباب فسأل عنها فقيل له: وهبها خالد للقصاص، فدخل مولاها إلى خالد فاشتراها خالد منه بمائتي دينار»، ثم أصبحت تلك المغنيّة عندالقصاص امرأة

---

(١) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص١٧٤، جـ٢٠ ـ وترجمة الكميت ـ ص١٢٢، جـ١٥.

شريفة وتابت إلى اللّه. وبتلك الوسائل الحكيمة اختفت مجالس اللهو والفساد في ولاية خالد الْقَسْري للعراق.

قال الأصفهاني: «ودخل الكميت بن زيد الأسدي على خالد الْقَسْري فأنشده قوله فيه: ـ

لو قيل للجود من حليفك ما	إن كان إلا إليك ينتسبُ
أنت أخوه، وأنت صورته،	والرأس منه، وغيرك الذنبُ
أحرزت فضل النضال في مهل	فكل يوم بكفك القصبُ
لو أن كعباً وحاتماً نُشِرا	كانا جميعاً مِن بعضِ ما تهبُ
لا تختلف الوعد إن وعدت ولا	أنت عن المعتفين تحتجِبُ
ما دونك اليوم من نوال ولا	خلفك للراغبين مُنْقَلَبُ

فأمر له بمائة ألف درهم»[١].

أنباء الِفتن ومواجهة خالد لأهل البدع والضلال

قال الحافظ ابن كثير: «كان خالد بن عبد اللّه الْقَسْري قائماً في إطفاء الضلال والبِدع كما قَدمْنَا من قتلَه للجعد بن درهم وغيره من أهل الإلحاد»[٢] ولا يتعارض ذلك مع ما جاء في دراسات تاريخ العراق من أنه: «سعى خالد لإقرار السلام والنهوض بالعراق من الناحية الاقتصادية فقد ساد العراق السلام والأمن في عهده الطويل». وذلك قياساً على العهود السابقة فقد كانت أيام ولاية الحجاج للعراق (٧٥ ـ ٩٥هـ) حافلة بالفتن والحركات والثورات وسقط فيها عشرات الآلاف من القتلى وقام الحجاج بإعدام الآلاف ومات وفي سجونه بالعراق زهاء ثلاثين ألف سجين، ثم كان لثورة يزيد بن المهلب سنة ١٠١ ـ ١٠٢هـ عدد كبير من الضحايا، ويقول د. ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق «فقدت اليمانية سيطرتها في العراق إثر فشل ثورة آل المهلّب وما تبع ذلك من استئصال وتنحية من يمت إليهم بصلة القربى أو الولاء من إدارة الدولة.. وتولى العراق عمر بن هبيرة الفزاري (١٠٣ ـ ١٠٥هـ) ذلك القيسي المتطرف في قيسيته والذي نالت على يديه الأزد واليمانية بصورة عامة الهوان حتى أزعج مُضَّرَ نفسها بتصرفاته السيئة البعيدة عن روح السياسة الحكيمة.. إلا أن مجيء هشام بن عبد الملك حال دون استمرار النفوذ القيسي العنيف خاصة بعد أن عُزل عمر بن هبيرة وجيء بخالد بن عبد اللّه الْقَسْري (١٠٥ ـ

---

(١) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص١٧٤، جـ٢٠ ـ وترجمة الكميت ـ ص١٢٢، جـ١٥.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٢١، جـ١٠.

١٢٠هـ) بدلاً عنه، ولا يخفى أن خالداً هذا وإن كان ذا نزعة يمانية إلّا أن هذا الشعور لم يطغ على سياسته بالشكل الذي يجعله منساقاً وراء الأهواء.. ولا نغفل أن العراق في هذه الفترة من تاريخه بدأ يميل إلى الهدوء.. واتجه الناس إلى نوع من التعمير، بينما اتجه قسم آخر إلى التنظيم الحربي»[1].

وقد وصف الشاعر جرير سياسة خالد الْقَسْري والاستقرار الأمني في عهده ومواجهته لأهل الضلال والبدع في قصيدته الدالية التي أثنى فيها على خالد قائلاً: ـ

لَقَدْ كانَ داءٌ بِالعِراق فما لَقُوا ... طبيباً شَفَى أدْواءَهُمْ مثل خالدِ

شَفاهُمْ بِحِلْمٍ خَالَطَ الدِّينَ والتُّقى ... ورأفَةَ مَهْدِيٍّ إلى الحَقِّ قاصِدِ

وإنّ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ قد عُرِفَتْ لهُ ... مَواطِنُ لا تُخْزِيهِ عند المشاهِدِ

فكيف يَرومُ الناسُ شيئاً مَنَعْتَهُ ... لها بين أنْياب اللُّيوثِ الحَوارِدِ

إذا ما لَقيتَ القِرْنَ في حارَة الوَغا ... تَنَفَّسَ مِنْ جَيّاشَةٍ ذاتِ عانِدِ

وإن فَتَنَ الشَّيطانُ أهلَ ضلالَةٍ ... لَقُوا مِنْكَ حَرْباً حَمْيُها غَيْرُ بَارِدِ

إذا كان أمْنٌ كان قَلْبُكَ مُؤمِناً ... وإن كانَ خَوْفٌ كُنْتَ أَحْكَمَ ذائِدِ

وكان من أنباء الفتن ومواجهة خالد لأهلَ الضلال والبدع: ـ

١ ـ خبر الجعد بن درهم الذي أعدمه خالد

قال الحافظ ابن كثير: «روى البخاري في أفعال العُباد، وابن أبي حاتم في كتاب السنة، وغير واحد ممن صَنَّفَ في كتب السنة، أن خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري خطب الناس في عيد أضحى فقال: أيها الناس ضحوا يقبل اللَّه ضحاياكم، فإنّي مُضَحٍّ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسىٰ تكليماً، تعالى اللَّه عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً. ثم نزل فذبحه.. قال غير واحد من الأئمة: كان الجعد بن درهم من أهل الشام وهو مؤدب مروان الحمار ولهذا يقال له مروان الجعدي، نسب إليه. وهو شيخ الجهم بن صفوان الذي تُنسب إليه الطائفة الجهمية الذين يقولون إن اللَّه في كل مكان بذاته، تعالى اللَّه عما يقولون علواً كبيراً.

وكان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم، عن خاله لبيد بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ في مشط وماشطة وجف طلعة ذكر له، وتحت راعوفة ببئر ذي أروان الذي كان ماؤها نقاعة الحناء. وقد ثبت الحديث بذلك في الصحيحين وغيرهما». [ص١٩، جـ١٠/ البداية والنهاية].

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٦٠.

ويمكن القول إن إعدام الجعد بن درهم لم يكن برأي خالد الْقَسْري وحده، وإنما كان رأي العلماء ورجال القضاء أيضاً، وكان العلماء معروفون جذور أقوال الجعد. ثم عدم قدرته على التعبير عن بعض مقولاته بأسلوب يمكن التعاطي معه، وتمسكه بألفاظ وتعبيرات تتعارض مع صريح القرآن الكريم، كل ذلك قد دفع رجال القضاء والأمير خالد إلى الحكم الذي أعلنه خالد وتم تنفيذه يوم الأضحى.

٢ ـ خروج المغيرة بن سعيد الكذاب وأصحابه

قال الطبري: «خرج المغيرة بن سعيد وبَيّان في نفر فأخذهم خالد الْقَسْري ـ أما المغيرة بن سعيد فإنه كان فيما ذُكِر ساحراً. حَدَّثنا ابن حُمَيد قال حدثنا جرير عن الأعمش قال: سمعت المغيرة بن سعيد يقول: لو أردتُ أن أحيي عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً لأحييتهم، وكان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم فَيُرى مثل الجراد على القبور. وذكر أبو نعيم عن النضر بن محمد عن محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى قال: قَدِم علينا رجل من أهل البصرة يطلب العلم فكان عندنا (بالكوفة) فأمرتُ جاريتي يوماً أن تشتري لي سمكاً بدرهمين، ثم انطلقت أنا والبَصْري إلى المغيرة بن سعيد فقال لي: يا محمد أتحبُّ أن أخبرك لِمَا افترق حاجباك؟ قلت: لا. قال: أفتحبُّ أن أخبرك لم سَمّاك أهلك محمداً؟ قلت: لا. قال: أما إنك قد بعثت خادمك يشتري لك سمكاً بدرهمين. فنهضنا عنه.. ثم خرج المغيرة بن سعيد في سبعة نفر وكانوا يُدعون الوصفاء وكان خروجهم بظاهر الكوفة، فأُخبر خالد الْقَسْري بخروجهم وهو على المنبر، فقال: اطعموني ماءً، فنعى ذلك عليه ابن نوفل..»[١].

ثم ذكر الطبري شعراً منسوباً إلى يحيىٰ بن نوفل هجا به خالداً لأنه قال: (أطعموني ماءً) وقد ذكر الأصفهاني ذلك الشعر وأضاف إليه بعض الرواة أبياتاً غير صحيحة، والمقصود أن خالد بن عبد اللّٰه أخبروه وهو على المنبر بخروج المغيرة بن سعيد مع أصحابه الثمانية الذين سماهم الوصفاء وكانوا من العجم، وقد شاع أن أهل القبور سيقومون ـ ومعهم جعفر ـ لأن شيئاً مثل الجراد ظهر على القبور، فلما أخبروا خالداً بذلك وهو على المنبر قال: أطعموني ماءً، وارتج عليه، فقال ابن نوفل ـ فيما بعد ـ ينعى ذلك على خالد شعراً يصح منه بيتان ذكرهما الجاحظ في البيان والتبيين أنه (قال ابن نوفل: ـ

تقُولُ لِمَا أصابكَ أطعموني شراباً (ثمّ بُلْتَ) على السّريرِ
لأعْلَاجٍ ثمانيةٍ وشيخ كبيرِ السِّنِّ ذي بصَرٍ ضريرِ[٢]

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٤١، جـ٨.

(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٢٠٥، جـ٣.

ولعل الأصوب أن عجز البيت الأول (شراباً ما ثَبّت على السرير)، وجاء في هامش البيان والتبيين «كان من قصة هذا الشعر أنه خرجت الجعفرية على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وهو يخطب على المنبر وهو لا يعلم بهم، فخرجوا في التبابين ينادون: لبيك جعفر، لبيك جعفر. وعرف خالد خبرهم وهو يخطب على المنبر، فدهش فلم يعلم ما يقول فزعاً، فقال: أطعموني ماء»[١]. وما لبث أن استعاد خالدٌ رباطة جأشِه، وعَبّر بإيمانه العميق أنه لا يحيي الموتى إلا اللّه عز وجل وليس يقوم أهل القبور إلا يوم القيامة، وأرسل خالد قوة من الشرطة والناس فقبضوا على المغيرة بن سعيد الكذاب وأصحابه الوصفاء الأعلاج السبعة أو الثمانية وبينهم المدعو بَيّان وآخرون من بينهم مالك بن أعين الجهنيّ. واجتمع خالد بالعلماء والقضاة فأجمعوا على أن المغيرة والذين معه سحرة كفار وأن المغيرة يدّعي الألوهية ويجب إحراقهم وقتلهم. قال الطبري: (قال أبو نعيم: كان المغيرة قد نظر في السحر فأخذه خالد الْقَسْري فقتله وصلبه.. وقال عمرو بن حُريث: رأيتُ خالداً حين أُتي بالمغيرة وبيّان في ستة رهط أو سبعة، أمر بسريره فأخرج إلى المسجد الجامع، وأمر بأطنان قصب ونفط فأحضرا..». قال الحافظ ابن كثير: (أمر خالد برجل من أصحاب المغيرة فضُربت عنقه، ثم قال للمغيرة: أحيه. وكان المغيرة يزعم أنه يُحيي الموتى. فقال: أصلحك اللّه ما أحيي الموتى، فقال خالد: لتحيينه أو لأضربن عنقك، قال: واللّه ما أقدر على ذلك. ثم أمر بطن قصب فأضرموا فيه ناراً ثم قال للمغيرة: اعتنقه. فأبَى. فتقدم رجل من أصحابه فاعتنق النار. قال أبو بكر بن عياش: فرأيتُ النار تأكله وهو يشير بالسبابة ـ (يعني إلى المغيرة، وأنه سيُحيني) ـ فقال خالد للمغيرة: هذا واللّه أحق بالرياسة منك. ثم قتله وقَتَل أصحابه). قال الطبري (أمر خالد بالمغيرة والرهط فَقُتلوا، ثم أمر بيّاناً آخرهم فقدم إلى الطن ـ الملتهب ـ مبادراً فاحتضنه، فقال خالد: ويلكم في كل أمر تحمقون هلا رأيتم هذا المغيرة ثم أحرقه. قال أبو زيد: لما قتل خالد المغيرة وبياناً أرسل إلى مالك بن أعين الجهنيّ، فسأله، فصدّقه عن نفسه، فأطلقه، (يعني صدّقه بأنه لا يؤمن بأن المغيرة يحيي الموتى)، فلما خلا مالك بن أعين بِمن يثق به وكان فيهم أبو مسلم الخراساني قال: ـ

ضَرَبْتُ له بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ لاحِباً وطِنْتُ عَلَيْهِ الشَّمْسَ فيمَنْ يطينُها
وألـقَيْتُهُ في شُبْهةٍ حِينَ سالني كما اشتَبَهَا في الخَط سِينُ وشِينُها

فقال أبو مسلم حين ظهر أمره: لو وجدتُه ـ يعني مالكاً ـ لقتلتُه بإقراره على

---

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص٢٠٥، جـ٣.

نفسه». (ص٢٤١/ ٨). والظاهر أن أبا مسلم كان في السجن لما قال مالك بن أعين ذلك الشعر، لأن خالداً حبس أبا مسلم الخراساني وسيأتي خبر ذلك: وقد عاب خصوم خالد عليه قوله: (أطعموني ماءً) كما في شعر ابن نوفل. قال الجاحظ «وقال الكميت: ـ

حَلفتُ بربِّ الناسِ: ما أمُّ خالدِ ... بأمِّكَ إذْ أصواتُنا الهَلُ والهَبُ
ولا خالدٌ يستَطعِمُ الماءَ قائماً ... بعذْلِكَ والدَّاعي إلى الموتِ ينعَبُ

وجاء في هامش البيتين أنه (لما قَدِم يوسف بن عمر ـ أميراً للعراق ـ دخل عليه الكميت وقد مدحه بعد قتله زيد بن علي فأنشده قوله فيه: ـ

خرجت لهم تمشي البراح ولم تكن ... كَمَن حصنه فيه الرتاج المضبب
وما خالدٌ يستطعم الماء فاغراً ... بعِذْلِكَ والدَّاعي إلى الموت ينْعَبُ

وكان الجند قياماً على رأس يوسف بن عمر، وهم يمانية، فتعصبوا لخالد فوضعوا سيوفهم في بطن الكميت ففاجأوه بها وقالوا: أتنشد الأمير ولم تستأذنه. فلم يزل ينزفه الدم حتى مات». (٢٠٥/ ٣ ـ البيان والتبيين). وكان ذلك بعد انتهاء ولاية خالد للعراق، وكان للكميت دور في خلق العصبية وتأجيج الفتن والتحريض على خالد وأسد وسيأتي نبأ ذلك.

ومما يلحق بقول خالد وهو في المنبر (أطعموني ماءً)، قال أبو علي القالي في كتاب الأمالي: ـ

«صعِد خالد بن عبد اللّه الْقَسْري يوماً المنبر بالبصرة ليخطب فارْتِج عليه، فقال: أيها الناس، إن الكلام ليجيء أحياناً فيتسَّبب سَبَبُه، ويَعْزُب أحياناً فَيَعِزُّ مَطْلَبُه؛ فربما طُولِب فأبَى، وكُوبِر فَعَصى؛ فالتَّأتِّي لمجِيِّه أصوب من التعاطي لأبِيِّه. ثم نزل. فما رُئِيَ حَصِرٌ أبلغُ منه»[1].

٣ ـ خروج رَزِين الذي ادّعى النبوءة بالكوفة وقَتْلُهُ

قال الطبري: «خرج رَزِين على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بالكوفة فأعطاه الأمان ثم لم يَفِ به» وفي ذلك قال للكميت بن زيد الأسدي في أبيات له يحرّض على خالد الْقَسْري وأخيه أسد لما تولى أسد خراسان للمرة الثانية سنة ١١٦هـ؛ قال الكميت: ـ

ومَـنْ وَلَّـى بـذِمَّـتِـه رَزِيـنـاً ... وَشِيـعَـتَـهُ ولَـمْ يُـوفِـي بِـعَـهْـدِ

(١) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص١١١، جـ١.

وكان خالد قد أعطى رَزِيناً الأمان، وقد ذكر الحافظ ابن كثير خبره ولم يذكر اسمه وإنما قال: «تنبأ رجلٌ بالكوفة. فقال له خالد ـ (بعد أن أعطاه الأمان) ـ: ما علامة نبوءتك؟ قال: قد نزل علي قرآن. ثم قال: إنا أعطيناك الكماهر، فصل لربك ولا تجاهر، ولا تُطع كل كافر وفاجر. فأمر به خالد فَصُلب. فقال: إنا أعطيناك العمود، فصل لربك على عود، فأنا ضامن لك ألا تعود».

٤ ـ خروج بهلول وجماعته من الخوارج

وفي حوالي سنة ١١٣هـ ظهرت مجموعة من الخوارج بقيادة بهلول بن بشر المُلقب كثارة، وقد ذكر الطبري خبره وكذلك أخبار غيره من الذين خرجوا على خالد في أحداث سنة ١١٩هـ، ولكنها لم تكن جميعها في تلك السنة وإنما جمعها الطبري في موضع واحد وذكرها في تلك السنة الأخيرة من عهد خالد، فحادثة خروج بهلول تزامنت مع أمر يدل على الزمن وهو قيام خالد ببعث إمدادات إلى الحَكَمُ بن عوانة الكلبي عامله على بلاد السند، وذلك ما بين سنة ١١٢ وسنة ١١٤هـ.

وقد ذكر الطبري عن أبي عبيدة البَصْري: «أن بهلولاً كان يتألّه، وكان له قوت دانق، وكان مشهوراً بالبأس عند هشام بن عبد الملك فخرج يريد الحج.. وعزم على الخروج على السلطان فلقي بمكة من كان على مثل رأيه، فاتعدوا قرية من قرى الموصل، فاجتمع بها أربعون رجلاً، وأمّروا عليهم البهلول، وأجمعوا على أن لا يمروا بأحد إلا أخبروه أنهم أقبلوا من عند هشام بن عبد الملك على بعض الأعمال وأنه وجههم إلى خالد لينفذهم في أعمالهم، فجعلوا لا يمرون بعامل إلا أخبروه بذلك، وأخذوا دواب من دواب البريد، فانتهوا إلى قرية من السواد فسمعوا من عاملها كلاماً، فقال بهلول: نبدأ بهذا العامل الذي قال ما قال، فقال له أصحابه: نحن نريد قتل خالد فإن بدأنا بهذا شُهِرنا وحَذّرنا خالد وغيره فننشدك الله أن لا تقتل هذا فيفلتُ منّا خالد الذي يبني البيع والكنائس، فقال: والله ما أدَعُ ما يلزمني لما بعده وأرجو أن أقتل هذا العامل وأدرك خالداً فأقتله، وقد قال الله عز وجل: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، فأتى إلى العامل فقتله، فنذِر بهم الناس وعلموا أنهم خوارج، وسارت البُرُد إلى خالد فأخبروه أن خارجة قد خرجت وهم لا يدرون حينئذٍ مَنْ رئيسهم.

وكان خالد خرج من واسط حتى أتى الحيرة وهو حينئذٍ في الخلق، وقد قَدِم في تلك الأيام قائد من أهل الشام من بني القين في جيش قد وُجِّهوا مدداً لعامل خالد على الهند ـ الحَكَمُ بن عوانة ـ فنزلوا الحيرة، فلذلك قصدها خالد». (ص٢٤٢/ ٨).

* ـ وقد سلف ذكر نبأ عمال خالد على بلاد السند، وفي ذلك قال ابن الأثير:

«في سنة سبع ومائة استعمل خالد الْقَسْري الجنيد بن عبد الرحمٰن على السند فنزل شط مهران، فمنعه جيشبة بن داهر من العبور ـ (والأصوب: حليشة بن داهر) ـ. . فأخذ الجنيدُ جيشبة أسيراً وقد جنحت سفينته فقتله، وهرب أخوه صصة بن داهر يريد العراق ليشكو غدر الجنيد ـ إلى خالد ـ فخدعه الجنيد حتى جاء إليه فقتله، وغزا الجنيد الكرج وكانوا قد نقضوا ففتحها عنوة، وفتح أزين، والمالية، وغيرهما من ذلك الثغر»[1] قال البلاذري: «ثم تولى السند تميم بن زيد العتبي وكان من أسخياء العرب، وفي أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم، فضعف تميم وَوَهن، ومات قريباً من الديبل. ثم تولى السند الحَكَمُ بن عوانة الكلبي. .» ـ وذلك أوائل سنة ١١٠هـ تقريباً، فقام الحَكَمُ بن عوانة بتوطيد سلطة الإسلام في المناطق الممتدة من إقليم مكران إلى شط مهران بنهر السند، قال البلاذري: «فرضي الناس بولايته، وكان خالد الْقَسْري يقول: واعجبا، ولّيتُ أسخى العرب فرُفض، يعني تميماً، وولّيتُ أبخل الناس فَرُضي به. يعني الحَكَمُ بن عوانة». ثم بدأ الحَكَمُ بن عوانة في غزو وفتح مناطق شرق نهر السند والهند التي كان العدو تغلب عليها أيام تميم بن زيد، فبدأ الحَكَمُ بن عوانة بغزو تلك المناطق منذ سنة ١١١ وسنة ١١٢هـ فأعاد فتح (الكيرج) و (رهمناباذ) و (مرمد) و (دهنج) و (أزين) وفي ذلك قال البلاذري: «تخلص الحَكَمُ بن عوانة ما كان في أيدي العدو مما غلبوا عليه بالهند». وكان خالد يبعث الإمدادات إلى الحَكَمُ بن عوانة من العراق للجهاد وإعلاء راية الإسلام في بلاد السند والهند، فعندما وقعت حركة بهلول والذين معه من الخوارج كان خالد قد سار من مدينة واسط إلى الحيرة وهو حينئذٍ في الخلق ـ الذين سيبعثهم للجهاد ـ وقد قَدِم في تلك الأيام قائد من أهل الشام في جيشٍ قد وجههم هشام مدداً لعامل خالد على الهند، فنزلوا الحيرة، فلذلك قصدها خالد، فأتى إليه خبر أولئك الخوارج وقيامهم بقتل عامل من عمال سواد الكوفة.

قال أبو عبيدة: «فدعا خالد رئيس جيش الشام فقال: قَاتَل اللّه هؤلاء المارقة، فإن من قتل منهم رجلاً أعطيتُه عطاءً سوى ما قبض بالشام وأعفيته من الخروج إلى أرض الهند، وكان الخروج إلى أرض الهند شاقاً عليهم، فسارعوا إلى ذلك، فتوجه إليهم القينيُّ في ستمائة وضم إليهم خالد مائتين من شُرط الكوفة، فالتقوا ببهلول وأصحابه على الفرات. . فهزمهم بهلول، وقَتَلَ القيني، وولّى جند الشام مع شُرط أهل الكوفة منهزمين حتى بلغوا باب الكوفة، وكان الشاميون على خيل جياد ففاتوه ـ وعادوا إلى خالد ـ وبلغت هزيمة القوم خالداً فبعث قائداً من بني شيبان، فلقيهم فيما

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص١٩٦، جـ٤.

بين الموصل والكوفة، فشدّ عليهم البهلول فقال: نشدتك بالرحم فإني جانح مستجير، فكفّ عنه، وانهزم أصحابه، فأتوا خالداً وهو مقيم بالحيرة ينتظر فلم يرُعه إلا الفَلّ قد أتى إليه. بينما ارتحل البهلول من سواد الكوفة يريد الموصل وهو في سبعين من أصحابه. . فَوَجّه إليه خالد جُنداً من أهل العراق ووجّه له عامل الجزيرة جنداً من أهل الجزيرة. . فالتقوا ببهلول وأصحابه في مكان دون الموصل. . فحمل على البهلول رجل من جَديلة يكنى أبا الموت فطعنه فصرعه، فمات البهلول. . وقُتِل عامّة من أصحابه. قال أبو عبيدة: لما قُتِل البهلول خرج عمرو اليشكري فلم يلبث أن قُتِل».

ومضى خالد الْقَسْري بالجيش والمدد من الحيرة إلى البصرة، فبعثهم بالسفن من البصرة إلى بلاد السند والهند، وبَعَث معهم رسولاً أو مكتوباً إلى الحَكَمُ بن عوانة الكلبي أمير السند، وكان الحَكَمُ بن عوانة قد كتب إلى خالد بأن لا ملجأ للمسلمين في منطقة نهر السند والهند، ويرى بناء مدينة للمسلمين، فكتب إليه خالد بأن يبني المدينة، وربما أمده ببعض المال والمستلزمات والأشياء، قال البلاذري: «فَبَنَى الحَكَمُ بن عوانة من وراء البحيرة مما يلي نهر الهند مدينة سماها المحفوظة وجعلها مأوى للمسلمين، ومَصَّرها، ونزلها». وقد اكتمل بناء مدينة المحفوظة حوالي سنة ١١٣هـ، وقام الحَكَمُ بن عوانة بتوجيه السرايا الحربية إلى بقية الآفاق الممتدة وراء نهر السند والهند، فرفرفت في ربوعها رايات الإسلام.

٥ ـ نبأ الحرب مع خاقان في خُراسان وما وراء نهر جيحون

في سنة ١١٢ ـ ١١٣هـ كان اهتمام الأمير خالد بن عبد اللّه الْقَسْري منصباً على أحداث الحرب في بلاد خراسان وما وراء نهر جيحون، فبعد ولاية أسد بن عبد اللّه الْقَسْري لخراسان (١٠٦ ـ ١٠٩هـ) تولاها الأشرس بن عبد اللّه السلمي القيسي الذي سار سيرة متعصبة سيئة وفي أيامه (كفرت السُغد وبُخارى، واستجاشوا بالترك وخاقان)، قال ابن الأثير: «وفي سنة ١١١هـ عزل هشامُ بن عبد الملك أشرسَ بن عبد اللّه عن خراسان، واستعمل الجنيد بن عبد الرحمٰن المري» ـ وكان الجنيد هذا عاملاً لخالد الْقَسْري على بلاد السند سنة ١٠٧ ـ ١٠٨هـ وتم عزله بسبب الغدر بحليشة بن داهر وأصحابه من أهل السند ـ غالباً ـ ولذلك كان غاضباً من خالد، ثم سعى البعض بإقناع هشام بتوليته على خراسان فتولاها في أواسط سنة ١١١هـ وأظهر التعصب للقيسية في أوائل عهده فقد ذكر ابن الأثير أنه: «استعمل الجنيد عماله ولم يستعمل إلا مُضَرِيًّا». ثم سار الجنيد بجموع العرب والمسلمين في خراسان إلى بلاد ما وراء النهر سنة ١١٢هـ (فلما صار الجنيد بينه وبين سمرقند أربع فراسخ، ودخل

بالمسلمين الشِعب، صَبّحه خاقان عظيم الترك في جمع عظيم من كفار أهل الصُغد وفرغانة والشاش والترك)، فوقعت في منطقة الشِعب معركة كبيرة استشهد فيها كثير من المسلمين، وكان ابن بسطام الأزدي والمجشر السلمي نصحا الجنيد بأمور، فامتنع الجنيد من الأخذ برأيهما، وساق ثمانية وعشرين ألفاً من المسلمين إلى منطقة الشِعب، فحمل خاقان وجيشه على مقدمة المسلمين فتقهقروا، قال ابن الأثير: وجعل الجنيد على الميمنة تميم والأزد، وعلى جماعة تميم عامر بن مالك، وعلى الأزد عبد اللّه بن بسطام بن مسعود بن عمرو، وجعل ربيعة في الميسرة مما يلي الجبل.. وقصد العدو الميمنة لضيق الميسرة.. وجالت الميمنة والجنيدُ واقف في القلب فأقبل إلى الميمنة ووقف تحت راية الأزد، وكان قد جفاهم، فقال له صاحب راية الأزد: ما جئتنا لِتَكْرمنا، ولكنك علمت أنه لا يُوصل إليك ومنّا رجلٌ حيٌّ، فإن ظفرنا كان لك، وإن هلكنا لم تبك علينا. ثم تقدم صاحب الراية فاستشهد، وأخذ الراية ابن مجاعة الأزدي فاستشهد، وتداولها ثمانية عشر رجلاً فاستشهدوا.. واستشهد من الأزد عبد اللّه بن بسطام، ومحمد بن عبد اللّه بن حوذان، والحسن بن شيخ (الذي كان عامل أسد الْقَسْري على مرو)، والفضيل صاحب الخيل، ويزيد بن المفضل الحدّاني وكان قد حج فأنفق في حجته ثمانين ومائة ألف، وقال لأمه: ادعي اللّه أن يرزقني الشهادة، فدعت له وغُشي عليها فاستشهد بعد مقدمه من الحج بثلاثة عشر يوماً.. وقد أُصيب من الأزد مائة وتسعون رجلاً، واستشهد النظر بن راشد العبدي، وسورة بن الحرّ، في مئات من فرسان ربيعة وغيرهم.. فلما قُتِل سورة والذين معه، خرج الجنيد من الشِعب، ومضى إلى سمرقند فتحصن بها أربعة أشهر.. وحاصر خاقان بُخارى وغيرها). وأتى نبأ تلك النكسة إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير العراق ومشارقها شعراً ونثراً، فقد قال وبعث الشرعبي الطائي قصيدة إلى خالد ذكرها الطبري في نبأ موقعة الشِّعب قائلاً: «فقال الشرعبي الطائي: ـ

تَـذَكّـرْتُ هِـنـداً فـي بـلادٍ غَـريـبـةٍ	فَيَا لك شَوْقاً هل لشَمْلكَ مَجْمَعُ
تَذَكّرْتُـهـا والـشـاشُ بيني وبينـهـا	وَشِعْبُ عِصام والمنايا تَطّلَعُ
بـلادٌ بـهـا خـاقـانُ جَـمٌّ زُحُـوفُـهُ	ونيلانُ في سبعين ألفاً مُقَنَّعُ
إذا دَبَّ خـاقـانُ وسـارت جُـنُـودُه	أتتنا المنايا عند ذلك شُرَّعُ
هنالك ـ هِندُ ـ ما لنا النّصْف مِنهُم	وما إن لنا يا هندُ في القوم مَطْمَعُ
ألَا رُبّ خَـوْدٍ خَـدلَـةٍ قـد رأيـتُـهـا	يَسُوقُ بها جَهْمٌ مِنَ السُغدِ أصمعُ
أُحامي عليها حين ولّى خليلُها	تنادي إليها المسلمين فَتُسمِعُ
تُنادي بأعلى صوتها صَفَّ قومها	ألا رجلٌ منكم يغار فَيرجِعُ

ألا رجلٌ منكمْ كَريمٌ يَرُدُّني يرى الموت في بعض المواطن يَنفعُ
فما جاوَبُوها غير أنّ نَصيفَها بكفِّ الفتى بين البرازيق أشْنَعُ
إلى اللّه تشكُو نَبوَةً في قُليبها ورُعباً مَلَا أجوافها يَتَوسَّعُ
فَمَنْ مُبْلغٌ عنّي ألوكاً صحيفةً إلى خالدٍ مِنْ قبلِ أنْ نَتَوزَّعُ
بأنّ بقايانا، وَأنّ أميرنا إذا ما عَدَدْنَاهُ الذَّليلُ المُوقعُ
هُمُ أطعموا خاقان فينا وَجُنْدَهُ ألا ليتَنَا كُنَّا هشيماً يُزَعْزَعُ»:

وتدلُ الأبيات الثلاثة الأخيرة في هذه القصيدة على أنها موجهة إلى خالد القَسْري، فتوجيه القصيدة إليه والشكوى بالجنيد أمير خراسان إلى خالد، يدلُ على أن الجنيد عامل لخالد على خراسان، ويدل بالتالي على عدم صواب الرواية التي تعتبر الجنيد والياً للخليفة هشام مباشرة وأن خراسان لم تعد مرتبطة بخالد القَسْري، لأن تولية الجنيد كانت من قِبَلِ هشام، ولأنّ الجنيد لما تولى خراسان جفا اليمانية ولم يستعمل إلا مُضَرياً، بل ولم يظهر منه احترامٌ لخالد فقد روى الطبري أنه: «كان الجنيد يذكر خالد بن عبد اللّه ويقول: رَبَذَةٌ من الرَبَذ، صُنبُورٌ بن صُنبُور، قُلٌّ بن قُلّ، هيفة من الهيف ـ والهيفة: الضبع، والقلّ: الفرد» ـ ولكن ذلك كله لا يتعارض مع ارتباطه رسمياً بخالد القَسْري: فقدكان أشرس السلمي متعصباً ولاه هشام ومع ذلك (أمره هشام بمكاتبة خالد القَسْري) وينطبق ذلك على الجُنيد، ولذلك قال الشرعبي الطائي في قصيدته: ـ

فَمَنْ مُبْلغٌ عني ألوكاً صحيفةً إلى خالدٍ من قبل أن نَتَوَزَّعُ
بأنّ بقايانا، وأنّ أميرنا إذا ما عَدَدْناه الذَّليلُ المُوَقعُ

فقد ألقت القصيدة بمسؤولية ما حدث على الأمير الجنيد، وفي ذلك طلبٌ إلى خالد بعزل الجنيد قبل أن تضيع خراسان ويضيع بسببه العرب والمسلمون.

وقد بعث الجنيد بن عبد الرحمٰن وفداً بينهم الشاعر نهار بن توسعة التميمي لشرح ما حدث من جهة ولطلب المدد من جهة أخرى، وقدذكر الطبري وابن الأثير أن الجنيد بعث الوفد إلى هشام بن عبد الملك، ثم قال الطبري: «ويقال إن الجنيد أوفَدَ الوفد إلى خالد بن عبد اللّه، فأوفد خالد الوفد إلى هشام» (ص٢١١، جـ٨) وهذه الرواية الثانية هي الأصوب لأن قصيدة الشرعبي الطائي كانت موجهة إلى خالد، ولكن القصيدة ألقت المسؤولية على الجنيد بينما الوفد الذي بعثه الجنيد ألقى مسؤولية الهزيمة على القائد سُورة التميمي فقد ذكر ابن الأثير أن الجنيد بعث الوفد وكتب معه إلى هشام (أن سورة عصاني أمرته بلزوم الماء فلم يفعل، فأتتني طائفة، وطائفة ـ انهزمت ـ إلى نَسَفْ، وطائفة إلى سمرقند، وأصيب سورة في بقية أصحابه:

فسأل هشام نهار بن توسعة عن الخبر فأخبره بما شهد». ولكن هذه الرواية لا تتعارض مع الرواية التي ذكرت أن الجنيد أوفد الوفد إلى خالد، فقد سمع خالد من الوفد ومن نهار بن توسعه ذلك الكلام، ثم بعث الوفد إلى هشام فسمع هشام نفس ذلك الكلام والتبرير.

وما لبث أن تلقى خالد قصيدة ثانية من خراسان فيها ذَمٌّ ولوم شديد للجنيد، وقد ذكرها الطبري في أنباء موقعة الشِّعب ولم يذكر أنها موجهة إلى خالد وإنما قال: «فقال ابن عرس العبدي للجنيد» ولكن البيت الأخير يدل على أنها موجهة إلى خالد وهو قوله: ـ

قصيدَةٌ خَبَّرَها شاعِرٌ   تَسْعى بها البُردُ إلى خالِدِ

والشاعر ابن عرس العبدي اسمه خالد بن معارك، من بني غَنْم بن وديعة بن لكيز ثم من بني عبد القيس من ربيعة، وكان قد شهد أمجاد الفتوحات بخراسان وما وراء النهر أيام المهلّب وأيام يزيد بن المهلّب والمفضّل وغيرهم، قال الطبري: «فقال ابن عرس للجنيد: ـ

أينَ حُماةُ الحربِ مِنْ مَعْشَرٍ   كانوا جَمالَ المِنْسرِ الحارد
بَادُوا بآجالٍ تَوَافَوْا لها   والعائِرُ المُمْهَلُ كالبائد
فالعينُ تُجرِي دَمْعَها مُسْبِلاً   ما لِدُموعِ العينِ مِنْ زائد
أُنظُرْ: ترى للميْتِ من رَجْفَةٍ؟   أم هل ترى في الدهرِ من خالد؟
كُنّا قديماً يُتَّقى بأسُنا   وندرأ الصَّادِرِ بالوارِدِ
حتى يُلِينَا بالذي شَامَنا   من بعدِ عِزٍّ ناصرٍ آيِدِ
كعاقِرِ الناقَةِ لا يَنثني   مُبتدئاً ذي حَنَقٍ جاهِدِ
.. جُنيدٌ ما عيصُك منسوبُهُ   نبعاً ولا جدُّك بالصَّاعِدِ
فَتَقْتَ ما لَمْ يلتئمْ صدْعُهُ   بالجحْفَلِ المُحْتَشِدِ الزائدِ
تبكي لها إن كَشَفَت ساقَها   جَدْعاً وعَقْراً لك من قائدِ
تَركْتَنَا أجزاءَ مَغبوطةٍ   يَقسِمُها الجازرُ للناهد
إذْ أنت كالطّفلةِ في خِدرها   لَمْ تدرِ ما كَيَدَةَ الكائد
.. أضحَتْ سَمَرْقَنْدُ وأشياعُهَا   أحدوثة الغايبِ والشاهِدِ
وكم ثوى في الشِّعب من حازمٍ   جَلدِ القُوى ذي مِرَّة ماجِدِ
.. لا تَمريَنَّ الحربَ من قابلٍ   ما أنت في العَدوةِ بالحامِدِ
قَلَّدتُه طَوْقاً على نحرِه   طوق الحمامِ الغُرَّدِ الفارِدِ

قــصــيــدَةٌ حَـبَّـرَهَـا شـاعِـرٌ تَـسـعَـى بـهـا الـبُـردُ إلـى خـالـدِ»
(ص٢١٦، جـ٨)

وقد سَعَىٰ البريد بقصيدة ابن عرس العبدي إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري في مدينة واسط، وفيها ذمٌّ كثير للجنيد اقتصرنا منه على الأبيات السالفة، وقرأ وسمع خالد هذه القصيدة كما قرأ وسمع قصيدة الشرعبي الطائي، وبما أن ابن عرس من ربيعة والشرعبي الطائي من اليمانية، بينما الوفد الذي بعثه الجنيد من القيسية، فقد تجنب خالد ما يمكن تفسيره بالتعصب والانحياز إلى اليمانية من جهة، وكان يدرك ـ من جهة ثانية ـ أن هشام بن عبد الملك قد مال إلى إرضاء القيسية منذ نهاية ولاية أسد لخراسان بجعل أمير خراسان من القيسية لأن أمراء جميع ولايات وأقاليم العراق ومشارقها من اليمانية، فاتخذ خالد موقفاً حكيماً خشية التورط في مشكلة بسبب ذلك وخاصة أن أخاه أسد بن عبد اللّه تم اتهامه بالتعصب لليمانية في خراسان، وكان خالد ـ من جهة ثالثة ـ يريد أن يقابل إساءة الجنيد له ولليمانية بالإحسان، فقام خالد ببعث وفد الجنيد إلى هشام بن عبد الملك، وأشار باستمرار الجنيد أميراً وببعث إمدادات عسكرية سريعة من العراق إلى الجنيد والمسلمين في سمرقند وما وراء النهر، ويبدو أن ما تذكره الروايات كان بمشورة ورأي خالد وهو ما ذكره ابن الأثير بعد خبر لقاء هشام بوفد الجنيد أنه: «كتب هشام إلى الجنيد: قد وجهتُ إليك عشرة آلاف من أهل البصرة وعشرة آلاف من أهل الكوفة، ومن السلاح ثلاثين ألف رمح ومثلها تِرْسَةَ». ولا بد أن هشاماً كتب إلى خالد بتوجيه ذلك المدد لأن البصرة والكوفة في العراق وليستا في الشام، فأمر خالد عامله على البصرة ـ بلال بن أبي بردة ـ وعامله على الكوفة ـ طارق بن أبي زياد ـ فجهز كل منهما عشرة آلاف مقاتل أقبلوا إلى خالد بمدينة واسط، وولّى خالد على فرسان البصرة عمرو بن مسلم الباهلي وعلى فرسان الكوفة عبد الرحمٰن بن نعيم العامري، وبعث معهما من السلاح ثلاثين ألف رمح وثلاثين ألف ترس، قال الطبري: «وقَدِمت الجنود مع عمرو بن مسلم في أهل البصرة وعبد الرحمٰن بن نعيم في أهل الكوفة، والجنيد بالصغانيان، فسرّح معهم الحوثرة بن يزيد العنبري فيمن انتدب معه وأمرهم أن يحملوا ذراري أهل سمرقند ويَدَعُوا فيها المقاتلة، ففعلوا». وذكر ابن الأثير: أن الجنيد استخلف بسمرقند عثمان بن الشخير في ثمانمائة مقاتل، وسار الجنيد بالمسلمين حتى دنا من الطواويس، فأقبل إليه خاقان بكرمينية في أول يوم من رمضان، فاقتتلوا.. وقَتَل مسلم بن أحوز عظيماً من عظماء الترك، فتطيّروا من ذلك وانصرفوا من الطواويس، وسار المسلمون فدخلوا بُخارى يوم المهرجان.

قال الطبري: «وقد قيل إن وقعة الشعب بين الجنيد وخاقان كانت سنة ١١٣هـ». وعلى ذلك يكون انكسار خاقان وجيشه من الطواويس في رمضان ١١٣هـ ثم دخل المسلمون مدينة بُخارى يوم المهرجان، وتوقفت الحرب مع خاقان.

وقد تغيرت سياسة الجنيد بعد ذلك، وتخلى عن التعصب، وأعطى اليمانية وربيعة مكانتهم في ولاية بعض الأعمال، وتزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلّب، وربما كان في ذلك شيء من الوفاء لموقف خالد وشيء من السياسة الحكيمة.

* * *

٦ ـ مواجهة خالد لحزب الشيعة.. وحبس أبي مسلم أيام خالد

إن السياسة الحكيمة والحازمة التي انتهجها خالد بن عبد اللّه الْقَسْري في العراق ومشارقها وأدت إلى السلام والهدوء والاستقرار جعلت بعض جماعات الشيعة وغيرهم يتجهون إلى نوع من العمل التنظيمي الحربي السري، إذْ أنه ـ وكما ذكر د. ناجي حسن عن عهد خالد الْقَسْري ـ «أن العراق في تلك الفترة من تاريخه بدأ يميل إلى الهدوء، واتجه الناس إلى نوع من التعمير، بينما اتجه قسم آخر إلى التنظيم الحربي».

وكان أبرز الذين اتجهوا إلى التنظيم الحربي السري جماعات من الشيعة اشتهروا فيما بعد باسم دعاة بني العباس، وقد ذكر الطبري ابتداء نشاطهم في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠هـ حيث «وَجَّه محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس من أرض الشراة ميسرة إلى العراق ثم وجّه محمد بن خنيس وأبا عكرمة والسرّاج وحيّان العطار إلى خراسان، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته، فلقوا من لقوا، ثم انصرفوا بِكُتب من استجاب لهم إلى محمد بن عليّ). ـ هكذا قال الطبري ـ.

وفي سنة ١٠٧هـ قَدِم بكير بن ماهان من السند إلى الكوفة فلقى أبا عكرمة وميسرة ومحمد بن خنيس فذكروا له أمر الدعوة، فقبل ذلك، ودخل إلى محمد بن عليّ، ومات ميسرة، فَوَجّه محمد بن علي بكيراً إلى العراق مكان ميسرة، فأقامه مقامه. فَوجّه بكير بن ماهان جماعة من شيعتهم دعاة إلى خراسان، فجاء رجل من كندة إلى أسد بن عبد اللّه الْقَسْري فوشى بهم إليه، فدعا بهم، وأمرهم بمغادرة خراسان، وقيل إنه حبسهم وعاقبهم.. وذكر الطبري عن علي بن محمد أن أول من قَدِم خراسان من دعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى همدان في ولاية أسد بن عبد اللّه الأولى، بعثه محمد بن عليّ سنة ١٠٨هـ ـ وأقام زياد بمرو شتوة ـ فأخذ زياد ينشط ومعه ثمانية من موالي أهل الكوفة ـ وكان على مرو الحسن بن شيخ الأزدي، فأخبره أسد بن عبد اللّه، فدعا به أسد، وكان معه رجل يكنى أبا موسى.. وقال أسد لزياد: ما هذاالذي بلغني عنك؟ قال: رفع إليك الباطل إنما قدمتُ خراسان

في تجارة. فقال له أسد: اخرج من بلادي، قال: قد فرّقت مالي على الناس فإذا صار إليّ خرجت. وانصرف زياد إلى مرو، وعاد إلى أمره، فكتب الحسن بن شيخ إلى أسد، وعظم عليه أمره».. وتم رصد واعتقال زياد والذين معه، وآل الأمر إلى ما زعمته الرواية من إعدام زياد وسبعة من الموالي في ذي الحجة ١٠٨هـ. وقد عفا أسد عن أغلب أهل خراسان. ثم في سنة ١١٦ ـ ١١٧هـ عاد نشاط الدعوة العباسية بخراسان وقام أسد بإجراءات سيأتي ذكرها، وتم حبس أبي مسلم الخراساني بالكوفة.

وجاء نبأ ذلك في كتاب أخبار الدولة العباسية بعنوان (خبر أبي مسلم الخراساني وبداية أمره) كما يلي نصه:

«كان أبو مسلم من أهل أصبهان، وُلِد في منزل عيسى بن معقل العجلي ونشأ مع ولده، فَقُطع الطريق على قوم من التجار في ضياع عيسى بن معقل، وذلك في إمارة خالد بن عبد اللّه الْقَسْري على العراق، فسأل خالد عن عيسى، فأُخْبِر أنّه يشتمل على اللصوص وأنّه لهم معقل يأوون إليه، فوجّه إليه خالد من أتى به، وأمر بضربه وحبسه في السجن بالكوفة، وأبو مسلم مع عيسى يومئذٍ غلام يخدمه. وكان خالد قد حبس قوماً من شيعة بني العباس من أهل الكوفة وقوماً من شيعتهم من أهل خراسان بعث بهم إليه أسد بن عبد اللّه فيهم رجلٌ يقال له حفص الأسير، وكان أبو مسلم يسمع الشيعة الذين في الحبس يتذاكرون الدعوة فيصغي لقولهم حتى وعى بعضه فأعجبه. وكان يكثر لزوم أبي موسى عيسى بن إبراهيم السرّاج من أهل الكوفة، وكان من علماء الشيعة، ولذلك قيل إن أبا مسلم كان سرّاجاً. وكان من في السجن من أهل الكوفة يرسلون أبا مسلم في حوائجهم، ويبلّغ شيعة أهل الكوفة رسائلهم، حتى وثقوا به واستأمنوا إليه، فوجهوه إلى إبراهيم الإمام رسولاً.. وقال بعضهم: كان أبو مسلم مع أبي موسى السرّاج.. ودخل معه إلى محمد بن علي، فلما رآه محمد قال لأبي موسى: من هذا الفتى الذي يدخل معك؟ قال بعض موالينا، قال: ما اسمه؟ قال: عبد الرحمٰن، فقال له سراً: إني أرى إمارات تدلني على أنه يقوم بأمرنا فيجب أن تحترمه، ثم إنّ أبا موسى رجع إلى الكوفة وأبو مسلم معه وهو يومئذٍ ابن عشرين سنة وكان يُسمّى إبراهيم بن خَنْكان، فتسمّى بعبد الرحمٰن، ويقال بل سمّاه الإمام إبراهيم باسم عبد الرحمٰن، وكنّاه: أبا مسلم»[١].

وقد أدّت الإجراءات التي اتخذها خالد وأسد سنة ١٠٨ ـ ١٠٩هـ بحبس المجموعة الشيعية سالفة الذكر، ثم قيام خالد بإطلاق سراحهم والعفو عنهم، إلى توقف نشاط ذلك الحزب السري لعدة سنوات، وربما اتخذت الاتصالات شكلاً أكثر سرية.

---

(١) أخبار الدولة العباسية ـ ابن النطاح ـ ص٢٥٣.

وفي سنة ١١٣هـ توجه من عند بكير بن ماهان بأمر محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس جماعة إلى خراسان، فقد ذكر الطبري وابن الأثير أنه: «في سنة ١١٣هـ صار جماعة من دُعاة بني العباس إلى خراسان، فأخذ الجنيد بن عبد الرحمٰن رجلاً منهم فقتله، وقال: مَنْ أُصيب منهم فَدَمُه هدرٌ». ولكن النشاط السري استمر في خراسان وتم اكتشافه في ولاية أسد الثانية لخراسان سنة ١١٧هـ فاعتقل أسدٌ قادة ذلك النشاط أو كما قال الطبري (جماعة من دعاة بني العباس) وكان على رأسهم سليمان بن كثير الخزاعي شيخ نقباء الدعوة العباسية ومعه خمسة من النقباء فقال لهم أسد: «مَهْ، ألم يقل اللّه تعالى: «عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ منه واللَّهُ عزيزٌ ذو انتِقام»؟ فقال سليمان بن كثير: نحن واللّه كما قال الشاعر: ـ

لـو بـغـيـرِ الـمـاءِ حَـلْـقـي شَـرِقٌ كنتُ كـالـغَصّان بـالـماءِ اعْـتـصـاري

تدري ما قصتنا. صِيدت واللّه العقارب بيدك، أيها الأمير، إنّا أُناسٌ من قومَك وأن هذه المُضَرية إنما رفعوا إليك هذا لأننا كنّا أشدّ الناس على فلان. .» ثم آل الأمر إلى عفو أسد عن سليمان بن كثير والنقباء الذين معه، وتوقفوا عن النشاط إلى ما بعد وفاة محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس سنة ١٢٤هـ وسيأتي خبر ذلك في أنباء ولاية أسد الثانية لخراسان.

وقد ذكر الطبري في أحداث سنة ١١٨هـ أنه: «وَجّه بكير بن ماهان عمار بن يزيد والياً على شيعة بني العباس فنزل مرو، وتسمَّى خداشاً، ودعا إلى محمد بن عليّ، فسارع إليه الناس وقبلوا ما جاءهم به وسمعوا له وأطاعوا، ثم غيّر ما دعاهم إليه وتكذّب وأظهر دين الخُرَّمية ودعا إليه ورخص لبعضهم في نساء بعض، فبلغ أسد بن عبد اللّه خبره فوضع عليه العيون حتى ظفر به. .» وقال الحافظ ابن كثير: «في سنة ١١٨هـ قصد شخص يُقال له: عمار بن يزيد، ثم سُمِّيَ بخداش، إلى بلاد خراسان ودعا الناس إلى خلافة محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس، فاستجاب له خلق فلما التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الخرمية والزنادقة وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أن محمد بن عليّ يقول ذلك، وقد كذب عليه، فأظهر اللّه عليه الدولة، فأُخذ، فجيء به إلى خالد بن عبد اللّه القَسْري أمير العراق وخراسان، فأمر به فقُطعت يده وسُلّ لسانه ثم صُلب بعد ذلك». (ص٣٢، جـ٩).

ولعل من المفيد الإشارة إلى أن محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس كان دوره في نشاط حزب ودعاة بني العباس سرياً، ولم يكن أحد ـ سوى الدعاة ـ يعرف أن له علاقة بذلك النشاط وأولئك الدعاة حتى وفاته، وإنما سمع الناس بذلك في العصر العباسي. فمواجهة خالد للذين حاولوا إثارة الفتن من الدعاة باسم الشيعة لا

تعني أنه كان يعادي البيت العلوي والعباسي فعلاقته بهم كانت جيدة بما في ذلك الذين بالحجاز، ولذلك وفد إليه زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب وداوود بن علي بن عبد اللّه بن العباس، فأجاز خالدٌ كل واحد منهم بمائة ألف درهم، واشترى خالد من زيد بن عليّ أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم ردّ له الأرض، وكانت بينهما علاقة واتصالات وثيقة، وأما محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس فكانت إمرأته يمانية وهي ريطة بنت عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عبد المدان الحارثي وكان أخوها زياد بن عبيد اللّه من عمال خالد الْقَسْري، ثم كان محمد بن خالد الْقَسْري صاحب أبي العباس عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس.

نبأ فصل خراسان عن ولاية خالد. . وفتنة ابن سُريج

كانت بلاد خراسان تابعة لولاية خالد الْقَسْري للعراق ومشارقها، وقد ولى خالد أخاه أسداً على خراسان سنة ١٠٦ ـ ١٠٩هـ ثم ولّى هشام بن عبد الملك على خراسان أشرس بن عبد اللّه السلمي القيسي وأمره بمكاتبة خالد بن عبد اللّه الْقَسْري ثم عزل هشام أشرساً سنة ١١١هـ واستعمل على خراسان الجنيد بن عبد الرحمٰن المري الذي بدأ عهده بانتهاج سياسة متعصّبة للقيسية فلما انهزم الجنيد في موقعة الشِّعب سنة ١١٣هـ كان لخالد الْقَسْري موقفاً نبيلاً، وقام ببعث الإمدادات والسلاح إلى الجنيد، وتغيرت سياسة الجنيد في خراسان، وأعطى اليمانية وربيعة مكانتهم، وتزوج الجنيد بالفاضلة بنت يزيد بن المهلب، وصار أقرب إلى اليمانية.

قال د. ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق: «ولّى هشام بن عبد الملك الجنيد بن عبد الرحمٰن المري سنة ١١١هـ وسلك الجنيد سياسة مُضَرية مقيتة، ولم يبق في خراسان من يتولى الإدارة في زمانه غير مُضريّ. . . وقد أخطأ صاحب الأخبار الطوال حين جعل الجنيد هذا يمانياً بقوله: (وكان رجلاً من اليمانية ذا فضل وسخاء، وهو الذي يقول فيه الشاعر: ـ

ذهب الجود والجنيد جميعاً فعلى الجود والجنيد سلام)

ويظهر أن مرجع الخطأ هذا يعود إلى أمرين أوّلهما: أنه خلط بين أسد بن عبد اللّه الْقَسْري والجنيد هذا في حادثة شفاعة سليمان بن كثير لبعض الدعاة العباسيين الذين وُشيَ بهم إلى أسد بن عبد اللّه عام ١١٧هـ فلما جيء بهم قال سليمان لأسد: نعلمك أيُّها الأمير أنّا أُناس من قومك اليمانية وأن هؤلاء المضرية تعصبوا علينا فرفعوا إليك فينا الزور والبهتان. . فظن ـ صاحب الأخبار الطوال ـ أن الأمر حدث في زمن الجنيد ولهذا نسبه إلى اليمانية. وثانيهما: أنه ربما نسبه إلى

بني «مُرَّة» من اليمانية بينما هو من بني مَرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان من القيسية»[١]. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أمرين: أحدهما: أن الجنيد كان مرتبطاً بخالد الْقَسْري أمير العراق ومشارقها، وثانيهما: أن الجنيد الذي تعصب في بداية عهده للمضرية ما لبث أن اعتدل في سياسته وصار أقرب إلى اليمانية وتزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب مما جعل بعض المتعصبين للقيسية يسعون إلى عزل الجنيد من خراسان بتحريض هشام بن عبد الملك على عزله من جهة، وإنهاء ارتباط خراسان وأميرها بخالد الْقَسْري من جهة أخرى.

وربما كان السعي لعزل الجنيد يرتبط بظهور حركة سرية بقيادة الحارث بن سريج التميمي الذي اتخذ من إقليم بَلَخْ في خراسان قاعدة لنشاطه السري الذي كانت خيوطه تمتد إلى بعض المتعصبين للقيسية في العراق، ولم تذكر الروايات عن بداية نشاطه سوى أنه: «كان التُجيبيّ بن ضبيعة المري عامل الجنيد على بَلْخ ضرب الحارث بن سريج أربعين سوطاً في إمرة الجنيد». وكان ذلك حوالي سنة ١١٤هـ فهدأ الحارث بن سريج واتسمَّ نشاطه بقدر أكبر من السرية، بينما أخذ بعض المتعصبين وربما بعض ذوي العلاقة السرية بتلك الحركة في التحريض على خالد الْقَسْري من جهة وعلى الجنيد من جهة أخرى، قال الطبري: «ثم دخلت سنة ١١٥هـ وكان عمال الأمصار في هذه السنة هم عمالها سنة ١١٤هـ غير أنه اختُلف في عامل خراسان، فقال المدائني: كان عاملها الجنيد بن عبد الرحمٰن، وقال بعضهم: كان عاملها عُمارة بن حريم المري، وزعم الذي قال ذلك أن الجنيد مات سنة ١١٥هـ وأما المدائني فإنه ذكر أن وفاة الجنيد كانت في محرم ١١٦هـ. وذكر علي بن محمد عن أشياخه: أن الجنيد بن عبد الرحمٰن تزوّج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فغضب هشام على الجنيد، وولى عاصم بن عبد اللّه الهِلَالي خراسان وقال له: إنْ أدركته وبه رمقٌ فأزهق نفسه، فقَدِم عاصم وقد مات الجنيد واستخلف عُمارة بن حريم» (ص٢١٨، جـ٨).

إن خبر غَضَب هشام على الجنب لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلّب يرتبط بتخليهِ عن التعصب للمُضرية وصيرورته أقرب إلى اليمانية، فسعى بعض المتعصبين إلى تحريض هشام لعزل الجنيد من جهة وإنهاء ارتباط وتبعية ولاية خراسان لخالد الْقَسْري. وكان بعض القيسية ومنهم الشاعر الكميت بن زيد الأسدي يبذلون جهوداً حثيثة لتأليب هشام على خالد مما أدى إلى قيام هشام ببعث رسالة شديدة اللهجة إلى خالد الْقَسْري عاتبه فيها على أقوال بلغته وعلى أمور منها ـ كما

---

(١) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص٢٠٤.

جاء في الرسالة ـ «توجيهك أخاك أسد إلى خُراسان، مُظهراً العَصَبيَّةَ بها متحاملاً على هذا الحيّ من مُضَرَ، بتصغيره بهم، واحتقاره لهم». وتدل هذه الفقرة من الرسالة ـ التي سيأتي ذكرها ـ على نية هشام فصل خراسان عن ولاية خالد نهائياً، ولذلك أثار موضوع التعصب المزعوم من أسد الْقَسْري في خراسان بالرغم من انتهاء ولاية أسد لخراسان في رمضان سنة ١٠٩هـ بينما رسالة هشام كانت في سنة ١١٥هـ، وكان خالد قد علم بغضب هشام على الجُنيد بن عبد الرحمٰن، قال المدائني: «مرض الجنيد، فمات في مرضه في محرم ١١٦هـ واستخلف عُمارة بنص حريم، فقال أبو الجويرية عيسى ابن عصمة يرثيه:

هلك الجُودُ والجنيدُ جميعاً فعلى الجودِ والجنيدِ السلام
أصبحا ثاوِيَيْن في أرضِ مرو ما تَغَنَّتْ على الغصونِ الحمام

ثم إن أبا الجويرية أتى خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري وامتدحه، فقال له خالد: ألست القائل (هلك الجود والجنيد جميعاً) مالَكَ عندناشيء، فخرج أبو الجويرية ـ أي عاد إلى خراسان ـ فقال:

تظل لامِعَةُ الآفاقِ تَحْمِلنَا إلى عُمارَةَ والقُودُ السَراهِيدُ

قصيدة امتدح بها عُمارة بن حريم ابن عم الجنيد» (ص٢١٩/٨ ـ الطبري).

والظاهر أن أبا الجويرية قَدِم إلى خالد الْقَسْرِي في وفد من عند عُمارة بن حريم بخبر وفاة الجنيد واستخلافه عُمارة، فتظاهر خالد بعدم الرضا عن أبي الجويرية لأنه قال: (هلك الجُودُ والجنيدُ جميعاً)، وذلك لأن خالد كان قد عرف بغضب هشام على الجنيد لميله إلى اليمانية وزواجه بالفاضلة بنت يزيد بن المهلّب وأنه قد عقد العزم على عزل الجنيد وفصل خراسان عن ولاية خالد، وأياً كانت الطريقة التي عرف خالد بها ذلك، فقد رجع أبو الجويرية والذين معه إلى عُمارة بن حريم في خراسان بينما في ذات الوقت كان عاصم بن عبد اللّٰه الهلّالي القيسي ـ وهو من أهل أبرشهر بخراسان ـ يتوجه من عند الخليفة هشام بدمشق إلى خراسان والياً عليها وقال له هشام: إن أدركت الجنيد وبه رمق فأزهق نفسه، فوصل عاصم إلى مدينة مرو عاصمة خراسان ـ في صفر ١١٦هـ ـ وقد مات الجنيد، قال الطبري: (فحبس عاصمُ عُمارة بن حريم وعُمال الجنيد وعذبهم)، وقد اقترنت تولية عاصم بفصل خراسان عن ولاية خالد الْقَسْري أمير العراق ومشارقها، وصيرورة خراسان وأميرها عاصم مرتبطاً بالخليفة هشام مباشرة، وربما كان بعض الذين سعوا إلى ذلك على علاقة بالحركة السرية التي كان على رأسها الحارث بن سريج التميمي وأن قيامها أو نجاحها يستلزم فصل ولاية خراسان عن أمير العراق، ولذلك ما إن تم ذلك بتولية عاصم على

خراسان وعدم ارتباطه بأمير العراق ومشارقها خالد الْقَسْري حتى اندلعت حركة وفتنة الحارث بن سريج التميمي التي تدل وقائعها على أنها كانت بمثابة تحالف يضم أربعة أطراف أو خمسة، وأن عملاً سرياً واسعاً تم ما بين سنة ١١٤ وصفر ١١٦هـ وتمخض عن اندلاع تلك الحركة التي ضمت: ـ

أ ـ عشائر قبيلة تميم الذين بخراسان وبعض العشائر القيسية والموالي، وقد كان في خراسان زهاء عشرة آلاف من تميم يبدو أن الحارث بن سريج استقطبهم لأنه من قادة تميم. قال الطبري: «لما قدِم عاصم خراسان والياً، أقبل الحارث بن سُرَيج من النخذ حتى وصل إلى الفارَيَاب» ـ فاستولى على الفارَيَاب وخلع هشام بن عبد الملك، وكان عاصم أمير خراسان بعث ستة من القادة ووجوه الناس إلى الحارث فلما انتهوا إلى الفارياب قيّدهم وحبسهم، ثم سار الحارث في أربعة آلاف إلى بَلَخْ، قال الطبري: «مضى الحارث بن سريج إلى بَلَخْ وعليها نصر بن سيار، فقاتلوه، فهزم أهل بَلَخْ، ومضى نصر إلى مرو. وذكر بعضهم أنه لما أقبل الحارث إلى بَلَخْ كان عليها التُجيبي بن ضبيعة المرّيّ ونصر بن سيار، فانتهى إلى قنطرة عطاء وهي على فرسخين من المدينة، فالتقى نصر بن سيّار في عشرة آلاف والحارث بن سريج في أربعة آلاف فدعاهم الحارث إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضى، فقاتلوه، فانهزم أهل بَلَخْ إلى المدينة، واتبعهم الحارث حتى دخلها، وخرج نصر من باب آخر ـ (هارباً مع جماعة إلى مرو) ـ ويقال: قَدِم نصر ـ من عند عاصم ـ والتجيبيّ على بَلَخْ، فحبسه نصر، فلم يزل محبوساً حتى هزم الحارث نصراً. . وقوم يقولون: قُتِل التجيبي في ولاية نصر لبَلَخْ قبل أن يأتيه الحارث». وقد هزم الحارث نصراً وسيطر على إقليم بَلَخْ فهرب نصر إلى عاصم في مرو، في حوالي شهر ربيع ١١٦هـ.

ب ـ اشترك في حركة الحارث وانضم إليها جماعة من الشيعة والمتعاطفين مع آل البيت العلوي، ويتجلى ذلك في دعوة الحارث إلى (البيعة للرضى)، ولم تذكر الرواية من هو الرضى من آل البيت الذي دعا الحارث إل البيعة له، وربما كان ذلك مجرد شعار أتاح استقطاب جماعة من الشيعة والمتعاطفين إلى تلك الحركة منذ نشاطها السري، فكانوا بمثابة الطرف الثاني في ذلك التحالف، وما إن سيطر ابن سريج على إقليمي فارَيَاب وبَلَخْ حتى انضم إليه إقليم الجوزجان ثم إقليم الطالقان ثم إقليم مرو الروذ، وذلك في حوالي شهر جمادى سنة ١١٦هـ.

جـ ـ كان الطرف الثالث في ذلك التحالف والنشاط دهاقين العجم المعاهدين في أقاليم خراسان ـ والدهاقين هم الحكام المحليون ـ فانضموا مع أتباعهم من العجم إلى الحارث بن سريج، بحيث ـ في جمادى الآخرة أو رجب ـ «سار الحارث بن سريج إلى مدينة مرو في جمع كثير، يقال في ستين ألفاً، ومعه فرسان تميم وبعض

الأزد، ومعه من الدهاقين: دهقان الجوزجان، وترسل دهقان فارَيَاب، وسهرب ملك الطالقان، وقرياقس دهقان مرو الرُوذ، وأشباههم». وكان عاصم بن عبد اللّه أمير خراسان في مدينة مرو ـ مرو الشاهجان ـ عاصمة خراسان، فلما زحف الحارث بن سريج ومعه دهاقين العجم إلى مدينة مرو خرج إليه عاصم في أهل مرو وغيرهم من العرب، فاقتتلوا بالقرب من مرو، فانكسر أصحاب ابن سريج، «فقطع ابن سريج وادي مرو فضرب رواقاً عند منازل الرهبان، فكف عنه عاصم». وبذلك لم يتمكن ابن سريج من الاستيلاء على العاصمة مرو في تلك الحملة ـ في حوالي شهر رجب ـ فبقت مرو بيد عاصم، بينما سيطر ابن سريج على خمسة أقاليم، وفي ذلك قال الطبري: «غلب الحارث بن سريج على بَلَخْ، والجوزجان، والفارَيَاب ومرو الرُوذ، والطالقان». وقال في موضع آخر (لم يبق بيد عاصم من خراسان إلاّ مرو وناحية أبرشهر. والحارث بن سريج في مرو الروذ، وخالد بن عبيد اللّه الهجريّ بآمل ـ عاملاً لابن سريج ـ وخاف عاصم إن قصد للحارث بمرو الروذ دخل خالد بن عبيد اللّه الهجري مرو من آمل، وإن قصد للهجري بآمل دخلها الحارث من مرو الرُّوذ».

د ـ وفي ذات الفترة تقريباً قام خاقان ملك الكفار في بلاد ما وراء النهر بالسيطرة على المناطق الإسلامية ببلاد ما وراء النهر وعلى رأسها سمرقند ويُخارى، وكان خاقان والكفار بمثابة طرف رابع في ذلك التحالف أو النشاط، ولم يظهر ذلك إلا في وقائع لاحقة واتصالات بين الحارث بن سريج وخاقان ـ سنة ١١٧هـ ـ مما يشير إلى التنسيق بينهما منذ البداية.

وقد كتب وبعث عاصم بن عبد اللّه القيسي بأخبار الحارث بن سُريج والذين معه إلى الخليفة هشام بن الملك ـ في حوالي شهر شعبان ١١٦هـ ـ قال ابن الأثير: «وكتب عاصم إلى هشام: أن الرائد لا يُكذب أهله، وأن خراسان لا تصلح إلا أن تُضم إلى العراق وتكون موادها ومعونتها من قريب، لتباعُد أمير المؤمنين وتباطئ غياثه عنها. فضم هشام خراسان إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وكتب إليه: ابعث أخاك يصلح ما أفسد فإن كان سببه كانت به» (ص٢١٩، جـ٤ ـ الكامل). وقد ذكر الطبري كتاب عاصم إلى هشام ثم قال: «فقَدِم أسد بن عبد اللّه، بعث به هشام بعد كتاب عاصم بشهر» وقال: «كانت ولاية عاصم أقل من سنة، قيل: كانت سبعة أشهر: لما بلغ هشام بن عبد الملك خبر الحارث بن سريج، كتب إلى خالد بن عبد اللّه: ابعث أخاك يصلح ما أفسد فإن كانت رجيَّة فلتكن به». (ص٢٢٦، جـ٨). وقد وقع تصحيف من الناسخين في عبارة (ابعث أخاك يُصلح ما أفسد) وكذلك في بقية الجملة برواية ابن الأثير حيث جاءت «فإن كان سببه كانت به». والصواب: «ابعث أخاك يُصلح ما فَسَدْ، فإن كانت رجيَّة فَلْتَكُنْ به». وبذلك انتهت فترة فصل

خراسان عن ولاية خالد الْقَسْري في الشهور السبعة السوداء التي تولى خراسان فيها عاصم بن عبد اللّه القيسي واستولى خلالها المتمردون والكفار على أغلب أقاليم بلاد خراسان وكانوا ينوون التقدم منها إلى بلاد فارس وما يليها والقضاء على دولة الخلافة، ولما أدرك هشام أبعاد ذلك المخطط أعاد ربط خراسان بولاية خالد وانعقد الرجاء بأسد الْقَسْري لإصلاح ما فَسَدْ، ولإعادة سلطة دولة الخلافة في خراسان وإعادة الإسلام في ربوع سمرقند وما وراء النهر.

* * *

عاشراً: الولاية الثانية لأسد بن عبد اللّه الْقَسْري على خُراسان وآسيا الوسطى

كانت الولاية الأولى لأسد بن عبد اللّه الْقَسْري على بلاد خراسان من أوائل سنة ١٠٦هـ إلى شهر رمضان ١٠٩هـ ثم في شهر رمضان ١١٦هـ بدأت ولايته الثانية لِخُراسان في إطار ولاية أخيه خالد للعراق ومشارقها. وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك ذلك في أحداث سنة ١١٧هـ قائلاً: «وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك عاصم بن عبد اللّه عن خراسان وضمّها إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري فولاها خالد أخاه أسد بن عبد اللّه. وقال المدائني: كان عزل هشام عاصماً عن خراسان وضمّها إلى خالد سنة ١١٦ هجرية»[1] والصواب ما ذكره المدائني لأن الطبري نفسه ذكر أنه: «كانت ولاية عاصم أقل من سنة. قيل: سبعة أشهر» ـ فيكون ذلك من صفر إلى شعبان ١١٦هـ ـ وكذلك ذكر الطبري مكتوب عاصم إلى هشام بخبر الحارث بن سريج وبأن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق ثم قال: «فقَدِم أسد بن عبد اللّه خراسان بعث به هشام بعد كتاب عاصم بشهر» ـ فيكون ذلك في رمضان ١١٦هـ ـ وربما ذهب البعض إلى أن ذلك في محرم ١١٧هـ لأن عاصماً بقي في مدينة مرو عاصمة خراسان حتى قدوم أسد إليها إذْ أنه لم يتوجه إلى العاصمة مباشرة، وقد اتخذت الأحداث المسار التالي: ـ

* ـ في أوائل رمضان ١١٦هـ أعاد هشام ضم خراسان إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وكتب إليه ـ فيما كتب ـ (ابعث أخاك أسداً إلى خراسان يُصلح ما فسد، فإن كانت رجيَّة فلْتَكُن به)، وقد أرسل هشام المكتوب إلى خالد مع قوة من جيش الشام أشار إليها د. ناجي حسن قائلاً: (إن الحارث بن سُرَيج التميمي استطاع أن يسيطر على أغلب مناطق خراسان وبلغ جنده ستين ألفاً، مما دفع بعاصم إلى طلب الإمدادات السريعة من هشام، فأخذت القطاعات العسكرية الشامية تتقدم نحو خراسان. . وأعيد أسد بن عبد اللّه إلى خراسان» وكان وصول القوة الشامية إلى

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٢٢٢، جـ٨.

الأمير خالد في مدينة واسط بالعراق وكانوا ألفين وخمسمائة غالبيتهم من قضاعة، وجاء في رواية الطبري (ألفان وخمسمائة من أهل الشام عليهم صالح الأزدي) وقام خالد بتجهيز قوة من جيشه بالعراق من جند أهل الكوفة، وعقد خالد لواء القيادة والولاية لأسد بن عبد اللّه الْقَسْري، فانطلق أسد بجند الشام وفرسان الكوفة ـ من مدينة واسط ـ في حوالي العاشر من رمضان ١١٦هـ قاصداً خراسان وعلى مقدمته محمد بن مالك الهمداني الخيواني وهو من كبار قادة ولاية الكوفة في عهد خالد.

* ـ وفي ذات الوقت بعث الكميت بن زيد الأسدي قصيدة إلى الحارث بن سُرَيج في مرو الرُّوذ والذين معه بخراسان، وتدل القصيدة على وجود طرف خامس في حركة وفتنة الحارث بن سريج التي سلف ذكر أنها كانت بمثابة تحالف يضم:

أ ـ تميم وبعض القيسية.

ب ـ جماعة من الشيعة والمتعاطفين.

جـ ـ دهاقين العجم في خراسان.

د ـ خاقان وقومه الكفار بما وراء النهر.

وتتيح قصيدة الكميت إدراك أنه كان هناك طرف خامس في ذلك التحالف وهو طرف سري لأنه كان بالعراق، فما إن انطلق أسد حتى بعث الكميت قصيدة إلى الحارث بن سريج والذين معه في مرو الرُّوذ بخراسان، وقد ذكرها الطبري قائلاً: « . . قَدِم أسد بن عبد اللّه خراسان بعد كتاب عاصم ـ إلى هشام ـ بشهر، فبعث الكميت بن زيد الأسدي إلى أهل مرو بهذا الشعر: ـ

ألا أُبلغْ جماعَةَ أَهْلِ مَرْوٍ ... على ما كانَ مِنْ ناءٍ وَبُعْدِ
رسالةَ ناصِحٍ يَهْدِي سلاماً ... وَيَأمُرُ في الذين رَكبُوا بِجَدٍّ
وأبْلِغْ حارثاً عَنَّا اعْتِذاراً ... إلَيْهِ بأنَّ مَنْ قبَلِي بِجُهْدِ
وَلَوْلَا ذاكَ قد زارَتْك خَيْلٌ ... من المْصرَيْنِ بالفُرْسانِ تُرْدِي
فلا تهنُوا ولا ترْضَوْا بِخسْفٍ ... ولا يَغْرُر بكم أسدٌ بِعَمْد
وكونُوا كالبَغايا إن خُدِعْتُمْ ... وإنْ أقرَرتُمْ ضَيْماً لَوَغْدِ
وَإلّا فارْفَعُوا الراياتِ سُوداً ... على أهلِ الضلالَةِ والتَعَدّي
فَكَيْف وأنتُمْ سَبْعُون أَلْفاً ... رَمَاكُم خالِدٌ بِشبيهِ قِرْدِ
وَمَنْ وَلّى بِذِمَّتِهِ رَزِيناً ... وَشِيعَتَهُ ولَمْ يُوفِ بِعَهْدِ
وَمَنْ غَشَّى قُضاعَةَ ثَوْبَ خِزْيٍ ... بِقَتْلِ أبي سَلَامانِ بنِ سَعْدِ
فَمَهلاً يا قُضاعَة فلَا تكوني ... توابعَ لا أُصُولَ لَها بِنَجْدِ

فـجُـدِّعَ مِـنْ قُـضـاعَـةَ كـلُّ أنـفٍ ولا فَـازَتْ عَـلـى يَـوْمٍ بِـمَـجْـدِ

ورَزين الذي ذكره الكميت كان خرج على خالد بالكوفة فأعطاه الأمان ثم لم يَفِ به». (ص٢٢٣/٨) وكان رَزِين ادّعى نزول قرآن عليه، فأعطاه خالد الأمان فلما مَثَل بين يديه تمسك بادعاء أن الوحيّ نزل عليه بل وقرأ كلاماً زعم أنه وحيٌ، فكان ذلك سبب هلاكه، وسلامان بن سعد القضاعي خرج مع بعض أهل الضلالة فنال مصيرهم، وقد صَبّ الكميتُ غضبه على قضاعة لأن القوة الشامية التي بعثها هشام كانت من فرسان قضاعة اليمانيين بالشام وهم الذين أشار إليهم د. ناجي حسن قائلاً: «فأخذت القطاعات العسكرية الشامية تتقدم نحو خراسان». وقد ذكرت النصوص التاريخية أن الذين مع الحارث بن سريج كانوا ستين ألفاً من العرب والعجم أتباع الدهاقين عندما سار بهم إلى مرو ـ في رجب ـ والظاهر أن عددهم ارتفع ـ في رمضان ـ حيث قال الكميت: «فكيف وأنتم سبعون ألفاً رماكم خالد بشبيه قرد»، بينما الصحيح أن خالداً رماهم بسيف من سيوف اللّه دعا رسول اللّه ﷺ لجده قائلاً: «اللّهم اجعل نصرك ونصر دينك في عقب أسد بن كرز».

* ـ قال الطبري: «ولما بلغ عاصماً ـ عامل خراسان ـ أن أسد بن عبد اللّه قد أقبل وأنه قد سيّر على مقدمته محمد بن مالك الهمداني وأنه قد نزل الدّندانقان، صَالَحَ عاصمٌ الحارثَ بن سريج وكتب بينه وبينه كتاباً على أن ينزل الحارث أي كور خُراسان شاء وعلى أن يكتبا جميعاً إلى هشام يسألانه كتاب اللّه وسنة نبيه فإن أبى اجتمعا جميعاً عليه، فختم على الكتاب بعض الرؤساء، وأبَى يحيىٰ بن الحضين أن يختم وقال: هذا خَلْعٌ لأمير المؤمنين، وكان عاصم بن سليمان بن عبد اللّه بن شراحيل اليشكري من أهل الرأي فأشار على يحيىٰ بن الحضين بنقض الصحيفة..». وقال خلف بن خليفة فيما بعد يذكر ما قام به يحيىٰ بن الحضين والذين معه من ربيعة أبياتاً منها قوله: ـ

ومـنّـا الـذي شَـدَّ أهـلَ الـعـراق ولـو غاب يحيىٰ عن الثَغْرِ ضاعا
عـلـى ابـن سُرَيـجٍ نَـقَـضْـنَـا الأمـورَ وقـد كـان أحكَـمَـهـا ما استَـطـاعـا
عَـشـيَّـةَ زَرْقٍ وقـد أزمَـعُـوا فَـمَـعْـنَـا مَـن الـنـاكِـثِـيـنَ الـزَمَـاعـا
.. كـفـيـنـا أمـيـةَ مَـخْـتُـومـةً أطـاعَ بـهـا عـاصـمٌ مَـنْ أطـاعـا
فـلـولَا مـراكـزُ رايـاتِـنـا مِـن الجُند خاسَ الجنودُ الضَياعا

فقول خليفة: (ومنّا الذي شدّ أهل العراق) يعني بأهل العراق القوة التي كانت مع أسد بن عبد اللّه من أهل العراق وقد وَجّه أسد بن عبد اللّه القوة بقيادة

محمد بن مالك الهمداني ومعه أيضاً خمسمائة من فرسان الشام، فنزل محمد بن مالك بذلك الجيش في الدَّندانقان بينما عسكر أسد في بقية القوة بمنطقة الريّ ـ وذلك لإرهاب العدو بأنه في حالة حصار غالباً ـ فلما نزلت قوات أسد بمنطقة نهر الدَّندانقان من بلاد مرو بقيادة محمد بن مالك الهمداني اتخذ يحيىٰ بن حضين الموقف سالف الذكر وهو معارضة اتفاق عاصم بن عبد اللّه القيسي عامل خراسان المعزول مع الحارث بن سُريج، ففارق فرسان ورجالات ربيعة عاصماً بن عبد اللّه وساروا مع يحيىٰ بن حضين وعاصم بن سليمان بن عبد اللّه اليشكري وانضموا إلى قوات أسد في الدَّندانقان، وقد أخطأ وتوهم صاحب رواية الطبري بأن عاصماً الذي حارب مع فرسان الشام وجند العراق الحارث بن سُريج في الدَّندانقان هو عاصم بن عبد اللّه عامل خراسان وإنما هو عاصم بن سليمان بن عبد اللّه بن شراحيل اليشكري الذي أشار على يحيىٰ بن حضين بنقض الصحيفة، وإياه أراد خليفة بقوله: ـ

كفينا أمية مختومةً أطاعَ بها عاصمٌ من أُطاعا
فلولا مراكزُ راياتِنا مِنَ الجند خاسَ الجنودُ الضياعا

فعاصم اليشكري الربيعي هو عاصم الذي ينصرف إليه قول رواية الطبري: «وكان عاصم في قرية بأعلى مرو لكندة، ونزل الحارث بن سُريج قرية لبني العنبر فالتقوا بالخيل والرجال ـ على نهر الدَّندانقان ـ ومع عاصم رجل من بني عبس في خمسمائة من أهل الشام وإبراهيم العقيلي في مثل ذلك.. وكانت اليمانية بعثت من الشام رجلاً يَعْدِلُ بألف يكنى أبا داود في خمسمائة، فكان لا يمرّ بقرية من قرى خراسان إلا قال: كأنكم بي قد مررتُ راجعاً حاملاً رأس الحارث بن سريج، فلما التقوا دعا إلى البراز، فبرز له الحارث بن سريج فضربه فوق منكبه الأيسر فصرعه ـ من فوق فرسه ـ وحامى عليه أصحابه فحملوه، ورُمِيَ فرس الحارث بن سريج في لبانه فنزع النشابة وألح عليه بالضرب حتى عرّقه وشغله عن ألم الجراحة. وحمل عليه رجل من أهل الشام فلما ظن أن الرمح مخالطه مال عن فرسه واتّبع الشاميَّ فقال له: أسألك بحرمة الإسلام في دمي، قال: انزل عن فرسك، فنزل وركبه الحارث.. وقد انهزم أصحاب الحارث فأسروا منهم أسارى، وكان الأسرى ثمانين أكثرهم من بني تميم فقتلهم عاصم على نهر الدَّندانقان». وانصرف الحارث بن سريج واستنفر أصحابه فتجمعوا إلى مرو الرُّوذ وإلى آمل.

قال الطبري: «وعَظَّم أهل الشام يحيىٰ بن حضين لما صنع في أمر الكتاب الذي كتبه عاصم بن عبد اللّه والحارث بن سريج، وكتبوا كتاباً وبعثوه مع محمد بن

مسلم العنبري ورجل من أهل الشام، فلقوا أسد بن عبد اللّٰه بالريّ، ويُقال لقوه ببيهق، فقال: ارجعوا فإني أصلح هذا الأمر، فقال له محمد بن مسلم: هُدِمَت داري، فقال: أبنيها لك، وأرُدّ عليكم كل مظلمة.. وقَدِم أسد بن عبد اللّٰه ـ (إلى مدينة مرو) ـ وقد انصرف الحارث ـ منهزماً من الدَّندانقان ـ فحبس أسد عاصماً وسأله عما أنفق وحاسبه فأخذه بمائة ألف درهم وقال له: إنك لم تغز ولم تخرج من مرو، ووافق عُمارة بن حُرَيم وعمال الجنيد محبوسين عنده، فقال لهم أسد: أسيرُ فيكم بسيرتنا أم بسيرة قومكم؟ قالوا: بل بسيرتك، فخلى سبيلهم». وفي ذلك قال د. ناجي حسن: «في عام ١١٧هـ عاد أسد بن عبد اللّٰه إلى خراسان مُتبعاً سياسة لا تختلف عن تلك التي ألفناها من قبل ـ يعني التعصب اليماني ـ وإن حاول المدائني إعطاء صورة جديدة لأسد حيث ذكر أنه أطلق عمال الجنيد الذين حبسهم عاصم، وهُمْ من القيسية».

وكان دخول أسد العاصمة مرو في حوالي شهر محرم ١١٧هـ، قال الطبري: «وكتب أسد إلى خالد ينتحل أنه هزم الحارث ويخبره بأمر يحيىٰ بن حضين، فأجاز خالدٌ يحيىٰ بن حضين بعشرة آلاف دينار وكساه مائة حلّة». وقد استعملت رواية الطبري عبارة: «كتب أسد إلى خالد ينتحل أنه هزم الحارث» لأن الحارث بن سريج كان ما يزال يسيطر على أقاليم مرو الروذ وآمل وغيرها عند دخول أسد مدينة مرو، ونرى عدم صحة أن أسداً كتب إلى خالد ينتحل أنه هزم الحارث فلا يمكن أن يكتبه إليه إلا بانكسار الحارث بن سريج من نهر الدندانقان إلى مرو الرُّوذ وآمل واجتماع عشرات الآلاف للقتال مع الحارث بن سريج، وأنه سائر لمصاولتهم.

* ـ قال الطبري: (قال علي بن محمد عن شيوخه: قدِم أسد مرو، وما يملك عاصم من خراسان إلا مرو وناحية أبرشهر، والحارث بن سريج بمرو الرُّوذ وخالد الهجريّ بآمل ـ وهو عامل ابن سريج ـ، فأجمع أسد على أن يوجّه عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي في أهل الكوفة وأهل الشام في طلب الحارث إلى مرو الرُّوذ، وسار أسد بالناس إلى آمل، فلقيهم خيل لأهل آمل عليهم زياد مولى حيّان النبطي فهزمهم حتى انتهوا إلى باب المدينة، ثم كرّوا على الناس فَقُتِل غلام لأسد بن عبداللّٰه يقال له جَبَلة وهو صاحب علمه، وتحصنوا في ثلاث مدائن لهم، فنزل عليهم أسد وحاصرهم ونصب عليهم المجانيق، وكان عليهم خالد الهجري من أصحاب الحارث، فطلبوا الأمان وخرج إليهم ـ يعني إلى أسد ـ رويد القطعيّ مولى لهم، فقال أسد: ما تطلبون؟ قالوا: كتاب اللّٰه وسنة نبيه، قال: فلكم ذلك، قالوا: على أن لا تأخذ أهل هذه المدن بجنايتنا، فأعطاهم ذلك».

بينما في ذات الوقت دخل القائد عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي بفرسان الكوفة والشام مناطق مرو الرُّوذ فانهزم وتقهقر الحارث بن سريج والذين معه، وكان أبرز الذين معه الملك السبْل وهو من ملوك أقاليم ما وراء النهر الكفار أصحاب خاقان، فمضى ابن سريج والسَبْل والذين معهم من الناكثين والكفار من إقليم مرو الرُّوذ وعبروا نهر جيحون متقهقرين إلى إقليم ترمذ، فتمَّ بذلك تطهير أقاليم ومدن مرو الرُّوذ وآمل وغيرها من مناطق ما دون النهر، ـ وذلك في حوالي شهر صفر ـ وبعث أسد إلى بَلَخْ طليعة فيهم سليمان بن عبد الله بن خازم يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة، وأن أسداً يعطيهم الأمان مثل أهل ومدائن آمل ومرو الرُّوذ.

قال الطبري: «واستعمل أسد على مدائن آمل يحيىٰ بن نعيم الشيباني ابن أخي مصقلة بن هبيرة، ثم أقبل أسد في طريق زَمّ يريد مدينة بَلْخ، فتلقاه مولى لمسلم بن عبد الرحمٰن فأخبره أن أهل بَلْخ قد بايعوا ـ وأطاعوا ـ سليمان بن عبد الله بن خازم، فقَدِم أسد إلى بَلْخ» ـ وبذلك اكتمل إعادة سلطة دولة الخلافة في أقاليم ما دون نهر جيحون التي كان الحارث بن سريج وأطراف التحالف معه سيطروا وتغلبوا عليها في فترة حكم عاصم بن عبد الله لخراسان وهي أقاليم بَلْخ ومرو الرُّوذ والفارْيَاب وطالُقان وآمل ـ وكان دخول أسد مدينة بَلْخ في حوالي ربيع الأول ١١٧هـ.

وعندئذٍ غالباً كتب الأمير أسد إلى أخيه الأمير خالد بالعراق يخبره بانهزام الحارث بن سريج إلى الترمذ فيما وراء النهر، ومعه السَّبْل وجنوده الكفار، وأنه يتهيأ للمسير إليهم بجند الإسلام، ويخبره أيضاً بموقف يحيىٰ بن حضين ـ سالف الذكر ـ وبعث أسدٌ الكتاب مع وفد بينهم يحيىٰ بن حضين (فأجاز خالد يحيىٰ بن حضين بعشرة آلاف دينار وكساه مائة حلّة) وأظهر خالد الابتهاج في العراق بأنباء النصر واندحار ابن سريج وفلول أهل الضلالة مع الكفار إلى الترمذ ببلاد ما وراء النهر.

* ـ وفي حوالي شهر ربيع الثاني انطلق أسد بجنود العروبة والإسلام من بَلْخ وعبروا النهر إلى بلاد الترمذ، وكانت الحامية العربية الإسلامية بمدينة ترمذ قد أعلنت ارتباطها بالأمير أسد ودولة الخلافة، ومنعوا ابن سُريج والسَّبْل من دخول المدنية، وكانت الحامية بقيادة سنان الأعرابي. قال ابن الأثير: «قَدِم أسد بن عبد الله بَلْخ، واتخذ سفناً، وسار منها إلى ترمذ، فوجد الحارث بن سريج محاصراً لها، وبها سنان الأعرابي، فنزل أسد دون النهر ـ نهر ترمذ ـ ولم يطق العبور إليهم. .» وقال الطبري: «اتخذ أسدٌ سُفناً وسار من بَلْخ إلى الترمذ، فوجد الحارث بن سريج محاصراً سناناً الأعرابي، ومع سنان بنو الحجاج بن هارون وبنو زُرعة وبنو عطية الأعور في أهل الترمذ، ومع الحارث السَّبْل، فنزل أسد دون النهر، ولم يُطق القطوع إليهم، ولا أن

يمدّهم، وخرج أهل الترمذ من المدينة فقاتلوا الحارث قتالاً شديداً..» ـ بينما في ذات الوقت وقع ما ذكره الطبري في نبأ نزول أسد بما دون النهر قائلاً: «مضى أسد حتى أتى الترمذ فنزل دون النهر ووضع سريره على شاطئ النهر وجعل الناس يعبرون، فمن سفلت سفينته عن سفن المدينة قاتلهم أصحاب الحارث في سفينته، فالتقوا في سفينة فيها أصحاب أسد، فيهم أصغر بن عيناء الحميري، وسفينة أصحاب الحارث فيها داود الأعسر، فرمى أصغر فَصك السفينة وقال: أنا الغلام الحِمْيَري، فقال داود الأعسر: لأمر ما انتسبت إليه لا أرض لك، وألزق سفينته بسفينة أصغر، فاقتتلوا. وأَقْبَلَ الاشكند وقد أراد الحارث الانصراف فقال له: إنما جئتك ناصراً لك، فكَمَنَ الاشكند وراء دير، وأقبل الحارث بأصحابه ـ صوب مدينة ترمذ ـ وخرج إليه أهل الترمذ، فاستطرد لهم، فاتبعوه» ـ وهنا يأتي ما ذكرته الرواية الأولى بقولها: «..وخرج أهل الترمذ من المدينة فقاتلوا الحارث قتالاً شديداً وكان الحارث استطرد لهم، ثم كرّ عليهم فانهزموا..» ـ وأثناء ذلك وقع ما ذكرته الرواية الثانية بقولها: «..فاستطرد لهم الحارث، فاتبعوه، ونصر بن سيار مع أسد جالسٌ ينظر، فأظهر الكراهية وعرف أن الحارث كادهم، فظن أسد أنه إنما فعل ذلك شفقة على الحارث حين ولّى، فأراد أسد معاتبة نصر، فإذا الاشكند قد خرج عليهم ـ من ممكنه ـ فحمل على أهل الترمذ فهربوا ـ (منهزمين إلى داخل المدينة) ـ فَقُتل في المعركة يزيد بن الهيثم بن المنخل الجرموزي من الأزد وعاصم بن معول النجلي في خمسين ومائة من أهل الشام» ـ ويدل ذلك على أن أسد بعث قوة من جند الشام وغيرهم مدداً للذين بمدينة ترمذ ـ ثم تحصن أهل مدينة ترمذ وحاميتها والذين معهم من المدد داخل المدينة، وجاء في الرواية الثانية أنه: «ثم ارتحل أسد إلى بَلْخ» ـ والظاهر أن ذلك كان خطة لمفاجأة العدو بالهجوم وهو آمن بانسحاب أسد من منطقة ما دون نهر الترمذ إلى بَلْخ، بينما لم يتوجه أسد إلى بَلْخ وإنما إلى منطقة حصن باذكر في أرض زمّ وكان الحصن بيد قوة من أصحاب الحارث بن سريج بقيادة هيثم الشيباني فحاصر أسد الحصن، بينما في مدينة ترمذ ـ جاء في الرواية الأولى أنه ـ «كان بشر بن جرموز وأبو فاطمة الأيادي ومن كان مع الحارث بن سريج من القرى ـ (أهل القرى؟) ـ يأتون أبواب ترمذ فيبكون ويشكون بني مروان وجورهم، ويسألونهم النزول إليهم على أن يمالئوهم على حرب بني مروان، فيأبون عليهم. فقال السَّبْل وهو مع الحارث بن سريج: يا حارث إن الترمذ قد بُنيت بالطبول والمزامير ولا تُفتح بالبكاء وإنما تُفتح بالسيف فقاتل إن كان بك قتال، وتركه السَّبْل وسار إلى بلاده» ـ ويبدو أن السَّبْل كان قد عرف أن أسد بن عبد اللّه بمنطقة حصن باذكر ولن يلبث أن يأتي بجند الإسلام، فاستشعر الخطر، فقال للحارث بن سُريج ما قال، وانصرف بفرسانه

المشركين إلى بلاده، وبذلك لم يتبق مع ابن سريج إلا جماعة يسيرة بمشارف ترمذ، وإلا القوة التي في حصن باذكر بمنطقة زَمّ. قال الطبري: «وخرج أهل الترمذ إلى الحارث بن سريج فهزموه وقتلوا أبا فاطمة وعكرمة وقوماً من أهل البصائر» ـ فهرب الحارث بن سريج إلى طخارستان، بينما في ذات الوقت كان أسد القَسْري يحاصر حصن زَمّ ـ قال الطبري: «وكان أسد حين مرّ بأرض زمّ تعرض للقاسم الشيباني وهو في حصن بزمّ يقال له باذكر، ومضى حتى أتى ترمذ.. ثم ارتحل أسد إلى بَلْخ، وخرج أهل الترمذ إلى الحارث فهزموه.. وسار أسد إلى سمرقند في طريق زَمَّ، فلما قدِم زَمَّ بعث إلى الهيثم الشيباني وهو في باذكر، وهو من أصحاب الحارث، فقال أسد: إنكم إنما أنكرتم على قومكم ما كان من سوء سيرتهم ولم يبلغ ذلك النساء ولا استحلال الفروج ولا غلبة المشركين على مثل سمرقند، وأنا أريد سمرقند، وعليّ عهد اللّه وذمته أن لا يبدأك منّي شرٌّ ولك المواساة واللطف والكرامة والأمان ولِمَن معك، وأنْتَ إنْ غَمَصت ما دعوتك إليه فعليّ عهد اللّه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير خالد إن أنت رميت بسهم أن لا أؤمنك بعده. فخرج القاسم الشيباني إليه على ما أعطاه من الأمان، فأمّنه، وسار معه إلى سمرقند، فأعطاهم عطاءَين..» (اهـ).

وقد كان انضمام القاسم الشيباني والذين معه إلى أسد الْقَسْري من جهة وانهزام الحارث بن سريج في ترمذ وهروبه مع من تبقى من فلول أصحابه إلى طخارستان من جهة أخرى بمثابة النهاية لفتنة ابن سريج إذْ أنه من بين الذين قال لهم الكميت: (فكيف وأنتم سبعون ألفاً)، لم يتبق مع ابن سُرَيج إلا نحو ألف رجل ساروا معه إلى طخارستان وتحصنوا في قلعة يقال لها: (تبوشكان) بينما الغالبية العظمى من السبعين ألفاً سواء كانوا مسلمين أو معاهدين عادوا إلى سلطة دولة الخلافة.

***

تحرير بُخارى وسمرقند بقيادة أسد

وفي حوالي شهر ربيع الثاني ١١٧هـ انطلق الأمير أسد بن عبد اللّه الْقَسْري من منطقة زَمَّ وترمذ على رأس زهاء خمسين ألفاً من جند العروبة والإسلام لتحرير سمرقند وبُخارى من يد المشركين الكفار، وقد سلف قول الأمير أسد للقاسم الشيباني والذين كانوا معه في حصن زَمَّ: «إنكم إنما أنكرتم على قومكم ما كان من سوء سيرتهم، ولم يبلغ ذلك النساء واستحلال الفروج ولا غلبة المشركين على مثل سمرقند، وأنا أريد سمرقند..».

ولم تذكر الروايات السنة التي تغلب فيها المشركون على سمرقند، ولعل من

المفيد الإشارة هنا إلى النقاط الرئيسية عن سمرقند وبُخارى في ذلك العهد والمتمثلة في أنه:

كانت سمرقند وبُخارى حاضرتي إقليم السُغد، وكان الإسلام قد أخذ ينتشر فيها، بينما كان غير المسلمين يؤدون الجزية، وكذلك كانت في عهد الولاية الأولى لأسد بن عبد اللَّه على خراسان (١٠٦ ـ ١٠٩هـ) وكان عامل أسد على سمرقند الحسن الكندي ونائبه ثابت قُطنة الأزدي.

ثم تولى خراسان أشرس بن عبد اللَّه القَسْري القيسي الذي انتهج سياسة متطرفة، وتمادى إلى حد فرض الجزية على الذين أسلموا من أهل السُغد وبُخارى ـ سنة ١١٠هـ ـ (وكفرت السُغد وبُخارى واستجاشوا بالترك وخاقان)، فوقعت معارك استشهد فيها ثابت قُطنة الأزدي وكثير من المسلمين، وتم عزل أشرس السلمي وتأمير الجنيد بن عبد الرحمٰن على خراسان سنة ١١١هـ، وكانت سمرقند وبُخارى ما تزالان بيد وتحت سلطة المسلمين عندما اندلعت موقعة الشِّعب بين المسلمين بقيادة الجنيد والكفار بقيادة خاقان سنة ١١٢هـ، ولما انهزم المسلمون انسحب الجنيد إلى سمرقند وتحصن فيها أربعة أشهر، بينما تقهقر وتفرق أغلب المسلمين إلى عدة مناطق، وقد قيل إن موقعة الشِّعب كانت سنة ١١٣هـ وقال ابن عرس العبدي في قصيدته التي بعثها إلى خالد القَسْري: ـ

أضْحَتْ سَمَرقَنْدُ وأشياعُها ... أحدوثةَ الغايِب والشاهِدِ

وكَمْ ثوى في الشِّعب من حازم ... جَلدِ القُوى ذي مِرَّة ماجد

. . جُنيدُ ما عِيصُك منسوبُهُ ... نَبعاً ولا جَدُّكَ بالصَّاعدِ

خمسون ألفاً قُتِلوا ضِيعَةً ... وأنتَ منهم دعوةَ الناشد

إلى أن قال: ـ

قصيدَةً حَبَّرَها شَاعِرٌ ... تسعَى بها البُردُ إلى خالِدِ

وما لبث أن بعث خالد عشرة آلاف مقاتل من أهل البصرة وعشرة آلاف من أهل الكوفة مدداً للجنيد والمسلمين، وقد ذكرت إحدى روايتين بتاريخ الطبري أنه بعد موقعة الشِّعب: أقام الجنيد بسمرقند ذلك العام وانصرف خاقان إلى بُخارى فحاصرها وكان عليها قطن بن قتيبة، فخاف المسلمون على بُخارى من الترك. . وقد استفتح خاقان بُخارى فلم يفتحوا له. . واستخلف الجنيد في سمرقند عثمان بن الشخير في ثمانمائة مقاتل، وسار الجنيد بالناس من سمرقند حتى دنا من الطواويس، وأقبل خاقان فعرضوا له بكرمينية ـ مفازة كرمينية ـ أول يوم من

رمضان، فمالت الترك على ساقة المسلمين وقد دنا المسلمون من طواويس، فاقتتلوا، فحمل سلم بن أحوز على عظيم من عظماء الترك فقتله، فتطيّر الترك وانصرفوا من طواويس ومضى المسلمون فأتوا بُخارى يوم المهرجان» ثم ذكر الطبري الرواية التالية والتي فيما يلي نصها: «قدِمت الجنود ـ المدد ـ مع عمرو بن مسلم في أهل البصرة وعبد الرحمٰن بن نعيم في أهل الكوفة، والجنيد بالصغانيان، فسرَّح معهم الحوثرة بن يزيد العنبري فيمن انتدب معه من التجار وغيرهم، وأمرهم أن يحملوا ذراريَّ أهل سمرقند ويَدَعوا فيها المقاتلة، ففعلوا» ـ انتهى ـ (ص٢١٤/ ٨).

إن ذلك هو آخر ما ذكرته الروايات التاريخية عن بُخارى وسمرقند، ويستفاد من ذلك أن الجنيد قام بإجلاء ذراري المسلمين من سمرقند، ولم يبق فيها سوى حامية عسكرية تتكون من ثمانمائة مقاتل بقيادة عثمان بن عبد اللّٰه بن الشخير وكان على خراج سمرقند شداد بن خالد الباهلي، وأن بُخارى كانت بيد المسلمين فقد فكَّ خاقان الحصار عنها وانصرف بجيشه. ودخل الجنيد والمسلمون بُخارى يوم المهرجان وكان عامل بُخارى قطن بن قتيبة، ثم عاد الجنيد والجيش إلى بَلْخ ومرو، وبقي قطن بن قتيبة عاملاً في بُخارى، وكان ذلك في أواخر سنة ١١٣هـ، مما قد يشير إلى أنّ انصراف خاقان بجيشه وبالمشركين وعودة الجنيد وجيشه إلى خراسان ربما كان بسبب فصل الشتاء.

وننتهي من ذلك إلى احتمالين عن وقت تغلب المشركين على سمرقند، الاحتمال الأول: أن ذلك كان أيام الجنيد ـ سنة ١١٤هـ ـ فعندما تولى خراسان عاصم بن عبد اللّٰه الهلالي في صفر ١١٦هـ قام بحبس عمال الجنيد ـ ومنهم شداد بن خالد الباهلي وقَطَن بن قتيبة وعثمان بن الشخير، وهم عمال سمرقند وبُخارى، والظاهر أنهم لم يكونوا هناك وإنما كانوا في مرو، ولم تذكر الروايات تولية أحد مكانهم. مما قد يعني أن المشركين كانوا قد تغلبوا على سمرقند وبُخارى، وقد مكث عمال الجنيد في الحبس إلى أن أطلق الأمير أسد سراحهم عند دخوله مرو في محرم ١١٧هـ. الاحتمال الثاني: أن المشركين تغلبوا على سمرقند أيام فتنة الحارث بن سريج سنة ١١٦هـ.

وقد أعطى أسد بن عبد اللّٰه الْقَسْري اهتماماً أساسياً لتحرير سمرقند وكذلك بُخارى، وكان ذلك الهدف من العوامل التي جعلت الكثير من الذين كانوا مع ابن سريج يبادرون بالانضواء تحت لواء أسد ويسيرون في جيشه من أرض زَمّ والترمذ إلى بُخارى وسمرقند في ربيع الثاني ١١٧هـ، وكان مع الأمير أسد زهاء خمسين ألفاً من فرسان العروبة والإسلام فأذعنت بُخارى إلى طاعته ولم تذكر الروايات وقوع قتال

في بُخارىٰ، وربما يعود ذلك إلى أن انتقاض بُخارى والسُغد منذ سنة ١١٠هـ كان بسبب فرض الجزية على الذين أسلموا والتعسف مع غير المسلمين فلما قَدِم أسد بن عبد اللّٰه وأخبرهم أن ذلك إنما كان من سوء سيرة بعض الولاة وأن لأهل بُخارى عهد اللّٰه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير خالد وذمته بالسيرة العادلة ـ (التي عرفوها في ولايته الأولى) ـ استجابوا لذلك، فدخل الأمير أسد بُخارى، وأعاد إليها سيادة وسلطة الإسلام، وقد أسلم على يد الأمير أسد زعيم كبير كان له ولسلالته دور مهم في تاريخ بُخارى وهو سامان جد أسرة السامانيين. وفي ذلك جاء في ترجمة أسد بن عبد اللّٰه الْقَسْري بكتاب الجامع أنه: «أسلم على يديه سامان، جد السامانيين، وسمى ابنه أسداً على اسمه». (ص٨٣). وحمل أسد من بُخارى ما يحتاجه جيشه من طعام ومؤن، ومضى من بُخارى إلى سمرقند.

قال الطبري: «حمل أسد معه طعاماً من بُخارى وساق معه أشياء كثيرة من شاء الأكراد، قَسّمَها فيهم، ثم ارتفع إلى وَرَغسر، وماء سمرقند منها، فسَكّرَ الوادي وصَرَفه عن سمرقند، وكان يحمل الحجارةَ بيديه حتى يطرحها في السكر». وكان ذلك في إطار حصار أسد وجنوده للمشركين في سمرقند حتى أذعنوا إلى التسليم.. قال ابن خدون: «وأعطاهم أسدٌ الأمان على تسليم سمرقند، فأنزلهم على الأمان».

وبذلك تم تحرير سمرقند واستلمها ودخلها الأمير أسد ـ في حوالي شهر جمادى ١١٧هـ ـ فرفرفت رايات الإسلام في ربوع سمرقند ونواحيها وفي بُخارى ونواحيها كما في الترمذ والجوزجان وغير ذلك من المناطق الإسلامية ببلاد ما وراء نهر جيحون. واستعمل أسد عليها العمال ونشر فيها الحاميات، وكان أبرز عمال أسد المقدام بن عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي الذي كان أبوه عامل الخليفة عمر بن عبد العزيز على خراسان، وقد ولاه الأمير أسد على إقليم الجوزجان وما جاوره من بلاد ما وراء النهر. قال الطبري: (ثم قفل أسد من سمرقند حتى نزل بَلْخْ) ـ وذلك في حوالي شهر رجب ١١٧هـ.

* * *

نبأ فرقة فدائيّة بعثها أسد إلى طخارستان العليا بقيادة جُدَيع الكرماني

لما عاد الأمير أسد بن عبد اللّٰه الْقَسْري من سمرقند إلى مدينة بَلْخْ، تشاور مع عدد من القادة الموثوقين، بينهم جُدَيْع بن علي الكرماني الأزدي وهو خال يزيد بن المهلّب وقد صارت إليه رئاسة الأزد في ولاية أسد الأولى، ولما عاد أسد والياً لخراسان كان جُدَيع من أول الذين انضموا إليه في مرو ـ لأنه كان يقيم في مرو ـ وشهد معه سائر المشاهد حتى تحرير سمرقند والعودة إلى بَلْخْ، وكان جُدَيْع يُقالُ

له: (شيخ الأزد وفارسها)، فتشاور أسد مع جُدَيْع وبعض القادة في توجيه فرقة فدائية تمضي من بَلْخْ وتعبر نهر جيحون وتخترق أقاليم بلاد ما وراء النهر إلى طخارستان العليا ثم إلى قلعة التبوشكان التي نزل فيها الحارث بن سريج وبقية الناكثين الذين معه، ومصاولتهم، لأن بقاءهم في أراض تابعة لبلاد العدو سيكون فيه ضرر بالمسلمين في أي حروب قادمة مع العدو لأنهم سيكونون مع العدو فيكشفون لهم الأسرار لأن لهم أقارب وعشائر يمكن أن يتصلوا بهم وقد يؤثرون عليهم لخلخلة صفوف المسلمين. فتم اتخاذ قرار القيام بالعملية الفدائية وأن تقوم بها فرقة من الفرسان الأبطال الموثوقين ـ ربما كان من معايير اختيارها أن لا يكون أفرادها من أقارب وعشائر الذين مع ابن سريج ـ فاختار الأمير أسد لقيادة الفرقة الفدائية جُدَيْع بن علي الكرماني، وأن تنقسم الفرقة إلى أربع مجموعات، الأولى: بقيادة جُدَيْع بن علي الكرماني وتضم خمسمائة من فرسان الأزد من أهل مرو أصحاب جُدَيْع. والمجموعة الثانية: بقيادة منصور بن سالم البجلي وتضم زهاء ألفين من الفرسان ـ ربما من القوات والشرطة الخاصة بالأمير أسد لأن منصور البِجلي قريب الأمير أسد فكلاهما من بجيلة. والمجموعة الثالثة: بقيادة صالح بن القعقاع الأزدي وتضم ألفين وخمسمائة من جُند بَلْخْ من أهل الشام. والمجموعة الرابعة: بقيادة الأزهر بن جرموز النميري وتضم ألفاً من الفرسان، فيكون مجموع الفرقة ستة آلاف تم اختيارهم بشيء من الدقة والسرية.

وقد ذكر الطبري في تاريخ الأمم والملوك نبأ تلك الفرقة الفدائية فقال: «نزل أسدٌ منصرفَه من سمرقند مدينة بَلْخْ، فسرّح أسدٌ جُديعاً في ستة آلاف، منهم سالم بن منصور البِجلي في ألفين، والأزهر بن جرموز النميري في أصحابه، وجُند بَلْخْ وهم ألفان وخمسمائة من أهل الشام عليهم صالح بن القعقاع الأزدي».

وخرجت مجموعات الفرقة من بَلْخْ بشكل متفرق ومناسب لا يلفت الانتباه إلى وجهتهم، والتقت الفرقة في مكان ما، وحدد جُدَيْع الكرماني طريقاً تسلكه كل مجموعة على أن تلتقي المجموعات الأربع في وادي قلعة التبوشكان يوم كذا، وقد ذكرت رواية الطبري الطريق الذي سلكه منصور البجلي ـ ربما لأن الرواية عن بعض أولاده ـ ولما وصل منصور إلى الوادي فوجئ بأن جُدَيْعاً قد وصل قبله. قال الطبري: «فوجَّه جُدَيْع الكرماني منصور بن سالم في أصحابه فقطع نهر ضرغام وبات ليلهُ، وأصبح فأقام حتى مَتَع النهار، ثم سار يومه قريباً من سبعة عشر فرسخاً، فأتعب خيله، ثم انتهى إلى كشتم من أرض جيغويه فانتهى إلى حائط فيه زرع قد قصّب فأرسل أهل العسكر دوابّهم فيه وبينهم وبين القلعة أربعة فراسخ، فلما صار

إلى الوادي جاءته الطلائع من أصحاب الكرماني فأخبرته بمجيء قوم ـ من أتباع ابن سريج ـ ورأسهم المهاجر بن ميمون فلما صاروا إلى الكرماني كابدهم فانصرفوا، وسار حتى نزل جانباً من القلعة، وكان الكرماني أول ما نزل في زهاء خمسمائة ـ في مكان بالوادي ـ فلما أصبح تتامت إليه الخيل وتلاحقت من أصحاب الأزهر وأهل بَلْخ، فلما اجتمعوا خطب فيهم الكرماني. .» ـ ويبدو من الخطبة أنه شَكّ في أن خبر الفرقة ربما بلغ اتباع ابن سريج عن طريق بعض جنود الفرقة من أهل بَلْخ لأن مجيء المهاجر بن ميمون في جماعة من أتباع ابن سريج إلى مكان التقاء الفرقة عند وصول جُدَيْع الكرماني قد لا يكون مصادفة، أو أن الكرماني أراد بخطبته إرهاب جنود الفرقة الذين من أهل بَلْخ حتى لا يقع محذور، فقد خطب الكرماني لما اجتمعوا ـ (فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: يا أهل بَلْخ قد لا أجد لكم مثلاً غير الزانية من أتاها أمكنته من رجلها، أتاكم الحارث بن سريج في ألف رجل من العجم فأمكنتموه من مدينتكم فقتل أشرافكم وطرد أميركم ثم سرتم معه مِن مُنَاكِفيه إلى مرو فخذلتموه ثم انصرف إليكم منهزماً فأمكنتموه من المدينة. والذي نفسي بيده لا يبلغني عن رجل منكم كتب كتاباً إليهم في سَهْم إلا قطعتُ يده ورجله وصلبتُه، فأما من كان معي من أهل مرو فهُم خاصتي ولستُ أخاف غدرهم».

ثم نَهدَ جُدَيْع الكرماني بالفرقة من مكان اللقاء بالوادي إلى القلعة وبينهما أربعة فراسخ فسار حتى نزل جانباً من القلعة، فحاصرها، فأقام يوماً وليلة من غير قتال فلما كان من الغد نادى منادٍ إنّا قد نبذنا إليكم بالعهد، فقاتلوهم حتى فتح جُدَيْع القلعة، فقتل مقاتلتهم، وقتل بني برزي التغلبيين وهم أصهار الحارث، وسَبَى عامة أهلها من العرب والعجم والذراريّ وساقهم معه إلى بَلْخ. وكان الذين قتلهم في القلعة أربعمائة، وكان من الأسرى خمسين رجلاً فيهم المهاجر بن ميمون ونظراؤه من وجوههم، فيُقال إنه حملهم إلى أسد فقتلهم، ويقال بل قتلهم في القلعة وأن أسداً كتب إليه فصيّرهم أثلاثاً، فصلب ثلثهم، وقطع أيدي وأرجل ثلثهم، وقطع أيدي الثلث الأخير، وكان كل الذين في القلعة أربعمائة وخمسين مقاتلاً من أصحاب ابن سريج وكان رئيسهم جرير بن ميمون وفيهم داود الأعسر الخوارزمي وكان الحارث بن سريج قد ارتحل إلى مدينة خاقان، فعاد جُدَيْع الكرماني بالأسرى من أهل القلعة وذراريهم وأثقالهم إلى مدينة بَلْخ وباعهم فيمن يزيد بسوق بَلْخ، وأتى إلى أسد بشر بن أنيف الحنظلي وهو من قادة ابن سريج فأتى مع رجل منهم إلى أسد طالباً الأمان، فأمّنهما أسد ووَصَلهما. وقد ذكرت الروايات تلك العملية التي قادها الجُدَيْع في أحداث سنة ١١٨هـ.

* * *

نبأ القبض على خِداش الكذاب ومقتله

وكان قد أتى إلى خراسان قبل ولاية أسد ـ حوالي سنة ١١٦هـ ـ عمار بن يزيد العبّادي المُسَمّى خداشا. وقد ذكر الطبري خبره في أحداث سنة ١١٨هـ قائلاً: «وَجّه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى خراسان والياً على شيعة بني العباس فنزل مرو، وغيّر اسمه وتسمى خِداشا ودعا إلى محمد بن عليّ ـ العباسي ـ فسارع إليه ناس وقَبِلوا ما جاءهم به وسمعوا له وأطاعوا ثم غيّر ما دعاهم إليه وتكذّب وأظهر دين الخُرَّمية ودعا إليه ورخص لبعضهم في نساء بعض وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن عليّ. فبلغ أسد بن عبد اللّه خبره فوضع العيون حتى ظفر به فأُتي به وقد تجهز لغزو بَلْخ ـ (في صفر ١١٧هـ) ـ فسأله أسد عن حاله فأغلظ خِداش له القول، فأمر به فقُطعت يده ولسانه وسملت عينه.

وذكر علي بن محمد عن أشياخه قال: لما قدم أسدٌ آمل في مبدأه أتوه بخِداش صاحب الهاشمية، فأمر به قرعة الطبيب فقطع لسانه وسمل عينه، فقال أسد: الحمد للّه الذي انتقم لأبي بكر وعمر منك ـ لأنه كان يجاهر بشتمهما ـ، ثم دفعه إلى يحيىٰ بن نعيم الشيباني عامل آمل فحبسه، فلما قفل أسد من سمرقند كتب إلى يحيىٰ فقتله وصلبه).

والأصوب أنه بعث به إلى الأمير خالد الْقَسْري بالعراق، فقد كان من خبر خداش هذا أنه: ـ

ـ كان خداش من عمال خالد بمنطقة من العراق أو البحرين ـ الخليج ـ وقد روى الأصفهاني رواية تزعم أنه كان عاملاً لخالد (على دهلك)، وهذا لا يصح لأن ولاية خالد لم تكن تمتد إلى جزيرة ومنطقة دهلك ـ غرب البحر الأحمر ـ فيكون الأصوب أنه كان عاملاً بالبحرين، وقد سماه الأصفهاني (خِداش الكندي) فيكون ذلك بالولاء لأنه من الموالي واسمه عمار بن يزيد كما ذكر الطبري وابن كثير وكان لقبه خِداشاً، «فقال: ذات يوم لمحمد بن منظور الأسدي: يا أبا الصباح قد ولدتمونا، قال: ما أعرف فينا ولادة لكم وأن هذا لكذب، فقيل له: لو أقررت للأمير بولادة ما ضرك؟ قال: أأفسد واستنبط ما ليس مني وأقرّ بالكذب على قومي».

ـ وقد زعم الأصفهاني أن الذي قال لمحمد بن منظور يا أبا الصباح قد ولدتمونا هو خالد، والصواب أنه خِداش، ثم قال الأصفهاني: «فأمر خالد خِداشاً وكان عامله بضرب مولى لعباد بن إياس الأسدي فقتله. فَرُفع إلى خالد فلم يقده» بينما قال في رواية ثانية لنفس الحادثة: (أخبرني الحسن.. قال: قتل خِداش الكندي غلاماً لخالد الْقَسْري فطُولِب بالقود وهو على دهلك..». ويتبين من الروايتين أصل

ذلك بأن خُداشاً لما وقع بينه وبين محمد بن منظور الأسدي ما تقدم ذكره من كلام، أمر خداش غلاماً له بضرب مولى لعباد بن أياس الأسدي فضربه فقتله. فطُولِب خِداش بالقود ـ أي القصاص ـ فقال خداش كلاماً نسبته رواية الأصفهاني الثانية إلى خالد زوراً وبهتاناً، بينما القائل هو خِداش لما طُولِب بالقود (فقال: والله لئن أقَدْتُ من غلامي لأقيدن من نفسي ولئن أقدتُ من نفسي ليُقيدن أمير المؤمنين من نفسه ولئن أقاد أمير المؤمنين من نفسه ليُقيدن رسول اللّٰه من نفسه ولئن أقاد رسول اللّٰه من نفسه هاء هاء. يعرض باللّٰه عز وجل). ثم أضاف الأصفهاني عن صاحب الرواية كلمة: (لعنة اللّٰه على خالد) بدلاً عن كلمة: (لعنة اللّٰه على خداش) وأقول بل لعنة اللّٰه على من نسب ذلك إلى خالد سواء كان الراوي الكذاب في العصر العباسي أو الأصفهاني أو الناسخ لأن بعض الناسخين يحرفون الكلم عن مواضعه. فلما قتل غلام خداش مولى عبّاد بن أياس وطُولِب بالقود وقال ذلك القول حدث ما ذكرته الرواية الأولى للأصفهاني بقولها: «فَرُفع إلى خالد، فلم يقده، فوثب عبّاد على خداش فقتله». . والصواب: (فوثب عباد على خِداش غلام خِداش فقتله، وقال:

لعمري لئن جارت قضية خالد عن القصد ما جارت سيوف بني نصر)

ولم تذكر الرواية ما قَضَىٰ به خالد لما رُفع إليه الأمر، والظاهر أنه قضى بأن يدفع خِداش دية مولى عباد بن أُياس، ولكن الأهم من ذلك هو أنه قام بعزل خِداش بسبب الكلام الذي قيل إنه قاله لما طُولِب بالقود، فرجع خداش من المنطقة التي كان عاملها إلى الكوفة فقام عباد بن أياس بقتل غلام خداش وكان اسم الغلام خداش، وباسمه سمى عمار بن يزيد نفسه فيما بعد خداشاً.

ودخل خِداش في الحزب الشيعي السري الذي كان يُمثله بكير بن ماهان في الكوفة، وكان بكير هو القائم بالدعوة السرية لمحمد بن علي بن عبد اللّٰه بن العباس. وأظهر خداش تشيعاً شنيعاً وصل إلى حد أنه كان يتكلم على أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب بكلام سيء. ثم ـ كما تقدم في رواية الطبري ـ وجَّهَه بكير بن ماهان إلى خراسان والياً ـ سرياً ـ على شيعة بني العباس فنزل خداش بمرو ـ ربما مرو الرُّوذ أو مرو العاصمة ـ فسمع له وأطاعه شيعة بني العباس وهُم من بعض الموالي المتشيعين غالباً لأنهم أطاعوه حين (غيّر ما دعاهم إليه وتكذَّب وأظهر دين الخُرَّمية ودعا إليه ورخص لبعضهم في نساء بعض وأخبرهم أن ذلك عن أمر محمد بن عليّ). وقال الحافظ ابن كثير إن خِداشاً (دعا الناس إلى خلافة محمد بن علي فاستجاب له خلق، فلما التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الخرمية والزنادقة وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أن محمد بن علي يقول ذلك وقد

كذب عليه. فأظهر اللّه عليه الدولة، فأُخذ» ـ وذلك عند قدوم أسد بن عبد اللّه إلى خراسان ومسيره إلى آمل وبَلْخ للقضاء على فتنة ابن سريج، فبلّغه خبر خداش فوضع العيون عليه حتى ظفر به، فأتوه به من مرو الرُّوذ وهو في آمل، وكان مع خداش أيضاً حزَوّرً مولى المهاجر بن دارة الضبي، فسأل أسدٌ خداشاً عن حاله وما يُنسب إليه من الدعوة إلى دين ومذهب الخرمية والزنادقة وغير ذلك، فأجاب عليه خداش بقول فيه طعن بالدين وبالدولة، فأمر أسد الطبيب قرعة فقطع لسانه ثم قال له أسد: الحمد للّه الذي انتقم لأبي بكر وعمر منك، ثم دفعه إلى يحيىٰ بن نعيم عامل آمل فحبسه مع حَزَوّرً مولى المهاجر بن دارة. فلما رجع أسد من سمرقند إلى مدينة بَلْخْ ـ في رجب ١١٧هـ ـ ورجع جُدَيْع الكرماني من العملية الفدائية بطخارستان العليا ـ ربما في شوّال ـ كتب أسد إلى يحيىٰ بن نعيم عامل آمل مكتوباً بشأن خداش، فجاء في رواية الطبري أنه: (لما قَفَل أسد من سمرقند كتب إلى يحيىٰ فقتله وصلبه بآمل، وأتى بحزَوّرً مولى المهاجر فضرب عنقه بشاطئ النهر)، ولعل الصواب أن الذي تم قتله وصلبه بآمل هو حزَوّرً أما خُداش فتم إرساله إلى العراق، قال الحافظ ابن كثير: «فجيء بخداش إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير العراق وخراسان، فأمَرَ به فقُطعت يده وسُلّ لسانه ثم صُلِب بعد ذلك» (ص٣٢٠، جـ٩ ـ البداية والنهاية).

اعتقال سليمان بن كثير ونقباء الدعوة العباسية وعفو أسد عنهم

لما قضى الأمير أسد الْقَسْري على فتنة الحارث بن سريج التميمي كَشَفَ له بعض المُضرية وجود نشاط سري للذين تسميهم الروايات (جماعة من دعاة بني العباس بخراسان) وهُم ستة رجال كانوا بالفعل من نقباء الدعوة الذين سَمّاهم واختارهم محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس وكان عدد النقباء اثني عشر منهم هؤلاء الستة وهُم سليمان بن كثير الخزاعي الأزدي اليماني، ومالك بن الخيثم الخزاعي، وطلحة بن زريق الخزاعي، وخالد بن إبراهيم الشيباني من ربيعة، وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ من تميم. وكان أهمهم سليمان بن كثير فقد كان والده كثير بن أمية الخزاعي من كبار مشايخ اليمانية بخراسان وكان سليمان هو شيخ ونقيب النقباء، وأما طلحة بن زريق فكان والده من رجال وقادة المُهلّب واشترك في ثورة ابن الأشعث وكذلك في عهد يزيد بن المُهلّب. فلما تم الرفع بأولئك الستة إلى أسد الْقَسْري أمر باعتقالهم فتم أخذهم وإحضارهم إليه، إما إلى بَلْخ، وإما في مدينة مرو.

فجاء في تاريخ الأمم والملوك أنه: «في سنة ١١٧هـ أخذ أسد بن عبد اللّه جماعة من دعاة بني العباس بخراسان، فقتل بعضهم ومَثَّلَ ببعضهم ـ (يعني خداشاً وحزَوّرً) ـ وحبس بعضهم، وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم

وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ وخالد بن إبراهيم وطلحة بن زُريق. فأُتي بهم، فقال لهم: يا فَسقَة ألم يقل اللّه تعالى ع«عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ منه واللَّهُ عزيزٌ ذو انْتِقام؟» فقال سليمان بن كثير: أتكلم أم أسكت؟ قال: بل تكلم، فقال: نحن واللّه كما قال الشاعر: ـ

لـو بـغـيـرِ الـمـاءِ حَـلْـقـي شَـرِقٌ كـنـتُ كـالـغَـصّـان بـالـمـاءِ اعْـتِـصـارِي

تدري ما قصتنا، صِيدت واللّهِ العقاربُ بيدك، أيها الأمير، إنّا أُناس من قومك. . » ـ وجاء في كتاب القبائل العربية: (. . قال سليمان لأسد: أيها الأمير، إنّا أُناس من قومك اليمانية، وإن هؤلاء المضرية تعصبوا علينا فرفعوا إليك فينا الزور والبهتان» ـ وقد أُضيف إلى كلام سليمان في رواية الطبري أنه قال: (إن هذه المُضَريّة إنما رفعوا إليك هذا لأنّا كنا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم وإنما طلبوا بثأره) ـ والصحيح أن ذِكر قتيبة لم يجئ إلا بعد انتهاء سليمان من كلامه المتقدم وقد يكون سليمان قال: (. . كنا أشدّ الناس على الحارث بن سريج) فلما انتهى من كلامه وكما ذكر الطبري: «قال شريك بن الصامت الباهلي: أيها الأمير إن هؤلاء قد أُخِذوا مرة بعد مرة. فقال مالك بن الهيثم: اصلح اللّه الأمير ينبغي أن تعتبر كلام هذا بغيره. وقال لشريك بن الصامت: كأنّك يا أخا باهلة تطلبنا بثأر قتيبة نحن واللّه كنّا أشد الناس عليه. فبعث بهم أسد إلى الحبس. ثم دعا عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي فقال له: ما ترى؟ قال: أرى أن تمنّ بهم على عشائرهم، قال: فالتميميان اللذان معهم؟ قال: تخلي سبيلهما، قال: إنا إذاً من عبد اللّه بن يزيد نَفيٌّ، قال: فكيف تصنع بالربعي؟ قال: أخلي واللّه سبيله» . ـ فأطلق أسد سراح سليمان بن كثير ومالك وطلحة وخالد الربعي، وبعد أيام (دعا أسد بموسى بن كعب وأمر به فأُلجم بلجام حمار وأمر باللجام أن يُجذب فجُذب حتى تحطمت أسنانه ودُقّ أنفه ووجئتْ لحيته فندر ضرسٌ له. ثم دعا بلاهز ابن قريظ، فقال لاهز: واللّه ما في هذا الحق أن تصنع بنا هذا وتترك اليمانيين والربعي، فأمر بضربه ثلثمائة سوط وبصلبه، فقال الحسن بن زيد الأزدي: هو لي جارٌ وهو بريءٌ مما قُذف به، قال أسد: فالآخر؟ قال: أعرفه بالبراءة، فخلى سبيلهما» .

وبذلك عفا أسد عن النقباء الستة، وبما أن أسداً كان ذا نزعة يمانية فقد بادر بإطلاق سراح اليمانيين والربعي وأخذ باحتمال أن يكون ما تم رفعه إليه عنهم وراءه عصبية مضرية، وبما أن ذلك الاحتمال لم يكن قائماً بالنسبة للتميميّين لأنهما من المرية فقد عاقبهما عقوبة يسيرة ثم خلى سبيلهما بما يشبه الضمانة من الحسن بن زيد الأزدي، وبذلك تجلّت حكمة وسياسة أسد واختفى ذلك النشاط.

* * *

إنجازات أسد بخُراسان وفتوحاته سنة ١١٨هـ

قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «ثم دخلت سنة ثماني عشرة ومائة.. وكان الأمير على العراق خالد بن عبد اللّه القَسْري وإليه المشرق كله، وعامله على خُراسان أخوه أسد بن عبد اللّه، وعامله على البصرة بلال بن أبي بردة.. واتخذ أسد مدينة بَلْخ داراً سنة ١١٨ ونقل إليها الدواوين، واتخذ المصانع، ثم غزا طخارستان ثم أرض جيغويه ففتح وأصاب سبياً». (ص٢٣٠، جـ٨).

١ ـ اتخاذ مدينة بَلْخ عاصمة ومقراً للأمير أسد

لقد قام الأمير أسد القَسْري ببناء مدينة بَلْخ سنة ١٠٧هـ وأكمل بناءها وأسكن المسلمين فيها سنة ١٠٨هـ وذلك في ولايته الأولى لبلاد خراسان، وحينئذٍ مدحه أبو البريد البكري بالقصيدة التي قال له فيها: ـ

يا خير ملكٍ سَاسَ أمر رعيةٍ إنّي على صدق اليمين لحالِفُ
إنّ المباركة التي حَصّنْتَها عُصِم الذليلُ بها وقرّ الخائفُ

وأصبحت مدينة بَلْخ آنذاك مركزاً لإقليم بَلْخ وهراة بدلاً من مركز البروقان الذي نقل أسد سكانه إلى بَلْخ وأقطعهم المساكن فيها وكانوا زهاء ستة آلاف من الجنود العرب مع أهاليهم وذراريهم وجماعات من الموالي والعجم المسلمين، بينما استمرت مدينة (مرو) هي عاصمة خراسان ومقر أميرها في تلك الولاية الأولى لأسد (١٠٦ ـ ١٠٩هـ) ثم في عهود الأمراء الذين حكموا بعده (١١٠ ـ ١١٦هـ) حتى عودة أسد والياً لخراسان (في رمضان ١١٦هـ) ومسيره الحربي من مرو إلى آمل وبَلْخ (في صفر ١١٧هـ) ثم مسيره الحربي إلى الترمذ وبُخارى وسمرقند حتى عودته من سمرقند إلى بَلْخ (في رجب ١١٧هـ).

إن تحويل بَلْخ إلى عاصمة للولاية واتخاذها مقراً للأمير أسد قد سبقه بالضرورة القيام بأعمال عمرانية واسعة تشمل بناء مساكن لا تقل عن عشرة آلاف مسكن لأهل الدواوين والعطاء والجنود، وبناء قصر الإمارة ومقرات دواوين الولاية وغير ذلك من المرافق العامة. وقد تم ذلك في الفترة ما بين رجب ١١٧هـ ومحرم ١١٨هـ تقريباً، ولم تميز الروايات بين المرحلة الأولى من بناء أسد لمدينة بَلْخ سنة ١٠٧هـ وبين هذه المرحلة الثانية سنة ١١٧هـ وإنما دمجت خبر المرحلتين. قال الطبري: (وكان أسد قَسَّمَ لعمارة مدينة بَلْخ الفَعَلة (أي العمال) على كل كورة (أي كل منطقة) على قدر خراجها، وولى بناء مدينة بَلْخ برمك أبا خالد بن برمك). وقال عطوان: ألزم أسد أهل كل مدينة وناحية من خراسان ببناء جزء من المدينة، ثم جعل على المدينة سوراً له سبعة أبواب، وبعد السور الأول سورين يبعدان عنه ١٢ فرسخاً) ـ ونرى أن

المدينة كان لها سور واحد، ثم في المرحلة الثانية ـ سنة ١١٧هـ ـ تم بناء سورين يبعدان عن السور الأول ١٢ فرسخاً ويحيطان بالمساكن والمرافق الجديدة وما كان فيها من قرى ومزارع. وقد قال ابن كثير: «أمر أسد بجمع ما حول بَلْخ إليها، وبناها بناءً جديداً محكماً». قال ابن خلدون: «واتخذ أسد بن عبد اللّه مدينة بَلْخ داراً، ونقل إليها الدواوين سنة ١١٨هـ» والدواوين هي دواوين الولاية التي كان مقرها مدينة مرو، وهي بمثابة أجهزة ومؤسسات الدولة ومنها دواوين العطاء وبيت المال وديوان الخاتم،فأضحت مدينة بَلْخ عاصمة لولاية خُراسان الممتدة في آفاق آسيا الوسطى ومقراً لأميرها العظيم أسد القَسْري في أوائل سنة ١١٨هـ.

٢ ـ بناء أسد للمصانع والإيوانات بأقاليم خراسان

قال الطبري في النص السالف عن ما قام به أسد في سنة ١١٨هـ «واتخذ المصانع». ولم يذكر تفصيلاً لذلك، وقد ذكر دهقان هراة تلك المصانع باسم الإيوانات، فقال دهقان هراة في كلمته يوم المهرجان ـ سنة ١٢٠هـ ـ مخاطباً الأمير أسد: «ثم بَنَيْتَ الإيوانات في المفاوز فيجيء الجائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يَجِدَان إلّا أن يقولا سبحان اللّه ما أحسن ما بَنَى الملك أسد».

ويبدو أن المصانع والإيوانات هي حصون ومقرات للعمال وفيها حاميات عسكرية ومراكز تجارية ودواب بريد وخانات للمسافرين فيجيء الجائي من مشرق بلاد خراسان والآخر من غرب خراسان فلا يجدان إلا أن يقولا: سبحان اللّه ما أحسن ما بَنَى الملك أسد لروعة البناء في تلك المصانع والإيوانات بعموم أرجاء خراسان وآسيا الوسطى.

٣ ـ عُمال أسد وحسن سيرتهم

وقد أشاد دهقان هراة بسيرة عمال أسد في أقاليم خراسان فقال في خطبته بالمهرجان مخاطباً الأمير أسد: «إنك ضبطت أهل بيتك وحشمك وعمالك فليس منهم أحد يستطيع أن يتعدّى على صغير ولا كبير ولا غنيٍّ ولا فقير» ـ فكان ذلك تمام العدل الذي ساد في عهد أسد القَسْري، وقد ذكرت الروايات من عمال أسد: ـ

أ ـ المقدام بن عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي عامل الجوزجان، وهو نجل عبد الرحمٰن بن نعيم عامل عمر بن عبد العزيز.

ب ـ يحيىٰ بن نعيم الشيباني الربعي عامل آمل، وهو ابن أخي مصقلة بن هبيرة صاحب عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي.

جـ ـ أبو العوجاء بن سعيد العبدي عامل خُلْم. والفُرَافِصَة عامل جزَّة.

د ـ عامل مرو. قال الطبري في أحداث سنة ١١٩هـ (قَدِم أسدٌ مرو وعليها

أيوب بن أبي حسان التميمي فعزله، واستعمل خالد بن شديد ابن عمه. فلما شَخَصَ أسد إلى بَلْخْ، بلغه أن عمارة بن حريم تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المُهلّب. فكتب أسد إلى خالد بن شديد: احمل عمارة على طلاق ابنة يزيد بن المُهلّب فإن أبَىٰ فاضربه مائة سوط، فبعث إليه، فأتاه وعنده العُذَافر بن يزيد التميمي فأمره بطلاقها.. فقال عُذافر: عُمارة واللّه فتى قيس وسيدها وما بها عليه أبّهة. أي ليست بأشرف منه. فأمر ابن شديد عُمارة بأن يطلقها، ففعل بعد إباءٍ منه، ثم توفي خالد بن شديد واستخلف على مرو الأشعث بن جعفر البجلي).

هـ ـ جُدَيْع بن علي الكرماني الأزدي كان من كبار عمال وقادة أسد، وقد ولاه أسد قيادة العملية الفدائية سالفة الذكر إلى قلعة التبوشكان في طخارستان العُليا... وكان أسد يستخلف الجُدَيْع على العاصمة بَلْخْ إذا سار منها.

و ـ سنان الأعرابي السلمي عامل أسد على بلاد الترمذ.

ز ـ إبراهيم بن عبد الرحمٰن الحنفي عامل أسد على هراة. ويتبين من ذلك أن عمال أسد كانوا من مختلف القبائل.. بل إن دهاقين العجم كانوا شاكرين لأيامه حامدين لسيرته العادلة.

٤ ـ غزوات أسد إلى طخارستان وأرض جيغويه وتخوم الصين

وفي سنة ١١٨هـ انطلق أسد بجنود الإسلام إلى بلاد ما وراء النهر فغزا إقليم طخارستان وأرض جيغويه. وقد أشار الطبري إلى ذلك في قوله: «اتخذ أسد مدينة بَلْخْ داراً ونقل إليها الدواوين سنة ١١٨ واتخذ المصانع ثم غزا طخارستان ثم أرض جيغويه ففتح وأصاب سبياً».

وجيغويه اسم ولقب ملك من ملوك طخارستان، وقد ذكر الطبري في موضع سابق أنه: «كان جيغويه ملك تخارستان واسمه الشذ» وأنه: «لما قطع أمير خراسان النهر تلقاه بيش الأعور ملك الصغانيان فدعاه إلى بلاده، فأتاه، ومضى مع بيش إلى الصغانيان، ثم سار إلى أخرون وشومان وهما من طخارستان فجاءه ملكها غيسلشتان فصالحه» وأنه: «في سنة ١٠٧هـ غزا الأمير أسد جبال نمرون ملك الغرشستان فصالحه نمرون وأسلم على يديه».

وقد سلك الأمير أسد الطريق من النهر إلى الصغانيان ثم طخارستان ـ سنة ١١٨هـ ـ فافتتح «شِعب خلم الذي يأخذ إلى طخارستان) واستعمل على قلعة ومنطقة خلم أبا العوجاء بن سعيد العبدي.

ومضى أسد بجنوده مجاهداً في سبيل اللّه فاجتاح إقليم طخارستان وأرض

الملك جيغويه، ثم افتتح أسد قلعة (زغرزك) من بلاد الخُتَّل، ونشر السرايا الحربية في بلاد الخُتَّل وتتبع أسد فلول العدو الذين هربوا إلى كاشغر والصين، وقد ذكر الطبري في مستهل أحداث سنة ١١٩هـ أنه: «غزا أسد بن عبد اللّٰه الخُتَّل فافتتح قلعة زغرزك، وسار منها إلى خداش، وكان الجيش قد هرب إلى الصين.. وسلم أسد والمسلمون وانصرفوا بغنائم كثيرة وسَبِيْ».

وبينما كان أسد والمسلمون يتوجهون عائدين إلى بَلْخ، إذا بخاقان ملك ملوك الكفار وعظيم الترك قد أقبل في جيش كبير، فالتقوا عند نهر جيحون في عيد الفطر سنة ١١٨هـ، حيث ذكرت الرواية: «إن الجيشين تواجهوا في يوم عيد الفطر حتى خشي جيش أسد أن لا يُصلّوا صلاة العيد، فما صلوها إلا على وجل، وعسكر أسد في مرج بَلْخ حتى أتى الشتاء، فتفرق الناس، وعاد أسد إلى بَلْخ».

ويتبين من ربط ذلك أن الأمير أسد الْقَسْري وجنوده عادوا من غزوات سنة ١١٨هـ في أيام الشتاء ـ بعد عيد الفطر بأيام شوّال ١١٨هـ ـ وكذلك انصرف خاقان والترك وقد تكبدت مقدمة جيش خاقان خسارة كبيرة، ولكن انصرافه كان بسبب فصل الشتاء. وقد ذكر الطبري أنه: «لما فارق خاقان أسداً ارتفع حتى صار بأرض طخارستان عند جيغويه، فلما كان وسط الشتاء أقبل فَمَرّ بجزّة، وسار إلى الجوجزان..» ثم مضى إلى بلاده في الإقليم الخامس من أقاليم بلاد ما وراء النهر لأنه انطلق منها سنة ١١٩هـ كما سيأتي. بينما كان الأمير أسد الْقَسْري مقيماً بمدينة بَلْخ منذ عودته من تلك الغزوة الظافرة في شوّال ١١٨هـ. فقال الشاعر ابن السجف المجاشعي يثني على الأسد اليماني أسد بن عبد اللّٰه الْقَسْري: ـ

لو سِرْتَ في الأرض تَقِيسُ الأرضا	تقيسُ منها طُولَها والعَرْضَا
لَمْ تَلْقَ خيرًا مِرَّةً ونَقْضا	من الأميرِ أسَدٍ وأمْضَا
أفضَىٰ إلَيْنَا الخيرُ حين أفْضَىٰ	وجَمَّعَ الشَّملَ وكانَ رَفْضَا
ما فاته خاقانُ إلا ركضا	قد فَضَّ من جُموعِهِ ما فَضَّا

وقام أسد بزيارة تفقديه إلى مرو وغيرها، وأمر العمال والقادة بتهيئة الجنود والناس للقدوم إلى بَلْخ في عيد الأضحى للمسير وجهاد خاقان وجيوشه، ثم عاد الأمير أسد إلى بَلْخ وأخذ يتهيأ للجهاد.

حادي عشر: أنباء الحرب الكبرى بين الأمير أسد وخاقان ملك الترك الأعظم سنة ١١٩هـ

قال الحافظ ابن كثير: «ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة.. وفيها قتل أسد بن

عبد اللّه الْقَسْري ملك الترك الأعظم خاقان . . » وكذلك استهل الطبري أحداث سنة ١١٩هـ قائلاً: «وفيها لَقِيَ أسد خاقان صاحب الترك فقتله وقتل بشراً كثيراً من أصحابه».

وكان ذلك النصر بعد حرب كبرى نذكر مسارها فيما يلي: ـ

١ ـ انطلاق أسد بجند الإسلام إلى الخُتَّل

في ذي الحجة ١١٨هـ كان أسد بن عبد اللّه في مدينة بَلْخْ، «فأمر بالنيران فرُفعت على المدينة فجاء الناس من الرساتيق إلى مدينة بَلْخْ. . فلما كان يوم عيد الأضحى صلى أسد بالناس ركعتين أطال فيهما، ثم خطب فقال في خطبته: ألا وإن عدو اللّه ابن سريج استجلب طاغيته ليطفئ نور اللّه ويبدل دينه، واللّه مُذلُّهُ إن شاء اللّه. وإن يُرد اللّه نصركم لم يضرّكم قلتكم وكثرتهم، فاستنصروا اللّه. ألا وإنه بلغني أن العبد أقرب ما يكون إلى اللّه إذا وضع جبهته للّه، وإني نازِلٌ وواضعٌ جبهتي فادعوا اللّه واسجدوا لربكم واخلصوا له الدعاء. ففعلوا».

وقد ذكرت رواية الطبري ذلك سنة ١١٩هـ وهو التباس، وجاء في الرواية عن خطبة أسد: «إن عدو اللّه ابن سريج. . ». ولعل الأصوب: «إن عدو اللّه ابن السائجي» ـ وهو ملك الخُتَّل ـ «استجلب الطاغية» وهو خاقان.

وقد انطلق الأمير أسد بجنود الإسلام عند انتهاء فصل الشتاء ـ في حوالي شهر محرم ١١٩هـ ـ حيث كما ذكر الحافظ ابن كثير: «سار أسد بجيوشه إلى مدينة خُتَّل ففتحها، وتفرقت في أرض الخُتَّل جنوده يفتحون ويغنمون». وقال الطبري: «غزا أسد بن عبد اللّه الخُتَّل فافتتح قلعة زغرزك ـ (مرة ثانية) ـ وسار منها إلى خداش وكان الجيش ـ (جيش ملك الخُتَّل) ـ قد هرب إلى الصين» ففرّق أسد جنوده في أرض الخُتَّل يفتحون ويغنمون. وكان ذلك مابين شهر محرم وشهر ربيع سنة ١١٩هـ.

٢ ـ زحف خاقان بجموع الكفار للقضاء على المسلمين

فاستنفر وجمع خاقان ملوك وجنود وقبائل الترك الكفار في بلاد ما وراء النهر، وكان خاقان ـ كما وصفه ابن كثير ـ «ملك الترك الأعظم» وكان مقره مدينة يقال لها (نواكث) في أقصى أقاليم بلاد ما وراء نهر جيحون وهو إقليم الشاش ـ فيما يلي أوزبكستان وفرغانة غالباً ـ قال الطبري: «كتب ابن السائجي ملك الخُتَّل إلى خاقان أبي مزاحم ـ (وإنما كُنِّي أبا مزاحم لأنه كان يزاحم العرب) ـ وهو بنواكث يعلمه دخول أسد الخُتَّل وتفرّق جنوده فيها. فلما أتاه كتابه أمر أصحابه بالجهاز وكان لخاقان مرج وجبل حِمًى لا يقربهما أحد ولا يتصيد فيهما يتركان للجهاد ـ أي للحرب ـ فضاءُ ما كان في المرج مسيرة ثلاثة أيام وما في الجبل ثلاثة أيام،

فتجهزوا، وارتعوا، ودبغوا مسوك الصيد واتخذوا منها أوعية واتخذوا القسيّ والنشاب، ودعا خاقان ببرذون مُسرّح ملجم، وأمر بشاة فقُطعت ثم علقت في المعاليق ثم أخذ شيئاً من ملح فصيّره في كيس وجعله في منطقته ـ أي في حزامه ـ وأمر كلّ تركيّ أن يفعل مثل ذلك، وقال: هذا زادكم حتى تلقوا العرب بالخُتَّل. وأخذ خاقان طريق خُشوراغ. .» وأخذ جموع الترك والكفار ينضمون إلى خاقان بما في ذلك بعض الملوك المعاهدين، فقد ذكرت الروايات التاريخية أنه: «أقْبَل خاقان وقد استمد من بلدان ما وراء النهر وأهل طخارستان وجيغويه الطخاري بملوكهم وشاكريتهم بثلاثين ألفاً» ـ ثم انضم إليه ملك السُّغد بقبائله وفاسم ملك الشاش وغيرهما من المعاهدين، قال الطبري: «عَبّى خاقان أصحابه وملك السُّغد وصاحب الشاش وصاحب الخُتَّل وجيغويه والتُرك». ـ فبلغ جيش خاقان مائة ألف، وزحفوا معه للقضاء على العرب والمسلمين في عموم بلاد خراسان وما وراء النهر، وأخبرهم أنه سيفتح بعد ذلك ما يلي خراسان من بلاد الإسلام حتى العراق وربما دمشق ومكة أيضاً. فكان خاقان وجيشه في ذلك الزمن أشبه بجنكيزخان والتتار في زمن جنكيزخان بأواخر العصر العباسي.

فلما سار خاقان من مدينته نواكث وسلك طريق خُشوراغ، في حوالي شهر ربيع ١١٩هـ ـ «بعث ابن السائجي إلى أسد يقول له: اخرج عن الخُتَّل فإن خاقان قد أقبل. فشتم أسد رسوله ولم يصدّقه، فبعث صاحب الخُتّل: إنّي لم أكذبك وأنا الذي أعلمتُه دخولك وتفرُّق جندك وأعلمته أنها فرصةٌ له وسألته المدد غير أنك أمعرت البلاد وأصبت الغنائم فإن لقيك على هذه الحال ظفر بك وعادتني العرب أبداً ما بقيتُ واستطال عليّ خاقان واشتدت مؤنته وامتن علي بقوله: أخرجتُ العرب من بلادك ورددت عليك مُلكك. فعرف أسد أنه قد صدقه» ـ وكذلك: «كتب أبو العوجاء بن سعيد العبدي قائد خلم، والفرافصة صاحب مسلحة جزة إلى أسد بمسير خاقان والتُرك إليه، فجمع أسدٌ الناس فأقرأهم كتاب أبي العوجاء وكتاب الفرافصة صاحب مسلحة جزّة بمرور خاقان به» ـ وعندئذٍ غالباً كانت خطبة أسد التي قال فيها: «إن عدو اللّه ابن السائجي استجلب الطاغية خاقان ليطفئ نور اللّه ويبدل دينه، واللّه مُذلّه إن شاء اللّه. . واعلموا إن يُرد اللّه نَصْرَكُم لم يضركم قلتكم وكثرتهم. . فاستنصروا اللّه».

وشاور أسد كبار أصحابه من القادة ووجوه الناس، وفي ذلك قال الطبري: «شاور أسد المسلمين فقال قوم: ترجع إلى مرو وتكتب إلى خالد وأمير المؤمنين تستمدّه. وقال آخرون: تأخذ في طريق زمٍّ وتسبق خاقان إلى مرو. وقال آخرون: بل تخرج إليهم وتستنصر اللّه عليهم، فوافق قولهم رأي أسد وما كان عزم عليه من لقائهم».

وقد كتب وبعث أسد رسولاً إلى الأمير خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بالعراق وإلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك في دمشق، وكان مبعوث أسد هو سيف بن وصاف العجلي فسار إلى الأمير خالد ثم إلى الخليفة هشام وأخبره بخبر جموع خاقان وزحفهم على المسلمين: «ففظع به هشام فلم يصدقه، وقال للربيع حاجبه: ويحك إن هذا الشيخ قد أتانا بالطامة الكبرى إذا كان صادقاً ولا أراه صادقاً، إذهبْ فعُدْ، ثم سله عما يقوله وائتني بما يقول: فانطلق الربيع إلى سيف بن وصاف فأخبره بالخبر، وتيقّن الربيع من ذلك، فدخل على هشام من ذلك أمر عظيم». وأخذ هشام والمسلمون بالشام وخالد والمسلمون بالعراق يتطلعون إلى أنباء المواجهة الكبرى بين جند العروبة والإسلام بقيادة الأمير أسد وبين جند الترك والكفار بقيادة خاقان في بلاد ما وراء نهر جيحون ـ بجمهورية أوزبكستان حالياً ـ.

٣ ـ أنباء المواجهة بين أسد وخاقان في أوزبكستان

* ـ استنفر أسد قادة وعمال وحاميات المسلمين بأقاليم خراسان وما وراء النهر، فأقبلوا إليه بأرض الخُتَّل، «فأمر أسد بالأثقال أن تُقَدّم وولى عليها إبراهيم بن عاصم العقيلي الذي وُلّي سجستان فيما بعد. وأخرج أسد معه المشيخة فيهم كثير بن أمية أبو سليمان بن كثير الخزاعي، وفضيل بن حيان المهريّ، وسنان بن داود القطعيّ. وكان على أهل العالية سنان الأعرابي السلميّ ـ عامل ترمذ ـ وعلى الأقباض عثمان بن شبَّاب الهمداني جد قاضي مرو، فسارت الأثقال.

* ـ وكتب أسد إلى داود بن شعيب والأصبغ بن ذُوالة الكلبي، وقد كان وجَّهَهُما في وجه: إن خاقان قد أقبل فانضما إلى الأثقال إلى إبراهيم بن عاصم. ووقع إلى داود والأصبغ رجل دبوسيّ فأشاع: إن خاقان قد كسر المسلمين وقتل أسداً، فقال الأصبغ: إن كان أسدٌ ومن معه أصيبوا فإن فينا هشام ننحاز إليه. فقال داود بن شعيب: قبح اللّه الحياة بعد أهل خراسان. فقال الأصبغ: بل حبذا الحياة بعد أهل خرسان، لقد قُتل الجرّاح ومن معه فما ضرّ المسلمين كثير ضرّ، فإن قُتِل أسد وأهل خراسان فلن يخذل اللّه دِينه وأن اللّه حيٌ قيوم وأمير المؤمنين حيٌّ وجنود المسلمين كثير. فقال داود: أفلا ننظر ما فعل أسد فنخرج على علم. فسارا بعسكرهما حتى شارفا عسكر إبراهيم بن عاصم فإذا هما بالنيران، فقال داود: هذه نيران المسلمين أراها متقاربة ونيران الترك متفرقة، فقال الأصبغ: هم في مضيق. ودنوا، فسمعوا نهيق الحمير، فقال داود: أما علمت أن الترك ليس لهم حمير، فقال الأصبغ: أصابوها بالأمس ولم يستطيعوا أكلها في يوم ولا اثنين. فقال داود: نسرّح فارسين فيكبّران، فبعثا فارسين فلما دنوا من العسكر كبّرا فأجابهما العسكر بالتكبير،

فأقبلوا إلى العسكر الذي فيه الأثقال ومع إبراهيم أهل الصغانيان وصغان خذاه، فقام إبراهيم بن عاصم مبادراً والتقاهما، فانضما إليه..

* ـ بينما سار أسد من الخُتَّل نحو جبل الملح يريد أن يخوض النهر، فأشرف على النهر وقد أتاه أن خاقان قد سار من سويات سبع عشرة ليلة. فقام إليه أبو تمام بن زحّر الأزدي وعبد الرحمٰن بن خنفر الأزدي فقالا: اصلح اللّٰه الأمير، إنّ اللّٰه قد أحسن بلاءك في هذه الغزوة فغنمت وسلمت، فاقطع هذه النطفة واجعلها وراء ظهرك ـ يعنيان أن ينسحب ـ فأمر بهما فوجئت رقابهما وأخرجهما من العسكر.

وكان خاقان سار بالترك من نواكث وأخذ طريق خُشوراغ، ومضى حتى دخل بلاد طخارستان. قال الطبري: «وكان الحارث بن سريج التميمي بناحية طخارستان فانضمّ إلى خاقان.. ونزل خاقان جزَّة وفيها مُسلحة لأسد عليها الفُرَافِصَة.. وأقبل خاقان وقد استمدّ مَنْ وراء النهر وأهل طخارستان وجيغويه الطُخاري بملوكهم وشاكريتهم في ثلاثين ألفاً، فنزلوا خُلم وفيها مسلحة لأسد عليها أبو العوجاء بن سعيد العبديّ فناوشهم فلم يظفروا منه بشيء. فساروا في طريق فيروز بخشين من طخارستان. فكتب أبو العوجاء إلى أسد بمسيرهم، وكذلك كتب الفُرَافِصَة صاحب مسلحة جَزَّة إلى أسد بمرور خاقان به.. وأنه مرَّ بجزَّة وسار إلى الجوزجان وبَثّ الغارات. فقال البختريّ بن مجاهد مولى بني شيبان لأسد: بثْ الخيول حتى تنزل الجوزجان، فلما بثّ الخيل قال له البختري: كيف رأيت رأيي؟ قال: وكيف رأيت صنع اللّٰه عز وجل حين أخذِتُ برأيك) ـ وذلك أن خيول أسد وخيول عبد الرحمٰن بن نعيم عامل الجوزجان دوخت خيول وسرايا خاقان وأشجَّتْها بفضل اللّٰه.

* ـ ثم أتى أسد الخبر بأن خاقان قد سار من سويات سبع عشرة ليلة، وكان أسد عند جبل الملح يريد أن يقطع نهر جيحون إلى بَلْخ، وقد قطع إبراهيم بن عاصم نهراً في أرض الختل بالأثقال وما أصاب أسد من غنائم أرض الخُتَّل، (فلما كان من الغد ارتحل أسد وفي النهر ثلاثة وعشرون موضعاً يخوضه جنوده، وفي موضع: مجتمع ماء يبلغ دَفّتي السرج، فخاضه الناس. وأمر أسد أن يحمل كل رجل شاة، فقال له عثمان بن عبد اللّٰه بن مطرف بن الشخير ـ الذي كان عامل سمرقند ـ: إن الذي أنت فيه من حمل الشاة ليس بأخطر ما تخاف وقد فرّقت الناس وشغلتهم وقد أظلك عدوك، فدع هذه الشاة لعنة اللّٰه عليها. فقال أسد: واللّٰه لا يعبر رجل ليست معه شاة حتى تفنى هذه الغنم إلا قطعت يده، فجعل الناس يحملون الشاة، الفارس يحملها بين يديه والراجل على عنقه، ويقال: لما حفرت سنابك الخيل النهر صار بعض المواضع سباحة فكان بعضهم يميل فيقع عن دابته، فأمر أسد بالشاة أن تُقذف وخاض الناس النهر، فما استكملوا العبور حتى طلعت عليهم التُرك بالدُهم.. وجعل

المسلمون يقتحمون النهر، وركب أسد النهر وأمر بالإبل أن يقطع بها إلى ما وراء النهر حتى تُحمل عليها الأثقال، ومضى أسد حتى انصرف إلى معسكره، وبعث إلى أصحاب الأثقال الذين كان سرّحهم أمامه: أن أنزلوا وخندقوا أمامكم في بطن الوادي.

* ـ وأقبل خاقان بالترك من ناحية أرض الخُتَّل وسويات، وحمل على مسلحة من الأزد وتميم لم يكونوا قد عبروا، فانكشفوا، وظن المسلمون أن خاقان لا يقطع إليهم وبينهم وبينه النهر، فلما نظر خاقان إلى النهر أمر الأشكند وهو أصبهبذنَسَا: أن يسير في الصف حتى يبلغ أقصاه ويسأل الفرسان وأهل البصر بالحرب والماء، هل يُطاق قطوع النهر والحملة على أسد؟ فكلهم يقول: لا يُطاق حتى انتهى إلى الأشتيخَن فقال: بَلَى يُطاق لأنّا خمسون ألف فارس فإذا نحن اقتحمنا دفعة واحدةً ردّ بعضنا عن بعض الماء فذهب جريته. فضربوا بكوساتهم. فظن أسد ومن معه أنه منهم وعيد فأقحموا دوابهم. فلما عبرت الترك سطع رهج عظيم لا يبصر الرجل دابته ولا يعرف الناس بعضهم بعضاً، فدخل المسلمون عسكرهم وحَوَوْا ما كان خارجاً، وخرج الغلمان بالبراذع والعمد فضربوا وجوه الترك فأدبروا.

* ـ وبات أسد فلما أصبح، وقد كان قد عبأ أصحابه من الليل تخوفاً من غدر خاقان وغُدُوَّهُ عليه، فلم ير أسد شيئاً، فدعا وجوه الناس واستشارهم ـ في سبب عدم هجوم خاقان ـ فقالوا له: إقبل العافية، قال: ما هذه عافية بل هي بلية فما منع خاقان منا اليوم إلا أنه قد وقع في يديه أسرى بالأمس فأخبروه بموضع الأثقال أمامنا، فترك لقاءنا طمعاً فيها. فارتحل أسد فبعث أمامه الطلائع فرجع بعضهم فأخبره أنه عاين طُوقات الترك وأعلاماً من أعلام الأشكند في بشر قليل. فسار أسد والدواب مثقلة، فقيل له: انزل أيها الأمير وأقبل العافية. قال: وأين هي العافية فأقبلُها إنما هي بلية وذهاب الأنفس والأموال. فلما أمسى أسد صار إلى منزل فاستشار الناس أينزلون أم يسيرون؟ فقال الناس: أقبل العافية وما عسى أن يكون ذهاب المال بعافيتنا وعافية أهل خراسان. ونصر بن سيار مُطرقٌ فقال له أسد: مالك يا ابن سيار مطرقٌ لا تتكلم؟ فقال: اصلح اللّه الأمير خلّتان كلتاهما لك: إن تسِر تُغثْ من مع الأثقال وتخلصهم، وإن أنت انتهيت إليهم وقد هلكوا فقد قطعتَ فخمةً لا بد من قطوعها. فَقَبَل أسدٌ رأيه».

وتدل استشارة الأمير أسد نصراً بن سيار في ذلك المسير على أنه قبل ذلك كان ما ذكره الطبري من أنه: «سار أسد ومعه من الجنود أهل خراسان وأهل الشام سبعة آلاف رجل، واستخلف على بَلْخ الجُدَيْع بن علي الكرماني وأمره أن لا يدع أحداً يخرج من مدينتها وإن ضرب الترك باب المدينة. فقال له نصر بن سيار الليثي

والقاسم بن بخيت المراغيّ من الأزد وسليم بن سليمان السلميّ وعمرو بن مسلم ومحمد بن عبد العزيز العتكي وعيسى الأعرج الحنظلي والبختريّ بن أبي دِرْهَم البكريّ وسعيد الأحمر وسعيد الصغير مولى باهله: أصلح اللّه الأمير ائذن لنا في الخروج للجهاد ولا تهجّن طاعتنا. فأذن أسدٌ لهم. ثم خرج فنزل باباً من أبواب بَلْخ، وضُرِبَت له قُبتان فازتان وألصق إحداهما بالأخرى وصلى بالناس ركعتين طوّلهما ثم استقبل القبلة ونادى في الناس ادعوا اللّه وأطال في الدعاء ودعا بالنصر وأمَّن الناسُ على دعائه فقال: نُصرتم وربّ الكعبة ثم انفتل من دعائه فقال: نصرتم وربّ الكعبة ثلاث مرات. وسار أسد فلما كان عند قنطرة عطاء قال لمسعود بن عمرو الكرماني وهو يومئذٍ خليفة جُدَيْع الكرماني على الأزد: ابغني خمسين رجلاً ودابة أخلفهم على هذه القنطرة فلا تدع أحداً ممن أجازها أن يرجع إليها. فلما جاز القنطرة نزل منزلاً فأقام فيه حتى أصبح وأراد المسير فقال له العذافر بن زيد: ليأتمر الأمير على المقام يومه حتى يتلاحق الناس فأمر أسد بالرحيل وقال: لا حاجة لنا إلى المتخلفين، فارتحل وعلى مقدمته منصور بن سالم البجلي في ثلثمائة، فلقى ثلثمائة من الترك طليعة لخاقان فأسر قائدهم وسبعة منهم معه وهرب بقيتهم». ـ وقد سلف في الرواية الأولى أنه: «ارتحل أسد فبعث أمامه الطلائع فرجع بعضهم فأخبره أنه عاين طوقان الترك وأعلاماً من أعلام الأشكند في بشر قليل». فيكون أولئك هم الذين بعث إليهم أسد منصور البِجلي في ثلثمائة فالتقوا بأولئك الترك وكانوا ثلثمائة فأسروا قائدهم وسبعة معه وهرب بقيتهم. فعرف أسد من الأسرى أن فرقة من جيش خاقان ساروا معه للغارة على أثقال المسلمين التي كان أسد بعثها مع إبراهيم بن عاصم من أرض الخُتَّل وأن خاقان فرّق جنوده للغارات فيما بينه وبين مرو.

وعندئذٍ استشار أسد وجوه أصحابه، وأشار عليه نصر بن سيار بما تقدم ذكره، فأخذ أسد برأيه، وسار يومه كله، ودعا أسدٌ سعيداً الصغير مولى باهله وكان عالماً بأرض الخُتَّل، فكتب معه كتاباً إلى إبراهيم بن عاصم يأمره بالاستعداد فإن خاقان قد توجه إليك. وقال لسعيد الصغير: سِرْ بالكتاب إلى إبراهيم حيث كان قبل الليل فإن لم تفعل فأسدٌ بريء من الإسلام إن لم يقتلك، وإن أنت لحقت بالعدو فعلى أسد مثل الذي حلف إن لم يبع امرأتك الدلّال في سوق بَلْخ وجميع أهل بيتك. فقال سعيد: فأعطني فرسك الكميت الذنوب، قال أسد: لعَمْري لئن جُدْتَ بدمك وبخلتُ عليك بالفرس إني للئيم: فأعطاه الفرس، فسار سعيد على دابة من جنائبه وغلامه على فرس له ومعه فرس أسد يجنبه، فلما حاذى الترك وقد قصدوا الأثقال طلبته طلائعهم فتحوّل على فرس أسد فلم يلحقوه فأتى إبراهيم بالكتاب وتبعه بعض الطلائع حتى رأوا عسكر إبراهيم فرجعوا إلى خاقان فأخبروه. فغدا خاقان على

الأثقال، وقد خندق إبراهيم خندقاً ـ وكان قد انضم إلى إبراهيم الأصبغ بن ذوالة الكلبي وداود بن شعيب بعسكرهما، وكان أسد كتب إليهما بذلك.

فأتاهم خاقان وهم قيام على الخندق، فأمر أهل السُغد بقتالهم فلما دنوا من مسلحة المسلمين ثاروا في وجوههم فهزموهم وقتلوا منهم رجلاً. وصعد خاقان تلّاً فجعل ينظر العورة ووجه القتال، فرأى خلف العسكر جزيرة دونها مخاضة، فدعا بعض قواد الترك فأمرهم أن يقطعوا فوق العسكر في مقطع وصفه حتى يصيروا إلى الجزيرة ثم ينحدروا في الجزيرة حتى يأتوا عسكر المسلمين من خلف، وأمرهم أن يبدؤوا بالأعاجم وأهل الصغانيات وأن يدعوا غيرهم فإنهم من العرب وقد عرفهم بأعلامهم، وقال لهم: إن أقام القوم في خندقهم فأقبلوا إليكم دخلنا نحن خندقهم وإن ثبتوا على خندقهم فادخلوا من دبره عليهم، ففعلوا ودخلوا عليهم من ناحية الأعاجم فقتلوا صغان خذاه وعامة أصحابه وأخذوا أموالهم، ودخل الترك عسكر إبراهيم فأخذوا ما فيه وترك المسلمون التعبية واجتمعوا في موضع وأحسوا بالهلاك.

فإذا رهج قد ارتفع وتربة سوداء، فإذا أسد في جنده قد أتاهم، فجعلت الترك ترتفع عنهم إلى الموضع الذي كان فيه خاقان. وإبراهيم يتعجب من كفهم وقد ظفروا وقتلوا من قتلوا وأصابوا ما أصابوا، وهو لا يطمع بقدوم أسد. وكان أسد قد أغذّ السير فأقبل حتى وقف على التل الذي كان عليه خاقان، وتنحى خاقان إلى ناحية الجبل، فخرج إليه من بقي ممن كان مع الأثقال وقد قُتل منهم يومئذٍ بركة بن خولى الراسبيّ وكثير أبو أمية الخزاعي ومشيخة من خزاعة، وخرجت امرأة صغان خذاه إلى أسد فبكت زوجها فبكى أسد معها حتى علا صوته. ومضى خاقان وجنوده في الأوهاق وكان مصعب بن عمرو الخزاعي ونفر من أهل الشام قد أجمعوا على ملاحقتهم، فكفّهم أسد وقال هؤلاء قوم قد طابت لهم الريح واستكلبوا فلا تعرضوا لهم. وكان مع خاقان رجل من أصحاب الحارث بن سريج فأمره خاقان فنادى: يا أسد أما كان لك فيما وراء النهر مغزى إنك لشديد الحرص قد كان لك عن الخُتَّل مندوحةٌ وهي أرض آبائي وأجدادي، فقال أسد: كان ما رأيت ولعلّ اللّه أن ينتقم منك». ـ وكان خاقان قد نشر جيوشه للغارة على الجوزجان ومرو الرُّوذ وبَلْخ، ولذلك بادر أسد بالرجوع إلى نهر بَلْخ.

* ـ ثم تقدم أسد بالمسلمين من نهر بَلْخ حتى نزل قرية السدرة، وعلى خيل أهل العالية ريحان بن زياد العامري العبدلي فعزله وصيّر على أهل العالية منصور بن سالم البِجلي. ثم ارتحل من السدرة فنزل خُريستان، فسمع أسد صهيل فرس فقال: لِمَن هذا؟ فقيل للعقار بن ذُعير، فتطيّر من اسمه واسم أبيه فقال: ردوه، قال: إني مقتول غادي على الترك، قال أسد: قتلك اللّه.

ثم سار أسد حتى إذا شارف العين الحارّة استقبله بشر بن رزين، فقال: بشارة ورزانة، ما وراءك يابن رزين؟ قال: إن لم تغثنا غُلِبنا على مدينتنا، قال: قُلْ للمقدام بن عبد الرحمٰن يطاول برمحي. ثم سار أسد فنزل من مدينة الجوزجان بفرسخين. قال عمرو بن أبي موسى : ارتحل أسد فمرّ بالجوزجان وقد استباحها خاقان حتى بلغت خيله الشبُورقان، وقصور الجوزجان إذ ذاك ذليلة، وأتاه المقدام بن عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي في مقاتلته وأهل الجوزجان، وكان عاملها، فعرضوا عليه أنفسهم، فقال أسد: أقيموا في مدينتكم، وقال للجوزجان ابن الجوزجان: سِرْ معي. ثم أصبحنا وقد تراءت الخيلان.

وكان على تعبية جيش أسد القاسم بن بخيت المَرَاغيّ الأزدي، فجعل الأزد وبني تميم والجوزجان بن الجوزجان على ميمنته، وأضاف أسد إليهم جند أهل فلسطين عليهم مصعب بن عمرو الخزاعي وجند أهل قنسرين عليهم صفراء بن أحمر، وجعل ربيعة في الميسرة وعليهم يحيىٰ بن حضين، وضمّ إليهم أهل حمص عليهم جعفر بن حنظلة البَهْرانيّ القضاعي الحميري، وفرقة من الأزد عليهم سليمان بن عمرو المقري من حِمْيَر، وعلى المقدمة منصور بن مسلم البجليّ وأضاف إليهم أهل دمشق عليهم حملة بن نعيم الكلبي وأضاف إليهم الحرس والشرطة وغلمان أسد.

وعبّى خاقان أصحابه وملك السُغد وصاحب الشاش وصاحب الخُتَّل وجيغويه والترك وخرا بغره ـ أبا خانا خره جدّ كاوس ـ والحارث بن سريج، كلهم ميمنة، وبقية الترك ميسرة، وكان خاقان قد وجّه بعض جيشه إلى مرو الرُّوذ وما جاورها.

وصلى أسد بالمسلمين ركعتين وأطال في الدعاء ودعا بالنصر فأمَّن الناس على دعائه فقال: نصرتم وربّ الكعبة ثلاث مرات، وقيل: كان ذلك يوم الفطر ـ (شوّال ١١٩هـ) ـ فكاد التُّرك يمنعونهم الصلاة، وقيل: لما واقف أسد خاقان يوم خربستان كان بينهم نهر عميق، فأمر أسد برواقه فرُفع، فقال رجل من بني قيس بن ثعلبة: يا أهل الشام أهكذا رأيكم إذ حضر الناس رفعتم الأبنية، فأمر أسد برواقة فحط، وهاجت الحرب. فحملت ميمنة خاقان ـ وفيها من تقدم ذكرهم ـ على ميسرة المسلمين وفيها ربيعة وجندان من أهل الشام فانهزموا فلم يردّهم شيء دون رواق أسد. وأمر أسد ميمنة جيشه، فشدّت الميمنة على الترك، فانهزم الترك وذهبوا في الأرض عباديد. . وأقبل خاقان في أربعمائة فارس عليهم الحمرة، وكان قال لرجل يقال له سوري: إنما أنت ملك الجوزجان إن أسْلَمْتَ العرب فمن رأيت من أهل الجوزجان وقد أتاهم فاقتله. وقال الجوزجان لعثمان بن عبد اللّٰه بن الشخير: إنّي أعلم ببلادي وطُرقها فهل لك في أمر فيه هلاك خاقان ولك فيه ذكرُ ما بقيت؟ قال:

ما هو؟ قال: تتبعني، قال: نعم، فأخذ طريقاً يُسمى ورادك فأشرفوا على طوقان خاقان وهم آمنون. فأمر خاقان بالكوسات فضُربت ضربة الانصراف وقد شبت الحربُ ـ وشدت عليهم ميمنة المسلمين ـ فلم يقدر الترك على الانصراف، ثم ضربت الثانية فلم يقدروا، ثم ضربت الثالثة فلم يقدروا لاشتغالهم بالحرب وانهزامهم، فحمل ابن الشخير والجوزجان على الطوقان وولى خاقان مدبراً منهزماً.. وكان الترك ذهبوا في الأرض عباديد لا يلوون على أحد فتبعهم المسلمون مقدار ثلاثة فراسخ يقتلون من يقدرون عليه حتى انتهوا إلى أغنامهم، وأخذ خاقان طريقاً غير الجادة في الجبل ومعه الحارث بن سريج، ولحقهم أسد عند الظهر فدخل معسكرهم. قال الطبري: «فحوى المسلمون عسكرهم، وترك التُرك قدورهم تغلي ونساء من نساء العرب والموالي ومن نساء الترك، ووجد المسلمون معسكر الترك مشحوناً من كل شيء من آنية الفضة وصناجات الترك، وأراد الخصى أن يحمل امرأة خاقان فأعجلوهن عن ذلك فطعنها بخنجر، فوجدوها تتحرك فأخذوا خفها وهو من لبود مضرب ـ (ونادى منادي أسد: برئت ذمة اللّه من رجل حمل امرأة ممن كان من الجند، ثم نظروا فإذا جارية على بعير فقال: سلوا لمن هذه الجارية، فقيل: لزياد بن حارث البكري، وزياد جالس، فقطب أسد: وقال: لا تنتهون حتى اسطو بالرجل منكم يكرم عليَّ فاضرب ظهره وبطنه، فقال زياد: لا واللّه أيها الأمير ما معي امرأة فإن كانت لي فهي حرة فإنما هذا عدو حاسد) ـ قال الطبري: (فبعث أسد بجواري ونساء الترك إلى دهاقين خراسان واستنقذ من كان في أيدي الترك من المسلمين. واستاق المسلمون من معسكر الترك أكثر من خمس وخمسين ومائة ألف شاة ودواب كثيرة. وأقام أسد خمسة أيام فكانت الخيول التي فرّق خاقان تقبل فيصيبهم أسد فاغتنم الظفر).

ثم جاء في رواية الطبري أنه: «انصرف أسد إلى بَلْخ يوم التاسع من خروجه، فقال ابن السجف المجاشعي: ـ

لو سِرْتَ في الأرْضِ تَقِيسُ الأرْضَا ... تَقِيسُ منها طولها والعَرْضَا
لَمْ تَلْقَ خيراً مِرَّةً ونَقْضا ... مِنَ الأميرِ أسَدٍ وأمْضَا
أفْضَى إلَيْنَا الخَيرُ حِينَ أفضى ... وجَمَعَ الشَّمْلَ وكانَ رَفْضَا
ما فاتَهُ خاقانُ إلا رَكْضا ... قد فضَّ مِنْ جُمُوعه ما فَضّا»

وذكر الطبري نفسه أنه: ـ

«ارتحل أسدٌ فنزل جَزّة الجوزجان من غدٍ، ـ (يوم ٧ شوّال) ـ وخاقان بها، فارتحل هارباً منها، وندب أسد الناس لمطاردته، فانتدب ناساً كثيرين من أهل الشام

وأهل العراق، فاستعمل عليهم جعفر بن حنظلة البهراني، فساروا ونزلوا مدينة تُسمى ورد من أرض جَزَّة، فأقاموا بها، فأصابهم ريح ومطر ويقال أصابهم ثلج فرجعوا. ومضى خاقان فنزل على جيغويه الطُخاري، وانصرف البهراني إلى أسد، ورجع أسد إلى بَلْخ، فلقوا خيل الترك التي كانت بمرو الرُوذ منصرفةً لِتُغير على بَلْخ فقتلوا من قدروا عليه منهم، وكان الترك قد بلغوا بيعة مرو الرّوذ، وأصاب أسد يومئذٍ أربعة آلاف درع، وكان أسد يوجه جُدَيْع بن علي الكرماني في السرايا فكانوا يصيبون الرجل أو الرجلين وأكثر من فلول الترك.

* ـ أصداء الانتصار العظيم على خاقان

عاد الأمير أسد بالنصر والظفر والغنائم إلى مدينة بَلْخ ـ في حوالي ٩ شوّال ١١٩هـ ـ «فلما صار أسد ببَلْخ أمر الناس بالصوم لافتتاح اللّه عليهم. . وكان أسد بعث من مدينة بَلْخ سيف بن وصاف العجلي على فرس فسار حتى نزل الشبورقان وفيها مساحة عليها إبراهيم بن هشام فحمله منها على البريد حتى قدم على خالد بن عبد اللّه بالعراق فأخبره ـ بزحف خاقان عليهم ـ فوجهه خالد إلى هشام بن عبد الملك، ففظع به هشام ـ وكان ذلك في بداية الحرب في شهر ربيع ١١٩هـ ـ ثم وجهه أسد في وفد حين فتح اللّه عليه ـ في شوّال ١١٩هـ ـ «فأقبل القاسم بن بخيت إلى هشام بدمشق فكبّر على الباب، ثم دخل وهو يكبر ـ إلى دار الخلافة ـ وهشام يكبر لتكبيره حتى انتهى إليه فقال: الفتح يا أمير المؤمنين وأخبره الخبر فنزل هشام عن سريره فسجد سجدة الشكر وهي واحدة عندهم».

قال ابن جرير الطبري: «فحسدت القيسية أسداً وخالداً، وأشاروا على هشام أن يكتب إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري فيأمر أخاه أن يوجه مقاتل بن حيان، فكتب إليه هشام، فكتب خالد إلى أسد، فدعا أسدٌ مقاتل بن حيان النبطي على رؤوس الناس فقال له: سر إلى أمير المؤمنين فأخبره بالذي عاينت وقُل الحق فإنك لا تقول غير الحق إن شاء اللّه وخذ من بيت المال حاجتك، قالوا: إذاً لا يأخذ شيئاً، فقال أسد لصاحب بيت المال: اعطه من المال كذا وكذا ومن الكسوة كذا وكذا، وجهزه.

فسار مقاتل بن حيّان، فقدِم على هشام بن عبد الملك وهو والأبرش ـ الكلبي ـ جالسان، فسأله، فقال: غزونا الخُتَّل فأصبنا أمراً عظيماً، وأنذر أسد بالترك فلم نحفل بهم حتى لحقوا واستنقذوا من غنائمنا واستباحوا بعض عسكرنا ثم دفعونا دفعة قريباً من خلم، ثم جاءنا مسير خاقان إلى الجوزجان فسار بنا الأمير أسد حتى التقينا برستاق بيننا وبين أرض الجوزجان فقاتلناهم وقد حازوا ذراري من ذراري المسلمين،

فحملوا على ميسرتنا فكشفوهم، ثم حملت ميمنتنا عليهم فأعطانا اللّه عليهم الظفر وتبعناهم فراسخ حتى استبحنا عسكر خاقان.

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً عند ذكر عسكر خاقان فقال: ثلاثاً باللّه أنتم استبحتم عسكر خاقان؟ قال: نعم، قال: ثم ماذا؟ قال: دخلوا الخُتَّل فانصرفوا، قال هشام: إن أسداً لضعيف، قال مقاتل: مهلاً يا أمير المؤمنين ما أسد بضعيف وما أطاق فوق ما صنع ـ (وأخبره أن أسداً تتبع خاقان فأصاب جنود أسد الثلج فرجعوا ومضى خاقان فنزل على جيغويه بطخارستان العلياء ولولا الثلج ما نجا) ـ.

ثم قال هشام لمقاتل بن حيّان: حاجتك؟ قال: إن يزيد بن المهلّب أخذ من أبي حيان مائة ألف درهم بغير حق ـ أو قرضاً ـ فقال له هشام: لا أكلفك شاهداً إحلف باللّه إنه كما قلت، فحلف، فردّها عليه من بيت مال خراسان وكتب إلى خالد أن يكتب إلى أسد فيها فكتب إليه فأعطاه أسد مائة ألف درهم فقسمها بين ورثة حيان على كتاب اللّه وفرائضه. ويقال: بل كتب إلى أسد أن يستخبر عن ذلك فإن كان ما ذكر حقاً أعطاه مائة ألف درهم. ففعل.

وكان الذي جاء بخبر فتح سان إلى مرو عبد السلام بن الأشهب بن عتبة الحنظلي. فأوفد أسد إلى خالد بن عبد اللّه وفداً في هزيمته خاقان يوم سان ومعهم طوقان خاقان ورؤوس من قتلوا من عظماء الترك، فأوفدهم خالد إلى هشام، فأحلفهم أنهم صدقوا، فحلفوا، فوصلهم.

وكان خاقان مضى إلى طخارستان العليا فأقام عند جيغويه، ثم ارتحل خاقان إلى بلاده فلما ورد شروسنة تلقاهُ خرابغره أبو خانا خُرة جدّ كاوس أبي أفشين ـ باللعابين وأعدّ له هدايا ودواب له ولجنده، ثم أتى خاقان بلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ولمحاصرة سمرقند، فلاعب خاقان يوماً كورصول بالنرد ـ الشطرنج ـ فتنازعا، فكسر كورصول يد خاقان، فحلف خاقان ليكسرن يد كورصول، وبلغ كورصول فتنحى وجمع جمعاً من أصحابه فبيّت خاقان فقتله، فأصبحت الترك فتفرقوا عنه وتركوه مجرداً، فأتاه الكشاني وأهل بيت الحموكيين فحمله ودفنه وصنع ما يصنع بمثله إذا قُتِل، فتفرقت الترك من يومئذٍ، وانحاز بعضهم إلى الشاش.

وهذه الرواية التي ذكرها الطبري عن مقتل خاقان تتعارض مع ما ذكره الطبري نفسه من أنه «في سنة ١١٩ ألقى أسد بن عبد اللّه خاقان صاحب الترك فقتله وقتل بشراً كثيراً من أصحابه» وكذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من أنه «في سنة ١١٩هـ قتل أسد بن عبد الله القَسْري خاقان ملك الترك الأعظم».

ولذلك يمكن القول إن خاقان بعد انهزامه في موقعة سان ومطاردته إلى

طخارستان العليا ومسيره منها إلى شروسنة قاصداً بلاده، بعث أسد إلى كورصول بأن يعمل على قتل خاقان وأن له الأمان هو وأصحابه إذا قام بذلك، فافتعل كورصول الخلاف مع خاقان على لعبة النرد ـ الشطرنج ـ فتنازعا.. فجمع كورصول جمعاً من أصحابه فقتل خاقان، فتفرق عنه الترك لأنه سبب هزيمتهم الكبرى. وبذلك يزول التعارض بين خبر قتل كورصول لخاقان وخبر قتل أسد بن عبد اللّه خاقان، لأن مقتل خاقان على يد كورصول كان بتدبير الأمير أسد، وكان مقتل خاقان في حوالي ذي القعدة ١١٩هـ.

قال الطبري: «فقال أبو الهندي الأسدي ـ لأبي المنذر أسد بن عبد اللّه القَسْري ـ يذكر موقعة سان: ـ

أبا منْذِرٍ رُمْتَ الأُمورَ فقِسْتَها ... وساءلتْ عَنْها كالحريصِ المُسَاوِمِ
فما كان ذو رأيٍ من الناسِ قِسْتَهُ ... بِرَأيِكَ إلا مثل رَأيِ البهائِمِ
أبا منْذِرٍ لَوْلا مَسيرُكَ لم يَكُنْ ... عِراقٌ ولا انقادت مُلوكُ الأعاجِمَ
ولا حَجَّ بَيْتَ اللّهِ إذْ حجّ راكبٌ ... ولا عمر البَطْحَاء بَعْدَ المواسِمِ
فكم مِنْ قَتيلٍ بَيْنَ سانٍ وجَزَّةٍ ... كثير الأيادي من مُلوكٍ قَمَاقِمِ
تَرَكْتَ بأرض الجُوْزَجانِ تزُورُهُ ... سباعٌ وعِقْبانٌ لِحَزِّ الغلاصِمِ
وذِي سُوقَةٍ فيه من السيف خُطةٌ ... به رَمَقٌ حامَتْ عليه الحَوائِمُ
فمِن هاربٍ مِنَّا، ومِنْ دائِنٍ لنا ... أسيرٍ يُقاس مُبْهَمَاتِ الأداهِمِ
فَدَتْكَ نفوسٌ من تميمٍ وعامِرٍ ... ومن مُضَرَ الحمْراءِ عِنْدَ المَآزِمِ»

* * *

فتح أسد بلاد الخُتَّل ومقتل ملكهم بدر طرخان

في حوالي ذي الحجة ١١٩هـ سار الأمير أسد إلى بلاد الخُتَّل ـ وهي من أرض طخارستان العليا ـ وفي ذلك قال ابن خلدون: «غزا أسد الخُتَّل بعد مقتل خاقان، وقَدّم مصعب بن عمير الخزاعي إليها فسار إلى حصن بدر طرخان..». وقال الطبري: «وفي هذه السنة ـ سنة ١١٩هـ ـ غزا أسد بن عبد اللّه الخُتَّل، وقَتَل بدر طرخان ملك الخُتَّل».

ومن المفيد الإشارة إلى أن بدر طرخان هو ثالث ملك لبلاد الخُتَّل تذكره الروايات في أنباء غزوات وفتوح أسد القَسْري:

أ ـ ففي الولاية الأولى للأمير أسد على خراسان غزا الأمير أسد بلاد الخُتَّل سنة ١٠٨هـ وكان اسم ملكها السَّبْل، فافتتح أسد مناطق من بلاد الخُتَّل وهزم ملكها السَّبْل، فقال الشاعر ثابت قُطنة الأزدي في ذلك: ـ

أرى أَسَـدَاً في الـحرْبِ إذْ نَـزَلَـتْ بـه ... وقَـارَعَ أهْـلَ الْـحَـربِ فـازَ وأوجَـبا
تَـنَـاوَلَ أرضَ الـسَّـبْـل، خـاقَـانُ رِدؤه ... فَـخَـرَّقَ مـا استَـعـصَـى عـليه وخَـرَّبَـا
أتَـتْـكَ وُفُـودُ الـتُّـرْك مـا بـيـن كـابُـلٍ ... وغُـورِينَ إذ لـم يَـهْـرَبُـوا مـنْـكَ مَـهْـرَبـا

وأذعن السَّبْل ملك الخُتَّل إلى أداء الجزية فلما انتهت ولاية أسد الأولى لخراسان انتقض السَّبْل واشترك مع خاقان والكفار في محاربة الجنيد وغيره من أمراء المسلمين ثم إن الملك السَّبْل استخلف عند موته ابن ساي جي ـ وهو ابن السائجي ـ (وأوصى السبل ابن السائجي حين استخلفه بثلاث خصال فقال: لا تستطل على أهل الخُتَّل استطالتي التي كانت عليهم فإني ملكٌ ولستَ بملك إنما أنت رجل منهم فلا يحتملون لك ما يحتملون للملوك، ولا تدع أن تطلب الجيش، والملوك هم النظام، والناس ما لم يكن لهم نظام طَغام، ولا تحاربوا العرب واحتالوا لهم كل حيلة حتى تدفعوهم بها عن أنفسكم ما قدرتم. فقال له السائجي: أما ما ذكرت من تركي الاستطالة على أهل الخُتَّل فإني قد عرفتُ ذلك وأما ما أوصيت من رد الجيش ـ أو اتخاذ الجيش ـ فقد صدقت، وأما قولك لا تحاربوا العرب فكيف تنهى عن حربهم وقد كنت أكثر الملوك لهم محاربة؟ فقال السَّبْل: قد أحسنت إذْ سألت عما لا تعلم، إني قد جربت قوتكم بقوتي فلم أجدكم تقعون مني موقعاً، فكنتُ إذْ حاربتهم لم أفلت منهم إلا جريضاً، وإنكم إن حاربتموهم هلكتم في أول محاربتكم إياهم. ثم مات السَّبْل وتم تمليك ابن السائجي.

ب ـ كان ابن السائجي ملكاً لقسم من بلاد الخُتَّل عندما عاد الأمير أسد والياً على خراسان ـ سنة ١١٦هـ ـ بينما كان يحكم قسماً من بلاد الخُتَّل جيغويه الطُخاري ـ صاحب طرخان ـ وكان جيغويه لقبٌ لِمَنْ يحكم تلك البلاد، ويبدو من ذلك أن جيغويه هو بدر طرخان. قال الطبري: (وفي سنة ١١٨ غزا أسد طخارستان وأرض جيغويه» ـ ثم قال في بداية أحداث ١١٩هـ ـ «غزا أسد بن عبد اللّه الخُتَّل فافتتح قلعة زغرزك وسار منها إلى خداش، وكان الجيش قد هرب إلى الصين. وكتب ابن السائجي إلى خاقان يعلمه دخول أسدالخُتَّل وتفرّق جنوده فيها». ثم لما أقبل خاقان بجيوشه من نواكث، بعث ابن السائجي إلى الأمير أسد يخبره بمسير خاقان إليه، ويسأله الخروج من الخُتَّل، فشتم أسدٌ رسوله ولم يصدقه، فبعث ابن السائجي إلى أسد بتفصيل خبر خاقان فعرف أسد أنه صادق. ثم (أقبل خاقان وقد استمدّ مَنْ وراء النهر وأهل طخارستان وجيغويه الطُخاري بملوكهم وشاكريتهم) ـ وذلك في شهر ربيع ١١٩هـ ـ ثم لما وقعت موقعة سان «عبى خاقان أصحابه وفيهم ملك السُغد وصاحب الشاس وخرا بغرة وصاحب الخُتَّل ابن السائجي وجيغويه». فانتصر عليهم

أسد والمسلمون في موقعة سان ـ في أوائل شوّال ١١٩هـ ـ وانقطع خبر ابن السائجي بعد موقعة سان، أما جيغويه فإليه هرب خاقان، حيث «مضى خاقان فنزل على جيغويه الطُخاري فأقام عند جيغويه بطخارستان العليا». وجاء في كلام مقاتل بن حيان مع هشام بن عبد الملك: «إن خاقان وأصحابه دخلوا الخُتَّل» ويتبين من ذلك أن الخُتَّل هي بلاد جيغويه بطخارستان العليا، وأن جيغويه الطُخاري هو بدر طرخان، ثم ارتحل خاقان إلى بلاده، فسقط قتيلاً على يد كورصول بتدبير أسد في حوالي ذي القعدة ١١٩هـ.

جـ ـ ثم «غزا أسد الخُتَّل بعد مقتل خاقان» ـ في ذي الحجة ١١٩هـ ـ وكان ملك الخُتَّل هو بدر طرخان، قال الطبري: (غزا أسد بن عبد اللّه الخُتَّل وهي غزوة بدر طرخان. فوجّه مصعب بن عمرو الخزاعيّ إليها، فلم يزل مصعب يسير حتى نزل بقرب ـ قلعة ـ بدر طرخان، فطلب الأمان على أن يخرج إلى أسد فأجابه مصعب، فخرج إلى أسد فطلب منه أشياء فامتنع، ثم سأله بدر طرخان أن يقبل منه ألف ألف درهم، فقال له أسد: إنك رجل غريب من أهل الباميان فاخرج من الخُتَّل كما دخلتها، فقال له بدر طرخان: إنّي دخلت الخُتَّل بشيء فأردُدْه عليّ حتى أخرج منها كما دخلتها. قال أسد: وما ذاك؟ قال: دخلتها شاباً فكسبت المال بالسيف وصار لي أهل وولد فأردد عليَّ شبابي حتى أخرج منها. فغضب أسد) ـ ثم عاد بدر طرخان إلى القلعة وفيها مصعب، ثم حاول الغدر، فأمر أسد بقطع يده، وقال أسد من ههنا من أولياء أبي فديك، رجل من الأزد قتله بدر طرخان فقام رجل من الأزد فقال: إنا، قال: اضرب عنقه، ففعل. وغلب أسد على القلعة العظمى وفرّق خيله من أودية الختل، فافتتحها. فدخلت بلاد الختل في الطاعة حتى تخوم الصين، وعاد أسد بالنصر والظفر إلى بَلْخْ.

دهاقين آسيا الوسطى بين يدي أسد في احتفال يوم المهرجان

وفي شهر محرم ـ أو صفر ـ سنة ١٢٠هـ الموافق ٧٣٨م شهد الأمير أسد بن عبد اللّه الْقَسْري الاحتفال بيوم المهرجان وهو يوم مهرجان الفيروز ـ أي الربيع ـ في مدينة بَلْخْ. . قال الحافظ ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: ـ

«لما كان مهرجان هذه السنة ـ سنة ١٢٠هـ ـ قدمت الدهاقين من سائر البلدان بالهدايا والتحف على أسد بن عبد اللّه الْقَسْري، وكان فيمن قَدِم نائب هراة ـ إبراهيم بن عبد الرحمٰن ـ ودهقان هراة واسم دهقانها خراسان شاه، فقدِم بهدايا عظيمة وتحف عزيزة، وكان من جملة ذلك قصر من ذهب، وقصر من فضة، وأباريق من ذهب وصحاف من ذهب وفضة، وتفاصيل من حرير تلك البلاد ألوان

ملونة، فوضع ذلك كله بين يدي أسد حتى امتلأ المجلس» (ص٣٢٤، جـ٩).

وغني عن البيان أن الدهاقين هم الزعماء المحليون للعجم بأقاليم خراسان وما وراء النهر ـ وهي أقاليم آسيا الوسطى، وتشمل حالياً جمهوريات أفغانستان، وتاجيكستان، وأوزبكستان، وتركمانستان، وإقليم خراسان في إيران ـ وكان منهم جوزجان بن جوزجان دهقان الجوزجان، وتِرْسِلْ دهقان الفارياب، وسهرب دهقان الطالقان، وقرياقس دهقان مرو الرُّوذ، وخراسان شاه دهقان هراة، وهو كبير الدهاقين. قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: ـ

«حضر أسد المهرجان وهو ببَلْخ، فقَدِم عليه الأمراء والدهاقين بالهدايا، فكان ممن قَدِم عليه إبراهيم بن عبد الرحمٰن عامله على هراة، وخراسان دهقان هراة، فقدِما بهدايا قُومت بألف ألف. فكان فيما قدما به قصران: قصر من فضة وقصر من ذهب. وأباريق من ذهب وأباريق من فضة، وصحاف من ذهب وفضة. فأقبلا وأسد جالس على السرير، وأشرافُ خراسان على الكراسي، فوضعا القصرين ثم وضعا خلفهما الأباريق والصحاف والديباج المَرْويّ والقوهي والهرويّ وغير ذلك حتى امتلأ السماط، وكان فيما جاء به الدهقان كرة من ذهب.

ثم قام دهقان هراة خطيباً فقال: اصلح اللّه الأمير، إنّا معشر العجم أكلنا الدنيا ـ أي حكمناها ـ أربعمائة سنة، أكلناها بالحلم والعقل والوقار ليس فينا كتاب ناطق ولا نبيّ مرسل. وكانت الرجال عندنا ثلاثة؛ ميمون النقيبة أينما توجه فتح البلاد، ورجل تمت مروّته في بيته فإن كان كذلك رحّب وحيَّ وعُظِّم وقُوِّد وقُدِّم، ورجل رَحُب صدره وبَسطَ يده فَرُجِّيَ فإذا كان كذلك قُوِّد وقُدِّم. وإن اللّه جعل صفات هؤلاء الثلاثة الذين حكمنا بهم أربعمائة سنة فيك أيها الأمير، وما نَعْلَمُ أحداً هو أتمّ كَتْخُدانية منك، إنك ـ أيها الأمير ـ ضبطت أهل بيتك وحشمك ومواليك ـ [وعُمالك] ـ فليس منهم أحد يستطيع أن يتعدّى على صغير ولا كبير ولا غنيّ ولا فقير فهذا تمام الكَتْخُدانية. ثم إنك بنيتَ الإيوانات في المفاوز فيجيءُ الجائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان عيباً إلا أن يقولا: سبحان اللّه ما أحسن ما بَنَى. ومن يُمْنِ نقيبتك أنك لقيت خاقان وهو في مائة ألف فهزمتَه وفللته وقتلت أصحابه وأبحتَ عسكره. وأما رَحبُ صدرك وبَسطُ يدك، فإنّا ما ندري أيّ المالين أقرّ لعينك؛ أمالٌ قَدمَ عليك أم مالٌ خرج من عندك بل أنت بما خرج أقرّ عيناً».

وقال الحافظ ابن كثير: «قام الدهقان خطيباً، فامتدح أسداً بخصال حَسَنة على عقله ورياسته وعدله، وعلى مَنْعه أهله وخاصته أن يظلموا أحداً من الرعايا بشيء قلّ أو كثر، وأنه قهر الخاقان الأعظم وكان في مائة ألف فكسره وقتله، وأنه يفرح بما يَفد إليه

من الأموال، وهو بما خرج من يده أفرح وأشد سروراً، فأثنى عليه أسد، وأجلسه».

كرم وجُود الأمير أسد الْقَسْري

وكان الأمير أسد الْقَسْري كريماً جواداً، فعندما انصرف الدهاقين من مجلسه، وكما ذكر الطبري: أطرق أسد ينظر إلى تلك الهدايا، ثم نظر إلى يمينه فقال: يا عُذافر بن يزيد مُرْ من يحمل لك هذا القصر الذهب. ثم قال: يا مَعْن بن أحمر مُرْ بهذا القصر يُحمل لك. ثم قال: يا فلان خذ إبريقاً، ويا فلان خذ إبريقاً. وأعطي الصحاف حتى بقيت صحفتان، فقال: قُمْ يا ابن الصيداء فخذ صُحيفة، فأخذ واحدة فرزنها فوضعها ثم أخذ الأخرى فرزنها، فقال له أسد: مالك؟ قال: آخذ أرزنهما، قال: خذهما جميعاً. وأعطى أسد العرفاء وأصحاب البلاء، فقام أبو اليعفور وكان يسير أمام أمير خراسان في المغازي فنادى: هلمّوا إلى الطريق، فقال أسد: ما أحسن ما ذكّرت بنفسك خذ ديباجتين. وقام ميمون العذَّاب فقال: إليّ إلى يساركم إلى الجادة فقال: ما أحسن ما ذكّرت بنفسك خذ ديباجتين. فأعطي أسد ما كان في السماط كله، فقال نهار بن توسعة: ـ

تَـقِـلُّـونَ إن نَـادَى لِـرَوعٍ مُـثَـوِّبُ وأنـتـم غَـداةَ الـمـهـرَجـانِ كـثـيـرُ»

وقال الحافظ ابن كثير: «فرّق أسد جميع تلك الهدايا والأموال وما هناك أَجمع على الأمراء والأكابر بين يديه حتى لم يبق منه شيء». وقد قومت تلك الهدايا بألف ألف ـ درهم أو دينار ـ.

* * *

وفاة الأمير أسد. . آخر عظماء الفاتحين (في ربيع الأول ١٢٠هـ/ ٧٣٨م)

قال ابن خلدون «وفي ربيع الأول سنة عشرين ومائة توفي أسد بن عبد اللّه الْقَسْري بمدينة بَلْخ».

وكان أسد قد مرض بعد يوم المهرجان بأيام. قال المدائني: (وكان سبب وفاة أسد أنه كانت به فيما ذُكر دُبيلة في جوفه فحضر المهرجان وهو ببَلْخ. ثم مرض أسد فأفاق إفاقة، فخرج يوماً إلى مجلسه فأُتِي بكمثري أول ما جاء، فأطعم الناس منه واحدة واحدة، وأخذ كمثراة فرمى بها إلى دهقان هراة فانقطعت الدبيلة» ـ وما إن صاح أسدٌ من الألم، ووثب الحاضرون إليه، حتى ابتسم ابتسامة ونطق بالشهادتين، ورجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية.

وكان الأمير أسد بن عبد اللّه الْقَسْري آخر عظماء الفاتحين السبعة، وهم: ـ

١ ـ السمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس والفاتح الأول لجنوب فرنسا (٩٩ ـ ١٠٣هـ) استشهد في تلوزة بفرنسا عام ١٠٣هـ/ ٧٢١م.

٢ـ عنبسة بن سحيم الكلبي اليماني أمير الأندلس وفاتح بلاد الغال وشرق فرنسا (١٠٦ ـ ١٠٧هـ) توفي بقرطبة عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م.

٣ ـ بشر بن صفوان الكلبي أمير إفريقية الشمالية والمغرب والأندلس (١٠٣ ـ ١٠٩هـ) مات بالقيروان سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٧م.

٤ ـ الجرّاح بن عبد اللّه الحكمي المذحجي أمير أرمينية وفاتح بلاد القوقاز (١٠٥ ـ ١١١هـ) واستشهد بالقوقاز عام ١١٢هـ/ ٧٢٩م.

٥ ـ عبد الرحمٰن الغافقي أمير الأندلس وفاتح غرب شمال فرنسا (١١٢ ـ ١١٤هـ) استشهد في موقعة بواتيه في شعبان ١١٤هـ/ ٧ أكتوبر ٧٣٢م.

٦ ـ الحَكَمْ بن عوانة الكلبي أمير السند لخالد الْقَسْري وباني مدينة المحفوظة ومدينة المنصورة بالسند (١١٠ ـ ١١٩هـ).

٧ ـ أسد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير خراسان وآسيا الوسطى (١٠٥ ـ ١٠٩هـ) ثم (١١٦ ـ ١٢٠هـ) توفي بمدينة بَلْخْ في ربيع أول ١٢٠هـ/ ٧٣٨م.

وقد شيعت مدينة بَلْخْ جثمان الأمير أسد بن عبد اللّه الْقَسْري في موكب مهيب لم تشهد بلاد خراسان والمشرق له مثيلاً، قال الحافظ ابن كثير: «وقد قال فيه ابن عرس العبدي يرثيه: ـ

نَعَى أسَدَ ابنَ عبدِ اللّهِ نَاعٍ ... فريعَ القلبُ للمَلِكِ المُطاعِ
بِبَلْخٍ وافَقَ المقدور يَسْرِي ... وما لقضاءِ ربك مِنْ دفَاعِ
فجودِي عَينُ بالعَبَراتِ سحًّا ... ألم يُحْزِنك تَفْرِيقُ الجماعِ
.. سُقِيتَ الغيثَ إنك كنتَ غَيثاً ... مَرِيعاً عِندَ مُرْتادِ النّجاعِ»

وقال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «وقال سليمان بن قَتَّة.. وكان صديقاً لأسد: ـ

سَقَى اللّهُ بَلْخاً، سهْلَ بَلْخٍ وحَزْنها، ... ومَرْوَى خُراسانَ السَّحابَ المُجَمَّمَا
وما بي لِتُسقاهُ ولكِنَّ حُفرَةً ... بها غَيَّبُوا شِلواً كريماً وأعظُمَا
مُراجِمُ أقوامٍ، ومُرْدى عظيمةٍ، ... وطلّاب أوتارٍ، عِفرناً عثَمثَما
لقد كَان يعطي السيفَ في الروع حَقَّهُ، ... ويُرْوِي السِنانَ الزَّاغِبِيَّ المُقَوَّما»

وبوفاة الأمير أسدٍ انطوت الصفحة الأخيرة من سيرة آخر عظماء الأمراء الفاتحين، والذي يرتبط تاريخه ارتباطاً تاماً بسيرة أخيه الأمير العظيم خالد بن عبد اللّه الْقَسْري الذي عن تاريخه يتواصل النبأ اليقين.

* * *

ثاني عشر: معالم السنة الثانية عشرة من ولاية خالد للمشرقين

في شوّال سنة ١١٧هـ مضت اثنتا عشرة سنة منذ تولى الزعيم اليماني خالد بن عبد اللّه الْقَسْري حُكْم العراق ومشارقها في شوّال سنة ١٠٥هـ، وكان من معالم تلك السنوات التي من المفيد الإشارة إليها هنا لأنها استمرت طوال عهده: ـ

أ ـ إن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري كان أمير المشرقين، وقد ذكرته التراجم وكتب التاريخ بلقب (أمير العراق) ولقب (أمير العراقين) ولقب (أمير العراق والمشرق وخراسان)، ولكن اللقب الأدق هو (أمير المشرقين) لأن ولايته كانت تشمل مشرقين، أحدهما: مشرق عربي يضم العراق بولايتيها البصرة والكوفة، وتضم ولاية إقليم البحرين وهو منطقة الخليج العربي حالياً وإقليم الأهواز في إيران. وثانيهما: مشرق أعجمي يَضُمُّ أقاليم بلاد فارس (إيران) وإقليم السند (باكستان) وبلاد خراسان وما وراء النهر (آسيا الوسطى).

ويتجلى لقب أمير المشرقين في قول الشاعر الفرزدق في خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بقصيدته الدالية: ـ

وما الشَّمسُ ضوءَ المَشْرِقَيْنِ إذا انْجَلَتْ ... ولكنَّ ضَوءَ المشْرقَيْنِ بخالِدِ
سَتَعْلَمُ ما أُثْنِي عَلَيْكَ إذا انْتَهَتْ ... إلى حَضْرَمَوتٍ جامِحاتُ القصائدِ
أَلَمْ تَرَ كَفَّيَ خالدٍ قد أَفادتا ... على النَّاسِ رِزقاً مِنْ كثير الروافد
أسال له اللّهُ المباركَ فارْتَمَى ... بِمِثْلِ الرّوابي المُزبِداتِ الحواشِدِ
فَزِدْ خالداً مِثْلَ الذي في يَمِينه ... تَجِدهُ عن الإسلام من خير ذائد

ويروي البيت الرابع هنا (أسال له النهرَ المبارك) يعني (أسال له اللّهُ النهر المبارك) وقوله: (فزد خالداً: يقول يا رب زد خالداً من الولاية مثل الذي في يده وتحت كمه فهو من خير الذائدين عن الإسلام).

ب ـ وقد كان العراق ساحة للفتن والثورات والحروب قبل خالد، فلما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك وولّى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري العراق ومشارقها ـ في شوّال ١٠٥هـ ـ عمل خالد على إقرار السلام وسيادة الأمن والاستقرار والعدل، وفي ذلك تقول دراسات تاريخ العراق (أوقف خالد حياته على السعي لإقرار السلم.. وساد العراق السلام والأمن خلال عهده الطويل). وقال الشاعر جرير يثني على خالد ويذكر معالم سياسته الحكيمة: ـ

لَقَدْ كانَ داءٌ بالعراقِ فما لَقُوا ... طبيباً شَفَى أدواءَهُم مِثْلَ خالِدِ
شَفَاهُمْ بحِلْمٍ خالط الدِّينَ والتُّقا ... ورأفةَ مَهْدِيٍّ إلى الحَقِّ قاصِدِ

فـإنَّ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـن حـبـاكُـمُ بمُسْتَبْصِرٍ في الدِّين زَيْنِ المَسَاجِدِ
وإنَّ ابْـنَ عَـبْـدِ الـلَّـهِ قـد عُـرِفَـتْ لَـهُ مـواطنُ لا تُـخْـزِيه عـنـد الـمشـاهِـدِ
. . إذا ما لَقيتَ القِرْنَ في حارة الوغا تَـنَـفَّـس مـن جَـيَّـاشـةٍ ذاتِ عـانِـدِ
وإن فـتـن الـشـيـطـانُ أهْـلَ ضـلالـةٍ لقـوا مِنْكَ حرباً حَمْيُها غَيْرُ بَارد
إذا كـان أمْـنٌ كـان قَـلْـبُـكَ مُـؤمِـنـاً وإنْ كـان خـوفٌ كُـنْـتَ أحْـكَـمَ ذائِـدِ

جـ ـ وأعطى الأمير خالد اهتماماً كبيراً للنهوض بالبلاد من الناحية الاقتصادية والزراعية والعمرانية، وتعترف له دراسات تاريخ العراق بأنه: «سعى خالد للنهوض بالعراق من الناحية الاقتصادية، واحتفل بالزراعة، فجُففت البطائح واستصلح كثيراً من الأراضي البكر للزراعة، وشق الأنهار، وحققت جهوده المثمرة الرفاهية للبلاد». وكان خالد استأذن هشام بن عبد الملك في عمل قنطرة أو قناة على دجلة تربط نهر دجلة بمكان ما، فقال له هشام: إن كنت متيقناً أنها تتم فاعملها، فعملها خالد وأعظم النفقة فيها، وذلك سنة ١٠٧هـ فلم يلبث أن قطعها الماء فأغرمه هشام ما كان أنفق عليها، فدفع خالد ذلك من ماله الخاص. وفي سنة ١٠٨هـ بدأ خالد في تنفيذ مشروع النهر المبارك وهو نهر يتفرع من دجلة في منطقة واسط، وقام الآلاف من العمال بشق مجاري النهر من دجلة وواسط إلى أرض السواد، وتم تنفيذ الكثير من الأعمال الإنشائية الإروائية في مشروع النهر ومجاريه وقنواته، وأنفق خالد على النهر نفقة كبيرة من بيت المال بالعراق لحفر النهر بلغت اثني عشر ألف ألف درهم، فأرجف المرجفون بأن النهر سيفشل مثل قنطرة دجلة، وبينما استمر العمل في النهر المبارك سنة ١٠٩هـ قال الفرزدق ويقال إنها للمفرج بن المرقع: ـ

كـأنـك بـالـمـبـارك بـعـد شـهـر يـخـوض غـمـاره نـقـع الـكـلاب

وقال الفرزدق:

أهـلـكـت مـال الـلّـه فـي غـيـر حـقـه على نهرك المشؤوم غير المبارك

فلما اكتمل تنفيذ النهر المبارك ـ في أواسط سنة ١٠٩هـ ـ نجح نجاحاً عظيماً، وتدفقت مياه النهر إلى أرجاء واسعة من أرض سواد العراق فجففت البطائح وتم استصلاح أراضٍ واسعة في سواد دجلة للزراعة، فقال الفرزدق: ـ

أعـطـى خـلـيـفـتـه بـقـوة خـالـدٍ نـهـراً يـفـيـض لـه عـلـى الأنـهـار
إنّ الـمـبـارك كـاسـمـه يُـسـقـى بـه حـرث الـسـواد ونـاعـم الـجـبـار
وكـأنّ دجـلـة حـيـن أقـبـل مـدّهـا نـاب يـمـدّ لـه بـحـبـل قـطـار

وقام خالد بشق عدَّة أنهار فرعية من دجلة والمبارك إلى مناطق وجهات عديدة من

أرض السواد، وتم استصلاح أراض استوعبت عشرات الآلاف من العمال الزراعيين، وقال جرير في قصيدته التي مدح بها خالداً يذكر الأنهار التي شقها خالد والنهر المبارك: ـ

لَقَدْ كانَ في أنهار دِجْلَةَ نِعْمَةٌ ... وحُظْوَةُ جَدٌّ للخليفةِ صاعِدِ
فإنّ الذي أنْفَقْتَ حزماً وقُوَّة ... يَجيءُ بأضعاف من الربح زائِدِ
جَرَتْ لَكَ أنْهارٌ بيُمْن وأسْعُدِ ... إلى زينَةٍ في صَحْصَحَانَ الأجَالِدِ
يُنَبِّتْنَ أعناباً ونَخْلاً مُباركاً ... وحَبًّا حَصيداً مِنْ كريم الحصائِدِ

وحققت الجهود المثمرة لخالد الرفاهية للبلاد.

د ـ وكانت مدينة واسط هي عاصمة ومقر الأمير خالد بالعراق، وبين واسط وبين الكوفة والبصرة والأهواز مقدار واحد، وهو مسيرة يوم وليلة للراكب، وكان خالد يسير بين وقت وآخر إلى الكوفة، وذكر الطبري من معالم الكوفة (مصلى خالد بالكوفة)، وأذن خالد للعرب المسيحيين في قرية النجرانية بالكوفة ببناء كنيسة لهم وكانوا من نصارى نجران انتقلوا من اليمن في خلافة عمر بن الخطاب. واستعمل خالد على القضاء بالكوفة حسين بن حسن الكندي وعلى الشرطة طارق بن أبي زياد، وكان رؤساء أرباع الكوفة في عهد خالد (على ربع المدينة إبراهيم بن عبد اللّه بن جرير البجلي، وعلى ربع كندة وربيعة المنذر بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وعلى ربع همدان وتميم محمد بن مالك الهمداني الخيواني، وعلى ربع مذحج وأسد عمرو بن أبي بذل العبدي». وقد استقر بالكوفة يزيد بن خالد الْقَسْري وكان له دار وأسرة وأعمال بالكوفة، وقد ولّى خالد على الكوفة طارق بن أبي زياد منذ حوالي سنة ١١٠هـ. بينما كان عامل خالد على البصرة وأقاليمها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري أمير البصرة وقاضيها (١٠٩ ـ ١٢٠هـ) وفيه قال الشاعر ذو الرُمَّة: ـ

سمعتُ الناسَ ينتجعون غَيْثاً ... فقُلتُ لِصَيْدَحَ انتجعي بلالا
تُناخي عند خير فتىً يَمانٍ ... إذا النكباءُ ناوَحَتِ الشَّمالا

وفتق بلال نهر معقل في فيض البصرة بأمر خالد، واحتفر بلال أيضاً نهر بلال وجعل على جنبتيه حوانيت ونقل إليها السوق وجعل ذلك ليزيد بن خالد الْقَسْري. وازدهرت البصرة في عهد بلال وولاية خالد كغيرها من أرجاء العراق، وكان بلال ذا هيبة ومهابة، قال فيه الشاعر ذو الرُمَّة: ـ

ولكنني أقْبَلتُ من جانِبَيْ قَسَا ... أزورُ فتىً نَجْداً كريماً يمانيا
من آل أبي موسى تَرى القوم حوله ... كأنّهم الكِرْوانُ أبْصَرْنَ بازيا

مُرمِّينَ من لَيْثٍ عليه مَهابة ... تَفَادَى أسودُ الغاب منه تفاديا
وما الخُرْقَ منه يرهبونَ ولا الخَنَى ... عليهم، ولكن هَيْبَةٌ هيَ ماهيَا

هـ ـ وقد شهدت بلاد فارس في عهد خالد الْقَسْري استقراراً وهدوءاً لم تعش تلك البلاد مثله من قبل، فلم يسبق أن سادها الاستقرار طيلة خمس عشرة سنة إلا في عهد خالد، وكان عامله على فارس أبان بن الوليد البجلي ما بين سنة ١٠٦ ـ ١١٥هـ وفيه قال الفرزدق: ـ

فلو جمعوا من الخِلان ألفاً ... فقالوا اعْطِنا بهم أبانا
لقُلتُ لهم: إذا مَا تغبنوني، ... وكيف أبيعُ من شرط الزمانا

و ـ وكان لخالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري وعماله على بلاد السند دور مجيد في الذود عن حياض الإسلام وجهاد الأعداء من كفار الهند، وقد تولى بلاد السند لخالد: الجنيد بن عبد الرحمٰن المري (١٠٦ ـ ١٠٨هـ) ثم تميم بن زيد العتبي (١٠٨ ـ ١٠٩هـ) ثم الحَكَمْ بن عوانة الكلبي (١١٠ ـ ١١٨هـ) وقد سلف ذكر أنباء عهودهم، وكان خالد يبعث إليهم بالإمدادات من العراق براً وبحراً، فتم دحر الأعداء وترسيخ الإسلام في ربوع بلاد السند، وقام الحَكَمْ بن عوانة الكلبي ببناء أول مدينة عربية إسلامية ببلاد السند وهي مدينة المحفوظة سنة ١١١ ـ ١١٢هـ ثم قام الحَكَمْ بن عوانة بتشييد مدينة المنصورة عاصمة السند، سنة ١١٤ ـ ١١٥هـ وأمدّه خالد بما يلزم لتنفيذ ذلك الإنجاز التاريخي الحضاري العربي الإسلامي الكبير فأصبحت المنصورة عاصمة لبلاد السند لمئات السنين.

وقد اقترن الجهاد بالعمران في خراسان أيضاً فكان للأمير أسد بن عبد الله الْقَسْري منذ ولايته الأولى لبلاد خراسان (١٠٦ ـ ١٠٩هـ) فتوحات واسعة وقام بتشييد مدينة بَلْخ. وكانت ثغور بلاد السند من جهة وثغور بلاد خراسان من جهة أخرى هي ثغور المسلمين الجهادية بالمشرق، وإياهما معاً يعني الشاعر جرير في قوله يمدح خالداً الْقَسْري: ـ

حَمَيْتَ ثُغورَ المُسْلِمين فَلَمْ تُضِعْ ... وما زلتَ رأساً قائداً وابْنَ قائدِ
تُعِدُّ سَرابيلَ الحديدَ مع القَنَا ... وشُعْثَ النَّواصي كالضِّراء الطوارِدِ
وإنّك قد أُعطيتَ نصراً على العِدَى ... ولُقِّيتَ صبراً واحْتِسابَ المجاهدِ
إذا جَمَعَ الأعداءُ أمر مكيدةٍ ... لغدرٍ كفاكَ اللّٰهُ كيدَ المكايدِ
وإنّا لنرجو أنْ توافقَ عُصبة ... يكونون للفردوسِ أول وارد

وكان معالم يتقدم ذكره من معالم أنباء خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري: ـ

١ ـ نبأ ثروة خالد . . وبعض الحاسدين

كان لخالد قبل أن يتولى العراق أموال بالشام وكان لآبائه وأجداده في منطقتهم باليمن أراضٍ ومراعٍ شاسعة فباع أغلبها واستثمر جميع أمواله الخاصة في العراق باستصلاح أراضٍ زراعية وحفر قنوات وأنهار فرعية فيها وغير ذلك من المشاريع، وبما أنه كان أمير العراق لم يتول ذلك بنفسه وإنما تولى ذلك ابنه يزيد بن خالد الْقَسْري. وقد ذكر الطبري عن الهيثم بن عدي أنه: «اعتقد خالد بالعراق أموالاً وحفر أنهاراً حتى بلغت غلته عشرين ألف ألف منها نهر خالد وكان يغلُّ خمسة آلاف ألف، وباجوَّى وبارُمَّانا والمبارك والجامع وكورة سابور والصّلِح. وكان يقول: إنني واللَّه مظلوم ما تحت قدمي من شيء إلا وهو لي. يعني أن عمر جعل بجيلة ربع السَّواد». وقد خلطت رواية الهيثم بين الأموال والأنهار العامة مثل نهر المبارك وبين الأموال والأنهار الخاصة مثل نهر خالد، والظاهر أن غلات أراضي نهر المبارك كانت عشرة آلاف ألف وغلات أراضي واستثمارات يزيد بن خالد عشرة آلاف ألف، وجاء في دراسة تاريخ العراق أنه: «سعى خالد للنهوض بالعراق من الناحية الاقتصادية واحتفل بالزراعة فجُففت البطائح واستصلح كثيراً من الأراضي البكر للزراعة وشقّ الأنهار وحققت جهوده المثمرة الرفاهية للبلاد، وكذلك وُفق خالد توفيقاً كبيراً في تنمية أمواله الخاصة فجمع على الأيام ثروة طائلة». ولكن ليس خالد هو الذي وُفق في تنمية أمواله الخاصة وإنما هو يزيد بن خالد، وامتدت استثماراته من دجلة والكوفة إلى البصرة حيث ذكر البلاذري أنه: «احتفر بلال نهر بلال بالبصرة وجعل على جنبتيه حوانت ونقل إليه السوق وجعل ذلك ليزيد بن خالد الْقَسْري». وقد اقتدى بخالد الخليفة هشام والأمراء فاتخذوا أموالاً وضياعاً بالعراق فدرت عليهم ثروة طائلة.

وفي حوالي سنة ١١٤هـ وقع ما ذكرته رواية للطبري في أخبار سنة ١٢٠هـ من أنه: دخل أحد العمال على خالد فقال: أيّها الأمير إنّ غلة ابنك قد زادت على عشرة آلاف ألف ولا آمنُ أن يبلغ هذا أمير المؤمنين فيستكثره، والناسُ يحبون جسدك وأنا أحبّ جسدك وروحك. فقال خالد: إن أسد بن عبد اللَّه قد كلمني بمثل هذا فأنت أمرته ـ أو أخبرته ـ قال: نعم، قال: ويحك دع ابني فلربما طلب الدرهم فلم يجده!» ـ وقد استدلينا على الزمن من قول خالد: (إن أسد بن عبد اللَّه قد كلمني بمثل هذا) مما يدل على أن ذلك قبل ولاية أسد الثانية للعراق. وأما قول خالد: (ويحك دع ابني فلربما طلب الدرهم فلم يجده) فالظاهر وقوع تصحيف في كلمات الرواية. وقد ذكر الحافظ ابن كثير أنه: «كان خالد الْقَسْري إذا جلس يوضع المال بين يديه ويقول إن هذه الأموال ودائع لا بد من تفرقتها». يعني زكاة وصدقات أمواله وما كان يجود به على الناس. قال الأصمعي: دخل إعرابيٌ على خالد الْقَسْري فقال له: سل

حاجتك، فقال: مائة ألف. فقال: أكثرتَ حُط منها، قال: اضع تسعين ألفاً، فتعجب منه خالد، فقال: أيها الأمير سألتك على قدرك ووضعتُ على قدري فقال له: لن تغلبني أبداً وأمر له بمائة ألف. وقد سلف ذكر طائفة من أنباء جود وكرم خالد وفيه قال الشيخ الأعرابي: ـ

فيا لك بحراً يغمرُ الناسَ موجهُ إذا يُسألُ المعروف جاش وأزبدا

فلو كان في الدنيا مِنَ الناسِ خالدٌ لجودٍ بمعروفٍ لكُنتَ مُخَلدا

وفي حوالي سنة ١١٤هـ كان أيضاً ما جاء في تاريخ الطبري من «أن فرُّوخاً أبا المثنى كان قد تَقبَّل مِنْ ضِياع هشام بن عبد الملك بموضع يُقال له رستاق الرُّمان أو نهر الرمان، فثقل مكانه على خالد، فقال خالد لحسان النبطي: ويحك اخرج إلى أمير المؤمنين فزِدْ على فرُّوخ. فخرج حسان فزاد عليه ألف ألف درهم، فبعث هشام رجلين من صلحاء الشام فحاز ـ حسان النبطي ـ الضياع». ـ وكان حسان هذا من الموالي العجم وله أموال فأصبحت له في عهد خالد ثروة طائلة ـ قال الطبري: «ثم صار حسان أثقل على خالد من فرُّوخ فجعل يُضرُّ به فيقول له حسان: لا تُفسدني وأنا صنيعتك، فأبَىٰ إلا الإضرار به». بينما قال أبو العباس المبرِّد أنه: «أخذ خالدٌ ابنَ حسان النَبَطِي فضربه بالسِياط، وكان يقال له سهيلٌ، فبعثَ بقميصه إلى أبيه وفيه آثار دم» ـ فكان ذلك سبب ما وقع بين خالد وحسان وليس أن خالداً أضرَّ بحسان وإنما تم القبض على عقيل بن حسان النبطي بتهمة قد تكون شرب الخمر واللهو مع جماعة فاسدة وكان خالد ينهى ويعاقب على ذلك، فتشفع حسان لابنه وقال لخالد: لا تُفسدني وأنا صنيعتك، فأبَى خالد إلا معاقبة ابن حسان وأمر بجلده بالسياط فجلدوه حتى ظهر بعض الدم على قميصه، وبعث بالقميص إلى أبيه، ثم أطلق سراح ابنه، فحقد حسان النَبَطِي على خالد من أجل ذلك، وكانت بالعراق جماعة من المتعصبين والحاقدين على خالد ممن يشير إليهم د. حسين عطوان قائلاً: «خلقت القيسية حول خالد منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها العراق جواً مشبعاً بروح العداء أكرهه على التحول إلى قومه اليمانية برغم حيدته». ولكن كلام د. عطوان ليس دقيقاً فالذين خلقوا حول خالد جواً مشبعاً بروح العداء ليسوا القيسية وإنما أفرادٌ من القيسية المتعصبين كان أبرزهم الشاعر الكميت بن زيد الأسدي ولم يكن ذلك إلا منذ حوالي سنة ١١٤هـ ـ كما سيأتي ـ فانضم حسان النبطِي إلى تلك الجماعة في التحريض على خالد أو التآمر عليه.

قال الطبري: «بثق حسان النبطِي البثوق على ضِياع هشام ـ بنهر الرمان ـ ثم خرج إلى هشام فقال: إن خالداً بثق البثوق على ضياعك. فوجّه هشام رجلاً فنظر

إليها ثم رجع إلى هشام فأخبره. فقال حسان لخادم من خدم هشام إن تكلمتَ بكلمة أقولها لك حيث يسمع هشام فلك عندي ألف دينار، قال: فعجّل لي الألف وأقول ما شئت، فعجلها له، وقال له: بَكِّ صبياً من صبيان هشام فإذا بكى فقُلْ له اسكت والله لكأنَّك ابن خالد الْقَسْري الذي غلته ثلاثة عشر ألف ألف. فسمعها هشام فأغضى عليها. ثم دخل عليه حسان بعد ذلك فقال له هشام: ادنُ مني، فدنا منه، فقال: كم غلة خالد؟ قال: ثلاثة عشر ألف ألف، قال: كيف لم تخبرني بهذا؟ قال: وهل سألتني. فوقرت في نفس هشام، فأزمع على عزله». بينما ذكر أبو العباس المبرِّد أن ذلك كان سبب رسالة هشام إلى خالد الْقَسْري وقد ذكرها الطبري أيضاً فكلمة (أزمع على عزله) يكون المقصود بها عزله عن خراسان لأنه كان أمير العراق والمشرق وخراسان وكان عامل خالد على خراسان يومئذٍ الجنيد بن عبد الرحمٰن المريّ، فقام هشام بفصل خراسان عن ولاية خالد سنة ١١٥هـ وهو زمن الرسالة التي كتبها هشام إلى خالد وكانت ثمرة تحريض واسع على خالد لم يكن حسان النبطي إلا واحداً ممن اشتركوا فيه، وكان الشاعر الكميت أبرز شخصيات ذلك التحريض.

٢ ـ نبأ خالد والكميت. . وحملة التحريض على خالد

كان الأمير خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري مُحسناً إلى الشاعر الكميت بن زيد الأسدي الذي قال الأصفهاني إنه: «مِنْ شعراء مُضَر وألسنتها والمُتعصبين على القحطانية المقارنين المقارعين لشعرائهم. . وكان معروفاً بالتشيع لبني هاشم مشهوراً بذلك. . ولم تزل عصبيته العدنانية ومهاجاته شعراء اليمن متصلة والمناقضة بينه وبينهم شائعة في حياته».

ويتبين من أخبار الكميت أنه لم يكن كذلك عندما كان يُعلم الصبيان في مسجد بالكوفة، ولا كان كذلك في عهد ولاية الزعيم اليماني يزيد بن المُهلّب لخراسان ثم ولايته للعراق في خلافة سليمان بن عبد الملك، فقد مدح الكميت يزيد بن المُهلّب ومدح ابنه مَخْلد بن يزيد بن المْهلّب بقصيدته التي أولها: (هلا سألت معالم الأطلال) ومنها قوله: ـ

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ... ولداته عن ذاك في أشغال
قعدت بهم هماتهم وسَمَتْ به ... همُ الملوك وسورة الأبطال
فكأنما عاش المهلّب بينهم ... بأغر قاس مثاله بمثال
في كفه قصبات كل مقلد ... يوم الرهان، وقوت كل نصال

وبقصيدة ثانية مطلعها (هلا سألت منازلاً بالأبرق) وكان مخلد يومئذٍ نائباً لأبيه على خراسان، قال الهيثم بن عدي: «فأعطاه مخلّد مائة ألف درهم سوى العروض

والحملان فقدِم الكميتُ إلى الكوفة في هيئة لم يُر مثلها». وكان ذلك سنة ٩٧هـ.

وكذلك لم يكن الكميت متعصباً خلال السنوات السبع الأولى من ولاية خالد الْقَسْري للعراق ومشارقها، وكان خالد واليمانيون يحسنون إلى الكميت ومنهم أبان بن الوليد البجلي عامل خالد على فارس الذي مدحه الفرزدق فقد ذكر ابن الأخفش أنه: «كان الكميت مداحاً لأبان بن الوليد البجلي وكان أبان له محباً وإليه مُحسناً». وكذلك كان من رؤساء اليمانية بالكوفة والعراق إسماعيل بن الصباح بن الأشعث بن قيس الكندي وكان محسناً للكميت وفيه قال: ـ

فإن لإسماعيل حقاً، وإنّنا ... له شاعبوا الصدع المقارب للشّعب

قال الأصفهاني: «ودخل الكميت على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري فأنشده قوله فيه: ـ

لو قيل للجود مَنْ حليفك ما ... إن كان إلا إليك ينتسبُ
أنت أخوه وأنت صورته ... والرأس منه وغيرك الذنب
. . لو أن كعباً وحاتماً نُشرا ... كانا جميعاً مِنْ بعض ما تهبُ
لا تخلفُ الوعد إنْ وعدتَ ولا ... أنت عن المعتفّين تحتجبُ
ما دونك اليومِ من نوال ولا ... خلفك للراغبين منقلبُ

فأمر له خالد بمائة ألف درهم». (ص١٢٢/ ١٥ ـ الأغاني).

ولعل أول شعر للكميت فيه نزعة عصبية كان عند انتهاء الولاية الأولى لأسد بن عبد اللّه الْقَسْري لخراسان وتولية أشرس بن عبد اللّه السلمي القيسي عليها سنة ١١٠هـ حيث كان الحسن بن أبي العَمَرَّطة الكندي عاملاً لأسد على سمرقند فعزله أشرس واستعمل على سمرقند المجشر السلمي ونصر بن سيار فقال الكميت: ـ

كانت سمرقند أحقاباً يَمانيةً ... واليوم تحسبها قيسيةً مُضَرُ

وقد نسبت الروايات ذلك الشعر إلى أيام قتيبة بن مسلم، ويعود الالتباس إلى أن قطن بن قتيبة بن مسلم كان من عمال سمرقند وبُخَارى في عهد ولاية أشرس ثم الجنيد بن عبد الرحمٰن لخراسان (١١١ ـ ١١٥هـ) وفي تلك الفترة غالباً كان شعر الكميت الذي ابتهج فيه بأن سمرقند باتت قيسية مُضرية، ثم ضُمَّتْ حين ما لبث أن اجتاحها خاقان والمشركون وقال ابن عرس العبدي: ـ

أضحَتْ سَمَرْقَنْدُ وأشياعُهَا ... أحدوثةَ الغايبِ والشاهِدِ

وقد تغلب المشركون على سمرقند إلى أن حررها أسد الْقَسْري في ولايته الثانية لخراسان سنة ١١٧هـ كما سلف التبيين: ـ

وكان تعصب الكميت واشتراكه في التحريض على خالد وبداية أشعاره في هجاء اليمنيين يرتبط بأمرين أو بتأثيرين، أحدهما: إن جماعة من المُضَرية ـ والموالي ـ حرضوه على ذلك وقالوا له: إن حكيم بن عياش الكلبي اليماني هجا المُضَرية وقالوا له ـ فيما ذكر الأصفهاني ـ: «أجِب الرجل، فقال الكميت: إن خالد بن عبد اللّه القَسْري مُحسنٌ إليّ فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا: فاسمع بأذنك ما قال حكيم بن عياش في بنات عمك وبنات خالك وعشيرتك من الهجاء وأنشدوه ذلك ـ أي الشعر الذي نسبوه إلى حكيم ـ فحمى الكميت لعشيرته فقال القصيدة التي أولها: ألا حييت عنا يا مدينا. وهجا فيها أهل اليمن جميعاً..». بينما ذكر المسعودي في مروج الذهب تحت عنوان (السبب في العصبية بين اليمانية والنزارية) أنه: (قال عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب للكميت: إنّي رأيتُ أن تقول شيئاً تُغضب به بين الناس لعلّ فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحبّ. فابتدأ الكميت وقال قصيدته التي يذكر فيها مناقب قومه من نزار ويُكثر فيها من تفضيلهم ويُطنب في وصفهم وأنهم أفضل من قحطان، فغضّب بها بين اليمانية والنزارية وهي قصيدته التي أولها: ألا حييت عنا يا مدينا»[١]. ويتبين من جمع الروايتين أن الكميت وقع تحت تأثيرين، أحدهما: تأثير جماعة من المُضرية والموالي وثانيهما: تأثير عبد اللّه بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب الذي كانت ترتبط به جماعة سرية من الشيعة بالكوفة. وكان الغرض من التحريض سياسيًا وهو (لعلّ فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب). ولم يكن الكميت يرغب في التعصب وقال: (إن خالد القَسْري محسنٌ إليّ، فلا أقدرُ على ذلك). ولكنه ما لبث أن أذعن لما يريدون، فبدأ بالاشتراك في التحريض على خالد ثم انحدر فيما بعد إلى القصيدة التي أولها (ألا حييت عنا يا مدينا).

فعندما قام خالد بجلد ابن حسان النبطِي لفساده وشربه الخمر غالباً ظهر أول شعر للكميت ضد خالد، فقد ذكر أبو العباس المُبرِّد أنه: (قال الكميت الأسدي في خالد بن عبد اللّه القَسْري: ـ

بكتِ المنابرُ من فَزارة شَجوَها ... فالآن من قَسْرٍ تَضِجُّ وتَخْشَعُ
وملوكُ خِنْدِفَ أسلمونا للْعِدى ... للّهِ دَرُّ مُلوكنا ما تَصْنَعُ)

يعني بملوك خِنْدِف ملوك قريش. وتم بعث ذلك الشعر في رقعة مع شعر آخر إلى هشام بن عبد الملك. قال الأصفهاني: (كان هشام بن عبد الملك قد اتّهم خالد بن عبد اللّه وكان يُقال إنه يريد خلعك، فوُجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر، فَدُخل بها على هشام فقُرئت عليه، وهي: ـ

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٢٤٤، جـ٣.

تـألـق بـرقٌ عـنـدنـا وتـقـابـلـت أثاف لقدر الحرب أخشى اقتبالها
فـدونـك قـدر الـحـرب وهـي مـقـرة لكفيك واجعل دون قدر جعـالـهـا
. . تَلَافَ أمور الـنـاس قبـل تفـاقُـم بـعـقـدة حـزم لا يُخـاف انـحـلالـهـا

ـ إلى آخر الأبيات ـ، فأمر هشام أن يُجمع له من بحضرته من الرواة، فجمعوا، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم، فقال: شعر من تشبه هذه الأبيات، فأجمعوا أنه كلام الكميت بن زيد الأسدي، فقال هشام: نعم هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد اللّه. ثم كتب هشام إلى خالد بخبره وكتب إليه بالأبيات وخالد يومئذٍ بواسط فكتب إلى واليه بالكوفة ـ (وهو طارق بن أبي زياد) ـ يأمره بأخذ الكميت وحبسه. وقال لأصحابه: بلغني أن هذا يمدح بني هاشم ويهجو بني أمية فأتوني من شعره هذا بشيء. فأُتي بقصيدته اللامية التي أولها: ـ

ألا هـل عـم فـي رأيـه مـتـأمـلُ وهـل مُـدبـر بـعـد الإساءة مُـقْـبِـلُ

فكتبها وأدرجها في كتاب إلى هشام يقول: هذا شعر الكميت فإن كان قد صدق في هذا فقد صدق في ذلك، فلما قُرئت على هشام اغتاظ فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه ويضرب عنقه ويهدم داره ويصلبه على ترابها. فلما قرأ خالد كتاب هشام كره أن يستفسد عشيرته وأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت، فقال: لقد كتب إليّ أمير المؤمنين بكذا وسماه، فعرف عبد الرحمٰن بن عنبسة بن سعيد ما أراد، فأخرج غلاماً له فأعطاه بغلة له شقراء فارهة وقال له: إن أنت وردت الكوفة فأنذرت الكميت لعله أن يتخلص من الحبس فأنت حر لوجه اللّه والبغلة لك. فسار الغلام بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة فصبحها فدخل الحبس متنكراً فأخبر الكميت بالأمر. .». بينما ذكر الأصفهاني رواية ثانية تدل على أن حبس الكميت وقدوم كتاب هشام إلى خالد بقطع يدي الكميت ورجليه وضرب عنقه كان فيما بعد وهو الأصوب وإنما اختزلت الرواية الأولى الأحداث فاشتراك الكميت في التحريض سالف الذكر على خالد كان سنة ١١٥هـ ولم يتم حبسه آنذاك وإنما بعد فتنة الحارث بن سريج سنة ١١٧هـ فلما أمر هشام بقتل الكميت حذره ذلك الغلام فنجا الكميت بفضل تدبير خالد وسيأتي بقية ما ذكرته الرواية عن ذلك.

وكان ممن اشترك في التحريض على خالد بعد حادثة جلد ابن حسان النبطي شاعرٌ يقال له يحيىٰ بن نوفل، وقد سلف ذكر نبأ خالد حين خرج المغيرة بن سعيد الكذاب الساحر الذي كان يزعم أنه يحيي الموتى وكان مع المغيرة جماعة من الموالي العجم يسميهم الوصفاء وانخدع به نفر من أهل الكوفة بأنه سيحيي الموتى الذين بمقابر الكوفة وبينهم جعفر الذي لم تذكر الرواية ابن من هو، وقد ذكر الطبري

أنه: «كان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم، فيُرى مثل الجراد على القبور.. ثم خرج المغيرة في سبعة نفر كانوا يدعون الوصفاء، وكان خروجهم بظاهر الكوفة، فأخبِرَ خالد الْقَسْري بخروجهم وهو على المنبر، فقال أطعموني ماءً. فنعى ذلك عليه ابن نوفل..». وجاء في هامش البيان والتبيين أنه: «خرجت الجعفرية على خالد وهو يخطب على المنبر وهو لا يعلم بهم، فخرجوا في التبابين يُنادون: لبيك جعفر لبيك جعفر، وعرف خالد خبرهم وهو على المنبر فدهش فلم يعلم ما يقول فزعاً فقال: أطعموني ماءً». وقال أبو العباس المبرِّد: «كان خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري متقدماً في الخطابة ومتناهياً في البلاغة، فخرج عليه المغيرة بن سعيد بالكوفة في عشرين رجلاً، فقال خالد أطعِموني ماءً وهو على المنبر، فَعُيِّر بذلك فكتب به هشامٌ إليه في رسالة يوَبّخُهُ فيها وسنذكرها في موضعها، وعيَّره يحيىٰ بن نوفل فقال: ـ

لأعلاجٍ ثمانيَةٍ وعبدٍ لئيم الأصلِ في عَددٍ يَسير
هتفت بِكلِّ صوْتك أطعموني شراباً ثم بُلت على السريرِ» (٢٠/ ١»

وجاء البيت الأول في رواية الجاحظ (لأعلاج ثمانية وشيخ كبير السن ذي بصر ضرير» والأصوب في عجز البيت الثاني (شراباً، ما ثَبَتَ على السرير) وقال الكميت بن زيد الأسدي: ـ

وما خالدٌ يستَطعِمُ الماءَ قائماً بعِذْلِكَ والدَّاعي إلى الموت ينْعَبُ

وإنما ارتبك خالد وقال: أطعموني ماءً حين أخبروه بخروج المغيرة وأنه أحيا جعفراً والذين في القبور وأقبل المغيرة مع الجعفرية وهم ينادون: لبيك جعفر، لبيك جعفر، ثم ما لبث خالد أن أعلن بإيمانه أنه لا يُحيي الموتى إلا اللّٰه عزّ وجلّ ولا يقوم أهل القبور إلا يوم القيامة. وأمر بالقبض على المغيرة والجعفرية الذين معه، وتم إعدام المغيرة وسبعة من أصحابه الذين أصرّوا على أنه يُحيي الموتى، وعفا عن الذين تراجعوا وأقرّوا بأن المغيرة كذاب وأن الموتى لا يحيهم إلا اللّٰه تعالى. ثم استغلت حملة التحريض على خالد سنة ١١٥هـ قوله عند خروج المغيرة: (أطعموني ماءً) فذكر هشام ذلك في رسالته التي كتبها إلى خالد حين بلغت حملة التحريض على خالد ذروتها وأوعز حسان النبطي إلى خادم هشام فقال لصبي من صبيان هشام: (اسكت واللّٰه لكأنّك ابن خالد الْقَسْري الذي غلته ثلاثة عشر ألف ألف.. فوقرت في نفس هشام). وقام آخرون بنقل أقوال نسبوها إلى خالد منها أنه ذكر هشاماً في مجلسه فقال: (الأحول ابن الحمقاء) وأنه قال: (ما ولاية العراق لي بشرف).

٣ ـ رسالة هشام بن عبد الملك إلى خالد الْقَسْري

قال أبو العباس المبرّد: كتب هشام أمير المؤمنين إلى خالد بن عبد اللّٰه

الْقَسْري: «أما بعد، فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك إلّا لِمَا أَحَبَّ من ربِّ الصَنيعة قِبلَكَ واستتمام معروفه عندك. . ولو أراد أمير المؤمنين إفسادك لجمع بينك وبين من شهد فَلَتات خَطَلِكَ وعظيمَ زَلَلِكَ حيث تقول لجلسائك واللّه ما زادتني وِلايةُ العراق شَرْفاً ولا وَلّاني أمير المؤمنين شيئاً لم يكن مَنْ قبلي ممن هو دوني يلي مثله ـ[جاءت هذه الفقرة في رواية الطبري: بلغني أنك تقول ما ولاية العراق لي بشرف فكيف لا يكون إمرة العراق لك بشرف وأنت من بَجِيلة القليلة الذليلة] ـ ولَعَمْرِي لو ابتليتَ ببعض مَقاوِم الحجّاج في أهل العراق في تلك المضايق التي ألقى لعلمتَ أنك رجل من بَجِيلةَ، فقد خرج عليكَ أربعون رجلاً فغلبوك على بيت مالك وخزائنك حتى قلتَ أطعموني ماءً دَهَشاً وبَعْلاً فما استطعتهم إلا بأمان ثم أَخْفَرْت ذمَّتكَ منهم رَزِينُ وأصحابه. ولَعَمْري أن لو حاول أميرُ المؤمنين مكافأتَكَ بخَطَلِكَ في مجلسك وجحودك فضله إليك فَحَلَّ العُقْدَةَ ونَقَضَ الصَنِيعة ورَدَّكَ إلى منزلة أنت أهلُها كنتَ لذلك مستحقاً، فهذا جَدُّكَ يزيدُ بن أَسَدٍ قد حَشَدَ مع معاوية في يوم صِفِّين وعَرَّضَ دونه دمه فما اصطنع إلّا عنده ولا وَلّاهُ ما اصطنع إليك أمير المؤمنين وولاك، وقِبلَهُ من أهل اليمن وبيوتاتهم مَنْ قبيلَهُ أكْرَمُ من قبيلتك، من كِندةَ وغَسّانَ وآل ذي يَزَنٍ وذي كلاع وذي رُعَيْن في نظرائهم من بيوتات قومهم، كلُّهم أكْرَمُ أوليَّةً وأشرف أسلافاً من آل عبد اللّه بن يزيد فقد آثرك أمير المؤمنين بولاية العراق بلا بيت رَفيع ولا شرف قديم فهذه البيوتات تَعْلُوك وتَغْمُرُك وتتقدمك في المحافل والمجامع عند بَدْأَة الأمور».

ومضى هشام في رسالته إلى أن قال: «ووالله أن لو لم يَسْتَذْلِلْ أميرُ المؤمنين على ضعف نحائزك وسوء تدبيرك إلّا بغسالة دَخائلك وبِطانتك وعُمَّالك، والغالبةُ عليك جاريَتُكَ الرائفة بائعة الفُهود ومُستَعْمِلةُ الرجال، مع ما أتلفت من مال اللّه في المُبارَكِ فإنك ادعيتَ أنك أنفقتَ عليه اثنى عشر ألف ألف درهم، واللّه لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتفل لك أمير المؤمنين ما أنفقتَ من مال اللّه وضيعتَ من أمور المسلمين وسَلَّطْتَ من وُلاة السَوْء على جميع أهل كُوَرِ عملك. تجمع إليك الدَهاقينُ هَدايا النَيْروزِ والمهْرَجَانِ حابساً لأكثره رافعاً لأقلّه. وتوجيهك أخاك أسد إلى خُراسان مُظهراً العَصَبيَّةَ بها متحاملاً على هذا الحيّ من مُضَرَ بتصغيره بهم واحتقاره لهم. . ومُناصبتك أميرَ المؤمنين في مولاه حَسَّان ووكيله في ضياعه وأحوازِهِ في العراق وإقدامك على ابنه بما أَقْدَمْتَ به. وسيكون لأمير المؤمنين في ذلك نَبَأٌ إن لم يَعْفُ عنك. . فإذا خلوتَ أو توسطتَ مَلأً فاعرفْ نفسك وخَفْ رواجع البَغي عليك وعاجلات النِقَم فيك. واعلم أن ما بعد كتاب أمير المؤمنين هذا أشدُّ عليك، وقِبَلَ أمير المؤمنين خَلَفٌ منك كثيرٌ في أحسابهم وبيوتاتهم وأديانهم، وفيهم عوض منك. واللّه من وراء ذلك». (ص٣٨٨/ ٢ ـ الكامل).

وغنيّ عن البيان أن بعض أصحاب المثالب في العصر العباسي أضافوا إلى رسالة هشام ما يتفق مع أهوائهم من مزاعم غير صحيحة، ولكن ما سلف نصه من رسالة هشام يغلب الظن بأنه صحيح لدلالة الوقائع عليه، وقد جاء في ختام رواية أبي العباس المبرد للرسالة كلمة (كتب عبد الله بن سالم سنة تسع عشرة ومائة) ـ يعني كتب الرسالة، والأصوب سنة ست عشر ومائة وقد كتب هشام رسالة ثانية إلى خالد سنة ١١٩هـ ولذلك وقع الالتباس، ووقع دمج لبعض ما جاء في الرسالتين.

ولم يكتب خالد رسالة جوابية على هشام وإنما بعث رسولاً لتوضيح ما يستلزم التوضيح كما فعل في شأن شعر الكميت حين بعث إلى هشام شعراً للكميت فيه هجاء بني أمية وقال له: إن صدق في هذا فقد صدق في ذاك، وقد كان من النقاط الرئيسية في رسالة هشام بن عبد الملك: ـ

أ ـ تكلفة نهر المبارك الذي شقه خالد سنة ١٠٩هـ وبلغت تكلفته اثني عشر ألف ألف درهم، وقد أثيرت تلك النقطة عندما قام خالد بشق النهر، وقال الشاعر جرير فيما يشبه الرد على المرجفين حول نفقة نهر المبارك: ـ

فإن الذي أنفقت حزماً وقوة يجيء بأضعاف من الربح زائد

وقد بلغت غلات وإيرادات بيت المال من أراضي نهر المبارك عشرة آلاف ألف درهم حتى سنة ١١٥هـ وبالتالي سيأتي النهر بمثل ذلك الإيراد أيضاً خلال خمس سنوات، وقد ساهم النهر في تحقيق الرفاهية والاستقرار للبلاد، وقد قام خالد بتوضيح ذلك لهشام بالطريقة المناسبة.

ب ـ التقليل من شجاعة خالد وأنه من بَجِيلة وأنه قال: (أطعموني ماءً) حين خرج المغيرة الكذاب. وقد ربطت رسالة هشام بين خروج المغيرة وخروج رزين الذي اقتحم مع زهاء عشرين رجلاً بيت المال بالكوفة فلما حوصروا أعطاهم خالد الأمان، وكانت الحادثتان في وقت واحد في إحدى السنوات السابقة ـ ربما سنة ١٠٩هـ ـ واستغلت حملة التحريض على خالد تلك الحادثة سنة ١١٥هـ، وقد ذكر الكميت عدم وفاء خالد بالأمان لرزين في أبيات تحريضية قال فيها عن خالد: ـ

ومَنْ وَلى بذمّته رَزِينا وشَيعَتَهُ ولَمْ يُوفِ بِعَهْدِ

ويماثل ذلك قول هشام في رسالته لخالد: « . . فما استطعتهم إلا بأمان ثم أخفرت ذمتك منهم رزين وأصحابه). ولعل الأصوب «ثم أخفرت ذمتك برزين وأصحابه». وقد سلف ذكر نبأ رزين فبعد تأمينه مع أصحابه دعاه خالد إلى مجلسه وسأله ليس عن اقتحام بيت المال وإنما عن ما يُقال من أنه يزعم نزول الوحيّ عليه

فقال: نعم نزل علي قرآن ثم قرأ: إنا أعطيناك الكماهر فصل لربك ولا تجاهر ولا تُطع كل كافر وفاجر، فأمر به خالد فَصُلب». فالمغيرة ورزين ممن قال عنهم جرير: -

وإنْ فَتَنَ الشيطانُ أهلَ ضلالةٍ لقُوا مِنك حَرباً حَمْيُها غَيْرُ بارد
إذا كان أمْنٌ كان قلبُكَ مؤمناً وإنْ كان خوفٌ كُنْتَ أحْكَمَ زائِدِ

وأما قول هشام: (إنك رجل من بَجِيلة) ونحو ذلك من التقليل ببجيلة، فقد سلف ما ذكره الطبري من أنه: (كان خالد يقول: إنني والله مظلوم ما تحت قدمي من شيء إلا وهو لي. يعني أن عمر بن الخطاب جعل لبجيلة ربع السواد)، ونرى أن ذلك أيضاً تذكير بأن بجيلة هم الذين فتحوا سواد العراق بزعامة الصحابي الكبير جرير بن عبد الله البجلي في خلافة عمر فجعل عمر لهم ربع أرض السواد، فكان ذلك أبلغ رد وتذكير من خالد بمكانة وشجاعة بجيلة.

جـ ـ انتقد هشام في رسالته موقف خالد من حسان النبطي الذي أوقع في نفس هشام أن غلة خالد ثلاثة عشر ألف ألف درهم، فقال في رسالته (مناصبتك أمير المؤمنين في مولاه حسان ووكيله في ضِياعه وأحوازه في العراق وإقدامك على ابنه بما أقدمت عليه). وبهذا فقد انتزع حسان من هشام أمراً مهماً لأن هذا بمثابة أمر بعدم التعرض لحسان يصل إلى أن لا ولاية لخالد على حسان ولا عقوبة على ابن حسان مهما فعل. وقد حصل حسان أيضاً على أمر أكثر أهمية بصفته وكيل أمير المؤمنين في ضياعه وأحوازه بالعراق، فقد ذكر الطبري أنه: «كتب هشام إلى خالد: لا تبيعنّ من الغلات شيئاً حتى تُباع غلات أمير المؤمنين». وقد أدى ذلك ليس إلى الإضرار بخالد وغيره من ذوي الغلات فحسب وإنما أيضاً إلى قيام حسان بتغلية أسعار غلات أمير المؤمنين. ولم يعترض خالد على ذلك وإنما كان ينتقد بطريقة غير مباشرة فقد ذكر الطبري عن ابن عياش أنه: «كان خالد يخطب فيقول إنكم زعمتم أنّي أغلى أسعاركم فعلى من يغليها لعنة الله».

د ـ انتقدت رسالة هشام عمال خالد على الأقاليم ووصفته بأنهم عمال سوء، وبالذات عماله على بلاد خراسان، وكان أمير خراسان آنذاك الجنيد بن عبد الرحمٰن المري (١١١ ـ ١١٥هـ) وكان عماله على أقاليم وكور خراسان من القيسية، وإياهم عني هشام بقوله لخالد في الرسالة: «سَلَّطْت من ولاة السوء على جميع أهل كور عملك» أو ـ (على جميع كور عمل خراسان) ـ «تجمع إليك ـ أو إليهم ـ الدهاقينُ هدايا النيروز والمهرجان حابساً لأكثره رافعاً لأقله» ـ وانتقد هشام الفترة السابقة وهي فترة الولاية الأولى لأسد القَسْري على خراسان (١٠٦ ـ ١٠٩) قائلاً: «وتوجيهك

أخاك أسداً إلى خراسان مظهراً العصبية متحاملاً على هذا الحيّ من مضر. .» وقد سلف ذكر النبأ اليقين عن عهد الولاية الأولى للأمير أسد على خراسان ومزاعم تعصبه لليمانية، ثم عهد الجنيد بن عبد الرحمٰن وهو من القيسية ولكن حملة التحريض شملت الجنيد لأنه يرتبط بخالد أمير العراق ومشارقها، وقد نجحت حملة التحريض في إقناع الخليفة هشام بفصل خراسان عن ولاية خالد من جهة وعزل الجنيد وتولية عامل يمثل القيسية وهو عاصم بن عبد اللّه الهَلالي القيسي من جهة أخرى. ففي نفس زمن رسالة هشام إلى خالد تقريباً تم فصل خراسان عن ولاية خالد وتولاها عاصم وأمره هشام بحبس وتعذيب الجنيد وعماله، فوصل عاصم إلى خراسان وقد مات الجنيد ـ في محرم ١١٦هـ ـ فقام بحبس عمال الجنيد وتولى عاصم خراسان في صفر ١١٦هـ.

ويبدو أن فصل خراسان عن ولاية خالد الْقَسْري من جهة ورسالة هشام إلى خالد من جهة أخرى قد أدى إلى الظن بأن خالداً لن يلبث أن يُعزل من ولاية العراق، وكان الضالعون في حملة التحريض يشيعون ذلك ومنهم الكميت بن زيد الأسدي واتباع حسان النبطي وبعض المتشيعين بالكوفة، فعندما قام خالد بزيارة تفقديه للكوفة ـ سنة ١١٦هـ ـ وقع ما ذكره الأصفهاني عن ابن حبيب أنه: «مَرّ خالد بالكميت يوماً بالكوفة وقد تحدث الناس بعزله عن العراق فلما جاز تمثل الكميت: ـ

أراها وإن كانت تحب كأنها سحابة صيف عن قليل تَقْشَعُ

فسمعه خالد فرجع وقال: أما واللّه لا تنقشع حتى يغشاك منها شؤبوب برد، ثم أمر به ـ عامل الكوفة طارق بن أبي زياد ـ فجُرد فضربه مائة سوط، ثم خلى عنه ومضى» ـ (ص١١٤/ ١٥ ـ الأغاني).

وكان الكميت والضالعون في حملة التحريض على علاقة غير علنية بنشاط وحركة الحارث بن سريج التميمي في خراسان، ولذلك سعوا إلى فصل خراسان عن أمير العراق ومشارقها، فلما تم ذلك وتولاها عاصم القيسي اندلعت حركة الحارث بن سريج والمتحالفين معه من العجم بخراسان ولم يأت شهر شعبان إلا وقد سيطروا على أغلب أقاليم خراسان ولم تبق بيد الأمير عاصم إلا العاصمة مرو وناحية أبرشهر، فكتب عاصم إلى الخليفة هشام بفساد الحارث بن سريج وتغلبه على أغلب البلاد وأن خراسان لا تصلح إلا أن ترتبط بأمير العراق.

وعندئذٍ أدرك هشام بعض أبعاد حملة التحريض على خالد الْقَسْري فأعاد خراسان إلى ولاية خالد ـ في رمضان سنة ١١٦هـ ـ وكتب إلى خالد: «ابعث أخاك أسداً إلى خراسان يُصلح ما فَسَد، فإن كانت رجيّة فلتكن به». فكان ذلك نقطة تحول

أصبح الأمير خالد الْقَسْري بعدها أقوى مما كان، فقد بعث خالد أخاه أسداً إلى خراسان على رأس قوة من فرسان الكوفة والعراق وفرسان الشام، فانطلق أسد إلى خراسان وهزمت قواته الحارث بن سريج وجيشه في نواحي إقليم مرو فانسحب إلى إقليم مرو الروذ وبَلْخ، ودخل أسد العاصمة مرو في محرم ١١٧هـ وكان عمال الجنيد القيسيين في سجن مرو وبينهم قطن بن قتيبة بن مسلم وعثمان بن الشخير فقال لهم أسد: «أسير فيكم بسيرة قومكم أو بسيرتنا؟ فقالوا: بل بسيرتك. فخلى سبيلهم».

وفي صفر سنة ١١٧هـ سار الأمير أسد الْقَسْري لمحاربة الحارث بن سريج والمتحالفين معه من العجم في أقاليم مرو الروذ وآمل وبَلْخ، بينما بعث الكميت بن زيد الأسدي إلى الحارث بن سريج والذين معه بالقصيدة التي قال فيها: ـ

ألا أبـلـغ جـمـاعـة أهـل مَـرْوِ	عـلـى مـا كـانَ مِـنْ نـاءٍ وبُـعْـدِ
رسـالـةَ نـاصـح يَـهْـدي سـلامـاً	ويـأمُـرُ فـي الـذي ركـبُـوا بِـجـدِ
وأبْـلِـغْ حـارثـاً عـنّـا اعـتـذاراً	إلـيْـهِ أنَّ مَـنْ قِـبَـلِـي بِـجـهْـدِ
فـلا تَـهِـنُـوا ولا تَـرْضـوا بِـخَـسْـفٍ	ولا يَـغْـرر بـكـم أسـدٌ بـوعـد
. . وكـيـف وأنـتـم سـبـعـون ألـفـاً	رمـاكـم خـالـد بـشـبـيـه قـردِ
ألا فَـلْـتـرفـعـوا الـرايـات سـوداً	عـلـى أهـل الـضـلالـةِ والـتـعـدي

وقد رفع ابن سريج والمتحالفون معه الرايات سوداً على جيش دولة الخلافة والأمير أسد فانهزموا وهم سبعون ألفاً، وتقهقروا من مرو الروذ إلى آمل ثم إلى بَلْخ ثم إلى بلاد ما وراء النهر ـ في شهر ربيع ـ وأعلن أسد الأمان فرجع أكثرهم إلى الطاعة، ثم سار الأمير أسد إلى سمرقند وحررها من المشركين وأعاد إليها سلطة الإسلام ـ في رجب ١١٧هـ ـ وعاد إلى مدينة بَلْخ، وكتب إلى أخيه الأمير خالد بأنباء النصر والفتح، فكتب خالد بذلك إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، وتعززت مكانة خالد وسلطة دولة الخلافة في العراق ومشارقها.

ثالث عشر: معالم السنة الثالثة عشرة من ولاية خالد للمشرقين

في شوّال ١١٧هـ بدأت السنة الثالثة عشرة من ولاية خالد بن عبد اللّه الْقَسْري للمشرقين، وكان من أنباء تلك السنة التي تواصلت إلى رمضان ١١٨هـ ما يلي: ـ

١ ـ عمال خالد على ولايات المشرقين

استمر الأمير بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عاملاً لخالد على ولاية البصرة وأقاليمها التي كانت تشمل البحرين والأهواز وفارس إلى تخوم بلاد السند، واستمر الأمير طارق بن أبي زياد عاملاً لخالد على الكوفة وأقاليمها الممتدة إلى

حلوان في شرق شمال العراق ثم إلى أقاليم الريّ وهَمَذان وأصبهان في إيران إلى تخوم بلاد خراسان، وكان عامل خالد على بلاد السند الحَكَمْ بن عوانة الكلبي وقد أتَمّ الحَكَمْ تشييد مدينة المنصورة واتخذها مقراً وعاصمة لولاية السند، وكان عاملُ خالد على خراسان أخاه أسد بن عبد اللّه الْقَسْري، قال الطبري: «واتخذ أسد مدينة بَلْخْ داراً ونقل إليها الدواوين سنة ١١٨هـ ثم غزا طخارستان وأرض جيغويه». وعاد أسد بالظفر والغنائم إلى بَلْخْ وكتب بذلك إلى خالد، وكان عمال أسد على أقاليم خراسان: المقدام بن عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي على إقليم الجوزجان، ويحيىٰ بن نعيم الشيباني الربعي على إقليم آمل، وأبا العوجاء بن سعيد العبدي الربعي على طخارستان، وسنان الأعرابي على الترمذ، وأيوب بن أبي حسان التميمي على إقليم مرو، وإبراهيم بن عبد الرحمٰن الحنفي على إقليم هراة، وجديع بن علي الكرماني نائباً لأسد في بَلْخْ.

٢ ـ القبض على نقباء الدعوة العباسية والعفو عنهم

كان محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس المقيم في أرض الشراة ـ بالشام ـ يقود نشاطاً سرياً تسميه الروايات الدعوة العباسية وكان يمثله بالكوفة بكير بن ماهان، وتم تسمية نقباء للدعوة في خراسان، وهم اثنا عشر نقيباً بزعامة سليمان بن كثير الخزاعي الأزدي فوشى بهم بعض المضرية إلى الأمير أسد بن عبد اللّه الْقَسْري وكان قد عفا عنهم في وقت سابق، فأمر باعتقالهم فتم حبسهم وإحضارهم إليه وكانوا يومئذٍ ستة: سليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطلحة بن زريق الخزاعي، وهم يمانية، وخالد بن إبراهيم من ربيعة، وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ من تميم، فقال لهم أسد: ألم يقل اللّه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؟ فقال سليمان بن كثير: أتكلمُ أم أسكت؟ قال: بل تكلم، قال: نحن واللّه كما قال الشاعر: ـ

لـو بـغـيـر الـمـاءِ حَـلْـقـي شَـرِقٌ كنتُ كـالـغَصّـان بـالـماء اعتصاري

تدري ما قصتنا، صيدت واللّه العقارب بيدك، أيها الأمير: إنّا أُناسٌ من قومك اليمانية وأن هذه المضرية تعصبوا علينا فرفعوا إليك فينا الزور والبهتان». فأخذ الأمير أسد بذلك الاحتمال فأطلق سراح اليمانية الثلاثة وخالد الربعي وعفا عنهم، وحبس التميميين وعاقبهم عقوبة يسيرة ثم عفا عنهم، فتوقف ذلك النشاط بخراسان.

٣ ـ القبض على خدّاش ومقتله

قال الحافظ ابن كثير: «في سنة ١١٨هـ قصد شخص يقال له عمار بن يزيد ثم

سُمي خداشاً إلى بلاد خراسان ودعا الناس إلى خلافة محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس. . ». وقال الطبري: «وَجَّه بكير بن ماهان عمار بن يزيد والياً على شيعة بني العباس فنزل مرو، وتسمى خداشاً ودعا إلى محمد بن علي، فسارع إليه الناس - أي شيعة بني العباس - وقبلوا ما جاء به وسمعوا له وأطاعوا، ثم غيّر ما دعاهم إليه وتكذّب وأظهر دين الخُرَّمية ودعا إليه ورخص لبعضهم في نساء بعض، فبلغ أسد بن عبد اللّه خبره فوضع عليه العيون حتى ظفر به. . ». وكذلك ذكر الحافظ ابن كثير أن خداشاً: «استجاب له خلق - أي من شيعة بني العباس - فلما التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الخرمية والزنادقة وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أن محمد بن علي يقول ذلك وقد كذب عليه، فأظهر اللّه عليه الدولة، فأُخذ، فجيء به إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير العراق وخراسان فأمر به فَقُطعت يده، وسُلّ لسانه، ثم صُلب بعد ذلك». (ص٣٢٠/ ٩ - البداية والنهاية).

٤ - حبس الكميت. . وإنقاذ خالد إياه من القتل

وفي سنة ١١٧هـ كتب الأمير خالد بن عبد اللّه الْقَسْري إلى أمير الكوفة طارق بن أبي زياد يأمره بحبس الكميت بن زيد الأسدي، وقد سلف ذكر ما جاء في رواية الأصفهاني بأن حبسه كان بسبب شعر بعثه الكميت إلى هشام بن عبد الملك فيه هجاء لخالد، فكتب هشام إلى خالد بخبره وبذلك الشعر «وخالد يومئذٍ بواسط فكتب خالد إلى واليه بالكوفة يأمره بأخذ الكميت وحبسه». بينما الأصوب أن حبس الكميت لم يكن آنذاك بدليل استمراره في التحريض على خالد ثم الشعر الذي قاله وبعثه إلى الحارث بن سريج في أوائل سنة ١١٧هـ ولعل الأصوب أن حبسه إنما كان بسبب الشعر الذي بعثه إلى الحارث بن سريج والذي دلّ على علاقته بتلك الحركة والفتنة هو وجماعة مجهولة بالعراق وذلك في قوله: -

وأبْلِغْ حارثاً عنّا اعتذاراً ... إليْهِ بأنّ مَنْ قِبَلِي بِجُهْدِ
ولَوْلَا ذاكَ قد زارَتْكَ خيلٌ ... مِنَ المِصْرَينِ بالفُرسانِ تُردى

يقول: لولا أنّ الذين بالعراق من أصحابك في حالة جهد لأتت إليك خيل من البصرة والكوفة لتحارب معك، وقال: -

ألا فَلْتَرْفَعُوا الراياتِ سوداً ... على أهلِ الضلالةِ والتعدي

فلما انهزم الحارث بن سريج وعاد أكثر أصحابه إلى الطاعة تم العثور على شعر الكميت وعندئذٍ غالباً أمر خالد بحبسه لدلالة الشعر على خروجه على دولة الخلافة ووصفه إياها بأهل الضلالة والتعدي من جهة، ودلالة الشعر على وجود جماعة سرية بالعراق على علاقة بتلك الحركة والفتنة من جهة أخرى، ولعل ما

سلف ذكره عن ضرب الكميت مائة سوط إنما كان عندما تم حبسه لكي يعترف بالجماعة السرية ذات العلاقة بابن سريج فلم يعترف بشيء وتم حبسه بالكوفة.

وجاء في رواية الأصفهاني أن خالداً لما أمر بحبس الكميت (قال لأصحابه إنه بلغني أن الكميت يمدح بني هاشم ويهجو بني أمية فأتوني من شعره هذا بشيء، فأُتي بقصيدته اللامية التي أولها: ـ

ألا هـل عـم فـي رايـة مـتـأمـلٌ وهـل مـدبـر بـعـد الإسـاءة مـقـبـلُ

فكتبها وأدرجها إلى هشام.. فلما قرئت على هشام اغتاظ فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه ويضرب عنقه ويهدم داره ويصلبه..» وقال الأصفهاني في رواية ثانية: (إن الكميت لما قال قصيدته التي يهجو فيها اليمن وهي (ألا حُييت عنا يا مدينا) أحفظت خالد عليه، فكتب إلى هشام بأخبار الكميت وهجائه بني أمية وأنفذ إليه قصيدته اللامية التي يقول فيها:

فيـا ربّ هـل إلابك الـنصرُ يُـرتـجَى ويـا ربّ هـل إلا عـلـيـك الـمـعـولُ

وهي طويلة يرثي فيها زيد بن علي وابنه الحسين بن زيد ويمدح بني هاشم، فلما قرأها هشام بن عبد الملك عظمت عليه واستنكرها وكتب إلى خالد أن يقطع لسان الكميت ويده..». وأقول: إن الروايتين اللتين ذكرهما الأصفهاني بأن خالداً بعث تلك القصيدة اللامية إلى هشام غير صحيحتين لأن تلك القصيدة يرثي فيها الكميت زيد بن علي وابنه حسين بن زيد بن علي بينما ولاية خالد للعراق انتهت قبل مقتلهما بسنتين، وكان مقتلهما في ولاية يوسف الثقفي، فالزعم بأن خالداً بعث تلك القصيدة إنما هو من أكاذيب وتلفيقات أصحاب المثالب والمتشيعين والحاقدين من ذوي الأهواء في العصر العباسي والذين لم يدع الأصفهاني شيئاً من أكاذيبهم على خالد الْقَسْري إلا رواها في محاولة عصبية شعوبية للنيل من ذلك الزعيم اليماني العظيم. بينما الذي يمكن أن يصح هو أن هشام بن عبد الملك بلغته أشعار للكميت هجا فيها بني أمية وهشاماً، منها قوله: ـ

لا كـعـبـد الـمـلـيـك أو كـولـيـد أو سـلـيـمـان بـعـد أو كـهـشـام

مـن يـمـت لا يـمـت فـقـيـداً ومـن يـحـيـا فـلا ذو إلٍّ ولا ذو ذمـام

ولقوله في قصيدته إلى الحارث بن سريج: ـ

ألا فـلـتـرفـعـوا الـرايـات سـوداً عـلـى أهـل الـضـلالـة والـتـعـدي

فلما بلغت تلك الأشعار هشاماً كتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ولسانه ثم يصلبه ـ كما فعل بخداش الكذاب ـ قال الأصفهاني (فلما قرأ خالد كتاب

هشام كره أن يستفسد عشيرته وأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت)، وأقول: إن خالداً ربما رأى أيضاً أن الكميت ليس مثل خداش فإن خداشاً كان يشتم أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنهما ثم كفر وأظهر دين الخرمية المجوسي وأباح للموالي الذين تابعوه نساء بعضهم بعضاً، بينما الكميت إنما وقع تحت تأثير بعض الحاقدين فانقلب من مدح بني أمية إلى هجائهم ومن مدح خالد إلى ذمّه والتحريض عليه ومال إلى فتنة ابن سريج وليس في ذلك ما يستوجب أن يتجاوز العقاب حبسه إلى قطع يديه ولسانه ورجليه وصلبه، ولذلك أعلن خالد الأمر في مجلسه فقال: لقد كتب إليّ أمير المؤمنين بكذا وكذا، فعرف عبد الرحمٰن بن عنبسة أن خالداً يريد أن يتخلص الكميت، فأرسل غلاماً له لينذر الكميت؛ فسار الغلام بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة، فصبحها، فدخل الحبس متنكراً فأخبر الكميت بالخبر. قال الأصفهاني: «فأرسل الكميت إلى امرأته وهي ابنة عمه يأمرها أن تجيئه ومعها ثياب من لباسها وخفّان، ففعلت: فقال: ألبسيني لبسة النساء ففعلت، فخرج، فمرّ بالسجان فظن أنه المرأة فلم يعرض له فنجا وأنشأ يقول: ـ

خرجتُ خروج القدح قدح ابن مقبل ... على الرغم من تلك النوابح والمشلي

على ثياب الغانيات وتحتها ... عزيمة امْرِئٍ أشبهت سلة النصل

وورد كتاب خالد إلى والي الكوفة ـ طارق بن أبي زياد ـ يأمره فيه بما كتب به إليه أمير المؤمنين هشام، فأرسل طارق إلى الكميت ليؤتى به من الحبس فينفذ فيه أمر هشام، فدنوا من باب البيت فكلمتهم المرأة وأخبرتهم أنها في البيت وأن الكميت قد خرج. ـ فأمر طارق بحبس امرأة الكميت ـ وكتب بذلك إلى خالد، فأجابه خالد: حرة كريمة أفدت ابن عمها بنفسها وأمر بتخليتها».

قال ابن الأعرابي: « . . وأقام الكميت مدة متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خفّ عنه خرج إلى الشام» ـ قال الأصفهاني: «وكان علقمة بن وائل الحضرمي يترجاه حتى أمر هشام بأن يأتيه به، فلما أتاه به قال له هشام: أنت القائل: ـ

لا كعبد المليك أو كوليد ... أو سليمان بعد أو كهشام

من يمت لا يمت فقيداً ومن ... يحيا فلا ذو إلٍّ ولا ذو ذمام

ويلك يا كميت جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة؟ فقال: بل أنا القائل يا أمير المؤمنين: ـ

فالآن صرت إلى أمية ... والأمور إلى المصائر

يا ابن العقائل للعقائل ... والجحاجحة الأخاير

من عبد شمسٍ والأكابر من أُميّة فالأكابر
إن الخلافة والإلاف برغم ذي حسد وواغر
دلفا من الشريف التليد إليك بالرفد الموافر

وهي قصيدة طويلة في مدح هشام وبني أمية أولها: (قف بالديار وقوف زائر). وقد أنشده الكميت إياها وعنده الأبرش الكلبي ومسلمة بن هشام، فقال له هشام: رضيت عنك يا كميت، وأمر له بأربعين ألف درهم، وكتب إلى خالد بأمانه، فعاد الكميت إلى الكوفة آمناً.

رابع عشر: أنباء ومعالم السنة الرابعة عشرة من ولاية خالد للمشرقين

وفي شوّال سنة ١١٨هـ بدأت السنة الرابعةَ عشرةَ من ولاية خالد للمشرقين وكان من معالم تلك السنة التي تواصلت إلى رمضان سنة ١١٩هـ ما يلي:

١ ـ عمال خالد على الولايات والأقاليم

استمرّت سلطة خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري مستتبة في أرجاء ولايات وأقاليم المشرقين: العراق والبحرين وأقاليم فارس وخراسان وآسيا الوسطى. واستمر الأمير بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عاملاً لخالد على ولاية البصرة وأقاليمها، والأمير طارق بن أبي زياد عاملاً لخالد على الكوفة وأقاليمها، وكان أبان بن الوليد البجلي عاملاً لواسط التي هي مقر خالد الْقَسْري أمير المشرقين، بينما كانت مدينة بَلْخ ـ في شمال أفغانستان ـ مقر الأمير أسد الْقَسْري عامل خالد على بلاد خراسان وآسيا الوسطى، وكانت مدينة المنصورة ـ في باكستان ـ مقر الحَكَمِ بن عوانة عامل خالد على بلاد السند.

وفي أواخر سنة ١١٨هـ تقريباً استشهد في غزوة إلى بلاد الهند الأمير الحَكَم بن عوانة الكلبي أمير بلاد السند، فاستخلف منصور بن جمهور الكلبي الذي قال المسعودي في مروج الذهب: «سميت مدينة المنصورة باسم منصور بن جمهور الكلبي عامل بني أمية» وقد كان مع الحَكَم بن عوانة في بلاد السند ـ كما ذكر البلاذري ـ «مشائخ كلب بالشام». فرجعوا إلى الأمير خالد بالعراق ثم إلى دمشق، وفيهم حنظلة بن صفوان الكلبي وأبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فولى هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان الكلبي أميراً والياً على مصر (١١٩ ـ ١٢٣هـ) وبذلك عادت ولاية الكلبيين من المشرق إلى المغرب، فقد أصبح حنظلة أميراً لإفريقية الشمالية وبلاد المغرب العربي (١٢٤ ـ ١٣٠هـ) وأبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي أميراً للأندلس (١٢٤ ـ ١٣٠هـ) ولم تذكر الروايات اسم أمير بلاد السند بعد الحَكَم بن عوانة الكلبي، ولكن الظّاهر أن منصور بن جمهور الكلبي مكث عاملاً

على بلاد السند لخالد سنة ١١٨ ـ ١٢٠هـ. وقد ذكر الطبري في أحداث سنة ١١٩هـ أنه: «خرج خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري من واسط حتى أتى الحيرة وهو حينئذٍ في الخلق، وقد قَدِم في تلك الأيام قائد من أهل الشام في جيش قد وُجِّهوا مدداً لعامل خالد على الهند فنزلوا الحيرة فلذلك قصدها خالد» ـ ثم مضى خالد بالذين معه وبجند الشام إلى البصرة فبعث ذلك المدد إلى عامله ببلاد السند والهند ـ منصور بن جمهور ـ فغزا بلاد الهند وعاد بالظفر إلى مدينة المنصورة في تلك السنة.

بينما في بلاد خراسان غزا الأمير أسد بلاد الخُتَّل في طخارستان ـ في ذي الحجة ١١٨هـ ـ فاجتاح تلك البلاد ونشر قواته في جبالها وسهولها حتى بلغت سراياه تخوم الصين، وكان ذلك ما بين محرم وربيع سنة ١١٩هـ فاستنصر ابن ساي جي ملك الخُتَّل بخاقان ملك الترك الأعظم، فأقبل خاقان في جيش عظيم، قال الطبري: «وشاور أسد المسلمين فقال قوم: ترجع إلى مرو وتكتب إلى خالد وأمير المؤمنين تستمده. وقال آخرون: تأخذ في طريق زَمَّ وتسبق خاقان إلى مرو. وقال آخرون: بل تخرج إليهم وتستنصر اللّٰه عليهم، فوافق قولهم رأي أسد وما كان عزم عليه من لقائهم». فأخذ أسد يتهيأ لقتال خاقان وجيوشه، وفي ذات الوقت «بعث أسد من مدينة بَلْخ سيف بن وصاف العجلي إلى أخيه الأمير خالد بالعراق وإلى أمير المؤمنين هشام بخبر زحف خاقان والكفار على المسلمين، فسار سيف بن وصاف على فرس حتى نزل الشبورقان وفيها مسلحة (حامية عسكرية) عليها إبراهيم بن هشام، فحمله على البريد (أي دواب البريد) حتى أتى خالد بن عبد اللّٰه بالعراق، فأخبره بالخبر، فوجهه خالد إلى هشام بن عبد الملك ففظع به هشام ولم يصدقه. ثم قال هشام للربيع حاجبه ويحك إن هذا الشيخ قد أتانا بالطامة الكبرى إذا كان صادقاً ولا أراه صادقاً فاذهب فعُدْه ثم سله عما يقوله، فسار الربيع إلى سيف بن وصاف فأخبره بالخبر، فرجع إلى هشام فأخبره، فدخل على هشام من ذلك أمر عظيم». ـ وأخذ هشام والمسلمون بالشام وخالد والمسلمون بالعراق يتطلعون إلى أنباء الحرب الكبرى بين أسدوخاقان في خراسان وما وراء النهر، وعاد سيف بن وصاف إلى خراسان مع قوة بعثها هشام وخالد مدداً لأسد بن عبد اللّٰه، منهم قوة من أهل قنسرين بقيادة صفراء بن أحمر الحميري، وقوة من جند فلسطين عليهم مصعب بن عمرو الخزاعي، وقوة من جند دمشق عليهم حملة بن نعيم الكلبي، وقوة من أهل حمص عليهم جعفر بن حنظلة البهراني، وقوة من جند خالد بالعراق، وكان ذلك المدد سبعة آلاف من أهل الشام، وكان مع أسد زهاء خمسين ألفاً، بينما كان خاقان في مائة ألف مقاتل، فاندلعت عدة معارك بين أسد وخاقان ثم وقعت المعركة الكبرى الحاسمة في سان بالجوزجان ـ في أوائل شوّال ١١٩هـ ـ فانتصر الأمير أسد

والمسلمون انتصاراً كبيراً على خاقان وجيوشه، فهرب خاقان، وسقط معظم جيشه بين قتيل وأسير.

٢ ـ القيسية تحسد خالداً وأسداً

قال ابن خلدون: «وأقام أسد خمسة أيام ـ بالجوزجان وانصرف إلى بَلْخ لتاسعة من خروجه ونزوله بالجوزجان، وخاقان هارب أمامه.. وانصرف أسد إلى بَلْخ، فبعث أسد بالفتح من بَلْخ إلى أخيه خالد فأخبره، وبعث به خالد إلى هشام فلم يُصدق. ثم بعث أسد القاسم بن بخيت بقتل خاقان، فحسدت قيسُ أسداً وخالداً..» (ص٤٥٨/ اليمن في تاريخ ابن خلدون).

وقال الطبري: «كان الذي جاء بخبر فتح سان إلى مرو عبد السلام بن الأشهب الحنظلي، وأوفد أسد إلى خالد بن عبد الله وفداً في هزيمته خاقان يوم سان ومعهم طوقات خاقان ورؤوس من قتلوا من عظماء الترك، فأوفدهم خالد إلى هشام، فأحلفهم أنهم صدقوا، فحلفوا، فوصلهم.». وكان على رأس الوفد الذي بعثه أسد إلى خالد القاسم بن بخيت المراغي الأزدي فبعثه خالد إلى هشام، قال الطبري: «فأقْبَلَ القاسم بن بخيت إلى هشام ـ بدمشق ـ فكبَّر على الباب، ثم دخل ـ إلى دار الخلافة ـ وهو يكبر، وهشام يكبر لتكبيره حتى انتهى إليه فقال: الفتح يا أمير المؤمنين وأخبره الخبر فنزل هشام عن سريره فسجد سجدة الشكر وهي واحدة عندهم. فحسدت القيسية أسداً وخالداً..».

ومن المفيد التنبيه هنا إلى أن الطبري وابن خلدون وابن الأثير ذكروا أنه (حسدت القيسية أسداً وخالداً) ويأتي هذا في السياق الذي أشار إليه د. حسين عطوان قائلاً: «خلقت القيسية حول خالد منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها العراق جواً مشبعاً بروح العداء، أكرهه على التحول إلى قومه اليمانية برغم حيدته». بينما الصحيح أن تعصب القيسية على خالد وَحَسَد القيسية أسداً وخالداً إنما هو حالات فردية من بعض المتعصبين للقيسية الذين لا يمكن اعتبارهم لسان حال القيسية، فقد مدح خالداً وأسداً وأثنى عليهما أغلب شعراء ذلك العصر من القيسية واليمانية على حد سواء، وقال الشاعر ابن السجف المجاشعي وهو من القيسية: ـ

لو سِرْتَ في الأرْض تَقِيسُ الأرضَا ... تَقِيسُ منها طُولها والْعَرْضَا
لَمْ تَلْقَ خيراً مِرّةً ونَقْضا ... من الأمير أسدٍ وأمْضَا
.. ما فَاتَه خاقانُ إلا رَكضَا ... قد فَضَّ من جُمُوعِهِ ما فَضّا

وقال أبو الهندي الأسدي ـ (وهو من عشيرة الكميت بن زيد الأسدي المتعصب للقيسية المضرية) ـ يثني على الأمير اليماني أبي المنذر أسد بن عبد الله

القَسْري ويذكر انتصاره على خاقان في موقعة سان بالجوزجان سنة ١١٩هـ: ـ

. . أبا منذِرٍ لولا مَسيرُك لم يَكُنْ عِراقٌ ولا انقادت مُلوكُ الأعاجِمِ
فكم مِنْ قَتِيلٍ بين سانٍ وجَزَّةٍ كثير الأيادي من مُلوكٍ قَمَاقِمِ
تركتَ بأرض الجُوْزَجانِ تزُورُه سباعٌ وعِقْبانٌ لحزّ الغلاصِمِ
فَمِنْ هاربٍ مِنّا، ومِنْ دائنٍ لنا أسير يُقاسي مُبْهَمات الأداهِمِ
فَدَتْكَ نفوسٌ مِنْ تميم وعامِرٍ ومن مُضَرَ الحمراءِ عِنْد المآزِمِ

فالقيسية الذين حسدوا خالداً وأسداً ليسوا إلا بعض المتعصبين الحاقدين، وقد سلف ذكر ما رواه الطبري من أنه: «حسدت القيسية أسداً وخالداً، وأشاروا على هشام أن يكتب إلى خالد فيأمر أخاه أن يوجه مقاتل بن حيّان. .» ـ وهو مقاتل بن حيّان النبطي، كان أبوه حيان النبطي كبير الموالي العجم بخراسان في عهد يزيد بن المهلب، ويبدو أنه قريب حسان النبطيّ وكيل هشام على ضياعه وأمواله بالعراق، وكان حسان النبطي معادياً لخالد بالعراق وما يزال يشارك في التحريض عليه، فظن ذلك النفر من القيسية بأن مقاتل بن حيّان النبطي سيكون مثله، فكتب هشام إلى خالد بأن يأمر أخاه أسداً بأن يوجّه إليه مقاتل بن حيّان ليعرف منه مدى صحة نبأ الفتح والنصر على خاقان. قال ابن خلدون: « . .فحسدت قيسٌ أسداً وخالداً وقالوا لهشام: استقدم مقاتل بن حيَّان، فكتب بذلك إلى خالد، فأرسل إلى أسد أن يبعث به، فَقَدِم مقاتل على هشام، والأبرش الكلبي وزيره جالس عنده، فقص مقاتل بن حيّان عليه الخبر، فسرّ هشام بذلك».

وبعد أن سمع هشام من مقاتل بن حيان تفصيل الخبر عن موقعة سان والانتصار على خاقان وجيوشه. قال هشام لمقاتل بن حيّان: حاجتك؟ فقال: إن يزيد بن المُهلّب أخذ من والدي حيان مائة ألف درهم قرضاً على بيت المال، فكتب هشام إلى خالد أن يكتب إلى أسد فيها فيردها عليه من بيت مال خراسان، فكتب خالد إلى أسد أن يستخبر عن ذلك فإن كان ما ذكر مقاتل بن حيان حقاً أعطاه مائة ألف درهم، فاستخبر أسدٌ عن ذلك واستحلف مقاتلاً فحلف، فأعطاه أسد مائة ألف درهم من بيت مال خراسان فَقَسّمها بين ورثة حيّان على كتاب الله وفرائضه.

٣ ـ خروج جماعة من الحرورية على خالد ومقتلهم

وفي سنة ١١٩هـ خرجت على خالد بن عبد الله القَسْري أمير المشرقين وعلى دولة الخلافة جماعة من الخوارج الحرورية بقيادة عمرو اليشكري ثم بقيادة العنزي صاحب الأشهب فأفسدوا بناحية الفرات وجهات الكوفة، فبعث إليهم خالد قوة بقيادة السِمْط بن مسلم البَجَليّ، شقيق منصور بن مسلم البَجَليّ الذي كان مع أسد في

خراسان، وقد ذكر الطبري خبرهم في أحداث سنة ١١٩هـ فقال: «وفيها خرج عمرو اليشكري فلم يلبث أن قُتِل، ثم خرج العنزي صاحب الأشهب على خالد في ستين من الحرورية فوجه إليه خالد السِمْط بن مسلم البَجَليّ في أربعة آلاف فالتقوا بناحية الفرات، فشدّ العنزي على السِمْط فضربه ـ السمط ـ بين أصابعه فألقى سيفه وشُلت يده، وحمل عليهم فانهزمت الحرورية فتلقاهم عبيد أهل الكوفة وسفلتهم فرموهم بالحجارة حتى قتلوهم».

نبأ خروج الصحاري بن شبيب في جماعة من الصُّفرية ومقتلهم

وفي أواسط سنة ١١٩هـ خرجت على خالد القَسْري أمير المشرقين وعلى دولة الخلافة العربية الإسلامية جماعة من الخوارج الصُّفرية بقيادة الصحاري بن شبيب. قال الطبري: (وفيها ـ أي سنة ١١٩هـ ـ شرى الصحاريُ بن شبيب وحَكَّم بجَبُّل». فقوله: شرى، يعني أنه من الشراة الخوارج، وقوله: حَكَّم بجبُّل، يعني أعلن أن لا حكم إلا للَّه. وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنَّى البَصْري: أن الصحاري بن شبيب أتى خالداً يسأله الفريضة. فقال خالد: وما يصنع ابن شبيب بالفريضة، فودعه ابن شبيب ومضى، وندم خالد وخاف أن يفتق عليه فتقاً، فأرسل إليه ـ نفراً من الشرطة ـ يدعوه إليه، فقال لهم: إنا كنتُ عنده آنفاً، فأبوا أن يَدَعوه، فَشَدّ عليهم بسيفه فتركوه، فركب وسار حتى جاوز واسطاً ثم عقر فرسه وركب زورقاً ليخفي مكانه ثم قصد إلى نفر من بني الليث بن ثعلبة كانوا بجَبُّل ـ ناحية اسمها جَبُّل ـ وكانوا من الصُفَّرية، فأتاهم متقلداً سيفاً، فأخبرهم خبره وخبر خالد، فقالوا له: وما كنت ترجو بالفريضة لئن كنت خرجت إليه فضربته بسيفك كان أحْرَى، فقال: إنّي واللَّه ما أردتُ الفريضة وما أردتُ إلا التوصل إليه لئلا ينكرني ثم اقتله غيلة بقتله فلاناً ـ فما أمكنني ذلك ـ وكان خالد قبل ذلك قد قتل رجلاً من قعدة الصُّفرية، ثم دعاهم الصحاري إلى الخروج معه، فأجابه بعضهم وقال بعضهم ننتظر، وأبىٰ بعضهم الخروج وقالوا: نحن في عافية، فلما رأى ذلك خرج الصحاري بن شبيب وقال: ـ

لم أردْ منه الفريضةَ إلّا	طَمَعاً في قتله أنْ أنالا
فأريحَ الأرضَ منه ومِمّن	عاثَ فيها وعَنِ الحقِّ مالا
كَلَّ جبارٍ عنيدٍ أرَاهُ	تَركَ الحق وسَنَّ الضلالا
إننّي شَارٍ بنفسي لربي	تَارِكٌ قِيلاً لدَيهمْ وقالا
بائعٌ أهلي ومَالي أرجو	في جنانِ الخلدِ أهلاً ومالا

فبايعه نحو من ثلاثين فشرى بجَبُّلٍ ثم سار حتى أتىٰ نهر المبارك ـ فعاث في نواحي المبارك فساداًـ فبلغ ذلك خالداً فقال: قد كنت خفتها منه، ثم وجه إليه

خالد جنداً، فلقوه بناحية المَناذِر فقاتلهم قتالاً شديداً ثم انطووا عليه فقتلوه، وقتلوا عامة أصحابه». وتم القبض على بقية بني الليث بن ثعلبة والصُّفرية بناحية جَبُّل، فأخبروا خالداً بأن الصحاري بن شبيب أتاهم ودعاهم إلى الخروج فامتنعوا وقالوا له: نحن في عافية. فصَدَّقهم خالد وأمر بإخلاء سبيلهم فعادوا إلى منطقتهم حامدين سيرة خالد وعدالته.

٥ ـ نبأ خروج وزير السختياني . . وإمساك خالد عن قتله

قال أبو عبيدة: ثم خرج وزير السختيانيّ على خالد في نفر ـ من الحرورية ـ وكان مخرجه بالحيرة، فجعل لا يمرّ بقرية إلا أحرقها ولا أحد إلا قتله، وغلب على ما هنالك وعلى بيت المال، فوجّه إليه خالد قائداً من أصحابه وشرطاً من شُرط الكوفة فقاتلوه وهو في نفر، فقاتل حتى قُتِل عامة أصحابه وأُثْخِن بالجراح فأُخِذ مرتثّاً ـ أي جريحاً ـ فأُتي به خالداً. فأَقْبَلَ على خالد فوعظه وتلا عليه آيات من القرآن، فأعجب خالداً ما سمع منه فأمسك عن قتله وحبسه عنده وكان لا يزال يبعث إليه في الليالي فيؤتى به فيحادثه ويُسائله.

ثم بلغ ذلك هشام بن عبد الملك، سعى به إليه ـ بعض الذين كانوا يحرضون على خالد ـ وقالوا لهشام: أخذ حرورياً قد قَتَلَ وحَرّق وأباح الأموال فاستبقاه واتخذه سميراً، فغضب هشام وكتب إلى خالد يقول: أتستبق فاسقاً قَتَلَ وحرّق وأباح الأموال. فكان خالد يقول: إني أنفس به عن الموت، لَمّا كان يسمع من بيانه وفصاحته. فكتب فيه إلى هشام يرقّق من أمره ويدفع عنه فكتب هشام إليه يؤنبه ويأمره بقتله وإحراقه، فأمر خالد صاحب الشرطة بتنفيذ الأمر فتم إحراق وزيراً فلم يتحرك ولم يزل يتلوا القرآن حتى مات.

٦ ـ صعود خالد إلى زعامة كل اليمانيين

قال يزيد بن الوليد بن عبد الملك في كلام ذكره الطبري يتفاخر فيه على اليمانية: «وهذا خالد ـ عظيمهم وسَيّدهم» ويتبين من ذلك الوصف لخالد بأنه عظيم اليمانية وسَيّدهم، أن خالداً صعد إلى مرتبة الزعامة على كل القبائل اليمانية القحطانية في مشارق الأرض ومغاربها، وتلك المرتبة والزعامة ليست مرتبة رسمية وإنما هي زعامة شعبية ذات جذور تاريخية عريقة، ومن المفيد بهذا الصدد تبيين الأمور التالية: ـ

الأمر الأول: أن وجود زعيم كبير لكل القبائل اليمنية يعود إلى عصور تاريخ اليمن الحضاري التليد، ففي عصر دولة اليمن الحميرية وملوكها التبابعة كان لكل قبيلة زعيمها الخاص وفي ذات الوقت كان لكل القبائل زعيم كبير، ويدل على ذلك نقش منحوت بكتابة المسند السبئية الحميرية تم العثور عليه في محرم بلقيس بمأرب

وهو باسم القيل «سعد تالب بن جدن مقتوى ياسر يهنعم ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمانت» فهو من كبار قادة وأقيال (مقتوى) الملك ياسر يُهنعم، ثم يذكر النقش أن سعد تالب بن جدن هو «كبير أعراب ملك سبأ، وكندة، ومذحج، وحرمم، وباهل، وزيد إيل. وكبير كل أعراب سبأ وحمير وحضرموت ويمانت». وقد أثار هذا اللقب اهتمام الدارسين: ـ

أ ـ فقال البروفيسور البرت جام: إن القبائل التي ذكر سعد تالب أنه يشرف عليها تنقسم إلى قسمين الأول: يضم القبائل الأقل أهمية وهي كندة، ومذحج، وحرمم، وباهل، وزيد إيل، وأعراب ممتلكات التاج (أعراب ملك سبأ). والثاني: يضم القبائل الأكثر أهمية وهي سبأ وحمير وحضرموت ويمانت.

ب ـ بينما قال د. محمد بافقيه: إن سعد تالب بدأ بذكر القبائل البارزة وليست الأقل أهمية، ثم زيادة في الحيطة ورغبة في تأكيد شمولية إشرافه قال: وكل أعراب سبأ وحمير وحضرموت ويمانت، أي أعراب كل المناطق التي يشملها اللقب الملكي[1].

جـ ـ والأصوب أن سعد تالب بدأ بذكر القبائل التي هو زعيمها المباشر وكبير أقيالها وهي كندة ومذحج وحرمم وباهل وزيد إيل. وتلك القبائل الخمس هي من قبائل سبأ وكانت تسكن القسم الشرقي من اليمن ـ (من الجوف والبيضاء إلى حضرموت ومفاوز عُمان) ـ وكان سعد تالب بمثابة أمير تلك القبائل والمناطق. ثم ذكر أنه في ذات الوقت كبير كل قبائل سبأ وحمير وحضرموت ويمانت، أي كل القبائل اليمانية القحطانية لأن أنسابها جميعاً تعود إلى سبأ وإلى حمير وإلى حضرموت ويمانت ـ (ويمانت هي الشحر ومهره وظفار عمان) ـ وقد استمر سعد تالب زعيماً كبيراً لكل القبائل اليمانية القحطانية في اليمن وعُمان وبقية الجزيرة العربية طيلة عهود أربعة ملوك هم (ياسر يهنعم) وابنه (ذرا ـ أمر ـ أيمن) ثم ـ كما جاء في نقش ثانٍ باسم سعد تالب استمر كبيراً لكل القبائل في عهد (ذمر على يهبر)[1] وعهد ابنه (ثاران يهنعم ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويُمانت) وهو الملك ثاران الذي فيه قال أسعد الحميري: ـ

وثاران يُنعم تاج الملوك إليه انتهى المجدُ والمفخرُ

الأمر الثاني: إن ذلك العرف اليماني بوجود زعيم كبير لكل القبائل اليمانية القحطانية قامت بتطبيقه القبائل اليمانية التي استقرت بالشام في الفتوحات العربية الإسلامية، حيث كان لكل قبيلة زعيمها مثل شرحبيل بن السِمط الكندي زعيم كندة

---

(١) كتاب تابعة اليمن السبعين ـ محمد حسين الفرح ـ ص٤٣٩ ـ وتاريخ اليمن القديم ـ محمد بافقيه ـ ص١٥٢.

وسميفع ذي كلاع الحميري زعيم الكلاع، وعفير بن زرعة بن سيف بن يزن زعيم حِمْير، ويزيد بن أسد الْقَسْري ـ جد خالد ـ زعيم بَجِيلة وخثعم، وحسان بن مالك الكلبي زعيم كلب وقضاعة، ثم أجمعت سائر القبائل اليمانية القحطانية على زعامة حسان بن مالك الكلبي أمير فلسطين، وفي ذلك قال المسعودي «كان حسان بن مالك رئيس قحطان وسيدها بالشام»[(١)] . وكانت رئاسة حسان الكلبي تشمل القبائل اليمانية القحطانية في الشام وكذلك في مصر وإفريقية الشمالية لأنهم كانوا امتداداً ليمانية الشام، وقد استمر حسان أميراً لفلسطين وكبيراً لقبائل قحطان منذ خلافة معاوية إلى خلافة عبد الملك بن مروان فعندما أراد مروان البيعة لعبد الملك بن مروان دعا حسان بن مالك الكلبي وأقنعه بمبايعة عبد الملك، قال المسعودي: «فقام حسان في الناس خطيباً ودعاهم إلى بيعة عبد الملك بن مروان فلم يخالفه في ذلك أحد»[(١)] . وذلك لأن اليمانية كانوا الغالبية العظمى من أهل وجند الشام، ولم يزل حسان كبيراً لقبائل قحطان بالشام والجزيرة الفراتية ومصر وإفريقية الشمالية حتى وفاته.

وبما أن تلك الرئاسة والزعامة لم تكن رسمية فإن الروايات لم تذكر الذي تولاها بالشام بعد حسان، والظاهر أنه الأمير بشر بن صفوان الكلبي القضاعي الحميري الذي أصبح أميراً والياً لمصر سنة ١٠١ ـ ١٠٢هـ في خلافة يزيد بن عبد الملك، ثم تولى مصر أخوه حنظلة بن صفوان الكلبي (١٠٣ ـ ١٠٦هـ) بينما أصبح بشر بن صفوان أميراً لإفريقية الشمالية والمغرب والأندلس من سنة ١٠٣هـ حتى وفاة يزيد سنة ١٠٥هـ ثم في خلافة هشام بن عبد الملك حتى وفاة بشر بن صفوان في القيروان عاصمة إفريقية الشمالية والمغرب سنة ١٠٩هـ (٧٢٧م) وقد كان بشر بن صفوان الكلبي أميراً للمغربين لأن ولايته كانت تشمل المغرب العربي (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب ـ موريتانية) كما كانت تشمل المغرب الأوروبي (أسبانيا ـ البرتغال ـ بلاد الغال جنوب فرنسا) ـ فكان بشر بن صفوان أعظم الولاة اليمانيين في ذلك العهد (١٠١ ـ ١٠٩هـ) وكان يليه في ذلك خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير العراقين ـ منذ سنة ١٠٥هـ ـ لأن ولاية خالد كانت تشمل العراق والبحرين وبلاد فارس وبلاد السند وبلاد خراسان وآسيا الوسطى، ولكن بشر بن صفوان كان أيضاً رئيس وكبير قحطان كما كان حسان بن مالك الكلبي.

الأمر الثالث: ـ إن صعود خالد بن عبد اللّه الْقَسْري إلى زعامة القبائل اليمانية القحطانية هو امتداد لذلك العرف اليماني بوجود زعيم كبير بحيث (كان خالد عظيم

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٩٥، جـ٣.

اليمانية وسيّدهم) ولكن ليس في الشام فحسب وإنما أيضاً في المشرق والمغرب وسائر أرجاء دولة الخلافة.

وغني عن البيان أن خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري كان من رؤساء يمانية الشام، وأصبح أميراً والياً لمكة المكرمة والحجاز في خلافة الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك حيث مكث خالد والياً لمكة المكرمة وما إليها من الحجاز ثماني سنوات (من سنة ٨٩ ـ ٩٧هـ) وفي تلك الفترة من ولايته لمكة كان يتردد على منطقته باليمن فامتدت شعبيته إلى داخل اليمن، ثم تولى العراق ومشارقها في خلافة هشام بن عبد الملك منذ سنة ١٠٥هـ فأصبح خالد أميراً والياً لبلاد المشرقين وأخذت زعامته الشعبية تشمل القبائل اليمانية في العراق ومشارقها إلا أن رئيس قحطان بالشام ومغاربها كان بِشْر بن صفوان أمير المغربين.

وبعد وفاة بشر بن صفوان سنة ١٠٩هـ أضحى خالد الْقَسْري أمير المشرقين هو أعظم الولاة اليمانيين، وأصبح الزعماء الكلبيين بالشام من عمال خالد فقد كان الحَكَم بن عوانة الكلبي نائباً للأمير أسد الْقَسْري في خراسان سنة ١٠٩هـ ثم أصبح الحَكَمُ بن عوانة عاملاً لخالد على بلاد السّند (١١٠ ـ ١١٨هـ) وكان معه بالسند مشيخة كلب بالشام ومنهم منصور بن جمهور الكلبي وحسام بن ضرار الكلبي، وربما حنظلة بن صفوان الكلبي أيضاً.

وقد بلغ خالد ذروة المجد ـ منذ سنة ١١٧هـ ـ بعودة أخيه أسد بن عبد اللَّه أميراً لخُراسان وآسيا الوسطى واستتباب سلطة خالد في سائر بلاد المشرقين من جهة، وصيرورته زعيماً لكل القبائل اليمانية القحطانية من جهة أخرى، وقد ظل خالد بمنأى عن العصبية، وفي ذلك قال د. ناجي حسن في كتاب القبائل العربية بالمشرق: «لا يخفى أن خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري وإن كان ذا نزعة يمانية إلا أن هذا الشعور لم يطغ على سياسته بالشكل الذي يجعله منساقاً وراء الأهواء». (ص١٦٠).

ولكن بعض القيسية أظهروا مشاعر العداء لخالد الْقَسْري مدفوعين بالحسد والعصبية، وظهر ذلك جلياً عندما انتصر أخوه الأمير أسد الْقَسْري على خاقان وجيوشه في أوزبكستان سنة ١١٩هـ حيث قال ابن خلدون: «فحسدت قيسٌ أسداً وخالداً». وقال الطبري: «فحسدت القيسية أسداً وخالداً».

* * *

٧ ـ تصعيد حملة التحريض على خالد

وقد تعرض خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري أمير المشرقين لحملة تحريض واسعة من جانب بعض القيسية المتعصبين وبعض الموالي سنة ١١٩هـ ولم تدع حملة التحريض

شيئاً إلا حاولت استغلاله لتأليب الخليفة هشام بن عبد الملك عليه، وكان من أنباء ذلك: ـ

١ ـ أن خالداً قيل له: لم يبلغ أحدٌ ما بلغت من الشرف فأنت أمير المشرقين وعظيم قحطان وسيدها، فقال: أنا خالد بن عبد اللّٰه بن يزيد بن أسد بن كرزْ ما أنا بأشرف الخمسة. فتم نقل كلام خالد إلى هشام بشكل جعله يغضب. وفي ذلك قال الطبري ما يلي نصه: «إن هشاماً كتب إليه قد بلغني قولك أنا خالد بن عبد اللّٰه بن يزيد بن أسد بن كرزْ ما أنا بأشرف الخمسة، أما واللّٰه لأرُدَّنك إلى بغلتك وطيلسانك الفيروزي». (اهـ) ولم يظهر ما الذي أغضب هشاماً فكلام خالد فيه تواضع وفيه حقيقة فقد كان جده كرزْ بن عامر من كبار أقيال اليمن في العصر الحميري قبل الإسلام، وكان جده أسد بن كرزْ من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ، وكان جده يزيد بن أسد من الصحابة ومن قادة فتوح الشام، وكان أبوه عبد اللّٰه بن يزيد بن أسد بن كرزْ من الزعماء الأمراء الخطباء البلغاء، فلم يفتخر خالد بأنه أشرف وأعظم منهم وإنما قال: ما أنا بأشرف الخمسة. فإذا صح أن هشاماً غضب من ذلك وكتب إلى خالد بما ذكره الطبري فإن ذلك قد يعود إلى شيء من الحماقة.

٢ ـ قال الطبري: «وقيل إن خالداً كان كثيراً ما يذكر هشاماً فيقول ابن الحمقاء، وكانت أُمُّ هشام تستحمق وقد ذكرنا خبرها قبل». (اهـ) ويبدو أن ذلك كان من مزاعم حملة التحريض على خالد. وقد يكون قال خالد عن هشام (ابن الحمقاء) مرة واحدة لسبب استوجب ذلك، فزعموا لهشام أنه كثيراً ما يذكره فيقول ابن الحمقاء.

٣ ـ قال الطبري: «وقيل كان خالد يقول لابنه يزيد: ما أنت بدون مَسْلَمة بن هشام فإنك لتفخر على الناس بثلاث لا يفخر بمثلها أحدٌ: سكَّرتُ دجلة ولم يتكلف ذلك أحد، ولي سقايةٌ بمكة، ولي ولاية العراق» (اهـ). ولم تذكر الرواية مناسبة تذكير خالد ابنه يزيد بتلك المفاخر الثلاث وأن يكتفي بذكرها دون غيرها من المفاخر، والظاهر أن الحاسدين نقلوا ذلك إلى هشام مع إضافة كلمة (ما أنت بدون مَسْلَمة بن هشام) ليثيروا بذلك غضب هشام.

٤ ـ قال الطبري: «وذُكِر أنّ هشاماً بلغه أن خالداً يقول لابنه يزيد: كيف أنت إذا احتاج إليك بنو أمير المؤمنين. فظهر الغضب على وجهه». (اهـ) ولم تذكر الرواية مناسبة قول خالد لابنه يزيد: كيف أنت إذا احتاج إليك بنو أمير المؤمنين. ومناسبة وسبب ذلك أن هشام بن عبد الملك كان يريد أن يجعل أحد

أبنائه ولياً للعهد بدلاً عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي كان قد سُمّي ولياً للعهد فقد استخلف يزيد بن عبد الملك هشاماً على أن يكون الخليفة بعده يزيد بن الوليد، ثم ـ وكما ذكر الطبري ـ « . . ظهر من الوليد بن يزيد بن عبد الملك مجونٌ وشرب للخمر وتهاونٌ بالدين. . وبلغ ذلك هشاماً فطمع في خلعه والبيعة لابنه مَسْلَمة بن هشام، وأراده على أن يخلعها ويبايع لمَسْلمة، فأبَى الوليد، فقال له: اجعلها له من بعدك، فأبَى، فتنكر له هشام وأضرّ به وعمل سراً في البيعة لابنه مَسْلمة، فأجابه قوم. . » (ص٢٨٩، جـ٨) ـ وقد بدأ هشام في التمهيد لذلك سنة ١١٨هـ حيث «في سنة ١١٨هـ غزا معاوية ومَسْلَمة ابنا هشام بن عبد الملك أرض الروم». مما يشير إلى أن هشاماً بعثهما في الجيش الذي غزا أرض الروم (تركيا) في تلك السنة تمهيداً لما ينويه بشأن ولاية العهد ـ غالباً ـ وقد عاد معاوية ومَسْلمة من ذلك الغزو إلى الشام. وكان خيرهما معاوية بن هشام وهو الأصلح لولاية العهد، بينما تمسّك الوليد بن يزيد بولاية العهد وامتنع عن خلع نفسه والبيعة لابن هشام ـ سواء كان معاوية أو مَسْلمة ـ وظهر في الأفق احتمال وقوع صراع على ولاية العهد، وفي تلك الأجواء قال خالد الْقَسْري لابنه يزيد بن خالد: كيف أنت إذا احتاج إليك بنو أمير المؤمنين. وقد أراد خالد بذلك أن يعرف الجميع بأنه هو وابنه معه ومن بعده مع أبناء أمير المؤمنين هشام في قضية ولاية العهد، وبصفة خاصة مع معاوية بن هشام الذي كان الأصلح لولاية العهد ولكنه ما لبث أن مات بالشام سنة ١١٩هـ فاتجه هشام إلى جعل ولاية العهد لابنه مَسْلَمة، وأراد هشام الوليد على أن يخلع نفسه ويبايع لمَسْلمة، فأبَى، فقال له: اجعلها له من بعدك. أو: اجعلها لك من بعده ـ فأبَى، فتنكر له هشام وعمل سراً في البيعة لابنه مَسْلمة. وقد نقل الحاسدون إلى ولي العهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك أن خالداً قال لابنه يزيد: كيف أنت إذا احتاج إليك بنو أمير المؤمنين، فغضب الوليد لأن ذلك تصريح من خالد بأنه سيكون مع أبناء أمير المؤمنين إذا وقع صراع، وكان ذلك من أسباب عداء الوليد وأشياعه لخالد، ونقل الحاسدون مقولة خالد تلك إلى هشام (فظهر الغضب على وجهه)، بينما لم يكن في ذلك ما يؤدي إلى غضبه، فالذي أدى إلى ذلك قد يكون طريقة النقل التحريضية.

٥ ـ قال الطبري: «وقال خالد بن عبد اللّه الْقَسْري: أنا بريءٌ من خليفة يكنى أبا شاكر، فغضب مسلمة بن هشام على خالد». ـ وكان من نبأ ذلك أن مَسْلَمة بن هشام بن عبد الملك كان يُكنى أبا شاكر ولم تكن سمعته طيبة فقد كان لا يتورع عن بعض المعاصي مثل شرب الخمر، فلما أراد هشام خلع الوليد بن يزيد من

ولاية العهد والبيعة لمَسْلمة وامتنع الوليد من خلع نفسه (تنكر له هشام وعمل سراً في البيعة لابنه مَسْلَمة..) قال الطبري: «وكان الوليد قد تمادى في الشراب وطلب الملذّات فأفرط، فقال له هشام: ويحك يا وليد واللّه ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا، فما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير متحاش ولا مستتر به، فكتب إليه الوليد: ـ

يا أيها السائلُ عن ديننا نحن على دين أبي شاكِر
نَشْرَبُها صِرْفاً وممزوجةً بالسُّخْنِ أحياناً وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مَسْلمة وكان يُكنى أبا شاكر وقال له: يعيّرني بك الوليد وأنا أرشّحك للخلافة، فالزمْ الأدب واحضر الجماعة..» ـ والظاهر أن أشياع وبطانة الوليد بن يزيد قاموا بنشر الشعر الذي قاله عن أبي شاكر مَسْلمة بن هشام وأنه إنما يشرب الخمر على دين أبي شاكر، وبلغ ذلك الشعر خالد بن عبد اللّه الْقَسْري في العراق، وعندئذٍ ـ غالباً ـ وقع ما ذكره الطبري بأنه: «قال خالد بن عبد اللّه الْقَسْري: أنا بريءٌ من خليفة يُكنى أبا شاكر فغضب مَسْلَمة بن هشام على خالد» ـ مما يدل على أن الحاسدين المتعصبين نقلوا إلى مَسْلمة أن خالداً قال: (أنا بريءٌ من خليفة يُكنى أبا شاكر)، وسواءً كان خالد قال ذلك بالفعل أو لم يُقل فقد حقق الحاسدون ما أرادوه من ذلك النقل أو الزعم فقد غضب مَسْلَمة على خالد وبات طرفاً في حملة التحريض والتأليب على خالد، ويبدو أن مَسْلَمة ارتدع عن المجاهرة بشرب الخمر وقلة الأدب عند ما قال له هشام: (يعيرني بك الوليد وأنا أرشّحك للخلافة، فالزمْ الأدب واحضر الجماعة) ثم ولاه هشام على موسم الحج سنة ١١٩هـ فأظهر مَسْلَمة النسك والوقار وقَسّم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة: ـ

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجُرْدَ بأرسانِها ليس بزِنديقٍ ولا كافِرِ

يُعرض بالوليد بن يزيد بن عبد الملك «ص٢٨٩، جـ٨».

٦ ـ قال ابن خلدون: «ثم شكا من خالد بعض آل عمرو الأشدق بأنه أغلظ له القول بمجلسه فكتب إليه هشام يوبخه..». وفي ذلك قال الطبري: «وقيل إنما أغضب هشاماً على خالد: إن رجلاً من قريش دخل على خالد فاستخف به وعنفه بلسانه. فكتب إلى هشام يشكوه» (اهـ).

ومن المفيد تبيين أن ذلك الرجل لم يكن مجرد رجل من قريش وإنما هو ابن عمرو الأشدق بن سعيد بن أبي العاص الأموي، وقد كان والده عمرو الأشدق بن سعيد ولي عهد عبد الملك بن مروان ثم ثار عمرو بدمشق وخلع عبد الملك وبايعه

فريق من الناس بالخلافة بينهم عبد اللّه الْقَسْري والد خالد، ولكن عبد الملك تغلب على عمرو وقتله بدمشق سنة ٦٩هـ ثم سكن بعض أولاد عمرو بن سعيد بالعراق، فكان ابن عمرو بن سعيد من الشخصيات ذات الثراء وأبرز شخصية أموية بالعراق، وقد وصفته رسالة هشام بأنه (ابن شيخ آل أبي العاص وبني حرب وغُرَّتهم بالعراق).

والظاهر أنه ارتكب ما يستوجب العقاب والعتاب، وربما قبضت عليه الشرطة لأمر ما، فحضر إلى خالد في مجلسه بقصر الإمارة ـ أو استدعاه خالد إلى مجلسه ـ فلم تنفع ابن عمرو بن سعيد قرابته من أمير المؤمنين لأن خالداً كان لا تأخذه في الحق لومة لائم، فقد عنّفه خالد ووبخه وأغلظ في اللفظ عليه في مجلسه بحضور جماعة من الناس، فانصرف إلى داره غاضباً، وبات من أطراف حملة التحريض على خالد، فكتب إلى هشام يشكوه، وبعث الكتاب إلى مَسْلَمة بن هشام بن عبد الملك لأن ابن عمرو بن سعيد بن أبي العاص من أخوال مَسْلمة. قال الطبري: «كانت أمُّ مَسْلَمة بن هشام أمَّ حكيم بنت يحيىٰ بن الحكم بن أبي العاص. قال الكُميت: ـ

إنّ الـخـلافـةَ كـائـنٌ أوتـادُهـا بـعـدَ الـولـيـد إلى ابـن أمِّ حـكـيـم)

يعني إلى مسلمة بن هشام، فاشترك مَسْلَمة وآل أبي العاص في تأليب هشام، وكان مَسْلَمة غاضباً على خالد لأنه قال: (أنا بريء من خليفة يُكنى أبا شاكر)، وكان الحاسدون المتعصبون قد نقلوا إلى هشام الأقوال سالفة الذكر التي زعموا أن خالداً قالها، فاجتمعت إلى جانب ذلك قضية ابن عمرو بن سعيد بن العاص التي سلف قول البعض أنها أغضبت هشاماً على خالد.

٧ ـ وفي أواسط سنة ١١٩هـ كتب هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري رسالة ذكر الطبري ما جاء فيها بشأن ابن عمرو بن سعيد وذكر أبو العباس المبرِّد ما جاء فيها من توبيخ لخالد بسبب ما بلغه من أقوال وفلتات لسان خالد. قال الطبري: «كتب هشام إلى خالد، أما بعد: فإن أمير المؤمنين وإن كان أطلق لك يدك ورأيك فيمن استرعاك أمره واستحفظك عليه للذي رجا من كفايتك ووثق به من حسن تدبيرك، لم يفترشك غُرَّة أهل بيته لتطأه بقدمك ولا تحدَّ إليه بصرك فكيف بك وقد بسطت على غُرَّتهم بالعراق لسانك بالتوبيخ تريد بذلك تصغير خطره واحتقار قدره، زعمتَ بالنصفة منه، حتى أخرجك ذلك إلى الإغلاظ في اللفظ عليه في مجلس العامَّة. . فهلّا يا ابن مجرّشة قومك إذْ رأيته إليك مقبلاً تجافيت له عن صدر فراشك ووسَّعت له مجلسك مكرّماً ثم فاوضته مقبلاً عليه ببشرِك إكراماً لأمير المؤمنين فإذا اطمأنّ به مجلسه نازعته بحيِّ السِرار مُعظماً لقرابته عارفاً لحقه فهو سِنُّ البيتَين ونابُهم وابنُ شيخ آل أبي العاص

وبني حرب وغرّتهم، وباللّه يُقسم أمير المؤمنين لولا ما تقدَّم من حرمتك وما يكره من شماتة عدوّك بك لوضع منك ما رفع حتى يردَّك إلى حال تفقد به أهل الحوائج بعراقك وتَزَاحُمَ المواكب ببابك. . فما أكثر هفواتك وأقذع لأهل الشرف ألفاظك التي لا تزال تبلغ أمير المؤمنين. .».

ويرتبط بهذه الفقرة ما جاء في رواية أبي العباس المبرِّد لرسالة هشام أنه قال لخالد: «فإن تَعُدْ لمثل مقالتك وما بلغ أمير المؤمنين عنك، رأى في معاجلتك بالعقوبة رأيه، فإن النعمة إذا طالت بالعبد مُمْتدَّة أبْطَرَتْهُ فأساءَ حَمْل الكرامة واسْتَقَل العافية، ونَسَبَ ما في يديه إلى حيلته وحَسبه وبيته ورَهْطه وعَشيرته، فإذا نزلت به الغِيرُ وانكشطتْ عنه عَمايةُ الغَيِّ والسلطانِ ذَلَّ مُنْقاداً ونَدِمَ حسيراً، وتمكن منه عدوُّه قادراً عليه قاهراً له».

وجاء في بقية رواية الطبري لرسالة هشام ما خلاصته: أنه أمر خالداً بأن يسير إلى دار ابن عمرو بن سعيد بن أبي العاص مستأذناً عليه متنصلاً إليه ليرى في العفو عنك أو السخط عليك رأيه. وقال ابن خلدون: «أمره بأن يمشي ساعياً على قدميه إلى بابه ويترضاه». وجاء في خاتمة رواية أبي العباس المبرِّد للرسالة ما يلي: «وكتب سالم بن عبد اللّه سنة تسع عشرة ومائة». فكاتب تلك الرسالة هو سالم بن عبد اللّه كاتب هشام بن عبد الملك وذلك سنة ١١٩هـ.

ولم يمش خالد إلى باب ابن عمرو بن سعيد ويترضاه ليس استخفافاً بأمر هشام وإنما لأنّ حملة التحريض وقضية ابن عمرو بن سعيد ورسالة هشام تضاءلَت أهميتها بوصول رسالة ووفد أسد القَسْري بنبأ النصر العظيم على خاقان وجيوشه ـ في شوّال ١١٩هـ ـ فابتهج أهل العراق بذلك النصر والفتح المبين، وبعث خالد الوفد برئاسة القاسم بن بخيت الأزدي إلى هشام فدخلوا دمشق وهم يُكبّرون ـ وبأيديهم طوقات خاقان ورؤوس عظماء الترك ـ ثم دخل القاسم دار الخلافة وهو يكبّر وهشام يُكبّر لتكبيره حتى انتهى إليه فقال: الفتح يا أمير المؤمنين وأخبره الخبر فنزل هشام عن سريره فسجد سجدة الشكر للّه تعالى. وقد سلف ذكر ما تلا ذلك، وقد أوجز ابن خلدون ذلك قائلاً: «فحسدت قيسٌ أسداً وخالداً، وقالوا لهشام: استقدم مقاتل بن حيان، فكتب بذلك إلى خالد، فأرسل إلى أسد أن يبعث به، فقدِم على هشام، والأبرش الكلبي وزيره جالسٌ عنده، فقَصّ مقاتل بن حيّان عليه الخبر، فسُرّ هشام بذلك» ـ انتهى ـ.

* * *

خامس عشر: انحدار الكُميت إلى هجاء اليمانيين. . وبداية العصبية والدوامغ

وفي سنة ١١٩هـ انحدر الكميت بن زيد الأسدي إلى هجاء اليمانيين وإثارة

العصبية بين اليمانية والقيسية بقصيدته النونية التي أولها: (ألا حييت عنّا يا مدينا) وهي بداية الدوامغ.

ونُعيد الإشارة هنا أولاً إلى النقاط الرئيسية التي سلف ذكرها في نبأ خالد والكميت ثم ما تلا ذلك حتى تتكامل المعرفة: ـ

١ ـ إن الأمير خالد والزعماء والأمراء اليمانيين كانوا محسنين إلى الشاعر الكميت بن زيد الأسدي الذي ذكر الأصفهاني أنه: «مِنْ شعراء مُضَر وألسنتها والمتعصبين على القحطانية.. وكان معروفاً بالتشيع لبني هاشم.. ولم تزل عصبيته العدنانية ومهاجاته شعراء اليمن متصلة والمناقضة بينه وبينهم شائعة في حياته..». (اهـ) وهذا التعريف غير دقيق فلم يكن الكميت كذلك إلا في إحدى مراحل حياته فقد مدح الكميت الزعماء والأمراء اليمانيين بقصائد كثيرة منذ عهد يزيد بن المهلب إلى عهد خالد الْقَسْري، وقد ذكرنا تلك القصائد ومنها قصيدة (هلا سألت معالم الأطلال) وقصيدة (هلا سألت منازلاً بالأبرق) اللتين مدح بهما مخلد بن يزيد بن المُهلّب. قال الهيثم بن عدي: «فأعطاه مخلد مائة ألف درهم سوى العروض والحملان، فقَدِم الكميتُ إلى الكوفة في هيئة لم يُر مثلها» ومنها قصيدته في مدح خالد بن عبد اللّه الْقَسْري التي قال فيها: ـ

لو أن كعباً وحاتماً نُشِرا ... كانا جميعاً من بعض ما تَهَبُ
لا تُخلفُ الوعد إن وَعَدْتَ ولا ... أنت عن المعتفِين تحتجبُ

قال الأصفهاني: (فأمر له خالد بمائة ألف درهم). وقال ابن الأخفش: «كان الكميت مدّاحاً لأبان بن الوليد البجلي وكان أبان له محباً وإليه محسناً». وكذلك مدح الكميت إسماعيل بن الصباح بن الأشعث بن قيس الكندي وغيرهم من الزعماء اليمانيين.

٢ ـ منذ حوالي ١١٤هـ وقع الكميت تحت تأثير جماعة من القيسية المتعصبين والموالي وجماعة سرية من الشيعة بالكوفة، وتم تحريضه على هجاء اليمانيين فقال: (إن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري مُحسن إليّ ولا أقدر على ذلك). ثم تنكر لذلك الإحسان، وقال أشعاراً في التحريض على خالد منها قوله: ـ

بكت المنابرُ من فَزارة شَجْوَها ... فالآن من قَسْر تَضِجُّ وتَخْشَعُ

وتم العثور عند باب هشام بن عبد الملك على رقعة فيها شعر، فَقُرئت على هشام، فعرف الرواة أنه شعر الكميت، قال الأصفهاني: «فقال هشام: نعم هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد اللّه. ثم كتب هشام إلى خالد يخبره وكتب إليه بالأبيات، وخالد يومئذٍ بواسط» ثم تضيف رواية الأصفهاني قولها: «فكتب خالد إلى واليه بالكوفة يأمره

بأخذ الكميت وحبسه. وقال لأصحابه: بلغني أن الكميت يمدح بني هاشم ويهجو بني أُمية فأتوني من شعره هذا بشيء، فأُتي بقصيدته اللامية التي أولها (ألا هل عم في رأيه متأمل) فكتبها وأدرجها في كتاب إلى هشام يقول: هذا شعر الكميت فإن كان قد صدق في هذا فقد صدق في ذاك، فلما قُرئت على هشام اغتاظ فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه ويضرب عنقه.. إلخ..».

ولكن تلك الرواية التي ذكرها الأصفهاني فيها خلط كبير، فقصيدة الكميت اللامية التي أولها: (ألا هل عم في رأيه متأمل) ذكر الأصفهاني نفسه أن الكميت قالها في رثاء زيد بن علي وقد كان مقتل زيد بن علي بعد انتهاء عهد خالد بسنتين، والشعر الذي قاله الكميت في التحريض على خالد وبعثه هشام إلى خالد كانت قبل فتنة الحارث بن سريج ـ أي في سنة ١١٥هـ ـ بينما حبس الكميت كان بعد القضاء على فتنة ابن سريج. فلم يتم حبس الكميت عندما قال شعره في التحريض على خالد وإنما بعث خالد إلى هشام بشعر للكميت يدل على عدم صدق شعر التحريض.

ثم اندلعت فتنة الحارث بن سريج التميمي والمتحالفين معه في خراسان سنة ١١٦هـ، فانطلق جيش من الشام والعراق بقيادة أسد بن عبد اللّه الْقَسْري لمحاربة ابن سريج والمتحالفين معه من تميم والعجم والكفار وبعض الشيعة، فكتب إليهم الكميت بالقصيدة التي قال فيها يحرض ابن سريج والذين معه: ـ

فكيف وأنتم سبعون ألفاً رماكم خالد بشبيه قرد

ألا فَلْترفعوا الرايات سوداً على أهل الضلالة والتعدي

ورفع ابن سريج والذين معه الرايات والسيوف على جيش دولة الخلافة فانهزم ابن سريج والذين معه وعاد أغلبهم إلى الطاعة ثم قام جيش الخلافة بقيادة أسد بتحرير سمرقند وبُخارى، وعاد أسد إلى بَلْخ ـ في رجب ١١٧هـ ـ وتم العثور على قصيدة الكميت تلك، وبسبب تلك القصيدة أمر خالد عامله على الكوفة بحبس الكميت، فتم حبسه بالكوفة.

٣ ـ بينما الكميت في الحبس بالكوفة بلغت هشام أشعار هجا فيها الكميت هشاماً وبني أُمية ـ وكذلك الشعر الذي بعثه إلى ابن سريج ـ وعندئذٍ حدث ما ذكرته رواية الأصفهاني من أنه: كتب هشام إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه ويضرب عنقه ويهدم داره ثم يصلبه فوق تراب داره. فلما قرأ خالد كتاب هشام كره ذلك، فأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت فقال: لقد كتب إلى أمير المؤمنين بكذا، فعرف عبد الرحمٰن بن عنبسة ما أراد، فأرسل غلاماً له لينذر الكميت، فسار الغلام بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة، فصبحها،

فدخل الحبس متنكراً، فأخبر الكميت بالخبر. فأرسل الكميت إلى امرأته وهي ابنة عمه واسمها (حُبى بنت نصيف بن عبد الواحد الأسدي) يأمرها أن تجيئه ومعها ثيابٌ من لباسها وخفّان ففعلت، فقال: ألبسيني لبسة النساء، ففعلت، فخرج، وبقيت امرأته مكانه في بيت السجن (الزنزانة)، فمرّ الكميت بالسجان والحرس فظنوا أنه المرأة فلم يعرضوا له، فنجا. ثم ورد كتاب خالد إلى أمير الكوفة طارق بن أبي زياد يأمره فيه بما كتب به إليه هشام بن عبد الملك، فأرسل طارق الحرس ليؤتى بالكميت من الحبس فيُنفذ فيه أمر هشام، فلم يجدوا الكميت في بيت الحبس (الزنزانة) وإنما وجدوا امرأته فأخبرتهم أن الكميت قد خرج، فأمر طارق بحبس امرأة الكميت، وكتب بذلك إلى خالد.

ويمكن تقدير زمن ذلك الهروب للكميت من الحبس بأنه في أوائل سنة ١١٨هـ وترتبط بذلك ثلاث نقاط: ـ

أ ـ قال ابن الأعرابي: « . . وأقام الكميت مدة متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خَفّ عنه خرج إلى الشام». ويتبين من ذلك أن البحث عن الكميت بعد هروبه من الحبس كان شديداً، لأنه كان هارباً من أمر بالقتل والصلب صادر من أمير المؤمنين، وقد ذكر الأصفهاني أنه: «كان علقمة بن وائل بن حجر الحضرمي آوى الكميت لما خرج إلى الشام» فيكون هو الذي أقام الكميت مدة مختفياً عنده، وبذلك كان لخالد بن عبد اللّه القَسْري الفضل في نجاة الكميت من أمر القتل وكان لعلقمة بن وائل بن حجر الحضرمي الفضل في إيواء الكميت عدة شهور حتى خفّ الطلب عنه، وعلقمة هو نجل الصحابي اليماني وائل بن حجر الحضرمي الجد الأعلى لابن خلدون.

ب ـ بعد أن خَفّ الطلب عن الكميت سار إلى الشام فاستجار بمَسْلَمة بن هشام، وجاء في رواية ثانية للأصفهاني أنه ذهب إلى قبر معاوية بن هشام فاستجار بالقبر ثم أجاره مَسْلَمة وكَلّم أباه ولم يزل يترجاه حتى أمر بأن يأتيه به. وقد دمجت تلك الرواية بين واقعتين لأن معاوية بن هشام لم يكن قد مات في هذه السنة وفي هذه الواقعة وإنما مات معاوية سنة ١١٩هـ فاستجارةُ الكميت بقبره كانت في واقعة هروبه الثاني من الكوفة، أما في هذه الواقعة ـ سنة ١١٨هـ ـ فقد وصل الكميت إلى مَسْلَمة بن هشام فأخذه مسلمة إلى أبيه هشام بن عبد الملك فدخل إليه (وعند هشام وزيره الأبرش الكلبي، فقال هشام للكميت: أنت القائل: ـ

لا كعبد المليك أو كوليدٍ ... أو سليمان بعد أو كهشام

من يمت لا يُمت فقيداً ومن ... يحيا فلا ذو إلٍّ ولا ذو ذمام)

ويلك يا كميت جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلّاً ولا ذمة؟ فقال: بل أنا

القائل يا أمير المؤمنين (قف بالديار وقوف زائر) ـ فأنشد الكميت بين يدي هشام قصيدة (قف بالديار وقوف زائر) وهي قصيدة طويلة في مدح هشام وبني أمية منها: ـ

أبني أُمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
أنتم معادن للخلافة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزال لشافع منكم وواتر

فلما انتهى قال هشام: قد رضيت عنك يا كميت.. وكتب إلى خالد بأمانه ـ وأمر له بأربعين ألف درهم.

جـ ـ والنقطة الثالثة في تلك الواقعة هي أن امرأة الكميت ـ حبى بنت نصيف الأسدية ـ كانت قد وضعت نفسها في الحبس مكان الكميت عند هروبه فلما عرف الحرس وعامل الكوفة بهروب الكميت أمر عامل الكوفة بحبسها. وقد ذكر الأصفهاني بشأنها روايتين، فقال في الرواية الأولى: «وكتب عامل الكوفة بذلك إلى خالد، فأجابه خالد: حرة كريمة أفدت ابن عمها بنفسها، وأمره بتخليتها» ـ وتدلّ تلك الرواية على أنها لم تمكث في الحبس إلا نحو خمسة أيام ـ بينما جاء في الرواية الثانية بعد خبر عفو هشام عن الكميت ما يلي نصه: «وكتب إلى خالد أن يخلي سبيل امرأته ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً، ففعل» ـ ومؤدى هذه الرواية أن امرأة الكميت مكثت في الحبس عدة شهور حتى عفا هشام عن الكميت وكتب إلى خالد أن يخلي سبيلها ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً. فلما عاد الكميت من الشام إلى العراق بكتاب هشام إلى خالد ـ في أواسط سنة ١١٨هـ ـ أمر خالد بأربعين ألف درهم للكميت وبعشرين ألف درهم وثلاثين ثوباً لامرأة الكميت، وأما إطلاق سراحها من الحبس فإن خالداً كان قد أمر عامل الكوفة بإخلاء سبيلها وقد تم ذلك بعد أيام من حبسها ـ كما سلف في الرواية الأولى ـ والظاهر أن الكميت لم يكن يعلم بذلك وكان الشائع أنها لا تزال في الحبس، فكتب خالد إلى عامل الكوفة بإخلاء سبيل امرأة الكميت بناءً على أمر هشام أمير المؤمنين، وسار الكميت إلى الكوفة فعرف بأنها في منزله، وبذلك كله غَمَر خالدٌ الكميت بإحسانه مرة ثانية.

٤ ـ في سنة ١١٩هـ انحدر الكميت بن زيد الأسدي إلى هجاء وذم كل القبائل اليمانية القحطانية والتفاخر عليها بقبيلة نزار القيسية المُضرية العدنانية بقصيدته النونية التي أولها: (ألا حييت عنّا يا مدينا) وهي أول قصائد الدوامغ، وقد ذكرت المصادر التاريخية ثلاث روايات عن سبب ذلك يكمل بعضها البعض ويتبين من ربطها النبأ اليقين: ـ

أ ـ ذكر الأصفهاني في كتاب الأغاني عن أحمد بن عبد اللّٰه بن عمار عن أبي الحسن النوفلي ـ بعد الخبر سالف الذكر عن حبس امرأة الكميت ـ ما يلي نصه: «وأمر خالد بتخليتها، فبلغ الخبر حكيم بن عياش الكلبي بالشام فقال قصيدته التي يرمي فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ويقول: (أسودينا وأحمرينا) فهاج الكميت ذلك حتى قال: (ألا حييت عنّا يا مدينا). .» (اهـ).

ولا يستلزم ذلك أن الكميت قال قصيدته بعد قصيدة حكيم الكلبي مباشرة ولا رداً عليها، وكذلك لا يستلزم ذلك أن حكيم الكلبي قال قصيدته عند إطلاق سراح امرأة الكميت من الحبس مباشرة، فقد كان بينهما هجاء مُتَبادل، فَمِنْ ذلك ما ذكره ابن سهل والأصفهاني أنه: «قال حكيم بن عياش الكلبي: ـ

ما سرني أن أمي من بني أسدٍ ... وأن ربي نجاني من النار
وأنهم زوجوني من بناتهم ... وأن لي كل يوم ألف دينار

فأجابه الكميت: ـ

يا كلب مالك أم من بني أسدٍ ... معروفة فاحترق يا كلب بالنار
لكن أمك من قوم شنئت بهم ... قد قَنّعُوكَ قناع الخزي والعار

فقال له حكيم الكلبي: ـ

لن يبرح اللؤمُ هذا الحيّ من أسدٍ ... حتى يُفَرقَ بين السبت والأحد»

ب ـ وقد استغل بعض المُضرية المتعصبين وبعض الشيعة بالكوفة ذلك الهجاء الشخصي المتبادل بين الكميت وحكيم في تحريض ودفع الكميت إلى هجاء اليمانيين وإثارة عصبية بين اليمانية والمُضرية، فجاء في رواية ثانية ذكرها الأصفهاني أنه: «كان حكيم بن عياش الكلبي ولعاً بهجاء مُضَر. . فقالوا للكميت: أجِب الرجل، فقال: إن خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري مُحْسِنٌ إليّ فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا: فاسمع ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء وأنشدوه ذلك فحمى الكميت لعشيرته فقال قصيدته: (ألا حييت عنّا يا مدينا). .» ثم ذكر الأصفهاني نفس الرواية ولكن بصيغة ثانية هي: «أن حكيم بن عياش الكلبي كان يهجو علي بن أبي طالب وبني هاشم وكان منقطعاً إلى بني أمية، فانتدب له الكميت. .».

وقد وقع في تلك الرواية بصيغتيها خلط والتباس يعود إلى أن الذين دفعوا الكميت كانوا بعض المُضرية وبعض الشيعة، فوقع التباس بأنهم حرضوه لأنه كان يهجو المُضرية ـ في الصيغة الأولى ـ أو يهجو علياً وبني هاشم ـ في الصيغة الثانية ـ

بينما الصحيح الذي ينطق به الشعر أنه لم يهج علياً وبني هاشم ولا هَجا مُضَر وإنما هجا الكميت وامرأته وبني أسد، وكان الكميت يُجيب عليه بمثل ذلك، وهو ما تؤكده نفس الرواية بأنهم (قالوا له: فاسمع بإذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء، وأنشدوه ذلك) ـ وهو قول حكيم الكلبي: (ما سرني أن أمي من بني أسدٍ) وقوله: (وأنهم زوجوني من بناتهم) وقد رد الكميت على ذلك بقوله: (لكن أُمك من قوم شنئت بهم) ولم يكن الرد على شعر حكيم هو ما يريده الذين حرضوا الكميت وإنما أرادوا هجاء كل القبائل اليمانية القحطانية، فقال الكميت للمرة الثانية: «إن خالد بن عبد الله الْقَسْري مُحسنٌ إليَّ ولا أقدر على ذلك». ثم استجاب لهم الكميت ليس لأنهم أسمعوه شعر حكيم الكلبي الذي رمى به امرأة الكميت بأهل الحبس وقال: (حليلة أَسْوَدِيَنَ وَأَحْمَرِينَا) وإنما لأن الطلب جاء بعد ذلك من زعيم الجماعة الشيعية السرية كما يتبين من مروج الذهب.

جـ ـ ذكر المؤرخ الكبير أبو الحسن المسعودي في كتاب مروج الذهب باب (ذكر السبب في العصبية بين اليمانية والنزارية) أنه: (نهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فجعل يدخل دور بني هاشم ـ بالمدينة ـ ويقول: يا بني هاشم هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صَمَتَ الناسُ عن فضلكم، فأثيبوه بما قدرتم، فيطرح الرجل ما قدر عليه من دنانير ودراهم، واعلم النساء بذلك، فكانت المرأة تبعث ما أمكنها، حتى أنها لتخلع الحليّ عن جسدها، فاجتمع من الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم، فجاء بها إلى الكميت فقال: أتيناك بجهد المُقِلِّ ونحن في دولة غيرنا وقد جمعنا لك هذا المال وفيه حلَى النساء كما ترى. فاستعن به على دهرك. فقال الكميت: بأبي أنت وأمي قد أكثرتم وأطيبتم، وما أردت بمدحي إياكم ثمناً من الدنيا، فاردده إلى أهله. فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة، فأبى، فقال: إن أبيت أن تقبل فإني رأيت أن تقول شيئاً تُغضب به بين الناس لعلَّ فتنةً تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما نحب. فابتدأ الكميت وقال قصيدته التي يذكر بها مناقب نزار، ويكثر فيها من تفضيلهم ويُطْنِب في وصفهم، وأنهم أفضل من قَحْطَان، فغَضّب بها بين اليمانية والنزارية وهي قصيدته التي أولها: ـ

أَلا حُـيِّـيـتِ عَـنَّـا يـا مَـدِيـنـا وَهَـلْ نـاسٌ نـقـول مُـسَـلْـمـيـنـا

..وهي طويلة، ونمى قول الكميت في النزارية واليمانية، وافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار، وأدلى كل فريق بما له من المناقب، وتحزبت الناس، وثارت العصبية في البدو والحضر، فنتج من ذلك أمر مروان بن محمد الجعدي وتعصبه لقومه من نزار على اليمن وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة

العباسية، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أمية. .»[1] ويتبين من ذلك أن سبب قصيدة الكميت كان سياسيًا وكان الهدف منها إثارة العصبية والفرقة بين اليمانيين وبين النزارية المُضَريين لأن اليمانيين كانوا عماد الدولة في عصر الخلفاء الأمويين.

وقد استعمل الكميت نفس وزن وقافية أبيات حكيم بن عياش الكلبي التي رمى بها امرأة الكميت بأهل الحبس وقال: (حيلة أسْوَدِينَ وأحْمَرينَا) فقال الكميت: ـ

ومـا وجَـدت نـسـاء بـنـي نـزار حـلائـل أسْـوَدِيـنَ وأَحْـمَـرِيـنَـا

وقد افتخر الكميت في القصيدة بمناقب نزار وأطنب في وصفهم، وليس في ذلك بأس، ولكنه انحدرإلى تفضيلهم على قحطان وإلى هجاء كل القبائل اليمنية وكل تاريخ اليمن.

قال الأصفهاني: «قال الكميت (ألا حييت عنا يا مدينا) وهي ثلثمائة بيت لم يترك فيها حيًا من أحياء اليمن إلا هجاهم . . فهجا أهل اليمن جميعاً إلا ولد إسماعيل بن الصباح بن الأشعث بن قيس وولد علقمة بن وائل بن حجر الحضرمي فإنه قال في آل علقمة: ـ

ولـولا آل عـلـقـمـة اجـتـدعـنـا بـقـايـا مـن أنـوف مـصـلـمـيـنـا

وكان لآل علقمة عنده يد لأن علقمة آواه ليلة خرج إلى الشام».

٥ ـ وقد بلغت قصيدة الكميت خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير المشرقين وعظيم قحطان، فغضب لأن الكميت جحد كل إحسان خالد واليمنيين إليه، وهجا اليمنيين بما في ذلك بَجِيلة عشيرة خالد، فقد روى الأصفهاني أنه: «قال الكميت (ألا حييت عنّا يا مدينا) وبلغ خالداً خبرها فقال: لا أُبالي ما لم يجز لعشيرتي ذكر، فأنشدوه قول الكميت فيها: ـ

ومـن عَـجَـبٍ عـلـيّ لـعـمـر أمٍّ غـذتـك وغـيـرهـا تـيـا يـمـيـنـا
تـجـاوزت الـمـيـاه بـلا دلـيـل ولا عـلـم تـعـسـف مـخـطـئـيـنـا
فـإنـك والـتـحـول مـن مـعـدٍّ كـهـيـلـة قـبـلـنـا والـحـالـبـيـنـا
تـخـطـت خـيـرهـم حـلـبـاً ونـسـئـاً إلـى الـوالـي الـمـغـادر هـاربـيـنـا
كـعـنـز الـسـوء تـنـطـح عـالـفـيـهـا وتـرمـيـهـا عـصـى الـذابـحـيـنـا

فقال خالد: فعلها، واللّه لأقتلنه». (اهـ) وقد كان خالد شديد الاعتزاز بتاريخ

(١) مروج الذهب ـ أبو الحسن المسعودي ـ ص٢٤٣ ـ ٢٤٥، جـ٣.

اليمن الحضاري القديم، وكان خالد يحفظ ويروي أنباء تاريخ اليمن القديم ومن ذلك ما ذكره الحسن الهمداني في كتاب الإكليل في خبر تشييد قصر غُمدان بصنعاء حيث قال: (وقد روينا ما ذكره محمد بن خالد الْقَسْرِي من بناء شعرام أوتر والشرح يحضب لقصر غمدان) (اهـ) فغضب خالد لأن الكميت تعرض في شعره لتاريخ اليمن واليمانيين التليد كقوله: ـ

ألقطة هُدهِد وجنود أُنثى مبرشمة، ألحمي تأكلونا

ومثل ذلك من التعريض بتاريخ اليمن وهجاء اليمانيين وتفضيل المُضرية النزارية عليهم، فقال خالد: (واللّه لأقتُلنه) ـ أو (واللّه لأقتُلنه بأيديهم) ـ يعني بأيدي بني أُمية لأنهم من النزارية.

وقد روى الأصفهاني عن عيسى بن حسين الوراق قال: «إن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أُنْشِد قصيدة الكميت التي يهجو فيها اليمن وهي: (ألا حُييت عنا يا مدينا) فأحفظته عليه، فَرَوَى جارية حسناء قصائده الهاشميات وأعدّها ليهديها إلى هشام وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه بني أمية وأنفذ إليه قصيدته التي يقول فيها: ـ

فيا ربُّ هل إلّا بك النصر يُبْتَغى ويا رب هل إلّا عليك المعوّلُ

وهي طويلة يرثى فيها زيد بن علي وابنه الحسين بن زيد ويمدح بني هاشم. فلما قرأها هشام أكبرها وعظمت عليه واستنكرها وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده..» (ص١١٠، جـ١٥) ثم روى الأصفهاني رواية ثانية جاء فيها: «بلغ خالداً خبر قصيدة الكميت.. فقال: واللّه لأقتلنه، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن وتخيّرهنّ نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب، فَرَواهنّ الهاشميات، ودسهن مع نحاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعاً، فلما أَنِسَ بهن استنطقهن فرأى فصاحة وأدباً، فاستقراهن القرآن فقرأن، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن من قائل هذا الشعر، قلن: الكميت بن زيد الأسدي، فكتب إلى خالد وهو عامله على العراق: ابعث لي برأس الكميت». (ص١١٢/ ١٥ ـ الأغاني) ولا بد هنا من التنبيه إلى ما يلي: ـ

أ ـ إن قصيدة الكميت اللامية التي اشتهرت باسم (الهاشميات) والتي رثى فيها زيد بن علي والحسين بن زيد كان زمنها بعد مقتل زيد بن علي سنة ١٢٢هـ بينما ولاية خالد للعراق انتهت سنة ١٢٠هـ وذلك قبل سنتين من قصيدته المعروفة باسم (الهاشميات) والتي رثى فيها زيد بن علي والحسين بن زيد، فلا يمكن أن يكون خالد قد بعث تلك القصيدة إلى هشام قبل أن يقولها الكميت بنحو أربع سنوات.

ب ـ أن الروايتين اللتين ذكرهما الأصفهاني تشير إلى أن الكميت إنما قال

قصيدته المعروفة باسم الدامغة وهي: (ألا حييت عنا يا مدينا) بعد القصيدة المعروفة باسم الهاشميات، وهو ما ذكره أيضاً المسعودي في مروج الذهب، ومؤدى ذلك أن قصيدة الدامغة إنما قالها الكميت سنة ١٢٢هـ ـ أو سنة ١٢٣هـ ـ في ولاية يوسف الثقفي للعراق وليس في عهد ولاية خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري. ويترتب على ذلك احتمال أن يكون خالد قد بعث بالفعل الجارية أو الجواري بقصيدة الهاشميات إلى هشام بن عبد الملك ولكن ذلك إنما كان بعد انتهاء ولاية خالد للعراق وليس في عهد ولايته.

جـ ـ إن قصيدة الكميت الدامغة هي ثلثمائة بيت، فقد يكون الكميت قال بعضها في عهد ولاية خالد سنة ١١٩هـ ثم توسع فيها وأضاف إليها أغلب أبياتها سنة ١٢٢هـ، وبذلك يزول التعارض بين قوله: إياها في عهد ولاية خالد وبين قوله: إياها بعد قصيدة الهاشميات التي رثى فيها زيد بن عليّ الذي قتله يوسف الثقفي سنة ١٢٢هـ.

د ـ إن خالد بن عبد اللَّه لما بلغته قصيدة الكميت وهو أمير للعراق ـ سنة ١١٩هـ ـ لم يبعث إلى هشام بقصيدة الكميت في رثاء زيد بن علي ومدح بني هاشم لأنه لم يكن قد قالها، وإنما بعث خالد إلى هشام بأشعار قالها الكميت في هجاء هشام وبني أمية، وذلك أن الكميت بعد أن عفا هشام عنه وعاد إلى العراق ـ سنة ١١٨هـ ـ كان مرتبطاً بجماعة شيعية من القيسية والموالي بالكوفة وكان يقول أشعاراً عاد فيها إلى هجاء بني أمية، وكان ذلك يبلغ خالداً فيغض الطرف عنه، فلما انحدر الكميت إلى هجاء اليمنيين بقصيدته النونية (الدامغة) ـ سنة ١١٩هـ ـ وكما ذكر الأصفهاني في الرواية الأولى: «كتب خالد إلى هشام بأخبار الكميت وهجائه بني أمية وأنفذ إليه قصيدة الكميت..». ولكن ليس قصيدة الهاشميات وإنما قصيدة قال فيها: ـ

فَقُل لبني أُمية حيث حلّوا ... وإن خِفْت المُهند والقطيعا
أجاعَ اللَّه من أشبعتموه ... واشبع من بجوركم أُجيعا

ونحو ذلك من شعر الكميت، فلما قرأ هشام رسالة خالد وذلك الشعر، حدث ما ذكره الأصفهاني في الرواية الأولى عن ابن الوراق قائلاً ما يلي نصه: «وكتب هشام إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده، فلم يشعر الكميت إلا والخيلُ محدقة بداره، فأُخِذ وحُبِس في المحبس. وكان أبان بن الوليد البَجلي عاملاً على واسط وكان الكميت صديقه فبعث إليه بغلام على بغل وقال له: أنت حرٌّ إن لحقته والبغل لك، وكتب إليه: قد بلغني ما صرت إليه وهو القتل إلا أن يدفع اللَّه عز وجل وأرى أن تبعث إلى حبى، يعني زوجة الكميت، فإذا دخَلتْ إليك تنقبت نقابها ولبست ثيابها وخرجت، فإني أرجو أن لا يؤبه لك». ـ يعني كما

فعل في المرة الأولى ـ. بينما جاء في رواية الأصفهاني عن محمد بن يحيىٰ الخزار ما يلي نصه: « . .فكتب هشام إلى خالد وهو عامله على العراق: ابعث لي برأس الكميت، فبعث خالد إلى الكميت في الليل فأخذه وأودعه السجن، ولما كان من الغد أقرأ خالد مَنْ حضره من مُضر كتاب هشام واعتذر إليهم من قتله وآذنهم في إنفاذ الأمر فيه في غد. وقال خالد لأبان بن الوليد البجلي وكان صديقاً للكميت: انظر ما ورد في صديقك، فقال: عزّ عليّ والله به، ثم قام أبان فبعث إلى الكميت فأنذره، فَوَجَّه إلى امرأته. ثم ذكر الخبر في خروجه ومقامها مكانه كما ذكر مَنْ تقدمه» ـ يعني كما ذكر ابن الورّاق في الرواية الأولى: إن امرأة الكميت «ألبسته ثيابها وإزارها وخمّرته، فخرج، ولما طال على السجّان الأمر نادى الكميت فلم يجبه فدخل ليعرف خبره، فصاحت به امرأة الكميت: وراك لا أم لك، فشقّ ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد فأخبره الخبر، فأحضر حبى فقال لها: يا عدوة الله احتلْتِ على أمير المؤمنين وأخرجت عدوه، والله لأمثّلن بك ولأصنعن ولأفعلن» ـ ولعل الأصوب أن الذي قال ذلك والذي أتى إليه بالخبر هو عامل الكوفة طارق بن أبي زياد لأن خالد بن عبد الله كان بمدينة واسط، ما لم يكن خالد قد أتى الكوفة في زيارة تفقدية آنذاك، فيزول التعارض ـ، قال ابن الوراق: «فاجتمعت بنو أسد إلى خالد وقالوا: ما سبيلك على امرأة مِنّا خُدِعت. فخلى خالد سبيلها ـ وكان الكميت قد اختفى بمنزل أبي الوضاح حبيب الأسدي ـ فقال له: لا بد من أن تحوّلني فخرج به إلى بني علقمة بن وائل الحضرمي وكانوا يتشيعون، فأقام فيهم متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خفّ عنه خرج ليلاً في جماعة من بني أسد على خوف ووجل، وأخذ الطريق على القطقطانة حتى أتى الشام، فتوارى عند بني أسد وبني تميم وأرسل إلى أشراف قريش وكان سيدُهم يومئذٍ أبا خالد عنبسة بن سعيد بن أبي العاص فمشت رجالاتُ من قريش بعضها إلى بعض وأتوا عنبسة فقالوا: يا أبا خالد هذه مكرمة قد أتاك الله بها هذا الكميت لسان مُضَر وكان أمير المؤمنين كتب في قتله فنجا حتى تخلص إليك وإلينا، قال: مروه أن يعوذ بقبر معاوية بن هشام بدير حنينا، فمضى الكميت فضرب خيمته عند قبره، ومضى عنبسة فأتى مَسْلَمة بن هِشام فأخبره الخبر فقال مَسْلمة: عليّ خلاصه. .». بينما جاء في رواية الأصفهاني الثانية عن ابن الخراز أن الكميت مضى إلى الشام: «فأتى مَسْلَمة بن عبد الملك فاستجار به، فقال: إني أخشى أن لا ينفعك جواري عنده ولكن استجر بابنه مَسْلَمة بن هشام، فأجاره مَسْلَمة بن هشام. . ثم قال له: إن معاوية بن هشام مات قريباً وقد جزع عليه أمير المؤمنين جزعاً شديداً فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره، ففعل. .». (اهـ).

ويتبين من ذلك أمران، أحدهما: إن زمن ذلك كان سنة ١١٩هـ لأن معاوية بن هشام بن عبد الملك مات في تلك السنة، وثانيهما: إن الذين لجأ إليهم الكميت بالشام كانوا من القيسية المتعصبين والمشتركين في حملة التحريض على خالد ومنهم عنبسة بن سعيد بن أبي العاص وهو عم ابن عمرو بن سعيد الذي تقدم خبره مع خالد، وكان بنو أبي العاص أخوال مَسْلمة بن هشام بن عبد الملك الذي قيل له إن خالداً قال: (أنا بريء من خليفة يُكنى أبا شاكر، فغضب على خالد).

ثم إن أبا شاكر مَسْلمة بن هشام بعث أولاد معاوية إلى الكميت في خيمته عند قبر معاوية بن هشام وأمرهم أن يكونوا معه وأن يقولوا: (استجار بقبر أبينا) ثم كلم مَسْلمةُ هشاماً، فأمر بإحضار الكميت، فأحضره الحرس ومعه أولاد معاوية وهم يقولون: (يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا) فرقّ لهم قلب هشام. وجاء في رواية للأصفهاني أنه: «لما دخل الكميت على هشام سَلَّم ثم قال يا أمير المؤمنين غائبٌ آب ومُذنبٌ تاب، محا بالإنابة ذنبه وبالصدق كذبه.. فقال له هشام: ما الذي نَجَّاكَ من القَسْري؟ قال: صدق النيّة في التوبة، قال: ومَنْ سَنْ لك الغيّ وأورطك فيه؟ قال: الذي أغوى آدم فنسيْ ولم يجد له عزماً..». وفي رواية ثانية: (قال له هشام: ويلك يا كميت من زيّن لك الغواية ودلّاك في العماية؟ قال: الذي أخرج أبانا من الجنة وأنساه العهد فلم يجدله عزماً. فقال هشام: إيهٍ أنت القائل: ـ

فقل لبني أُمية حيث حلّوا	وإن خفت المهند والقطيعا
أجاعَ اللّه مَنْ أشبعتموه	وأشبع من بجوركم أُجيعا
بمَرضيّ السياسة هاشميٍ	يكون حيًّا لأمته ربيعا

فقال: لا تثريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو عني قولي الكاذب، قال: بماذا؟ قال: بقولي الصادق: ـ

أورثته الحصان أم هشام	حسباً ثاقباً ووجهاً نضيراً
وكساهُ أبو الخلائف مروان	سنى المكارم المأثورا

ـ وهي قصيدة طويلة مدح فيها هشاماً وبني أُمية ـ فقال هشام: هكذا فليكن الشعر، يقولها لسالم بن عبد اللّه بن عمر وكان إلى جانبه.. ثم أنشده الكميت مرثيته لابنه معاوية بن هشام وقال فيها: ـ

سأبكيك للدنيا وللدين إنني	رأيت يد المعروف بعدك شُلّت
فدامت عليك بالسلام تحية	ملائكة اللّه الكرام وصَلّت

فبكى هشام.. ثم قال: قد عفوت عنك يا كميت، فقبّل يده وقال: يا أمير

المؤمنين إن رأيت أن تزيد في تشريفي ولا تجعل لخالد عليّ إمارة، قال: قد فعلتُ، وكتب له بذلك». وجاء في رواية ابن الخزار وابن الأعرابي أنه: «أمر له مَسْلَمة بعشرين ألف درهم وأمر له هشام بأربعين ألف درهم وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته وأنه لا سلطان له عليهم. وجمعت له بنو أُمية والمُضرية مالاً كثيراً، ثم جاء الكميت إلى منزله بالكوفة آمناً» ـ وكان ذلك في أواسط سنة ١١٩هـ.

وقال الأصفهاني في روايته عن ابن حبيب: «وللكميت مع خالد أخبار بعد قدومه الكوفة بالعهد الذي كُتِب له ـ بأن لا سلطان لخالد عليه ـ منها أنه مَرّ بخالد يوماً وقد تحدث الناسُ بعزله عن العراق، فلما جاز تمثل الكميت: ـ

أراها وإن كانت تحبُّ كأنها سحابة صيف عن قليل تَقَشَّعُ

فسمعه خالد فرجع وقال: أما واللّه لا تتقشع حتى يغشاك منها شؤبوبُ بَرَد، ثم أمر به، فَجُرد، فضربه مائة سوط، ثم خَلَى عنه ومضى». (اهـ) ونرى أن ذلك إنما كان في فترة الحبس الأول للكميت سنة ١١٧هـ وليس بعد الحبس الثاني وعودته بالأمان من هشام وبأن ليس لخالد سلطان عليه، بينما رواية ابن حبيب تجعل ذلك عندما تحدث الناس بعزل خالد سنة ١٢٠هـ، وقد يكون ذلك حدث مرتين، والأول أرجح.

٦ ـ في حوالي سنة ١٢٣هـ توسع الكميت في قصيدته النونية ـ الدامغة ـ التي هجا فيها اليمانيين وهي: (ألا حُيِّيت عنّا يا مدينا) حتى بلغت ثلثمائة بيت، وكانت ولاية خالد للعراق قد انتهت سنة ١٢٠هـ ـ كما سيأتي ـ وقد تولى العراق بعده يوسف بن عمر الثقفي الذي قتل الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب سنة ١٢٢هـ ـ كما سيأتي ـ فقال الكميت قصيدته اللامية المعروفة باسم الهاشميات التي رثى فيها زيد بن عليّ ومدح بني هاشم، ثم انحدر إلى هجاء كل اليمانيين في قصيدته النونية ـ الدامغة ـ وأضاف إليها أغلب الأبيات التي بلغت ثلثمائة بيت، فلما بلغ ذلك خالداً ـ ولم يكن والياً وإنما كان كبير قحطان ـ قام خالد بما سلف ذكره من أنه أهدى إلى هشام جارية حسناء ورَوّاها قصيدة الكميت (الهاشميات). وقيل: (اشترى خالد ثلاثين جارية، فروّاهُنّ الهاشميات. . إلخ)، ولعل الأصوب جارية واحدة، فاستنشدها هشام الشعر، فأنشدته قصيدة الكميت اللامية (الهاشميات) فلما بلغت قوله فيها: ـ

فيا ساسة هاتوا لنا من جوابكم ففيكم لعمري ذو أفانين مقولُ

اشتد غيظ هشام وقال للجارية: ويحك من قائل هذا الشعر؟ قالت: الكميت بن زيد الأسدي، فكتب هشام إلى عامله على العراق وهو يوسف بن عمر

الثقفي ـ وليس خالد ـ يأمره بحبس الكميت، ثم تشفع له بعض بني أمية، فعفا عنه.

وقال الأصفهاني: «لما قَدِم يوسف بن عمر الثقفي ـ والياً للعراق ـ دخل عليه الكميت وقد مدحه بعد قتله زيد بن عليّ، فأنشده قوله فيه: ـ

خرجت لهم تمشي البراح ولم تكن   كَمَنْ حصنه فيه الرتاج المُضبَّبُ
وما خالدٌ يستطعم الماء قائماً   بعدلك، والداعي إلى الموت ينعبُ

والجند قيام على رأس يوسف بن عمر، وهم يمانية، فتعصبوا لخالد، فوضعوا ذباب سيوفهم في بطن الكميت فوجؤوه بها، وقالوا: أتُنشد الأمير ولم تستأمره، فلم يزل ينزف الدم حتى مات». (ص١١٩، جـ/ الأغاني». وقد تم حمل الكميت إلى منزله وهو ينزف، ولم يزل كذلك حتى مات سنة ١٢٣هـ ـ أو سنة ١٢٤هـ ـ وقيل: إنه مات سنة ١٢٦هـ.

٧ ـ ساهمت قصيدة الكميت النونية (ألا حيِّيت عنّا يا مدينا) في إثارة العصبية بين اليمانية والنزارية، ولكنها لم تكن (سبب العصبية بين اليمانية والنزارية) كما ذهب المسعودي في كلامه سالف الذكر عنها بمروج الذهب، وإنما ساهمت في ذلك، وقد قيلت في وقت حملة تحريض من بعض المتعصبين للقيسية على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير المشرقين وعظيم قحطان، وذلك سنة ١١٩هـ، ثم توسع الكميت فيها سنة ١٢٣هـ، وكان أول من ردّ عليها الطرماح بن حكيم الطائي[(١)].

قال المسعودي في مروج الذهب: «وقد نقض دِعْبِل بن علي الْخُزَاعِي هذه القصيدة على الكميت، وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها وغير ذلك، وصَرَّح وعَرَّض بغيرهم، كما فعل الكميت، وذلك في قصيدة دِعْبِل التي أولها: ـ

أفيقي من مَلَامِكِ يا ظعينا   كَفَاكِ اللَّوْمَ مَرُّ الأربَعينَا
ألم تَحْزُنْكِ أَحْدَاثُ اللَّيالي   يُشَيِّبْنَ الذَوائبَ والْقُرُونَا
أُحَيِّي الغُرَّ من سَرَوَات قومي   لقد حُيِّيتِ عَنَّا يا مَدِينا
فإن يَكُ آل إسرائيل منكم   وكُنتُم بالأعاجم فاخرينَا
فلا تَنْسوا الخنازير اللَّوَاتي   مُسِخْنَ مع القُرُودِ الخَاسِئِينَا

---

(١) الطُرِمَّاح بن حكيم الطائي المذحجي اليماني، جاء في ترجمته بكتاب الجامع: «الطرماح بن حكيم بن حكم الطائي: شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام، وانتقل إلى الكوفة، فكان معلماً بها. واتصل بخالد بن عبد اللّه الْقَسْري فكان يُكرمه ويستجيد شعره. وكان معاصراً للشاعر الكميت وصديقاً له.. قال الجاحظ: كان الطِرِمَّاح قحطانياً عصبياً. له ديوان شعر.. توفي نحو سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م)». (أ هـ).

بـأيـلـة والـخـلـيـج لـهـم رُسُـومٌ وآثـارٌ قـدُمْـنَ ومـا مُـحِـيـنَـا
وَمَـا طـلـبُ الـكـمـيـت طِـلابَ وتْـرِ ولـكـنَّـا لـنـصـرتـنـا هُـجِـيـنَـا
لـقـد عـلـمـت نِـزارُ أن قـومـي إلـى نَـصْـرِ الـنـبـوة فـاخِـريـنَـا

وهي طويلة» (ص٢٤٥/ ٣ ـ مروج الذهب).

قال الأصفهاني: «دِعبل هو دِعبل بن علي بن رزين بن سليمان بن ثميم بن نهشل بن خداش بن خالد بن عبد بن دِعبل بن أنس بن خزيمة بن سلامان بن أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن مزيقيا ـ الخزاعي الأزدي القحطاني ـ وكان شديد التعصب على النزارية للقحطانية وقال قصيدة يرد فيها على الكميت ويناقضه في قصيدته التي هجا بها قبائل اليمن (ألا حيِّيت عنَّا يا مدينا).. وكان دِعْبِل من الشيعة المشهورين بالميل إلى علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه وقصيدته (مدارس آيات خلت من تلاوة) مِن أحسن الشعر وفاخر المدائح في أهل البيت عليهم السلام..» (ص٢٩، جـ١٨/ الأغاني).

وكان دِعبل بن علي الخزاعي من يمانية الكوفة، وُلد سنة ١٤٨هـ (٧٦٥م)، له أخبار وأشعار كثيرة، أقام ببغداد، وكان لسان القحطانية فتصدى للمتعصبين عليهم، وأطال اللّه عمرهُ حتى توفي سنة ٢٤٦هـ (٨٦٠م) بأواسط القرن الثالث الهجري[1].

* * *

سادس عشر: ـ أنباء ومعالم السنة الخامسة عشرة والأخيرة من ولاية خالد للمشرقين

في شوّال سنة ١١٩هـ بدأت السنة الخامسة عشرة من ولاية خالد بن عبد اللّه الْقَسْري للمشرقين، وكان من أنباء ومعالم تلك السنة ـ وهي السنة الأخيرة من ولايته للمشرقين التي دامت خمس عشرة عاماً ـ ما يلي: ـ

١ ـ خطبة خالد في واسط

قال الحافظ ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: «قال الأصمعي وغيره: خطب خالد بن عبد اللّه الْقَسْري يوماً بواسط فقال: يا أيها الناس تنافسوا في المكارم وسارعوا إلى المغانم واشتروا الحمد بالجود، ولا تكتسبوا بالمطلّ ذماً، ولا تعتدّوا

---

(١) ثم رد على قصيدة الكميت لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الإكليل ـ المولود بصنعاء سنة ٢٧٠هـ ـ بقصيدته الدامغة وأولها:

ودامـغـةٌ كـمـثـل الـفـهـر تـهـوى عـلـى بِـيـضٍ فـتـجـعـلـهـا طـحـيـنـا
تـرد الـطـول لـلأسـدي عـرضـاً وتـقـلـب مـنـه أظـهـره بـطـونـا

وتتابعت الدوامغ من الجانبين وكان ختامها قصيدة المجد والألم للأستاذ الأديب مطهر بن علي الإرياني اليحصبي الحميري سنة ١٩٦٣م.

بمعروف لم تعجلوه، ومهما تكن لأحد منكم نعمة عند أحد لم يبلغ شكرها فاللّه أحسن له جزاءً وأجزل عطاءً. واعلموا أن حوائج الناس إليكم نِعَمٌ فلا تَمَلّوها فَتَحولُ نقماً، فإن أفضل المال ما أكسب أجراً وأورث ذكراً، ولو رأيتم المعروف لرأيتموه رجلاً حَسَناً جميلاً يسر الناس إذا نظروا إليه ويفوق العالمين، ولو رأيتم البخل لرأيتموه رجلاً مشوهاً قبيحاً تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار. أيها الناس: إنّ من جاد ساد، ومن بخل ذلّ، وأكرم الناس مَنْ أعطى من لا يرجوه، ومن عفا عن قدرة. وأفضل الناس من وصل عن قطيعة. ومن لم يطب حرثه لم يزك نبته. والفروع عند مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو». (ص١٨، جـ١٠ ـ البداية والنهاية).

٢ ـ عمال خالد على الولايات والأقاليم

وكان عمال خالد بن عبد اللّه الْقَسْري على أقاليم وولايات العراق ومشارقها في هذه السنة ـ(سنة ١١٩ ـ ١٢٠هـ) ـ منهم: بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري أمير البصرة وأقاليمها، وكان بلال عامل خالد على البصرة وأقاليمها منذ سنة ١٠٩هـ ولم يزل كذلك حتى سنة ١٢٠هـ. وكذلك استمر طارق بن أبي زياد عاملاً لخالد على الكوفة وأقاليمها، وكان أبان بن الوليد البجلي عاملاً على واسط، قال الطبري: «وكان داود البربري على حجابة خالد وحرسه وعلى ديوان الرسائل». وكذلك كان من عمال خالد بالعراق سعيد بن راشد والعُريان بن الهيثم. بينما كان عامل خالد على بلاد السند (باكستان) منصور بن جمهور الكلبي، وكان الأمير أسد بن عبد اللّه الْقَسْري عاملاً لأخيه خالد على بلاد خراسان (آسيا الوسطى).

وفيما بين شوّال وذي الحجة سنة ١١٩هـ وصل إلى خالد مكتوب ومبعوث أخيه أسد بنبأ غزو وفتح بلاد الخُتَّل، قال ابن خلدون: «غزا أسدٌ الخُتْل بعد مقتل خاقان، وقَدَم مصعب بن عمرو الخزاعي إليها فسار إلى حصن بُدُرْطرخان ـ ملك الخُتَّل ـ. وغلب على القلعة، وبثّ أسد العساكر في بلاد الخُتَّل». وقد سلف ذكر نبأ ذلك الفتح الذي ذكره الطبري بالتفصيل ومقتل بُدُرطرخان، قال الطبري: «وغلب أسد على القلعة العظمى، وفرّق الخيل في أودية الخُتَّل» وقال الحافظ ابن كثير: «غزا أسد بلاد الترك فعرض عليه ملكهم طرخان ألف ألف درهم، فلم يقبل منه شيئاً، وأخذه قهراً فقتله، وأخذ مدينته وقلعته وحواصله وأمواله». وبذلك أتمّ اللّه على يد أسد الْقَسْري فَتْح آخر معاقل الكفار في بلدان ما وراء النهر، وكتب إلى خالد بنبأ النصر والفتح، فكتب خالد إلى هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين بذلك، ولم يبتهج هشام بذلك ـ غالباً ـ فقد كان اهتمامه مُنصباً على جعل ولاية العهد لابنه مَسْلَمة بن هشام وإزاحة الوليد بن يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، وقد بدأ هشام بذلك منذ

أواسط سنة ١١٩هـ حيث سلف ذكر خبر ذلك وأنه ـ كما ذكر الطبري ـ «تمادى الوليد بن يزيد في الشراب وطلب الملذّات فأفرط، فقال له هشام: ويحك يا وليد واللّه ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا، ما تَدع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير متحاشٍ ولا مستتر به، فكتب إليه الوليد: ـ

يا أيها السائلُ عن ديننا نحن على دين أبي شاكِرِ
نَشْرَبُها صِرْفاً وممزوجةً بالسُّخْنِ أحياناً وبالفاتِرِ

فغضب هشام على ابنه مَسْلمة وكان يُكنّى أبا شاكر وقال له: يعيّرني بك الوليدُ وأنا أرشحك للخلافة فالزمْ الأدب وأحضُرِ الجماعة». ـ وبعد ذلك غالباً كان ما ذكره الطبري من أنه: «عمل هشام سراً في البيعة لابنه مَسْلَة، فأجابه قومٌ، فكان ممن أجابه خالاه محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل المخزومي وبنو القعقاع بن خليد العبسيّ وغيرهم من خاصته». وأنه: «قال خالد بن عبد اللّه الْقَسْري: أنا بريءٌ من خليفة يُكنى أبا شاكر، فغضب مَسْلَمة بن هشام على خالد». ثم «ولاهُ هشام الموسم ـ موسم الحج ـ سنة ١١٩هـ فأظهر مَسْلَمة النسك والوقار والدين، وقَسَّم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة: ـ

يا أيُها السائلُ عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
الواهِبِ الجُرْد بأرسانِها ليس بِزِنديقٍ ولا كافِرِ

يعرّض بالوليد بن يزيد بن عبد الملك».

٣ ـ وفاة أسد وتعزية خالد بوفاته

وفي ربيع الأول سنة ١٢٠هـ توفي بمدينة بَلْخْ ـ في أفغانستان ـ آخر عظماء الفاتحين أسد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير خُراسان وآسيا الوسطى، قال الطبري: «لما مات أسد بن عبد اللّه أخو خالد بن عبد اللّه كتب أبو شاكر ـ مَسْلَمة بن هشام ـ إلى خالد بن عبد اللّه بشعرٍ هجا به نوفل خالداً وأخاه أسداً حين مات ـ وقال فيه: ـ

أراحَ من خالدٍ وأهلكه ربٌّ أراح العبادَ مِن أَسَدِ

وبعث أبو شاكر بالطُّومار مع رسول على البريد إلى خالد، فظنّ أنه عزّاه في أخيه، ففضَّ الخاتم فلم ير في الطومار غير الهجاء. فقال: ما رأيتُ كاليوم تعزيةً». (ص٢٨٩/٨).

وكان يحيىٰ بن نوفل من الحاسدين المتعصبين على خالد بن عبد اللّه والتابعين لحسان النبطي الناقم على خالد منذ ضرب ابنه بالسياط لمجاهرته بشرب الخمر والفساد، بينما كان مَسْلَمة بن هشام غاضباً على خالد منذ قيل له إن خالداً قال: (أنا

بريءٌ من خليفة يُكنى أبا شاكر)، وبالرغم من أن خالد بن عبد الله إنما قال ذلك ـ إذا صح أنه قال ـ عندما كان أبو شاكر يشرب الخمر صِرْفاً وممزوجةً ـ كما في شعر الوليد ـ وليس بعد أن حج بالناس سنة ١٢٩هـ وأظهر النسك والوقار والدين فإنّ مسلمة لم يزل حاقداً على خالد بسبب ذلك، وأما شعر يحيىٰ بن نوفل عند وفاة أسد فإنه يُمثل موقف الحاسدين المتعصبين الذين لم ينقطعوا عن التحريض على خالد.

وقد تلقى خالد التعزية بوفاة أسد من هشام بن عبد الملك ومن الولاة والأمراء والعلماء وكذلك الشعراء مثل قصيدة ابن عرس العبديّ الربعيّ التي أولها: ـ

نَعَى أَسَدَ ابنَ عبدِ اللَّهِ نَاعٍ ... فَرِيعَ القَلبُ للمَلِكِ المُطاعِ
بِبَلْخٍ وافَقَ المِقدارُ يَسْري ... وما لِقَضاءِ ربك مِنْ دِفَاعِ

وقصيدة سليمان بن قَتَّة التي أولها: ـ

سَقَى اللَّهُ بَلْخاً، سَهلَ بَلْخ وحَزْنها ... ومَرْوَيْ خُراسانَ السَّحابَ المُجَمَّمَا
وَمَا بي لتُسْقاهُ ولكنَّ حُفرَةً ... بها غيَّبُوا شِلواً كريماً وأعظُمَا

وقد استخلف أسد على خراسان جعفر بن حنظلة البهرانيّ القضاعي الحميري فأقرّه خالد أميراً على خراسان وآسيا الوسطى وكان عمال أقاليم خراسان وآسيا الوسطى منهم: المقدام بن عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي عامل الجوزجان، وإبراهيم بن عبد الرحمٰن الحنفي القيسي عامل هراة، وجديع بن علي الكرماني الأزدي عامل مرو، قال الطبري: «وولّى جعفر بن حنظلة عمرو بن مسلم على مرو وعزل الكرماني، وولى منصور بن عمرو أَبَرْشهر، وولى نصر بن سيار بُخارى، فشاور نصرٌ البختريَّ بن مجاهد مولى بني شيبان فقال له: لا تقبلها، قال: ولِمْ؟ قال: لأنك شيخ مُضَر بخراسان، فكأنك بعهدك قد جاء على خراسان كلها». (اهـ) ويبدو من ذلك أن مجاهد مولى بني شيبان كان على علم بأن حملة التحريض على خالد وإثارة العصبية القيسية المُضَرية قد أوشكت على الوصول إلى هدفها، وأياً كان الأمر فقد استمر جعفر بن حنظلة عاملاً لخالد على خراسان كلها حتى انتهاء ولاية خالد للمشرقين(١).

(١) قال الطبري: «وفي جمادى ١٢٠ هـ تولى العراق يوسف بن عمر الثقفي وولى على خُراسان جُديعَ بن علي الكرماني وعزل جعفر بن حنظلة، فخطب جُديع الكرماني الناس بمرو، فحمد الله وأثنى عليه وذكر أسداً وقدومه خراسان وما كانوا فيه من الجهد والفتنة وما صُنِع لهم على يديه ثم ذكر أخاه خالداً بالجميل وأثنى عليه وذكر قدوم يوسف العراق وحثَّ الناس على الطاعة ولزوم الجماعة ثم قال: غفر الله للميت يعني أسداً وعافى الله المعزول يعني خالداً وبارك للقادم. ثم نزل». ـ ثم عزل يوسف جُديعاً وولى نصر بن سيار.

٤ ـ بلال بن أبي بُردة يشير على خالد بشأن أمواله الخاصة

وكان بلال بن أبي بُردة بن أبي موسىٰ الأشعري عامل خالد على البصرة وأقاليمها، فبلغته أخبار عن التحريض على خالد عند هشام بن عبد الملك وأن حسان النبطي وكيل هشام على أمواله وضياعه بالعراق سار إلى هشام وأخذ يحرضه بكثرة أموال خالد ويقول: (استعملته وليس له شيء فلم ير من الحق عليه أن يعرض عليك بعض ما صار إليه). وأن مَسْلَمة بن هشام وبعض آل بيت مروان وقريش قد اجتمعوا في التحريض على خالد، فرأى بلال أن يشير على خالد، وكان خالد يومئذٍ في الكوفة، وبلال في البصرة.

قال الهيثم بن عَدِّي (حدَّثني ابن عياش أن بلال بن أبي بُردة كتب إلى خالد وهو عامله على البصرة: إنه حدث أمرٌ لا أجدُ بداً من مشافهتك فيه، فإن رأيتَ أن تأذن لي، فإنما هي ليلة ويومها إليك، ويوم عندك، وليلة ويومها منصرفاً. فكتب إليه خالد: إن أقْبِل إن شئت ـ (قال ابن عياش: وكان بلال قد اتخذ داراً بالكوفة وإنما استأذن خالداً لينظر إلى داره ـ فلما كتب إليه خالد: إن أقْبِل إن شئت) ـ فركب بلال هو وموِلان له الجمازات، فسار يوماً وليلة ثم صلى المغرب بالكوفة وهي ثمانون فرسخاً، فأُخبر خالد بمكانه فأتاه وقد تعصب. فقال خالد: أبا عمرو أتعبت نفسك. قال: أجل، قال: متى عهدك بالبصرة؟ قال: أمس. قال: أحقٌّ ما تقول؟ قال: هو واللّه ما قُلت، قال: فما أنصبك؟ قال: ما بلغني مِنْ تعتب أمير المؤمنين عليك وما بغاك به ولده وأهل بيته، فإن رأيتَ أتعرَّضُ له وأعرِضُ عليه بعض أموالنا ثم ندعوه منها إلى ما أحبّ وأنفسنا به طيّبة، ثم أعرضُ عليه مالك فما أخذ منه فعلينا العوضُ منه بعد. قال خالد: ما أتَّهمك وحتى أنظر. قال بلال: إني أخافُ أن تُعاجَل. قال: كلا. قال: إن قريشاً مَنْ عرفتَ ولا سيَّما سرعتهم إليك، فقال خالد: يا بلال إنِّي واللّه ما أُعطي شيئاً قسراً أبداً، قال بلال: أتكلم أيها الأمير؟ قال: نعم، قال: إن هشاماً سيقول استعملتك وليس لك شيءٌ فلم ترَ من الحق عليك أن تعرض عليّ بعض ما صار إليك، وأخاف أن يزين له حسان النبطيُّ ما لا تستطيع إدراكه فاغتنم هذه الفترة. قال خالد: إنا ناظرٌ في ذلك، فانْصَرفْ ـ يا بلال إلى عملك ـ راشداً. فانصرف بلال ـ إلى البصرة ـ فكان يقول: كأنَّكم بهذا الرجل ـ يعني خالداً ـ قد بُعثَ إليه رجلٌ بغيضُ النفس سخيف الدين قليل الحياء يأخذه بالإحن والترات. فكان كما قال». (انتهى).

٥ ـ خبر مجلس من مجالس خالد بالكوفة

قال أبو علي القالي في كتاب الأمالي: حدّثنا أبو بكر بن دُريد قال: حدّثنا أبو حاتم عن العتبي عن أبيه قال: اجتمع عند خالد بن عبد اللّه الْقَسْري فقهاءُ الكوفة

وفيهم أبو حمزة الثُّمَال، فقال خالد: حَدّثونا بحديث عشق ليس فيه فُحْش، فقال أبو حمزة: أصلح اللّه الأمير، بلغني أنه ذكر عند هشام بن عبد الملك غَدْر النساء وسرعة تزويجهن بعد انقضاء عدّتهن. فقال هشام: إنه ليبلغني من ذلك العَجَبُ. فقال بعض جلسائه: أنا أحدّثك يا أمير المؤمنين عما بلغني عن امرأة من بني يشْكُرَ كانت عند ابن عم لها فمات عنها بعد مسألته إياها عما تريد أن تصنع بعده، فأخذ العهود عليها في ذلك، ـ وأنا أحدّثك بخبره أيها الأمير ـ كان اسمه غَسَّانَ ابن جَهْضَم بن العُذَافر، وكان اسم ابنة عمه أم عقبة بنت عمرو بن الأبجر، وكان لها مُحبًّا، وكانت له كذلك، فلما حضره الموت وظن أنه مفارق الدنيا قال ثلاثةَ أبيات ثم قال لها: اسمعي يا أمَّ عُقْبة ثم أجيبي فقد تاقت نفسي إلى مسألتك عن نفسك، فقالت: واللّه لا أجيبك بكذب ولا أجعله آخرَ حَظِّي منك. فقال: ـ

أخبري بالذي تريدين بعدي والذي تُضْمرين يا أم عُقْبهْ
تحفظيني من بعد موتي لِمَا قد كان مني مِن حُسن خُلْق وصُحْبهْ
أم تريدين ذا جمال ومالٍ وأنا في التراب في سُحْقِ غُرْبهْ

فأجابته تقول: ـ

قد سمعتُ الذي تقول وما قد يابنَ عمّي تَخاف من أُمّ عُقْبهْ
أنا من أحفظ النساء وأرعا ه، لما قد أَوْلَيْتَ من حسن صحبهْ
سوف أبكيك ما حَيِيتُ بِنَوْح ومَرَاثٍ أقولُها وبنُدْبهْ

فلما سمع ذلك قال: ـ

أنا واللّه واثقٌ بك لكن احتياطاً أخاف غَدْرَ النساء
بعد موت الأزواج يا خير من عُو شِر فَازعِي حَقِّي بحسن الوفاء
إنني قد رجوتُ أن تحفظي العهـ ـد فكوني إن مُتُّ عند الرجاء

ثم مات، فخُطِبت من كل وجه، ورَغِب فيها الأزواج.. فقالت مجيبةً لهم: ـ

سأحفظ غَسَّانا على بُعْدِ داره وأرعاهُ حتى نَلْتَقي يوم نُحَشْرُ
وإنِّي لفي شُغْلٍ عن الناس كلهم فكُفُّوا فما مثلي بمن مات يَغْدِر
سأبكي عليه ما حَيِيت بدَمْعة تَجُول على الخَدَّيْن مني فتَهْمِر

ولما تطاولت الأيام تناست عهده ثم قالت: من مات فقد فات، فأجابت بعض خُطَّابها فتزوجها، فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها فيها أتاها غَسانُ في منامها وقال: ـ

غَـدَرْتِ ولـم تَـرْعِ لبـعلِـكِ حُـرْمـة ... ولم تعرفي حَقًّا ولم تَحْفَظي عَهْدَا
ولم تَصْبِرِي حَوْلاً حِفَاظاً لصاحب ... حَلَفْتِ له بَتًّا ولم تُنْجِزِي وَعْدَا
غدرت به لما ثَوَى في ضريحه ... كذلك يُنْسَى كلُّ من سَكَنَ اللَّحدَا

فلما سمعت هذه الأبيات انتبهت مرتاعة كأنّ غسان معها في البيت، وأنكر ذلك من حضر من النساء، فأنشدتهن الأبياتَ، فأخَذْن بها في حديث يَنْسِينَها ما هي فيه، فقالت لهنّ: والله ما بقي لي في الحياة من أَرَبٍ حياءً من غسان، فتغفّلتهنَّ فأخذت مُدْيةً فلم يُدرِكْنَها حتى ذبحت نفسها، فقالت امرأة منهن هذه الأبيات: ـ

لِلَّهِ دَرُّكِ مـاذا ... لَقِيتِ من غَسَّانِ
قَتَلْتِ نفسَكِ حُزْناً ... يا خيرةَ النِّسْوان
وَفَيْتِ من بعدِ ما قد ... هَمَمْتِ بالعِصْيان
وذو المعالي غَفُور ... لِسَقْطَةِ الإنسان
إنَّ الوفاءَ من اللَّه ... لم يَزَلْ بمكان

فقال هشام بن عبد الملك: هكذا واللّه يكون الوفاء»[1]. ويدل السياق على أن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري هو الذي قال: هكذا واللّه يكون الوفاء، أو أن هشاماً قال ذلك حين رويت له القصة ثم إن خالداً قال ذلك حين رواها له أبو حمزة الثَّمَالي في مجلسه بحضور فقهاء الكوفة وغيرهم من جلساء الأمير خالد، ولعلّ أبا حمزة قد أراد بتلك القصة التلميح إلى احتمال عزل خالد وهل سيحفظ أهل العراق ما كان من حسن سيرة خالد معهم أم سيتنكرون له عند انتهاء ولايته التي يبدو أن بعض القرائن كانت تشير إلى أنها باتت وشيكه.

٦ ـ العُريان بن الهيثم يشير على خالد بمثل مشورة بلال

كان العُريان بن الهيثم ممن بلغه أن مَسْلمة بن هشام وبعض إخوة وأقارب هشام بن عبد الملك وبعض قريش وحسان النبطي أكثروا على هشام في خالد، وأن حسان النبطي زعم لهشام أن غلة خالد عشرين ألف ألف وقال له: هل كانت لخالد هذه الضِياع إلا في سلطانك وهل يستطيع الامتناع إن أخذتها، ونحو ذلك من التحريض والتأليب على خالد.

قال الهيثم بن عَدِي: أخبرني الحسن بن عُمارة عن العُريان بن الهيثم قال: قلتُ لخالد بن عبد اللّه الْقَسْري يوماً، أيها الأمير إن الناس قد رموك بأبصارهم وهي قريشٌ وهُم أهل حسد وهم يجدون منك بُدًّا وأنت لا تجد منهم بُدًّا، فأنشدك اللّه إلا

(١) الأمالي ـ أبو علي القالي ـ ص٢٠٠ ـ ٢٠٣، جـ٣.

ما كتبتَ إلى هشام تخبره عن أموالك وتعرض عليه منها ما أحبَّ، فما أقدرك على أن تتخذ مثلها، فلَعَمْري لأن يذهب بعض ويبقى بعض خير من أن تذهب كلها، ولا آمن أن يأتيه باغ أو حاسدٌ فيقبلُ منه، فقال خالد: ما أنت بمتّهم ولا يكون ذلك أبداً. فقلتُ: أطعني واجعلني رسولك فواللّه لا يحلُّ عُقدَة إلّا شددتُها ولا يشدُّ عقدة إلا حللتُها. قال: إنّا واللّه لا نُعطي على الذُلّ. فقلتُ: هل كانت لك هذه الضياع إلا في سلطانه وهل تستطيع الامتناع منه إن أخذها؟ قال: لا، قلتُ: فبادرهُ فإنه يحفظها لك ويشكرك عليها.. فإن إخوته وولده وأهل بيته قد سبقوا لك وأكثروا عليه فيك، ولك صنائعُ تعودُ عليهم بما بدا لك، ثم استدرك استتمامَ ما كان منك إلى صنائعك من هشام. فقال خالد: (قد أبصرتُ ما تقول وليس إلى ذلك سبيل).

فانصرف العُريان بن الهيثم فكان يقول لأصحابه: كأنّكم بخالدقد عُزِل وأُخِذ ماله وتُجُنّي عليه فإن قريشاً لا تحتمل هذا ونحوه وهم أهل حسد. فكان كذلك.

٧ ـ تكريم خالد لزيد بن عليّ.. وبني هاشم

قال ابن خلدون: «وكان زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قد قَدِم على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري بالعراق هو ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب وداود بن علي بن عبد اللّه بن عباس، فأجازهم، ورجعوا إلى المدينة.. وقيل: إن يوسف بن عمر لما كتب في خالد الْقَسْري، كتب إلى هشام بن عبد الملك: إنّه شيعة لأهل البيت وإنه ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار وردّ الأرض إليه، وإنه أودع زيداً وأصحابه الوافدين عليه مالاً»[1].

وذكر الطبري في تاريخ الأمم والملوك ما يلي نصه: «كتب يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك: إنّ أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت همّةُ أحدهم قوت عياله، فلما وُلّي خالد العراق أعطاهم الأموال فقووا بها حتى تاقت أنفسهم إلى الخلافة». (ص١٨/ ٩).

قال الطبري: «وذكر الهيثم بن عدّيّ عن عبد اللّه بن عياش قال: قَدِم زيد بن عليّ ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب وداود بن عليّ بن عبد اللّه بن عباس على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وهو على العراق فأجازهم ورجعوا إلى المدينة. فلما وُلّي يوسف بن عمر كتب إلى هشام بأسمائهم وبما أجازهم به، وكتب يذكر أن خالداً ابتاع من زيد بن عليّ أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم ردَّ الأرض عليه». (ص٢٦٠/ ٨).

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٦١.

وقال ابن الأثير في كتاب الكامل: «كان خالد يصل الهاشميين ويبرهم، فأتاه محمد بن عبد اللّه بن عمرو بن عثمان بن عفان ليستميحه فلم ير منه ما يحب، فقال: أما الصلة فللهاشميين وليس لنا منه شيء». (ص٢٣٧، جـ٤).

وقد اتخذ بعض المتعصبين والحاسدين تكريم خالد لزيد بن علي ولبني هاشم وسيلة للتحريض عليه حتى بعد انتهاء ولايته للعراق كما فعل يوسف بن عمر الثقفي حيث كتب إلى هشام بن عبد الملك: إن أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت همّةُ أحدهم قوت عياله فلما ولِّي خالد العراق أعطاهم الأموال فقووا بها حتى تاقت أنفسهم إلى الخلافة.. فقال هشام: مهما اتهمنا خالداً، فلسنا نتهمه في طاعة».

سابع عشر: انتهاء ولاية خالد للعراق ومشارقها.. وأسباب وكيفية ذلك

في جمادى الآخرة سنة ١٢٠هـ انتهت ولاية خالد بن عبد اللّه الْقَسْري التي دامت خمس عشرة سنة للعراق ومشارقها، وبما أن خالداً كان أعظم الولاة الأمراء في ذلك الزمن وكان عظيم وزعيم قحطان كلها، فإن إنهاء ولايته قد استلزم نحو سنة من التفكير العميق منذ نوى الخليفة هشام بن عبد الملك عزله من الولاية ـ في أواسط سنة ١١٩هـ ـ إلى أن أقدم على ذلك ـ في منتصف سنة ١٢٠هـ ـ وقد ذكرت المصادر التاريخية من أسباب وكيفية ذلك ما يلي: ـ

١ ـ قال الحافظ ابن كثير: «عزل هشام خالد بن عبد اللّه الْقَسْري عن نيابة العراق والمشرق ـ سنة ١٢٠هـ ـ وذلك أنه انحصر منه لما كان يبلغه من إطلاق عبارة فيه، وأنه كان يقول عنه ابن الحمقاء..» (ص٣٢٥/ ٩) وفي ذلك قال الطبري: «قيل: إن خالداً كان كثيراً ما يذكر هشاماً فيقول ابن الحمقاء، وكانت أم هشام تستحمق.. وقيل: إن هشاماً قَدِم عليه رجل من أهل الشام فقال: إنّي سمعت خالداً ذكر أمير المؤمنين بما لا تنطق به الشفتان، فقال هشام: قال الأحول؟ قال: لا بل قال أشدّ من ذلك، قال: فما هو؟ قال: لا أقوله أبداً. فلم يزل يبلغه عنه ما يكرَه حتى تغيّر له». (ص٢٥٢. جـ٨) قال الطبري: «وحدّثني أحمد بن زهير عن عليّ بن محمد بن عمير بن يزيد قال: بعث خالد بن عبد اللّه إلى هشام بن عبد الملك بحادٍ فحدا بين يديه بأرجوزة أبي النجم:

والشمسُ في الأفقِ كَعَينِ الأحولِ صَغْواءُ قد هَمَّتْ ولَمَّا تَفْعَلِ

فغضب هشام وطرده». (ص٢٨٧/ ٨).

والظاهر أن ذلك كله كان بتدبير أطراف حملة التحريض على خالد، وأنهم الذين زعموا أن خالداً يقول عن هشام ابن الحمقاء، وأنهم الذين جعلوا ذلك الحادي

يزعم بأن خالداً بعثه يحدوا بين يدي هشام بأرجوزة (والشمس في الأفق كعين الأحول) فلا يمكن أن يبعثه خالد ليُعرض بهشام بأنه أحول، وكذلك فإن الرجل من أهل الشام الذي قال لهشام: إنّي سمعت خالداً ذكر أمير المؤمنين بما لا تنطق به شفتان، إنما هو مدفوعٌ من الحاسدين والمتعصبين والمحرضين على خالد، ولم يزالوا ينقلون إلى هشام عن خالد ما يكره حتى تغيّر له.

٢ ـ أكثر مسلمة بن هشام وأقارب هشام في تحريضه على خالد. قال ابن الأثير: «وكان ما بين خالد وأبي شاكر مسلمة بن هشام مباعدة، وسببها أن هشاماً كان يرشح ابنه أبا شاكر للخلافة، فقال الكميت: ـ

إن الخلافة كائن أوتادها ... بعد الوليد إلى ابن أم حكيم

يعني أبا شاكر وأمه أم حكيم، فبلغ الشعر خالداً فقال: أنا كافر بكل خليفة يكنى أبا شاكر فسمعها أبو شاكر فحقدها عليه» (ص٢٣٥/ ٤ ـ الكامل). والأصوب أن الشعر الذي بلغ خالداً هو قول الوليد بن يزيد بن عبد الملك: ـ

يا أيها السائلُ عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكر

نَشْرَبُها صِرْفاً وممزوجةً ... بالسُّخْنِ أحياناً وبالفاتِرِ

قال الطبري: « . . فقال خالد بن عبد اللّه الْقَسْري: أنا بريءٌ من خليفة يُكنى أبا شاكر، فغضب مَسْلَمة بن هشام على خالد».

وكذلك كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك ـ ولي العهد ـ غاضباً وحاقداً على خالد لأنه كان مع هشام في عدم صلاحية الوليد لولاية العهد، فقد ذكر الطبري أنه: (قال خالد لابنه يزيد: كيف أنت إذا احتاج إليك بنو أمير المؤمنين) يعني بذلك أنه هو وابنه مع أبناء أمير المؤمنين هشام إذا وقع صراع بينهم وبين الوليد، فكان ذلك من أسباب حقد الوليد على خالد، بالإضافة إلى أن الوليد كان متعصباً للقيسية واشترك معهم في التحريض على خالد. وكان خالد يرى أن تكون ولاية العهد إما لمعاوية بن هشام ـ الذي مات سنة ١١٩هـ ـ وإما لسليمان بن هشام، وليس لأبي شاكر مسلمة بن هشام، فبات مسلمة وبعض إخوته وأعمامه من المحرضين على خالد، وقد اشتهر ذلك حيث قال العُريان بن الهيثم لخالد ـ سنة ١٢٠هـ ـ «إن أخوه هشام وولده وأهل بيته قد أكثروا عليه فيك». وكذلك قال بلال بن أبي بردة الأشعري لما سأله خالد: (ما أنصبك؟ فقال بلال: ما بلغني من تعتب أمير المؤمنين عليك وما بغاك به ولده وأهل بيته». (اهـ).

وبما أن هشاماً كان يريد ويعمل على أن تكون ولاية العهد والخلافة بعده

لمَسْلَمة بن هشام فإن عدم تأييد خالد لذلك يمكن أن يكون من الدوافع الرئيسية لإنهاء ولايته للمشرقين.

٣ ـ قال الحافظ ابن كثير: «وقيل إنه: وفد إلى خالد رجل من إلزام أمير المؤمنين من قريش يقال له ابن عمرو فلم يرحب به ولم يعبأ به، فكتب إليه هشام يُعنفه ويبكته على ذلك..» (اهـ) وقد أسلفنا ذكر خبر ذلك الرجل وهو ابن عمرو بن سعيد الأشدق بن أبي العاص الأموي وكان مقيماً بالعراق فوقع منه ـ في سنة ١١٩هـ ـ ما استوجب العقاب أو العتاب فوبخه خالد وأغلظ عليه التأنيب في مجلسه. فكتب إلى هشام يشكو خالداً. وقد أوجز ابن خلدون خبره فقال: (شكا من خالد بعض آل عمرو الأشدق بأنه أغلظ له القول في مجلسه فكتب إليه هشام يوبخه ويأمره بأن يمشي ساعياً على قدميه إلى بابه ويترضاه». (اهـ) وتم استغلال عدم قيام خالد بذلك في تأليب هشام بأنه لا يعبأ بأمرك، وكان آل أبي العاص أخوال مسلمة بن هشام، وهم من البيت الأموي فيشملهم قول العُريان بن الهيثم لخالد: «إن إخوة هشام وولده وأهل بيته قد أكثروا عليه فيك» وكذلك قول بلال لخالد: (ما بغاك به ولده وأهل بيته).

٤ ـ قال الحافظ ابن كثير في أسباب عزل خالد: «ويُقال إن هشاماً حسده على سعة ما حصل له من الأموال والحواصل والغلات، حتى قيل إنه كان دخله في كل سنة ثلاثة عشر ألف ألف دينار، وقيل درهم». (اهـ) وقد اعتبر ابن خلدون أن ذلك هو السبب الرئيسي فقال: «وفي سنة ١٢٠هـ عزل هشام خالداً عن أعماله جميعها بسعاية أبي المثنى وحسان النبطي وكانا يتوليان ضياعه بالعراق.. وأنهى إليه حسان أنّ غلته ثلاثة عشر ألف ألف فوقرت في نفس هشام، وأشار عليه بلال بن أبي بردة والعريان بن الهيثم إن يعرض أملاكه على هشام ويضمنون له الرضا فلم يُجبهم». (اهـ).

وكان حسان النبطي يؤلب هشاماً على خالد منذ عاقب ولده على المجاهرة بشرب الخمر ـ سنة ١١٥هـ ـ ولم يزل يحرض هشاماً، وسار إليه في حوالي شهر ربيع سنة ١٢٠هـ لتسليمه دخل أمواله وضياعه بالعراق، وقد سلف ذكر ما أشار به بلال على خالد وأنه قال لخالد: «أخاف أن يُزين له حسان النبطيّ ما لا تستطيع إدراكه». (اهـ).

وقد أخذ حسان يؤلب هشاماً بأقوال منها: إن غلة خالد تبلغ عشرين ألف ألف. ومنها: إنك وليت خالداً وليس له شيء من هذه الضياع والأموال بالعراق فلم يرَ من الحق عليه أن يعرض عليك بعض ما صار إليه، ومنها: هل كانت لخالد هذه الضياع إلا في سلطانك وهل يستطيع الامتناع إن أخذتها.

٦ ـ كان ذلك التحريض والتأليب من حسان النبطي في إطار كل ما تقدم من تحريض وأسباب، بما في ذلك الحسد والعصبية القيسية التي ساهمت قصيدة الكميت (ألا حييت عنّا يا مدينا) في إثارتها. وقد أشار إلى ذلك العُريان بن الهيثم في قوله لخالد: «إن الناس قد رَمَوْك بأبصارهم، وهي قريش، وهُمْ أهل حسد» وكذلك قال بلال بن أبي بردة لخالد: «إن قريشاً مَنْ قد عرفت ولا سيَّما سرعتهم إليك».

ويتبين من مجمل ذلك أن خالد بن عبد الله بات مستهدفاً من تحالف ثلاثي يضم: جماعة من البيت الأموي على رأسهم مسلمة بن هشام وولي العهد الوليد بن يزيد، وجماعة من القيسية المتعصبين على اليمانية، وجماعة من الموالي يمثلهم حسان النبطي أغنى الموالي بالعراق ووكيل ضياع وأموال هشام بن عبد الملك، وبرغم دوره الأساسي في تحريض وتأليب هشام، فقد كتم عنه قرار عزل خالد وتولية يوسف الثقفي مكانه، فقد ذكر الطبري أنه: «قال حسان النبطي: هيأتُ لهشام طيباً، فإنّي لبين يديه وهو ينظر إلى ذلك الطِيب إذ قال لي: يا حسان في كم يقدِم القادم من العراق إلى اليمن؟ قلتُ: لَا أدري، فقال: ـ

أمرتُك أمراً حازِماً فَعَصَيْتَنِي فأصبَحْتَ مسلوبَ الإمارة نادِما

فلم يلبث حتى جاء كتاب يوسف من العراق قد قَدِمها وذلك في جمادى الآخرة سنة ١٣٠ هجرية». (اهـ) فلم يعلم حسان بعزل خالد وتولية يوسف إلا عند مجيء كتاب يوسف من العراق.

٧ ـ لقد أحاط الخليفة هشام بن عبد الملك قرار عزل خالد وتولية يوسف الثقفي بقدر كبير من السرية والكتمان، وفي ذلك قال الطبري: «عزم هشام على عزل خالد، لمّا كثر عليه ما يتّصل به عن خالد من الأمور التي كان يكرهها، فلما عزم على ذلك أخفى ما قد عزم عليه من أمره». (اهـ) وقال ابن الأثير: «لما أراد هشام أن يولي يوسف بن عمر العراق كتم ذلك». (ص٤٣٦/ ٤).

أما سبب إخفاء هشام ما قد عزم عليه من عزل خالد فيعود ـ فيما نرى ـ إلى ما أشار إليه الأصفهاني في كتاب الأغاني حيث قال: «كان هشام قد اتهم خالد بن عبد الله وكان يقال لهشام إنه يريد خلعك» (اهـ). ويتبين من ذلك أن أطراف حملة التحريض على خالد أوهموا هشاماً بأن خالد بن عبد الله يريد خلعه من الخلافة، وربما أن هشاماً نفسه خاف من حدوث ذلك إذا عزل خالداً فهو أمير المشرقين وزعيم قحطان كلها. وكان هشام يتمتع بالحكمة والتأني، فقام ـ في سنة ١١٩هـ ـ بخطوة قد تكون ذات علاقة بما عزم عليه من عزل خالد حيث قام هشام بتولية

حنظلة بن صفوان الكلبي والياً على مصر، وكان حنظلة من رؤساء اليمانية بالشام، مما يساهم في عدم استياء اليمانية من عزل خالد لأن ولاية مصر لا تقل أهمية من ولاية العراق. . ثم تشاور هشام مع بعض أقاربه وخاصته في تسمية شخصية قيسية يتولى العراق مكان خالد، ثم استقر رأي هشام على تولية يوسف بن عمر الثقفي، ومن المفيد هنا تبيين ما يلي: ـ

أ ـ أن يوسف بن عمر الثقفي هو من آل أبي عقيل الذين هم أهل بيت الحجاج بن يوسف الثقفي، وهم أخوال الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي العهد، قال الحافظ ابن كثير: «إن يزيد بن عبد الملك: أصهاره آل أبي عقيل، وهم بيت الحجاج بن يوسف الثقفي، كان يزيد بن عبد الملك متزوجاً بنت محمد بن يوسف، وله منها الوليد بن يزيد الفاسق» (ص١٩١، جـ٩).

والوليد بن يزيد الفاسق هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان مولده سنة ٩٠ هجرية وكان أبوه سيِّء السيرة والخلق، وتم حبس والدته في قضية قد تكون أخلاقية في أول خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧هـ، قال ابن خلدون: «كان سليمان بن عبد الملك أمر يزيد بن المهلب بعذاب قرابة الحجاج كلهم، فنقلهم من البلقاء وفيهم زوجة يزيد بن عبد الملك، وعذّبها، وجاءه يزيد بن عبد الملك إلى منزله شافعاً فلم يشفعه، فَضَمَن حمل ما قرر عليها، فلم يقبل، فتهدده، فحمل يزيد بن عبد الملك عنها مائة ألف دينار». (ص٤٢٢) وكان حبسها وتغريمها تلك الغرامة الباهظة لا يتصل بمعاقبة آل الحجاج وإنما كان قضية شخصية غالباً، وكان الوليد بن يزيد آنذاك ابن ست سنوات ولكن حبس والدته ربما كان من أسباب حقده ـ فيما بعد ـ على اليمانيين. وأما حبس وعقاب آل الحجاج، أخوال الوليد، فقال الطبري: «في سنة ٩٦هـ ولّى سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلّب على العراق، وجعل صالح بن عبد الرحمٰن على الخراج وأمره أن يعذب آل أبي عقيل ـ وأخذ صالح آل أبي عقيل فكان يعذبهم، وكان يَلي عذابهم عبد الملك بن المُهلّب» (ص١٠٣، جـ٨) وقال الطبري في موضع آخر: «كان يزيد بن المُهلّب قد عَذّب أصهار يزيد بن عبد الملك، آل أبي عقيل، كانت أمّ الحجاج بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف عند يزيد بن عبد الملك فولدت له الوليد بن يزيد» (ص١٣٦، جـ٨) ولكن الذي تولى عقاب آل أبي عقيل بالعراق ليس يزيد بن المُهلّب وإنما ـ كما ذكر الطبري في الرواية الأولى ـ تولى عقابهم صالح بن عبد الرحمٰن. قال أبو العباس المبرِّد في كتاب الكامل: «أمر سليمان بن عبد الملك بدفع آل الحجاج إلى يزيد بن المُهلّب فتفادى منهم، تأويله: فَدَى نفسَهُ من ذلك المقام بغيره» (ص٢٨١/ ١) ـ فالذي تولى تعذيبهم هو صالح بن عبد الرحمٰن وذلك في ولاية

يزيد بن المُهلّب للعراق في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ ـ ٩٩هـ وكان منهم يوسف بن عمر الثقفي وربما كان ذلك من أسباب حقده على اليمانيين وتعصبه للقيسية فيما بعد.

ب ـ في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) قام عمر بنفيّ آل أبي عقيل ـ ومنهم يوسف ـ إلى اليمن. قال الحافظ ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: «قال يعقوب بن سفيان، حدثنا سعيد بن أسد، حدثنا ضُمرة عن الريان بن مسلم قال: بعث عمر بن عبد العزيز بآل أبي عقيل أهل بيت الحجاج إلى صاحب اليمن وكتب إليه: أما بعد فإنّي قد بعثت بآل أبي عقيل وهم شرّ بيت في العمل، ففرّقهم في العمل على قدر هوانهم على اللّه وعلينا، وعليك السلام ـ قال ابن كثير ـ وإنما نفاهم». (ص١٣٦، جـ٩).

فقام عروة بن محمد السعدي أمير ولاية اليمن بتفريقهم في أعمال صغيرة، ومنهم يوسف بن عمر الثقفي، فلم يزل كذلك إلى أن ولاه هشام بن عبد الملك أميراً على اليمن ـ ما بين سنة ١٠٦ وسنة ١٢٠هـ ـ لأنه من أخوال ولي العهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فلما عزم على عزل خالد عن ولاية العراق وتشاور مع بعض أقاربه وخاصته في تسمية من يتولى مكانه، قرر هشام تولية يوسف بن عمر الثقفي، مما يشير إلى تأثير ولي العهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي كان يوسف مرتبطاً به لأنه من أخواله ومن ذوي الثقة عنده، وأخفى هشام ما عزم عليه.

جـ ـ في جمادى الأولى سنة ١٢٠هـ أقدم هشام على تنفيذ ما كان قد عقد العزم عليه من إعفاء خالد من ولاية العراق ومشارقها وتولية يوسف بن عمر الثقفي، وأحاط هشام ذلك بالكتمان والسرية خوفاً من أن يعلم خالد فيثور ويتغلب هو وعُماله على العراق ويخلع هشاماً قبل وصول يوسف والياً على العراق، قال الطبري: «أخفى هشام عزل خالد وكتب إلى يوسف بخطِّه وهو على اليمن أن يسير في ثلاثين من أصحابه». وقال ابن الأثير: «لما أراد هشام أن يولي يوسف بن عمر العراق كتم ذلك. .» قال الطبري: « . .قال الربيع بن سابور مولى بني الحريش، وكان هشام جعل إليه الخاتم مع الحرس: أتى هشاماً كتابٌ من خالد غاظه. وقَدِم عليه في ذلك اليوم جندب مولى يوسف بن عمر بكتابٌ من يوسف، فقرأه هشام ثم قال لسالم مولى عنبسة بن عبد الملك: أجبْه عن لسانك ـ وكان سالم على ديوان الرسائل ـ ثم قال لي: ائتني بكتاب سالم، فأتيته به، فكتب هشام بخطه كتاباً صغيراً فأدرجه في كتاب سالم، ثم قال لي: اختمه، ففعلت. ثم دعا بجندب رسول يوسف، فقال له: إن صاحبك ـ يعني يوسف ـ لمتعدٌ طوره ويسأل فوق قدره، ثم قال لي: مزّق ثيابه، ثم أمر به فضُرب أسواطاً، فقال: أخرجه عني وادفع إليه كتابه، فدفعتُ إليه الكتاب

وقلتُ له: ويلك النجاء. فارتاب بشير بن أبي ثلجة من أهل الأردن وكان خليفة سالم وقال هذه حيلة وقد ولّى يوسف العراق».

وكان مكتوب هشام بخطه إلى يوسف: «سِرْ إلى العراق فقد وليتك إياه، وإياك أن يعلم بذاك أحد ـ حتى تقدم العراق في أصحابك ـ وخُذْ عمال خالد» ـ فسار جندب مولى يوسف بمكتوب هشام من دمشق قاصداً يوسف بن عمر أمير اليمن في صنعاء وهو يظن أن هشاماً ساخط على يوسف، ولا يعلم بما في المكتوب.

٧ ـ في ذات الوقت الذي سار فيه جندب مولى يوسف بمكتوب هشام من دمشق قاصداً صنعاء ـ وذلك في جمادى الأولى ـ كان بشير بن أبي ثلجة وهو من يمانية الأردن ونائب سالم على ديوان رسائل الخليفة هشام قد أدرك ما في مكتوب هشام من تولية يوسف على العراق. فكتب بشير بن أبي ثلجة رسالة شَفْريَّة عن ذلك إلى عياض، وكان عياض عاملاً لطارق بن أبي زياد أمير الكوفة ونائباً لسالم على ديوان الرسائل بالكوفة. قال ابن الأثير: «فكتب بشير إلى عياض: إن أهلك قد بعثوا إليك بالثوب اليماني فإذا أتاك فالبسه واحمد اللّه واعلِمْ ذلك طارقاً. فأعلم عياضٌ طارق بن أبي زياد بالكتاب، ثم ندم بشير على كتابه فكتب إلى عياض: إن أهلك قد بدا لهم في إمساك الثوب، فأتى عياض بالكتاب الثاني إلى طارق، فقال طارق: الخبر في الكتاب الأول ولكن بشير ندم أو خاف أن يظهر الخبر» ـ وتشاور طارق مع سعيد بن راشد وهو من عمال خالد بأقاليم الكوفة، ثم سار إلى واسط.

قال الطبري: «فركب طارق من الكوفة إلى خالد وهو بواسط، فسار يوماً وليلة، فصبّحهم، فرآه داود البربري وكان على حجابة خالد وحرسه وعلى ديوان الرسائل، فأعلَم خالداً، فغضب وقال: قَدِم بغير إذن». ـ وقد رأى داود طارقاً لأنه عند وصوله إلى واسط في الصباح توجه إلى منزل أبان بن الوليد البجلي عامل واسط فالتقى به وبعامل من عمال خالد على سواد دجلة يقال له الزينبي فتشاور معهما ـ ثم توجه طارق إلى خالد في دار الإمارة بمدينة واسط، فدخل داود البربري حاجب خالد يستأذن له. قال الطبري: «فأذن له، فلما رآه قال: ما أقدمك؟ قال: أمر كنت أخطأت فيه، قال: وما هو؟ قال: وفاة أسد رحمهُ اللّهُ، كتبتُ إليك أيها الأمير أعزيك وإنما كان ينبغي أن آتيك ماشياً. فرقّ خالد ودمعت عينه وقال: ارجعْ إلى عملك. قال: أردتُ أن أذكر للأمير أمراً أسرُّه، قال: ما دون داود سرٌ. قال: أمر من أمري. فغضب داود وخرج».

فلما خرج داود ـ أخبر طارق خالداً الخبر ـ أي بما كتب به بشير بأنهم بعثوا

إليك الثوب اليماني، يعني أمير اليمن يوسف بن عمر الثقفي والياً للعراق، وبذلك علم خالد وعماله بالخبر قبل أن يصل جندب مولى يوسف بمكتوب هشام إلى يوسف بصنعاء، لأن المسافة والطريق من الشام إلى العراق أقرب من المسافة والطريق من الشام إلى صنعاء.

قال الطبري وابن الأثير: «أخبر طارق خالداً الخبر لما غاب داود، فقال خالد: فما الرأي؟ قال طارق: تركب إلى أمير المؤمنين فتعتذر إليه من شيءٍ إن كان بلغه عنك. قال: فبئس الرجل أنا إذا ركبتُ إليه بغير إذنه. قال طارق: فشيء آخر، قال: وما هو؟ قال: تسير في عملك ـ (أي تزور أقاليم ولايتك) ـ وأتقدَّمك إلى الشام فاستأذنه لك، فإنك لا تبلغ أقصى عملك حتى يأتيك إذنه. قال خالد: ولا هذا. قال طارق: فأذهبُ فأضمنُ لأمير المؤمنين ما انكسر في هذه السنين من الخراج وآتيك بعهدك مستقبلاً. قال خالد: وما ذاك، وكم مبلغه؟ قال: مائة ألف ألف درهم، وآتيك بعهدك. قال: ومن أين أجدها، واللّٰه ما أجد عشرة آلاف درهم ـ (وفي رواية ابن الأثير: واللّٰه ما أجد عشرة آلاف ألف) ـ قال طارق: أتحمّل أنا وسعيد بن راشد أربعين ألف ألف درهم، والزَّيْنَبيُّ وأبان بن الوليد عشرين ألف ألف، وتفرّق الباقي على العمال. قال خالد: إنّي إذاً للئيمٌ إن كنتُ أعطيتهم شيئاً ـ وفي رواية الطبري: إنِّي إذاً للئيمٌ إن كنتُ سوَّغتُ قوماً شيئاً ثم أرجع عنه ـ (والأصوب: إنْ سوَّغتُ قوماً شيئاً ليس لهم أو أعطيتهم شيئاً، فواللّٰه ما أتحمل ـ أو أعطيهم ـ عشرة آلاف درهم) ـ فقال طارق: إنما نقيك ونقي أنفسنا بأموالنا ونستأنفُ الدنيا وتبقى النعمة عليك وعلينا. . فأبَىٰ خالد. فودعه طارق وبكى وقال: هذا آخر ما نلتقي في الدنيا، ومضى إلى الكوفة. ودخل داود فأخبره خالد بقول طارق، فقال: قد علم أنك لا تخرج بغير إذن فأراد أن يختلك ويأتي الشام فيتقبل العراق هو وابن أخيه سعيد بن راشد». ـ فسكت خالد لأن داود كان غاضباً من طارق كما تقدم.

وتتبين من مجمل ذلك عدة أمور هي: ـ

أ ـ أن مخاوف هشام بن عبد الملك بأن خالداً سيثور ويخلعه إذا علم بعزله من ولاية العراق. . كانت مخاوف خاطئة، فقد علم خالد بالأمر وبأن يوسف الثقفي سيأتي والياً للعراق قبل أن يصل مكتوب هشام بذلك إلى يوسف بصنعاء. بل إن العلم بذلك شمل أيضاً عمال خالد بالعراق وما يليها من بلاد فارس وهم طارق بن أبي زياد وسعيد بن راشد وأبان بن الوليد والزينبيّ، وكذلك بلال بن أبي بردة عامل البصرة والعُريان بن الهيثم، وحتى داود البربري حاجب خالد وقائد حرسه.

ب ـ أن خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري رفض اقتراح طارق بأن يسير إلى هشام

ويعتذر إليه عن أي شيء قد يكون بلغه، ورفض ما أشار به طارق ـ والعمال الذين تشاور طارق معهم ـ وهو شراء استمرار ولاية خالد بمائة ألف ألف درهم، يقول طارق لهشام: إنها ما انكسر من خراج تلك السنين بينما هي في الواقع بمثابة رشوة، فيضمن طارق ذلك المبلغ لهشام، ويتحمل طارق وسعيد بن راشد أربعين ألف ألف ـ أي أربعين مليون درهم ـ ويتحمل الزينبي وأبان بن الوليد عشرين مليون درهم، ويقوم خالد بتفريق بقية المبلغ على عمال البصرة وفارس والسند وخراسان، فرفض خالد ذلك الرأي وقال: والله ما أتحمل عشرة آلاف درهم، إنِّي إذاً للئيم إن أعطيتهم شيئاً لأرجع والياً، أو للبقاء والياً للعراق.

جـ ـ لم يكن خالد حريصاً على البقاء والياً للعراق ومشارقها، فقد دام عهده وحكمه خمس عشرة سنة، وهي فترة طويلة وكافية، فأخذ ينتظر قدوم يوسف الثقفي لكي يسلم إليه مقاليد الأمور، وكان بلال بن أبي بردة الأشعري أمير البصرة قد علم أيضاً بأن هشام بن عبد الملك قد بعث إلى يوسف بأن يسير والياً للعراق مكان خالد، ويدل على ذلك ما ذكره الطبري من أنه: «كان بلال يقول لأصحابه في البصرة، كأنَّكم بخالد وقد بُعث إليه رجلُ بغيضُ النفس، سخيف الدين، قليل الحياء، يأخذه بالإحن والترات. فكان كما قال».

٨ ـ في أثناء ذلك وصل جندب مولى يوسف بن عمر بمكتوب الخليفة هشام إلى يوسف بصنعاء. قال الطبري: «قَدِم رسول يوسف عليه اليمن، فقال له: ما وراءك؟ قال: الشرُّ، أمير المؤمنين ساخط وقد ضربني ولم يكتب جواب كتابك وهذا كتاب سالم صاحب الديوان. ففضَّ يوسف الكتاب فقرأه فلما انتهى إلى آخره قرأ كتاب هشام بخطه: إن سرْ إلى العراق فقد وليتك إياه، وإياك أن يعلم بذلك أحد». ـ وتضيف الرواية: (وخذ عمال خالد فاشفني منهم) والمقصود أن يحبسهم، وفي رواية ابن الأثير «قرأ يوسف كتاب هشام بخطه بولاية العراق ويأمره أن يأخذه خالداً وعماله فيعذبهم» ـ ولم يكن ذلك في الرسالة وإنما كان هشام يخشى أن يثور خالد وعماله ويخلعونه قبل وصول يوسف فقال له: (إياك أن يعلم بمسيرك أحد).

قال الطبري: «فقال يوسف: انظروا لي دليلاً عالماً بالطريق، فأُتي بعدة فاختار منهم رجلاً، واستخلف على اليمن ابنه الصلْت، فسأله ابنه: إلى أين تريد؟ فضربه مائة سوط وقال له: يا ابن اللخناء أيخفى عليك إذا استقر بي منزل» (اهـ).

ولم يذكر ابن الأثير أنه ضرب ابنه مائة سوط، ونرى عدم صحة ذلك لعدم وجود ما يستوجب جلده مائة السوط، فغاية ما يمكن أن يصح هو أنه قال له: (يا ابن

اللخناء أيخفى عليك إذا استقر بي منزل)، ولا بد أنه أظهر بأنه سوف يسير إلى مكان ما ـ هو الطائف غالباً لأن قبيلة ثقيف من الطائف ـ وكان يوسف وأصحابه يعرفون الطريق إلى العراق، وإنما أخذ يوسف دليلاً عالماً بالطريق غير الرئيسية والمسالك الصحراوية حتى لا يتنبه أحد إلى أنه سائرٌ إلى العراق إذا سلك الطريق الرئيسية فيخبر خالداً قبل وصوله إلى العراق، بينما كان خالد وعماله قد علموا بالأمر كما سلف التبيين، فسار يوسف من صنعاء إلى أعالي اليمن ثم سلك طريقاً غير رئيسية ومفاوز صحراوية إلى نجد واليمامة، ولذلك انتهى شهر جمادى الأولى ودخل جمادى الآخرة قبل قدومه إلى العراق، وكان حسان النبطي عند هشام في دمشق فقال له: يا حسان في كم يقدِم القادمُ من العراق إلى اليمن؟ فقال: لا أدري.. ولم يقل له: في كم يقدِم القادم من اليمن إلى العراق. حتى لا يتنبه حسان إلى الأمر فيتسرب الخبر، فاستمر هشام في كتم الخبر حتى على حسان الذي كان من ألد أعداء خالد ـ.

وفي أواسط جمادى الآخرة سنة ١٢٠هـ وصل يوسف بن عمر الثقفي إلى العراق، وذلك لأول مرة منذ نفاه عمر بن عبد العزيز عنها قبل عشرين سنة، وكان من أخبار وصوله إلى العراق والياً عليها ما يلي: ـ

أ ـ قال ابن الأثير: «سار يوسف إلى الكوفة فعرس قريباً منها، وقد ختن طارق خليفة خالد بالكوفة ولده، فأهدى إليه خالد ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب، فمرّ بيوسف بعض أهل العراق فسألوه: مَنْ أنتم، وأين تريدون؟ قالوا: بعض المواضع. فأتوا طارقاً فأخبروه بخبرهم وأشاروا بقتلهم وقالوا: إنهم خوارج. وسار يوسف والذين معه إلى دور ثقيف، فقيل لهم: ما أنتم، فكتموا حالهم، وأمر يوسف فجُمع إليه من هناك من مُضَرَ فلما اجتمعوا دخل المسجد مع الفجر وأمر المؤذن وأقام الصلاة فصلى، وأرسل إلى طارق، وخالد..». ثم ذكر ابن الأثير الرواية التي ذكرها الطبري فقال: «قَدِم يوسف الكوفة في جمادى الآخرة فنزل النجف وأرسل مولاه كيسان وقال: انطلق فأتني بخالد) ـ والصواب كما ذكر الطبري (انطلق فأتني بطارق، فأتى كيسان الحيرة فأخذ معه عبد المسيح سيد أهلها إلى طارق فقال له: إن يوسف قد قدِم والياً على العراق وهو يستدعيك، فقال طارق: أنا آتيه.. وأقبلوا به إلى يوسف بن عمر فتوافوا بالحيرة» ـ ثم تضيف الرواية «فضربه يوسف ضرباً مبرحاً يقال خمسمائة سوط» ـ وصاحب هذه الرواية هو الذي زعم بأنه جلد ابنه الصلت مائة سوط، ونرى عدم صحة هذا الضرب وذاك، فقد أتى طارق بن أبي زياد إلى يوسف بن عمر، ثم سار معه وأدخله الكوفة وسلم إليه مقاليد الأمر بالكوفة راضياً طائعاً، فصلى يوسف بالناس في الكوفة وأخبرهم بأن أمير المؤمنين ولاهُ على العراق، فلم يعارضه أحد.

ب ـ قال ابن الأثير: «ودخل يوسف الكوفة، وأرسل عطاءَ بن مقدَّم إلى خالد بالحمَّة، فأتى الرسولُ حاجبه وقال: استأذن لي عليّ أبي الهيثم ـ خالد ـ فدخل الحاجب على خالد متغير اللون، فقال خالد: مالك؟ قال: خير، قال: ما عندك خير، فقال: عطاء قال: استأذن لي علي أبي الهيثم، فقال: ائذن له، فدخل عليه فقال: ويل أمها سخطة، ثم أخذه فحبسه وصالحه عنه أبان بن الوليد وأصحابه على تسعة آلاف آلاف». (اهـ) وقد نقل ابن خلدون أيضاً ذلك فقال: «دخل يوسف الكوفة وبعث عثمان بن عطاءَ بن مقدَّم إلى الحمّة فقدم عليه وحبسه وصالحه عنه أبان بن الوليد وأصحابه على سبعة آلاف ألاف» (اهـ). وما جاء في تلك الرواية بأنه أخذ خالداً فحبسه غير صحيح، فقد ذكر الطبري عن عطاءَ بن مقدَّم قال: أرسلني يوسف إلى خالد «فأتيتُ الحاجب، فقلت: استأذن لي علي أبي الهيثم، فدخل الحاجب وهو متغير الوجه فقال له خالد: مالك؟ قال: خير، قال: ما عندك خير، قال: عطاءُ بن مقدَّم قال: استأذن لي علي أبي الهيثم، فقال: ائذن له ـ قال عطاء ـ فدخلتُ فلم أستقر حتى دخل الحَكَم بن الصلْت الثقفي فقعد معه، فقال له خالد: ما كان لَيلي عليَّ أحدٌ هو أحبُّ إلي منكم». (اهـ) ويتبين من ذلك عدم صحة الزعم السابق، فقد سلم خالد مقاليد الأمر في واسط إلى الحَكَم بن الصلْت لأن يوسفاً ولاه على واسط، وقال له خالد: ما كان أحدٌ ليتولي أحبُّ إلي منكم. وقام خالد بتسليم مقاليد الأمور في العاصمة واسط إلى الحَكَم بن الصلْت نائب يوسف الثقفي، ولذلك قام بلال بن أبي بردة الأشعري بتسليم مقاليد الأمور في البصرة إلى عامل يوسف الثقفي، وانتقل بلال من البصرة إلى داره بالكوفة، وكتب يوسف إلى هشام بن عبد الملك بقدومه إلى العراق واستلامه مقاليد الولاية، وعندئذٍ تمثل هشام بقول الشاعر: ـ

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني ... فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً

وأخبر هشام حسان النبطي بانتهاء ولاية خالد وتولية يوسف الثقفي، ولم يكن خالد نادماً على انتهاء ولايته فقد مكث والياً زهاء ثلاثين سنة، منها ثماني سنوات والياً لمكة المكرمة والحجاز في خلافة الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك وذلك من سنة ٨٩هـ (الموافق ٨٠٩م) وحتى سنة ٩٧هـ (٧١٦م) ثم كان من أمراء ورؤساء الشام زهاء سبع سنوات (٩٨ ـ ١٠٥هـ) ثم تولى العراق ومشارقها في خلافة هشام منذ شوال ١٠٥هـ (مارس ٧٢٤م) قال ابن خلدون: (وكانت ولاية خالد للعراق خمس عشرة سنة) وذلك حتى منتصف سنة ١٢٠هـ (٧٣٨م) فتكون مجموع مدة ولايته منذ تولى مكة المكرمة إلى انتهاء ولايته للعراق ومشارقها زهاء ثلاثين سنة (٨٩ ـ ١٢٠هـ/ ٧٠٩ ـ ٧٣٨م) وهي من أطول الفترات في تاريخ الولاة والأمراء في تلك العصور.

* * *

خامس عشر: أنباء خالد بعد انتهاء ولايته . . في بقيّة خلافة هشام

لم يطو النسيان خالداً بعد انتهاء ولايته كغيره من الولاة والأمراء وإنما استمر خالد من كبار الشخصيات وزعيماً لليمانيين وهدفاً للمتعصبين والمتآمرين، وكان من أنباء خالد بعد انتهاء ولايته ما يلي: ـ

١ ـ أقام خالد بالعراق لأنّ له ولابنه يزيد بن خالد أموالاً وضيَاعاً بالعراق، وقد انتقل خالد من مدينة واسط إلى منطقة الحمّة. ثم ـ كما ذكر الطبري ـ «نزل خالد في قصر أخيه إسماعيل بن عبدالله بدُوران خلف جسر الكوفة». فكان ذلك مقر إقامة خالد منذ انتهاء ولايته في منتصف جمادى الآخرة ١٢٠هـ وحتى انتقاله إلى الرصافة في شوّال ١٢١هـ.

أ ـ قام يوسف بن عمر الثقفي بعزل عمال خالد بالعراق ومشارقها، وبموجب تعليمات هشام بن عبد الملك قام يوسف بعزل جعفر بن حنظلة البهراني عامل خالد على بلاد خراسان، وكتب إلى جُديع بن علي الكرماني الأزدي بولايته على خرسان ـ في رجب ١٢٠هـ ـ وكان جُديع من نواب أسد الْقَسْري ورئيس الأزد اليمانيين في خراسان، فأتاه كتاب التولية وهو بمدينة مرو. قال الطبري: «فخطب جُديع الكرماني الناس، فحمد اللّه وأثنى عليه، وذكر أسداً وما كانوا فيه من الجهد والفتنة قَبْله وما صنع اللّه لهم على يديه. ثم ذكر خالداً بالجميل وأثنى عليه، وذكر قدوم يوسف العراق وحثّ الناس على الطاعة ولزوم الجماعة ثم قال: غفر اللّه للميت ـ يعني أسداً ـ وعافى المعزول ـ يعني خالداً ـ وبارك للقادم. ثم نزل من المنبر» (اهـ) ـ وقد كانت تولية جُديع الكرماني فترة انتقالية تمهيدية، فقد عزم هشام ويوسف على تولية نصر بن سيار القيسي على خراسان، ولذلك جاء في رواية ذكرها الطبري أنه تم تولية نصر في رجب ١٢٠هـ وفي رواية ثانية للطبري أن تولية نصر كانت سنة ١٢١هـ وهو الأصوب والأرجح، فكانت ولاية جُديع فترة تمهيدية وتحسباً لأي ردود فعل، فلما استتب الأمر تم عزل جُديع الكرماني وسائر عمال أقاليم خراسان في عهد أسد وخالد وتولية نصر بن سيار القيسي سنة ١٢١هـ فقام نصر بتولية عمال الأقاليم من القيسية حتى قال أحد اليمانية (ما رأيت عصبية مثل هذه)، والظاهر أن سياسة هذه الفترة كانت إقصاء اليمانية وأن يكون ولاة العراق ومشارقها من القيسية وولاة مصر وبلاد المغرب من اليمانيين، فقد ولى هشام بن عبد الملك الأمير اليماني حنظلة بن صفوان الكلبي على مصر ـ منذ سنة ١١٩هـ ـ ثم أصبح حنظلة والياً لإفريقية الشمالية وبلاد المغرب والأندلس.

ب ـ قال ابن خلدون: «لما ولّي يوسف بن عمر نزلت الذلة بالعراق في العرب

وصار الحكم فيه لأهل الذمة» (ص٤٦١) وتدل القرائن على أن الموالي وأهل الذمة صاروا عمال الخراج وبيوت الأموال في أقاليم العراق بتأثير حسان النبطي، أما أمراء الأقاليم فكانوا من العرب القيسيين غالباً. ويبدو أن عمال الخراج وبيوت الأموال رفعوا إلى يوسف الثقفي بأن على عمال خالد أموالاً متبقية من الخراج لبيت المال، فتم اتخاذ ذلك مبرراًلحبسهم ومطالبتهم بأموال ـ في أوائل سنة ١٢١هـ ـ وزعم بعض الرواة أنه تم حبس خالد وعماله، وجاء ذلك الزعم في روايتين متناقضتين ذكرهما الطبري ونقلهما عنه ابن الأثير وابن خلدون. وقد أوجز ابن خلدون الرواية الأولى قائلاً: «حبس يوسف خالداً وصالحه عنه أبان بن الوليد وأصحابه على سبعة آلاف ألف». ثم أشار إلى الرواية الثانية قائلاً: «حبس يوسف خالداً وأصحابه عمال العراق وخراسان فأقام خالد بحبسه في الحيرة مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد والمنذر ابن أخيه أسد.. ثم أمر هشام بإطلاقه سنة ١٢١هـ» (اهـ) وجاء في بداية رواية الطبري عن ذلك أنه: «قَدِم يوسف ـ من الكوفة ـ على خالد بواسط فأخذه وحبسه» ثم قال: «وصالحه أبان بن الوليد وأصحابه على تسعة آلاف ألف..» ويتبين من ذلك أن الذين أخذهم يوسف إنما هُمْ عمال خالد ـ وفيهم أبان بن الوليد البجلي وطارق بن أبي زياد وسعيد بن راشد وبلال بن أبي بردة ـ فادّعى يوسف أن عليهم أموالاً من الخراج لبيت المال، فصالحه أبان بن الوليد وأصحابه على تسعة آلاف ألف درهم يضمنون له دفعها، فخلّى سبيلهم، ولم يكن خالد بينهم بدليل أنّهم لما صالحوا يوسف ساروا إلى خالد ـ في قصر دُوران ـ فأخبروه بذلك، قال الطبري: «أخبر أصحاب خالد خالداً فقال لهم: قد أسأتم حين أعطيتموه عند أول وهلة تسعة آلاف ألف، ما آمن أن يأخذها ثم يعود عليكم فارجعوا. فرجعوا فقالوا ليوسف: إنّا قد أخبرنا خالداً فلم يرض بما ضَمِنَّا وأن المال لا يمكننا. فقال: أنتم أعلم وصاحبكم فأما أنا فلا أرجع عليكم فإن رجعتم لم أمنعكم، قالوا: فإنّا قد رجعنا، قال: قد فعلتم؟ قالوا: نعم، قال: فمنكم أتى النقض فواللّه لا أرضى بتسعة آلاف ألف ولا مثلها ولا مِثْليها. فأخذ منهم أكثر من ذلك» (ص٢٥٥، جـ٨) ويتبين من ذلك أن الذين حبسهم يوسف إنما هُم بعض عمال خالد، مما يدل على عدم صحة الزعم بأنه حبس خالداً بالحيرة إلى أن كتب هشام بتخليته في شوّال ١٢١هـ. فالصحيح أنه حبس عمال خالد إلى أن أخذ منهم أكثر من المبلغ الذي كانوا صالحوه عليه، وكان ذلك في أوائل سنة ١٢١هـ. وأما خبر حبس خالد بالحيرة ـ أو يزيد بن خالد ـ في شوّال ١٢١هـ، فكان قضية ثانية فيما يلي النبأ اليقين عنها.

٢ ـ اتهام خالد بإعطاء الإمام زيد بن عليّ وبني هاشم أموالاً عظيمة

كان يوسف بن عمر الثقفي منذ أن تولى العراق يبحث في السجلات وغيرها

عن أي ذرائع لاتهام خالد فلم يجد ـ هو وحسان النبطيّ والموالي ـ أي شيء على خالد، ثم اتخذ يوسف من تكريم خالد لزيد بن عليّ وبعض بني هاشم ذريعة لاتهام خالد وتأليب هشام بن عبد الملك بعد أن فشلت محاولاته السابقة التي أشار إليها الطبري قائلاً: «استأذن يوسف هشاماً في إطلاق يده على خالد وتعذيبه ـ أو حبسه ـ فلم يأذن له حتى أكثر عليه واعتلّ عليه بانكسار الخراج وذهاب الأموال، فأذن له مرة واحدة» (اهـ) وتلك المرة هي التي اتهم فيها خالد بأنّهُ أعطى واستودع زيد بن عليّ وأربعة أشخاص معه أموالاً عظيمة، وكان من أنباء تلك القضية ما يلي: ـ

قال الطبري: «ذكر الهيثم بن عدِّي عن عبد اللّٰه بن عياش قال: قَدِم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وداود بن علي بن عبد اللّٰه بن عباس بن عبد المطلب، على خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري وهو أمير على العراق، فأجازهم، ورجعوا إلى المدينة، فلما ولِّي يوسف بن عمر الثقفي كتب إلى هشام بأسمائهم وبما أجازهم به. وكتب يذكر أن خالداً ابتاع من زيد بن علي أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم ردّ الأرض عليه. .» (اهـ). وقال ابن خلدون: «إن يوسف بن عمر الثقفي لما كتب في خالد الْقَسْري، كتب إلى هشام أنه شيعة لأهل البيت، وأنه ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار وردّ عليه الأرض، وأنه أودع زيداً وأصحابه الوافدين عليه مالاً» (ص٤٦٢) ولم يذكر الطبري أنه (كتب يوسف إلى هشام أن خالداً شيعة لأهل البيت)، والظاهر أن ابن خلدون أخذ ذلك من رسالة كتبها يوسف إلى هشام بعد خروج زيد بن علي ـ في صفر ١٢٢هـ ـ حيث ذكر الطبري أنه كتب إلى هشام «إنّ أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت همَّةُ أحدهم قوت عياله فلما وُلّي خالد العراق أعطاهم الأموال فقووا بها حتى تاقت أنفسهم إلى الخلافة». (اهـ) وقد يكون يوسف الثقفي كتب مثل ذلك أيضاً في رسالته إلى هشام ـ في شوّال ١٢١هـ ـ والتي تضمنت ثلاثة أمور، أولها: أسماء الذين قدموا على خالد بالعراق وأجازهم ورجعوا إلى المدينة وهُم زيد بن علي، ومحمد بن عمر بن علي، وداود بن علي بن عبد اللّٰه بن العباس، وكذلك إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمٰن بن عوف، وأيوب بن سلمة بن عبد اللّٰه بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وثانيها: إن خالداً ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم رد الأرض عليه، وثالثها: إنه أودع زيداً وأصحابه الوافدين عليه مالاً عظيماً.

وعندئذٍ وقع ما ذكره الطبري في سياق الخبر السابق بأنه «استأذن يوسف هشاماً في إطلاق يده على خالد فلم يأذن له، حتى أكثر عليه. . فأذن له مرة واحدة، وبعث

حرسياً يشهد ذلك، فدعا يوسف بخالد وحضر الناس وبسط عليه ـ يعني أمر بتعذيبه ـ فلم يكلمه واحدة حتى شتمه يوسف فقال يا ابن الكاهن يعني شقّ بن صعب الكاهن، فقال له خالد: إنك لأحمق تعيّرني بشرفي ولكنك يا ابن السبّاءِ إنما كان أبوك سباءَ خمر يعني يبيع الخمر، ثم ردّه يوسف إلى الحبس». ـ قال الطبري: «وزعم أبو عبيدة أن يوسف بن عمر عَذَّب خالد بن عبد اللّه فادّعى، خالد أنه استودع زيد بن عليّ، وداود بن علي، ورجلين من قريش أحدهما مخزوميٌ والآخر جُمحَيٌ مالاً عظيماً». ثم ذكر الطبري عن هشام بن محمد الكلبي: إن الذي حبسه وعذبه يوسف إنما هو يزيد بن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري. فقال: «إن يزيد بن خالد ادّعى مالاً قِبِل زيد بن عليّ، ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وداود بن علي، وإبراهيم بن سعد بن عبد الرحمٰن بن عوف الزُّهري وأيوب بن سلمة بن عبد اللّه بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فكتب فيهم يوسف إلى هشام بن عبد الملك». (اهـ) ويتبين من ربط مجمل النصوص أن يوسف بن عمر لما كتب إلى هشام بالأمور الثلاثة سالفة الذكر ومنها الزعم بأن خالداً استودع زيد بن علي وأصحابه مالاً عظيماً، قام هشام بن عبد الملك بأمرين مُتزامنين: ـ

أحدهما: كتب هشام إلى إبراهيم المخزومي عامل المدينة المنورة بأخذ زيد بن علي، ومحمد بن عمر بن علي، وداود بن علي، وإبراهيم بن سعد بن عبد الرحمٰن بن عوف، وأيوب بن سلمة، والتحقيق معهم حول ما أعطاهم واستودعهم خالد، وأن يبعث بهم محبوسين إليه. فقام عامل المدينة بذلك.

وثانيهما: أذِن هشام ليوسف الثقفي بأخذ خالد الْقَسْري ويزيد بن خالد والتحقيق معهما حول ذلك، وبعث حرسياً يشهد على ذلك، وحذر يوسفاً من التعدي على خالد وأنه لو فعل ليقتلنه ـ أو كما في رواية الطبري ـ «حلف هشام لئن أتى على خالد أجله وهو في يده ليقتلنه» فاستدعى يوسف خالداً ويزيد بن خالد إلى الحيرة، فوقع بين خالد ويوسف الكلام سالف الذكر وهو قول يوسف: يا ابن الكاهن، فأجاب عليه خالد: إنك لأحمق تعيّرني بشرفي ولكنك يا ابن السبّاء إنما كان أبوك سبّاء خمر، يعني يبيع الخمر، وكان ذلك بعد أن نفى خالد الْقَسْري أن يكون استودع زيد بن علي مالاً، فأمر يوسف بتوقيف خالد وبقائه في الحيرة، وقيل إنه حبسه وعذبه، والصواب أن الذي تم حبسه هو يزيد بن خالد الذي تعرض أيضاً لشيء من التعذيب لإرغامه على الاعتراف بأنه أودع زيداً وأصحابه مالاً عظيماً، فاتقى يزيد العذاب بنوع من الإقرار بمزاعم يوسف الثقفي فأبقاه يوسف في الحبس وكتب إلى هشام بذلك.

بينما في المدينة المنورة قام عامل المدينة إبراهيم المخزومي بالتحقيق مع

زيد بن عليّ وداود بن علي وأصحابهم، فحلفوا ما أودعهم خالد شيئاً. فقال العامل لزيد وداود: إنكما عندي لصادقان ولكن كتاب أمير المؤمنين قد جاء بما تريان فلا بد من إنفاذه، فحملهم إلى الشام - أي بعثهم مع حراس إلى الشام كالمحبوسين - فسألهم هشام بن عبد الملك عن الأمور الثلاثة التي كتب بها يوسف بن عمر الثقفي إليه، قال الطبري: «فأقرّوا بالجائزة وأنكروا ما سوى ذلك.. قال داود بن عليّ بن عبد اللّه بن عباس: كنتُ قَدِمتُ على خالد بالعراق فأمر لي بمائة ألف درهم..» - وكذلك أقرّ زيد ومحمد بن عمر بأن خالداً أجاز كل واحد منهما بمائة ألف درهم. وأقرّ إبراهيم بن سعد وأيوب بن سلمة بما أجازهما به خالد. قال الطبري: «وسأل هشام زيداً عن الأرض فأنكرها». وكان الذي يهم هشام هو ادعاء يوسف الثقفي بأن خالداً - أو يزيد بن خالد - استودعهم مالاً عظيماً، فأنكروا أن يكون خالد أودعهم شيئاً. وقال ابن الكلبي: «ذكر لهم هشام ما كتب به يوسف بن عمر إليه مما ادَّعى قِبَلَهم يزيد بن خالد فأنكروا». وجاء في مزاعم الرواية المنسوبة إلى أبي عبيدة «إن هشاماً صدّق زيداً ومنْ كان يوسف قرفه بما قرفه به ووجههم إلى يوسف وقال: إنهم قد حلفوا لي وقبلتُ أيمانهم وابرأتهم من المال وإنما وجهتُ بهم إليك لِتَجمع بينهم وبين خالد فيكذبوه..». بينما الصحيح أن هشاماً لم يُنسب الادعاء إلى خالد وإنما إلى يزيد بن خالد كما في الرواية الأولى لابن جرير الطبري عن طريق هشام بن محمد الكلبي قال: «ذكر لهم هشام ما كتب به يوسف إليه مما ادَّعى قِبَلهم يزيد بن خالد فأنكروا. فقال لهم هشام: فإنّا باعثون بكم إليه فيجمع بينكم وبينه، فقال له زيد بن عليّ: أنشدك اللّه والرحم لا تبعث بي إلى يوسف بن عمر، قال: وما الذي تخاف من يوسف بن عمر؟ قال: أخاف أن يعتدي عليَّ، قال هشام: ليس ذلك له. ودعا هشام كاتبه، فكتب إلى يوسف بن عمر: أما بعد، فإذا قَدِم عليك فلان وفلان وفلان فأجمع بينهم وبين يزيد بن خالد الْقَسْري فإن هُم أقرّوا بما ادعى عليهم، فسرح بهم إليّ، وإن هُم أنكروا فسَلْه بينةً فإن هو لم يُقم البينة فاستحلفهم باللّه الذي لا إله إلا هو ما استودعهم يزيد بن خالد الْقَسْريُّ وديعة ولا له قِبَلهم شيءٌ ثم خلِّ سبيلهم».

وسَرَّح بهم هشام مع رجل من الحرس، وأبقى عنده أيوب بن سَلمة بن عبد اللّه بن الوليد بن المغيرة المخزومي لأن أمّ هشام بن عبد الملك ابنة هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي وهو في أخواله فلم يؤخذ بشيء من ذلك القرف. وسار الحرس بزيد بن عليّ ومحمد بن عمر بن عليّ، وداود بن عليّ بن عبد اللّه بن العباس، وإبراهيم بن سعد بن عبد الرحمٰن بن عوف - من مقر هشام بالرصافة - إلى يوسف بن عمر الثقفي في الحيرة بالعراق، وذلك في أواسط

شوّال ١٢١هـ. قال ابن الكلبي: «فلما قَدِموا على يوسف، فأُدخلوا عليه، فأجلس زيد بن عليّ قريباً منه وألطفه في المسألة، ثم سألهم عن المال فأنكروا جميعاً وقالوا: لم يستودعنا مالاً ولا له قِبلنا حق. فأخرج يوسف يزيد بن خالد القَسْري إليهم، فجمع بينه وبينهم، وقال له: هذا زيد بن عليّ وهذا محمد بن عمر بن علي وهذا داود بن علي وهذا إبراهيم بن سعد الذين ادعيت عليهم ما ادعيت، فقال يزيد بن خالد: مالي قِبلَهم قليل ولا كثير».

قال الطبري: (وأما أبو عبيدة فَذُكر عنه أنه قال: فلما قَدِموا على يوسف أنزلهم وأكرمهم، وبعث إلى خالد، فأُتي به، فقال له: قد حلف القوم وهذا كتاب أمير المؤمنين ببراءتهم فهل عندك بينة بما ادعيت فلم تكن له بينة)، قال الطبري: (وذكر عن عبيد بن جناد: إن زيد بن عليّ لما قَدِم على يوسف، قال له يوسف: زعم خالد أنه قد أودعك مالاً؟ ـ فزعم عبيد أن زيد بن علي قال: أنَّىٰ يودعني مالاً وهو يشتم آبائي على منبره، فأرسل يوسف إلى خالد فحضر فقال له: هذا زيد زعمت أنك قد أودعته مالاً وقد أنكر، فنظر خالد في وجههما ثم قال: أتريد أن تجمع مع إثمك فيَّ إثماً في هذا وكيف أودعه مالاً وأنا أشتمه وأشتم أباءَه على المنبر، فشتمه يوسف ثم رده» (اهـ). وهذه الرواية غير صحيحة فلم يكن الادعاء على زيد بن عليّ وحده وإنما كان على الأربعة فأنكروا، ولم يكن خالد يشتم زيداً وآباءه بل كان عظيم التكريم لزيد والتقدير لآبائه، فالصحيح ما ذكره الطبري عن هشام بن الكلبي وكذلك ما ذكره عن أبي عبيدة في الرواية الأولى أن زيداً والذين معه لما سألهم يوسف: هل أودعكم خالد ـ أو يزيد بن خالد ـ أموالاً، أنكروا ذلك، فأنزلهم يوسف منزلاً في الحيرة، ثم دعاهم إلى دار الإمارة، واستدعى يزيد بن خالد من محبسه وخالد بن عبد اللّه من محل إقامته، فلما أتى خالد قال له: هذا زيد وهذا فلان وفلان وفلان الذين أودعتهم مالاً وقد أنكروا، فقال خالد: أتريد أن تجمع مع إثمك فيَّ ـ أو في الكذب عليَّ ـ إثماً في هؤلاء. وجاء في رواية أبي عبيد أنه (شتمه يوسف) وقد سلف ذكر خبر الشتم وهو قول يوسف: يا ابن الكاهن، فرد عليه خالد: إنك لأحمق تعيرني بشرفي ولكنك ابن سبّاء إنما كان أبوك سبّاء خمر، فأمر يوسف برده إلى محبسه ـ أو محل إقامته الجبرية ـ وأما يزيد بن خالد فقد ذكر الطبري عن ابن الكلبي أن يوسف بن عمر قال له: «هذا زيد بن عليّ وهذا محمد بن عمر بن عليّ وهذا فلان وفلان الذين ادعيت عليهم ما ادعيت، فقال: مالي قِبلَهم قليل ولا كثير، فقال يوسف: أبي تهزأ أم بأمير المؤمنين فعذَّبه يومئذٍ عذاباً ظُنَّ أنه قد قتله، وأمر يوسف بالقوم فبسط عليهم ـ (العذاب) ـ ما عدا زيد بن عليّ فلم يقتدر عند القوم على شيء». وقال أبو عبيدة: «قال القوم لخالد: ما دعاك إلى ما ادعيت؟ فقال: غلظ

عليّ العذاب فادعيت ما ادَّعيتُ وأمَّلتُ أن يأتي اللّٰه بفرج» ـ ويتبين من ربط الوقائع أن الذي قال ذلك إنما هو يزيد بن خالد. فلما بسط يوسف العذاب على يزيد بن خالد وعلى القوم ما عدا زيد بن عليّ ـ أي على محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب وداود بن علي بن عبد اللّٰه بن العباس وإبراهيم بن سعد بن عبد الرحمٰن بن عوف، فلم يقتدر على شيء ـ قال ابن الكلبي ـ «ثم أخرجهم إلى المسجد بعد صلاة العصر فاستحلفهم، فحلفوا له جميعاً» ـ حلف زيد بن عليّ ومحمد بن عمر وداود بن علي وإبراهيم بن سعد باللّٰه الذي لا إله إلا هو ما استودعهم يزيد بن خالد الْقَسْري شيئاً، وحلف خالد ويزيد بن خالد باللّٰه الذي لا إله إلا هو ما استودعوهم مالاً ولا لنا قِبَلهم قليل ولا كثير ـ قال ابن الكلبي «فكتب يوسف إلى هشام يعلمه الحال، فكتب إليه هشام: خلِّ سبيلهم». وقال أبو عبيدة إنهم «حلفوا، فأطلقهم يوسف». ويرتبط بذلك ما ذكره الطبري من أنه: «لم يزل خالد محبوساً بالحيرة مع أخيه إسماعيل بن عبد اللّٰه وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد بن عبد اللّٰه.. ثم كتب إليه هشام يأمره بتخلية سبيله في شوّال سنة ١٢١هـ). ـ وجاء في سياق الرواية أن إخلاء سبيلهم من حبس الحيرة كان (تمام ثمانية عشر شهراً) وهو خطأ وتصحيف، والصواب (ثمانية عشر يوماً) منذ بداية قضية تلك التهمة ومكتوب هشام إلى عامل المدينة المنورة بأخذ زيد بن عليّ والأربعة الذين معه وأن يبعثهم إليه ومكتوب هشام إلى يوسف بأخذ خالد ويزيد بن خالد وأن لا يتعدى على خالد، فاستدعاهما يوسف إلى مدينة الحِيْرة ـ في حوالي ٧ شوّال ١٢١هـ ـ فأتيا ومعهما إسماعيل والمنذر، فتم حبس يزيد بن خالد وإبقاء خالد في الحيرة وعدم السماح له بمغادرتها فكان حبسه نوعاً من الإقامة الجبرية، فقال رجل من عبس: ـ

فإنْ تَسْجُنُوا القسريَّ لا تَسْجنوا اسمه ولا تسجنوا معرُوفَهُ في القبائل

وقام عامل المدينة بتوجيه زيد بن عليّ والأربعة الذين معه مصحوبين بالحرس إلى هشام في الرصافة، فوجههم هشام مع حارس إلى يوسف الثقفي في الحيرة، فقَدِموا إليه في حوالي ٢٠ شوّال، فوقع ما سلف ذكره وتم إخلاء سبيل الجميع في اليوم الثامن عشر لبداية تلك القضية وذلك في نفس شهر شوّال سنة ١٢١ هجرية.

* * *

٣ ـ انتقال خالد إلى الرُّصافة.. واتهامه بالعلاقة بثورة الإمام زيد بن عليّ

بعد انتهاء قضية التهمة المُلفقة سالفة الذكر في شوّال سنة ١٢١هـ ـ وكما جاء في تاريخ الأمم والملوك للطبري ـ «مضى خالد من الحيرة ـ فنزل خالد في قصر أخيه إسماعيل بن عبد اللّٰه بدُوران خلف جسر الكوفة، وخرج يزيد بن خالد وحده فأخذ

على بلاد طيءٍ. . وخرج خالد ومعه إسماعيل والمنذر قد جهزهم عبد الرحمٰن بن عنبسة بن سعيد بن العاص وبعث بالأثقال إلى قصر بني مقاتل، فقدِم خالد قصر بني مقاتل وسار إلى هيت ثم تحمّلوا إلى القرّية وهي بإزاءِ الرُّصافة فأقام خالد بها بقيّة شوّال وذي القعدة وذي الحجة ومحرم وصفر». (ص١٨، جـ٩).

بينما في ذات الفترة ـ بعد قضية التهمة الملفقة سالفة الذكر في شوّال ١٢١هـ ـ «أقام زيد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب وداود بن علي بن عبد اللّه بن العباس بالكوفة أربعة أشهر. . ويوسف يأمر زيداً بالخروج من الكوفة ويكتب إلى عامله على الكوفة الحَكَم بن الصلّت يأمره بإزعاج زيد، وزيد يذكر أنه ينازع بعض آل طلحة بن عبيد اللّه في مال بينه وبينهم بالمدينة. فيكتب عامل الكوفة بذلك إلى يوسف بالحيرة، فيقرّه أياماً. .».

وخلال تلك الشهور الأربعة (شوّال ١٢١هـ ـ صفر ١٢٢هـ) بايع الكثيرون من أهل الكوفة ونواحيها الإمام زيد بن عليّ ـ سراً ـ وعاهدوا على الخروج معه، وأخذت الاتصالات السرية تمتد إلى بلاد طيءٍ في نجد واليمامة ـ غرباً ـ وإلى خراسان ـ شرقاً ـ وتقول الروايات إن الذين بايعوا زيداً بلغوا زهاء أربعين ألفاً، وبينما الاتصالات السرية التمهيدية للثورة ما تزال جارية، ولم يكن من المقرر أن تقوم آنذاك وإنما بعد فترة ـ ربما تمتد إلى نهاية خلافة هشام بن عبد الملك ـ أخذ يوسف الثقفي في التضييق على زيد وأخذ بعض أزلام يوسف ينقلون إليه أن الناس يؤمُّون زيداً وأن الشيعة تختلف إليه فكتب يوسف إلى عامله بالكوفة: إن أخرج زيداً من الكوفة ولا تؤخره وإن ادّعى أنه ينازع فليجر جرياً وليوكل من يقوم مقامه. قال ابن الأثير: «فلما رأى أصحاب زيد بن عليّ الذين بايعوه أن يوسف بن عمر قد بلغه أمر زيد بن عليّ وأنه يدسُّ إليه ويستبحث في أمره، اجتمعت إليه جماعة من رؤوسهم ـ من الشيعة ـ وقالوا: رحمك اللّه ما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال زيد: رحمهما اللّه وغفر لهما ما سمعتُ أحداً من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيراً» ـ وجادلوا زيداً ـ «ثم قال لهم: إنما ندعوكم إلى كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تُطفأ فإن أجبتمونا سعدتم وإن أبيتم فلستُ عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته. . فسماهم زيد الرافضة». وقال الأصفهاني: «لما خرج زيد بن عليّ كتب إلى الكميت بن زيد الأسدي: اخرجْ معنا يا أعميش ألَسْت القائل: ـ

ما أبالي إذا حفظتُ أبا القا سم فيكم ملامة اللوام

فكتب إليه الكميت: ـ

تجود لكم نفسي بما دون وثبة تظل لها الغربان حولي تحجل»

فكان الكميت واحداً من الذين خذلوا زيداً، ونقل الوشاة إلى يوسف الثقفي أخباراً، فأمر عامل الكوفة فاستنفر الجند والناس وسار يوسف بالجنود من الحيرة قاصداً الكوفة، ولما علم زيد بتلك التحركات تعجل وبادر بالقيام بالثورة فواعد أصحابه ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة ١٢٢هـ فكان جميع الذين وافوه مائتي رجلٍ وثمانية عشر رجلاً، فثار زيدٌ بهم، بينما أطبق عليه جيش الثقفي، فاقتتلوا قتالاً شديداً مساء يوم الأربعاء، وقاتل معاوية بن إسحاق الأنصاري وزياد النهدي القضاعي الحميري مع زيد قتالاً شديداً حتى قُتِلا، وثبت زيد ومن معه إلى الليل، فأُصيب زيد بسهم في جانب جبهته اليسرى فنقله أصحابه إلى دار من دور أرحب بالكوفة وأحضروا طبيباً فانتزع نصل السهم فضج زيد فلما نزع النصل مات زيد، فدفنه أصحابه سراً، فتفرق الناس، وأخذ جنود يوسف الثقفي يتتبعون الجرحى في دور الكوفة، ودل أحد الموالي يوسفاً على قبر زيد يوم الجمعة، فأمر يوسف عامله الحَكَم بن الصلّت الثقفي فنبش القبر واستخرجه من قبره، وتم إحضار جثمان زيد إلى يوسف الثقفي فقطع رأسه، وصلب بدن زيد في كناسة الكوفة، ثم بعث يوسف برأس زيد إلى هشام، وبقي البدن مصلوباً بالكناسة إلى أن مات هشام وتولى الوليد فأمر يوسفاً بإنزاله وإحراقه ففعل.

قال ابن خلدون: «وكان خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أتى القرّية بإزاء الرصافة فأقام بها حتى خرج زيد بن عليّ وقُتِل وانقضى أمره، فسعى يوسف بخالد عند هشام بأنه الذي داخل زيداً في الخروج. .» وقال ابن الأثير: «كان خالد أتى القرّية التي بإزاء الرصافة فأقام بها إلى صفر سنة ١٢٢هـ وخرج زيد فَقُتِل، فكتب يوسف إلى هشام: إن بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً فكانت همّة أحدهم قوت عياله فلما ولّى خالد العراق أعطاهم الأموال فتاقت أنفسهم إلى الخلافة، وما خرج زيد إلا عن رأي خالد. .» (ص٢٦٢/ ٤ ـ الكامل). وقال الطبري: «كتب يوسف بن عمر الثقفي إلى هشام بن عبد الملك: إنّ أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت همَّةُ أحدهم قوت عياله فلما ولّى خالد العراق أعطاهم الأموال فقووا بها حتى تاقت أنفسهم إلى الخلافة، وما خرج زيد إلا عن رأي خالد والدليل على ذلك نزول خالد بالقرية على مَدْرَجة العراق يستنشئ أخبارها. وأرسل يوسف الكتاب مع ابن حَزن القيني، فلما قرأ هشام الكتاب سكت برهة ثم قال للقيني: كذبتَ وكذبَ من أرسلك فمهما اتهمنا خالداً فلسنا نتهمه في طاعة.» (ص١٨، جـ٩) وقال ابن الأثير: «قال هشام: كذبَ يوسف وضرب رسوله وقال: لسنا نتهم خالداً في طاعة». وكذلك قال ابن خلدون: « . .سعى يوسف بخالد عند هشام بأنه الذي داخل زيداً في الخروج، فردّ هشام سعايته ووبخ رسوله وقال: لسنا نتهم خالداً في طاعة».

وقد أدرك هشام كذب يوسف الثقفي لأنه قال: (ما خرج زيد إلا عن رأي خالد والدليل على ذلك نزول خالد بالقرية على مَدْرَجة العراق يستنشئ أخبارها). ـ يعني أن خالداً لم يتوجه من العراق إلى الرصافة ـ حيث هشام بن عبد الملك ـ ولا إلى دمشق ـ حيث داره ـ وإنما أقام في القرية على مَدْرَجة العراق لمتابعة أخبار زيد إلى أن يخرج فينضم إليه ويدعو الناس إليه لولا أنْ زيداً عُوجل قبل إتمام الخطة، ـ بينما سبب إقامة خالد في القرية أنه ـ كما ذكر الطبري ـ «أقام بها إلى محرم وصفر لا يأذن لهم هشام بالقدوم عليه، والأبرش يكاتب خالداً» ـ وبالتالي تبيّن لهشام أن خالداً إنما أقام بالقرِّية حتى يأتيه إذن هشام بالقدوم إليه في الرصافة وأن خالداً كتب إلى الأبرش الكلبي وزير هشام ليستأذن هشاماً بالقدوم عليه فلم يأت الإذن وكان الأبرش يكاتب خالداً بانشغال أمير المؤمنين وأن ينتظر حتى يأتيه الإذن، فعندما أتى مكتوب يوسف الثقفي باتهام خالد بأنه: (ما خرج زيد إلّا عن رأي خالد.. إلخ). قام الأبرش بتذكير هشام بالحقيقة أو كان هشام يذكر سبب إقامة خالد بالقرية، بحيث ـ كما ذكر الطبري ـ «سكت هشام حتى فرغ من قراءة الكتاب ثم قال للحَكَم بن حَزْن القينيّ وكان على الوفد وقد أمره يوسف بتصديق ما كتب به ففعل، فقال له هشام: كذبتَ وكذب من أرسلك ومَهْما اتَّهمنا خالداً فلسنا نتَّهمه في طاعة، وأمر به فوجئت عنقه». أو كما قال ابن الأثير: «قال هشام: كذب يوسف وضرب رسوله وقال: لسنا نتَّهم خالداً في طاعه».

قال الطبري: «وبلغ الخبر خالداً فسار حتى نزل دمشق». ولم يذكر الطبري في هذا السياق ما هو الخبر الذي بلغ خالداً، ولكن ربط الوقائع يتيح إدراك أن الخبر هو ما ذكره الطبري في موضع سابق من أنه «خرج يزيد بن خالد وحده فأخذ على بلاد طيِّءٍ حتى ورد دمشق» ـ فذلك الخروج ليزيد بن خالد من الكوفة هو عند مقتل زيد بن عليّ حيث أخذ يوسف الثقفي يتتبع ذوي العلاقة بزيد فبادر يزيد بن خالد الْقَسْري بمغادرة الكوفة وحده ـ قبل أن يتهمه يوسف ـ وسلك طريق بلاد طيِّءٍ في نجد وشرق الجزيرة العربية، وليس الطريق الرئيسي من العراق إلى الشام، وكذلك فإن ما جاء في رواية الطبري من أنه: «خرج خالد ومعه إسماعيل والمنذر قد جهزهم عبد الرحمٰن بن عنبسة..». فإن أصل ذلك قد يكون «خرج محمد بن خالد وإسماعيل والمنذر قد جهزهم عبد الرحمٰن بن عنبسة بن سعيد بن العاص، وبعث بالأثقال إلى قصر بني مقاتل» بدليل مطاردة يوسف إياهم إذْ أنه: «بعث يوسف خيلاً فأخذت الزاد والأثقال والإبل وموالي لخالد كانوا فيها، ومضى آل الْقَسْري إلى قصر بني مقاتل ثم إلى هيت ومنها إلى القرِّية» ـ وبالتالي انضموا إلى خالد، بينما سلك يزيد بن خالد طريق شرق الجزيرة العربية وبلاد طيِّءٍ ـ جبلى أجا وسلمى ـ حتى

وصل إلى مدينة دمشق، فيكون ذلك في أواسط شهر صفر ١٢٢هـ ـ بعد مقتل الإمام زيد بن عليّ ـ وكان يوسف الثقفي قد نشر الخوف وأخذ يتتبع ويأخذ ويقتل بعض الناس، حتى أنه هرب يحيىٰ بن زيد بن عليّ وبحث عنه جنود يوسف الثقفي في الكوفة وغيرها فلم يجدوه، فخطب يوسف وقال: (يا أهل العراق إن يحيىٰ بن زيد يتنقل في حجال نسائكم، واللّٰه لو بدا لي لعرقتُ خصييه كما عرقت خصيّ أبيه، وتهددهم وذمّهم). . ولكن يحيىٰ بن زيد تمكن من الهروب مع جماعة إلى خراسان.

وقد ذكر ابن الأثير في سياق أخبار خالد أنه: «تتابعت كتب يوسف بن عمر إلى هشام يطلب منه يزيد بن خالد الْقَسْري، فأرسل هشام إلى كلثوم بن عياض عامل دمشق يأمره بإنفاذ يزيد بن خالد إلى يوسف، فطلبه، فهرب. .». ونرى أن ذلك هو الخبر الذي بلغ خالداً فسار حتى نزل دمشق، فبعد اتضاح كذب يوسف في اتهامه لخالد بأنه ما خرج زيد بن عليّ إلا عن رأي خالد، وبعد أن قال هشام لمبعوث يوسف (كذبتَ وكَذَبَ من أرسلك وقال: لسنا نتهم خالداً في طاعه)، أخذ يوسف الثقفي في التركيز على يزيد بن خالد الْقَسْري وأنه هرب ولحق بدمشق، وكان خالد ـ فيما يبدو ـ قد سار من القرّية إلى هشام بن عبد الملك في الرصافة، واستأذنه في أن يسير إلى دمشق، ما لم فإن الأبرش الكلبي كتب إلى خالد بإذن أمير المؤمنين هشام له بأن يسير إلى دمشق، وكان خالد استأذن في ذلك، فأتاه الإذن ـ مع خبر ابنه يزيد بن خالد ـ قال ابن الأثير: (فسار خالد حتى نزل دمشق).

* * *

٤ ـ أنباء خالد في دمشق والشام

لقد كان خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري من اليمانيين المقيمين بدمشق، وبها كان مولد خالد سنة ٦٦هـ ومولد أخويه أسد وإسماعيل، وكان لخالد دار كبيرة في دمشق ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال: «كانت دار خالد في مربعة القز ـ بدمشق ـ وتعرف اليوم بدار الشريف اليزيدي، وإلى خالد يُنْسَبُ حمام خالد الذي داخل باب توما» (ص٦٧، جـ٥).

ومن دمشق انطلق خالد عندما تولى العراق ـ في شوّال ١٠٥هـ ـ وكان معه أخواه إسماعيل وأسد، فمات الأمير أسد بخراسان سنة ١٢٠هـ، وأقام خالد بالعراق إلى شوّال ١٢١هـ ثم انتقل منها إلى القرّية التي بإزاء الرصافة فأقام بها إلى صفر سنة ١٢٢هـ ثم عاد إلى دمشق مع أخيه إسماعيل بن عبد اللّٰه وابن أخيه المنذر بن أسد بن عبد اللّٰه ومحمد وسعيد ابني خالد وبقية أسرة خالد ومواليه، وكان يزيد بن خالد قد سبقهم إلى دمشق. وقد ذكر الطبري من أنباء خالد بعد نزوله دمشق ثلاث وقائع،

واقعة مسير خالد في غزوة الصائفة ثم واقعة اتهام موالي خالد بحرائق وقعت في دمشق أثناء غياب خالد في غزوة الصائفة ببلاد الروم وما ترتب على ذلك الاتهام حتى عودة خالد ثم واقعة محاولة حبس يزيد بن خالد، وتدل القرائن على وقوع تقديم وتأخير، وأن محاولة حبس يزيد بن خالد كانت الأولى من بين تلك الوقائع الثلاث: ـ

*** ـ واقعة محاولة حبس يزيد بن خالد**

قال الطبري: «أقام خالد ويزيد وجماعة أهل بيته بدمشق، ويوسف بن عمر الثقفي ملحٌّ على هشام بن عبد الملك يسأله أن يوجه إليه يزيد بن خالد، وكتب هشام إلى كلثوم بن عياض القشيري عامل دمشق يأمره بأخذ يزيد والبعثة به إلى يوسف، فوجّه كلثوم خيلاً إلى يزيد وهو في منزله، فشدَّ عليهم يزيد، فأفرجوا له ثم مضى على فرسه، وجاءت الخيل إلى كلثوم فأخبروه، فأرسل كلثوم إلى خالد في الغد من يوم تنحي يزيد خيلاً، فدعا خالد بثيابه فلبسها، وتصارخ النساءُ، فقال رجلُ منهم: لو أمرت هؤلاء النسوة فسكتن، فقال خالد: ولِمَ أما والله لولا الطاعة لَعَلِمَ عبد بني قشير أنه لا ينال هذه مني، فاعلموه مقالتي فإن كان عربياً كما يزعم فليطلب جَدَّه مني. ثم مضى خالد معهم، فحُبس في حبس دمشق ـ بدار الإمارة حتى يُسلم إليهم يزيداً ـ وسار إسماعيل بن عبد الله من يومه حتى قَدِم الرصافة على هشام فدخل على أبي الزبير حاجبه فأخبره بالأمر، فدخل أبو الزبير إلى هشام فأعلمه، فكتب هشام إلى كلثوم يعنفه ويقول خَلّيتَ عمن أمرتك بحبسه وحبست من لم آمُرك بحبسه. ويأمره بتخلية سبيل خالد. فخلّاه». (اهـ) وكان ذلك في نفس اليوم، فعندما تم توقيف خالد صباح ذلك اليوم انطلق إسماعيل إلى الرصافة وأخبر حاجب هشام، فدخل الحاجب إلى هشام فأخبره، فأذن هشام لإسماعيل وسمع منه الخبر، فكتب هشام إلى كلثوم بما تقدم وعاد إسماعيل بمكتوب هشام إلى كلثوم عامل دمشق، فخلّى سبيل خالد قبل غروب شمس ذلك اليوم. ولم تذكر الرواية سبب محاولة حبس يزيد بن خالد ولماذا ألحّ يوسف الثقفي على هشام بذلك، ونظراً لارتباط ذلك بثورة زيد بن عليّ وخروج يزيد بن خالد من الكوفة غداة مقتله وسلوكه طريق نجد وبلاد طيء إلى دمشق، فإن السبب يتصل بثورة زيد وربما أيضاً بهروب يحيىٰ بن زيد والزعم بأن ليزيد بن خالد علاقة بذلك، فلما فشلت محاولة اعتقال يزيد بن خالد، وقام كلثوم بتوقيف خالد في اليوم التالي وخلا سبيله عند وصول كتاب هشام في ذات اليوم، سار يزيد بن خالد بعد ذلك إلى هشام بن عبد الملك، فاقتنع هشام بعدم صحة مزاعم يوسف الثقفي وبأنه متحامل على خالد ويزيد بن خالد، وعاد يزيد إلى دمشق، وكانت تلك الأحداث في حوالي شهر ربيع سنة ١٢٢هـ.

* ـ واقعة مسير خالد إلى الصائفة . . ومرابطة آل خالد بساحل دمشق

وفي صيف سنة ١٢٢هـ سار خالد بن عبد اللّه القَسْري مع جيش عربي من الشام إلى الصائفة. والصائفة هي الغزوة الصيفية إلى بلاد الروم ـ في تركيا وجهات القسطنطينية ـ وقد سار في تلك الغزوة عشرة آلاف من جند الشام والجزيرة الفراتية وكان من قادة ذلك الجيش القائد البطال وهو عبد اللّه أبو الحسين البطال الأنطاكي، قال عنه ابن الأثير: «كان البطال كثير الغزاة إلى الروم والإغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وخوف شديد». وقد سار في ذلك الجيش جماعة من الرؤساء بينهم خالد القَسْري ويزيد بن خالد وهشام بن خالد، بينما رابط إسماعيل القَسْري ومحمد بن خالد وسعيد بن خالد والمنذر بن أسد في ساحل دمشق ـ وهو ساحل حمص واللاذقية ـ للتصدي لأي غارة من الروم على الساحل، وفي ذلك قال الطبري: «أقام خالد بدمشق حتى حضرت الصائفة فخرج فيها ومعه يزيد وهشام ابنا خالد بن عبد اللّه. . وكان إسماعيل بن عبد اللّه والمنذر بن أسد بن عبد اللّه، وسعيد ومحمد ابنا خالد بن عبد اللّه بالساحل لحَدَثٍ كان من الروم.» (ص١٨، جـ٩).

وتقدم جند الإسلام وفيهم البطال وخالد القَسْري ويزيد بن خالد إلى بلاد الروم وتوغلوا داخلها في صيف تلك السنة يجاهدون الروم داخل بلادهم وفي عمق حصونهم ومدنهم، وتصدى لهم في إحدى المعاقل بطريك من بطارقة الرومان الأمراء في جيش كبير، فبارز البطال ذلك البطريق وقتله، والتحم الجيشان في قتال شديد فاستشهد البطال وجماعة من المسلمين، وفي ذلك قال ابن الأثير: «وفي هذه السنة ـ ١٢٢هـ ـ قُتِل البطال في جماعة من المسلمين ببلاد الروم» (ص٢٤٨/ ٤) ـ فلما استشهد البطال، تواصلت المعركة، وجاهد خالد جهاداً باسلاً وانتصر جند الإسلام على الروم، وأُصيب خالد في رِجله، فحمله الجنود على كرسي، وعادوا بالظفر والغنائم إلى الشام في نهاية صيف تلك السنة ـ في حوالي رجب أو شعبان ١٢٢هـ ـ فلما عاد إلى دمشق علم بما حدث أثناء غيابه من اتهام مواليه بحرائق وقعت في دمشق وما رافق ذلك من أُمور، فغضب من ذلك.

* ـ خبر اتهام موالي خالد بإشعال حرائق في دمشق، وما تلا ذلك من أُمور

قال ابن خلدون: «سار خالد بن عبد اللّه القَسْري إلى الصائفة، وقد أنزل أهله دمشق، وعليها يومئذٍ كلثوم بن عياض القشيري وكان يبغض خالداً. .». وقال الطبري: «خرج خالد في الصائفة ومعه يزيد وهشام ابنا خالد، وعلى دمشق يومئذٍ كلثوم بن عياض القشيري وكان متحاملاً على خالد، فلما أدربوا ـ (أي لما بلغ خالد وجنود الإسلام درب بلاد الروم ودخلوها) ـ ظهر في دور دمشق حريق كلَّ ليلة يلقيه

رجل من أهل العراق يُقال له أبو العمرَّس وأصحاب له، فإذا وقع الحريق أغاروا يسرقون. فكتب كلثوم إلى هشام يذكر الحريق ويخبره أنه لم يكن قطّ وأنه عمل موالي خالد يريدون الوثوب على بيت المال. فكتب إليه هشام يأمره أن يحبس آل خالد الصغير منهم والكبير ومواليهم، فأنفذ كلثوم وأحضر إسماعيل والمنذر ومحمد وسعيد من الساحل ومن كان معهم من مواليهم ـ والذين بدمشق ـ وحبس أمَّ جرير والرائقة ـ جارية خالد ـ وجميع الموالي والنساء والصبيان».

بينما في ذات الوقت قام الوليد بن عبد الرحمٰن عامل خراج دمشق ـ وكان صديقاً لخالد ـ بتحقيق أدى إلى القبض على أبي العمرَّس وعصابته. قال ابن خلدون: «ثم قُبض على صاحب الحريق وأصحابه، وكتب بهم الوليد بن عبد الرحمٰن عامل الخراج إلى هشام..» وقال الطبري: «ثم ظُهر على أبي العمرَّس فأُخذ ومن كان معه، فكتب الوليد بن عبد الرحمٰن عامل خراج دمشق إلى هشام يخبره بأخذ أبي العمرَّس ومن كان معه، سمّاهم رجلاً رجلاً ونسبهم إلى قبائلهم وأمصارهم ولم يذكر فيهم أحداً من موالي خالد. فكتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويعنفه ويأمره بتخلية سبيل جميع من حَبَس من آل خالد، فأرسلهم جميعاً، واحتبس هشام الموالي رجاء أن يكلمه فيهم خالد إذا قَدِم من الصائفة». (اهـ).

فانكشفت بذلك المؤامرة التي دبرها كلثوم بن عياض القشيري عامل دمشق الذي كان هو ويوسف الثقفي عامل العراق والوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي العهد، من المتعصبين والمتحاملين على خالد، وربما كان كلثوم بن عياض من رجال ولي العهد ومدفوعاً منه، ووقعت في تلك الفترة حركة تمرد من بعض البربر والخوارج في المغرب الأقصى، فبادر هشام باختيار كلثوم بن عياض القشيري قائداً على جيش قام بتوجيهه إلى البربر والخوارج بالمغرب الأقصى، فوقعت معركة أسفرت عن مقتل كلثوم، قال ابن الأثير: «وفي هذه السنة ـ ١٢٢هـ ـ قُتِل كلثوم بن عياض القشيري الذي بعثه هشام في أهل الشام إلى إفريقية حيث وقعت الفتنة بالبربر». (اهـ) ويهمنا من ذلك هنا أن كلثوم بن عياض تم عزله من عمل دمشق وتوجيهه إلى المغرب الأقصى لمحاربة جماعة متمردة من البربر الخوارج، قبل أن يعود خالد بن عبد الله الْقَسْري من غزوة الصائفة ـ في رجب أو شعبان سنة ١٢٢هـ ـ ثم هلك كلثوم على يد البربر في المغرب الأقصى قبل نهاية تلك السنة.

وكان خالد لمّا عاد من غزوة الصائفة هو والذين شهدوا تلك الغزوة من جند الشام والجزيرة الفراتية عرف خالد بما حدث أثناء غيابه من اتهام مواليه بالحرائق وحبس أقاربه ومواليه. قال الطبري: «فلما أقبل الناس من الصائفة وخرجوا عن

الدرب بلغ خالداً حَبْس أهله ولم يبلغه تخليتهم، فدخل يزيد بن خالد في غمار الناس حتى أتى حمص ـ ليتبين الأمر ـ وأقبل خالد حتى نزل منزله من دمشق، فلما أصبح أتاه الناس ـ يسلمون عليه ـ فبعث خالد إلى ابنتيه زينب وعاتكة فقال: إني قد كبرت وأحببت أن تليا خدمتي، فسرّتا بذلك. ودخل عليه إسماعيل أخوه ويزيد وسعيد ابناه، وأمر بالإذن للناس، فقامت ابنتاه لتتنحّيا، فقال ـ (لإسماعيل ولابنيه) ـ وما لهما يتنحّيان وهشام في كل يوم يسوقنا إلى الحبس، فدخل الناس، فقام إسماعيل وابناه دون ابنتيه يسترونهما. فقال خالد للناس: خرجت غازياً في سبيل اللّه سامعاً مُطيعاً فخُلِفت في عقبي وأُخذ أهل بيتي فحبسوا مع أهل الجرائم فما منع عصبة منكم أن تقوم فتقول علامَ حُبس أهل هذا السامع المطيع، أخفتم أن تقتلوا جميعاً أخافكم اللّه. ثم قال: ما لي ولهشام ليكفّنّ عني هشام أو لأدعونّ إلى عراقيّ الهوى شاميّ الدار حجازيّ الأصل، وقد أذنت لكم أن تبلغوا هشاما». فلما بلغه ما قال خالد، قال هشام: خَرِفَ أبو الهيثم. وذكر أبو زيد عن أحمد بن معاوية عن أبي الخطاب قال، قال خالد: أمَا واللّه لئن ساءَ صاحب الرُّصافة يعني هشاماً لننصبنّ لنا الشاميَّ الحجازيَّ العرَّاقي ولو نخرتُ نخرةً تداعت من أقطارها». وجاء في سياق رواية الطبري وابن الأثير بعد قول خالد (أو لأدعونّ إلى عراقيّ الهوى شاميّ الدار حجازيّ الأصل). أنه: (يعني محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس) وهذا التحديد اجتهاد من صاحب الرواية، وليس المهم من كان خالد يعني وإنما المهم أنه قال ذلك القول الذي بلغ ذروة التهديد والتحدي بقوله: (وقد أذنتُ لكم أن تُبلغوا هشاماً) فلما بلغ ذلك هشاماً اكتفى بقوله: (خَرِفَ أبو الهيثم) فاتخذ هشام بذلك موقفاً حكيماً، وقد زعمت رواية ثانية أن هشاماً قال: «أبَجيلة القليلة الذليلة تتهدّدني». وهذا الزعم ينفي عن هشام الحكمة والمعرفة معاً لأن خالد بن عبد اللّه لم يكن رئيس بَجِيلةَ فقط وإنما كان الزعيم الشعبي لكل اليمانيين وعظيم قبائل قحطان، والصواب ما ذكره الطبري وابن الأثير وابن خلدون أن هشاماً اكتفى بقوله: (خَرِفَ أبو الهيثم) ـ وكان خالد يُكنى أبا الهيثم ـ ولم يكن هشام بذلك عاجزاً عن الرد على تهديد خالد وإنما كان حكيماً، ثم سكت هشام وهدأ خالد.

* ـ آخر أنباء خالد في خلافة هشام

وبلغ خالد بن عبد اللّه أن الشاعر الكميت بن زيد الأسدي قال قصيدته النونية: (ألا حييت عنّا يا مدينا) وأضاف إليها أبياتاً كثيرة هجا فيه كل قبائل اليمن حتى بلغت قصيدته ثلثمائة بيت، وقد سلف تبيين أسباب ودوافع ذلك، فأهدى خالد جارية إلى هشام روّاها قصيدة الكميت اللامية التي رثى فيها زيد بن علي والحسين بن زيد بن

علي ومدح بني هاشم وهي قصيدة الهاشميات وقد قالها الكميت بعد مقتل زيد بن علي ببضعة شهور ـ سنة ١٢٢هـ ـ مما يدل على أن الكميت قال قصيدته النونية ـ الدامغة ـ أو توسع فيها بهجاء اليمانيين بعد ذلك، فاشترى وأهدى خالد إلى هشام الجارية التي حفظت قصيدة الهاشميات ـ اللامية ـ فلما سمع هشام القصيدة من الجارية كتب إلى أمير العراق بحبس الكميت ثم عفا عنه. وكان ذلك في أواخر سنة ١٢٣هـ، ثم مدح الكميتُ يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق بانتصاره على الإمام زيد بن علي وأصحابه وبقتله إياهم. قال الأصفهاني: «دخل الكميت على يوسف بن عمر وقد مدحه بعد قتله زيد بن عليّ فأنشده قوله فيه: ـ

خَرَجْتَ لهُم تمشي البراح ولم تكن كَمَنْ حصنه فيه الرتاج المُضبَّبُ

وما خالدٌ يستطعم الماء قائماً بعدلك، والداعي إلى الموت ينعبُ

.وكان الجند قيام على رأس يوسف وهم يمانية، فتعصبوا لخالد، فوضعوا ذباب سيوفهم في بطن الكميت فوجؤوه بها وقالوا: تُنشد الأمير ولم تستأمره، فلم يزل ينزف الدم حتى مات». (ص١١٩، جـ١٥ ـ الأغاني).

وفي سنة ١٢٤هـ كان عبد الرحمٰن بن ثويب القضاعي الحميري في مجلس خالد في داره بدمشق والمجلس عامر بالناس، فقال عبد الرحمٰن بن ثويب: يا خالد أني لأحبك لعشر خصال أن اللّه كريم يحبُّ كل كريم واللّه يحبّك وأنا أحبّك لحبّ اللّه إياك، وأن اللّه رحيم يحب كل رحيم وأنت رحيم، وأن اللّه جواد يحب كل جواد وأنت جواد، وأن اللّه حليم يحب كل حليم وأنت حليم حتى عدد عشر خصال. فنقل الحاقدون كلام ابن ثويب إلى هشام بن عبد الملك بعد أن حرفوا الكلام عن مواضعه، قال الطبري: «وكان هشام إذا أراد أمراً، أمر الأبرش الكلبي فكتب به إلى خالد، فكتب الأبرش أنه: بلغ أمير المؤمنين أن عبد الرحمٰن بن ثويب قام إليك فقال: يا خالد إني لأحبُّك لعشر خصال أن اللّه كريم وأنت كريم، واللّه جواد وأنت جواد، واللّه رحيم وأنت رحيم، واللّه حليم وأنت حليم، حتى عدّ عشراً، وأمير المؤمنين يقسم باللّه لئن تحقق عنده ذلك ليستحلّنّ دمك، فاكتب إليّ بالأمر على وجهه لأخبّر به أمير المؤمنين. فكتب إليه خالد: إن ذلك المجلس كان أكثر أهلاً من أن يجوز لأحد من أهل البغي والفجور أن يحرّف ما كان فيه إلى غيره، فقد قام إليّ عبد الرحمٰن بن ثُويب فقال: يا خالد أني لأحبك لعشر خصال إن اللّه كريم يحبُّ كل كريم واللّه يحبّك وأنا أحبّك لحبِّ اللّه إياك، حتى عَدّد عشر خصال، ولكن أعظم من ذلك قيام ابن شقي الحميري إلى أمير المؤمنين وقوله: يا أمير المؤمنين خليفتك في أهلك أكرم عليك أم رسولك، فقال: بل خليفتي في

أهلي، فقال ابن شقي: فأنت خليفة اللّه ومحمد رسوله، ولَعَمْري لضلالة رجل من بَجِيلة إن ضلَّ أهون على العامة والخاصة من ضلال أمير المؤمنين. فأقرأ الأبرش هشاماً كتاب خالد فقال هشام: خَرِفَ أبو الهيثم».

وفي ٦ ربيع الثاني سنة ١٢٥هـ مات هشام بن عبد الملك بالرُّصافة وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، وتوفي وهو ابن خمس وخمسين سنة، وكان هشام من الخلفاء الأمويين العظماء، وهو عاشر الخلفاء الأمويين للدولة العربية الإسلامية فلما مات هشام تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهو الوليد الفاسق فتعصب على اليمانية وقام بحبس خالد الْقَسْري فمات خالد في الحبس فغضب اليمانيون فقتلوا الوليد.

سادس عشر: نبأ حبس ومقتل خالد الْقَسْري

في ربيع الثاني ١٢٥هـ تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي كان من المتعصبين للقيسية ومن المتحاملين على خالد بن عبد اللّه الْقَسْري. قال ابن خلدون: «وكان الوليد متلاعباً وله مجون وشراب وندمان، وأراد هشام خلعه ـ من ولاية العهد ـ فلم يمكنه ذلك» وقال الطبري: «قد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخلاعته ومجانته وما ذُكر عنه من تهاونه واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته، ولما ولِّي الخلافة وأفضت إليه لم يزد من الذي كان فيه من اللهو واللّذة وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تمادياً. . وكان من أعظم ما جَنِيَ على نفسه حتى أورثه هلاكه إفساده على نفسه بني عميه ولد هشام وولد الوليد ابني عبد الملك بن مروان مع إفساده على نفسه اليمانية وهم عظم جند أهل الشام» (ص٣، جـ٩) وقال ابن خلدون: «فسدت اليمانية عليه بما كان منه لخالد الْقَسْري» (ص٤٦٦). وكان من أنباء خالد والوليد ما يلي: ـ

١ ـ قال الطبري: «لما مات هشام وقام الوليد قَدِم عليه أشراف الأجناد فيهم خالد، فلم يأذن لأحد منهم ـ بالدخول عليه واشتكى خالد فاستأذن، فأذن له، فرجع إلى دمشق، فأقام أشهراً» (ص٢٠، جـ٩).

وأظهر الوليد سوء السيرة والتعصب على اليمانية وكان من أبرز من اعتمد عليه في ذلك أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي وهو من أخوال الوليد، ونصر بن سيار القيسي عامل يوسف على خراسان، ولم يكن قد بقي بالمشرق من عمال عهد خالد إلا منصور بن جمهور الكلبي أمير السند فتم عزله عنها وعاد إلى دمشق، وكتب يوسف إلى نصر بن سيار عامل خراسان بحبس وقتل جُديع بن علي الكرماني الأزدي وهو كبير الأزد اليمانيين في خراسان. قال الطبري: «وكان الكرماني قد أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عبد اللّه الْقَسْري، فلما ولّى نصر خراسان عزله عن الرئاسة». ثم لما أتى أمر

يوسف الثقفي بقتل الكرماني خاف نصر وقوع فتنة فراجع يوسفاً وقال له: (الكرماني شيخ خراسان وفارسها). وكتب يوسف إلى نصر بن سيار يطلب يحيىٰ بن الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فأرسل نصر بن سيار الجنود في طلبه، فتم قتل يحيىٰ بن زيد وبعث نصر برأسه إلى يوسف الثقفي، وكان بدن الإمام زيد بن علي ما يزال مصلوباً في كناسة الكوفة. قال الطبري: «فلما قُتِل يحيىٰ بن زيد وبلغ خبره الوليد كتب الوليد إلى يوسف بن عمر: إذا أتاك كتابي هذا فانظر عجل العراق فأحرقه ثم أنسفه في اليمّ نسفاً، فأمر يوسف خراش بن حوشب فأنزل بدن زيد بن عليّ من جذعه وأحرقه بالنار ثم ذراه في الفرات». ولما بعث نصر بن سيار رأس يحيىٰ بن زيد إلى يوسف بعث يوسف بالرأس إلى الوليد بن يزيد، وذلك في أواسط سنة ١٢٥هـ.

ثم كتب الوليد بن يزيد إلى خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري: إن أقدِم على أمير المؤمنين مع رسوله فقد أمره أن لا يعجلك عن جهاز. قال الطبري: «فبعث خالد إلى عدّة من ثقاته منهم عُمارة بن أبي كلثوم الأزدي فأقرأهم كتاب الوليد وقال: أشيروا عليَّ، فقالوا: إن الوليد ليس بمأمون عليك فالرأي أن تدخل دمشق وتأخذ بيوت الأموال وتدعو إلى من أحببتَ فأكثرُ الناس قومك ولن يختلف عليك رجلٌ. قال خالد: أو ماذا؟ قالوا: تأخذ بيوت الأموال وتقيم حتى تتوثَّق لنفسك. قال خالد: أو ماذا؟ قالوا: أو تتوارى. فقال خالد: أما قولكم تدعوا إلى من أحببت فإنّي أكره أن تكون الفتنة على يدي، وأما قولكم تتوثق لنفسك فأنتم لا تأمنون عليّ الوليد ولا ذنب لي فكيف ترجون وفاءه لي إذا أخذتُ بيوت الأموال، وأما قولكم تتوارى فواللّٰه ما قنّعتُ رأسي خوفاً من أحد قط فالآن وقد بلغتُ من السن ما بلغت، لا، ولكن أمضي وأستعين باللّٰه. فخرج خالد حتى قدِم على الوليد فلم يدعُ به ولم يكلمه وهو في بيته معه مواليه وخدمه، حتى قُدِم برأس يحيىٰ بن زيد من خراسان، فَجُمع الناسُ في رواق وجلس الوليد، وجاء الحاجبُ فوقف فقال له خالد: إنّ حالي ما ترى لا أقدر على المشي وإنما أُحمل في كرسيّ ـ (وكان خالد يحمل في كرسي منذ أصيب في جهاد الروم بغزوة الصائفة) ـ فقال له الحاجب: لا يدخل على أمير المؤمنين أحدٌ يُحمل، ثم أذن لثلاثة نفر ثم قال: قُمْ يا خالد، فقال: حالي ما ذكرتُ لك، ثم أذن لرجل أو رجلين فقال: قم يا خالد، فقال: إن حالي ما ذكرتُ لك، حتى أذن لعشرة، ثم قال: قُم يا خالد وأمر أصحابه بحمله على كرسيه، وأذن للناس كلهم، فحمل خالد على كرسيه فدُخِل به والوليد جالس على سريره والموائد موضوعة والناس بين يديه سماطان وابن شبة بن عقال يخطب ورأس يحيىٰ بن زيد منصوب، فميل بخالد إلى أحد السماطين فلما فرغ الخطيب قام الوليد وصُرف الناس وحمل خالد على كرسيه إلى أهله، فلما نزع ثيابه جاءه رسول الوليد يدعوه إليه، فلما صار

إلى باب السرادق وقف فخرج إليه رسول الوليد ـ أو حاجب الوليد ـ فقال: يقول لك أمير المؤمنين أين يزيد بن خالد؟ فقال خالد: كان أصابه من هشام أمر ثم طلبه فهرب منه وكنا نراه عند أمير المؤمنين حتى استخلفه اللّه ـ أو: حتى استخلف اللّه الوليد ـ فلما لم يَظهَر ظنناه ببلاد قومه في السراة ـ باليمن ـ وما أوشكه ـ أن يأتي ـ. فرجع إليه الرسول أو الحاجب فقال: لا ولكنك خلفتَه طلباً للفتنة، فقال خالد: قد علم أمير المؤمنين أنّا أهل بيت طاعة أنا وأبي وجدي ـ قال خالد: وقد كنت علمت من سرعة رجعة الرسول الحاجب أن الوليد قريب حيث يسمع كلامي ـ فرجع الرسول الحاجب وقال: يقول لك أمير المؤمنين لتأتينّ به أو لأزهقن نفسك، فرفع خالد صوتَه وقال: قُل له هذا أردت وعليه دُرْت واللّه لو كان تحت قدميَّ ما رفعتُهما لك..» (اهـ) ثم تذكر بقية الرواية أن الوليد أمر بحبس وتعذيب خالد، والصواب أن ذلك كان فيما بعد، وإنما وقع التباسٌ لأنه سأله عن يزيد بن خالد ـ قبل أن يأمر بحبسه ـ في لقاء لاحق بينهما، ونرى أن الكلام عن يزيد بن خالد في هذا اللقاء انتهى بقول خالد: إنه ببلاد قومه في السراة باليمن وما أوشكه أن يعود، ثم فتح الوليد على خالد الموضوع الذي دعاه من أجله وهو البيعة لابنيّ الوليد كما سيأتي.

٢ ـ قال الطبري: «حدثني أحمد بن زهير عن عليّ عن المنهال بن عبد الملك قال: كان الوليد صاحب لهو وصيد ولذات.. واشتد على بني هشام بن عبد الملك، ضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغرّبه إلى عُمان فحبسه بها، وحبس الأفقم يزيد بن هشام. وأراد الوليد البيعة لابنيه الحَكَم وعثمان فشاور سعيد بن بيهس بن صهيب فقال له: لا تفعل فإنهما غلامان لم يحتلما فغضب وحبسه حتى مات في الحبس، وأراد الوليدُ خالداً بن عبد اللّه الْقَسْري على البيعة لابنيه، فأبىٰ، فقال له قوم من أهله: أرادك أمير المؤمنين على البيعة لابنيه فأبيت؟ فقال خالد: ويحكم كيف أبايع من لا أصلي خلفه ولا أقبل شهادته، قالوا: فالوليد تقبل شهادته مع مجونه وفسقه؟ قال: أمرُ الوليد أمرٌ غائب عني ولا أعلمه يقيناً إنما هي أخبار الناس. فغضب الوليد على خالد.

قال ابن زهير: فثقل على الناس ورماه بنو هشام بن عبد الملك وبنو الوليد بن عبد الملك بالكفر وغشيان أمهات أولاد أبيه وبالزندقة وكان أشدهم فيه قولاً يزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يُظهر النسك ويتواضع.

قال الطبري: (حدثني أحمد بن زهير قال حدثنا عليّ عن يزيد بن مَضاد الكلبي عن عمرو بن شراحيل قال.. أجمع على قتل الوليد جماعة من اليمانية من أهل دمشق خاصةً، فأتى حُريث وشبيب بن أبي مالك الغساني ومنصور بن جمهور الكلبي

ويعقوب بن عبد الرحمٰن وحِبّال بن عمرو ابن عم منصور وحميد بن نصر اللخميّ والأصبغ بن ذُؤالة الكلبي وطفيل بن حارثة والسَّريّ بن زياد بن عِلاقة ـ أتوا ـ خالدَ بن عبد اللَّه الْقَسْري فدعوه إلى أمرهم، فلم يُجبهم، فسألوه أن يكتم عليهم، فقال: لا أسمّي أحداً منكم. وأراد الوليد الحجَّ فخاف خالد أن يفتكوا به في الطريق فأتاه فقال: يا أمير المؤمنين أخِّرِ الحجّ العام، فقال: ولمَ؟ فلم يخبره، فأمر بحبسه). (ص٤، جـ٩).

٣ ـ كان حبس خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري في ذي القعدة سنة ١٢٥هـ وهو يومئذٍ ابن ستين سنة، وقد قام الوليد بحبسه لعدة أسباب وأمور، ففي اللقاء الأول الذي تزامن مع مقتل يحيىٰ بن زيد بن عليّ ـ في أواسط سنة ١٢٥هـ ـ دعا الوليد خالداً إلى البيعة لابنيه الحَكَم وعثمان، فامتنع خالد وأشار عليه بأن لا يفعل لأنهما غلامان لم يحتلما، فغضب الوليد على خالد. فانصرف خالد إلى منزله بدمشق، وأخذ الوليد يعمل في البيعة لولديه الغلامين، فأجابه إلى ذلك عدد من الشخصيات والأمراء وكانوا من القيسية خاصة أمثال يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق ومروان بن محمد بن مروان أمير الجزيرة الفراتية وأرمينية وغيرهما من القيسية، وربما كان ذلك مما جعل الوليد يتعصب للقيسية ويعمل على التنكيل بخالد لأنه كبير اليمانيين، ثم كتب الوليد إلى خالد بالقدوم إليه ومعه يزيد بن خالد، فخشي خالد من نوايا الوليد ولم يأخذ يزيداً معه، وإنما سار إليه مع بعض أقاربه ومواليه، ويستفادُ مما تقدم ذكره بأن الوليد أراد الحج فخاف خالد أن يفتكوا به في الطريق ـ أن ذلك كان في حوالي شهر ذي القعدة سنة ١٢٥هـ ـ وقد كتب الوليد أيضاً إلى يوسف الثقفي أمير العراق بالقدوم إليه ـ آنذاك ـ فقَدِم خالدُ قبل قدوم الوليد بأيام، فأعاد عليه الوليد أمر البيعة لولديه فأعاد عليه خالد رأيه بأنهما غلامان، ثم قال خالد: بلغني يا أمير المؤمنين أنك تريد الحج فأخِّرِ الحج هذا العام، فقال الوليد: ولمَ؟ فسكت خالد، ثم قال له الوليد: أين يزيد بن خالد؟ قال: ببلاد قومه في سراة اليمن، قال: لا ولكنك خلفتَه طلباً للفتنة. وقال: لتأتين به أو لأزهقن نفسك، فقال خالد: واللَّه لو كان تحت قدميَّ ما رفعتهما لك عنه فاصنع ما بدا لك.

قال الطبري: «فأمر الوليد غيلان صاحب حرسه بالبسط عليه وقال له: اسمعني صوت خالد، ذهب به غيلان فعذبه بالسلاسل فلم يتكلم، فرجع غيلان إلى الوليد فقال: واللَّه ما أعذب إنساناً واللَّه ما يتكلم ولا يتأوه، فقال الوليد: اكفف عنه واحبسه عندك، فحبسه حتى قدوم يوسف بن عمر من العراق».

قال أحمد بن زهير: «قَدِم يوسف من العراق وخالد بن عبد اللَّه محبوس،

فلقيه حسان النبطي فأخبره أن الوليد عازمٌ على تولية فلان مكانك، ولا بد ليوسف من إصلاح أمر وزراء الوليد، فقال: ليس عندي فضل درهم، قال حسان: فعندي خمسمائة ألف درهم فإن شئت فهي لك وإن شئت فأرددها إذا تيسرت، فقال يوسف: فأنت أعرف بالقوم ومنازلهم عند الخليفة مني ففرّقها على قدر علمك فيهم، ففعل ـ أي فرّق حسان خمسمائة ألف درهم رشوة لوزراء وبطانة الوليد ـ فقدِم يوسف والقوم يعظمونه، ثم أداروا الأمر بينهم بشأن خالد».

وقد ذكر الطبري أن الوليد طلب من خالد أن يؤدي خمسين ألف ألف درهم وأن يوسف بن عمر كان كتب إلى الخليفة بأن على خالد ذلك المبلغ لبيت المال عندما كان والياً للعراق، بينما ولاية خالد انتهت في جمادى الآخرة سنة ١٢٠هـ وهذه المطالبة المالية ـ في ذي القعدة سنة ١٢٥هـ ـ إنما هي ادعاء كاذب تم تلفيقه بين الوليد ويوسف الثقفي وحسان النبطي لتبرير حبس خالد وتسليمه إلى يوسف الثقفي وإمعاناً في إذلال خالد ـ وكما ذكر الطبري عن أحمد بن زهير ـ (قال حسان ليوسف: مُرّ أبان بن عبد الرحمٰن النميري يشتري خالداً منه بأربعين ألف ألف، ففعل) ـ قال الطبري: «وجلس الوليد للناس ويوسف عنده، فقال له أبان النميري: ادفع إليّ خالداً وادفع إليك أربعين ألف ألف درهم، فقال يوسف: بل ادفعه إليّ فأنا أستأديه خمسين ألف ألف، فأرسل الوليد إلى خالد: إن يوسف يشتريك بخمسين ألف ألف فإن كنت تضمنها وإلا دفعتك إليه، فقال خالد: ما عهدتُ العرب تُباع واللّٰه لو سألتني أن أضْمنَ هذا ـ ورفع عوداً من الأرض ـ ما ضمنتُه. فدفعه إلى يوسف، فنزع ثيابه ودرّعه عباءَة ولحفه بأخرى وحمله في محمل بغير وطاء، فانطلق به ـ يوسف ـ حتى نزل المُحْدَثَة على مرحلة من عسكر الوليد». قال محمد بن محمد بن القاسم الثقفي: «كان خالد في محمل بغير وطاء، فرحمتُه فجمعتُ ألطافاً كانت معنا من أخبصة يابسة وغيرها في منديل وأنا على ناقة فارهة فتَغفَّلتُ يوسفَ فأسرعتُ ودنوتُ من خالد ورميتُ بالمنديل في محمله، فقال لي: هذا من متاع عُمان يعني أن أخي الفَيْض كان على عُمان، ففطن يوسف بي فقال لي: ما قلت لابن الكاهن؟ فقلتُ: عرضتُ عليه الحاجة، قال: أحسنت فهو أسير. قال: ولو فطن بما ألقيتُ إليه للقيني منه أذىً. وبعث إليَّ خالد بمال جسيم فقلتُ في نفسي هذا على هذه الحالة وهو لا يدع هذا» ـ يعني الجُود والكرم.

ومضى يوسف بخالد إلى الكوفة ـ قال ابن زهير ـ (حتى إذا كان ببعض الطريق بعث إليه زيد بن تيم القينيُّ بشربة سويق حبِّ رمان مع مولى له يقال له سالم النفاط، فبلغ يوسف فضرب زيداً خمسمائة سوط وضرب سالماً ألف سوط، ثم قدم يوسف

الحيرة فحبس خالداً، ومعه إبراهيم ومحمد ابنا هشام) ـ وذلك في أواسط ذي الحجة سنة ١٢٥هـ.

وقد ذكرنا ما زعمته إحدى الروايات عن قيام يوسف بحبس خالد في خلافة هشام سنة ١٢١هـ وذكر الطبري في سياق أخبار خالد في عهد هشام قول الشاعر (فإن تسجنوا الْقَسْري لا تسجنوا اسمه) والصحيح عدم حبس خالد آنذاك وإنما تم استدعاؤه من الكوفة إلى الحيرة بدعوى أنه أعطى زيد بن عليّ أموالاً عظيمة فأقام بالحيرة ١٨ يوماً حتى انتهت تلك القضية، فلم يُحبس خالد إلا هذه المرة ـ في ذي الحجة سنة ١٢٥هـ ـ في خلافة الوليد وتسليمه خالداً إلى يوسف الثقفي فحبسه في الحيرة، وقد ذكر أبو تمام في ديوان الحماسة أبيات أبي الشَّغْب العبسي في خالد بن عبد اللّه الْقَسْري لما حبسه يوسف الثقفي بأمر الوليد (ص ٣٨٣، جـ١) وقال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: «قال أبو الشَّغْب: ـ

ألا إنَّ خيرَ الناسِ قد تعلمونه ... أسيرُ ثقيفٍ مُوثَقاً في السلَاسل
لَعَمري لئِنْ أعمرتُم السِّجنَ خالداً ... وأوطأتُموهُ وطأة المُتثاقل
لقد كان نَهّاضاً بِكلِّ مُلِمَّةٍ ... ومُعطِي اللُّهى غَمراً كثير النوافل
فإن تسجنُوا القسريَّ لا تَسجُنوا اسمَهُ ... ولا تسجنوا معروفَهُ في القبائلِ»

(ص٢٣٦، جـ٣)

وجاء في هامش البيان والتبيين أنه: «يُفهم من صنيع أبي تمام في ديوان الحماسة أن هذا الشعر في رثاء خالد، فقد ساقه في باب المراثي، وليس كذلك، وإنما قالها الشاعر تمجيداً لخالد وتنويهاً به. وجاء البيت الأول في الحماسة (. . خير الناس حيّاً وهالكاً) وفي الطبري (ألا أن بحر الجود أصبح ساجياً) وقوله: (مُعطى اللهى: اللهى: جمع لهوة، بالضم، وهي العطية. والغمر: بالفتح، واسع العطاء». (اهـ).

وبينما قال أبو الشَّغْب العبسي اليماني تلك الأبيات تمجيداً لخالد وتنويهاً به وتعبيراً عن نظرة يمانية إلى ما أقدم عليه الوليد من حبس خالد، قال الوليد شعراً تباهى فيه بحبس خالد لأنه عظيم اليمانيين وافتخر بالقيسية على اليمانية، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك الشعر قائلاً: «فسدت اليمانية على الوليد بما كان منه لخالد الْقَسْري وقالوا: إنما حبسه ونكبه لامتناعه من بيعة ولديه. . وصنعوا على لسان الوليد قصيدة معيرة لليمنية بشأن خالد» (اهـ) وقد أخذ ابن خلدون هذا الرأي من أحد قولين ذكرهما الطبري قائلاً: «قال الوليد بن يزيد فيما زعم الهيثم بن عَدِّي شعراً يُوبخ به أهل اليمن في تركهم نصرة خالد، وأما أحمد بن زهير فإنّه حدَّثني عن علي بن

محمد عن محمد بن سعيد العامري عامر كلب أن هذا الشعر قاله بعض شعراء اليمن على لسان الوليد يحرض عليه اليمانية». (اهـ) ثم ذكر الطبري ذلك الشعر وهو يدل على صواب القولين، فالأبيات التسعة الأولى هي التي ذكر الهيثم بن عدي الطائي أن الوليد بن يزيد قالها، ثم تليها خمسة أبيات ينطبق عليها قول العامري إن بعض شعراءِ اليمن قالها على لسان الوليد. وغنيّ عن البيان أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان يقول الشعر وأنه كان ذا نزعة قيسية متعصبة على اليمانية وقد كانت القاعدة العامة في عهود الخلفاء الأمويين السابقين أن أمراء أقاليم الشام وأغلب الولاة والأمراء في ولايات دولة الخلافة من اليمانيين، فتخلى الوليد عن تلك القاعدة العامة وجعل أمراء أقاليم الشام وأغلب الولاة من القيسية، وقد أشار القاضي سعدي أبو جيب إلى ذلك قائلاً: «كان معاوية مؤسس الدولة الأموية يعتمد في تدعيم عرشه على اليمانية. وبقيت السيادة لليمنية حتى (أيام) هشام بن عبد الملك. وجاء الوليد بن يزيد وقرَّب القيسية مما حدا بالقبائل اليمنية أن تتجمع وتتكاتل. .» (ص١١١) ولم يكن ما قام به الوليد مجرد تقريب للقيسية فقد جعل أمراء أقاليم الشام والجزيرة العربية والعراق والمشارق جميعها من القيسية فولى على دمشق وأعمالها عبد الملك بن محمد بن الحجاج الثقفي، وعلى بعلبك والساحل محمد بن عبيدة مولى سعيد بن أبي العاص الأموي، وعلى الجزيرة الفراتية وأرمينية مروان بن محمد، وعلى الحجاز خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي، وعلى اليمن الصلت بن يوسف الثقفي، وعلى عُمان الفيض بن عمر الثقفي، وعلى العراق ومشارقها يوسف بن عمر الثقفي، وعلى السند وسجستان عمر بن محمد الثقفي، وعلى خراسان نصر بن سيار القيسي، وغيرهم، ثم قام بحبس خالد بن عبد الله الْقَسْري الزعيم الشعبي لليمانيين وتسليمه إلى يوسف الثقفي، وبلغ الغرور بذلك ذروته عند الوليد، فقال القصيدة التي لم تكن (شعراً يوبخ به أهل اليمن في تركهم نصرة خالد) وإنما كانت شعراً يفتخر فيه بالقيسية ويعلن فيه قطع الحبل المتصل باليمانية ويتباهى بحبس خالد الْقَسْري، مما يدل على صواب ما ذكره الهيثم بن عدي بأن الوليد بن يزيد هو قائل ذلك الشعر. وهو كما جاء في تاريخ الطبري: ـ

أَلَمْ تَهْتَجْ فتَذكُّر الوصالا ... وحبلاً كان مُتَّصِلاً فزالا

بَلَى فالدّمعُ منك له سِجَام ... كماءِ المُزنِ يَنْسجِلُ انسجالا

فَدَعْ عنك ادّكارك آل سُعْدَى ... فنحن الأكثرُونَ حَصًى ومالا

ونحن المالكُونَ الناس قَسْراً ... نَسُومُهُم المَذلَّة والنَّكالا

وطئنا الأشعثين بِعزِّ قيسٍ ... فيا لك وطأةً أن تُستقالا

وهــذا خــالــد فــيــنــا أسـيــراً ألا مــنــعــوه إنْ كــانــوا رجــالا
عَظِيمُهُم وسيّدُهُمْ قَدِيماً جعلنا المُخْزيات له ظِلالا
فلو كانوا قبائل ذاتَ عز لما ذَهَبتْ صَنَائِعُهُ ضَلالا
ولا تركوه مسلوباً أسيراً يُسامِرُ من سَلاسِلِنا الثِقالا

ورواه المدائني (يُعالجُ من سلاسلنا الثقالا). ثم ذكر الطبري بعد ذلك خمسة أبيات هي التي قد يكون أضافها بعض شعراء اليمن إلى أبيات الوليد وهي: ـ

وكندةُ والسَّكُونُ فما استقالوا ولا برحَتْ خُيُولُهُمُ الرحالا
بها سُمْنا البَرِيَّة كُلَّ خَسْفٍ وَهدَّمنا السُّهُولةَ والجبالا
ولكنَّ الوقائعَ ضعْضَعتهمْ وجَذَّتهُمْ ورَدَّتهُمْ شلالا
فما زالوا لنا أبداً عَبيداً نَسُومُهُمُ المذلةَ والسَّفَالا
فأصبحتُ الغداة على تَاجٌ لِمُلكِ الناسِ ما يبغي انتِقالا

ويدل قول الوليد بن يزيد: ـ

وهــذا خــالــدُ فــيــنــا أسـيــراً ألا مــنــعــوه إن كــانــوا رجــالا
عظيمُهُم وسيّدُهُمْ قديماً جعلنا المُخْزيات له ظِلالا. . إلخ

يدل ذلك على أمرين، أحدهما: إن خالد بن عبد الله القَسْري كان عظيم القبائل اليمانية جميعها، وثانيهما: إن الوليد قال ذلك الشعر عند حبس خالد في ذي القعدة وذي الحجة سنة ١٢٥هـ.

وبأمر الوليد ـ وكما ذكر الطبري ـ «دعا يوسف الثقفي بخالد القَسْري وبإبراهيم ومحمد ابني هشام ـ من حبس الحيرة ـ فبسط التعذيب على خالد فلم يكلمه، وصبر إبراهيم وخَرِعَ محمد بن هشام. فمكث خالد يوماً في العذاب ثم وَضَع على صدره المضرَّسة فقتله من الليل وذلك في المحرم سنة ١٢٦هـ. . قال أبو زيد: حدّثني أبو نعيم قال حدَّثني رجلٌ قال: شهدت خالداً حين أتى به يوسف فدعا بعود فوُضع على قدميه ثم قامت عليه الرجال حتى كُسّرت قدماه فوالله ما تكلم ولا عبّس، ثم على ساقيه حتى كُسرتا ثم على فخديه ثم على حقويه ثم على صدره حتى مات فوالله ما تكلم ولا عبّس».

وكان خالد يومئذٍ شيخاً في الستين من عمره، فقد كان مولده سنة ٦٦هـ (الموافق ٦٨٦م) وكان من عظماء الولاة الأمراء زهاء ثلاثين سنة منذ تولى مكة المكرمة سنة ٨٩هـ (٧٠٩م) إلى أن انتهت ولايته للعراق والمشرقين سنة ١٢٠هـ (٧٣٨م) ثم أصيب في ساقه وقدميه وهو يجاهد الروم في غزوة الصائفة ببلاد

القسطنطينية في صيف سنة ١٢٢هـ فكان بعد ذلك يجلس على كرسي ويُحمل على كرسي، فلما حبسه الوليد وسلمه إلى يوسف الثقفي في ذي القعدة وذي الحجة ١٢٥هـ تعمد يوسف الثقفي ـ وبأمر الوليد ـ تعذيبه في قدميه وساقيه المصابتين وهو يجاهد في سبيل اللّه، فواجه خالد ذلك التعذيب بقوة الإيمان إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية في مساء ذلك اليوم من شهر محرم سنة ١٢٦هـ الموافق ٧٤٣م. قال الهيثم بن عدي: ودُفن خالد بناحية الحيرة في عباءته التي كان فيها. فعليه رحمة ورضوان اللّه تعالى.

* * *

سابع عشر: غضب اليمانيين لخالد وانقلابهم على الوليد

أدى حبس ومقتل خالد بن عبد اللّه الْقَسْري إلى إشعال غضب اليمانيين في سائر أرجاء دولة الخلافة العربية الإسلامية، وكان من معالم الغضب اليماني لذلك الزعيم العظيم ما يلي: ـ

١ ـ قصيدة عمران الكلبي في استنفار اليمانيين للثأر لخالد

قِفِي صدْر المطِيَّةِ يا حَلالا ... وجُذِّي حبْلَ مَنْ قطعَ الوصالا
أَلَمْ يَحْزُنكِ أنْ ذوي يَمانٍ ... يُرى مَنْ حاذَ قَيْلهم حَلالا
بنَا مَلَكَ المُمَلَّكُ مِنْ قُريشٍ ... وأوْدَى جَدُّ مَنْ أودى فَزالا
جعلنا للقبائِلِ مِنْ نزارٍ ... غَداةَ المَرْج أياماً طِوالا
لئن عَيَّرتُمونا ما فعلنا ... لقد قلتم وجَدُّكُمُ مَقالا
لإخوان الأشاعِثِ قَتَلوهُمْ ... فما وُطِئوا ولا لاقَوْا نَكالا
وأبناءُ المُهلّبِ نحنُ صُلنا ... وقائِعَهُمْ وما صُلتُم مَصالا
وقد كانت جُذامٌ على أخيهمْ ... ولخمٌ يقتُلونهُمُ شِلالا
هربنا أن نُساعدهُمْ عليكم ... وقد أخطا مُساعِدُكمْ وفالا
فإنْ عُدْتُم فإنَّ لنا سُيوفا ... صَوارِمَ نَستجِدُّ لها الصِقالا
(متى تَلقَ السَّكُون وتلق كلباً ... بِعَبْسٍ تَخْشى مِنْ مُلكٍ زوالا)
كذاك المرءُ ما لم يُلفَ عدلاً ... يكونُ عليه منطِقُهُ وَبالا
أعِدُّوا آل حِمْيرَ إذْ دُعِيتُمْ ... سُيُوفَ الهندِ والأسلَ النِهالا
وكلَّ مُقلَّصٍ نَهدِ القُصَيْرَى ... وذا فُودَيْنِ والقُبَّ الحبالا
يَذَرْنَ بكلِّ معتَرَكٍ قتيلا ... عليه الطيرُ قد مَذِلَ السُّؤالا
سنبكي خالداً بمُهَنَّداتٍ ... ولا تَذْهَبْ صنائعُهُ ضَلالا

ألـمْ يَـكُ خـالـدٌ غَـيـثَ الـيَـتـامـى إذا حَـضَـرُوا وكـنـتَ لَـهـم هُـزالا
يُـكـفـنُ خـالـدٌ مَـوْتـى نِـزارٍ ويُـثْـرِي حَـيَّـهـم نَـشَـبـاً ومـالا
لَـو أنَّ الـجـائـريـن عـلـيـه كـانـوا بـسـاحَـةِ قـومِـهِ كـانـوا نـكـالا
سـتَـلـقَـى إنْ بَـقِـيـتُ مُـسَـوَّمـاتٍ عـوابِـسَ لا يُـزايـلـنَ الـجِـلالا
متـى تَـلـقَ الـسَّـكُـون وتـلـق كـلـبـاً بـعَـبْـسٍ تَـخـشْ مِـنْ مُـلْـكٍ زوالا

قال الطبري: «فحدثني أحمد بن زهير عن عليّ بن محمد قال: فازداد الناس على الوليد حنقاً لما روى هذا الشعر فقال ابن بيض: ـ

وَصَـلـتَ سَـمَـاءَ الـضُّـرِّ بـعـدمـا زعمْتَ سَماءُ الضر عنّا ستُقلعُ
فـليتَ هشاماً كـان حيًّا يُسوسُنـا وكنّا كما كنا نُرَجّى ونَطْمَعُ». (اهـ)

وقول ابن زهير (فازداد الناس على الوليد حنقاً لما روى هذا الشعر): يعني شعر الوليد وشعر عمران الكلبي، وكان شعر الوليد وخالد في الحبس ـ في ذي القعدة أو ذي الحجة ١٢٥هـ ـ وشعر عمران الكلبي بعد مقتل خالد ـ في محرم ١٢٦هـ ـ ويدل على ذلك قول عمران الكلبي: ـ

سـنـبـكـي خـالـداً بـمُـهَـنَّـدات ولا تَـذْهَـبْ صـنـائـعُـهُ ضـلالا

٢ ـ ردود الفعل على مقتل خالد في الأقاليم والولايات

تلبدت السماء وانحبست الأنفاس في أرجاء ولايات وأقاليم دولة الخلافة مع انتشار خبر مقتل خالد وشعر الوليد وشعر عمران الكلبي. وكان من معالم ذلك: ـ

أ ـ في الأندلس: ـ كان أمير الأندلس ـ من خلافة هشام سنة ١٢٣ ـ أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وكان أبو الخطار من القادة اليمنيين مع الحَكَم بن عوانة الكلبي عامل خالد على بلاد السند في عهد ولاية خالد للمشرقين وله معرفة وطيدة بخالد، ثم تولى حنظلة بن صفوان الكلبي إفريقية الشمالية والمغرب سنة ١٢٣هـ وتولى أبو الخطار حسام بن ضرار الأندلس، فلما بلغه خبر مقتل خالد وشعر عمران غضب أبو الخطار وكان ذا نزعة يمانية، فاستخلف نائباً له في الأندلس وانطلق في كوكبة من الفرسان بالسفن إلى القيروان ـ عاصمة إفريقية الشمالية والمغرب ـ للتشاور مع حنظلة بن صفوان، وقال أبو الخطار وهو بالقيروان: ـ

أفـادت بـنـو مـروان قـيـسـاً دمـاءنـا وفي اللّه إن لم يعدلوا حَكَمٌ عَدلُ
كـأنـكـم لـم تـشـهـدوا مـرج راهـط ولم تعلموا مَنْ كان ثَمَّ له الفضلُ
وقـيـنـاكُـمْ حـر الـقـنـا بـنـحـورنـا ولـيـس لـكـم خـيـلٌ تُـعـدُّ ولا رِجَـلُ

ب ـ في إفريقية الشمالية: ـ كان حنظلة بن صفوان الكلبي أمير مصر (١١٩

ـ ١٢٢هـ) ثم أمير إفريقية الشمالية والمغرب منذ خلافة هشام سنة ١٢٣هـ، وهو من رؤساء يمانية الشام، فلما بلغه الخبر وقَدِم إليه أبو الخطار من الأندلس وتشاورا في الأمر، توجّه حنظلة من القيروان إلى مصر ثم الشام ـ في شهر جمادى ١٢٦هـ ـ وقيل إن الوليد ولى مكانه ابن الفهري القيسي وإن عصبية وقعت بين اليمانية والقيسية، ولكن بقاء أبي الخطار في القيروان ومسير حنظلة إلى الشام يشير إلى أن مسيره كان للتشاور وحضور اجتماع مع رؤساء اليمانية بالشام تم التواصل على عقده سرًّا في جمادى الأولى ١٢٦هـ وسيأتي نبأ ذلك.

جـ ـ في ولاية خراسان: ـ كان جديع بن علي الكرماني الأزدي أكبر الزعماء اليمانيين في خراسان وهو من عمال أسد بن عبد الله الْقَسْري عندما كان أسد والياً لخراسان إلى سنة ١٢٠هـ ثم تولى خراسان إلى أن تولاها نصر بن سيار القيسي سنة ١٢١هـ ومكث جُديع زعيماً شعبياً للأزد. ثم توقف جُديع الكرماني وكثير من اليمانيين عن أداء صلاة الجمعة مع نصر بن سيار عامل يوسف الثقفي والوليد منذ مقتل خالدأو بعدذلك بأمد يسير، وقد ذكر الطبري في أحداث سنة ١٢٦هـ أنه: أخذ الكرماني في جمع الرجال واتخاذ السلاح وكان يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة أو أكثر أو أقل فيصلي خارجاً من المقصورة.. وقال الحارث الجعدي: ـ

أبيتُ أرعى النجومَ مُرْتَفِقاً إذا استَقَلّتْ يجري أوائِلُها
مِن فتنةٍ أصبحَتْ مُجلِلةً قد عَمَّ أهلَ الصَّلاة شامِلُها
مَنْ بِخُراسانَ والعراقِ ومَنْ بالشام كلُّ شَجاهُ شاغِلُها)

د ـ في العراق: ـ قام عامر بن سهلة الأشعري بعمل جريء للتعبير عن التقدير الكبير لخالد والتنويه به، بالرغم من أنه يعلم بأن ذلك سيعرضه لعقوبة يوسف الثقفي أمير العراق، فقد ذكر الهيثم بن عدي أنه: «أقبل عامر بن سهلة الأشعري فعقر فرسه على قبر خالد الْقَسْري بناحية الحِيرة، فضربه يوسف سبعمائة سوط». (اهـ).

وقد تلبدت سماء العراق منذ مقتل خالد كما حدث في الشام وغيرها، وأشار إلى ذلك الشاعر حمزة بن بيض في البيتين اللذين قالهما عندما ازداد الناس حنقاً على الوليد فقال ابن بيض: ـ

وَصَلْتَ سَمَاءَ الضُرِّ بالضُرِّ بعدما زعمت سَماءُ الضرِّ عنّا ستُقلعُ

وسوف يتجلى مدى الاستياء والغضب في العراق عند وقوع الانقلاب على الوليد في الشام وهروب يوسف الثقفي متخفياً بلباس إمرأة والقبض عليه وإيداعه في الحبس وسيأتي نبأ ذلك.

هـ ـ اليمن: ـ كان يزيد بن خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري مقيماً في منطقة قبيلته بَجِيلة في السراة بأعالي اليمن، وقد سلف قول الوليد لخالد: أين يزيد بن خالد؟ فقال: ببلاد قومه في السراة وما أوشك أن يأتي. وكان ذلك في أواسط سنة ١٢٥هـ ثم سأله الوليد مرة ثانية عن يزيد بن خالد فقال خالد مثل ذلك فقال الوليد: إنما خلفته طلباً للفتنة ـ وكان ذلك في ذي القعدة سنة ١٢٥هـ فمكث يزيد في منطقة بَجِيلة في سراة اليمن وفيها أتاه خبر مقتل أبيه، ثم انطلق يزيد بن خالد مع جماعة من أصحابه ومواليه إلى الشام ـ في حوالي شهر ربيع ١٢٦هـ ـ فتوارى بمنطقة من بوادي دمشق وأجرى اتصالات مع رؤساء اليمانية بالشام الغاضبين لمقتل خالد، ويمكن القول إن يزيد بن خالد كان قد عزم على القضاء على الوليد وأن يبذل في سبيل ذلك ما يستطيع.

و ـ في الشام: ـ كان الشام معقل الغضب اليماني لخالد بن عبد اللَّه الْقَسْري لأنه من رؤساء اليمانية بالشام وعظيم القبائل اليمانية القحطانية. قال ابن خلدون: «فسدت اليمانية على الوليد بما كان منه لخالد الْقَسْري وقالوا: إنما حبسه ونكبه لامتناعه من بيعة ولديه ثم فسدت عليه قضاعة وكانت اليمن وقضاعة أكثر جند الشام». (اهـ).

وغني عن البيان أن قضاعة من القبائل اليمنية وهُم قُضاعة بن مالك بن حِمْير، وإنما قيل: فسدت اليمانية على الوليد بما كان منه لخالد الْقَسْري ثم فسدت عليه قضاعة، لأن القبائل اليمنية غير القضاعية هي التي بدأت باستنكار حبس خالد كما في أبيات أبي الشّغْب العبسي التي منها قوله: ـ

فإن تسجنوا الْقَسْري لا تسجنوا اسمه ... ولا تسجنوا معروفه في القبائل

وكان الوليد بالرغم من تعصبه حريصاً بعض الشيء على احتواء قبائل قضاعة بزعامة قبيلة كلب فأبقى حنظلة بن صفان أميراً لإفريقية الشمالية وأبا الخطار حسام بن ضرار أميراً للأندلس وبعض القادة الكلبيين في حمص وغيرها، فلما بلغ الأمر إلى قتل خالد انضمت قضاعة إلى بقية اليمانيين في الغضب لخالد، وأجاب الشاعر عمران بن هلباء الكلبي القضاعي الحميري على شعر الوليد بقصيدته التي قال فيها: ـ

أعدّوا آل حِمْير إذْ دُعيتم ... سيوف الهند والأسل النهالا

سنبكي خالداً بِمُهندات ... ولا تذهب صنائعه ضلالا

* * *

٣ ـ الانقلاب اليماني على الخليفة الوليد بسبب مقتل خالد

قال الطبري: «اضطغن على الوليد بن يزيد آل الوليد بن عبد الملك وآل

هشام بن عبد الملك، واليمانية بما صنع بخالد بن عبد اللّه الْقَسْري. فأتى اليمانيةُ يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادوه على البيعة». (ص٦، جـ٩).

وغني عن البيان أن كلمة (فأتى اليمانية يزيد بن الوليد) تشمل كل اليمانيين الذين قال الطبري: «وكان من أعظم ما جنى الوليد على نفسه إفساده بني عميه ولد هشام وولد الوليد مع إفساده على نفسه اليمانية وهم عُظْم جند أهل الشام». (ص٣، جـ٩) بينما ليس كل اليمانية قرروا الانقلاب على الوليد وأتوا يزيداً فأرادوه على البيعة وإنما الذين قرروا ذلك ثم أتوا بزيدَ بن الوليد هم كوكبة من الرؤساء والقادة وكان ذلك التدبير في منتهى السرية.

وقد سبق ذلك بالضرورة اتصالات واجتماعات سرية بين أولئك اليمانيين وتتيح الوقائع التي تلت ذلك إدراك أن أولئك الرؤساء والقادة التقوا وتشاوروا وتراسلوا في شهر ربيع وجمادى الأولى ١٢٦هـ ويدل ما ذكرته المصادر التاريخية عن دورهم في التنفيذ على دورهم في التدبير والتخطيط، وكان من أبرزهم: ـ

١ ـ يزيد بن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري، وهو بمثابة القائد، وكان قد نزل في البادية وبينه وبين دمشق أربعة أيام.

٢ ـ منصور بن جُمهور الكلبي، وهو من الأمراء القادة الذين تولوا السند في ولاية خالد للمشرقين، وباسمه سميت مدينة المنصورة في بلاد السند التي بناها الحَكَمْ بن عوانة الكلبي عامل خالد على بلاد السند وأتمّها منصوربن جمهور، وكان منصور من الثقاة الذين استشارهم خالد لما استدعاه الوليد، وهو تاسع تسعة ذكر ابن زهير أنه: «أجمع على قتل الوليد جماعة من اليمانية من أهل دمشق خاصةً وهم حُريث وشبيب بن أبي مالك الغسانيّ ومنصور بن جُمهور، ويعقوب بن عبد الرحمٰن، وجِبَال بن عمرو بن عم منصور، وحميد بن نصر اللخميّ، والأصبغ بن ذُؤالة، وطفيل بن حارثة، والسَّريّ بن زياد بن علَاقَة». وكانوا قد أشاروا على خالد بأن يثور في دمشق أو بقتل الوليد كما تقدم.

٣ ـ عُمارة بن أبي كلثوم الأزدي، كان من ثقاة الشخصيات عند خالد، فعندما كتب الوليد إلى خالد بأن يأتي إليه: «بعث خالد إلى عدّة من ثقاته منهم عُمارة بن أبي كلثوم الأزديّ وقال: أشيروا عليّ». وقد سلف ذكر نبأ ذلك.

٤ ـ هرم بن عبد اللّه بن دحْيه بن خليفة الكلبي، وهو حفيد الصحابي الجليل دحْيه بن خليفة الكلبي وكان يسكن في المزَّة.

٥ ـ معاوية بن مصَاد الكلبي وهو سيّد أهل المزَّة، وكان هو وأخوه عبد الرحمٰن بن مصَاد من الرؤساء القادة.

٦ ـ حميد بن حبيب بن نصر اللخميّ وهو كبير أهل دير المُرّان والأرْزَة وسطرا، وكان من الثقاة الذين استشارهم خالد، ومن التسعة الذين أجمعوا على قتل الوليد.

٧ ـ يزيد بن عنبسة السكسكي وهو كبيرِ عشائر السكسك اليمانية بالشام. ومنهم القائد عمرو بن حُوَى السكسكي.

٨ ـ يعقوب بن عُمير بن هانئ العَبسي من بني عبس اليمانية وهو كبير عشائر عبس وأهل داريا، ومنهم الشاعر أبو الشَّغْب العبسي.

٩ ـ النضر بن عمر الجُرَشيُّ كبير أهل جُرش الأردن وأهل الحديثة ودير زَكّا.

١٠ ـ رِبْعيّ بن هاشم الحارثي الهمداني وهو من رؤساء عشائر بني عذر وهمدان وكانوا بمناطق نهر الأردن.

١١ ـ طَلحة بن سعيد الجهني كبير عشائر جهينة القضاعية الحميرية بالشام.

١٢ ـ ضبعان بن روح بن زنباع الجذامي، كبير قبيلة جُذام اليمانية بفلسطين وكان والده روح بن زنباع أمير فلسطين في خلافة عبد الملك بن مروان.

١٣ ـ حُريث بن أبي مالك الغساني كبير غسان في دمشق وكان هو وأخوه شبيب من التسعة الذين أجمعوا على قتل الوليد.

١٤ ـ الأصبغ بن ذؤالة الكلبي، كان من قادة الجيش بخراسان في ولاية أسد الْقَسْري وهو من الثقاة الذين استشارهم خالد لما استدعاه الوليد، وقد ذكره ابن زهير في الجماعة الذين اتفقوا على قتل الوليد.

١٥ ـ ثابت بن سليمان بن سعد الخُشني القضاعي الحميري، كان والده صاحب دواوين الرسائل وهو الذي قام بتعريب دواوين الدولة في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان ثابت صديقاً ليزيد بن خالد الْقَسْري في دمشق.

وقد التقى وتشاور وتراسل أولئك الرؤساء والشخصيات اليمانية وغيرهم، وقرروا القيام بما يمكن التعبير عنه بأنه انقلاب على أمير المؤمنين الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، واختاروا تنصيب يزيد بن الوليد بن عبد الملك لأنّه كان ذا ديانة وتقوى وصلاح، ووضعوا خطة الانقلاب، ثم توجه جماعة منهم إلى يزيد بن الوليد وكان متبدياً ـ أي مقيماً بالبادية ـ وبينه وبين دمشق أربع ليال، فعرضوا الأمر عليه، وكان منهم غالباً القائد يزيد بن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري ويزيد بن عنبسة السكسكي ومنصور بن جُمهور الكلبي، وكان مسيرهم إليه وتفاصيل لقائهم به سرياً.

قال الطبري: «أتى اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة، فَشَاورَ عمرو بن

يزيد الحكميّ فقال له: شاور أخاك العباس بن الوليد فإنه سيد بني مروان فإن بايعك لم يخالفك أحدٌ وإن أبَى كان الناس له أطوع. . وكان يزيد بن الوليد متبدّياً وكان العباس بالقسطل بينهما أميال يسيره، فأتى يزيد أخاه العباس فأخبره وشاوره. .» وقد أوجز ابن خلدون خبر المشاورة قائلاً: «فشاور العباس فنهاه عن ذلك» ـ أي نهاه عما دعاهُ إليه اليمانيون وكانوا يحرصون على مشاركة العباس بن الوليد بن عبد الملك فامتنع وحذر يزيد بن الوليد من الدخول في هذا الأمر، قال الطبري: «ورجع يزيد إلى منزله بالبادية ودبَّ في الناس فبايعوه سراً». ـ ويستفاد من ذلك أنه عاد إلى منزله بالبادية وأتى إليه القادة اليمانيون فأخبرهم بموقف العباس بن الوليد فقرروا تأجيل محاولة إقناعه وبايعوا يزيد بن الوليد سراً. قال الطبري: «وبعث الأحنف الكلبيّ ويزيد بن عَنْبسة السكسكيّ وقوماً من وجوه الناس وأشرافهم فدعوا الناس سراً». ـ وهنا فإن كلمة (دعوا الناس سراً) هي الأصوب والأدق من كلمة «أتى اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة) وكلمة (فبايعوه سراً)، لأن الأمر لم يكن أمر مبايعة فلان أو فلان وإنما هو أمر انقلاب على الخليفة الوليد فكلمة (دعوا الناس سراً) هي الأنسب، وقد قام بالدعوة الشخصيات اليمانية الذين قرروا القيام بالانقلاب، فأبلغوا أصحابهم بأن يزيد بن الوليد استجاب للأمر، وتوسعوا في الدعوة السرية لذلك.

وشاع خبر الانقلاب الذي يريد اليمانيون القيام به ومعهم يزيد بن الوليد، فقد ذكر ابن خلدون أنه: «بلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان أمير أرمينية فكتب ـ من أرمينية ـ إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان ـ في الشام ـ يُعظم عليه الأمر ويحذره الفتنة ويذكر له أمر يزيد، فأعظم ذلك سعيد وبعث بالكتاب إلى العباس بن الوليد ـ في القسطل ـ فتهدد العباس أخاه يزيدَ» وذكر الطبري أنه: «بلغ معاوية بن عمرو بن عتبة خوض الناس فأتى الوليد فقال: يا أمير المؤمنين أنا أسمع ما لا تسمع وأخاف عليك ما أراك تأمن أفأتكلم ناصحاً أو أسكتُ مُطيعاً؟ فقال: كلٌّ مقبولٌ منك. .» ـ وكان الوليد بالرُّصافة ـ وتسرب خبر الانقلاب إلى عامل دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي ـ أو عبد الملك بن محمد بن يوسف الثقفي وهو خال الوليد ـ «قيل له: إنّ يزيد خارجٌ فلم يصدّق» ـ وربما كان من أسباب عدم التصديق أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك كان معروفاً بالتدين قابعاً في بادية الشام لا حول له ولا طول، وأن الخليفة الوليد في أوج سلطته وجميع العمال والأمراء من أقاربه الأقربين وأخواله ومن القيسية الموالين له حتى أنه قال في الشعر الذي تباهى فيه بحبس خالد: ـ

فأصبحتُ الغداة عليَّ تاجٌ لمُلكِ الناسِ ما يَبغِي انتقالا

وكان عمران بن هلباء الكلبي أثقب بصيرة من الوليد فقال في شعره الذي أجاب فيه على الوليد: ـ

متى تَلقَ السَّكُونَ وتلق كلباً بِعَبْسٍ تَخْشَ مِن مُلكٍ زوالا
كذاك المرءُ ما لم يُلفَ عدلاً يكونُ عليه منطِقُهُ وَبالا

تنفيذ الانقلاب بمدينة دمشق

في يوم الاثنين ١٧ جمادى الآخرة ١٢٦هـ أتم القادة اليمانيون الإعداد للانقلاب وحددوا ليلة الجمعة للتنفيذ، وتم إبلاغ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بالقدوم من منزله في البادية متنكراً ويتوجه إلى دار معاوية بن مَصَاد الكلبي في المزَّة، فسار يزيد بن الوليد من البادية ليلة الثلاثاء، بينما سار يزيد بن خالد الْقَسْري من المنطقة التي كان مقيماً فيها بالبادية يوم الاثنين وكان بينه وبين دمشق مسير أربعة أيام، وبين منزل يزيد بن الوليد بالبادية وبين دمشق أربع ليال. قال ابن زهير: «لما اجتمع ليزيد بن الوليد أمره وهو متبدٍّ أقبل إلى دمشق، وبينه وبين دمشق أربع ليال، متنكرّاً في سبعة نفر على حِمير فنزلوا بجَرُود على مرحلة من دمشق ثم سار فدخل دمشق ليلاً فمضى من ليلته إلى منزل معاوية بن مصَاد الكلبي وهو سيد أهل المزّة ماشياً في نفير من أصحابه وبين دمشق وبين المزَّة ميل أو أكثر فأصابهم مطر شديد فأتوا منزل معاوية بن مصَاد فضربوا بابه ففتح لهم، فدخل، فقال ليزيد: الفراش أصلحك اللّٰه ـ يعني اجلس على الفراش ـ فقال: إنّ في رجلي طيناً وأكره أن أفسد بساطك فقال له: الذي تدعونا إليه أفسدُ، فكلمه يزيد فبايعه معاوية ويُقال هشام بن مصَاد» (اهـ).

ويتبين من ذلك أن يزيد بن الوليد وصل إلى المزَّة ليلة الجمعة وكان المطر شديداً وأقام في منزل معاوية بن مصَاد الكلبي، وكانت منطقة المزَّة آنذاك خارج أسوار وأبواب مدينة دمشق بمسافة ميل أو أكثر، وكان المدخل للقادم من المزّة إلى دمشق باب الجابية وكان الباب مغلقاً حتى الصباح، وقد ذكر الطبري في نهاية خبر ما حدث بدمشق تلك الليلة أنه: «لما أصبحوا جاء أهل المزَّة» وقال أحمد بن رَزين (غدونا من المزَّة فلما انتهينا إلى باب الجابية وجدناه مُغلقاً ـ وكان ذلك قُبيل الصبح ـ)، وتتيح تلك القرائن إدراك أن يزيد بن الوليد كان في المزَّة ليلة الجمعة إلى ما قبيل الصبح، وأن يزيد الذي قاد أحداث دمشق تلك الليلة وقع التباس في الرواية يعطي انطباعاً بأنه يزيد بن الوليد بينما جاء ذكره في الرواية باسم يزيد فقط، ونرى أنه يزيد بن خالد وهو القائد للانقلاب وكان قدومه إلى دمشق يوم الخميس، وقد جاء في الرواية التاريخية من ابن زهير ما يلي: ـ

«أتى يزيد إلى دمشق فأخذ طريق القَنَاة وهو على حمار أسود، فنزل دار

ثابت بن سليمان بن سعد الخُشنيّ بدمشق، وأتى الوليد بن روح وحلف لا يدخل دمشق إلا في السلاح فلبس سلاحه وكفَّر عليه الثياب وأخذ طريق النَّيْرَب وهو على فرس أبلق حتى وافى يزيداً، وأرسل يزيد إلى أصحابه بين المغرب والعشاء ليلة الجمعة فكمنوا عند باب الفراديس حتى أذنوا العتمة فدخلوا فصلوا، وللمسجد حرس قد وُكلوا بإخراج الناس من المسجد بالليل فلما صلى الناس صاح بهم الحرس، وتباطأ أصحاب يزيد فجعلوا يخرجون من المقصورة ويدخلون من باب آخر ـ وكان المطر شديداً ـ حتى لم يبق في المسجد غير الحرس وأصحاب يزيد فأخذوا الحرس ـ أسرى ـ وكان في المسجد سلاح كثير قَدِم به سليمان بن هشام من الجزيرة ـ سنة ١٢٤هـ ـ ولم تكن الخزان قبضوه، فأصابوا سلاحاً كثيراً. . وأقبل يزيد في اثنى عشر رجلاً، فلما كان عند سوق الحُمُر لقوا أربعين رجلاً من أصحابهم فلما كانوا عند سوق القمح لقيهم زهاء مائتي رجل من أصحابهم فمضوا إلى المسجد، وكان صاحب شرطة دمشق أبو العاج كثير بن عبد اللّه السلمي القيسي فضربوا بابه وقالوا: رُسل الوليد أمير المؤمنين ففتح لهم الباب خادم فأخذوه ودخلوا وأخذوا أبا العاج وهو سكران، وأخذوا خُزَّان بيت المال وصاحب البريد، وأرسل إلى كل من يحذره فأُخذ، وأرسل يزيد من ليلته إلى محمد بن عبيدة مولى سعيد بن أبي العاص وهو على بعلبك فأخذه، وأرسل من ليلته إلى عبد الملك بن محمد ـ عامل دمشق وكان في قصره بقطن فسار إليه عبد الرحمٰن بن مصَاد الكلبي في مائتي فارس فأعطاه الأمان فخرج إليه فمضى به إلى يزيد ـ ووجه يزيدإلى الثنيَّة إلى أصحابه ليأتوه، وقال للبوّابين لا تفتحوا الباب غدوةً إلا لمن أخبركم شعارنا، فتركوا الأبواب بالسلاسل. فلما أصبحوا جاء أهل المزَّة». (اهـ).

وكان يزيد بن الوليد بن عبد الملك في منزل ابن مصَاد الكلبي في المزَّة. «فمضى يزيد بن عَنْبَسة السكسكي إلى يزيد بن الوليد فأعلمه وأخذ بيده وقال: قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر اللّه وعونه. فقام وقال: اللّهم إن كان هذا لك رضًى فأعنّي عليه وسددني له وإن كان غير ذلك فأصرفه عني بموت» ـ ولما أصبحوا جاء مع أهل المزَّة ـ قال الطبري: حدثني أحمد بن زهير عن علي بن محمد عن عمرو بن مروان الكلبي عن رَزين بن ماجد قال: غدونا من المزَّة مع عبد الرحمٰن بن مصَاد الكلبي ونحن زهاء ألف وخمسمائة فلما انتهينا إلى باب الجابية وجدناه مغلقاً، ووجدنا عليه رسولاً للوليد فقال: ما هذه الهيئة وهذه العُدَّة أمّا واللّه لأعلمن أمير المؤمنين، فقتله رجل من أهل المزَّة، ـ وفتح لنا البوابون ـ فدخلنا من باب الجابية ثم أخذنا في زقاق الكلبيين فضاق عنا، فأخذ ناس منا سوق القمح، ثم اجتمعنا على باب المسجد ـ وقد سبقنا يزيد بن الوليد إلى المسجد ـ فدخلنا على يزيد فما فرغ

آخرنا من التسليم عليه حتى جاءت السكاسك في نحو ثلثمائة فدخلوا من باب الشرقيّ حتى أتوا المسجد فدخلوا من باب الدَّرَج، ثم أقبل يعقوب بن عمير بن هانئ العبسي في أهل داريا فدخلوا دمشق من باب دمشق الصغير، وأقبل عيسى بن شبيب التغلبي في أهل دومة وخرستا فدخلوا دمشق من باب توما، وأقبل حميد بن حبيب اللخمي في أهل دير المُرَّان والأرزَة وسطَرا فدخلوا دمشق من باب الفراديس، وأقبل النضر بن عمر الجَرَشيُّ في أهل جَرش وأهل الحديثة ودير زَكّا فدخلوا من باب الشرقيّ، وأقبل رِبْعيُّ بن هاشم الحارثي في الجماعة من بني عذر وسلامان فدخلوا من باب توما، ودخلت جُهينة ومَن والاهم مع طَلحة بن سعيد. فقال بعض شعراء اليمانية ـ (وهو عمران الكلبي): ـ

فجاءَتهُمُ أنصارُهُمْ حين أصْبَحُوا ... سَكاسِكُها أهلُ البُيُوتِ الصَّنادِدِ
وكلبٌ فجاؤوهم بخيَلٍ وعُدَّةٍ ... مِنَ البَيْض والأبدانِ ثم السَّواعِدِ
فأكرمْ بهم أحياءَ أنصار سُنَّةٍ ... هُمُ مَنَعُوا حُرُماتِها كلَّ جاحدِ
وجاءتهُمُ شعبان والأزدُ شُرَّعاً ... وعَبْسٌ ولخمٌ بين حام وذائِدِ
وغَسانُ والحيَّان قيسٌ وتَغْلِبٌ ... وأحْجَمَ عنها كلُّ وانٍ وزاهِدِ
فما أصْبَحُوا إلا وهُمْ أهلُ مُلكِها ... قد اِستَوثَقُوا من كلِّ عاتٍ ومارِدِ»

قوله: (فما أصبحوا إلا وهُمْ أهلُ مُلكها) يعني دمشق، وكان الانقلاب ليلة الجمعة لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ. فما أصبحوا إلا وقد ملكوا دمشق، وأقبل القادة والرؤساء المشاركون في الانقلاب بفرسانهم من أرجاء الشام وكان يزيد بن خالد قد أبلغهم بالموعد فتحركوا من مناطقهم فلم يأت الصبح إلا وهم في دمشق، مئات القادة والرؤساء وعشرات الآلاف من الفرسان. قال ابن زهير: فما انتصف النهار حتى بايعوا يزيد بن الوليد، وتَمَثَّل يزيد: ـ

إِذا استُنْزِلوا عَنهُنَّ لِلطعْنِ أرْقَلوا ... إلى الموتِ إرقالَ الجمالِ المصاعِبِ

فجعل أصحاب يزيد ـ الذين كانوا معه في منزل ابن مصَاد ـ يتعجبون ويقولون: انظروا إلى هذا هو قبيل الصبح يُسبح وهو الآن ينشد الشعر».

٤ ـ قَتْل الخليفة الوليد بخالد القَسْري

أتى الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك خبر الانقلاب ونجاحهم بأخذ دمشق وغيرها وهو بالأغدف ـ قال ابن زهير ـ والأغدف من عمّان، فقال له بيهس بن زميل الكلابي القيسي ويزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: يا أمير المؤمنين سرْ حتى تنزل حمص فإنها حصينة ووجه الجنود إلى يزيد فيُقتل أو يؤسر، وقال له عبد اللّه بن

عنبسة بن سعيد بن أبي العاص: ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره ونساءه قبل أن يُقاتل ويُعذر واللّه مؤيدٌ أمير المؤمنين وناصره، وقال له الأبرش بن سعيد بن الوليد الكلبي: يا أمير المؤمنين تدمر حصينة وبها قومي يمنعونك، فقال: ما أرى أن نأتي تدْمُر وأهلها بنو عامر ـ الكلبيين ـ وهم الذين خرجوا عليَّ ولكن دلني على منزل حصين. فقال: أرى أن تنزل القرّية قال: أكرهها، قال: فهذا الهزيم، قال: أكره اسمه، قال: فهذا البحراءُ قصر النعمان بن بشير، قال: ويحك ما أقبح أسماء مياهكم، فسار في طريق السماوة وهو في مائتين وأربعين، فقال له بيهس الكلابي: أما إذا أبيتَ أن تمضي إلى حمص وتدمر فهذا الحصن البخراء فإنه حصين وهو من بناء العجم، فنزل الوليد حصن البخراء.

وتهيأ ألفان من الفرسان في دمشق للمسير إلى الوليد، فعقد يزيد لمنصور بن جمهور الكلبي على طائفة. وعقد ليعقوب بن عبد الرحمٰن بن سليم الكلبي على طائفة، وعقد لهرم بن عبد اللّه بن دحْيه الكلبي على طائفة أخرى، وعقد لحميد بن حبيب اللخميّ على طائفة أخرى، وعليهم جميعاً عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان ومعه يزيد بن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري، فساروا فتلقاهم ثقل الوليد فأخذوه ونزلوا قريباً من عسكر الوليد، وأتاه رسول العباس بن الوليد بن عبد الملك قائلاً: إني آتيك. فقال الوليد: اخرجوا سريراً، فأخرجوا سريراً فجلس عليه وقال: أعليَّ توثُّبُ الرجال وأنا أثِبُ على الأسد وأنخصُرُ الأفاعي. وهم ينتظرون العباس. فقاتلهم عبد العزيز ويزيد بن خالد وعلى الميمنة عمرو بن حُوَيّ السكسكي وعلى المقدمة منصور بن جُمهور الكلبي وعلى الرجالة عُمارة بن أبي كثلوم الأزدي، وبعثوا زياد بن حصين الكلبي إلى عسكر الوليد يدعوهم إلى كتاب اللّه وسنة نبيه، فقتلوه وحملوا رأسه إلى الوليد وهو على باب حصن البخراءِ، وقُتِل من أصحاب الوليد يزيد بن عثمان الخَشبيّ قتله جناح بن نعيم الكلبي. وبلغ عبد العزيز أن عسكر الوليد ينتظرون قدوم العباس بن الوليد، فأرسل منصور بن جُمهور الكلبي في خيل ومعه يعقوب بن عبد الرحمٰن وهرم بن عبد اللّه بن دحْيه، فلقوا العباس بالشِعب في مائة وخمسين من أصحابه، فقالوا له: أعدل إلى عبد العزيز، فشتمهم، فقال له منصور: واللّه لئن تقدَّمتَ لأنفذن حصينك يعني درعك، فأخذوه إلى عبد العزيز ونصبوا رايةً وقالوا: هذه راية العباس وقد بايع لأمير المؤمنين يزيد بن الوليد، فقال العباس: إنا للّه خُدْعَةٌ من خدَع الشيطان هلك بنو مروان.

وتقاتل الفريقان فانهزم عسكر الوليد، فدخل الوليد القصر وأغلق الباب، فأقام يزيد بن خالد الْقَسْري في مكان عسكر الوليد، وتقدم الآخرون إلى القصر، فعلوا الحائط. قال الطبري: «فكان أول من علا الحائط يزيد بن عنبسة السكسي، فنزل إلى

الوليد وسيف الوليد إلى جنبه فقال له يزيد: نحِّ سيفك، فقال له الوليد: لو أردتُ السيف لكانت لي ولك حالة غير هذه، فأخذ بيد الوليد وهو يريد أن يحبسه ويُؤامر فيه، بينما نزل من الحائط عشرة: منصور بن جُمهور، وحبال بن عمرو الكلبي، وعبد الرحمٰن بن عجلان، وحميد بن نصر اللخميُّ، والسريُّ بن زياد بن أبي كبشة، وعبد السلام بن بكير بن شمّاخ اللخمي، وأبو الأسد مولى خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري، وبشر بن هلباء العامري الكلبي.. وضرب بشر بن هلباء باب قصر البخراء بالسيف وهو يقول: ـ

سَـنَـبـكِـي خـالِـداً بِـمُـهَـنَّـدات ولا تَـذْهَـبْ صـنـائِـعُـهُ ضَـلالا

وضرب عبد السلام اللخمي الوليد على رأسه بالسيف، وضربه السريُّ على وجهه، واحتزَّ أبو علاقة القُضاعي رأسه.. وأقبل أبو الأسد مولى خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري فسلخ من جلد الوليد قدر الكف فأتى بها يزيد بن خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري وكان في عسكر الوليد، فأنهب الناس عسكر الوليد وخزائنه.. وكان قتل الوليد يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ» وقُتل وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. وقيل ابن ٣٦ سنة، وكانت خلافته سنة واحدة وثلاثة أشهر إلا أيام، فقد تولى الخلافة في ٧ ربيع الثاني سنة ١٢٥هـ وقام بحبس خالد الْقَسْري في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ١٢٥هـ وأمر عامل العراق يوسف الثقفي فعذبه وقتله في محرم ١٢٦هـ، فوقع الانقلاب بدمشق ليلة الجمعة ٢١ جمادى الآخرة وتم قتل الوليد في قصر البخراء يوم الخميس ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هجرية.

وبعث نصر بن سعيد الأنصاري أبياتاً إلى القائد يزيد بن خالد بن عبد اللّٰه الْقَسْري بعد الانقلاب الذي قاده بدمشق وقبل قتل الوليد، قال الطبري: «قال نصر بن سعيد الأنصاري: ـ

أَبْـلِـغْ يَـزِيـدَ بـنـي كـرْزٍ مُـغَـلْـغَـلـةً أنـي شُـفِـيـتُ بـغَـيْـب غـيْـرَ مـوْتُـور
قَـطَـعْـتَ أَوْصـال قِـنَّـوْرٍ عـلـى حَـنَـقٍ بِـصَـارمٍ مـنْ سـيُـوف الـهـنْـد مـأثـور
أَمْـسَـتْ حـلائـلُ قـنـورٍ مـجـدَّعَـةً لِـمـصْـرَعِ الـعـبـد قِـنَّـوْر ابـن قـنَّـورِ
ظَـلـتْ كِـلابُ دمَـشْـقَ وَهِـيَ تَـنْـهَـشُـهُ كـأَنَّ أعْـضَـاءَهُ أَعْـضَـاءُ خـنْـزيـر
غـادَرْنَ مِـنْـهُ بـقـايـا عِـنْـدَ مَـصْـرَعـه أنـقـاضَ شـلـو عـلـى الأطْـنَـاب مجْـرُور
حكمْـتَ سَـيْـفك إذْ لـمْ ترضَ حكمَهُـمُ والـسَّـيْـفُ يـحـكُـمُ حُـكـماً غـيْـر تـعـذيـر
لا تَـرْضَ مِـنْ خـالـدٍ إن كـنْـتَ مُـتَّـئِـراً إلّا بـكـلِّ عـظـيـم الـمُـلْـكِ مـشْـهُـور
أسْـعَـرْتَ مُـلْـك نِـزارٍ ثُـمَّ رُعْـتَـهُـمُ بـالـخـيْـلِ تَـرْكُـضُ بـالـشُّـمّ الـمـغـاويـرِ

مـا كـان فـي آلِ قِـنُّـورٍ ولا وَلَـدُوا　　عَـدْلا لبَـدْر السَّمَـاءِ سـاطـع الـنور»

ولم تذكر الروايات من هو قنّور الذي قتله يزيد بن خالد الْقَسْري في دمشق غداة الانقلاب الذي تؤكد أبيات نصر بن سعيد الأنصاري أن قائده هو يزيد بن خالد بقوله: ـ

حكمْتَ سيفك إذْ لمْ ترض حكمَهُمُ　　والسَّيْفُ يحكُمُ حُكماً غيْر تعذير

أسْعَـرْتَ مُـلـكَ نِـزارٍ ثُـمَّ رُعْـتَـهُـمُ　　بـالـخيْـلِ تَرْكُضُ بـالشُّمّ المـغـاويـر

ثم أوضح نصر الأنصاري أن قنوراً الذي قتله يزيد بدمشق ليس يعادل خالداً ولا يعدل بخالد إلا الخليفة الوليد بقوله: ـ

لا تـرض مِـنْ خـالـدٍ إن كُـنْت مُـثَّئراً　　إلَّا بـكـلِّ عـظـيـم الـمُـلـكِ مشْـهُـور

مـا كـان فـي آل قِـنَّـورٍ ولا وَلَـدُوا　　عَـدْلاً لـبَـدْر الـسماءِ سـاطـع الـنـور

وكذلك كان فتم قتل الخليفة الوليد بخالد الْقَسْري. قال الطبري: «حدثني أحمد بن زهير عن عليّ بن محمد عن عمرو بن مروان الكلبيّ قال حدَّثني دُكين بن شمَّاخ الكلبي ثم العامري قال: رأيتُ بشر بن هلباء العامريَّ يوم قُتِل الوليد ضرب باب البخراءِ بالسيف وهو يقول: ـ

سـنـبـكـي خـالـداً بِـمُـهَـنَّـداتٍ　　ولا تَـذْهَـبْ صـنـائِـعُـهُ ضَـلالا»

وبعد قتل الوليد «قال خلف بن خليفة المذحجي: ـ

لقد سَكَّنَتْ كلبٌ وأسباقُ مَذْحِجٍ　　صَـدًى كـان يَـزْقـو لَـيْـلَـهُ غـيـرَ راقِـدِ

تَـرَكْـنَ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ بـخـالِـدٍ　　مُكِبّاً على خَيْشُومِهِ غيرَ ساجِدِ

فـإن تَـقْـطـعـوا مِـنّـا مَـنـاطَ قَـلادَةٍ　　قَـطَّـعْـنـا بـه مـنـكـمْ مَـناطَ قـلائِـدِ

وإن تَـشْـغَـلُـونـا عـن نـدانـا فـإنَّـنـا　　شَـغـلـنـا الـولـيـدَ عـن غـناءِ الـولائـدِ

وإنْ سـافَـرَ الْـقَـسْـريُّ سفْـرَةَ هـالـكٍ　　فـإن أبـا الـعـبـاسِ لـيـس بـشـاهِـدِ

وقال أبو محجن مولى خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري: ـ

سـائـلٌ وَلِـيـداً وسـائـل أهـل عَـسكَـره　　غـداة صـبّـحَـهُ شـؤبُـوبُـنـا الـبَـرِدُ

هَـلْ جاء مِنْ مُـضَـرٍ نَفْسٌ فـتَـمْـنَـعُـهُ　　والخَيلُ تحت عجاج الموت تطّرِدُ

من يَهْجُنَا جاهِلاً بالشعر نَنْقُضهُ　　بـالـبـيض، إنّـا بـهـا نَـهْـجُـو ونـفـتـئـدُ

وذكر لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني قتل الوليد بخالد الْقَسْري في مفاخر اليمانيين بقصيدته الدامغة فقال: ـ

قَـتَـلْـنـا بـالـفـتـى الْـقَـسْـريّ مـنَّـا　　ولـيـدكـم أمـيـر الـمـؤمـنـيـنـا

قال المسعودي في مروج الذهب «قُتِل الوليد يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ والموضع الذي قُتل فيه قرية من قرى دمشق تُعرف بالبخراء» وقال: «وثب يزيد بن الوليد بن عبد الملك بدمشق ليلة الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة، وبايعه الناسُ بعد قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك». وقال الطبري: (قال هشام بن محمد الكلبي: قُتِل الوليد يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ وبايع الناس يزيد بن الوليد بن عبد الملك بدمشق».

٥ ـ القبض على يوسف الثقفي قاتل الإمام زيد وخالد الْقَسْري . . ومقتله

وأما يوسف بن عمر الثقفي الذي تولى العراق بعد خالد بن عبد اللّه الْقَسْري سنة ١٢٠هـ فقد سلف ذكر المدى الذي بلغه في التآمر على خالد الْقَسْري، ولما قتل يوسف الثقفي الإمام زيد بن عليّ في صفر سنة ١٢٢هـ كتب إلى هشام بأن زيد بن علي لم يخرج إلّا برأي خالد، وقد سلف نبأ ذلك وأن هشام بن عبد الملك كذّب يوسفاً، وكان خالد يومئذٍ قد بات شيخاً وإنما كان يوسف يخشى يزيد بن خالد الْقَسْري ولم يزل يكتب إلى هشام بأن يعتقل يزيد بن خالد فلم يتم ذلك، ولما تولى الوليد الخلافة سنة ١٢٥هـ توارى يزيد بن خالد ولحق بمنطقته في سراة اليمن، وكانت المطالبة بيزيد بن خالد من أسباب قيام الوليد باستقدام ثم حبس خالد الْقَسْري في ذي القعدة وذي الحجة سنة ١٢٥هـ حيث قال له الوليد: أين يزيد بن خالد فقال: ببلاد قومه من السراة باليمن وما أوشكه أن يأتي، فقال الوليد: لا ولكنك خلفته طلباً للفتنة لتأتين به أو لأزهقن نفسك، فقال خالد: واللّه لو كان تحت قدميَّ ما رفعتهما لك عنه فاصنع ما بدا لك. فحبسه الوليد ثم سلمه ليوسف فحبسه وعذبه فلم يتكلم بكلمة حتى فاضت روحه الطاهرة في محرم ١٢٦هـ. مما يشير إلى أن الوليد ويوسف كليهما كانا يتوجسان أن سلطانهما أو حياتهما في خطر طالما يزيد بن خالد الْقَسْري حرٌّ لم يتمكنا منه، وبالفعل لم يلبث أن قاد يزيد بن خالد الانقلاب على الوليد في دمشق ليلة الجمعة لتسع ـ أو سبع ـ بقين من جمادى الآخرة ١٢٦هـ.

قال الطبري: «ولما بلغ الخبر يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق، جعل يعمد إلى من بحضرته من اليمانية فيلقيهم في السجون ثم جعل يخلو بالرجل بعد الرجل من المضرية فيقول له: ما عندك إن اضطرب حبل أو انفتق فتق؟ فيقول: أنا من أهل الشام أبايع من بايعوا وافعل ما فعلوا، فلم ير عندهم ما يحب، فأطلق من في السجون من اليمانية، وأرسل إلى الحجاج بن عبد اللّه البصري ومنصور بن نصير وكانا على خبر ما بينه وبين أهل الشام فأمرهما بالكتابة إليه بالخبر، وجعل على طريق الشام أرصاداً، وأقام بالحيرة». قال ابن الكلبي: «لما قُتِل الوليد بن يزيد

لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة بايع الناسُ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بدمشق واستوثق له على الطاعة أهل الشام، فندب ـ فيما قيل ـ لولاية العراق عبد العزيز بن هارون بن عبد اللّه بن دحْيه بن خليفة الكلبي فقال له عبد العزيز: لو كان معي جُند لقبلتُ، فتركه وولاها منصور بن جُمهور الكلبي. وسار منصور بن جُمهور إلى العراق سابع سبعة، فبلغ خبره يوسف بن عمر فهرب، وقَدِم منصور بن جُمهور الحيرةَ في أيام خلون من رجب، فأجابه الناس بالطاعة، فأخرج العطاء من بيوت الأموال لأهل العطاء والأرزاق، واستعمل حريث بن أبي الجهم على واسط وكان عليها محمد بن نباتة فطرقه ليلاً فحبسه، واستعمل جرير بن يزيد بن يزيد بن جرير البجلي على البصرة، وولى العمال، وأخذ البيعة ليزيد بن الوليد بالعراق وكورها. . وذكر عمر بن شجرة: إن عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي كان عامل يوسف على السند فأخذ محمد بن غزان الكلبي فضربه وبعث به إلى يوسف فضربه وألزمه مالاً عظيماً يؤدي منه في كل جمعة نجماً وإن لم يفعل ضُرب خمسة وعشرين سوطاً فجفت بعض أصابعه، فلما تولى منصور بن جمهور الكلبي العراق ولاه السند وسجستان، فأتى ابن غزان سجستان فبايع ليزيد ثم سار إلى السند فأخذه عمرو بن محمد الثقفي وأمر به حرساً يحرسونه وقام إلى الصلاة، فتناول عمرو سيفاً من الحرس فاتكأ عليه مسلولاً حتى خالط جوفه وتصايح الناس فخرج ابن غزان فقال له: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قال: خفت العذاب، فقال: ما كنتُ أبلغ منك ما بلغت من نفسك، فلبث ثلاثاً ثم مات، وبايع ابن غزان الكلبي ليزيد بن الوليد في بلاد السند وأقام بها».

وأما يوسف بن عمر الثقفي فاختفى أياماً بالكوفة في منزل سليمان بن سليم، وأتى منصور بن جُمهور الكوفة فذكر الوليد فعابه وذكر يوسف وجوره، وقامت الخطباء من أهل الكوفة والعراق فشتموا الوليد ويوسف، فأخبر سليمان بن سليم يوسفاً بخطبهم فجعل لا يذكر رجلاً ذكره بسوء إلا قال: عليَّ أن أضربه مائة سوط، أو مائتي سوط، أو ثلثمائة سوط، فتعجب سليمان من طمعه في الولاية بعد. وهيأ له سليمان وعمرو بن محمد بن سعيد بن أبي العاص مَنْ أخرجه من الكوفة وطريق السماوة حتى صار إلى البلقاء بالشام فاختفى بها. فبلغ يزيد بن الوليد أن يوسف بن عمر وأهله بالبلقاء. فقال يزيد لمحمد بن سعيد بن مطرف الكلبي: بلغني أن الفاسق يوسف بن عمر بالبلقاء فانطلق فائتني به. قال محمد بن سعيد الكلبي: فخرجت في خمسين فارساً حتى أحطتُ بداره بالبلقاءِ فلم نزل نفتش فلم نر شيئاً وكان يوسف قد لبس لبسة النساء وجلس مع نسائه وبناته، فوجدنا أثره، ففتشناهن، فوجدناه بين نسوة قد ألقين عليه قطيفة خزّ وجلسن على حواشيها حاسرات، فظفرنا به بين النساء،

فجرّيناه برجله، وجئنا به في وثاق إلى يزيد بن الوليد، فحبسه في السجن مع الغلامين ابني الوليد، فمكث في السن خلافة يزيد كلها وشهرين وعشرة أيام من خلافة إبراهيم، فلما قَدِم مروان الشام وقَرِب من دمشق تولى قتلهم يزيد بن خالد الْقَسْري فأرسل يزيد بن خالد مولى لخالد يُكنى أبا الأسد في عدّة من أصحابه فدخل السجن وأخرج يوسف بن عمر الثقفي وضرب عنقه.

* * *

ثامن عشر: خاتمة من أنباء آل خالد الْقَسْري

١ ـ يزيد بن خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري

جاء في ترجمته بكتاب الجامع: «يزيد بن خالد بن عبد اللَّه بن يزيد بن أسد الْقَسْري البَجَلي: أمير. كان مع أبيه في العراق، وقُتل أبوه، فانتقل لى غوطة دمشق. .» (ص٦٥١) وقد سلف تبيين أن يزيد بن خالد كان يتولى إدارة أموال أبيه وأسرته الخاصة في العراق وكانت له أموال وضياع وأنهار وأسواق في دجلة والكوفة والبصرة ولم يزل كذلك في عهد ولاية أبيه للعراق وخاصة من سنة ١٠٩ ـ ١٢٠هـ ثم بعد انتهاء ولاية أبيه، واتهام يوسف الثقفي عامل العراق إياه بأنه أعطى الإمام زيد بن علي وأصحابه أموالاً عظيمة فحبسه في الحيرة في شوّال ١٢١هـ وقام بتعذيبه، واتضح عدم صحة التهمة فأطلق سراحه بأمر الخليفة هشام، وبينما غادر خالد العراق إلى الرُّصافة مكث يزيد بن خالد في الكوفة إلى أن وقعت ثورة الإمام زيد بن علي في صفر سنه ١٢٢هـ، فغادر يزيد بن خالد الكوفة وسلك طريق بادية السماوة حتى لحق بدمشق، وكتب يوسف الثقفي إلى الخليفة هشام يطلب القبض على يزيد بن خالد والبعث به إليه، فكتب هشام بذلك إلى عامل دمشق فقام بتوجيه قوة من الفرسان إلى منزله فخرج إليهم يزيد بن خالد على حصانه شاهراً سيفه، فأخرجوا له عن الطريق، فتوارى في الغوطة وأتى أمر الخليفة هشام بالكفّ عنه، فسار يزيد إلى هشام بالرّصافة وعاد إلى دمشق. وفي صيف سنة ١٢٢هـ سار يزيد بن خالد مع أبيه وجند الشام فغزوا بلاد الروم وعادوا بالظفر والغنائم ـ في رجب ١٢٢هـ ـ فلما وصلوا إلى درب الشام مضى يزيد بن خالد إلى حمص وعاد أبوه خالد إلى دمشق، ثم عاد يزيد إلى دمشق فأقام بها، ثم أقبل إلى اليمن.

وكان يزيد بن خالد في منطقة قَبِيلتِهِ بَجِيلة في السراة باليمن حينما توفي هشام بن عبد الملك وتولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك في شهر ربيع سنة ١٢٥هـ ثم استقدم الوليد خالداً من دمشق ـ وذلك عندما قتل نصر بن سيار القيسي عامل خراسان يحيىٰ بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وبعث برأسه

إلى الوليد ـ فقال الوليد لخالد: أين ابنك يزيد؟ فقال: عند قومه بالسراة وما أوشكه أن يأتي، ـ قال ابن خلدون: « . . فقال الوليد: إنما خلفته طلباً للفتنة، فقال خالد: إنّا أهل بيت طاعة، فقال: لتأتيني به أو لأزهقن نفسك، فقال: واللّه لو كان تحت قدميّ ما رفعتهما عنه، فحبسه الوليد». ثم سلمه إلى يوسف الثقفي فحبسه في الحيرة وقتله بالتعذيب في محرم ١٢٦هـ.

وانطلق يزيد بن خالد من منطقة السراة باليمن إلى الشام ـ في حوالي شهر ربيع ١٢٦هـ ـ وتوارى ببادية الشام، والتقى وتواصل مع رؤساء اليمانية بالشام وقرروا القضاء على خلافة الوليد وعملوا في سبيل ذلك إلى أن تم تنفيذ الانقلاب على الوليد بمدينة دمشق ليلة الجمعة لتسع بقين من جمادى الآخرة ١٢٦هـ بقيادة يزيد بن خالد والرؤساء والفرسان اليمنيين: ـ

فما أصبحوا إلا وهم أهل ملكها قد استوثقوا من كل عاتٍ ومارد

وقال نصر بن سعيد الأنصاري يثني على يزيد بن خالد القسري:

أَبْلِغْ يزيد بني كرْزٍ مُغَلغَلةً أني شُفِيتُ بغَيْب غَيْر موْتُور
. . حَكَّمْتَ سَيْفكَ إذ لم ترضَ حُكْمَهُم والسَّيْفُ يحكُمُ حكماً غير تعذير
أسْعَرْتَ مُلْك نزارٍ ثُم رُعتَهُمُ بالخيل تركُضُ بالشُمّ المغاوير
لا تَرْضَ مِن خالدٍ إن كنْتَ مُتَّئراً إلّا بكل عظيم المُلكِ مشهور

وانطلق يزيد بن خالد بالخيل تركضُ بالشُم المغاوير إلى الخليفة الوليد في حصن بخراء، وتم قتل الوليد داخل القصر فقام أبو الأسد مولى خالد فسلخ من جلد الوليد قدر الكف، فأتى بها يزيد بن خالد الْقَسْري وهو في معسكر عسكر الوليد، فقيل: إن الحمد للّه رب العالمين، وعاد يزيد بن خالد والقادة والفرسان إلى دمشق وتمت البيعة بالخلافة ليزيد بن الوليد بن عبد الملك ومما يتصل بذلك قال القاضي سعدي أبو جيب في كتابه (مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية) إنه: «كان معاوية مؤسس الدولة الأموية يعتمد في تدعيم عرشه على اليمانية. . وبقيت السيادة لليمنية حتى (أيام) هشام بن عبد الملك. وجاء الوليد بن يزيد وقرّب القيسية مما حدا بالقبائل اليمنية أن تجتمع وتتكاتل وتبايع يزيد بن الوليد وتقضي على الوليد وتقتله حتى إذا تولى يزيد الخلافة اعتمد على اليمانية». (ص١١١).

وكان يزيد بن الوليد بن عبد الملك رجلاً صالحاً ذا ديانة، فأقام يزيد بن خالد الْقَسْري في دمشق فكان من المشيرين على الخليفة يزيد بن الوليد في تولية الأمراء وغير ذلك من الأمور مما فيه صلاح دولة الخلافة، فكان من ولاة وأمراء الولايات والأقاليم في خلافة يزيد بن الوليد الأمير الضحاك بن وائل السكسكي أمير ولاية

اليمن، وضبعان بن روح بن زنباع الجذامي أمير فلسطين ومعاوية بن يزيد بن الحصين السكوني أمير إقليم حمص، وأبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي أمير الأندلس وحنظلة بن صفوان الكلبي أمير إفريقية الشمالية، وحفص بن الوليد الحضرمي أمير ولاية مصر، ومنصور بن جُمهور الكلبي أمير العراق ومشارقها (رجب ـ رمضان ١٢٦هـ) وكان من عُماله عبيد اللّه بن العباس الكندي أمير الكوفة وجرير بن يزيد بن يزيد بن جرير البجلي أمير البصرة ومحمد بن غزان الكلبي أمير السند وسجستان، ولا يعني ذلك أن كل الولاة من اليمانيين فقد كان إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك أميراً للأردن ومروان بن محمد بن مروان أميراً للجزيرة الفراتية وأرمينية، ثم تولى العراق وما إليها عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز وعاد منصور بن جمهور إلى الشام ـ في رمضان ـ فأصبح من المستشارين وذوي الرأي، إلى أن مات الخليفة يزيد بن الوليد بدمشق يوم الأحد آخر ذي الحجة ١٢٦هـ وكانت خلافته خمسة أشهر وبضعة أيام.

ثم تولى الخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ـ في مطلع محرم ١٢٧هـ فكان يزيد بن خالد الْقَسْري من كبار المشيرين الأمراء على الخليفة إبراهيم واستمر الولاة والأمراء كما كانوا، وتولى الزعيم اليماني ثابت بن نعيم الجذامي ديوان فلسطين للخليفة إبراهيم، وانعقدت لثابت بن نعيم رئاسة اليمانيين بالشام. ولم يكن للخليفة إبراهيم سابقة ومكانة، فخرج عليه أمير الجزيرة الفراتية وأرمينية مروان بن محمد بن مروان وتقدم إلى قنسرين وحمص فانضم إليه رؤساء وأهالي إقليم حمص بزعامة معاوية بن يزيد بن الحصين السكوني فدخلت قنسرين وحمص في دعوة مروان ـ في صفر ١٢٧هـ ـ وبعث الخليفة إبراهيم جيشاً من دمشق بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك ومعه يزيد بن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري وعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك وغيرهم، فالتقوا بمشارف حمص. وكان سليمان بن هشام في مائة وعشرين ألفاً ومروان في ثمانين ألفاً، فسرب مروان عسكراً من خلفهم فانهزموا وأثخن فيهم أهل حمص، وانضم بعض العسكر والقادة إلى مروان، وانسحب سليمان بن هشام ويزيد بن خالد وعبد العزيز إلى دمشق، وكان مروان بن محمد يقول إنه يدعو للحكم وعثمان ابنيّ الخليفة الوليد المقتول وكانا في السجن بدمشق. قال ابن خلدون: «وعاد يزيد بن خالد الْقَسْري إلى دمشق فاجتمع مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج وتشاوروا في قتل الحَكَم وعثمان ـ ابنيّ الوليد ـ خشية أن يطلقهما مروان، وولوا ذلك يزيد بن خالد الْقَسْري فبعث مولاه أبا الأسد فقتلهما، وأخرج يوسف بن عمر الثقفي ـ من السجن ـ وقتله». ـ وذلك في أواسط صفر ١٢٧هـ.

قال الطبري: « . . وقرب مروان من الشام ـ أي دمشق ـ وخرج إليه إبراهيم ـ الخليفة ـ فقاتله، فهزمه مروان، وخرج إبراهيم هارباً، وسار إسماعيل بن عبد اللّه

الْقَسْري أخو خالد هارباً وكان في عسكر إبراهيم) ـ وأخذ سليمان بن هشام بيت المال وخرج بمن معه من الجند وأهله ومواليه من دمشق إلى تدمر»، وتوارى يزيد بن خالد الْقَسْري في قرى غوطة دمشق، ودخل مروان وجنوده دمشق، فأتى بأبي محمد السفياني فسلم عليه بالخلافة، وسمع الناس فبايعوه وكان أول من بايعه معاوية بن يزيد بن الحصين السكوني ثم بايعه الناس وفيهم ثابت بن نعيم الجذامي كبير اليمانيين، وبذلك انتهت خلافة إبراهيم وتولى الخلافة مروان بن محمد بن مروان ـ وذلك في أواخر ربيع الثاني سنة ١٢٧هـ ـ.

ولما تم لمروان أمر الخلافة بالشام اختار أهل فلسطين أن يولي عليهم ثابت بن نعيم الجذامي، فولاه على فلسطين واختار أهل إقليم حمص أن يولي عليهم عبد اللّه بن شجرة الكندي فولاه على حمص. وولى مروان على الأردن الوليد بن معاوية بن مروان، وولى على دمشق زامل بن عمرو الحرّاني، فكان في تولية أولئك الأربعة شيء من التوازن، ثم انصرف مروان من دمشق والشام إلى مدينة حرّان في إقليم الجزيرة الفراتية، فأقام بها، وطلب منه إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام الأمان فأعطاهما الأمان، فسارا إليه وبايعاه. وما لبث مروان بن محمد أن أظهر التعصب للقيسية المُضرية وقام بعزل الضحاك بن وائل السكسكي أمير ولاية اليمن واستعمل على اليمن القاسم بن عمر الثقفي شقيق يوسف بن عمر الثقفي، وبلغ التعصب بمروان إلى نقل العاصمة من دمشق والشام إلى مدينة حرّان، وقد برر القاضي سعدي أبو جيب ذلك في كتابه (مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية) قائلاً: « . . ربما كان عذر مروان في نقل العاصمة إلى حرّان أنها كانت مركز القيسية. . ولا يمكن أن يبقى عند سواهم، وهو من جهة أخرى لا يثق بالجيش الشامي واليمانيون فيه أكثرية». (ص١٤٧).

وفي مواجهة عصبية مروان تكاتب ثابت بن نعيم الجذامي ويزيد بن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري والأصبغ بن ذؤالة الكلبي وعدد من رؤساء اليمانية لخلع مروان بن محمد، قال القاضي سعدي أبو جيب: «كان ثابت بن نعيم بايع مروان بن محمد بدمشق، فولاه فلسطين بناءً على رغبة أهلها. ثم كاتب اليمانية وراسلهم ودعاهم إلى خلع مروان، وليس عمل ثابت بمستغرب فهو يماني العصبية بل هو رأس اليمانية في زمنه» (ص٢٩) وقال الطبري: «لما استوت لمروان بن محمد الشام وانصرف إلى منزله بحران لم يلبث إلا ثلاثة أشهر حتى خالفه أهل الشام وانتقضوا عليه وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نعيم الجذاميّ ـ أمير فلسطين ـ كاتبهم وراسلهم. . وثار أهل الغوطة إلى مدينة دمشق فحاصروا أميرهم زامل بن عمرو، وولوا عليهم يزيد بن خالد الْقَسْري، وثبت مع زامل في المدينة وقائد في نحو أربعمائة يُقال له أبو هبار القرشي. . . وخرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين حتى أتى مدينة طَبَرِيَّة فحاصرها وعليها الوليد بن معاوية بن مروان ـ عامل

الأردن ـ). قال ابن خلدون: «وراسل ثابت بن نعيم أهل حمص في الخلاف على مروان فأجابوه» ـ وكذلك استجاب أهل مناطق تدمر وفيهم الأصبغ بن ذؤالة الكلبي، ومعاوية السكسكي فارس أهل الشام. وبذلك ثارت وانتقضت أغلب الشام على مروان ولم يبق معه سوى زامل بن عمرو عامل دمشق الذي يحاصره يزيد بن خالد القَسْري، والوليد بن معاوية الذي يحاصره ثابت بن نعيم في طبرية، بينما «انتقض على مروان وخالفه أهل حمص وسائر أهل الشام، وخلعوه». وكانت الثغرة الرئيسية في تلك الحركة أنها لم تدعُ إلى خليفة بدلاً عن مروان، والأصح أن قادة الحركة كتموا اسم الشخص الذي قرروا أن يكون الخليفة بدلاً عن مروان، وهو ـ فيما تشير القرائن ـ سليمان بن هشام بن عبد الملك وكان سليمان عند مروان في حرّان، ولذلك كتموا اسمه غالباً، وأياً كان الاسم والسبب فإن خلع الخليفة القائم ـ مروان ـ وعدم إعلان خليفة مكانه قد أضعف قدرة تلك الحركة وقادتها على الصمود. فعندما بلغ مروان انتقاض أهل حمص وسائر الشام زحف إليهم مروان بجيش كبير من حرّان واصطحب معه إبراهيم بن الوليد المخلوع وسليمان بن هشام بن عبد الملك. قال الطبري: «وأرسل أهل حمص إلى مَنْ بتدمر من كلب ـ لإمدادهم ـ فشخص إليهم الأصبغ بن ذؤالة الكلبي وبنوه الثلاثة، ومعاوية السكسكي وكان فارس أهل الشام وهشام بن مصَاد الكلبي، وطفيل بن حارثة ونحو ألف من فرسانهم فدخلوا مدينة حمص ليلة الفطر سنة ١٢٧هـ ومروان بحماة ليس بينه وبين حمص إلا ثلاثون ميلاً، فجدّ في السير، فانتهى إلى مدينة حمص بعد الفطر بيومين، وقد ردموا أبوابها من داخل، فأحدقت خيله بالمدينة، ـ ومعه إبراهيم المخلوع وسليمان بن هشام في موكبه ـ فناداهم منادي مروان: ما دعاكم إلى النكث؟ قالوا: إننا على طاعتك لم ننكث، فقال لهم: فإن كنتم على ما تذكرون فافتحوا، ففتحوا الباب» ـ وعندئذٍ اقتحمت قوات مروان المدينة، ووقع قتال داخل المدينة، وأفلت الأصبغ بن ذؤالة الكلبي ومعاوية السكسكي ومئات من الفرسان، وصلب مروان القتلى حول المدينة وهم خمسمائة، وهدم من حائط مدينة حمص نحواً من غلوة ـ وكان قد «ثار أهل الغوطة إلى مدينة دمشق فحاصروا أميرهم زامل بن عمرو الحرّاني وولوا عليهم يزيد بن خالد القَسْري، وثبت مع زامل المدينة وقائد في نحو أربعمائة يقال له أبو هبار القرشي، فوجّه مروان إليهم من حمص أبا الورد بن الكوثر بن زفر ـ القيسي ـ في عشرة آلاف ـ فلما دنوا من المدينة حملوا عليهم وخرج أبو هبار وخيله من المدينة، فأحاطوا بهم من الجهتين، فهزموهم واستباحوا عسكرهم وأحرقوا المِزّة من قرى اليمانية، ولجأ يزيد بن خالد القَسْري وأبو علاقة إلى رجل من أهل المزّة فدلَّ عليهما، فأرسل إليهما زامل، فقُتلا، قبل أن يوصلا بهما إليه. .» (ص٥٥، جـ٩) ـ وقال ابن خلدون: « . . قتلوا يزيد بن خالد القَسْري وبعثوا برأسه إلى مروان ثم أحرقوا المزّة وقرى البارمة» (ص٤٧٥) وقد

قاتل يزيد بن خالد في ذلك اليوم حتى قُتل وارتفعت روحه إلى السماء، ثم قطعوا رأسه بعد موته وأحرقوا المِزَّة وغيرها من قرى غوطة دمشق، وكان مقتل يزيد بن خالد في شوّال ١٢٧هـ الموافق ٧٤٤م.

٢ ـ محمد بن خالد الْقَسْري

من أعلام الشخصيات اليمانية هو الأمير محمد بن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري. وُلد محمد بن خالد عندما كان أبوه والياً لمكة المكرمة (٨٩ ـ ٩٧هـ) فلما تولى خالد العراق (١٠٥ ـ ١٢٠هـ) كان يزيد بن خالد ومحمد بن خالد معه بالعراق ثم عادا مع أبيهما إلى دمشق بعد انتهاء ولاية خالد للعراق.

وفي سنة ١٢٢هـ كان محمد بن خالد مرابطاً في ساحل الشام للتصدي لغارة الروم، حيث جاء في تاريخ الطبري أنه: «أقام خالد بدمشق حتى حضرت الصائفة فخرج فيها ومعه يزيد وهشام ابنا خالد بن عبد اللّه.. وكان إسماعيل بن عبد اللّه والمنذر بن أسد بن عبد اللّه ومحمد وسعيد ابنا خالد بالساحل لحدثٍ كان من الروم». (ص١٨/ ٩).

وكان محمد مع أخيه يزيد في الأحداث التي تلت مقتل خالد بن عبد اللّه الْقَسْري ـ في محرم ١٢٦هـ ـ ثم مقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك على يد اليمنيين ثأراً لخالد ـ في جمادى الآخرة ١٢٦هـ ـ واستخلاف يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ثم عاد محمد بن خالد إلى الكوفة في إحدى فترتين: ـ

الأولى: في رجب ١٢٦هـ حيث ولى يزيد بن الوليد على العراق منصور بن جُمهور الكلبي. فتوجّه منصور في جماعة من الفرسان إلى الكوفة وتولى العراق في أوائل رجب ١٢٦هـ حيث «ولى منصور على البصرة جرير بن يزيد بن جرير البجلي، وولى على الكوفة عبيد اللّه بن العباس الكندي. وأقام منصور والياً للعراق بقية رجب وشعبان ورمضان وانصرف لأيام بقين منه» (ص٢٨ و ٩/٣٤ ـ الطبري)ـ وفي تلك الفترة عاد محمد بن خالد إلى الكوفة واستقر بها ـ غالباً ـ وكان أمير الكوفة عبيد اللّه بن العباس الكندي، فلما انصرف منصور إلى الشام ولّى يزيد بن الوليد على العراق عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز حيث قال الطبري: «لما وُلِّي عبد اللّه بن عمر العراق وَلَّى على الكوفة عبيد اللّه بن العباس الكندي وعلى شُرْطة عمر بن الغضبان القبعثري فلم يزالا كذلك حتى مات يزيد بن الوليد وقام إبراهيم بن الوليد». في أواخر ذي الحجة ١٢٦هـ.

الثانية: فترة خلافة إبراهيم بن الوليد (محرم ـ ربيع ١٢٧هـ) فأقرّ إبراهيمُ عبد اللّه بن عمر على العراق ووجّه إسماعيل بن عبد اللّه الْقَسْري أميراً على الكوفة في صفر ١٢٧هـ فكان محمد بن خالد مع عمه إسماعيل بالكوفة. وقد كان إسماعيل

ويزيد بن خالد مع الخليفة إبراهيم بن الوليد في محاربة مروان بن محمد بمشارف حمص في صفر ١٢٧هـ ومما يتصل بالزمن قال المسعودي في مروج الذهب «بويع مروان بن محمد يوم الاثنين ١٤ صفر سنة ١٢٧هـ» وأنه: «كان إبراهيم بن الوليد قام بالأمر فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر» (ص٢٣٣/ ٣) وقد أسفرت المواجهة بين إبراهيم ومروان بمشارف حمص في صفر ١٢٧هـ عن انهزام جيش إبراهيم وعودته إلى دمشق. وقد جاء في رواية بتاريخ الطبري أنه: «هزم مروان إبراهيم وظفر به وخرج هارباً، وأقبل إسماعيل بن عبد اللَّه أخو خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري هارباً حتى أتى الكوفة فافتعل كتاباً على لسان إبراهيم بولاية الكوفة فأرسل إلى اليمانية فأخبرهم سراً أن إبراهيم بن الوليد ولاه العراق فقبلوا ذلك منه». (ص٥٠، جـ٩) وقد خلطت تلك الرواية بين حادثتين، أولاهما عند انهزام جيش إبراهيم وعودته إلى دمشق في صفر ١٢٧هـ حيث ـ كما ذكر ابن خلدون «اجتمع يزيد بن خالد الْقَسْري وإبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وتشاوروا في قتل الحَكَم وعثمان ـ ابني الوليد ـ خشية أن يطلقهما مروان، وولوا ذلك يزيد بن خالد، فبعث مولاه أبا الأسد فقتلهما. وأخرج يوسف بن عمر الثقفي من الحبس ـ فقتله» ـ وذلك أيضاً خشية أن يطلقه مروان ويوليه العراق، وعندئذٍ ـ في صفر ١٢٧هـ ـ ولى إبراهيم بن الوليد على الكوفة إسماعيل بن عبد اللَّه الْقَسْري فَقَدِم إسماعيل الكوفة وتولاها في إطار ولاية عبد اللَّه بن عمر للعراق، وقد جاء في تاريخ الطبري ما يلي نصه: «وُلّي إسماعيل بن عبد اللَّه الْقَسْري الكوفة وكان على شُرطة أبان بن الوليد البجلي» (ص٥٩، جـ٩) فمكث إسماعيل والياً للكوفة من صفر إلى ربيع الثاني ١٢٧هـ حيث وقعت الحادثة الثانية وهي انهزام الخليفة إبراهيم بن الوليد في دمشق وهروبه منها ودخول مروان بن محمد دمشق ومبايعته فيها حيث «خُلع إبراهيم في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٧هـ» وعندئذٍ وقع ما جاء في رواية الطبري من أنه: «افتعل إسماعيل كتاباً على لسان إبراهيم بن الوليد وأرسل إلى اليمانية فأخبرهم سراً أن إبراهيم بن الوليد ولاهُ العراق فقبلوا ذلك منه. وبلغ الخبر عبد اللَّه بن عمر فباكره صلاة الغداة، فقاتله، فلما رأى إسماعيل ذلك ولا عهد معه وصاحبه الذي افتعل العهد على لسانه هاربٌ منهزم.. قال لأصحابه: إنّي كاره لسفك الدماء ولم أحسّ أن يبلغ الأمر ما بلغ فكُفّوا أيديكم. فتفرق القوم عنه. فقال إسماعيل لأهل بيته: إن إبراهيم قد هرب ودخل مروان دمشق، فَحُكي ذلك عن أهل بيته فانتشر الخبر واشرأبت الفتنة ووقعت العصبية بين الناس». (ص٥٠، جـ٩).

وأشعل القادة اليمانيون المعارضة لخلافة مروان بن محمد في العديد من الولايات والأقاليم، ـ وهو ما تسميه الروايات باسم (العصبية) ـ وتولى قيادة المعارضة بالعراق إسماعيل بن عبد اللَّه الْقَسْري ومنصور بن جُمهور الكلبي، فكان محمد بن خالد مع عمه

إسماعيل، وأيّد اليمانيون عبد اللّٰه بن عمر بن عبد العزيز في معارضة ومحاربة النضر بن سعيد القيسي الذي بعثه مروان والياً للعراق. قال القاضي سعدي أبو جيب: «كان النصر بن سعيد في الكوفة ومعه المُضَرية، وعبد اللّٰه بن عمر في الحيرة ومعه اليمانية. والحرب بينهما مستعرة. وفي ذلك الجو قَدِم الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي إلى الكوفة ومعه ثلاثة آلاف مقاتل» (اهـ). قال الطبري: «ويُقال: إنما قَدِم الضحاك، وإسماعيل بن عبد اللّٰه الْقَسْري بالقصر ـ قصر الأمير بالكوفة ـ وعبد اللّٰه بن عمر بالحيرة» (ص٥٠/٩) ـ ثم اجتمع إسماعيل وعبد اللّٰه بن عمر والقادة وساروا لقتال الضحاك بمنطقة النخيلة ـ بالقرب من الكوفة ـ فالتقوا يوم الأربعاء في رجب ١٢٧هـ فتقاتلوا إلى يوم السبت وانضم النضر بن سعيد إلى عبد اللّٰه بن عمر في قتال الضحاك والخوارج. قال الطبري: «فانهزم ابن عمر وأصحابه والنضر وأصحابه.. ولحق أكثر أصحاب ابن عمر بواسط. وكان ممن لحق بواسط: إسماعيل بن عبد اللّٰه الْقَسْري. ومنصور بن جُمهور الكلبي، والأصبغ بن ذؤالة الكلبي وجميع الوجوه.. ودخل الضحاك الكوفة في شعبان ١٢٧هـ فأقام بها، ثم سار إلى واسط مُتّبعاً ابن عمر وأصحابه، فنزل باب المضمار، فجعل أصحاب ابن عمر يعبرون الجسر فيقاتلون الضحاك وأصحابه ثم يعودون.. فلم يزالوا على ذلك شعبان وشهر رمضان وشوّال». قال القاضي سعدي أبو جبيب: «وبإيحاء من منصور بن جُمهور الكلبي بايع عبد اللّٰه بن عمر الضحاك في أواخر شوّال ١٢٧هـ بينما عاد النضر بن سعيد ومن معه إلى مروان» (اهـ) وقد بايع عبد اللّٰه بن عمر ومنصور بن جُمهور وإسماعيل الْقَسْري وأصحابهم الضحاك الخارجي بيعة تحالف في مواجهة خلافة مروان بن محمد، وسيطرت المعارضة على العراق ومشارقها إلى أن بعث مروان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري القيسي والياً للعراق ومعه جيش كثيف ـ في رمضان ١٢٩هـ ـ وكان بالكوفة المثنى بن عمران العائذي أميراً على أصحابه من الخوارج ومنصور بن جُمهور الكلبي ومعه اليمانية ـ وفيهم إسماعيل الْقَسْري ومحمد بن خالد ـ بينما كان عبد اللّٰه بن عمر بن عبد العزيز في الحيرة، وكانت البصرة وإقليم الأهواز بيد المعارضة بزعامة سليمان بن حبيب بن المُهلّب. حيث ـ كما جاء في تاريخ الطبري: «سار ابن هبيرة في جنود كثيرة إلى الكوفة وعليها يومئذٍ من الخوارج المثنى بن عمران العائذي، وانحط ابن هبيرة حتى نزل عين التمر، فسار إليه المثنى فيمن معه من الشراة ومعه منصور بن جُمهور الكلبي، فاقتتلوا أياماً متوالية فَقُتِل المثنى، ونجا منصور حتى دخل الكوفة فجمع بها جمعاً من اليمانية والصّفَرية ثم سار بهم حتى نزل الروحاء، فأقْبَلَ ابن هبيرة في أجناده فقاتلهم أياماً فانهزموا، ودخل ابن هبيرة الكوفة في رمضان ١٢٩هـ ومضى منصور إلى الصراة فنزل بها، فسار إليه ابن هبيرة فالتقوا بالصراة، فهزمهم. فمضى منصور بن جمهور إلى الماهين والجبل ـ وسار ابن هبيرة إلى واسط فأخذ

عبد اللَّه بن عمر بن عبد العزيز فحبسه . . ووجَّه ابن هبيرةُ نباتةَ بن حنظلة في جيش إلى سليمان بن حبيب بن المُهلّب وهو على كور الأهواز، فبعث إليه سليمانُ داودَ بن حاتم بن قَبِيصة بن المُهلّب، فالتقوا بالمري على شاطئ دجيل، فانهزم الناس، وقُتِل داود بن حاتم . . وسار سليمان بن حبيب حتى لحق بفارس» (ص٨١/ ٩) وكان بفارس عبد اللَّه بن معاوية بن عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب وكان ممن بايعه إسماعيل بن عبد اللَّه الْقَسْري ومنصور بن جُمهور الكلبي وعبد الرحْمن بن يزيد بن المُهلّب وكذلك لحق به سليمان بن حبيب بن المُهلّب وبايعه، فبعث ابن هبيرة جيشاً بقيادة عامر بن ضبارة المرّي القيسي إلى فارس «فانهزم ابن معاوية ومضى هارباً إلى سجستان، ومضى منصور بن جمهور إلى السند، وعبد الرحْمن بن يزيد بن المُهلّب إلى عُمان». وبذلك انتهت ـ في ذي القعدة ١٢٩هـ ـ تلك المعارضة التي أشعلها قادة يمنيون ضد خلافة مروان بالعراق ومشارقها واستتب الأمر فيها لعمال وجيوش مروان بن محمد، وتوجه إسماعيل بن عبد اللَّه الْقَسْري إلى مروان ودخل في طاعته، وأقام محمد بن خالد الْقَسْري بالكوفة وكان له بها أموال وضِياع وموالي ومعه جماعة من عشيرته، وانتهت زعامة اليمنيين بالكوفة آنذاك إلى شخصيتين محمد بن خالد بن عبد اللَّه الْقَسْري وطلحة بن إسحاق بن محمد بن الأشعث الكندي.

وانضوى محمد بن خالد في الدعوة العباسية ـ سراً ـ وكان يُمثل تلك الدعوة بالكوفة والعراق أبو سلمة حَفْص بن سليمان بن الخلال السَّبيعي الهمداني بالولاء، وفي ذات الوقت ـ في جمادى الأولى سنة ١٢٠هـ ـ انضوت المعارضة اليمانية في خراسان بقيادة الأمير علي بن جَديع الكرماني الأزدي في الدعوة العباسية حيث ـ كما قال د. فاروق عمر في كتابه عن التاريخ الإسلامي « . . إن كَسْب ابن الكرماني للدعوة العباسية كان النقطة الفاصلة التي حددت مصير الثورة ووضعتها على طريق النجاح». (ص٩٥ ـ التاريخ الإسلامي) وبانضواء المعارضة اليمانية في الدعوة العباسية تمت السيطرة على ولاية خراسان وتولى الأمر فيها أبو مسلم الخراساني بينما انطلق القائد اليماني قَحْطبة بن شبيب بن خالد الطائي بالجنود في شعبان ١٣٠هـ وهزم الجيش المرواني وقائده نباتة بن حنظلة بجرجان في ذي الحجة ١٣٠هـ ثم هزم وقتل عامر بن ضبارة القيسي بأصبهان في رجب ١٣١هـ، ودخل قَحْطبة ومعه يزيد بن حاتم المهلبي نهاوند في ٥ ذي القعدة سنة ١٣١هـ، ثم تقدم قَحْطبة بجيشه إلى العراق وقد تهيأ ابن هبيرة أمير العراق لقتاله في جيش كبير، فعَسْكَرَ ابن هبيرة عند فم الفرات على بُعد ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة ومعه حوثرة الباهلي في مدد الشام، وأقْبَلَ قَحْطبة بن شبيب الطائي ونزل بجنوده غربي الفرات بإزاء عسكر ابن هبيرة في ٥ محرم ١٣٢هـ. قال ابن خلدون: «وبلغ الخبر الكوفة فثار بها محمد بن خالد الْقَسْري).

ثورة محمد بن خالد القسري بالكوفة وإنهاء سلطة الخلافة الأموية

كانت ثورة محمد بن خالد القسري بالكوفة ـ في ٦ محرم ١٣٢هـ ـ عاملاً رئيسياً في انهزام قوات السلطة المروانية بالعراق وإنهاء الخلافة المروانية وقيام الخلافة العباسية. إن العامل الحاسم في سقوط السلطة المروانية وانهزام قواتها بالعراق لم يكن قوة جيش الدعوة العباسية بقيادة قَحْطبة بن شبيب الطائي فقط وإنما كان أيضاً اندلاع المعارضة داخل العراق وثورة محمد بن خالد القسري بالكوفة حيث كان محمد بن خالد وأبو سلمة حَفْص بن سليمان يمسكان بخيوط عمل سري واسع عندما تقدم قَحْطبة الطائي بجنوده من نهاوند ـ في إيران ـ إلى منطقة حُلوان ـ بالعراق ـ فبعث أبو سلمة ومحمد بن خالد إلى بعض الشخصيات اليمانية للتحرك برجالهم وكان منهم موسى بن السري الهمداني في حلوان، وشوال بن سنان الأنصاري بالأنبار، وسفيان بن معاوية المهلبي بالبصرة. قال ابن النطاح في كتاب أخبار الدولة العباسية: «بعث أبو سَلَمة رُسله ودُعاته من الكوفة إلى البوادي المطلة على أهل الكوفة والبصرة، وبعث إلى الموصل فدبّوا فيهم ودعوهم إلى النهوض.. فخرج موسى بن السري الهمداني بحلوان فأخذها ونفى عاملها ووضع مسالحة بخانقين، وكتب إلى قَحْطبة بطاعته» ـ فأقبل قحطبة إلى حُلوان وتسلمها من موسى الهمداني في ذي الحجة ١٣١هـ ـ فسار ابن هبيرة أمير العراق بالجيش المرواني ونزل بمنطقة جلولاء، فتشاور أبو سلمة مع محمد بن خالد ثم كما ذكر ابن النطاح: «كتب أبو سلمة إلى قَحْطبة: إنّ ابن هبيرة في جموع عظيمة بجلولاء، وإنّي أرى أن تحيد عن عساكر ابن هبيرة وتبادر إلى الكوفة فإن أهل الكوفة معنا وعلى رأينا وهُم متفقون على بغض بني أُمية واستثقال أمرهم، فاقْطعْ هذه الأنهار التي بينك وبين الكوفة وسابق ابن هبيرة إليها، فإنها إن صارت في أيدينا قوينا عليه، وكَثُر مَنْ يقاتله معنا. فلما قرأ قَحْطبةُ كتاب أبي سلمة قال: أصاب واللّه الرأي وأنا عاملٌ بما أمر به.. وسار قَحْطبة من حُلوان حتى انتهى إلى دجلة، وبلغ ذلك ابن هبيرة فانصرف من جلولاء وأقبل يريد لقاء قحطبة قبل أن يعبر الفرات، وقد قيل له: أدرك الرجل فما يريد إلا الكوفة، فأقْبَل نحوه مبادراً ليلقاه. ومضى قَحْطبةُ مسرعاً نحو الأنبار حتى إذا أشرف عليها تلقاهُ شوال بن سنان الأنصاري في نحو مائتي رجل فصار معه، فأخذ الأنبار، وتوافت إليه السُفن، وعَسْكَرَ قَحْطبةُ غربي الفرات لخمس خلون من شهر محرم سنة ١٣٢هـ، وأقْبَلَ ابن هبيرة فعسكر بإزائه. وكتب قَحْطبة إلى أبي سَلَمة يخبره بعبوره الفرات، وبعث بكتابه إليه مع أبي ماجد، رجل من همدان، فلما وصل إليه الكتاب بعث إلى محمد بن خالد القسري رسولاً يقول له: قد كُنتَ تتمنى هذا اليوم، فقد بلغته، فأظْهِرْ السواد واخرُج في مواليك وعشيرتك. فبعث محمد بن خالد إلى مواليه وقومه وجيرته وصنائع أبيه، فاجتمع إليه منهم نحو ألف رجل، فأخبرهم برأيه وما أجْمَعَ عليه، وأمَرَهم ألا يبيتوا

حتى يفرغوا من سوادهم. ـ (والسواد: الأعلام السوداء شعار الدعوة العباسية) ـ وبعث أبو سلمة بمثل ذلك إلى طلحة بن إسحاق بن محمد بن الأشعث الكندي، فتأهب. وبدرة محمد بن خالد فخرج من منزله في جماعة كثيرة، وبعث إليه أبو سَلَمة أصحابه ومن كان معه من جيرته فيمن يليهم وأرغبوهم في الخروج للحاق بمحمد بن خالد، ففعلوا، وانتشر الحديث بذلك فماج أهل الكوفة بعضهم في بعض، وبلغ ذلك زياد بن صالح صاحب شرطة ابن هبيرة فهرب من القصر ولحق بابن هبيرة، ومضى محمد بن خالد حتى أتى القصر فدخله، وخرج إلى المسجد الجامع، وذلك يوم الاثنين لست خلون من المحرم سنة ١٣٢هـ ووافاه طلحة بن إسحاق بن محمد بن الأشعث في جماعة قومه». (ص٣٦٧ ـ أخبار الدولة العباسية).

وجاء في تاريخ ابن خلدون أنه: «كان يزيد بن هبيرة خرج للقاء قَحْطبة في مدد لا يُحصى وكان مروان أمدّه بحوثرة بن سهيل الباهلي في خمسة عشر ألفاً.. وأقْبَل قحطبة إلى حُلوان ثم عَبَر دجلة إلى الأنبار، فرجع ابن هبيرة مبادراً إلى الكوفة، وعَبَر قحطبة الفرات من الأنبار لثمان من محرم ١٣٢هـ وابن هبيرة مُعسْكر على فم الفرات على ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة ومعه حوثرة.. وبلغ الخبر الكوفة فثار بها محمد بن خالد القسري بدعوة الشيعة، وعلى الكوفة زياد بن صالح فهرب زياد ومَنْ معه من أهل الشام» (ص٤٩٤) وجاء في تاريخ الطبري أنه: «خرج محمد بن خالد القسري بالكوفة ليلة عاشوراء، وعلى الكوفة زياد بن صالح الحارثي وعلى شرطته عبد الرحمن بن بشير العجلي. وسوّد محمد بن خالد وسار إلى القصر فارتحل زياد بن صالح وعبد الرحمن العجلي ومَنْ معهم من أهل الشام وخلّوا القصر فدخله محمد بن خالد» (ص١٢٠ جـ٩).

ومما يستلزم التبيين هنا ما يلي:

* ـ إن عبور قَحْطبة من الأنبار إلى الفرات لم يكن (لثمان من محرم ١٣٢هـ) وإنما ـ كما في كتاب أخبار الدولة العباسية ـ «عَسْكَر قَحْطبة غربي الفرات لخمس خلون من محرم ١٣٢هـ وأقْبَلَ ابن هبيرة فعسكر بإزائه. وكَتَبَ قحطبة إلى أبي سلمة يخبره بعبوره الفرات.. فلما وصل إليه الكتاب بعث إلى محمد بن خالد القسري رسولاً يقول له: قد كُنْتَ تتمنى هذا اليوم فقد بَلَغْتَهُ.. إلخ».

* ـ قال ابن خلدون: «وبلغ الخبر الكوفة فثار بها محمد بن خالد القسري بدعوة الشيعة» وقال الطبري: «خرج محمد بن خالد القسري بالكوفة ليلة عاشوراء». بينما الصواب عدم وجود ما يمكن تسميته (دعوة الشيعة) وقد وصف أبو سَلَمة في رسالته إلى قَحْطبة موقف أهل الكوفة بزعامة محمد بن خالد قائلاً: «إن أهل الكوفة معنا وعلى رأينا، وهُمْ متفقون على بُغض بني أمية واستثقال أمرهم». وكذلك فإن خروج وثورة محمد بن خالد بالكوفة لم يكن (ليلة عاشوراء) ولا (يوم العاشر من محرم ١٣٢هـ) ـ وهو

يوم ذكرى مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب عند الشيعة ـ وإنما كان في ٦ محرم ـ وهو غالباً يوم ذكرى مقتل خالد بن عبد اللّٰه القسري في محرم ١٢٦هـ ـ وكانت ثورة محمد بن خالد ثورة بيضاء إذْ توجَّه بالجماهير إلى قصر الإمارة بالكوفة، فهرب زياد بن صالح نائب ابن هبيرة والذين معه، «ومضى محمد بن خالد حتى أتى القصر فدخله، ثم توجَّه إلى المسجد الجامع، وذلك يوم الاثنين لست خلون من محرم ١٣٢هـ» ـ كما هو ثابت في كتاب أخبار الدولة العباسية.

* ـ وفي ذلك اليوم ـ يوم الاثنين ٦ محرم ١٣٢هـ ـ أعلن محمد بن خالد القسري إنهاء سلطة الخلافة المروانية الأموية وبداية سلطة وعصر الخلافة العباسية، حيث جاء في كتاب (أخبار الدولة العباسية) أنه «مضى محمد بن خالد حتى أتى القصر فدخله. وخرج إلى المسجد الجامع، وذلك يوم الاثنين لست خلون من المحرم سنة ١٣٢هـ، ووافاه طلحة بن إسحاق بن محمد بن الأشعث في جماعة قومه. فصعد محمد بن خالد المنبر فحمد اللّٰه وأثنى عليه، وخَلَع مروان، ودعا إلى الرضا من آل محمد. وكان فيما تكلم به يومئذٍ أن قال: يا أهل الكوفة إنّ اللّٰه قد أكرمكم بهذه الدعوة المباركة، وقد طلبها الأبناء بعد الآباء فحُرِموها حتى ساقها اللّٰهُ إليكم، هذه جنود الحق قد أظلتكم داخلة عليكم أحد اليومين، فقوموا فبايعوا. قال: فواللّٰه ما رأيتُ سروراً قط كان أشدّ اجتماعاً عليه مِنْ سرورهم بالبيعة، لقد أطافوا بالمنبر يستبقون إلى البيعة حتى كادوا يكسرونه، فما تَخلّف عن البيعة إلاّ أناس قليل». (ص٣٦٨ ـ أخبار الدولة العباسية).

* ـ وفي اليوم التالي ـ ٧ محرم ـ بعث محمد بن خالد القسري وأبو سَلَمة رسولاً إلى قَحْطبة بخبر ظفر محمد بن خالد بالكوفة وبأن يأتي قَحْطبة إلى الكوفة، بينما وجَّه ابن هبيرة ـ أمير العراق ـ حوثرة بن سهيل الباهلي في جنده، وأمره أن يبادر إلى الكوفة قبل أن يقدمها قَحطبة. وقد جاء في كتاب أخبار الدولة العباسية أنه: «كتب أبو سَلَمة إلى قَحْطبة يُعلمه ما عمل به في إظهار محمد بن خالد» ـ بينما جاء في تاريخ ابن خلدون أنه: «كتب محمد بن خالد إلى قَحْطبة». . وأقول: يجمع القولين أن محمد بن خالد وأبا سَلَمة كتبا مكتوباً واحداً إلى قَحْطبة الطائي، وحَمَل المكتوب إليه محمد بن سليما الهمداني، حيث كما جاء في كتاب أخبار الدولة العباسية «قال محمد بن سليمان: فأتيتُ قَحْطبة في معسكره بإزاء ابن هبيرة قُبيل ارتفاع النهار، وقد جعلا يتسايران على جانبي الفرات. فوجَّه ابن هبيرة عند ذلك الحوثرة بن سهيل في جُنده، وأمره أن يبادر إلى الكوفة قبل أن يقدمها قَحْطبة، فخرج الحوثرة مُغذّاً حتى إذا شارف الكوفة بَلَغَهُ ظهور محمد بن خالد وإطباق أهل الكوفة معه، فأقام بشاهي» ـ وهي مدينةٌ تقع على بُعد خمسة فراسخ من الكوفة ـ قال محمد بن سليمان: «ووافيتُ قَحْطبةَ فناولتُه الكتاب، فلما قرأهُ قَحْطبة كبَّر وارتج العسكر بالتكبير، وسمع ذلك من عَبَرَ الفرات من أصحاب قَحْطبة فكبّروا. فقال أصحاب ابن

هبيرة: قد أتاهم شيء سرّوا به، فانكسروا لذلك، وظهر الفشل فيهم». وأخذ عسكر قَحْطبة يعبرون الفرات إلى الجانب الآخر الذي فيه ابن هبيرة وجيشه.

* ـ وفي ٨ محرم ١٣٢هـ «حَمَل قَحْطبة الطائي على عسكر ابن هبيرة حملة صادقة فهزمهم، وردوا عليه فالجأوه إلى الشط، ثم حمل عليهم فاستحقت الهزيمة عليهم، وانصرفوا منهزمين في الليل.. وكان قَحْطبة لما جالت خيله واقفاً على جرف، فانهار به الجرف، فوقع في الفرات فمات لیلة الأربعاء ٨ محرم، بينما انصرف ابن هبيرة وجنوده منهزمين، وبات أصحاب قَحْطبة في موضعهم، فلما أصبحوا أتوا معسكر ابن هبيرة فغنموا ما كان فيه، وفقدوا قَحْطبة ـ فوجدوه ميتاً ـ، فبايع أصحاب قَحْطبة ابنه حُمَيْد بن قَحْطبة وسلموا إليه الأمر» وذلك في ٩ محرم.

بينما في ذلك اليوم ـ ٨ محرم ـ بالكوفة، كان حوثرة بن سهيل الباهلي وجُند الشام الذين معه قد نزلوا مدينة شاهي منذ اليوم السابق فتهيأوا للمسير إلى محمد بن خالد القسري بالكوفة حيث كما جاء في تاريخ الطبري: «بلغ محمد بن خالد نزول حوثرة ومن معه مدينة ابن هبيرة ـ شاهي ـ وأنه تهيأ للمسير إليه. فتفرق عن محمد عامة من معه إلا فرساناً من فرسان أهل اليمن ممن كان هرب من مروان وموالي محمد بن خالد ـ وعشيرته ـ، وأرسل إليه أبو سَلَمة يأمره بالخروج من القصر واللحاق بأسفل الفرات فإنّه يخاف عليه لقلة من معه وكثرة من مع حوثرة. فأبى محمد بن خالد أن يفعل حتى تعالى النهار. فتهيأ حوثرة للمسير إلى محمد بن خالد حيث بلغه قلّة من معه وخذلان العامة له، فبينا محمد بن خالد بالقصر ـ قصر الكوفة ـ إذْ أتاه بعض طلائعه فقال له: خيلٌ قد جاءت من أهل الشام ـ أي من جنود حوثرة ـ فوجَّه مُحمد إليهم عدّة من أصحابه فأقاموا بباب دار عمر بن سعد، إذْ طَلَعتْ رايات أهل الشام، فتهيأوا لقتالهم، فنادى الشاميون: نحن بَجِيلة وفينا مليح بن خالد البجلي جئنا لندخل في طاعة الأمير محمد بن خالد» ـ وكان فرسان بَجيلة أولئك فرقة من جند الشام الذين مع حوثرة، ويبدو أنهم أبدوا له رغبتهم في أن يكون أول من يدخل الكوفة لمصاولة محمد بن خالد القسري البَجَلي لأنه منهم ولا يريدون أن تقضي عليه قبيلة أخرى، فوجَّههم حوثرة إلى الكوفة بقيادة مليح بن خالد البَجَلي فلما بلغوا باب الكوفة إنضموا إلى الأمير محمد بن خالد القسري، وكانت غالبية بقية جند الشام الذين مع حوثرة من قبيلة كلب القضاعية اليمانيه، فسألوا حوثره أن يوجِّههم لقتال محمد بن خالد لأنهم من قومه اليمانيه ولا يريدون أن تقضي عليه قبيلة أخرى، فوجَّههم حوثرة بقيادة رجل من آل بَحْدِل الكلبي فتوجهوا إلى الكوفة في خيل عظيمة ـ إذْ كانوا زهاء سبعة آلاف ـ وكانت قد سبقتهم بَجِيلة في نحو ثلاثة آلاف وانضموا إلى محمد بن خالد. قال الطبري: «ثم جاءت خيل أعظم منهم مع

رجل من آل بحدل ـ فنادوا: نحن كلب جئنا لندخل في طاعة محمد بن خالد، فدخلوا ـ فلما رأى ذلك حوثرة من صنيع أصحابه، ارتحل نحو واسط بمن معه. وكتب محمد بن خالد من ليلته (ليلة ٩ محرم) إلى قَحْطبة، وهو لا يعلم بهلكه، يُعلمه إنه قد ظفر بالكوفة. وعَجّل بكتابه مع فارسٍ، فقَدِم على الحسن بن قَحْطبة فلما دفع إليه كتاب محمد بن خالد قرأه ـ الحسن بن قَحْطبة ـ على الناس». (ص١٢١ جـ٩) ـ وكان ذلك (صبيحة اليوم الثاني من مهلك قحطبة) ـ فيكون ذلك في ٩ محرم حيث ذكر ابن النطاح أن قَحْطبة مات ليلة الأربعاء ٨ محرم وعرف أصحابه بموته في الصباح، فبايعوا حُمَيْد بن قحطبة أميراً عليهم وتولى أخوه الحسن بن قَحْطبة قيادة الجُند. وبالتالي قرأ عليهم كتاب محمد بن خالد القسري بالظفر على حوثرة والذين معه وهروبه مع مَنْ تبقى معه من ضواحي الكوفة إلى فم النيل، وهي بُليدة قرب الحَلْة. قال ابن النطاح: «وكان ابن هبيرة حين استحقت الهزيمة عليه وعلى من معه ـ ليلة الأربعاء ٨ محرم ـ سار نحو الكوفة ليجتمع بحوثرة ومن معه، فأصبَحَ وقد كَلَّ وكَلَّ من معه، فسار ـ يوم ٩ محرم ـ فلما بلغ سوق أسد (غربي الفرات في طسوج الفلوجة) لقيه الخبر بظهور محمد بن خالد على السواد والكوفة، وإطباق أهل الكوفة معه ـ ولحاق حوثرة بفم النيل ـ فعَدَل ابن هبيرة إلى فم النيل، وقد تسلل عنه كثيرُ من أصحابه، فمنهم من لحق بمحمد بن خالد من أهل اليمن، ومنهم من عَدَل إلى فم النيل، فأقام ابن هبيرة وحوثرة بفم النيل حتى أتاهم دخول ابن قَحْطبة الكوفة وظهور أبي سلمة، فمضوا إلى واسط» وقال الطبري: «أقام محمد بن خالد بالكوفة يوم الجمعة والسبت والأحد، وصَبّحه الحسن بن قَحْطبة يوم الاثنين» ـ وعندئذ تقهقر ابن هبيرة والذين معه إلى واسط وانتهت سلطة الخلافة الأموية بولاية الكوفة وأغلب العراق.

قيام الخلافة العباسية وولاية محمد بن خالد للكوفة

لما وصل مكتوب الأمير محمد بن خالد القسري بالظفر في الكوفة إلى القائدين اليمانييّن حُمْيد بن قَحْطبة الطائي والحسن بن قَحْطبة الطائي أقبلا بِمَنْ معهما مِن الناس والجند مِن الفرات إلى الكوفة. وكان أبو سَلمة حَفْص بن سليمان هو القائم بأمر الدعوة العباسية بالكوفة والعراق وكان مُتستراً ومقيماً في منزله بديار بني السبيع الهمدانيين بالكوفة بينما كان محمد بن خالد في قصر الإمارة بالكوفة. قال ابن النطاح في كتاب أخبار الدولة العباسية: «أقْبَلَ حُميد بن قَحْطبة يَسيرُ بالناس حتى نزل دير الأعور ثم دخل العباسية ـ بظاهر الكوفة ـ فنزلها يوم الجمعة، يوم عاشوراء، وصلى بالناس بالكوفة يومئذ محمد بن خالد القسري وقال وهو يدعو على المنبر: اللهم أصلح الإمام من آل محمد. ولم يُسمّه». (ص٣٧٣) وجاء في تاريخ الطبري إنه في يوم الجمعة ـ يوم عاشوراء ـ «دعا محمد بن خالد الناس إلى البيعة، وضَبَطَ

الكوفة، وأقام محمد بن خالد بالكوفة يوم الجمعة والسبت والأحد، وصبّحه الحسن بن قَحْطبة يوم الاثنين». . وكان الحسن مع أخيه حميد بن قحطبة. قال ابن النطاح: «وأرسل أبو سَلَمة إلى حُميد بن قحطبة أن يدخل الكوفة بأحسن هيئة، وأن يُظهروا زينتهم ويُشهروا سلاحهم وإعلامهم وقوّتهم، ففعل، وعبأ الجند، ووجّههم كراديس حتى توفوا بنهر بني سُليم. وأرسل أبو سلمة إلى محمد بن خالد فيما يأمره به ـ (أي فيما أمر به حُميد بن قحطبة، فأرسل محمد بن خالد بذلك إلى حُميد) ـ وبعث حُميد إلى أبي سَلَمَة جماعة من القوّاد فيهم مقاتل بن حكيم العكي في ألف رجل وخازم في ألف رجل، وبسّام في ألف رجل، وأبو شراحيل في ألف رجل» وقال: «وجّه الحسن بن قَحْطبة في ثلاثين قائداً». ـ بحيث كما جاء في تاريخ الطبري ـ (أقبل الحسن بن قَحْطبة صباح الاثنين، فخرج محمد بن خالد في أحد عشر رجلاً ـ يستقبله ـ فدخل مع الحسن، فأتوا أبا سَلمة حَفْص بن سليمان بن الخلال وهو في منزله، فخرج إليهم، فقدّموا له دابة من دواب قَحْطبة فَرَكبه). وقال ابن النطاح: «أتوا أبا سَلَمة وهو في داره ببرذون سمنّد، يُقوّمُ باثني عشر ألف درهم، مُسرّجاً مُلجماً، فَقُدِّم إليه فركبه، ومضى إلى العسكر، وتقدّم وجوه من معهم» ـ أي تقدّم موكبه وجوه من ساروا إليه، أمثال: محمد بن خالد، والحسن بن قَحْطبة، ومقاتل العكي، فسار معهم إلى معسكر حُميد بن قحطبة ـ «فانتهى إلى العسكر، وقد وقف له الناس، واستقبله القواد، وانقاد القوم له وسمعوا منه وأطاعوا أمره». قال الطبري: «وقف أبو سلمة في جبانة السبيع بالكوفة وبايع أهل خُراسان ـ الذين مع ابن قَحْطبة ـ فمكث أبو سلمة يُقال له وزير آل محمد، واستعمل محمد بن خالد القسري على الكوفة فكان يُقال له الأمير حتى ظهور أبي العباس». (ص١٢١ جـ٩).

فتولى الوزير أبو سلمة والأمير محمد بن خالد إدارة الأمور بالكوفة والعراق، فكان أبو سَلَمة أول من وقع عليه لقب (الوزير) في العصر العباسي ومحمد بن خالد القسري أول من وقع عليه لقب (الأمير) وأول أمير لولاية الكوفة في العصر العباسي. وقد بدأت ولاية محمد بن خالد منذ ثورته وسيطرته على الكوفة ـ في ٦ محرم ١٣٢هـ ـ واتخذت ولايته طابعاً رسمياً بتولية الوزير أبي سلمة إياه على الكوفة نيابة عن الخليفة العباسي ـ يوم الاثنين ١٣ محرم ١٣٢هـ. وكان الخليفة العباسي مُسْتتراً لا يعرف من هو إلا نفر قليل منهم أبو سلمة ومحمد بن خالد ونقباء الدعوة، وقد حرص محمد بن خالد وأبو سلمة على كتمان اسمه حيث كما ذكر ابن النطاح عن خطبة محمد بن خالد بالكوفة يوم الجمعة ١٠ محرم «قال محمد بن خالد يومئذ وهو يدعو على المنبر: اللهم أصلح الإمام من آل محمد. ولم يُسمّه». وكذلك «دعا محمد بن خالد الناس إلى البيعة، وأخذ منهم البيعة للرضا من آل محمد، ولم يُسمّه». وكان ذلك حرصاً على عدم وقوع أي اختلاف إذا تم إعلان اسم الخليفة

وهو أبو العباس السفاح عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس، فكان محمد بن خالد يقال له الأمير حتى ظهور أبي العباس ومبايعته علناً بالكوفة في ١٣ ربيع الثاني ١٣٢هـ، وكان الوزير أبو سلمة والأمير محمد بن خالد هما اللذان يُديران الأمور بالكوفة والعراق حتى ظهور مبايعة أبي العباس السفاح. وكان من معالم تلك الفترة وعهد ولاية محمد بن خالد القسري للكوفة ما يلي:

أ ـ جاء في كتاب أخبار الدولة العباسية أنه «بعث أبو سلمة إلى محمد بن خالد: أن ابعث إلى بيت المال والخزائن والطراز منْ يختم على مَا فيها. وسَمَّى لها يونس بن أبي إسحاق السبيعي ـ الهمداني ـ والحجاج بن أرطأة النخعي ـ المذحجي ـ وبِشْر بن الفرافصة العبدي والهلقام بن عبد اللّه. فبعثهم محمد بن خالد فختموا على بيت المال والخزائن والطراز، ما كان بالكوفة و الحيرة». (ص٣٧٣) وكذلك «وَلّى يوسف بن ثابت ديوان الخراج، وولى الصوافي والقطائع والخزائن عبد السلام بن عبد الرحمن بن نعيم الغامدي الأزدي. وبعث إلى بيوت المال والخزائن فَحُمِل ما فيها إلى العسكر» (ص٣٧٧) ـ أو إلى بيت المال الرئيس بالكوفة، ثم تم الصرف منه على العسكر، وكان رزق الجنود ـ أي مرتباتهم ـ في العهد المرواني ثلاثمائة درهم في السنة، فرفع أبو سلمة ومحمد بن خالد الرزق إلى ثمانين درهم للرجل شهرياً، وأجرى للقادة ما بين مائة إلى ألف درهم، ولكبراء القوّاد وأهل الغناء من النقباء وغيرهم ما بين ألف إلى ألفين درهم. وتم إعطاء الجند والقادة أرزاقهم على ذلك الرسم من بيت المال بالكوفة، وتم فرض مثل ذلك للذين ينْضَمُون من الجند والقادة والناس، فارتفع عدد الجُند في ديوان الجُند إلى زهاء مائة ألف من الفرسان والجنود بالكوفة والمناطق التابعة لها في عهد ولاية محمد بن خالد للكوفة.

ب ـ بعث أبو سلمة بالتشاور مع الأمير محمد بن خالد العمال والقادة والجنود إلى المدن والمناطق، فبعث الحسن بن قَحْطبة في جماعة من القوّاد لحصار ابن هبيرة والذين معه في واسط. قال ابن النطاح: «فأناخ الحسن على واسط من الناحية الغربية. ووجّه الفضل بن حُميد المرادي إلى فم النيل مسلحة بها فيما بينه وبين الحسن. ووجّه (أبو سلمة ومحمد بن خالد) حُمَيْد بن قحطبة من الكوفة إلى المدائن في عشرة من القوّاد، فنفذ حُميد إلى المدائن، وأنفذ مالك بن طرّاف في خمسة آلاف رجل إلى هَيت، فكان يكتب إلى حُميد بأخبار الجزيرة وما يأتيه عن مروان. وأتاه عدّة من وجوه كلب بطاعتهم فأنفذهم حُميد إلى أبي سلمة بالكوفة، فكانوا أول مَنْ سود مِن أهل الشام». قال الطبري: «وكتب أبو سلمة إلى سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بعهده على البصرة وأمره أن يظهر بها دعوة بني العباس. وحشد مع سفيان جميع اليمانية وحلفاءهم من ربيعة بالبصرة». وقال ابن النطاح: «خرج سفيان بن معاوية

ورَوْح بن حاتم المهلبيان بالبصرة، ومتولي البصرة يومئذ سَلْم بن قتيبة ـ نائب ابن هبيرة ـ. فخرج إليهما سلم، وقد اجتمع إليهما جمعٌ، وسلم في قوة ـ (وهُمْ المضرية وجند البصرة) ـ فَهُزم سفيان ورَوْح، وخرج رَوْح إلى دست ميسان (وهي ناحية الأبله) مُظهراً السواد. .» ـ وأتى خبر ذلك إلى الكوفة ـ قال الطبري: «. . وخرج أبو سلمة فعكسر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة، وأقام محمد بن خالد بالكوفة. ووجّه أبو سلمة إلى البصرة أبو مالك عبد اللّه بن أسيد الخزاعي» وكذلك «وجّه بسام بن إبراهيم إلى الأهواز وبها عبد الواحد بن عمر بن هبيرة، فحاربه، فانهزم عبد الواحد فلحق بسام بن قتيبة بالبصرة». قال ابن النطاح: «ولم يزل رَوْح بن حاتم بدست ميسان حتى قَدِم مالك الخزاعي إلى البصرة فأتاه هو وسفيان فأكرمهما وعظمهما». بينما هرب سلم بن قتيبة في جماعة معه ولحق بابن هبيرة في واسط. قال الطبري: (وتولى البصرة أبو مالك الخزاعي فلما قام أبو العباس ولاها سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب). وكذلك وجّه أبو سلمة ومحمد بن خالد ـ في صفر ١٣٢هـ ـ العمال والقادة إلى بقية مناطق العراق وإلى أقاليم فارس التابعة لولاية البصرة. قال ابن النطاح: «ووجّه أبو سلمة المسيّب بن زهير إلى السوس وجُنْديسابور، وبها ربعي بن الأعور. وبعث أبو سلمة إلى فارس عُمالاً مِن قِبله. . ووجَّه عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب إلى عين التمر» ـ وجاء في أنساب الأشراف أنه «وجّه يزيد بن حاتم المهلبي في أربعمائة إلى عين التمر» ـ وهي منطقة من العراق تابعة لولاية الكوفة، فشملت سلطة الخلافة العباسية العراق وفارس والبحرين.

جـ ـ وفي صفر أو ربيع الأول ١٣٢هـ قَدِم أبو العباس السفاح إلى الكوفة سراً مع أهل بيته، وكان محمد بن خالد هو أمير الكوفة ومعه الوزير أبو سلمة. قال الطبري: «وكان أبو سَلَمة قد أنزل أبا العباس حين قَدِم الكوفة مع من قَدِم معه من أهل بيته في دار الوليد بن سعد في بني أود ـ المذحجيين ـ، فكان أبو سلمة إذا سُئل عن الإمام يقول: لا تعجلوا. فلم يزل ذلك من أمره» (اهـ) ـ فكان أبو العباس مستتراً في دار الوليد بن سعد، ومحمد بن خالد القسري في دار الإمارة بالكوفة ثم (ركب أبو العباس ومن معه من أهل بيته ودخلوا قصر الإمارة وبويع لأبي العباس، وذلك ليلة الجمعة ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ).

وانضم محمد بن خالد إلى القادة الذين يحاصرون ابن هبيرة والذين معه في واسط وكان مع ابن هبيرة قوة من يمانية الشام، ووجّه أبو العباس أخاه أبا جعفر المنصور لقيادة الحصار حيث كما ذكر د. فاروق عمر في كتابه عن التاريخ الإسلامي: «كان سقوط الكوفة والموصل والبصرة ودمشق نتيجة مساعدة القبائل العربية التي انضمت إلى جانب العباسيين. ففي حصار واسط من قِبَل العباسيين

أغراهم أبو جعفر المنصور بالتخلي عن يزيد بن هبيرة وإلى واسط قائلاً: السلطان سلطانكم والدولة دولتكم. بمعنى أن الحكم العباسي الجديد هو حكم العرب اليمانية والدولة دولتهم. وفي حصار دمشق استغاث عبد اللّه بن علي العباسي بالقبائل اليمانية لتتخلى عن الأمويين وقال: إنكم وإخواتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا. وأنتم دفعتم لنا مدينة دمشق وقتلتم الوليد بن معاوية، وأنتم منّا وبكم قوام أمرنا». (ص٧٦ ـ التاريخ الإسلامي).

وبينما كان محمد بن خالد في حصار واسط كان عمه إسماعيل بن عبد اللّه القسري يشهد انضواء دمشق والشام في الخلافة العباسية حيث تقهقر وأجفل الخليفة مروان بن محمد إلى مصر في ذي القعدة ١٣٢هـ. قال المسعودي في مروج الذهب: «وسار صالح بن علي ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي وعامر بن إسماعيل المذحجي فلحقوا مروان بمصر» ـ ثم قاد عامر بن إسماعيل المذحجي المعركة الأخيرة مع مروان في بوصير بصعيد مصر فسقط مروان صريعاً بسيف عامر بن إسماعيل وذلك لثلاث بقين من ذي الحجة ١٣٢هـ. وتولى مصر أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي، وكان إسماعيل بن عبد اللّه القسري أول من أتى بنبأ مقتل مروان إلى الكوفة وواسط حيث كان ابن هبيرة وفلول جيشه ما يزال متحصناً بواسط وقد طال عليهم الحصار. قال الطبري: «فلما طال ذلك على ابن هبيرة والذين معه طلبوا الصُلح، ولم يطلبوه حتى جاءهم خبر قتل مروان أتاهم به إسماعيل بن عبد اللّه القسري وقال لهم: علامَ تقتلون أنفسكم وقد قُتِل مروان». (ص١٤٤ جـ٩).

وبمقتل مروان استتب أمر الخلافة لأبي العباس السفاح حتى وفاته في ذي الحجة ١٣٦هـ وتولى الخلافة أبو جعفر المنصور الذي قال لليمنيين (السلطان سلطانكم والدولة دولتكم)، وبالفعل فقد كان محمد بن الأشعث الخزاعي والي فارس (١٣٢ ـ ١٣٨هـ) وكان منصور بن جمهور الكلبي والي السند (١٣٢ ـ ١٣٤هـ) وكان سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب والي البصرة (سنة ١٣٢ ثم ١٣٩ ـ ١٤٥هـ) وكان أبو عون عبد الملك الأزدي والي مصر (١٣٢ ـ ١٣٦هـ) وكان الحسن بن قَحْطبة الطائي والي أرمينية (١٣٦ ـ ١٥١هـ) وحُميد بن قحطبة والي الجزيرة الفراتية (١٣٧ ـ ١٤٠هـ) وعلي بن الربيع الحارثي والي اليمن (١٣٤ ـ ١٣٨هـ) وعبد اللّه بن الربيع الحارثي والي اليمن (١٣٨ ـ ١٤٢هـ) وزياد بن عبيد اللّه الحارثي والي المدينة المنورة والحجاز (١٣٢ ـ ١٤١هـ) ثم ولي أبو جعفر المنصور على المدينة المنورة والحجاز محمد بن خالد القسري ومكث محمد بن خالد والياً لمدينة رسول اللّه ﷺ من سنة ١٤١ ـ ١٤٤هـ وكان أبو جعفر المنصور يُسميه «سيّد اليمن» ومات بعد سنة ١٤٦هـ وهو آخر العظماء من آل القسري.

واللّه الموفق

فهرس المحتويات

عَرْفَجَةُ بن هَرْثَمةُ البارقي
ـ مؤسس وأمير المَوْصِلْ ـ

جَيْفَر بن جُلَنْدَى الأزدي
ـ ملكُ عُمان في عهد الرسول ـ

الْمُهَلَّبُ بن أبي صُفْرَةْ
ـ أمير الشرق وخُراسان ـ

عبد الرحمٰن بن الأشعث

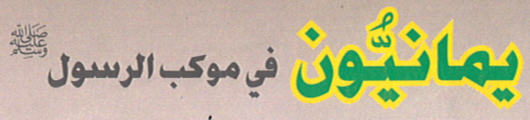
ـ ناصر المؤمنين ـ

يَزِيْد بن المُهَلَّب . . أمير العراقين

ـ ثاني الخلفاء اليمنيين الثوار ـ

الحَكَمْ بن عوانة الكلبي..
أمير السند وباني مدينتي المحفوظة والمنصورة بباكستان

خالد بن عبد اللّه الْقَسْري..
أمير المشرقين وأسد بن عبد اللّه.. آخر عظماء الفاتحين



عظماء الصحابة والفاتحين اليمانيين في فجر الإسلام

هذا الكتاب

ثمَّة نورٌ سيضيء طويلاً في حنايا روح القارئ وعقله وقلبه بعد أن ينتهي من قراءة هذا الكتاب. وقليلةٌ هي الكتب التي تفعل ذلك في هذا الزمان. كتابٌ لا يغادر القارئ بسهولة. ربما لأنه كُتب بإخلاصٍ وعناء، وحبٍ وحماس.

كتابٌ يعلِّمُ ويضيء. يعلِّم البطولة، ويضيء صفحات بعضُها مطمورٌ، وأدوارا جُلّها مغمورٌ، ربما لأنها تناثرت بين الكتب، وتباعدت بين المراجع، لأبطال أشعلوا أعمارهم ضوءاً في ليل العالم، وبهيم ظلامه، وزرعوا حبّات قلوبهم وعداً في فلوات اليأس، ونثروا براعم دمهم عهداً في جنبات اليباب، بالتغيير، والإنتصار للإيمان، والإنسان والعدل، والحرية... يقود موكبهم بطل الأبطال، النبيُّ العربي، رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم.

أبطالٌ يمانيُّون، أفاقت الدنيا على صهيل جيادهم، وضوء وجوههم، وبرق سيوفهم، وشقشق وهجُ عزائمهم أصقاعَ العالم القديم وبدّدت أنداءُ تكبيرهم وحشةَ الفجاج، وغربةَ الوهاد، وتهلّلت لأفياء تهليلهم آمالٌ وقلوب، وبلدانٌ وشعوب... وتغيّر العالم بعدها، ولم يعد كما كان.

خالد عبد الله الرويشان

وزير الثقافة والسياحة



الجمهورية اليمنية

وزارة الثقافة والسياحة

صنعاء - ص.ب.: (٣٦)-(٢٣٧) - هاتف: ٢٣٥١١٤ - فاكس: ٢٣٥١١٣

بريد الكتروني moc@y.net.ye